بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١)

بين يدي سورة البقرة وتفسير الآية الأولى منها

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

تفسير سورة البقرة.

"في مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان))[1] وقال الترمذي: حسن صحيح."

فقوله هنا: ((البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة)) قد يفهم من هذا القدر -مع البناء للمجهول- أن ذلك يحصل بمجرد القراءة، سواء كان عن طريق إنسان يقرأ في بيته أو عن طريق التسجيل فإن الشيطان يفر من هذا البيت، ولا شك أن القراءة تعبد الله -عز وجل- الناس بها، فالأكمل والأفضل أن يقرأ الناس في بيوتهم سورة البقرة، ولكن إذا حصل ذلك بالتسجيل أيضاً فيقال: لا يمنع؛ فكثير من الناس خاصة الذين يعانون من أشياء في بيوتهم يقولون: قد لا نتفرغ كل يوم لقراءة سورة البقرة، فإذا وضع التسجيل فإنه يكون مؤثراً في طرد الشيطان، وأثر ذلك مشاهد.

قبل أيام اتصلت إحدى النساء تقول: يوجد في بيتهم فأر كبير، يخرج من دورة المياه ويجلس تحت سرير النوم، تقول: فوضعنا له السم فأكل منه ثم اختفى ولم نجد له أثراً، تقول: وهذه الساعة تغطت جدران غرفة النوم بذباب كثير كبير الحجم على قدر رءوس الأصابع ما رأيت مثله، ولا يوجد له مدخل أصلاً، ولا يوجد من قبل ذباب في بيتنا أصلاً لا صغير ولا كبير، ولسنا في مكان زريبة أو نحو ذلك.

فقلت لها: اجلسي الآن في نفس الغرفة، وافتحي النوافذ واقرئي سورة البقرة، فاتصلت عند العصر تقول: إن الذباب خرج بعد ما انتهيت من السورة.

ولا زلت أذكر شخصاً كان مغمى عليه أو شبه مغمي عليه حيث كان فيه مسّ، وكان يشغَّل شريطاً يقرأ سورة البقرة وكان هذا الشخص يبكي وهو نائم، ويتكلم بكلام مفاده أنه يرى الشيطان الذي يؤذيه ويصرعه، كان يراه يدور على البيت يحاول الدخول ولا يستطيع، وهو يقول لأصحابه: لا تغادروا المكان.

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد (٧٨٠) (ج ١ / ص ٥٣٩)، والترمذي في كتاب فضائل القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي (٢٨٧٧) (ج ٥ / ص ١٥٧)، وأحمد (٩٠٣٠) (ج ٢ /ص ٣٨٨)، وصححه الألباني في تلخيص أحكام الجنائز (ج١ / ص ٨٦).

لقد كان الشيطان يحاول أن يدخل ويدور على السور، وكان الرجل يتكلم ويبكي وهو نائم ويحاول مد يده يريد أن يمسك يد أحدهم، وكان يقول: لا تذهبوا عني انتظروني، وكان يسميهم بأسمائهم كل ذلك وهو مغيب عن عقله.

هذا شيء رأيته، وعلى كل حال عندنا الحديث، والحمد لله، ما يحتاج أن نرى شواهد تدل عليه.

"عن عبد الله يعني ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: "إن الشيطان يفر من البيت يسمع فيه سورة البقرة"[٢] ورواه النسائي في اليوم والليلة وأخرجه الحاكم في مستدركه، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه."

على كل حال مثل هذا لا يقال من جهة الرأي فله حكم الرفع، فهذه الأحاديث كلها في هذا المعنى وغير هذه الأحاديث.

بعض هذه الأحاديث مثل أثر ابن مسعود هذا فيه ضعف، وعدد من الأحاديث الواردة في هذا الباب فيها ضعف، لكن بعضها ينجبر بالشواهد فترتقي إلى مرتبة الحسن، وبعضها ربما يكون دون ذلك، والله أعلم.

"وروى الدارمي في مسنده عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: "ما من بيت تقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط"[٣]."

وهذا أيضاً من الروايات التي فيها ضعف، لكن بعض أهل العلم يجعل هذا مع غيره من قبيل الحسن، يعني أنه يتقوى بغيره، ولذلك خرجوه في هذا الكتاب.

وعلى كل حال يبقى أن أساس المعنى أو القدر الثابت هو أن الشيطان لا يمكن أن يبقى في بيتٍ تقرأ فيه سورة البقرة.

"وروي أيضاً من طريق الشعبي قال: قال عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: "من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة، أربع من أولها وآية الكرسي وآيتان بعدها وثلاث آيات من آخرها"[٤]، وفي رواية: "لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه، ولا يُقرأن على مجنون إلا أفاق"[٥].

وعن سهل بن سعد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة، وإن من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام))[٦] رواه أبو القاسم الطبراني وأبو حاتم وابن حبان في صحيحه، وابن مردويه."

---

[2] - سنن النسائي الكبرى - كتاب عمل اليوم والليلة (١٠٨٠٠) (ج ٦ /ص ٢٤٠)، وصحيح الترغيب والترهيب (ج ٢/ ص ٨٦).

[3] - سنن الدارمي (٣٣٧٥) (ج ٢ / ص٥٣٩)، قال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف فطر متأخر السماع من أبي إسحاق السبيعي.

[4] - سنن الدارمي (٣٣٨٢) (ج ٢ / ص ٥٤١)، والطبراني في الكبير (٨٦٧٣) (ج ٩ / ص ١٣٧)، وقال حسين سليم أسد: رجاله ثقات غير أنه منقطع الشعبي لم يسمع من ابن مسعود.

[5] - سنن الدارمي (٣٣٨٣) (ج ٢ / ص ٥٤١)، وقال حسين سليم أسد: إسناده منقطع كسابقه.

[6] - أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧٨٠) (ج ٣ / ص ٥٩)، والطبراني في الكبير (٥٨٦٤) (ج ٦ / ص ١٦٣) وأبو يعلى في مسنده (٧٥٥٤) (ج ١٣ / ص ٤٦٥)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (ج٢ / ص ٨٧): حسن لغيره.

وهذا الحديث أيضاً فيه ضعف في الإسناد، ولكن الجملة الأولى: ((إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة)) ورد فيه أيضاً روايات أخرى ضعيفة عن ابن مسعود وعن ثلاثة من الصحابة أو أربعة، وكلها لا يخلو من ضعف، ولكن بعض أهل العلم يري أن هذه الجملة تتقوى بغيرها من الروايات، وهذه الروايات الضعيفة يقوي بعضها بعضاً، فيرون أن هذه الجملة: ((إن لكل شيء سناماً وإن سنام القرآن البقرة)) ترتقي إلى مرتبة الحسن.

"وقد روى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: "بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعثاً وهم ذوو عدد، فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم من أحدثهم سناً فقال: ((ما معك يا فلان؟)) قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، قال: ((أمعك سورة البقرة؟)) فقال: نعم، قال: ((فاذهب فأنت أميرهم)) فقال رجل من أشرافهم: والله يا رسول الله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تعلموا القرآن فاقرءوه وأقرئوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكاً يفوح بريحه كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب وكئ على مسك))[7] هذا لفظ رواية الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن، ثم رواه مرسلاً فالله أعلم."

معنى: **((جراب وكئ على مسك))** يعني رُبط فلا تظهر رائحته.

وعلى كل حال حتى هذه الرواية من الروايات التي يمكن أن يقال عنها: إنها لا تخلو من ضعف في أقل الأحوال، وبعض أهل العلم يحسنها، وهذا ما فعله هؤلاء المختصرون.

"وروى البخاري عن أسيد بن حضير -رضي الله تعالى عنه- قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكنت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت فسكنت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((اقرأ يا ابن حضير اقرأ يا ابن حضير))، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً فرفعت رأسي وانصرفت إليه فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها، قال: ((وتدري ما ذاك؟))، قال: لا، قال: ((تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم))[8]، وهكذا رواه الإمام العالم أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن، والله أعلم.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم حدثنا بشر بن مهاجر حدثني عبد الله بن بريدة عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- قال: كنت جالساً عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فسمعته يقول: ((تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))، قال: ثم سكت ساعة ثم قال: ((تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما

---

7 – أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن – باب: ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي (٢٨٧٦) (ج ٥ / ص ١٥٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي برقم: (٥٤١).

8 – أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن – باب: باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن (٤٧٣٠) (ج ٤ / ص ١٩١٦) والطبراني في الأوسط (١٨٠) (ج ١ / ص ٦٤).

أعرفك، فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بما كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ هذّاً كان أو ترتيلاً))[٩].

وروى ابن ماجه من حديث بشر بن المهاجر بعضه، وهذا إسناد حسن على شرط مسلم."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الحديث في فضل سورة البقرة، أما أوله وهو أن سورة البقرة كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: **((فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))** فإن هذا له شواهد، وهو ثابت عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وإن كان هذا الحديث من رواية بشر بن المهاجر.

وأما بقية الحديث وذلك من قوله بعد ذلك: **((وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب))** فإن لبعضه شواهد، ولكن ما قبله له شواهد صحيحة ثابتة من أول الحديث إلى هذا القدر، كما سيأتي فيما ذكره ابن كثير –رحمه الله– لذلك فإن بعض أهل العلم يصحح أول هذا الحديث ((إن أخذها بركة))، وكذلك ما جاء من قوله: ((تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان..)) إلى آخره، وأما بقية الحديث فبعض الجمل التي لها شاهد يمكن أن تكون من قبيل الحسن لتلك الشواهد.

على كل حال الإشكال في بشر بن المهاجر، ومن ضعَّف روايته رد بقية الحديث، والحاصل أن بشر بن المهاجر فيه كلامٌ كثير، بعضهم يضعفه، وبعضهم يبالغ في هذا، وبعضهم يجعل روايته من قبيل المقبول أو يوثقه، وصنيع المختصر هنا يدل دلالة أكيدة على أنه يحسن الحديث في أقل الأحوال.

قوله: **((فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))**: البطلة يعني السحرة.

ومعنى ((لا تستطيعها البطلة)) يعني: أي لا يمكنهم حفظها، أو أن من تحصن بها فإن السحرة لا يقدرون على إيصال سحرهم إليه.

وقوله: **((تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان))** المقصود بالأزهر المضيء، يقال: سراج يزهر أي يضيء.

قوله: **((يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان))** وفي بعض الألفاظ: **((غيابتان))** بالباء، الغمام معروف وهو السحاب، و الغيايتان: كل شيء أظلك فهو غياية سواء كان من سحاب أو غبار أو غير ذلك، والغيابتان بـــ الباء: هو أيضاً من هذا المعنى.

((أو فرقان من طير صواف)) أي تصف أجنحتها، وذلك أبلغ في التضليل.

"فمن ذلك حديث أبي أمامة الباهلي –رضي الله تعالى عنه– رواه الإمام أحمد.

---

[9] – أخرج الشطر الأول منه الإمام أحمد (٢٣٠٩٩) (ج ٥ / ص ٣٦١)، وأخرجه بتمامه بألفاظ مقاربة الطبراني في الكبير (٧٥٤٢) (ج ٨ / ص ١١٨)، وذكره الحاكم في المستدرك (٢٠٥٧) (ج ١ / ص ٧٤٧) وأصله في صحيح مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها– باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤) (ج ١ / ص ٥٥٣).

وعنه قال سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: **((اقرءوا القرآن فإنه شافع لأهله يوم القيامة، اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلهما يوم القيامة، ثم قال: اقرءوا البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))**[١٠] وقد رواه مسلم في الصلاة.

الزهراوان: المنيرتان، والغياية: ما أظلك من فوقك، والفرق: القطعة من الشيء، والصوافُّ: المصطفة المتضامة، والبطلة: السحرة، ومعنى لا تستطيعها أي لا يمكنهم حفظها، وقيل: لا تستطيع النفوذ في قارئها، والله أعلم.

ومن ذلك حديث النواس بن سمعان -رضي الله تعالى عنه- رواه الإمام أحمد عنه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران))، وضرب لهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: ((كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق، أو كأنهما فرقان من طير صوافّ يحاجان عن صاحبهما))[١١] **ورواه مسلم والترمذي وقال حسن غريب."**

معنى **((بينهما شرق))**: يعني بينهما فاصل.

وهذا الحديث يفسر الحديث الذي قبله، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في الذي قبله: **((فإنهما يأتيان يوم القيامة..))** إلى أن قال: **((يحاجان عن أهلهما))**: فما المراد بـــ أهلهما هل هو مجرد الحفظ إن كان حافظاً لهما؟

لا، بل إن المقصود يفسره قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به))، فأصحاب البقرة وآل عمران هم الذين يحفظونهما ويفهمون معانيهما ويعملون بهما، ولهذا بقي ابن عمر -رضي الله عنه- ثمان سنين يحفظ سورة البقرة، وبقي عمر -رضي الله عنه- اثنتي عشرة سنة يحفظها، ثم نحر جزوراً ودعا الناس فرحاً واستبشاراً بهذا الإنجاز.

ولذلك كان الرجل إذا أخذ البقرة عظم في أعينهم؛ لأنه صار فقيهاً؛ لأنها تشتمل على أكثر الأحكام، فهي أكثر سور القرآن اشتمالاً على الأحكام وأطول سور القرآن، فمن عرف هذه الأحكام التي في سورة البقرة، فإنه يمر به كثيرٌ مما يذكر في التفسير بعدها، فتكون بقية الأمور التي تذكر في الغالب مكررة، أعني مما يحتاج إليه في فهم التفسير من جهة الأصول، والقواعد وما أشبه ذلك.

وعلى كل حال هنا سؤال يرد في مثل هذه الأحاديث وهو أن هاتين السورتين تأتيان كأنهما ظلتان أو غيايتان، ومعلوم أن القرآن كلام الله -عز وجل- وهو صفة من صفاته، فما المراد بذلك؟

المراد بذلك الثواب أي: ثواب القرآن أو قل: ثواب وأجر قراءة سورة البقرة وآل عمران وأجر العمل والتدبر لهما، والله أعلم، وهذا الذي ذكره جماعة من أهل العلم كالإمام أحمد والبغوي، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية

---

10 - صحيح مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤) (ج ١ / ص ٥٥٣).

11 - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٥) (ج ١ / ص ٥٥٤)، والترمذي في كتاب: فضائل القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب: ما جاء في سورة آل عمران (٢٨٨٣) (ج ٥ / ص ١٦٠).

-رحمه الله- في المجلد الخامس من الفتاوى في صفحة ثلاثمائة وسبعة وتسعين تقريباً، وكذلك ابن القيم في مختصر الصواعق صفحة أربعمائة تقريباً من الجزء الثاني في المختصر، وكذلك ذكره الترمذي قبلهم، ذكره في السنن.

كذلك الأحاديث الأخرى مثل قوله -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيحين-: ((مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة))، جاء في لفظ البخاري: ((المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة))[١٢]، فلا بد من العمل بالقرآن أي أن مجرد القراءة لا تكفي.

وكذلك الحديث الآخر: ((الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة)) جاء في بعض الروايات الثابتة في الصحيح: ((مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن وهو يحفظه مع السفرة الكرام البررة))[١٣] يعني مع الملائكة، والسفرة أي: سفراء بين الله وخلقه، فيكون بهذه المنزلة إذا كان يحفظ وليس مجرد أن يقرأ مجرد قراءة، وقوله: ((والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران))[١٤] يعني يتتعتع في الحفظ، أي أن حفظه فيه ضعف.

وأما بالنسبة لحديث: ((يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله))[١٥] فهي مسألة أخرى إذ يحتمل أن يكون على ظاهره، والمقصود به الأحفظ؛ لأنه قال بعده: ((أعلمهم بالسنة))؛ لأن الفقه يكون بالعلم بالسنة مع القرآن فلا يكون فقيهاً ما لم يعلم بالسنة، فظاهر هذا يدل على أن المقصود الحفظ.

ويحتمل معنىً آخر وهو أن يكون في ذلك الحين أقرأهم أي يكون فقيهاً، كما سبق في ذكر ابن عمر أنه حفظ سورة البقرة في ثمان سنين، ولذلك إذا قيل: القراء في ذلك الوقت -كأن يقال: قتل سبعون من القراء في بئر معونة- فهؤلاء علماء وليسوا مجرد حفاظ أو كثيري القراءة فقط، فهم ما كانوا مثلنا الآن، تجد الواحد يحفظ ولا يفهم شيئاً مما يحفظ، فقول القائل: دخل القراء على عمر -وكان القراء هم أهل مجلسه- المقصود بهم العلماء، وكذلك ما ورد من بعض الآثار بأن أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها فإن المقصود به أهل العلم وطلاب العلم.

"والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف، وهي من أوائل ما نزل بها، لكن قوله تعالى فيه: {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ} [(٢٨١) سورة البقرة] الآية، يقال: إنها آخر ما نزل من القرآن."

سورة البقرة لا شك أنها سورة مدنية، وهذا نقل عليه الإجماع غير واحد، وهي أول سورة نزلت في المدينة، لكنها لم تنزل جملةً.

---

12 – أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن – باب: إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به (٤٧٧٢) (ج ٤/ ص ١٩٢٨)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها– باب: فضيلة حافظ القرآن (٧٩٧) (ج ١ / ص ٥٤٩) واللفظ للبخاري.

13 – أخرجه البخاري في كتاب: التفسير – باب: تفسير سورة عبس (٤٦٥٣) (ج ٤ / ص ١٨٨٢)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها – باب: فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه (٧٩٨) (ج ١ / ص٥٤٩) واللفظ للبخاري.

14 – أخرجه البخاري في كتاب: التفسير – باب: تفسير سورة عبس (٤٦٥٣) (ج ٤ / ص ١٨٨٢)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها – باب: فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه (٧٩٨) (ج ١ / ص٥٤٩) واللفظ لمسلم.

15 – أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة – باب: من أحق بالإمامة (٦٧٣) (ج ١ / ص ٤٦٥).

وهنا ابن كثير يشير إلى أن بعضها قد تأخر نزوله فهي نزلت مفرقةً، ولذلك فإن آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق على الراجح أنها الآيات التي في آخر سورة البقرة -آيات الربا وقوله تعالى: **{وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ}** وآية الدين، ولذلك فمن قال: إن آخر ما نزل آية الدين فلا شك أنها في الترتيب هي آخر هذه الآيات نزولاً بالترتيب، فيصح أن يقال: إن هذا آخر ما نزل من القرآن، بمعنى أنها نزلت مجتمعة أعني هذه الآيات التي في آخر البقرة، وهذا أقوى ما قيل في آخر ما نزل مطلقاً، كل ذلك مع أن سورة البقرة هي أول سورة نزلت في المدينة، لكن آخر ما نزل من السور هي سورة براءة ولم تنزل كاملة.

وآخر ما نزل من السور مشتملة على الأحكام سورة المائدة، لهذا تجدون في بعض الروايات أن سورة المائدة هي آخر ما نزل، والمعنى في الأحكام، وسورة براءة آخر ما نزل من السور وليس جميع سورة براءة، إذ من المعلوم أن صدرها نزل عام تسع في حجة أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- وجملة كبيرة منها نزلت في مرجع النبي -صلى الله عليه وسلم- من غزوة تبوك.

"يقال: إنها آخر ما نزل من القرآن ويحتمل أن تكون منها، وكذلك آيات الربا من آخر ما نزل، وكان خالد ابن معدان يسمي البقرة فسطاط القرآن."

خالد يسمي هذه السورة بسورة الفسطاط، وسبق الكلام على هذا في الكلام على أسماء السورة، حيث ذكرنا لها نحو سبعة أسماء، وإن كان بعض هذا لا يثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث جاء حديث موضوع في تسميتها بفسطاط القرآن، لكن الصحيح أن هذا من كلام التابعين.

والفسطاط يطلق على الخيمة، ويطلق على المدينة، وعلى كل فالفسطاط هو ما يحيط بغيره، فيكون قيل لها ذلك ربما لإحاطتها بكثيرٍ من الأحكام، حيث اشتملت على أحكام لم تشتمل عليها سورة مثلها، فهي أكثر السور اشتمالاً على الأحكام، وربما يكون لعظمها وفضلها ومنزلتها وما أشبه ذلك، وعلى كل حال فسطاط القرآن تشتمل على أحكام كثيرة.

"قال بعض العلماء: وهي مشتملة على ألف خبر، وألف أمر، وألف نهي، وقال العادُّون: آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات، وكلماتها ستة آلاف كلمة ومائتان وإحدى وعشرون كلمة، وحروفها خمسة وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف، فالله أعلم."

وهذا أيضاً سبق الكلام عليه وذكر الخلاف في عدد كلماتها، وفي عدد حروفها، وذكرنا سبب هذا الخلاف، وأشرت إليه في أول هذه الدروس، فعلى كل حال الأمر في هذا سهل إذا عُرف وجهه؛ لأن ذلك إنما يكون بسبب ما ذكرت من الأمور التي توجب هذا التفاوت، سواء في عد الآيات أو في عد السور، وأن مرجع ذلك إلى القراءة في بعض نواحيه، ومنه ما يرجع إلى طريقة العد، هل يعد الحرف المرسوم وإن لم ينطق به، وهل يعد الحرف المشدد حرفاً واحداً أو حرفين، وكذلك ما ينطق به ولا يكتب من الحروف في الرسم هل يعد أو ما يعد؟

"قال ابن جريح عن عطاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: نزلت بالمدينة سورة البقرة، وقال خصيف عن مجاهد عن عبد الله بن الزبير -رضي الله تعالى عنهما- قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة،

وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء والمفسرين ولا خلاف فيه، وروى ابن مردويه من حديث شعبة عن عقيل بن طلحة عن عتبة بن مرثد -رضي الله تعالى عنه-.

الظاهر أنه عتبة بن فرقد وليس ابن مرثد، هو هكذا في معجم الطبراني الكبير عتبة بن فرقد، صحابي سُلمي.

عن عتبة بن فرقد -رضي الله تعالى عنه-: رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- في أصحابه تأخراً فقال: ((يا أصحاب سورة البقرة))[١٦] وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدبرين."

أي نعم، كان يوم حنين، وجاء هذا في صحيح مسلم وفي غيره من حديث العباس لما أمره النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يدعوهم، وجاء أيضاً من حديث شيبة العبدري -من بني عبد الدار- في قصته المعروفة لما خرج وهو يريد أن ينتقم من النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكذلك جاء من حديث أبي سفيان بن الحارث ابن عم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكذلك أيضاً جاء عن غيره في بعض الروايات التي فيها ضعف، لكن على كل حال لا شك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما انهزموا في يوم حنين أمر العباس أن يدعوهم: ((يا أصحاب الشجرة، أو يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة))[١٧]، وأصحاب السمرة المقصود بهم أصحاب الشجرة، يعني الذين بايعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- تحت الشجرة **{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ}** [(١٨) سورة الفتح]، في صلح الحديبية، بايعوا النبي -صلى الله عليه وسلم-، فبعضهم يقول: على الموت، والمشهور والراجح أنهم بايعوه على ألا يفروا، وعلى كل حال جاء هذا في عدد من الأحاديث كما سبق، منها ما هو مرسل، ومنها ما هو غير ذلك.

"وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدبرين، أمر العباس فناداهم: ((يا أصحاب الشجرة)) يعني أهل بيعة الرضوان، وفي رواية: ((يا أصحاب سورة البقرة))؛ لينشطهم بذلك، فجعلوا يقبلون من كل وجه، وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة، جعل الصحابة يفرون لكثافة جيش بني حنيفة، فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة، حتى فتح الله عليهم -رضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين-."

يوم اليمامة كان جيش المسلمين فيه أعراب كثير، وكان هؤلاء الأعراب في أول الجيش، فلما حصلت المواجهة تضعضعوا وانهزموا، فقام خالد بن الوليد -رضي الله عنه- فجمع أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن حضر من أهل بدر، فجعلهم في مقدم الجيش، وكان شعارهم يا أصحاب سورة البقرة، هذا الشعار يوم اليمامة، فثبتوا واشتد الناس، وقتل في أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- مقتلة كبيرة، وكان ذلك سبباً في جمع القرآن لما أشار بذلك عمر -رضي الله عنه- كما في الصحيحين، فثبتوا ذلك الثبات العظيم، وفتح الله -عز وجل- عليهم.

على كل حال هذا جاء عن عروة بن الزبير -رضي الله تعالى عنه- وهو ثابت بإسناد صحيح عند عبد الرزاق وفي المصنف وابن أبي شيبة وسعيد بن منصور، يعني في يوم اليمامة.

---

16 - أخرجه الطبراني في الكبير (٣٢٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني وفيه علي بن قتيبة وهو ضعيف.

17 - أخرجه أحمد (١٧٧٥) (ج ١ / ص ٢٠٧) وابن حبان (٧٠٤٩) (ج ١٥/ ص ٥٢٣)، وصححه الألباني في المشكاة (٥٨٨٨).

"بسم الله الرحمن الرحيم: {الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ* أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [(١-٥) سورة البقرة].

{الم} الحروف المقطعة التي في أوائل السور، هي مما استأثر الله بعلمه."

على كل حال تذكرون في درس الجمعة أننا ذكرنا مسائل كثيرة تتعلق بالسورة كالكلام على موضوعها ومقصودها والقضايا التي ناقشتها، وربما حتى فواصل الآية يعني أواخر الآيات، آخر حرف أو آخر كلمة في الآية تنتهي بأي أحرف، مثل القوافي في الشعر، وقلنا: إنها تجمع بكلمتين (قم لندبر) بينما الفاتحة يجمع فواصلها حرفان هما الميم والنون، فالبقرة قم لندَّبَّر، فالعلماء منهم من يجعل ذلك لجميع سور القرآن، يعني كل سورة يذكر لها الحروف التي تنتهي فيها، ويجمعها بجملة أو بكلمة أو بكلمتين أو نحو هذا، فهذه الحروف التي تنتهي فيها الفواصل في هذه السورة مجموعة بـــ (قم لندبر).

كذلك ذكرنا أشياء أخرى منها قضايا النسخ في هذه السورة، ودعاوى النسخ فيها، وقلنا: إن الدعاوى قاربت أو بلغت ستاً وعشرين، لكن لا يثبت منها إلا القليل جداً في البقرة وفي غير البقرة.

"روي ذلك عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود -رضي الله تعالى عنهم أجمعين-."

ذكرنا أيضاً في ذلك الحين أن الحروف المقطعة فيها أقوال كثيرة، فبعضهم سرد فيها ستةً وعشرين قولاً، وبعضهم يذكر أقل من هذا، وبعضهم ربما أوصلها إلى ثلاثين، وعند الاستقراء يمكن أن ترجع إلى أقوال محصورة، وفي ذلك الحين ذكرنا أنها ترجع إلى ثلاثة أقوال، يعني منهم من يقول: إن هذه الحروف المقطعة هي عبارة عن اقتضاب لأسماء أو أوصاف، أو لكلمات أول لجمل، وإنها عبارة عن رموز، وهذا يدخل تحته ثمانية أقوال مما قيل في ذلك، يعني من يقولون: إنها اختصار لجملة أو كلمة، لو جمعت الأقوال لأكثر من عشرين قولاً ستجد أن ثمانية منها ترجع إلى أنها عبارة عن رموز وإن اختلفوا في فك أو تفسير أو بيان المراد بهذه الرموز، وعلى كل حال هذا فيه نظر.

وبعضهم يقول: إنها عبارة عن أسماء، إما اسم للنبي -صلى الله عليه وسلم- أو للقرآن أو غير ذلك، أسماء أو أوصاف، وهذا وإن اختلفوا فيه لكنه يدخل تحته نحو أربعة أقوال مما قيل في تفسير هذه الحروف.

والثالث أنها حروف هجاء أي حروف المعجم، أو قل: حروف مباني، وقد سبق أن ذكرنا الفرق بين حروف المباني وحروف المعاني، ولكن هذه الحروف هي حروف معجم ليس لها معنى في نفسها بطبيعة الحال إذا قيل: إنها حروف معجم، أي ليس لها معنى في نفسها، وهذا يرجع إليه نحو أربعة عشر قولاً.

المقصود أن هذه الحروف ترمز لشيء معين، ومن أشهر الأقوال أنها ليس لها معنى في نفسها، لكن فيها إشارة إلى قضية التحدي والإعجاز، بمعنى أن هذا القرآن مكون من هذه الحروف التي تركبون منها الكلام فأتوا بمثله.

بل إن بعض أهل العلم مثل ابن العربي قال: إن الحروف الواردة في أوائل السور -الحروف المقطعة- هي نصف الحروف الهجائية!! فهذا فيه إشارة أن القرآن ركب من نصف الحروف، فركبوا قرآناً آخر من النصف الباقي، لكن هذا القول لا يخلو من تكلف، وعلى كل حال الله تعالى أعلم.

لكنْ فيه ملحظ ذكره بعض أهل العلم مثل الشوكاني حيث نبه على قضيتين تفيد في هذا المعنى وهي أن على القول: إن لها معنى في نفسها هذا غير معهود في كلام الناس، وإن حاولوا أن يأتوا ببعض الألفاظ أو بعض الأشعار، كقول من قال: قلت لها قفي قالت قاف، لكن هذا غير متداول، فالناس حينما يخاطبون به لا يفهمون المراد.

الأمر الآخر أنها إذا كانت رموز وتحتاج إلى فك، وذكروا تحتها معاني كثيرة جداً غريبة عجيبة، فهذه الرموز هل عندهم أثارة من علم في فكها وتفسيرها بهذه الطريقة؛ لأنه لا يصل إليها الذهن بالاجتهاد، ولا يوجد شيء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- إطلاقاً في هذا، فمن أين جاءوا بها وقد اختلفوا في فك هذه الرموز؟ فالله أعلم، وعلى كل حال فلعلَّ هذا القول من أقرب هذه الأقوال.

"وقيل: هي أسماء السور، وقيل: هي فواتح افتتح الله بها القرآن."

القول الأول الذي ذكره، حيث قال: هي مما استأثر الله بعلمه، هذا قال به جماعة من الأئمة، وبناءً على ذلك يكون قد وقع في القرآن ما يعرف بالمتشابه المطلق من جهة المعنى، بمعنى أنه يوجد في القرآن أشياء لا النبي -صلى الله عليه وسلم- يعرف معناها ولا غيره من الأمة، وهذا القول مشكل، وهو وجهٌ في تفسير آية آل عمران **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}** [(٧) سورة آل عمران] على الوقف هنا، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن الوقف لا شك أنه ثابت صحَّ عن ابن عباس -رضي الله عنه- وعن غيره، والمراد بها على الوقف عند قوله: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}** حقائق الأمور الغيبية وكنهها، وما أشبه ذلك مما لا يمكن الإطلاع عليه إلا بالوحي، فليس المراد به التفسير، ولذلك يقال: لا يوجد في القرآن متشابه مطلق أبداً من جهة المعنى، وإنما يوجد فيه متشابه مطلق من جهة الكيفية، فآية آل عمران على الوقف **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}** يقال: المتشابه هنا المطلق على الوقف المراد به حقائق الأشياء وكنهها، فالله لم يخاطبنا بألغاز في القرآن، وإنما أخبرنا عن هذا القرآن بأنه تبيان لكل شيء، وأنه بلسان عربي مبين.

القراءة بالوصل: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}**، يكون المراد بالتأويل هنا التفسير، يكون المراد به التفسير بالمعنى، وهو ثابت أيضاً عن ابن عباس، وقال: "أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله"، فكل هذا صحيح، لكن على هذا القول أن الحروف المتقطعة من المتشابه من أن هذا لا يعلمه إلا الله وإنما هو مما استأثره بعلمه، فيكون معنى ذلك أنه من المتشابه المطلق، لكن من قال: لها معنى وفسره فهي بالنسبة لمن لا يعرف ذلك من المتشابه النسبي، عند من يثبت لها معنى.

"وقال خصيف عن مجاهد أنه قال: فواتح السور كلها: {ق} و{ص} و{حم} و{طسم} و{الر}، وغير ذلك هجاء موضوع."

يعني هذه الفواتح التي مثَّل لبعضها، وكذلك ما لم يمثِّل له، هي هجاء موضوع، يعني بهجاء أنها حروف هجاء (أبجد هوز)، (أ، ب، ت، ث...).

الحروف -كما سبق- تنقسم إلى قسمين: حروف معنى، وحروف مبني. وحروف المعنى هي التي يجعلها النحاة القسم الثالث مما يتركب من الكلام، فهم يقولون: الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، ويقصدون بحروف المعاني حروف الجر، فـ"إلى" تدل على الغاية، و "في" تدل على الظرفية وما أشبه ذلك.

فالنحاة يقولون في معنى الاسم: هو ما دل على معنى في نفسه ولم يقترن بزمان، والفعل هو ما دل على معنىً في نفسه واقترن بزمان والحرف يقولون: هو ما لم يدل على معنى في نفسه ولم يقترن بزمان، وإنما هي للربط والوصل، وكلامهم هذا ردَّ عليهم فيه شيخ الإسلام فقال: إن "في" تدل على الظرفية ولها معنى في نفسها... إلى آخره، مع أنهم يقصدون شيئاً آخر غير ما قصده شيخ الإسلام، والأمر في هذا سهل.

فعلى كل حال الشاهد هنا قوله: **حروف هجاء:** وحروف الهجاء –حروف المعجم– ليس لها قطعاً معنى في نفسها بالاتفاق، فـــ "الباء" حينما تكون من حروف المعاني نقول عنها: حرف جر لها دلالة، تدل على المقاربة والملاصقة، لكن حينما نقول مثلاً: "بئر" فهذه الباء ليس لها معنى في نفسها إطلاقاً، وإنما لما تركبت مع غيرها صارت تمثل كلمة، فمن يقول: إن هذه حروف تهجي فمعنى ذلك أنها ليس لها معنى في نفسها؛ لأنه لا أحد يدعي أن حروف التهجي لها معنى في نفسها، وهذا هو المراد والله أعلم.

وهذه الأقوال المنتثرة، والتي ما ذكر منها هنا إلا أقل من القليل، يمكن أن تُرَجع إلى الأقوال الثلاثة الأصلية.

"وقال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم، استغنى بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفاً."

بناءً على أن الحروف العربية تبلغ هذا العدد، وبعضهم يزيد حرفاً، فيقول: تسعة وعشرون على أن "لام ألف" حرف.

"كما يقول القائل: ابني يكتب في "أ ب ت ث" أي في حروف المعجم الثمانية والعشرين، فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها حكاه ابن جرير."

طريقة ترتيب الحروف بعضهم يجعلها: "أ ب ت ث" وبعضهم يجعلها: "أبجد هوز حطي..."إلى آخره، ولذلك كتب القواميس والمعاجم أحياناً ما تجدها على الترتيب المعروف "أ ب ت ث" فيظن ظانٌّ أنه ترك بعض الكلمات، وهو ما تركها وإنما سار فيها على الطريقة الأخرى في الترتيب.

"قلت: مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً."

هي طبعاً جاءت في تسع وعشرين سورة، وعامة هذه السور التي بُدئت بالحروف المقطعة هي من السور المكية، فالمدنية مثل البقرة وآل عمران، لكن عامة السور التي بدئت بالحروف المقطعة إنما هي من السور المكية.

يقول: **"مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً"** ومن غير حذف المكرر تبلغ ثمانية وسبعين حرفاً.

"وهي "أ ل م ص ر ك هـــ ي ع ط س ح ق ن " يجمعها قولك: "نص حكيم قاطع له سر"."

يجمعها قولك: **"نص حكيم قاطع له سر"**: ويمكن أن تجمعها جملٍ أخرى مثل: "ألم يسطع نور حق كره"، وبعضهم يركب غير هذا من الجمل من أسهلها: "طرق سمعك النصيحة".

"وهي نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك."

نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك: ما معنى أشرف من المتروك؟

الحروف تنقسم إلى حروف استعلاء وحروف استفال، فنجد أن المذكور هو الأشرف دائماً، فأشرف هذه الحروف هي المذكورة في نصف الحروف الهجائية.

"وبيان ذلك من صناعة التصريف، قال الزمخشري: وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أصناف أجناس الحروف، يعني من المهموسة والمجهورة ومن الرخوة والشديدة، ومن المطبقة والمفتوحة، ومن المستعلية والمنخفضة، ومن حروف القلقلة."

بالنسبة للقلقلة حروفها خمسة، والمذكور في أوائل السور منها أقل من النصف وليست النصف.

"وقد سردها مفصلة ثم قال: "فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته" وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها."

هناك أشياء أخرى مثل الصفير ثلاثة حروف "السين" و"الصاد" و"الزاي" المذكورة منها في الحروف المقطعة في أوائل السور هي "السين" و"الصاد"، وما ذكرها الزمخشري، وكذلك الحروف اللينة ثلاثة، المذكور منها اثنان "الألف" و"الياء".

يقول ابن كثير: **وقد سردها مفصلة:** ثم جاء بكلام الزمخشري: **فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته" وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها:** ما معنى قول الزمخشري: مكثورة بالمذكورة منها؟ أليست هذه الأحرف المذكورة كما قال هو: إنها النصف، فكيف صارت هي مكثورة؟

المقصود بذلك هو أن الأكثر تكرراً قي القرآن واستعمالاً هي الحروف المذكورة في أوائل السور، أي هي أكثر ما يتكرر في تركيب الكلام في جميع القرآن، وقد عدوا كل حرف كم مرة ورد في القرآن، فالحروف المذكورة في أوائل السور هي الأكثر استعمالاً في القرآن، وهذا هو المراد بقوله: إنها مكثورة يعني الحروف المتروكة مكثورة بالمذكورة.

"وقد علمت أن معظم الشيء وجلَّه ينزل منزلة كله."

معنى هذه العبارة أنه في حالة ما إذا أتى سائل معترض وقال: أنت تقول: إن هذه الحروف المقطعة في أوائل السور هي نصف الحروف الهجائية، والقرآن مركب من الحروف الهجائية الثمانية والعشرين، وتقول: إن الحروف المقطعة ليس لها معنى في نفسها ولكنها ترمز للتحدي من أن تأتي أحد بمثل هذا القرآن مركباً من هذه الحروف، فأين النصف الباقي من الحروف التي وردت في القرآن، فيقال: إن أغلب ما ركب منه الكلام هو النصف المذكور في أوائل السور، وما كان جلٌّ الشيء منه يمكن أن يعبر عنه بأنه الكل أو الجميع أو نحو ذلك من باب التغليب، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١)

بين يدي سورة البقرة وتفسير الآية الأولى منها

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

تفسير سورة البقرة.

"في مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان))[1] وقال الترمذي: حسن صحيح."

فقوله هنا: ((البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة)) قد يفهم من هذا القدر -مع البناء للمجهول- أن ذلك يحصل بمجرد القراءة، سواء كان عن طريق إنسان يقرأ في بيته أو عن طريق التسجيل فإن الشيطان يفر من هذا البيت، ولا شك أن القراءة تعبد الله -عز وجل- الناس بها، فالأكمل والأفضل أن يقرأ الناس في بيوتهم سورة البقرة، ولكن إذا حصل ذلك بالتسجيل أيضاً فيقال: لا يمنع؛ فكثير من الناس خاصة الذين يعانون من أشياء في بيوتهم يقولون: قد لا نتفرغ كل يوم لقراءة سورة البقرة، فإذا وضع التسجيل فإنه يكون مؤثراً في طرد الشيطان، وأثر ذلك مشاهد.

قبل أيام اتصلت إحدى النساء تقول: يوجد في بيتهم فأر كبير، يخرج من دورة المياه ويجلس تحت سرير النوم، تقول: فوضعنا له السم فأكل منه ثم اختفى ولم نجد له أثراً، تقول: وهذه الساعة تغطت جدران غرفة النوم بذباب كثير كبير الحجم على قدر رءوس الأصابع ما رأيت مثله، ولا يوجد له مدخل أصلاً، ولا يوجد من قبل ذباب في بيتنا أصلاً لا صغير ولا كبير، ولسنا في مكان زريبة أو نحو ذلك.

فقلت لها: اجلسي الآن في نفس الغرفة، وافتحي النوافذ واقرئي سورة البقرة، فاتصلت عند العصر تقول: إن الذباب خرج بعد ما انتهيت من السورة.

ولا زلت أذكر شخصاً كان مغمى عليه أو شبه مغمي عليه حيث كان فيه مسّ، وكان يشغَّل شريطاً يقرأ سورة البقرة وكان هذا الشخص يبكي وهو نائم، ويتكلم بكلام مفاده أنه يرى الشيطان الذي يؤذيه ويصرعه، كان يراه يدور على البيت يحاول الدخول ولا يستطيع، وهو يقول لأصحابه: لا تغادروا المكان.

[1] - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد (٧٨٠) (ج ١ / ص ٥٣٩)، والترمذي في كتاب فضائل القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي (٢٨٧٧) (ج ٥ / ص ١٥٧)، وأحمد (٩٠٣٠) (ج ٢ /ص ٣٨٨)، وصححه الألباني في تلخيص أحكام الجنائز (ج١ / ص ٨٦).

لقد كان الشيطان يحاول أن يدخل ويدور على السور، وكان الرجل يتكلم ويبكي وهو نائم ويحاول مد يده يريد أن يمسك يد أحدهم، وكان يقول: لا تذهبوا عني انتظروني، وكان يسميهم بأسمائهم كل ذلك وهو مغيب عن عقله.

هذا شيء رأيته، وعلى كل حال عندنا الحديث، والحمد لله، ما يحتاج أن نرى شواهد تدل عليه.

"عن عبد الله يعني ابن مسعود –رضي الله تعالى عنه– قال: "إن الشيطان يفر من البيت يسمع فيه سورة البقرة"[٢] ورواه النسائي في اليوم والليلة وأخرجه الحاكم في مستدركه، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه."

على كل حال مثل هذا لا يقال من جهة الرأي فله حكم الرفع، فهذه الأحاديث كلها في هذا المعنى وغير هذه الأحاديث.

بعض هذه الأحاديث مثل أثر ابن مسعود هذا فيه ضعف، وعدد من الأحاديث الواردة في هذا الباب فيها ضعف، لكن بعضها ينجبر بالشواهد فترتقي إلى مرتبة الحسن، وبعضها ربما يكون دون ذلك، والله أعلم.

"وروى الدارمي في مسنده عن ابن مسعود –رضي الله تعالى عنه– قال: "ما من بيت تقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط"[٣]."

وهذا أيضاً من الروايات التي فيها ضعف، لكن بعض أهل العلم يجعل هذا مع غيره من قبيل الحسن، يعني أنه يتقوى بغيره، ولذلك خرجوه في هذا الكتاب.

وعلى كل حال يبقى أن أساس المعنى أو القدر الثابت هو أن الشيطان لا يمكن أن يبقى في بيتٍ تقرأ فيه سورة البقرة.

"وروي أيضاً من طريق الشعبي قال: قال عبد الله بن مسعود –رضي الله تعالى عنه–: "من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة، أربع من أولها وآية الكرسي وآيتان بعدها وثلاث آيات من آخرها"[٤]، وفي رواية: "لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه، ولا يُقرأن على مجنون إلا أفاق"[٥].

وعن سهل بن سعد –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة، وإن من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام))[٦] رواه أبو القاسم الطبراني وأبو حاتم وابن حبان في صحيحه، وابن مردويه."

---

[2] – سنن النسائي الكبرى – كتاب عمل اليوم والليلة (١٠٨٠٠) (ج ٦ /ص ٢٤٠)، وصحيح الترغيب والترهيب (ج ٢/ ص ٨٦).

[3] – سنن الدارمي (٣٣٧٥) (ج ٢ / ص٥٣٩)، قال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف فطر متأخر السماع من أبي إسحاق السبيعي.

[4] – سنن الدارمي (٣٣٨٢) (ج ٢ / ص ٥٤١)، والطبراني في الكبير (٨٦٧٣) (ج ٩ / ص ١٣٧)، وقال حسين سليم أسد: رجاله ثقات غير أنه منقطع الشعبي لم يسمع من ابن مسعود.

[5] – سنن الدارمي (٣٣٨٣) (ج ٢ / ص ٥٤١)، وقال حسين سليم أسد: إسناده منقطع كسابقه.

[6] – أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧٨٠) (ج ٣ / ص ٥٩)، والطبراني في الكبير (٥٨٦٤) (ج ٦ / ص ١٦٣) وأبو يعلى في مسنده (٧٥٥٤) (ج ١٣ / ص ٤٦٥)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (ج٢ / ص ٨٧): حسن لغيره.

وهذا الحديث أيضاً فيه ضعف في الإسناد، ولكن الجملة الأولى: ((إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة)) ورد فيه أيضاً روايات أخرى ضعيفة عن ابن مسعود وعن ثلاثة من الصحابة أو أربعة، وكلها لا يخلو من ضعف، ولكن بعض أهل العلم يري أن هذه الجملة تتقوى بغيرها من الروايات، وهذه الروايات الضعيفة يقوي بعضها بعضاً، فيرون أن هذه الجملة: ((إن لكل شيء سناماً وإن سنام القرآن البقرة)) ترتقي إلى مرتبة الحسن.

"وقد روى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: "بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعثاً وهم ذوو عدد، فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم من أحدثهم سناً فقال: ((ما معك يا فلان؟)) قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، قال: ((أمعك سورة البقرة؟)) فقال: نعم، قال: ((فاذهب فأنت أميرهم)) فقال رجل من أشرافهم: والله يا رسول الله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تعلموا القرآن فاقرءوه وأقرئوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكاً يفوح بريحه كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب وكئ على مسك))[7] هذا لفظ رواية الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن، ثم رواه مرسلاً فالله أعلم."

معنى: **((جراب وكئ على مسك))** يعني رُبط فلا تظهر رائحته.

وعلى كل حال حتى هذه الرواية من الروايات التي يمكن أن يقال عنها: إنها لا تخلو من ضعف في أقل الأحوال، وبعض أهل العلم يحسنها، وهذا ما فعله هؤلاء المختصرون.

"وروى البخاري عن أسيد بن حضير -رضي الله تعالى عنه- قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكنت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت فسكنت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((اقرأ يا ابن حضير اقرأ يا ابن حضير))، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً فرفعت رأسي وانصرفت إليه فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها، قال: ((وتدري ما ذاك؟))، قال: لا، قال: ((تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم))[8]، وهكذا رواه الإمام العالم أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن، والله أعلم.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم حدثنا بشر بن مهاجر حدثني عبد الله بن بريدة عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- قال: كنت جالساً عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فسمعته يقول: ((تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))، قال: ثم سكت ساعة ثم قال: ((تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما

---

7 – أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن – باب: ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي (٢٨٧٦) (ج ٥ / ص ١٥٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي برقم: (٥٤١).

8 – أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن – باب: باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن (٤٧٣٠) (ج ٤ / ص ١٩١٦) والطبراني في الأوسط (١٨٠) (ج ١ / ص ٦٤).

أعرفك، فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بما كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ هذًّا كان أو ترتيلاً))[9].

وروى ابن ماجه من حديث بشر بن المهاجر بعضه، وهذا إسناد حسن على شرط مسلم."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الحديث في فضل سورة البقرة، أما أوله وهو أن سورة البقرة كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))** فإن هذا له شواهد، وهو ثابت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإن كان هذا الحديث من رواية بشر بن المهاجر.

وأما بقية الحديث وذلك من قوله بعد ذلك: **((وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب))** فإن لبعضه شواهد، ولكن ما قبله له شواهد صحيحة ثابتة من أول الحديث إلى هذا القدر، كما سيأتي فيما ذكره ابن كثير -رحمه الله- لذلك فإن بعض أهل العلم يصحح أول هذا الحديث ((إن أخذها بركة))، وكذلك ما جاء من قوله: ((تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان..)) إلى آخره، وأما بقية الحديث فبعض الجمل التي لها شاهد يمكن أن تكون من قبيل الحسن لتلك الشواهد.

على كل حال الإشكال في بشر بن المهاجر، ومن ضعَّف روايته رد بقية الحديث، والحاصل أن بشر بن المهاجر فيه كلامٌ كثير، بعضهم يضعفه، وبعضهم يبالغ في هذا، وبعضهم يجعل روايته من قبيل المقبول أو يوثقه، وصنيع المختصر هنا يدل دلالة أكيدة على أنه يحسن الحديث في أقل الأحوال.

قوله: **((فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))**: البطلة يعني السحرة.

ومعنى ((لا تستطيعها البطلة)) يعني: أي لا يمكنهم حفظها، أو أن من تحصن بها فإن السحرة لا يقدرون على إيصال سحرهم إليه.

وقوله: **((تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان))** المقصود بالأزهر المضيء، يقال: سراج يزهر أي يضيء.

قوله: **((يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان))** وفي بعض الألفاظ: **((غيابتان))** بالباء، الغمام معروف وهو السحاب، و الغيايتان: كل شيء أظلك فهو غياية سواء كان من سحاب أو غبار أو غير ذلك، والغيابتان بـــ الباء: هو أيضاً من هذا المعنى.

((أو فرقان من طير صواف)) أي تصف أجنحتها، وذلك أبلغ في التضليل.

"فمن ذلك حديث أبي أمامة الباهلي -رضي الله تعالى عنه- رواه الإمام أحمد.

---

[9] - أخرج الشطر الأول منه الإمام أحمد (٢٣٠٩٩) (ج ٥ / ص ٣٦١)، وأخرجه بتمامه بألفاظ مقاربة الطبراني في الكبير (٧٥٤٢) (ج ٨ / ص ١١٨)، وذكره الحاكم في المستدرك (٢٠٥٧) (ج ١ / ص ٧٤٧) وأصله في صحيح مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤) (ج ١ / ص ٥٥٣).

وعنه قال سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((اقرءوا القرآن فإنه شافع لأهله يوم القيامة، اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلهما يوم القيامة، ثم قال: اقرءوا البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))[١٠] وقد رواه مسلم في الصلاة.

الزهراوان: المنيرتان، والغياية: ما أظلك من فوقك، والفرق: القطعة من الشيء، والصوافُّ: المصطفة المتضامة، والبطلة: السحرة، ومعنى لا تستطيعها أي لا يمكنهم حفظها، وقيل: لا تستطيع النفوذ في قارئها، والله أعلم.

ومن ذلك حديث النواس بن سمعان -رضي الله تعالى عنه- رواه الإمام أحمد عنه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران))، وضرب لهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: ((كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق، أو كأنهما فرقان من طير صوافّ يحاجان عن صاحبهما))[١١] ورواه مسلم والترمذي وقال حسن غريب."

معنى ((بينهما شرق)): يعني بينهما فاصل.

وهذا الحديث يفسر الحديث الذي قبله، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في الذي قبله: ((فإنهما يأتيان يوم القيامة..)) إلى أن قال: ((يحاجان عن أهلهما)): فما المراد بـــ أهلهما هل هو مجرد الحفظ إن كان حافظاً لهما؟

لا، بل إن المقصود يفسره قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به))، فأصحاب البقرة وآل عمران هم الذين يحفظونهما ويفهمون معانيهما ويعملون بهما، ولهذا بقي ابن عمر -رضي الله عنه- ثمان سنين يحفظ سورة البقرة، وبقي عمر -رضي الله عنه- اثنتي عشرة سنة يحفظها، ثم نحر جزوراً ودعا الناس فرحاً واستبشاراً بهذا الإنجاز.

ولذلك كان الرجل إذا أخذ البقرة عظم في أعينهم؛ لأنه صار فقيهاً؛ لأنها تشتمل على أكثر الأحكام، فهي أكثر سور القرآن اشتمالاً على الأحكام وأطول سور القرآن، فمن عرف هذه الأحكام التي في سورة البقرة، فإنه يمر به كثيرٌ مما يذكر في التفسير بعدها، فتكون بقية الأمور التي تذكر في الغالب مكررة، أعني مما يحتاج إليه في فهم التفسير من جهة الأصول، والقواعد وما أشبه ذلك.

وعلى كل حال هنا سؤال يرد في مثل هذه الأحاديث وهو أن هاتين السورتين تأتيان كأنهما ظلتان أو غيايتان، ومعلوم أن القرآن كلام الله -عز وجل- وهو صفة من صفاته، فما المراد بذلك؟

المراد بذلك الثواب أي: ثواب القرآن أو قل: ثواب وأجر قراءة سورة البقرة وآل عمران وأجر العمل والتدبر لهما، والله أعلم، وهذا الذي ذكره جماعة من أهل العلم كالإمام أحمد والبغوي، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية

---

10 - صحيح مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤) (ج ١ / ص ٥٥٣).

11 - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٥) (ج ١ / ص ٥٥٤)، والترمذي في كتاب: فضائل القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب: ما جاء في سورة آل عمران (٢٨٨٣) (ج ٥ / ص ١٦٠).

-رحمه الله- في المجلد الخامس من الفتاوى في صفحة ثلاثمائة وسبعة وتسعين تقريباً، وكذلك ابن القيم في مختصر الصواعق صفحة أربعمائة تقريباً من الجزء الثاني في المختصر، وكذلك ذكره الترمذي قبلهم، ذكره في السنن.

كذلك الأحاديث الأخرى مثل قوله -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيحين-: ((مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة))، جاء في لفظ البخاري: ((المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة))[١٢]، فلا بد من العمل بالقرآن أي أن مجرد القراءة لا تكفي.

وكذلك الحديث الآخر: ((الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة)) جاء في بعض الروايات الثابتة في الصحيح: ((مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن وهو يحفظه مع السفرة الكرام البررة))[١٣] يعني مع الملائكة، والسفرة أي: سفراء بين الله وخلقه، فيكون بهذه المنزلة إذا كان يحفظ وليس مجرد أن يقرأ مجرد قراءة، وقوله: ((والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران))[١٤] يعني يتتعتع في الحفظ، أي أن حفظه فيه ضعف.

وأما بالنسبة لحديث: ((يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله))[١٥] فهي مسألة أخرى إذ يحتمل أن يكون على ظاهره، والمقصود به الأحفظ؛ لأنه قال بعده: ((أعلمهم بالسنة))؛ لأن الفقه يكون بالعلم بالسنة مع القرآن فلا يكون فقيهاً ما لم يعلم بالسنة، فظاهر هذا يدل على أن المقصود الحفظ.

ويحتمل معنىً آخر وهو أن يكون في ذلك الحين أقرأهم أي يكون فقيهاً، كما سبق في ذكر ابن عمر أنه حفظ سورة البقرة في ثمان سنين، ولذلك إذا قيل: القراء في ذلك الوقت -كأن يقال: قتل سبعون من القراء في بئر معونة- فهؤلاء علماء وليسوا مجرد حفاظ أو كثيري القراءة فقط، فهم ما كانوا مثلنا الآن، تجد الواحد يحفظ ولا يفهم شيئاً مما يحفظ، فقول القائل: دخل القراء على عمر -وكان القراء هم أهل مجلسه- المقصود بهم العلماء، وكذلك ما ورد من بعض الآثار بأن أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها فإن المقصود به أهل العلم وطلاب العلم.

"والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف، وهي من أوائل ما نزل بها، لكن قوله تعالى فيه: {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ} [(٢٨١) سورة البقرة] الآية، يقال: إنها آخر ما نزل من القرآن."

سورة البقرة لا شك أنها سورة مدنية، وهذا نقل عليه الإجماع غير واحد، وهي أول سورة نزلت في المدينة، لكنها لم تنزل جملةً.

---

[12] – أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن – باب: إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به (٤٧٧٢) (ج ٤/ ص ١٩٢٨)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها– باب: فضيلة حافظ القرآن (٧٩٧) (ج ١ / ص ٥٤٩) واللفظ للبخاري.

[13] – أخرجه البخاري في كتاب: التفسير – باب: تفسير سورة عبس (٤٦٥٣) (ج ٤ / ص ١٨٨٢)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها – باب: فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه (٧٩٨) (ج ١ / ص٥٤٩) واللفظ للبخاري.

[14] – أخرجه البخاري في كتاب: التفسير – باب: تفسير سورة عبس (٤٦٥٣) (ج ٤ / ص ١٨٨٢)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها – باب: فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه (٧٩٨) (ج ١ / ص٥٤٩) واللفظ لمسلم.

[15] – أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة – باب: من أحق بالإمامة (٦٧٣) (ج ١ / ص ٤٦٥).

وهنا ابن كثير يشير إلى أن بعضها قد تأخر نزوله فهي نزلت مفرقةً، ولذلك فإن آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق على الراجح أنها الآيات التي في آخر سورة البقرة -آيات الربا وقوله تعالى: **{وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ}** وآية الدين، ولذلك فمن قال: إن آخر ما نزل آية الدين فلا شك أنها في الترتيب هي آخر هذه الآيات نزولاً بالترتيب، فيصح أن يقال: إن هذا آخر ما نزل من القرآن، بمعنى أنها نزلت مجتمعة أعني هذه الآيات التي في آخر البقرة، وهذا أقوى ما قيل في آخر ما نزل مطلقاً، كل ذلك مع أن سورة البقرة هي أول سورة نزلت في المدينة، لكن آخر ما نزل من السور هي سورة براءة ولم تنزل كاملة.

وآخر ما نزل من السور مشتملة على الأحكام سورة المائدة، لهذا تجدون في بعض الروايات أن سورة المائدة هي آخر ما نزل، والمعنى في الأحكام، وسورة براءة آخر ما نزل من السور وليس جميع سورة براءة، إذ من المعلوم أن صدرها نزل عام تسع في حجة أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- وجملة كبيرة منها نزلت في مرجع النبي -صلى الله عليه وسلم- من غزوة تبوك.

"يقال: إنها آخر ما نزل من القرآن ويحتمل أن تكون منها، وكذلك آيات الربا من آخر ما نزل، وكان خالد ابن معدان يسمي البقرة فسطاط القرآن."

خالد يسمي هذه السورة بسورة الفسطاط، وسبق الكلام على هذا في الكلام على أسماء السورة، حيث ذكرنا لها نحو سبعة أسماء، وإن كان بعض هذا لا يثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث جاء حديث موضوع في تسميتها بفسطاط القرآن، لكن الصحيح أن هذا من كلام التابعين.

والفسطاط يطلق على الخيمة، ويطلق على المدينة، وعلى كل فالفسطاط هو ما يحيط بغيره، فيكون قيل لها ذلك ربما لإحاطتها بكثيرٍ من الأحكام، حيث اشتملت على أحكام لم تشتمل عليها سورة مثلها، فهي أكثر السور اشتمالاً على الأحكام، وربما يكون لعظمها وفضلها ومنزلتها وما أشبه ذلك، وعلى كل حال فسطاط القرآن تشتمل على أحكام كثيرة.

"قال بعض العلماء: وهي مشتملة على ألف خبر، وألف أمر، وألف نهي، وقال العادُّون: آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات، وكلماتها ستة آلاف كلمة ومائتان وإحدى وعشرون كلمة، وحروفها خمسة وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف، فالله أعلم."

وهذا أيضاً سبق الكلام عليه وذكر الخلاف في عدد كلماتها، وفي عدد حروفها، وذكرنا سبب هذا الخلاف، وأشرت إليه في أول هذه الدروس، فعلى كل حال الأمر في هذا سهل إذا عُرف وجهه؛ لأن ذلك إنما يكون بسبب ما ذكرت من الأمور التي توجب هذا التفاوت، سواء في عد الآيات أو في عد السور، وأن مرجع ذلك إلى القراءة في بعض نواحيه، ومنه ما يرجع إلى طريقة العد، هل يعد الحرف المرسوم وإن لم ينطق به، وهل يعد الحرف المشدد حرفاً واحداً أو حرفين، وكذلك ما ينطق به ولا يكتب من الحروف في الرسم هل يعد أو ما يعد؟

"قال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: نزلت بالمدينة سورة البقرة، وقال خصيف عن مجاهد عن عبد الله بن الزبير -رضي الله تعالى عنهما- قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة،

وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء والمفسرين ولا خلاف فيه، وروى ابن مردويه من حديث شعبة عن عقيل بن طلحة عن عتبة بن مرثد -رضي الله تعالى عنه-.

الظاهر أنه عتبة بن فرقد وليس ابن مرثد، هو هكذا في معجم الطبراني الكبير عتبة بن فرقد، صحابي سُلمي.

عن عتبة بن فرقد -رضي الله تعالى عنه-: رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- في أصحابه تأخراً فقال: ((يا أصحاب سورة البقرة))[16] وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدبرين."

أي نعم، كان يوم حنين، وجاء هذا في صحيح مسلم وفي غيره من حديث العباس لما أمره النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يدعوهم، وجاء أيضاً من حديث شيبة العبدري -من بني عبد الدار- في قصته المعروفة لما خرج وهو يريد أن ينتقم من النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكذلك جاء من حديث أبي سفيان بن الحارث ابن عم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكذلك أيضاً جاء عن غيره في بعض الروايات التي فيها ضعف، لكن على كل حال لا شك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما انهزموا في يوم حنين أمر العباس أن يدعوهم: ((يا أصحاب الشجرة، أو يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة))[17]، وأصحاب السمرة المقصود بهم أصحاب الشجرة، يعني الذين بايعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- تحت الشجرة **{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ}** [(١٨) سورة الفتح]، في صلح الحديبية، بايعوا النبي -صلى الله عليه وسلم-، فبعضهم يقول: على الموت، والمشهور والراجح أنهم بايعوه على ألا يفروا، وعلى كل حال جاء هذا في عدد من الأحاديث كما سبق، منها ما هو مرسل، ومنها ما هو غير ذلك.

"وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدبرين، أمر العباس فناداهم: ((يا أصحاب الشجرة)) يعني أهل بيعة الرضوان، وفي رواية: ((يا أصحاب سورة البقرة))؛ لينشطهم بذلك، فجعلوا يقبلون من كل وجه، وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة، جعل الصحابة يفرون لكثافة جيش بني حنيفة، فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة، حتى فتح الله عليهم -رضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين-."

يوم اليمامة كان جيش المسلمين فيه أعراب كثير، وكان هؤلاء الأعراب في أول الجيش، فلما حصلت المواجهة تضعضعوا وانهزموا، فقام خالد بن الوليد -رضي الله عنه- فجمع أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن حضر من أهل بدر، فجعلهم في مقدم الجيش، وكان شعارهم يا أصحاب سورة البقرة، هذا الشعار يوم اليمامة، فثبتوا واشتد الناس، وقتل في أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- مقتلة كبيرة، وكان ذلك سبباً في جمع القرآن لما أشار بذلك عمر -رضي الله عنه- كما في الصحيحين، فثبتوا ذلك الثبات العظيم، وفتح الله -عز وجل- عليهم.

على كل حال هذا جاء عن عروة بن الزبير -رضي الله تعالى عنه- وهو ثابت بإسناد صحيح عند عبد الرزاق وفي المصنف وابن أبي شيبة وسعيد بن منصور، يعني في يوم اليمامة.

---

16 - أخرجه الطبراني في الكبير (٣٢٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني وفيه علي بن قتيبة وهو ضعيف.

17 - أخرجه أحمد (١٧٧٥) (ج ١ / ص ٢٠٧) وابن حبان (٧٠٤٩) (ج ١٥/ ص ٥٢٣)، وصححه الألباني في المشكاة (٥٨٨٨).

"بسم الله الرحمن الرحيم: {الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ* أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ} [(١-٥) سورة البقرة].

{الم} الحروف المقطعة التي في أوائل السور، هي مما استأثر الله بعلمه."

على كل حال تذكرون في درس الجمعة أننا ذكرنا مسائل كثيرة تتعلق بالسورة كالكلام على موضوعها ومقصودها والقضايا التي ناقشتها، وربما حتى فواصل الآية يعني أواخر الآيات، آخر حرف أو آخر كلمة في الآية تنتهي بأي أحرف، مثل القوافي في الشعر، وقلنا: إنها تجمع بكلمتين (قم لندبر) بينما الفاتحة يجمع فواصلها حرفان هما الميم والنون، فالبقرة قم لندَّبَّر، فالعلماء منهم من يجعل ذلك لجميع سور القرآن، يعني كل سورة يذكر لها الحروف التي تنتهي فيها، ويجمعها بجملة أو بكلمة أو بكلمتين أو نحو هذا، فهذه الحروف التي تنتهي فيها الفواصل في هذه السورة مجموعة بـــ (قم لندبر).

كذلك ذكرنا أشياء أخرى منها قضايا النسخ في هذه السورة، ودعاوى النسخ فيها، وقلنا: إن الدعاوى قاربت أو بلغت ستاً وعشرين، لكن لا يثبت منها إلا القليل جداً في البقرة وفي غير البقرة.

"روي ذلك عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود -رضي الله تعالى عنهم أجمعين-."

ذكرنا أيضاً في ذلك الحين أن الحروف المقطعة فيها أقوال كثيرة، فبعضهم سرد فيها ستةً وعشرين قولاً، وبعضهم يذكر أقل من هذا، وبعضهم ربما أوصلها إلى ثلاثين، وعند الاستقراء يمكن أن ترجع إلى أقوال محصورة، وفي ذلك الحين ذكرنا أنها ترجع إلى ثلاثة أقوال، يعني منهم من يقول: إن هذه الحروف المقطعة هي عبارة عن اقتضاب لأسماء أو أوصاف، أو لكلمات أول لجمل، وإنها عبارة عن رموز، وهذا يدخل تحته ثمانية أقوال مما قيل في ذلك، يعني من يقولون: إنها اختصار لجملة أو كلمة، لو جمعت الأقوال لأكثر من عشرين قولاً ستجد أن ثمانية منها ترجع إلى أنها عبارة عن رموز وإن اختلفوا في فك أو تفسير أو بيان المراد بهذه الرموز، وعلى كل حال هذا فيه نظر.

وبعضهم يقول: إنها عبارة عن أسماء، إما اسم للنبي -صلى الله عليه وسلم- أو للقرآن أو غير ذلك، أسماء أو أوصاف، وهذا وإن اختلفوا فيه لكنه يدخل تحته نحو أربعة أقوال مما قيل في تفسير هذه الحروف.

والثالث أنها حروف هجاء أي حروف المعجم، أو قل: حروف مباني، وقد سبق أن ذكرنا الفرق بين حروف المباني وحروف المعاني، ولكن هذه الحروف هي حروف معجم ليس لها معنى في نفسها بطبيعة الحال إذا قيل: إنها حروف معجم، أي ليس لها معنى في نفسها، وهذا يرجع إليه نحو أربعة عشر قولاً.

المقصود أن هذه الحروف ترمز لشيء معين، ومن أشهر الأقوال أنها ليس لها معنى في نفسها، لكن فيها إشارة إلى قضية التحدي والإعجاز، بمعنى أن هذا القرآن مكون من هذه الحروف التي تركبون منها الكلام فأتوا بمثله.

بل إن بعض أهل العلم مثل ابن العربي قال: إن الحروف الواردة في أوائل السور -الحروف المقطعة- هي نصف الحروف الهجائية!! فهذا فيه إشارة أن القرآن ركب من نصف الحروف، فركبوا قرآناً آخر من النصف الباقي، لكن هذا القول لا يخلو من تكلف، وعلى كل حال الله تعالى أعلم.

لكنْ فيه ملحظ ذكره بعض أهل العلم مثل الشوكاني حيث نبه على قضيتين تفيد في هذا المعنى وهي أن على القول: إن لها معنى في نفسها هذا غير معهود في كلام الناس، وإن حاولوا أن يأتوا ببعض الألفاظ أو بعض الأشعار، كقول من قال: قلت لها قفي قالت قاف، لكن هذا غير متداول، فالناس حينما يخاطبون به لا يفهمون المراد.

الأمر الآخر أنها إذا كانت رموز وتحتاج إلى فك، وذكروا تحتها معاني كثيرة جداً غريبة عجيبة، فهذه الرموز هل عندهم أثارة من علم في فكها وتفسيرها بهذه الطريقة؛ لأنه لا يصل إليها الذهن بالاجتهاد، ولا يوجد شيء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- إطلاقاً في هذا، فمن أين جاءوا بها وقد اختلفوا في فك هذه الرموز؟ فالله أعلم، وعلى كل حال فلعلَّ هذا القول من أقرب هذه الأقوال.

"وقيل: هي أسماء السور، وقيل: هي فواتح افتتح الله بها القرآن."

القول الأول الذي ذكره، حيث قال: هي مما استأثر الله بعلمه، هذا قال به جماعة من الأئمة، وبناءً على ذلك يكون قد وقع في القرآن ما يعرف بالمتشابه المطلق من جهة المعنى، بمعنى أنه يوجد في القرآن أشياء لا النبي -صلى الله عليه وسلم- يعرف معناها ولا غيره من الأمة، وهذا القول مشكل، وهو وجهٌ في تفسير آية آل عمران **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}** [(٧) سورة آل عمران] على الوقف هنا، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن الوقف لا شك أنه ثابت صحَّ عن ابن عباس -رضي الله عنه- وعن غيره، والمراد بها على الوقف عند قوله: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}** حقائق الأمور الغيبية وكنهها، وما أشبه ذلك مما لا يمكن الإطلاع عليه إلا بالوحي، فليس المراد به التفسير، ولذلك يقال: لا يوجد في القرآن متشابه مطلق أبداً من جهة المعنى، وإنما يوجد فيه متشابه مطلق من جهة الكيفية، فآية آل عمران على الوقف **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}** يقال: المتشابه هنا المطلق على الوقف المراد به حقائق الأشياء وكنهها، فالله لم يخاطبنا بألغاز في القرآن، وإنما أخبرنا عن هذا القرآن بأنه تبيان لكل شيء، وأنه بلسان عربي مبين.

القراءة بالوصل: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}**، يكون المراد بالتأويل هنا التفسير، يكون المراد به التفسير بالمعنى، وهو ثابت أيضاً عن ابن عباس، وقال: "أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله"، فكل هذا صحيح، لكن على هذا القول أن الحروف المتقطعة من المتشابه من أن هذا لا يعلمه إلا الله وإنما هو مما استأثره بعلمه، فيكون معنى ذلك أنه من المتشابه المطلق، لكن من قال: لها معنى وفسره فهي بالنسبة لمن لا يعرف ذلك من المتشابه النسبي، عند من يثبت لها معنى.

"وقال خصيف عن مجاهد أنه قال: فواتح السور كلها: {ق} و{ص} و{حم} و{طسم} و{الر}، وغير ذلك هجاء موضوع."

يعني هذه الفواتح التي مثَّل لبعضها، وكذلك ما لم يمثِّل له، هي هجاء موضوع، يعني بهجاء أنها حروف هجاء (أبجد هوز)، (أ، ب، ت، ث...).

الحروف -كما سبق- تنقسم إلى قسمين: حروف معنى، وحروف مبني. وحروف المعنى هي التي يجعلها النحاة القسم الثالث مما يتركب من الكلام، فهم يقولون: الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، ويقصدون بحروف المعاني حروف الجر، فـ"إلى" تدل على الغاية، و "في" تدل على الظرفية وما أشبه ذلك.

فالنحاة يقولون في معنى الاسم: هو ما دل على معنى في نفسه ولم يقترن بزمان، والفعل هو ما دل على معنىً في نفسه واقترن بزمان والحرف يقولون: هو ما لم يدل على معنى في نفسه ولم يقترن بزمان، وإنما هي للربط والوصل، وكلامهم هذا ردَّ عليهم فيه شيخ الإسلام فقال: إن "في" تدل على الظرفية ولها معنى في نفسها... إلى آخره، مع أنهم يقصدون شيئاً آخر غير ما قصده شيخ الإسلام، والأمر في هذا سهل.

فعلى كل حال الشاهد هنا قوله: **حروف هجاء**: وحروف الهجاء –حروف المعجم– ليس لها قطعاً معنى في نفسها بالاتفاق، فـ "الباء" حينما تكون من حروف المعاني نقول عنها: حرف جر لها دلالة، تدل على المقاربة والملاصقة، لكن حينما نقول مثلاً: "بئر" فهذه الباء ليس لها معنى في نفسها إطلاقاً، وإنما لما تركبت مع غيرها صارت تمثل كلمة، فمن يقول: إن هذه حروف تهجي فمعنى ذلك أنها ليس لها معنى في نفسها؛ لأنه لا أحد يدعي أن حروف التهجي لها معنى في نفسها، وهذا هو المراد والله أعلم.

وهذه الأقوال المنتثرة، والتي ما ذكر منها هنا إلا أقل من القليل، يمكن أن تُرَجع إلى الأقوال الثلاثة الأصلية.

"وقال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم، استغنى بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفاً."

بناءً على أن الحروف العربية تبلغ هذا العدد، وبعضهم يزيد حرفاً، فيقول: تسعة وعشرون على أن "لام ألف" حرف.

"كما يقول القائل: ابني يكتب في "أ ب ت ث" أي في حروف المعجم الثمانية والعشرين، فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها حكاه ابن جرير."

طريقة ترتيب الحروف بعضهم يجعلها: "أ ب ت ث" وبعضهم يجعلها: "أبجد هوز حطي..."إلى آخره، ولذلك كتب القواميس والمعاجم أحياناً ما تجدها على الترتيب المعروف "أ ب ت ث" فيظن ظانٌّ أنه ترك بعض الكلمات، وهو ما تركها وإنما سار فيها على الطريقة الأخرى في الترتيب.

"قلت: مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً."

هي طبعاً جاءت في تسع وعشرين سورة، وعامة هذه السور التي بُدئت بالحروف المقطعة هي من السور المكية، فالمدنية مثل البقرة وآل عمران، لكن عامة السور التي بدئت بالحروف المقطعة إنما هي من السور المكية.

يقول: **"مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً"** ومن غير حذف المكرر تبلغ ثمانية وسبعين حرفاً.

"وهي "أ ل م ص ر ك هـ ي ع ط س ح ق ن " يجمعها قولك: "نص حكيم قاطع له سر"."

يجمعها قولك: **"نص حكيم قاطع له سر"**: ويمكن أن تجمعها جملٍ أخرى مثل: "ألم يسطع نور حق كره"، وبعضهم يركب غير هذا من الجمل من أسهلها: "طرق سمعك النصيحة".

"وهي نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك."

نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك: ما معنى أشرف من المتروك؟

الحروف تنقسم إلى حروف استعلاء وحروف استفال، فنجد أن المذكور هو الأشرف دائماً، فأشرف هذه الحروف هي المذكورة في نصف الحروف الهجائية.

"وبيان ذلك من صناعة التصريف، قال الزمخشري: وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أصناف أجناس الحروف، يعني من المهموسة والمجهورة ومن الرخوة والشديدة، ومن المطبقة والمفتوحة، ومن المستعلية والمنخفضة، ومن حروف القلقلة."

بالنسبة للقلقلة حروفها خمسة، والمذكور في أوائل السور منها أقل من النصف وليست النصف.

"وقد سردها مفصلة ثم قال: "فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته" وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها."

هناك أشياء أخرى مثل الصفير ثلاثة حروف "السين" و"الصاد" و"الزاي" المذكورة منها في الحروف المقطعة في أوائل السور هي "السين" و"الصاد"، وما ذكرها الزمخشري، وكذلك الحروف اللينة ثلاثة، المذكور منها اثنان "الألف" و"الياء".

يقول ابن كثير: **وقد سردها مفصلة:** ثم جاء بكلام الزمخشري: **فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته" وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها:** ما معنى قول الزمخشري: مكثورة بالمذكورة منها؟ أليست هذه الأحرف المذكورة كما قال هو: إنها النصف، فكيف صارت هي مكثورة؟

المقصود بذلك هو أن الأكثر تكرراً قي القرآن واستعمالاً هي الحروف المذكورة في أوائل السور، أي هي أكثر ما يتكرر في تركيب الكلام في جميع القرآن، وقد عدوا كل حرف كم مرة ورد في القرآن، فالحروف المذكورة في أوائل السور هي الأكثر استعمالاً في القرآن، وهذا هو المراد بقوله: إنها مكثورة يعني الحروف المتروكة مكثورة بالمذكورة.

"وقد علمت أن معظم الشيء وجلَّه ينزل منزلة كله."

معنى هذه العبارة أنه في حالة ما إذا أتى سائل معترض وقال: أنت تقول: إن هذه الحروف المقطعة في أوائل السور هي نصف الحروف الهجائية، والقرآن مركب من الحروف الهجائية الثمانية والعشرين، وتقول: إن الحروف المقطعة ليس لها معنى في نفسها ولكنها ترمز للتحدي من أن تأتي أحد بمثل هذا القرآن مركباً من هذه الحروف، فأين النصف الباقي من الحروف التي وردت في القرآن، فيقال: إن أغلب ما ركب منه الكلام هو النصف المذكور في أوائل السور، وما كان جلُّ الشيء منه يمكن أن يعبر عنه بأنه الكل أو الجميع أو نحو ذلك من باب التغليب، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- حول الحروف المقطعة: ومن هاهنا لحظ بعضهم في هذا المقام كلامًا، فقال: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها -سبحانه وتعالى- عبثًا ولا سدى؛ ومن قال من الجهلة: إن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية، فقد أخطأ خطأً كبيرًا، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر، فإن صحَّ لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا، وقلنا: {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [(٧) سورة آل عمران].

ولم يُجمِع العلماء فيها على شيء معين، وإنما اختلفوا، فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه، وإلا فالوقف حتى يتبين هذا المقام.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا الخلاف الكثير في هذه الحروف المقطعة، والأقوال التي قيلت في ذلك ليس في ذلك كله شيء عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وليس فيه إجماع، ومن ثَمَّ فإنه لا يمكن القطع بشيء من هذه التفسيرات، وأما ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن بعضهم من أنه لا بد أن تكون هذه وضعت لمعنى وأنه لا يمكن أن يكون في القرآن شيء من الألفاظ لمجرد التعبد، وليس له معنىً في نفسه أصلاً، فلا شك أن القرآن ليس فيه حشو، وقد سبق الكلام على هذا في درس أصول الفقه، قول صاحب المراقي:

.... ولم يكن في الوحي حشو يقع

ولكن هذه المعاني عموماً إنما تكون في الألفاظ من حروف المعاني والكلمات، سواءً كانت من الأسماء أو من الأفعال، وأما الحروف -أعني المباني- فإنه ليس لها معنىً أصلاً في لغة العرب، فإذا عبر بها فإن هذا التعبير إنما يكون لأمر ما، أي: جيء بها لإيصال معنىً أراد المتكلم أن يصل إلى عباده.

فهذا الذي ذكره بعض أهل العلم -وهو قول كثير من المحققين- من أنها تشير إلى قضية الإعجاز، فهي لم تسق عبثاً، لكن ليس لها معنى في نفسها إلا أنها تشير إلى قضية الإعجاز، فهذا القول ليس فيه نسبة الحشو إلى القرآن، ولكن كلام أهل العلم على كل حال هو في الألفاظ التي وصفت من الأسماء والأفعال وحروف المعاني، وهذا هو كلام العرب، الكلام عند العرب: هو اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، وأما حروف التهجي فليست من هذه القسمة الثلاثة، وإنما هي حروف يركب منها كلام العرب الذي له معنى، فالعين (ع) إذا ركبت مع اللام (ل) مع الألف المقصورة (ى) صارت على، فصار لها معنى.

والزاي (ز) تركب مع الياء (ي) مع الدال (د) فتكون زيد، أي صارت اسماً، وهكذا، هذا هو المراد والله تعالى أعلم.

ولذلك حتى التشابه المطلق -كما أشرت بالأمس- لا يوجد في القرآن شيء من المتشابه المطلق من جهة المعاني، كل ما في القرآن فالأمة تعرف معناه ولو بعض الأمة وإن خفي على بعضهم، والتشابه في هذا الباب -أعني من جهة المعاني والتفسير- إنما هو تشابه نسبي، وليس تشابهاً مطلقاً، ومعنى تشابه نسبي أي أنه متشابه بالنسبة لبعض الأمة، لذا قال الله -عز وجل-: {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [(٤) سورة المعارج]، وفي موضع آخر يقول: {أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} [(٥) سورة السجدة]، فهذا قد يلتبس على بعض الناس، ولكن من عرف معناه ولم يشكل عليه، لا يكون بالنسبة إليه من المتشابه، فهذا التفصيل في هذا المقام ينفي هذه الإشكالية، والله تعالى أعلم، وبالتالي نقول: لا يوجد في القرآن شيء لمجرد التعبد فقط أبداً، بل كل ما فيه من كلام فهو لمعنى.

المقام الآخر في الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور ما هي؟ مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها.

من أهل العلم من يرى أن الحروف المقطعة لها معنىً في نفسها، إضافة إلى كونها تشير إلى قضية الإعجاز، فالذين قالوا: إنها تشير إلى قضية الإعجاز، منهم من قال: ليس لها معنى في نفسها، ومنهم من ذكر لها معنى.

فقيل: إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكره فيها بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها.

وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين، وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا، وقرره الزمخشري في كشافه، ونصره أتمَّ نصر، وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية، وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المِزِّي، وحكاه لي عن ابن تيمية.

قال الزمخشري: ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن، وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت، كما كررت قصص كثيرة، وكرر التحدي بالصريح في أماكن.

قال: وجاء منها على حرف واحد كقوله: {ص} [(١) سورة ص]، {نَ} [(١) سورة القلم]، {ق} [(١) سورة ق]، وحرفين مثل: {حم} [(١) سورة غافر]، وثلاثة مثل:...

السور التي بُدئت بحرف واحد هي هذه الثلاث فقط، في سور، ن، وص، وق، والتي بدئت بحرفين هي قوله: {حم} في عشر سور، والذي جاء على ثلاثة أحرف اثنا عشر سورة.

وثلاثة مثل: {الم} [(١) سورة البقرة]، وأربعة مثل: {المر} [(١) سورة الرعد]، و{المص} [(١) سورة الأعراف]، وخمسة مثل: {كهيعص} [(١) سورة مريم]، و{حم * عسق} [(١-٢) سورة الشورى]؛ لأن أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ما هو على حرف، وعلى حرفين، وعلى ثلاثة، وعلى أربعة، وعلى خمسة، لا أكثر من ذلك، ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء.

نحن حينما نلتمس العلة التي سيقت من أجلها الحروف المقطعة، نجد بعض الأمور التي لربما يستشف منها بعض العلل، فلا تكاد تذكر غالباً إلا ويذكر بعدها القرآن: {الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [(١-٢) سورة البقرة]،

وفي آل عمران: {الم* اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ* نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ} [(١-٣) سورة آل عمران]، هذا في عامة المواضع، إلا أنه يشكل على ذلك بعض السور، وقد ذكرناها، فمن ذلك سورة مريم: {كهيعص* ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا} [(١-٢) سورة مريم]، فبعض أهل العلم حاول أن يربط ذلك بالكتاب فقال: ذكرت هنا الرحمة، ولا شك أن الرحمة تشمل الوحي، فإن الوحي رحمة من الله -عز وجل- للخلق.

والسورة الثانية العنكبوت: {الم* أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} [(١-٢) سورة العنكبوت]، فذكر في سورة العنكبوت قصصاً، وقالوا: القصص هو من خصائص القرآن، ومن الموضوعات التي تدور فيه التوحيد والأحكام والقصص، فالحاصل أن هذه القصص إنما هي من قبيل الوحي كما قال في سورة يوسف: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} [(٣) سورة يوسف]، فالحاصل أنهم التمسوا هذا التوجيه.

والسورة الثالثة سورة الروم {الم* غُلِبَتِ الرُّومُ} [(١-٢) سورة الروم]، فقالوا: هذا فيه إخبار عن الأمور الغيبية، فهو أخبر عن أمر من الغيب النسبي وهو الهزيمة التي وقعت للروم في مواجهتهم مع الفرس ولم يعلم بها المسلمون بعد في مكة، وأخبرهم عن غيب مطلق مستقبل وهو أنها ستكون الكرة لهم، وسينتصرون في بضع سنين، فقالوا: هذا الإخبار عن غيبيات ولا شك أنه من الوحي، وبالتالي فالقرآن أو الوحي مذكور بعد جميع الحروف المقطعة، ولكن هذا فيه ما فيه، ويكفي أن الغالب في هذه المواضع إنما يذكر فيه القرآن، فهذا قد يستشف منه ما ذكر من قضية التحدي بهذه الحروف، أي التحدي بهذا القرآن، فهذا القرآن مكون من هذه الحروف التي تركبون منها الكلام، ومن ثم فأتوا بقرآن مثل هذا.

وهو الواقع في تسع وعشرين سورة، ولهذا يقول تعالى: {الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [(١-٢) سورة البقرة]. {الم* اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ* نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} [(١-٣) سورة آل عمران]، {المص* كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ} [(١-٢) سورة الأعراف]، {الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ} [(١) سورة إبراهيم]، {الم* تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} [(١-٢) سورة السجدة]، {حم* تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [(١-٢) سورة فصلت]، {حم* عسق* كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(١-٣) سورة الشورى]، وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر، والله أعلم.

على كل حال هناك أقوال شاذة يقطع تماماً ببطلانها مثل الذين قالوا بأن هذه الحروف تفسير بحساب الجُمَّل، وكذلك قول من قال بأن هذه الحروف ترمز إلى أشياء تتعلق بالسورة، وبدؤوا يتكلفون في تركيب السورة بناءً على هذه الحروف في أولها، وأبعد من هذا كله، وأكثر هذه الأقوال شذوذاً وانحرافاً هو قول بعض الجهلة: إن هذه تفسر على أنها من الحروف الهيكروليفية -هذه باللغة المصرية- يقول: أصلاً اللغة المصرية هي أصل اللغة العربية، فيفسر القرآن بهذه اللغة القديمة المنقرضة -إن صحت- فيأتي بمعان عجيبة غاية العجب، إذ لا يعقل ولا يمكن أن القرآن يخاطب الناس بهذا الغموض بلغة أخرى.

{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [(٢) سورة البقرة] الكتاب: القرآن، والريب: الشك.

قال السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وعن مرة الهَمْداني عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-، وعن أناس من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {لاَ رَيْبَ فِيهِ}: لا شك فيه.

على كل حال السلف -رضي الله عنهم- يفسرون اللفظة بما يقرِّب المعنى، فلا تكاد تجد في تفسيرات السلف التدقيق والتنقير بالعناية بذكر المعاني التكميلية، والاشتغال بالفروق بين الألفاظ بناءً على ذلك، وإنما يفسرونها تفسيراً يقرِّب معناها فحسب، ولهذا فهم يفسرون الريب بالشك.

وعلى قول من يقول بوجود الترادف في اللغة وفي القرآن يمكن أن يكون هذا منه، والذين يفرقون ويقولون: لا يوجد في القرآن مترادف، يقولون: الريب غير الشك، وإن كان يشترك معه في المعنى الأصلي وهو وجود التردد، لكن الفرق بين الريب وبين الشك هو أن الريب شكٌّ مع قلق، وبعضهم يقول: شكٌّ مع وجود تهمة.

وابن القيم -رحمه الله- يذكر بين الشك والريب سبعة أوجه من الفروقات، في المعنى وفي الاستعمال، ما تقول: أنا والله مرتاب هل الشمس خرجت الآن وإلا ما خرجت، لكن تقول: أنا أشك الآن في خروج الشمس، فلو أن إنساناً دخل في مكان فهذا الدخول قد يكون مريباً فيبعث على القلق أو التهمة، إذ هو ليس مجرد شك.

فعلى كل حال إذا أردنا أن نبحث عن المعاني الزائدة عن المعنى الأصلي، يمكن أن نقول: إن ثمة فرقاً بين الريب والشك، فالله يقول: {لاَ رَيْبَ فِيهِ} [(٢) سورة البقرة]، يعني ليس فيه شك أو لا يلحقه شك أو تهمة، أو لا يبعث على القلق هل هو حق أو ليس بحق.

المقصود أن قوله: {لاَ رَيْبَ فِيهِ} أي: لا شك أنه موحى من الله -عز وجل-، هذا هو المعنى المتبادر، ومما يؤخذ من هذه الآية وما تحتمله أيضاً، ويمكن أن يجتمع ذلك جميعاً فتفسر به أنه ليس فيه ريب أنه من عند الله، ولا يتضمن أموراً تبعث على الريب من وجود تناقضات كما في كتب المتقدمين التي حرفت، فالقرآن ليس فيه شيء يبعث على الريب لا في ألفاظه ولا في معانيه.

وأيضاً قوله -تبارك وتعالى-: {لاَ رَيْبَ فِيهِ} هذا نفي، ومثل هذا النفي إذا ورد في أوصاف الله -عز وجل- أو أوصاف الرسول -صلى الله عليه وسلم- أو أصاف القرآن فإن القاعدة أنه يتضمن ثبوت كمال ضده، فإذا قال: لا ريب فيه فهذا يتضمن ثبوت معنىً وهو أنه مشتمل أو متضمن لكمال اليقين.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {لاَ رَيْبَ فِيهِ} نفي الريب عنه هذا لا شك أنه واقع موقعه، وأن ريب من ارتاب إنما جاءه إما لفساد قصده، أو لقصور فهمه، وإلا فالقرآن من حيث هو ليس فيه ما يبعث على الريب، ولا ريب أيضاً أنه من عند الله -عز وجل- موحى، وأدلة ذلك كثيرة جداً، ويكفي الإعجاز.

وليس معنى هذا أنه لا يرتاب فيه أحد، فالله قال: {لاَ رَيْبَ فِيهِ}، والذين ارتابوا إنما أتوا من فساد قصدهم، أو من فساد تصورهم، وقصور فهمهم وعلمهم، فهو لا ريب فيه وإن ارتاب فيه بعض الناس.

وقاله أبو الدرداء وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك ونافع مولى ابن عمر وعطاء وأبو العالية والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان والسدي وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد، وقال ابن أبي حاتم: لا أعلم في هذا خلافًا.

ومعنى الكلام: أن هذا الكتاب –وهو القرآن– لا شك فيه أنه نزل من عند الله، كما قال تعالى في السجدة: {الم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} [(١-٢) سورة السجدة].

هذه الآية في سورة السجدة ترجح أحد الموضعين في الوقف في الآية، فمن المعلوم أن قوله: **{لاَ رَيْبَ فِيهِ}** [(٢) سورة البقرة]، إما أن يكون الوقف على **{رَيْبَ}** فتقول: **{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}**، وإما أن تقف على **{فِيهِ}** هكذا: **{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}**، ويختلف المعنى بهذا الاعتبار.

فهذه الآية في سورة السجدة **{لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ}** المعنى واضح جداً فيها حيث نفى عنه الريب، فيكون الوقف على قوله: **{فِيهِ}**، **{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ}**، فنفى عنه الريب، ثم وصفه بأنه هدى للمتقين، وهذا أبلغ من الوقوف على قوله: **{لاَ رَيْبَ}**، فكأنه يقول: ذلك الكتاب لا ريب ولا شك، فيه هدى للمتقين، فإن وصف القرآن بأنه هدى أبلغ من قولك: في القرآن هدى؛ لأن القرآن كله هدى، فهذا أبلغ من الأول، وبالتالي يكون الوقف على قوله: **{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ}** أحسن من الوقف على قوله: **{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ}**، لكن لا يقال: إن الوقف على الثانية منكر وينكر على صاحبه وأنه أفسد المعنى، بل هو محتمل، ومعلوم أن كثيراً من قضايا الوقف هذه إنما مرجعها إلى النظر والاجتهاد بحسب ما يلوح من المعنى.

وقال بعضهم: هذا خبر ومعناه النهي، أي: لا ترتابوا فيه.

على كل حال هو خبر لا ريب فيه يمكن أن يقال: إنه يتضمن النهي، أي لا ترتابوا فيه، مثل قوله تعالى: **{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [(٢) سورة الفاتحة] هذا خبر يتضمن الأمر، بمعنى أن الله يعلمهم كيف يحمدونه، قال تعالى: **{قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ}** [(٥٩) سورة النمل]، فالحاصل أن الله علمهم بذلك من أجل أن يحمدوه، وقل مثل هذا أيضاً في مواضع أخرى في كتاب الله –عز وجل– كقوله في سورة البقرة أيضاً: **{وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ}** [(٢٧٢) سورة البقرة]، فلا شك أن الصيغة صيغة خبر، وهو مع هذا يتضمن طلب الإخلاص، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن الآية تدل على اشتراط الإخلاص وطلبه، فهي على سبيل الشرط، وإن لم تكن الصيغة صيغة طلب لذلك.

ومن القراء من يقف على قوله تعالى: {لاَ رَيْبَ} ويبتدئ بقوله تعالى: {فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [(٢) سورة البقرة] والوقف على قوله تعالى: {لاَ رَيْبَ فِيهِ} [(٢) سورة البقرة]، أولى للآية التي ذكرناها؛ ولأنه يصير قوله تعالى: {هُدًى} صفة للقرآن، وذلك أبلغ من كون: {فِيهِ هُدًى}.

و{هُدًى} يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعًا على النعت، ومنصوبًا على الحال.

طبعاً المرفوع لا تظهر علامة الرفع عليه هنا؛ لأن آخره حرف علة، فالألف من حروف العلة لا تظهر عليه الضمة، ولا الفتحة، ولا الكسرة، لا تظهر عليه حركات الإعراب للتعذر.

وخصّت الهداية للمتقّين. كما قال: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ} [(٤٤) سورة فصلت].

هذا جواب لسؤال هو: لماذا خص الله –عز وجل– الهدى بالمتقين مع أن القرآن هدىً عام للأحمر والأسود، فلماذا خصه بالمتقين كما قال الله –عز وجل–: **{يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}** [(١٦) سورة المائدة]، فالقاعدة في هذا الباب أن الشيء قد يكون عاماً فيصح أن يخص

ببعض أفراده لكونهم المنتفعين به، حيث يصح في كلام العرب أن يخص الشيء العام في بعض الأفراد؛ لأنهم هم المنتفعين به مع أنه عام، فالقرآن هدى لجميع الخلق، وعلى كل حال جاء وصف القرآن بهذا، ووصف القرآن بهذا، وجاء فيه التفصيل بأنه هدىً للمتقين، وأن الذين لا يؤمنون يكون سبباً لعماهم، فإذا أنزلت السورة وقع لهم التخبط والعمى فيقولون: {مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا} [(٣١) سورة المدثر]، ويقولون: {أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا} [(١٢٤) سورة التوبة]، ويقولون: {مَاذَا قَالَ آنِفًا} [(١٦) سورة محمد]، إذا خرجوا من عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فهؤلاء أهل النفاق لا يفهمون، ويكون ذلك سبباً لمزيد من غوايتهم {فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [(١٢٥) سورة التوبة] نسأل الله العافية.

وقال: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا} [(٨٢) سورة الإسراء]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن؛ لأنه هو في نفسه هدى، ولكن لا يناله إلا الأبرار، كما قال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [(٥٧) سورة يونس].

يعني أن القرآن موعظة للجميع وشفاء لما في الصدور، وهو هدىً أيضاً، ولكن لما كان الذي يهتدي به هم أهل الإيمان خصهم بذلك، وإلا فهو عين الهدى، ومن طلب الهدى في غيره أضله الله -عز وجل-، ومن ثَمَّ فإن وصفه بالهدى بهذا الأسلوب لا شك أنه يدل على أن القرآن مشتمل على حقيقة الهدى في ألفاظه ومعانيه بكل ما يمكن أن تحتمله لفظة {هُدًى}.

قول الله -عز وجل-: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ}: ما قال: ننزل من القرآن ما هو دواء؛ لأن الدواء قد يتخلف معه البرء وقد يحصل عكس المقصود من تعاطيه، لكن الله -عز وجل- قال: شفاء، وكذلك في العسل والنحل قال الله -عز وجل- عنه: {يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ} [(٦٩) سورة النحل]، ما قال: فيه دواء للناس.

وعن ابن عباس وابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ورضي الله عنهم-: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} يعني: نورًا للمتقين.

على كل حال هدىً يعني نوراً وغير ذلك من المعاني التي يقرب بها هذا، والهدى لا يخفى، لكن هل هذا الهدى هنا المراد به هداية التوفيق، أو هداية الإرشاد، أو أنه مشتمل، أو أن المراد بذلك الأمران؟ كل ذلك محتمل، فبعض أهل العلم يقولون: هدىً للمتقين، المراد هنا هداية التوفيق، وذلك أنه خصهم به، فهم الذين تحققت لهم الهداية، وبعضهم يقول: المراد به هداية الإرشاد، لكن لما انتفعوا به خصوا بذلك، وعلى كل حال كل هذا يصح في تفسير الآية، فيقال: القرآن هدى للمتقين، فهو يبصرهم بالحق وبكل ما يحتاجون إليه مما تكون به سعادتهم ويرشدهم إلى كل خير، فهو إرشاد ودلالة بهذا الاعتبار كما أنه هداية بمعنى الإرشاد ودلالة يدل على الله -عز وجل- لعموم الخلق، يعرفهم بالله وبأسمائه وصفاته، وما يليق به، يأمرهم بتوحيده، فهذا كله من هداية الإرشاد والدلالة، وهو هدى للمتقين الذين آمنوا بالله -عز وجل-، واهتدوا بالقرآن وانتفعوا به، ولا شك أن هذه الهداية التوفيقية حصلت لمثل هؤلاء.

لكن يبقى سؤال آخر وهو أن الله –عز وجل– قال: **{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}** [(٢) سورة البقرة] هذا وصف للقرآن كله أنه هدى للمتقين، فهل معنى هذا أنه قبل أن ينزل عليهم كانوا متقين؟

قال الله عن الكتاب: **{هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}**، فهو وصف هذا الكتاب بكامله أنه هدى قبل أن ينزل، ولما نزل كان هدى للمتحققين بالتقوى المتصفين بها.

بعض أهل العلم قالوا: إن الكتاب المقصود به التوراة أو الإنجيل، حيث قالوا الله يقول: **{ذَلِكَ الْكِتَابُ}** وذلك إشارة للبعيد والإشارة للقريب تكون بـــ(هؤلاء) إذن: ليس المقصود بهم الذين نزل عليهم القرآن وإنما المقصود بالكتاب التوراة أو الإنجيل هدىً للمتقين، لكن هذا القول بعيد جداً، بل هو وصف لهذا القرآن.

والذي جعلهم يقولون هذا القول –وهو موجود في كتب التفسير– أمور:

الأول: أن الكتاب يطلق على جميع القرآن ويصح أن يطلق على بعضه مما نزل منه، كما يصح أيضاً أن ينزل ما لم ينزل منزلة ما نزل بأنه متحقق الوقوع والنزول، فيسمى الجميع –ما نزل وما لم ينزل– بهذا الاعتبار يسمى الكتاب.

الثاني: أن الله –عز وجل– عليم حكيم، يعلم حال الخلق، فهؤلاء الذين وصفوا بالتقوى في قوله: **{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}** [(٢) سورة البقرة] يوفقهم الله –عز وجل– ويهديهم لما علم من صلاح قلوبهم وصحة مقاصدهم، فيهديهم، وهان عليه تعالى أقوام وعلم فساد حالهم وقلوبهم وما انطوت عليه نفوسهم فأذلهم، فلم ينتفعوا بهذا القرآن، ولم يدخلوا في الإسلام أصلاً.

ونجد أيضاً أن هذه القرآن يشتمل على ألوان الهدايات مما فصله الله –عز وجل– في بيان الأحكام التي نزلت تباعاً وبيان حقائق الإيمان وما إلى ذلك، فهذا كله لا شك أنه هدايات لمن دخلوا في الإسلام، وهم الذين يستحقون الوصف المذكور وهو التقوى، والمقصود من تحقق التقوى هنا هو الدخول في الإسلام وإلا فالتقوى تعرفون معناها وما جاء فيها.

عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– قال: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} قال: هم المؤمنون الذين يتَّقون الشرك بي، ويعملون بطاعتي.

وعنه –رضي الله تعالى عنه– للمتقين قال: الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به.

وقال قتادة {لِّلْمُتَّقِينَ} هم الذين نعتهم الله بقوله: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ} [(٣) سورة البقرة] الآية والتي بعدها، واختيار ابن جرير: أن الآية تَعُمّ ذلك كله، وهو كما قال.

على كل حال هو ذكر شيئاً من أبرز صفاتهم بعده **{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}** [(٣) سورة البقرة]، كما يقول الله –عز وجل– في صفات أهل الإيمان، **{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا}** [(٦٣) سورة الفرقان] وقال تعالى: **{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ}** [(١-٢) سورة المؤمنون] إلى آخره مع أن هذا ليس حصراً لأوصافهم، وإنما يذكر طرفاً من أوصافهم أو قد يذكر أبرز وأهم الأوصاف وهكذا، وهذا لا يشكل على كل حال؛ فكل هذه

الأقوال التي قيلت لا منافاة بينها ولا نحتاج إلى شيء من الترجيح، فنقول: هي أقوال صحيحة، ولا شك أن المتقين هم الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، وهم الموصوفون بكل ما ذكر.

وقد روى الترمذي وابن ماجه عن عطية السعدي قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يبلغ العبد أن يكون من المتَّقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس))[1]، ثم قال الترمذي: حسن غريب.

على كل حال هذه الرواية معروف ما فيها من الضعف، وقضايا التصحيح والتضعيف هي من القضايا الاجتهادية، وبالتالي لا تضيق ذرعاً إذا قال لك أحد: بأنه يشترط أن لا يضع في الكتاب إلا روايات صحيحة، ثم تجد بعض الروايات يقال عنها: إنها ضعيفة؛ لأن هذا كله من قبيل الاجتهاد، فالناس يجتهدون، وقد يختلفون في بعض أصول وقواعد الجرح والتعديل، أو بعض قضايا المصطلح ويقع بينهم التفاوت حتى في تطبيقها، فعلى كل حال المعنى الذي ذكر في قوله: ((لا يبلغ العبد أن يكون من المتَّقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا)) لا شك أن هذه من أرفع مراتب التقوى، وهي الورع عن الأمور المشتبهة، والورع عن الأمور المكروهة، والورع عن التوسع في الدنيا مما يقعده عن بلوغ المقامات العالية في منازل العبودية، كل هذه الأنواع الثلاثة في الورع -يعني غير ترك الحرام- لا شك أنها إذا تحققت توصل العبد إلى درجة عالية في التقوى، يترك ما لا بأس به من التوسع في المآكل ونحو ذلك، وكان هذا هو مذهب عمر -رضي الله عنه- وكان يتأول قوله -تبارك وتعالى-: **{أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا}** [(٢٠) سورة الأحقاف] وتعلمون تنزه بعض الصحابة عن بعض الأشياء من اللباس الفاخر جداً، وكل إنسان في هذا الباب بحسبه.

ولذلك لا يليق بالعالم أن يسكن القصور، لكن هذا قد يصلح لبعض العامة من أهل السعة والغنى أما العالم لا يصلح له هذا، وقد لا يصلح له أن يركب المراكب الفخمة جداً التي تنشد إليها أنظار الناس؛ لأن هذا قد يكون نقصاً في حقه، مع أن العامة يترفعون بمثل هذه الأمور ويكملون نقصهم بمثل هذا البهرج، أما العالم فلا، وكذلك قد لا يصلح للعالم أن يلبس فاخر الثياب ونفيس الثياب ذا الثمن الغالي جداً، لكنه يلبس اللباس النظيف المعتدل الذي يليق بمثله، وهكذا، لكل أحد ما يلائمه ويناسبه، فقد يكون هذا زيناً في حق أحد، وشيناً في حق آخرين.

ويطلق الهدى ويراد به ما يقر في القلب من الإيمان، وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا الله -عز وجل-، قال الله تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [(٥٦) سورة القصص]، وقال: {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ} [(٢٧٢) سورة البقرة]، وقال: {مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ} [(١٨٦) سورة الأعراف]، وقال: {مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا} [(١٧) سورة الكهف]، إلى غير ذلك من الآيات.

ويطلق ويراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد، قال الله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٥٢) سورة الشورى]، وقال: {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} [(٧) سورة الرعد]، وقال تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} [(١٧) سورة فصلت].

---

[1] - أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب: ما جاء في صفة أواني الحوض (٢٤٥١) (ج ٤ / ص ٦٣٤)، وابن ماجه في كتاب: الزهد - باب: الزهد في الدنيا (٤٢١٥) (ج ٢ / ص ١٤٠٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٣٢٠)

وجه الاستشهاد بهذه الآية: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ} على أنها هداية إرشاد؛ لأنها لو كانت هداية توفيق لكان لا بد أن يكونوا قد دخلوا في الإيمان؛ لأن الله لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، لكنهم ما اهتدوا، بل استحبوا العمى على الهدى فبقوا على الكفر فهي هداية إرشاد، فمعنى هديناهم أي بينا لهم الحق من الباطل، فآثروا الباطل.

وهنا مسألة وهي أن كل هداية مثبتة للنبي -صلى الله عليه وسلم- فهي هداية إرشاد، وكل هداية منفية عنه فهي هداية التوفيق.

وقال: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [(١٠) سورة البلد] **على تفسير من قال المراد بهما الخير والشر وهو الأرجح، والله أعلم.**

بل هذا هو قول عامة أهل العلم من السلف والخلف، {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}: أي بينا له طريق الخير من طريق الشر، وأما القول الآخر في الآية أي: هديناه الثديين حينما يخرج من بطن أمه فيلتقم الثدي فهذا القول في الآية بعيد ولا يتبادر، وإن كان الله -عز وجل- قد هدى الرضيع إلى هذا، لكن هذه الهداية وهداية المخلوقات عموماً لما تقوم به معائشها ومصالحها كلها تسمى هداية فطرية.

وأصل التقوى التوقي مما يكره؛ لأن أصلها وقوى من الوقاية.

التقوى على وزن فعلى، وأصل مادة التقوى من الناحية التصريفية وقي، فقول الحافظ ابن كثير: وقوى لأنها أحد أطوار التصريف، فالتصريف يمر بأكثر من طور فيما يعللون به في الإبدال، فهي وقي فأولها حرف علة، وآخرها حرف علة، فهي معتلة الأول، ومعتلة الآخر، فأبدل حرف العلة الأول، وأبدل حرف العلة الأخير فصارت بهذا الاعتبار تقوى، يعني تستطيع أن تقول: إن المراحل وقي فأبدل الأول تاء، وصارت تقي، وحتى تعرف أن ابن كثير -رحمه الله- ما أخطا فبدلاً من أن تقول: أبدل الأول قل: أبدل الأخير، أي أبدلت الواو ألفاً، فالذي ذكره ابن كثير يمكن أن تكون المرحلة الوسطى في أطوار التصريف.

وقد قيل: إن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- سأل أبي بن كعب -رضي الله تعالى عنه- عن التقوى فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال بلى، قال: فما عملت قال: شمرت واجتهدت قال: فذلك التقوى.

{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [(٣) سورة البقرة] **قال أبو جعفر الرازي عن العلاء بن المسيب بن رافع عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: الإيمان التصديق.**

وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {يُؤْمِنُونَ}: يصدقون وقال معمر عن الزهري: الإيمان العمل وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس: {يُؤْمِنُونَ}: يخشون.

هذه ثلاثة أقوال في تفسير الإيمان، الأول فسره بالتصديق، وهذا تجده في كثير من عبارات السلف، ومقصودهم بذلك هو بيان معنى الإيمان إذا ذكر مع العمل، أو إذا ربط بأمر يتعلق بالاعتقاد فقط.

فمثلاً قوله تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}: هل يتأتى فيها العمل هنا؟ يعني هل يعمل بالغيب؟ وبمعنى آخر: هل الإيمان بالغيب هنا يكون عملاً؟ لا يكون عملاً وإنما يكون مجرد التصديق.

نحن ذكرنا من قبل أن السلف -رضي الله عنهم- في التفسير يقربون المعنى، أي يذكر عبارة قريبة تقرب لك المعنى، فإذا جئت على طريقة التدقيق في التفسير وأردت أن تبين المعاني التكميلية في كل لفظة وأنه لا يوجد ترادف فستقول: لا يصح تفسير الإيمان بالتصديق، كما يقول بعض أهل العلم من أهل اللغة ومن بعض المتأخرين، ومنهم شيخ الإسلام -رحمه الله- كما في كتابه الإيمان الكبير حيث ذكر سبعة فروق بين الإيمان والتصديق، ومثل ما قال: ابن القيم في الريب والشك حيث ذكر سبعة فروق بينهما في اللغة، وقال: لا يصح تفسير الإيمان بالتصديق، مع أن المقصود هنا تعريفه لغة لا شرعاً.

المهم أن السلف يقربون المعنى فيعبرون بعبارة قريبة، كما فسروا الريب بالشك، وهنا الإيمان لغة هو التصديق، فلا يشكل عليكم هذا مع كلام شيخ الإسلام فليس بينها تعارض، وهكذا من فهم طريقة السلف يقول: ليس هناك تعارض؛ لأنهم لا يعمدون إلى هذه التدقيقات في التفسير بمراعاة المعاني التكميلية، وإنما يقرب لك المعنى فقط.

على كل حال الإيمان إذا ذكر معناه في اللغة فإنهم يفسرونه في بعض الأحيان بالتصديق، وإذا أردت أن تدقق أكثر يمكن أن تقول: هو الإقرار أو هو التصديق الانقيادي، وهذا ما يتعلق بالقلب، فإنه إذا قيل: الإيمان هو تصديق الجنان، فتصديق الجنان معناه إقرار القلب وانقياده، وإلا فمجرد التصديق لا يكفي، بل لا بد من الإضافة إلى ذلك الإيمان في حقيقته الشرعية وأنه قول وعمل، فهنا القضية تعلقت بالغيب، فــ**{يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}** [(٣) سورة البقرة] يعني يصدقون به.

المعنى الثاني: فسر الإيمان بالعمل، ويكون ذلك من تفسيره ببعض ما تركب منه الإيمان وهو العمل، ولا شك أن العمل ركن من أركان الإيمان، فهو يتركب من تصديق اللسان والجنان والعمل بالجوارح، وكونه فسره بذكر أحد أركانه منها فلا بأس أن يعبر عن الشيء بأحد أركانه كما سبق في الصلاة أنها قراءة والحج عرفة، وما أشبه ذلك، فهذا لا إشكال.

وفسر بعض السلف الإيمان بالغيب بأنه الخشية، لكن المعنى المتبادر والمشهور والذي قاله عامة أهل العلم من السلف والخلف في قوله: **{يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}** أي يؤمنون بالأمور الغيبية من الإيمان بالله والملائكة والجن، وغير ذلك سواءً كان من الغيب المطلق أو الغيب النسبي.

النبي -صلى الله عليه وسلم- بالنسبة لنا غيب؛ فنحن لم نر النبي -صلى الله عليه وسلم- لكنه بالنسبة للصحابة ليس من أمور الغيب، فالمؤمن بالغيب هو الذي يؤمن بهذه الحقائق التي لم يشاهدها، جيد، وهذا هو المعنى المشهور ابتداءً من الإيمان بالله.

والمعنى الثاني لــ**{يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}** أن ذلك يراد به الذي يؤمن في حال الغيب، أي في حال خلوته وانفراده، كما أنه أظهر الإيمان جلوة أمام الناس، فهو في الظاهر مؤمن، فكذلك أيضاً في حال الغيب مؤمن، وليس ممن قال الله عنهم: **{وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ}** [(١٤) سورة البقرة]، فهؤلاء ليسوا على الإيمان في حال الخفاء حينما يغيبون على الأنظار، فيكون على هذا التفسير **{يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}** أي: في حال غيابهم عن أنظار الناس، وهذا المعنى كما قلنا ذكره بعض السلف، لكن الأول أرجح وهو المتبادر، وسواءً فسرناه بهذا أو بالمعنى الأول المشهور فإن الإيمان بالغيب

كالإيمان بالله واليوم يورث الخشية؛ لأن من مقتضياته ولوازمه الخشية، وإذا فسرناه بالمعنى الآخر فهو يستحضر رقابة الله -عز وجل- عليه، وأن الله يراه ويشاهده ويطلع على أحواله فهذا يورث الخشية، ويكون هذا من قبيل التفسير باللازم، والسلف قد يفسرون باللازم، وهذا مثال عليه، فالتفسير هذا ليس بخطأ، وإنما يقال: هو من قبيل التفسير باللازم، والكلام قد يفسر بالمطابق، أو بالتضمن أو باللازم، أو بالإشارة التي هي من أنواع الدلالة المعروفة.

إذن: {يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} كما قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "العلم الخشية" فهو فسر العلم بالخشية، مع أن العلم هو إدراك المعلوم على ما هو به على حقيقته؛ لأن العلم ما أورث الخشية، وكفى بخشية الله علماً.

قال ابن جرير: ولولا أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً وعملاً واعتقاداً، وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل.

توجيه ابن كثير هنا يختلف عما ذكرت بعض الشيء، فلا شك أن الخشية هي جزء من عمل القلب؛ لأن الإيمان قول القلب وهو تصديقه وانقياده وإقراره، وعمل القلب مثل الخشية والتوكل والمحبة والرجاء، وما أشبه ذلك، فهي جزء من الإيمان، فهو هنا فسر الإيمان بجزء منه.

والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل، قلت: أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض، وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك كما قال تعالى: {يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ} [(٦١) سورة التوبة].

{يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ}: على هذا التفسير {يُؤْمِنُ بِاللّهِ} يعني يصدق بالله، {وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ} أي: يصدقهم، وعداه باللام هنا، تقول: صدق له ويعدى بنفسه فتقول: صدقه، وهل آمن يعدى بنفسه فتقول: آمنه؟ لا، بل تقول: آمن له كما قال تعالى: {وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا} [(١٧) سورة يوسف]، فتقول: آمن به، وصدق به، وصدقه، فهذه من الفروقات في الاستعمال بين الإيمان والتصديق، ومن الفروقات أن الإيمان فيه معنى الأمن، ولا يوجد هذا في معنى التصديق، والإيمان لا يستعمل في كل حال كما يستعمل به التصديق، فلا تقول مثلاً أنا مؤمن الآن أن الشمس طالعة، لكن تقول: أنا مصدق أن الشمس طالعة؛ والسبب في ذلك أن الإيمان يكون في الأمور التي من شأنها أن تخفى وتكون غائبة.

وكما قال إخوة يوسف لأبيهم -عليهم السلام-: {وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} [(١٧) سورة يوسف] وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال كقوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} [(٢٥) سورة الإنشقاق]، فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً.

هذا هو الصواب، وأما من يفسرون الإيمان بأنه مجرد الإقرار أو التصديق كالجهمية فإن مثل هذا لم يقل به أحد من السلف إطلاقاً، وإنما غاية ما قالوا في معناه اللغوي أو حينما يذكر معه العمل، فيكون الإيمان المقصود به ما يرجع إلى القلب من الإقرار والتصديق، فأما تفسير الإيمان الشرعي بأنه الإقرار أو التصديق أو نحو هذا فهذا لم يقل به أحد من السلف.

وهو يزيد وينقص، وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث أفردنا الكلام فيها في أول شرح البخاري، ولله الحمد والمنة.

ومنهم من فسره بالخشية كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ} [(١٢) سورة الملك] **وقوله: {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ}** [(٣٣) سورة ق]، **والخشية خلاصة الإيمان والعلم كما قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء}** [(٢٨) سورة فاطر]، **وأما الغيب المراد هاهنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد.**

قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: {يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [(٣) سورة البقرة]، **قال: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث فهذا غيب كله وكذا قال قتادة بن دعامة.**

وروى سعيد بن منصور عن عبد الرحمن بن يزيد قال: كنا عند عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- جلوساً فذكرنا أصحاب النبي -صلى الله عليه و سلم- وما سبقونا به فقال عبد الله: "إن أمر محمد -صلى الله عليه وسلم- كان بيناً لمن رآه، والذي لا إله غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان بغيب".

يقصد ابن مسعود -رضي الله عنه- أن الذين جاؤوا من بعد يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- بالنسبة لهم من أمور الغيب، فيدخل في قوله بالنسبة لنا **{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}** الإيمان بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، ولذلك الغيب فيه غيب ماض، وفيه غيب حاضر مما لم نطلع عليه، وهناك غيب مستقبل، فلو قلت لك الآن في هذه اللحظة: ما الذي يدور خارج هذا المكان، أو ماذا يوجد خلف هذا المبنى ستقول: لا أدري؛ لأن هذه من أمور الغيب، وكذلك لو قيل لك: ما الذي يجري في البلد الفلاني؟ ستقول: الله أعلم، وبالنسبة للغيب المطلق فهو المستقبل.

ثم قرأ: {الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ..} [(١-٣) سورة البقرة] **إلى قوله: {الْمُفْلِحُونَ}** [(٥) سورة البقرة]، **وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم في مستدركه وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.**

الرواية هذه ثابتة معروفة مشهورة عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- وجاء في هذا المعنى أيضاً بعض المرويات عن غير ابن مسعود.

وفي معنى هذا الحديث الذي رواه أحمد عن ابن محيريز قال: قلت لأبي جمعة -رضي الله عنه- حدثنا حديثا سمعتَه من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: نعم أحدثك حديثاً جيداً: تغدينا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومعنا أبو عبيدة بن الجراح قال: يا رسول الله، هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك قال: ((نعم قوم من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني))[٢].

أبو جمعة من الصحابة اسمه حبيب بن سباع، وهذا الحديث جاء من حديث أبي جمعة -رضي الله تعالى عنه- وجاء أيضاً عن غيره، وهو ثابت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- سواءً كان ذلك في حديث أبي جمعة هذا الذي أقل أحواله أنه حسن، أو في غيره مما هو أصح منه، وهذا الحديث مع حديث: ((إن من

---

[٢]- أخرجه أحمد (١٧٠١٧) (ج ٤ / ص ١٠٦)، والدارمي (٢٧٤٤) (ج ٢ / ص ٣٩٨)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٦٢٨٢).

ورائكم أيام الصبر للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم))[٣] فيهما سؤال معروف وهو: هل هذا يدل على أن أحداً بعد أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- يمكن أن يكون فوقهم؟

هذه مسألة معروفة، الجمهور على أن هذا لا يمكن ولا يتأتى، ويحتجون بأدلة منها: قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه))[٤] ومنها قوله تعالى: **{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ}** [(١٠٠) سورة التوبة].

وبعض أهل العلم يرى أن ذلك ممكن في غير أهل السبق، والفضل من الصحابة كأهل بدر وبيعة الرضوان، لكن مثل بعض مسلمة الفتح ومن جاء بعضهم، أو الأعراب أو غيرهم ممن أسلم في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقولون: هذا يمكن، وهذا قول معروف لابن عبد البر، ويحتجون لهذا القول بأدلة منها هذان الحديثان.

وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: بأن كبار الصحابة وأهل بدر وبيعة الرضوان لا يبلغ أحد مرتبتهم، وأما من عدا هؤلاء فيمكن أن يأتي بعض الأفراد ممن بعدهم من هو أفضل منهم، لكنه يبقى شيء واحد لا يبلغهم فيه وهو مرتبة شرف الصحبة، فهذا لا يمكن أن يدرك، وأما القرب من الله -عز وجل- أو العلم، أو العبادة والبذل والنصح لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم- وما أشبه ذلك فيرى أنه يمكن أن يأتي بعض الأفراد ممن جاء بعدهم ممن يفوق آحاد الصحابة من مسلمة الفتح أو الأعراب أو غيرهم.

وهذا كله فيه قاعدة معروفة ذكرها القرافي في الفروق، وذكرها غيره تحل شيئاً من الإشكال في هذا الباب وفي غيره من الأبواب وهي أن المزية لا تقتضي الأفضلية، إلا أن هذه القاعدة يستعملها كل طرف هنا في المسألة فالذين يقولون: يمكن أن يأتي بعض الأفراد أفضل، يقولون: الصحابة لهم شرف الصحبة، والمزية لا تقتضي الأفضلية يعني بإطلاق، فهذا لا يلحقهم أحد فيها، لكن يمكن يكون أفضل منهم في الأشياء الأخرى، فالمزية لا تقتضي الأفضلية.

والذين يقولون: لا يمكن أن يلحقهم أحد مطلقاً فقد حصلوا هذا الشرف العظيم، ولا يمكن أن يكون أحد بعدهم أفضل منهم بحال من الأحوال، وإن جاء بعض الناس بعدهم وهو في غاية الاجتهاد أو العبادة ممن قال النبي -صلى الله عليه وسلم- أن لهم أجر خمسين، أو كما ورد هنا في حديث أبي جمعة يقولون: هذه مزية للمتأخرين، والمزية لا تقتضي الأفضلية.

ولا شك أن ذكر الأجرين لا يقتضي الأفضلية مطلقاً، وذلك مثل حديث: ((الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران))[٥]، فالذي يتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجر

---

[٣] - أخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم- باب: الأمر والنهي (٤٣٤١) (ج ٢ / ص ٥٢٦)، والترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (٣٠٥٨) (ج ٥ / ص ٢٥٧)، وابن ماجه في كتاب: الفتن – باب: قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ} [(١٠٥) سورة المائدة] (٤٠١٤) (ج ٢ / ص ١٣٣٠)، والطبراني في الكبير (٢٨٩) (ج ١٧/١١٧)، وفي الأوسط (٣١٢١) (ج ٣ / ص ٢٧٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤٩٤) <

[٤] - أخرجه أبو داود في كتاب: السنة- باب في النهي عن سب أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (٤٦٥٨) (ج ٢ / ص ٦٢٦)، والطبراني في الأوسط (٦٨٧) (ج ١ / ص ٢١٢)، وصححه الألباني في ظلال الجنة برقم (٩٨٨).

[٥] - أخرجه البخاري في كتاب: التفسير – باب: تفسير سورة عبس (٤٦٥٣) (ج ٤ / ص ١٨٨٢)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها – باب: فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه (٧٩٨) (ج ١ / ص٥٤٩) واللفظ لمسلم.

على القراءة وأجر على التتعتع لكنه ليس أفضل من الماهر الذي مع السفرة الكرام البررة، مع أن ذاك لم يذكر له أجران.

كذلك ما ورد من الذين يؤتون أجرهم مرتين في قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي -صلى الله عليه وسلم- فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران..))[٦] الحديث، فالرجل الذي كان على دين أهل الكتاب ثم أسلم له أجران لكن لا يمكن أن يكون أفضل من أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- الذي لم يكن على دين أهل الكتاب أبداً، فالمزية لا تقتضي الأفضلية، ولا تقتضي الفضل مطلقاً، فأجر أبي بكر الصديق أعظم منه، فقد يكون الشيء أعظم، وقد يكون الشيء كما سبق على أجرين أو ثلاثة أو نحو هذا.

ومثل هذا أيضاً الرجل الذي أدى حق الله وحق سيده، وأشباه ذلك، فهؤلاء يقال أنهم يؤتون أجرهم مضاعفاً أو نحو هذا لكن لا يعني ذلك أنهم أفضل من غيرهم مطلقاً؛ فالمزية لا تقتضي الأفضلية.

كذلك نقول: إنّ عليَّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- هو زوج فاطمة الزهراء -رضي الله عنها- وقال فيه النبي -عليه الصلاة والسلام-: ((ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي؟))[٧]، وقال عنه النبي -صلى الله عليه وسلم يوم خيبر: ((لأعطين الراية غدا أو ليأخذن الراية غدا رجل يحبه الله ورسوله))[٨] إلى غير ذلك من مزاياه -رضي الله عنه- لكن مع ذلك هو ليس أفضل من أبي بكر وعمر -رضي الله عنهم أجمعين-؛ فالمزية لا تقتضي الأفضلية، وهكذا في أبواب كثيرة، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

٦ - أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير- باب: فضل من أسلم من أهل الكتابين (٢٨٤٩) (ج ٣ / ص ١٠٩٦)، ومسلم في كتاب: الإيمان - باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١٥٤) (ج ١ / ص ١٣٤)، واللفظ لمسلم.

٧ - أخرجه البخاري في كتاب: المغازي- باب: غزوة تبوك وهي غزوة العسرة (٤١٥٤) (ج ٤ / ص ١٦٠٢)، ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم- باب: من فضائل علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- (٢٤٠٤) (ج ٤ / ص ١٨٧٠).

٨ - أخرجه البخاري في كتاب: المغازي- باب: باب غزوة خيبر (٣٩٧٢) (ج ٤ / ص ١٥٤٢)، ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم- باب: من فضائل علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- (٢٤٠٧) (ج ٤ / ص ١٨٧٢)، وهذا لفظ البخاري.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٣)

الشيخ/ خالد السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: {وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [(٣) سورة البقرة]

"قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ} أي: يقيمون الصلاة بفروضها.

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها.

وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها، وركوعها وسجودها.

وقال مقاتل بن حيان: إقامتها: المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور بها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهذا إقامتها."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الأقوال التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وغيرها مما قاله السلف -رضي الله عنهم- في معنى إقامة الصلاة كلها صحيحة، وهي داخلة في معناها، والمراد أنهم يأتون بها مقيمين لأركانها كما في قول ابن عباس هنا: **أي يقيمون الصلاة بفروضها:** يعني يأتون بما افترض عليهم فيها من أركان وواجبات، وهكذا أيضاً الأقوال الأخرى يحافظون على الأوقات، ويحققون ما شرط لصحتها كالطهارة، واستقبال القبلة، وما أشبه هذا، كل هذه الأمور هي من إقامة الصلاة.

وعلى كل حال فالصلاة لم يأمر الله -عز وجل- بها في القرآن إلا بلفظ الإقامة، كقوله تعالى: **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ}** [(٤٥) سورة العنكبوت]، وكذلك نجد ذلك غالباً حينما يذكرها الله -عز وجل- في القرآن، كقوله تعالى: **{وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ}** [(١٦٢) سورة النساء]، ولم يرد ذكر المصلين من غير إقامة إلا في ثلاثة مواضع.

الموضع الأول قوله تعالى: **{قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ}** [(٤٣) سورة المدثر]، وليس هذا على سبيل الأمر ولا على سبيل المدح، وإنما الإخبار عن حال أهل النار وما أوجب لهم من الدخول فيها.

والموضع الثاني قوله تعالى: **{فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ}** [(٤) سورة الماعون]، وهذا أيضاً في مقام الوعيد.

الموضع الثالث قوله تعالى: **{إِلَّا الْمُصَلِّينَ}** [(٢٢) سورة المعارج].

هذه هي المواضع الثلاثة التي لم تذكر الإقامة مع ذكر الصلاة، وأما ما سوى ذلك فإنه يقول: **{وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ}** [(١٦٢) سورة النساء]، **{وَأَقِمِ الصَّلاَةَ}** [(١١٤) سورة هود]، **{وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ}** [(٤٣) سورة البقرة]، وما أشبه ذلك، ويدل ذلك على أن المراد هو إقامة الصلاة وليس مجرد أداء الصلاة وأما في الزكاة فيقول: **{وَآتُواْ الزَّكَاةَ}** [(٤٣) سورة البقرة]، فالصلاة التي تقام هي التي تؤثر في الإنسان.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد أخبر أن المصلي ليس له من صلاته إلا ما عقل منها، فقد صح ذلك عنه أنه قال: ((إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها ثمنها سبعها سدسها خمسها ربعها ثلثها نصفها))[1].

فهي تسقط عنه التبعة إن لم تكن كما ينبغي من الخشوع واستحضار القلب بما يقوله ويفعله الإنسان في هذه الصلاة، فيخرج ليس له من صلاته إلا كما أخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- أي: بحسب ما عقل منها.

ولذلك لما قال الله -عز وجل-: **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ}** [(٤٥) سورة العنكبوت]، فإنه قد علق هذا الحكم بوصف، فنهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر هو حكم مترتب على وصف وهو الإقامة، ومعلوم أن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فعلى قدر إقامتك للصلاة تؤثر في انتهائك عن الفحشاء والمنكر، وهذا جواب للسؤال الذي يطرح دائماً وهو لماذا لا تؤثر الصلاة في كثير من المصلين، وربما تسمع إجابات كثيرة عن هذا السؤال منها ما هو متكلف، لكن هذا هو الجواب الصحيح.

"وقال علي بن أبي طلحة، وغيره عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} قال: زكاة أموالهم.

وقال السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم- {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} قال: نفقة الرجل على أهله، وهذا قبل أن تنزل الزكاة."

القول الأول بأن قوله: **{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} قال: زكاة أموالهم**، قالوا هذا بناءً على القول بأن هذه السورة هي أول سورة نزلت في المدينة، ولم تفرض الزكاة بعد، وإنما فرضت بعد ذلك.

ويوجد خلاف معروف في الزكاة متى فرضت، والأقرب أن أصل الزكاة فرض في مكة، كما قال الله -عز وجل- في سورة الأنعام: **{وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ}** [(١٤١) سورة الأنعام]، وسورة الأنعام سورة مكية قطعاً، فكانت الزكاة مفروضة بمكة لكن الأنصباء والأموال الزكوية لم تفصل إلا في المدينة.

ومن أهل العلم من يقول: إن الزكاة لم تفرض إلا في المدينة ونزل أول سورة البقرة قبل فرض الزكاة، فبعضهم يقول: هي النفقة على الأقارب، وبعضهم يقول: هي الزكاة بناءً على التفسير بجزء المعنى، وعلى هذا يمثلون على العام بأحد الأفراد ولا يقصدون بذلك الحصر، فهنا قال: يؤتون زكاة أموالهم وهو أعم.

{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [(٣) سورة البقرة]، النفقة أعم، وهذا من باب البيان والإيضاح بجزء المعنى، وإلا فالنفقة أوسع من هذا **{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}** من الزكاة ومن غير الزكاة.

"وقال جُوَيْبِر عن الضحاك: كانت النفقات قرباناً يتقربون بها إلى الله على قدر ميسرتهم وجهدهم، حتى نزلت فرائض الصدقات، سبعُ آيات في سورة براءة، مما يذكر فيهن الصدقات، هن الناسخات المثبِتات."

---

1 - أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة - باب: ما جاء في نقصان الصلاة (٧٩٦) (ج ١ / ص ٢٧١)، وحسنه الألباني في صحيح أبـي داود بـرقم (٧١٤).

بعض أهل العلم يقول: إن في المال حقاً غير الزكاة، وعلى كل حال آية الأنعام كانت قبل فرض التقادير والأنصباء وبيان الأنواع التي تجب فيها الزكاة، فكان قدراً غير محدد يخرجه الإنسان عند الحصاد يعطيه من حضره من الفقراء.

{وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ} "من" هنا تبعيضية، ووجه دخولها هنا أنك لست مطالباً بأن تخرج كل المال، وإنما المطلوب منك أن تخرج بعض المال فقط، فهي دخلت على هذا الأساس.

وبعض العلماء يقول: لأن المقصود إنما هو إخراج الأموال الطيبة وبالتالي **{وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ}** أي من المكاسب الصحيحة؛ لأن الرزق يشمل الحلال والحرام، وهذه عقيدة أهل السنة، خلافاً للمعتزلة.

فكل ما حصله الإنسان فهو من الرزق، لكن منه ما يكون حلالاً ومنه ما يكون حراماً وبالتالي فقوله: **{وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ}** يستدلون بها على أن الإنسان يتحرى بصدقته، وأنه لا يخرجها إلا من كسب طيب، لكن على كل حال ليس المراد إخراج الكل.

"قلت: كثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال؛ فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه، وتمجيده والابتهال إليه ودعائه والتوكل عليه؛ والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: {وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}."

هذا أحد الأجوبة في سبب الاقتران بين الصلاة والزكاة، وهو أمر يتكرر كثيراً كقوله تعالى: **{وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ}** [(٨٣) سورة البقرة]، وكقوله تعالى: **{وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ}** [(١٦٢) سورة النساء]، فلماذا يحصل هذا الاقتران؟

الجواب الأول: أن الصلاة هي صلة بين العبد وبين ربه، والزكاة هي إحسان إلى المخلوقين، فسعادة العبد دائرة بين الأمرين.

ويمكن أن يقال: إن الصلاة هي رأس العبادات البدنية، والزكاة هي رأس العبادات المالية؛ لأنه ما تقرب المتقربون إلى الله بشيء أحب إليه مما افترض عليهم، فالزكاة مفروضة، وهي أفضل من الصدقة المستحبة، ومن أهل العلم من يقول: إن الصلاة هي طهارة للنفس والبدن، بسبب الطهارة التي هي من شروطها، وأما الزكاة فهي طهارة للمال، فجمع له بين الأمرين.

"ولهذا ثبت في الصحيحين عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت))[2]، والأحاديث في هذا كثيرة.

وأصل الصلاة في كلام العرب الدعاء، ثم استعملت الصلاة في الشرع في ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة في الأوقات المخصوصة، بشروطها المعروفة، وصفاتها، وأنواعها المشهورة."

---

[2] - كتاب الإيمان - باب: الإيمان وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((بني الإسلام على خمس)) (٨) (ج ١ / ص ١٢)، ومسلم في كتاب: الإيمان - باب: بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام (١٦) (ج ١ / ص ٤٥).

الصلاة معناها اللغوي عموماً هو الدعاء، ثم صارت في الشرع الصلاة المعروفة، والعلماء يتكلمون في هذا هل هي باقية على أصلها اللغوي، ثم زيد عليها؟ هذه مسألة معروفة عند الأصوليين، وهل ما يسمى بالحقائق الشرعية والمصطلحات الشرعية -مثل الصلاة والصوم والجهاد والحج العمرة، وما أشبه هذا- هل هذه باقية على أصلها اللغوي ثم زيد عليها أشياء، أو أن الشارع استعملها في شيء آخر غير المعنى اللغوي، بمعنى هل هي مرتجلة من قبل الشارع؟ ما معنى مرتجلة؟ أي: أن الشارع جاء باستعمال جديد غير المعهود عند العرب، يعني أنها أشياء غير معهودة وغير معروفة قبل خطاب الشارع، فالعرب قبل خطاب الشرع إذا قيل لهم: ما هي الصلاة؟ يكون الجواب هي الدعاء في لغتهم إلا ما عرفوا عن حقيقة الصلاة عند الأنبياء السابقين.

كذلك الصيام كان معروفاً عند العرب، وكان أهل الجاهلية يصومون يوم عاشوراء، قال تعالى: **{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ}** [(١٨٣) سورة البقرة]، فهذا المعنى جاء به الشارع لكن أصل كلام أهل اللغة في الصيام هو الإمساك.

وكذلك العمرة في اللغة هي الزيارة، والحج هو القصد، مع أنه كان معروفاً عندهم بمعناه الشرعي الذي عرف من قبل الشارع، وهذه مسألة مشهورة وهي أن الشارع يأتي بمصطلحات جديدة -الحقيقة الشرعية- أو أنها هي المعنى اللغوي ثم زاد عليها بعض الأشياء.

فالعلماء يتكلمون على هذا، فمنهم من يقول: هي المعنى اللغوي وزيد عليها، وبعضهم ينكر هذا، ويقول: كيف تكون الزيادات أصولا وأركانا، بمعنى أن الدعاء -مثلاً- واجب في الصلاة مثل: "اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم" أين هو من الركوع والسجود وتكبيرة الإحرام والقيام، وما أشبه ذلك من هيئات الصلاة التي هي أركان فيها؟ فيقولون: كيف تكون هذه الزيادات العظيمة الكثيرة غير الدعاء من الأقوال والأفعال في الصلاة ثم تكون الصلاة هي الدعاء وزيد عليها؟!

المقصود أن هذه حقائق شرعية سواء كانت مرتجلة من قبل الشارع أو منقولة، فالشارع إذا ذكر الصلاة فالأصل أنها ذات الركوع والسجود إلا لقرينة، كقوله: **{وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ}** [(١٠٣) سورة التوبة]، و((اللهم صلِّ على آل أبي أوفى))[3]، فهنا المقصود بالصلاة الدعاء لهم، أما إذا قال: **{وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ}** [(٤٣) سورة البقرة]، فلا يحمل على المعنى اللغوي، والقاعدة هي أن ألفاظ الشارع تحمل على المعنى الشرعي، فإن لم يوجد فالعرفي -يعني عرف المخاطبين- ثم المعنى اللغوي.

"{والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [(٤) سورة البقرة] **قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ} أي: يصدقون بما جئت به من الله، وما جاء به مَنْ قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم ولا يجحدون ما جاءوهم به من ربهم.**

{وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} أي: بالبعث والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان، وإنما سميت الآخرة؛ لأنها بعد الدنيا."

---

[3] – أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات– باب: هل يصلي على غير النبي -صلى الله عليه وسلم- (٥٩٩٨) (ج ٥ / ص ٢٣٣٩)، ومسلم في كتاب: الزكاة– باب: الدعاء لمن أتى بصدقة (١٠٧٨) (ج ٢ / ص ٧٥٦).

{والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ} يعني: القرآن، والتعبير في هذه الرواية التي ذكرها عن ابن عباس والتي قال فيها: يصدقون يدل على أن السلف يفسرون اللفظة بما يقرب المعنى، وإلا الإيمان لا يفسر بمجرد التصديق، وإنما هو تصديق خاص، أي: يصدقون بما جئت به من الله، وبما جاء من قبلك.

قال: "**لا يفرقون بينهم ولا يجحدون**": هذا كقوله تعالى: **{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ}** [(٢٨٥) سورة البقرة].

{وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} أي: بالبعث والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان، وإنما سميت الآخرة؛ لأنها بعد الدنيا؛ الآخرة بعد الدنيا لأنها متأخرة، ولفظ الآخرة مؤنث على تقدير الدار الآخرة، فحذفت الدار هنا لغلبة الاستعمال، فصار يقال: الآخرة، ثم صارت علماً بالغلبة على اليوم الآخر، فإذا قيل: الآخرة فهي اليوم الآخر، مع أن ذلك يصدق على اليوم الآخر، وعلى غيره مما يوصف بالتأخر لكن صارت علماً بالغلبة.

"**والموصوفون هنا هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}** [(٣) سورة البقرة].

عن مجاهد أنه قال: أربع آيات من أول سورة البقرة في نعت المؤمنين، وآيتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في المنافقين، فهذه الآيات الأربع عامَّات في كل مؤمن اتصف بها من عربي وعجمي، وكتابي من إنسي وجني، وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها، فلا يصح الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- وما جاء به مَنْ قبله من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والإيقان بالآخرة."

هذا الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- كلاماً جيداً، ففيه بيان لمعنى الآية مع توجيه للقول الذي اختاره؛ إذ في هذه الآية ثلاثة أقوال مشهورة، هي:

الأول: أن هذه الآيات الأربع على ما ذكره ابن كثير، وهو الظاهر، وهو الذي يدل عليه السياق، وهو أيضاً ما تدل عليه النصوص، وتعليله ما ذكره ابن كثير من أنه لا يصح الإيمان إلا باجتماع هذه الأمور جميعاً.

والقول الثاني: أن ما قبلها إنما المقصود به العرب الذين خاطبهم القرآن، ودخلوا في الإسلام، وأن هذه الآية والتي بعدها، **{والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ}** قالوا: هذه في أهل الكتاب.

القول الثالث: أنها جميعاً في من آمن من أهل الكتاب.

وأما قوله تعالى: **{الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}** [(١-٣) سورة البقرة]، قالوا: هذه في غير أهل الكتاب.

فقوله تعالى: **{والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}** [(٤) سورة البقرة]، قالوا: هذه في أهل الكتاب حيث إن عندهم كتابا آمنوا به فمدحهم الله -عز وجل- على إيمانهم بهذا وهذا، **{يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ}**، وهذا هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير، وجمع من السلف.

قوله -تبارك وتعالى-: **{أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [(٥) سورة البقرة] إذا قلنا: إن الآيات الأربع في طائفة واحدة، سواء قلنا بأنهم عموم أهل الإيمان من عرب وعجم وأهل كتاب -كما قال ابن

كثير هنا- أو قلنا القول الثالث -وهو قول بعيد- وهو أنها جميعاً في من آمن من أهل الكتاب فإن قوله {أُوْلَئِكَ} يرجع إلى الجميع، وإذا قلنا بقول ابن جرير ومن وافقه: إن الآيتين قبلُ في غير أهل الكتاب، وهذه الآية والتي بعدها في أهل الكتاب فيكون قوله: {أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} يعود على إحدى الطائفتين، وما ذكره ابن كثير -رحمه الله- هو الراجح.

وقد ردَّ شيخ الإسلام على من فرق بين هذه الآيات الأربع ممن جعل الآيتين الأوليين في من آمن من غير أهل الكتاب، والثالثة والرابعة فيمن آمن منهم.

مسألة:

هل يصح إيمان من لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم- وإيمان من لم يؤمن بالأنبياء السابقين؟

لا يصح أبداً إيمان من لم يؤمن بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، ولا يصح إيمان من لم يؤمن بالأنبياء السابقين.

يقول الله تعالى: {الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [(١-٤) سورة البقرة].

ويقول تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ} [(٢٨٥) سورة البقرة].

ويقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا} [(١٣٦) سورة النساء].

فالله -جل وعلا- أمرهم بالإيمان به، وأمرهم بالإيمان بملائكته ورسله وكتبه وما أشبه ذلك، سواء يذكر ذلك على سبيل الثناء عليهم أو على سبيل التعليم أو على سبيل الأمر أو غير ذلك، فهذه الأمور كلها مطلوبة، ولا يحصل الفلاح إلا باجتماعها جميعاً، فكل هذه الآيات الأربع في طائفة واحدة هي طائفة أهل الإيمان.

وأما قوله -تبارك وتعالى-: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ} [(٢-٣) سورة البقرة] فقد سبق الكلام عليها أيضاً، وهو أن هؤلاء إما أن يكونوا على حال صدق النية في طلب الحق والتمحض لذلك ومفارقة الهوى، فهم متهيئون للهداية، فالقرآن هداية لأمثالهم، أو يكون هؤلاء ممن أسلم فالله -عز وجل- يهديهم بهذا القرآن إلى التفاصيل، فلا إشكال في الآية.

"كما أن هذا لا يصح إلا بذاك، وقد أمر الله المؤمنين بذلك، كما قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ} [(١٣٦) سورة النساء] الآية.

وقال تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ} [(٤٦) سورة العنكبوت] الآية.

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم} [(٤٧) سورة النساء].

وقال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ} [(٦٨) سورة المائدة].

وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك، فقال تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ} [(٢٨٥) سورة البقرة].

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ} [(١٥٢) سورة النساء]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على جميع أمر المؤمنين بالإيمان بالله ورسله وكتبه."

المقصود أن الإيمان بالكتب السابقة ليس مختصاً بأهل الكتاب حتى يقال: إن قوله تعالى: **{والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ}** [(٤) سورة البقرة] المقصود بهم أهل الكتاب؛ لأنهم خوطبوا به، وإنما الصواب أن ذلك يشمل الجميع.

وكذلك لا يشكل قوله: **{بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ}** بأن يقال: كيف يؤمنون مع ما يوجد ويقع فيها من التناقضات؟ لأنها حرفت بما يتعارض مع القرآن، ولأنها منسوخة أصلاً، إذ إن حقائق الإيمان واحدة عند جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فما دخله التحريف فلا يؤمنون به، وإنما يؤمنون بأصل المنزل، وما نسخ فهم مطالبون باتباع الناسخ وهو القرآن، لكن يؤمنون بأن هذه الكتب في أصلها نزلت من عند الله -عز وجل-.

وهنا فيما ذكره ابن جرير -رحمه الله- لاحَظوا التفريق في التعبير في ذكر هذه الأوصاف، حيث قال: **{هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}** ثم لما ذكر هؤلاء قال: **{والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ}** [(٢-٤) سورة البقرة]، حيث جاء بالواو العاطفة مع الاسم الموصول "الذين" فأشعر ذلك أنهم طائفة أخرى، وهذا هو السبب الذي حدا بهؤلاء أن يقولوا: إن هذه طائفة، وهذه طائفة، وعلى كل حال هذا كله من عطف الصفات، كقوله -تبارك وتعالى-: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}** [(١-٣) سورة الأعلى] فتارة يذكر الواو وتارة مع حذف الواو العاطفة **{وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى* وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى}** [(٣-٤) سورة الأعلى]، فهذا كله لموصوف واحد، وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

"لكن لمؤمني أهل الكتاب خصوصية، وذلك أنهم مؤمنون بما بأيديهم مفصلاً، فإذا دخلوا في الإسلام وآمنوا به مفصلاً كان لهم على ذلك الأجر مرتين، وأما غيرهم فإنما يحصل له الإيمان بما تقدم مجملاً، كما جاء في الصحيح: ((إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تكذبوهم ولا تصدقوهم، ولكن قولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم))[٤]، ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالإسلام الذي بعث به محمد -صلى الله عليه وسلم- أتم وأكمل وأعم وأشمل من إيمان من دخل منهم في الإسلام؛ فهم وإن حصل لهم أجران من تلك الحيثية، فغيرهم يحصل له من التصديق ما يُنيف ثوابه على الأجرين اللذين حصلا لهم، والله أعلم."

هذا يخرَّج على قاعدة ذكرتها سابقاً وهي أن المزية لا تقتضي الأفضلية، فهؤلاء يؤتون أجرهم مرتين، ولكن لا يقتضي أنهم أفضل من غيرهم، فأبو بكر -رضي الله تعالى عنه- لم يكن على دين أهل الكتاب، ومع ذلك

[٤] - أخرجه أبو داود في كتاب: العلم - باب: رواية حديث أهل الكتاب (٣٦٤٤) (ج ٢ / ص ٣٤٢)، وأحمد (١٧٢٦٤) (ج ٤ / ص ١٣٦)، والحاكم (٥٠٣٨) (ج ٣ / ص ٤٠٤)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٥٠٥٢).

فإن منزلته وأجره عند الله -عز وجل- أعظم من الكتابي الذي دخل في الإسلام، وكما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- في الذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق، قال: ((فله أجران))[5] والآخر الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، فالماهر أفضل أجراً ومنزلة وحالاً ووصفاً، فالمزية لا تقتضي الأفضلية.

"{أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [(٥) سورة البقرة]، **يقول الله تعالى:** {أُوْلَئِكَ} أي: **المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والإنفاق من الذي رزقهم الله، والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومَنْ قبله من الرسل -عليهم السلام- والإيقان بالدار الآخرة، وهو مستلزم الاستعداد لها من الأعمال الصالحة وترك المحرمات."**

يقول تعالى: {وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} معنى اليقين الثبوت والرسوخ والاستقرار والسكون، يقال: يقن الماء إذا استقر وسكن، وهو يدل هنا على سكون العلم وثبوته ورسوخه، والعلم هو المبدأ، واليقين هو المنتهى، فإذا زاد العلم واستقر ورسخ وثبت بحيث لا يقبل التشكيك صار ذلك من قبيل اليقين، فأنت تعرف مثلاً أن هذه المسألة حكمها كذا، فإذا ترددت في هذا فهذا شك، وإذا غلب صار ظناً، فإذا قطعت وجزمت به فهو علم، وإذا صار ذلك العلم ثابتاً لا يقبل التشكيك فهو اليقين.

واليقين ثلاث مراتب هي: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، فحقائق ما أخبر الله -عز وجل- عنه إذا صدقته وثبت هذا عندك فهذا علم اليقين، فإذا شاهدته في الآخرة فهذا علم اليقين، فإذا دخلت في بحبوحة الجنة فهذا حق اليقين.

وكما يقول شيخ الإسلام وابن القيم: إذا رأيت العسل ووصف لك وعرفت حلاوته بوصف الثقة فهذا علم اليقين، فإذا رأيته فهذا عين اليقين، فإذا ذقته فهذا حق اليقين[6].

"{عَلَى هُدًى} أي: **نور وبيان وبصيرة من الله تعالى."**

كثيراً ما يأتي في الهدى استعمال "على" وفي الضلال استعمال "في" كما قال تعالى: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [(٢٤) سورة سبأ]، وكأن المراد أن من كان مهتدياً فهو مستعل بهداه، وأما من ضل فهو منغمس في ضلالته، لذلك كان الأنسب في الضلال أن يستعمل "في"، وفي الهدى أن تستعمل "على".

"{وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [(٥) سورة البقرة] أي: **في الدنيا والآخرة، بأن أدركوا ما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا، ففازوا بالثواب، والخلود في الجنات، والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب."**

{وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} الفلاح خلاصته تحصيل المطلوب والنجاة من المرهوب، وقد يطلق الفلاح على بعض معانيه مثل البقاء في الدنيا، أو البقاء في الآخرة، والبقاء يعني الخلود، كما قال القائل:

لو أن حياً يدرك الفلاح ... لناله ملاعب الرماح

فالفلاح في البيت يعني البقاء، وهذا كثير في كلام العرب.

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب: التفسير - باب: تفسير سورة عبس (٤٦٥٣) (ج ٤ / ص ١٨٨٢)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها - باب: فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه (٧٩٨) (ج ١ / ص ٥٤٩).

[6] - مجموع الفتاوى (ج ١ / ص ٦٤٥)، ومدارج السالكين (ج ٢ / ص ٤٠٣).

المقصود أن قوله: {وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} أي: الذين يحصل مقصودهم ومطلوبهم بنيل المنى والفوز العظيم في الدنيا وفي الآخرة، ويحصل لهم النجاة من المرهوب الذي هو عذاب الله -عز وجل- .

وعلى كل حال فالآيات فيها معان كثيرة وملاحظ دقيقة وفوائد جليلة وجوانب بلاغية يمكن استنباطها.

"{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(٦) سورة البقرة]، يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ} أي: غَطوا الحق وستروه، وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك، سواء عليهم إنذارك وعدمه، فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به."

في الآيات الأربع الأولى ذكر تعالى صفات أهل الإيمان الذين هم أهل الفلاح، والآن يذكر صفة الكفار، ثم بعد ذلك سيذكر صفة من أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر ممن أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر.

قوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ} أي: **غَطوا الحق وستروه**، هذا هو التعريف اللغوي للكفر؛ لأن أصل هذه المادة (كَفَرَ) تدل على الستر والتغطية، كما قال الشاعر:

يعلـــو طريقـــة متنهـــا متـــواتراً   في ليلـــة كفـــر النجـــوم ظلامهـــا

بمعنى غطاها وسترها.

والكفر في المعنى الشرعي لا يختص بالستر والتغطية، وإنما قد يكون هذا الإنسان إنما وقع في الكفر لكونه شاكاً، أو لكونه أصلاً لم يعلم بشيء إطلاقاً، فهو كافر بغض النظر عن كونه يعذر أو لا يعذر، فهو وإن لم يبلغه دين أصلاً فإنه موصوف بالكفر، والكفر أسبابه كثيرة فلا يختص بالجحود أو بمجرد الستر والتغطية.

قوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ} أي: لم يحققوا الإيمان المنجي من عذاب الله، أياً كان السبب.

"كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [(٩٦-٩٧) سورة يونس].

وقال تعالى في حق المعاندين من أهل الكتاب: {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ} [(١٤٥) سورة البقرة] الآية."

في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ} جواب عن إشكال في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ* خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} [(٦-٧) سورة البقرة]، وهو كيف أن الله أخبر عن الكفار بأنهم لا يؤمنون، ويستوي في حقهم الإنذار وعدم الإنذار حيث إن ظاهر اللفظ العموم؛ لأن الاسم الموصول من صيغ العموم، وعلل ذلك بأن الله ختم على قلوبهم، مع أنه من المعلوم أن من الكفار من خرج من الكفر فآمن بالله بعد الإنذار!

والجواب هو أن المقصود بالذين لا يؤمنون من الكفار مع حصول الإنذار وعدم حصوله هم من حقت عليهم كلمة الله، أي من قضى الله -عز وجل- عليهم وسبق في علمه أنهم لن يؤمنوا، فهم لا يفارقون الكفر ولا يتحولون إلى الإيمان بحال من الأحوال، ولهذا قال ابن كثير في تفسيره: إنهم المعاندون.

ولهذا ذهب ابن جرير -رحمه الله- وطائفة من السلف إلى أن المعنيون بقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} هم طائفة معينة مخصوصة من المشركين واليهود.

وبعضهم يقول قولاً يشبه هذا وهو أنهم قادة أهل الأحزاب من المشركين، وكبارهم ورءوسهم، وهذا لا ينافي القول الأول.

وبعضهم يقول: هم الذين قتلوا في بدر.

وعلى كل حال فهذه الآية لا بد أن يقال فيها: إنها خاصة وليست على ظاهرها في العموم، والذي جاءنا بهذا التخصيص هو الواقع، وبالتالي يمكن أن يكون المقصود بها أهل العناد ومن سبق في علم الله -عز وجل- أنه لن يؤمن، فهؤلاء يستوي في حقهم الإنذار وعدم الإنذار، وليس هذا القول بلازم، إلا أنه قول له وجه؛ لأن من كان شاكاً أو غير ذلك، كالذي ذهب وترك النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يؤمن بعد أن ناقش النبي -صلى الله عليه وسلم- مناقشة فيها تورع، فهذا يدخل في الآية مع أنه ليس معانداً، إلا أن القول في هذه الآية إنها في المعاند هو الأقرب، لكن بعض أهل العلم حينما يفسرون الكفر يقولون: هو الستر والتغطية من قولهم للزارع فلاح، يقال له: كافر؛ لأنه يدفن البذر في التربة، فهو يغطيها ويسترها، لكن ليس هذا فقط هو المعنى الشرعي.

"أي: إن من كتب الله عليه الشقاوة فلا مُسْعِد له، ومن أضلَّه فلا هادي له، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وبلّغهم الرّسالة، فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر، ومن تولى فلا تحزن عليهم ولا يُهِمنَّك ذلك؛ {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [(٤٠) سورة الرعد]، {إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [(١٢) سورة هود].

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}، قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحرصُ أن يؤمن جميع النَّاس ويُتَابعوه على الهدى، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادةُ في الذكر الأوّل، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأوّل."

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٤)

الشيخ/ خالد السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله- تعالى في قوله تعالى: {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ} [(٧) سورة البقرة].

"قال السّدي: {خَتَمَ اللّهُ} أي: طبع الله، وقال قتادة في هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه؛ فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون.

وقال ابن جُرَيْج: قال مجاهد: {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ} قال: الطبع، ثبتت الذنوب على القلوب فحثت به من كل نواحيه، حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع والطبع الختم، قال ابن جريج: الختم على القلب والسمع.

قال ابن جُرَيْج: وحدثني عبد الله بن كَثير، أنه سمع مجاهدًا يقول: الرّانُ أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد من ذلك كله."

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فأؤكد على أن عبارات السلف -رضي الله عنهم- عند تفسيرهم للألفاظ أو الجمل أنهم يقصدون بتفسيرهم تقريب المعنى بعبارة يفهم منها المراد من غير تكلف، وهذا ما نجده في هذه التفسيرات.

يقول في قوله تعالى: **{خَتَمَ اللّهُ} قال السدي: طبع الله**، ففسر الختم بالطبع، مع أن الختم ليس معناه الطبع في لغة العرب، وحتى في أصل معناه المقصود بالآية عند طائفة من أهل العلم، فبعضهم يرى أن الختم بمعنى الاستيثاق من الشيء بحيث لا يدخل فيه ما كان خارجاً منه، ولا يخرج منه ما كان بداخله.

فلو أن عندك جرة أو قربة -مثلاً- مختوم عليها فمعنى ذلك أنه قد أحكم إغلاقها فلا يدخل فيها شيء من خارج، ولا يخرج منها شيء مما في داخلها، هذا هو الختم.

والمعنى هنا أن هذه القلوب صارت لا تستقبل ولا تتأثر ولا تنتفع فهو قلب أقفل، هذا هو المراد، وبعض أهل العلم يرى أن هذا الختم درجة من درجات إغلاق القلب عن الهدى، والدرجة التي فوقها وهي أعظم منها هي درجة الطبع، وإذا أردت أن تجعل الدرجات أكثر من هذا فيمكن أن تدخل درجة الرَّان كذلك، لكن الرَّان أيسر من الطبع على القلب، فيرون أن الران بمعنى طبقة تغطي القلب، وتغلفه بحيث لا ينفذ إليه ما يؤثر فيه ويحركه، فلا ينتفع، وهذه الطبقة التي هي الران يمكن أن تزول ثم يعود القلب إلي حياته وعافيته، لكن من طبع على قلبه فقد استحكم الغواية والضلال، فلا ينفع معه موعظة ولا تأثير، كما قالوا **{قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}** [(٥) سورة فصلت] نسأل الله العافية.

وقتادة فسر الختم بما لا يفسر به عند المتأخرين؛ إذ إنه في تفسيره أعاد اللفظ ثانية فقال: **استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه؛ فختم الله على قلوبهم**: ومعنى استحوذ عليهم أي غلبهم وتمكن منهم، فهو لم يفسر معنى الختم، لكنّ المتأخرين –لشدة تنقيرهم وتكلفهم– يعدون أي إعادة للفظة المراد تعريفها من عيوب التعريف، ويقولون: يلزم منه الدور.

ومعنى الدور مثل ما لو قلت لي: ما هي الساعة؟ فقلت لك:الساعة هي الساعة التي يعرف بها الوقت، فهنا سأعيد عليك السؤال مرة أخرى وأقول لك: وما هي الساعة؟

لذلك ينبغي أن تقول –مثلاً: الساعة هي آلة يعرف بها الوقت، أما أن تعيد لفظة الساعة في التعريف فهذا عند المتأخرين يعتبر خطأً.

وقل مثل ذلك فيما لو قلنا: ما هو الباب؟ فينبغي أن تقول: الباب في المحسوسات هو المنفذ الذي يكون منه المدخل والمخرج، وفي المعنويات هو طائفة من العلم مخصوصة مندرجة تحت كتاب، أي: مسائل من العلم مخصوصة تندرج تحت كتاب، أما أن تقول: الباب هو الباب الذي يكون منه المدخل والمخرج، فهذا خطأ في التعريف.

المقصود أن السلف كانوا يبتعدون عن التكلف، أما المتأخرون فقتادة عندهم لم يفسر الختم بل لا يزال بحاجة إلى تفسير، ومعاذ الله أن نقول مثل هذا الكلام.

وبالنسبة لابن جريج فقد فسر الختم بالطبع أيضاً، ثم فسره بما يصدق على الران، وعلى هذا الاعتبار فالطبع والختم، والران في تفسير السلف كلها بمعنىً واحد.

فالذنوب تجتمع على القلب فتغلفه وتكسوه طبقة، وهذه الطبقة إذا استحكمت فإنه لا ينفع فيه موعظة، ولا ينفذ إليه ما يؤثر فيه، فعبارات السلف قربوا بها هذا المعنى، ومن فرق جعل ذلك على مراتب.

والمقصود على كل حال أن القلب يحصل له مثل هذه العوارض بسبب الذنوب، ولذلك اختار كبير المفسرين ابن جرير الطبري –رحمه الله– أن أحسن ما تفسر به هذه الآية هو الحديث الثابت عن النبي –صلى الله عليه وسلم– في مقارفة الذنوب، حيث يقول –صلى الله عليه وسلم–: ((تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عــوداً، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه))[1].

الكوز معروف إذا قُلِب أي نُكس فلا يمكن أن يجتمع المائع بداخله، وكذلك القلب ينكس إذا كثرت عليه الذنوب بعد أن تغطيه الطبقة التي يقال لها: الران، فلا يتأثر ولا ينتفع بعد ذلك، والعياذ بالله.

قال ابن جريج: الختم على القلب والسمع، قول ابن جريج –رحمه الله– هذا لم يرد ابن جريج أن يبين المعنى، وإنما قصد شيئاً آخر، وهو أن يبين أن قوله تعالى: **{خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}** [(٧) سورة البقرة] مرتبط، بعضه ببعض، فكما أنه يختم على القلب فكذلك يختم على السمع، فلا يسمع ما ينتفع به، وأما البصر فلا يختم عليه، وإنما يحصل له ما يغشيه أي: يغطيه فلا يرى الأشياء على

[1] - أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان - باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً وأنه يأرز بين المسجدين (١٤٤) (ج ١ / ص ١٢٨).

حقيقتها، فيزين له المنكر والباطل، ويرى الحق باطلاً ويرى الباطل حقاً، فتنعكس الموازين والمقاييس عند هذا الإنسان، وليس المقصود بالبصر هنا النظر بالعين، لكن المقصود أنه لا يبصر إبصاراً ينتفع به، ويتعظ به.

الحاصل أن ابن جريج بهذه العبارة، ما أراد أن يفسر المعنى، وإنما يريد بيان وجه الارتباط أو ما الذي يرتبط بعضه ببعض من هذا الكلام، فيكون الوقف في الآية على هذا الاعتبار، **{خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ}** ثم **{وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}**، وفي قراءة بنصب (غشاوة)، وعلى هذه القراءة يمكن أن تكون على تقدير: وجعل على أبصارهم غشاوة، ويمكن أن تكون على سبيل الإتباع فقط، فتكون جاءت منصوبة إتباعاً لما سبق على محل ختم على قلوبهم، فالقلوب مفعول به في الواقع من ناحية المحل، والأسماع كذلك تكون من باب الإتباع فقط، لكن الختم في الواقع لا يتعلق بها.

يقول مجاهد: **الرّانُ أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد من ذلك كله:** الران هو الطبقة التي تغطي القلب، ثم يطبع عليه، ثم بعد ذلك يحصل إقفال للقلب.

"**وقال الأعمش: أرانا مجاهد بيده فقال: كانوا يرون أن القلب في مثل هذه -يعني الكف- فإذا أذنب العبد ذنبًا ضُمَّ منه، وقال بأصبعه الخنصر هكذا، فإذا أذنب ضُمّ، وقال بأصبع أخرى، فإذا أذنب ضُمّ. وقال بأصبع أخرى هكذا حتى ضم أصابعه كلها، ثم قال: يطبع عليه بطابع**" أي إلى أن يصير القلب مغلقاً بعد أن كان مفتوحاً يتلقى ما ينفعه.

"**وقال مجاهد: كانوا يرون أن ذلك: الرين.**

قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن الله -عز وجل- قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين؛ مجازاة لكفرهم كما قال: {بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} [(١٥٥) سورة النساء]**، وذكر حديث تقليب القلوب ((يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك))**[2].

وذكر حديث حذيفة -رضي الله تعالى عنه- الذي في الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودا فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفاء فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادًّا كالكوز مجخيًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا)) الحديث[3]."

يعني تعرض الفتن على القلوب كالحصير الذي أعواده متتابعة، فالإنسان تعرض عليه فتن الشبهات، وفتن الشهوات شيئاً بعد شيء، فإذا نجا من هذه عرضت الأخرى، وإذا نجا من هذه عرضت الأخرى، وهكذا في سيره إلى الله -عز وجل- حتى يحصل له التمحيص، فمن أشربها فإن ذلك يكون نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب انجلت، فإن أمعن واسترسل جاءته الفتنة الأخرى والثالثة والرابعة وعند ذلك يطمس على قلبه فما ينتفع بعد ذلك بشيء.

---

[2] - أخرجه الترمذي في كتاب: القدر - باب: ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن (٢١٤٠) (ج ٤ / ص ٤٤٨)، وأحمد (١٧٦٦٧) (ج ٤ / ص ١٨٢)، والحاكم (٣١٤٠) (ج ٢ / ص ٣١٧)، وصححه الألباني برقم (٧٩٨٨) في صحيح الجامع.

[3] - سبق تخريجه.

لذلك ترون الجماعة من الناس يسمعون الموعظة الواحدة في مكان واحد، فمنهم من يبكي ويتأثر وينيب ويستجيب ويعمل، ومنهم من لا يحرك لذلك فيه ساكناً، وكل ذلك مع أن التوجيه واحد من بيان الأحكام والحلال والحرام، وغير ذلك، يسمعها اثنان فهذا يقبل غاية الإقبال ويطبِّق، والآخر كأنك لا تحدثه، أو كأنك تحدث جماداً، بل قد تجده يستنكف ويستهزئ، وسبب هذا كله أن كل شخص عنده من القبول بقدر ما عنده من سلامة القلب، وصحة التقوى في نفسه، فهو يستجيب ويتأثر بقدر ذلك.

قوله: **((أسود مرباداً))**: الأسود المرباد هو السواد المشوب بحمرة، فهذا لون قلبه أسود معه لون آخر كالحمرة، وهذا الختم والطبع واللون كله أشياء معنوية وليست حسية؛ فقلوب الناس لو فتحناها لوجدناها كلها سواء من الناحية الحسية.

"وقال ابن جرير: والحق عندي في ذلك ما صَحّ بنظيره الخبرُ عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو ما رواه أبو هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا كانت نُكْتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزعَ واستعتب صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي قال الله تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [(١٤) سورة المطففين] [رواه الترمذي والنسائي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح]."

هذا الحديث جيد الإسناد، وثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في الذي يترك ثلاث جمع.

وفي قول القرطبي: **وأجمعت الأمة على أن الله -عز وجل- قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين؛ مجازاة لكفرهم**، المقصود إجماع من يعتد به، وإلا فإن بعض طوائف الضلال يؤولون مثل هذه الأشياء، تأويلات بعيدة وفاسدة كالمعتزلة الذين لا عبرة بقولهم في الإجماع، لكن أهل السنة يقررون ما أثبته الله -عز وجل-، فهنا أخبر الله -جل وعلا- عن نفسه أنه يختم على بعض القلوب، وذلك جزاءً وفاقاً؛ وذلك أن الخلق خلقه، والملك ملكه، والهداية ملكه المحض، فإن أعطاك ففضل، وإن حرمك فعدل، ثم إن الله عليم خبير، يعلم أحوال الخلق وما تنطوي عليه نفوسهم وسرائرهم، فيوفق أقواماً ويخذل آخرين.

والله يقول: **{فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى* وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}** [(٥-١٠) سورة الليل]، فليس لأحد أن يحتج بالقدر على غوايته، فعلى العبد أن يصدق مع الله -عز وجل-، والله يقول: **{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}** [(١١٥) سورة التوبة]، ويقول تعالى: **{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}** [(١٤٣) سورة البقرة]، فلا يترك الإنسان العمل الصالح والاستقامة والهدى، فالنبي -عليه الصلاة والسلام- قال- كما في حديث سراقة-: ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له))[4].

"واعلم أن الوقف التام على قوله تعالى: {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ} [(٧) سورة البقرة]."

لو جيء بالعبارة التي قالها ابن جريج هنا لكان ذلك أليق بمحلها، وهي قوله: "**الختم على القلب والسمع**".

---

4 – أخرجه البخاري في كتاب: التفسير – باب: قول الله تعالى: {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [(١٠) سورة الليل] (٧١١٢) (ج ٦ / ص ٢٧٤٥)، ومسلم في كتاب: القدر – باب: كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٧) (ج ٤ / ص ٢٠٣٩).

"وقوله {وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} جملة تامة، فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع، والغشاوة -وهي الغطاء- يكون على البصر، كما قال السدي في تفسيره عن ابن عباس وعن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ورضي عنهم في قوله: {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ} يقول: فلا يعقلون ولا يسمعون، يقول: وجعل على أبصارهم غشاوة، يقول: على أعينهم فلا يبصرون."

ابن كثير -رحمه الله- يتكلم هنا عن موضع الوقف التام، هل هو على قلوبهم فتكون الآية: **{خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ}** ثم **{وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}** [(٧) سورة البقرة]، فيكون الختم فقط على القلب، والغشاوة على السمع والبصر، أم الختم يكون للقلب مع السمع وتكون الغشاوة خاصة للبصر، فيكون الوقف التام في الآية هكذا: **{خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ}** ثم **{وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}**.

والقول الثاني هو الراجح، ويدل لذلك قوله تعالى: **{فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ}** [(٢٤) سورة الشورى]، ويوضح ذلك أكثر الآية الأخرى في سورة الجاثية، وهي قوله تعالى: **{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً}** [(٢٣) سورة الجاثية].

"لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات، ثم عرّف حال الكافرين بهاتين الآيتين، شرع تعالى في بيان حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق."

قوله: **ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة كل منها نفاق**، هذا جواب على سؤال مقدر هو لماذا أطال في ذكر صفات المنافقين؟

فأمر المنافقين قد يلتبس ويخفى بخلاف الكافر الواضح، ثم إن هؤلاء أخطر من الكفار المجاهرين بكفرهم؛ لأن هؤلاء داخل الصف فهم يطلعون على عورات المسلمين ويهدمون من الداخل، ويطعنونهم من الظهر، فهم يخالطونهم صباح مساء في المساجد، ومعهم في الجهاد ومعهم في كل مكان، فيطلعون على كل صغيرة وكبيرة، فمثل هؤلاء هم الخطر، كما قال الله -عز وجل-: **{هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ}** [(٤) سورة المنافقون]، يعني هم العدو الحقيقي، وكأن المؤمنين ليس لهم عدو آخر.

"ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق، كما أنزل سورة براءة فيهم وسورة المنافقين فيهم، وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور تعريفاً لأحوالهم لتجتنب، ويجتنب من تلبس بها أيضًا، فقال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ* يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ} [(٨-٩) سورة البقرة].

النفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب، كما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى، وهذا كما قال ابن جريج: المنافق يخالف قَوْلُه فِعْلَهُ، وسرّه علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مَغيبه."

هذه حقيقة النفاق من حيث هو، لكنه في معناه الشرعي ينقسم إلى أكبر وأصغر، فالأكبر هو الذي جاء في مثل هذه الآيات، والمقصود به النفاق المخرج من الملة، وهو أن يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وليس مجرد المنافاة بين الظاهر والباطن بإطلاق، وإنما المقصود أنه يبطن الكفر ويظهر الإسلام، فهذا نفاقه أكبر، وأما ما

يحصل فيه المخالفة بين الظاهر والباطن كإخلاف المواعيد، والخيانة للأمانات فهذا من النفاق، لكنه من النفاق العملي، وهو المراد بقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((أربع من كن فيه كان منافقا خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها))[٥]، فهذا يمكن أن يجتمع مع الإيمان، كما يكون في الإنسان جاهلية مع الإيمان، كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– لأبي ذر: ((إنك امرؤ فيك جاهلية))[٦]، ويمكن أن يجتمع مع الإيمان فسق وبدعة وفجور، وكذلك يكون فيه نفاق.

هنا يقول: **هو إظهار الخير وإسرار الشر**، لكن هذا ليس مطلقاً، والمقصود هنا أنه يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وإلا فمن الناس من يظهر الخير ويبطن الشر وهو مسلم، لكنه يظهر الشر في جوانب مما يمكن أن تجتمع مع الإيمان، كالذي يظهر للناس الخير ويطلق لحيته –مثلاً–، وهو في نفس الوقت يبطن لهم الشر.

ولفظة (نفق) تشعر بمعنى الرواج وتدل عليه، يقال: فلان ينفق سلعته بالحلف الكاذب، بمعنى أنه يروج سلعته بالحلف الكاذب.

وقيل: لفظ النفاق مأخوذ من نافقاء اليربوع، فاليربوع في الظاهر ليس له إلا جحر واحد، لكن لا تستطيع مسكه فهو في الحقيقة له مخارج كثيرة مغطاة بطبقة خفية لا تراها، فبمجرد أن تأتي لتحبسه من هذا المخرج خرج من مخارج أخرى متعددة، وهكذا المنافق، وهذا المعنى وإن كان ليس محل اتفاق إلا أن له وجها.

فهذا الإنسان الذي أظهر الكفر وأبطن الإسلام، وكذلك من وجد فيه خصلة من خصال النفاق، يحصل له بهذه الخصلة تمرير لحال أو موقف محرج أو تمرير لطمع في شيء ما، ويكون هذا التمرير بطريقة لا تحل له، كأن يخون من ائتمنه أو يخلف في المواعيد أو يكذب في الحديث، فهو ينفِّق نفسه بإظهار الموافقة، كما يقال: دارِهم ما دمت في دارهم.

فالمنافق الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر يريد أن يحقن ماله ودمه، فهو ينفِّق نفسه عند هؤلاء الناس بإظهار الموافقة لهم أنه منهم ومعهم، وغير مخالف لهم، حتى يحصل مطلوبه وينجو مما يحذر، حتى إنهم يبعثون يوم القيامة على حال كحالهم التي كانوا عليها في الدنيا، كما قال الله –عز وجل– عنهم: **{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ}** [(١٨) سورة المجادلة]، فهم لما رأوا ذلك يروج في الدنيا حصلوا به مقصودهم من إجراء أحكام الإسلام في الظاهر عليهم، وإحراز الأموال وحقن الدماء وظنوا أن ذلك يروج في الآخرة، فمجرد ما قاموا من القبور جلسوا يحلفون، ولذلك عبر الله عنهم بأنهم اتخذوا الأيمان لهم ديدناً للصد عن سبيل الله، قال تعالى: **{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ}** [(١٦) سورة المجادلة]، والاتخاذ يدل على أن هذا الإنسان جعل هذا العمل ديدنه، فهم اتخذوا أيمانهم غطاء ووقاية، فتجدهم يقولون: والله ما قلنا هذا، والله ما حصل منا هذا، والله ما تكلمنا فيك، والله ما تلفظنا بهذه العبارات التي نقلت عنا، والله ما وقفنا هذا الموقف، وكل ذلك كذب!.

---

[5] – أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان – باب: علامة المنافق (٣٤) (ج ١ / ص ٢١)، ومسلم في كتاب: الإيمان – باب: بيان خصال المنافق (٥٨) (ج ١ / ص ٧٨).

[6] – أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان – باب: المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك (٣٠) (ج ١ / ص ٢٠)، ومسلم في كتاب: الإيمان – باب: إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه (١٦٦١) (ج ٣ / ص ١٢٨٢).

{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} أي أنهم استروحوا لصد أنفسهم وصد غيرهم، فكلمة "صدَّ" تأتي متعدية وتأتي لازمة، والقرآن بالألفاظ القليلة الدالة على المعنى الكبير، فهم صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم عن سبيل الله بتخذيلهم عن التمسك بالدين، وصدوا المؤمنين عن إقامة حكم الله فيهم بهذه الأيمان الكاذبة، كل هذه المعاني الثلاثة داخلة في هذا اللفظ.

"وإنما نزلت صفات المنافقين في السّور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه، من الناس من كان يظهر الكفر مُسْتَكْرَها، وهو في الباطن مؤمن."

في مكة من شدة التعذيب والأذى كان بعضهم يظهر الكفر ويخفي إسلامه وهو عكس النفاق، ولا حاجة في مكة إلى النفاق؛ لأن من أظهر الإسلام سيضطهد ويخسر كل شيء، من دنياه وربما قتل، لكنه وجد بعد غزوة بدر أي بعد ظهور شوكة الإسلام في المدينة، كما قال عبد الله بن أبيّ: إن هذا أمر قد توجه.

فدخل في الإسلام مجموعة من اليهود ومجموعة من الأوس والخزرج بعد ظهور شوكة الإسلام، وإلا فإن أول الهجرة أيضاً لم يوجد نفاق، لكن لما صارت للإسلام صولة وجولة بدأ هؤلاء يدخلون في الإسلام؛ وذلك لأنهم يحتاجون إلى مداراته، ويحتاجون إلى مصانعته وموافقته وهكذا

وبالنسبة لعصرنا هذا فالنفاق صار أكثر من ذي قبل لأسباب كثيرة، منها الخوف، وهذا الخوف أنواع، فبعضهم يخاف من العامة بل وحتى من أقاربه وذويه أن ينقلبوا عليه ويؤذونه ويسقطونه ويتكلمون في حقه، ويعيبونه ويذمونه، وبعضهم يفعل هذا على سبيل الطمع بشيء يحصله، كطمع بمال، أو منصب أوظيفة.

وبعضهم يخاف على مصلحة دنيوية، فتجد بعضهم –مثلاً– يقول: أنا مبتلى بتخصصي الشرعي، فقد حفظت القرآن، وبيتي بيت المسجد، وأنا إمام مسجد، فأنا مطوَّق من كل جهة، ولذلك بعضهم ذهب وانتسب في تخصص آخر؛ من أجل أن ينفض الماضي ويرتاح على حد زعمه؛ لأنه لم يحقق شيئاً من تخصصه الشرعي، وهذا والعياذ بالله يعتبر نفاق.

وهكذا تعددت الأسباب والنفاق واحد، فالنفاق في هذا الزمان أكثر منه في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– ويظهر هذا تماماً في أيام الفتن التي تحرك الناس، وتزلزلهم، فيظهر المؤمن الصادق، ويتلوَّن آخرون ممن يتنكرون لدينهم ولعقيدتهم.

"فلمَّا هاجر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلى المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قَيْنُقَاع حلفاء الخزرج، وبنو النَّضِير وبنو قُرَيْظَة حلفاء الأوس.

فلمَّا قدم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقلَّ من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سَلَام –رضي الله تعالى عنه– ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضا؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعدُ شوكة تخاف، بل قد كان –عليه الصلاة والسلام– وَادَعَ اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة، فلما كانت وقعة بدر وأظهر الله كلمته، وأعز الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أبيّ بن سلول، وكان رأسا في المدينة وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملّكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام

وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر قد تَوَجَّه، فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثَمّ وُجِد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد نافق؛ لأنه لم يكن أحد يهاجر مُكرَهًا، بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة.

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ} [(٨) سورة البقرة] يعني: المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم، وكذا فسَّرها بالمنافقين أبو العالية والحسن وقتادة والسدي.

ولهذا نبَّه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغترّ بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار أن يُظن بأهل الفجور خَيْر، فقال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ} أي: يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شيء آخر، كما قال تعالى: {إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ} [(١) سورة المنافقون] أي: إنما يقولون ذلك إذا جاءوك فقط لا في نفس الأمر؛ ولهذا يؤكدون في الشهادة بـــ(إنّ) و(لام) التأكيد في خبرها."

قوله تعالى: **{قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ}** في قوله: إنك تدل على أن الشخص يحتاج إلى المؤكدات كلما شعر أنه بحاجة إلى مزيد تأكيد؛ لأنه يشعر أنه متهم وأن الذي أمامه ليس مقتنعاً بما يقول، وهذه حقيقة المؤكدات في اللغة.

واللام في قوله: **{لَرَسُولُ اللَّهِ}** تسمى لام القسم، والتقدير والله إنك لرسول الله، وهذا يدل على كثرة الحلف عند المنافق؛ لأنه يشعر أنه متهم، ،وأن الذي أمامه غير مصدق له، فهؤلاء حلفهم كثير من غير استحلاف ومن غير داعٍ أصلاً، بينما تجد المؤمنين لا يحتاجون لمثل هذه الأمور دائماً، فما دام قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، انتهت، لكن هؤلاء كلما دخلوا قالوا: نشهد إنك لرسول الله.

وعبد الله بن أبيّ يجلس عند المنبر في كل جمعة قبل خطبة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ينادي: أيها الناس لقد بعث الله لكم هذا النبي فاسمعوا له وأطيعوا، وهكذا يحدثهم عن هذه النعمة المسداة والرحمة المهداة، حتى وقع منه ما وقع، لما قال: **{لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}** [(٨) سورة المنافقون]، فلما رجع إلى المدينة قام ليقول ذلك في الجمعة التي تليها، فأخرجوه من المسجد إخراجاً، حتى قابله بعض الصحابة عند باب المسجد، فسئل ما بالك؟ فقال: هؤلاء إن قلت لهم: اسمعوا له وأطيعوا غضبوا!!.

"أكَّدوا أمرهم قالوا: {آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ} وليس الأمر كذلك، كما كذبهم الله في شهادتهم، وفي خبرهم، هذا بالنسبة إلى اعتقادهم، بقوله تعالى: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} [(١) سورة المنافقون]."

أي أن الرد جاء موافقاً لكلامهم، فهم قالوا: **{نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ}**، فقال الله -عز وجل-: **{وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ}** هذه قضية، ثم قال: **{وَاللَّهُ يَشْهَدُ}** فهم استعملوا لفظ الشهادة وأكدوها بـــ"إنَّ"، فرد الله عليهم بالتوكيد بـــ"إنَّ" فقال: **{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ}**، وأكدوا بلام القسم **{لَرَسُولُ اللَّهِ}** فرد عليهم بالمثل فقال: **{لَكَاذِبُونَ}**.

إن الحديث عن المنافقين حديث ذو شجون، ومن عجائبهم أنهم كما قال ابن كثير –رحمه الله-: المنافق يقدر أن يبكي من عين واحدة فقط، ثم يوقفها ويبكي من العين الثانية، ثم يبكي من العينين معاً، أي إن له قدرة على التمثيل، ومهارة على اللعب بمشاعر الناس والضحك عليهم.

"وبقوله: {وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ}، وقوله تعالى: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا} أي: بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر."

قوله تعالى: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا} الخداع أصله في اللغة الإفساد كما يقول بعض أهل العلم، وبعضهم يقول: أصل الخداع هو الإخفاء، وهذا أقرب، فالذي يخادع يظهر شيئاً ويخفي غيره.

ولهذا فإن مخدع المرأة هو أقصى المكان الذي يكون في حجرة داخل حجرة، والذي يوضع فيه نفيس المتاع، ومنه قول النبي –صلى الله عليه وسلم-: ((صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها))[7] وقيل لهذا المكان مخدع؛ لأنه خفي جداً، فالمخادع يخفي شيئاً ويظهر شيئاً آخر.

والنفاق أنواع وأشكال وصور كثيرة جداً، ومن ذلك أن المنافق إذا وجد فرصة ليتكلم في المؤمنين تكلم، فيوم أن تزوج النبي –صلى الله عليه وسلم- بزينب، قال الله –عز وجل- عنه: **{وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ}** [(٣٧) سورة الأحزاب]؛ لأن المنافقين سيكون حديثهم عنه كيف تزوج امرأة مولاه زيد بن حارثة، فهذه فرصة لهم في الحديث، وهذه صفتهم وقد أخبر الله عن صفتهم هذه في القرآن فقال تعالى: **{وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}** [(٣٠) سورة محمد].

وهذا عبد الله بن أبيّ قال: **{لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}** [(٨) سورة المنافقون]، وهذا هو عين الكفر، وقال: سمِّن كلبك يأكلك، وقال: ما نحن ومثل هؤلاء إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، وهكذا تكلم المنافقون على النبي –صلى الله عليه وسلم- بأقبح الكلام وأقذره، وقالوا: يدعي أنه يأتيه الوحي وراحلته ضلت لا يدري أين هي!

ولما أجدبوا وقلّت المياه والأزواد وصاروا يعصرون الفرث ليشربوا منه، فرفع النبي –صلى الله عليه وسلم- يديه فجاءت السحاب ولم يكن في السماء سحابة واحدة فنزل المطر، قال بعضهم لبعض: ألا تنظر فقال:إنما هى سحابة عارضة، ومثل هذا قاله المنافقون في بعض البلاد لما قام الدعاة إلى الله واستسقوا فنزل المطر، حيث كتبت الصحف في تلك البلاد أن هؤلاء درسوا الأحوال الجوية، وأن هناك ما يسمى بالهبوط والارتفاع في الضغط الجوي ونحو ذلك، وأن هؤلاء الدعاة درسوا الوضع الجوي وعرفوا أن المطر سينزل فمثلوا بصلاة الاستسقاء ليقولوا: إن المطر نزل بدعائنا، إلى غير ذلك من الكلام القبيح، نسأل الله السلامة والعافية.

[7] - أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة – باب: ما جاء في خروج النساء إلى المسجد والتشديد في ذلك (٥٧٠) (ج ١ / ص ٢١١)، وصححه الألباني برقم (٣٨٣٣) في صحيح الجامع.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٥)

الشيخ/ خالد السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر في تفسير قوله تعالى: {يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا} [(٩) سورة البقرة]: "أي: بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخادعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين، كما قال تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [(١٨) سورة المجادلة].

ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: {وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ} [(٩) سورة البقرة]، يقول: وما يَغُرُّون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم، كما قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [(١٤٢) سورة النساء]."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

عرفنا أن المخادعة أصلها من الإخفاء، وذلك أن هذا الإنسان الذي يخادع أهل الإيمان يخفي أمراً غير ما يُظهر؛ ليروج عندهم أو ليحصّل شيئاً من المطامع، كأن يحرز ماله، أو يحقن دمه، وما أشبه ذلك، فأصل المخادعة مأخوذ من معنى الإخفاء.

وفي قوله: **{وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم}** في قراءة ثلاثة من السبعة، وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو، **{وَمَا يُخَادِعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم}**، فهي قراءة متواترة، والأصل في المعنى واحد، إلا أن المفاعلة تأتي عادة لما يكون بين اثنين فأكثر، وإن كان ذلك ليس بلازم.

"وروى ابن أبي حاتم عن ابن جُرَيْج، في قوله تعالى: {يُخَادِعُونَ اللّهَ} قال: يظهرون "لا إله إلا الله" يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم، وفي أنفسهم غير ذلك."

هؤلاء يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وهذا هو النفاق الأكبر المخرج من الملة، وأما النفاق الأصغر والذي يسمى بالنفاق العملي، فهو كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أربع من كن فيه كان منافقا خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها))[1] فذكر أربعة أمور عملية.

"وقال سعيد عن قتادة: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ* يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ} [(٨-٩) سورة البقرة] نعت المنافق عند كثير: خَنِعُ الأخلاق يصدّق بلسانه وينكر بقلبه، ويخالف بعمله، ويصبح على حال ويمسي على غيره، ويمسي على حال ويصبح على غيره، ويتكفأ تكفؤ السفينة كلما هبَّت ريح هبّت معها."

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان – باب: علامة المنافق (٣٤) (ج ١ / ص ٢١)، ومسلم في كتاب: الإيمان – باب: بيان خصال المنـــافق (٥٨) (ج ١ / ص ٧٨).

أي أنه ليس له مبدأ يلتزمه، وإنما هو يتلون بحسب ما يرى أن مصلحته تقتضيه، فهو مع من غلب كما قال الله -عز وجل-: **{وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا}** أي: المدينة **{ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا}** [(١٤) سورة الأحزاب]، ومعنى سئلوا الفتنة أي: لو سئلوا الكفر لاستجابوا.

"{فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [(١٠) سورة البقرة]، قال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرّة الهمداني عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ورضي عنهم في هذه الآية {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} قال: شَكٌّ، {فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً} [(١٠) سورة البقرة] قال: شكًّا."

إذا ذكر المرض في كتاب الله -عز وجل- فتارة يراد به مرض الشك والنفاق، وتارة يراد به ضعف الإيمان، وهذا بناء على القول بالتفريق في قوله -تبارك وتعالى- في سورة الأحزاب: **{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}** [(١٢) سورة الأحزاب]، فعلى أن الواو هنا عطفت طائفة على طائفة يكون أهل النفاق غير الذين في قلوبهم مرض، فيكون المقصود بالذين في قلوبهم مرض أي ضعفاء الإيمان الذين اهتزت ثقتهم في يوم الأحزاب.

ومن أهل العلم من يقول: إنها طائفة واحدة، وأن هذا العطف من باب عطف الصفات كما سبق في قوله تعالى: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}** [(١-٣) سورة الأعلى]، وكذلك في أول سورة البقرة: **{هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}** [(٢-٤) سورة البقرة].

ومن باب قول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

فكلها طائفة واحدة في موصوف واحد، فالذين في قلوبهم مرض تارة يراد بهم أهل النفاق كما هنا، وتارة يراد به ضعف الإيمان وتارة يراد به مرض الشهوة والميل المحرم إلى النساء كما في الموضع الوحيد من القرآن في سورة الأحزاب **{فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}** [(٣٢) سورة الأحزاب]، بمعنى الميل المحرم إلى النساء.

وعلى كل حال إذا رأيت المرض في القرآن فالغالب أن المراد به مرض النفاق أو ضعف الإيمان إلا في موضع واحد، وهنا لا شك أن المراد به مرض النفاق، وإلا فالقلوب على كل حال تمرض وتعتل بصور شتى، فتارة بالشك وما أشبهه، وتارة يكون ذلك بضعف الإيمان، وتارة تمرض بالقسوة، وتارة تمرض بالرياء وحب المحمدة، وتارة تمرض بالعجب والزهو، وغير ذلك مما يعتريها من الأمراض.

"وكذلك قال مجاهد، وعكرمة، والحسن البصري، وأبو العالية، والرّبيع بن أنس، وقتادة.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: {{فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} قال: هذا مرض في الدين وليس مرضًا في الأجساد."

يقصد أن هذا المرض الذي يصيب هذه القلوب هو مرض معنوي، وليس مرضاً حسياً مما يحتاج الإنسان معه إلى عملية جراحية أو نحو ذلك.

"قال: هذا مرض في الدين، وليس مرضًا في الأجساد وهم المنافقون، والمرض: الشك الذي دخلهم في الإسلام.

{فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً} قال: زادهم رجسًا، وقرأ: **{الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ}** [(١٢٤-١٢٥) سورة التوبة] قال: شرًا إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم.

وهذا الذي قاله عبد الرحمن -رحمه الله- حسن، وهو الجزاء من جنس العمل، وكذلك قاله الأولون، وهو نظير قوله تعالى أيضًا: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [(١٧) سورة محمد].

وقوله: {بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}، وقرئ: "يكذّبون"."

قوله: "**وقرئ: "يكذّبون**" هذه قراءة متواترة وهي قراءة ابن كثير من السبعة، والفرق بين القراءتين أن يكذِبون -بالتخفيف- تعني أن الكذب يصدر منهم، أي أنهم يكذبون في قولهم وفي دعواهم للإيمان.

ويكذّبون -بالتشديد- هي أشمل في المعنى إذ تدل على الكثرة؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فيكذّب يعني لا يكون صادقاً فيما صدر منه من الأقوال والأفعال، ويكذّب أي بالقرآن وبالوحي وبالنبوة، فهو مكذب في ذلك كله، ولا شك أن هذا جميعاً من الكفر، وبالتالي لما أظهر الإسلام وأبطن هذا التكذيب صار كاذباً في دعواه الإيمان.

وهذه المعاني متلازمة، فالقاعدة أن الآية إذا احتملت معنيين بينهما ملازمة فإنها تحمل عليهما جميعاً، ومن أمثلته **{وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ}** [(٣) سورة الفلق]، فمنهم من قال: إنه القمر، ومنهم من قال: إنه الليل، فنقول: إنما يظهر القمر ليلاً، كما قال تعالى: **{فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ}**، يعني القمر، **{وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً}** [(١٢) سورة الإسراء] يعني الشمس، فهما قولان متلازمان لا نحتاج أن نرجح بينهما.

ومثل ذلك قوله -تبارك وتعالى- في آية الكرسي: **{وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ}** [(٢٥٥) سورة البقرة]، هل يقال: المقصود أنهم لا يحيطون بشيء من علم ما بين أيديهم وما خلفهم أو من علم الله، يقال: لا تعارض بين المعنيين؛ لأن علم ما بين أيديهم وما خلفهم هو جزء من علم الله، والباء في قوله: **{بِشَيْءٍ}** سببية.

يقول تعالى: **{فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً}** [(١٠) سورة البقرة] أي تعاطوا الأسباب التي أوقعتهم في الريبة والشك حتى ابتلوا بهذا النفاق، فلما أعرضوا عن الصدق قولاً وفعلاً وحالاً، عاقبهم الله -عز وجل- بما يصلح ويناسب لفعلهم القبيح فزادهم من هذا المرض، وهذا بخلاف من أقبل على الله -عز وجل- بصدق ولجأ إليه واهتدى بالقرآن فإن الله يزيده إيماناً وينقله من هداية إلى هداية؛ فهو أرحم بعباده كما قال -عز وجل-: **{هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}** [(٤٣) سورة الأحزاب]، فهو ينقلهم من رحمة إلى رحمة، ومن هدى إلى هدى، حتى يتم لهم هذا الإيمان، قال تعالى: **{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ}** [(١١٥) سورة التوبة].

هذا هو تفسير هذه الآية عند أهل السنة والجماعة، وهو أن الله -عز وجل- يجازيهم على هذا النفاق وهذا الكفر وهذا الرجس وتعاطي أسباب الشر أن يزيدهم مرضاً إلى مرضهم، وهذا أصل معروف دلَّ عليه القرآن

في مواضع كثيرة، فمن أعرض عما هو مطالب به من الحق والعمل الصالح والإيمان ابتلي بالاشتغال بما يضره.

والشيخ عبد الرحمن بن سعدي في كتابه القواعد الحسان تكلم على هذا الأصل وجاء له بأمثلة كثيرة، من ذلك أن اليهود لما تركوا التوراة والعمل بها ابتلوا باتباع الشياطين، كما قال تعالى: **{وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}** [(١٠٢) سورة البقرة].

ومن أعرض عن كتاب الله -عز وجل- فلا يسمعه ولا يقرؤه ولا يتدبره ابتلي بسماع الأغاني واللهو والغيبة والكذب والباطل والزور وما أشبه ذلك، وهكذا كل من أعرض عما هو بصدده مما طولب به ابتلي بالاشتغال بضده.

"وقوله: {بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}، وقرئ: "يكذّبون" وقد كانوا متصفين بهذا وهذا، فإنهم كانوا كذبة ويكذبون بالغيب، يجمعون بين هذا وهذا."

دلالة القراءة الثانية -أعني قراءة يكذّبون بالتشديد- فيها زيادة، وهي أنها تدل على التكثير، أي على كثرة الكذب منهم، أضف إلى ذلك أنها دلت على معنىً آخر وهو أنهم يكذبون بالقرآن وبالوحي والرسالة.

وصنيع ابن كثير -رحمه الله- بناءً على أنه حمل الآية على معنييها، والقاعدة أن تعدد القراءات ينزل منزلة تعدد الآيات، فإذا كان لكل قراءة معنىً يخصها فإنها تنزل منزلة الآية المستقلة، ومن ثم يفسر القرآن بهذه المعاني جميعاً.

وهذا التفسير أنواع: منه ما يرجع إلى ذات واحدة فيكون من باب زيادة الأوصاف، مثل قوله -تبارك وتعالى-: **{وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ}** [(٨٦) سورة الكهف]، أي: منتنة متغيرة من طول المكث، وعلى القراءة السبعية الأخرى: **{وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ}** يعني حارة، فهذا من باب تعدد القراءات؛ لأنه يرجع إلى ذات واحدة موصوفة هي العين، وهو من باب زيادة الأوصاف، فهي عين متغيرة منتنة وحارة.

وتارة تكون كل قراءة عائدة إلى معنىً آخر، مثل قول الله -عز وجل-: **{وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ}** [(٢٢٢) سورة البقرة]، في القراءة الأخرى (يطَّهَّرْنَ)، فعلى قراءة يَطْهُرْنَ يعني انقطاع الدم، وعلى قراءة يطَّهَّرْنَ يعني الاغتسال، ومن هذا النوع قوله تعالى: **{بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}** ويُكَذِّبونَ.

"(تنبيه) قول من قال: كان -عليه الصلاة والسلام- يعلم أعيان بعض المنافقين إنما مستنده حديث حذيفة ابن اليمان -رضي الله تعالى عنه- في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقًا في غزوة تبوك الذين هموا أن يفتكوا برسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ظلماء الليل عند عقبةٍ هناك؛ عزموا على أن ينفروا به الناقة ليسقط عنها، فأوحى الله إليه أمرهم فأطلع على ذلك حذيفة.

فأما غير هؤلاء فقد قال الله تعالى: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ} [(١٠١) سورة التوبة] **الآية.**

وقال تعالى: {لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا* مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا} [(٦٠-٦١) سورة الأحزاب]**، ففيها دليل**

على أنه لم يغر بهم ولم يدرك على أعيانهم، وإنما كانت تذكر له صفاتهم فيتوسمها في بعضهم كما قال تعالى: {وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} [(٣٠) سورة محمد].

وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبيّ بن سلول."

من أهل العلم من يقول: إن النبي –صلى الله عليه وسلم– أطلعه الله بعد ذلك على المنافقين، وأسر بذلك إلى حذيفة، ولهذا كان عمر –رضي الله عنه– يسأل حذيفة هل سماه له رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، مع أن عمر يعلم قطعاً أنه ليس من النفر الأربعة عشر الذين نفروا ناقة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عند العقبة، حتى إن عمر –رضي الله عنه– كان لا يصلي على ميت حتى ينظر هل صلى عليه حذيفة أو لا يصلي عليه.

"وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبيّ بن سلول، وقد شهد عليه زيد بن أرقم –رضي الله تعالى عنه–، وقد عاتبه –صلى الله عليه وسلم– عمرُ بن الخطاب –رضي الله عنه– ".

يعني أن عمر –رضي الله عنه– عاتب النبي –صلى الله عليه وسلم– لماذا تصلي على هذا المنافق!.

ومما يدل على نفاق ابن أبيّ ما حدث في غزوة المريسيع حيث اختصم الجهجاه –وهو رجل من غفار كان مولى لعمر– مع رجل من جهينة كان مولى لعبد الله بن أبيّ، اختصما على الماء، فلطم الجهجاه الجهني، وكان الجهجاه كما في بعض الروايات كثير الدعابة، فكسع الجهني، أي ضربه بظهر قدمه على دبره، وكان العرب يكرهون هذا النوع من الضرب، ويكرهون الضرب على القفا أيضاً، كما قال القائل:

وكنت أُرى زيداً كما قيل سيداً ... إذا إنّه عبد القفا واللهازم

فالعبد هو الذي يضرب على قفاه، أما الحر فلا يضرب هكذا، ولذلك فالأستاذ الذي يضرب الطلاب بهذه الطريقة مخطئ؛ لأنه بهذا يذلهم.

الحاصل أن ذلك الرجل غضب، فقال: يا للأنصار، فقال الجهجاه: يا للمهاجرين، فقال عبد الله بن أبيّ لما بلغه ذلك: أو قد فعلوها، والله ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، **{لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}** [(٨) سورة المنافقون]، ثم لام قومه، فقال: إني نهيتكم عن إيوائهم لكنكم خالفتموني وساكنتموهم وأطعمتموهم ولو تركتموهم لطلبوا داراً أخرى غير المدينة.

وقد صور الله تعالى ذلك بقوله: **{هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا}** [(٧) سورة المنافقون]، أي: اقطعوا عنهم الأموال فيتفرقوا عنه.

وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبيّ بن سلول، وقد شهد عليه زيد بن أرقم –رضي الله تعالى عنه–، شهد عليه زيد لما قال: ليخرجن الأعز منها الأذل.

"وقد عاتبه –صلى الله عليه وسلم– عمرُ بن الخطاب –رضي الله تعالى عنه– فيه فقال: ((إني أكره أن تتحدث العرب أن محمدًا يقتل أصحابه))[٢]."

---

[2] – أخرجه البخاري في كتاب: التفسير – باب قوله: {يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [(٨) سورة المنافقون] (٤٦٢٤) (ج ٤ / ص ١٨٦٣)، ومسلم في كتاب: البر والصلة والآداب– باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً (٢٥٨٤) (ج ٤ / ص ١٩٩٨)، ولفظهما: ((دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه)).

مع أن الرجل قال كفراً، وشتم النبي -صلى الله عليه وسلم- بأقبح الشتم، ومع ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يقتله من باب ارتكاب أخف الضررين بدفع أعلاهما.

وكذلك في تسمية المنافقين، لم يسمهم النبي -صلى الله عليه وسلم- للصحابة، وإنما أعطاها لحذيفة، فلم يخبر بها حذيفة -رضي الله عنه-؛ لئلا يؤدي ذلك إلى مفسدة أعظم، فيكفي معرفة الأوصاف ليحتفظ كل إنسان بمعلوماته لنفسه، فإذا أظهر هذا وحكم على الناس علناً بمثل هذه الأمور فإنه يحصل من المفاسد ما لا يخفى، يكفي أن هذه أوصافهم فمن وجدت فيه هذه الأوصاف فهو منافق.

"ومع هذا لما مات صلى عليه -صلى الله عليه وسلم- وشهد دفنه، كما يفعل ببقية المسلمين."

لأن كل من أبطن الكفر وأظهر الإسلام يجري عليه حكم الظاهر وأمره إلى الله -عز وجل-، لكن هذا غير مسألة الاغترار به، والثناء عليه، وتوليته، وما أشبه ذلك، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يولِّ أحداً منهم، لا على سرية ولا على أكثر من ذلك ولا أقل.

"وفي الصحيح ((إني خيرت فاخترت))[3] وفي رواية: ((لو أعلم أني لو زدت على السبعين يغفر الله له لزدت))[4]."

هذه أخلاق الكبار قلَّ من يصل إليها، رجل يتكلم بهذا ويرمي عرض النبي -صلى الله عليه وسلم- ويتهم عائشة -رضي الله عنها- بالزنا، وينشر هذا في الناس، ويقول: سمن كلبك يأكلك، ولئن رجعنا إلى المدينة..، ولا يزال يفسد في داخل الصف كالسوسة تنخر ثم يصلي عليه ويكفنه في قميصه -عليه الصلاة والسلام- ويقول: ((لو أعلم أني لو زدت على السبعين يغفر الله له لزدت))، من يفعل هذا؟

تصور الآن واحداً يفعل هذه الأشياء كلها ووصل أذاه إلى عرضك وهو منافق يفسد في المجتمع، ويفسد في الناس، هل ستقول: أستغفر له سبعين مرة، وأكثر من سبعين مرة، وأدفنه في ثوبي؟

ستقول: اللهم كفنه في جهنم، وهذا هو الذي يقوله الناس عادة إلا من روض نفسه وغلبها وقهرها وارتفع.

هذه أمور لا يصلها كثير من الناس، بل كثير من الناس يتمرغ في دائرة ضيقة في داخل نفسه تغمرها الأحقاد والحسد وتصفية الحسابات، فلا يستطيع أن يرتفع، كلما ارتفع قعدت به نفسه فلا يسمو، وقد يكون هذا مع أقرب الناس إليه.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ* أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ} [(١١-١٢) سورة البقرة].

"قال السدي في تفسيره عن ابن عباس، وعن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم-: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} قال: هم المنافقون، أما {لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ}، قال: الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية.

---

[3] - أخرجه بهذا اللفظ البخاري في كتاب: الجنائز - باب: ما يكره من الصلاة على المنافقين والاستغفار للمشركين (١٣٠٠) (ج ١ / ص ٤٥٩).

[4] - أخرجه البخاري أيضاً في كتاب: التفسير - باب: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ} [(٨٠) سورة التوبة (٤٣٩٤) (ج ٤ / ص ١٧١٥).

وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ} قال: يعني: لا تعصُوا في الأرض، وكان فسادهم ذلك معصية الله؛ لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله، فقد أفسد في الأرض."

هذا هو المعنى العام للإفساد في الأرض، ويدخل فيه الإيقاع بين الناس، والتثبيط عن اتباع النبي –صلى الله عليه وسلم– وعن الجهاد معه، {وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ} [(٨١) سورة التوبة].

والتثبيط عن النفقة {لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا} [(٧) سورة المنافقون].

{لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً} [(٤٧) سورة التوبة]، خبالاً: يعني وهناً وضعفاً، {ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} [(٤٧) سورة التوبة]، أي الدسائس والمؤامرات للإفساد بينكم مع قلة الجدوى.

وإذا حضروا أرض المعركة فهم كما قال الله –عز وجل–: {وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا} [(١٨) سورة الأحزاب]، فالمنافق ما حضر إلا لدفع التهمة عنه وللحصول على شهادة حضور، فإن حصلت غنيمة فهو معهم، فهو يحضر أرض المعركة حتى يُرى أنه حضر ولكنه لا يفعل شيئاً، فإذا ذهب الخوف وجاء وقت تقسيم الغنائم فهو كما قال الله: {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ} [(١٩) سورة الأحزاب].

فإذا جاء الخوف {رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} [(١٩) سورة الأحزاب]، فهو من شدة الخوف من الموت لا يستطيع أن يلتفت؛ لأنه يخاف أن يؤتى من هنا أو من هنا، وإنما العين فقط هي التي تدور يمنة ويسرة.

{فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} [(١٩) سورة الأحزاب]، والسلق هو البسط، والمعنى أنه إذا كان الأمن تكلموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة وهم يكذبون في ذلك.

فالحاصل أن هذا كله من الإفساد في الأرض، وأعظم الإفساد في الأرض هو الكفر بالله –عز وجل– والصد عن سبيله

"وكان فسادهم ذلك معصية الله؛ لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطَّاعة، وهكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة.

قال ابن جرير: فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكّهم في دينه الذي لا يُقْبَلُ من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكَذِبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً."

ومثل هذا ما فعلوه مع يهود بني النضير في القصة المعروفة لما قالوا: لا تنزلوا عن دياركم وأموالكم، ولا تطيعوا محمداً فنحن معكم، وقالوا: نحن نعينكم بأربعة آلاف مقاتل، ثم خذلوهم.

قال الله –عز وجل–: {لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} [(١٢) سورة الحشر] فهم وعدوا بني النضير لما طالبهم النبي –صلى الله عليه وسلم– بالاستسلام والنزول على حكمه فاستشاروا عبد الله بن أبيّ فقال لهم: لا تفعلوا، كيف تنزلون عن دياركم وتخرجون من المدينة وتنزلون على حكمه، بل اثبتوا ونحن معكم.

وكانوا قد وعدوا النبي –صلى الله عليه وسلم– في بداية الأمر بشيء من هذا، ثم رجعوا إليه، وقالوا: لا، ليس بيننا وبينك شيء، ووضعوا المتاريس واستعدوا للقتال، وتباطئوا عبد الله بن أبيّ الذي وعدهم بأنه سيمدهم بالمقاتلين، فأرسلوا إليه رجلاً فوجدوه يتعشى، فقالوا له: أين ما وعدتنا؟ فقال: سنبعث إلى حلفائنا في غطفان، ولم يلتفت إلى الرجل، وهكذا خذلهم فلم يقاتل معهم، ولم يخرج معهم حينما أخرجوا.

وهكذا هو إفسادهم وهذه صورة من إفسادهم.

ومن صور إفساده أنه إذا لم يستطع أن يفعل شيئاً فلا أقل من أن يشوش على الناس ويرجف، كما قال حينما قتل النبي –صلى الله عليه وسلم– رجالات بني قريضة: يقتل أربعمائة دارع في غداة واحدة؟!

وهكذا بدأ يثير بلبلة، كيف يقتل أربعمائة دارع في خنادق في صبيحة واحدة، فهو يستغل مثل هذه الفرص ويثير هذه البلبلة مع أنه ليس له وسائل إعلام كما هو الحال اليوم، فكيف ستكون النتائج لو كانت وسائل الإعلام في ذلك الوقت كاليوم وطُلب لمقابلة في قناة من القنوات!!.

"فذلك إفساد المنافقين في الأرض، وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها.

وهذا الذي قاله حسن، فإن من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، كما قال تعالى: {وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [(٧٣) سورة الأنفال]."

ولذلك لما كانت هذه الوشيجة موجودة بينهم وبين الكفار، كانوا يقولون لأهل الإيمان يوم الأحزاب: هلم إلينا، قال تعالى: **{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا}** [(١٨) سورة الأحزاب].

على أحد التفسيرات المشهورة في الآية، أنهم كانوا يقولون: نحن بيننا وبين هؤلاء الأحزاب خطوط اتصال، وصلة، وكانوا يحرضونهم أن يدخلوا المدينة ويعدونهم بأنهم سيحمونهم ويدافعون عنهم وسيدَّعون أن هؤلاء ليسوا من الأحزاب فلا يقع عليهم القتل والأسر، وستكون فرصة للبطش بالنبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه على حدِّ اعتقادهم.

ولذلك لما ذهبت الأحزاب لم يصدق المنافقون ذلك؛ فهم كانوا متيقنين أن الأحزاب سيدخلون ويبطشون ويقتلون النبي –صلى الله عليه وسلم– ويأسرون المسلمين، ويضعونهم في أقفاص كما قال تعالى: **{يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا}** [(٢٠) سورة الأحزاب]

والحقيقة أنهم جبناء كما قال تعالى: **{وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ}** [(٢٠) سورة الأحزاب]، أي أنهم يسألون عن أنبائهم من بعيد من خلال تلقي الركبان وسؤال الناس الذين يأتونهم بالأخبار، وإلا فلو كانوا في المدينة لم يقاتلوا معهم إلا قليلاً، كما قال تعالى: **وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا}** (٢٠) سورة الأحزاب].

"فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين كما قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا} [(١٤٤) سورة النساء]، ثم قال: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا} [(١٤٥) سورة النساء].

فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين، فكأن الفساد من جهة المنافق حاصل؛ لأنه هو الذي غَرّ المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له، ووالى الكافرين على المؤمنين، ولو أنه استمر على حاله الأول

لكان شرّه أخف، ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح ونجح؛ ولهذا قال تعالى: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}** أي: نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين، ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء."

في أول سورة الأحزاب الله –عز وجل– يقول: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا* وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}** [(١-٢) سورة الأحزاب.

جاء بعض كبراء قريش سراً إلى المدينة، فنزلوا عند عبد الله بن أبيّ، فجاء إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– يطرح له رأياً وهو أن ينزع الفتيل –كما يقال– فلا تكون هناك حرب إعلامية، ولا أي مناوشات، أي: لا يتعرض للمشركين ولا لدينهم، ولا لآلهتهم، .

والمشركون بالمقابل يكفون عن النبي –صلى الله عليه وسلم– وعن أصحابه، وتكون القضية بهذا علاقات، فالمنافقون بهذا الطرح كانوا يزعمون أنهم يريدون توفيق العلاقات بين المسلمين والكافرين، فيصطلحون مع هؤلاء ومع هؤلاء، فقال الله –عز وجل–: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا* وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا* وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}** [(١-٣) سورة الأحزاب] أي: لا تخف فالله لن يضيعك.

ثم يقول الله: **{مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ}** [(٤) سورة الأحزاب]، ومن معانيها المشهورة أنه لا تجتمع طاعة الله –عز وجل– وطاعة غير الله من المنافقين والكافرين.

"أي: نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين، ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء، كما روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} [(١١) سورة البقرة] أي: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب.

يقول الله تعالى: {أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ} [(١٢) سورة البقرة] يقول: ألا إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فسادًا."

لاحظ القول الذي قالوه وكيف قابلهم به، **{قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}** [(١١) سورة البقرة] فوصفوا أنفسهم بالإصلاح، بل حصروا ذلك في أنفسهم وقصروا فعلهم عليه بأسلوب الحصر "إنما" وهي من أقوى صيغ الحصر.

فقابلهم الله بالمثل فقال: **{أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ}** فهذا ينادي به عليهم كأنه يحصر الإفساد فيهم، وذلك أنهم استحقوا أكمل ما يمكن أن يتصور من هذا الاتصاف بالإفساد، فهم قالوا: **{إِنَّمَا نَحْنُ}** فحصروا أنفسهم في هذا، فهو قابلهم بمثله **{أَلا إِنَّهُمْ هُمُ}** وجاء بضمير الفصل "هم" بين طرفي الكلام؛ وذلك لتقوية النسبة.

ثم عقبه بقوله: **{وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ}**، فلاحظ الفرق بين هذا التعقيب **{وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ}** وبين التعقيب في قوله في الآية الأخرى: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ}** [(١٣) سورة البقرة].

الفرق من حيث إن الشعور بالشيء هو إدراكه بأحد الحواس الخمس أو بغير الحواس الخمس كما يقول بعضهم: إن هناك حاسة فوق الحواس الخمس المعروفة، وعلى كل حال الشعور بالشيء يكون أبلغ من العلم

به؛ لأن العلم بالشيء قد يأتي عن طريق المُخبِر، ولكن الشعور به لا يكون عن طريق المخبِر غالباً، ولذلك عبر هنا بالشعور؛ لأن الإفساد في الأرض أمر يدرك وليس من شأنه أن يخفى، ومع ذلك فهؤلاء خفي عليهم هذا بطمس بصائرهم، فظنوا أن هذا الإفساد هو عين الإصلاح مع أن فعلهم لا يخفى على ذي عينين أنه من الإفساد، فأي طمس للبصائر أعظم من هذا،؟! فهذا هو الفرق بين التعبير بالشعور بالشيء وبين العلم به، والله أعلم.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ}

[(١٣) سورة البقرة].

"يقول تعالى: وإذا قيل للمنافقين: {آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ} أي: كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنَّة والنَّار وغير ذلك، مما أخبر المؤمنين به وعنه، وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر وترك الزواجر، {قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء} يعنون -لعنهم الله- أصحابَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم-.

قاله أبو العالية والسدي في تفسيره، بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وغير واحد من الصحابة، وبه يقول الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، يقولون: أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء؟!

والسفهاء: جمع سفيه، كما أن الحكماء جمع حكيم والحلماء جمع حليم، والسفيه: هو الجاهل الضعيف الرّأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار."

قوله تعالى: **{قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء}** أي إنهم لما قيل لهم: آمنوا كما آمن الناس من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إيماناً ثابتاً صحيحاً، تطيعون الله فيه ورسوله، وتقفون عند حدوده وتلتزمون أوامره، قالوا: تريدنا أن نفعل فعل هؤلاء السفهاء الذين ليس عندهم تدبير ولا حكمة ولا رأي حصيف، وإنما يفعلون الأفعال التي من شأنها أن تستعدي الناس عليهم، وتوقع بينهم وبينهم الحروب، وما أشبه ذلك، أما نحن فعن طريق الحكمة نوفق ويكون لنا وشيجة مع هؤلاء ومع هؤلاء، وتكون هناك روابط حسنة طيبة مع الجميع، ونُرضي الجميع، وليس عندنا أي إشكال في أن نتفاوض مع الجميع، وأن نتنازل مع الجميع بحيث تنزع أسباب الشر بين الناس، ويحصل بينهم التقارب والتآلف والتعايش والاجتماع على الإنسانية، وهذا أمر مطلوب وهو عين الحكمة والصواب، ونحن لا ننظر إلى الجانب المظلم عند الآخرين، بل لا بد أن عندهم جوانب ثانية مشرقة وسنتفق معهم فيها، فالذي يتمحض للشر هو الشيطان فقط، لكن الآخرين مهما كان عندهم من شر وفساد فعندهم أيضاً جوانب خير لمن بحث وفتش بنية صحيحة طيبة، وبالتالي نتفق معهم فيها، فلو ركزت النظر في هذه الجوانب فإنك تستطيع أن تمتزج معهم، وتتعاون معهم في مثل هذه الأمور التي يحصل فيها الاتفاق، وأما الأمور التي يحصل فيها الاختلاف فكل إنسان يحتفظ بما يعتقده لنفسه، وهذه هي الحكمة، وأما من يقف ضد هذا الفكر ويقول عن هذه الأفكار: إنها أفكار فاسدة، وأن الولاء لا يكون إلا بين المؤمنين، ويؤمن بمبدأ البراءة من الكافرين فهذا سفيه لا يفهم، وهذا شخصية تصادمية!!.

إن هذا الكلام في حقيقته هو فلسفة أهل النفاق، ومشكلة هؤلاء القوم في الحقيقة هي مع القرآن، ولو قرأنا سورة براءة لرأينا أعظم من هذا الذي ذكر في سورة البقرة من فضح لحقائق هؤلاء المطموسين، ولذلك فالمؤمن يعرف الحق ويتبعه، ولا يضل بما يسمعه من أعداء الله -عز وجل-.

"والسفيه: هو الجاهل الضعيف الرّأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار، ولهذا سمى الله النساء والصبيان سفهاء، في قوله تعالى: {وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً} [(٥) سورة النساء]. قال عامة علماء التفسير: هم النساء والصبيان."

إذا سمع النساء هذا الكلام أو قرأنه من تفسير ابن كثير فإنهن سيلفظن تفسير ابن كثير؛ إذ كيف يقال: إن النساء سفيهات والمرأة اليوم هي السيدة، وهي التي أثبتت وجودها في جميع المجالات وصارت نداً للرجل، فصارت تزاول ما يزاوله الرجل فلا فرق بين المرأة والرجل، فلا بد من أن نعيد كتابة التفسير، ولا بد من تجديد الخطاب الديني، إلى غير ذلك من سحب النفاق التي نسمعها اليوم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

"وقد تولى الله سبحانه جوابهم في هذه المواطن كلها، فقال: {أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء} فأكد وحصر السفاهة فيهم.

{وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ} يعني: ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى والبعد عن الهدى."

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٦)

الشيخ/ خالد السبت

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ* اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [(١٤-١٥) سورة البقرة].

"يقول تعالى: وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: {آمَنَّا} وأظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة، غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانعة وتقية، وليَشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم.

{وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ} يعني: إذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم.

وشياطينهم سادتهم وكبراؤهم من أحبار اليهود ورءوس المشركين والمنافقين.

قال ابن جرير: وشياطين كل شيء مَرَدَتُه، ويكون الشيطان من الإنس والجن، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [(١١٢) سورة الأنعام].

وقوله: {قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ} روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أي: إنا على مثل ما أنتم عليه {إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} أي: إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم.

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} ساخرون بأصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم، وكذلك قال الرّبيع بن أنس وقتادة.

وقوله تعالى جواباً ومقابلة على صنيعهم: {اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [(١٥) سورة البقرة]، قال ابن جرير: أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة، في قوله تعالى: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ} [(١٣) سورة الحديد] الآية.

وقوله تعالى: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا} [(١٧٨) سورة آل عمران] الآية.

قال: فهذا وما أشبهه من استهزاء الله -تعالى ذكره- وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين وأهل الشرك به، فهذا إخبار من الله تعالى أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج خبره عن جزائه إياهم، وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ وإن اختلف المعنيان، كما قال تعالى: {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} [(٤٠) سورة الشورى]، وقوله تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [(١٩٤) سورة البقرة]، فالأول ظلم، والثاني عدل، فهما وإن اتفق لفظهما فقد اختلف معناهما.

قال: وإلى هذا المعنى وَجَّهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله -عز وجل- بالإجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول -تبارك وتعالى- عن هؤلاء المنافقين: **{وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}** [(١٤) سورة البقرة] يقول ابن جرير -رحمه الله تعالى-: شياطين كل شيء مردته.

ويكون الشيطان من الإنس ومن الجن، فعن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: أتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو في المسجد فجلست فقال: ((يا أبا ذر هل صليت)) قلت: لا، قال: ((قم فصلِّ)) قال: فقمت فصليت ثم جلست، فقال: ((يا أبا ذر، تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن)) قال: قلت: يا رسول الله وللإنس شياطين؟! قال: ((نعم))[1].

وعن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر))[2]

وعن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الكلب الأسود شيطان))[3].

فالكفرة من الجن شياطين، والذين يضلون الناس ويغوونهم من الإنس هم شياطين.

فهؤلاء الذين ذكرهم الله في سورة البقرة إذا خلوا بشياطين الإنس ممن يوافقونهم وينكرون عليهم إظهار الإسلام والدخول فيه، يعاتبونهم على ذلك فيقولون: نحن معكم في حقيقة الأمر، ولكننا نفعل ذلك استهزاءً بهم، أي بالمؤمنين.

فردَّ الله عليهم بقوله: **{اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ}** [(١٥) سورة البقرة]، والمراد باستهزاء الله -عز وجل- بهؤلاء كما يقول ابن كثير: **فهذا إخبار من الله تعالى أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج خبره عن جزائه إياهم، وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ وإن اختلف المعنيان.**

ابن كثير -رحمه الله- هنا لم يصرح بأن ذلك من قبيل المشاكلة، ولكن كلامه لا يفهم منه إلا هذا، وهو أن الاستهزاء والمكر والكيد والمخادعة إنما يكون على سبيل المقابلة فيكون من باب استعمال اللفظ في مقابل لفظ آخر عبر به عن فعل هؤلاء فحسب ولكن المعنى ليس بمراد.

---

[1] - أخرجه النسائي في كتاب: الاستعاذة - باب: الاستعاذة من شر شياطين الإنس (٥٥٠٧) (ج ٨ / ص ٢٧٥)، وأحمد برقم (٢١٥٨٦) (ج ٥ / ص ١٧٨)، والطبراني في الكبير (٧٨٧١) (ج ٨ / ص ٢١٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: "ومداره على علي بن يزيد وهو ضعيف"، وكذا ضعفه الألباني كما في سنن النسائي.

[2] - أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب - باب: في مناقب عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- (٣٦٩١) (ج ٥ / ص ٦٢١)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٢٩١٤).

[3] - أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة - باب: قدر ما يستر المصلي (٥١٠) (ج ١ / ص ٣٦٥).

وهذا ما يسميه البلاغيون بالمشاكلة، وهذا كثير لدى بعض من يكتب في التفسير وفي موضوعات شتى، سواء المعاصرون أو غيرهم ممن هم من أهل السنة ومن غيرهم.

وهذه مسألة تحتاج إلى تحرير، وذلك أن المشاكلة نوع من المجاز ومنهم من يجعل المشاكلة قسماً مستقلاً بذاته وليس من المجاز، ولكنهم يتفقون جميعاً على أنها لا حقيقة لها في الطرف الآخر، وإنما هي فقط مشاكلة لفظية، فحقيقة هذه المشاكلة أن يستعمل لفظاً في مقابل لفظ عبر به عن فعل الفاعلين، وإن لم يرد معنى هذا الفعل حينما استعمله أولاً في المقابلة.

ومن أوضح الشواهد أو من أشهر الشواهد التي يحتجون بها قول الشاعر:

قالوا اقترح شيئاً نجد لـك طبخـه قلت اطبخوا لـي جبـة وقميـصا

فيقولون: الجبة والقميص لا تطبخ، لكنه استعمل هذا اللفظ فقط في مقابل لفظهم الذي عبروا به.

وقالوا: إذا قال هؤلاء: **{إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}** [(١٤) سورة البقرة]، فقال الله: **{اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ}** [(١٥) سورة البقرة]، فإن الله ليس من شأنه أن يستهزئ؛ لأن الاستهزاء صفة نقص وهي مذمومة ولا تليق بالله -عز وجل-، وإنما أتى بهذا اللفظ في مقابل قولهم: **{إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}** فقابلهم على ذلك، وليس ذلك يعود إلى الله -عز وجل- منه شيء.

قالوا: فإن قيل: ما المراد بقوله: **{اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ}**، يقال: المراد أنه يجازيهم ويعاقبهم على هذا الاستهزاء، أو أنه يستدرجهم، أو يمدهم في طغيانهم يعمهون -كما ذكر ذلك في ختام الآية- فإذا جاء يوم القيامة ذهب عنهم ذلك النور، وحصلت لهم الظلمة على الصراط كما وصف الله -عز وجل-.

وبهذا الجواب أجابوا عن قوله تعالى: **{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ}** [(١٤٢) سورة النساء]، فقالوا: الله -عز وجل- لا يخدع ولا ينسب إليه الخداع، وإنما المراد أنه عبر بعبارة إزاء العبارة التي وصف بها فعل هؤلاء دون أن يعود من ذلك على الله -عز وجل- شيء، وهكذا.

وهذا الكلام ليس بصحيح، وليس ذلك قول أهل السنة، فهذه الصفات التي لا تكون من صفات الكمال بإطلاق، تكون كمالاً في بعض الأحوال، فالله -عز وجل- لا يوصف بهذا بإطلاق، فلا يقال عن الله -تعالى الله وجل وعز- لا يقال عنه: كائد، ولا يقال عنه: خادع، ولا يقال عنه: مستهزئ لكن إن صدر ذلك في حق من يستحق ذلك ممن يستهزئ فإن ذلك يكون كمالاً، فالله يستهزئ بهم، كما قال هو سبحانه وتعالى.

والذي يخادع الناس ويستهزئ بهم ويمكر بهم ويستخف بمبادئهم ومشاعرهم ودينهم وما أشبه ذلك إذا عامله أحد من الناس معاملة يستدرجه فيها حتى يوقع به كان ذلك كمالاً؛ لأنه خلص الناس من شره بأسلوب مجاراته في هذا الأمر بعض المجاراة حتى أوقعه.

فالله -عز وجل- يستهزئ بهؤلاء الذين يستهزئون، ولذلك فإن الصحابة -رضي الله عنهم- لم يستغربوا من مثل هذا الاستعمال، كما وقع ذلك للمتأخرين، ولا توقفوا فيه؛ وذلك لسلامة فطرهم، وأيضاً لكمال ذوقهم اللغوي، فهم يفهمون المراد من هذا في كلام العرب، وقل مثل ذلك في المخادعة والمكر إلى آخره.

ومن هذه الأوصاف ما يقول بعض العلماء من أهل السنة عنها: إنها لا تكون بحال إلا على سبيل المقابلة، وهذا لازم في بعض هذه الصفات لا في كلها، فما جاء على سبيل المقابلة فإنه يقال: هذا لا يكون كمالاً إلا

على سبيل المقابلة، وما جاء من غير ذلك فإنه يكون كمالاً في المقامات التي تصلح لمثله مثل الكيد، فالكيد جاء على سبيل المقابلة كما في قوله تعالى: **{إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا* وَأَكِيدُ كَيْدًا}** [(١٥-١٦) سورة الطارق]، لكنه جاء في غير هذا المقام مثل قوله تعالى: **{وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}** [(١٨٣) سورة الأعراف].

ومثل المكر في قوله تعالى: **{وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}** [(٣٠) سورة الأنفال]، فهو قابل فعلهم بمثله، وجاء من غير ذلك مثل: **{أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ}** [(٩٩) سورة الأعراف].

وعلى كل حال نحن ندور مع هذه النصوص، وكل ذلك كمال في حق الله -عز وجل-، لكن الله لا يوصف بشيء من ذلك وصفاً مطلقاً في كل الأحوال، فلا يقال: الله كائد، ولا يقال: الله ماكر، ولا يقال: الله مخادع فهذا لا يليق ولا يصلح؛ لأن ذلك ليس بكمال في جميع الأحوال، إنما يكون كمالاً في حال دون حال، والله تعالى أعلم.

فالحاصل أن ظاهر كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن ذلك من قبيل المشاكلة، وهذا فيه نظر، حتى إننا نقرأ لبعض الكاتبين من أهل السنة في هذا العصر من يقول: هذا على سبيل المشاكلة، وسمعت بعض المتخصصين في العقيدة من يقول: هذا مشاكلة لا حقيقة له، بينما تجد هذه المسائل في كتب أهل السنة من الأئمة المتقدمين أنهم لا يجدون أي إشكال في بيان المراد منها من غير اللجوء إلى المجاز، أو تأويل هذا بالتأويلات المتكلفة.

وبالنسبة لمعنى استهزاء الله -عز وجل- بهم في قوله: **{اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ}** هو ما ذكره هنا في قوله: **{وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}** [(١٥) سورة البقرة].

فالله -عز وجل- يستدرجهم ويزيدهم من الأسباب التي تزيد في غوايتهم وهلاكهم، حتى إذا لقوا الله -عز وجل- حصل لهم شيء من النور، ثم يذهب هذا النور ويبقون في ظلمة على الصراط وهم أحوج ما يكونون فيه إلى النور، فهذا كله من استهزاء الله -عز وجل- بهم، وهذا كله كمال في حق الله لا نقص فيه بوجه من الوجوه؛ لأنه إذا كان ذلك على سبيل المقابلة والعدل فإنه كمال.

يقول: **قال ابن جرير: وشياطين كل شيء مردته:** هل كل ما بعد هذا الكلام هو من كلام ابن جرير، حتى ما وضع له عناوين؟

هذا يعتبر خللا في الاختصار؛ لأن ظاهر هذا الكلام جميعه أن ابن كثير يذكر هذا من عنده، وإنما نقل ذلك عن بعضهم ثم بين المراد، فنقلُه بهذه الطريقة فيه نظر.

قوله: **فهذا إخبار من الله أنه مجازيهم:** هذا كلام ابن جرير يحكي عن أقوام، وليس هذا كلام أهل السنة، فنحن نقول: إن الله لا يمكر بالماكرين فقط، بل يمكر بمن يستحق المكر، وكل ما ورد في مقابل فعل الفاعلين ممن فعلوا جنس هذا الفعل، فهذا يثبت في المقابل، وما ذُكر استقلالاً يذكر استقلالاً، لكن لا يوصف الله -عز وجل- بالأوصاف التي ليست هي كمال من كل وجه على سبيل الاستقلال.

"وقوله تعالى: {وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [(١٥) سورة البقرة] روى السدي عن ابن عباس وابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم- {وَيَمُدُّهُمْ} يملي لهم.

وقال مجاهد: يزيدهم.

وقال تعالى: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ* نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ} [(٥٥-٥٦) سورة المؤمنون].

قال ابن جرير: والصواب يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عُتُوّهم وتَمَرّدهم، كما قال تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [(١١٠) سورة الأنعام]."

{كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ } يعني جزاءً على كفرهم به أول مرة ختم الله -عز وجل- على قلوبهم فقلَّب هذه القلوب والأبصار فصارت ترى الحق باطلاً والباطل حقاً، واستحسنوا ذلك، وزين لهم، فحصل لهم من الأسباب التي تزيد في غوايتهم حتى لم يبق لهم عند الله -عز وجل- نصيب، نسأل الله العافية.

"والطغيان: هو المجاوزة في الشيء كما قال تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ} [(١١) سورة الحاقة].

قال ابن جرير: والعمه: الضلال يقال عمه فلان يعمه عمها وعموهاً إذا ضل.

قال: وقوله: {فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [(١٥) سورة البقرة] في ضلالتهم وكفرهم الذي غمرهم دنسه وعلاهم رجسه يترددون حيارى ضلالاً لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً؛ لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها وأعمى أبصارهم عن الهدى، وأغشاها فلا يبصرون رشداً ولا يهتدون سبيلاً.

{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} [(١٦) سورة البقرة]، روى السدي في تفسيره، عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} قال: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى، وقال مجاهد: آمنوا ثمّ كفروا.

وقال قتادة: استحبوا الضلالة على الهدى، وهذا الذي قاله قتادة يشبهه في المعنى قوله تعالى في ثمود: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} [(١٧) سورة فصلت]."

من هذه العبارات التي أوردها -رحمه الله- في معنى **{اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى}**، وهي: **أخذوا الضلالة وتركوا الهدى، آمنوا ثم كفروا، استحبوا الضلال على الهدى**، ما الذي أرادوا الوصول إليه من خلالها؟ هل يوجد إشكال متبادر في الآية حاولوا أن يبينوا المراد على وجه يرتفع به هذا الإشكال فعبروا بمثل هذه العبارات؟

ظاهر الآية أن ثمة معاوضة، كما قال الشاعر:

بدلت بالجمة رأساً أزعرا	وبالثنايا الواضحات الدردرا
كما اشترى المسلم إذ تنصرا	

فهذا له جمة وشعر جميل ثم تحول إلى شيء آخر، وله ثنايا واضحات تحولت إلى شيء آخر، وبالإسلام استعاض النصرانية.

فمعنى المعاوضة أن أقول مثلاً: بدلت بالقلم الساعة، أو اشتريت بالقلم الساعة، أو نحو هذه العبارات فهذه معاوضة، فهؤلاء أهل النفاق اشتروا الضلالة ودفعوا الثمن الهدى.

وهنا يرد سؤال عن هذه المعاوضة في طرفيها، هل هؤلاء كانوا أصلاً يملكون شيئاً من الهدى استعاضوا به الضلالة، هل حصلت لهم معاوضة بأن دفعوا الهدى وأخذوا الضلال؟

إذا قلنا: إن هؤلاء آمنوا ثم كفروا، كما قال الله -عز وجل-: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا} [(٣) سورة المنافقون]، وقوله في الموضع الآخر في وصف المنافقين في سورة براءة لما توعدهم حينما استهزءوا في تبوك: {لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [(٦٦) سورة التوبة]، من قال من أهل العلم: إنهم كانوا مؤمنين ثم تحولوا إلى النفاق لسبب أو لآخر، فالمعاوضة واضحة، فهم بذلوا الهدى والإيمان واستعاضوا عنه بالكفر.

وعلى القول الآخر وهو أن هؤلاء من غير المؤمنين أصلاً، بل هم كفار منذ البداية في الباطن، فأي هدىً دفعوه وبذلوه؟

فهنا يكون معنى العبارات لا تدل على حصول المعاوضة، ويكون معنى اشتروا الضلالة أي: استحبوا العمى على الهدى، بمعنى اختاروا وآثروا.

وواقع الأمر أن المنافقين على قسمين: قسم آمنوا ثم نافقوا، فهؤلاء واضح أنهم بذلوا الهدى وأخذوا مكانه الضلال والنفاق والكفر.

وقسم من هؤلاء لم يؤمنوا أصلاً، مثل عبد الله بن أبيّ الذي قال: إني أرى أن هذا الأمر قد توجه فادخلوا فيه، وكلامه هذا في الظاهر وإلا فهو يخفي الكفر، كما قال الله -عز وجل- عن اليهود: {وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [(٧٢) سورة آل عمران]، أي أنه لما يرى الناس هؤلاء العلماء من أهل الكتاب قد دخلوا في الإسلام فهذا يعتبر انتصاراً ضخماً للإسلام، فإذا ارتدوا قالوا: لا بد أنهم لم يرتدوا إلا لأنهم رأوا أموراً لا يمكن أن تتفق مع دين صحيح.

فالحاصل أن هؤلاء على نوعين، والآيات جميعها لا إشكال فيها، فآية براءة مثلاً: {قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}، إذا قلنا: إن بعضهم كانوا على الإيمان ثم كفروا، فهذا لا إشكال فيه، وإذا قلنا: إنهم منافقون أصلاً فهذا لا إشكال فيه؛ إذ المعنى: قد كفرتم بعد إيمانكم الذي أظهرتموه، أي بعد إيمانكم المزعوم المظهر الذي أجريت عليكم أحكامه، حيث نطقتم بالشهادتين.

ويكون معنى قوله: {اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} كقوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ} [(١٧) سورة البقرة]، أي عرف دلائل الحق، وعرف أحقية ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- ورأى أنوار الإسلام وبراهينه، ثم بعد ذلك نكص، وترك ذلك وأدار ظهره له، نسأل الله العافية، فـ{اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} أي: استحبوا وآثروا أن لم يكونوا على الإيمان ابتداءً، ومن هنا يزول الإشكال، فابن كثير -رحمه الله- ما صرح بالإشكال، لكنه أتى بعبارات السلف، وهذا توجيه عبارات السلف ومحاملها، والله أعلم.

"وحاصل قول المفسرين فيما تقدم: أن المنافقين عَدَلوا عن الهدى إلى الضلال، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة، وهو معنى قوله تعالى: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} [(١٦) سورة البقرة] أي: بذلوا الهدى ثمناً للضلالة، وسواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر، كما قال تعالى فيهم: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [(٣) سورة المنافقون]، أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى، كما يكون حال فريق آخر منهم."

هذا كلام جيد ومعناه أن الفريق الأول الذين كانوا على الهدى استعاضوا الضلال بالهدى، والفريق الثاني الذين لم يكونوا على الهدى آثروا واستحبوا الضلال على الهدى.

"فإنهم أنواع وأقسام؛ ولهذا قال تعالى: {فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} [(١٦) سورة البقرة] أي: ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة، {وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} أي: راشدين في صنيعهم ذلك.

وروى ابن جرير عن قتادة {فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}، قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، بمثله سواء."

{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ} [(١٧) سورة البقرة].

في قوله تعالى: **{فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}** هذا الختام مناسب غاية المناسبة لما ذُكر قبله، حيث قال: **{اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى}**، فناسب أن يختم ذلك بقوله: **{فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}**، أي: ما ربحت تجارتهم، بل هذه صفقة خاسرة.

وأصل التجارة إنما تستعمل في البيع والشراء الذي يقصد به الربح في المعاوضات، وصار يستعمل في مثل هذه المعاني، فالعمل بطاعة الله -عز وجل- هو تجارة مع الله -تبارك وتعالى-، فالإنسان له رأس مال وهو هذه الدقائق والثواني والساعات يتجر فيها مع الله -عز وجل-، فمنهم من يغبن في هذه التجارة فيشغل وقته بمعصية الله -عز وجل-، ويشمر في ذلك، ويدفع الأموال ويبذلها ليشتري منزلاً في النار، فإذا جاء يوم القيامة حصل التغابن، قال تعالى: **{ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ}** [(٩) سورة التغابن]، فهؤلاء شمروا واستغلوا رءوس هذه الأموال فحصلوا أعلى المنازل في الجنة، وأولئك حجزوا فيها مقاعد في النار، وليس ذلك فحسب، بل إن أهل الجنة ورثوا منازل أهل النار في الجنة والعكس.

وهذا غاية التغابن بين الناس، مع أن الغبن أصله يكون في الصفقة في التجارة، حيث يغبن التاجر إذا باع سلعة بيعاً بُخس فيه في الثمن، كأن يكون ثمن السلعة يساوي مائة -مثلاً- وباعها بعشرة، أو اشتراها بمائة وهي تساوي عشرة، فهذا مغبون.

"{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [(١٨) سورة البقرة]، تقدير هذا المثل: أن الله سبحانه، شبَّههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى بمن استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتَأنَّس بها فبينا هو كذلك إذْ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع هذا أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر؛ فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغَيّ على الرّشَد، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع، والله أعلم."

قال ابن كثير –رحمه الله–: آمنوا ثم كفروا أخذاً من قوله تعالى: **{اسْتَوْقَدَ نَاراً}** [(١٧) سورة البقرة]، فالمقصود بالنار هنا على قول ابن كثير –وهو قول طائفة من السلف– أنهم دخلوا في الإيمان، ثم بعد ذلك نكصوا فلم يرجعوا إليه، فهذا مثل الذي استوقد ناراً ثم انطفأت عليه تلك النار، وبالمناسبة فهذا هو أول مثل في القرآن.

وقوله تعالى: **{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً}** [(١٧) سورة البقرة] هذا أول مثل في القرآن، وقد قال الله تعالى عن الأمثال: **{وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}** [(٤٣) سورة العنكبوت].

وهذا المثل والذي بعده، الذي هو قوله تعالى: **{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ}** [(١٩) سورة البقرة] كلام أهل العلم فيهما كثير جداً، ويمكن أن نشير إلى بعض الملاحظ التي ينطلقون منها في تفسير هذين المثلين.

فالمثل الأول وهو قوله تعالى: **{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ}** [(١٧) سورة البقرة]، إذا تأملت في لفظ **{اسْتَوْقَدَ}** ربما تشعر وكأنه استعار شيئاً وهو النور، ثم إن هذا النور إنما كان من النار ولم يكن من عند أنفسهم، فهو شيء منفصل عنهم، وهذا قد يشعر بخلاف ما ذكره ابن كثير –رحمه الله– لأنه نور مستعار كقميص استعاروه، وذلك لغرض في نفوسهم، ثم ما لبثوا أن تحول إلى شيء آخر، ومعنى هذا الكلام أنهم أظهروا الدخول في الإسلام، أو دخلوا في الإسلام على القول الآخر وهو الذي أشار إليه ابن كثير، ويكون المقصود أن هذا حصل لمدة مؤقتة بحيث إنهم لما أظهروا هذا الإسلام حصلت لهم مصالح كالذكر الجميل –الذي لا يستفيض– وإجراء أحكام الإسلام عليهم، فصاروا يأخذون من الغنيمة والفيء من بيت مال المسلمين، وصار لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فحقنوا دماءهم، وأحرزوا ممتلكاتهم، وصاروا كغيرهم بخلاف الآخرين من قبائل الكفار الذين يقاتلون، فيُقتلون ويؤسرون ويسترقون، وتؤخذ أموالهم غنائم.

وبعض أهل العلم فسرها بقوله: **{كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ}** [(٦٤) سورة المائدة]، أي أنه استوقد ناراً للفتنة ثم أطفأها الله، وهذا القول في غاية البعد، وهو من تفسير القرآن بالقرآن الذي يخطئ فيه المفسر بالربط، حيث إن الاجتهاد له مدخل في تفسير القرآن بالقرآن، وهذا مثال عليه.

ويقول بعض أهل العلم: إن هذا المثل مضروب لهم في الدنيا، وبعضهم يقول: في البرزخ، وبعضهم يقول: في الآخرة، والصواب أنه يحمل على الأحوال الثلاثة، فهم أظهروا هذا فهتكهم الله –عز وجل– في الدنيا، وفي البرزخ يلقون العذاب، وفي الآخرة تحصل لهم الظلمة ويتساقطون في الدرك الأسفل من النار، كما قال تعالى: **{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}** [(١٤٥) سورة النساء].

وكما قال تعالى: **{يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ}** [(١٣) سورة الحديد].

وسواء قلنا: إنهم دخلوا في الإسلام فعلاً، أو كانت القضية مجرد إظهار للإسلام فهذا كله لا منافاة فيه، فمنهم من كان كذا، ومنهم من كان كذا، وبالتالي هم في الواقع سواءٌ، فالذين دخلوا في الإسلام عرفوا حجج الدين وبراهينه، وصدق ما جاء به النبي –صلى الله عليه وسلم– وكان مآلهم أن انتكسوا وارتكسوا، والذين

تظاهروا بالإسلام وكانوا داخل الصف الإسلامي ويصلون مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ويأتون الغزوات ويرون المعجزات، هم في الحقيقة لا يؤمنون.

وعلى كل حال فالمعاني الدقيقة التي تذكر في هذا المثل، وتنذيل كل لفظة فيه على معنى يتعلق بالمنافقين، ومن العلماء من نحى منحىً آخر عند ذكرها فقال: هذا المثل مثل مركب، وأصل الأمثال المركبة لا تحتاج أن تنزل كل لفظة أو جملة فيها على من ضربت له من أجل أن يحصل تفسير هذه اللفظة والجملة بناءً على حال هذا الإنسان، وإنما يؤخذ المثل ككل، بمعنى أن هذه الأمثال لا تفسر جملة جملة إلا على سبيل إيضاح غريب الألفاظ، لا على سبيل التنزيل على من ضربت له كلمة كلمة، وجملة جملة؛ فقد تكون بعض الجمل إنما ذكرت ليفهم منها المراد على سبيل الإجمال، وإن لم يكن لهذه الجملة معنىً يخصها يتعلق بمثل هذا الإنسان الذي ضربت له بمفردها، وإنما هي مع غيرها تعطي تصوراً على هذا.

وبناء على ذلك يقولون: المراد بهذا المثل الذي ضربه الله في هذه السورة أن هؤلاء القوم قد تظاهروا بالدخول في الإسلام فحصلت لهم مكاسب وعرفوا براهين الحق، ثم تركوا ذلك وأداروا ظهورهم له وأعرضوا عنه، فصاروا فاقدين للنور، وصاروا في ظلمة كما وصف الله -عز وجل- هذا الإنسان الذي أوقد النار في مكان مظلم، فلما سُرَّ بها وفرح بها وحصل له بها الدفء وشعر بالأمن بعد أن كان خائفاً من شدة الظلام من حوله، وحصلت له منها منافع أخرى فهو يستدفئ بها ويصنع طعامه فإذا بها انطفأت في وقت هو أحوج ما يكون إليها، وهكذا حال هؤلاء المنافقين حيث ينطفئ هذا النور عنهم في الآخرة على الصراط الذي هو أدق من الشعرة وأحد من السيف، كما وصف النبي -صلى الله عليه وسلم-[٤] نسأل الله العافية.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

[4] - أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان - باب: معرفة طريق الرؤية (١٨٣) (ج ١ / ص ١٦٧) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ* صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [١٧-١٨ سورة البقرة]: "تقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنس بها، فبينا هو كذلك، إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع هذا أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشَد، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع، والله أعلم.

وقوله تعالى: {ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ} أي: ذهب عنهم بما ينفعهم وهو النور، وأبقى لهم ما يضرهم وهو الإحراق والدخان، وتركهم في ظلمات، وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق.

{لاَّ يُبْصِرُونَ} لا يهتدون إلى سبيل خير ولا يعرفونها، وهم مع ذلك صم لا يسمعون خيراً، بكم لا يتكلمون بما ينفعهم، عميٌ في ضلالة وعماية البصيرة، كما قال تعالى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [(٤٦) سورة الحج]، فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فهذا المثل ضربه الله -عز وجلَّ- للمنافقين، **{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً}** [(١٧) سورة البقرة]، والسين والتاء للطلب، ومن أهل العلم من يقول: إن ذلك يشعر بأن هذا مستعار، فهذا الإيمان أو هذا الذي حصل لهم مما انتفعوا به في الدنيا بحقن الدماء وإحراز الأموال لم يكن نابعاً من داخل نفوسهم، وإنما هو شيء استقدموه واستفادوه من غيرهم، وذلك أنهم أظهروا الإيمان للمؤمنين، ودخلوا معهم في الإيمان ظاهراً، فحصلوا هذه الغنيمة البائسة، وهي أنه لم يكن لهم من ذلك إلا إحراز الأموال وحقن الدماء، دون أن يكون ذلك مؤثراً فيهم في انشراح الصدر ونور البصيرة، والانتفاع بالحق الذي يسمعونه صباح مساء عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكان نتيجة ذلك أنهم أبعد ما يكونون عن الهدى والحق، فلا يتكلمون به ولا يصدر عنهم، ثم ما يلبث ذلك أن يتلاشى جميعاً، كما ينطفئ نورهم في الآخرة عند الصراط ويبقون في ظلمات فكذلك هذا النور الذي استعاروه واقتبسوه ما يلبث أن يذهب ثم بعد ذلك يعرفون الحقائق، وتنجلي لهم الأمور وتنكشف، ويذهب ذلك الضياء الذي استضاءوا به مؤقتاً، ثم بعد ذلك تبقى حرارة النار التي أوقدوها وإحراقها ودخانها، وهذا يصور حال هؤلاء المنافقين **{كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ}**هذا دخوله في الإيمان

ظاهراً، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: هذا يدل على أنهم دخلوا في الإيمان ثم رجعوا عنه، على قول هؤلاء الذين ذكرنا لا يكون لازماً أنهم دخلوا في الإيمان، إنما دخلوا فيه ظاهراً فاستفادوا هذه الفوائد الدنيوية، ولهذا فإن الله -عز وجل- يقول في مثل هؤلاء: **{لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}** [(٦٦) سورة التوبة]، فهم لم يكونوا مؤمنين في حقيقة الأمر، وإنما المقصود -والله تعالى أعلم- قد كفرتم بعد إيمانكم الذي أظهرتموه.

{فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ} فهذا المنافق ادعى الدخول في الإسلام فاستفاد، مثل صاحب النار الذي أوقدها، أضاءت له المنطقة المحيطة القريبة منه، ثم بعد ذلك ما تلبث أن تنطفئ.

{ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ} [(١٧) سورة البقرة] ذهب النور وبقيت الحرارة.

{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [(١٨) سورة البقرة] لا يتكلمون بالحق ولا يبصرونه مهما كانت دلائله ظاهرة، -نسأل الله العافية- يحضر مع النبي صلى الله عليه وسلم، وتنزل الآيات ويسمعها فإذا خرج قال: **{مَاذَا قَالَ آنِفًا}** [(١٦) سورة محمد]، إلى هذا الحد، **{مَاذَا قَالَ آنِفًا}**!!

حاضر مع الحاضرين عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وتظن أنه استفاد وأنه تأثر مع الآخرين بالآيات التي تليت عليهم، فإذا خرج إذا به يسأل: ماذا كان يقول النبي -عليه الصلاة والسلام-، كما حصل حينما كان يستسقي النبي صلى الله عليه وسلم إذا أجدب الناس في أسفاره وفي حضره، فيأتي الله بالخير، فيقول أحدهم: إنما هو سحاب عارض!.

في بعض البلاد قام الدعاة واستسقوا – قبل سنوات- ثم أنزل الله المطر، فقام المنافقون من أرباب الصحف والكتاب والمحاربين لله ورسوله، وبدءوا يتهكمون ويقولون: هؤلاء درسوا الأحوال الجوية، وعرفوا أنه يوجد منخفض أو مرتفع جوي، ووقتوا صلاتهم في هذا الوقت من أجل أن يضحكوا على الناس، ويقولون: استسقينا فنزل المطر.

مثل هؤلاء مهما جاء من الآيات لا تزيدهم إلا كفراً وإعراضاً، والذي جعلهم كذلك هو الله تبارك وتعالى؛ لأنهم هانوا عليه فأذلهم، لذلك تجد الواحد منهم لا ينتفع بما يسمع فهو أصم، ولا ينطق بالحق فهو أبكم لا ينطق إلا بالباطل ولا يكتب إلا الباطل، ولا يدعو إلا إلى الباطل، فهو شر محض، وجندي من جند الشيطان، وكل ما قرأت له مقالة أصابك ما يصيبك من الغم والحزن ولا حول ولا قوة إلا بالله.

{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ} [(١٨) سورة البقرة] لا يرون الحق ولا يرون دلائله أبداً، فهم لا يرجعون إليه؛ لأن المنافذ قد سدت.

أحياناً ترى عبراً فتقول: هذه كافية لمن كان له قلب، أو ترى إنساناً يموت من يموت له، فيذهب في جنازته، وتقول: لعله يرجع ويتأثر، لكن أنَّى له هذا وقد قفل عليه كل شيء.

فمثل هؤلاء لا يؤسف عليهم، فالله -عز وجل- لو شاء لما كانوا كذلك، فله حكمة بالغة في ذلك، قال تعالى: **{وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ}** [(٩٩) سورة يونس].

إن ما نشاهده هذه الأيام من حرب الله ورسوله عن طريق هؤلاء الكتاب، حيث أظهروا كل المستور، وأعلنوا عن عداوتهم للإسلام، بكل مناسبة وبدون مناسبة، فمثل هؤلاء هانوا على الله -عز وجل- فأذلهم وأهانهم، ولن يضروا الله شيئاً وإنما يضرون أنفسهم.

{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ* يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٩-٢٠) سورة البقرة].

"هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة، ويشكون تارة أخرى، فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم كصيِّب، والصيب: المطر، قاله ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- وأبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن البصري وقتادة وعطية العوفي، وعطاء الخرساني، والسدي والربيع بن أنس.

وقال الضحاك: هو السحاب، والأشهر هو المطر نزل من السماء في حال ظلمات وهي الشكوك والكفر والنفاق.

{ورَعْدٌ} وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع، كما قال تعالى: {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} [(٤) سورة المنافقون]، وقال: {وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ* لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ} [(٥٦-٥٧) سورة التوبة].

والبرق:هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان، ولهذا قال: {يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ} [(١٩) سورة البقرة]، أي: ولا يجدي عنهم حذرهم شيئاً؛ لأن الله محيط بقدرته وهم تحت مشيئته وإرادته، كما قال: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ* فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ* بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ* وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ} [(١٧-٢٠) سورة البروج]، بهم.

ثم قال: {يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ} أي لشدته وقوته في نفسه، وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للإيمان، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ} يقول: يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ} يقول: كلما أصاب المنافقين من عزِّ الإسلام اطمأنوا إليه، وإذا أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر، كقوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ} [(١١) سورة الحج].

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ} [(٢٠) سورة البقرة]، أي: يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم من قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا، أي متحيرين، وهكذا قال أبو العالية، والحسن البصري، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي بسنده عن الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- وهو أصح وأظهر والله أعلم.

وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور، بحسب إيمانهم فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ وأكثر من ذلك، وأقل من ذلك، ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضيء أخرى، فيمشي على الصراط تارة ويقف أخرى، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية، وهم الخلص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا} [(١٣) سورة الحديد].

وقال في حق المؤمنين: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [(١٢) سورة الحديد] الآية، وقال تعالى: {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(٨) سورة التحريم].

ذكر الحديث الوارد في ذلك:

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- {نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ أخرى.

وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: ليس أحد من أهل التوحيد إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فأما المنافق فيطفأ نوره، فالمؤمن مشفق مما يرى من إطفاء نور المنافقين، فهم يقولون: {رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا}.

وقال الضحاك بن مزاحم: يعطى كل من كان يظهر الإيمان في الدنيا يوم القيامة نوراً، فإذا انتهى إلى الصراط طفئ نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون، أشفقوا فقالوا: {رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا}".

هذا المثل الثاني كما يقول ابن كثير: **هذا مثل آخر ضربه الله لضرب آخر**،بمعنى أن المثل الأول لطائفة من المنافقين، والمثل الثاني لطائفة أخرى من المنافقين.

بطبيعة الحال فإن المثل الثاني على قول ابن كثير ومن وافقه لحال المنافقين أحسن من أصحاب المثل الأول؛ لأن صاحب المثل الأول استوقد ناراً استفاد منها فترة ثم بعد ذلك انطفأ النور وانتهى كل شيء، {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [(١٨) سورة البقرة].

أما صاحب المثل الثاني فنوره يتقطع أي: يضيء له تارة ثم ينطفئ، ثم يضيء ثم ينطفئ وهكذا، فصاحبه يسير سيراً متعثراً.

وعلى كل حال فإن منشأ ذلك الكلام في "أو" {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ} إضافة إلى ما تضمنه هذا المثل من الفروقات عن المثل الأول.

{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ} فـ "أو" كما هو معلوم، تأتي لمعان متعددة، فتأتي للشك -وهذا غير مراد هنا- فأنت تقول: سافر زيد الليلة أو قبلها، فهنا أتت "أو" للشك، وتأتي للتخيير، فتقول: خذ هذا أو هذا، كما أنها تأتي أيضاً للتسوية بين الأمرين، تقول مثلاً: صاحب زيداً أو عمراً، فهذه تفيد التسوية، بمعنى أنك لا تشك في هذا، وتأتي عاطفة بمعنى الواو تماماً، كما قال القائل:

وقد زعمــت ليلــى بــأني فــاجر نفــسي تقاهــا أو عليهــا فجورهــا

يعني وعليها فجورها.

ومثل ذلك قول القائل:

نال الخلافــةَ أو كانــت لــه قَــدَراً كما أَتَى ربَّه موســى علــى قَــدَرِ

فــ"أو" بمعنى الواو، أي: نال الخلافةَ وكانت له قدراً، كما أتى ربه موسى على قدر.

فهذا المثل الذي ذكره الله تعالىبالأقرب –والله تعالى أعلم– أن ذلك جميعاً في صفة المنافقين، وليس في طائفة أخرى منهم، فضرب الله لهم المثل الأول بالذي استوقد ناراً ثم انطفأت، فهم انتفعوا بعض الانتفاع مدة مؤقتة في الدنيا ثم ذهب ذلك جميعاً عنهم وأبصروا الحقائق، وعرفوا ما هم فيه، ولم ينفعهم ذلك الإيمان.

والمثل الثاني لحالهم مع حجج القرآن وبراهينه وبيِّناته، قال تعالى: **{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ}** الصيب: المطر، من صاب يصوب إذا نزل، والله –عز وجل– مثل القرآن والوحي بالمطر النازل من السماء، ويسمى ذلك بالمثل المائي، قال تعالى: **{أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا}** [(١٧) سورة الرعد]، وذلك مثل لقلوب العباد، يأخذ منهم وينتفع كل بحسبه.

{فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} سالت أودية بقدرها، هذا وادٍ كبير، وهذا وادٍ صغير، وهذا إخاذ، وهذا لا يجتمع فيه الماء إطلاقاً، هذه أرض سبخة، وهذه غيرها، فهكذا قلوب العباد **{أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا}** [(١٧) سورة الرعد] وهذا هو الغثاء.

ثم ذكر بعد المثلِ المائي المثلَ الناري، فقال تعالى: **{وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ}** [(١٧) سورة الرعد] فالذهب مثلاً الذي يدخل في النار، يذهب شوبه ويبقى خالصه، وهكذا الأمر في هذه الحياة الدنيا، الله –عز وجل– يقلب العباد وينقيهم ويصفيهم فلا يبقى إلا الصحيح الخالص، ويذهب الغثاء والشوائب كالزبد الذي يحمله الماء، فالله –جل وعلا– في مواضع كثيرة يشبه الوحي بالمطر النازل من السماء، فهنا قال: **{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ}** أي: المطر، **{فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ}** [(١٩) سورة البقرة] الرعد زواجر القرآن، والبرق حجج القرآن وبراهينه تكاد تخطف أبصار هؤلاء المنافقين العمي، فهي حجج بيِّنة واضحة وساطعة وباهرة لا خفاء فيها.

{يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ} [(٢٠) سورة البقرة] **{كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ}** هذا هو حال المنافق، فإذا جاءت الأمور على وئام وسعة وغنائم وانتصارات فخذ من هذا الكلام الجميل، حيث يقوم عبد الله بن أبي عند المنبر يوم الجمعة قائلا:أيها الناس لقد من الله عليكم بهذا النبي، فاتبعوه وأطيعوه، يقول هذا قبل أن يصعد النبي –صلى الله عليه وسلم– المنبر وذلك كل جمعة، وفي السفر وفي وقت الشدة يقول: أوَ قد فعلوها، والله ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قال الأوائل: سمن كلبك يأكلك، وقال: لقد أبلغتكم وأنذرتكم أنتم آويتموه وأطعمتموه فكاثروكم في بلادكم –يعني المهاجرين كانوا أكثر من الأنصار– فلو تركتموهم لطلبوا بلاداً أخرى، قاطعوهم لا تسكنوهم ولا تعطوهم شيئا، دعوهم يبحثوا عن بلد آخر ينتقلون إليها، ويشهد لهذا فضح القرآن لهم مقولتهم: **{لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا}**

[(٧) سورة المنافقون]، يعني من أجل أن ينفضوا عنه، فهذا حل طرحه لهم، وهو أن يتخلصوا من هؤلاء المهاجرين، لكن **{وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** [(٧) سورة المنافقون]، فهو كان يظن بهذا أنه سينهي الإسلام والدعوة.

فنحن حينما نريد أن نعرف صورة هذا وأمثاله، نأتي بمقاطع السور جميعاً من هنا وهناك ونركبها مع بعض فيتضح لنا من هو عبد الله بن أبي بن سلول وأتباعه.

فهذا مثل لطائفة واحدة وهي طائفة المنافقين، هناك ذَكَرَ ما يحصل لهم من الانتفاع في الدنيا، بادعاء الإسلام، وهنا ذكر حالهم في سيرهم في هذه الحياة، فحينما يسمعون القرآن، وما فيه من الزواجر فهذه كالصواعق، إذا بالتصرف الأحمق يصدر منهم بأن يجعلوا أصابعهم في آذانهم، كالإنسان الذي يخاف من الصاعقة أو من صوت الرعد، فيجعل إصبعه في أذنه، فيا ترى هل إذا وضع أصبعه في أذنه ترد الصاعقة عنه إذا جاءت؟ لا تردها لكنه يتصرف مثل هذا التصرف الأحمق ليخفف عن نفسه.

في الأمس القريب حدثني ولدي الذي هو في الصف الثاني الابتدائي عن زميل له –أكرمكم الله– تبول على نفسه، فجلس زملاؤه تعلو أصواتهم يعيرونه ويعيبونه فماذا صنع المسكين؟

وضع أصابعه في أذنيه وجلس يصدر أصواتاً من فمه من أجل أن لا يسمع!! يا ترى هل هذا سيغير من الحال شيئاً؟

ومثل هذا بعض العجائز إذا ركبت في السيارة وشعرت أن السيارة مسرعة فهي طول الوقت متمسكة بها بقوة، وتهدد أنه إذا ما خففتم السرعة فإني سأتركها!! يا ترى هل إمساكها لها ينهي شيئاً من الموضوع؟

كذلك هؤلاء يجعلون أصابعهم في آذانهم –والمقصود رءوس الأصابع– من أجل خوفهم من السماع.

فهذه زواجر القرآن، والبرق هو حجج القرآن وبراهين الحق، تكاد تخطف أبصار هؤلاء، حذر الموت، **{واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ}** [(١٩) سورة البقرة].

{يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ} [(٢٠) سورة البقرة] إذا جاءت الأمور السهلة فهم ما شاء الله، و إذا جاءت الشدة انتكسوا، كما حصل في الأحزاب، **{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا* وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا* وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا}** [(١٢-١٤) سورة الأحزاب] لو دخل الأحزاب المدينة وطُلب منهم أن يكفروا مباشرة سيرتدون وسيتسابقون إلى ذلك، وهكذا هم إذا غلبوا تهافتوا على الكفر.

فتبصروا لمعرفة مثل هذه الأمور؛ فإن ذلك يخفف على الإنسان كثيراً من الهم، مما يراه من تساقط وتسارع وضلال إذا غَلَب الكفار، وهذا ليس بشيء جديد بل هذا أمر قديم، ولله في هذا حكمة.

فالحاصل أن المثَلين –والله تعالى أعلم– كلاهما في المنافقين، وليس هذا في طائفة وهذا في طائفة.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،وبعد.

أقسام القلوب:

"روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح، فأما القلب الأجرد، فقلب المؤمن، فسراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس، فقلب المنافق الخالص،عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم، فأي المادتين غلبت على الأخرى، غلبت عليه)) [وهذا إسناد جيد حسن]."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن وجه إيراد الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لهذا الحديث عند تفسير هذه الآية هو أن المثَلين المضروبين للمنافق في قوله سبحانه: **{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ* صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}** [(١٧-١٨) سورة البقرة].

والثاني في قوله سبحانه: **{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ}** [(١٩) سورة البقرة]، **{وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ}** [(٢٠) سورة البقرة].

فالأول: هو حال المنافق الخالص بحيث أنه لا رجاء فيه ولا رجعة له وقد أغلق منافذه جميعاً فهو لا ينتفع بموعظة ولا بوحي ولا بغير ذلك.

والثاني يبين أن هؤلاء إذا أضاء لهم يكاد البرق يخطف أبصارهم، كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا.

فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- يرى أن كلَّ مثل من هذين المثلين لطائفة غير الطائفة الأخرى، فالمثل الأول **{كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً}** هو مثل للمنافق الخالص الذي طبع على قلبه، فوصفهم الله بالصمم والبكم، والعمى.

والمثل الثاني: **{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ}** كالمطر، فهو يقول: هؤلاء كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، فهذا مثل لطائفة أخرى من المنافقين -عند الحافظ ابن كثير- والمراد بهم من تستقيم حالهم تارة وتنتكس أخرى، فإذا أصابتهم النعمة والأمن والرخاء صلح حالهم وسكنوا إلى الإسلام واطمأنوا إليه، وإذا أصابتهم شدة ونكبة نجم النفاق وانتكسوا كالذي يعبد الله على حرف، فمثل هؤلاء تارة هكذا وتارة هكذا بحسب الحال، وهذا على قول الحافظ ابن كثير أن كل مثل لطائفة مغايرة، من المنافقين، فالأول أشد، والثاني من كان تارة وتارة.

وطائفة من أهل العلم كما سبق، يرون أن المثلين المائي: {أَوْ كَصَيِّبٍ} [(١٩) سورة البقرة]، والناري: {الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} [(١٧) سورة البقرة]، كلاهما في طائفة واحدة، وهم أهل النفاق، وسبق الكلام على معنى المثلين.

وعلى كل حال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أورد هذا الحديث ليدلل به على ما قال من أن المنافقين على نوعين:

النوع الأول: هذا الذي وصفه النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن قلبه منكوس، وهو قلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر، ثم ذكر القلب المصفح، وهو القلب الذي فيه إيمان ونفاق، وهذا للمثل الثاني، على قول ابن كثير، فهو من أجل هذا أورد هذا الحديث.

ولا شك أن النفاق كالكفر ليس على مرتبة واحدة، وإنما هو على مراتب، فالنفاق في الشخص الواحد المعين، تارة يزداد وينقص، كما أنه يتفاوت من شخص إلى آخر، فمن الناس من يكون مغموصاً عليه بالنفاق، ومنهم من يكون بين بين، ومنهم من يكون من ضعفاء الإيمان الذي يحصل له شيء من التردد والتشكك في بعض الأوقات، كما قال الله -عز وجل- في سورة الأحزاب لما ذكر أحوالهم:{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [(١٢) سورة الأحزاب]، فالذين في قلوبهم مرض هنا، عطفوا على المنافقين، فبعض أهل العلم يقول: هذا من أوصاف المنافقين، حيث تتابع الأوصاف، كما في قول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

يعني هي أوصاف متعددة لشخص واحد، فالمنافقون والذين في قلوبهم مرض هم طائفة واحدة عند بعض أهل العلم، وعند بعضهم أن الأمر يختلف، فالمنافقون هم المنافقون، والذين في قلوبهم مرض هم ضعفاء الإيمان، لما حصلت الشدة والحصار حصل لهم تزلزل، وتشكك بوعد الله -عز وجل-.

فعلى كل حال هذا تحتمله الآية، ولا شك أن النفاق يتفاوت، ومن قال بأن المثلين لطائفة واحدة هي طائفة المنافقين، فهو يصور أحوالهم، وهذا لربما يكون هو المتبادر، والله تعالى أعلم.

"وقوله تعالى: {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(٢٠) سورة البقرة].

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس في قوله تعالى: {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ} قال: لما تركوا من الحق بعد معرفته.

{إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، قال ابن عباس: أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير".

أي أن قوله تعالى: {إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} متعلقة بما قبلها، وهنا عمم المعنى، تعميماً ليس مطلقاً، وإنما متوسطاً، بحيث إنه ما قال: إن الله على كل شيء قدير أي بإذهاب سمعهم وأبصارهم، هذا هو ربط خاتمة الآية بما ذكر فيها، وما تضمنته من ذهاب سمعهم وأبصارهم، فهنا قال: على ما أراد بعباده من نقمة أو نعمة، ومن ذلك: إذهاب السمع والأبصار، وإذا عممتها تعميماً مطلقاً تقول: إن الله على كل شيء قدير كما هو ظاهر اللفظ من حيث هو، أي: على كل شيء قدير فيما يتعلق بالخلق والتدبير، وما يتعلق بالعذاب والإنعام وغير ذلك، فهو كذلك.

على كل حال {إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} لا شك أن مما يدخل بذلك دخولاً أولياً هو الذهاب بسمعهم وأبصارهم.

"وقال ابن جرير إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع؛ لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير".

هذا الذي يسمونه بالمناسبة، علم المناسبات من أنواعه ما يكون في الربط بين خاتمة الآية وبين موضوعها.

لماذا قال في خاتمة الآية هنا: {إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}؟

يقال: هذا نوع من علم المناسبات، إذ إنه لما ذكر -سبحانه وتعالى- وعيده بالذهاب بسمعهم وأبصارهم، ذكر قدرته الكاملة، وأن ذلك لا يعجزه، فهذا لون من المناسبات.

كذلك ختم الآيات كما هو معلوم، بالأسماء الحسنى كما في قوله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٣٨) سورة المائدة]، فهذا في غاية المناسبة.

وهناك أشياء قد تشكل ولربما عرضنا لبعضها في بعض المناسبات مثل قوله تعالى: {إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(١١٨) سورة المائدة]، والجواب عنها معروف، ذكرته في المرات السابقة، أو في بعض الدروس.

"وذهب ابن جرير ومن تبعه من كثير من المفسرين إلى أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين، وتكون "أو" في قوله تعالى: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ} بمعنى الواو، كقوله تعالى: {وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا}" [(٢٤) سورة الإنسان].

يعني لا تطع منهم آثماً أو كفوراً: لا تطع منهم آثماً ولا كفوراً، نعم، لا تطع لا هذا، ولا هذا؛ لأن "أو" تارة تكون للتخيير والإباحة، وتارة تكون للتقسيم، وتارة تكون بمعنى الواو.

تارة تكون للتقسيم مثل قول الله -عز وجل-: {وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى} [(١٣٥) سورة البقرة]، فليس هذا للتخيير قطعاً؛ لأن اليهود لا يمكن أن يقولوا: كونوا نصارى تهتدوا، والنصارى لا يمكن أن يقولوا: كونوا على دين اليهود تهتدوا؛ لما بينهم من الخلاف والشر، والعداوة، ولكن هذه للتقسيم، وقالت اليهود كونوا هوداً تهتدوا، وقالت النصارى كونوا نصارى تهتدوا، فهي للتقسيم.

{وَقَالُواْ}: يعني اليهود والنصارى، {كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى}: أي كل طائفة قالت: كونوا كذا تهتدوا، أي على دينها، فإذن "أو" هذه للتقسيم.

وهنا "أو" في قوله: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ} ليست للتقسيم على قول ابن جرير، فتكون هنا بمعنى الواو، يعني أن المثلين لطائفة واحدة، وهي حال أهل النفاق من غير تنويع لهم.

وعلى قول ابن كثير لا تكون "أو" بمعنى الواو هنا، وإنما يمكن أن تكون بمعنى التقسيم، أي أن المثل الأول لطائفة، والمثل الثاني لطائفة أخرى.

"أو تكون للتخيير، أي اضرب لهم مثلاً بهذا، وإن شئت بهذا، قال القرطبي: أو للتساوي، مثل: جالس الحسن أو ابن سيرين، على ما وجهه الزمخشري أن كلاً منهما مساو للآخر في إباحة الجلوس إليه، ويكون معناه على قوله: سواء ضربت لهم مثلاً بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ من قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ* الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}

[(٢١-٢٢) سورة البقرة].

توحيد الألوهية:

شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود، وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة، بأن جعل لهم الأرض فراشاً، أي مهداً كالفراش."

{اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ}: هذا يسمونه دليل الإيجاد والخلق والاختراع، وهو كثير في القرآن.

ثم قال: **{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ}** [(٢٢) سورة البقرة]: وهذا يقال له: دليل الحكمة والتعليل، وهذا كثير في القرآن أيضاً، حيث يذكر الله – عز وجل– لهم أنه الذي خلق ويستدل لهم على ذلك، ومن ثم يتوصل بهذا إلى إلزامهم بتوحيد الإلهية، الذي خلق ينبغي أن تكون العبادة مختصة به، ومن هنا قيل: إن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الإلهية، إذا أقررتم بأن الله –عز وجل– هو المنفرد بالخلق والإيجاد والتصرف فينبغي أن يكون ذلك حاملاً لكم على توحيده وإفراده بالعبادة.

ودليل الحكمة الآخر الذي يبين فيه علة هذا الخلق أنه خلق لكم ما في الأرض جميعاً لتنتفعوا به، وجعل لكم الأرض فراشاً ممهدة تستطيعون السير عليها والضرب في جنباتها، وأخرج لكم منها النبات، وأنزل لكم من السماء المطر، وكل ذلك من أجل أن تنتفعوا بهذا الإنعام والإفضال، فيكون حاملاً لكم على مزيد من العبودية لله عز وجل والشكر له.

ثم قال لهم: **{فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}** [(٢٢) سورة البقرة]: أي: من كان بهذه المثابة من الخلق والإيجاد والإنعام والإفضال، فينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له، وهذا الأسلوب كثير في آيات القرآن.

"بأن جعل لهم الأرض فراشاً أي مهداً كالفراش مقررة موطئة مثبتة بالرواسي الشامخات" الآن في قوله: **{اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ من قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ* الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً}** [(٢١-٢٢) سورة البقرة]، أي: اعبدوا ربكم، العبادة المعروفة، وهذا أمر بتوحيد الإلهية، وما يندرج تحته ويتضمنه ويستلزمه.

{اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ} أفردوه بالعبادة والتوجه، فلا تتوجهوا إلى أحد سواه، وذكر اسم الرب –تبارك وتعالى– هنا وهو في غاية المناسبة، فقوله: **{اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ}** أي: أن المربي بالنعم الظاهرة والسيد هو الذي ينبغي أن يوحد ويفرد، فليس لكم رب سواه، فكيف تعبدون غيره، وتتوجهون بالشكر والعبادة، وتضعون ذلك في غير من خلق؟ فهذا غاية الظلم كما قال تعالى: **{إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}** [(١٣) سورة لقمان]، فالرب هو الذي يستحق أن يعبد.

قال تعالى: **{الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ من قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**، قوله: **{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** تحتمل أن تكون بمعنى الترجي، وهنا يرد الإشكال المعروف، وهو كيف يقع الترجي من الله –عز وجل– وهو عالم ما كان وما يكون من الخفيات، وإنما يترجى من كان لا يعلم عواقب الأمور.

فنحن نترجى نزول المطر، ونترجى قدوم زيد، نرجو حصول كذا، ولا ندري هل يحصل أم لا، فإذا كان قريب المنال فهذا هو الرجاء، وإذا كان من المحال أو البعيد جداً، فهذا هو التمني، نتمنى نزول المطر.

وعلى كل حال فإن الله -عز وجل- لا يترجى، فمن قال: **{لَعَلَّكُمْ}** للترجي، قال: ذلك بحسب حال المخاطب، المخاطب يخاطب بحسب نظره، كما سمى معبودات المشركين آلهة، وهي ليست آلهة، وسمى الترّهات والشبهات التي يحتجون بها سماها حجة، قال تعالى: **{حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ}** [(١٦) سورة الشورى] وهي ليست بحجة، لكن هم يعتقدون أنها حجة فسماها حجة، وهذا إذا قلنا: إن لعلّ للترجي، وإذا قلنا: إنها للتعليل في جميع المواطن في القرآن -إلا في قوله: **{وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ}** [(١٢٩) سورة الشعراء] أي: كأنكم تخلدون، وباقي المواضع كلها تكون للتعليل- فهنا في قوله تعالى: **{اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** لا إشكال؛ إذ يكون المعنى اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم من أجل أن تحصل لكم التقوى.

فقوله: **{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** هنا هل يكون عائداً إلى ما ذكر من الأمر بالعبادة، اعبدوا ربكم لعلكم تتقون، أو يكون عائداً إلى ما ذكر من الخلق، الذي خلقكم لعلكم تتقون، أي من أجل أن تتقوه.

بعض أهل العلم، يقول: إنه يعود إلى الأمر بالعبادة، اعبدوا ربكم من أجل أن تحصل لكم التقوى، فالله يأمرنا بالعبادة لتربية التقوى في نفوسنا.

وعلى المعنى الآخر يكون ذلك عائداً إلى الخلق، فهو خلقنا من أجل أن نحقق التقوى، من أجل أن نتقيه سبحانه وتعالى.

فإذا قلنا: إنه عائد إلى العبادة، فقد يشكل عليه أن العبادة هي التقوى، أليست التقوى هي فعل ما أمر واجتناب ما نهى؟ وفعل ما أمر واجتناب ما نهى هو العبادة، فهذا قد يلزم منه ما يسمى بالدور.

فعلى هذا يمكن أن يقال: إن الله أمر بعبادته لتحصل التقوى، وهي أن يجعل العبد بينه وبين عقاب الله وقاية، بفعل ما أمر واجتناب ما نهى، فيكون متقياً إذا امتثل، وإذا كان عابداً يكون متقياً، ويحتمل أن يكون المعنى الآخر، أن الله خلقنا من أجل أن نتقيه بتحقيق العبودية، فيكون ذلك كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}** [(٥٦) سورة الذاريات].

فإذا أردنا أن نرجح بين المعنيين فالمعنى الثاني هو أقرب، ويشهد له هذه الآية، وهي قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}** [(٥٦) سورة الذاريات]، فعبادته هي تقواه، بفعل ما أمر واجتناب ما نهى.

ويمكن أن نقول: إن الآية تحمل على المعنيين، فيقال: إن الله -عز وجل- يأمرنا بعبادته لتربية التقوى في النفوس وقد خلقنا أيضاً من أجل تحقيق التقوى، والقرآن يعبر بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فيكون خاتمة الآية: **{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** تعليلاً للأمر بالعبادة، وتعليلا للخلق والإيجاد، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فيقول المصنف –رحمه الله-:

"شرع –تبارك وتعالى- في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود، وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة بأن جعل لهم الأرض فراشاً، أي: مهداً كالفراش مقررة موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات، والسماء بناء وهو السقف، كما قال في الآية الأخرى: {وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ} [(٣٢) سورة الأنبياء] {وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء} [(٦٠) سورة النمل] والمراد به السحاب ها هنا في وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد رزقاً لهم ولأنعامهم، كما قرر هذا في غير موضع من القرآن.

ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [(٦٤) سورة غافر].

ومضمونه أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره، ولهذا قال: {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(٢٢) سورة البقرة].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود –رضي الله عنه- قال: قلت يا رسول الله، أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك)) الحديث.

وكذا حديث معاذ –رضي الله عنه-: ((أتدري ما حق الله على عباده؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً...)) الحديث.

وفي الحديث الآخر: ((لا يقولن أحدكم: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شاء فلان))."

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقوله –تبارك وتعالى-: **{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء}** [(٢٢) سورة البقرة]، مع قوله: **{وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا}** [(٣٢) سورة الأنبياء] دليل على أن السماء سقف محفوظ ومحسوس، خلافاً لما يزعمه بعض أهل الفلك من المعاصرين، حيث يقولون: إن السماء ليست

جسماً محسوساً وسقفاً كما هو مقرر في القرآن، وإنما يقولون: إن هذه السماء هي عبارة عن غازات..، وما أشبه ذلك مما يقولونه في هذا المقام، بحيث إنه ليس هناك سقف محيط بالعالم.

وعلى كل حال هذا تكذيب بما جاء في القرآن.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء}** [(٢٢) سورة البقرة] المقصود به العلو، فيصدق على السحاب، فكل ما علا فهو سماء، وبالتالي فهذا المطر النازل من السحاب هو نازل من السماء.

فكلام أهل العلم في مصدر هذا المطر -أي: من أين يأتي- كثير، وذلك لا يمنع أن يكون متركباً من أبخرة تتصاعد من مياه البحار وغيرها، أي: تصعد إلى أعلى ثم تتكثف... إلى آخره، ثم تنزل، فالله يجعل هذه السنة في خلقه، فينزل لهم بها المطر، وقد يكون له مصدر آخر مع هذا، والله -عزَّ وجلَّ- على كل شيء قدير، لكن هذا أمر مشاهد، والعلم عند الله -عزَّ وجلَّ-.

" وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع تعالى."

هذه قضية لا تحتاج إلى تقرير، يعني وجود الصانع أظهر من كل شيء.

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ولذلك لما مر الرازي مع كوكبة من تلامذته بامرأة عجوز فهالها ما رأت من هذا التجمهر على هذا الرجل، والحفاوة به فسألت من هذا؟ فقالوا: هذا الذي يعرف على وجود الله ألف دليل، فقالت: لو لم يكن في قلبه ألف شك لما عرف ألف دليل.

يعني أن هذه القضية لا تحتاج إلى استدلال لظهوره فهو أمر معلوم بالفطر، أمر بيِّن ظاهر أظهر من كل شيء، فلا حاجة إلى العناء في تقريره والاستدلال عليه، فقد كان المشركون وهم على شركهم يقرون بوجوده وصنعه سبحانه، قال تعالى: **{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}** [(٦١) سورة العنكبوت].

وبالتالي فإن المتكلمين من أمثال الرازي يبذلون جهداً كبيراً وعناء طويلاً في تقرير هذه القضية -وجود الصانع- فإن انتقلوا منها انتقلوا إلى تقرير توحيد الربوبية، وهذه من آفات علم الكلام، حيث إنهم يجادلون ويطيلون في تقرير القضايا البدهية التي لا ينازع فيها أحد.

وهذا الكلام قد تحتاج إليه مع ملحد، وذلك نادر؛ لأن طوائف أهل الإشراك يقرون بوجود الله -عزَّ وجلَّ- لكنهم يجعلون معه شريكاً، فتحتاج إلى مناقشتهم في توحيد العبادة.

لكن هؤلاء يناقشون في البدهيات، ولذلك مقدماتهم سقيمة، فالقرآن الكريم لا يتحدث عن قضية وجود الله -عزَّ وجلَّ- مثلاً، ولا يتحدث عن تقرير توحيد الربوبية إلا ليدلل به على توحيد

الألوهية، أما أهل الكلام فإن المقدمات عندهم لا تأتى بأن الله هو الخالق، إذن يجب أن يكون هو المعبود وحده لا شريك له.

والصواب ليس كذلك، بل أثبت المقدمة الأولى أن الله هو الخالق، ثم أثبت بعد ذلك أنه المستحق وحده للعبادة.

فانظر كم يحصل بسبب هذا من التطويل من غير فائدة، وهذا هو أحد الفروق بين الأدلة الكلامية المنطقية الفلسفية وطرائق أهل الكلام في الاستدلال، وطريقة القرآن في تقرير قضايا الاعتقاد، هذا واحد من هذه الفروق، وبهذا نعرف ما جره علم الكلام على العقيدة الإسلامية وعلى الأمة من مفاسد وجدل عقيم لا طائل تحته، فاشتغلوا بالقيل والقال، والجدل في المسلمات، وتقرير الثوابت بأطول الأدلة، والتطويل في المقامات التي لا تحتاج إلى تقرير أصلاً، فكثر كلامهم وشغبهم والتمسوا الاعتراضات والقوادح وحاولوا الجواب عنها فشككوا في المسلمات.

هذا هو الذي حصل، ولذلك تجدون مثل الجهم بن صفوان لما قابل طائفة من السمنية وقالوا له: تقر بأن لك رباً؟ قال: نعم، قالوا: هل وجدت له حساً؟ قال: لا، قالوا: هل سمعت له صوتاً؟ قال: لا، قالوا: هل شممت له رائحة؟ قال: لا، إلى أن قالوا له: كيف إذن تدعي أن لك رباً ولم تدركه بحواسك؟

فبقي شاكاً لا يصلي أربعين يوماً، ثم خرج عليهم بكلام أشبه ما يكون بكلام النصارى -كما قال الإمام أحمد -رحمه الله- وغيره في الرد على الزنادقة والجهمية- حيث جاءهم فقال لهم: تقول بأن لك روحاً، قال: نعم، قال: هل وجدت لها صوتاً، قال: لا، وجدت ريحاً؟ قال: لا، قال: إذن كيف تقول بأن لك روحاً؟ وظن أنه حاجَّهم في هذا، وهو يقول: بأن الله مثل الروح، فصار أعظم من قول النصارى بأن المسيح هو روح الله وأنه حل في المسيح، فهو يقول بأن الله مثل الروح يحل ويتجلى في هذه المخلوقات.

وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع تعالى وهي دالة على ذلك بطريق الأولى.

مع أن القرآن ساقها لا لتقرير وجود الصانع، قال تعالى: **{الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** [(٢١) سورة البقرة]، جاء بها من أجل العبادة، **{اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ}** [(٢١) سورة البقرة]، وهم ما استدلوا بها حتى على توحيد الربوبية الذي هو مسلَّم وما سيقت لتقريره، لكنه أشار إلى هذا، وهو أمر يقرون به أنه هو الرب وحده، فإذن ينبغي أن يكون المعبود وحده، فذهب الرازي إلى ما قبل قبل ذلك، وهو وجود الصانع، ثم بعد ذلك تأتي مرتبة أخرى وهي أنه الرب، فهو يريد أن يثبت أنه موجود، والآية ما جاءت لهذا.

" فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال:..."

شوف الآن الفرق بين هذا وبين الجهم بن صفوان، على كثرة من تبع الجهم بن صفوان من أهل خراسان، وفي البصرة من أتباع عمرو بن عبيد، وغير هؤلاء من المعتزلة الذين يزعمون أنهم أصحاب عقول، حيث انكفأ كثير منهم خلف هذا الرجل المبطل، وتتعجب في ذلك الزمان -في زمان التابعين- مع وجود علماء مثل الجبال وقرب العهد من شمس النبوة، كيف توجد عقول تفكر بهذه الطريقة وتتبع مثل هذا الرجل على جهله وغباوته وظهور فساد عقله، فكيف بزمانك هذا الذي لا ننتظر فيه إلا الدجال؟

فهذا أمر في غاية العجب، فلو أن الإنسان تأمل في التاريخ وظهور الفرق، كيف وجدت هذه الألوف المؤلفة، الذين تبعوها وصاروا يموتون دونها، ويتحمسون لها، ثم تقوم الخلافة على فراخ هؤلاء الجهمية وهم المعتزلة، ويمتحنون الناس؟

نعجب كيف وجدت مثل هذه الأشياء في ذلك الزمان؟ فكيف بزماننا هذا؟ نستغرب إذا انحرف الناس وحادوا عن الجادة!

" كما قال بعض الأعراب وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله، إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟!

فمن تأمل هذه السموات بارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار، والصغار النيرة من السيارة ومن الثوابت، ونظر إلى البحار المكتنفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة في الأرض لتقرَّ ويسكن ساكنوها، مع اختلاف أشكالها وألوانها، كما قال الله تعالى: {وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ* وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [(٢٧-٢٨) سورة فاطر].

وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر للمنافع، وما ذرأ في الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأراييج والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء استدل على وجود الصانع وقدرته العظيمة، وحكمته ورحمته بخلقه، ولطفه بهم، وإحسانه إليهم، وبره بهم، لا إله غيره، ولا رب سواه، عليه توكلت وإليه أنيب.

والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً."

على كل حال هذه الطريقة هي الشائعة في القرآن، وذلك أن يستدل بهذه المخلوقات والكائنات والأجرام العلوية والسفلية على وحدانية الله -عزَّ وجلَّ- وصفاته، يستدل بهذه المشاهدات وما

يقع في هذا الكون على المعبود -سبحانه وتعالى- فيُتعرف عليه -تبارك وتعالى- بآثاره وخلقه.

والطريقة الثانية -وهي طريقة الخاصة- هي الاستدلال، أي التعرف على ما يجري في الكون بناء على المعرفة بالله -عزَّ وجلَّ-.

يعني أن يجعل معرفته بالله وأسمائه وصفاته طريقاً إلى معرفة ما يقع ويجري في هذا العالم.

وشتان بين الطريقتين، فالطريقة الأولى هي الشائعة الكثيرة، وهي التي تناسب عامة الخلق، تقول: الأثر يدل على المسير، وهذه الأكوان والأفلاك العظيمة في جريها ودقة خلقها وعظمتها تدل على عظمة الخالق وعلى علمه وعظيم سلطانه، وتدل على قدرة تامة وغنى مطلق، وملك لا يقادر قدره، وما إلى ذلك من المعاني، وتستدل بما ترى من هذه الخلائق التي تأتيها أرزاقها في قعر البحار على أن الله رحيم وأنه رزاق وأنه بصير وأنه خبير يعلم دقائق الأشياء والخفيات، وأنه لطيف بعباده وما أشبه هذا.

الطريقة الثانية: هي طريقة خديجة -رضي الله عنها- لما جاءها النبي -صلى الله عليه وسلم- مذعوراً فقالت بناء على ما عرفت من أوصاف الله الكاملة، قالت: "كلا، والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف" إلى آخر ما ذكرت.

فهي بناء على ما عرفت من أوصاف الله وكماله استنبطت وعرفت أن ما وقع للنبي -صلى الله عليه وسلم- ليس أمراً مخوفاً يتبعه ويلحقه من جرائه الضرر، فقالت: لا، فمثلك لا يخاف، ولا يلحقه المكروه؛ لأنك بهذه المثابة والله لا يضيع أولياءه.

هذه طريقة موجودة، ولكنه لا يتوصل إليها إلا من كملت معرفته وبلغ مرتبة اليقين، فهو ليس عنده شك ولا تردد ولا ريبة، بل إيمانه جازم ثابت، فهذا يستطيع أن يتعرف على كثير من الأمور الواقعة، ويحكم عليها بناء على معرفته بالله -عزَّ وجلَّ-، فيعرف أن صنع هؤلاء إلى بوار، وأن كيد هؤلاء لا يفلح، وأن العاقبة ستكون لهؤلاء، وأن إدالة هؤلاء على هؤلاء مؤقتة ولن تدوم، وإنما هي كما قال الله -عزَّ وجلَّ-: **{وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ}** [(٤) سورة محمد]، فهو يعرف هذه الأشياء، ويعرف من أين أتي، ومن أين وقع في هذه الورطة، وكيف يكون المخرج منها، وكل ذلك بناء على معرفته بالمعبود -سبحانه وتعالى-.

فمن وصل إلى هذه المرتبة فإنه قد وصل إلى مرتبة من مراتب الإيمان العالية، وهي أهل اليقين، أهل البصر، أهل المعرفة الصحيحة بالله -عزَّ وجلَّ-.

فهذه مراتب خواص أهل العبودية، ولذلك لا تجد هذه الطريقة الثانية مطروقة كثيراً في القرآن أو في الكتب؛ لأن المناسب لعامة الخلق، هي الطريقة الأولى.

" **يقول الله تعالى: {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}** [(٢٣-٢٤) سورة البقرة].

ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو، فقال مخاطباً للكافرين، {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} يعني محمداً -صلى الله عليه وسلم- فأتوا بسورة من مثل ما جاء به...."

تحدثنا في بداية التفسير الذي كان في يوم الجمعة عن مقاصد القرآن والموضوعات الأساسية التي جاء لتقريرها، وقلنا: من ذلك قضية التوحيد بأنواعه الثلاثة، ومن ذلك قضية الوحي والرسالة والنبوة، وذكرناه في موضوعات سورة البقرة والقضايا التي جاءت لتقريرها.

فهنا ذكر قضية التوحيد: **{اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ}** [(٢١) سورة البقرة]، ثم انتقل منها إلى قضية الوحي، وإثبات نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- بالمعجزة، وهي هذا القرآن.

قال تعالى: **{وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ}** والريب، هنا فسره بالشك، وقلنا: إن هذا التفسير بما يقاربه، وإلا فإن الريب كما مضى في أول السورة هو شك مع قلق وتردد، وليس مجرد الشك، يقال له: ريب، وإنما إذا حصل معه شيء من القلق والتردد، يقال له: ريب، يعني أنه أخص من الشك.

" ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو، فقال مخاطباً للكافرين: {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} يعني محمداً -صلى الله عليه وسلم- فأتوا بسورة من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله، فعارِضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله، فإنكم لا تستطيعون ذلك.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: {شُهَدَاءكُم}: أعوانكم."

{نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} لفظ التنزيل نزلنا يدل على التدريج، بخلاف ما لو قال: أنزلنا، وهذا مما يستدل به على أن القرآن نزل منجماً؛ فإن التفعيل يدل على التكثير، فهو يدل هنا على التدرج في النزول، أي: نزل شيئاً بعد شيء.

{فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ} هنا تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة، وقد تحداهم في مواضع من القرآن تارة أن يأتوا بقرآن مثل هذا القرآن، وبكتاب مثل هذا الكتاب، كما تحداهم أن يأتوا بعشر سور كما في سورة هود، وتحداهم أن يأتوا بسورة كما هنا وكما في سورة يونس.

ولذلك يقال: إن القرآن يحصل إعجازه بأقصر سورة، وأقصر سورة ثلاث آيات كسورة الكوثر.

وذهب جماعة من أهل العلم -وهو قول متجه- إلى أن ذلك يحصل أيضاً بما يعادل أقصر سورة، يعني آية أو جزءاً من آية مثل آية الدين التي هي أطول من سورة الكوثر بأضعاف، فيحصل الإعجاز بآية أو بجزء من آية تعادل أقصر سورة.

أما الكلمة الواحدة من حيث هي، فإنها ليس فيها إعجاز، ولكن وضعها في موضعها لا شك أنه مع التركيب والسياق في غاية الإحكام والدقة بحيث كما قال بعض أهل الإعجاز: لو فتشت القواميس والمعاجم ولغة العرب لم تجد أبداً كلمة تقع موقعها بجرسها وسياقها ودلالتها الأصلية والخادمة، أي لا تجد شيئاً يؤدي نفس المعاني ونفس الإيقاع والتأثير في السمع، ويمثلون على هذا بأمثلة، كقوله -تبارك وتعالى-: **{إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ}** [(٧٨) سورة الأنبياء].

فكلمة نَفَشَت قد لا تعرف معناها بالضبط، ولكن مجرد ما تسمعها يحصل لك فهم لا يمكن أن تؤديه لفظة أخرى تقوم مقامها، ولذلك لو قلت: إذ انتشرت فيه غنم القوم، فإنها لا تؤدي نفس المعنى الذي تؤديه عبارة **{إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ}**، والأمثلة على ذلك كثيرة.

يقول تعالى: **{وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم}** قال ابن عباس: أعوانكم، وقال السُّدي عن أبي مالك: شركاءكم أي: قوماً آخرين يساعدونكم على ذلك، أي استعينوا بآلهتكم في ذلك يمدوكم وينصروكم.

وقال مجاهد: **{وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم}** قال: ناس يشهدون به، يعني حكام الفصحاء.

الشهداء: جمع شهيد، والشهيد والشاهد، شهود وشهداء، وهذه اللفظة الشهود والشاهد تأتي مقولة عمن حضر، تقول: فلان شهد الوقعة يعني من حضر، يقال: وقد شهد بدراً، يعني حضر بدراً، فتأتي بمعنى الحضور، وتأتي هذه اللفظة بمعنى الشاهد الذي يؤدي الشهادة، وتأتي بمعنى المعاون.

وهنا قال الله تعالى: **{وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم}** المقصود الأعوان، ومن هنا فسره بعض السلف بالآلهة؛ لأنهم عادة يطلبون المدد منهم، أي: هاتوا أعوانكم من أجل أن تأتوا بقرآن مثل هذا.

{وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم} أي أعوانكم ومن هنا يمكن أن يقال آلهتكم كما قال بعض السلف، أي: وادعوا آلهتكم، أو ادعوا من شئتم ليحضر ذلك، أو ادعوا شهداءكم أي: الشهود على أن هذا مثل القرآن، ومن هنا قال من قال: ناس يشهدون به، يعني حكام الفصحاء.

حكام الفصحاء كانوا في السابق في أسواقهم كسوق عكاظ في الجاهلية لهم منتديات أدبية، فيأتي الشعراء والخطباء والأدباء ويلقون القصائد والخطب، وكان لديهم لجنة ممن برع في هذا الباب أمثال امرئ القيس -وتعرفون أخبار هؤلاء في التاريخ وكيف يحصل مغاضبات أحياناً في تلك المجالس لما تفضل في تلك الأسواق قصيدة على قصيدة فيغضب ويهجو الحكم- وهذه اللجنة بمثابة طاقم التحكيم، يسمعون القصيدة ويسمعون، فيحكمون أن هذه أفضل

من هذه، وينتقونها، فانتقوا السبع المعلقات وعلقوها على الكعبة؛ باعتبار أنها من روائع الشعر العربي، فهنا **{وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم}** يعني الشهود الذين يشهدون بأن هذا مثل القرآن.

{فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم} أي من يشهدون لكم بـذلك، أو ادعـوا أعـوانكم كآلهتكم التي تستعينون بها، أو ادعوا من يحضر، ادعوا شهداءكم، وادعوا أعوانكم.

يقول الله تعالى: **{قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}** [(٨٨) سورة الإسراء] يعني لو كان بعـضهم لـبعض مظـاهراً ومعاوناً ومؤيداً ومناصراً ومقوياً ما يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وهنا بسورة واحدة.

وقد تحداهم الله تعالى بهذا فعجزوا وما استطاعوا، حتى الذين حاولوا صاروا أضـحوكة فـي التاريخ؛ لأن العقلاء منهم كفوا ومزقوا الأوراق التي حاولوا كتابتها، والذين تجرءوا صـاروا سبة وأضحوكة يضحك منهم الناس.

انظر إلى هذه الترهات والنماذج من هذه المحاولات المضحكة لمسيلمة الكذاب، الـذي كلمـا ذُكر، ذكر الكذب معه، حيث يقول في قرآنه: والليل الأضخم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلـم، وما انتهكت أسيد من مُحرَّم.

ما هذا الكلام، هل هذه فصاحة وبلاغة، هل هذا قرآن، ماذا تحت هذا الكلام من معان يمكـن أن تستنبط؟ لا شيء من ذلك، بل هذا كله كذب وزور.

اجتمع مسيلمة الكذاب مع سجاح بنت الحارث وتزوجها، وهي أيضاً كانت تدعي النبوة، فقالت له: ما أوحي إليك؟

فقال: ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، ما بين صفاق وحشا.

فقالت: وماذا بعد ذلك؟

قال: أوحي إليَّ: إن الله خلق النساء أفواجاً، وجعل لهن أزواجاً، فنولج فيهن قعساً إيلاجاً، ثـم نخرجها إذا شئنا إخراجاً، فينتجن لنا سخالاً نتاجاً.

فقالت هذه التي تدعي النبوة: أشهد أنك نبي، فتزوجته، وحق فيهما قول الله تعالى: **{الْخَبِيثَـاتُ لِلْخَبِيثِينَ}** [(٢٦) سورة النـــور]، فلا غرابة من ذلك.

ولما قدم على أبي بكر –رضي الله عنه– وفد مسيلمة في حروب الردة، أو لما جيء ببعـضهم فقال: أسمعوني ما يقول صاحبكم، فذكروا له الفيل وما الفيل وما أدراك ما الفيل، له خرطـوم طويل، وذيل قصير، ومما قالوه عنه: والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، والخابزات خبـزاً، واللاقمات لقماً، قال: أشهد أن هذا لم يخرج من إل، ومعنى من إل يعني من إله أو مـن ربٍّ، كما قال تعالى: **{لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً}** [(١٠) سورة التوبـة] أي لا يرقبون فـيكم الله ولا العهد.

قال لهم أبو بكر: ويحكم، إن هذا الكلام لم يخرج من إل، فأين كان يــذهب بكــم؟ أي: أيــن عقولكم؟ ومع ذلك كانوا يقولون: إن كذاب اليمامة أحب إلينا من صادقي مضر، وتصرفهم هذا خلافاً لابن المقفع الأديب المعروف، الذي قيل له ابن المقفع لأنه ضرب على ظهر يده حتــى تقفعت وذلك لما ادعى النبوة، أو ادعى أنه يأتيه مثل هذا القرآن، فحاول وكتب أشياء ومزقها، ومر على صبي يقرأ قوله تعالى: **{وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَــاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}** [(٤٤) سورة هود]، فرجع ومحا كل ما كتب، وقال: أشهد أن هذا لا يعارض وما هو بكلام البشر، وما استطاع.

وكذلك المتنبي لما بلغ ذروة في الشعر اغتر بنفسه فحاول وادعى كما قيل النبوة فترة -ولــذلك قيل له المتنبي- وحاول أن يكتب قرآناً، فكان كلما كتب ورقة مزقها.

وحتى الذي كتبه ابن المقفع أول ما كتبه إنما أخذه من كتابين من حكم فارس وغير ذلك، يقــال لأحدهما الدُّرة وللآخر التليمية، فهو جاء بالعبارات من هذين الكتابين حيث لفقها ونمقهــا ولــم يأت بها من عند نفسه فاستحيا ولم يظهرها.

وهذا رجل آخر يقال له يحيى بن حكم الغزال في الأندلس كان من البلغاء توفي سنة ٢٥٠هــ، حاول فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها وما استطاع.

يقول: اعترتني منه خشية ورقة حملتني على التوبة والإنابة.

وهكذا كل من حاول فإن محاولته باءت بالفشل، وإذا أردتم أن تعرفوا شيئاً من هــذا فــانظروا في كتاب إعجاز القرآن للباقلاني، فقد تكلم فيه على قضايا منها: أنه جاء بقصيدة يضرب بهــا المثل عند العرب في الإعجاز، وهي قصيدة مطلعها: قفا نبكِ.

هذه مطلع قصيدة بليغة جداً لامرئ القيس، فإذا قيل: قفا نبك، فهم يقصدون هذه القصيدة التــي هي عندهم من أبلغ أشعار العرب.

أخذها الباقلاني وحللها، حيث جاء بالقضايا البلاغية، والاستعمالات بأنواعها من جناس ومجاز وطباق وغير ذلك، وبقي يحللها ويحلل المعاني التي تضمنتها ويأتي بأشياء من القرآن ويقول: انظر هذه، وانظر هذه، وكان رجلاً يدرك الإعجاز، فجعل هذه القصيدة لا تساوي شيئاً يــذكر أمام إعجاز القرآن، ومن أراد الاطلاع على هذه المسألة فعليه بكتابه إعجاز القرآن.

نسأل الله التوفيق والسداد والثبات، وصلى الله وسلم وبارك على نبينــا محمــد، وعلــى آلــه وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد.

يقول المهذب لتفسير ابن كثير -رحمه الله-: "وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن، فقال في سورة القصص: {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(٤٩) سورة القصص].

وقال في سورة الإسراء: {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [(٨٨) سورة الإسراء].

وقال في سورة هود: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(١٣) سورة هود].

وقال في سورة يونس: {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ* أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(٣٧-٣٨) سورة يونس]. وكل هذه الآيات مكية.

ثم تحداهم بذلك أيضاً في المدينة، فقال في هذه الآية: {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ} أي شك، {مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} [(٢٣) سورة البقرة] يعني محمداً -صلى الله عليه وسلم- {فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ} [(٢٣) سورة البقرة] يعني من مثل القرآن، قاله مجاهد، وقتادة واختاره ابن جرير الطبري والزمخشري والرازي، ونقله عن عمر وابن مسعود وابن عباس والحسن البصري، وأكثر المحققين، ورجح ذلك بوجوه، من أحسنها: أنه تحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين، سواء في ذلك أميهم وكتابيهم، وذلك أكمل التحدي وأشمل من أن يتحدى آحادهم الأميين ممن لا يكتب ولا يعاني شيئاً من العلوم، وبدليل قوله تعالى: {فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ} [(١٣) سورة هود]، وقوله: {لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ} [(٨٨) سورة الإسراء].

فهذا التحدي عام لهم كلهم مع أنهم أفصح الأمم، وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة، مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك.

ولهذا قال تعالى: {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ} [(٢٤) سورة البقرة] ولن لنفي التأبيد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذلك أبداً، وهذه أيضاً معجزة أخرى، وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً، مقدماً غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين، ودهر

الداهرين، وكذلك وقع الأمر، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأنَّى يتأتى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شيء، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين؟!."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول ابن كثير -رحمه الله في قول الله -عزَّ وجلَّ-: **{فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ}** [(٢٣) سورة البقرة]، **يعني من مثل القرآن**، هذا القول الذي ذكره الحافظ -رحمه الله- واقتصر عليه هو القول المشهور الراجح في معنى هذه الآية، بصرف النظر عن تحليل هذه الجملة، وهل في الكلام -كما يعبر بعضهم- زيادة أو ليس فيه زيادة؟ بصرف النظر عن هذه التحليلات التي لا نخوض فيها عادة في مثل هذه القراءة، لكن هذا هو القول الراجح في معنى الآية، **من مثل القرآن**، خلافاً لمن قال بأن الضمير -الهاء- في **{مِّن مِّثْلِهِ}** يرجع إلى غير القرآن وهو التوراة والإنجيل، حيث قالوا: التوراة والإنجيل هو كلام الله -عزَّ وجلَّ- قبل أن تحرف.

ويكون المعنى على هذا القول أنه تحدى هؤلاء الأميين، كما ألمح ابن كثير -رحمه الله- إلى ذلك.

وابن كثير لما رجح الوجه المختار قال؛ لأن ذلك التحدي للجميع، للعرب ولأهل الكتاب، ولا يختص بهؤلاء الأميين، وذلك أن القول بأن الضمير يرجع إلى التوراة والإنجيل يؤدي إلى أن يكون المعنى: فأتوا بسورة من كتاب متقدم كالتوراة والإنجيل تجدونها تشهد بصحة ما في هذا القرآن، وعلى هذا المعنى، لا وجه للإعجاز ظاهر، وليس في هذا المعنى تحدٍّ بكونهم لا يستطيعون الإتيان والاختراع والابتكار لكلام كهذا القرآن؛ لأنه إنما قال: الجئوا إلى الكتب السابقة وستجدونها مصدقة لهذا القرآن، وليس المعنى -على هذا القول- أنكم لا تستطيعون أن تأتوا بمثل هذا القرآن، ولذلك فإن هذا القول بعيد جداً؛ مع أنه قال به من قال من السلف.

وقال بعضهم: إن الهاء في قوله: **{مِّن مِّثْلِهِ}** عائدة إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- والمعنى على هذا فأتوا بسورة من مثل هذا الرجل الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، كيف يصدر عنه مثل هذا الكلام.

وهذا القول لا وجه للإعجاز فيه؛ إذ على هذا القول يلزم أن يكون المعنى أنه إذا جاء رجل ماهر بالقراءة والكتابة وسائر العلوم فيمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن، وعلى هذا فلا وجه للإعجاز في أن يكون هذا القرآن صدر أو جاء على لسان رجل أمي لا يعرف القراءة.

وخلاصة الأمر أن هذين الوجهين في غاية البعد والمجافاة لقضية التحدي، فالله يتحداهم أن ينسجوا كلاماً على منواله، قال سبحانه: **{قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}**[(٨٨) سورة الإسراء].

ولذلك لا يمكن أن ترِد مثل هذه الأقوال على هذه الآية وأمثالها، ولذا فإن هذا القول الذي ذكره ابن كثير في تفسير آية البقرة لا يجوز العدول عنه وهو قوله: **أي: من مثل هذا القرآن،** ووجه هذا ظاهر، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: **{فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ}** [(٢٤) سورة البقرة] قال ابن كثير: "**ولن لنفي التأبيد في المستقبل**"، وهذه العبارة يبدو أنها مقلوبة؛ إذ كيف تكون لن لنفي التأبيد في المستقبل؟ وإنما يمكن أن يكون الصواب: ولن لتأبيد النفي، ثم إنها أيضاً لا تكون لتأبيد النفي دائماً، وإنما هي في كل مقام بحسبه، أي بحسب ما يفهم من السياق وحسب المقام وما يحتف به من القرائن، ولذلك لو وعدتك بالزيارة في هذا اليوم، ثم اتصلت بك اعتذر لك وقلت لك: لن أزورك، هل تفهم من هذا أني لن أزورك أبد الآبدين؟

وكذلك لو قلت لك: أنا أريد أن أسافر اليوم، ثم أرسلت لك رسالة عبر الجوال، وقلت لك: لن أسافر، هل تفهم منها أني لن أسافر أبداً أي سفر؟

لا يفهم هذا الفهم أحد، وإنما يُفهم أن المقصود نفي هذه الزيارة المعينة، ونفي هذا السفر المعين.

ولذلك فإن الله -عزَّ وجلَّ- لما كلم موسى -صلى الله عليه وسلم- قال موسى: **{رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ}** [(١٤٣) سورة الأعراف] فقال الله له: **{لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ}** [(١٤٣) سورة الأعراف]، فقوله: **{لَن تَرَانِي}** يعني في هذا المقام؛ لذلك علَّق رؤيته على أمر ممكن، وهو ثبات هذا الجبل أمام تجلي الله -عزَّ وجلَّ-.

لذلك لا يُفهم من هذا أن موسى لن يرى ربه أبداً، لا في الدنيا ولا في الآخرة، خلافاً لقول المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن لن تفيد التأبيد.

ولهذا لا بد أن تعلم أن اللغة العربية كغيرها من العلوم كأصول الفقه والمصطلح والتفسير وشروح السنة دخلها من العلوم الكلامية الفاسدة ما دخلها، ولذلك تجد في كتب المتأخرين -معاجم القواميس اللغوية- من المعاني ما لا تجده في كتب المتقدمين وما لا يعرفونه، وهذه قضية مهمة، ومثال ذلك لو رجعت إلى كتاب لسان العرب -وهو من كتب المتأخرين- وبحثت في كلمة استوى ستجد أنهم يذكرون من معانيها "استولى"، مع أن هذا ليس من معاني لفظة استوى في كلام العرب، ولذلك لو بحثت في كتب المتقدمين لن تجد هذا المعنى، فهذا مما دخل في كلام العرب.

ومثل ذلك "لن" يقول فيها المعتزلة: إنها تفيد التأبيد، وهي لا تفيد التأبيد في لغة العرب، والناس بعضهم عن بعض لا يزالون يفهمون عند استعمال مثل هذه اللفظة -لن- أنها في كل مقام بحسبه، فهنا يقول تعالى: **{فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ}** [(٢٤) سورة البقرة] فـ[لن] هنا تفيد التأبيد أي: لن تفعلوا في أي وقت من الأوقات.

"**ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}** [(١) سورة هود].

فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه، أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير ونهى عن كل شر، كما قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً} [(١١٥) سورة الأنعام]، **أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، فكله حق وصدق، وعدل وهدى، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشعر: إن أعذبه أكذبه.**

وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر، أو في مدح شخص معين، أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة."

أو كائنة: يعني واقعة أو حادثة من الحوادث.

"**أو كائنة أو مخافة أو سبُع أو شيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم المعيَّن على الشيء الخفي أو الدقيق، أو إبرازه إلى الشيء الواضح، ثم تجد له فيه بيتاً أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد، وسائرها هذر لا طائل تحته."**

تحدثنا عن قصيدة قفا نبكِ، وذكرنا كيف حللها الباقلاني -رحمه الله-، وذكرنا أنه جاء بالقضايا البلاغية، والاستعمالات بأنواعها من جناس ومجاز وطباق وغير ذلك، وأنه بقي يحللها ويحلل المعاني التي تضمنتها ويأتي بأشياء من القرآن ويقول: انظر هذه، وانظر هذه، فبين وجوه بلاغة القرآن، وكيف لا يدانيه أفضل ما أنتجه العرب من الشعر، فكانت النتيجة أن جعل هذه القصيدة لا تساوي شيئاً يذكر أمام إعجاز القرآن.

ولقد أتى هذا المأفون -أعني سيّئ الذكر، طه حسين- الذي يقول: إن الشعر الجاهلي قد أخفي، وإنما قيلت أشعار نسبت إلى الجاهليين من أجل أن تتطامن أمام فصاحة القرآن، وبلاغته وأن القرآن على منوال شعر العرب في الجاهلية.

ونحن نقول لهذا السيّئ: هاتِ أنت ومن استطعت من شيوخك من المستشرقين من اليهود والنصارى وغيرهم، هاتوا بلاغتكم وفصاحتكم، فالتحدي لا زال قائماً.

ثم أين محاكاته مع تظاهر الهمم عند العرب على النقل، وتميزهم بالحفظ، فكيف ينسون أشعارهم، والشعر هو الطريق إلى حفظ وقائعهم وتاريخهم وكل ما يجري عليهم؟!

ثم لو قام أحد وعارض أحداً من هؤلاء الجاهليين الذين تحداهم وهم أكثر الناس أنفة وإباء وتمنعاً من التحدي لنُقل، فكيف يخفى مثل هذا، ثم كيف يجترئ رجل أمي أن يتحدى الأولين والآخرين من الجن والإنس، ويبقى هذا الأمر قائماً إلى هذه الساعة؟!.

ابن كثير -رحمه الله- هنا يشير إلى وجوه الإعجاز، خلافاً لمن قال: إن الإعجاز في القرآن إنما هو من جهة فصاحته وبلاغته وتراكيبه اللغوية، وإن كان لا شك أن هذا أحد وجوه الإعجاز، وهو من أبرزها وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعث في أهل الفصاحة، وكانت قريش هي أفصح العرب على الإطلاق، فبعث منهم وتحداهم وتحدى غيرهم، ولكن وجوه الإعجاز لا تقتصر على هذا؛ فإن منها ما يكون من قبيل الإخبار عن الغيوب بأنواعها -الغيب النسبي والغيب المطلق- كالإخبار عن غيوب غابرة ماضية، ومثال ذلك: أن اليهود لما سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن مسائل من الغيوب الماضية لا يعرفها إلا نبي، كأخبار أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، أخبرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- عن هذا، قال الله تبارك وتعالى: **{وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا}** [(٨٣) سورة الكهف].

كما أخبر -صلى الله عليه وسلم- عن أمور ستقع فوقعت، ومنها ما ينتظر وقوعه، كما في قوله تعالى: **{الم* غُلِبَتِ الرُّومُ* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ* فِي بِضْعِ سِنِينَ}** [(١-٤) سورة الروم]، فهنا حدد المدة، فمن يستطيع أن يحدد مدة معينة والناس يموجون في خبره، وقد انبرى أكثرهم لعداوته وحربه وتكذيبه، ثم بعد ذلك يأتي بمثل هذا؟ هل يعقل هذا؟!.

أضف إلى ذلك كمال هذا التشريع في كل جوانب الحياة بأحكم النظم التي تهذب الإنسان، ابتداء من قص أظافره وأحكام الفطرة، وانتهاء بتدبير أمور الدولة والسياسة، إلى غير ذلك مما يتعلق بقضايا الاعتقاد والتوحيد والألوهية وكل ذلك، فكل هذه الأمور فصلها أحسن تفصيل بطريقة لا يمكن للنظم البشرية أن تأتي بمثلها، فالنظم البشرية قوانين ومواد تضبط حياة الناس بطريقة آثمة ظالمة تضيع حقوقهم وتهدر كرامتهم، بينما القرآن يهذب النفوس ويروضها ويربيها ويحملها على مكارم الأخلاق وعلى مراقبة الله -عزَّ وجلَّ- في كل الأحوال، فتجد الإنسان تُهيأ له الفرص لأخذ ما لا يحق له أخذه، ويتوقف خوفاً من الله -عزَّ وجلَّ-، وهذا لا يوجد إلا في تشريع رب العالمين -سبحانه وتعالى- فقط، فتجد أن هذا الإنسان يقع في يده ما لا يحل له، ثم يسأل عنه كيف يتخلص منه إن كان لا يحل؛ مع أن له فيه ألوان الطمع، ومع ذلك يترك الأمور المحبوبة إلى النفس اتقاءً لله -عزَّ وجلَّ- رجاء ما عنده، فيبذل أحب الأشياء إليه، ويضحي بنفسه وماله وكل ذلك من أجل الله.

إن هذا القرآن حينما يذكر أحكام الطلاق والحيض والقضايا المتعلقة بالرضاع، ونحوها من الأحكام، يذكر معها **{فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}** [(٢٢٧) سورة البقرة]، **{وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}** [(١٨) سورة النور]، **{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [(٦) سورة الحشر].

وحينما يتحدث عن عوامل النصر والهزيمة يذكر لهم مقومات وأموراً أساسية تربطهم بالله -عزَّ وجلَّ- وتصلح واقعهم وحالهم، وغير ذلك.

لذلك فإن إعجاز هذا القرآن يكون في التشريع كما يكون بفصاحته وبإخباره عن الأمور الغيبية وغير ذلك.

فوجوه إعجاز القرآن لا تقتصر على لون واحد، بل على ألوان متعددة من الإعجاز، وكلٌّ يعرف من ذلك بحسب ما أعطاه الله -عزَّ وجلَّ-، فالذين يهتمون بقضايا النظم والقوانين لا شك أنهم يعرفون قدر إعجاز القرآن، وقد تحدث كبراؤهم عن هذا، ولا حاجة لنقل شيء منه فهو موجود في مظانِّه.

ونحن حينما نتحدث عن الإعجاز في الفصاحة والبلاغة، نتحدث عنه وقد ضعف هذا الحسّ عندنا، وبالتالي فإننا لا نتذوقه كما ينبغي لضعف هذه الحاسة -إن صح التعبير-.

ولو تأملت لوجدت فرقاً بيننا وبين الأعرابي الذي سمع قارئاً يقرأ: **{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ}** [(٩٤) سورة الحجر]، فسجد، قيل له: لمَ سجدت؟ قال: سجدت لفصاحته، تجد الواحد منا يُقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره وقد لا يجد مثل هذا الذي وجده الأعرابي عند هذه الآية؛ وذلك لضعف هذا الحس لدى المسلمين العرب والعجم، حتى صار الإنسان العربي ربما يحتاج إلى أن يتعلم علوماً كثيرة من أجل أن يصل إلى مثل هذا التذوق، فما مثلنا في هذه الحال إلا كمن يحدث عن شيء لم يجد طعمه أصلاً، بل وكأن الواحد منا اليوم إنسان فاقد حاسة الذوق منذ ولد، فأنت تتكلم معه أن هذا حلو وهذا حامض وهذا مر وهذا مالح، فمهما شرحت له لا يدرك ما يقال له أبداً.

ومثل ذلك أيضاً لو تحدثت مع إنسان عن لون من الذوق لم يجربه، كأن تقول له: هذا مُزٌّ أي: حامض حلو، وهو لم يجرب هذا قط، فإنه لا يتصور ذلك.

كذلك لما تتكلم مع الطفل عن الحرارة مثلاً، وهو لا يعرف عن الحرارة شيئاً، تقول له: هذا حار، فإنه سيجرب لمْسَه فإذا لمسه وجد الحرارة والإحراق، فإذا قلت له: هذا حار لكن قصدت بذلك حرارة الفلفل مثلاً، فإنه سيبتعد عنه ولن يلمسه؛ لأنه يظن أنها مثل النار، والسبب في ذلك أنه لم يدرك معنى الحرارة إلا في النار، وهكذا.

ولذلك نحن قد نحتاج إلى أن نأخذ آيات من القرآن فتفسر بطريقة تفرع فيها المعاني وتفصل، بحيث إن الناس يقفون أمام هذه السورة أو هذه الآية أو الآيات فيقولون: كل هذه المعاني في هذه الآيات التي نقرؤها صباح مساء، ونحن عنها غائبون؟! فيدركون عملياً جزءاً كبيراً من قضية الإعجاز بكثرة المعاني وبعبارات قصيرة، فيكبرون هذا الكلام الذي تضمن هذه المعاني، وهكذا.

نحن حينما نتحدث عن قضية التفسير، وأنه ينبغي أن يتحرز الإنسان فيه، وأنه ليس قضية سهلة، وأن القضية ليست مجرد أن يحضر الشخص درساً من تفسير ابن كثير، ومن تفسير السعدي، ومن تفسير القرطبي، ثم يأتي ويقدمه لطلابه، فالذي لم تكن له معاناة مع العلم النظري، ودراسة جيدة فيه فإنه لا يدرك ما يقول.

لذلك عندما تأتي وتذكر لهم قضايا أصول التفسير وقواعد التفسير مفصلة، وتفرع عليها، وتأتي بها بطريقة الدراسة التخصصية -كما يقال- فالنتيجة إما إحباط يحصل عند البعض، فيقولون: هذا أمر بعيد المنال، وإما أن تجد حماساً لدى البعض الآخر، فتجدهم يقولون: نحن أدركنا القضية الآن وأنها ليست كما كنا نظن!.

وهذا شيء جربته حيث تحدثت عن قضية التفسير، وما يحتاج إليه المفسر، وكيف نقدم درساً في التفسير، فوجدت الناس يستروحون لهذا الكلام ويظنون لأول وهلة أنهم يستطيعون تطبيقه.

وتحدثت في دروس كثيرة مع أناس لهم اهتمام بدراسة القرآن وتدريسه والتفسير، فكانت النتيجة أن بعضهم يقول: أنا الآن أشعر أنني متطفل على كلام الله -عزَّ وجلَّ-، ولا يحق لي أن أقدم لطلابي شيئاً، والآخر يقول: أنا أدركت أن الذي كنت فيه إنما هو لون من العبث، فما هو الحل؟ ...الخ.

كذلك أذكر أحد المشايخ الذين درسونا مسائل الإعجاز في القرآن والبلاغة كان يقول وهو يتكلم بوجه معبر: أحياناً أقرأ القصيدة وأبكي كثيراً، وأحياناً أقرؤها فأضحك كثيراً، فكان بعض الطلاب ينظرون إليه بشيء من الاستهزاء، وكان أحدهم يلتفت على زملائه ويعلق قائلاً: ما رأينا شيئاً يستوجب هذا التأثر الذي يتكلم عنه، والسبب في هذا الاستغراب أن الحس معدوم، وبالتالي ما يتحرك الإنسان وما يتأثر.

"وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهاية البلاغة، عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواء كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرر حلا وعلا، لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يملُّ منه العلماء وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصمّ الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات؟"

قرأتُ تقريراً لأحد اليهود في الجامعة العبرية حيث كُلف بوضع ترجمة للقرآن باللغة العبرية الحديثة، فترجم نصف القرآن، فكتب تقريراً ونُشر، وكان مما ذكر في مضامين هذا التقرير أن هذا القرآن لا يمكن أن يترجم، وقال: تبقى قدراتنا عاجزة عن التعبير عن معانيه وعن الأوصاف الدقيقة فيه، فتجد وصفاً للجنة ووصفاً للنار، وتجد تفاصيل لا يمكن أن يعبر عنها المتاح من الكلام.

ويقول: هذا فقط تقريب ومحاولة، ولكن إيصال معاني القرآن كما هي لا يمكن أبداً لأحد أن يفعله، وهكذا وقف عاجزاً عن تحقيق هذه الرغبة.

ولو قرأنا في كتب الإعجاز فإننا سنجد كثيراً من هذه الأمور والقضايا التي أشار إليها ابن كثير كقضية القصص مع أنها تتكرر في أكثر من موضع، وتأمل كيف يأتي بها في كل موضع بحسب المناسبة، فإذا كان في مكان قصم الظالمين جاء بها بطريقة تتناسب مع المقام، وإذا كانت في مقام بيان مناقب الرسل وصبرهم ودعوتهم، وما أشبه ذلك جاء بها بأسلوب يناسب هذا المقام وهكذا، فمن قرأ طريقة هذه الأشياء وما كتب فيها من كتب الإعجاز تنفتح له أبواب من هذه الأمور.

"وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن، كما قال في الترغيب: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [(١٧) سورة السجدة].

وقال سبحانه وتعالى: {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٧١) سورة الزخرف].

وقال في الترهيب: {أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ} [(٦٨) سورة الإسراء].

وقال: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ* أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [(١٦-١٧) سورة الملك].

وقال في الزجر: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ} [(٤٠) سورة العنكبوت].

وقال في الوعظ: {أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ* ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ* مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ} [(٢٠٥-٢٠٧) سورة الشعراء]، إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة.

وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رديء دنيء كما قال ابن مسعود وغيره من السلف -رحمهم الله-: إذا سمعت الله يقول في القرآن: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ} فأرعها سمعك فإنها خير يأمر به أو شر ينهى عنه، ولهذا قال تعالى: {يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [(١٥٧) سورة الأعراف] الآية.

وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال، وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم، والملاذ والعذاب الأليم، بشرت به وحذرت وأنذرت ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات وزهدت في الدنيا ورغبت في الآخرة،

وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القـويم، ونفـت عـن القلوب رجس الشيطان الرجيم."

الجهل والغفلة هي حجاب كثيف غليظ يغلف الإنسان، والعلم يزيح عنه ذلك ويذيبه عنه، كمـا تزول الأقذار والأوساخ أو الطبقات المتراكمة على الجلد بكثرة الغـسل والفـرك والمعالجـة، فكلما ازداد الإنسان في العلم كلما اتسع نظره واتسع أفقه وصار يدرك من الكلام ما لا يدركـه غيره، وينفتح له من أبواب الفهم ما لا ينفتح لغيره، ولذلك تجد ابن عباس يتمنى أن كل أحـد يفهم من كل آية ما يفهمه هو، من كثرة المعاني التي يفهمها ويتمنى أن الآخرين يصلون إليها، ولذلك أقول: كلما استطعت أن تهذب الطبع، وأن ترقق النفس، وأن تجلو حجاب الغفلة عنـك بكثرة المعالجة، فستجد أثر ذلك، لا سيما من يتعاطون التعليم، أقصد الذين يدرِّسون.

فلا يصلح أن يكون هذا الإنسان تغلفه هذه الطبقة الكثيفة من الجهل، بـل ينبغـي أن نجاهـد النفس، وهذا يحتاج إلى شيء من المعاناة والتعب في البداية ثم يتحول إلى تلذذ بالعلم، فكلمـا ازداد الإنسان تبصراً في العلم كلما ارتفع وأشرقت نفسه، فالنفس تشرق، وتحلق وترتفع إلـى الأعلى، وحينئذ لا يكون همها في معافسة الملاذ الحسية من المأكول والمشروب وغيره ممـا يجد الناس فيه غاية لذتهم ممن هم دون صاحب هذه النفس، فهو لذته في المعارف وتحـصيل العلوم، واكتشاف الاستنباطات، والعمل بالعلم لمن وفقه الله، والله -عزَّ وجلَّ- يوفق من شـاء إلى ما شاء، لكن النفس تحتاج إلى شيء من المعالجة، فالرجل البعيد أمامه حجاب غليظ يؤثر في حسه ويؤثر في عمله، ويؤثر في أخلاقه، ويؤثر في اهتماماته، فإذا هذبه العلم وفركه ظهر الجوهر، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصـحبه وسـلم، والحمـد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله-: "ولهذا ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة))[1] [لفظ مسلم].

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((وإنما كان الذي أوتيته وحياً)) أي الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه، بخلاف غيره من الكتب الإلهية، فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء، والله أعلم.

وله -عليه الصلاة والسلام- من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به، ما لا يدخل تحت حصر، ولله الحمد والمنة."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فدلائل النبوة التي يعرف بها صدق النبي -صلى الله عليه وسلم- كثيرة جداً، كما قال الحافظ ابن حجر: تفوق الحصر.

ودلائل النبوة على قسمين، قسم منها ما يكون من قبيل المعجزة، أو ما يسميه المتأخرون بالمعجزات، وقسم منها ليس بمعجز.

فالمعجز كالقرآن، وكنبع الماء من بين أصابعه -صلى الله عليه وسلم- وتكثير الطعام، وانقياد الشجر، كما في حديث جابر في صحيح مسلم[2]، وغير ذلك مما عرف ونقل في الأدلة الثابتة الصحيحة.

وغير المعجز مثل ما يعرف في وجهه من أنه نبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الحديث في قصة عبد الله بن سلام -رضي الله تعالى عنه- إذ يقول: فما إن رأيت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب[3]، فهذه من دلائل النبوة.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة - قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((بعثت بجوامع الكلم)) (٦٨٤٦) (ج ٦ / ص ٢٦٥٤)، ومسلم في كتاب: الإيمان - باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١٥٢) (ج ١ / ص ١٣٤).

[2] _

[3] _

ومن ذلك أيضاً ما عرف عنه من الأمانة، والصدق قبل أن يبعث وبعد أن بعث، إلى غير ذلك من شمائله -عليه الصلاة والسلام- التي هي من دلائل نبوته.

فهذه يقال لها: دلائل النبوة، ويقال لها: آيات الأنبياء، ثم بعد ذلك صار التعبير عن المعجز منها بالمعجزات.

وبالنسبة لما يقع من الخوارق على يد أتباع النبي من الصحابة فمن بعدهم -رضي الله تعالى عنهم- يقال له: كرامات الأولياء، وإلا فإن ذلك جميعاً، يقال له: آيات الأنبياء ويقال له: دلائل النبوة.

والشاطبي -رحمه الله- ذكر أصلاً وقاعدة، وهي: أن كلَّ ما أعطيه نبي من الأنبياء قبل النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد كان للنبي -صلى الله عليه وسلم- مثله، يعني سواء وقع ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- مباشرة أو وقع لأحد أتباعه؛ لأنه قرر قاعدة أخرى، وهي أن كل آية وقعت لتابع النبي فهي آية للنبي، وهذا صحيح، فإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- مثلاً ألقيَ في النار ولم يحترق، ولم يقع ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- لكنه وقع لبعض أتباعه وهو أبو مسلم الخولاني في قصة الأسود العنسي، كما هو معروف، وقل مثل ذلك في الآيات الأخرى للأنبياء، لكن لكل قاعدة استثناءات وإنما يقصد بالقواعد بحيث إنه يدخل تحتها معظم الصور، وإلا فإن انفلاق الصخرة للناقة لم يحصل لأحد من أتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وكذلك ما وقع لبعض الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من الآيات كقصة موسى -صلى الله عليه وسلم- مع السحرة بالصورة العظيمة التي وقعت فهذه لم تقع للنبي -صلى الله عليه وسلم- أما إبطال السحر على يد أتباع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في مقام المناظرات فإن ذلك قد وقع.

قول النبي -صلى الله عليه وسلم- هنا: **((وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ))** هذه العبارة على سبيل الحصر؛ لأن "إنما" هي من أقوى صيغ الحصر، وليس ذلك الحصر هنا مقصوداً، وإنما المراد أن ذلك هو أبرز آيات النبي -صلى الله عليه وسلم-، كقوله -عليه الصلاة والسلام- مثلاً: ((الحج عرفة))[4]، مع أن من وقف بعرفة فحسب لا يكون حاجًّا، فلا بد من طواف وسعي وما إلى ذلك، مع أن الصيغة تشبه الحصر في قوله: ((الحج عرفة))، وكأنه حصر الحج بعرفة.

---

[4] - أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك - باب: من لم يدرك عرفة (١٩٤٩) (ج ١ / ص ٥٩٩)، والترمذي في كتاب: الصوم - باب: ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج (٨٨٩) (ج ٣ / ص ٢٣٧)، والنسائي في كتاب: مناسك الحج - باب: فرض الوقوف بعرفة (٣٠١٦) (ج ٥ / ص ٢٥٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣١٧٢).

فقوله هنا: ((وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ))، أي أن هذه أبـرز آياتـه -عليـه الصلاة والسلام- وليس المقصود منها الحصر.

"وقوله تعالى: {فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [(٢٤) سورة البقرة]،

أما الوَقود -بفتح الواو- فهو ما يلقى في النار لإضرامها كالحطب ونحوه."

يعني ما تتوقد به، مثل ما يقال: الوَضوء، فهو الماء الذي يُتوضأ به، والسَّحور، هـو الطعـام الذي يؤكل، وما أشبه ذلك.

وأما الوُضوء -بضم الواو- فإنه الفعل، والسُّحور هو أكل الإنسان أي فعله في ذلـك الوقـت، وهنا {وَقُودُهَا} يعني ما تتوقد به، أي المادة التي تشتعل بها النار هي الناس والحجارة، ولـيس الحطب وغيره مما توقد به النار، كالزيت وغيره.

"كما قال تعالى: {وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} [(١٥) سورة الجن]، وقال تعالى: {إِنَّكُـمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاء آلِهَةً مَّـا وَرَدُوهَـا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٩٨-٩٩) سورة الأنبياء].

والمراد بالحجارة ها هنا هي حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة وهـي أشـد الأحجار حراً إذا حميت أجارنا الله منها.

وقيل: المراد بها حجارة الأصنام والأنداد التي كانت تعبد من دون الله كما قال تعالى: {إِنَّكُـمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} الآية."

القول بأن الحجارة المراد بها حجارة الكبريت لم يثبت عن النبي -صلى الله عليـه وسـلم-، وإنما الذين قالوا ذلك هم طائفة من السلف، وهو قول لا يقال من جهة الرأي، لكـن يمكـن أن يؤخذ عن بني إسرائيل، والذي حداهم أن يبحثوا عن تفسير لهذه الحجارة هو أن ذكر الحجارة بمجرده، لم يعهد في كونه وقوداً؛ ولذلك فإن بعضهم قال: المراد بالحجارة هنا هـي الأصـنام التي تعبد من دون الله -عز وجل- وهذا دلّ عليه القرآن، قال تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِـن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ}، فأصنامهم يوقد بها النار كما توقد بهم.

وقول من قال: إنها حجارة الكبريت باعتبار أن ذكرها يؤثر في هذا المقام؛ حيث إنهـا تزيـد النار توقداً وحرارة، والمقام مقام ترهيب، فلو قال لهم الحجارة العادية هذه هي وقـود النـار لربما كان ذلك سبباً لإبهام الأمر عليهم، فلا يدركون المراد منه، والعلم عند الله -عز وجل-.

المقصود أن هذا هو توجيه تفسير بعض السلف -رضي الله تعالى عنهم- للحجـارة بحجـارة الكبريت، وأنهم لم يقولوه من عند أنفسهم.

"وقوله تعالى: {أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [(٢٤) سورة البقـرة] **الأظهر أن الضمير في أعدت عائد إلـى النار التي وقودها الناس والحجارة، ويحتمل عوده إلى الحجارة، ولا منافاة بين القولين فـي المعنى؛ لأنهما متلازمان."**

قوله تعالى: **{أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}** أي: أُعِدَّتْ هي، والقاعدة أن الضمير يرجع إلى أقرب مـذكور، وأقرب مذكور هي الحجارة، بمعنى أن هذه الحجارة أعدت للكافرين لتُسْجَرَ عليهم فيحصل لهم التعذيب والإحراق.

وقيل: أُعِدَّتْ أي النار، مع أن القاعدة هي عود الضمير إلى أقرب مذكور وهي الحجارة، لكن قالوا: النار؛ لأنها هي المخبر عنها، ثم وصفها بأنها التي وقودها الناس والحجـارة، فهـو لا يتحدث عن الحجارة، وليس المقام مقام تفصيل وتوضيح للحجارة، وإنما المقام مقام ذكر للنـار وتحذير منها.

فحينما تفهم هذا تدرك لماذا يتخطى التفسير القاعدة أحياناً، ولذلك إذا أردنـا أن نـرجح بـين القولين، لا نقول هنا: إن الضمير يرجع إلى آخر مذكور، كما هو مقتـضى القاعـدة، وإنمـا نقول: يرجع إلى النار؛ لأنها هي المحدث عنه والمخبر عنه، كما قال أصحاب القول الثـاني، فهذا هو الأقرب..

وإذا أردنا أن نجمع بين القولين فلا نحتاج إلى ترجيح، بل نقول: الضمير هنا احتمل أن يعـود إلى الموضعين -النار والحجارة-؛ لأن القاعدة تقول: إن الضمير إذا احتمـل أن يعـود إلـى موضعين فأكثر فإنه يحمل على ذلك جميعاً إلا لمعارض.

وابن كثير -رحمه الله- في هذا المثال، يقول: أعدت النار وأعدت الحجارة؛ وقال بـذلك؛ لأن هذا المثال من أجلى صور هذه القاعدة، فالضمير إذا احتمل أن يعود إلى موضعين فأكثر فإنـه يحمل على ذلك جميعاً إلا لمعارض ولو لم تكن بين المعنيين ملازمة، فكيف إذا وجـد بينهمـا ملازمة؟!.

ووجه الملازمة في هذه الصورة أن النار معدة للكافرين، والحجارة مما تسعر بـه النـار، إذن الحجارة أعدت للكافرين.

فإذا قلت: إن النار معدة للكافرين فإن ما تسعر به أيضاً معد للكافرين، إذن صار بين القـولين ملازمة، أي: يلزم من أحدهما الآخر.

"وأعدت أي رصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله، كما قال ابن إسحاق عن محمـد عـن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أعـدت للكـافرين، أي لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر."

قوله تعالى: **{فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}** [(٢٤) سورة البقـرة]، أي هي للكافرين عموماً، وهؤلاء من الكافرين فهم داخلون تحت هذا العقاب.

ولو أنه قال: التي وقودها الناس والحجارة أعدت لكم فقد يفهم من هذا أنها مختصة بهم لأمر ما، لكن حينما يذكر العلة في دخولهم النار، أو في إعدادها لهم -وهي الكفر- فهي تصدق عليهم، وتصدق على كل من جاء بعدهم، أو من كان في زمانهم ممن هو متصف بذلك الكفر، وهذا الأسلوب كثير في القرآن، فتجده يذكر العلة للحكم، فيقول مثلاً: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ}** [(٨٠) سورة التوبة].

أو يقول: **{وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا}** [(١٠) سورة محمد]، ويقول: **{وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}** [(٨٣) سورة هود]، ويقول: **{وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}** [(١٠٨) سورة المائدة] وأشباه ذلك كثير، فهو يذكر الأوصاف التي نتجت عنها تلك العقوبات في باب الترهيب، وكذلك في باب الترغيب يذكر الأوصاف التي نتجت عنها تلك الجزاءات من النعيم، أو محبة الله -عز وجل- وما أشبه ذلك، فهي مرتبة عليها.

"وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن بقوله تعالى: {أُعِدَّتْ} أي: أرصدت وهيِّئت، وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها: ((تحاجت الجنة والنار))[٥]**."**

قوله تعالى: **{أُعِدَّتْ}** التعبير هنا بالماضي، فقد يقول قائل: إنه يعبر بالماضي عن المستقبل لتحقق الوقوع، وهذه قاعدة صحيحة معروفة، ومن أوضح الأمثلة على ذلك قوله تعالى في صدر سورة النحل: **{أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ}** [(١) سورة النحل]، مع أن هذا الأمر الذي هو يوم القيامة لم يأت بعد، فيقولون: يعبر بالماضي عن المستقبل لتحقق الوقوع، فأنت تقول: أتاك الربيع، وتقول: أتاك المطر، ولم يأت بعد لتحقق الوقوع.

نقول: قوله تعالى: **{أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}** [(٢٤) سورة البقرة]، لا يقال فيها أبداً: إن ذلك من باب التعبير بالماضي عن المستقبل لتحقق الوقوع؛ وذلك لوجود أدلة أخرى صريحة دلت على أن النار موجودة، فيحمل لفظ أعدت على أن ذلك كان في الماضي، وبالتالي فإن النار موجودة الآن.

والإعداد يدل على عناية بالمعد، وأنها مهيأة لهم وجاهزة، ومما يدل على أن النار موجودة الأدلة التي سيذكرها الحافظ ابن كثير هنا، وغيرها.

وقد رآها النبي -صلى الله عليه وسلم- ورأى فيها أقواماً كعمرو بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار، وكذلك رأى فيها رجالاً ونساء وغير ذلك.

وكذلك الجنة هي موجودة الآن، وقد رآها النبي -صلى الله عليه وسلم- وهي كما وصفها الله -عز وجل- عرضها السموات والأرض، وهي في السماء كما قال تعالى: **{وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}** [(٢٢) سورة الذاريات].

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب: التفسير - باب: تفسير سورة ق (٤٥٦٩) (ج ٤ / ص ١٨٣٦)، ومسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٦) (ج ٤ / ص ٢١٨٦).

وليس هنا مجال للعقل إطلاقاً أن يقول الإنسان: كيف يكون عرضها السموات والأرض، فأين هي أو أين النار أو نحو هذا الكلام؛ فهذه أمور لا دخل للعقل البشري فيها إذ هذا من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

"**ومنها: ((استأذنت النار ربها، فقالت: رب أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين، نفسٍ في الشتاء ونفسٍ في الصيف))**[6].

وحديث ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: "سمعنا وجبة، فقلنا: ما هذه؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هذا حجر ألقي به من شفير جهنم منذ سبعين سنة، الآن وصل إلى قعرها))[7] **[وهو عند مسلم]."**

سمعنا وجبة: الوجبة: هي صوت سقوط شيء، قال تعالى: **{فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا}** [(٣٦) سورة الحج]، يعني سقطت.

وهذا الحديث في احتجاج الجنة والنار، وفيه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن أشد ما نجد من الحر، فإنه من فيح جهنم، وأشد ما نجد من البرد فإنه من زمهرير جهنم.

"وحديث صلاة الكسوف وليلة الإسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى."

رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- الجنة والنار في صلاة الكسوف في قبلة جدار المسجد، وكذلك في ليلة الإسراء رأى النار ورأى الذين يعذبون فيها، ورأى مالك وهو يهش النار..

{وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٢٥) سورة البقرة].

"لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به، وبرسله من العذاب والنكال، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة، وهذا معنى تسمية القرآن مثاني على أصح أقوال العلماء كما سنبسطه في موضعه، وهو أن يذكر الإيمان ويتبع بذكر الكفر أو عكسه، أو حال السعداء ثم الأشقياء أو عكسه، وحاصله ذكر الشيء ومقابله، وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه، كما سنوضحه إن شاء الله."

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق - باب: صفة النار وأنها مخلوقة (٣٠٨٧) (ج ٣ / ص ١١٩٠)، ومسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة - باب: استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يمضي إلى جماعة ويناله الحر في طريقه (٦١٧) (ج ١ / ص ٤٣١)، ولفظهما: ((اشتكت النار إلى ربها)).

[7] - أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب: في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين (٢٨٤٤) (ج ٤ / ص ٢١٨٤)، ولفظه: "كنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذ سمع وجبة فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((تدرون ما هذا؟)) قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: ((هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها)).

قوله: **لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به**..إلى آخره، هذا ما يسميه المفسرون علم المناسبة، وهو وجه الارتباط بين الآية وبين التي قبلها.

فالله -عز وجل- لما ذكر النار ووعيد الكفار ذكر الجنة وما أعد الله لأهل الطاعة من الثواب، وهذا كثير في القرآن، حيث يذكر هذا وهذا ليجمع لهم بين الخوف والرجاء، وهذا كثير جداً، وبهذا أخذ بعض أهل العلم أن مقصود الشارع من المكلفين فيما يتعلق بهذا الباب أن يجمعوا بين الخوف والرجاء، فيكون العبد سائراً بينهما على حد سواء فلا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون الخاسرون، فليس ذلك من صفة أهل الإيمان، ولا يكون أيضاً مغلِّباً للرجاء معرضاً عن الخوف إلا من حصل له الاغترار والأمن من مكر الله -عز وجل- فلا يغلب الرجاء ولا يغلب الخوف، وإنما يجمع بينهما.

والكلام في هذه المسألة معروف، وقول من قال: إنه في حال الصحة والعافية يغلب الخوف، وعند الموت يغلب الرجاء له وجه.

قوله: **وهذا معنى تسمية القرآن مثاني**، عند ابن كثير وطائفة من أهل العلم أن هذا هو المراد بأن القرآن مثاني كما في قوله تعالى: **{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ}** [(٢٣) سورة الزمر]، أي أن الله -عز وجل- يذكر الشيء ومقابله، كأن يذكر نعيم أهل الجنة ثم يذكر عذاب أهل النار والوعيد الذي لهم.

وأن التشابه هو أن يذكر الشيء ونظيره، مثل ذكر قصص الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، كقصة موسى -عليه السلام- تتكرر في أكثر من موضع.

وبعض أهل العلم يفسر بما هو أوسع من هذا، فيقول: مثاني، أي تثنى فيه القصص أي تعاد، وتثنى فيه الأخبار، وتثنى فيه المواعظ، وغير ذلك، أي: ما يذكر أكثر من مرة، وهذا هو القول المشهور في تفسير المثاني.

وبالنسبة لذكر الجنة والنار ونعيم أهل الجنة ونعيم أهل النار فالخلاف فيه كثير، ولو نظرت في كتاب القواعد الحسان للشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- تجد أنه أفرد لهذه المسألة قاعدة، وتكلم عليها وأتى بأمثلة كثيرة على هذا.

ويؤخذ من هذه الطريقة فائدة تربوية لتربية الناس والوعظ وتعليمهم أنه يجمع بين هذا وهذا، بحيث لا يكون الغالب على كلام الداعية هو ذكر ما يحصل به الطمع لهؤلاء الناس من رحمة الله ومغفرته، ويكون كلامه دائماً مما يستهوي الناس ويروق لهم من ذكر ما ينتظرهم من النعيم المقيم وسعة رحمة الله وأنه غفور؛ لأنه إن اعتاد ذلك فإنه يفسدهم بذلك حيث يفرطون في العمل، وكذلك لا يكون الغالب على حال الواعظ دائماً تخويف الناس، وذكر أمور قد تيئسهم من رحمة الله -عز وجل- وإنما يجمع لهم بين هذا وبين هذا، قال تعالى: **{اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [(٩٨) سورة المائدة].

"**فلهذا قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي}** [(٢٥) سورة البقرة]، **فوصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار، أي من تحت أشجارها وغرفها.**
وقد جاء في الحديث أن أنهارها تجري في غير أخدود، وجاء في الكوثر أن حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف، ولا منافاة بينهما، فطينها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر، نسأل الله من فضله إنه هو البر الرحيم."
أنهارها تجري في غير أخدود: الأخدود هو الشق في الأرض، والنهر معروف، وهو الشق الكبير في الأرض، ودونه الجدول، وأعظم منه البحر، وهو الماء الكثير المستبحر المعروف، فالمعهود في الدنيا أن الأنهار لا تجري على ظهر الأرض المستوية، وإنما تكون في شق من الأرض، أما أنهار الجنة فتجري من غير أخدود، والنهر يطلق على نفس الشق، تقول: حفرت النهر، ويطلق على الماء الجاري فيه، فتقول: جرى النهر، من باب التعبير بالحال، وإرادة المحل، والعكس، فقوله: **تجري من غير أخدود** هذا غير معهود في الدنيا.
في الكوثر قال: **حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف**، يعني يحتمل أن يكون المراد بذلك، أنه يجري أيضاً من غير أخدود وتكون حوافه التي تحجز الماء هي قباب اللؤلؤ.
وعلى كل حال، الله عز وجل على كل شيء قدير، قادر على أن يجري الماء من غير شق في الأرض، فيجريه بما شاء كيف شاء -سبحانه وتعالى-.
يقول: **فطينها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر**، الطين معروف، والحصباء، هي الحجارة الصغيرة التي تفرش بها الأرض، وما إلى ذلك.
فإذا كان هذا هو صفة طين الجنة وحصبائها، فما بالك بالأشياء التي هي أعظم من طينها وحصبائها؟ ما ظنك بجواهر الجنة، وحلي أهل الجنة؟ وما ظنك بأهل الجنة وقصورهم وبأثاثهم ورياشهم ونعيمهم؟
قال -عليه الصلاة والسلام- وهو يشير إلى حلة حرير كان الصحابة يمسونها ويعجبون من لينها: ((والذي نفس محمد بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا))[٨].
وقال -عليه الصلاة والسلام-: ((موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها))[٩].
"**وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أنهار الجنة تفجر من تحت تلال، أو من تحت جبال المسك))**[١٠]."

---

[8] - أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق - باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٧٦) (ج ٣ / ص ١١٨٧) ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم (٢٤٦٨) (ج ٤ / ص ١٩١٦).
[9] - أخرجه البخاري في كتاب: الرقائق - باب: مثل الدنيا في الآخرة (٦٠٥٢) (ج ٥ / ص ٢٣٥٨).
[10] - أخرجه ابن حبان (٧٤٠٨) (ج ١٦ / ص ٤٢٣) وقال الألباني: حسن صحيح كما في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣٧٢١).

وروى أيضاً عن مسروق، قال: قال عبد الله -رضي الله تعالى عنه-: "أنهار الجنة تفجر من جبل المسك".

وقوله تعالى: {كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ} [(٢٥) سورة البقرة]."

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الله أجمعين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد.

مشابهة ثمار الجنة بعضها ببعض: وقوله تعالى: {كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ} [(٢٥) سورة البقرة].

وروى ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبي كثير، قال: عشب الجنة الزعفران وكثبانها المسك، ويطوف عليها الولدان بالفواكه فيأكلونها، ثم يؤتون بمثلها، فيقول لهم أهل الجنة: هذا الذي أتيتمونا آنفاً به، فتقول لهم الولدان: كلوا فاللون واحد والطعم مختلف، وهو قول الله تعالى: {وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً} [(٢٥) سورة البقرة].

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية: {وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً} قال: يشبه بعضه بعضاً ويختلف في الطعم.

وقال عكرمة: {وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً} قال: يشبه ثمر الدنيا، غير أن ثمر الجنة أطيب.

وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن أبي ضبيان عن ابن عباس، "لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء" وفي رواية: "ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلما ذكر الله -عز وجل- ما بشر به أهل الجنة: **{وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}** [(٢٥) سورة البقرة]، ذكر هنا وصفاً لنعيم الجنة وهو أنهم **{كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً}**.

فقوله: **{هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ}** هل يقصدون به رزقنا به من قبل في الدنيا، **{وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً}**، أي يشبه ما في الدنيا من الفواكه والثمار وما أشبه ذلك؟

أو أنهم يقصدون **{هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ}** في الجنة، بمعنى أنهم في كل مرة يأتيهم من هذا النعيم، والطعام المستلذ من هذه الثمار، يقولون: هذا الذي رزقناه قبل ذلك في الجنة، فهو يشبهه.

هذان قولان مشهوران للسلف -رضي الله تعالى عنهم- فمن بعدهم في تفسير الآية، هل المراد متشابهاً أي يشبه ما في الدنيا، أو أنه يشبه بعضه بعضاً في الجنة؟

فما ذكره يحيى بن أبي كثير هنا من أنهم يقولون ذلك؛ لأنه أشبه ما سبقه في الجنة، مما رزقوا به من الثمار، فيقول لهم هؤلاء الولدان: إن اللون واحد والطعم مختلف.

وهذا الذي قاله يحيى بن أبي كثير، في تفسير الآية هو القول الأول الذي قال به جماعة من السلف كثير، واحتجوا له بعدة أمور، وجعلوه مرجَّحاً على القول الآخر، فبماذا احتجوا لهذا القول من أنه يشبه الذي قبله مما رزقوه في الجنة؟

احتجوا له بأشياء منها: أن نعيم الجنة لا يشبه نعيم الدنيا، كما جاء في الأثر عن ابن عباس – رضي الله عنهما– بأنه ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فقط أما الحقائق فهي مختلفة، فهذه كمثرى، وهذا عنب، فهم عرفوه في الدنيا لكن حقيقته في الجنة وطعمه يختلف تماماً عما في الدنيا، فهذا التشابه بين ثمار الجنة وثمار الدنيا إنما هو في اللون فقط أو في الاسم فقط، لا في الحقائق، فالتشابه الواقع بين ثمار الجنة لا يقاس بالتشابه الواقع بين ثمار الجنة وثمار الدنيا.

فقوله: **{هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً}**، قالوا: الأولى به أن يكون هذا التشابه بين ما قبله من ثمار الجنة مما رزقوه؛ لأن ذلك هو المتحقق وهو التشابه بين ثمار الجنة، وأما مشابهته لثمار الدنيا فشتان بينهما، المقصود أنهم نظروا إلى التشابه، فقالوا: هو بين ثمار الجنة أعظم، وهذا هو الوجه الأول.

الوجه الثاني: قالوا: ليس كل ما يرزقونه في الجنة له نظير في الدنيا، وما كان له نظير في الدنيا ليس كل هؤلاء الذين في الجنة قد رزقوه، فثمار الدنيا كثيرة جداً، وربما كان أكثر أهل الجنة لم يعرفوا كثيراً منها، وما رأوه وما سمعوا به، ومعلوم أن أكثر أهل الجنة هم الفقراء، وإلى وقت قريب لم يكن يصل كثير من الثمرات التي نراها الآن في أقاصي الدنيا إلى الناس، فكيف يقولون في كل مرة: **{هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ}** وهو لا نظير له، أو يوجد له نظير لكن ما عرفوه أو ما ذاقوه أو ما رزقوه في الدنيا؟

فقالوا: هذا يكون بالنسبة لما رزقوه في الجنة، وليس بالنسبة لما رزقوه في الدنيا.

وكذلك قوله: **{وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً}** كأنه تعليل لقولهم: **{هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ}**.

وقد وردت بعض الآثار عن بعض السلف أن ثمار الجنة كلما قطف منها شيء رجع مكانه غيره، فهو نعيم لا ينقضي ولا ينفد.

هذه أوجه لترجيح القول بأن هذا التشابه إنما هو بين ثمار الجنة، وليس مع ثمار الدنيا.

القول الآخر: إن التشابه مع ثمار الدنيا، وهذا أشهر من اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري.

وأعظم ما احتجوا به لهذا القول ما صرح به ابن جرير وهو يرد على أصحاب القول الأول حيث قال: هل يقولون هذا الكلام في الجنة لأول وهلة؟ بمعنى هل أول مرة يزرقون من ثمار الجنة يقولون: **{هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ}**.

من المعلوم أنه على القول الأول أنهم لا يقولون ذلك أول مرة؛ إذ كيف يقولون: {هَـذَا الَّـذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ} [(٢٥) سورة البقرة] وهم أول مرة، يذوقون ثمار الجنة؟!

فابن جرير يقول: إذن إذا قلتم: لا، فمعنى ذلك أن هذا يكون من قبيل الكذب، أي أنهم يقولون: هذا الذي رزقنا من قبل ولم يرزقوه في الجنة قبل ذلك، وكيف يكون ذلك من أهل الجنة، وهم أهل الصدق وهي دار الصدق؟ فهذا لا يمكن.

يقول: وظاهرٌ ذلك -بناء على قولكم- فإن قوله: {كُلَّمَا رُزِقُواْ} هذا أمر يدل على التكرار والاستمرار والدوام، فهم يقولونه كلما وجدوا هذه الثمار، مع أنهم لا يقولون ذلك لأول مرة.

والجواب عن هذا: أن هذا مما يفهمه المخاطب، فيكون مستثنى يدركه الإنسان بفهمه وعقله، أي ليس المقصود أنه يقال من أول مرة، وإنما المقصود كلما تكرر عليهم ذلك، فمع أن ظاهر الآية العموم، لكن ذلك يفهم ضرورة من الخطاب في كلام العرب، وهذا هو ما أظنه أقرب والله تعالى أعلم، وهو أن المقصود بالتشابه هو التشابه بين ثمار الجنة، وأن قولهم: {هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ} يعني في الجنة، وليس في الدنيا، فشتان ما بين ثمار الدنيا وما بين ثمار الآخرة، فإذا رأوا ثمار الجنة، فإنهم يندهشون؛ لأنهم يرون حقائق أخرى تماماً في الكيف والطعم وحقيقتها، وقد لا يخطر في بالهم ما رأوه في الدنيا ، وإن خطر في بالهم فإن ذلك يكون على سبيل الإقصاء مقارنة بنعيم الجنة، والله تعالى أعلم.

في قوله تعالى: {وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً}، بعض أهل العلم يقول: يعني في الجودة، أي أنه خيار كله، بينما ثمر الدنيا متفاوت، فمنه الجيد ومنه الرديء من جهة الأنواع، والنوع الواحد أيضاً متفاوت في جودته، والشجرة القديمة ثمرها أجود من ثمر الشجرة اليافعة، وتجد أيضاً أن الأصناف تتفاوت وإذا مر عليه وقت ذبل، ولذلك تجد الإنسان حينما يريد أن يشتري من أنواع الثمرة الواحدة فإنه يتخير من النوع الواحد أجوده؛ لأنه في غاية التفاوت، بينما ثمر الجنة كله جيد ليس فيه شيء مستبعد، ولا شك أن ثمار الجنة كذلك.

"وقوله تعالى: {وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ} [(٢٥) سورة البقرة] قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: مطهرة من القذر والأذى، وقال مجاهد: من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمني والولد.

وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمأثم، وفي رواية عنه: لا حيض ولا كلف، وروي عن عطاء والحسن والضحاك وأبي صالح والسدي نحو ذلك."

الله -عز وجل- لم يحدد هنا شيئاً دون شيء، وإنما قال: {وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ} فوصفها بهذا وأطلق، والأصل بقاء المطلق على إطلاقه، فلا يقيد إلا بدليل يجب الرجوع إليه، وهذا أصل وقاعدة معروفة.

وكذلك قوله: {أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ} حذف فيه المتعلق، فما قال: مطهرة من الحيض مثلاً، والأصل في ما حذف منه المتعلق أن يحمل على أعم معانيه، فهنا يقال: أزواج مطهرة من كل دنس حسي ومعنوي، فهي ليست كنساء الدنيا تسمع منها ما يؤذي ويجرح من بذاءة اللسان، أو الكذب والقيل والقال، وكثرة الكلام، كما هو الشائع عند كثير من النساء في الدنيا.

وهي مطهرة أيضاً في نظرها فلا تنظر وتتطلع إلى غير الزوج، قد قصرت طرفها فلا يمتد إلى أحد سواه ولا تتطلع نفسها إلى غيره، فهي لا ترى أكمل من هذا الزوج، بخلاف من في الدنيا لا سيما من ابتليت بالنظر إلى الشاشة، فهي لا شك ترى من هو أجمل من زوجها ومن هو أذكى وأعقل وأعظم قواماً واكتمالاً في الجمال والهيئة والعلم والمرتبة والمكانة، فيا ترى كيف تنظر إلى زوجها مع هذه المقارنات؟!

والزوجة في الجنة مطهرة أيضاً من الأقذار والأدناس الحسية، ويكفي ما ذكره بعض أهل العلم من أن الرأس لوحده فيه خمسة منافذ للأذى والقذر، مع أن هذا الرأس هو أشرف الأعضاء، فما بالك بأشياء أخرى، فهو وإن استمتع بها فإنما يستمتع بجسد قد عبئ بالنجاسة، وأي لذة تستطاب مع هذا لولا ما يغشى الإنسان من الحجاب الذي تفرضه عليه الشهوة، التي ركبت فيه، وإلا فالأذى والقذر لا يفارقها بحال من الأحوال، ولذلك يشمل الحيض والنفاس وغير ذلك مما يُعرف، وكل ذلك مما يستقذر وينفر منه الطبع، وأقل ذلك أنها لو لم تمتشط صارت شعثة ولو بقيت دون اغتسال لما استطاع أي يقترب منها، فالأذى موجود في نساء الدنيا، بينما نساء الجنة ليس لها عرق تُكره رائحته، وإنما رشحهم المسك وليس لها أي لون من الأذى، فهي في غاية النزاهة والطهارة، ولذلك قال سبحانه: {أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ}.

"وقوله تعالى: {وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٢٥) سورة البقرة] **هذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع، فلا آخر له ولا انقضاء بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام، والله المسئول أن يحشرنا في زمرتهم، إنه جواد كريم بر رحيم."**

هذا التعقيب {وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} في غاية المناسبة؛ لأن الإنسان مهما عظمت لذاته فإنه ينغصها ويكدرها الموت، وإذا كان في حال اللذة واجتماع الأحباب فإنه يتذكر المفارقة، وإذا كان يعيش في أعظم نعيم للدنيا، فإنه يتنغص إذا تذكر أنه يفارقه.

هو الموت ليس كالموت شيء ... نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

فإذا تذكر الغني وهو في كامل لذاته وشهواته أنه سيفارق هذا القصر المشيد، وهذا النعيم، وهذا الفراش الوثير، فإنه يتكدر ويتنغص؛ لأنه سيستلب في أي لحظة ولا يدري متى يكون ذلك.

وإذا تذكر المرء أن هذا الاجتماع مع أحبته من بنيه وزوجاته وخدمه وقراباته لن يدوم، وأنه سيأتي اليوم الذي يستلبون فيه الواحد بعد الواحد، وقد يكون هو أولهم، وقد يكون بعد أن يرى أحبته يؤخذون ويتجرع حسراتهم، فلا شك أن هذا أعظم ما يكدر على هذا الإنسان لذته.

أما أهل الجنة فقد وصف الله نعيمهم بأنه جنات تجري من تحتها الأنهار، وأنهم يرزقون فيها رزقاً متكرراً، ثم هم بعد هذا النعيم لا يتكدرون لاستشعار أنهم سيفارقون هذا النعيم، بل هم مقيمون فيه أبداً فلا يزولون عنه ولا يزول عنهم، وهذا يبعث الطمأنينة في نفوسهم، ويرفع أسباب الكدر التي يعانيها أهل الدنيا.

تجد أهل الدنيا يفترقون ابتداء في طلب معائشهم، فالوالد يكون له مجموعة من الأبناء ومع ذلك لا يتنعم بمجاورتهم والعيش معهم بل كل ولد في بلد يطلب لقمة العيش ويعاني أسبابه، بينما النادر من الناس من يعيش مع أبنائه ويتحقق له أن يكون أبناؤه حاضرين عنده لا يحتاجون للبعد عنه بسبب قلة اليد، كما هو أحد الأقوال المشهورة في قوله تعالى: **{وَبَنِينَ شُهُودًا}** [(١١-١٣) سورة المدثر]، وهو أرجحها -والله أعلم-.

فأي نعيم أعظم من هذا بالنسبة لهذا الأب مقارنة بمن يتفرق أبناؤه شذر مذر، كل يطلب لقمة العيش ويعاني أسبابه؟.

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ* الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [(٢٦-٢٧) سورة البقرة].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (١٤) من الآية (٢٦) إلى الآية (٢٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى-: روى السدي في تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم أجمعين- لمّا ضرب الله هذا المثلين للمنافقين يعني قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا} [سورة البقرة:١٧]، وقوله: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ} [سورة البقرة:١٩] الآيات الثلاث، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال فأنزل الله هذه الآية إلى قوله: {هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة البقرة:٢٧].

وقال سعيد عن قتادة: أي إن الله لا يستحيي من الحق أن يذكر شيئًا مما قل أو كثر، وإن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا} [سورة البقرة:٢٦].

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس في هذه الآية قال: هذا مثل ضربه الله للدنيا؛ إذ البعوضة تحيا ما جاعت، فإذا سمنت ماتت، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل في القرآن إذا امتلئوا من الدنيا ريًّا أخذهم الله عند ذلك، ثم تلا: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} [سورة الأنعام:٤٤].

ومعنى الآية: أنه تعالى أخبر أنه لا يستحيي أي: لا يستنكف، وقيل: لا يخشى أن يضرب مثلا ما، أي: أيّ مثل كان، بأي شيء كان، صغيرًا كان أو كبيرًا.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الآية هي جواب عن قيل من قال: إن الله -عز وجل- أجلّ شأنًا من أن يضرب مثلاً بالذباب وما إلى ذلك، وليست -والله تعالى أعلم- مثلاً للدنيا، وإنما الدنيا قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء))[1]، وإنما هذا جواب عن قول أولئك، وقوله: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً}** فلا يستحيي هذا نفي للحياء في مثل هذا المقام الذي يكون فيه بيان الحق بأجلى صوره بضرب الأمثال، وإلا فإن صفة الحياء ثابتة لله -عز وجل-: ((إن الله

١ - رواه الترمذي، أبواب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله -عز وجل-، برقم (٢٣٢٠)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، برقم (٤١١٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٩٤٣)، وفي صحيح الجامع، برقم (٥٢٩٢).

حيي ستّير))[٢]، وليس معنى لا يستحيي يعني لا يخشى، وإنما هو نفي للحياء الذي هو من أوصاف الكمال ثبوتًا وكونه يوجد في بعض المقامات مما ينبغي أن يكون ليس ذلك من الكمال، ولهذا نفى الله -عز وجل- ذلك في مثل هذا **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا}** البعوضة هي تفسير، هنا منصوبة إما على التمييز أو على أنها صفة -نعت- لما قبلها "أن يضرب مثلاً ما" فقد تكون تفسيرًا لـــ"ما" الدالة على الاستفهام، وقد تكون عائدة إلى المثل على خلاف بين أهل العلم، **{بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا}**.

وقوله تعالى: {فَمَا فَوْقَهَا} أي: ما هو أكبر منها، لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة، روى مسلم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها وأرضاها-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما من مسلم يشاك شوكةً فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة))[٣].

يعني ابن كثير -رحمه الله- فسر هذه الجملة بالمشهور من أحد المعنيين في تفسيرها؛ لأن قوله: **{فَمَا فَوْقَهَا}** يحتمل معنيين:

المعنى الأول: **{فَمَا فَوْقَهَا}** يعني فما هو أعظم وأكبر منها، أكبر من البعوضة.

والمعنى الثاني الذي تحتمله: وهو أن ما فوقها أي ما هو أدق وأصغر منها، فتقول مثلاً: هذه الإبرة فوق هذه الإبرة يعني أدق منها، أو أن هذا السن فوق هذا السن، يعني أنه دونه وأصغر منه، فتطلق هذه اللفظة بالاشتراك على معنيين اثنين متقابلين تمام المقابلة، الأول: ما هو أكبر، والثاني: ما هو أصغر، ولكلٍّ قائل في هذه الآية، فبعض أهل العلم يقول: فما فوقها يعني فما دونها وأحقر منها، والمعنى الثاني: فما فوقها يعني ما هو أكبر من البعوضة، وهذا هو المعنى المتبادر، وهو المشهور، وهو الذي اقتصر عليه الحافظ ابن كثير، وهو الذي عليه أكثر أهل العلم من السلف فمن بعدهم، واستدل عليه هنا، وهذا من قبيل تفسير الشيء بنظيره، يعني يفسر القرآن بالسنة، وتفسير القرآن بالقرآن إلى آخره، والشيء قد يفسر بنظيره مما هو ظاهر في مقام آخر، يعني يُفسَّر سياق بسياق، وتفسر لفظة بلفظة كما مضى في أصول التفسير، تفسر جملة بجملة وإن كانت جملة من هذه الجمل قد وردت لتقرير معنى آخر لا تعلق له بالمعنى الأول، فهنا "بعوضة فما فوقها" فسره بقول النبي -صلى الله عليه وسلم- "يشاك شوكة فما فوقها"، ما المقصود بالحديث؟ يعني هل المقصود ما هو أصغر منها أو ما هو أكبر منها؟، ما هو أكبر منها؛ لأن الشوكة في العادة تقال لأدنى الأشياء التي تصيب الإنسان كما قال خبيب -رضي الله عنه-: "والله ما أحب أن أكون في أهلي آمنًا ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يشاك بشوكة"[٤]، يعني هو ذكر أدنى ما يقال، طبعًا العقل يتخيل ما هو أدنى من الشوكة لكن عقول المخاطبين تفهم من مثل هذا الخطاب المرادَ به؛ ولذلك لا يأتي متنحل ومتعنت يقول: "يشاك شوكة فما

---

٢ - رواه أبو داود، كتاب الحمام، باب النهي عن التعري، برقم (٤٠١٢)، والنسائي، كتاب الغسل والتيمم، باب الاستتار عند الاغتسال، برقم (٤٠٦)، وأحمد في المسند، برقم (١٧٩٧٠)، وقال محققوه: "إسناده حسن لأجل أبي بكر بن عياش، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الصحيح"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٧٥٦).

٣ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، برقم (٢٥٧٢).

٤ - انظر: معرفة الصحابة لأبي نعيم (١١٨٢/٣)، والسيرة النبوية، لابن هشام (١٢٦/٤).

فوقها" طيب لماذا لا يقول: أدنى من الشوكة مما يصيب الإنسان من الآفات والعوارض التي تعرض له، يقال: ليس هذا هو المراد، وليست هذه طريقة العرب في الخطاب، وليس هذا بفهم، وإنما هذا من العجمة في الفهم، فالحاصل أن هذا التفسير مثال على تفسير الشيء بنظيره، مما يقرب معناه من جهة اتحاد السياق، وإن كان المعنى مغايرًا كل المغايرة بين المفسر والمفسر به.

{فَمَا فَوْقَهَا} ما هو أكبر منها، طبعًا هو جاء بالحديث ليوضح هذه القضية؛ لأن الشيء قد يكون خفيًّا في بعض المواضع بسبب التركيب، ويكون في موضع آخر أوضح، يحتمل معنيين، وإن كان لا يمت بصلة إلى المعنى لكنه واضح -أي هذا التركيب- في مكان آخر، وتذكرون أننا مثلنا له بأمثلة في أصول التفسير، **{ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ}** [سورة البقرة:٥٨] أي: مسألتنا حطة، هذه تفسر به في شيء أوضح من هذا، لا يمت له بصلة، لكن التركيب يشبه التركيب.

فأخبر أنه لا يستصغر شيئًا يَضْرِب به مثلا ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، كما لم يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في قوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} [سورة الحج:٧٣]، وقال: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [سورة العنكبوت:٤١]، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ * يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [سورة إبراهيم:٢٤-٢٧]، وقال تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ} الآية [سورة النحل:٧٥]، ثم قال: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ} الآية [سورة النحل:٧٦]، كما قال: {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ} الآية [سورة الروم:٢٨].

وقال مجاهد: قوله: {إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا} الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون، ويعلمون أنها الحق من ربهم، ويهديهم الله بها.

يعني فيما ضُرب فيه المثل وإلا فالأمثال لا شك أنها عظيمة، والبعوضة لم يَرِد ضرب المثل بها في القرآن في موضع من المواضع، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً}** هو لم يضرب بها المثل، وإنما يخبر -تبارك وتعالى- ردًّا على هؤلاء القائلين- أنه -سبحانه وتعالى- لا يستنكف ولا يمنعه الحياء أن يضرب المثل بها وبما هو أعظم منها أو أكبر منها في الخلقة، وقوله هنا: **{إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا}** هو الذي حمل الربيع -رحمه الله- أن يقول: إن الله ضربها مثلاً للدنيا بأنها إذا زادت نقصت، وإذا اكتملت كان ذلك إيذانًا بزوالها واضمحلالها كالبعوضة، ولكن ليس هذا المراد هنا من ضرب المثل بها، والعلم عند الله -عز وجل.

روى السدي في تفسيره عن ابن عباس، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: {يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا} يعني: المنافقين، {وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا} يعني المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالهم لتكذيبهم بما قد علموه حقًّا يقينًا من المثل الذي ضربه الله بما ضربه لهم، وأنه لما ضربه له موافق، فذلك إضلال الله إياهم به، {وَيَهْدِي بِهِ} يعني بالمثل كثيرًا من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيمانًا إلى إيمانهم، لتصديقهم بما قد علموه حقًّا يقينًا أنه موافق لما ضربه الله له مثلا، وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ}.

هنا {يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا} يضل به المنافقين، ويضل به أيضاً الكافرين، كل من في قلبه رجس، كما قال الله –عز وجل–: {فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [سورة التوبة:١٢٥]، وأخبر عن المنافقين كيف يكون حالهم إذا سمعوا آية أنزلت على النبي –صلى الله عليه وسلم–: {أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا} [سورة التوبة:١٢٤]، فأهل الإيمان تزيدهم إيمانًا هذه الأمثال والآيات المنزلة على النبي –عليه الصلاة والسلام– بخلاف غيرهم من الكفار والمنافقين، ولهذا قال بعدُ: {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ} ثم وصفهم: {الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ} [سورة البقرة:٢٧]، فالمقصود أن ذلك لا يُخص بالمنافقين.

قال: هم المنافقون.

الفسق معروف يطلق على كل من خرج عن طاعة الله –عز وجل– خروجًا أصغر أو خروجًا أكبر، فالخروج الأكبر يشمل أهل النفاق، ويشمل الكفار، والخروج الأصغر هم أهل المعاصي، وهذا إطلاق معروف في اللغة وفي الشرع، يطلق هذا على هذه المعاني جميعًا؛ لذلك المثال الشهير في أصول الفقه الذي يذكرونه عند الكلام على مفهوم الموافقة الأولوي يقولون: الظني؛ لأنه على قسمين قسم ظني وقسم قطعي، فيقولون في مفهوم الموافقة القطعي الأولوي –يعني من باب أولى–: {فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ} [سورة الإسراء:٢٣] يعني الضرب من باب أولى قطعًا، والظني: {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا} [سورة الحجرات:٦] وإن جاء كافر من باب أولى لكن هذا ظنًّا؛ لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه يعني متديناً ودينه يحرم عليه الكذب، فيقولون: لا يُقطع بهذا –أي إن جاء كافر من باب أولى أننا نتثبت–، لكن هذا المثال مع أنه مشهور جدًّا إلا أنه في ظني فيه نظر؛ لأن قوله: {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ} هنا يشمل الكافر ويشمل العاصي {فَتَبَيَّنُوا} فنحن مأمورون بالتبين إلا إذا جاء العدل، والكافر لا يكون عدلاً.

وتقول العرب: فسقت الرطبةُ إذا خرجت من قشرتها؛ ولهذا يقال للفأرة: فويسقة، لخروجها عن جُحْرها للفساد.

هو هذا ((خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحل والحرم...))، كل ما خرج عن الجادة يقال له: فاسق، وفَسَقَ، {فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [سورة الكهف:٥٠] يعني خرج عن أمر ربه بالسجود لآدم –صلى الله عليه وسلم–، وهذا كثير ومعروف حتى في كلام العرب وأشعارهم:

فواسقاً عن قصدها جوائرَ *** ....

يعني خارجة عن الطريق.

وثبت في الصحيحين، عن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((خمس فواسق يُقتلن في الحل والحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور))[٥].

فالفاسق يشمل الكافر والعاصي، ولكن فسْق الكافر أشد وأفحش، والمراد من الآية الفاسق الكافر -والله أعلم-، بدليل أنه وصفهم بقوله: {الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة البقرة:٢٨].

هذا الآن الترجيح الذي ذكره ابن كثير اللفظة تحتمل معنيين بل هي عامة في هذا {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ}، فيدخل فيه الكافر والمنافق، ويدخل فيه أيضاً العاصي من المؤمنين فقوله: {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ} هل القصود به من خرج عن طاعة الله من أهل الإيمان أن الله يضلهم بهذه الأمثال؟.

الجواب: لا، ليس هذا هو المراد، فالقاعدة أن الآية قد تحتمل معنيين فأكثر، ويوجد في الآية قرينة ترجح أحد هذه المعاني، وهذا له أمثلة كثيرة جدًّا هذا واحد من هذه الأمثلة، الآية تحتمل معنيين فأكثر، ويوجد في نفس الآية قرينة ترجح أحد هذه المعاني، طبعًا نحن لا نشتغل بالأمثلة لكن أنت اسمع المثال فإن أعجبك وإلا فخذ مثالاً آخر، هناك عشرات الأمثلة، لا تتعلقوا بالأمثلة، قاعدة صحيحة، فمثلاً في قوله تعالى: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ} [سورة البقرة:٢٢٨]، فإن القرء مشترك بين معنيين متناقضين الطهر والحيض، لا يوجد واحدة لا طاهر ولا حائض -يلحق بالحيض النفاس-، لا طاهر ولا حائض يعني نصف نصف، ما في، فالمقصود أنه هنا ثلاثة قروء هل المراد الحِيَض أو الأطهار؟.

من رجح أن المراد به الأطهار قال: إن العدد هنا لحقته تاء التأنيث "ثلاثة"، فلو كان المقصود الحِيَض فإن العدد ثلاثة لا تلحقه تاء التأنيث إذا كان المعدود مؤنثًا: ثلاث نسوة، بينما إذا كان مذكراً تقول: ثلاثة رجال، فهنا هل نقول: ثلاثة حِيَض أو ثلاثة أطهار؟، الطهر مذكر فالذين فسروا القرء بالطهر قالوا: في الآية قرينة ترجح هذا المعنى، وإن كانت لفظة القرء تصدق على الطهر والحيض؛ لأنها من قبيل المشترك، قال: ثلاثة هذا مؤنث ولا يكون إلا مع المعدود المذكر، ثلاثة أطهار، طبعًا هذا ليس بقاطع؛ لأن لفظة "قرء" مذكّرة، "ثلاثة قروء" ليس بقاطع، لكن قالوا: هي قرينة، فهنا {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ} ليس المقصود به من خرج عن طاعة الله من أهل الإيمان، وإنما الكفار وأهل النفاق، ما القرينة في الآية؟ قال: {الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة البقرة:٢٧] ليست هذه صفة الفسقة من أهل الإيمان هذه صفات الكفار كما جاء ذلك في آيات أخرى.

وهذه الصفات صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين، كما قال تعالى في سورة الرعد: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ} الآيات، إلى أن قال: {وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [سورة الرعد:١٩-٢٥].

---

٥ - رواه البخاري، كتاب جزاء الصيد، باب ما يقتل المحرم من الدواب، برقم (١٨٢٩)، ومسلم، كتاب الحج، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرم، برقم (١١٩٩).

انظر: نفس الأوصاف المراد بها الكفار هنا لأمرين:

الأمر الأول: أنه قابلها بصفة أهل الإيمان، والمقابلة العادة أن تكون بين المؤمنين والكفار.

الأمر الثاني: ما عقب به "لهم اللعنة ولهم سوء الدار" وهذا إنما يكون للكافرين.

والعهد الذي وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه: هو وصية الله إلى خلقه، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه، وعلى لسان رسله، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به.

بعض أهل العلم يقول: هو العهد الذي أخذه الله -عز وجل- على بني آدم حينما استخرجهم من آدم -صلى الله عليه وسلم- على هيئة الذر وأخذ عليهم الميثاق، **{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ}** [سورة الأعراف:١٧٢-١٧٣] فهذه في أخذ الميثاق فبعض أهل العلم يقول: "الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه" العهد هو ما أخذه عليهم وهم في ظهر آدم -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: لا، ليس هذا هو المراد، وإنما المقصود به هو ما أمرهم به ووصاهم به على ألسن الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، فقد جاءهم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يأمرونهم بالتوحيد، وبكل عمل وأمر طيب صالح، وينهونهم عن الشرك وعما تفرع به من كل أمر سيئ، فهذا هو العهد.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ}** العهد مفرد مضاف، والمفرد إذا أضيف فإنه من صيغ العموم، **{الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ}** أي: عهود، كل عهد لله يصدق عليه ذلك، فالتوبة عهد بين الله وبين العبد، والنذر عهد، والوعد عهد، والإسلام عهد، وما أخذه الله -عز وجل- على بني آدم حينما استخرجهم من ظهر آدم -صلى الله عليه وسلم- عهد، وهكذا ما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هو عهد من الله لخلقه، فهذا كله -والله تعالى أعلم- يدخل في معنى الآية، والعلم عند الله -عز وجل-، **{مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ}** يعني الميثاق تقول: وثّق الشيء يعني قواه وأكده.

وقيل: بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وعهد الله الذي نقضوه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها، واتباع محمد -صلى الله عليه وسلم- إذا بعث، والتصديق به، وبما جاء به من عند ربهم.

هذا من جملة العهد، قلنا: مفرد مضاف، وهو للعموم، فيدخل فيه ما أخذه الله على أهل الكتاب فهذا من العهد، عهد إليهم إذا جاءهم رسول مصدق لما معهم **{لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}** [سورة آل عمران:٨١-٨٢] فهذا كله من العهد وهو داخل فيه، فلا تختص هذه الآية بأهل الكتاب بخصوص هذا العهد الذي أخذه عليهم، والله تعالى أعلم.

ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته، وإنكارهم ذلك، وكتمانهم علم ذلك عن الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمنًا قليلا.

وقيل: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق، وعهده إلى جميعهم في توحيده: ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهده إليهم في أمره ونهيه: ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثلها الشاهدة لهم على صدقهم، قالوا: ونقضهم ذلك: تركهم الإقرار بما ثبتت لهم صحته بالأدلة وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق، وروي أيضًا عن مقاتل بن حيان نحو هذا، وهو حسن، وإليه مال الزمخشري.

فالذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه لا شك أنه يشمل الكفار والمنافقين كما سبق ولا يختص بأهل الكتاب، ولكن ذلك لا يكون بمجرد ما وضعه من الدلائل الدالة على ربوبيته ووحدانيته، بل لابد أن ينضم مع ذلك ما ذكر من التصديق برسله -عليهم الصلاة والسلام- واتباعهم والإقرار بما جاءوا به، والقبول عن الله -عز وجل- بأمره.

وقوله: {وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ} قيل: المراد به صلة الأرحام والقرابات، كما فسره قتادة كقوله تعالى: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ} [سورة محمد:٢٢] ورجحه ابن جرير، وقيل: المراد أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله وفعله قطعوه وتركوه.

لكن عادة إذا ذُكرت الصلةُ وصلةُ ما أمر الله به أن يوصل فالمراد بها صلة الأرحام، هذا المراد بها وإن كان بعض أهل العلم قال: إنه يدخل فيها من المعاني غير هذا كصلة القول بالعمل، وكذلك صلة الإيمان والتصديق بالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فيؤمن بهم جميعًا لا يؤمن بنبي ويكفر بالآخرين، هذا فُسر به **{يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ}** [سورة الرعد:٢١]، ولكن ليس هذا هو المتبادر من معنى الآية، والآية يجب أن تحمل على المعنى المتبادر دون المعنى الخفي المغمور إلا بدليل يجب الرجوع إليه، فإذا أطلق مثل هذا "يصلون ما أمر الله به أن يوصل" فمباشرة يتبادر إلى الأذهان أنها صلة الأرحام، وعيدُ أهل القطيعة أو الفسق أو الانحراف بما جاء بوصفه بهذه الآيات شيء آخر لكن الكلام هنا **{وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ}** [سورة البقرة:٢٦-٢٧] هؤلاء هم الكفار وإلا فإن هؤلاء الفسقة من أهل الإيمان لا يقفون عند هذه الأمثال وينكرونها، ويقولون: الله أعظم من أن يضرب مثلاً بهذه المحقرات، لا يقولون هذا، فالآية من سياقها يُعلم أنهم غير داخلين في هذا المعنى وإن كانوا من جملة الفاسقين، ولكن اللفظ قد يخص ببعض معانيه -بعض ما يدخل تحته- بدليل في الآية أو قرينة، فـ"الفاسقين" هنا لا تُحمل على أعم معانيها.

وقال مقاتل بن حيان في قوله:{أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} قال: في الآخرة.

ابن كثير إذا ذكر مقاتلا فهو مقاتل بن حيان المتوفى سنة ١٥٠ للهجرة، وهناك مقاتل آخر وهو مقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠ للهجرة أيضاً، فهذا مقاتل بن حيان لم يُتكلم فيه، ولم يتهم لا في النقل ولا الرواية، ولم يتهم أيضاً في الدين والاعتقاد، مقاتل بن سليمان متهم بالأمرين يعني اتهم بالكذب، واتهم أيضاً بالقول بالتجسيم، والعلماء -رحمهم الله- يتناقلون كثيرًا القول المنسوب لأبي حنيفة: إنه قد جاءنا من المشرق رأيان

خبيثان مقاتل مجسم، وجهم معطل، فطارت هذه المقولة وتناقلها الكبار كالشافعي -رحمه الله- والذهبي وأئمة كثير، مع أن هذا بالنسبة للتهمة بالكذب والضعف الشديد في الرواية أو عدم التوثيق في أقل الدرجات لا شك أن هذا العلماء تتابعوا عليه، وكلامهم كثير فيه، لكن تبقى القضية الثانية التي هي رمي مقاتل بالتجسيم، هو له كتاب أربعة مجلدات في التفسير مطبوع لكنه قليل التداول، ورأيته قبل سنتين ظهر طبعة سقيمة ما فيه شيء من التجسيم أبدًا، وله تفسير خمسمائة آية عندي نسخة منه مطبوعة على الآلة الكاتبة لا يوجد فيها شيء من التجسيم، وله كتب لا يوجد في كتبه التي وصلت إلينا شيء من التجسيم، لذلك شيخ الإسلام من دقته لمّا ذكره في بعض كتبه كالمنهاج -منهاج السنة- قال: ولعله لا يثبت عنه، ولذلك لما استُقرئت هذه الكتب لم يوجد فيها شيء وهي بين أيدينا، أبدًا، فلا تدري هل هذا مما كان يقال عن أهل السنة: إن من أثبت الصفات فهو مجسم فقيلت عنه؟، ومثل هذا كثير، تجد الكرامية مثلاً يُرمون بأشياء، شيخ الإسلام -رحمه الله- من دقته تجده يقول: وعن بعضهم، ما هو كل ما يقال عنهم، هناك أشياء ثابتة عنهم، كلامهم في الإيمان مثلاً، ولكن في بعض الأشياء تجده يقول: وهذا قد لا يثبت عنهم، ولذلك أكثر من شوه الكرامية -الكرامية هم فرقة من الفرق المنحرفة- ونشر عنهم السمعة السيئة ابن فورك من الأشاعرة؛ لأنه ناظر ابن كرام أمام الأمير وأفحمه، وبعد ذلك هذا الأمير أبعد ابن فورك والأشعرية وصار يقرب أهل الحديث، كيف يقرب أهل الحديث بعد مناظرة ابن كرام؟، أنا لا أقول أبدًا: إن ابن كرام من أهل الحديث، ولكن ما يرمونه به في بعض الأمور إنما نقل إلينا عن طريق خصومه، ولذلك تجد كثيرًا مما ينقل عن الفرق في كتب الفرق إنما ينقل عن خصومهم، ولذلك تجدهم ينقلون أشياء عجيبة وغير دقيقة وأشياء غريبة جدًّا، فالشهرستاني عندما يصنف بعض أئمة السنة كالشعبي وجماعة من الكبار يصنفهم من الإمامية الرافضة، لو قال: فيه تشيع يمكن أن نتقبلها، لكن إمامية! وهذا كثير.

ابن كثير ينقل عن الزمخشري كثيراً في هذا الكتاب، وينقل عن غيره أيضاً كالرازي، وهذا أمر معروف عند أهل العلم، البخاري -رحمه الله- تراجم الأبواب فيها أشياء لغوية عامتها مأخوذ من أبي عبيدة معمر بن المثنى الخارجي المعتزلي، فالنقل من كتب أناس عندهم انحرافات أمر معروف عند العلماء، ولا زالوا قديمًا وحديثًا من عهد السلف -رضي الله عنهم- ينقلون أشياء ويستفيدون منها بلا غضاضة، لكن لا ينقلون الباطل والانحراف إلا للرد عليه، لكن ينقلون الأشياء الصحيحة الجيدة، والإمام أحمد نُقل عنه الإنكار أنكر على أبي عبيدة القاسم بن سلام ما كان ينقله عن الفراء، وأمثال الفراء فيما يكتب، أنكر عليه ذلك مع أن الفراء ليس من أصحاب العقائد المنحرفة، لكن الفراء قال بعض الأشياء التي أنكرها عليه الإمام أحمد في التفسير وهي يقول بها علماء كثير من أهل السنة، مثل قول الله -تبارك وتعالى-: **{فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى}** [سورة الأعلى:٩] هو يقول: إن نفعت وإن لم تنفع، فقد ذكر أشرف الأمرين وهذا من باب الاكتفاء، اكتفى عن القسم الآخر مثل: **{سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ}** [سورة النحل:٨١] فسكت عن البرد، فهذا يسمى بالاكتفاء، يذكر أحد الشقين ليدل على الآخر، فالإمام أحمد ما أعجبه هذا ورده ونهى أبا عبيدة، الإمام أحمد كان ينهى عن وضع الكتب، ونُقل هذا عن بعض المتقدمين، طيب هل أحد الآن ينكر وضع الكتب -التأليف-، تأليف غير الحديث، غير ذكر الروايات، أحد الآن ينهى عنه؟، ما في أحد ينهى عنه الآن، فتتابع العلماء على أن

الناس احتاجوا إلى ذلك، الإمام أحمد كان في وقت الفتنة والشر والابتداع، كان في بدايته فأراد أن يقمع ذلك فيقتصر الناس على الأثر، لكن الباب لا أقول: فتح بل كسر، وكسرت الجدران، اختلط الحابل بالنابل، والخير بالشر، فصار العلماء يضعون الكتب بلا إشكال، وإلا لو قرأت فقط كلام الإمام أحمد -رحمه الله- في النهي عن وضع الكتب وعن تدوين كلامه لمَا وُجد لا مذهب الإمام أحمد، ولا أحدٌ ألّف شيئًا، فهذه الكلمات والعبارات التي نسمعها عن السلف تحتاج إلى فقه، أما إذا جاء الإنسان يأخذ عبارة بمجردها ويقول: هذا هو منهج السلف ويعمم هذا، ويحكم على الناس بناء على عبارة واحدة فمعناه أنه لا يُبقي ولا يذر، وينبغي أن يبدأ بنفسه فيجد نفسه متورطاً بمثل هذه الأشياء.

وهذا كما قال تعالى: {أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [سورة الرعد:٢٥].

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل "خاسر" فإنما يعني به الكفر، وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما يعني به الذنب.

هذا ما يسمى بكليات التفسير، كل كذا في القرآن فمعناه كذا، كل آية يذكر فيها "يا أيها الناس" فهي مكية إلا الآية التي في سورة كذا، كل آية يذكر فيها "يا أيها الذين آمنوا" مثلاً أو كل آية يذكر فيها أهل الكتاب فهي مدنية إلا الآية المذكورة في سورة كذا، وهكذا يسمى كليات التفسير، طبعًا هذه بعضها لا يصح من جهة الرواية، وبعضها صحيح من جهة الرواية ولكن الاستقراء فيه ناقص، يعني تجد أشياء تقدح فيه كثيرًا بحيث إنه ما يصلح من الكليات، يعني لو دونتها وجمعتها تجد قدرًا صالحًا منها، كل كذا فهو كذا، ويدخل هذا أيضاً في قضية الحقيقة الشرعية، هنا المثال الذي أمامنا إذا ذكر الخسران في القرآن ما المراد به؟ إذا ذكر البر ما المراد به؟ وهكذا.

وقال ابن جرير في قوله: {أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} الخاسرون: جمع خاسر، وهم الناقصون أنفسهم وحظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته، كما يخسر الرجل في تجارته بأن يوضع من رأس ماله في بيعه، وكذلك الكافر والمنافق خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته، يقال منه: خسِر الرجل يخسَر خَسْرًا وخُسْرانًا وخَسارًا، كما قال جرير بن عطية:

إنّ سَلِيطًا في الخَسَارِ إنَّهْ * أولادُ قَومٍ خُلقُوا أقِنَّهْ**

هذا جرير يهجو رهطًا من قومه، جرير الشاعر المعروف يهجو رهطًا من قومه من بني يربوع، هذا رجل منهم هجا شخصًا، رجل من قوم جرير هجا شخصًا فهجا جرير ردًّا عليه هؤلاء الرهط الذين منهم هذا الذي قام بالهجاء، هجاهم بهذا البيت، وسليط هذا هم الرهط، يعني الفخذ من القبيلة أو البطن من القبيلة، البطن أكبر من الفخذ، فرع من قبيلة جرير، "خلقوا أقنة" الأقنة جمع قِنّ بالكسر، والقِنّ هو الشخص الذي ملك عبداً هو مع أبيه، يعني ما هو فقط، هو عبد وأبوه وأمه من العبيد، تعرفون الإنسان ما هو رقيق لكن يسترق في الحرب وأهله أحرار، وقد يكون رقيقًا مع أمه فقط؛ لأن الأب حر وتزوج بالأمة فصار الأولاد أرقاء، فهذا الذي يقال له: القن، هو من كان بهذه المثابة.

{كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [سورة البقرة:٢٨].

يقول تعالى محتجًّا على وجوده وقدرته، وأنه الخالق المتصرف في عباده: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ} أي: كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ} أي: قد كنتم عدمًا فأخرجكم إلى الوجود؟.

قضية كيف تنكرون وجوده؟ هذا عند من يجحد وجوده مثل الملاحدة، ولكن هذا لم يكن في المخاطبين من العرب لأول وهلة، وإنما يكفرون به بأن يجعلوا معه إلهًا آخر، وهنا في هذه الآية: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ} لماذا عقب الأولى بالفاء والفاء تدل على التعقيب المباشر "ثم يميتكم" جاء بـــ"ثم"؟، كنتم أمواتًا سواء قيل: في عالم العدم، أو قيل: النطفة والعلقة والمضغة كما سيأتي، فنفخ الروح يبعث إليه الملك حينما يكون له أربعة أشهر فتأتيه الحياة مباشرة كنتم أمواتًا فأحياكم، أما الموت بعد هذه الحياة فإنه يكون بعد ذلك يعيش خمسين، ستين سنة، عشرين سنة، أكثر، أقل، "ثم يميتكم ثم يحييكم" فإذا أماتهم بقي الإحياء الآخر وهو البعث كما هو المتبادر يميتكم فيبقون في عالم البرزخ في حياة قبل حياة الآخرة التي هي البعث من القبور –بعث الأجساد– "ثم يحييكم" فكانت بهذا الاعتبار للتراخي.

وقوله: {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ} الآن الموت عندنا كم موتة؟ في هذه الآية عندنا موتتان وإحياءتان، وذلك أيضاً صريح في قوله تعالى عنهم: {رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} [سورة غافر:١١] فما هي هذه الإماتات والإحياءات {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا}؟، بعض أهل العلم يفسر الموت هنا حينما كانوا في عالم العدم، فالمعدوم يقال له: ميت، وبعضهم يقول: ليس المراد به حينما كانوا في عالم العدم، وإنما في عالم النطفة ثم العلقة ثم المضغة، وقد يقول بعضكم: كيف تكون هذه بحكم الموت والمعروف أن النطفة فيها الحيوانات المنوية وأنها تسبح؟، يقال: هذا ينبغي أن يفهم بناء على معهود المخاطبين، فالمخاطب بهذا القرآن العرب وهم يقولون عن كل ما لا روح فيه: ميت، ولذلك النطفة يعتبرونها ميتة، وهذا الذي دلت عليه لغة القرآن، لا يقولون: فيها حيوانات منوية حية، لا يعتبرون هذا الآن، هم ما ينكرون هذا لكن هي ليس فيها روح فتسمى عندهم: ميتة، متى تكون الحياة؟، بعد نفخ الروح، {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا} يعني حينما كنتم في بطون أمهاتكم نطفًا، ثم كان علقة، ثم مضغة قبل أن تنفخ فيه الروح، {فَأَحْيَاكُمْ} بنفخ الروح، {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ} ثم الموتة المعروفة، {ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} البعث، وبعض أهل العلم يقول: الإحياء الثاني المذكور {ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} هو البرزخ، وعليه قال بعض أهل العلم: إن الإماتة والإحياء أكثر من هذا، وتتبعوا كل ما قيل ولو كان ذلك لا أصل له، فعد بعضهم كالقرطبي –رحمه الله–: ست إماتات، وست مرات من الإحياء، فبدأ يعد يوم كانوا في ظهر آدم فاستخرجهم على هيئة الذر قال: كانوا في صلب آدم أمواتًا، ثم أحياهم، ثم أعادهم مرة ثانية، يعني أماتهم، وذكر أشياء ذمَّها هو، لا يعني أنه يقر بها لكن يقول: على قول من قال كذا، وعلى قول من قال كذا، فعدد ستًّا من الإماتات وستًّا من الإحياءات، عد قضية البرزخ واحدة، والجهنميون العصاة أنهم يحترقون في النار كما في صحيح مسلم[٦] فيُخرجون من النار وهم قد صاروا حُمَمَة فيلقون في نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحِبّة في حميل السيل، فقال: هذه إماتة، يموتون في هذه النار في النهاية أي المؤمنون العصاة ثم يخرجون فيحيون، لكن هل هذا معنى قوله: "وكنتم أمواتًا فأحياكم"؟، لا، ليس هذا هو المراد؛ فهذا كلام لعموم الخلق وليس لهؤلاء المعذبين من أهل الإيمان، فإن

---

٦ – رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، برقم (١٨٢).

الكفار لا يموتون في النار ولا يحيون، كذلك أهل الإيمان الذين لا يدخلون النار، ولا تصير حالهم إلى هذا، فالمقصود أنها إماتتان وإحياءتان، ومن أراد أن يراجع كلام أهل العلم في هذا أو مجموع ذلك ينظر في مثل كلام القرطبي –رحمه الله.

كما قال تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ} [سورة الطور:٣٥-٣٦].

هذا يذكّر الله –عز وجل- به عباده مما يلزمهم به توحيده، كيف تكفرون وهو الذي خلقكم والذين من قبلكم كما سبق {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ} فينبغي أن تكون العبادة فيمن خلق ولا تكون في أحد سواه.

وقال: {هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} [سورة الإنسان:١] والآيات في هذا كثيرة.

وقال ابن جُريج، عن عطاء، عن ابن عباس: {كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ} أمواتًا في أصلاب آبائكم، لم تكونوا شيئًا حتى خلقكم، ثم يميتكم موتة الحق، ثم يحييكم حين يبعثكم، قال: وهي مثل قوله: {رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} [سورة غافر:١١].

حتى بعض أهل العلم يذكرون حينما صور الله –عز وجل- لآدم الذرية ونظر إليهم يقولون: هذه إحياءة، ثم أماتهم مرة أخرى، وهكذا يعددون كل هذه الأشياء.

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [سورة البقرة:٢٩]، لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه من أنفسهم ذكر دليلاً آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض فقال: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} أي: قصد إلى السماء، والاستواء هاهنا تَضَمَّن معنى القصد والإقبال؛ لأنه عُدي بـــ "إلى" {فَسَوَّاهُنَّ} أي: فخلق السماء سبعًا، والسماء هاهنا اسم جنس، فلهذا قال: {فَسَوَّاهُنَّ}، {وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

هنا {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} هذه الآية يحتج بها الأصوليون في موضع معروف وهو أن الأصل في الأشياء الإباحة –وكذلك الفقهاء- وليس التحريم {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} بخلاف من قال كبعض المعتزلة: الأصل في الأشياء المنع والتحريم لماذا؟، قالوا: لأن هذه الأشياء هي ملك لله ولا يجوز التصرف في ملك الغير إلا بإذنه، فلابد من إذن خاص في كل شيء أنه يحل لنا {خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} وما ذُكر أولا هو قول أهل العلم من المعتبر بهم والمحتج بقولهم فكأنه إجماع، وكذلك يحتج بها بعض أصحاب الأهواء في العصر الحديث الذين يتتبعون الرخص، ويسهلون على الناس في الفتوى، ويقولون عنا: نحن ضيقنا على الناس، أو أنتم ضيقتم على الناس، والله –عز وجل- يقول: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} فما لم يدل دليل واضح وصريح على تحريمه فينبغي أن لا نمنع الناس منه، فاستحلوا ألوان المعاملات المحرمة، والحيل على الربا، وأشياء كثيرة مما تعرفون، كل ذلك احتجاجًا بمثل هذه الآية {خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} هنا الظاهر العموم، نص "خلق لكم ما في الأرض" كل ما في الأرض فهو خلقه لكم، أي من أجل الانتفاع به وإن خفي عليكم وجه ذلك، يعني هناك أشياء يحصل بها التعادل في هذا الكون تظهر فيها حكمة الله –عز وجل- في الخلق، وأشياء يعود نفعها إلى الإنسان ولو بوسائط لكن نحن قد لا ندرك هذا، يعني مثلاً تذكرون في الكلام على التفسير الذي كان بعد صلاة العشاء

مباشرة أحيانًا تأتي بعض أسماء الله -عز وجل- نتكلم عليها في آخر سورة الحشر **{هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ}** [سورة الحشر:٢٤] تذكرون أو من حضر منكم الكلام آنذاك على بعض القضايا المتعلقة بخلق الله -عز وجل- ذكرت لكم مثالا قلت: في بعض المناطق في أمريكا يوجد نوع من الوعول كثير جدًّا يتغذى على نوع من الزهور في تلك النواحي والجبال، ويوجد نوع من السباع -نمور- تتغذى على هذه الوعول، فقاموا بقتل مجموعة كبيرة من هذه النمور فالذي حصل أن هذه الوعول كثرت جدًّا، فأكلت كل هذا النوع من النبات الذي تتغذى عليه عادة ولم تجد شيئًا تأكله، فمات كثير منها حتف أنفه، فهناك أشياء قد لا يدركها الإنسان يتدخل فيها ولكنها تعود عليه بالضرر بعد ذلك إما على حياته مباشرة أو بواسطة أو يختل فيها شيء من النظام الذي أودعه الله -عز وجل- في هذا الكون، والأمثلة على هذا كثيرة جدًّا، فقوله: **{خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}** لو قلت لي مثلاً: طيب الآن هذه الوزغ ما الفائدة منها هي مضرة؟، نقول لك: أما ترى أنها تأكل الحشرات البعوض والذباب وما إلى ذلك؟، الهرة تأكل الفأرة، وتأكل الحشرات تتغذى عليها، تقتلها حتى لو ما أكلتها، مع أن الإنسان إذا نظر إليها يقول ما الفائدة منها؟ يعني لو كانت أرانب ما كانت بهذه الكثرة، فالمقصود أن هناك أشياء يستفيد منها الإنسان بواسطة وأشياء يستفيد منها مباشرة، وهذا كثير جدًّا **{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}** الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا فسر "استوى" بمعنى قصد في هذا الموضع فقط، وهذا التفسير لم ينفرد به ابن كثير بل قال به غيره، ولكن المشهور عند عامة أهل العلم من أهل السنة خلاف ذلك في هذا الموضع وفي غيره، يقولون: استوى يأتي لمعنيين بمعنى علا وارتفع، وبعضهم يذكر أربعة معانٍ، فالمشهور علا وارتفع، وهذا الموضع حينما فسره ابن كثير بأن المراد به: قصَدَ غاية ما يقال فيه عند من خالفه من أهل السنة: إن هذا من قبيل الخطأ في التفسير وليس من قبيل الخطأ في العقيدة لماذا؟

لأن ابن كثير -رحمه الله- يثبت الاستواء على ما يليق بجلال الله وعظمته في المواضع الأخرى، وهذه قضية مهمة جدًّا: قد تفسر آية تتعلق بالعقيدة في ظنك أنت أو على المشهور عند أهل السنة ولكن قد يفسرها أحد من أهل العلم بغير ذلك، فلا يكون ذلك من قبيل الخطأ في الاعتقاد إذا كان يثبت الصفة مثل: **{يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ}** [سورة القلم:٤٢]، المشهور عن ابن عباس: يعني عن كرب، فإذا قال قائل: الساق هنا ليست صفة لله -عز وجل- وإنما المقصود به الكرب، كشفت الحرب عن ساق يعني عن شدة وكرب، وهو يثبت صفة الساق في الحديث: ((فيكشف عن ساقه))[٧]، فهنا هل هذا يكون خطأ في الاعتقاد أو خطأ في التفسير؟، خطأ في التفسير فقط، وإذا جاء معه بهذا الحديث وأوّله فهذا خطأ في الاعتقاد، الحديث ما يحتمل يكشف عن ساقه: عن شدته، فمن نفى صفة الساق أصلاً فعند ذلك يقال: خطأ في الاعتقاد، ولذلك تجد حتى في مثل قول الله -عز وجل-: **{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}** [سورة القصص:٨٨] في كلام شيخ الإسلام فيها أنه لا يعدها من الصفات، بينما ابن القيم يشتط في إثبات أنها من آيات الصفات، فغاية ما في الأمر أن هذا من قبيل الخطأ في التفسير، فإذا قلنا: من آيات الصفات فهو من الخطأ في التفسير فقط، وهكذا، فهذه قضية مهمة، فهنا "استوى"

---

٧ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** [سورة القيامة:٢٣]، برقم (٧٤٣٩).

بمعنى قصد، بعض أهل العلم مثل ابن القيم أو مثل شيخ الإسلام لا يفسر "استوى" بمعنى قصد أبداً، ويقول: هذا لا يعرف في اللغة أصلاً، لا يوجد في كلام العرب استوى بمعنى قصد، فإذا قلنا بهذا فغاية ما في الأمر أن يقال: إن ابن كثير -رحمه الله- هنا فسرها بما لا يوافَق عليه، ولكن لا يقال: إن هذا من قبيل الخطأ في الاعتقاد، ابن كثير يثبت صفة الاستواء، فطالب العلم ينبغي أن يفرق في هذه المقامات ولا يستعجل في الحكم على الناس لاسيما أهل العلم، **{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}** قال: قصد، بينما الأحسن أن تفسر بمعنى علا وارتفع، وهكذا فسرها جماعة من السلف، بمعنى علا إلى السماء علا وارتفع، وفسرها بذلك أيضاً إمام كبير من أئمة اللغة وهو الخليل بن أحمد الفراهيدي -رحمه الله- علا وارتفع، نقول بالنسبة للآية: **{يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ}** تحتمل المعنيين، والأقرب أنها تفسر بالحديث: عن ساقه.

{وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} أي: وعلمه محيط بجميع ما خلق، كما قال: {أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ} [سورة الملك:١٤].

الآن **{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ}** يقول: فخلق السماء، والسماء هنا اسم جنس فلهذا قال: **{فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ}**، يعني كيف قال: **{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}** ثم جمع فقال: **{فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ}** كيف ذكر واحدة ثم ذكر الجمع؟.

الجواب بكل سهولة هو أن السماء جنس يصدق على الواحد والكثير، ولهذا قال: **{فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}**، **{أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ}** [سورة الملك:١٦]، وإذا قلت: الله خلق السماء فالمقصود به السموات، والغالب أن السموات تذكر مجموعة والأرض تذكر مفردة، والأجوبة عن هذا متعددة ومعروفة تجد جملة منها في مثل كتاب الإتقان للسيوطي، والبرهان للزركشي وفي غيرها من الكتب، ومن أقربها أن الأرض جنس يصدق على الواحد والكثير فهي سبع من الأرضين.

وتفصيل هذه الآية في سورة حم السجدة وهو قوله: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [سورة فصلت:٩-١٢].

يعني الآن آيات البقرة **{خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}** يعني بالضرورة خلق الأرض وخلق ما فيها ثم استوى إلى السماء، فظاهر آية البقرة أن خلق السماء كان بعد الفراغ من خلق الأرض وما فيها، وكم كان قد استغرق خلق الأرض وما فيها؟، تدل عليه آية فصلت **{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ}** فخلق ذات الأرض في يومين، ثم قال: **{وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ}**، يعني خلقها في يومين، ودحاها في يومين **{أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا}** [سورة النازعات:٣١]، فظاهر آية البقرة أنه قد فرغ من ذلك جميعًا ثم خلق السماء، وآية فصلت قال بعدما ذكر هذا وهذا أربعة أيام قال: **{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}** أي: أن خلق السماء كان بعد ذلك جميعًا.

ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتدأ بخلق الأرض أولا ثم خلق السموات سبعًا، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك، وقد صرح المفسرون بذلك، كما سنذكره بعد هذا -إن شاء الله-، فأما

قوله تعالى: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا} [سورة النازعات:٢٧-٣٢]...

الآن في آية البقرة خلق السماء كان بعد خلق الأرض، وآية فصلت خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها أيضاً، وهذه الآية أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء، لاحظ ما قال: والأرض بعد ذلك خلقها قال: **{وَالأرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}** بعد خلق السماء، بعد ذلك، فلاحظ في آية فصلت جاء بـــ**{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}**، وفي آية البقرة **{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}**.

فقد قيل: إن {ثُمَّ} هاهنا إنما هي لعطف الخبر على الخبر، لا لعطف الفعل على الفعل، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما.

هذا الكلام هو جواب عن هذا الإشكال لكن هناك أجوبة أقوى من هذا.

وقال مجاهد في قوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأرْضِ جَمِيعًا} قال: خلق الله الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان، فذلك حين يقول: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ}، {فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} قال: بعضهن فوق بعض، وسبع أرضين، يعني بعضهن تحت بعض.

وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء، كما قال في آية السجدة الماضية، فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء، وفي صحيح البخاري: أن ابن عباس -رضي الله عنهما- سئل عن هذا بعينه، فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديمًا وحديثًا، وقد قررنا ذلك في تفسير سورة النازعات، وحاصل ذلك أن الدحي مفسر بقوله: {وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا} ففسر الدحي بإخراج ما كان مودعًا فيها بالقوة إلى الفعل لما اكتملت صورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية دحَى بعد ذلك الأرض، فأخرجت ما كان مودعًا فيها من المياه، فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الآن انظر إلى هذه الآيات مجتمعة **{خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}**، **{أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا}**، إلى أن قال: **{وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}**، وفي الآية الأخرى: **{وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا}** فبعض أهل العلم تخلص من هذا الإشكال، فقال: إن "ثم" بمعنى الواو، و"ثم" قد تأتي بمعنى بالواو يعني ليست للترتيب، المعنى المتبادر من "ثم" الترتيب مع التراخي فتخلصوا من هذا الإشكال فقالوا: إن "ثم" المقصود بها معنى الواو، فالله -عز وجل- يذكر أشياء مما خلق -سبحانه وتعالى- ولا يقصد به الترتيب، هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات، قال: ثم بمعنى الواو فلا ترتيب، إذًا لا إشكال عندنا بأن هذه بعد هذه في بعض الآيات، وهذه بعد هذه بالعكس في بعض الآيات، نقول: "ثم" بمعنى الواو وانتهينا، وبعضهم لاحظ في "ثم" معنى الترتيب لكنه قال: ليس ذلك المراد به الترتيب الواقع في الخارج، وإنما هو الترتيب في الأخبار فقط، ترتيب

خبر على خبر، وليس الترتيب هذا من قبيل الإخبار عن أشياء وقعت أولاً وثانيًا وثالثًا في الخارج، فيكون قوله مثلاً: {خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} ترتيب خبر على خبر، وإن كان لا يلزم من ذلك أن يكون قبله أو بعده في الواقع، ليس المقصود أنه هكذا وقع أولاً ثم هذا، لا، وإنما فقط من باب ترتيب خبر على خبر، تقول مثلاً: إن من ساد ثم ساد أبوه ثم ساد بعد ذاك جده، من ساد قبلُ أبوه وجده أو هو الذي ساد؟ جده ثم أبوه ثم هو ساد فيقولون: هذا بمعنى الواو، إن من ساد وساد أبوه وساد جده، أو بمعنى ترتيب خبر على خبر، هو يخبر عن أن هذا حصّل السيادة، وأن والده وجده حصلوا السيادة، فقال: إن من ساد ثم ساد أبوه ثم ساد بعد ذاك جده، فهذا ترتيب أخبار وليس ذلك معنيًّا به الترتيب في الخارج حيث وقوع الشيء، فهمتم هذا؟، تخصلوا من هذا الإشكال، فمن قال: إنها للترتيب لكن ترتيب خبر على خبر، ومن قال: هي تأتي بمعنى الواو، ويستدلون على هذا بأمثلة من القرآن فيها ذكر "ثم" ويقولون: هي ليست للترتيب في الخارج وإنما هي ترتيب خبر على خبر {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ} [سورة البلد:١١-١٣] إلى أن قال: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا...} [سورة البلد:١٧] هل بعدما يتصدق ويفك رقبة إلى آخره يكون بعد ذلك في الواقع يكون مؤمنًا، الإيمان يعقب هذه الأشياء، أو الإيمان قبلها ولا تصح إلا به؟ هو كذلك، فليس هذا من باب ترتيب الأمور كما تحصل في الواقع، وإنما هو من باب ترتيب خبر على خبر، تقول مثلاً: أكرمت زيدًا ثم سافرت معه ثم جلست معه ثم قدمت له هدية، وقد تكون الهدية هي أول شيء أو الجلوس معه أول شيء، ثم أكرمته ثم سافرت معه، فأنت لا تقصد ذكر هذه الأشياء كما حصلت وإنما ترتب بـــ "ثم" تقصد ترتيب خبر على خبر، أو تقصد بها معنى الواو، هكذا أجاب بعض أهل العلم، وأحسن ما يجاب به عن ذلك هو ما ذكره ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- هنا: أن الله خلق الأرض في يومين ثم استوى إلى السماء فخلقها في يومين، ثم بعد ذلك دحى الأرض في يومين، والمراد بالدحو كما فسره بعده {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا} هذا في يومين وذلك قوله -تبارك وتعالى-: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا} يعني بعد خلق السماء، فخلق السماء أولاً، وما وجه قوله -تبارك وتعالى-: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}؟، فهذا يجاب عنه بأحد جوابين:

إما أن يقال: {خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} أي: جعل ذلك بالقوة، يعني أنها صالحة لذلك لمنافعكم ثم كان ذلك بالفعل، {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا} بعد خلق السماء، معروف معنى بالقوة بالفعل، يعني الآن الأخ الساكت هذا يقال له: ناطق أو لا؟ يوصف بناطق مع أنه ساكت، لكنه ناطق بالقوة، يقال له: ناطق بالقوة وليس ناطقًا بالفعل، أنا الآن ناطق بالفعل، الآن تقول: صالح كاتب، هو جالس يكتب الآن؟ لا، مُوقف القلم لكنه كاتب بالقوة، ومن يكتب الآن يقال له: كاتب بالفعل، فالأرض حينما خلقها الله -عز وجل- جعلها مهيأة للانتفاع، ثم أخرج ذلك بعد خلق السماء بإخراج المياه الكامنة فيها والنبات -المرعى- {خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} أي: بالقوة ثم كان ذلك بالفعل بعد خلق السماء، هذا جواب.

الجواب الثاني: أن يقال: إن الخلق بمعنى التقدير، {خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} هو خلق الأرض أولاً، وأما ما فيها من المنافع فكان ذلك بعد خلق السماء، فذلك قوله تعالى: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا}

فهذا هو التقدير، لاحظ {فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ} فالخلق يأتي بمعنى الإيجاد، ويأتي بمعنى التقدير، ويأتي بمعنى التشكيل والتصوير، كم معنى؟.

ثلاثة معانٍ: الإيجاد من العدم {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [سورة الزمر:٦٢]، التقدير {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} [سورة الحشر:٢٤]، الخالق هنا أحسن ما يفسر به المقدِّر؛ لأنه قال بعده: {الْبَارِئُ} والبارئ هو الموجد من العدم، برأه بمعنى أوجده ابتداء من العدم، المصور هو الذي أعطاه شكله وصورته وهيئته التي اختارها له، فهذا المعنى الثاني، والمعنى الثالث: بمعنى التصوير ((ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي))[٨]، فالمقصود به التصوير، تشكيل الأشياء وإعطاؤها هيئة {تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ} [سورة المائدة:١١٠] يعني يشكل الطين بصورة الطير بإذني {فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي} [سورة المائدة:١١٠] فالأول هو التصوير، فالمقصود أن {خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} أي: بمعنى قدر ذلك، والله تعالى أعلم.

---

٨ – رواه البخاري، كتاب اللباس، باب نقض الصور، برقم (٥٩٥٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبة أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ* قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} [(٣١-٣٣) سورة البقرة].

"هذا مقامٌ ذكَر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له، وإنما قدم هذا الفصل على ذلك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم تعالى بأنه يعلم مالا يعلمون، ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا؛ ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم فقال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}.

قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} قال هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس، إنسان ودابة وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: **{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}** يقول الحافظ ا بن كثير -رحمه الله-: **هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة**، يعني بالعلم، وهذا العلم كما ذكر الحافظ ابن كثير -كما سيأتي إن شاء الله- ليس مختصاً بالعلوم الشرعية كالعلم بالله -عز وجل- وأسمائه وذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه وشرعه، وإنما علَّمه أسماء كل شيء من هذه المسميات، فكان ذلك تشريفاً له، وبهذا يُعلم أن العلم النافع يشرف به بشرط أن لا يكون من العلوم الضارة كالسحر مثلاً، وإنما العلوم التي تنفع، فالإنسان يشرف بالعلوم النافعة.

ويدل على ذلك هذه الآيات وغير هذه الآيات أيضاً، فهذه الدواب والحيوانات تتفاضل بالعلم، ولهذا قال الله -عز وجل-: **{وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ}** [(٤) سورة المائدة] فهذه الكلاب هي لا شك من أحط درجات الحيوانات ومع ذلك إذا تعلمت فإنه يحل لنا ما صادت، بحيث إذا عدا الكلب على الصيد فصاده فإن كان معلماً حل ولو وجدناه ميتاً، وإن كان غير معلم فإنه لا يحل، فانظر كيف أثر هذا التعليم في مثل هذه القضية -حل الصيد وحرمته- والأدلة على شرف العلم كثيرة جداً، لكن الشاهد هنا أن هذا العلم هو علم بأسماء الأشياء، ومن هنا يقال: إن العلم النافع يشرف به الإنسان ولو كان من العلوم الدنيوية، ويتفاضل الناس في ذلك بحسب مرتبه العلم وشرفه، وبالتالي فإن العلوم متفاضلة ويتفاضل فيها الناس بهذا الاعتبار، فمن كان اشتغاله بعلوم الطب المتعلقة بالحيوان -مثلاً- لا يكون في الشرف والمرتبة كالمشتغل بالعلوم المتعلقة بطب الإنسان، وهذا أمر مشاهد عند الناس، الطبيب البيطري

ليس كالطبيب البشري، وهكذا ألوان الطب البشري، فالذي يتخصص في الأسنان أو في الجلدية -كما يقال- لا يكون كالذي يتخصص في القلب، إذ لا شك أن هذا أشرف من هذا، مع أن كلاهما يعالج الإنسان.

ثم إن من اشتغل بعلوم تتعلق بالله وأسمائه وصفاته لا شك أنه أشرف ممن يشتغل بعلوم دون ذلك، وهكذا فالعلم شريف، وهو يتفاضل ويتفاوت.

وقول الحافظ ابن كثير: "**بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم**"، كل شيء يعني من المسميات، فلا يختص ذلك بشيء دون شيء؛ لأنه لا يوجد دليل يقوم على هذا التخصيص، فالله -عز وجل- يقول: **{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}** [(٣١) سورة البقرة]، فأسماء جمع اسم ودخلت عليه (أل) وذلك يفيد العموم، ثم أكد ذلك العموم بما هو صريح في العموم بقوله: **{الأَسْمَاء كُلَّهَا}** أي: كل الأسماء، ومن هنا يقال: هذه الأسماء لا تختص بشيء دون شيء كقول من قال: إنها أسماء الملائكة، وقول من قال: إنها أسماء الملائكة وذرية آدم -صلى الله عليه وسلم- وإنما ذلك يشمل أسماء الملائكة وأسماء ذرية آدم وأسماء الأشياء الأخرى، فهذا قلم، وهذا كتاب، وهذا ثوب، وهذا إناء، وهذا كأس، وهذه دابة جمل، وهذا فرس وهكذا، فهو علمه الأسماء كلها، وهذا الذي يدل عليه ظاهر القرآن، ولا يصح تخصيص ذلك بشيء دون شيء إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وهذا على غير عادته- خص ذلك بأسماء الملائكة وأسماء الذرية فقط، ولا شك أن أقوال السلف مختلفة في هذا كثيراً، ولكن ظاهر القرآن يدل دلالة واضحة على العموم، وأما التخصيص فيحتاج إلى دليل، ولا يوجد حديث مرفوع ثابت صحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- يخصص ذلك، وإنما وجدت آثار عن ابن عباس وغيره وطائفة من هذه الآثار تدل دلاله واضحة صريحة على العموم للأسماء جميعاً المصغر منها والمكبر وأوصاف الأشياء مثل: هذا حسن، وهذا سيئ، وهذا طويل، وهذا قصير..الخ، وعلى كل حال فإن ظاهر اللفظ أنه علمه جميع الأسماء.

يقول ابن كثير: **وهذا كان بعد سجودهم له**، لاحظ الترتيب فيما ذكره الله -عز وجل- في إخباره أولاً الملائكة بأنه سيخلق بشراً، قال تعالى: **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}** [(٣٠) سورة البقرة] ثم ذكر تعليمه الأسماء، ثم بعد ذلك أمرهم بالسجود، فهذا هو ترتيب الآيات، فإذا سرنا على هذا الترتيب سيقال: إن تعليمه الأسماء كان قبل الأمر بالسجود، أي: علمهم شرفه بعد أن أخبرهم بخلقه وقالوا ما قالوا، فبين لهم شرفه جواباً على استشكالهم وسؤالهم عن الحكمة، ثم بعد ذلك أمرهم بالسجود له، أي: بعد ما تبين لهم مكانه ومنزلته، وأن الله كرمه عليهم ورفعه.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يرى غير هذا، فيقول: إن تعليمه وإخبارهم عن خلقه كان أولاً ثم أمرهم بالسجود له بعد ذلك، ثم بين بعد ذلك شرفه ومكانته، فيكون ذلك كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}** [(٦٧) سورة البقرة]، ثم ذكر بعد ذلك ما ذكر من سؤالهم وتوصيفها، ثم قال: **{وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ* فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا}** [(٧٣) سورة البقرة].

لا شك أن قتلهم للنفس كان هو السبب لأمر موسى -صلى الله عليه وسلم- أن يذبحوا بقرة، وهذا لا شك أنه هو السبب، ولا يمكن أن يقال غير هذا، وهذا ما يسمونه بالمؤخر الذي حقه التقديم، وإن نظرت إلى قوله:

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى} فهذا من المقدم الذي حقه التأخير، ولكن الله -عز وجل- يبتدئ بالشيء لمعنىً؛ إما لأنه هو المقصود أو الأهم أو غير ذلك.

وعلى كل حال لا يوجد في ظاهر الآيات ما يدل على أن ذلك كان أولاً، يعني أنه أمرهم بالسجود أولاً ثم علمه الأسماء، لا يوجد ما يدل على هذا، والأصل بقاء السياق القرآني على حاله وظاهره، فلا يدَّعى فيه تقديم وتأخير إلا بدليل يجب الرجوع إليه، فهذا هو الأصل جرياً مع الظاهر والعلم عند الله -عز وجل-.

وعلى كل حال هذا مقصود ابن كثير بقوله: **وإنما قدم هذا الفصل على ذلك**، والفصل هو قوله: **{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}** [(٣١) سورة البقرة] قدمه على قوله: **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ}** [(٣٤) سورة البقرة]، يعني أن الترتيب الذي يرى ابن كثير أنه الترتيب الواقعي هو: **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}** [(٣٠) سورة البقرة]، ثم **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ}** [(٣٤) سورة البقرة]، ثم **{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}** [(٣١) سورة البقرة].

يقول تعالى في الآية الأخرى: **{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ}** [(٢٩) سورة الحجر] الفاء هنا تدل على التعقيب المباشر، وهذا يمكن أن يستفاد منه، ولكن تعقيب كل شيء بحسبه، فمثلاً الله -عز وجل- يقول: **{أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا}** [(١٧) سورة الرعد]، هل بمجرد نزول المطر تسيل الأودية أم أن ذلك يحتاج إلى وقت حتى يجتمع الماء.

كذلك في قوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً}** [(٦٣) سورة الحــج]، لا تكون الأرض مخضرة بمجرد نزول الماء عليها بل لا بدَّ أنها تحتاج إلى فترة لتصبح مخضرة.

لذلك قال من قال من المفسرين: إن المقصود بها جبال مكة؛ لأنها تشتمل على عنصر النحاس فإذا نزل عليها المطر صارت تميل إلى الخضرة، وهذا غير صحيح إطلاقا، وإنما الصحيح أن قوله: **{فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً}** يعني بالنبات، وهذا لا شك أنه يحتاج إلى وقت.

وكذلك في قول تعالى: **{ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا}** [(١٤) سورة المؤمنون]، فهذا كله يحتاج إلى أربعين يوما بين مرحلة ومرحلة، ومن هنا يتبين أن تعقيب كل شيء بحسبه، وإن كان قد يستدل بهذه الآية **{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ}** [(٢٩) سورة الحجر]، على هذا المعنى، الذي هو التعقيب المباشر، والعلم عند الله تعالى.

"وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث عاصم بن كليب عن سعيد بن معبد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] قال: علمه اسم الصحفة والقدر، قال: نعم حتى الفسوة والفسية."

يقصد ابن عباس أنه تعالى ما ترك شيئاً من الأشياء الصغيرة والكبيرة إلا علمه، والله تعالى أعلم.

"والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: حتى الفسوة والفسيه يعني أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر."

قوله: **والأفعال المكبر والمصغر**، هذا باعتبار أن هذا فعل من الأفعال، لكن الواقع أنه اسم، فالله يقول: **{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء}**، فكل ما يصدق عليه اسم فهو داخل في هذا، ولكن من تأمل ونظر فإن ما يطلق على الأفعال

يمكن أن يدخل في حيز الأسماء، فالمشي يمكن أن تقول: إنه صفة، ويمكن أن تقول: إنه فعل، ويمكن أن تقول: إنه اسم لهذه الحركة المعروفة التي ينتقل الإنسان بها، والأمر في هذا سهل.

"وروى البخاري في تفسير هذه الآية في كتاب التفسير من صحيحه عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: قال، وقال لي خليفة: حدثني يزيد بن زريع قال: حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى عليه وسلم- قال: ((يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم..)).

الشاهد من الحديث قوله: **((وعلمك أسماء كل شيء)).**

((فيقول: لست هناكم ويذكر ذنبه فيستحي، ائتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتونه فيقول: لست هناكم ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحيي فيقول: ائتوا خليل الرحمن فيأتونه فيقول: لست هناكم، فيقول: ائتوا موسى عبداً كلمه الله وأعطاه التوراة فيقول: لست هناكم، فيذكر قتل النفس بغير النفس فيستحي من ربه فيقول: ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمة الله وروحه، فيأتونه فيقول: لست هناكم ائتوا محمداً عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني فأنطلق حتى أستأذن على ربي فيأذن لي، فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله، ثم يقال: ارفع رأسك وسل تعطه وقل يسمع، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه، فإذا رأيت ربي مثله ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود الثالثة ثم أعود الرابعة فأقول: ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود))[1].

وقد روى هذا الحديث مسلم والنسائي وابن ماجه، ووجه إيراده ها هنا والمقصود منه قوله -عليه الصلاة والسلام-: ((فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء)) فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات، ولهذا قال: {ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ} [(٣١) سورة البقرة] **يعني المسميات كما قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة فقال: {أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}** [(٣١) سورة البقرة]**، ومعنى ذلك فقال: أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء}** [(٣٠) سورة البقرة] **من غيرنا أم منَّا، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك.**

{إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [(٢٣) سورة البقرة] **في قيلكم: إني إنْ جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني وذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين."**

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق - باب: صفة الجنة والنار (٦١٩٧) (ج ٥ / ص ٢٤٠١) ومسلم في كتاب: الإيمان - باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣) (ج ١ / ص ١٨٠).

ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: **{أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}** [(٣١) سورة البقرة] هو أحسن ما قيل في تفسيره، ولا حاجة لكثير من التكلفات والمحامل البعيدة التي ذكرها بعض المفسرين هنا.

وقوله تعالى: **{إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}** هو على ظاهره، أي: إن كنتم صادقين في ما قلتم: **{أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ}** [(٣٠) سورة البقرة].

والمراد من قوله: **من غيرنا أم منا**، يعني أنهم قالوا: الخليفة هل سيكون من غيرنا أم منا، فنحن الذين نسبح بحمدك ونقدس لك؟

وهذا المقام يتكلم فيه المفسرون عادة عن مسألة لا طائل تحتها وهي التفضيل بين الملائكة وبين صالح البشر، ومن هو أفضل الأنبياء أم الملائكة، ويطيلون ويتكلمون، وكلٌ يذكر ما يظنه أدلة على قوله، وبعضهم أفرد لذلك رسالة خاصة، ويذكرون هذا أيضاً في كتب العقيدة، والحقيقة أن هذه المسألة لا يترتب عليها عمل، ولم نكلف بها ولن يسألنا الله -عز وجل- عنها وبالتالي فإن الاشتغال بها لا طائل تحته، وإنما المقصود من العلم، هو أن يتعلم الإنسان ما ينفعه ويقربه إلى الله -عز وجل- وينبني عليه عمل أو اعتقاد صحيح، فلا يتشاغل المرء في مثل هذه الأمور وإن تكلم عليها من تكلم من المفسرين -رحمهم الله-.

"{قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [(٣٢) سورة البقرة]**، هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى ولهذا قالوا: {سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}، أي العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك، وفي تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء، لك الحكمة في ذلك والعدل التام."**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

ففي ما يتعلق بمسألة تعليم الله -عز وجل- لآدم -صلى الله عليه وسلم- الأسماء كلها، هل كان ذلك بعد سجود الملائكة أو كان قبله حينما خلقه الله -عز وجل- فقد نظرت في جملة من كتب التفسير فرأيت كثيراً منها لا ينوه بالقضية ولا يقف عندها، ويفسر كأنه يرى أن الأمر على هذا الترتيب، خلق آدم، وعلمه الأسماء وأخبر الملائكة أنه سيجعله خليفة، ثم أمرهم بالسجود بعد ذلك، فهم لا يصرحون بهذا، ولكن يفسرونه على هذا الترتيب، مما يشعر بأنهم لا يرون أن المسألة فيها تقديم وتأخير، وبعضهم صرح برأيه في ذلك ولم أتتبع كل التفاسير، ولكن هذه جمله منها.

هذا مثلاً تفسير القاسمي يقول: **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ}** [(٣٤) سورة البقرة]: "لما أنبأهم بأسماء وعلمهم ما لم يعلموا أمرهم بالسجود له على وجه التحية والتكرمة، تعظيماً له واعترافاً بفضله واعتذاراً عما قالوا فيه"، فهذا الكلام صريح في أن الأمر بالسجود كان بعد أن علمه الأسماء، فيكون على نفس الترتيب الوارد في القرآن.

وهذا تفسير الخازن -وهو عبارة عن اختصار للبغوي مع بعض الزيادات- يقول: **{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}** [(٣١) سورة البقرة] يقول: ولما خلق الله آدم وتم خلقه علمه أسماء الأشياء كلها وذلك أن الملائكة قالوا...الخ، والبغوي يقول: فلما خلقه الله -عز وجل- علمه أسماء الأشياء وذلك أن الملائكة لما قالوا: **{أَتَجْعَلُ فِيهَا}**...الخ.

فالخازن زاد عبارة أصرح من عبارة البغوي حيث قال: لما خلق الله آدم وتم خلقه علمه الأشياء..

فهو زاد هذه الزيادة قصداً؛ لأن هناك من يقول في قوله تعالى: **{إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا}** [(٢٨) سورة الحجر]: إنه قبل أن يخلقه أخبرهم بخلقة، وقالوا: إن معنى علمه أسماء الأشياء أي: جعل فيه القوة التي تمكنه من معرفة هذه الأشياء حينما أراد خلقه، وهذا القول كله بناءً على عقائد فاسدة عندهم فهو يشير هنا إلى رد هذا القول.

وفي التفسير الكبير يقول: الأمر بالسجود حصل قبل أن يسوي الله تعالى خلقه آدم -عليه السلام - بدليل قوله: **{إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}** [(٧١-٧٢) سورة ص].

يقول: وظاهر هذه الآية يدل على أنه -عليه السلام- لما صار حياً صار مسجود الملائكة؛ لأن الفاء في قوله: **{فَقَعُواْ}** [(٢٩) سورة الحجر] للتعقيب، وعلى هذا التقدير يكون تعليم الأسماء ومناظرته مع الملائكة في ذلك حصل بعد أن صار مسجود الملائكة، وهذا بناء على قوله: **{فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ}** [(٢٩) سورة الحجر] أي: مباشرة بمجرد نفخ الروح، فالفاء هذه للتعقيب المباشر، وعلى كل حال له عبارات وكلام طويل، لكن هذه الخلاصة.

وهذه جمل مما جاء في تفسير أبي السعود، حيث يقول: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] شروع في تفصيل ما جرى بعد الجواب الإجمالي –يعني قوله: {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} تحقيقاً لمضمونه وتفسيراً لإبهامه، وهو عطف على قال –يعني {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} [(٣٠) سورة البقرة]، والابتداء بحكاية التعليم يدل بظاهره على أن ما مرَّ من المقاولة –أي: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ}، {قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا} {قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ}– المحكية، إنما جرت بعد خلقه –عليه السلام– بمحضر منه –من آدم بعد نفخ الروح– وهو الأنسب بوقوف الملائكة على أحواله –عليه السلام– بأن قيل إثر نفخ الروح فيه: إني جاعل إياه خليفة، فقيل ما قيل كما أشير إليه، وإيراده –عليه السلام– باسمه... الخ.

وفي موضع آخر يذكر الأقوال والاحتمالات ويحاول أن يجمع بين الأقوال فيقول: فالذي يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظر الأنيق بعد التصفح في مستودعات الكتاب المكنون والتفحص عن ما فيه من السر المخزون، أن سجودهم له –عليه السلام– إنما ترتب على الأمر التنجيزي المتفرع على ظهور فضله –عليه السلام– المبني على المحاورة المسبوقة.

هو هنا أراد أن يحل الإشكال الوارد في ترتيب هذه الأمور، يعنى أن الفاء للتعقيب المباشر، و {قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا}..الخ، كل ذلك كان بعد أن خلق آدم، فكيف الترتيب بين هذه الأمور أو كيف يكون ذلك التحاور بهذه الصيغة بعد أن خلقه؟

يقول جواباً عن هذا: إن الأمر التنجيزي المتفرع عن بيان فضل آدم –صلى الله عليه وسلم– بمعنى أنه أمرهم بالسجود ويتفرع عن هذا الأمر بيان منزلة آدم –صلى الله عليه وسلم– وفضله، بأن علمه الأسماء كلها.

وله عبارات أخرى يقول في بعضها: والذي يحسم مادة الاشتباه أن ما في سورة ص من قوله تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ} [(٧١) سورة ص] الخ بدلٌ من قوله تعالى: {إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [(٦٩) سورة ص] فيما قبله من قوله تعالى: {مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ} [(٦٩) سورة ص]... الخ.

وهذا أنوار التنزيل للبيضاوي يقول: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ} [(٣٤) سورة البقرة] لما أنبأهم بأسمائهم وعلمهم ما لم يعلموا أمرهم بالسجود له اعترافاً بفضله وأداءً لحقه واعتذارا عما قالوا فيه، وقيل: أمرهم به قبل أن يسوى خلقه؛ لقوله تعالى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ} [(٢٩) سورة الحجر] امتحاناً لهم وإظهاراً لفضله.

وهذا التحرير والتنوير لابن عاشور يقول: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} عطف على جملة: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} [(٣٠) سورة البقرة]، يقول: عطفُ القصة على القصة، وإعادة إذ بعد حرف العطف المغنى عن إعادة ظرف تنبيه على أن الجملة مقصودة بذاتها؛ لأنها متميزة بهذه القصة العجيبة فجاءت على أسلوب يؤذن بالاستقلال والاهتمام.

يقول: فإن أمرهم بالسجود لآدم ما كان إلا لأجل ظهور مزيته عليهم؛ إذ علم ما لم يعلموه وذلك ما اقتضاه ترتيب ذكر هذه القصص بعضها بعد بعض ابتداء من خلق السماوات والأرض وما طرأ بعده من أطوار أصول العامرين الأرض وما بينها وبين السماء...الخ.

فهو يقول: إن هذا الترتيب مقصود وإن الأمر بالسجود بعد ما بان لهم فضل آدم -عليه الصلاة والسلام-.

ثم تكلم على قوله تعالى: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ} [(٢٨-٢٩) سورة الحجر]، يقول: لأن تلك حكت القصة بإجمال فطوت أنباءها طياً جاء تبيينه في ما تكرر منها في آيات أخرى وأوضحها آية البقرة لاقتضاء الآية السابقة أن فضيلة آدم لم تظهر للملائكة إلا بعد تعليمه الأسماء وعرضها عليهم وعجزهم عن الإنباء بها وأنهم كانوا قبل ذلك مترقبين بيان ما يكشف ظنهم بآدم...الخ، وهذا كلام واضح وصريح في أن السجود كان بعد تعليم آدم.

وعلى كل حال فالإشكال عندهم في قوله تعالى: {فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ} [(٢٩) سورة الحجر] مع قوله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ} [(٣٤) سورة البقرة]، فالله أخبرهم عن خلقه أولاً أنه سيخلقه وأنه إذا سواه ونفخ فيه من روحه فعليهم أن يسجدوا له.

وقلنا: إن الفاء تدل على التعقيب المباشر، ولكن ذلك ليس على إطلاقه بل كل شيء بحسبه، كما مثلنا بقوله تعالى: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} [(١٧) سورة الرعد]، وقوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً} [(٦٣) سورة الحـج]، وكقوله: {فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا} [(١٤) سورة المؤمنون] ومعلوم أن هذا يحتاج إلى وقت، فهي في كل شيء بحسبه، والأمثلة على هذا كثيرة جداً، والمسألة تحتمل، لكن الأصل بقاء السياق القرآني على حاله وظاهره، ولا يدعى فيه تقديم وتأخير من غير دليل يجب الرجوع إليه.

ابن القيم -رحمه الله- استخرج من قصه آدم -عليه الصلاة والسلام- أكثر من أربعين فائدة، وغيره يتكلمون عن مسائل في اللغة وهل اللغات توقيفية أو لا، مع أن المسألة لا يترتب عليها عمل أصلاً، وليست مما يحتاج إليه وليس لها أثر، ومثل ذلك ما الذي علمه من الأسماء؟، وكذا الاشتقاق والقياس على اللغات، وكذلك لما أمرهم أن يخبروه عن أسماء هذه الأشياء هل هم لا يعرفونها، وهل يمكن التكليف بما لا يطاق أو لا؟، وهي مسألة أصولية جدلية جاء بها المتكلمون، فلهم مرتع عند تفسير هذه الآيات.

قال المفسر في تفسير قوله تعالى: {قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} [(٣٣) سورة البقرة]، "قال زيد ابن أسلم: قال: أنت جبرائيل أنت ميكائيل أنت إسرافيل حتى عدد الأسماء كلها حتى بلغ الغراب."

{قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ} [(٣٣) سورة البقرة] {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ} [(٣١) سورة البقرة] تأمل في العبارات، {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} هذا للعموم صريح من جهة الأسماء، وذلك لدخول (أل) وكذلك للتأكيد بـــ(كل).

قوله: {ثُمَّ عَرَضَهُمْ}، عرضهم هذه تستعمل للعقلاء، وأما لغير العقلاء فيقال: عرضها.

{ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} فهو عرض الأسماء أم المسميات؟ الظاهر أنه عرض المسميات، وبعضهم يقول: عرض الأسماء والمسميات، وبعضهم يقول: عرض الأسماء، لكن يبعد أن يكون عرض الأسماء؛ لأنه قال: {عَرَضَهُمْ} وهذا للعقلاء، فكيف عبر بما يصلح للعقلاء مع أن القصعة والكأس والغراب مثلاً ليست من العقلاء؟

أنت إذا كان لديك سيارات عرضت للبيع مثلاً فإنك تقول: زيد عرضها للبيع، ولا تقول: عرضهم للبيع، كذلك البيوت، تقول: عرضها للبيع ولا تقول: عرضهم للبيع؛ لأن عرضهم من الصيغ التي تستعمل للعقلاء.

وهذا هو الذي ألجأ كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- ومن قال بقوله: إن المقصود الملائكة وذرية آدم؛ لأن لفضة عرضهم استعمل معها الضمير الذي يصلح للعقلاء وهو (الهاء ثم الميم)، لذلك قالوا الذي يوصف بأنه يعقل أو يعلم هم الملائكة والبشر فهي أسماء الملائكة وأسماء البشر.

العلماء في التعبير عن الملائكة بلفظة يعقل والعقلاء عندهم تحرز من هذا؛ لأنه لم يرد هذا، ولذلك تجدهم يقولون: إن (ما) لغير العالم، و(من) للعالم، ويقولون ذلك على أساس أنه يدخل فيه الملائكة، فهم موصوفون بالعلم وأما البشر فهم موصوفون بالعلم وبالعقل، فيقولون: (ما) لغير العالم و(من) للعالم.

ابن جرير يقول عن لفظة {عَرَضَهُمْ}: هذا الأسلوب استعمل مع من يوصفون بالعلم ولا يوصف به الغراب والبعير والقصعة وما إلى ذلك، والجواب عن هذا واضح جداً، ولا يخفى على كبير المفسرين، وقد أشار إليه وردّه، وهو أن ذلك التعبير يستعمل كثيراً بما يصلح للعقلاء من الضمائر والصيغ لسبب، وهو إما لاشتراك العقلاء معهم فيكون راعى الأشرف، أو راعى الأكثر أحياناً لأن العقلاء أكثر مثلاً في بعض الاستعمالات أو أنه أراد أمراً أخر كأن يكون نزل غير العقلاء منزلة العقلاء، مثل: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [(٤) سورة يوسف] الأصل أن يقول: رأيتها لي ساجدة، لكنه قال: {رَأَيْتُهُمْ} وقال: {سَاجِدِينَ}؛ لماذا؟ لأنها فعلت فعلا من أفعال العقلاء وهو السجود فنزلها منزلة العقلاء.

وقال تعالى: {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا} [(١٩٥) سورة الأعراف] أي: الأصنام، فالأصل أن يقال: ألها أرجل تمشي بها، لكن لماذا قال: {أَلَهُمْ} و{يَمْشُونَ}...الخ؛ لأنهم جعلوها آلهة، وليس فقط عقلاء بل آلهة تدبر أمر العالم، فلذلك جرى الخطاب بحسب اعتقادهم، وهذا كثير في القرآن.

إذن: قوله: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ} [(٣١) سورة البقرة] من باب التغليب، أو من باب مراعاة الأشرف وهم الملائكة والبشر.

{فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء} [(٣١) سورة البقرة] يعني عرض المسميات فسألهم عنها {أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(٣١) سورة البقرة].

"وقال مجاهد في قول الله: {قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ} قال: اسم الحمامة والغراب واسم كل شيء، وروي عن سعيد بن جبير والحسن وقتادة نحو ذلك، فلما ظهر آدم -عليه السلام- على الملائكة -عليهم السلام- في سرده ما علّمه الله تعالى من أسماء الأشياء قال الله تعالى للملائكة: {أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} [(٣٣) سورة البقرة]: أي ألم أتقدم إليكم أني أعلم الغيب الظاهر والخفي كما قال تعالى: {وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [(٧) سورة طـه]، وكما قال إخباراً عن الهدد أنه قال لسليمان -عليه السلام-: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [(٢٥-٢٦) سورة النمل].

وقيل في قوله تعالى: {وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} غير ما ذكرناه، فروى الضحاك عن ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما– {وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ}، قال: يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية يعني ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار.

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن انس، {وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ}، فكان الذي أبدوه قولهم: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء} [(٣٠) سورة البقرة] وكان الذي كتموه بينهم هو قولهم: لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم، فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم في العلم والكرم."

{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا} [(٣١-٣٢) سورة البقرة]، أي: ننزهك، {لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}: فوضوا الأمر إلى الله –عز وجل–.

{قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ} [(٣٣) سورة البقرة] يعني بأسماء المسميات، {قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} [(٣٣) سورة البقرة].

{وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ} أي: كل ما تظهرون وفي أي شأن، ومن ذلك: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} [(٣٠) سورة البقرة]، فهذا مما أظهروه، والآية عامة.

{وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} أي: كل ما كتموه، وكل ما تنطوي عليه النفوس ويتلجلج فيها فإن الله يعلمه، فقد يكون مما كتموا أنهم استشعروا أنهم أفضل من آدم، وأن هذا المخلوق لن يكون أفضل منهم، أو غير ذلك مما يقع في النفوس، فالله يعلم ذلك جميعاً ولا حاجة للتنحل والتكلف في تحديد هذا الذي كتموه فإن الله قد عم علمه – سبحانه وتعالى– المظهر والمكتوم.

وأما قول من قال: إن المقصود بـــ{مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} هو ما كان ينطوي عليه إبليس من الكبر الذي ظهر بعد أن أُمر بالسجود لآدم، فإن النفوس قد تكون منطوية على أشياء لا تظهر، ولكنها تظهر في بعض المقامات التي تُبرز خبايا النفس؛ لأنها منطوية على الكبر أو العجلة أو الحسد أو غير ذلك، ففي بعض المقامات تتبين عجلة الإنسان أو صبره، أو يتبين حسده أو تتبين غيرته أو تتبين أمور أخرى.

المقصود أن بعضهم قال: إن هذا المكتوم إنما هو ما كان ينطوي عليه إبليس، وهذا إن كان بناء على قول الذين قالوا: إن إبليس من الملائكة فهو واضح، حيث قالوا: إن إبليس من الملائكة وكان ينطوي على كبر، وما ظهر هذا إلا بعد الأمر بالسجود لآدم.

لكن قيل لهم: أين أنتم من قوله: {أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [(٧٦) سورة ص]، والملائكة خلقوا من نور؟

قالوا: لا يلزم أن يكون كل الملائكة خلقوا من نور؛ إذ لا دليل على أن كل الملائكة خلقوا من نور، فيمكن أن يكون بعضهم خلقوا من نار؟

وهكذا لو أردنا الجدال في كل حرف ماذا يقال فيه، وكيف يرد عليه، وكيف يرد على الرد، فلن ينتهي المقام، فالجدل بحر لا ساحل له، ولكن فوّت بعضَ الأمور.

وإلا فقد قيل: بعض الملائكة خلقوا من نار، فقيل لهم: من مارج من نار صفته الخفة والطيش؟ قالوا: لا مانع أن يكون بعض الملائكة خلقوا من مارج من نار، قيل: والكبر والامتناع من السجود ماذا تقولون عنه والله يقول: {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [(٦) سورة التحريم]، فهم ملائكة معصومون، قيل: ومن قال لك أنهم معصومون، فالملائكة مركبة فيهم الشهوات، لكن الأصل فيهم الطاعة والمعصية شذوذ، ومثال ذلك هاروت وماروت، فهم كانوا ملائكة، ومع ذلك عصوا الله وفعلوا ما فعلوا، وإبليس كان ملكاً وأبى من السجود وكان مستكبراً وكان فيه كل هذه الأخلاق السيئة، فهو مخلوق من مارج من نار، وأمر بالسجود وعصى الله –جل وعلا– وامتنع، فالملائكة الأصل فيهم الطاعة وتقع منهم المعصية، بخلاف الآدميين فالغالب فيهم العصيان وغلبة الشهوات، والطاعة تحتاج إلى تكلف منهم عكس الملائكة.

قيل لهم: إبليس يقول عنه الله: {فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [(٥٠) سورة الكهف]، فهذه صريحة أنه كان من الجن.

قالوا الجواب عن هذا بعدة أجوبة، منها أن الجن هو كل ما اجتن وخفي مما لا يظهر، أي من الاجتنان، يقال له: جن، فالملائكة لا يظهرون.

ومنها: أن المقصود أنه كان في قبيلة من الملائكة يقال لهم: الجن، وهذا معنى قول المشركين كما حكى الله عنهم، {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا} [(١٥٨) سورة الصافات]، قالوا: هذا بطن من الملائكة أو قبيلة منهم يقال لهم: الجن كما قال الله –عز وجل– {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا} [(١٩) سورة الزخرف]، قالوا بين الجنة وبين الله –عز وجل– نسب، والجنة هم الملائكة وليسوا هم الجن...الخ.

ولهم جواب آخر وهو أنه يمكن أن يكون الأمر أصلاً متوجهاً للجميع للجن وللملائكة، وممكن أن يكون إبليس من الجن وجلس مع الملائكة فشمله الخطاب، وشمله قوله: {أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} [(٣٣) سورة البقرة]، ويصح أن يشمل الخطاب من كان معهم وإن لم يكن منهم...وهكذا.

وهكذا يكون الجدل بحراً لا ساحل له، وبالتالي كل شيء يمكن أن تجادل فيه، الذي يريد أن يجادل لن يقف عند حد، إذ ستقول له: الآيات واضحة وصريحة، فيقول لك: ومن قال: إنها واضحة وصريحة، إنما هي واضحة وصريحة عندك..

وعلى كل حال فالمقصود أن الله أمر الملائكة بالسجود وكان معهم إبليس، وظاهر القرآن أنه ليس منهم، بل هو من الجن وهو مخلوق من نار كما هو صريح في القرآن، فشمله الخطاب معهم بالأمر بالسجود، وأبى وامتنع واستكبر، وبالتالي يكفي هذا القدر من الكلام في هذه القضية.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا} [(٣٦) سورة البقرة].

"يصح أن يكون الضمير في قوله: {عَنْهَا} عائداً إلى الجنة، فيكون معنى الكلام كما قرأ حمزة: فأزالهما، أي: فنحّاهما. ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين، وهو الشجرة، فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادةُ: {فَأَزَلَّهُمَا} أي: من قبل الزلل، فعلى هذا يكون تقدير الكلام {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا} أي: بسببها، كما قال تعالى: {يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} [(٩) سورة الذاريات] أي: يصرف بسببه من هو مأفوك، ولهذا قال تعالى: {فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ} [(٣٦) سورة البقرة] أي: من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنيء والراحة.

{وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [(٣٦) سورة البقرة] أي: قرار وأرزاق وآجال.

{إِلَى حِينٍ} أي: إلى وقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}** هذا الخطاب جاء بصيغة الجمع **{وَقُلْنَا اهْبِطُواْ}**، وجاء أيضاً بصيغة التثنية في قوله تعالى: **{قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا}** [(١٢٣) سورة طـه]، وجاء أيضاً بصيغة الإفراد مخاطباً به إبليس، فيحمل ما جاء بصيغة الجمع كما هنا **{وَقُلْنَا اهْبِطُواْ}** على أن المخاطب بذلك الثلاثة، آدم وحواء وإبليس.

وقوله: **{بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}** أي أن الآدميين يمثلهم أبواهم آدم وحواء أعداء لإبليس وإبليس عدو لهم.

{بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}: هذا عدو لهذا، وهذا عدو لهذا، فهي عداوة من الطرفين مشتركة، وليست من طرف واحد، ليس إبليس هو الذي يعادي الآدميين فقط، بل نحن نعاديه، فهو أشد الأعداء لنا وإنما نعادي غيره؛ لأنهم يتفرعون منه، وينضوون تحت لوائه بين مقل ومكثر.

وما جاء بصيغة التثنية **{اهْبِطَا مِنْهَا}** فبعض أهل العلم يقول: المراد به آدم وحواء.

وقوله: **{بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}** يعني أنكما أعداء لإبليس، فالهبوط يكون لآدم وحواء والعداوة مع إبليس.

وبعض أهل العلم يقول: قوله: **{اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}** [(١٢٣) سورة طـه] المراد بذلك هو آدم وإبليس، فإن قيل: وأين حواء؟ يقال: هي تبع لآدم، ولذلك نجد أن الله -عز وجل- يخاطب آدم -صلى الله عليه وسلم- فيقول: **{وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ}** [(١٩) سورة الأعراف]، فجعلها تبعاً له.

وكذلك حينما عاتبه على الأكل من الشجرة خاطبه هو، وقال أيضاً في توبته: **{فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}** [(٣٧) سورة البقرة]، مع أن الله تاب على آدم وحواء فهي تبع له.

وعلى كل حال فالمعنى الآخر في قوله: {اهْبِطَا مِنْهَا} أي آدم وإبليس، وحواء تبع لآدم، وبالنسبة للعداوة فهي بين الآدميين وبين إبليس وحزبه.

قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [(٣٦) سورة البقرة]: المراد بقوله: {إِلَى حِينٍ} إما أن يكون إلى الموت، أي: لهم في الأرض مستقر ومتاع إلى أن يموتوا، أو إلى قيام الساعة.

وعلى كل حال إذا نظر إلى الأفراد كآدم بشخصه فإن ذلك المتاع ينقضي بالموت، وإذا نظر إلى جنس الآدميين فإن ذلك يكون إلى قيام الساعة، فالأرض مستقر لهم وفيها يتمتعون.

"وروى ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله خلق آدم رجلاً طُوَالا كثير شعر الرأس كأنه نخلة سَحُوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يَشْتَد في الجنة، فأخذت شَعْرَه شجرةٌ، فنازعها، فناداه الرحمن: يا آدم، مني تَفِرُّ! فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب، لا، ولكن استحياء))[1].

هذا الحديث لا يخلو من ضعف، حتى إن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في الأصل أشار إلى ضعفه، والذين اختصروا الكتاب كأنهم حسنوا الحديث باعتبار أن له شاهداً آخر ينجبر به هذا الضعف.

وعلى كل حال فمسألة التصحيح والتضعيف مسألة اجتهادية، فهذا يصحح حديثاً وهذا يضعفه، فهم أدخلوه في هذا الكتاب بناء على أنه يتقوى بذلك الشاهد ويكون من قبيل الحسن، والله تعالى أعلم.

"وروى الحاكم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، قال: "ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس" ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه."

هذا الأثر يفيد أن آدم -عليه الصلاة والسلام- ما أسكن الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، وجاء في بعض الآثار الأخرى وهي آثار ترجع في أصلها إلى الإسرائيليات، وهذا الوقت الذي مكثه آدم في الجنة ما بين العصر إلى غروب الشمس يقدرونه بمدد طويلة باعتبار أن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون، فيقدرون المدة لآدم في الجنة بمائة وثلاثين سنة، وهذا على قول الحسن، وبعضهم قال أكثر من هذا، ولكن هذا كله لا يثبت به شيء، والإسرائيليات وما له حكم الإسرائيليات في هذا كثيرة جداً، فلا يعتد بها، فالله تعالى هو أعلم كم بقي آدم في الجنة، ونحن إنما علمنا من الله تعالى خلق آدم في يوم الجمعة، وأن الله -عز وجل- أخرجه من الجنة في يوم الجمعة أيضاً، فهل كان ذلك في نفس اليوم الذي خلقه فيه أدخله فيه الجنة ثم أخرجه منها، أو كان ذلك في جمعة أخرى؟، الله تعالى أعلم.

والاشتغال في مثل هذا لا يعنينا شيئاً ولا يترتب عليه لا علم ولا عمل، فهذا من فضول العلم الذي لا يمكن الوصول إليه؛ لأنه ليس هناك طريق يصح ويوثق به عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا تترتب على العلم به فائدة.

"وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: أهبط آدم -عليه السلام- إلى أرض يقال لها: دَحْنا بين مكة والطائف.

---

[1] - أخرجه الحاكم (٣٠٣٨) (ج ٢ / ص ٢٨٨) وابن أبي شيبة (٣١٨٠٧) (ج ٦ / ص ٣٢٨) وصححه الذهبي في التلخيص.

وعن الحسن البصري قال: "أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدَسْتُمِيسان من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان" [رواه ابن أبي حاتم]."

هذا كله يرجع إلى الإسرائيليات، ومما يدلك على أن هذا الكلام لا يوثق به هذا التناقض الموجود بحيث إنه لا يمكن أن يصح الجمع بين هذه الأقوال، فقول: إنه أهبط في الهند، وآخر: إنه أهبط في جدة، فأين الهند من جدة؟

وأما هذه الحية التي يشيرون إليها فيزعمون أن إبليس توصل إلى آدم في الجنة عن طريق الحية، ويصفون هذه الحية بأنها مخلوق عظيم له أرجل طويلة كالجمل، وأن إبليس دخل في الحية من أجل أن يدخل الجنة، وأن ذلك خفي على الملائكة الذين هم خزان الجنة؛ لأنه تخفى في وسط الحية، فدخل فوسوس إلى آدم من الحية.

ويفترضون في هذا قضايا، منها كيف استطاع الوصول إلى آدم، فبعضهم يقول عن طريق الوسوسة التي تقع في النفس، مع أن ظاهر القرآن يرد على هذا، حيث جاء التصريح بالوسوسة أنها من الشيطان حيث قال: **{يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى}** [(١٢٠) سورة طـه]، وكذلك في قوله: **{وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ}** [(٢١) سورة الأعراف]، فهل يكون هذا الحلف من الوسوسة التي في النفس؟ لا يمكن أن يكون هذا من الوسوسة التي في النفس، وإنما يدل ذلك على أنه خطاب صريح، وأما كيف توصل فهذا لا يعنينا، وهذا من الفضول والاشتغال بما لم نكلف به، وإنما المهم هو أنه خاطبهما بهذا، فقد يكون وهو خارج الجنة، -كما يقول بعض أهل العلم- وقد يكون دخل الجنة من أجل هذا الابتلاء والامتحان لآدم -صلى الله عليه وسلم- أو غير ذلك، فهذا كله مما لم نكلف علمه، فلا ينبغي للإنسان أن يتشاغل بمثل هذه الأمور، ويضيع الوقت من غير طائل، خاصة وأنه لا يستطيع أن يخرج معها بنتيجة حاسمة.

"وروى مسلم والنسائي عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها))[٢]، فإن قيل: فإذا كانت جنة آدم التي أخرج منها في السماء -كما يقوله الجمهور من العلماء- فكيف تمكَّن إبليس من دخول الجنة، وقد طرد من هنالك طردًا قدريًّا، والقدري لا يخالف ولا يمانع؟!"

العلماء يتكلمون عن هذه الجنة هل هي في الأرض أو الجنة المعروفة في السماء؟ وظاهره أنها الجنة التي في السماء؛ إذ الأصل أن الجنة إذا أطلقت ليس ثمت إلا الجنة المعروفة.

ويدل على ذلك قوله -تبارك وتعالى-: **{قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا}** [(١٢٣) سورة طـه]، **{وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}** [(٣٦) سورة البقرة]، فالهبوط يدل على أن ذلك نزول في الأصل من أعلى إلى أسفل.

والذين يخالفون في هذا يقولون: إن الجنة كانت في الأرض، وليس عندهم دليل أبداً، ويفسرون الهبوط الوارد في الآيات بأنه بمعنى الانتقال من بلد إلى بلد كما قال الله -عز وجل- لبني إسرائيل، لما أرادوا الأكل مما

---

[2] - أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة - باب: فضل يوم الجمعة (٨٥٤) (ج ٢ / ص ٥٨٥).

تخرج الأرض من بقلها وقثائها: {اهْبِطُواْ مِصْراً} [(٦١) سورة البقرة]، أي بلداً أو قرية من القرى، أي: مصراً من الأمصار تجدون فيه بغيتكم، وليس المقصود بمصر البلد المعروفة اليوم.

فالأصل حمل القرآن على ظاهره المتبادر إلا لدليل يجب الرجوع إليه، وظاهره المتبادر إنما هي الجنة المعروفة، وهؤلاء الذين قالوا غير ذلك يشوش عليهم ويلجئهم إلى القول بغيره بعض الأمور مثل هذا التساؤل: كيف يدخل إبليس هذه الجنة -إذا كانت الجنة التي في السماء- وهو طريد لعين؟ وهذا يمكن أن يجاب عنه بمثل ما ذكرت آنفاً.

" فالجواب: أن هذا بعينه استدل به من يقول: إن الجنة التي كان فيها آدم في الأرض لا في السماء، كما قد بسطنا هذا في أول كتابنا البداية والنهاية.

وأجاب الجمهور بأجوبة:

أحدها: أنه منع من دخول الجنة مكرماً، فأما على وجه السرقة والإهانة فلا يمتنع؛ ولهذا قال بعضهم كما جاء في التوراة: إنه دخل في فم الحية إلى الجنة، وقد قال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة، وقال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو في الأرض، وهما في السماء، ذكرها الزمخشري وغيره."

من أراد أن يعرف منهج الحافظ ابن كثير في التفسير يدون هذه الأشياء مثل نقل بعض الإسرائيليات، النقل عن الزمخشري، النقل عن الرازي، التصريح مثلاً بنقل ترجيحات الرازي، ذكر الخلاف في المسألة والأقوال فيها، والترجيح بعد ذلك، ومناقشة الأقوال، فالقراءة تختلف اختلافاً كبيراً كما بين السماء والأرض، فقراءة تختلف عن قراءة، لكن هذا ينفع الإنسان كثيراً في المستقبل.

"{فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [(٣٧) سورة البقرة] قيل: إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى: {قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(٢٣) سورة الأعراف].

وروي هذا عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي العالية، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب القُرَظي، وخالد بن مَعْدان، وعطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال السدي عمَّن حدثه عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ}، قال: قال آدم -عليه السلام-: يا رب ألم تخلقني بيدك؟ قيل له: ((بلى))، ونفخت فيَّ من روحك؟ قيل له: ((بلى))، وعطست فقلت: يرحمك الله، وسبقت رحمتك غضبك؟ قيل له: ((بلى))، وكتبت علي أن أعمل هذا؟ قيل له: ((بلى))، قال: أرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: ((نعم))، وهكذا رواه العوفي وسعيد بن جبير، وسعيد بن معبد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- بنحوه.

ورواه الحاكم في مستدركه من حديث ابن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[3]."

---

3 - أخرجه الحاكم (٤٠٠٢) (ج ٢ / ص ٥٩٤) وصححه الذهبي.

يقولون: إن هذه الكلمات هي مثل ما جاء في هذا الأثر، وهذا الأثر كما ترون: **قال السدي عمن حدثه عن ابن عباس**، ومثل هذا الإسناد لا يصح بحال من الأحوال إلا إذا جاء ما يقويه، وهم يستشهدون أو يقوونه بمثل الشواهد التي أشار إليها بعده، ولا يخلو منهج إيراد الروايات في مثل هذا الكتاب من شيء من التساهل، والذي يظهر أيضاً أن الآثار المنقولة عن السلف من التابعين في التفسير لم يدققوا فيها ويراجعوا هذه المرويات وينتقوا الصحيح منها -وهذا أمر يحتاج إلى جهد كبير- وإنما نظروا في الأحاديث المرفوعة، واختاروا منها ما يصح.

والتفسير يحتاج إلى عناية وإلى مراجعة هذه الروايات التي تنسب إلى قائليها، كقال ابن عباس، وقال فلان، مع أنه لا يصح من ذلك إلا القليل، مع أن هذه المعاني التي تنسب إليهم تبقى معانى جيدة، وتفتح آفاقاً، لكن الإشكال في نسبتها إلى هؤلاء، مع أن الكثير منها لا يصح عنهم، وقد بُذلت جهود كبيرة في التفسير في محاولة استخراج ما يصح منه، لكن لا زالت العناية بالآثار غير المرفوعة تحتاج إلى جهد ومراجعة.

قوله تعالى: **{فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ}** [(٣٧) سورة البقرة]، معنى تلقي آدم للكلمات أنه أخذها عن الله حيث علمه إياها، أو ألهمه إياها، أو أوحى بها إليه، وقد يفهم منها القبول أيضاً ولا بد؛ لأن مجرد الأخذ لا يكفي، بل لا بد من القبول، فتلقيه لهذه الكلمات هي أخذه لها وقبوله لها وانقياده وإذعانه، فأقر على نفسه بالخطأ والذنب ورجع إلى ربه -تبارك وتعالى- وتاب وعمل بما أمره الله -عز وجل- فصرح بذلك وقال: **{رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [(٢٣) سورة الأعراف]، مع فهمه لهذه الجملة التي كانت توبة له -عليه الصلاة والسلام-، ومن ثم فلا حاجة لأن يقال: إن هذا التلقي هو فهمه للكلمات فقط، أو كما قال بعضهم: قبوله لها، فليس ذلك فهماً فقط بل لا بد من إقرار لها وقبول، فكل ذلك داخل في تلقي هذه الكلمات، فهو تلقاها عن الله وفهمها وأقر بمقتضاها وأذعن ورجع إلى الله -عز وجل- قائلاً: **{رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا}**، وأحسن ما تفسر به هذه الكلمات، هي هذه الآية: **{رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [(٢٣) سورة الأعراف]، وبعضهم يذكر غير هذا لكن هذا الذي يدل عليه ظاهر القرآن، والله تعالى أعلم، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن،{ **فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ}** [(٣٧) سورة البقرة]، وهي قوله: **{رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [(٢٣) سورة الأعراف].

قوله تعالى: **{فَتَابَ عَلَيْهِ}** [(٣٧) سورة البقرة]، التوبة تكون من العبد لربه بمعنى الرجوع عن الذنب، فالتوبة أصلها الرجوع، وتكون من الرب للعبد فتفسر بالرجوع عليه بالرحمة والقبول والمغفرة بدلاً من السخط والإبعاد، تاب الله على عبده، أي رجع عليه بالرحمة، ويمكن أن تفسر بأن الله وفقه للتوبة وقبلها منه **{فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}** [(٣٧) سورة البقرة].

"وقوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [(٣٧) سورة البقرة] أي: إنه يتوب على من تاب إليه وأناب، كقوله: {أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} [(١٠٤) سورة التوبة] وقوله: {وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ} [(١١٠) سورة النساء] الآية، وقوله: {وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا} [(٧١) سورة الفرقان] وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ويتوب على من يتوب، وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبيده لا إله إلا هو التواب الرحيم.

{قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٣٨-٣٩) سورة البقرة].

يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة، والمراد الذرية: إنه سينزل الكتب، ويبعث الأنبياء والرسل؛ كما قال أبو العالية: الهُدَى: الأنبياء والرسل والبينات والبيان."

في الآية الأولى يقول تعالى: {وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [(٣٦) سورة البقرة].

وفي هذه الآية يقول سبحانه: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٣٨) سورة البقرة].

يُلاحظ أنه كرر الأمر بالهبوط في الآيتين، ففي الآية الأولى مع الأمر بالهبوط ذكر العداوة بين آدم وإبليس، وذكر أن الأرض صارت مستقراً لهم وفيها يتمتعون، وفي الآية الثانية ذكر مع الأمر بالهبوط مجيء الهدى، فهل الهبوط المذكور في الآية الثانية هو نفسه الهبوط المذكور في الآية الأولى، بحيث إن الأول تعلق بمعنى هو العداوة مع إبليس والاستقرار في الأرض، وكرره هنا من قبيل التأكيد، إضافة إلى تعلق معنى يختص به هنا وهو: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى} الآية، أم أن الهبوط المذكور في الآية الثانية غير الهبوط المذكور في الآية الأولى؟

بعض أهل العلم كالحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: إن الهبوط الأول غير الهبوط الثاني، فالهبوط الأول كان من الجنة، والهبوط الثاني كان من السماء إلى الأرض، مع أن الهبوط الأول قال الله فيه: {وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [(٣٦) سورة البقرة]، وفي الهبوط الثاني قال: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى} [(٣٨) سورة البقرة].

فابن القيم -رحمه الله- بهذا القول جرى على القاعدة المعروفة وهي: أن التأسيس مقدم على التوكيد، بمعنى أنه مهما أمكن أن يحمل اللفظ الآخر المرادف أو المشابه أو المطابق على معنى جديد، فإن ذلك أولى من حمله على نفس المعنى الأول بناء على التأكيد.

فالتأسيس يعني أنك تؤسس معنى جديداً، ولا شك أن ذلك يكثر المعاني القرآنية ودلالتها أكثر من أن يقال: إن ذلك لمجرد التوكيد، فيكون لكل لفظة معنى جديداً يخصها غير المعنى الأول، وهذا هو معنى قاعدة التأسيس مقدم على التوكيد، فابن القيم سار على هذا وإن لم يصرح بالقاعدة.

وعامة أهل العلم لا يتعرضون لمثل هذا في الغالب، وكأنهم يجرون على أن الأمر بالهبوط في الأول هو نفس الأمر بالهبوط في الثاني، أي كله أمر بالهبوط من الجنة، وربما دل على ذلك ظاهر القرآن، وذلك في قوله: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا} [(٣٨) سورة البقرة]، فقوله: {مِنْهَا} يعني من الجنة؛ حيث هي المذكورة في ثنايا الآيات، {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [(٣٥) سورة البقرة]، ثم أمرهم بالهبوط منها، فيكون ذلك عائداً إلى الجنة؛ لأنها المذكورة المصرح بها.

وابن القيم -رحمه الله- ومن وافقه بماذا يعلل قوله، وكيف يرد على هذا الإشكال؟

هو وإن لم يصرح لكنه يستطيع أن يقول: إن الضمير يصح أن يرجع إلى غير مذكور، وإنما يفهم ذلك من السياق، ومثال رجوع الضمير إلى غير مذكور قوله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [(١) سورة القدر]، فالضمير في قوله: {أَنزَلْنَاهُ} يعود إلى القرآن ولم يرد له ذكر في السابق لكنه يفهم من السياق، وأمثلة ذلك كثيرة جداً في القرآن، وهذا يدل على أنه لا شك أن الضمير يرجع إلى غير مذكور، لكن هل هذا هو المراد هنا في قوله تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً} [(٣٨) سورة البقرة]؟

الأصل أن الضمير في قوله: {اهْبِطُواْ مِنْهَا} يرجع إلى ما سبق من ذكر الجنة وسكنى آدم فيها دون السماء، وإن كان القول بأنه الجنة أيضاً يتضمن ما ذكره ابن القيم وزيادة، لأن الجنة هي أصلاً في السماء، فيكون: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا} أي من الجنة التي هي في السماء، لكن ابن القيم -رحمه الله- يريد ما هو أكثر من هذا، وهو أنه تم إخراجه من الجنة -كما في الجملة الأولى- وبقي في السماء وأنه الآن يؤمر بالهبوط من السماء إلى الأرض وليس من الجنة، إلا أن ظاهر الآيات يدل على أن الضمير يعود إلى الجنة في الآيتين، والله أعلم.

قوله: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً} [(٣٨) سورة البقرة]، يعني آدم وإبليس وحواء، هذا هو الراجح من أقوال المفسرين.

وقوله: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٣٨-٣٩) سورة البقرة]، هذا الخطاب موجه لآدم وحواء وما دام آدم نبياً فالأصل أن يكون ذلك الخطاب متوجهاً للذرية، حيث بعث الله لهم الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأنزل عليهم الكتب، وهذا له نظائر في القرآن، حيث يكون الحديث في بدايته عن شخص أو عن معنى أو عن جهة، ثم بعد ذلك تجد طرفه الآخر متحدثاً به عن قضية أخرى، وهذا يسمونه: الموصول لفظاً المفصول معنىً، وله أمثلة، وهو أنواع، فتارة يكون ذلك من قول أكثر من واحد.

ومن أمثلة ذلك: قول الله -عز وجل- في مناظرة إبراهيم المذكورة في سورة الأنعام، لما خوفوه بآلهتهم قال لهم: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ* وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [(٨١-٨٣) سورة الأنعام]، فقوله: {الَّذِينَ آمَنُواْ} هل هو من قول إبراهيم -عليه السلام- أو من قول الله تعالى؟

ظاهر الكلام في تتابعه أنه من كلام إبراهيم، لكن من أهل العلم من يقول: انتهى كلام إبراهيم، فهذا كلام الله -عز وجل- يقرر فيه ما ذكره إبراهيم، وهو أن {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام].

ويقول الله تعالى في قصة يوسف: {قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ* ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [(٥١-٥٢) سورة يوسف]، فقوله تعالى: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} هل هذا من كلام امرأة العزيز، أم هو من كلام يوسف عليه الصلاة والسلام؟

الكلام متصل، وامرأة العزيز هي التي تتحدث، فهل انقطع الكلام وصار الكلام الآن ليوسف: **{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ}** [(٥٢) سورة يوسف]؟.

خذ مثالاً آخر: **{قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}** [(٣٤) سورة النمل]، هذا كلام بلقيس ملكة اليمن، لكن آخر الآية: **{وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}** مع أنه متصل لكنه ليس من كلامها وإنما هو من كلام الله -عز وجل- يقرر ما ذكرَته ويثبته.

المقصود أن هذه صور أو أمثلة للكلام المتصل الذي يكون ظاهره لقائل واحد وهو في الواقع لأكثر من قائل. وهناك صور وأمثلة يكون فيها المُتَحدَّث عنه أكثر من موضوع، أو أكثر من معنى، أو أكثر من جهة، أو أكثر من شخص.

ومن أمثلة ذلك آية الأعراف التي يقول الله فيها: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ}** هذا الجزء من الآية الكلام فيه عن آدم وحواء.

ثم يقول الله تعالى: **{فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}** [(١٨٩) سورة الأعراف].

ثم انظر ماذا يقول بعد ذلك: **{فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ* أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ}** [(١٩٠-١٩١) سورة الأعراف]، هل هذا الكلام عن آدم وحواء، أيصح أن يكون آدم نبياً ويشرك بالله؟

جاءت آثار أنه سمى ولده عبد الحارث، وأن الشيطان جاءهم، وقال لحواء: يخرج له قرن أيل ويشق بطنك، إلى آخر ذلك الكلام الذي لا يظن بآدم -صلى الله عليه وسلم-، وإنما هذا الأسلوب في الكلام هو من المتصل لفظاً المفصول معنىً، وهو من النوع الثاني، حيث بدأ الحديث في الآية الأولى عن آدم وحواء، ثم انتقل الحديث عن الذرية في قوله تعالى: **{فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا}** أي: الأب والأم من الآدميين يقع فيهم من الإشراك أن يجعلا لله شركاء فيما يؤتيهما الله تعالى.

ومما يدل على أن المقصود بذلك ذرية آدم أنه ختم الآية بصيغة الجمع عند تنزيهه لنفسه -سبحانه وتعالى- حيث قال: **{فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}** [(١٩٠) سورة الأعراف]، ثم أرجع ضمير الجمع في استنكاره عليهم فقال: **{أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ}** [(١٩١) سورة الأعراف].

إذن: ليس المقصود في هذا الكلام المتصل آدم وحواء، وإنما هذا الاتصال هو نوع آخر من الكلام المتصل لفظاً المنفصل معنىً، ومثل هذا قوله تعالى: **{قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}** [(٣٨) سورة البقرة].

فالأمر بالهبوط إلى الأرض لآدم وإبليس، وحواء تبع لآدم، وقوله: **{فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}** خطاب لذرية آدم على ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- والله أعلم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(١٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- تعالى في تفسير قوله: {فَمَن تَبِعَ هُدَايَ} [(٣٨) سورة البقرة] "أي: من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل {فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} [(٣٨) سورة البقرة]، أي: في ما يستقبلونه من أمر الآخرة {وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} على ما فاتهم من أمور الدنيا، كما قال تعالى في سورة طه: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} [(١٢٣) سورة طـه]، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة.

{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [(١٢٤) سورة طـه] كما قال هاهنا: {وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٣٩) سورة البقرة] أي: مخلدون فيها لا محيد لهم عنها ولا محيص."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، أما بعد.

ففي قوله تعالى في الآية السابقة: **{فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}** [(٣٧) سورة البقرة]، ينبغي التنبيه إلى أن في هذه الآية قراءتين، القراءة الأولى بضم آدم ونصب كلمات، والقراءة الثانية بعكسها، أي: بنصب آدم وضم كلمات، **{فَتَلَقَّى آدَمَ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٌ}** فيكون آدم -صلى الله عليه وسلم- هو المتلقَّى، ويكون الذي تلقاه هذه الكلمات، وهذا مثال على ما لا يصح الجمع فيه بين القراءات؛ إذ الخلط بين القراءات يصح بثلاثة شروط، ومن أهم هذه الشروط: أن لا تكون إحدى القراءتين مرتبة على الأخرى، هذا أهم شرط.

يعني أستطيع أن أقرأ مثلاً في سورة الفاتحة: **{مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ}** [(٤) سورة الفاتحة]، وأقرأ في الموضع الثاني: **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}** [(٦) سورة الفاتحة]، بالسين: اهدنَا السِراطَ على القراءة الأخرى، فلا إشكال أن أخلط بين القراءات دون أن ألتزم بقراءة واحدة؛ لأن ذلك من القرآن المنزل فلا إشكال لكن بثلاثة شروط، أهم هذه الشروط ما ذكرت.

لكن لو خلطنا هنا بين القراءتين فقلنا: فتلقى آدمُ من ربه كلماتٌ -برفع الموضعين- فإن المعنى يفسد إذ أين يكون المفعول به هنا؟ وكذلك لو قرأنا بنصب الموضعين: فتلقى آدمَ من ربه كلماتٍ يفسد المعنى، إذ أين الفاعل حينئذ؟ فلا يصح أن يخلط بين القراءتين في مثل هذه الصورة.

قوله تعالى: **{وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}** [(٣٦) سورة البقرة]، العدو مصدر وهو مفرد والمراد به الجمع، فالعدو يصدق على الواحد والكثير باعتبار أنه مصدر، فمثل هذا الاستعمال يحمل على معنى الجمع، وهذا كثير في القرآن، سواء كان ذلك بالإفراد من غير إضافة أو مع الإضافة إلى الضمير، أو بالإضافة إلى الاسم الظاهر، أو كان ذلك بالجمع مع الإضافة، وأمثلته كثيرة في كلام العرب أيضاً، فمن أمثلة المفرد في

القرآن من غير إضافة قوله تعالى: {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ} [(٣١) سورة النـــــور]، فهنا يعني الأطفال.

ومثال المفرد المضاف إلى الضمير قوله تعالى: {أَوْ صَدِيقِكُمْ} [(٦١) سورة النـــــور] يعني أو أصدقائكم.

ومثال المضاف إلى الاسم الظاهر قوله تعالى: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ} [(٨٣) سورة النحل]، أي: يعرفون نعم الله.

وفي قول الشاعر:

بها جيف الحسر فأما عظامها فبيض وأما جلدها فصليب

جلد مفرد مضاف إلى الضمير -الهاء- في جلدها، والمعنى: وأما جلودها فيابسة، وهكذا توجد أمثلة كثيرة جداً، وهذا أمر شائع معروف.

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ} [(٤٠-٤١) سورة البقرة].

"يقول تعالى آمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام ومتابعة محمد -عليه من الله أفضل الصلاة والسلام-، ومُهَيجًا لهم بذكر أبيهم إسرائيل، وهو نبي الله يعقوب -عليه السلام- وتقديره: يا بني العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق، كما تقول: يا ابن الكريم افعل كذا، يا ابن الشجاع بارز الأبطال، يا ابن العالم، اطلب العلم ونحو ذلك.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [(٣) سورة الإسراء]."

قوله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} هذا مثال على ما سبق ذكره من الكلام حول المفرد المضاف أنه يفيد الجمع، فالنعمة مفرد مضاف إلى الضمير -الياء- {اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ} والمعنى اذكروا نعمي عليكم، وهذا الخطاب صريح في أنه موجه إلى بني إسرائيل في تذكيرهم بنعم الله -عز وجل-.

بعض أهل العلم -ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- يقول: إن كل ما سبق من الحديث عن خلق آدم، وأمر الملائكة بالسجود له، وإسكانه الجنة، وما أشبه ذلك كل ذلك موجه أيضاً لبني إسرائيل يذكرهم بهذه النعم، وأن الله -عز وجل- أكرمهم بإكرام أبيهم آدم بأن خلقه -سبحانه وتعالى- بيده، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، وما إلى ذلك، فهؤلاء العلماء يرون أن ما سبق هو أيضاً موجه إلى بني إسرائيل، مع أن ظاهر ذلك أنه عام، فالله -عز وجل- يحكي خبر آدم -صلى الله عليه وسلم- ومن ضمن ذلك تذكير للناس بنعمته عليهم، وتحذيرهم من عدوهم إبليس، ثم تحدث بعد ذلك عن بني إسرائيل.

وعلى قول ابن جرير -رحمه الله- إن ذلك شروع في مخاطبة بني إسرائيل وتذكيرهم بنعمه -تبارك وتعالى- عليهم، ثم صرح باسمهم بعد ذلك، وإلا فالكلام معهم بدأ قبل ذلك.

قوله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ}، أي: اذكروا نعمي، فتدخل في ذلك جميع النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، ولا يختص ذلك بنعمة دون نعمة، وبالتالي ما يذكره السلف في تعداد بعض النعم كله داخل في معنى الآية، والله تعالى أعلم، فمن ذلك أنه أنجاهم من آل فرعون، وأغرق فرعون وقومه، ومن ذلك أنه أنزل عليهم المنَّ والسلوى، وأنه اصطفاهم على عالمي زمانهم، وجعل فيهم الأنبياء، وجعلهم ملوكاً،

وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين، وأورثهم مشارق الأرض ومغاربها التي بارك فيها، إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة التي يمتن الله بها على بني إسرائيل.

{اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} أي: اذكروا نعمي باللسان وبالقلب وبالعمل بالجوارح، بالقيام بوظائف العبودية، فهذا كله داخل في معنى قوله: **{اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}**.

هذا الخطاب عن النعم يتوجه إلى الأحياء من بني إسرائيل مع أن تلك النعم التي كانت لهم من إنقاذهم من فرعون، وإنزال المن والسلوى، وجعل الملك فيهم وغير ذلك من النعم التي ذكرها الله تعالى إنما كانت لأجدادهم، فكيف صح مخاطبتهم بذلك مع أنهم لم يدركوا تلك النعم ولم يروها، ولم تحصل لهم وإنما حصلت للأجداد؟

الجواب عن ذلك أن يقال: إن القاعدة أن النعمة التي تكون للآباء تتصل بالأبناء والذرية، وبالنسبة للرزايا فإن ذلك يكون متصلاً بذريتهم إذا كانوا على طريقتهم، ولهذا يقول لهم الله -عز وجل-: **{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}** [(٥٥) سورة البقرة]، مع أن الذين كانوا في زمان النبي -صلى الله عليه وسلم- ما قالوا هذا، لكن لما كانوا على طريقتهم صح أن يوجه إليهم هذا الخطاب، وهكذا في أمثلة كثيرة، وهذا هو الفرق بين المخاطبة بالنعمة وذكر الرزايا التي قارفوها.

"فإسرائيل هو يعقوب؛ بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي عن عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله -صلى الله عليه وسلم- فقال لهم: ((هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب؟)). قالوا: اللهم نعم. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم اشهد))[1].

وروى الطبري عن عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن إسرائيل كقولك: عبد الله."

يقولون: إن إسرائيل هي كلمة أعجمية مركبة، الجزء الأول منها بمعنى عبد، والثاني بمعنى الله، ولهذا يقال: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وما أشبه هذا، وهذا أشهر ما فسرت به، وإلا فقد فسرت بأشياء كثيرة غير هذا، منها قول بعضهم: إن المراد بإسرائيل هو أن يعقوب -صلى الله عليه وسلم- أسر الشيطان، فايل هو الشيطان، وهذا قول غير صحيح.

"وقوله تعالى: {اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} [(٤٠) سورة البقرة] قال مجاهد: نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمى وفيما سِوَى ذلك أن فجر لهم الحجر، وأنزل عليهم المن والسلوى، ونجاهم من عبودية آل فرعون.

وقال أبو العالية: نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل وأنزل عليهم الكتب.

قلت: وهذا كقول موسى -عليه السلام- لهم: {يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ} [(٢٠) سورة المائدة] يعني في زمانهم.

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} أي: بلائي عندكم وعند آبائكم لما كان نجاهم من فرعون وقومه.

1

{وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ} [(٤٠) سورة البقرة] قال: بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي –صلى الله عليه وسلم– إذا جاءكم أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه، بوضع ما كان عليكم من الآصار والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من إحداثكم.

وقال الحسن البصري: هو قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} [(١٢) سورة المائدة]."

لعل أحسن ما يفسر به هذا الموضع من كتاب الله –عز وجل– أن يفسر بالقرآن، {وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ} فعهد الله –عز وجل– مصرح به في هذه الآية: {لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا} [(١٢) سورة المائدة]، ثم بعد ذلك العهد إن وفوا به يكون لهم الجزاء الحسن، {لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} [(١٢) سورة المائدة]، فهذا عهد الله –عز وجل– لبني إسرائيل، والله أعلم.

"وقال آخرون: هو الذي أخذ الله عليهم في التوراة أنه سيبعث من بني إسماعيل نبيًا عظيماً يطيعه جميع الشعوب، والمراد به محمد –صلى الله عليه وسلم– فمن اتبعه غفر الله له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجرين."

هذا داخل في قوله تعالى: {وَآمَنتُم بِرُسُلِي} الذين منهم محمد –صلى الله عليه وسلم– فهذا من العهد الذي أخذ الله عليهم، كما قال الله –عز وجل–: {وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا} [(٨١) سورة آل عمران] فهذا من العهد الذي أخذه الله –عز وجل– على الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– وأمم وأتباع هؤلاء الأنبياء تبع لهم كما هو مصرح به في هذه الآية: {وَآمَنتُم بِرُسُلِي} [(١٢) سورة المائدة].

" وقد أورد الرازي بشارات كثيرة عن الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– بمحمد –صلى الله عليه وسلم–."

الرازي في التفسير الكبير ذكر من الكتب السابقة طائفة من هذه البشارات، وذكر غيرها أيضاً جماعة من المفسرين، فهم حينما يوردون ما ورد في الكتب السابقة من البشارة بمحمد –صلى الله عليه وسلم– يوردونها في هذا المقام، وبعضهم يوردها في مقام آخر، وهو قوله تعالى: {وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [(٦) سورة الصف]، فتجد مثلاً صديق حسن خان في كتاب فتح البيان أورد نماذج كثيرة من كتب بني إسرائيل التي تصرح بمجيء النبي –صلى الله عليه وسلم–.

"وقال أبو العالية: {وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي} [(٤٠) سورة البقرة] قال: عهده إلى عباده: دين الإسلام وأن يتبعوه."

وهذا مثال على ما سبق أيضاً من الكلام على المفرد المضاف والذي يؤديه من معنى، وهو أن المقصود أوفوا بعهودي.

"وقال الضحاك عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: {أُوفِ بِعَهْدِكُمْ} [(٤٠) سورة البقرة] قال: أرْضَ عنكم وأدخلكم الجنة، وكذا قال السدي، والضحاك، وأبو العالية، والربيع بن أنس.

وقوله تعالى: {وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} [(٤٠) سورة البقرة] **أي: فاخشون؛ قاله أبو العالية، والسدي، والربيع بن أنس، وقتادة.**

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} أي: أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النَّقِمَات التي قد عرفتم من المسخ وغيره."

أي أنه يخوفهم، وكل ذلك من التفسير بما يقرب المعنى، وليس ذلك من قبيل التفسير بالمطابق، وإلا فإن الرهبة تفترق عن الخوف في المعنى الزائد أو قل: في المعنى الخادم، وإن كانت تتفق معه في المعنى الأصلي، فالمعنى الأصلي للرهبة هو الخوف كما فسرت به هنا، ولكنها تفترق معه في المعنى التكميلي، فالرهبة نوع من الخوف هي أخص منه، والخوف على مراتب، كما أن المحبة على مراتب، فالخوف منه ما يكون رعباً، ومنه ما يكون من قبيل الرهبة، ومنه ما يكون من قبيل الخشية، فهو في كل مقام بحسبه، فتارة يكون ذلك مع علم بالمخوف منه، فيكون ذلك من قبيل الخشية وتارة يملأ القلب فيضطرب له القلب ويرتجف فيكون ذلك من قبيل الرعب وتارة يكون مع شيء من التعظيم لهذا المخوف.. إلى غير ذلك مما يصاحب الخوف، فيكون له معنىً يخصه.

"وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب، فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول -صلى الله عليه وسلم- والاتعاظ بالقرآن وزواجره، وامتثال أوامره، وتصديق أخباره، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم؛ ولهذا قال: {وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ} [(٤١) سورة البقرة] **يعني به القرآن الذي أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- النبي الأمي العربي بشيرًا ونذيرًا وسراجًا منيرًا مشتملاً على الحق من الله تعالى مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل.**

قال أبو العالية -رحمه الله- في قوله تعالى: {وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ} يقول: يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقًا لما معكم يقول: لأنهم يجدون محمدًا -صلى الله عليه وسلم- مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، وروي عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك."

الكتب التي يذكر فيها مناظرة النصارى، والرد على النصارى تجد فيها نماذج كثيرة من هذه النصوص المنقولة عن كتبهم.

انظر مثلاً في كتاب إظهار الحق للكرواني الهندي -رحمه الله- في مجلدين مطبوع، وهو من أفضل ما كُتب في مجادلة النصارى والرد عليهم، تجد فيه نصوصاً كثيرة نقلها من كتبهم، وقد اعتنى بهذا طائفة من المعاصرين الذين تصدوا للرد على النصارى ومجادلتهم ومناظرتهم، وجمعوا أشياء من هذا.

"وقوله: {وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ} [(٤١) سورة البقرة]**، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ولا تكونوا أول كافر به وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم.**

قال أبو العالية: يقول: {وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ من كفر بمحمد -صلى الله عليه وسلم- يعني من جنسكم أهل الكتاب بعد سماعكم بمبعثه، وكذا قال الحسن، والسدي، والربيع بن أنس."

قوله: **من جنسكم أهل الكتاب،** هو جواب على إشكال مقدر، وهو كيف وصفهم بهذا الوصف **{وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ}** مع أنهم سُبقوا إلى ذلك الكفر؛ إذ إن هذا القرآن أول ما طرق إنما طرق أسماع المشركين في مكة، فكفر من كفر من أهل مكة، فكيف خاطبهم بذلك في هذه السورة المدنية؟

فالجواب: **{وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ}** يعني من أهل الكتاب، فيكونون بذلك قد سنوا سنة سيئة لمن جاء بعدهم ممن هو على دينهم من أهل الكتاب.

ولا شك أن هؤلاء اليهود الذين عاصروا النبي –صلى الله عليه وسلم– أو من جاوروه في المدينة هم أول من طرق سمعهم هذا القرآن من أهل الكتاب، فلما ردوه وكذبوا به، ووصفوا النبي –صلى الله عليه وسلم– بما وصفوه به كان ذلك إغلاقاً لباب القبول، فتتابع أهل الكتاب على ذلك، وصار عامة اليهود لا يدخلون في الإسلام إلا الواحد بعد الواحد، عبر قرون متطاولة.

"واختار ابن جرير أن الضمير في قوله: {بِهِ} عائد على القرآن، الذي تقدم ذكره في قوله: {بِمَا أَنزَلْتُ}."

أي أن القول الأول في قوله **{وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ}**، يعني بمحمد –صلى الله عليه وسلم–، والقول الثاني بالقرآن.

نص الآية: **{وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ}** [(٤١) سورة البقرة]، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– لم يذكر في الآية، فمن قال: إن المراد بقوله: **{وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ}** إنه القرآن ، قال: لأنه هو المحدث عنه في الآية، وهذا هو المتبادر، والذين قالوا: إن المقصود به النبي –صلى الله عليه وسلم– قالوا: هو الذي جاء بالقرآن فكفروا به، وقالوا إنه كذاب مفترٍ على الله –عز وجل–، وأي القولين أرجح؟

القول الأول أرجح، وعلى القول الثاني: إن المراد به النبي –صلى الله عليه وسلم– يكون هذا من قبيل المثال على ما سبق ذكره، وهو عود الضمير على غير مذكور، والله أعلم..

الحافظ ابن كثير –رحمه الله– يقول: يمكن أن يجتمع المعنيان لما بينهما من الملازمة، وسبق الكلام على ذكر قاعدة أن الآية إذا احتملت معنيين فأكثر وأمكن حملها على الجميع من غير معارض فإنها تحمل عليها؛ لأن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعنى الكبير.

ومن صور هذه القاعدة –وهو من أجلى صورها التي يحمل فيها هذا على هذا– أن يكون بين المعنيين ملازمة، ولا شك هنا أنه بين المعنيين ملازمة، فالذي كفر بالقرآن لا شك أنه كفر بمن جاء بالقرآن وهو محمد –صلى الله عليه وسلم–، لأنه إذا قال: هذا القرآن كذب، فالذي جاء به كذلك متصف بالكذب، ولكن حينما تفسر الآية يذكر هذا على سبيل بيان المعنى باللازم، بمعنى أننا لا نفسر به لأول وهلة ونقف عليه، لا نقول: معنى الآية **{وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ}** أي: بمحمد –صلى الله عليه وسلم– فهذا من قبيل التفسير باللازم، وإنما يذكر هذا للحاجة، وإلا فالأصل أن يذكر المعنى الأصلي المتبادر –بالمطابق مثلاً–، فنقول: **{وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ}** أي بالقرآن، ونقول: ولازمه، ولا تكونوا أول كافر بمن جاء بالقرآن؛ لأن من كفر بالقرآن يلزم منه أن يكون كافراً بمن جاء بالقرآن.

والنص القرآني يفسر بجميع أنواع الدلالة، يفسر بالمطابق، وباللازم، وبالتضمن، وبالإشارة، وبالإيماء والتنبيه، فهو كلام حق صدر من عليم حكيم لا يخفى عليه شيء –سبحانه وتعالى–، فيقلَّب الكلام بألوان هذه

الدلالات ويستنبط منه المعاني جميعاً، فإذا جئنا نوجه الآن قول من قال: إن المقصود بالآية محمد -صلى الله عليه وسلم- نقول: هذا مثال على التفسير باللازم، وللعلم فإننا بهذه الطريقة نستطيع أن نوجه عبارات السلف -رضي الله تعالى عنهم- وهذا أفضل من أن نقول: وفي الآية قولان، القول الأول كذا، والقول الثاني كذا، ثم نمضي، فهذا ليس بتفسير، إنما التفسير أن نناقش هذه الأقوال، فنقول: هذا القول محمول على كذا، وهذا القول محمول على كذا، وهكذا نوجه هذه الأقوال أو نختار منها ما هو أرجح، فلا نقول مثلاً: من قال بأنه محمد -صلى الله عليه وسلم- فقوله هذا باطل، بل نقول: هذا تفسير باللازم..

"واختار ابن جرير أن الضمير في قوله: {بِهِ} عائد على القرآن، الذي تقدم ذكره في قوله: {بِمَا أَنزَلْتُ}، وكلا القولين صحيح؛ لأنهما متلازمان؛ لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد -صلى الله عليه وسلم- ومن كفر بمحمد -صلى الله عليه وسلم- فقد كفر بالقرآن."

من الأمثلة للتفسير باللازم قوله تعالى: {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} [(٣) سورة الفلق]، قيل: إن الغاسق الليل وقيل: القمر، والقمر والليل بينهما ملازمة؛ لأن القمر هو آية الليل التي في قوله تعالى: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ} [(١٢) سورة الإسراء]، فإذا ذكر القمر ذكر الليل، وإذا ذكر الليل ذكر القمر.

"وأما قوله: {أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ} فيعني به أول من كفر به من بني إسرائيل؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بَشر كثير، وإنما المراد أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن، فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم.

وقوله تعالى: {وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً} [(٤١) سورة البقرة] يقول: لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية."

في أول السورة قال الله -عز وجل-: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} [(١٦) سورة البقرة]، وقلنا: إنهم ما كانوا يملكون الهدى حتى يشتروا الضلالة، لكن لا يخفى عند من سلمت فطرته وسليقته العربية أن يفهم أن المراد بذلك أنهم استعاضوا بالضلالة عن الهدى.

وقوله: {وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً} [(٤١) سورة البقرة] هذا تعبير دقيق ومعناه لا تعتاضوا أو لا تستبدلوا، والباء تدخل على المتروك، تقول: اشتريت الكتاب بدرهم، فالدرهم هو قيمة الكتاب، واشتريت الكتاب بثوب، كلاهما سلعة، فيكون الباء على الشيء الذي خرج من يدك.

قال بعض الرجاز: أبدلت بالجمة رأساً أزعرا، وبالثنايا الواضحات الدردرا، كما اشترى المسلم إذ تنصرا، أي: استعاض عن الإسلام بالنصرانية ولم يكن نصرانياً قبل ذلك،

وهنا {وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً} أي: لا تعتاضوا عنها، بمعنى أنكم ترتضون الكفر والبقاء على الضلال والانحراف بسبب إحراز الدنيا، وذلك عن طريق ما كانوا يأخذونه من الرشا فيبدلون بذلك أحكام الله -عز وجل- حيث كانوا يجعلونه في قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً منها، كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [(٣٤) سورة التوبة]، فيأكلون أموال الناس بالباطل بصور شتى، ومنها: الرشا التي يأخذونها، إضافة إلى الأموال الأخرى كالسخرة وغير ذلك

مما كانوا يتعاطونه ويفعلونه بهيمنة رجال الدين والكنيسة والرهبان وما إلى ذلك، وتارة يأخذونه على أنه يصرف في أعمال البر، وهم يأخذونه لأنفسهم في الحقيقة، إلى غير ذلك من أكلهم أموال الناس بالباطل.

فقوله تعالى: {وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً} الرشا داخلة فيه، كما أن الثمن القليل لا يشترط أن يكون مالاً، وإنما قد يكون المحافظة على المنزلة والأتباع والمكانة وما أشبه ذلك، واقرءوا ما كتبه الشيخ عبد الرحمن المعلمي –رحمه الله– في أواخر كتاب التنكيل الذي فصل وسمي القائد إلى تصحيح العقائد، ففيه كلام في غاية الجودة عن موانع الهدى، يبين فيه ما الذي يجعل الإنسان يصر على الضلال والانحراف ويبقى شيخ طريقة أو رأساً في البدعة، وذكر أموراً كثيرة جداً، ومما ذكر أن منهم من يكون له في الباطل شهرة ومعيشة فإذا اهتدى ربما فقد شهرته ومعيشته مما قد يؤدي إلى الرجوع إلى حاله الأول إلا أن يكتب الله له الرجوع الصادق إلى الحق.

ومن أمثلة هؤلاء: كبار الصوفية، وشيوخ الرافضة، وأشباههم ممن يأخذون أموال الناس ولهم في ذلك أتباع، ولهم منزلة عند الناس، فمثل هؤلاء إذا أرادوا الرجوع عن الضلال والانحراف يعلمون أنهم سيفقدون هذه الأمور جميعاً من شهرة ومعيشة، فربما بقوا على ما كانوا فيه من الضلال إبقاء على تلك المنازل والأموال ثمناً قليلاً على حساب دينهم.

ومن أمثلة ذلك أن تجد إنساناً موظفاً في وظيفة محرمة، فيصر على الباطل ويبقى على انحرافه، وذلك إبقاء على هذا الثمن القليل؛ لأنه يعلم أنه إن رجع إلى الحق فسيفقد تلك الوظيفة وما تدر عليه من أموال ونحو ذلك.

"وقوله: {وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ} [(٤١) سورة البقرة] روى ابن أبي حاتم عن طلق بن حبيب –رضي الله تعالى عنه–، قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله."

بمعنى أن التقوى ليس معناها أن يترك المرء الحرام لعدم رغبته فيه بطبيعته مثلاً، وليست نفسه مما يطلب ذلك ويشتهيه، أو يترك ذلك خوفاً من الناس أو حياءً منهم، وإنما على نور من الله، ترجو ثواب الله، أو تخاف عقاب الله.

"ومعنى قوله: {وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ} أنه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

{وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ* وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ} [(٤٢-٤٣) سورة البقرة]

يقول تعالى ناهيًا لليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبيس الحق بالباطل وتمويهه به وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل: {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} فنهاهم عن الشيئين معًا، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به؛ ولهذا قال الضحاك، عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ} لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب.

وقال قتادة: {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ} لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام وأنتم تعلمون، أن دين الله الإسلام، وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله، وروي عن الحسن البصري نحو ذلك."

قوله: **أن دين الله الإسلام، وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله:** معنى ذلك في قوله تعالى: **{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** [(٦٧) سورة آل عمران]، فإبراهيم –صلى الله عليه وسلم– وموسى، وعيسى وغيرهم من الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، حاشاهم من ذلك، وإنما كانوا حنفاء على الإسلام.

بعض أهل العلم يستشكل القول بأن هؤلاء يخلطون الحق بالباطل، ويقول: إذا خلط الحق بالباطل صار كله باطلاً فكيف قال: **{وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ}**؟ كما أن هناك استشكالاً مشابهاً في آية أخرى ،عن كلمة لا علاقة لها بالموضوع هنا، وهي قوله تعالى:**{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ}** [(١٠٦) سورة يوسف].

والحقيقة أنه لا إشكال في هذه المعاني إطلاقاً، إذ يمكن أن يجتمع هذا وهذا فيكون الإنسان قد جمع بين الإيمان والكفر، والنفاق والإيمان، والجاهلية والإسلام، ويكون قد جمع بين الحق والباطل؛ فبعض طوائف اليهود أو طوائف النصارى مثلاً منهم من كان يعترف بنبوة محمد –صلى الله عليه وسلم–، بعضهم كانوا يقرون بهذا، ولكنهم يقولون: إنه مبعوث إلى العرب خاصة، ولسنا مخاطبين بذلك، فهذا من لبس الحق بالباطل.

وكذلك حينما يعترفون أنه سيأتي نبي ويذكرون أوصافه فهذا من الحق، ولكن حينما يقولون: إنه ليس بمحمد –صلى الله عليه وسلم–، فهذا من لبس الحق بالباطل، وكذلك حينما كان الواحد منهم يقول لصهره أو لرضيعه أو لقريبه من الأوس أو الخزرج هذا هو النبي الذي بشرنا به، فاثبت على هذا الدين –يعني الإسلام– وهذا حق، ومع ذلك هو كافر بمحمد –صلى الله عليه وسلم– وبما جاء به، ولهذا قال بعده: **{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ}** [(٤٤) سورة البقرة].

فهذا من المعاني الداخلة تحته، يقول: هذا حق اثبت عليه، وهو أبعد الناس عنه، فيمكن أن يجتمع هذا وهذا ويخلط الحق بالباطل، وهذا كثير، وقد شابهتهم هذه الأمة في ذلك كما قال عليه الصلاة والسلام–: ((لتتبعن سنن من كان قبلكم))[2].

إذن: يوجد من يخلط الحق بالباطل، ويلبس على الناس الحق فيجمع بين هذا وهذا، وتجد في الكلام الواحد من اجتماع الحق والباطل الشيء الكثير حتى إن السامع لربما يتحير لهذا القائل ماذا يريد أن يقول، فهو يجمع بين أمور صحيحة وأمور باطلة، وربما كان ذكر الأمور الصحيحة في مقدمة ذلك ومطلعه من أجل الترويض والتهيئة لما سيذكره بعد ذلك من الباطل.

"وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: {وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [(٤٢) سورة البقرة]، أي: لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم في ما تعلمون من الكتب التي بأيديكم."

---

[2] – أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة – باب قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((لتتبعن سنن من كان قبلكم)) (٦٨٨٩) (ج ٦ / ص ٢٦٦٩)، ومسلم في كتاب: العلم – باب: اتباع سنن اليهود والنصارى (٢٦٦٩) (ج ٤ / ص ٢٠٥٤).

هذا من أجلى صور كتمان نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم-، ولكن يدخل فيه أيضاً من الكتمان أشياء أخرى كانوا يكتمونها، كما قال الله -عز وجل-: {وَتُخْفُونَ كَثِيرًا} [(٩١) سورة الأنعام]، ومن ذلك لما سألهم النبي -صلى الله عليه وسلم- عن حد الزنا فأخفوه وذكروا له التحميم، فلما دعا بالتوراة وضع الحبر أصبعه على آية الرجم، وأنكروا أن يكون ذلك في التوراة، وكل هذا من كتمان الحق، فلما قال عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- ما قال، وأمر النبي -عليه الصلاة والسلام- الحبر أن يرفع أصبعه، ماذا قال الحبر؟ قال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فألقمه الله حجراً حيث قال: {قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ} [(٩١) سورة الأنعام].

"قلت: ويجوز أن يكون المعنى: وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس من إضلالهم عن الهدى المفضي بهم إلى النار إن سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لتروّجوه عليهم، والبيان: الإيضاح وعكسه الكتمان وخلط الحق بالباطل."

هذا المعنى الذي ذكره تحتمله الآية، لكن المعنى المتبادر هو أي تقومون بذلك عن علم، ولا يقع ذلك بسبب جهل وخفاء في الحق، وإنما تفعلون ذلك قصداً وعمداً، {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً} [(٧٩) سورة البقرة]، قال: {يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} ليقرر وليثبت هذه الجريمة عليهم، وهذا من أجلى صور التأكيد.

وفي قوله: {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ} [(٤٢) سورة البقرة]، ذكر قضية وهي أنه نهاهم عن أمرين يمكن أن يكون النهي عنهما معاً على قول بعض المفسرين، بمعنى أن الكلام مركب بهذه الطريقة {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ} [(٤٢) سورة البقرة]، يعني نهاهم عن اجتماع الأمرين.

ولا شك أن كل من لبس الحق بالباطل أنه لا بد أن يكون قد كتم الحق، لا بد من هذا إذ بينهما ملازمة، فالحاصل أن بعض أهل العلم يقول: نهاهم عن الأمرين معاً، أي: عن كتمان الحق ولبس الحق بالباطل، {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ}.

وللتوضيح نذكر هذا المثال: لو قلت لشخص: لا تقرأ وتقف، فهل أنت نهيته عن كل واحد من هذين الأمرين على سبيل الاستقلال، بمعنى أنه منهي عن القراءة ومنهي عن الوقوف، أم أنه منهي عن القراءة في حال الوقوف؟

لا شك أنه منهي عن القراءة في حال الوقوف، فهذا بين من السياق، وفي الآية، {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ} [(٤٢) سورة البقرة] هل يوجد أحد يلبس الحق بالباطل، ويكون مع ذلك غير كاتم للحق؟ لا يوجد، ولذلك فالحاصل أن بعض أهل العلم يقول: النهي هنا متوجه لمجموع الأمرين.

لكن إذا قلنا بأن كل واحد أيضاً منهي عنه على سبيل الاستقلال لا تلبسوا الحق بالباطل، ولا تكتموا الحق، ما الإشكال في هذا؟

لا إشكال؛ وبالتالي فعلى الأول يكون: {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ} في حال كونكم كاتمين للحق، فهو نهاهم عن شيئين لا شك، لكن لا ندقق في هذا كثيراً؛ لأننا في الواقع إذا قلنا: نهاهم عن لبس الحق بالباطل فقد نهاهم -ولا بد- عن كتمان الحق؛ لأنهم لا يمكن أن يفعلوا هذا إلا بالكتمان، لذا فهو نهاهم عن الكتمان.

"**{وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ}** [(٤٣) سورة البقرة] **قال مقاتل: قوله تعالى لأهل الكتاب: {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} أمرهم أن يصلوا مع النبي -صلى الله عليه وسلم-.**

{وَآتُواْ الزَّكَاةَ} أمرهم أن يؤتوا الزكاة، أي: يدفعونها إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-.

{وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ} أمرهم أن يركعوا مع الراكعين من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، يقول: كونوا منهم ومعهم.

وقوله تعالى: {وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ} أي: وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم، ومن أخص ذلك وأكمله الصلاة، وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة."

قوله: **{وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ}** سبق الكلام على معنى الإقامة، وأنه إذا أمر بالصلاة أمر بإقامتها، وما معنى الإقامة، ولماذا يجمع بين الصلاة والزكاة كثيراً؟ كل هذا سبق الكلام عنه في أول السورة.

{وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ} [(٤٣) سورة البقرة] الركوع معروف، وهو يطلق على الركوع المعروف في الصلاة، ويطلق أيضاً على السجود، ويطلق على الانحناء، كل ذلك من الركوع، وكذلك يطلق على الخضوع، فتقول: فلان يركع لفلان بمعنى أنه خاضع له.

والمقصود هنا أن الله أمرهم أن يركعوا مع الراكعين، -كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أي: وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم، ومن أخص ذلك وأكمله الصلاة، وهو من أحسن ما تفسر به هذه الآية، والله أعلم.

أي: كونوا مع أهل الإيمان، وشاركوهم في أعمالهم الصالحة الطيبة، ومن أخص ذلك الصلاة المعبر عنها بالركوع، والعبادة قد يعبر عنها بجزء منها كما قال الله -عز وجل-: **{وَقُرْآنَ الْفَجْرِ}** [(٧٨) سورة الإسراء]، يعنى صلاة الفجر أي الفريضة، فعبر عنها بجزء منها شريف، ولا شك أن مثل هذا التعبير يدل على أن ذلك من أركانها، إذا عبر عن العبادة بجزء منها فإن ذلك يدل على منزلة فيها، وأنه ركن من أركانها.

وهذه الآية يستدل بها العلماء كما أشار الحافظ -رحمه الله- على أن صلاة الجماعة واجبة، وهذا الاستدلال في بادئ الأمر ربما يتراءى للإنسان لأول وهلة أنه احتجاج واستدلال قوي، ولكن ماذا يقولون في قوله -تبارك وتعالى-: **{يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}** [(٤٣) سورة آل عمران]، هل هي مأمورة بصلاة الجماعة، مع أنه لم يذكر الركوع فقط وإنما ذكر السجود أيضاً، **{وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}** فلماذا تقولون هنا: هذا ليس أمراً بالجماعة مع أن السياق واحد؟

على كل حال قوله تعالى: **{وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ}** [(٤٣) سورة البقرة] لا يكفي في الاحتجاج على وجوب صلاة الجماعة، ولكننا نأخذ وجوب صلاة الجماعة من أدلة أخرى، مثل همّ النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يحرق على أقوام بيوتهم، وما أشبه ذلك من الأدلة.

"**{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}** [(٤٤) سورة البقرة] **يقول تعالى: كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير أن تنسوا أنفسكم، فلا تأتمرون بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب، وتعلمون ما فيه على من قَصر في أوامر الله؟**

{أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} ما أنتم صانعون بأنفسكم؛ فتنتبهوا من رَقدتكم وتتبصروا من عمايتكم، وهذا كما قال عبد الرزاق عن مَعْمَر، عن قتادة في قوله تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ} قال: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبر ويخالفون، فَعَيّرهم الله، -عز وجل- وكذلك قال السدي.

وقال ابن جريج: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ} أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة، وَيَدَعُونَ العملَ بما يأمرون به الناس، فعيَّرهم الله بذلك، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة.

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ} أي: تتركون أنفسكم {وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} أي: تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعَهْد من التوراة، وتتركون أنفسكم، أي: وأنتم تكفرون بما فيها من عَهْدي إليكم في تصديق رسولي، وتنقضون ميثاقي، وتجحدون ما تعلمون من كتابي.

والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب، -عليه السلام-: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [(٨٨) سورة هود]، فَكُلٌّ من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف."

قوله: **{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ}** الهمزة هنا للإنكار، أي: كيف تأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم، ويدخل فيه كل ما ذكره المفسرون، حيث كانوا يأمرون بعض من يعرفون مثلاً باتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- والثبات على هذا الدين، ثم هم لا يتبعونه -عليه الصلاة والسلام-، وكذلك أيضاً ما كانوا يأمرون به الناس من طاعة الله -عز وجل- وهم أبعد الناس عن ذلك، بفسادهم وارتكابهم للموبقات، وأكلهم لأموال الناس بالباطل، وصدهم عن سبيل الله تعالى بأفعالهم قبل أقوالهم.

وهذه الآية موجهة لبني إسرائيل، ولكنها لا تختص بهم، فإذا كان هؤلاء قد نهوا عن مثل هذا الصنيع، فإن هذه الأمة مخاطبة بذلك من باب أولى، فهذا فعل لا يليق بالعقلاء، فضلاً عن أهل الإيمان، ولذلك قال: **{أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}** [(٤٤) سورة البقرة]، أي: كيف يكون هذا؟ كيف تأمر الناس بشيء وأنت تخالف هذا الشيء، قولك يدلهم عليه وفعلك يصرفهم عنه، بل ينبغي أن تكون كما قال شعيب -صلى الله عليه وسلم-: **{وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ}** [(٨٨) سورة هود]، كذلك عليك أن تتنبه لقوله تعالى:: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ* كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}** [(٢-٣) سورة الصف].

فالإنسان ينبغي عليه أن يجمع بين ما يدعو الناس إليه وبين الامتثال لذلك في نفسه، ولكن كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: إن التبعة لا تسقط على الإنسان إذا كان غير ممتثل في نفسه، لا تسقط عنه تبعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذه الشريعة فيها واجبات كثيرة منها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع، وما أشبه ذلك من بر الوالدين وصلة

الأرحام وغير ذلك، فإذا ترك الإنسان واحداً من هذه الأشياء، فإن ذلك لا يعني أنه يترك الآخر، فإنه يجمع إلى هذا التقصير تقصيراً غيره، فيكون ذلك أحط لمرتبته، وأعظم في الذنب والجرم.

فالأمر بالمعروف واجب، والنهي عن المنكر واجب، فإذا اقتصر الإنسان على الأمر بالمعروف فقط دون النهي عن المنكر يكون قد ترك واجباً، لكنه أفضل من الذي لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، والذي يقتصر فقط في النهي عن المنكرات ولا يأمر بالمعروف يكون قد ترك واجباً، وكذلك من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن هذا قد ترك واجباً، وتركُ الامتثال كذلك.

فالناس على مراتب، منهم من يترك الامتثال، ويترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالكلية، هذه مرتبة، وأحط من هذا من يترك الامتثال وينهى عن المعروف ويأمر بالمنكر، يليها أن يفعل المنكر ويترك المعروف، ويترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذه مرتبة فوق التي قبلها -أعلى منها- وهذا أحسن حالاً من الذي قبله في الانحراف، ثم يأتي بعد ذلك من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولكنه لا يمتثل، ثم يأتي بعد ذلك من يمتثل في نفسه ولكنه لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، ثم الذي أحسن منه حالاً هو من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويكون ممتثلاً في نفسه.

وقضية الامتثال مطلوبة في الجملة ولكن ذلك متعين في الأمور الواجبة والمحرمة، فيجب أن نفرق بين هذه الأمور.

هناك أشياء واجبة وأشياء محرمة، وحدود الله -عز وجل- لا يجوز أن تنتهك، فيجب على الإنسان أن يقف عندها، سواء كان يأمر أو ما يأمر فإذا ضيعها فإن ذلك لا يسوّغ له تضييع واجب آخر، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا من تضييع حدود الله -عز وجل-.

يبقى القدر المستحب من الامتثال فهذا أمر يتفاوت الناس فيه غاية التفاوت وهو لا يجب على الإنسان ابتداءً، ولا يستطيع الإنسان أن يحيط بكل ما جاءت به الشريعة فيعمل هذه الأمور جميعاً، فإذا كان الأمر كذلك فإنه لا غضاضة عليه أن يأمر بلون من ألوان المعروف والطاعة المستحبة وإن كان هو لا يفعل هذا، كالذي يحث الناس مثلاً على لون من العبادة مستحبةً وهو لا يفعلها لسبب أو لآخر، فهو مشتغل بعبادات أخرى، كالذي يحث الناس على إغاثة الملهوف، والقيام على الأرملة واليتيم، وهو لا يفعل هذا، لكنه مشتغل بأمور أخرى من العبادات قد استحوذت على جهده واهتمامه ووقته، فلا يجد وقتاً لمثل هذا.

والذي يحث الناس على أن يعلم الناس الخير وهو لا يعلم الناس بمعنى أنه لا ينتصب للتعليم، فهذا قد لا يكون ملوماً؛ لأنه قد يكون مشغولاً بأمور أخرى أهم من هذا.

فالمستحبات لا يستطيع الإنسان أن يحيط بها، أما الواجبات فيجب عليه أن يلتزم بها، وكذلك عليه أن يترك المحرمات، وبالتالي هذا اللوم يتوجه إلى المفرطين القاعدين عن طاعة الله -عز وجل- المرتكبين لحدوده ومحارمه، لكن هذا التفريط والمعاتبة التي جاءت في حق هؤلاء، لا تعني أن الإنسان يتخلى عن هذه الواجبات جميعاً، ويقول: أنا لن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر لأني أنا غير ممتثل أصلاً، بل التقصير عام عند الجميع، وكل إنسان مقصر، فيجب على الإنسان أن يأمر وينهى وإن كان مقصراً حتى إن بعضهم يقول: يجب على أصحاب الكئوس أن ينهى بعضهم بعضاً، وهذا أمر لا بد منه وإن كان الإنسان غير ممتثل.

"قال الإمام أحمد: عن أبي وائل، قال: قيل لأسامة -رضي الله تعالى عنه- -وأنا رديفه-: ألا تكلم عثمان -رضي الله تعالى عنه-؟ فقال: إنكم تُرَون أني لا أكلمه إلا أُسْمِعكم، إني لأكلمه فيما بيني وبينه دون أن أفتتح أمرًا لا أحب أن أكون أول من افتتحه."

هؤلاء الناس يقولون لأسامة -رضي الله عنه- لأن عثمان بن عفان كان يقربه، كما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقربه ويدنيه، يقولون: ألا تكلم عثمان بن عفان يعني في أمور أخذوها عليه -رضي الله تعالى عنه-، يعني ألا تنصح عثمان.

فأسامة -رضي الله عنه- يبين لهم أنه قد فعل، وقد قام بهذا الواجب ونصحه، وبين لهم أن نصحه له لا يعني تعيير عثمان بذلك وأن هذا النصح لا بد من إظهاره للآخرين، فإن النصح يختص بعثمان -رضي الله عنه- وقد حصل، فهو يقول: هل تريدون مني إذا نصحت عثمان أن آتي وأشنع عندكم وأقول قلت له كذا، وأجابني بكذا، إلى آخره.

المقصود أنه يقول: قد نصحته، هل تريدون أن أخبركم عن ذلك؟! هل تريدون أن أظهر لكم ذلك؟! إذ لو كانت النصيحة بهذه الطريقة لصارت فضيحة، وليست نصيحة، وهذا هو الفرق بين النصيحة والفضيحة.

إلا أن هذا الفرق لا يعتد به في عموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمنكرات الظاهرة يجب أن تنكر علناً؛ إذ ما ظهر علناً يجب أن ينكر علناً، إلا إذا ترتب على ذلك مفسدة أعظم، فلا يصح الاحتجاج بمثل هذا وتقرير قواعد منه غير صحيحة، وإلزام الناس بها، وامتحانهم بذلك، فإن ذلك كما هو ظاهر إنما هو في النصيحة، فالنصيحة لا تكون تعييراً، ولا تكون تشهيراً، فإذا نصح الإنسان يحتسب ذلك عند الله -عز وجل-، ويرجو الإصلاح بهذا النصح، ولا يأتي بعد أن ينصح فيشنع بهذه النصيحة، أو يتخذ من هذه النصيحة سبباً لنفوقه عند الناس أو لشجاعته وبطولته، وأنه نصح الخليفة وقال له، ورد عليه، وأجابه، لا، بل هذه بينك وبينه، ،أنت نصحته تريد أجرك من الله -عز وجل-، فهذا يختلف عن قضية إنكار المنكر الظاهر، فلذلك علينا أن نجمع بين النصوص ولا نقف عند نص واحد.

في حديث أبي سعيد الخدري لما أراد مروان أن يخطب قبل صلاة العيد أخذه أبو سعيد بثوبه أمام الناس، وقال له: الصلاة أولاً، وكذلك قصة ابن عمر مع الحجاج وهو على المنبر أمام الناس، رد عليه بمحضر الناس في صلاة الجمعة.

وهذا الأسلوب في النصيحة يصح إذا لم يترتب عليه فتنة أو مفسدة أعظم، فالمنكر الظاهر يجب أن ينكر ويعرف الناس هذا الإنكار حتى لا يلتبس عليهم الحق بالباطل، وحتى لا يأتي ملبس بعد مدة ويقول: الشيخ الفلاني رأيته جالس والعمل الفلاني يُفعل ولم ينكره، فهذا يدل على الجواز، وهذا كثيرا ما نسمعه يُردد من بعض من يتكلم وهو ليس بأهل أن يتكلم ويقول على الله -عز وجل- بغير علم، فلذلك لا بد أن نفرق بين هذه المقامات، والنصوص يجب أن تجمع جميعاً ثم بعد ذلك يستخرج منها الأحكام، فلا يقتصر على بعضها أو يكون ذلك بطريقة انتقائية، فإنما يحصل ذلك الخلط بسبب الجهل بالنصوص الأخرى وليس بسبب الهوى.

"فقال: إنكم تُرَون أني لا أكلمه إلا أُسْمِعكم، إني لأكلمه فيما بيني وبينه دون أن أفتتح أمرًا لا أحب أن أكون أول من افتتحه، والله لا أقول لرجل إنك خير الناس وإن كان عليّ أميرًا بعد أن سمعت رسول الله -صلى

الله عليه وسلم- يقول، قالوا: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: ((يُجَاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق به أقتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهلُ النار، فيقولون: يا فلان ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه))[3] [ورواه البخاري ومسلم]."

هذا الوعيد لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ولم يمتثل، فما ظنكم بمن لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر، ولم يمتثل ألا يكون أشد عقوبة من هذا؟ فما ظنكم بمن ينهى عن المعروف ويأمر بالمنكر ولا يمتثل، ولا يرفع لهذه الأمور رأساً؟!

وهنا تنبيه وهو أن مثل هذه الآية وهذا الحديث قد يكون سبباً لقعود بعض الناس عن هذا الواجب، وهذا خطأ، وإنما ينبغي للإنسان أن يتقي الله -عز وجل- في نفسه وأن يأمر وينهى قدر استطاعته، ولا يتحمل من البلاء ما لا يطيق، ولا يدخل في أمر لا يعرف المخرج منه، وكما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي إسناده حسن: ((لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه)) فسئل عن هذا، فقال: ((يتعرض من البلاء ما لا يطيق))[4].

فمن الناس من يتكلم بقوة، ويعجب به كثير من الناس، ثم بعد ذلك يبتلى فينقلب رأساً على عقب، فيقال: ليتك ثم ليتك ما تكلمت، ولا أمرت، ولا نهيت، وهذا كثير، ولو فتشت في حال كثير من الناس اليوم ستجد أنه كان في يوم من الأيام في الجهة المقابلة تماماً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

"وقال إبراهيم النخعي: إني لأكره القصص لثلاث آيات، قوله تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ} [(٤٤) سورة البقرة].

وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ* كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [(٢-٣) سورة الصف].

وقوله إخباراً عن شعيب: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [(٨٨) سورة هود]."

المقصود بالقصص هنا وعظ الناس وتذكير الناس بجذبهم وترقيق قلوبهم، وتذكيرهم بحيث يغلب على ذلك بإيراد الأخبار والقصص، والحكايات مع شيء من الوعظ، فيقال: قصص، ويقال: القُصَّاص، وقد جاء عن جماعة من أهل العلم ذم ذلك ومن يقوم به ويتعاطاه، وجاء عن الحسن الثناء عليه، وبهذا نعرف الفرق متى يكون المدح ومتى يكون الذم، فالذم للقَصّاص الذي يريد شد أسماع الناس والتأثير عليهم، والتكثر منهم، ولفت أنظارهم ولو باختلاق القصص أو إيراد ما هب ودب ودرج من غير تحقق ولا تثبت، فيورد القصص المختلقة المكذوبة، وكل ذلك فقط من أجل أن يعرض مادة على هؤلاء الناس تشد انتباههم وتستهويهم أو

---

3 - أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق - باب: صفة النار وأنها مخلوقة (٣٠٩٤) (ج ٣ / ص ١١٩١) ومسلم في كتاب: الزهد والرقائق - باب: عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله (٢٩٨٩) (ج ٤ / ص ٢٢٩٠).

4- أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن - باب: ما جاء في النهي عن سب الرياح (٢٢٥٤) (ج ٤ / ص ٥٢٢)، وابن ماجه في كتاب: الفتن - باب قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ} [(١٠٥) سورة المائدة] (٤٠١٦) (ج ٢ / ص ١٣٣٢)، وأحمد (ج ٥ / ص ٤٠٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٧٩٧).

ترقق قلوبهم أو ما أشبه ذلك ولو باختلاق الكذب فهذا هو المذموم، وأما من يتحرى الصدق ويتثبت وينقل الأشياء الصحيحة ونحو ذلك فهذا لا إشكال فيه، وهو الذي أثنى عليه الحسن -رحمه الله-، والله -عز وجل- جعل لكل شيء قدراً، والناس وزع الله بينهم هذه المواهب والهمم، وصار منهم من يشتغل بهذا، ومنهم من يشتغل بهذا، فينفع الله بهذا وهذا وهذا، وقد يكون هذا لا يحسن هذا، ولم يفتح عليه فيه، وهذا لم يحسن هذا، ولم يفتح عليه فيه، وهكذا.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٢٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ* الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [(٤٥-٤٦) سورة البقرة].

"يقول تعالى آمرًا عبيده فيما يؤمّلون من خير الدنيا والآخرة، بالاستعانة بالصبر والصلاة، كما قال مقاتل ابن حَيَّان في تفسير هذه الآية: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض، والصلاة، فأما الصبر فقيل: إنه الصيام، نص عليه مجاهد.

قال القرطبي وغيره: ولهذا يسمى رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث.

وقيل: المراد بالصبر الكف عن المعاصي؛ ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها: فعل الصلاة.

روى ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب، -رضي الله تعالى عنه- قال: الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله.

قال: وروي عن الحسن البصري نحو قول عمر -رضي الله تعالى عنه-."

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقوله تعالى: **{وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ}** هذا خطاب لبني إسرائيل كما هو ظاهر من هذه الآيات، كما أن السياق يدل على ذلك.

ومعنى **{وَاسْتَعِينُواْ}** السين والتاء للطلب، أي اطلبوا العون بالصبر والصلاة.

والمعاني التي ذكرها في الصبر وكذلك ما لم يذكره كثير منها يدخل في معناه العام، فالصبر أصله بمعنى الحبس، تقول: صبرت نفسي على كذا، بمعنى حبستها على كذا.

فصبرت عارفة بذلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع

والمعنى أنها ثبتت فحبسها عن الفرار في ساحة القتال.

فحبس النفس على طاعة الله -عز وجل- بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وحبس النفس عن التسخط والجزع، كل ذلك من الصبر، الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، و الصبر على أقدار الله المؤلمة، فكل أمر شاق على النفوس مما يتصل بالتروك أو كان من جهة المأمورات فإنه بحاجة إلى صبر، فالله -عز وجل- نهى عن أشياء ومنها التسخط والجزع عند المصائب، وعلى هذا فالإنسان مأمور بأن يصبر؛ لأن النفس تدعوه إلى ما جبلت عليه من الضعف والميل إلى رغباتها ومطلوباتها، فالمدافعة والحبس والمنع عن ذلك يحتاج إلى جهد، فهذا صبر، وكذلك فعل المأمورات يحتاج إلى مجاهدة، ويحتاج إلى عمل من العبد كي

يحمل نفسه على هذه الطاعة وهذا المأمور، وإلا فإن النفس تدعوه إلى الإخلاد والراحة، ومن هنا كان بحاجة إلى الصبر.

ولذا يمكن أن يقال بصفة عامة: إن الصبر هو الثبات على طاعة الله -عز وجل- بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فالصبر على الأقدار المؤلمة بهذا الاعتبار داخل في الأمرين، فالله -عز وجل- أمر العبد عند المصيبة بأمور ونهاه عن أمور، فلهذا هو يحتاج إلى حبس للنفس.

ولا شك أن كل مطلوب ترتفع به النفس فهو بحاجة إلى صبر حتى في المطالب الدنيوية، فلا يمكن أن يرتفع الإنسان ويرتقي لا في علم ولا في عمل إلا بالصبر.

وليس هناك شيء لا يحتاج إلى الصبر إلا التوافه والدنايا والشهوات، بل حتى هذه الأمور ليس في كل أحوالها لا تحتاج إلى صبر فأحياناً لا يحصلها الإنسان إلا بشيء من الصبر، فلا يكاد ينفك عن الصبر أمر من الأمور.

فالله -عز وجل- يقول: **{وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ}** ومن فسر الصبر بالصوم، باعتبار أن الصوم متعلق بالصبر، وأن رمضان هو شهر الصبر فليس بظاهر، وإنما الأقرب أن يفسر الصبر بمعناه الظاهر المتبادر المعروف من كلام العرب، فإذا أطلق الصبر فهو معروف، فلا يلجأ إلى معنىً آخر من غير دليل.

"وأما قوله: {وَالصَّلاَةِ} فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر، كما قال تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} [(٤٥) سورة العنكبوت] الآية."

وجه تعلق الصلاة بالصبر يمكن أن يقال فيه -والله تعالى أعلم- إن الصلاة عبادة يقرأ فيها القرآن في أعظم الأحوال، وذلك حينما يكلم العبد ربه في صلاته، فقراءة القرآن في الصلاة أعظم من قراءة القرآن خارج الصلاة، والقرآن يأمره بالصبر، ويروض نفسه على الطاعة، أضف إلى ذلك أن الصلاة من أعظم ما يروض النفوس، إذ إن النفس فيها تطمئن، ويحصل لها ما يحصل من السكينة، والخضوع، والخشوع، والإخبات، والتواضع، وهذه الصلاة التي تؤثر هذا التأثير ليست أي صلاة، وإنما هي الصلاة التي تقام، **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ}** وليست الصلاة التي تؤدى، وإقامة الصلاة ذكّرنا مرراً بأن المقصود به: أن يأتي بها مستوفية لأركانها وشروطها وواجباتها بخشوعها، وسننها وما إلى ذلك، وعلى قدر إقام الصلاة يكون قدر التأثير.

{إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ} [(٤٥) سورة العنكبوت] ذكرنا مراراً أن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته، وينقص بنقصانه، فالحكم هنا: **{إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ}** هذه النتيجة، والوصف هو قوله: **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ}** فنهيها عن الفحشاء والمنكر مرتب على هذا الوصف الذي هو إقامتها، والحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فعلى قدر إقامة الإنسان للصلاة على قدر ما تؤثر فيه، فيتفاوت الناس بذلك تفاوتاً عظيماً، فهذه الصلاة التي يحصل بها هذا الخضوع وتذليل الجبهة والوجه وهي أشرف الأشياء، فتستوي مع القدمين في حال السجود، إلى غير ذلك مما يفعله ويقوله الإنسان حينما يمد عنقه وينحني في الركوع في حال يقول فيها: سبحان ربي العظيم، وهو في غاية الذل، فإذا صار في أسفل شيء يقول: سبحان ربي الأعلى، كل ذلك يؤثر في هذه النفس فتُخبت وتستكين، ومن ثم فإن ذلك أدعى وأعون للإنسان على أن يطمئن في أموره كلها عند المصائب، ويكون ذلك دافعاً له على زَمِّ النفس وخطمها وتثبيتها

على طاعة الله -عز وجل- وعن معصيته، فتنقاد له نفسه هينة سهلة، وهذا أمر مشاهد في المصلين إذ إنهم أقل من غيرهم من ناحية الانفلات والتمرد على الله -عز وجل-، ومحادّته بالمعاصي والموبقات، وليست هذه تزكية مطلقة للمصلين وإنما المراد أنهم أقل حالاً في التفلت ممن لا يصلون، وقد يحصل منهم ما يحصل من غيرهم، لكن الذي لا يصلي تتوقع منه أي شيء، ولا تدري ما الذي يأتيك منه، لكن إذا قيل لك: فلان يصلي حتى الفجر في المسجد، فهذا مؤشر أن هذا الإنسان يرجى منه خير كثير، ففيه خير كثير، تطمئن إليه ابتداءً، ثم بعد ذلك تحتاج أن تعرف بعض أحواله إن كان لك حاجة بهذا، لكن إذا قيل لك: لا يدخل المسجد، فإنك مباشرة تنقبض؛ لأن هذا لا تدري ما الذي يأتيك منه؛ لأن إنساناً لا يدخل المسجد إن زوجته فلا تدري كيف يصنع؛ إذ ربما كان القرب منه سبباً لكل كارثة، فنفسه غير مروضة، وإنما هي نفس منفلتة، لا ترعوي عن شيء إلا أن يكون الخوف من الناس أو نحو ذلك، فالمقصود أنه لا بد من الاستعانة بالصبر والصلاة على هذه الأمور جميعاً.

والخطاب وإن كان لبني إسرائيل إلا أن ذلك يشمل غيرهم بالضرورة؛ لأن هذه الأمور هي قضايا أخبر الله عنها أنها تؤثر هذا التأثير، وطالبهم بها، فنحن أيضاً مطالبون بذلك.

على أي شيء نستعين بالصبر والصلاة؟:

نستعين بالصبر والصلاة على تذليل المصاعب والمشاق في أمورنا الدنيوية والأخروية، ومن ذلك المشاق التي تواجهنا عند أداء العبادة، والمشاق التي تحصل بسبب فطم النفس عن الشهوات، والمشاق التي تحصل بترويض النفس عند المصيبة على حال يرضاها الله -عز وجل- من الصبر أو الشكر أو الرضى -والرضى بين الشكر والصبر- فكل ذلك يُحتاج إليه.

ومن ذلك -خاصة وأن الخطاب موجه لبني إسرائيل- فطم النفس عن مطلوباتها من تحصيل الرئاسات والعلو في الأرض، والترفع على الخلق، وهذه من أعظم الشهوات، فقد يستطيع الإنسان أن يقوم الليل ويصوم النهار، ومع ذلك إذا نوزع الرئاسة كشر عن أنيابه واستمات، وربما باع دينه من أجل هذه الرئاسات وقال على الله -عز وجل- الكذب، والإفك والباطل والزور، وكل ذلك من أجل تحصيل رئاسة يطلبها، أو من أجل تثبيت رئاسته، وهذا الأمر أكثر من يحتاج إليه أهل العلم، فهم أكثر الناس حاجة إلى مثل هذا، ولذلك لا بد من أن تطهر النفس وتزكى من الحسد ومن التطلع إلى ما عند الآخرين.

إنك تجد الناس ربما يحصل لهم حث على العلم وعلى طلب العلم، ويفرحون بطالب العلم إذا نشأ، فإذا برز وتميز ربما رماه بعضهم، ونصب نفسه عدواً له، وحاول أن يغمطه حقه، وتمنى زوال هذا الإنسان، مع أن هذا الإنسان قد لا يعرفه ولم يسيء إليه، ولم يجد منه أي تقصير في حقه، ولكن النفس تشتعل بالحسد والغيرة التي تدعو إلى فعل كل قبيح من غيبة وحسد ونحو ذلك من أمراض القلوب، وكلام أهل العلم كثير جداً في هذا الموضوع وفيه بيان كيف أن النفس تحتاج إلى مجاهدة كبيرة لفطمها عن هذه الأمراض الخبيثة، وبالتالي ينبغي للمرء أن يستعين على ذلك بالصبر والصلاة.

"والضمير في قوله: {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ} [(٤٥) سورة البقرة] عائد إلى الصلاة، نص عليه مجاهد، واختاره ابن جرير.

ويحتمل أن يكون عائداً على ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك، كقوله تعالى في قصة قارون: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [(٨٠) سورة القصص]، وقال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [(٣٤-٣٥) سورة فصلت] أي: وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا، {وَمَا يُلَقَّاهَا} أي: يؤتاها ويلهمها {إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}."

قوله: {وَمَا يُلَقَّاهَا}: يعني هذه الخصلة أو الوصية، ومثل ذلك قوله: {وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [(٨٠) سورة القصص].

وقوله تعالى: {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ} [(٤٥) سورة البقرة] القول بأن الضمير يرجع إلى الصلاة، هذا باعتبار القاعدة المعروفة وهي أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، فيكون المعنى: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا} أي الصلاة.

ومن قال: إن الضمير يرجع إلى ذلك جميعا، فسره بمعنى {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ} أي: الوصية المذكورة، فالهاء هنا للتأنيث فيرجع إلى معنى الوصية المذكورة بالأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة.

وعلى كل حال لا إشكال بأن يقال: إنه يرجع إلى الأمرين من حيث ما جرى استعماله في القرآن وفي لغة العرب إذا كان مراداً بذلك مجموع الأمرين -الصبر والصلاة- وهذا له أمثلة كثيرة، فتارة يرجع الضمير إلى أحد المذكورين باعتبار أن الآخر يدخل فيه، وتارة باعتبار أنه الأهم، أي يرجع إلى الأهم والمقصود الأعظم، ومن أمثلة ذلك: لما أمر الله بطاعته وطاعة رسوله، ثم أعاد الضمير، أعاده إليه، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ} [(٢٠) سورة الأنفال]، والأصل أن يقال: ولا تولوا عنهما، فهذا باعتبار أن طاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- داخلة في طاعة الله، فهذا مثال على الأول،أي: أن يكون الثاني داخلاً في الأول.

وتارة لأنه الأهم مثل قول الله -عز وجل- في توليهم عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يخطب يوم الجمعة: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا} [(١١) سورة الجمعة]، فهو ذكر قضيتين، {تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا} ثم قال: {انفَضُّوا إِلَيْهَا} فهذا كما سبق يمكن أن يقال: إنه رجع إلى التجارة؛ لأنها هي المقصودة، وليس اللهو هو المقصود، وإنما اللهو -وهو الطبل على هذا التفسير- كان يضرب به بين يدي القافلة إيذاناً بقدومها، وهذا قبل أن تحرم المعازف، وعموماً فالقافلة أصلاً لدحية الكلبي قبل إسلامه، فأعاد الضمير إلى أحد المذكورين، قبل؛ لأنه هو المقصود، وهو الأهم.

ومنه قول حسان -رضي الله عنه-:

إن شرخ الشباب والشعر الأسود ... ما لم يعاصَ كان جنوناً

الأصل أن يقول: ما لم يعاصيا، فأرجع الضمير إلى أحدهما فقال: ما لم يعاصَ كان جنوناً، وهذا كثير جداً.

"وعلى كل تقدير، فقوله تعالى: {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ} أي: مشقة ثقيلة إلا على الخاشعين.

قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يعني المصدّقين بما أنزل الله."

معاني الخشوع ترجع إلى معنى التطامن، إذا قلت: أرض خاشعة فإنه يصدق عليها هذا المعنى، وهكذا في كل استعمالاته يرجع إلى معنى التطامن.

وكلام أهل العلم فيه كثير جداً، لكنه معنىً يلتئم من الذل والانكسار والمحبة مع التعظيم، تجتمع هذه المعاني فيه، ولهذا يفسره بعضهم بأنه لين القلب ورقته وخضوعه وانكساره، وكثير من الألفاظ قد لا يمكن تفسيرها بلفظ واحد، تقول: كذا هو كذا، إلا إذا أردت ما يقرب من معناه أو تفسير اللفظ بنوع من أنواعه أو بجزء معناه، فتقول: الخشوع هو التطامن أو التواضع، لكن هذا التفسير لا يكفي، فهو ليس مجرد التطامن، وإنما يكون مع الخضوع والذل والانكسار والمحبة والتعظيم، فإذا اجتمعت هذه في القلب مع لينه ورقته قيل له: الخشوع، ويظهر أثر ذلك على الجوارح؛ لأن أصل الخشوع في القلب، فما يقال عن الخشوع الذي يكون في الجوارح إنما هو أثر من آثاره، والله أعلم.

لذلك لما وصف الله الأرض، وصفها بقوله: **{خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ}** [(٣٩) سورة فصلت] ففيها معنى التطامن، فإذا جاءها المطر انتفخت وارتفعت بالنبات، والله أعلم.

"وقوله تعالى: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [(٤٦) سورة البقرة] هذا من تمام الكلام الذي قبله، أي: وإن الصلاة أو الوَصَاة لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم، أي: يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة، معروضون عليه.

{وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، أي: أمورهم راجعة إلى مشيئته، يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سَهُل عليهم فعلُ الطاعات وترك المنكرات.

فأما قوله: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ} قال ابن جرير -رحمه الله-: العرب قد تسمي اليقين ظناً، والشك ظناً نظير تسميتهم الظلمة سُدْفة، والضياء سُدفة، والمغيث صارخاً، والمستغيث صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمى بها الشيء وضدّه، ومنه قول الله تعالى: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا} [(٥٣) سورة الكهف]."

يعني أن هذا من أنواع المشترك؛ لأن المشترك تارة تدخل فيه معان متناقضة، وتارة معان متضادة، وتارة متباينة، فهذه الأنواع الثلاثة كلها تدخل في المشترك.

هنا **{الَّذِينَ يَظُنُّونَ}** يدخل فيه اليقين، ويدخل فيه أيضاً الظن المعروف وهو الرجحان، أي: رجحان أحد الطرفين؛ لأن القسمة رباعية، فأعلى ذلك اليقين، وهو الذي لا يكون معه شك أو تردد، ثم يلي ذلك الرجحان -الطرف الراجح- وذلك أن يظن ظناً غالباً، يغلب على ظنه، فيقال له: ظن، ويليه الشك، وهو أن يستوي الطرفان بحيث لا يترجح عنده شيء، ثم يأتي بعد ذلك الوهم، فهذه هي القسمة الرباعية.

والوهم هو الطرف المرجوح، فلو قلت لك: ما حكم الصلاة على الحرير؟

إذا كان عندك يقين في الحكم فهذا يقين، وإذا كان عندك ظن راجح تقول: أظنه محرم، وإذا نظرت إلى الطرف المرجوح، بمعنى أن عندك نسبة عشرة بالمائة أنه يجوز فإن الالتفات إلى هذا إنما هو التفات إلى الوهم، وإذا كانت القضية مستوية عندك فهذا هو الشك.

وظن ووهم وشك محتمل لراجح أو ضده أو ما اعتدل

هذه التقسيمات عند أهل المنطق، وهي موجودة في كتب الأصول، والبيت الذي ذكرته من مراقي السعود.

وفي اللغة يطلق الظن على العلم، كما قال الشاعر:

فقلت ظُنوا بألفي مدجج سراتهم في الفارسي المسرج

فقوله: ظنوا بألفي مدجج يعني: أيقنوا، فهو يهددهم بالجيش، فيقول لهم: أيقنوا بأني سأوصل لكم ألفي مدجج بالسلاح، فالظن يأتي في اللغة بمعنى اليقين، وهذا جاء في القرآن في أول سورة البقرة: **{الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}** [(٤٦) سورة البقرة]، وكذلك في قوله في الآية الأخرى: **{الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ}** [(٢٤٩) سورة البقرة]. فهذا لا شك أن المقصود به اليقين؛ لأن الظن في مثل هذه الأمور لا يغني شيئاً.

كما أن الظن يطلق في لغة العرب على الطرف الراجح، وهو أكثر استعمال كثير من أهل العلم والفقهاء وغير ذلك، وغالب الاستعمال في كلام الناس أن الظن هو الطرف الراجح، وقد جاء استعماله في الطرف المرجوح أو الشك أو الوهم، وذلك في مثل قوله تعالى على سبيل الذم: **{إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ}** [(١١٦) سورة الأنعام]، فليس المقصود به هنا الطرف الراجح ولا اليقين وإنما المقصود التخرص والتقول بلا علم ولا بصيرة ولا هدى، فمثل هذا يقال له أيضاً: ظن، فإذا رأيت الظن في القرآن في سياق الذم فليس المقصود به اليقين، ولا الطرف الراجح، وإنما المقصود به التخرص، واتباع الأوهام وما أشبه ذلك.

فهنا **{الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم}** أي: يوقنون أنهم ملاقوا ربهم.

وكذلك قوله تعالى: **{وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا}** [(٥٣) سورة الكهف]، أي أيقنوا أنهم داخلون فيها، فهذه قضية لا تحتمل معنىً آخر.

"**قلت: وفي الصحيح: ((أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وترتع؟ فيقول: بلى، فيقول الله تعالى: أظننت أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا. فيقول الله: اليوم أنساك كما نسيتني))**[1]".

قوله: **((أظننت))**: يعني أعلمت أنك ملاقيَّ، والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة (٢٩٦٨) (ج ٤ / ص ٢٢٧٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٢١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-: "{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [(٤٧) سورة البقرة]، يذكرهم تعالى بسَالفَ نعمه على آبائهم وأسلافهم، وما كان فَضَّلهم به من إرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم على سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: {وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [(٣٢) سورة الدخان]، وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ} [(٢٠) سورة المائدة].

قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية، في قوله تعالى: {وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [(٤٧) سورة البقرة] قال: بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان؛ فإن لكل زمان عالَماً، ورُوي عن مجاهد، والربيع بن أنس، وقتادة، وإسماعيل بن أبي خالد نحوُ ذلك."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل- في تعداده لنعمه على بني إسرائيل: **{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}** [(٤٧) سورة البقرة]، **{اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ}** أي: استحضروها في قلوبكم والهجوا بها في ألسنتكم، واذكروها بأعمالكم وجوارحكم؛ شكراً لله -عز وجل-، وعرفنا أن قوله: **{نِعْمَتِيَ}** مفرد مضاف يفيد العموم، بمعنى اذكروا نعمي التي أنعمت عليكم.

ومن هذه النعم أنه فضلهم على العالمين: **{وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}** [(٤٧) سورة البقرة]، والعالمين أحسن ما يفسر به هو قوله تعالى: **{قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}** [(٢٣) سورة الشعراء]، فأجابه موسى قائلاً: **{رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}** [(٧) سورة الدخان]، فهذا هو الذي يفسر به، والمراد به هنا يفهم مع غيره من نصوص الآيات والأحاديث.

من أهل العلم من قال: **{فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}** أي: على الجم الغفير من الناس، فإن الجم الغفير من الناس يقال لهم: عالَم، تقول: رأيت عالَماً عند فلان، وتقول: يوجد في مكة عالَم من الناس، أو عوالم من الناس، يعني أناس كثير، وتقول: رأيت في السوق عالَماً من الناس، فهذا لا إشكال فيه، وسواء قيدته بالناس أو لم تقيده، ولكن يمكن أن يقال هنا: ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ونقله أيضاً عن غيره وهو الذي عليه كثير من أهل العلم، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- أن المقصود بقوله: **{عَلَى الْعَالَمِينَ}** أي في زمانهم؛ لأنه لم يكن لبني إسرائيل انفراد في ذلك الزمان في الوجود، أي: لم يكن هؤلاء هم الذين يمثلون الناس فقط، كان يوجد القبط وغير القبط من الأمم من الرومان وغيرهم، ففضل الله -عز وجل- بني إسرائيل، وهم أقلية في ذلك الزمان بالنسبة للأمم الأخرى، ويكفيك قولهم عن العماليق حينما قيل لهم: **{ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ}** [(٢١) سورة المائدة]، فقالوا: **{إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ}** [(٢٢) سورة

المائدة]، فهم يرون أن هؤلاء أقوى منهم وأعظم خلقة وبأساً، فالتفضيل هنا على العالمين أي على عالم زمانهم فقط، حيث اختارهم الله -عز وجل- على الناس في ذلك الوقت، وليس ذلك على جميع العالم إلى قيام الساعة؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم، بدلالة النصوص الصريحة على ذلك، كقوله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} [(٣٢) سورة فاطر]، والاصطفاء والاجتباء لا يمكن إلا أن يكون لمن فضلوا على غيرهم.

وكذلك قوله -تبارك وتعالى-: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [(١١٠) سورة آل عمران]، يقول أبو هريرة -رضي الله عنه- كما جاء في الأثر: "خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام"[1].

والنصوص الدالة على تفضيل هذه الأمة كثيرة، أضف إلى ذلك النصوص الأخرى التي تدل على طرد بني إسرائيل، ولعنهم وإقصائهم، كقوله تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [(٧٨) سورة المائدة]، وكذلك ما ذمهم الله به وأوقع بهم من نقمته كقوله: {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا} [(١٦٨) سورة الأعراف]، إلى غير ذلك مما حل بهم، وهذا لا يمكن أن ينزل إلا بأمة ملعونة مبعدة من رحمة الله -عز وجل- فكيف يكون هؤلاء إلى ساعتنا هذه هم أهل الاصطفاء والاجتباء وقد أبعدهم الله -تبارك وتعالى-؟.

إذن: {وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [(٤٧) سورة البقرة] أي: على عالم زمانكم فقط، فيكون بهذا الاعتبار من العام المراد به الخصوص، حيث أطلق العالمين ودخلت عليه أل، فظاهر ذلك أنه في جميع العالمين.

والعموم يندرج تحته أربعة أشياء: الأفراد، والأزمان، والأمكنة، والأحوال، فإذا أجريناه على ظاهره فمعنى ذلك أنه في كل زمان ومكان.. الخ، ولكن هذا ليس بمراد، فيكون من العام المراد به الخصوص، يعني أنك تطلق لفظاً عاماً وتريد به معنىً خاصاً هذا هو المراد.

"أمة محمد أفضل من بني إسرائيل، ويجب الحمل على هذا؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم؛ لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم} [(١١٠) سورة آل عمران].

وفي المسانيد والسنن عن معاوية بن حَيْدَة القُشَيري، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أنتم تُوفُونَ سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله))[2]، والأحاديث في هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}."

ومن أدلة تفضيل هذه الأمة على غيرها من الأمم قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ} [(١٤٣) سورة البقرة]، وما جاء في الأحاديث مثل: ((نحن الآخرون السابقون يوم القيامة))[3]،

---

1 - أخرجه البخاري في كتاب: التفسير - باب: قوله تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [(١١٠) سورة آل عمران] (٤٢٨١) (ج ٤ / ص ١٦٦٠).

2 - أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن - باب: سورة آل عمران (٣٠٠١) (ج ٥ / ص ٢٢٦)، وابن ماجه في كتاب: الزهد - باب: صفة أمة محمد صلى الله عليه وسلم (٤٢٨٨) (ج ٢ / ص ١٤٣٣) وأحمد (ج ٥ / ص ٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٣٠١).

3 - أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة - باب:فرض الجمعة (٨٣٦) (ج ١ / ص ٢٩٩) ومسلم في كتاب: الجمعة - باب: هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٨٥٥) (ج ٢ / ص ٥٨٥).

وحديث العمل في أول النهار، وفي وسط النهار، وفي آخر النهار[4]، فكل هذه النصوص تدل على أن هذه الأمة أفضل من بني إسرائيل.

وحتى من الناحية العملية الواقعية -كما سيأتي في هذه الآيات وفي غيرها- لا يصح أن يقال: إن تفضيل بني إسرائيل على جميع العالمين مطلقاً؛ ومما يبين ذلك من الناحية العملية أن الله تعالى قال عنهم: إنهم قالوا: **{يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}** [(٢٤) سورة المائدة]، فهل يقول أحد مثل هذا الكلام؟

حتى إن الذين اصطفاهم موسى -صلى الله عليه وسلم- لميعاده لربه في الطور -الذين قال الله عنهم: **{وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا}** [(١٥٥) سورة الأعراف]- لما سمعوا موسى يناجي ربه، قالوا: **{لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}** [(٥٥) سورة البقرة]، طمعوا في الرؤية، فتأمل كيف يتصرفون وهم خيار بني إسرائيل وأفضلهم، حتى إنه قيل: إنهم لما أخذ عليهم العهد وسمعوا أمر الله قالوا: إن شئت فافعل، وإن شئت فذر، إنهم حتى في هذا المقام يقولون مثل هذا الكلام!!

ولما أمروا بالسجود كما قال الله -عز وجل-: **{وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ}** [(١٥٤) سورة النساء]، **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ}** [(٦٣) سورة البقرة]، تلكئوا عن التلقي عن الله -عز وجل- فرفع الله فوقهم الطور حتى كاد الطور -أي الجبل- أن يقع فوقهم، حتى إنه قيل: إن سجدة بني إسرائيل كانت على جانب الجبهة ويرفعون العين الأخرى، فهم كانوا في حالة السجود وهم تحت الجبل في غاية الخوف أن يسقط عليهم، ومع ذلك سجدوا هذا السجود الذي يكون بهذه الصفة بحيث ينظرون بالعين الأخرى إلى الجبل، فكان ذلك سنة متبعة لهم في سجودهم إلى غير ذلك.

فهؤلاء ابتلاهم الله -عز وجل- بخوف وطمع، وطمعهم يظهر في قصة الحيتان، قال تعالى: **{إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ}** [(١٦٣) سورة الأعراف]، فاحتالوا الحيلة المعروفة فمُسخوا، وابتلاهم -عز وجل- بخوف كما في قصة الجبارين فلم يثبتوا.

وهذه الأمة ابتلاها الله -عز وجل- بالخوف والطمع فأفلحوا، فلما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يستشير أصحابه في يوم بدر: ((أشيروا علي أيها الناس)) قالوا: لا نقول كما قالت بنو إسرائيل: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، بل نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون"[5].

وكذلك لما ابتلاهم الله -عز وجل- بالطمع ثبتوا، وهذا له أمثلة كثيرة جداً، منها قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ}** [(٩٤) سورة المائدة] إلى غير ذلك، فكان الواحد منهم يمر بالظبي حاقفاً لا يثيره ولا يريبه أحد.

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب: الإجارة – باب: الإجارة إلى نصف النهار (٢١٤٨) (ج ٢ / ص ٧٩١).

[5] - البداية والنهاية (ج ١ / ص ٢٧٩) وتاريخ الطبري (ج ٢ / ص ٢٧)، وأصله في البخاري في كتاب: المغازي – باب قوله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ} [(٩) سورة الأنفال] (٣٧٣٦) (ج ٤ / ص ١٤٥٦).

"{وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [(٤٨) سورة البقرة]، لما ذكرهم الله تعالى بنعمه أولاً عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة فقال: {وَاتَّقُواْ يَوْماً} يعني: يوم القيامة."

{وَاتَّقُواْ يَوْماً} أي: اتقوا أهوال يوم وأوجال يوم؛ لأن اليوم ظرف زمان، ومثل هذا لا يتقى في الأصل، ولكن جرت عادة العرب أن تحذر من ساعة أو من يوم أو من سنة أو من زمان من الأزمان والمراد بذلك ما يقع فيه من الأهوال والأوجال، فقوله: {وَاتَّقُواْ يَوْماً} أي: اتقوا أهوال يوم.

وقوله: {لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً} أي: لا تجزيه أو لا تجزي فيه -على القولين المشهورين عند المفسرين وأصحاب معاني القرآن- لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً، أو لا تجزيه، والأوضح في المعنى لا تجزي نفس أي: لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئا..

"{لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً} أي: لا يغني أحد عن أحد، كما قال تعالى: {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [(١٦٤) سورة الأنعام]، وقال: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [(٣٧) سورة عبس]، وقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا} [(٣٣) سورة لقمان]، فهذا أبلغ المقامات أن كلاً من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئاً."

هذا كما قال الله -عز وجل-: {يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ} [(١١) سورة المعارج].

فالحاصل أن قوله: {لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً} [(٤٨) سورة البقرة] يعني لا تكفي أوتقضي أو تغني نفس عن نفس شيئاً، يعني أنه إذا كان أحد من الناس محتاجاً إلى شيء من الحسنات لترجح كفته، ولو كان أقرب الناس كالوالد والولد، فإن أحداً من الناس لا يقضي عنه، قال تعالى: {وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [(١٨) سورة فاطر]، فمعنى لا تجزي أي لا تقضي، أو لا تغني وهما متقاربان في المعنى، أو لا تكفي -من الكفاية- وما أشبه ذلك من الألفاظ التي يمكن أن يفسر بها ذلك، والمعنى لا ينفع أحد أحداً.

ويستثنى من ذلك ما ورد في النصوص فيما يتعلق بالشفاعة لأهل التوحيد من أهل الكبائر وغيرهم، أما أن يعطي أحد من الناس أحداً غيره من حسناته أو أنه يعيره شيئاً من ذلك فإن ذلك غير وارد ولو كان أقرب الناس إليه؛ بل هو يتمنى أن يفتدي بهؤلاء جميعاً.

"وقوله تعالى: {وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} [(٤٨) سورة البقرة] يعني من الكافرين، كما قال: {فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} [(٤٨) سورة المدثر]، وكما قال عن أهل النار: {فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ* وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ} [(١٠٠-١٠١) سورة الشعراء]."

{وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} يعني من الكافرين؛ لأنه يفهم من الأدلة الأخرى إثبات الشفاعة.

{وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} لا في قليل ولا في كثير؛ لأن شروط الشفاعة الثلاثة المعروفة منها: أن يرضى الله عن المشفوع له، وأن يأذن بالشفاعة، والله لا يرضى عن الكافرين، فلا تنفعهم الشفاعة.

والشفاعة معروفة وهي من الشفع، ومعناها الشرعي معروف، فالمقصود أن ذلك مخصوص بالشفاعة بأهل التوحيد.

"وقوله: {وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ} [(٤٨) سورة البقرة] أي: لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ} [(٩١) سورة آل عمران]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(٣٦) سورة المائدة]، وقال تعالى: {وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا} [(٧٠) سورة الأنعام]، وقال: {فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ} [(١٥) سورة الحديد] الآية."

يفسَّر قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ}** [(١٢٣) سورة البقرة]، وقوله في الآية الأخرى: **{وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ}** [(٤٨) سورة البقرة] بأن ذلك بمعنى الفداء، كما قال الله -عز وجل-: **{لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ}** [(١٥) سورة الحديد]، وكذلك في قوله: **{وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا}** [(٧٠) سورة الأنعام]، أي مهما قدمت من الفداء الذي تريد الخلاص به، فإن ذلك لا ينفعها ولا يغني عنها عند الله شيئاً.

والعدل كما في قول الله -عز وجل- في الآية الأخرى، **{لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا}** [(٣٦) سورة المائدة] وكذلك: **{مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا}** [(٩١) سورة آل عمران]، فالذهب وما في الأرض جميعاً ليس من جنس الإنسان، فالإنسان يريد أن يفتدي بأموال الدنيا من الذهب وغيره، وذلك ليس من جنس الإنسان، فإذا افتدى بغير جنسه فذلك يقال له: العدل، فقوله: **{وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ}** أي فداء، يفتدي بالمال وما إلى ذلك.

والعِدل -بالكسر- ما كان الفداء فيه من جنس المفتدي، فإذا افتدى بإنسان فإن ذلك يكون من قبيل العِدل، ومنه ما يوضع على البعير من الحمل بحيث يستوي الطرف في الجهة اليمنى مع الطرف الآخر في الجهة اليسرى فيقال: هذا عِدل لهذا، وما كان المعاوضة فيه من غير الجنس يقال له: عَدل، فهنا لا يقبل منها عَدل، أي فداء بالمال وما أشبه ذلك، وهذا هو الغالب في لغة العرب، أي: التفريق بهذا الاعتبار، وإن كان يرد هذا أحياناً في مكان الآخر، فيستعمل أحياناً بالكسر وبالفتح مراداً به الفداء مطلقاً، لكن الغالب ما ذكرت، والله أعلم.

"فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به، ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاه، ولا يقبل منهم فداء، ولو بملء الأرض ذهباً، كما قال تعالى: {مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ} [(٢٥٤) سورة البقرة]، وقال: {لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ} [(٣١) سورة إبراهيم].

وقوله تعالى: {وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [(٤٨) سورة البقرة] أي: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ولا يقبل منهم فداء، هذا كله من جانب التلطف."

قوله: "**من جانب التلطف**" يعني كما يقال: بالطرق الدبلوماسية بأن يأتي أحد يتوسط ويشفع، أو يدفع المقابل -المعاوضة- هذه طرق الخلاص، إما أن يأتي أحد يتوسط فيطلق هذا الإنسان الأسير، أو أنه بالمعاوضة بالفداء وبالتفاهم، يدفع مقابل ذلك مالا، ويُطلق وتنتهي المشكلة، أو بالقوة بحيث يأتي أناس يخلصونهم بالقوة،

أما في ذلك اليوم فقد قطع الله -عز وجل- عليهم طرق الخلاص، لا بالفداء ولا بالشفاعة ولا بالقوة؛ لعدم وجود الناصر.

"ولا لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم كما قال: {فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ} [(١٠) سورة الطارق] أي: إنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فِدْيَة ولا شفاعة، ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذ، ولا يخلص منه أحد، ولا يجير منه أحد، كما قال تعالى: {وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ} [(٨٨) سورة المؤمنون]، وقال: {فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ* وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ} [(٢٥-٢٦) سورة الفجر]، وقال: {مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ* بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} [(٢٥-٢٦) سورة الصافات]، وقال: {فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ} [(٢٨) سورة الأحقاف] الآية.

وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: {مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ} [(٢٥) سورة الصافات] ما لكم اليوم لا تمانعون منا؟ هيهات ليس ذلك لكم اليوم.

قال ابن جرير: وتأويل قوله: {وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [(٤٨) سورة البقرة] يعني: أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية، بَطَلَت هنالك المحاباة، واضمحلت الرِّشا والشفاعات، وارتفع من القوم التناصر والتعاون وصار الحكم إلى الجبار العدل الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فيجزي بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها، وذلك نظير قوله تعالى: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ* مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ* بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} [(٢٤-٢٦) سورة الصافات].

{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ* وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [(٤٩-٥٠) سورة البقرة].

يقول تعالى: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم، {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} أي: خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى -عليه السلام-، وقد كانوا يسومونكم، أي: يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب."

قوله تعالى: **{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم}** أي: واذكروا إذ نجيناكم، أي: خلصناكم وفككناكم؛ والإنجاء معروف وهو التخليص، وأصله مأخوذ من النجوة، أي: الشيء المرتفع من الأرض البائن منها.

قوله: **{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ}** الله -جل وعلا- خلصهم من آل فرعون، يعني من فرعون وقومه، فإن آل تأتي بمعنى أهل، فيقال: آل فلان، وقد يطلق مراداً به ذات الشخص، كما قال تعالى: **{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}** [(٤٦) سورة غافر]، فليس المقصود هنا أنهم فقط آل فرعون أو أتباع فرعون، لا بل هو على رأسهم، بل إن بعض المفسرين يقول: أدخلوا آل فرعون، يعني أدخلوا فرعون، ومثل هذا قوله تعالى: **{وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ}** [(٢٤٨) سورة البقرة]، يعني وبقية مما ترك موسى وهارون.

فـ(آل) تأتي أحياناً مرادا بها نفس الشخص، وأحياناً يراد بها نفس الشخص مع قومه وأتباعه، أو أهله وما أشبه ذلك.

هنا قوله تعالى: {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ} يعني من فرعون وقومه؛ لأن الذي كان يلي تعذيبهم هم قوم فرعون بأمر فرعون، ففرعون هو المتحكم فيهم، وإنما أولئك الذين يسومونهم سوء العذاب إنما يصدرون عن أمر فرعون.

{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ} وفرعون معروف، كل من ملك مصر فهو فرعون،أي أنه لقب، يعني وليس اسماً لشخص معين، فكل من ملك مصر من هؤلاء الكفرة فإنه يقال له: فرعون، وبعضهم يقول: هو لفظ أعجمي، وبعضهم يقول: هو عربي من تفرعن.

{يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ}: قال: يسومونكم هنا بمعنى يذيقونكم ويوردونكم ويولونكم، تقول: سامه خطة خسف، بمعنى أذاقه وألبسه، وتقول: سامه الخسف والذل، وسامه العذاب، بمعنى أذاقه وأولاه العذاب.

{يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ}: فهذه يمكن أن تكون حالاً، بمعنى يكون الكلام هكذا، وإذ نجيناكم من آل فرعون سائمين لكم سوء العذاب، يعني في حال كونهم سائمين، ويمكن أن يكون وإذ نجيناكم من آل فرعون وكانوا يسومونكم سوء العذاب، فتكون الجملة خبرا لكان، فالمقصود أن الله ذكرهم بهذه النعمة حيث خلصهم من فرعون وقومه.

قال سبحانه: {يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ}، ثم قال مفسراً لهذا العذاب: {يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ} [(٤٩) سورة البقرة] .

"وذلك أن فرعون -لعنه الله- كان قد رأى رؤيا هالته، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس."

هذا جواب لسؤال هو: لماذا كان فرعون يقتل الأبناء ويبقي البنات؟ وقد ذُكرت في هذا آثار وردت عن بعض السلف وهي مبنية على إسرائيليات، فالحاصل أن مما ذكر أن الكهنة أخبروه لما رأى رؤيا ففسرت له، أو أن الكهنة أخبروه ابتداءً بأنه سيولد من الإسرائيليين ولد، وأنه سيكون زوال ملكه على يد هذا الولد، فصار يقتلهم سنة ويتركهم سنة، وسبب تركهم سنة إما أن هؤلاء المنجمين أو هؤلاء الكهنة كما جاء في بعض الإسرائيليات أخبروه عن شيء من ذلك فصار بمقتضاه يفعل هذا سنة وسنة، وإما أن يكون هذا الإبقاء -كما قال بعضهم- من أجل أن يبقى من يقوم على الأعمال المهينة الوضيعة، فكان الفراعنة يترفعون عنها ويكلونها إلى الإسرائيليين، فكانوا يبقون بعضهم من أجل هذا، ويقولون فكان هارون -صلى الله عليه وسلم- في العام الذي لا يقتل فيه الأولاد، هكذا قال بعضهم، والعلم عند الله -عز وجل-.

"رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت دور القبط ببلاد مصر إلا بيوت بني إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، ويقال: بل تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم، يكون لهم به دولة ورفعة، فعند ذلك أمر فرعون -لعنه الله- بقتل كل ذَكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأرذلها."

يعني كأن بني إسرائيل عندهم نبوءة أنه سيخرج فيهم رجل يخلصهم، فبطبيعة الحال هذه القضايا تتنامى وتصل إلى كثير من الناس حتى من أعدائهم وخصومهم، وهؤلاء السمار عند السلطان كأنهم في سوق كما هو معروف، ينفق فيه هؤلاء السمار بحسب حال هذا السلطان، وهؤلاء السمار يعرفون فرعون، ويعرفون حاله، فيوردون له من الحكايات والقصص والأخبار ما يصلح له ويطرب له، فهذا أمر طبيعي؛ إذ لن يتحدثوا

معه عن قيام الليل وصيام النهار وأخبار العبَّاد، وإنما سيحدثونه عن أمور يطرب لها، ولهذا قالوا: **{أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ}** [(١٢٧) سورة الأعراف]؟

هؤلاء هم سماره وجلساؤه وخاصته، فما الظن بمثل فرعون أن يقرب منه إلا مثل هؤلاء، فهو لا يقرب إلا من كان على شاكلته، والطيور على أشكالها تقع، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً.. والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٢٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "{فَأَنجَيْنَاكُمْ} [(٥٠) سورة البقرة] أي خلصناكم منهم وحجزنا بينكم وبينهم وأغرقناهم وأنتم تنظرون؛ ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ في إهانة عدوكم.

وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: "قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: ((ما هذا اليوم الذي تصومون؟)) قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله -عز وجل- فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى -عليه السلام-، فقال رسول -صلى الله عليه وسلم-: ((أنا أحق بموسى منكم)) فصامه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأمر بصومه" [وروى هذا الحديث البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه][1].

{وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ* ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُمِ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ* وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(٥١-٥٣) سورة البقرة]، يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى -عليه السلام- لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة، وكانت أربعين يوماً، وهي المذكورة في الأعراف في قوله تعالى: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ} [(١٤٢) سورة الأعراف]، قيل: إنها ذو القعدة بكماله وعشر من ذي الحجة، وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}** [(٥٠) سورة البقرة] هذا لا شك أنه من مزيد إنعام الله وإفضاله عليهم، وذلك أنه أدْعى للتشفي؛ فإن إهلاك عدوهم وهم ينظرون إليه أشفى لصدورهم مما لو هلك فجاءهم خبره.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ}** في قوله: **{وَإِذْ وَاعَدْنَا}** قراءتان متواترتان، فهذه التي نقرأ بها هي قراءة الجمهور، والقراءة الأخرى هي قراءة أبي عمرو، (وإذ وعدنا موسى)، وهذه القراءة الثانية يختارها بعض من تكلم في التفسير وفي معاني القرآن؛ وذلك أنهم استشكلوا قوله تعالى: **{وَإِذْ وَاعَدْنَا}** وذلك أن المواعدة -المفاعلة- إنما تكون بين اثنين، أو بين طرفين، ويقولون: إن الله -عز وجل- لا يتأتى معه هذا، وإنما الوعد يكون من جهته فقط، فاختاروا قراءة (وعدنا)، وجاءوا في مثل هذا الموضع بالآيات الأخرى التي فيها ذكر الوعد كقوله مثلاً: **{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}** [(٥٥) سورة النـــور] وما أشبه ذلك، والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن هذا الذي ذكروه

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: الصوم - باب: صيام يوم عاشوراء (١٩٠٠) (ج ٢ /ص ٧٠٤) ومسلم في كتاب: الصيام - باب: صوم يوم عاشوراء (١١١٣٠) (ج ٢ / ص ٧٩٥).

غير متجه، والله أعلم؛ لأن قوله: {وَإِذْ وَاعَدْنَا} المواعدة بمعنى الموافاة، ولا يمنع ذلك أن يكون بين الله –عز وجل– وبين أحد من خلقه، فالله –عز وجل– أخبر موسى –صلى الله عليه وسلم– بالميعاد، وموسى –عليه الصلاة والسلام– قبِل ذلك، فذلك مواعدة بينه وبين الله، وليس في ذلك أي محذور في هذا المعنى بالنسبة لما يقال في حق الله تبارك وتعالى، وأما الوعد الذي جاءوا به في الآيات الأخرى فإنه يختلف عما هاهنا، فالوعد هناك هو الوعد بالجزاء وليس من المواعدة التي تكون للتوقيت.

ثم إن بعضهم قال على قراءة الجمهور: {وَإِذْ وَاعَدْنَا} عند من فسرها أنها من جهة الله فحسب، قالوا: هذا مثال من أمثلة ورود المفاعلة وتكون من طرف واحد، وهذا وإن كان في أصله صحيحاً لكنه لا محذور هنا أن يقال في: {وَإِذْ وَاعَدْنَا} أن الله أخبر موسى بالميعاد، وأن موسى –صلى الله عليه وسلم– قبِل ذلك، فكانت بمعنى المواعدة على ظاهرها ولا إشكال في هذا إطلاقاً، وإن كان لا يمتنع أن تأتي المواعدة من طرف واحد، كما تقول مثلاً: عالجت الجرح أو عاقبت المجرم، أو نحو ذلك، فأنت حينما قلت: عاقبته، فالمعاقبة هنا لم تقع بين طرفين، وإنما هي صادرة من طرف واحد، كما أن المعالجة صادرة من طرف واحد، والله تعالى أعلم.

{وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً} اسم موسى –عليه الصلاة والسلام– اسم أعجمي كما هو معروف، ويقولون: إن اسم موسى مركب من شيئين (مو) و(سى)، ويقولون إن ذلك لغة قبطية، مع أن المعروف أنه اسم عبراني.

ويقولون أصله (مو) (شى) و(مو) بمعنى ماء، و(شى) بمعنى شجر، والمعنى كما يقولون: إنه لما ألقته أمه في نهر النيل حمله الماء حتى أخذه إلى موضع فيه ماء وشجر، فلما وجده أولئك الجواري من قوم فرعون سمي باسم المكان الذي وجد فيه، والله أعلم.

{وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً} يعني تمام أربعين ليلة، على رأس الأربعين ليلة يكون الميعاد، وهذه الليالي جاءت في سورة الأعراف: {ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ}، ويذكر المفسرون هناك تفصيلات في هذا المقام، وأن أصلها كانت الثلاثين، ثم أتم الله بعد ذلك بعشر لأمور يذكرونها هناك.

وعلى كل حال ذكر الله –عز وجل– هنا الليالي، {وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً} وذلك باعتبار أن الليلة تكون سابقة لليوم، والعرب تعبر بالليالي وتقصد معها الأيام، وهذا كثير جداً في كلامهم.

"وقوله تعالى: {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} يعني: التوراة {وَالْفُرْقَانَ} وهو ما يَفْرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، {لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(٥٣) سورة البقرة]، وكان ذلك أيضاً بعد خروجهم من البحر؛ كما دل عليه سياق الكلام في سورة الأعراف، ولقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [(٤٣) سورة القصص]."

في قوله هنا: {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ} ذكر الله الكتاب ولا شك أنه التوراة، ونقل بعض أهل العلم الإجماع أن الكتاب هنا هو التوراة، ثم عطف عليه بعد ذلك الفرقان، وظاهره أن العطف يقتضي المغايرة، ولهذا فهم بعض أهل العلم أن الفرقان ليس المراد به التوراة، بل هو شيء آخر، واختلفوا في تفسيره وفي بيان المراد به، فبعضهم قال: آتينا موسى الكتاب، وآتينا محمداً الفرقان، وهؤلاء التبس عليهم هذا، وذلك أن

الله سمى هذا القرآن بالفرقان كما في سورة الفرقان: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} [(١) سورة الفرقان]، ولا يمتنع أن يسمي الله -عز وجل- القرآن بالفرقان، وأن يصف التوراة بأنها فرقان، كما قال: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ} [(٤٨) سورة الأنبياء]، والمراد بذلك التوراة قطعاً.

وبعضهم يقول: الفرقان المراد به ما حصل من الفرق بينهم أي: الفصل والحكم بينهم وبين فرعون وقومه، وبعضهم يقول: المراد به انفراق البحر، وهذا بعيد جداً، عن ظاهر القرآن، بل هو في غاية البعد، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول المراد بالفرقان: الحجة والبرهان الذي أعطاه الله -عز وجل- لموسى من الآيات كالعصا واليد وما أشبه ذلك، والذي يظهر والله تعالى أعلم أن الفرقان المراد به التوراة، وهو الكتاب الذي سبق ذكره قبله، {آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ} ويكون ذلك من قبيل عطف الأوصاف والموصوف واحد، كما في قوله تعالى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى* وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [(١-٤) سورة الأعلى]، فالأوصاف تأتي تارة متتابعة، وتارة تأتي بالعطف بالواو مع أن الموصوف واحد، ومن ذلك قول الشاعر يمدح ملكاً:

هو الملك القرم وابن الهُمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

الموصوف هنا واحد، فوصفه تارة بالتتابع فقال: هو الملك القرم، وتارة بالواو فقال: وابن الهمام، وليث الكتيبة... إلى آخره.

وقوله: إن هذه الأربعين ليلة هي شهر ذي القعدة وعشر من ذي الحجة فهذا عليه عامة المفسرين، والله تعالى أعلم.

"{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [(٥٤) سورة البقرة] هذه صفةُ توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل.

قال الحسن البصري -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ} [(٥٤) سورة البقرة] فقال: ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حتى قال تعالى: {وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا} [(١٤٩) سورة الأعراف] الآية.

قال: فذلك حين يقول موسى: {يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ} وقال أبو العالية وسعيد بن جبير والربيع بن أنس: {فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ} أي: إلى خالقكم.

قلت: وفي قوله هاهنا: {إِلَى بَارِئِكُمْ} تنبيه على عظم جرمهم، أي: فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره."

لهذا يقال: إن الشرك هو أعظم ذنب؛ لأنه وضع للعبادة في غير من خلق، ولذلك تجد في الآيات التي يقرر الله -عز وجل- فيها المشركين، يذكر الخلق ويلزمهم بذلك بتوحيد الإلهية.

في قوله تعالى: **{وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}** [(٥٣) سورة البقرة] يقول ابن كثير: **وكان ذلك أيضاً بعد خروجهم من البحر؛ كما دل عليه سياق الكلام في سورة الأعراف، ولقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [**(٤٣) سورة **القصص]:** الذي في سورة الأعراف ظاهر أن ذلك كان بعد إنجائهم من فرعون؛ لأن الله -عز وجل- لما ذكر انفلاق البحر وإنجاء هؤلاء من فرعون وقومه، ذكر أنهم مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم **{قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}** [(١٣٨) سورة الأعراف]، ثم بعد ذلك ذكر ما حصل منهم من عبادة العجل، فكان ذلك بعد إنجائهم، والحلي التي أخذوها إنما كانت معهم من قوم فرعون كما ذكر بعضهم أن نساء بني إسرائيل قد استعرن تلك الحلي، فلما خرجوا هذا الخروج السريع لم يمكنهم إرجاع هذه المصوغات من الحلي، فكان السامريّ هو الذي اقترح عليهم أن يجمعوها وحصل ما حصل، وكان ذلك بعد خروجهم من البحر وإنجائهم من فرعون.

وفي قوله: **{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ}** [(٥٤) سورة البقرة]، هذه توبتهم والمقصود بهذا ليس أن يقتل الإنسان نفسه، ولم يذكر هذا أحد من أهل العلم فيما أعلم، وإنما **{فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ}** أي فليقتل بعضكم بعضاً، ولهذا نظائر، فإن الأمة الواحدة المجتمعة على شيء ينزلون منزلة النفس الواحدة، ولهذا أمثلة من القرآن كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ}** [(١٨٨) سورة البقرة].

وكقوله في سورة النور على أحد الوجهين المشهورين في تفسير الآية: **{لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا}** [(١٢) سورة النـــور]، فظنوا بأنفسهم، أي: ظنوا بإخوانهم.

وكقوله أيضاً في سورة البقرة: **{ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ}** [(٨٥) سورة البقرة]، **{تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ}** يعني تقتلون إخوانكم، فإنه يحرم على الإسرائيلي أن يقتل إسرائيلياً مثله، ثم هم بعد ذلك يقتل بعضهم بعضاً، فكانت توبتهم كما قيل: إنهم ألقيت عليهم ظلمة، وقيل: ألقي عليهم الغمام فصار الرجل لا يميز من أمامه، فقتل منهم مقتلة عظيمة في ذلك اليوم، فكان الرجل يقتل أقرب الناس إليه، يقتل أباه وأخاه، حتى تاب الله -عز وجل- عليهم ورفع ذلك البلاء عنهم، ولهذا قال: **{فَتَابَ عَلَيْكُمْ}** [(٥٤) سورة البقرة] أي رجع عليكم بالتوبة والمغفرة.

"وقد روى النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: فقال الله تعالى: إن توبتهم أن يقتل كل واحد منهم كل من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن، فتاب أولئك الذين كانوا خفي على موسى وهارون ما اطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا به فغفر الله للقاتل والمقتول.

وروى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال موسى لقومه: {فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [(٥٤) سورة البقرة] **قال: أمر موسى قومه عن أمر ربه -عز وجل- أن يقتلوا أنفسهم، قال: وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظُلَّة شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضاً، فانجلت الظلَّة عنهم وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة."**

بعض أهل العلم من المفسرين ينقل الإجماع على أن المقصود {فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} أي: فليقتل بعضكم بعضاً.

"{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ* ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [(٥٥-٥٦) سورة البقرة]، **يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق إذ سألتم رؤيتي جهرة عياناً مما لا يستطاع لكم ولا لأمثالكم."**

قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ} أي: لما سمعوا الله يناجي موسى -صلى الله عليه وسلم- طمعوا في رؤيته فقالوا: {لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [(٥٥) سورة البقرة]، وكثير من المفسرين يقولون: إن هؤلاء الذين طلبوا هذا الطلب هم السبعون الذين اصطفاهم موسى -صلى الله عليه وسلم- كما في قوله: {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا} [(١٥٥) سورة الأعراف]، وهم صفوة القوم وخيارهم، أبوا أن يؤمنوا حتى يروا الله جهرة فأصابتهم هذه الصاعقة.

والصاعقة -والله تعالى أعلم- تأتي بمعنى الشيء الهائل العظيم، الذي إذا عاينه الإنسان أو رآه فإنه يموت لهوله أو يحترق، أو يفقد شيئاً من حواسه، أو يفقد عقله، أو يفقد بعض أعضائه، المقصود أنه يلحقه عطب تام أو يلحقه بعض العطب من شدة هولها، فتارة تكون بنار محرقة، وتارة تكون بصوت هائل، أو غير ذلك مما يمكن أن يقع، والصاعقة في العصر الحديث تطلق على ما يسمونها بالشحنة الكهربائية العالية التي إذا ضربت الإنسان فإنه يحترق وتكون النتيجة التفحم.

المقصود أن هؤلاء أخذتهم هذه الصاعقة بسبب ما قالوا وكانت نتيجة ذلك الموت الحقيقي -على أرجح القولين في هذا الصعق- فالصعق تارة يكون بالموت، وتارة يكون بما دونه كالإغماء.

والله -عز وجل- أخبر عن موسى -صلى الله عليه وسلم- أنه لما تجلى ربه للجبل قال: {جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا} [(١٤٣) سورة الأعراف]، فصعْقُ موسى -صلى الله عليه وسلم- لم يكن بالموت، وأما صعق هؤلاء كان بالموت، فأحياهم الله -عز وجل-.

{فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [(٥٥) سورة البقرة] بمعنى أنهم رأوا مقدم ذلك ثم بعد ذلك ماتوا، وعلى كل حال فإن معنى {فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} أنهم ماتوا موتاً حقيقياً، ولهذا قال الله -عز وجل- بعده: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ} [(٥٦) سورة البقرة]، فهذا دليل على أن ما أصابهم إنما هو موت حقيقي وليس من قبيل الإغماء؛ فظاهر القرآن يدل على هذا، ولا يجوز العدول عن ظاهر القرآن، إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

"كما قال ابن جريج، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في هذه الآية: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [(٥٥) سورة البقرة] **قال: علانية، أي: حتى نرى الله.**

وقال عروة بن رويم في قوله: {الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [(٥٥) سورة البقرة] **قال: فصعق بعضهم وبعض ينظرون، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء.**

وقال السدي: {فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ} **فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله، ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم** {لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا} [(١٥٥) سورة الأعراف]؟ **فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل، ثم إن الله أحياهم**

فقاموا وعاش رجلٌ رجلٌ ينظر بعضهم إلى بعض: كيف يحيون؟ قال: فذلك قوله تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [(٥٦) سورة البقرة].

وقال الربيع بن أنس: كان موتهم عقوبة لهم، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم، وكذا قال قتادة."

هذا أحد المواضع في سورة البقرة التي تدل على قدرة الله -عز وجل- على البعث، وهي خمسة مواضع.

"قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير هذه الآية: قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة، فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا، فتاب الله عليهم، فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، فيه أمركم الذي أمركم به ونهيكم الذي نهاكم عنه، فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابي فخذوه، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى؟! وقرأ قول الله: {لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [(٥٥) سورة البقرة] قال: فجاءت غضبة من الله، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا أجمعون.

قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم، وقرأ قول الله: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [(٥٦) سورة البقرة] فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله، فقالوا: لا فقال: أي شيء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أنا متنا ثم أحيينا، قال: خذوا كتاب الله. قالوا: لا، فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم.

وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعد ما أحيوا، وقد حكى الماوردي في ذلك قولين: أحدهما: أنه سقط التكليف عنهم لمعاينتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق، والثاني: أنهم مكلفون؛ لئلا يخلو عاقل من تكليف، قال القرطبي: وهذا هو الصحيح؛ لأن معاينتهم للأمور الفظيعة لا تمنع تكليفهم؛ لأن بني إسرائيل قد شاهدوا أمورًا عظامًا من خوارق العادات، وهم في ذلك مكلفون، وهذا واضح، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٢٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [(٥٧) سورة البقرة]:" لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم، فقال: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ} وهو جمع غمامة، سمي بذلك؛ لأنه يَغُمّ السماء أي: يواريها ويسترها، وهو السحاب الأبيض ظُلِّلوا به في التيه ليقيهم حر الشمس،كما رواه النسائي وغيره عن ابن عباس.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عمر والربيع بن أنس وأبي مجلز والضحاك والسدي نحو قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقال الحسن وقتادة: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ} كان هذا في البرية، ظلل عليهم الغمام من الشمس، وقال ابن جرير: قال آخرون: وهو غمام أبرد من هذا وأطيب."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ} الغمام: كل ما غم وستر وغطى من قتر وغبار وسحاب أياً كان هذا السحاب، سواء كان من السحاب الأبيض، أو كان من غيره كالجهام ونحوه فكل ذلك يقال له: غمام، ولا يختص بنوع دون نوع، وما ورد من تحديده بأنه سحاب أبيض فإن هذا مما أخذ عن بني إسرائيل، وإلا فإن كل ما غطاك وسترك فإنه يقال له: غمام.

وجاء في الحديث: ((كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف))[1]، ومعنى غمامتان أي أن ذلك يستر ويغطي من تحته من السحاب وغيره، فلا يخص به نوع دون نوع من السحاب إلا بدليل.

"وقوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ} [(٥٧) سورة البقرة] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كان المنُّ ينزل عليهم على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاءوا.

وقال قتادة: كان المنُّ ينزل عليهم في محلهم سقوط الثلج أشدُّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى ذلك فسد ولم يبق، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته، أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشته ولا يطلبه لشيء، وهذا كله في البرية."

قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ} [(٥٧) سورة البقرة] المن: لم يتفق المفسرون فيه على معنىً، فمنهم من يذكر أنه شيء حلو يشبه العسل، وبعضهم يقول: إنه أبيض اللون ينزل على الأشجار فيعلق بها، بمعنى أنه ليس

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها - باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤) (ج ١ / ص ٥٥٣).

صمغة متولدة من نفس الشجر كما يظن البعض، وإنما هو شيء ينزل عليها عند الفجر أو نحو هذا، وهو أبيض حلو الطعم يشبه العسل يقال: إنه لا زال إلى اليوم ينزل على الأشجار في بعض الأماكن.

وبعضهم يفسِّر المن بما هو أعم من ذلك –وهذا هو الأقرب– يقولون: كل ما حصل للإنسان من غير جد ولا جهد بحيث لا يحتاج إلى زرع وسقي وحرث وما أشبه ذلك فإنه من المن، ولهذا قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((الكمأة من المن))[2] وفي بعض الألفاظ: ((من المن الذي أنزل الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل))[3].

فيؤخذ من هذا أن المن لا يختص بهذا النوع دون غيره، لكن قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((من المن)) يدل على عمومه، فيكون قد نزل عليهم من المن ما يكفيهم لطعامهم ويغنيهم عما يزرعه الناس، فلا يحتاجون إلى شيء من هذا العمل والجهد الذي يبذل عادة لتحصيل مثل هذه الثمار والزروع وما أشبه ذلك، فيكون قد قيض الله –عز وجل– لهم من الكمأ، ولا يمنع ذلك أن توجد أنواع أخرى كهذه الصمغة التي يذكرون، أو غير ذلك مما يهيؤه الله –عز وجل– لهم من غير كد ولا تعب.

"فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مزج مع الماء صار شراباً طيباً، وإن ركب مع غيره صار نوعاً آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده، والدليل على ذلك رواية البخاري عن سعيد بن زيد، –رضي الله تعالى عنه– قال: قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((الكمأة من المنِّ وماؤها شفاء للعين))[4] وهذا الحديث رواه الإمام أحمد، وأخرجه الجماعة في كتبهم إلا أبا داود، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى الترمذي عن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((العجوة من الجنة وفيها شفاء من السم، والكمأة من المن وماؤها شفاء للعين))[5] [تفرد بإخراجه الترمذي].

وأما السلوى فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: "السلوى طائر شبيه بالسُّمَّانى كانوا يأكلون منه".

وروى السدي عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من الصحابة –رضي الله تعالى عنهم– السلوى: طائر يشبه السُّمانَى، وكذا قال مجاهد والشعبي والضحاك والحسن وعكرمة والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى".

هذا قال به عامة السلف والخلف حتى إن بعضهم نقل الإجماع –كابن عطية– على أن المراد بالسلوى هو طائر، وإن اختلفوا في توصيف هذا الطائر، فهذا من باب اختلاف التنوع وليس من اختلاف التضاد.

---

2 – أخرجه البخاري في كتاب: الطب – باب: المن شفاء للعين (٥٣٨١) (ج ٥ / ص ٢١٥٩) ومسلم في كتاب: الأشربة – باب: فضل الكمأة ومداواة العين بها (٢٠٤٩) (ج ٣ / ص ١٦١٩).

3 – صحيح مسلم في كتاب: الأشربة – باب: فضل الكمأة ومداواة العين بها (٢٠٤٩) (ج ٣ / ص ١٦١٩).

4 – أخرجه البخاري في كتاب: الطب – باب: المن شفاء للعين (٥٣٨١) (ج ٥ / ص ٢١٥٩) ومسلم في كتاب: الأشربة – باب: فضل الكمأة ومداواة العين بها (٢٠٤٩) (ج ٣ / ص ١٦١٩).

5 – أخرجه الترمذي في كتاب: الطب: باب: ما جاء في الكمأة والعجوة (٢٠٦٦) (ج ٤ / ص ٤٠٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤١٢٦).

فبعضهم يقول: السلوى طائر بالهند منقاره أحمر، وبعضهم يقول: هو طائر بين الحمامة والعصفور، وبعضهم يقول: هو طائر يشبه السماني، وبعضهم يقول: هو السماني، فالمقصود أنه طائر.
ونقل عن بعضهم أنه فسره بالعسل، واحتجوا ببعض كلام العرب، ولكن ذلك ليس بمشهور، وهو قليل جداً إن وجد، وربما كان من وهمهم حيث ظن الشاعر أن السلوى هي العسل ربما كان ذلك، واحتجوا ببعض كلامهم من الشعر وهو قليل أيضاً:

وقاسمها بالله جهداً لأنتم ... ألذ من السلوى إذا ما نشورها

نشورها يعني: نستخرجها ونجتنيها.
وعلى كل حال ففي مثل هذا لا يلزم أن يكون هذا الشاعر قد أحاط بالمعاني، فالشاعر يسمع الكلمة ويقول فيها بيتاً ويتوهم الشيء على غير حقيقته، وأما القول الأول فقد نقل ما يشبه الإجماع أن السلوى طائر، فلا تفسر السلوى بالعسل، والله أعلم.
"وعن عكرمة: أما السلوى فطير كطير يكون بالجنة أكبر من العصفور أو نحو ذلك، وقال قتادة: السلوى كان من طير أقرب إلى الحمرة تحشُرها عليهم الريحُ الجنَوبُ، وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشيء ولا يطلبه.
وقوله تعالى: {كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [(٥٧) سورة البقرة] أمر إباحة وإرشاد وامتنان.
وقوله تعالى: {وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [(٥٧) سورة البقرة]، أي أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا كما قال: {كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ} [(١٥) سورة سبأ]، فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات وخوارق العادات.
ومن هاهنا تتبين فضيلة أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم- على سائر أصحاب الأنبياء -عليهم السلام- في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته، منها عام تبوك، في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد لم يسألوا خرق عادة، ولا إيجاد أمر، مع أن ذلك كان سهلاً على النبي -صلى الله عليه وسلم- لكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم، فجاء قدر مَبْرك الشاة فدعا الله فيه، وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم، وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا الإبل وملئوا أسقيتهم، ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر، فهذا هو الأكمل في اتباع الشيء مع قدر الله، مع متابعة الرسول -صلى الله عليه وسلم-.
{وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ* فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ} [(٥٨-٥٩) سورة البقرة]
يقول تعالى لائمًا لهم على نكولهم عن الجهاد وعن دخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى -عليه السلام-، فأمروا بدخول الأرض المقدسة وقتال من فيها من العماليق الكفرة، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا، فرماهم الله في التيه عقوبة لهم كما ذكره تعالى في سورة المائدة، ولهذا

كان أصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس، كما نص على ذلك السدي والرّبيع بن أنس وقتادة وأبو مسلم الأصفهاني وغير واحد، وقد قال الله تعالى حاكياً عن موسى: {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا} [(٢١) سورة المائدة] الآيات.

وقال آخرون: هي أريحا ويحكى عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وعبد الرحمن بن زيد."

والأول هو المشهور، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وهذا من المبهمات في القرآن، ولا فائدة من معرفة هذه المدينة التي أمرهم الله -عز وجل- بدخولها، ولكن قوله ووصفها بأنها مقدسة يدل بظاهره أو يشعر أن المراد بها بيت المقدس، وأريحيا أو أريحا ليست كبيت المقدس وإن كانت من أطرافه وفي أكنافه إذ لا تبعد عن بيت المقدس كثيراً، وهي الآن في غور الأردن تقريباً، فالحاصل أن الظاهر هنا والله أعلم أنها بيت المقدس، لكن لا حاجة للاشتغال بمثل هذا؛ لأنه لا يترتب عليه فائدة.

وقوله: **{الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ}** [(٢١) سورة المائدة] لا يعني أن لهم حقاً في هذا بعد أن بدلوا وغيروا ولعنهم الله وشتتهم في أصقاع الأرض، كما قال تعالى: **{وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا}** [(١٦٨) سورة الأعراف]، والذي يريد أن يتمسك بمثل هذا سيقول: هذا أيضاً في أريحيا.

فالمهم أن ذلك كان في زمان ونكلوا، فعاقبهم الله -عز وجل- بالتيه وأخبرهم أنها محرمة عليهم، أو أنها محرمة عليهم أربعين سنة -على أحد الاحتمالين- والمقصود أن الله -عز وجل- ليس بينه وبين أحد نسب، وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، فأورثها الله عباده المؤمنين وصارت من بلاد الإسلام، فإذا تخلى المسلمون عن دينهم فهم لا يستحقونها ولا يستحقون غيرها، وإنما بلادهم هي بلاد العرب، فالعرب إنما كانوا في الجزيرة وأطرافها، لم يكونوا لا في بيت المقدس ولا في غيره، فإذا تخلوا ورجعوا إلى جاهليتهم وتعلقوا بالتراب فإنهم لا يستحقون لا هذا ولا هذا، وليس لهم شيء إلا التراب.

"وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون -عليه السلام- وفتح الله عليهم عشية جمعة وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب -باب البلد- {سُجَّداً} أي: شكرًا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر وردّ بلدهم عليهم وإنقاذهم من التيه والضلال.

قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- إنه كان يقول في قوله: {وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً} [(٥٨) سورة البقرة]: أي ركعاً.

وروى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً} أي: ركعاً من باب صغير، ورواه الحاكم وزاد ابن أبي حاتم: فدخلوا من قبل أستاههم.

وقال الحسن البصري: أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم، واستبعده الرازي."

استبعده الرازي؛ لأنه -على كلام الحسن- لا يتصور أنهم يسجدون على وجوههم حال دخولهم؛ إذ لا يستطيع أن يدخل الإنسان ووجهه على الأرض، فهذا هو وجه الاستبعاد، وذلك أن السجود يطلق على الانحناء في اللغة، فالراكع يقال له: ساجد، والساجد الذي يضع وجهه على الأرض يقال له: ساجد، فهؤلاء

قوم أمروا بالدخول في حال السجود، فقال بعضهم: أمروا بالسجود المعروف الذي هو أبلغ صور السجود وهو وضع الجبهة على الأرض، هذه أوضح صورة للسجود وأبلغ صورة فيه.

وقال بعضهم: إن المراد بقوله: **{وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً}** [(٥٨) سورة البقرة] أي: أمروا أن يسجدوا، وليس معنى ذلك أن يكون داخلاً وهو يزحف ووجهه على الأرض، لكن هذا أيضاً اعترضه من اعترضه وقال: إن الله أمرهم أن يدخلوا وهم في حال السجود، وليس الأمر لهم أن يسجدوا سجدة إذا كانوا بالباب أو إذا دخلوه وجاوزوه سجدوا شكراً لله -عز وجل- على هذا الدخول من باب المدينة أو باب بيت المقدس؛ لأنه إذا كان كذلك لم يكن الواحد منهم قد دخل في حال السجود.

والتفسير الأقرب -والله أعلم- هو أن المراد بالسجود الانحناء أو الركوع، فأمرهم أن يدخلوا وهم في هذا الحال من التذلل والخضوع والتواضع والشكر لله -عز وجل- ولكنهم عكسوا القضية وأداروا ظهورهم مكابرة وعناداً بعكس ما أمروا به تماماً، فبدلوا الفعل الذي أمروا به بفعل آخر قبيح وبدلوا القول بقول آخر قبيح، حيث قال لهم: **{وَقُولُواْ حِطَّةٌ}** [(٥٨) سورة البقرة]، فقالوا: حبة في شعرة أو في شعيرة، أو غير ذلك مما روي في هذا المعنى، المقصود أنهم غيروا القول والفعل مقابل نعمة الفتح مع نبيهم الذي حبست له الشمس.

لقد رأوا كل تلك الأشياء ثم يقولون ويفعلون هذا القول وهذا الفعل، فما ظنك بفعلهم مع غير الله تعالى، ما ظنك بفعلهم مع عدوهم؟!

إن هؤلاء ليس لهم شبه إلا الفأرة بل وتكرم الفأرة أيضاً عنهم، ذلك أنك كلما تأملت في أحوالهم لا تجد أقرب ما يشبههم إلا الفأرة، والفأرة ليس لها شفاء ولا علاج إلا أن تباد، فلا يصلح الحال ولا يستريح الناس من شرهم إلا بقتل كل من يدب منهم على الأرض إذا بلغ، وهذا هو الحل الوحيد.

إذا نظرت إلى قضية باكستان مع الهند تجد أن الفأرة موجودة في القضية، وإذا ذهبت إلى المياه وما المياه في تركيا، ستجد الفأرة تظهر لك فيها، وإن ذهبت إلى مشكلة الجزر في البحر والإحاطة بجزيرة العرب وما أشبه ذلك تجد الفأرة ومشاكلها موجودة هناك، وهكذا ففي كل قضية حرب على الإسلام والمسلمين تجد هذه الفأرة موجودة فيها.

"وحكى عن بعضهم أن المراد ها هنا بالسجود الخضوع؛ لتعذر حمله على حقيقته.

وقال خصيف: قال عكرمة قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كان الباب قبل القبلة.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والسدي وقتادة والضحاك: هو باب الحطة من باب إيلياء ببيت المقدس، وحكى الرازي عن بعضهم أنه عنى بالباب جهة من جهات القبلة."

هؤلاء أرادوا أن يقولوا: إن السجود الذي أمروا به كان إلى جهة القبلة، وهذا الكلام لا حاجة إليه وهو تكلف، فالمقصود أنهم أمروا أن يدخلوا في حال يكون الواحد منهم خاضعاً فيها بالقول وبالفعل، ولا يشترط أن يكون ذلك إلى جهة القبلة.

"وقال خَصِيف: قال عكرمة: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: فدخلوا على شق."

قوله: **فدخلوا على شق**: يعني على جنب، والحديث صريح وواضح أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم[6] وليس على شق.

"وقال السدي، عن أبي سعيد الأزدي عن أبي الكنُود عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: قيل لهم وادخلوا الباب سجداً، فدخلوا مقنعي رءوسهم، أي: رافعي رءوسهم خلاف ما أمروا.

وقوله تعالى: {وَقُولُواْ حِطَّةٌ} [(٥٨) سورة البقرة] عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَقُولُواْ حِطَّةٌ} قال: مغفرة، استغفروا، وقال الحسن وقتادة: أي احطط عنا خطايانا."

{وَقُولُواْ حِطَّةٌ}: فِعْلة، يعني أمروا أن يسألوا الله أن يحط عنهم خطاياهم، ويمكن أن يكون ذلك بتقدير مسألتنا حطة، فمسألتهم ودعاؤهم أن تُحط عنهم خطاياهم، ومثل هذا قد يفسر بموضع آخر من القرآن، وإن كان لا يمت له بصلة، لكنه يشبهه في السياق وهو أوضح منه في المعنى، وذلك قوله تعالى: **{قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ}** [(١٦٤) سورة الأعراف]، أي قالوا: نُصحُنا معذرة، وهنا **{وَقُولُواْ حِطَّةٌ}** أي: قولوا مسألتنا حطة.

والحطة مثل ما تقول: ارتد يرتد فهو مرتد وهي ردة، فهذه حطة، حط يحط عنه الخطايا حطاً فهي حطة، ويستفاد من قوله تعالى: **{وَقُولُواْ حِطَّةٌ}** أنهم عُلِّموا كيف يسألون الله -عز وجل- أن يحط عنهم خطاياهم، أي يسألوا ربهم حط الخطايا أي: المغفرة.

"وقال: هذا جواب الأمر، أي: إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضاعفنا لكم الحسنات.

وحاصل الأمر: أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب عند الله تعالى، كما قال تعالى: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [(١-٣) سورة النصر].

وقوله تعالى: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ} [(٥٩) سورة البقرة]، روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطَّة فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدّلوا وقالوا: حبة في شعرة))[7] ورواه النسائي موقوفاً وبعضه مسندًا في قوله تعالى: {حِطَّةٌ} قال: فبدلوا فقالوا: حبة، وروى نحوه عبد الرزاق وعن طريقه البخاري ومسلم والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجدًا فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعي رءوسهم، وأمروا أن يقولوا: حطة أي: احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزءوا فقالوا: حنطة في شعيرة، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وهو خروجهم عن طاعته؛ ولهذا قال: {فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ} [(٥٩) سورة البقرة].

---

6 - سيأتي تخريجه.

7 - أخرجه البخاري في كتاب: التفسير - باب: تفسير سورة البقرة (٤٢٠٩) (ج ٤/ ص ١٦٢٧) ومسلم في كتاب التفسير (٣٠١٥) (ج ٤ / ص ٢٣١٢).

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: "كل شيء في كتاب الله من الرِّجْز" يعني به العذاب".

الرِّجز -بالكسر- العذاب، وبالضم كقوله تعالى: **{وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ}** [(٥) سورة المدثر] يعني الأصنام، وبينهما ملازمة؛ إذ إن عبادة الأصنام سبب للعذاب، كما يقال في الإثم، حيث يطلق على نفس الذنب ويطلق على التبعة التي تحصل بالإنسان من جراء الذنب، فيقال: يأثم من فعل كذا، يعني تلحقه فيه تبعة ومؤاخذة عند الله -عز وجل- ويقال: لا تقرب هذا الإثم، فيقال عن الخمر مثلاً إثم، فالمقصود أن الرِّجز -بالكسر- العذاب، والرُّجز -بالضم- الأصنام وبينهما ملازمة، والله أعلم.

وقوله: **كل شيء في كتاب الله**، مثل هذا يسمى كليات التفسير وهي كثيرة.

"وهكذا روي عن مجاهد وأبي مالك والسدي والحسن وقتادة أنه العذاب، وروى ابن أبي حاتم عن سعد بن مالك وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت -رضي الله تعالى عنهم- قالوا: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الطاعون رجْز عذاب عُذِّب به من كان قبلكم))[8] وهكذا رواه النسائي وأصل الحديث في الصحيحين: ((إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها)) [الحديث][9].

روى ابن جرير: عن أسامة بن زيد -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن هذا الوجع والسقم رجْز عُذِّب به بعض الأمم قبلكم))[10] وهذا الحديث أصله مخرَّج في الصحيحين.

8 - أخرجه مسلم في كتاب: السلام - باب: الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٢٢١٨) (ج ٤ / ص ١٧٣٧)

9 - أخرجه البخاري في كتاب: الطب- باب ما يذكر في الطاعون (٥٣٩٦) (ج ٥ / ص ٢١٦٣) ومسلم في كتاب: السلام - باب: الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٢٢١٨)(ج ٤/ ص ١٧٣٧).

10 - أخرجه البخاري في كتاب: الحيل - باب: ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون (٦٥٧٣) (ج ٦ / ص ٢٥٥٧) ومسلم في كتاب: السلام - باب: الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٢٢١٨) (ج ٤ / ص ١٧٣٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٢٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [(٦٠) سورة البقرة] "يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى -عليه السلام- حين استسقاني لكم، وتيسيري لكم الماء وإخراجه لكم من حجر معكم، وتفجيري الماء لكم منه من اثنتي عشرة عيناً، لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها، فكلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم بلا سعي منكم ولا كد"

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى: **{وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى}**، إذ منصوب بفعل تقديره واذكروا إذ، فقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: **وإخراجه** -يعني الماء- **لكم من حجر معكم**، هذا بناءً على أن (أل) للعهد لقوله: **{اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ}** [(٦٠) سورة البقرة]، فتكون (أل) عهدية، أي اضرب حجراً معهوداً، ويعني به حجراً معيناً يعرفه موسى -صلى الله عليه وسلم- وكانوا ينقلونه معهم ويحملونه في أسفارهم فيخرج منه الماء، فهو حجر معين وليس أي حجر.

وكثير من السلف المفسرين يقولون: إنه حجر غير محدد وعلى هذا تكون (أل) في قوله: **{اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ}** للجنس، أي: اضرب أي حجر، وربما كان هذا أبلغ في الإنعام وفي المعجزة وعلى كل حال لا يوجد دليل يدل على أنه حجر معين، وإنما المقصود على كل الأحوال أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عبر بهذه العبارة -**من حجر معكم**- بناءً على هذا المعنى.

"فكلوا من المن والسلوى واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم بلا سعي منكم ولا كد، واعبدوا الذي سخر لكم ذلك.

{وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [(٦٠) سورة البقرة] ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها، وقد بسطه المفسرون في كلامهم كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: وجُعل بين ظهرانيهم حجر مربع وأمر موسى -عليه السلام- فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً في كل ناحية منه ثلاث عيون، وأعلم كل سبط عينهم يشربون منها لا يرتحلون من منقلة إلا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول".

الأسباط هؤلاء المشهور أنهم من تناسل من أولاد يعقوب -عليه السلام- فهم بمنزلة القبائل من غير بني إسرائيل، فكل سبط أشبه ما يكون بالقبيلة يرجعون إلى ولد من أولاد يعقوب -عليه الصلاة والسلام-، وبعضهم يقول غير هذا القول، لكن هذا هو المشهور.

"وهذه القصة شبيهة بالقصة التي في سورة الأعراف ولكن تلك مكية، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب؛ لأن الله تعالى يقص على رسوله -صلى الله عليه وسلم- ما فعل لهم، وأما في هذه السورة ــ وهي البقرة ــ فهي مدنية فلهذا كان الخطاب فيها متوجهاً إليهم، وأخبر هناك بقوله: {فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا} [(١٦٠) سورة الأعراف] وهو أول الانفجار، وأخبر ههنا بما آل إليه الحال آخراً وهو الانفجار، فناسب ذكر الانفجار ههنا وذاك هناك، والله أعلم."

هذه وجوه الفرق يذكرها العلماء في الكتب التي تُعنى بالمتشابه اللفظي الذي يلتمسون له بعض المحامل من جهة المعنى، وكذلك يذكرها بعض المفسرين الذين يعنون بالجوانب البلاغية أحياناً، كما ذكر ابن عاشور مثلاً في الفروقات بين قوله تعالى في سورة الأنعام في الوصايا العشر: **{قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا}** [(١٥١) سورة الأنعام]، وفي سورة الإسراء: **{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ}** [(٢٣) سورة الإسراء] حيث يقول: الآية التي في سورة الأنعام خطاب للمشركين وهم بعداء غير داخلين في دين الله فهو يناديهم: **{قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}**، وفي سورة الإسراء الخطاب في ظاهره موجه للنبي -صلى الله عليه وسلم- وهو موجه للأمة؛ لأنها خوطبت بشخص قدوته -عليه الصلاة والسلام- **{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ}** أي حكم ووصى ألا تعبدوا إلا إياه، وهكذا يذكر بقية الفروقات في القضايا الأخرى، وهذا تجده في مثل هذه الكتب كثيراً حيث، يقارنون بين مقطع، ومقطع، أو بين آية وآية.

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ}

[(٦١) سورة البقرة].

"يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المن والسلوى طعاماً طيباً نافعاً هنيئاً سهلاً، واذكروا دبركم وضجركم مما رزقناكم وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيئة من البقول ونحوها مما سألتم."

قوله: **واذكروا دبركم وضجركم**: الدبر شبيه بالضجر، ويمكن أن يفسر بمعنى النفور من الشيء والكراهية له، أو البعد عنه أو بأقرب ما يمكن أن يفسر به، وإنما يكون ذلك عادة أو غالباً بسبب الضجر منه، فالمعنى واذكروا دبركم وضجركم مما رزقتكم.

قالوا: **{لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ}** الذي هو المن والسلوى، ولا يخفى أن المن والسلوى طعام متعدد وليس بطعام واحد، لكن صح أن يعبر عنه بأنه طعام واحد؛ لأن الشيء الذي يتكرر دائماً ولا يتغير وإن كان متنوعاً يقال له: هذا طعام واحد، وكذلك الشيء الذي يكون على مائدة واحدة يصح أن يقال عنه: إنه طعام واحد، إذ يكون المقصود به مجموع ما على المائدة، أي ما تتكون منه المائدة، يقال له: طعام واحد، بخلاف ما لو فرق فأعطي بعضه في هذا اليوم والبعض الآخر في يوم آخر وهكذا فهذا طعام متعدد.

والمراد في الآية أنهم ملوا المن والسلوى؛ إذ هذا هو المراد الذي لا يخفى، ملوا المن والسلوى لعتوهم وتمردهم، وهذا له ارتباط أيضاً بطبيعة النفس التي من شأنها الظلم والجهل، فكما فعل قوم سبأ لما أنعم الله عليهم بما أنعم عليهم به حيث جعل بينهم وبين القرى التي بارك فيها والتي هي قرى الشام -وقيل غير ذلك- جعل قرى ظاهرة، بحيث صارت المسافات متقاربة كما قال سبحانه: **{وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا**

{فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ} [(١٨) سورة سبأ]، بمعنى أنها مسافات قليلة قصيرة إذا خرجوا من هذه القرية تتراءى لهم القرية الثانية فلا يحتاجون إلى حمل الأزواد ولا يخافون؛ لأنه لا توجد بينهم وبين ما يهدفون الوصول إليه أرض شاسعة مهلكة مخوفة، ومع ذلك قالوا: **{رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ}** [(١٩) سورة سبأ] فأرادوا الأسفار البعيدة، ومثل هذا الظلم يحصل عند بعض الناس حيث تجده لا يحب السفر المريح القريب الهنيء الذي يكون بوسائل مريحة، وإنما يريد السفر البعيد الذي تحصل فيه مشقة، ولذلك ترى بعض الناس يتعمد الذهاب على الأقدام أو على دراجة أو على وسائل بدائية، وبعض الناس تجده يترك العيش الرغيد والأشياء الطيبة ويبحث عن الأشياء القديمة التي كان الناس لا يتعاطونها إلا بسبب الحاجة والفقر؛ حيث لا يجدون ما يأكلون أو ما يلبسون أو ما يجلسون عليه، فبدأ الناس يرجعون إلى هذه الأشياء؛ لأنهم ملوا ألوان النعيم والرغد التي يتقلبون فيها، وأصبحوا يبحثون عن الأشياء القديمة من المطعومات ويرجعون إليه، وأصبحوا ربما يتفاخرون بمثل هذه الأشياء، وترى من الألوان ما تزدريه العين أحياناً، كل ذلك تشبثاً بالقديم، ويتركون الصناعات التي هي في غاية الحذق والإتقان والجمال كأنهم لا يجدون شيئاً، وربما رأيت شيئاً من ذلك في اللباس لا سيما عند بعض النساء، فربما لبست المرأة الإزار أو ما يشبه الإزار بحيث إذا رأيتها تظن أن هذه المرأة فقيرة مسكينة ليس عندها شيء، بينما هي ترى أنها بهذا قد جاءت بما لم يأت به أحد، والله المستعان، فهذا الذي حصل عند بني إسرائيل وعند أهل سبأ قد يكون له تعلق بمثل هذا المعنى، والله المستعان..

"قال الحسن البصري: فبطروا ذلك فلم يصبروا عليه وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه وكانوا قوما أهل أعداس وبصل وبقول وفوم فقالوا: {يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا} [(٦١) سورة البقرة] **وإنما قالوا على طعام واحد وهم يأكلون المن والسلوى؛ لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم فهو مأكل واحد، فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة وأما الفوم فوقع في قراءة ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- وثومها -بالثاء-."**

يقول: **فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة**، البقول هي النباتات التي لا ساق لها، وهي الأشياء المعروفة مثل الكراث والنعناع والبقدونس والجرجير وغيرها من الأشياء التي يسمونها (الخضرة) فهذا كله داخل في البقول.

وأما القثاء فهو نوع من الخيار لكنه طويل، وهو موجود إلى الآن ومعروف، هذا هو القثاء، وبعض الناس لا زالوا يسمونه قثَّاء، وبعضهم يسميه بغير هذا، فالمقصود أنه موجود يعرفه الناس وهو نوع من الخيار.

وأما الفوم فوقع في قراءة ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- وثومها بالثاء.

على هذا القول تكون التسمية هنا من قبيل ما تصنعه العرب كثيراً في كلامها حيث تبدل حرفاً مكان حرف، وهذا موجود وكثير جداً، وله نظائر في أشعارهم وفي كلامهم المنثور، ولا إشكال فيه، تقول: الفوم والثوم، وهذا باعتبار أن الفوم هو الثوم المعروف، وهذا قول مشهور قال به كثير من السلف فمن بعدهم.

والقول بأن الفوم بمعنى الحنطة أيضاً هو قول مشهور وإن كان لا يبلغ ما يبلغه القول الأول من كثرة القائل به، وكونه هو المتبادر إلى الذهن، فبعضهم يقول: هو الحنطة، ومن فسره بأنه الخبز فإن ذلك لا يخرج عن

قول من قال: إنه الحنطة، باعتبار أن الخبز إنما يصنع من الحنطة، فهكذا يوجه قول من قال: إن فومها المقصود به ما يخبز، وهذا كما سبق في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَقُولُواْ حِطَّةٌ}** [(٥٨) سورة البقرة]، فعلى قول من قال: إن المعنى قولوا: لا إله إلا الله، فإنه يمكن أن يوجه باعتبار أن قول لا إله إلا الله تحط به الخطايا، وهذا كله مما يذكر في مقام توجيه الأقوال المنقولة عن السلف في التفسير، فعلى هذا الاعتبار -وهو أن الفوم هو الثوم- يكون هذا من قبيل ما تستبدل به العرب الحرف مكان الحرف وهو مشهور معروف.

وهذا القول قول له وجه وربما كان هو المتبادر المشهور، ولكن القول الآخر له وجاهته أيضاً وقد قال به كثيرون، ويوجد ما يدل عليه من كلام العرب إذ إن العرب تعبر بالفوم وتريد به الحنطة، وأما ما قيل من غير هذا في تفسيره فإنها أقوال لا تخلو من بُعد، والله تعالى أعلم.

"وقال ابن أبي حاتم: عن الحسن في قوله: {وَفُومِهَا} قال: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الثوم قال: وفي اللغة القديمة فوموا لنا بمعنى اختبزوا، قال ابن جرير: فإن كان ذلك صحيحاً فإنه من الحروف المبدلة."

قوله: **فإن كان ذلك صحيحاً فإنه من الحروف المبدلة**، يعني إن كان القول بأن الفوم بمعنى الثوم صحيحاً فهو من باب إبدال الحرف مكان الحرف.

"كقولهم: وقعوا في عاثور شر وعافور شر، وأثافي وأثاثي ومغافير ومغاثير وأشباه ذلك مما تقلب الفاء ثاء والثاء فاء لتقارب مخرجيهما، والله أعلم.

وقال آخرون: الفوم الحنطة وهو البر الذي يعمل منه الخبز، قال البخاري: وقال بعضهم الحبوب التي تؤكل كلها فوم."

من قال: إن الفوم هنا بمعنى الثوم المعروف احتجوا أولاً بأنه هو المتبادر والمشهور، وأن ذلك أشهر عند إطلاقه في دلالته على أنه ثوم من دلالته على أن المراد به الحنطة، والقرآن يحمل على المشهور المتبادر الظاهر إلا لدليل يجب الرجوع إليه، وقد يحتج لذلك أيضاً بأن الله ذكره مع البصل، **{وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا}** [(٦١) سورة البقرة] فالله تعالى أعلم.

والحقيقة أن تحديد هذا بعينه أمر لا طائل تحته ولا نستفيد منه شيئاً، فهذا كما قال عمر -رضي الله عنه- حينما تساءل ما معنى الأبّ الذي في قوله تعالى: **{وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}** [(٣١) سورة عبس] ثم رجع إلى نفسه، وقال: "إن هذا لهو التكلف يا عمر" مع أنه كان يدرك تماماً دون شك أن الأبّ هو نوع من النبات، وإن شئت أن تقول: هو نوع من النبات تأكله الماشية، لكن ما تحديده بالذات؟ هذا أمر لا طائل تحته ولا نستفيد من معرفته شيئاً، فالله -عز وجل- يمتن على الناس بأنه أخرج لهم من الأرض الفواكه وغيرها مما يأكلون منه وما تأكل منه دوابهم، لكن تحديد هذا بعينه قد لا يكون مفيداً، فهذا مثل ما ذاك، والله أعلم.

"وقوله تعالى: {قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ} [(٦١) سورة البقرة] **فيه تقريع لهم وتوبيخ على ما سألوه من هذه الأطعمة الدنيئة مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنيء الطيب النافع.**

وقوله تعالى: {اهْبِطُواْ مِصْراً} [(٦١) سورة البقرة] **قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: "مصراً من الأمصار".**

وروى ابن جرير عن أبي العالية والربيع بن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون، والحق أن المراد مصر من الأمصار كما روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وغيره، والمعنى على ذلك؛ لأن موسى -عليه السلام- يقول لهم: هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه، ولهذا قال: {أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ} [(٦١) سورة البقرة] أي ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم."

على هذا يكون ابن كثير -رحمه الله- قد مشى على أن موسى -صلى الله عليه وسلم- لم يدع لهم، {فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا} [(٦١) سورة البقرة]، فيقول: إنه قال لهم: اهبطوا مصراً من الأمصار، يعني أن هذا لا يحتاج إلى أن نسأل الله -عز وجل- أن ينزله؛ إذ كيف ترغبون عن المن والسلوى وتطلبون الفوم والبصل؟ فهذا تجدونه ميسوراً مبذولاً لكل أحد في أي مصر من هذه الأمصار إذا دخلتموها فإن ذلك مما يزرع في القرى، فعلى هذا يكون موسى -صلى الله عليه وسلم- لم يجبهم إلى سؤال الله -عز وجل- أن ينزل عليهم شيئاً من ذلك.

وبعض أهل العلم يقول: إنه سأل ربه أن يرزقهم هذا، ثم وجههم إلى أن يهبطوا أي: يقصدوا ويتوجهوا إلى تلك الجهة، فالهبوط هنا بمعنى القصد والتوجه، تقول: هبط إلى أرض كذا بمعنى أوى إليها وقصدها وتوجه إليها.

ويلاحظ أن مصراً هنا منكرة وجاءت منونة فربما ظن من سمعها أن ذلك أدل على أن المقصود بها قرية من القرى بمعنى أنها أي بلد من البلدان باعتبار أنه نكرها، وأما مصر المعروفة فلو قصدت لقال: مصرَ -بدون تنوين- باعتبار المنع من الصرف، تكون ممنوعة من الصرف لعلتين هما العلمية والعجمة، لكن هذا فيه نظر؛ لأن مصر ثلاثية، ومعلوم أن الثلاثي وإن كان أعجمياً لكنه جاء ساكن الوسط، فإنه يُصرف، وهذا له نظائر تجده في أسماء الأنبياء، مثل نوح -عليه الصلاة والسلام- تجده يكتب نوحٌ ونوحاً، مع أنه أعجمي؛ لأنه ساكن الوسط، وأما هود فصرف باعتبار أنه عربي، مع أنه ساكن الوسط، لكن على فرض أنه أعجمي إلا أنه أيضاً ساكن الوسط، ومعنى هذا الكلام أن قول من قال: إن قوله تعالى: {اهْبِطُواْ مِصْراً} [(٦١) سورة البقرة] يقصد به البلد المعروف اليوم -مصر- غير ممتنع من جهة اللغة، يعني لا يحتج في رده باعتبار أنها جاءت مصروفة هكذا، {اهْبِطُواْ مِصْراً}.

لكن القول الآخر ربما كان هو الأقرب والله تعالى أعلم- وهو أن قوله: {اهْبِطُواْ مِصْراً} أي مصراً من الأمصار؛ لأن ذلك الذي يدل عليه السياق، فهم لم يطلبوا شيئاً يختص بمصر المعروفة، وإنما طلبوا أشياء متوفرة في أي قرية دخلوها.

{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [(٦١) سورة البقرة].

"يقول تعالى: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ} أي وضعت عليهم وألزموا بها شرعاً وقدراً، أي: لا يزالون مستذلين، من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء متمسكنون."

ضرب عليهم ذلك أي: ألزموا به فلا فكاك ولا مخرج ولا خيار فيه، وهذا كما يقال مثلاً: ضرب الأمير بعثاً فالمعنى أنه ألزم هذا البعث أو الجيش بالخروج إلى ما وجههم إليه، بمعنى صدر قرار بإلزامهم بهذا الأمر، **{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ}** أي: ألزموا به، فصار ذلك الشيء ملازماً لهم، وحتماً في حقهم لا فكاك ولا خلاص منه.

{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ} أي أنها لا تفارقهم، فهم أذلاء وإن ملكوا الأموال الطائلة، وفيهم مسكنة وإن حصلوا ما حصلوه من أسباب القوة فإنك تجد ذلك لا يفارق وجوههم، فهذا هو الأصل فيهم وإن وجد من بعضهم خلاف ذلك فإن القليل والنادر في وقت من الأوقات أو في بعض الأفراد لا حكم له ولا يخرج عن صحة الحكم على المجموع بأنه كذا، وكذا، وليس تحصيل العز وما إلى ذلك مما يلحق بمعناه، ليس تحصيله بكثرة المال والقوة المادية، فإن الذل والصغار والمهانة والمسكنة أمور تتعلق بالنفس، ولذلك تجد من الناس من يملك الكثير ومع ذلك هو أشبه ما يكون بالفقراء، بل هو فقير؛ لأن الفقر في قلبه، ولذلك ربما لجأ إلى سؤال الناس مع كثرة ما يملك، فإذا كان الفقر في القلب فإن حال هذا الإنسان هي حال الفقراء وإن كان الذي في يده كثيراً.

وإذا كان الذل في القلب فمهما أوتي الإنسان من العرض ومن أسباب القوة فإن ذلك لا يخرجه عن هذا الوصف، وهذا الذل والمهانة شيء مشاهد فيهم، فمن خالط هؤلاء الناس وعرف حالهم، ووصفهم وجد ذلك منطبقاً تمام الانطباق عليهم.

وقد ذكر بعض أهل العلم أشياء من هذا كثيرة، وكأن ذلك من شأن هؤلاء وعادتهم، وإن كانت عندهم الأموال الطائلة والذهب، فإنه يظهر بخلاف ذلك، لا يظهر عليه ما يظهر على غيره ممن يعطيهم الله -عز وجل- الغنى والسعة، فتجده ذليلاً إما خوفاً من الجزية، وإما خوفاً من أن يسطى على ذلك، أو يطالب بشيء من الإتاوات أو الضرائب أو نحو هذا، والحال تشهد بهذا حيث تجد أنه يهاجر مئات الألوف منهم بسبب الهلع والفزع والخوف الشديد من صاروخ -لا أدري ما تأثيره- يسقط على مدينة من هذه المدن المستحدثة، ولذلك إذا حصل أدنى ما يحصل من الخوف تهافت هؤلاء بالطوابير يجمعون الكمامات، ويجمعون الأزواد والأقوات، بصورة لا تكاد توصف، وإذا نظرت إلى حال جنودهم الذين إذا رأيتهم ظننت لأول وهلة أنهم بنات لحداثة سنهم وعنايتهم بأجسادهم وإذا نظرت إليهم وهم يبكون حينما يجرح أو يقتل واحد من زملائهم ظننت أنك في مجمع من النسوة، وليس في جيش قوي يمكن أن يقاتل ويصد الأعداء وما أشبه ذلك، لكن الحقائق قد لا تتكشف لأول وهلة، ولكن لو جاءت المواجهة الحقيقة ترى من العوار الذي يخفونه عشرات السنين، ويوهمون الناس بخلافه، تجد ذلك ظاهراً بيناً لكل أحد، ومن نظر في أحوال هؤلاء ومن شابههم وجد هذا ظاهراً فصار قتلهم أهون ما يكون بعد أن كان الناس يظنون أنهم قوة لا يمكن أن تقهر، ولا يمكن أن يقتل هذا الجندي، ولا يمكن أن تسقط طائرة لهم؛ وذلك لأن عندهم من الاحتياطات والقوة والمنعة وكذا ما لا يمكن أن يحصل معه هزيمة، فإذا جرب الناس مرة ثم مرة وجدوا شيئاً آخر، لكنهم زرعوا المهابة في نفوس الناس، وصوروا لأنفسهم شيئاً ليس بحقيقي، وعند الجد يذهب ذلك جميعاً، ولا تبقى إلا الحقائق.

"وقال الحسن: أذلهم الله فلا منعة لهم وجعلهم تحت أقدام المسلمين، ولقد أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجبيهم الجزية، وقال أبو العالية والربيع بن أنس والسدي: المسكنة الفاقة."

على كل حال الفقر في قلوبهم، ولو قرأتم لعلمتم أن بعض الجنود الإسرائيليين الآن يقومون بالسرقة، وبعضهم يصطفون بالطوابير ليأخذوا القوت، ليس من الجهة التي تعطيهم أقواتهم، بل عند الأماكن التي تبذل الصدقات، يصطفون بالطوابير ليأخذوا الصدقة! وهكذا من كان فقره في قلبه فإنه لا يمكن أن يتغير.

"وقال عطية العوفي: الخراج."

قوله تعالى: **{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ}** المسكنة الفاقة، وقال عطية العوفي: الخراج، يعني ما يؤخذ من أرضهم التي فتحها المسلمون فصارت أرضاً خراجية، لكن لا تفسر الآية إلا أنه هنا يريد أن يربط بينها.

{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ} الذل معروف أنه يعني الصغار، والمسكنة قال عطية العوفي: الخراج، فهو يريد أن يقول: هو شيء آخر فرض عليهم شرعاً وقدراً فقال الخراج أو الجزية.

والله -عز وجل- قال: **{حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}** [(٢٩) سورة التوبة] فهؤلاء ملزمون بالذل سواء كان ذلك بطريق الجزية، أو كان ذلك الوصف الذي أوقعه الله -عز وجل- فيهم فصار وصفاً لا يفارقهم.

قوله: **ولقد أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجبيهم الجزية**، أقول: هذا هو الأصل في حالهم، وهو الاستذلال والاستضعاف والقتل والتشريد إلى آخره، وكان ذلك على مدى هذه القرون المتطاولة، حيث لم يقم لهم ملك ولم ترفع لهم راية، وإنما كانوا يستذلون ويستضعفون ويقهرون حتى إلى عهد قريب جداً، ففي أوروبا كانوا ربما نودي عليهم في بعض البلدان أن يقتلوا جميعاً، واقرءوا في التاريخ المعاصر تجدوا ذلك جلياً.

فالمقصود أن الشيء المؤقت الذي يحصل في سنوات أو سنيات لا ينبغي أن يكون خارجاً عن الحكم والوصف العام فهذه قضية مهمة.

المقصود أن من قاس هذه الأمور بعمر الإنسان فإنه قد يستشكل مثل هذه المعاني، ومن قاسها بعمر الأمم فإن ذلك يظهر له واضحاً، فإذا كان هؤلاء اليهود يستذلهم الرومان منذ عهد قسطنطين وقتلوهم في أنحاء المملكة القسطنطينية أو الرومانية وفعلوا بهم ما هو معروف في التاريخ واستمر ذلك ثم جاء المسلمون وفعلوا بهم ما هو معروف، فلو فرضنا أنهم قامت لهم دولة في القرن الخامس الهجري لمدة خمسين سنة أو سبعين سنة أو ثمانين سنة، ثم بعد ذلك انتهت وأحرقوا في داخلها، فإن هذا لا يخرجهم عن الحكم والوصف العام في خط التاريخ الطويل، وهذا مثل ما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم))[1] فإذا وجدت حالة من الارتفاع خلال فترة قصيرة من فترات الانحدار فإن هذا لا يعد في القياس والحساب أنه ارتفاع وانقلاب للحكم وتغير فيه بل هو جزء من هذا الانحدار وإن وجد فيه هذا النتوء اليسير، وهكذا اليهود هم بهذه الطريقة، فلو حصلت لهم قوة في وقت من الأوقات فإن مثل هذا لا يكون رفعة في حقهم، ولا تغيراً في حكمهم، بل يبقى الحكم العام في حقهم فهو الغالب.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: الفتن - باب: لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه (٦٦٥٧) (ج ٦ / ص ٢٥٩١).

ولذلك لما ذكر للحسن البصري –رحمه الله– في قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((لا يأتي على الناس زمان)) قالوا: فما القول في زمان عمر بن عبد العزيز الذي هو أفضل من زمن الحجاج مع أنه بعده، فقال: لا بد للناس من تنفيس.

فإذا نظرت إلى حال الأمة من عهد الصحابة إلى يومك هذا وجدت أن القضية في نزول، لذلك فوجود عهد مثل عهد عمر بن عبد العزيز في فترة من الفترات لا يغير الحكم العام، والله أعلم.

"وقوله تعالى: {وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ} [(٦١) سورة البقرة] **قال الضحاك: استحقوا الغضب من الله، وقال ابن جرير: يعني بقوله: {وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ} انصرفوا ورجعوا."**

تقول: باءَ أصله من المباءة، والمباءة هي المكان الذي يرجع إليه الناس بعد تفرقهم وانتشارهم، ومعنى {بَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ} أي: رجعوا فيه.

"ولا يقال: باء إلا موصولاً إما بخير وإما بشر، يقال منه: باء فلان بذنبه يبوء به بوءاً وبواء، ومنه قوله تعالى: {إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ} [(٢٩) سورة المائدة] **يعني تنصرف متحملهما وترجع بهما قد صارا عليك دوني، فمعنى الكلام إذاً رجعوا منصرفين متحملين غضب الله قد صار عليهم من الله غضب ووجب عليهم من الله سخط.**

وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [(٦١) سورة البقرة] **يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة وإحلال الغضب بهم من الذلة بسبب استكبارهم عن اتباع الحق وكفرهم بآيات الله وإهانتهم حملة الشرع، وهم الأنبياء وأتباعهم، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم، فلا كفر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير الحق."**

وهذا كما يصلح أن يكون مثالاً لما سبق مما ذكرته وهو أن الحكم الخاص قد يعقب بما هو أعم منه، ليدلل بذلك على أن كل من عمل بهذا العمل فإنه قد يناله مثل هذا العقاب، فهم لماذا ضربت عليهم الذلة والمسكنة؟ لكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء، فذلك لا يختص بهم بل إن من فعل فعلهم فإنه يستحق مثل هذه العقوبة، وهذا كثير في القرآن، وتارة يذكر هذا بإبراز العمل الذي حصل فيه دون التعقيب عليه بمثل هذا.

وقوله –تبارك وتعالى– هنا: **{وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ}** [(٦١) سورة البقرة] هنا سؤال يرد وهو هل يعتبر مفهوم المخالفة هنا بحيث إن قتل النبيين يمكن أن يكون بحق؟

لا يمكن أن يكون كذلك؛ وإنما قيده هنا هذا التقييد ليسجل عليهم عظم جرمهم، وعلى كل حال هذا أسلوب عربي معروف، فيكون قوله: **{بِغَيْرِ الْحَقِّ}** من قبيل الوصف الكاشف للحقيقة الواقعة دون أن يكون مقيداً؛ لأن هذا القيد لا مكان له؛ إذ إن قتل النبيين لا يمكن أن يكون بحق إطلاقاً كما قال الله –عز وجل–: **{وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ}** [(١١٧) سورة المؤمنون] هل يمكن أن يدعو الإنسان إلهاً آخر له به برهان؟

لا يمكن ذلك، وإنما تكون هذه من قبيل الصفة الكاشفة لبيان الحقيقة الواقعة، دون أن يكون ذلك قيداً، وإنما يكون هذا الأسلوب قيداً فيما لو كان النوع الآخر أو المثال الآخر أو الصورة الأخرى يمكن أن تقع، مثل لو قلت: الذي يقتل الناس بغير الحق فإنه متوعد بكذا وكذا، طبعاً الصورة الأخرى هي أنه يمكن أن يكون قتل

الناس بحق، أما هنا فلا يمكن أن يقع قتل الأنبياء بحق أبداً، فيكون ذلك من قبيل التسجيل عليهم شناعة جرمهم، كأنه ينادي عليهم بذلك ويكون ذلك من باب التأكيد، ومثل هذا قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم} [(٣٨) سورة الأنعام] والطائر إنما يطير بجناحيه.

وقوله: {يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [(٧٩) سورة البقرة] والكتابة إنما تكون بالأيدي، لا بالأرجل.

وقوله أيضاً: {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم} [(١٦٧) سورة آل عمران] والإنسان إنما يتكلم بفمه.

وهذا كما تقول: أمشيتَ إليه برجلك؟، كل هذا من باب التأكيد، والله تعالى أعلم.

"ولهذا جاء في الحديث المتفق على صحته أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الكبر بطر الحق وغمط الناس))[2].

وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله يعني ابن مسعود -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتله نبي أو قتل نبياً، وإمام ضلالة، وممثل من الممثلين))[3]."

الممثلون يقصد بهم أصحاب التصاوير..

"وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [(٦١) سورة البقرة] وهذه علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به أنهم كانوا يعصون ويعتدون، فالعصيان فعل المناهي، والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه والمأمور به، والله أعلم.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٦٢) سورة البقرة].

لما بيَّن تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره وتعدى في فعل ما لا إذن فيه وانتهك المحارم وما أحل بهم من النكال، نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع فإن له جزاءً الحسنى، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة، كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه كما قال تعالى: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٦٢) سورة يونس]، وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} [(٣٠) سورة فصلت]."

قوله: {أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا} هذا باعتبار أن الخوف والغم من أمر مستقبل متوقع، والحزن هو الغم من أمر فائت، فنفى عنهم هذا وهذا.

---

[2] - أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان - باب: تحريم الكبر وبيانه (٩١) (ج ١ / ص ٩٣).

[3] - أخرجه أحمد (ج ١/ ص ٤٠٧) والطبراني في الكبير (ج ١٠ / ص ٢١١) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٨١).

وهذه الآية: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٦٢) سورة البقرة] هي قطعاً في الأمم التي كانت قبل مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإن الله -عز وجل- قد أرسل الرسل وأنزل الكتب فمن تبع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وقبل دعوتهم واستجاب لهم فإن الله وعده بالرحمة والجنة، وأما بعد مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- فإنه لا يقبل من أحد سوى الإسلام، {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ} [(٨٥) سورة آل عمران] والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار))[٤].

وكذلك أيضاً النصوص الكثيرة الواردة في مثل هذا المعنى، وبالتالي فإنه لا يجوز لأحد أن يفتري على الله -عز وجل- ويقول: إن هؤلاء اليهود أو النصارى أو أمم الكفر من البوذيين وغيرهم على شيء، وإنهم تحصل لهم النجاة أو إنهم أهل إيمان، أو أنه يتوقف في أمرهم أو نحو ذلك فهذا محادة لله -عز وجل- وتكذيب للنبي -صلى الله عليه وسلم- وللقرآن، وهو كفر مخرج من الملة؛ إذ لا يجوز لأحد أن يتوقف في أمر هؤلاء، فالنصوص واضحة ومتضافرة على أنهم كفار، وأنهم مخلدون في النار، النصوص في ذلك كثيرة جداً، وهذه الآية تُحمل على من حصل لهم الإيمان في الوقت الذي جاءهم فيه الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يعني إبان بعثة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لهم، ففي زمن موسى -صلى الله عليه وسلم- مثلاً من آمن به دخل الجنة، ومن كذبه وكفر به دخل النار، وكذلك لما جاء عيسى -عليه الصلاة والسلام- لبني إسرائيل فالذين آمنوا به واتبعوه هم أهل النجاة، والذين كذبوا به لا ينفعهم البقاء على ما كانوا عليه قبل بعث عيسى -صلى الله عليه وسلم-، ولما بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- فإنه لا يقبل من أحد سوى دين الإسلام، والقرآن واضح وصريح في هذا.

"روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [(٦٢) سورة البقرة] **الآية قال: فأنزل الله بعد ذلك:** {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(٨٥) سورة آل عمران] **فإن هذا الذي قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملاً إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد -صلى الله عليه وسلم- بعد أن بعثه بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل نجاة، فاليهود أتباع موسى -عليه السلام- الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم، واليهود من الهوادة وهي المودة."**

هذه الآية نظير الآية التي في سورة المائدة {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى} [(٦٩) سورة المائدة] ، وقد جاء في سورة الحج ذكر المجوس، ولكنه في ذلك المقام ذكر الفصل بينهم والحكم، {وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا} [(١٧) سورة الحج]، فالحاصل أن تلك الآية ليست في هذا الموضوع الذي

---

4 - أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان - باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١٥٣) (ج ١ / ص ١٣٤).

تحدثت عنه آية البقرة وآية المائدة، بل تلك في الفصل بين الأمم، أي بين الطوائف، وهذا في وعد المستجيبين لله -عز وجل- بالجنة والرحمة.

يقول: **واليهود من الهوادة وهي المودة،** بمعنى أنه يود بعضهم بعضاً، فهذه المودة موجودة بينهم والله -عز وجل- قد فرض ذلك عليهم كما هي الموالاة بين أهل الإيمان، وقد حرم الله -عز وجل- على اليهودي أن يقتل اليهودي أو أن يأسره، كما دل على ذلك قوله -تبارك وتعالى-: **{ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}** [(٨٥) سورة البقرة] أي أنه يحرم على اليهودي أن يخرج اليهودي من بلده أو أن يقتله أو يعين على قتله، فالله فرض عليهم هذا وألزمهم بهذه المودة.

فبعضهم يقول: الهوادة هي من المودة، وبعضهم يقول: هي من النسب، نسبة إلى جد لهم وهو ابن يعقوب -عليه الصلاة والسلام- فأحد أولاد يعقوب اسمه يهوذا، والعرب أبدلت الذال دالاً كما يجري ذلك في لغاتها من إبدال الحرف مكان الحرف لا سيما الأعجمي، فإن القاعدة في ذلك كما قيل: أعجمي فالعب به، فالعرب لا تبالي حينما تنقل وتغير وتبدل الأسماء الأعجمية أو الأوصاف أو غير ذلك مما هو في كلام الأعاجم بما يتناسب مع ألسنتها وفطرتها اللغوية دون أن تلوي اللسان بمثل هذه الكلمات كما يلوي الأعجمي لسانه، وكما يفعل بعض الناس اليوم ويظن أن ذلك لوناً من المهارة، والحذق، وما علم أن ذلك من ألوان القططية -إن صح التعبير-.

المقصود أن قوله: **{إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ}** [(١٥٦) سورة الأعراف] يمكن أن يحمل على معنى ثالث مشهور وربما كان هو المتبادر، وربما كان هو أشهر هذه الأقوال، أنه من هاد يهود، أي رجع، **{هُدْنَا إِلَيْكَ}** بمعنى تبنا إليك، ورجعنا إليك، **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ}** أي رجعوا إلى الله -عز وجل- وتابوا إليه، أي: قيل لهم يهود بهذا الاعتبار، وهذا مثل قولك: يا صاحب الذنب هُدْ هُدْ، يعني ارجع ارجع، والله أعلم.

"واليهود من الهوادة وهي المودة أو التهود وهي التوبة كقول موسى -عليه السلام-: {إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ} [(١٥٦) سورة الأعراف] أي تبنا، فكأنهم سموا بذلك في الأصل لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض، وقيل: لنسبتهم إلى يهودا أكبر أولاد يعقوب."

قوله: **وقيل: لنسبتهم إلى يهودا أكبر أولاد يعقوب،** مع أنه من ناحية النسب ليس كل اليهود ينتسبون إلى يهوذا وإنما أحد الأسباط هو الذي ينتسب إليه فقط.

"وقال أبو عمرو بن العلاء: لأنهم يتهودون أي يتحركون عند قراءة التوراة."

هذا معنى رابع وهو بمعنى يتحركون ويهتزون عند قراءة التوراة، وهذا التحرك والاهتزاز يفعله بعض الناس عند قراءة القرآن، لذلك يقول بعضهم: هذه عادة يهودية، لا يجوز للمسلم أن يفعلها؛ لأنها من قبيل التشبه باليهود عند قراءة التوراة، وجاء في هذا بعض الإسرائيليات وبعض الأخبار، وبعض الآثار أيضاً، فالله تعالى أعلم.

" فلما بعث عيسى -صلى الله عليه وسلم- وجب على بني إسرائيل اتباعه والانقياد له، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى، سموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال لهم أنصار أيضا كما قال عيسى -عليه

السلام-: {مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ} [(٥٢) سورة آل عمران] وقيل: إنهم إنما سموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها: ناصرة، قاله: قتادة وابن جريج وروي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- أيضاً، والله أعلم."

إما أنهم نزلوا أرضاً يقال لها: ناصرة، أو أن هذه البلدة التي يقال لها: الناصرة في الشام هي قرية المسيح -عليه الصلاة والسلام-، فنسبوا إليها، وكل ذلك لا يوجد ما يدل عليه، لا في تسمية اليهود، ولا في تسمية النصارى، لكن ربما كان المتبادر أن النصارى قيل لهم ذلك؛ لأن الحواريين منهم قالوا: نحن أنصار الله، والله تعالى أعلم.

"والنصارى جمع نصران كنشاوى جمع نشوان."

أي يقال: نصارى، ويقال: نصراني، فالياء تكون للنسبة وقد تأتي للمبالغة، وإلا فهو نصران، والنصارى جمع نصران، ومثله: نشوان وسكران، فتقول: نصارى ونشاوى وسكارى، وما أشبه ذلك

"وسكارى جمع سكران، ويقال للمرأة: نصرانة، فلما بعث الله محمداً -صلى الله عليه وسلم- خاتماً للنبيين، ورسولاً إلى بني آدم على الإطلاق وجب عليهم تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر والانكفاف عما عنه زجر، وهؤلاء هم المؤمنون حقاً."

كل ما سبق ذكره يريد أن يصل به إلى هذه النتيجة، وهي أن هؤلاء الذين وعدهم الله -عز وجل- بنفي الحزن والخوف عنهم إنما كان لمن استجاب منهم للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- حينما دعوهم إلى دين الله، فلما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يقبل من أحد سوى الإسلام، وقد قال -عليه الصلاة والسلام-: ((والذي نفسي بيده لو أن موسى -صلى الله عليه وسلم- كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني))[٥] فلا يقبل من أحد ديناً سوى الإسلام.

وهذه القضية نحتاج إلى تقريرها وتوضيحها للناس الآن مع أنها من البدهيات، فنحن في زمان تعقد فيه المؤتمرات للتقريب بين الأديان مما يدل على أن القضية أخطر مما يتصوره الكثيرون.

وهناك جهود أيضاً تبذل في هذا السبيل قد أعد لها من المنشآت والخطط ما الله به عليم، وإذا نظرت إلى التوصيات أو الخطط التي كتبت في هذا تجد أشياء عجيبة جداً، حيث تجد مَن أول من دعا إليها، ومتى دعي إليها، ومن الذي قام بهذه الدعوة، وماذا يريدون من ورائها، وأمور كثيرة ينبغي أن يعرف الناس بها في مثل هذه الأيام؛ لأن الدعوة تزداد، مع ما يحصل وما ترون تحت مسمى التقريب بين الأديان لتذويب المسلمين، وصدهم عن دينهم تحت هذه الخدعة الكبيرة، ومن أكبر الدعاة لهذا -الآن- في هذا العصر (رجاء جارودي) الفيلسوف الفرنسي المعروف الذي قالوا عنه: إنه دخل في الإسلام، والواقع أنه لم يدخل في الإسلام وإنما دخل في لون من الزندقة، فهو زنديق على طريقة الفلاسفة وعنده من قضايا عقائد أهل وحدة الوجود، وأمور

---

[5] - أخرجه أحمد (ج ٣ / ص ٣٨٧) وابن أبي شيبة (ج ٥ / ص ٣١٢) والبيهقي في شعب الإيمان (ج ١ / ص ١٩٩) وحسنه الألباني في المشكاة (١٧٧).

مخزية كثيرة، فمثل هذا لا يفرح به، ولا يفتخر به، ولا يذكر في مقام، فهو له منظمة تتبنى هذه القضية، وعقد عدداً من المؤتمرات وشارك في كثير منها، وهو من أكبر الدعاة لهذا في هذا العصر.

إننا بحاجة إلى أن نطالبهم بما كتبه بابا الفاتيكان في فترة مضت –ليست بعيدة– حينما أقروا أن ما يقال عن المسيح إنما يعرف بما يقوله المسلمون، حيث أصدروا بياناً في هذا تبنى أن قضية المسيح إنما يسأل عنها المسلمون، وذلك بعد أن وجدوا بعض الأشياء في البحر الميت، حيث وجد بعض الرعاة قطعاً من التوراة أو الكتب القديمة، فلما قرئت وجد فيها التصريح ببعث النبي –صلى الله عليه وسلم– وذكر فيها ما يحصل من تبديل اليهود وأن المسيح –عليه الصلاة والسلام– سيأتي ويغلو فيه النصارى ويجاوزون الحد فيه، ثم يأتي النبي الذي يصحح لهم هذا المسار وينفي هذا الغلو، ويدعوهم إلى الإسلام وما أشبه ذلك..الخ.

لما وجدوا هذا الكلام دعا بابا الفاتيكان إلى الاجتماع بالمسلمين، وبعد أن وجه هذه الدعوة وُجد مقتولاً، ثم جاء الذي بعده فجمع النصارى ولم يجمع إليهم المسلمين ثم تشاوروا وتحدثوا عن مثل هذه الموجودات، وما يقال عن المسيح.

الحاصل أنهم أقروا وأصدروا وثيقة بهذا المعنى وأرسلوا صورة منها إلى الأزهر، وصورة منها إلى رابطة العالم الإسلامي، وفيها إدانة كبيرة لليهود والنصارى في العالم، وكان من ضمن التوصيات والقرارات التي ذكروها وصرحوا بها إيقاف التنصير في العالم الإسلامي، باعتبار أن دين الإسلام دين حق وصحيح، وأن حقيقة المسيح إنما تعرف بما يقوله المسلمون.

هذا الذي نحتاج أن نظهره وأن تكتب عنه الصحف وتأتي التعليقات عليه من قبل أهل الفكر، فهذه القضية هي قضية العصر فهي قضية كبيرة، ولكن للأسف الشديد أن الواقع الذي يعلن عنه ويدعى إليه خلاف ذلك، فالدعوة المعاصرة هي دعوة إلى التقريب بين الأديان فهذا الأمر وللأسف هو الذي يسمع عنه الناس اليوم.

والأعجب من ذلك أنك تجد بعضهم يتفلسف فيقول: ذهبنا لدعوتهم! مع أنه يعلم بل هو أول من يعلم أن المقام ليس مقام دعوة، وإنما المقام أن تجلس معهم، وفي أحسن أحوالك أن تجلس جلوس الند على طاولة مستديرة ليس فيها أحد في مجلس الرئيس أو في آخر الطاولة، فهي مستديرة يستوي فيها جميع الأطراف فيحصل التحاور في التقارب بين هذه الأديان والتعايش!.

وقد بنيت بعض المجمَّعات في بعض البلاد الشرقية وفي أوروبا حتى أدخلوا فيها بعد ذلك البوذية وما اقتصرت على اليهودية والنصرانية، فتجد معبداً يهودياً أو كنيسة أو مسجداً وترى فيه بعض الصور والرسومات بحيث تشير إلى وحدة الأديان، بل صارت تقام أحياناً مشاركة في صلوات في مناسبة من المناسبات وغير ذلك، وهذا كله داخل في هذا المعنى، فالمقصود أن مثل هذه الآية **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ}** قد يلبس فيها بعض الناس ويقول: إن القرآن دل على هذا، والله المستعان..

ومن الآيات التي يخطئ بعض الناس في فهمها أو يلبس فيها أهل التلبيس قوله –تبارك وتعالى–: **{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى}** [(٨٢) سورة المائدة]، فهم يقرءونها دون أن يكملوها ليلبسوا فيها على الناس، وإنما الآية تعرف بما بعدها **{ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ* وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ**

تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ* وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ} [(٨٢-٨٤) سورة المائدة]، فهل هؤلاء يقولون مثل هذا الكلام؟

هذه نزلت في مثل النجاشي وعبد الله بن سلام –رضي الله عنه-، ولم تنزل في هؤلاء الذين يحاربون الإسلام صباح مساء، فهؤلاء يلبسون بمثل هذه الآيات على الناس، وإلا فإن النصارى هؤلاء ليسوا أقرب مودة إلينا من اليهود بل هم مثل اليهود، وأشد من اليهود، ولا فرق بينهم وبين اليهود، وهم من المغضوب عليهم؛ فإن من عرف الحق وتركه، فإنه يكون من أهل الغضب، فهؤلاء جمعوا بين الغضب والضلال.

"وسميت أمة محمد –صلى الله عليه وسلم- مؤمنين؛ لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية."

تأمل في قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى}** [(٦٢) سورة البقرة]، فمع أن الذين هادوا والنصارى حينما بعث إليهم موسى –صلى الله عليه وسلم- آمن منهم من آمن، ومع ذلك خص الذين اتبعوا محمداً صلى الله عليه وسلم- بالإيمان والسبب في ذلك أنهم تميزوا بكمال إيمانهم سواء من جهة الثبوت أو من جهة متعلقه بكثرة شرائع الإسلام، فالشريعة الإسلامية أوسع من غيرها، فيكون ذلك أكمل في الإيمان؛ لأن الإيمان قول وعمل، فالتميز بصفة من الصفات يكون سبباً للتسمية أحياناً، ولهذا لما ذكر الله المؤمنين قال –عز وجل-: **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ}** [(١١٠) سورة آل عمران] فقدم الأمر بالمعروف وأخر الإيمان، ولما ذكر أهل الكتاب قال: **{مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ* يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}** [(١١٣-١١٤) سورة آل عمران] فأخر الأمر بالمعروف وقدم الإيمان في حقهم، فيمكن أن يقال في هذا والله أعلم: إنه لما كانت هذه الأمة متميزة بهذا الأمر –الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- وإن كان موجوداً عند من قبلهم لكنه عند هذه الأمة أظهر قُدم، وأُخر في حق غيرهم، ربما يكون السبب هو ذلك والعلم عند الله –عز وجل-.

"وأما الصابئون فقد اختلف فيهم، فقال سفيان الثوري: عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد قال: الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى، وليس لهم دين، وكذا رواه ابن أبي نجيح عنه وروي عن عطاء وسعيد بن جبير نحو ذلك."

قوله: **قوم بين المجوس واليهود والنصارى** يعني ليسوا من المجوس ولا من اليهود ولا من النصارى، فليس دينهم مشترك، يعني ليسوا على دين المجوس ولا على دين النصارى ولا على دين اليهود.

وأصل الصابئ يقال لمن خرج من دين إلى دين، فمن خرج أو مال من دين يقال له: صابئ، والنبي –صلى الله عليه وسلم- قالوا عنه صابئ، ويقولون عن من أسلم إنه صبأ فهو صابئ، بمعنى خرج عن دينه.

وبعضهم يقول: إنهم كانوا يقولون ذلك نسبة ينسبونهم فيها إلى الصابئة؛ لأنهم كانوا على غير دين من الأديان التي كانت موجودة آنذاك، أي: ليسوا على الإشراك، ولا على اليهودية، ولا على النصرانية، وإنما هم قوم على الفطرة.

والأقوال في معنى الصابئة كثيرة، والناس مختلفون في هذا، وربما كان ذلك -والله تعالى أعلم- بسبب تعدد من يطلق عليهم أنهم صابئة، فالصابئة تطلق على طائفة من طوائف النصارى، وتطلق على قوم من عبدة الكواكب حتى قيل: هم الذين مر بهم إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وناظرهم المناظرة المعروفة في سورة الأنعام {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا..} [(٧٦) سورة الأنعام] الآيات، وتطلق أيضاً الصابئة على قوم هم على الفطرة، ليسوا على شيء من الأديان التي كانت موجودة من اليهودية أو النصرانية أو الإشراك، وإنما بقوا على الفطرة فهذه الإطلاقات موجودة ومعروفة.

إذا أردنا هنا أن نفسر الصابئة فلا يصح أن نفسرها بعبدة الكواكب، وهم لا زالوا يوجدون في العراق إلى اليوم، وتسمى طائفة الصابئة، وهذا موجود في بعض الإحصاءات عن الديانات الموجودة في العراق، حيث يذكرون نسبة قليلة جداً، وعلى كل حال فهؤلاء لا يمكن أن تحمل عليهم الآية.

وما بقي إلا أن تحمل الآية على هذه الطائفة من النصارى، أو من أهل الكتاب عموماً حيث يقولون: هم يقرءون الزبور فإن كانوا على التوحيد يمكن أن يفسر به، أو يقال -وهو الأشهر والأقرب والله تعالى أعلم- إنهم قوم على الفطرة ليسوا على دين من الأديان الموجودة -في ذلك الوقت وأما الآن فلا يقبل من أحد سوى الإسلام- فهؤلاء الذين كانوا على الفطرة ولم يقعوا في شيء من الإشراك وإنما يعبدون الله -عز وجل- بحسب ما يتوصلون إليه، فمثل هؤلاء وعدهم الله -عز وجل- بالمغفرة أو بنفي الخوف والحزن عنهم، بمعنى أنهم يدخلون الجنة وينجون من النار.

"وقيل: فرقة من أهل الكتاب يقرءون الزبور، وقيل: قوم يعبدون الملائكة وقيل: قوم يعبدون الكواكب."

على كل حال كتبت كتابات خاصة في الصابئة، وكذلك في الكلام على الملل والنحل، ولما تقرأ ما كتبه الشهرستاني تجده تكلم كثيراً عن الصابئة وما يراد بهم، وغيرها من الطوائف، حيث تكلم بكلام طويل مفصل عن الصابئة، وتوجد أيضاً رسائل خاصة للصابئة مطبوعة، وتوجد كتابات هنا وهناك تختص بهم ونشرت في بعض المجلات، كما كتب بعض الكتاب المصريين من طبقة أحمد تيمور باشا -رحمه الله- وأمثاله، حيث كتب رسالة صغيرة في الصابئة طبعت قديماً، والله أعلم.

"وأظهر الأقوال -والله أعلم- قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم باقون على فطرتهم، ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه، ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئ، أي إنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك، وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي، والله أعلم."

قوله: **الذين لم تبلغهم دعوة نبي**، يمكن أن يقال: هؤلاء أهل الفترة، والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٢٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ* ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ} [(٦٣-٦٤) سورة البقرة].

"يقول تعالى مذكراً بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل فوق رءوسهم ليُقروا بما عوهدوا عليه ويأخذوه بقوة وجزم وهمَّة وامتثال."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تبارك تعالى هنا: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ}** يعني واذكروا إذ أخذنا ميثاقكم، والميثاق سبق الكلام عليه وأنه العهد الموثق، فالعهد الموثق يقال له: ميثاق.

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ} هذا الميثاق إما أن يكون للعمل بالتوراة، قال تعالى: **{خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ}** [(٦٣) سورة البقرة]، وذلك أن يأخذها أخذاً جاداً من غير تشهٍ ولا تذوق، ومن غير إيمان ببعض الكتاب وكفر ببعض، قال تعالى: **{أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}** [(٨٥) سورة البقرة] فمن لم يلتزم أحكام شرع الله -عز وجل- وكان مضيعاً مفرطاً أو آمن ببعض الكتاب وكفر ببعضه لا يكون ممن أخذ به بقوة، وقد قال تعالى آمراً بأخذ الدين بقوة: **{يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ}** [(١٢) سورة مريم] يعني بعزم وجد، والمراد الأمر بالاستقامة على أمر الله -عز وجل- والتلقي عنه تلقياً كاملاً، والعمل بمرضاته من غير تضييع شيء من ذلك، فهذا هون الميثاق، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: قد يكون هذا الميثاق الذي أخذ عنهم كان على أمر معين لم يذكر هنا، وعلى كل حال فالله أخذ عليهم الميثاق وأمرهم أن يأخذوا ما آتاهم بقوة، ومما يذكر من الأخبار في هذا ما يذكره المفسرون من أنهم أبوا أن يأخذوا التوراة وأن يعملوا بها، وطلبوا من موسى -صلى الله عليه وسلم- أن يكلموا الله -عز وجل- وأن يكلمهم مباشرة كما كلم موسى، يخاطبهم بالتوراة مباشرة وإلا فإنهم لا يؤمنون، فأخذتهم الصاعقة، ثم لما بعثوا تأبَّوا فرفع فوقهم الطور الجبل من أجل أخذها.

"كما قال تعالى: {وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [(١٧١) سورة الأعراف]."

يعني أنهم تأبَّوا عن أخذها فرفع فوقهم جبل الطور من أجل أن يتلقوها ويقبلوها ويأخذوها، فهم لم يؤمنوا إلا بهذه الطريقة، وعلى كل حال فالطور هو الجبل، وبعضهم يقول: هو بالسريانية الجبل مطلقاً، وبعضهم يقول: الطور هو الجبل الذي فيه شجر، وبعضهم يقول: الطور المقصود به جبل معين، وهو الجبل الذي كلم الله

-عز وجل- عنده موسى، فتكون (أل) عهدية، أي الطور المعهود، وإن كان الطور يطلق على الجبل مطلقاً، لكن (أل) تكون للعهد لجبل معين، وبعضهم يقول: (أل) هنا ليست للعهد، وإنما هي المعرفة، و(أل) المعرفة هي التي تكون دالة على الجنس فحسب دون أن تعود إلى جبل دون جبل، وهذا أمر لا طائل تحته، فالمقصود أنهم لم يؤمنوا إلا برفع جبل فوق رءوسهم، وما هو هذا الجبل؟ هذا أمر ليس تحته طائل ولا يفيد، ولا يترتب عليه عمل، والعلم به لا ينفع، وبالتالي فالخوض في مثل هذه القضايا ينبغي الإعراض عنه، والله أعلم.

"فالطور هو الجبل كما فسره به في الأعراف، ونص على ذلك ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن والضحاك والربيع بن أنس وغير واحد، وهذا ظاهر.

وفي رواية عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- الطور ما أنبت من الجبال وما لم ينبت فليس بطور، وقال الحسن في قوله: {خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ} [(٦٣) سورة البقرة]**: يعني التوراة، وقال مجاهد: {بِقُوَّةٍ} بعمل ما فيه، وقال أبو العالية والربيع: {وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ} يقول: اقرءوا ما في التوراة واعملوا به."**

قوله تعالى: {وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ} يعني أن يكون ذلك مذكوراً عندكم بقلوبكم فلا تحصل الغفلة، وبألسنتكم بتلاوتها وما أشبه ذلك، ويكون أيضاً مذكوراً لكم بأعمالكم وجوارحكم، فاذكروا هنا يشمل هذه الأمور الثلاثة، يعني أن يقوموا بما ألزمهم الله -عز وجل- به وبما ينبغي أن يقوموا به من هذه الجهة، فكل ذلك مطالبون به، بطرد الغفلة والعمل والتلاوة، اذكروا ما فيه ولا تضيعوه وتعرضوا عنه وتكونوا من الغافلين.

"وقوله تعالى: {ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ} [(٦٤) سورة البقرة] **يقول تعالى: ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانثنيتم ونقضتموه، {فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ}** [(٦٤) سورة البقرة] **أي: بتوبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم {لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ}** [(٦٤) سورة البقرة] **بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة."**

{وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [(٦٣) سورة البقرة] أي: من أجل أن تتحقق التقوى لكم، وإنما يكون ذلك بالعمل بالتوراة والإيمان بها قبل ذلك، وأن تكون أحكام الله -عز وجل- وأوامره ونواهيه حاضرة في قلوبهم، {وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} يعني ما في الكتاب من أجل أن تحصل التقوى في قلوبكم، و(لعل) للتعليل إلا في موضع واحد.

يقول: {ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ} [(٦٤) سورة البقرة] أي من بعد هذا الميثاق، وأصل التولي أن يكون بالبدن، أي يدير الإنسان ظهره للشيء ويعرض عنه ببدنه، ولكنه يستعمل في هذا وفي غيره، فكل من ترك شيئاً وأعرض عنه ولم يتمسك به فإنه يكون قد تولى عنه.

{ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ} أي أعرضتم عن العمل بها والتزام أحكامها، وضيعتموها، جعلتموها وراءكم ظهرياً من بعد لك، والله تعالى أعلم.

{فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ} [(٦٤) سورة البقرة] أي رحمة الله واقعة موجودة بأن لم يعجل لكم العقوبة، وكانت رحمته واسعة، وأصل الفضل هو الإفضال ولا شك أن رحمة الله بعباده هي من فضله، وفضل الله -عز وجل- واسع، فهو لا يعاجل الناس بالعقاب، وإنما يرسل إليهم الرسل، وينزل إليهم الكتب، فكان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يتتابعون على بني إسرائيل يسوسونهم.

{وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ* فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} [(٦٥-٦٦) سورة البقرة].

"يقول تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ} يا معشر اليهود ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله، وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت، والقيام بأمره إذ كان مشروعاً لهم فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت."

الشصوص هي تلك السِّنَّارات الحديدية المنثنية المدببة الرأس التي يصطاد فيها السمك.

والحبائل يعني الشباك.

والبرك بأن تُحفر حفرة قريبة من الشاطئ يصل إليها الماء فتتساقط فيها الأسماك، فإذا سقط السمك بفعل الأمواج لا يستطيع أن يرجع مرة أخرى، وهذه البرك معروفة إلى اليوم إذ تجعل بطريقة معينة بحيث يسقط السمك ولا يستطيع الخروج منها، فيأتون وقد اجتمع في هذه الحفرة فيكون قريب المأخذ.

"فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة، وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر، وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر، ومخالفة له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم، وهذه القصة مبسوطة في سورة الأعراف حيث يقول تعالى: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [(١٦٣) سورة الأعراف] القصة بكمالها."

{وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [(٦٥) سورة البقرة] هؤلاء احتالوا بهذه الحيلة، حيث كان يحرم عليهم العمل في يوم السبت أياً كان، فابتلاهم الله -عز وجل- بهذا الطمع، حيث صارت الحيتان في سائر أيام الأسبوع تغور في البحر وتبعد فيه فلا يصلون إليها، فإذا كان يوم السبت جاءت شُرَّعاً قريبةً منهم تتراءى لهم، سهلة الأخذ فذلك جعلهم يحتالون بهذه الحيلة، فوضعوا الشباك في يوم الجمعة فوقعت فيها الحيتان في يوم السبت، فهذه حيلة وهم يقولون: يوم السبت نحن وضعنا يداً على يد، ورجلاً على رجل، ولم نحرك ساكناً، ولم نصطد حوتاً، ولم نفعل شيئاً، أخذناها يوم الأحد، فكان ذلك من الحيلة، فالله -عز وجل- يعلم ولا يخفى عليه شيء، فعاقبهم بهذه العقوبة الشديدة بأن مسخهم قردة **{فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ}** فكانوا قردة، وهو مسخ حقيقي أي صاروا قردة حقيقيين.

وقوله: **{قِرَدَةً خَاسِئِينَ}** أي: صاغرين، فالخاسئ هو الصاغر المبعد، فالإبعاد والصغار يقال لصاحبه: خاسئ. فهذا أصل في ذم الحيل، والرد على أصحابها أياً كانت هذه الحيل، وللأسف صار هذا كثيراً في زماننا، لا سيما في ما يسمى بالمعاملات المالية التي يسمون كثيرا ًمنها إسلامية، وهي لا تعدو أن تكون كما فعل هؤلاء أصحاب السبت حيث احتالوا على الله -عز وجل- بهذه الحيلة وسموا هذه المعاملات القرض الحسن أو القرض المبارك والتمويل المبارك، ومن صور ذلك أن يأتي إنسان يحتاج إلى مليون، فيقولون له: نحن نبيع

لك حديدا ويسجلون عليه حديدا، ثم يقولون: بعناه لك بثمانمائة ألف وهو عليك أقساط بمليون، كل هذه اللفة الطويلة وهو لا يريد حديداً، ولا يفكر بالحديد، ولم يخطر في حياته أن يشتري حديداً، ولم ير الحديد..الخ.
وعلى كل حال فمثل هذا من الحيل.

ومن صور الحيل أن يقول له: أؤجر لك هذه السيارة تأجيراً منتهياً بالتمليك، فيحتالون على الناس بهذه الطريقة وهذا كله من هذا الباب.

قوله تعالى: **{الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ}** [(٦٥) سورة البقرة] السبت المقصود به يوم السبت المعروف، وقيل له ذلك؛ لأن السبت يأتي بمعنى القطع وبعضهم يقول الراحة، ولا فرق بينهما؛ لأنه يوم ينقطعون فيه عن أعمالهم يستريحون فيه، فلا يجوز لهم العمل بشيء من أعمالهم الدنيوية في يوم السبت، يوم القطع ويوم الراحة.

ومن معاني يوم السبت أنه الفرس الذي لا يسبق، وعلى كل حال هو يوم انقطاعهم عن أعمالهم فهم يستريحون فيه، قال تعالى: **{وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}** [(١٦٣) سورة الأعراف]، فقوله: **{وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ}** يعني يوم لا يتوقفون ولا ينقطعون عن عملهم.

"وقال العوفي في تفسيره: عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [(٦٥) سورة البقرة] فجعل الله منهم القردة والخنازير، فزعم أن شباب القوم صاروا قردة وأن الشيخة صاروا خنازير."

الله -عز وجل- قال: **{فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ}** لماذا يقال: إن البعض صاروا خنازير والبعض صاروا قردة؟ فما دام ظاهر القرآن أنهم صاروا قردة فمثل هذا الكلام لا يلتفت إليه، فالذي دل عليه القرآن أنهم صاروا قردة، فلا يؤتى بمثل هذه الأشياء، ولا تقبل، ما دامت لا دليل عليها..

كذلك قول من قال -وهو منقول عن أحد السلف وهو قول معروف مشهور لمجاهد-: إن المسخ كان معنوياً ولم يكن حقيقياً، وهذا أبعد ما يكون، فالله قال لهم: **{كُونُواْ قِرَدَةً}** فكانوا قردة.

وأخبار بني إسرائيل في هذا كثيرة منها أن هذه القرية انقسمت إلى ثلاثة أقسام منهم الذين لم يخرجوا في صبيحة ذلك اليوم من مدينتهم، فبقيت أبوابها مقفلة، فتسور عليهم الذين أنكروا فنظروا فإذا هم قردة، ويزعمون أن الواحد منهم كان يعرف ابن عمه وقريبه فيأتي إليه ويشمه ويبكي، إلى غير ذلك مما ذكر من أخبار بني إسرائيل التي لا يعول عليها، فالمقصود أنهم كانوا قردة، وأخبر الله -عز وجل- عن مصير الذين أنكروا، وسكت عن الذين لم ينكروا هل نجوا أم لم ينجوا كما سيأتي في سورة الأعراف إن شاء الله.

"{فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ} فصار القوم قردة تعاوى لها أذناب بعد ما كانوا رجالاً ونساء.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: إنما كان الذين اعتدوا في السبت فجعلوا قردة فواقاً ثم هلكوا."

معنى فواقاً أي المدة اليسيرة، كما تقول: فواق ناقة، يعني مقدار مدة حلب الناقة، أي مدة قصيرة، ولذلك يقولون: إنهم لم يعيشوا مدة طويلة، ويقولون: إن الذي يمسخ لا يعيش مدة طويلة، وفي بعض الآثار أنه لا

يعيش أكثر من ثلاثة أيام، وأنه لا يأكل ولا يشرب ثم يموت، هكذا يقولون، وهذا الكلام لا دليل عليه لا في الكتاب ولا في السنة.

الذي ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه في أول الأمر -فيما يظهر والله أعلم- لم يطلعه الله -عز وجل- على حقيقة تتعلق بالمسخ وأن الذين مسخوا لا نسل لهم، فلما رأى -صلى الله عليه وسلم- الضب جعل يعد أصابعه بعود معه ولم يأكل منه، وذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه يخشى أنه مما مسخ فهذا بالنسبة للضب، وكذلك الفأرة، لما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن أمة من بني إسرائيل فُقدت لا يُعرف أين هي، قال: ((لا أراها إلا الفأر))[1] وذكر أنها تقع على السمن ولا تقرب الحليب، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- أطلعه الله بعد ذلك أنه لم يجعل لمسخ نسلاً، أي أنهم ينقرضون، لكن هل يبقون ثلاثة أيام فقط، وهل لا يأكلون ولا يشربون أم أنهم يعيشون حتى تنتهي أعمارهم التي جعلها الله -عز وجل- لهم ثم يموتون بعد ذلك وينتهون؟

الله أعلم بهذا، لكن لا يتناسلون، ونحن نعرف أن الفأرة الآن ليست من ذرية أولئك اليهود الذين فقدوا، ونعرف أن هذا الضب ليس أجداده بشر، وأن القردة الموجودة الآن والخنازير ليست هذه أحفادا لليهود، إنما هي قردة حقيقية، فالقردة كانت موجودة قبل مسخ بني إسرائيل، وكذلك الخنازير.

"إنما كان الذين اعتدوا في السبت فجعلوا قردة فواقاً، ثم هلكوا ما كان للمسخ نسل، وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: فمسخهم الله قردة بمعصيتهم، يقول: إذ لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام، قال: ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل، وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق في الستة الأيام التي ذكرها الله في كتابه فمسخ هؤلاء القوم في صورة القردة، وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء، ويحوله كما يشاء.

وقوله تعالى: {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً} [(٦٦) سورة البقرة] أي فجعل الله هذه القرية والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم {نَكَالاً}."

جعل الله هذه القرية، وبعضهم يقول: {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً} أي القردة، يمسخ أهل الاعتداء إلى قردة، وهذا بعيد، وبعضهم يقول: {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً}ا يعني الحيتان جعلت سبباً للنكال بها وهذا أيضاً بعيد، وبعضهم يقول: الأمة التي مسخت جعلها الله نكالاً يعني عبرة وبعضهم يقول: القرية، وبعضهم يقول: العقوبة.

وعلى كل حال فالضمير في قوله: {فَجَعَلْنَاهَا} يمكن أن يرجع إلى القرية، ويمكن أن يرجع إلى العقوبة التي نزلت بها، ويمكن أن يرجع إلى تلك الأمة، وهذه الأمور الثلاثة بينها ملازمة، فالعقوبة نزلت بتلك الأمة فمن نظر في حالها اعتبر حيث جعلها الله عبرة، وكذلك أيضاً تلك العقوبة كانت عبرة.

{فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً} [(٦٦) سورة البقرة] أي ما حل بتلك القرية أي ساكنيها من العقاب، والله تعالى أعلم.

{فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً} يعني عقوبة، فالنكال هو الرجز، وأصله من النكل، والنكل هو القيد، كالقيد يكون في الدابة يمنعها من الانفلات، ونكالاً يعني عقوبة رادعة يعتبر بها الناس.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق - باب: خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال (٣١٢٩) (ج ٣ / ص ١٢٠٣) ومسلم في كتاب: الزهد والرقائق - باب: في الفأر وأنه مسخ (٢٩٩٧) (ج ٤ / ص ٢٢٩٤).

{نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} [(٦٦) سورة البقرة] يعني بعضهم يقول: نكالاً يعني للناس الذين عاصروها، وموعظة لمن جاء بعدهم ممن بلغهم الخبر، لكن الله -عز وجل- يقول: **{نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا}** فهي عبرة للجميع، ويقول: **{وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ}** فهي موعظة لأهل الإيمان.

"{نَكَالاً} أي: عاقبناهم عقوبة فجعلناها عبرة كما قال الله عن فرعون: {فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى} [(٢٥) سورة النازعات].

وقوله تعالى: {لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا} [(٦٦) سورة البقرة] أي: من القرى، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: يعني جعلناها بما أحللنا بها من العقوبة عبرة لمن حولها من القرى، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [(٢٧) سورة الأحقاف]، فجعلهم عبرة ونكالاً لمن في زمانهم وموعظة لمن يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عنهم، ولهذا قال: {وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} المراد بالموعظة ههنا الزاجر أي جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله، وما تحيلوا به من الحيل فليحذر المتقون صنيعهم؛ لئلا يصيبهم ما أصابهم، كما روى الإمام أبو عبد الله بن بطة عن أبي هريرة: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل))[٢] [وهذا إسناد جيد والله أعلم]."

الموعظة بمعنى الأمر والنهي، وبعضهم يقول: الأمر والنهي المقرون بالترغيب أو الترهيب، وليس ذلك بلازم في كل الحالات، ولكنه غالباً يكون مقروناً بالترغيب أوالترهيب وربما كان هذا هو الغالب في عرف الاستعمال للموعظة.

وقد تكون الموعظة بغير أمر ولا نهي فتكون بشيء يحصل ويحدث كما في هذه القصة التي أوردها الله -عز وجل- لتكون موعظة.

وأنت تقول لغيرك فيما حصل له أو حصل لغيره: لعل في ذلك الموعظة، ويقال: العاقل من وعظ بغيره، يعني بما يحصل لغيره، وما يراه في غيره مما يحصل به العبرة، والله أعلم.

---

[2] - أخرجه ابن بطة كما قال السيوطي في الدر المنثور(ج ٣ / ص ٥٩٢) وضعفه الألباني في غاية المرام برقم (١١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٢٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [(٦٧) سورة البقرة].

"يقول تعالى: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة، وبيان القاتل من هو بسببها وإحياء الله المقتول ونصه على من قتله منهم.

روى ابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم ثم أصبح يدعيه حتى تسلحوا وركب بعضهم إلى بعض، فقال ذوو الرأي منهم والنهي: علامَ يقتل بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى -عليه السلام- فذكروا ذلك له فقال: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [(٦٧) سورة البقرة] قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنهم شددوا فشُدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً فأخذوها بملء جلدها ذهباً فذبحوها فضربوه ببعضها فقام، فقالوا: من قتلك؟ فقال: هذا -لابن أخيه- ثم مال ميتاً فلم يعط من ماله شيئاً فلم يورث قاتل بعد، ورواه ابن جرير بنحو من ذلك والله أعلم."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل-: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [(٦٧) سورة البقرة]، وهذه ذكر الله -عز وجل- سببها بعد ذكر هذه القصة حيث قال: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ* فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى} [(٧٢-٧٣) سورة البقرة].

فهنا في قوله: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ} أي لما وقع فيهم ما وقع من التدارؤ -وهو التدافع- في شأن القتيل، كل يدفعه عن نفسه ويرمي به الآخر، فأمرهم لما لجئوا إليه بوحي الله -عز وجل- أن يذبحوا بقرة، {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً} والبقرة هنا نكرة في سياق الإثبات، فهي بمعنى المطلق، والمطلق شائع في جنسه، وإنما الشمول فيه على سبيل البدل، بمعنى أنهم إذا ذبحوا بقرة من الأبقار فإن ذلك يجزئهم أياً كانت هذه البقرة، فليس ذلك من العموم في شيء، وليس فيه قيد البتة.

{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}، والبقرة جنس، بعضهم يقول: التاء فيها للوحدة وبعضهم يقول التاء للتأنيث، فالبقرة جنس يجمع على بقر وأبقار، ويجمع على بيقور، وربما قيل له ذلك؛ لأنه يبقر الأرض بالحفر للحرث.

وقوله تعالى: **{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}** لا شك أن هذه الآية من أعجب الآيات حيث إن الله -عز وجل- أمرهم بذبحها ثم بعد ذلك يضربوا الميت بجزء منها بعد أن فارقت الحياة؛ لأنه لو ضرب بشيء حي ربما قال قائل: إنه اكتسب الحياة من حياته، أي انتقلت إليه الحياة من حياة هذا، لكن أن تذبح حتى تفارق الحياة ثم يضرب بجزء منها فهذا لا شك أنه من أعجب الآيات، كما أن الله -عز وجل- من آياته على إحياء الموتى وقدرته على البعث أن يخرج من الشجر الأخضر ناراً.

وهذه الآيات من المواضع الخمسة في تقرير البعث وقدرة الله -عز وجل- على إحياء الموتى، ويوجد في القرآن زيادة على هذه المواضع الخمسة تأتي إن شاء الله تعالى في مواضعها.

{قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً} [(٦٧) سورة البقرة] وهكذا عادتهم، أي أتستهزئ بنا وتتخذنا مسخرة حيث نتحاكم إليك في مثل هذه القضية ثم تأمرنا أن نذبح بقرة؟

فقال لهم: **{أَعُوذُ بِاللّهِ}** أي ألجأ إلى الله، يعني استعاذ أن يكون من الجاهلين، فدل ذلك على أن الذي يستهزئ بالناس فهو سفيه جاهل، وأن الاستهزاء بعباد الله والسخرية منهم ليس من شأن العقلاء إلا إن كان ذلك في مقام يقتضي هذا فإن ذلك يكون أمراً لا إشكال فيه، فالله -عز وجل- أخبر أنه يستهزئ بالمنافقين كما في قوله تعالى: **{اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ}** [(١٥) سورة البقرة]، والله يستهزئ بمن يستحق ذلك، فالذين يستهزئون بأهل الإيمان يستحقون مثل هذا، وعلى كل حال هذا أدب نتعلمه من هذه الآية.

وهذا الأثر الذي ذكره ابن كثير هو من الآثار المأخوذة عن بني إسرائيل، وبعضهم يقول: لم يجدوها إلا عند امرأة في حجرها أيتام، فهي لهؤلاء الأيتام، وبعضهم يقول غير هذا، وفي سبب القتل الذي وقع بعضهم يقول:إنه أراد أن يرث ابن عمه، وبعضهم يذكر سبباً آخر في قضايا تتعلق بالنكاح وما أشبه هذا، وكل ذلك لا يثبت فيه شيء يمكن أن يعتمد عليه فهي أشياء مأخوذة من بني إسرائيل، وعلى كل حال أياً كان السبب في القتل فهذا لا يعنينا ولا يفيدنا شيئاً، وكذلك الجزء الذي ضربوا به القتيل من البقرة، بعضهم يقول: الفخذ، وبعضهم يقول: الكتف، وبعضهم يقول: هي بضعة من لحم بين الكتفين، وبعضهم يقول غير هذا، فهذا الكلام كله لا فائدة فيه، ولا دليل عليه يمكن أن يوقف عنده، فالله أبهم هذه الأمور فالتشاغل بها مضيعة للجهد والوقت، واشتغال بما لا يغني وترك لمواضع العبر، فيترك الإنسان مثل هذه الأشياء، إذ لن نستفيد شيئاً إذا عرفنا هل ضربوه برجلها أم بيدها.

{قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ* قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ* قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ* قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ} [(٦٨-٧١) سورة البقرة].

"أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم، لهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم كما قال ابن عباس -رضي الله عنهما- وعبيدة وغير

واحد، ولكنهم شددوا فشدد عليهم فقالوا: {ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ} [(٦٨) سورة البقرة] أي ما هذه البقرة وأي شيء صفتها قال: {قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ} [(٦٨) سورة البقرة]."

هذا السؤال مكرر بلفظه مع ما بعده، {مَا هِيَ} [(٦٨) سورة البقرة] قال: {قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ} [(٦٨) سورة البقرة]، {مَا هِيَ} [(٧٠) سورة البقرة] قال: {قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا} [(٧١) سورة البقرة]، والجواب يوضح السؤال، حيث دل ذلك -قطعاً والله أعلم- على أن السؤال الأول إنما كان عن سنها، لا فارض ولا بكر، والسؤال الثالث عن صفتها هل هي مروضة مذللة عاملة أو أنها لا تعمل، ولا حاجة لأن يقال غير هذا، وموسى -صلى الله عليه وسلم- هو نبي الله -عز وجل- وهو يفهم السؤال والمراد والملابسة التي وقعت، وهذه الأشياء إنما تنقل إلينا بالمعنى؛ لأنها من كلام الأعاجم، والترجمة لا يمكن أن تكون حرفية، ولذلك تجدون القصص المذكورة في القرآن تأتي متفاوتة يختصر المقام في موضع، ويبسط في موضع، وكل ذلك حق، ولكنه نقلٌ له بمعناه، مثل: {وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ} [(٢٩) سورة الذاريات]، {قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} [(٧٢) سورة هود]، فالواقعة هي نفس الواقعة، أي أنها تكلمت مرة واحدة، وكذلك في كلام إبليس مع الله -عز وجل- في قصة آدم، وكذلك أخبار الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ما قالوا لقومهم وما أجابهم قومهم به إلى غير ذلك، فالمقصود أن هذا السؤال إنما هو عن السن.

"{إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ} [(٦٨) سورة البقرة] أي لا كبيرة هرمة ولا صغيرة لم يلحقها الفحل."

لا يصح أن يقال: لم يلحقها وإنما الصواب أن يقال: لم يلقحها الفحل.

قوله: {لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ} الفارض الكبيرة الطاعنة في السن، يقال: بقرة فارض، وأصل ذلك الفرض يعود إلى معنى السعة، فكأنه قيل لها ذلك لأنها قطعت سنها أي عمرها فهي في آخره، أي عاشت فترة الصغر والشباب حتى وصلت إلى آخر العمر وهو الشيخوخة، يعني هذه بقرة كبيرة في السن، وربما كان لكثرة ولادتها اتسع بطنها لكثرة ما حملت ووضعت، والخلاصة أن الكبيرة يقال لها فارض، ويقال للقديم أيضاً: فارض، وهذا معروف في كلام العرب، وهنا {لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ}، ويقال أيضاً: ناقة فاطر يعني كبيرة، مثل فارض، وبعض الناس إذا قيل له: أفطر، قال: أنا فاطر، ولا يعلم أن فاطر معناه هرم، أو منشئ أو مبتكر، وإن كان هو يريد أن يقول: أنا أفطرت.

{لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ}، البكر يقال للتي لم يفترعها الفحل، كما أن المولود الأول يقال له: بكر، فيقال: فلان بكر فلانة يعني أنه الولد رقم واحد.

وليس هذا المقصود هنا وإنما المقصود بالبقرة أنها متوسطة فليست الصغيرة التي لم يفترعها الفحل، ولا التي قطعت عمرها، أو ولدت كثيراً وحملت بطوناً كثيرة وإنما هي متوسطة في السن، وربما كان ذلك هو الأكمل في خلقها واستوائها.

"أي لا كبيرة هرمة ولا صغيرة لم يلقحها الفحل كما قاله أبو العالية والسدي ومجاهد وعكرمة وعطية العوفي وعطاء الخراساني ووهب بن منبه والضحاك والحسن وقتادة،، وقاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أيضاً.

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ} [(٦٨) سورة البقرة] **يقول: نَصَفٌ بين الكبيرة والصغيرة، وهي أقوى ما يكون من الدواب والبقر، وأحسن ما تكون.**

نَصَفٌ فإن أتوك فقالوا إنها نصف ... فإنا أفضل نصفيها للذي ذهبا

نَصَفٌ يعني متوسطة في العمر.

وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فَاقِعٌ لَّوْنُهَا} شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض. وقال السدي: تسر الناظرين."

قوله: {فَاقِعٌ لَّوْنُهَا} أي شديدة الصفرة، فالأصفر يقال فيه: أصفر فاقع، والأسود يقال فيه: أسود حالك، وأسود غربيب وأشباه ذلك من الألفاظ التي تؤكد قوة السواد، والأخضر والأزرق يمكن أن يقال فيه: غامق مثلاً.

وقوله: {فَاقِعٌ} يمنع قطعاً قول من قال: إن قوله: {صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا} [(٦٩) سورة البقرة] المراد به السواد؛ فهذا لا يمكن أن يراد بكلام العرب مع تأكيده بالفقوع، فالأسود لا يمكن أن يقال عنه فاقع، وإنما يقال: أسود حالك وغربيب، وإنما يقال ذلك في الصفرة، فالبقرة في لونها صفرة في فقوع، وهو أحسن ما يكون في لون الصفرة، فالألوان على درجات، وهذا أفضل ما يكون فيها ولذلك فقوله: {صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا} أي صفراء وليست سوداء، كما أن البقر لا توصف بالصفرة مراداً بها السواد أبداً، وإنما يختص ذلك بالإبل، فالذي وصف الإبل قال:

تلك خيلي منه وتلك ركابي ... هن صفر أولادها كالزبيب

صفر أي تضرب إلى السواد -سوداء- أولادها كالزبيب، ولون الزبيب معروف، فذلك يقال في الإبل، وأما البقر فلا توصف بالصفرة مراداً بها السواد، كما أن الصفرة لا يمكن أن توصف بالفقوع ويراد بذلك السواد، أبداً، وإنما المراد اللون الأصفر، بقرة صفراء تسر الناظرين، والأسود لا يسر الناظرين.

"وقال السدي: {تَسُرُّ النَّاظِرِينَ} [(٦٩) سورة البقرة] **أي تعجب الناظرين وكذا قال أبو العالية وقتادة والربيع ابن أنس وقال وهب بن منبه: إذا نظرت إلى جلدها تخيلت أن شعاع الشمس يخرج من جلدها، وفي التوراة: أنها كانت حمراء فلعل هذا خطأ في التعريب، أو كما قال الأول: إنها كانت شديدة الصفرة تضرب إلى حمرة وسواد والله أعلم."**

قوله: **فلعل هذا خطأ في التعريب**، يعني أن المترجم ما نقل العبارة صحيحة؛ لأنه ينقل بفهمه، حيث أراد أن يعبر عن صفراء فاقع لونها فعبر بحمراء، أو أنه مما حرف في التوراة، ونحن ما نقل إلينا من كتب بني إسرائيل مما يخالف ما عندنا يرد بلا شك، فهي ليست حمراء.

"وقوله تعالى: {إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا} [(٧٠) سورة البقرة] **أي لكثرتها فميز لنا هذه البقرة وصفها وجلها لنا {وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ} إذا بينتها لنا {لَمُهْتَدُونَ} إليها.**

{قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ} [(٧١) سورة البقرة] **أي إنها ليست مذللة بالحراثة ولا معدة للسقي في الساقية بل هي مكرمة حسنة.**

الذي عليه جماهير المفسرين أن هذا كله يراد به النفي، فهي بقرة لا ذلول أي ليست مذللة، وإنما هي بقرة كما يقال وحشية -لا أقصد أنها من بقر الوحش، أقصد أنها لم تروض- والبقرة أو الناقة إذا كانت لم تروض

فإنها تكون وحشية، وليست معنى وحشية أنها في الصحراء، وإنما المقصود أنها لا يمكن ركوبها أو استعمالها في شيء من الحمل أو الحرث أو السقي أو غير ذلك في البقرة، فالمقصود أن هذه البقرة غير مروضة وغير مذللة، {إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ} [(٧١) سورة البقرة]، لم تذلل، ثم قال: {تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ} المعنى الذي عليه الجماهير هو أنها غير مذللة بالحرث، أي لا تثير الأرض بالمحراث، وغير مذللة بالسقي.

والذي مشى عليه الحافظ ابن كثير –رحمه الله– أنها غير مذللة بالحرث ولا بالسقي، فالكل منفي، {لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ} [(٧١) سورة البقرة]، مع أن الآية تحتمل غير هذا، وقد قيل به، وهو أن المعنى {قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ}، ثم بدأ بجملة مستأنفة لا تعلق لها بالنفي {تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ}، أي من صفتها أنها تثير الأرض ولا تسقي الحرث، وهذا فيما أظن يفسد المعنى، إذ كيف تكون غير مذللة وتكون في نفس الوقت تثير الأرض؟ لأنها إذا كانت تثير الأرض فمعنى ذلك أنها مذللة بالعمل الذي هو الحرث، ولا يمكن اجتماع مثل هذه الأوصاف المتناقضة، فالبقرة لا تفرق بين هذه الأمور ، فهي إذاً ذللت لأنها تستعمل في السقي وفي الحرث، ففي الحرث يربط خلفها المحراث، والسقي توضع عند البئر ويربط بها الدلاء ثم ليس لها شأن إلا أن تذهب إلى الأمام وترجع إلى الوراء، وهكذا في عمل متكرر بحيث يستخرج هذا الدلو العظيم ويسقى في هذه الشواني ثم يجري في السواقي، وعلى كل حال فليس قوله: {تُثِيرُ الأَرْضَ} جملة جديدة استئنافية وإنما هو داخل في النفي، فهي لا ذلول مثيرة للأرض.

"وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: (مسلمة) يقول: لا عيب فيها، وكذا قال أبو العالية والربيع."

وبعضهم يقول: مسلمة يعني من العمل لا تعمل، لكنه قول بعيد، وإنما المقصود أنها مسلمة من العيوب لا عيب فيها بل هي كاملة.

"وقال مجاهد: مسلمة من الشية، وقال عطاء الخراساني مسلمة القوائم والخلق لا شية فيها."

قال الله –عز وجل–: {لاَّ شِيَةَ فِيهَا} [(٧١) سورة البقرة]، أي هي مسلمة من كل عيب من العيوب لا هزال فيها ولا مرض ولا كسر ولا عرج وما أشبه ذلك فهي لا شية فيها.

وعلى قول مجاهد –الشية– تقول: الوشي موشي أكارعه، وهذا وصف لحمار الوحش بمعنى أن القوائم فيها سواد يخالف لونه الذي هو عليه، فالوشي في الثوب أو الثوب الموشى هو الذي داخلَه لون مغاير، فهي صفراء فاقع لونها مسلمة من العيوب {لاَّ شِيَةَ فِيهَا} بمعنى أن لونها هو الصفرة الموصوفة بالفقوع، دون أن يداخله لون آخر، فهي فعلة من الوشي، أي لون آخر يغاير لون الشيء.

{لاَّ شِيَةَ فِيهَا}: بعض السلف فسرها بأنها صفراء القرن والظلف، وهذا التفسير يمكن أن يوجه، فنقول: إنه قصد أن ظلفها وقرنها لا يخالف لونها، بمعنى أن لونها متّحد حتى في القرن والظلف فهو أصفر، فهكذا يوجه مثل هذا القول؛ لأنه نفى الشية، إذ شية نكرة في سياق النفي، وهذا للعموم فلا يوجد فيها لون آخر، ما فيها بقة سوداء في رأسها أو في قوائمها أو نحو ذلك كما تقول: ثور موشى أي أن قوائمه ورأسه –مثلاً– بلون السواد، وهذا أيضاً لا يوجد في هذه البقرة فهي لا شية فيها.

"{فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ} [(٧١) سورة البقرة] **قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: كادوا أن لا يفعلوا ولم يكن ذلك الذي أرادوا؛ لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها يعني أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت، فلهذا ما كادوا يذبحونها، وقال عبيدة ومجاهد ووهب بن منبه وأبو العالية وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنهم اشتروها بمال كثير وفيه اختلاف."**

قوله تعالى: **{وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ}** مثل هذا التركيب وهذا الاستعمال يدل على وقوع الشيء لكن بصعوبة ومشقة فلم يقع ذلك لأول وهلة أو بيسر أو نحو هذا، ما كاد يحصل كذا وكذا، ما كاد فلان يفعل كذا يعني أنه فعل، ولكن بعد التي واللتيا.

{وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ} يعني أنهم فعلوا ذلك بعد طول سؤال وتعنت، وهذا إنما كان لتعنتهم فهم ما كادوا يفعلون؛ لتعنتهم في الأسئلة، وبعض أهل العلم يقول: وما كادوا يفعلون؛ لارتفاع الثمن؛ لأن بقرة بهذا الثمن كيف يشترونها بقيمة مرتفعة جداً، وبعضهم يقول: ما كادوا يفعلون من أجل ألا تقع الفضيحة ويكتشف القتلة، فهم لا يريدون انكشاف الحقيقة ولذلك تأبَّوا وتمنعوا وماطلوا وما كادوا يفعلون.

وعلى كل حال بعضهم يقول: إنهم اشتروها بمساهمات حيث دفع مجموعة من الناس هذا الثمن وحصلوه من الذهب ولم يكن بينهم توافق، بل بينهم اختلاف وشجار ولم يحصل بينهم توافق في مثل هذه القضية وبالتالي فإن ذبح البقرة احتاج إلى عقد مجلس للاتفاق وغير ذلك، وبعضهم يقول: وما كادوا يفعلون؛ لأنهم أصلاً ما حصلوا بقرة بهذه الصفة إلا بصعوبة، والذي يظهر أنهم ما كادوا يفعلون لكثرة تعنتهم وأسئلتهم الفارغة، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٢٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [(٦٧) سورة البقرة].

"يقول تعالى: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة، وبيان القاتل من هو بسببها وإحياء الله المقتول ونصه على من قتله منهم.

روى ابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم ثم أصبح يدعيه حتى تسلحوا وركب بعضهم إلى بعض، فقال ذوو الرأي منهم والنهي: علامَ يقتل بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى -عليه السلام- فذكروا ذلك له فقال: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [(٦٧) سورة البقرة] قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنهم شددوا فشُدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً فأخذوها بملء جلدها ذهباً فذبحوها فضربوه ببعضها فقام، فقالوا: من قتلك؟ فقال: هذا -لابن أخيه- ثم مال ميتاً فلم يعط من ماله شيئاً فلم يورث قاتل بعد، ورواه ابن جرير بنحو من ذلك والله أعلم."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل-: **{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}** [(٦٧) سورة البقرة]، وهذه ذكر الله -عز وجل- سببها بعد ذكر هذه القصة حيث قال: **{وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ* فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى}** [(٧٢-٧٣) سورة البقرة].

فهنا في قوله: **{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ}** أي لما وقع فيهم ما وقع من التدارؤ -وهو التدافع- في شأن القتيل، كل يدفعه عن نفسه ويرمي به الآخر، فأمرهم لما لجئوا إليه بوحي الله -عز وجل- أن يذبحوا بقرة، **{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}** والبقرة هنا نكرة في سياق الإثبات، فهي بمعنى المطلق، والمطلق شائع في جنسه، وإنما الشمول فيه على سبيل البدل، بمعنى أنهم إذا ذبحوا بقرة من الأبقار فإن ذلك يجزئهم أياً كانت هذه البقرة، فليس ذلك من العموم في شيء، وليس فيه قيد البتة.

{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}، والبقرة جنس، بعضهم يقول: التاء فيها للوحدة وبعضهم يقول التاء للتأنيث، فالبقرة جنس يجمع على بقر وأبقار، ويجمع على بيقور، وربما قيل له ذلك؛ لأنه يبقر الأرض بالحفر للحرث.

وقوله تعالى: **{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}** لا شك أن هذه الآية من أعجب الآيات حيث إن الله –عز وجل– أمرهم بذبحها ثم بعد ذلك يضربوا الميت بجزء منها بعد أن فارقت الحياة؛ لأنه لو ضرب بشيء حي ربما قال قائل: إنه اكتسب الحياة من حياته، أي انتقلت إليه الحياة من حياة هذا، لكن أن تذبح حتى تفارق الحياة ثم يضرب بجزء منها فهذا لا شك أنه من أعجب الآيات، كما أن الله –عز وجل– من آياته على إحياء الموتى وقدرته على البعث أن يخرج من الشجر الأخضر ناراً.

وهذه الآيات من المواضع الخمسة في تقرير البعث وقدرة الله –عز وجل– على إحياء الموتى، ويوجد في القرآن زيادة على هذه المواضع الخمسة تأتي إن شاء الله تعالى في مواضعها.

{قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً} [(٦٧) سورة البقرة] وهكذا عادتهم، أي أتستهزئ بنا وتتخذنا مسخرة حيث نتحاكم إليك في مثل هذه القضية ثم تأمرنا أن نذبح بقرة؟

فقال لهم: **{أَعُوذُ بِاللّهِ}** أي ألجأ إلى الله، يعني استعاذ أن يكون من الجاهلين، فدل ذلك على أن الذي يستهزئ بالناس فهو سفيه جاهل، وأن الاستهزاء بعباد الله والسخرية منهم ليس من شأن العقلاء إلا إن كان ذلك في مقام يقتضي هذا فإن ذلك يكون أمراً لا إشكال فيه، فالله –عز وجل– أخبر أنه يستهزئ بالمنافقين كما في قوله تعالى: **{اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ}** [(١٥) سورة البقرة]، والله يستهزئ بمن يستحق ذلك، فالذين يستهزئون بأهل الإيمان يستحقون مثل هذا، وعلى كل حال هذا أدب نتعلمه من هذه الآية.

وهذا الأثر الذي ذكره ابن كثير هو من الآثار المأخوذة عن بني إسرائيل، وبعضهم يقول: لم يجدوها إلا عند امرأة في حجرها أيتام، فهي لهؤلاء الأيتام، وبعضهم يقول غير هذا، وفي سبب القتل الذي وقع بعضهم يقول:إنه أراد أن يرث ابن عمه، وبعضهم يذكر سبباً آخر في قضايا تتعلق بالنكاح وما أشبه هذا، وكل ذلك لا يثبت فيه شيء يمكن أن يعتمد عليه فهي أشياء مأخوذة من بني إسرائيل، وعلى كل حال أياً كان السبب في القتل فهذا لا يعنينا ولا يفيدنا شيئاً، وكذلك الجزء الذي ضربوا به القتيل من البقرة، بعضهم يقول: الفخذ، وبعضهم يقول: الكتف، وبعضهم يقول: هي بضعة من لحم بين الكتفين، وبعضهم يقول غير هذا، فهذا الكلام كله لا فائدة فيه، ولا دليل عليه يمكن أن يوقف عنده، فالله أبهم هذه الأمور فالتشاغل بها مضيعة للجهد والوقت، واشتغال بما لا يغني وترك لمواضع العبر، فيترك الإنسان مثل هذه الأشياء، إذ لن نستفيد شيئاً إذا عرفنا هل ضربوه برجلها أم بيدها.

{قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ* قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ* قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ* قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ} [(٦٨-٧١) سورة البقرة].

"أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم، لهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم كما قال ابن عباس –رضي الله عنهما– وعبيدة وغير

واحد، ولكنهم شددوا فشدد عليهم فقالوا: **{ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ}** [(٦٨) سورة البقرة] أي ما هذه البقرة وأي شيء صفتها قال: **{قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ}** [(٦٨) سورة البقرة]."

هذا السؤال مكرر بلفظه مع ما بعده، **{مَا هِيَ}** [(٦٨) سورة البقرة] قال: **{قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ}** [(٦٨) سورة البقرة]، **{مَا هِيَ}** [(٧٠) سورة البقرة] قال: **{قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا}** [(٧١) سورة البقرة]، والجواب يوضح السؤال، حيث دل ذلك -قطعاً والله أعلم- على أن السؤال الأول إنما كان عن سنها، لا فارض ولا بكر، والسؤال الثالث عن صفتها هل هي مروضة مذللة عاملة أو أنها لا تعمل، ولا حاجة لأن يقال غير هذا، وموسى -صلى الله عليه وسلم- هو نبي الله -عز وجل- وهو يفهم السؤال والمراد والملابسة التي وقعت، وهذه الأشياء إنما تنقل إلينا بالمعنى؛ لأنها من كلام الأعاجم، والترجمة لا يمكن أن تكون حرفية، ولذلك تجدون القصص المذكورة في القرآن تأتي متفاوتة يختصر المقام في موضع، ويبسط في موضع، وكل ذلك حق، ولكنه نقلٌ له بمعناه، مثل: **{وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ}** [(٢٩) سورة الذاريات]، **{قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}** [(٧٢) سورة هود]، فالواقعة هي نفس الواقعة، أي أنها تكلمت مرة واحدة، وكذلك في كلام إبليس مع الله -عز وجل- في قصة آدم، وكذلك أخبار الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ما قالوا لقومهم وما أجابهم قومهم به إلى غير ذلك، فالمقصود أن هذا السؤال إنما هو عن السن.

"{إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ} [(٦٨) سورة البقرة] أي لا كبيرة هرمة ولا صغيرة لم يلحقها الفحل."

لا يصح أن يقال: لم يلحقها وإنما الصواب أن يقال: لم يلقحها الفحل.

قوله: **{لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ}** الفارض الكبيرة الطاعنة في السن، يقال: بقرة فارض، وأصل ذلك الفرض يعود إلى معنى السعة، فكأنه قيل لها ذلك لأنها قطعت سنها أي عمرها فهي في آخره، أي عاشت فترة الصغر والشباب حتى وصلت إلى آخر العمر وهو الشيخوخة، يعني هذه بقرة كبيرة في السن، وربما كان لكثرة ولادتها اتسع بطنها لكثرة ما حملت ووضعت، والخلاصة أن الكبيرة يقال لها فارض، ويقال للقديم أيضاً: فارض، وهذا معروف في كلام العرب، وهنا **{لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ}**، ويقال أيضاً: ناقة فاطر يعني كبيرة، مثل فارض، وبعض الناس إذا قيل له: أفطر، قال: أنا فاطر، ولا يعلم أن فاطر معناه هرم، أو منشئ أو مبتكر، وإن كان هو يريد أن يقول: أنا أفطرت.

{لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ}، البكر يقال للتي لم يفترعها الفحل، كما أن المولود الأول يقال له: بكر، فيقال: فلان بكر فلانة يعني أنه الولد رقم واحد.

وليس هذا المقصود هنا وإنما المقصود بالبقرة أنها متوسطة فليست الصغيرة التي لم يفترعها الفحل، ولا التي قطعت عمرها، أو ولدت كثيراً وحملت بطوناً كثيرة وإنما هي متوسطة في السن، وربما كان ذلك هو الأكمل في خلقها واستوائها.

"أي لا كبيرة هرمة ولا صغيرة لم يلقحها الفحل كما قاله أبو العالية والسدي ومجاهد وعكرمة وعطية العوفي وعطاء الخراساني ووهب بن منبه والضحاك والحسن وقتادة،، وقاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أيضاً.

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ} [(٦٨) سورة البقرة] يقول: نَصَفٌ بين الكبيرة والصغيرة، وهي أقوى ما يكون من الدواب والبقر، وأحسن ما تكون.

نَصَفٌ فإن أتوك فقالوا إنها نـصف   فإنا أفضل نـصفيها للـذي ذهبـا

نَصَفٌ يعني متوسطة في العمر.

وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فَاقِعٌ لَّوْنُهَا} شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض. وقال السدي: تسر الناظرين."

قوله: {فَاقِعٌ لَّوْنُهَا} أي شديدة الصفرة، فالأصفر يقال فيه: أصفر فاقع، والأسود يقال فيه: أسود حالك، وأسود غربيب وأشباه ذلك من الألفاظ التي تؤكد قوة السواد، والأخضر والأزرق يمكن أن يقال فيه: غامق مثلاً.

وقوله: {فَاقِعٌ} يمنع قطعاً قول من قال: إن قوله: {صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا} [(٦٩) سورة البقرة] المراد به السواد؛ فهذا لا يمكن أن يراد بكلام العرب مع تأكيده بالفقوع، فالأسود لا يمكن أن يقال عنه فاقع، وإنما يقال: أسود حالك وغربيب، وإنما يقال ذلك في الصفرة، فالبقرة في لونها صفرة في فقوع، وهو أحسن ما يكون في لون الصفرة، فالألوان على درجات، وهذا أفضل ما يكون فيها ولذلك فقوله: {صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا} أي صفراء وليست سوداء، كما أن البقر لا توصف بالصفرة مراداً بها السواد أبداً، وإنما يختص ذلك بالإبل، فالذي وصف الإبل قال:

تلك خيلـي منـه وتلـك ركـابي   هـن صـفر أولادهـا كالزبيـب

صفر أي تضرب إلى السواد -سوداء- أولادها كالزبيب، ولون الزبيب معروف، فذلك يقال في الإبل، وأما البقر فلا توصف بالصفرة مراداً بها السواد، كما أن الصفرة لا يمكن أن توصف بالفقوع ويراد بذلك السواد، أبداً، وإنما المراد اللون الأصفر، بقرة صفراء تسر الناظرين، والأسود لا يسر الناظرين.

"وقال السدي: {تَسُرُّ النَّاظِرِينَ} [(٦٩) سورة البقرة] أي تعجب الناظرين وكذا قال أبو العالية وقتادة والربيع ابن أنس وقال وهب بن منبه: إذا نظرت إلى جلدها تخيلت أن شعاع الشمس يخرج من جلدها، وفي التوراة: أنها كانت حمراء فلعل هذا خطأ في التعريب، أو كما قال الأول: إنها كانت شديدة الصفرة تضرب إلى حمرة وسواد والله أعلم."

قوله: **فلعل هذا خطأ في التعريب**، يعني أن المترجم ما نقل العبارة صحيحة؛ لأنه ينقل بفهمه، حيث أراد أن يعبر عن صفراء فاقع لونها فعبر بحمراء، أو أنه مما حرف في التوراة، ونحن ما نقل إلينا من كتب بني إسرائيل مما يخالف ما عندنا يرد بلا شك، فهي ليست حمراء.

"وقوله تعالى: {إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا} [(٧٠) سورة البقرة] أي لكثرتها فميز لنا هذه البقرة وصفها وجلها لنا {وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ} إذا بينتها لنا {لَمُهْتَدُونَ} إليها.

{قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ} [(٧١) سورة البقرة] أي إنها ليست مذللة بالحراثة ولا معدة للسقي في الساقية بل هي مكرمة حسنة.

الذي عليه جماهير المفسرين أن هذا كله يراد به النفي، فهي بقرة لا ذلول أي ليست مذللة، وإنما هي بقرة كما يقال وحشية -لا أقصد أنها من بقر الوحش، أقصد أنها لم تروض- والبقرة أو الناقة إذا كانت لم تروض

فإنها تكون وحشية، وليست معنى وحشية أنها في الصحراء، وإنما المقصود أنها لا يمكن ركوبها أو استعمالها في شيء من الحمل أو الحرث أو السقي أو غير ذلك في البقرة، فالمقصود أن هذه البقرة غير مروضة وغير مذللة، {إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ} [(٧١) سورة البقرة]، لم تذلل، ثم قال: {تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ} المعنى الذي عليه الجماهير هو أنها غير مذللة بالحرث، أي لا تثير الأرض بالمحراث، وغير مذللة بالسقي.

والذي مشى عليه الحافظ ابن كثير –رحمه الله– أنها غير مذللة بالحرث ولا بالسقي، فالكل منفي، {لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ} [(٧١) سورة البقرة]، مع أن الآية تحتمل غير هذا، وقد قيل به، وهو أن المعنى {قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ}، ثم بدأ بجملة مستأنفة لا تعلق لها بالنفي {تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ}، أي من صفتها أنها تثير الأرض ولا تسقي الحرث، وهذا فيما أظن يفسد المعنى، إذ كيف تكون غير مذللة وتكون في نفس الوقت تثير الأرض؟ لأنها إذا كانت تثير الأرض فمعنى ذلك أنها مذللة بالعمل الذي هو الحرث، ولا يمكن اجتماع مثل هذه الأوصاف المتناقضة، فالبقرة لا تفرق بين هذه الأمور ، فهي إذاً ذللت لأنها تستعمل في السقي وفي الحرث، ففي الحرث يربط خلفها المحراث، والسقي توضع عند البئر ويربط بها الدلاء ثم ليس لها شأن إلا أن تذهب إلى الأمام وترجع إلى الوراء، وهكذا في عمل متكرر بحيث يستخرج هذا الدلو العظيم ويسقى في هذه الشواني ثم يجري في السواقي، وعلى كل حال فليس قوله: {تُثِيرُ الأَرْضَ} جملة جديدة استئنافية وإنما هو داخل في النفي، فهي لا ذلول مثيرة للأرض.

"وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: (مسلمة) يقول: لا عيب فيها، وكذا قال أبو العالية والربيع."

وبعضهم يقول: مسلمة يعني من العمل لا تعمل، لكنه قول بعيد، وإنما المقصود أنها مسلمة من العيوب لا عيب فيها بل هي كاملة.

"وقال مجاهد: مسلمة من الشية، وقال عطاء الخراساني مسلمة القوائم والخلق لا شية فيها."

قال الله –عز وجل–: {لاَّ شِيَةَ فِيهَا} [(٧١) سورة البقرة]، أي هي مسلمة من كل عيب من العيوب لا هزال فيها ولا مرض ولا كسر ولا عرج وما أشبه ذلك فهي لا شية فيها.

وعلى قول مجاهد –الشية– تقول: الوشي موشي أكارعه، وهذا وصف لحمار الوحش بمعنى أن القوائم فيها سواد يخالف لونه الذي هو عليه، فالوشي في الثوب أو الثوب الموشى هو الذي داخلَه لون مغاير، فهي صفراء فاقع لونها مسلمة من العيوب {لاَّ شِيَةَ فِيهَا} بمعنى أن لونها هو الصفرة الموصوفة بالفقوع، دون أن يداخله لون آخر، فهي فعلة من الوشي، أي لون آخر يغاير لون الشيء.

{لاَّ شِيَةَ فِيهَا}: بعض السلف فسرها بأنها صفراء القرن والظلف، وهذا التفسير يمكن أن يوجه، فنقول: إنه قصد أن ظلفها وقرنها لا يخالف لونها، بمعنى أن لونها متّحد حتى في القرن والظلف فهو أصفر، فهكذا يوجه مثل هذا القول؛ لأنه نفى الشية، إذ شية نكرة في سياق النفي، وهذا للعموم فلا يوجد فيها لون آخر، ما فيها بقة سوداء في رأسها أو في قوائمها أو نحو ذلك كما تقول: ثور موشى أي أن قوائمه ورأسه –مثلاً– بلون السواد، وهذا أيضاً لا يوجد في هذه البقرة فهي لا شية فيها.

"{فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ} [(٧١) سورة البقرة] قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: كادوا أن لا يفعلوا ولم يكن ذلك الذي أرادوا؛ لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها يعني أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت، فلهذا ما كادوا يذبحونها، وقال عبيدة ومجاهد ووهب بن منبه وأبو العالية وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنهم اشتروها بمال كثير وفيه اختلاف."

قوله تعالى: **{وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ}** مثل هذا التركيب وهذا الاستعمال يدل على وقوع الشيء لكن بصعوبة ومشقة فلم يقع ذلك لأول وهلة أو بيسر أو نحو هذا، ما كاد يحصل كذا وكذا، ما كاد فلان يفعل كذا يعني أنه فعل، ولكن بعد التي واللتيا.

{وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ} يعني أنهم فعلوا ذلك بعد طول سؤال وتعنت، وهذا إنما كان لتعنتهم فهم ما كادوا يفعلون؛ لتعنتهم في الأسئلة، وبعض أهل العلم يقول: وما كادوا يفعلون؛ لارتفاع الثمن؛ لأن بقرة بهذا الثمن كيف يشترونها بقيمة مرتفعة جداً، وبعضهم يقول: ما كادوا يفعلون من أجل ألا تقع الفضيحة ويكتشف القتلة، فهم لا يريدون انكشاف الحقيقة ولذلك تأبَّوا وتمنعوا وماطلوا وما كادوا يفعلون.

وعلى كل حال بعضهم يقول: إنهم اشتروها بمساهمات حيث دفع مجموعة من الناس هذا الثمن وحصلوه من الذهب ولم يكن بينهم توافق، بل بينهم اختلاف وشجار ولم يحصل بينهم توافق في مثل هذه القضية وبالتالي فإن ذبح البقرة احتاج إلى عقد مجلس للاتفاق وغير ذلك، وبعضهم يقول: وما كادوا يفعلون؛ لأنهم أصلاً ما حصلوا بقرة بهذه الصفة إلا بصعوبة، والذي يظهر أنهم ما كادوا يفعلون لكثرة تعنتهم وأسئلتهم الفارغة، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٢٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

"تنبيه:

اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى: {فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [(٧٤) سورة البقرة] بعد الإجماع على استحالة كونها للشك، فقال بعضهم: "أو" هاهنا بمعنى الواو."

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله هنا: **بعد الإجماع على استحالة كونها للشك** بمعنى أن لا يكون ذلك بالنسبة لله -عز وجل- المتكلم بذلك، وهذا معلوم؛ لأن الله يعلم خفايا الأمور وبواطنها وعلمه محيط بكل شيء، فلا يمكن الشك من الله -عز وجل- لكن يمكن أن يكون ذلك على سبيل الشك بالنسبة إلى نظر المخاطب بناءً على القاعدة المعروفة، ولذلك نجد بعض أقوال السلف تحمل على هذا، ولا شك أن هذا الإجماع أمر لا تردد فيه؛ إذ لا يمكن أن يكون ذلك من قبيل الشك بالنسبة لله -عز وجل- فهو يعلم كل شيء، لكن قد يكون كذلك باعتبار نظر المكلف، بمعنى أن الناظر إلى أصحاب هذه القلوب وفي أحوالهم ربما يحصل له التردد بين أن تكون قلوبهم كالحجارة أو هي أشد قسوة من الحجارة، فهذا لا يكون شكاً بالنسبة لله -عز وجل-.

ومثل ذلك قوله تعالى عن فرعون: {لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [(٤٤) سورة طــه] فالله يعلم أنه لن يتذكر ولن يخشى، لكن إما أن يقال بأن "لعلَّ" هنا بمعنى التعليل أي لأجل أن يتذكر أو يخشى، أي إنها ليست للترجي، أو يقال: لعله يتذكر أو يخشى على رجائكما يا موسى وهارون، فاعتُبر هنا نظر المخاطب، والله أعلم.

"فقال بعضهم "أو" هاهنا بمعنى الواو تقديره: فهي كالحجارة وأشد قسوة كقوله تعالى: {وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا} [(٢٤) سورة الإنسان] وقوله تعالى: {عُذْرًا أَوْ نُذْرًا} [(٦) سورة المرسلات]، وقال آخرون: "أو" هاهنا بمعنى "بل" فتقديره فهي كالحجارة بل أشد قسوة، كقوله: {إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً} [(٧٧) سورة النساء] وقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} [(١٤٧) سورة الصافات]، {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} [(٩) سورة النجم]، وقال آخرون: معنى ذلك {فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} عندكم، حكاه ابن جرير."

قول من قال: "**عندكم**"، يعني من جهة الشك عند المخاطبين، أي: هي عندكم كالحجارة أو أشد قسوة.

"وقال بعضهم: معنى ذلك: فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين، إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة، وإما أن تكون أشد منها في القسوة."

يعني أن قلوبهم تتنوع هذا التنوع، منها ما يكون قاسياً قسوة الحجر، ومنها ما يكون أشد قسوة من الحجر، وظاهر كلام ابن القيم -رحمه الله- يشبه هذا، حيث يقول: إن هذه القلوب لا تقل قساوة عن الحجارة فإن لم

تزد عليها فإنها لا تنقص منها، فهي كالحجارة أو أشد قسوة لكنها ليست أقل قسوة من الحجر، يعني أن هذه القلوب عظيمة شديدة القسوة، والله تعالى أعلم.

على كل حال هذه الأقوال بينها تقارب فكلها تدور على معنى أن هذه القلوب قاسية قد بلغت القسوة فيها إلى حد مشابهة الحجر في قسوته وأعظم من ذلك، وهذا سواء قلت: إن الواو عاطفة بمعنى كالحجارة وأشد قسوة من الحجارة، أو أن ذلك بالنسبة للشك باعتبار نظر المخاطب هي كالحجارة أو أشد، أو غير ذلك مما قيل، والله أعلم.

"قال ابن جرير: ومعنى ذلك على هذا التأويل: فبعضها كالحجارة قسوة وبعضها أشد قسوة من الحجارة، وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره، قلت: وهذا القول الأخير يبقى شبيهاً بقوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} [(١٧) سورة البقرة] مع قوله: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ} [(١٩) سورة البقرة]."

في هذين المثلين ابن كثير يرى أن المثل الأول {كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} في قوم من المنافقين غير من ضرب لهم المثل الثاني {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ}، فأصحاب المثل الأول وصفهم الله بأنهم {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [(١٨) سورة البقرة]، فهؤلاء أشد؛ حيث إنهم مطموسون في النفاق، بينما المثل الثاني يرى الحافظ أنه في طائفة من المنافقين أخف من الأولين بحيث إنهم {كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ} [(٢٠) سورة البقرة]، أي: تارة وتارة، فهم في حال الرخاء تستقيم أحوالهم وفي حال الشدائد يظهر نفاقهم ويتراجعون، فهو يرى أن هذا في طائفة وهذا في طائفة أخرى، وكذلك يرى أن قوله: {كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [(٧٤) سورة البقرة]، يعني أن منهم من يكون قلبه كالحجر ومنهم من يكون دون ذلك.

"وكقوله: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ} [(٣٩) سورة النـــــور] مع قوله: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ} [(٤٠) سورة النـــــور] الآية، أي: إن منهم من هو هكذا، ومنهم من هو هكذا، والله أعلم.

{أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ* وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ* أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [(٧٥-٧٧) سورة البقرة] يقول تعالى: {أَفَتَطْمَعُونَ} أيها المؤمنون {أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ} أي: ينقاد لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ثم قست قلوبهم من بعد ذلك؟"

الطمع تقول: أطمعته فطمع، والطمع إنما يكون بقوة الرجاء في ذلك الذي طُمع فيه، إذا كان الإنسان يرى الشيء قريب المنال فإن تعلق النفس به يقال له: طمع، يعني إذا كان قريباً يمكن أن يحصل الإنسان عليه ويتأتى له فهذا طمع، كما قال الله –عز وجل-: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [(٣٢) سورة الأحزاب] أي يرى أنها قريبة المأخذ ويمكن أن تنقاد له.

أما الشيء الذي يكون بعيد المنال فإنه يكون من قبيل التمني، ولا يقال له طمع، فالطمع بهذا الاعتبار يشبه الرجاء.

فقوله: {أَفَتَطْمَعُونَ} يعني أنكم ترجون إيمانهم ودخولهم في الإسلام وترون أن ذلك أمراً قريباً وهم في تلك الحال التي وصفت {يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ} أي: التوراة، ويقول بعضهم: هؤلاء هم السبعون الذين

كانوا مع موسى -صلى الله عليه وسلم- الذين اختارهم واصطفاهم من بني إسرائيل كانوا يسمعون الله يكلم موسى ثم بعد ذلك يحرفون كلام الله.

فإن قلنا: هؤلاء هم السبعون فمعنى يحرفونه أنهم يقولون: سمعناه يخاطبه ويأمره وينهاه، ثم بعد ذلك قال له: إن شئت فافعل وإن شئت فلا تفعل، وهذا القول من الإسرائيليات.

وإذا قيل: إنهم عموم بني إسرائيل، أو العلماء منهم لأنهم هم الذين استحفظوا على كتاب الله وكانوا عليه شهداء فالعوام تبع، والعلماء هم الذين كانوا يحرفون الكتاب حيث يخرجونه قراطيس يحرفون فيها الكلم عن مواضعه، فيكون ذلك ليس في السبعين فقط، بل في عموم بني إسرائيل حيث كانوا يسمعون كلام الله الذي هو التوراة.

قوله: **{ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ}** [(٧٥) سورة البقرة] هذا كقوله تعالى: **{يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ}** [(٤٦) سورة النساء].

"**{وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ}** [(٧٥) سورة البقرة] أي: **يتأولونه على غير تأويله.**"

يتأولونه على غير تأويله، هذا نوع من التحريف وهو ما يسمى بالتحريف المعنوي، وهذا النوع من التحريف وقعت فيه هذه الأمة وهو كثير عند طوائف أهل البدع، وربما وقع فيه بعض متعصبة الفقهاء، حيث يلوي أعناق النصوص ويتكلف كثيرا في حملها على المحامل البعيدة من أجل أن توافق اعتقاده أو مذهبه، وأما أهل البدع من المعتزلة وغيرهم فلا تسأل عن تحريفهم، وأعظم من هؤلاء جميعاً طوائف الباطنية.

فالمعتزلة مثلاً في قوله تعالى: **{وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}** [(١٦٤) سورة النساء] يقولون: أي: جرحه بمخالب الحكمة؛ لينفوا صفة كلام الله -عز وجل- أليس هذا من التحريف؟ هذا من التحريف ولا شك.

وحينما يقول الرافضة: **{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}** [(٦٧) سورة البقرة] يعني عائشة، فهذا من التحريف المعنوي، وحينما يحرف الباطنية الصلاة والصوم والحج، فيقولون مثلاً: الحج قصد الولي، والصوم كتم أسرار المذهب، وأشباه ذلك، فهذا من أعظم التحريف.

وأما التحريف اللفظي فقد وقع لبعض طوائف هذه الأمة مثل الرافضة الذين يزيدون في سورة الشرح: وجعلنا علياً صهرك.

إلا أن التحريف قليل في هذه الأمة؛ لأن هذا القرآن حفظه الله، فلا يقع في تحريفه إلا أكذب الناس وأفجر الناس، فلذلك حاول بعض المعتزلة ببعض أئمة القراءة كأبي عمرو بن العلاء في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}** [(١٦٤) سورة النساء]، أن يقرأها بفتح لفظ الجلالة -وكلم اللهَ- حيث رأى أن معنى جرحه بمخالب الحكمة معنىً بعيداً، فقال له: فما تفعل بقوله: **{وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}** [(١٤٣) سورة الأعراف]، فألقمه حجراً، ومنهم من قال: وددت لو أمحها من المصحف، فالله المستعان.

"**{مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ}** [(٧٥) سورة البقرة] أي: **فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة.**"

التحريف الذي وقع فيه بنو إسرائيل هو تحريف معنوي وتحريف لفظي كما قال الله -عز وجل-: **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [(٩١) سورة الأنعام] فتارة يكتمون الحكم المنزل فلا يظهرونه كأوصاف النبي -صلى الله عليه وسلم- وتارة يبدلونه، يعني يجدون عندهم في وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه ربعة

من الرجال، فيصفونه بأنه طويل، ويجدون في صفته -صلى الله عليه وسلم- مثلاً أنه جعد الشعر، وشعور العرب المعروفة يقال لها جعدة، وشعور الروم -أو الغربيين اليوم- توصف شعورهم بغير ذلك، فيصفون النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه سبط الشعر، ويصفونه بأنه أزرق العينين، وهذه في الحقيقة مواصفات الأوربيين، فهم يحرفون أوصاف النبي -عليه الصلاة والسلام- فقريش لما سألتهم قالوا: ليس ذلك منا، يعني هذا الأزرق الطويل سبط الشعر ليس منا.

فالحاصل أنهم يحرفون تارة بتبديل الكلام وتارة بالمعنى وتارة بالكتمان، وكل ذلك من تحريفهم، والعلماء تكلموا كثيراً على ما وقع في التوراة هل حرفت هي فعلاً أم أن الذي حرف هو ما يبدونه في القراطيس فقط، فهذا قول لبعض أهل العلم، ولكن الواقع يشهد أنها قد حرفت أعظم التحريف، وإذا نظرت إلى كتبهم وجدتها مختلفة متخالفة متباينة غاية التباين والاختلاف حتى في أبسط الأمور، فقد عبثوا بها كثيراً، فالله -عز وجل- يقول: {بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ} [(٤٤) سورة المائدة]، فأضاعوا ما استحفظوه.

"وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ} [(١٣) سورة المائدة].

قال قتادة في قوله: {ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [(٧٥) سورة البقرة] قال: هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه، وقال مجاهد: الذين يحرفونه والذين يكتمونه هم العلماء منهم."

لا إشكال في هذا، فهذا لا يخالف ما سبق، فالفعل قد ينسب إلى الأمة وإن كان ذلك قد وقع من طائفة منها، وهو أسلوب معروف في القرآن وفي كلام العرب لا إشكال فيه، فهذا من هذا القبيل، العلماء هم الذين كانوا يقومون بالتحريف ويتبعهم على ذلك العامة، والله قال عن عوامهم: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ} [(٣١) سورة التوبة] فهم يحلون لهم الحرام، ويحرمون عليهم الحلال فاتبعوهم في ذلك.

"وقال ابن وهب: قال ابن زيد في قوله: {يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ} [(٧٥) سورة البقرة] قال: التوراة التي أنزلها الله عليهم يحرفونها، يجعلون الحلال فيها حرامًا والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً والباطل فيها حقاً، إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محق، وإذا جاءهم أحد يسألهم شيئاً ليس له فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحق، فقال الله لهم: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [(٤٤) سورة البقرة]."

أي أنهم إنما يُبدون بحسب أهوائهم، إن كان طلب الحكم فيه رشوة أخرجوا ما يتناسب مع مطلوب هذا الراشي، فإن كان الذي في الكتاب يخالف هواه حرفوه وبدلوه، وإن كان الراشي هو صاحب الحق أخرجوا له حقيقة ما في الكتاب، فإن لم يكن ثمة رشوة ولا هوى فإنهم يخرجون ما في الكتاب، وخبرهم معروف في قصة الزاني الذي حمّمُوه وداروا به على حمار وقد نكس، وقالوا: إن هذا هو الحكم الذي عندهم في التوراة، ثمَّ جاءوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فسألهم عن ذلك، وطلب منهم التوراة فجاءوا بها، فكان الحبر قد وضع أصبعه على آية الرجم في التوراة، فقال عبد الله بن سلام -رضي الله عنه-: "مره يا رسول الله فليرفع أصبعه، فرفع أصبعه فإذا آية الرجم تلوح، فغضب الحبر، وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء، كابَرَ من

شدة الغضب، فألقمه الله حجراً: **{قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ}** [(٩١) سورة الأنعام]، أي: أنت تقول: ما أنزل الله على بشر من شيء، و"شيء" نكرة مسبوقة بنفي فهي للعموم وقد سبقت بــ"من" فجعلها ذلك منقولة من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم، فألقمه الله حجراً بهذا الرد، ومعناه: ينتقض عليك قولك هذا بما نزل على موسى، هل تكفر به؟ وهذا ما يسمونه في علم الجدل بالنقض.

على كل حال التحريف أحياناً هو أن يُبدوا غير الموجود في الكتاب وإن لم يغيروا ما في أصل الكتاب، فكل ذلك من التحريف.

لما سئلوا بعد ذلك عن هذا التحريف الذي وقع في قضية الزنا قالوا: وجدناه قد فشا في كبرائنا، فأردنا على الأقل أن يكون الحكم مستوياً في الناس، يعني ما أرادوا أن يقيموا الحدود على الضعفاء والفقراء والعامة والمساكين ويتركون الكبراء والعظماء فقالوا: نحن نريد حكما يستوي فيه الجميع، فوضعوا هذا التحميم أي يسود وجه الزاني بالسواد، ويوضع على حمار معكوساً ويطاف به.

"وقوله تعالى: {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [(٧٦) سورة البقرة] الآية.

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله عنه-: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا} أي أن صاحبكم محمداً رسول الله، ولكنه إليكم خاصة، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم."

طائفة منهم تقول: آمنا أنه نبي ولكنه إلى العرب خاصة، وطائفة أظهروا الإيمان ونافقوا فكانوا يقولون نفاقاً: إن هذا هو النبي حقاً ونحن نؤمن به، فعلى كل حال مشاربهم في ذلك مختلفة، لكن منهم من كان يقول للمؤمنين ذلك.

قوله: **{وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ}**.

يقول ابن كثير: **لا تحدثوا العرب بهذا** يعني أنه نبي، **فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم**، معنى تستفتحون هنا يعني تستنصرون؛ لأنهم كانوا يقولون: سيبعث نبي قد أظل زمانه وسنقتلكم معه قتل عاد وإرم ولن نبقي منكم أحداً.

وقوله: **{بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ}** يعني من العلم بأوصاف النبي فيكون ذلك حجة عليكم لهم فيلزمكم الإيمان به، وإلا حاجوكم به عند ربكم بما فتح الله عليكم من العلم به.

ويمكن أن يفسر قوله: **{بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ}** بمعنى بما حكم عليكم، وهنا يكون معنىً آخر؛ لأن الفُتاحة هي الحكم، والفاتح والفتاح هو الحاكم، كما في قوله تعالى: **{رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ}** [(٨٩) سورة الأعراف] يعني احكم، وكقوله: **{إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ}** [(١٩) سورة الأنفال] يعني إن تطلبوا الفصل والحكم بينكم فقد جاءكم الحكم والفصل بنصر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومن معه فيما وقع في غزوة بدر، حيث إن المشركين ومنهم أبي جهل دعوا على الطائفة المبطلة بأن يهلكها الله

-عز وجل-، فقال الله -عز وجل-: {إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ} أي: إن تطلبوا الحكم فقد جاءكم الحكم بالانتصار الكبير للمسلمين عليكم في غزوة بدر.

فيكون على هذا التفسير {بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ} أي بما حكم عليكم من مسخ بعضكم قردة وخنازير، وأمور وقعت لهم معروفة عاقبهم الله -عز وجل- بها.

ولهذا فإن بعض أهل العلم يورد هنا مثل هذا المعنى، ويقول: النبي -صلى الله عليه وسلم- لما جاء بعد الأحزاب إلى قريظة وقف عند بعض حصونهم وقال: ((يا إخوان القردة هل أخزاكم الله))[1] فقال بعضهم لبعض: إنما عرفوا ذلك منكم.

فالفتح هنا يكون بمعنى الحكم والفُتاحة هي الحكم، والفاتح هو الحاكم، والفتاح هو الحاكم، استفتح فلان أي طلب الفتح، وهو الحكم، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

---

[1] - تاريخ الطبري (ج٢ /ص ٩٨) وسيرة ابن هشام (ج ٤ / ص ١٩٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٣٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله: {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ} [(٧٦) سورة البقرة] الآية: "أي أن صاحبكم محمداً رسول الله، ولكنه إليكم خاصة.

وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم، فأنزل الله: {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ} [(٧٦) سورة البقرة] أي تقرون بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجد في كتابنا، اجحدوه ولا تقروا به.

يقول الله تعالى: {أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [(٧٧) سورة البقرة]، وقال الحسن البصري: هؤلاء اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم: لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما في كتابكم ليحاجوكم به عند ربكم فيخصموكم.

وقوله تعالى: {أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} قال أبو العالية: يعني ما أسروا من كفرهم بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وتكذيبهم به وهم يجدونه مكتوباً عندهم، وكذا قال قتادة.

وقال الحسن: {أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ} قال: كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- وخلا بعضهم إلى بعض تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- بما فتح الله عليهم مما في كتابهم؛ خشية أن يحاجهم أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- بما في كتابهم عند ربهم.

{وَمَا يُعْلِنُونَ} يعني حين قالوا لأصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم-: آمنا، كذا قال أبو العالية والربيع وقتادة."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد سبق الكلام على هذه الآية **{وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ} [(٧٦) سورة البقرة].**

والمراد بقوله -تبارك وتعالى-: **{أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [(٧٧) سورة البقرة]** يشمل هذا ما يكتمونه ويسرونه من نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم-، وأنها حق، وكذلك ما يعلنونه من الكذب عليه -عليه الصلاة والسلام- والتحريف والتغيير في أوصافه التي يجدونها في كتابهم.

كذلك أيضاً يعلم ما يسرون وما يعلنون فيما يتظاهرون به أمام المسلمين من قولهم: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم؟، فالله يعلم هذه المقالات وهذه الأحوال، فالآية تتحدث عن قولهم هذا -**{وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا}** [(٧٦) سورة البقرة]- ثم عقبها بقوله: **{أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا**

{يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [(٧٧) سورة البقرة] حيث ذكر حالهم في السر وحالهم في العلانية فالله -عز وجل- يبين أنه مطلع على ذلك كله.

وقوله: {أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} معلوم أن (ما) تفيد العموم، ومعلوم لكل أحد أن الله يعلم السر والعلانية في كل الأمور، ولكن الآية حينما تكون تعقيباً على مثل هذا فإنها تربط به عادة، فيقال: يعلم ما يسرون وما يعلنون مما يظهرونه ويبطنونه في أحوالهم المختلفة أمامكم وإذا خلا بعضهم إلى بعض، ومن قال بذلك لا يعني أنه ينكر أن الله -عز وجل- يعلم كل شيء، وإنما المقصود أنه يمكن أن تفسر الآية بهذا، وإلا فيقال: أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون في كل شيء، فهذا معنىً صحيح، ولكن جرت العادة في التفسير أن مثل ذلك يكون مرتبطاً بما قبله، ولهذا تجد العبارات التي يذكرها المفسرون هي عبارة عن محاولات لربط هذه الخاتمة بما قبلها، وإلا فأي واحد من المفسرين يستطيع بكل سهولة أن يفسر الآيات فيقول: {أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [(٧٧) سورة البقرة] (ما) تفيد العموم، والله عليم بالسر والعلانية، وانتهى، لكن هذا الربط تجده مطرداً في التفسير وقائله لا ينكر العموم، فمثلاً يقول في قوله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٣٨) سورة المائدة] يقول: عزَّ فحكم بالقطع، وهذا مع أن الله عزيز تبارك وتعالى في ذاته ولا يغالب ولا تطاق سطوته..الخ.

فالمقصود أن هذه قضية تجدها في التفسير كثيراً فإذا رأيتها أدركت المراد، لماذا يقولون هذا؟، وهذا الاستطراد إنما ذكرناه؛ لأن هذه المسألة قد تشكل في بعض المواضع فيظن الإنسان أنها من قبيل التخصيص، فأردنا أن نبين أنهم إنما يقصدون هذا الملحظ.

"{وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ* فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ} [(٧٨-٧٩) سورة البقرة].

يقول تعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ} أي: ومن أهل الكتاب، قاله مجاهد، والأميون جمع أمي وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة، قاله أبو العالية والربيع وقتادة وإبراهيم النخعي وغير واحد."

يذكر الله تعالى مخازيهم فيقول: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ} يعني ومن اليهود قوم أميون، أي ومنهم طائفة أمية، والأمي بعضهم يقول: إنه منسوب إلى الأم، أو إلى الأمة الأمية التي هي باقية على أصل ولادتها، وقائل ذلك يريد أنه منسوب إلى الأمة الأمية، ولك أن تقول: منسوب إلى الأم، فهو باق على حالته الأولى لا يعرف الكتابة، ومن لا يعرف الكتابة فإنه لا يعرف القراءة، ولذلك تجدهم في كثير من العبارات التي يفسر بها الأمي يقولون: هو الذي لا يعرف الكتابة، ويقتصرون على هذا، ومنهم من يقول: هو الذي لا يعرف الكتابة ولا القراءة، ولا إشكال في هذا على كل حال، فالذي لا يعرف الكتابة لا يعرف القراءة.

ومنهم من يقول: إنه نسبة إلى أم الكتاب الذي عندهم وكأنهم نسبوا إليه لنزوله عليهم، وهذا متكلف وبعيد جداً.

المقصود أن الأمي هو الذي لا يعرف الكتابة ولا القراءة، كأنه قد بقي على أصل ولادته، فالإنسان إذا خرج من بطن أمه فإنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة ولا شيئاً، والله يقول: **{وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا}** [(٧٨) سورة النحل].

وهنا يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: والأميون **جمع أمي وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة، قاله أبو العالية والربيع وقتادة وإبراهيم النخعي وغير واحد**، وهو ظاهر في قوله تعالى: **{لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ}** [(٧٨) سورة البقرة] أي لا يدرون ما فيه، فنفى عنهم العلم.

"ولهذا في صفات النبي -صلى الله عليه وسلم-: أنه أمي؛ لأنه لم يكن يحسن الكتابة كما قال تعالى: {وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} [(٤٨) سورة العنكبوت]، وقال -عليه الصلاة السلام-: ((إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا وهكذا))[1] الحديث، أي لا نفتقر في عباداتنا ومواقيتها إلى كتاب ولا حساب، وقال -تبارك وتعالى-: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} [(٢) سورة الجمعة].

وقوله تعالى: {إِلاَّ أَمَانِيَّ} قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: {إِلاَّ أَمَانِيَّ} يقول: إلا قولاً يقولون بأفواههم كذباً، وقيل: إلا أماني يتمنونها، قال مجاهد: إن الأميين الذين وصفهم الله تعالى أنهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى شيئاً، ولكنهم يتخرصون الكذب ويتخرصون الأباطيل كذباً وزوراً، والتمني في هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه.

وقال مجاهد: {وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ} [(٧٨) سورة البقرة] يكذبون، وقال قتادة وأبو العالية والربيع: يظنون بالله الظنون بغير الحق."

الأماني يمكن أن يكون جمع أمنيَّة -بتشديد الياء- والمراد بالأمنية القراءة، وهذا معروف وعليه أحد الأقوال المشهورة في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ}** [(٥٢) سورة الحـج] يعني ألقى في قراءته، هذا أحد الأقوال المشهورة في تفسير الآية.

يقولون: جرى ذلك فسمعه الكفار فحصل لهم اشتباه والتباس بما سمعوا، فالشيطان أثناء القراءة يلقي بعض الشيء الذي ليس من كتاب الله -عز وجل- فيكون ذلك سبباً لبلبلة تحصل عند المفتونين.

قيل في الآية: **{إِلَّا إِذَا تَمَنَّى}** أي تمنى هداية قومه فقد يبعد في الأمنية، فالله لا يقدّر هدايتهم فهو يجنح بعيداً في أمانيه فلا تكون كما قدر الله -تبارك وتعالى- لهؤلاء أنهم لن يؤمنوا.

فالمقصود أن قوله هنا: إلا أمانيَّ، يمكن أن يكون جمع أمنيَّة بمعنى قراءة، ومنه قول كعب بن مالك -رضي الله عنه- يمدح عثمان بن عفان -رضي الله عنه-:

تمنـــى كتـــاب الله أول ليلـــه ... فـــصادفه حـــتم مـــن المقـــادر

وقول حسان بن ثابت يمدح عثمان أيضاً:

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: الصوم - باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (لا نكتب ولا نحسب (١٨١٤) (ج ٢ / ص ٦٧٥) ومسلم فـي كتـاب: الصيام - باب: وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال وأنه إذا غم في أوله أو آخره أكملت عدة الشهر ثلاثين يوماً (١٠٨٠) (ج٢ / ص ٧٥٩).

تمنـــى كتـــاب الله آخـــر ليلـــه تمني داود الزبـــور علـــى رســل

تمنى كتاب الله بمعنى قرأ كتاب الله أول الليل، أو قرأ كتاب الله آخر ليله أو آخر ليلة.

تمني داود أي قراءة داود الزبور.

على رسل يعني على مهل.

فعلى هذا القول (إلا أماني) يكون الاستثناء متصلاً؛ لأن القراءة هي لون من العلم بالكتاب، فالعلم بالكتاب بقراءته وبفهم معانيه ومعرفة الأحكام، وتفسير الآية أنهم لا يعلمون الكتاب إلا قراءة لكن لا يعملون به ولا يعرفون أحكامه ولا يعرفون معانيه ولا يتفهمونه وإنما يعرفونه قراءة فقط فهم جهلة، وهذا اختيار الحافظ ابن القيم -رحمه الله- في تفسير الآية، وقال به جماعة، وهذا النوع من الجهل واقع عند عامة هذه الأمة.

وإذا كان هؤلاء قد لحقهم الذم وكتابهم ليس كالقرآن، ونبيهم ليس كالنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- وهم أمة ليست بمثابة هذه الأمة في الشرف والفضل فالعتب الذي يلحق هذه الأمة لجهلها بكتابها أعظم من العتب الذي لحق بني إسرائيل، فمن الرزايا أن يموت الإنسان وهو لا يعرف معاني القرآن، ولم يقرأ كتاباً في تفسيره، وهو أعظم كتاب يحتوي على ما لا يقادر قدره من المعاني والهدايات.

إن من الغبن أن يموت الإنسان وما قرأ كتاب الله وما فهم كثيراً منه، بل ربما ما فك بعض الألفاظ التي يسمعها ويقرؤها صباح مساء في الصلاة وفي خارج الصلاة، هذا أعظم غبن يمكن أن يقع للإنسان بعد حرمان الهداية إلى الإسلام، ومن أعظم ما يوفق إليه الإنسان أن يفتح الله -عز وجل- عليه في هذا الكتاب فيشتغل به قراءة وتفهماً وتدبراً ويجعل لنفسه نصيباً منه في يومه وليلته بحيث يجعل له ورداً في القراءة وتفهم معانيه، وإذا فتح عليه في هذا رأى من العجائب والغرائب من ألوان الهدايات ما لا يقادر قدره، والناس قد فاوت الله -عز وجل- بينهم غاية التفاوت في مثل هذه الأمور

ومــــا كـــل غـــائص وقـــانص يظفــــر بالـــــدر وبــــــاللآلئ

ولكـــن تأخـــذ الأفهـــام منــــه علـــى قـــدر القـــرائح والفهـــوم

والقول الآخر في تفسير الآية وهو المشهور وهو قول الجمهور: **{لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ}** [(٧٨) سورة البقرة]، الأماني جمع أمنيَة، والأمنيَة هي أن يود الإنسان ويطلب ما لا يمكن وقوعه أو ما يبعد وقوعه جداً، مثاله:

ألا ليـــت الـــشباب يعـــود يومـــاً فـــأخبره بمـــا فعـــل المـــشيب.

فالرجاء والطمع -كما سبق- يكون في الشيء قريب المنال، والأماني تكون في الشيء بعيد المنال، والأماني على هذا الاعتبار جمع أمنية -بالتخفيف-.

والاستثناء في قوله: **{لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ}** يكون منقطعاً؛ لأن الأماني ليست من الكتاب، فهم تمنوا فقالوا: **{لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً}** [(٨٠) سورة البقرة]، وقالوا: **{نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}** [(١٨) سورة المائدة]، وتمنوا فقالوا: **{لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى}** [(١١١) سورة البقرة]، فهم هذه حالهم وهذا شأنهم.

ولو نظرت إلى قوله تعالى: **{وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ}** فإنك تجد فيها قرينة ترجح أحد هذين الاحتمالين وهذه القرينة هي أنه قال: **{وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ}** فالأمي هو الذي لا يقرأ، فلو قلنا: إلا قراءة فكيف يكون أميًّا وهو ما يعلم الكتاب إلا قراءة؟ فإذا فسرت قوله: **{إِلاَّ أَمَانِيَّ}** بمعنى إلا قراءة فكأنك ناقضت نفسك؛ إذ كيف تقول: إنهم لا يقرءون، ثم تقول: لا يعلمون الكتاب إلا قراءة دون فهم المعنى، وهذا الذي حدا بعامة المفسرين إلى ترجيح القول الآخر وهو أن المعنى أنهم يتمنون أمانِيَ فارغةً لا تستند إلى شيء يمكن أن يوثق به، فليس عندهم عهد من الله –عز وجل– وإنما هم يتخرصون.

قوله تعالى: **{وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ}** [(٧٨) سورة البقرة] (إن) نافية، والمعنى وما هم إلا يظنون أي يتخرصون تخرصاً فهم جهلة.

والظن هنا المقصود به الطرف المرجوح، فالظن يطلق على العلم –وليس هذا المراد هنا قطعاً– ويطلق ويراد به طرف الرجحان وذلك حينما تكون القضية فيها احتمال، فالطرف الراجح منها هو الظن.

والطرف المرجوح يقال له أيضاً ظن، يعني يظن القضية بنسبة عشرة بالمائة مثلاً يسمونها عندنا ظاهر، وعندنا مؤول وعندنا شك

ووهـــم وظـــن وشـــك محتمـــل ... لـــراجح أو ضـــده أو مـــا اعتـــدل

فالشك هو ما اعتدل، والظن هو الطرف الراجح، وضده هو الطرف المرجوح الذي يسمونه في الأصول في أنواع الدلالة (الظاهر والمؤول)، والوسط هو الشك، فقوله: **{وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ}** يعني الطرف المرجوح، أي أنها أوهام وتخرصات، وهذا هو الظن المذموم الذي ذم الله أتباعه في القرآن فقال تعالى: **{إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ}** [(٢٣) سورة النجم]، وقال تعالى: **{وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}** [(٢٤) سورة الجاثية]، وقال عنهم: إنهم يقولون: **{إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}** [(٣٢) سورة الجاثية]، فهذا الأسلوب دائماً يأتي على سبيل الذم وليس المقصود به الطرف الراجح.

وأما ما في بعض مسائل الفقه التي هي من باب الظن فالمعنى أنه قد لا يكون الدليل فيها قطعياً فهذا ليس من المذموم في شيء، فالذين يقولون: إن هذا من اتباع التخرص والظنون فهؤلاء مخطئون، فالذم الذي ورد في القرآن إنما هو لاتباع الأوهام والتخرصات، فإذا رأيت الظن مذموماً فهذا المراد به، أما الظن الراجح اتباعه فهو مطلوب، والله أعلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٣١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ} [(٧٩) سورة البقرة] **الآية.**

"هؤلاء صنف آخر من اليهود وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل.

والويل: الهلاك والدمار، وهي كلمة مشهورة في اللغة."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

ذكر -تبارك وتعالى- جهلتهم وعوامهم، فقال تعالى: **{وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ}** [(٧٨) سورة البقرة]، ثم ذكر هؤلاء المحرفين فقال سبحانه: **{فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ}** [(٧٩) سورة البقرة]، وهذا التحريف كان يقع عادة من علمائهم ومن أحبارهم الذين استحفظوا كتاب الله -عز وجل-، فتوعدهم الله بالويل، **{فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ}**.

يقول: **والويل الهلاك والدمار، وهي كلمة مشهورة في لغة العرب**، هذه اللفظة التي تتكرر كثيراً يفسرها العلماء في كثير من الأحيان بأنها واد في جهنم، وعلى كل حال هي كلمة للوعيد.

وربما كان أصلها بمعنى الحزن، أو نحو ذلك، فمن أهل العلم من يقول: إن اللام زيدت في آخرها، وإن أصلها (وَي) أي حزن، ثم زيدت عليها اللام، وصارت تستعمل للوعيد أو بمعنى الهلاك والدمار، فإذا توعدت إنساناً قلت له: ويل لك، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول غير هذا، وعلى كل حال يمكن أن تكون بمعنى الوعيد عموماً ويمكن أن تكون بمعنى أنها واد في جهنم، مع أنه لا يصح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما أعلم شيء في تحديد هذا المعنى.

"وقال الزهري: أخبرني عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: "يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتاب الله الذي أنزله على نبيه أحدث أخبار الله تقرءونه غضًا لم يُشب."

قوله: لم يُشب: بضم الياء يعني لم يُخلط بغيره أو لم يداخله غيره من التحريف والتبديل، أما يَشِبّ بفتح الياء فيعني يكبر ويهرم، لكنها هنا لم يُشب بمعنى لم يُخلط بغيره ولم يحرف، كما قال القائل:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبت بماء فاستحكمن أبوالا

وقال الآخر:

شيبت بذي بشم من ماء محنية ... صاف بأبطح أضحى وهو مشمول

فالشوب الخلط، والمحض : الخالص الصافيً، ويَشب يعني يهرم، وذلك لا يقال للكتاب، وإنما يقال لمن من شأنه أن يدركه الشيب.

"تقرءونه غضًا لم يشب؟ وقد حَدَّثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً؛ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُسَاءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحدًا قط سألكم عن الذي أنزل عليكم"[1] [رواه البخاري]."

هذا الأثر عن ابن عباس مهم جداً؛ لأنه ينهى من الأخذ عن بني إسرائيل والتلقي عنهم ورواية الإسرائيليات، ولذلك فإنه ينبغي أن يكون الموقف من هذه الإسرائيليات واضحاً محدداً، مع أن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– كان يأخذ من كتب أهل الكتاب وينقل ذلك في التفسير، تارة بنسبته إليهم، وتارة من غير نسبة، وتعرفون خبره حينما اختلف مع مروان أو مع معاوية في قوله –تبارك وتعالى–: **{وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ}** [(٨٦) سورة الكهف] –أو حامية فيها قراءتان متواترتان– فكتب إلى كعب الأحبار، فقال لهم كعب الأحبار: إنهم يجدونها في التوراة أنها تغرب في ثأط وطين.

على كل حال هذا الأثر يحتاج إليه عند الكلام على الروايات الإسرائيلية، وهو من الآثار المهمة التي يستدل بها على ضرورة تخليص التفسير من هذه الروايات الإسرائيلية.

والحافظ ابن كثير –رحمه الله– بين حين وآخر في هذا الكتاب سيتحدث عن الروايات الإسرائيلية حديثاً خاصاً يلفت النظر إليها، ويبين أنه لا يلتفت إلى هذه الأقوال من جهة الاعتماد، وأنها أخبار لا تثبت، وهذا في أكثر من موضع في هذا الكتاب سيتحدث عنها بخصوصها، وعلى كل حال تحدث عنها كثيرون، ومن أحسن من تحدث عنها الشيخ: أحمد شاكر في مقدمته لعمدة التفسير، وكان أهم ما ذكره مما لا يكاد يوجد عند من يتحدثون عنها، أن السلف حينما نقلوها لم ينقلوها على أنها مما يفسر به القرآن، وإنما ذكروها من باب ((وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج))[2] فيذكرونها للاستئناس لا أنهم يفسرون القرآن بها، وهذه قضية مهمة، فالقرآن لا يفسر بهذه الأشياء التي لا ندري ما حالها هل هي صحيحة ثابتة أو غير صحيحة؟، لا يفسر القرآن بهذا، ولكن تذكر من باب الاستئناس مع أنها في أمور لا حاجة إليها، أبهمها الله –عز وجل–، ولو كان فيها فائدة لبينها.

"وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: الثمن القليل: الدنيا بحذافيرها."

ويدل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام–: ((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء))[3].

وقوله تعالى: **{فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ}** [(٧٩) سورة البقرة] هو كقوله –عز وجل–: **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [(٩١) سورة الأنعام] ومعنى يكتبونه بأيديهم أي يكتبونه كتابة محرفة، فهذا

---

[1] – أخرجه البخاري في كتاب: الشهادات – باب: لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها (٢٥٣٩) (ج ٢ / ص ٩٥٣).

[2] – أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء – باب: ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٢٧٤) (ج ٣ / ص ١٢٧٥).

[3] – أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد – باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل (٢٣٢٠) (ج ٤ / ص ٥٦٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٢٩٢).

معنى يكتبونه لا أنهم ينسخون منه نسخاً صحيحة؛ إذ هذا لا إشكال فيه، وإلا كيف يتداول الناس الكتاب إلا بهذا، لكن المقصود هنا يكتبون الكتاب على غير وجهه.

وقوله: **{بِأَيْدِيهِمْ}** [(٧٩) سورة البقرة]، هذا ليسجل عليهم الجريمة، ومثل هذا الأسلوب كما سبق التنبيه عليه مراراً أنه يأتي للتأكيد، فهو يسجل عليهم جريمتهم وأنها صادرة منهم وهذا كقوله تعالى: **{يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم}** [(١٦٧) سورة آل عمران]، ومعلوم أن الكتابة لا تكون إلا باليد، وإنما يتكلم الإنسان بفيه، وهكذا حينما يقول تعالى: **{وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ}** [(٣٨) سورة الأنعام] والطائر إنما يطير بجناحيه، وأشباه ذلك، وإن كان لكثير منها في موضعه توجيهات أخرى، ولكنها لا تخرج عما ذكرت من حيث الأصل، يعني يقال: إن ذلك ليسجل عليهم هذا أو يقال: هذا للتأكيد، ثم يذكر معه معنىً آخر، في مثل قوله مثلاً: **{وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ}** يقول: لينبه على أن المراد بذلك الحقيقة وليس المراد بذلك مجرد الإسراع؛ لأن العرب تكني عن السرعة والإسراع بمثل هذا، تقول: طار إليه، طاروا إليه زرافات ووحداناً، فهو يقول: طائر يطير بجناحيه، طائر حقيقي، وبعضهم يقول غير ذلك، والله أعلم.

"وقوله تعالى: {فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ} [(٧٩) سورة البقرة] **أي: فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء، وويل لهم مما أكلوا به من السحت، كما قال الضحاك عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: {فَوَيْلٌ لَّهُم} يقول: فالعذاب عليهم من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب، {وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ}** [(٧٩) سورة البقرة] **يقول: مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم."**

هذا كما سبق في أخذهم للرشا فإنهم كانوا إذا جاءهم من يعطيهم الرشا فإنهم يكتبون له غير ما يجدونه في الكتاب؛ من أجل أن يوافقوا بغيته وهواه، ومن دفع إليهم الرشوة وهو محق أخرجوا له الكتاب على وجهه وهكذا.

"{وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [(٨٠) سورة البقرة] **يقول تعالى إخبارًا عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة ثم ينجون منها، فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى: {قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا}** [(٨٠) سورة البقرة] **أي: بذلك؟ فإن كان قد وقع عهد فهو لا يُخْلِف عهده، ولكن هذا ما جرى ولا كان، ولهذا أتى بـــ"أم" التي بمعنى: بل، أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه."**

هذه الطريقة في الرد معروفة، وذلك أن الحال لا يخلو بطريقة السبر والتقسيم العقليين من أحد أمرين لا ثالث لهما، فهذا القول الذي قالوه إما أن يكون بطريق عهد من الله –عز وجل– ثابت لهم، وإما أن يكون ذلك قالوه من عند أنفسهم، وليس هناك طرف ثالث في القسمة، فإما أن يكون ذلك من الله بعهد وإما أن يكون من قبيل الاختلاق، هذا ما يسمى بالتقسيم، إما هذا وإما هذا، وهذا أحد أمثلة التقسيم الصحيح وهو حصر الأوصاف المحتملة وشرطه الاستيعاب بحيث أن المعترض لا يقول لك: لا، بقي طرف ثالث في القسمة أو طرف رابع لم تذكره، ثم السبر هو أن تختبر هذه الأوصاف فتقول مثلاً: أما إنه بعهد فهذا غير موجود، فإن كان عندكم عهد فأخرجوه، وبقيت الثانية وهي أنه ما دام ليس هناك شيء آخر فأنتم تقولون على الله الكذب، وتقولون على الله ما لا تعلمون، وهذه الطريقة موجودة في القرآن، وهي من طرق الاستدلال الصحيح، وتذكر أيضاً

في كتاب القياس في أصول الفقه عند الكلام على استخراج العلة –طرق استنباط العلة– فإنّ –كما هو معروف– من أشهر طرقها: المناسب والسبر والتقسيم العقليين وأشباه ذلك.

قوله: **أتى بـــ"أم" التي بمعنى بل**، أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب، و"أم" هذه تحتمل هذا المعنى، وهو معنى بل، أي: أتخذتم عند الله عهداً بل تقولون على الله ما لا تعلمون، وتحتمل أن تكون أم هذه هي أم المعادلة، فعلى كل حال "أم" إذا قلنا بأنها بمعنى بل، فإن ذلك يعني القطع، بمعنى أن ما بعدها ليس بداخل فيما قبلها، وهي بمعنى لكن أو بمعنى بل، أي بل تقولون على الله ما لا تعلمون، وإذا قلنا بأنها معادلة فالمعنى أيّ الأمرين كائن وواقع منكم؟.

"وقال العوفي عن ابن عباس: {وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً} [(٨٠) سورة البقرة] **اليهود قالوا: لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة، زاد غيره: وهي مدة عبادتهم العجل."**

قوله: **مدة عبادتهم العجل:** أي أنهم يقولون: نعذب بهذا القدر، ثم تخلفوننا فيها، يعنون المسلمين، وجاء عنهم أيضاً فيما نقل عنهم في هذه الكتب أنهم حسبوا المدة التي تقطع فيها النار فوجدوها أربعين، فقالوا: **{لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً}** بمعنى مدة هذا الاجتياز، وفي بعض تلك الأشياء التي تنقل عنهم أنهم حسبوا الدنيا فوجدوا أن عمرها كما زعموا سبعة آلاف سنة، فقالوا: نجلس في كل ألف عام يوماً واحداً، ومعنى ذلك أنهم يجلسون سبعة أيام.

وقولهم: **{إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً}** هذا الأسلوب يشعر بالتقليل، أي: سنمكث فيها أياماً معدودة قليلة ثم بعد ذلك نخرج منها.

"وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه –رحمه الله–: عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: "لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– شاة فيها سم، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((اجمعوا لي من كان من اليهود هاهنا)) فقال لهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((من أبوكم؟)) قالوا: فلان. قال: ((كذبتم، بل أبوكم فلان))، فقالوا: صدقت وبَرِرْت، ثم قال لهم: ((هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟)) قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((من أهل النار؟)) فقالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((اخسئوا، والله لا نخلفكم فيها أبدًا))، ثم قال لهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟)) قالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: ((هل جعلتم في هذه الشاة سمًّا؟))، فقالوا: نعم، قال: ((فما حملكم على ذلك؟)) فقالوا: أردنا إن كنت كاذبًا أن نستريح منك، وإن كنت نبيًا لم يضرك"[4] [ورواه أحمد والبخاري والنسائي بنحوه]."

على كل حال مثل هذه الآية: **{وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً}** [(٨٠) سورة البقرة] يمكن بطريق الاستقراء –الذي يمكن أن يكون في أغلب المواضع في القرآن– أن يذكر معها القاعدة التي هي أن من عادة القرآن أنه إذا ذكر قول القائلين فإما أن يبطله أو يذكر ما يدل على بطلانه، وإما أن يسكت عنه، فما ذكر معه

---

4 – أخرجه البخاري في أبواب الجزية والموادعة – باب: إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم؟ (٢٩٩٨) (ج ٣ / ص ١١٥٦).

ما يدل على البطلان فإنه يؤخذ منه أنه باطل، وما لم يذكر معه ما يدل على البطلان فقد يفهم من ذلك أنه صحيح.

وتارة يذكر أمرين اثنين من قولهم ودعاواهم فيبطل الباطل ويسكت عن الصحيح، مثاله: **{وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا}** [(٢٨) سورة الأعراف] فـ**{وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا}** هذه دعوى، و**{وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا}** فرد عليهم بواحدة وسكت عن الأخرى، قال تعالى: **{قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء}** ولم يقل لهم: لم تجدوا آباءكم على ذلك فدل على صحته، وهم فعلاً وجدوا آباءهم على الفواحش.

ومثل هذا قصة أصحاب الكهف في الحديث عن عددهم، فإن الله -عز وجل- لما ذكر قيلهم أنهم **{ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ}** قال: **{رَجْمًا بِالْغَيْبِ}** [(٢٢) سورة الكهف]، فدل على أنه ليس هذا هو العدد، ولما ذكر **{وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ}** [(٢٢) سورة الكهف]، ما ذكر ما يدل على بطلانه، فاستنتج منه بعض أهل العلم -ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله- أن عددهم كان سبعة وثامنهم كلبهم.

أقول: هذا هو الغالب وإلا فالقواعد عموماً لها استثناءات ويكفي أن تكون قاعدة بمعنى أنها غالبة، ولذلك ففي قوله -تبارك وتعالى- في سورة الكهف عن أولئك الذين قالوا: **{لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا}** [(٢١) سورة الكهف]، لم يعقب على ذلك بشيء، والمفسرون مختلفون في تحديد قائل هذه المقالة؟ هل هم أهل الإيمان، أو أن هؤلاء من أهل الإشراك، لما رأوهم أرادوا أن يقدسوهم فقالوا: **{لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا}**؟ ولذلك تجد الخرافيين من القبوريين، والصوفية يحتجون بمثل هذه الآية، ويقولون: الله -عز وجل- ما ذكر ما يرد ذلك، فيجاب عنهم بأجوبة، يقال لهم: أولاً القواعد أغلبية، وهذا من استثناءات القاعدة.

والأمر الثاني: أن شرع من قبلنا، ليس بشرع لنا إذا وجد في شرعنا ما يخالفه، والنصوص عندنا كثيرة في التحذير من اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، فهذا واضح وصريح.

وعلى كل حال فالأقرب أن ذلك لم يكن من قول أهل الإيمان؛ فإن تعظيم القبور والبناء عليها ليس من عمل أهل الإيمان، ولا يقر أحد عليه لا في هذه الشريعة ولا قبلها، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد))[5] ولو كان ذلك سائغاً في شريعتهم لما لحقهم اللعن بسببه فهو أمر غير جائز، وليس ذلك مختصاً بهذه الشريعة، وإنما ذلك يصدر من المشركين الذين يعظمون القبور ويعبدونها من دون الله -عز وجل-.

"{بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٨١) سورة البقرة]

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتهون، بل الأمر: أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته، وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة، بل جميع أعماله سيئات فهذا من أهل النار.

{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} [(٨٢) سورة البقرة] **أي آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة فهم من أهل الجنة."**

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز - باب ما جاء في قبر النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهم (١٣٢٤) (ج ١ / ص ٤٦٨) ومسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة - باب: النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد (٥٢٩) (ج ١ /ص ٣٧٦).

هذه الآية فيها سؤال معروف عند العلماء وهو أن الله -عز وجل- قال: **{بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}** [(٨١) سورة البقرة]، فذكر أنهم أصحاب النار، ومعنى أصحاب النار أي الملازمون لها، ولا يقال ذلك إلا لمن كان ملازماً للشيء، وأهل الإيمان ليسوا من أصحاب النار وإن عذبوا فيها بعض الوقت، وفي قوله: **{وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ}** لم يحدد هذه الخطيئة وإنما وصفها بهذه الصفة وهي الإحاطة بصاحبها، ثم إنه ذكر الخلود بسبب هذه الخطيئة، فما المراد بهذه الخطيئة التي استوجبت هذا الخلود والملازمة لهذه النار؟!

الحافظ ابن كثير فسر ذلك بأن جميع أعمال هذا الذي استوجب هذه الملازمة للنار كانت سيئات وليس له حسنة، ولا شك أن من كان بهذه المثابة فقد أحاطت به خطيئته، ومعنى ذلك أنه ليس من أهل الإيمان؛ لأن الإيمان أعظم حسنة وحديث البطاقة في ذلك معروف، فدل ذلك على أن هذا الإنسان ليس من أهل الإيمان ولم يعمل خيراً قط، فلا شك أن هذا داخل في هذا المعنى - أحاطت به خطيئته- ولكن هل يدخل فيه غيره؟

بعض أهل العلم يقول: هذا في أصحاب الكبائر، وهذا غير صحيح أبداً إلا أن يقيد ذلك بنوع من الكبائر وهو الإشراك، فقوله تعالى: **{بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ}** [(٨١) سورة البقرة] تفسر الخطيئة بالشرك؛ لأن الشرك هو الذي يحيط به.

وبعض أهل العلم يقول: هذا رجل تكاثرت ذنوبه فإن ذلك كما مثله النبي -صلى الله عليه وسلم- بالقوم الذين نزلوا في مكان، فجعل هذا يأتي بعود، وهذا يأتي بعود وهذا يأتي بعود، حتى أوقدوا ناراً فأنضجوا ما معهم.

وعلى كل حال ينبغي أن يفسر هذا بالشرك سواء كان ذلك مع حسنات عنده فذلك لا ينفعه كما قال الله -عز وجل-: **{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا}** [(٢٣) سورة الفرقان]، وكما قال -جل وعلا-: **{مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ}** [(١٨) سورة إبراهيم]، وكما قال تعالى: **{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا}** [(٣٩) سورة النـــــور]، وبالتالي لا نحتاج معه إلى أن نقول: ليس له حسنة إطلاقاً، والعلم عند الله -عز وجل-.

ومعنى الخطيئة في أصلها الذنب، وبعض أهل العلم يفرق بين الخطأ وبين الخطيئة، وبين المخطئ وبين الخاطئ، فيقولون: أخطأ يخطئ، فهو مخطئ، وهذا خطأ يراد به الوقوع في المخالفة من غير عمد، ويقولون: فلان خاطئ وهذه خطيئته، ولا يقولون: مخطئ، بل يقولون: خاطئ، وذلك لمن وقع في المخالفة عن قصد وعمد، قال تعالى: **{وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا}** [(١٥) سورة الجن]، ما قال المخطئون، وقال: **{نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ}** [(١٦) سورة العلق]، ما قال: مخطئة، وبعضهم يقول: هما بمعنى واحد، والله أعلم.

"وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} [(١٢٣-١٢٤) سورة النساء]

وقال أبو هريرة -رضي الله عنه- وأبو وائل وعطاء والحسن: {وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} قال: أحاط به شركه. وقال الأعمش عن أبي رزين عن الربيع بن خُثَيم: {وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} قال: الذي يموت على خطايا من قبل أن يتوب، وعن السدي وأبي رزين نحوه."

لكن هذا القول كما سبق فيه إشكال، إذ لا يكون أصحاب الذنوب وأصحاب الكبائر مخلدين في النار إلا على مذهب الخوارج والمعتزلة.

"وقال أبو العالية ومجاهد والحسن في رواية عنهما وقتادة والربيع بن أنس: {وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} الموجبة الكبيرة، وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، والله أعلم."

على كل حال هذه الأقوال ينبغي أن تقيد بأن المقصود بالكبيرة الإشراك؛ لأنه ذكر معها الخلود، وهذه الآية مما يحتج به المعتزلة والخوارج على مذهبهم، ويجب على الإنسان أن يجمع بين النصوص؛ لأنه لو بقينا مع هذه الآية فقط فيمكن أن يؤخذ من ظاهرها ما يمكن أن ينزل على هذه الأقوال أو على بعضها، ولكن الشأن هو أن نجمع النصوص الواردة في الباب، فنجد أن النصوص الصريحة الصحيحة تدل على أن الموحدين لا يخلدون في النار وأنهم يخرجون منها حتى إنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، أو حبة خردل من إيمان[٦]، فإذا جمعت هذا وهذا اتضح لك المراد، فنحن لا ننظر إلى النصوص بنظر أعور كما يفعل أهل البدع حيث يأخذون بعض النصوص ثم يعملونها ويخرجون بقول مشوه، وأهل الإرجاء يأخذون النصوص الأخرى التي ينبغي أن تجمع مع هذا -مثل النصوص التي تدل على إخراج الموحدين من النار، وأنه يحرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله[٧] وأشباه ذلك- يأخذون هذه النصوص ويخرجون بمذهب الإرجاء.

فإذا جمعت هذا وهذا تكون النتيجة أن أهل التوحيد أو أهل الإيمان يعذبون على ذنوبهم وجرائمهم، ولكنهم لا يخلدون في النار، وقد لا يحصل تعذيبهم بسبب حسنات ماحية أو مصائب مكفرة أو توبة قبل الموت، أو شفاعة أو برحمة الله -عز وجل- ولطفه فيغفر لهم هذه الذنوب تفضلاً وتكرماً.

"ويذكر هاهنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إيَّاكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه))[٨].

وإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ضرب لهُم مثلاً كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا، وأججوا نارًا، فأنضجوا ما قذفوا فيها[٩]."

صنيع القوم: يعني الطعام.

---

[6] - صحيح البخاري في كتاب: التوحيد - باب: قول الله تعالى: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} (٦٩٧٥) (ج ٦ / ص ٢٦٩٥) وصحيح مسلم في كتاب:الإيمان - باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣) (ج ١ / ص ١٨٠).

[7] - أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق - باب: العمل الذي يبتغي به وجه الله (٦٠٥٩) (ج ٥ / ص ٢٣٦٠) ومسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة - باب: الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر (٣٣) (ج ١ / ص ٤٥٤).

[8] - أخرجه أحمد (ج ١ / ص ٤٠٢) والطبراني (ج ١٠ / ص ٢١٢) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٨٧). [يحذف ويكتفى بالإحالة التالية لأنه حديث واحد]

[9] - أخرجه أحمد (ج ١ / ص ٤٠٢) والطبراني في الكبير (ج ١٠ / ص ٢١٢) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٦٨٧).

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس –رضي الله عنهما–: **{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}** [(٨٢) سورة البقرة] **أي من آمن بما كفرتم وعمل بما تركتم من دينه فلهم الجنة خالدين فيها، يخبرهم أن الثواب بالخير والشرّ مقيم على أهله، أبداً لا انقطاع له."**

{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ} هذا هو الجمع بين الخوف وبين الرجاء، بين الوعد وبين الوعيد على طريقة القرآن.

"{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ} [(٨٣) سورة البقرة]، **يُذكّر –تبارك وتعالى– بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر وأخذه ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصدًا وعمدًا وهم يعرفونه ويذكرونه، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}** [(٢٥) سورة الأنبياء]، **وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}** [(٣٦) سورة النحل] **وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تعالى أن يعبد وحده لا شريك له."**

هنا قال: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً}** [(٨٣) سورة البقرة]، ومرَّ بنا أيضاً الميثاق الذي أخذه عليهم في قوله: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ}** [(٦٣) سورة البقرة]، وسيأتي: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ}** [(٨٤) سورة البقرة].

فقوله: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ}** مختص بما ذكر معه، وهنا: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ}** [(٨٣) سورة البقرة] يمكن أن تكون هذه الآية مفسرة لقوله: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ}** [(٦٣) سورة البقرة]، أخذ ميثاقهم على أن لا يعبدوا إلا الله وبالوالدين إحساناً إلى آخر ما ذكر، فيكون هذا هو الميثاق الذي أخذه –وقد سبق الكلام على هذا– وهذا هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري –رحمه الله– وهو أن قوله: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ}** [(٦٣) سورة البقرة] يفسره قوله: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ}** [(٨٣) سورة البقرة] فيكون ذلك تفسيراً لهذا الميثاق الذي هو عبادة الله –عز وجل– وحده لا شريك له وما ذكر معه من هذه الأمور.

وفي قوله –تبارك وتعالى–: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ}** [(٨٣) سورة البقرة] يلاحظ أنه قال هنا: **{أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ}** فالفعل تعبدون من الأفعال الخمسة، وهي ترفع بثبوت النون وتجزم بحذفها، وهنا ليست مجزومة بل مرفوعة فدل ذلك على أن (لا) هذه ليست ناهية وإنما هي نافية فارتفع الفعل بعدها بثبوت النون، إذ لو كانت ناهية كان سيقول: لا تعبدوا، وما دامت نافية فمعنى ذلك أن هذا من قبيل الخبر، ولهذا قال بعض أهل العلم –ومنهم سيبويه –رحمه الله–: إن ذلك يجري مجرى القسم، فهنا قسم مقدر يدل عليه ذكر الميثاق –وهو العهد المؤكد– والمعنى إننا استحلفناهم والله لا تعبدون إلا الله فيكون فيه تقدير.

والقاعدة أن الكلام إذا دار بين التقدير والاستقلال فالمقدم هو الاستقلال بمعنى أنه إذا كان يمكن أن يظهر المعنى دون الحاجة إلى تقدير الحذف فالأصل فيه الاستقلال، وهنا يمكن حمل الآية على معنىً صحيح من غير تكلف ودون أن يقال: إن فيها مقدراً محذوفاً، فيمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إن قوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ} [(٨٣) سورة البقرة] هذا خبر متضمن لمعنى النهي، ومن أمثلته قوله تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ} [(٢٣٣) سورة البقرة] فهنا الصيغة صيغة خبر لكنه بمعنى الأمر، فهو أمر للوالدات بالإرضاع، وعلى هذا يكون قوله: {لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ} هذا خبر عما أخذ عليهم من العهد جاء به بصيغة خبرية ومعناه النهي، ويدل على هذا القراءة الأخرى غير المتواترة.

والقراءة الأحادية إذا صح سندها فإنه يستفاد منها ثلاث فوائد هي: أنه يحتج بها في الأحكام تنزيلاً لها منزلة الحديث، وتفسر بها القراءة المتواترة، ويحتج بها في كلام العرب، أي تكون حجة في لغة العرب، فالحاصل أنه جاء في قراءة غير متواترة -قراءة أبي بن كعب وقراءة ابن مسعود -رضي الله عنهما-: (لا تعبدوا إلا الله) فعلى هذا تكون "لا" ناهية؛ لأن الفعل جزم بعدها، وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدوا إلا الله، والمعنى أخذنا ميثاقهم وقلنا لهم: لا تعبدوا إلا الله، ويمكن أن تحمل الآية على معنى قريب لا تكلف فيه، وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل يعني العهد الموثق بأن لا تعبدوا إلا الله وأوصيناكم بالوالدين إحساناً وبذي القربى إلى آخره، والله أعلم.

"ثم بعده حق المخلوقين وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن -تبارك وتعالى- بين حقه وحق الوالدين، كما قال تعالى: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [(١٤) سورة لقمان].

وقال -تبارك وتعالى-: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [(٢٣) سورة الإسراء] إلى أن قال: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ} [(٢٦) سورة الإسراء].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: ((الصلاة على وقتها)) قلت: ثم أي؟ قال: ((بر الوالدين))، قلت: ثم أيّ؟ قال: ((الجهاد في سبيل الله))[١٠]."

لا شك أن الوالدين أقرب الناس إليه وهما سبب وجود الإنسان، ولم يفرق هنا أو لم يقيد ذلك بالإيمان فأحق الناس بالبر الوالدان وإن كانا على الإشراك، فأنت مأمور ببرهما والإحسان إليهما، وإن كان الوالد فاسقاً لا يرعوي، فأنت مأمور ببره والإحسان إليه، فالآيات لم تفرق لكنه لما ذكر المجاهدة على الإشراك قال: {فَلَا تُطِعْهُمَا} [(١٥) سورة لقمان].

"قال: {وَالْيَتَامَى} وهم: الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء."

اليتيم من فقد أباه ولما يبلغ، فإذا بلغ لم يكن يتيماً، والبلوغ إما أن يقع له حقيقة بظهور أماراته أو حكماً إذا أتم خمس عشرة سنة وإن لم يظهر ما يعرف به البلوغ، والمقصود أنه بعد البلوغ لا يكون يتيماً، فإذا بلغت البنت وعمرها تسع فإنها تكون قد تجاوزت سن اليتم.

---

[10] - أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة - باب: فضل الصلاة لوقتها (٥٠٤) (ج ١ / ص ١٩٧) ومسلم في كتاب: الإيمان - باب: بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (٨٥) (ج ١ / ص ٨٩).

والآدمي يقال له: يتيم إذا فقد أباه، والبهائم توصف بذلك إذا فقدت أمها، ويقولون: إن الطير يوصف بهذا إذا فقد أحد أبويه؛ لأن كل واحد منهما يزقُّه بالغذاء أي يطعمه بوضع الطعام في فمه.

"{وَالْمَسَاكِينِ} الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم، وسيأتي الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء، التي أمرنا الله تعالى بها صريحًا في قوله: {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [(٣٦) سورة النساء] الآية."

المسكين إذا ذكر فإنه يدخل فيه الفقير، فالمساكين يعني الفقراء، وأما إذا ذكر معه فالعلماء يختلفون في أيهما أشد فقراً، فمنهم من يقول: المسكين أشد، ويحتجون بقول الشاعر:

أما الفقيـرُ الـذي كانـت حَلُوبَتُـه وَفْقَ العيالِ فلـم يُتْـرَكْ لـه سَـبَدُ

إلا أن هذا بيت شعر لا يحتج به في الأحكام، وبعضهم يحتج بأن الفقير أشد حاجة من المسكين بقوله -تبارك وتعالى-: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ} [(٧٩) سورة الكهف] فهؤلاء مساكين لكن عندهم سفينة يتجرون فيها، فيكون الفقير في حالٍ مُدْقِعة ليس عنده لا سفينة ولا غيرها، فيكون أشد حالاً من المسكين، وعلى كل حال هنا لم يذكر معه الفقير فيشمله، والله أعلم.

"وقوله تعالى: {وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} [(٨٣) سورة البقرة] أي: كلموهم طيباً، ولينُوا لهم جانباً، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف."

قوله: **ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف**، من السلف من يذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقط دون أن يقول: والنهي عن المنكر بالمعروف، وكلام الحافظ ابن كثير جمع فيه الأمرين، ومقصوده بذلك قوله تعالى: {وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} [(٨٣) سورة البقرة] ومن هذا الحسن أو من هذا الكلام الطيب الحسن الذي يقال لهم: أن يؤمروا بالمعروف وأن ينهوا عن المنكر، فهذا من أحسن القول، كما قال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا} [(٣٣) سورة فصلت]، فأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر دعوتهم إلى الله -عز وجل-.

{وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} أي: مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر، ويدخل فيه أيضاً أن يكون أمرك بالمعروف بالمعروف، ونهيك عن المنكر غير منكر، وهذا الذي أشار إليه أيضاً ابن كثير، حيث قال: **مروهم بالمعروف، وانهوهم عن المنكر بالمعروف**: يعني من غير إغلاظ ولا تخشين، فهذا مما يدخل فيه، أن نأمرهم ونهاهم وأن يكون ذلك بأسلوب حسن غير منفر لهم، ويدخل فيه سائر ما يمكن أن يتصور من الإحسان إليهم في الكلام من غير أن يفضي إلى المداهنة، سائر ما يمكن أن يتصور من الإحسان إليهم في الكلام بأن تلين الكلام معهم سواء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو في غيره، فلا تتكلم معهم بأسلوب فيه فظاظة وجفاء وغلظة أو يجرح المشاعر، أو ما تحسب الكلمات التي تقولها فتؤذيه بما تُسمعه من القول، أو الكلام الفاحش البذيء، أو الرد الغليظ أو نحو ذلك.

وقوله: {وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} يشمل الناس الذين يسألون كما قال تعالى: {وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ} [(١٠) سورة الضحى]، وكما قال الله -عز وجل- فيمن لا يجد شيئاً يعطي القرابات إلى آخره كما في سورة الإسراء: {وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا} [(٢٨) سورة الإسراء]، أي إن أعرضت

عنهم انتظار توسعة في الرزق فقل لهم قولاً ميسوراً أي لا يكون إلا خيراً، فتقول مثلاً: إذا يسر الله –عز وجل– أعطيناكم بإذن الله.

كذلك قال الله –عز وجل–: {قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى} [(٢٦٣) سورة البقرة] فإذا أعطيت السائل شيئاً فلا تزجره، وكذلك يكون التعامل في مخاطبات الناس، فهذه قضية يلاحظ أنه –تبارك وتعالى– أخذ العهد الموثق على بني إسرائيل فيها مما يدل على أهميتها، والكلام في هذا يطول، والنفوس تحتاج إلى معالجة، والنقص كثير، والإنسان يمر في أحوال وأطوار شتى، وتمر به أمور، وربما يغلبه طبعه، وربما تغلبه أحياناً حال من الأحوال فيخرج عن طوره ويسيء إلى الناس أو نحو هذا، لكن ينبغي أن يتذكر دائماً مثل هذه الأصول والوصايا ويعمل بها، ويربي نفسه عليها، ويتخلق بهذه الأخلاق، فيلين الكلام للناس كما قال سبحانه: {وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} [(٨٣) سورة البقرة].

"كما قال الحسن البصري في قوله: {وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} فالحسن من القول يأمُر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحلم ويعفو ويصفح ويقول للناس حسنًا كما قال الله، وهو كل خُلُق حسن رضيه الله."

هناك قراءة متواترة في قوله تعالى: {وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} هي: (وقولوا للناس حَسَناً) بفتح الحاء والسين.

"وروى الإمام أحمد عن أبي ذر –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: ((لا تحقرن من المعروف شيئًا، وإن لم تجد فَالْقَ أخاك بوجه منطلق))[11] [وأخرجه مسلم في صحيحه والترمذي وصححه].

وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسنًا، بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي. ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمُتعيّن من ذلك وهو الصلاة والزكاة، فقال: {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ} [(٨٣) سورة البقرة] وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله أي: تركوه وراء ظهورهم وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به إلا القليل منهم.

وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء، بقوله: {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا} [(٣٦) سورة النساء]، فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها، ولله الحمد والمنة."

[11] – أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب – باب: استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء (٢٦٢٦) (ج ٤ / ص ٢٠٢٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٣٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ* ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ* أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [(٨٤-٨٦) سورة البقرة]

"يقول، -تبارك وتعالى- منكرًا على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج -وهم الأنصار- كانوا في الجاهلية عُبَّاد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاثَ قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهوديَّ الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم وينهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكّوا الأسارى من الفريق المغلوب، عملاً بحكم التوراة؛ ولهذا قال تعالى: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} [(٨٥) سورة البقرة] ولهذا قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ} [(٨٤) سورة البقرة] أي: لا يقتل بعضكم بعضًا ولا يخرجه من منزله، ولا يظاهر عليه كما قال تعالى: {فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ} [(٥٤) سورة البقرة]، وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال -عليه الصلاة والسلام-: ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر))[1].

وقوله تعالى: {ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ} [(٨٤) سورة البقرة] أي: ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل-: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ} [(٨٤) سورة البقرة] أي: واذكروا إذ أخذنا عهدكم الموثق أن {لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ} [(٨٤) سورة البقرة]، والسفك يقال على الإراقة، وأما الجراح اليسيرة التي لا يكون فيها إراقة الدماء فإن ذلك لا يقال له السفك، والمقصود بالسفك القتل، فــ{لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ} أي لا يسفك بعضكم دم

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: البر والصلة والآداب - باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٦) (ج ٤ / ص ١٩٩٩).

أخيه، هذا هو المراد، وليس المقصود بالآية أن لا يسفك الإنسان دمه، وإن كان ذلك يحرم بأدلة أخرى، لكن المقصود هنا لا يسفك بعضكم دم بعض، وقد ذكرنا علته سابقاً، وأشار إليها الحافظ ابن كثير –رحمه الله– في هذا الموضع.

قوله: **{وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ}** [(٨٤) سورة البقرة] أي: لا يخرج بعضكم بعضاً من دياره، وأصل الديار هي الأماكن التي يسكنها الناس سواء كانت من المَدَر أو كانت من غيره، وسواءً كانت ثابتة أو مؤقتة، فيشمل ذلك البنيان ويشمل أيضاً ما حوله من الأراضي الزراعية، وما أشبه ذلك، كما قال الله –عز وجل–: **{هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ}** [(٢) سورة الحشر] فديارهم تشمل الأراضي والمساحات التي ليس فيها بنيان وإنما فيها زروعهم وأشباه ذلك، كما تشمل البنيان.

قوله: **{ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ}** [(٨٤) سورة البقرة] يمكن أن يكون ذلك متوجهاً إلى أجدادهم الذين أخذ عليهم هذا الميثاق أنهم أقروا بذلك وشهدوا به، وصح الخطاب للذين كانوا في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ لأنهم منهم، وعلى طريقتهم ومنهاجهم.

وقد سبق الكلام على أن الخطاب قد يتوجه إلى المعاصرين للنبي –صلى الله عليه وسلم– مع أن ذلك قد وقع لأسلافهم، وعلى كل حال إذا كان الميثاق أخذ من أجدادهم، فلا شك أن ذلك يشمل الذين كانوا في عهد النبي –صلى الله عليه وسلم– إذ كان يحرم عليهم هذا الصنيع وهم لا ينكرونه بل يقرون بثبوته، وصحته.

"{ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ} [(٨٥) سورة البقرة] **الآية، روى محمد بن إسحاق بن يسار عن ابن عباس –رضي الله عنهما– {ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ} الآية، قال: أنبأهم الله بذلك من فعلهم، وقد حرّم عليهم في التوراة سفك دمائهم، وافترض عليهم فيها فدَاء أسراهم فكانوا فريقين: طائفة منهم بنو قينقاع وهم حلفاء الخزرج، والنضير وقريظة وهم حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج."**

هذا الكلام يحتاج إلى مناقشة فهو يقول: إن بني قينقاع هم حلفاء الخزرج، والنضير وقريظة هم حلفاء الأوس، والصواب أن النضير هم حلفاء الخزرج، وقريظة هم حلفاء الأوس، ففي قصة بني قريظة لما جيء بسعد بن معاذ –رضي الله عنه– إنما اختاروه ليحكم بينهم؛ لأنهم حلفاؤه، فكان ذلك رجاء أن يحكم حكماً مخففاً عليهم للحلف الذي كان بينه وبينهم، ولهذا اجتمع عليه قومه من الأوس وكانوا يقولون له: الله الله في حلفائك؛ حيث أرادوا أن يصنعوا لهم معروفاً إذ كانوا ينافسون الخزرج، فالخزرج شفعوا في حلفائهم وهم بنو النضير وقصة بني النضير معروفة، وخبر عبد الله بن أبي وهو من الخزرج في شفاعته لهم معروف، وقد شفع أيضاً لبني قينقاع، وإنما أظهر تبرمه واعتراضه لحكم النبي –صلى الله عليه وسلم– وسعد بن معاذ في قريظة، وقال: يقتل أربعمائة دارع في غداة واحدة؟ يعني كيف يقتل أربعمائة رجل ممن يلبس الدروع، أي أربعمائة ممن يصلح للقتال، وفي بعض التقديرات أنهم كانوا سبعمائة.

"فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتى تسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، ولا يعرفون جنة ولا نارًا،

ولا بعثًا ولا قيامة، ولا كتابًا، ولا حلالاً ولا حرامًا، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم، تصديقًا لما في التوراة وأخذًا به؛ بعضهم من بعض، يفتدي بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس، ويفتدي النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم، ويطلبون ما أصابوا من دمائهم، وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم؛ مظاهرة لأهل الشرك عليهم.

يقول الله -تعالى ذكره- حيث أَنَّبهم بذلك: **{أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}** [(٨٥) سورة البقرة] أي: تفادونهم بحكم التوراة وتقتلونهم، وفي حكم التوراة ألا يقتل ولا يُخرج من داره، ولا يُظَاهَر عليه من يُشْرك بالله ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض الدنيا؟ ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج -فيما بلغني- نزلت هذه القصة.

والذي أرشدت إليه الآية الكريمة وهذا السياق ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها، ومخالفة شرعها، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة، فلهذا لا يؤتمنون على ما فيها ولا على نقلها، ولا يصدقون فيما كتموه من صفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ونعته، ومبعثه ومخرجه ومهاجره، وغير ذلك من شئونه التي أخبرت بها الأنبياء قبله -عليهم الصلاة والسلام-، واليهود عليهم لعائن الله يتكاتمونه بينهم، ولهذا قال تعالى: **{فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** [(٨٥) سورة البقرة] أي: بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره.

{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ} أي: جزاء على مخالفتهم كتاب الله الذي بأيديهم **{وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ* أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ}** [(٨٥-٨٦) سورة البقرة] أي: استحبوها على الآخرة واختاروها.

{فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ} [(٨٦) سورة البقرة] أي: لا يفتر عنهم ساعة واحدة.

{وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [(٨٦) سورة البقرة] أي: وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي، ولا يجيرهم منه."

في قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ}** [(٨٥) سورة البقرة] قوله -تبارك وتعالى-: **{هَؤُلاء}** يحتمل أمرين: الأول: أن يكون ذلك من قبيل المنادى الذي حذف فيه ياء النداء، كقوله -تبارك وتعالى-: **{يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا}** [(٢٩) سورة يوسف] يعني يا يوسف أعرض عن هذا، فيكون المعنى: ثم أنتم يا هؤلاء تقتلون أنفسكم.

ويحتمل معنىً آخر -ربما يكون أكثر تبادراً إلى الأذهان- هو: ثم أنتم قوم تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم، بمعنى أن هؤلاء تكون على سبيل الاعتراض -يعني اعتراضية- تصل الكلام بما بعدها وتكون للتوضيح والبيان، فالآية تحتمل هذا وهذا، والله تعالى أعلم.

ثم في قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** [(٨٥) سورة البقرة]، أي ليس له جزاء إلا الخزي في الحياة الدنيا والعذاب في الآخرة، والخزي بمعنى الذل والمهانة والصغار، وذلك يمكن أن يكون المراد به ما يحصل لهم من الهوان مما يسوقه الله -عز وجل- لهم من القتل

والإذلال حيناً بعد حين، كما قضى الله -عز وجل- عليهم ذلك، حيث شردهم وفرقهم وأذلهم، وضرب عليهم المسكنة، فالذل لا يفارق وجوههم بحال، وصار الله -عز وجل- يسوق عليهم من يسومهم الخسف والذل.

ويمكن أن يكون المراد به ما يحصل لهم من الإذلال بدفع الجزية، كما قال تعالى: {حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [(٢٩) سورة التوبة]، وهذا المعنى متعلق بالأول لا يخرج عنه.

ويمكن أن يكون المراد به غير ذلك مما يصدق عليه معنى الذل والمهانة والصغار في الحياة الدنيا، {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ} [(٨٥) سورة البقرة].

وإذا كان ذلك مما جازى الله -عز وجل- به هؤلاء اليهود لأنهم كانوا يعملون بأحكام التوراة بطريقة انتقائية، فيأخذون ما يشتهون ويتركون ما لا يشتهون، يعملون ببعض أحكام التوراة دون بعض، فإن الخزي والعذاب الذي يستحقه من كان أشرف منهم لا شك أنه أعظم، فهذه الأمة إذا عملت ببعض أحكام القرآن مما يوافق أهواءها، وتركت بعض أحكامه الأخرى فإنها أحق بالذل والخزي والصغار والعذاب في الآخرة من هؤلاء اليهود، ومن هنا كان يجب على هذه الأمة أن تعرف هذه البلية والورطة التي وقع فيها بنو إسرائيل فلا يقعون فيها فيكون ذلك سبباً لعذابهم، وسخط الله -عز وجل- عليهم، وذلهم وصغارهم في الحياة الدنيا.

ولو نظرنا إلى هذه الأمة فهذا هو واقعها اليوم في مشارق الأرض ومغاربها حيث صار اليهود الأذلاء يستذلونهم؛ وهذا بسبب أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، يأخذون من الدين أشياء ويتركون الأشياء الأخرى، والله المستعان.

"{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ} [(٨٧) سورة البقرة].

ينعت -تبارك وتعالى- بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء -عليهم السلام- وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه آتى موسى -عليه السلام- الكتاب -وهو التوراة- فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأولوها.

وأرسل الرسل والنبيين -عليهم السلام- من بعده الذين يحكمون بشريعته كما قال تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء} [(٤٤) سورة المائدة] الآية، ولهذا قال تعالى: {وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ} [(٨٧) سورة البقرة] قال السدي عن أبي مالك: أتبعنا، وقال غيره: أردفنا."

قوله هنا: {وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ} أي أتبعنا بعث موسى -صلى الله عليه وسلم- بالرسل الذين جاءوا من بعده، وهو مأخوذ من القفا، يعني أنهم جاءوا في أثره -عليه الصلاة والسلام- وكل من جاء تابعاً لغيره وكان مقتفياً لأثره فإنه يقال له: إنه يقفوه، من قفاه يقفوه، كما قال الله -عز وجل- في الأمور المعنوية: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [(٣٦) سورة الإسراء] يعني لا تتبع، وكذلك من كان يمشي خلف أحد يقال: إنه قفاه، يقفوه، ويقفو أثره، بمعنى الاتباع، فقفينا من بعده بالرسل يعني أتبعناه بالرسل.

فالآية التي قبلها بينت أنهم ينتقون من أحكام الله -عز وجل- ما يناسب أهواءهم، وهذه الآية تبين كيفية تعاملهم مع الرسل، فهم يؤمنون ببعض، ويقتلون الآخر.

"قال السدي، عن أبي مالك: أتبعنا، وقال غيره: أردفنا، والكل قريب، كما قال تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا} [(٤٤) سورة المؤمنون] حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم -عليه السلام- فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البينات، وهي: المعجزات.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: من إحياء الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، وإبراء الأسقام وإخباره بالغيوب وتأييده بروح القدس -وهو جبريل -عليه السلام- ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به."

جاء هذا في سورتي آل عمران والمائدة، ففي آية آل عمران الله -عز وجل- قال عن عيسى -صلى الله عليه وسلم-: **{قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ..}** [(٤٩) سورة آل عمران] إلى آخر ما ذكر.

وفي آية المائدة يقول تعالى: **{إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً..}** [(١١٠) سورة المائدة] إلى آخر ما ذكر.

"فاشتد تكذيب بني إسرائيل له وحَسَدُهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض كما قال تعالى إخبارًا عن عيسى -عليه السلام-: {وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} [(٥٠) سورة آل عمران] الآية، فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء -عليهم السلام- أسوأ المعاملة ففريقًا يكذبونه وفريقًا يقتلونه؛ وما ذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم، وبالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها فلهذا كان ذلك يشق عليهم فيكذبونهم وربما قتلوا بعضهم؛ ولهذا قال تعالى: {أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ} [(٨٧) سورة البقرة].

والدليل على أن روح القدس هو جبريل -عليه السلام- كما نص عليه ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- في تفسير هذه الآية، وتابعه على ذلك ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومحمد بن كعب وإسماعيل بن أبي خالد والسدي والربيع بن أنس وعطية العوفي وقتادة، مع قوله تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ} [(١٩٣-١٩٤) سورة الشعراء]**...."**

روح القدس المشهور أنه جبريل -عليه الصلاة والسلام-، وهذا عليه عامة أهل العلم، وروح القدس من باب إضافة الموصوف إلى الصفة.

والقدس بمعنى الطهر، والقداسة الطهارة والنزاهة، بمعنى الروح المطهرة، المنزهة المقدسة، وهو جبريل -عليه الصلاة والسلام-، والمشهور أنه قيل له ذلك لأن الله -عز وجل- خلقه من غير ولادة، فليس له أب ولا أم، كما قال الله عن عيسى -صلى الله عليه وسلم-: **{وَرُوحٌ مِّنْهُ}** [(١٧١) سورة النساء] أي روح مخلوقة كانت بتكوين الله -عز وجل- إذ قال له: كن فكان، من غير أب على ما جرت به العادة، فجبريل -عليه الصلاة والسلام- كان بتكوين الله -عز وجل- وخلقه من غير ولادة.

وبعضهم يقول: **{وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}** [(٨٧) سورة البقرة]، أي أيدناه بالإنجيل، وهذا بعيد غاية البعد؛ وذلك أن الله -عز وجل- لما ذكر روح القدس في غير هذا الموضع في قوله تعالى: **{إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ}** [(١١٠)

سورة المائدة]، قال بعد ذلك: {وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ} [(١١٠) سورة المائدة] فلو كان روح القدس هو الإنجيل لكان ذلك من قبيل التكرار، فدل هذا على أن روح القدس ليس هو الإنجيل.

وبعضهم يقول: القدس هو الله، فروح القدس يعني روح الله، بمعنى أن الإضافة تكون للتشريف، كما قال عن عيسى -صلى الله عليه وسلم-: {وَرُوحٌ مِّنْهُ} [(١٧١) سورة النساء]، وهذا أيضاً فيه بعد.

وبعضهم يقول: هي الكلمة التي كان يقولها عيسى -صلى الله عليه وسلم- حينما يريد إحياء الموتى حيث كان يتلفظ بهذه الكلمة: أيدتك بروح القدس، وهذا أيضاً بعيد، فالصواب أن روح القدس هو جبريل -عليه الصلاة والسلام-.

"والدليل ما روى البخاري عن عائشة -رضي الله عنها-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وضع لحسان بن ثابت منْبرًا في المسجد، فكان ينافح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك))[٢]، وقد رواه أبو داود في سننه، والترمذي، وقال: حسن صحيح.

وفي صحيح ابن حبان عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفسٌ حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب))[٣]".

قوله: **((نفث في روعي))** يعني في قلبي.

"وقال الزمخشري في قوله تعالى: {فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ} [(٨٧) سورة البقرة] إنما لم يقل: وفريقًا قتلتم؛ لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل -أيضًا- لأنهم حاولوا قتل النبي -صلى الله عليه وسلم- بالسم والسحر، وقد قال -عليه الصلاة والسلام- في مرض موته: ((ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهَرِي))[٤] قلت: وهذا الحديث في صحيح البخاري وغيره."

قوله: **((أبهري))** هو العرق المعروف في القلب الذي يكون به موت الإنسان إذا انقطع.

وهذه لفتة جيدة نقلها عن الزمخشري وهي من النكات واللطائف اللغوية البلاغية، وهي أن قوله: {فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ} جاء بصيغة الماضي، أي حصل التكذيب في الماضي.

وقوله: {وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ} عبر بالمضارع فيما يتعلق بالقتل، ومعلوم أن الفعل المضارع يدل على الاستمرار والتكرر حيناً بعد حين، فالتكذيب أضافه إلى ما مضى، والقتل عبر به بالمضارع بمعنى أنهم يقتلون الأنبياء باستمرار.

---

[٢] - أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق - باب: ذكر الملائكة (٣٠٤٠) (ج ٣ / ص ١١٧٦) ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم (٢٤٨٥) (ج ٤ / ص ١٩٣٢) ولفظهما: ((اللهم أيده بروح القدس)) دون قوله: ((كما نافح عن نبيك))، وعند الطبراني في الكبير (ج ٤ / ص ٣٧) ((اللهم أيده بروح القدس ما نافح عن نبيك)).

[٣] - أخرجه ابن ماجه في كتاب: التجارات - باب: الاقتصاد في طلب المعيشة (٢١٤٤) (ج ٢ / ص ٧٢٥) وابن حبان (ج ٨ / ص٣٢٩) والطبراني في الكبير (ج ٨ / ص ١٦٦) كلهم بألفاظ متقاربة، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٠٨٥).

[٤] - أخرجه البخاري في كتاب: المغازي - باب: مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته (٤١٦٥) (ج ٤ / ص ١٦١١).

هذه اللطائف والدقائق يذكرها بعض المفسرين، ويمكن أن يُناقش كثيرٌ منها، فلو أردت أن تناقش هذه مثلاً فإن التكذيب أيضاً كالقتل مستمر منهم، فهم حاولوا قتل النبي -صلى الله عليه وسلم- وكذبوه، بل حاولوا قتله وما استطاعوا، ولكنهم كذبوه قطعاً، فلو قال مثلاً: فريقاً تكذبون، وفريقاً تقتلون لكان ذلك أيضاً يدل على المقصود، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٣٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ} [(٨٨) سورة البقرة].

"روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ} أي: في أكنة، وقال مجاهد: {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ} عليها غشاوة، وقال عكرمة: عليها طابع. وقال أبو العالية: أي: لا تفقه."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ} القراءة المتواترة في هذه الآية هي بإسكان اللام، وهذه الأقوال التي نقلها عن جماعة من السلف -رضي الله عنهم-هي أقوال متقاربة، بمعنى أن هذا ليس من الخلاف الذي يحتاج معه إلى الترجيح، وإنما ذلك من قبيل اختلاف التنوع، فقول بعضهم أي: في أكنة، وقول الآخرين: عليه غشاوة بمعنىً واحد، فهذه الأكنة هي الغشاوة التي على هذا القلب، فكل شيء أكنَّه بمعنى غطاه.

وكذا قول من قال: عليها طابع، فإذا كانت القلوب عليها طابع بمعنى أنه غشاها ما غشاها من الكفر والذنوب فطبع عليها فما عادت تقبل الحق ولا تنتفع به، ولا تسمع سماع استجابة، وكذا قول من قال: لا تفقه.

وتفسيره بأنه لا تفقه من قبيل التفسير باللازم، وذلك أن القلوب إذا كان عليها أكنة أو كان عليها الطابع أو الغشاوة فيلزم من ذلك أنها لا تفقه، فهذا مثال على تفسير السلف باللازم، وبهذه الطريقة نستطيع أن نوجه هذه الأقوال.

وأما قول من قال: إن المراد بها أنها أوعية للعلم فإن ذلك يتنزل على القراءة الأخرى -وهي من القراءات الشاذة، وليست متواترة- وهي (قلوبنا غُلُف) بضم اللام، ومعنى غلْف -بتسكين اللام- أي مغلفة، وغلُف -بضم اللام- أي أنها بمنزلة الوعاء الذي يوضع بداخله الشيء.

فإذا كان المراد بقوله: {قُلُوبُنَا غُلْفٌ} أي مغطاة عليها غشاوة تغشيها فلا يصل إليها الحق، فمراده بقوله: قلوبنا غلُف -بالضم- على هذه القراءة غير المتواترة أنها أوعية للعلم، والمراد بأنها أوعية للعلم يحتمل أمرين -وبكل واحد منهما قال بعض السلف- أحدهما أن المراد بأوعية للعلم أنها مستغنية عن العلم الذي يقرره ويدعو إليه هذا النبي وما يذكره من ألوان الهدايات.

المعنى الثاني: أنهم يقولون: قلوبنا غلُف، أي أنها أوعية للعلم فما بالها لا تفهم ولا تفقه عنك أيها النبي؟! أي مع أننا لسنا بمنزلة العامة والجهال الذين لا يفهمون ولا يفقهون، ولم يعرفوا العلم، بحيث تحدثهم بحديث لا يفهمونه ولا يدركونه ولا تصل عقولهم إليه، بل نحن قلوبنا أوعية للعلم فلماذا لا نفهم عنك، هذا هو المعنى الثاني.

لكن ما دام أن القراءة الثانية شاذة فبالتالي هذه الآية لا تفسر إلا بالأول، أي: أنها مغطاة عليها غشاوة، ويدل عليه قوله -تبارك وتعالى-: **{وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}** [(٥) سورة فصلت]، فهذا من قبيل تفسير القرآن بالقرآن، وهذا من أحسن ما تفسر به هذه الآية، والله تعالى أعلم.

وإنما ذكرت ذلك لأن بعض المفسرين يذكر القولين في تفسير قوله تعالى: **{وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ}** فيقول: أوعية للعلم أو أنها مغلفة مغطاة، وهذا فيه نظر؛ إذ إن القول بأنها أوعية للعلم منزل على القراءة الشاذة، ولذلك تجد في تنزيل أقوال المفسرين أو في ذكر أسباب الاختلاف في التفسير أن من الخلاف ما ليس بخلاف حقيقي، ويسمونه خلاف التنوع، والاختلاف الصوري وهو أنواع كثيرة، والشاطبي -رحمه الله- من أكثر من فصلوا فيه، وتجدونه في مقدمة ابن جزي في تفسيره التسهيل، لكن من أكثر من فصل فيه الشاطبي في الموافقات، حيث ذكر نحواً من ثلاثة عشر وجهاً أو صورةً له، ومنها:

أن يتنزل كل قول من هذه الأقوال على قراءة، وبالتالي لا نحتاج إلى أن نقول: القول الأول كذا، والقول الثاني كذا.

وعلى كل حال هذا القول بأنها لا تفقه هو من قبيل التفسير باللازم، وهذا المعنى لا ينبغي العدول عنه، يعني تفسيرها على أنها مغطاة مغلفة فهو اختيار الأئمة الأكابر، ككبير المفسرين ابن جرير الطبري، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم وأمثال هؤلاء.

"قال مجاهد وقتادة: وقرأ ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- غُلُف -بضم اللام- وهو جمع غلاف، أي: قلوبنا أوعية كل علم، فلا نحتاج إلى علمك، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وعطاء."

هذا توجيه، والتوجيه الآخر على هذه القراءة، فما بالها لا تفقه عنك.

"{بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ} أي: طردهم الله وأبعدهم من كل خير.

{فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ} قال قتادة: معناه لا يؤمن منهم إلا القليل."

قول قتادة هو أحد المعاني التي يحتملها قوله: **{فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ}**، وهو كقوله: **{فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً}** [(١٥٥) سورة النساء] يحتمل أن يكون المراد أن الداخل منهم في الإيمان بالله عددهم قليل، وهو شيء مشاهد، فاليهود أقل الناس دخولاً في الإسلام لما في قلوبهم من القسوة وما تنطوي أنفسهم عليه من الشر، فيكون المعنى على هذا: **{فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ}** أي: قل من يؤمن منهم، أي يدخل في الإيمان.

وتحتمل معنىً آخر: **{فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ}** أي: أنهم آمنوا ببعض وكفروا ببعض، كفروا بعيسى -صلى الله عليه وسلم- وكفروا بمحمد -عليه الصلاة والسلام- وكفروا بالإنجيل والقرآن، وقتلوا كثيراً من أنبيائهم، فإيمانهم الواقع هو قليل بالنسبة إلى التكذيب والكفر الذي صاحبه.

وهذا المعنى لا إشكال فيه، فالله -عز وجل- قال عن المشركين: **{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ}** [(١٠٦) سورة يوسف] فيجتمع الإيمان والكفر وقد يكون الإيمان منخرماً بسبب ما خالطه من هذا الكفر، فهو عنده إيمان لا ينفع ولا ينجي، وقد يوجد إيمان مع كفر لكنه لا يفضي به إلى الهلاك، أي أن معه إيمان

وجاهلية، إيمان وفسق، إيمان وبدعة، أي يوجد هذا وهذا، وعلى هذا فقوله: {فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ}، يحتمل هذا وهذا، والله أعلم.

"{وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ} [(٨٨) سورة البقرة] هو كقوله: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا} [(٥) سورة فصلت]، ولهذا قال تعالى: {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ} [(٨٨) سورة البقرة]، أي: ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها، كما قال في سورة النساء: {وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً} [(١٥٥) سورة النساء]."

قول عكرمة: عليها طابع، مع قوله تعالى هنا: {غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا}، وقوله أيضاً: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ}، مع قول ابن عباس: {قُلُوبُنَا غُلْفٌ} أي: في أكنة، فهذا الكلام كله صحيح.

"وقد اختلفوا في معنى قوله: {فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ} وقوله: {فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً} فقال بعضهم: فقليل من يؤمن منهم، وقيل: فقليل إيمانهم بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى -عليه السلام- من أمر المعاد والثواب والعقاب، ولكنه إيمان لا ينفعهم."

على هذين الاحتمالين يكون أثبت لهم الإيمان، فإما أن يكون ذلك المثبت لبعضهم بمعنى أن الذي يدخل منهم في الإيمان قلة، مثل عبد الله بن سلام -رضي الله عنه-، وإما أن يكون المقصود أن الإيمان الواقع في قلوبهم قليل بالنسبة لما صاحبه من التكذيب الكثير، فيكون على الاحتمالين، أثبت لهم الإيمان أو أثبته لبعضهم، ولا مانع أن ينسب الشيء للطائفة مع أنه إنما وقع ذلك لبعض منها.

{فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ} أي قل من يؤمن منهم، والاحتمال الذي يقابل هذا أن المقصود به النفي المطلق للإيمان، بمعنى أنهم لا يؤمنون أصلاً، فالعرب تذكر القلة أحياناً وتقصد بها النفي، فيقولون مثلاً: مررت بأرض قل ما تنبت إلا البصل والكراث، أو يقولون: مررت بأرض قليلاً ما تنبت، والمعنى أنها لا تنبت أصلاً، وهذا أحد الاحتمالات في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: {قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا} [(١٦) سورة الأحزاب]، فالمعنى إذا جاءتهم آجالهم ماتوا فلا يمتعون شيئاً؛ لأنهم وإن فروا من الموت فإنهم سيلاقون آجالهم حتماً، فلا وجه لبقائهم يتمتعون لا قليلاً ولا كثيراً..

وكذلك في قوله تعالى: {وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا} [(١٨) سورة الأحزاب] يمكن أن يكون المراد أنهم لا يأتون البأس أصلاً، أي أن المنافقين لا يأتون للحرب، ويمكن أن يكون المعنى أنهم يأتونه قليلاً فقط دون مشاركة فاعلة، فالمقصود أن الاحتمال الثاني في الآية هو النفي المطلق {فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ}، أي: أنهم لا يؤمنون.

"ولكنه إيمان لا ينفعهم؛ لأنه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمد -صلى الله عليه وسلم- وقال بعضهم: إنما كانوا غير مؤمنين بشيء."

هذا يقابل القول الأول، فالقول الأول يتنزل على احتمالين، والقول الثاني: المقصود به النفي المطلق، والقول الثاني لسنا مضطرين إليه، وإنما يحتاج إليه في بعض المقامات التي تكون فيها الحال مقتضية للنفي، أما هنا فيمكن أن يقال: عندهم إيمان قليل مع تكذيب كثير، ويمكن أن يقال: لا يدخل في الإيمان منهم إلا قلة، وهذا أظهر في المعنى من أن يكون المقصود به النفي المطلق؛ لأنه يوجد عندهم إيمان.

ومن قال: إن المقصود النفي المطلق يمكن أن يكون قوله هذا على أن تكذيبهم لنبي من الأنبياء كالنبي -صلى الله عليه وسلم- وعيسى، والتكذيب بكتاب كالقرآن، يرجع وينعكس أثره على سائر الكتب، وسائر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فمن كذب نبياً فقد كذب بكل الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ومن كذب بكتاب فقد كذب بجميع الكتب، قال تعالى: {لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ} [(٢٨٥) سورة البقرة]، ولذلك فإن موسى -صلى الله عليه وسلم- أخبرهم بمبعث النبي -عليه الصلاة والسلام- وجاء خبره في التوراة، فهؤلاء الذين كذبوا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- أو بعيسى، هم مكذبون بالتوراة ومكذبون بموسى، فإيمانهم منتف بهؤلاء جميعاً.

"وإنما قال: {فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ} وهم بالجميع كافرون، كما تقول العرب: قلما رأيت مثل هذا قط، تريد ما رأيت مثل هذا قط.

{وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ} [(٨٩) سورة البقرة].

يقول تعالى: {وَلَمَّا جَاءهُمْ} يعني اليهود {كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ} وهو القرآن الذي أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- {مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ} يعني: من التوراة.

وقوله: {وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ} أي: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم.

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن يَهوداً كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله -صلى الله عليه وسلم- قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن مَعْرُور، أخو بني سلمة -رضي الله تعالى عنهما-: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفُونه بصفته، فقال سَلام بن مِشْكَم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، ما هو الذي كنا نذكر لكم؟ فأنزل الله في ذلك من قولهم: {وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ} الآية.

وقال أبو العالية: كانت اليهود تستنصر بمحمد -صلى الله عليه وسلم- على مشركي العرب، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبًا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم. فلما بعث الله محمدًا -صلى الله عليه وسلم- ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسدًا للعرب وهم يعلمون أنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال الله تعالى: {فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ} [(٨٩) سورة البقرة]."

سبق معنا قول الله -تبارك وتعالى- قبلُ: {أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ} [(٧٦) سورة البقرة] وقلنا هناك: أحسن ما تفسر به -والله أعلم- بما فتح الله عليكم يعني بما حكم عليكم، وذكرنا أن الفتح يأتي بمعنى القضاء والحكم، ويأتي بمعنى النصر، وقلنا: الفتاح والفاتح هو القاضي والحاكم، والفتاحة هي الحكم، فالمقصود أن قوله هناك: {بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ} يفسر بما حكم عليكم من اللعن والإبعاد، وجعل

منكم قردة وخنازير، إلى غير ذلك مما حصل من حكم الله -عز وجل- فيهم أياً كان، ولا يخص ذلك بشيء دون شيء كما سبق.

وقوله هنا: {وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ} هنا نفسر الفتح بالنصر، أي يستنصرون عليهم برسول الله -صلى الله عليه وسلم- حيث كانوا يهددونهم دائماً بأنه سيبعث -عليه الصلاة والسلام- وأنهم سيقاتلونهم معه فيقتلونهم قتلاً ذريعاً، والله تعالى أعلم.

"{بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [(٩٠) سورة البقرة].

قال مجاهد: {بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ} يهودُ شَرَوُا الحقَّ بالباطل وكتمانَ مَا جاءَ به مُحَمَّد -صلى الله عليه وسلم- بأن يبينوه.

وقال السدي: {بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ} يقول: باعوا به أنفسهم، يقول: بئسما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد -صلى الله عليه وسلم- عن تصديقه ومؤازرته ونصرته، وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية {أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ} ولا حسد أعظم من هذا."

سبق الكلام عن معنى الاشتراء في قوله -تبارك وتعالى-: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ} [(١٦) سورة البقرة]، فالاشتراء أصله يكون بالبيع والشراء تقول: شرى واشترى، وبعضهم يفرق بين شرى واشترى فيقول: اشترى من الاشتراء وهو أخذ السلعة بعوض عنها من المال ونحوه، وشرى بمعنى باع، لكن هنا {بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ} فسره بعضهم بأنهم باعوا أنفسهم.

وعلى كل حال نحن إذا بقينا مع أصل المعنى اللغوي لـ[اشترى] سنقول: باع،لكن ذلك يورث في تفسير الآية إشكالاً.

فالمهم أن {اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} و {بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ} معناه أنهم باعوا أنفسهم بثمن بخس، وهو أنهم استبدلوا الكفر ورضوه واعتاضوه عن الإيمان واتباع الحق، وبالرشا والكذب على الله -عز وجل- وتحريف كتبه.

وإذا أردنا أن نفسر الآية بمعنى أقرب إلى الأذهان، نقول: إن الشراء والبيع يستخدم في المعاوضات بالمال، ولكنه صار يقال ذلك في كل معاوضة، فهؤلاء {بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ} أي أنهم استبدلوا الإيمان بالكفر، والتصديق واتباع محمد -صلى الله عليه وسلم- اعتاضوا عنه بالتكذيب، والكفر وردِّ ما جاء به النبي -عليه الصلاة والسلام- فهذه هي حالهم وصفتهم.

و[بِئْس] تستعمل للذم، وأصلها [بَئِس] وصار يستعمل مخففاً [بِئْس] ودخلت عليها [ما]، وبعضهم يقول: هي كلمة واحدة، وعلى كل حال هي كلمة تستعمل للذم، والمعنى بئس الشيء ما اعتاضوا به من الكفر والتكذيب بدلاً من الإيمان واتباع محمد -صلى الله عليه وسلم- وهذا كما قال القائل:

بـــدلت بالجمـــة رأســـاً أزعـــرا ... وبالثنايـــا الواضـــحات الـــدردرا
وبالطويل العمــر عمــراً جيــدرا ... كمـــا اشـــترى المـــسلم إذ تنـــصرا

فقوله: كما اشترى المسلم إذ تنصرا يعني كما استعاض الإسلام بالنصرانية، فالمقصود المعاوضة، ومثل هذا قول الشاعر:

إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بهـــا　　　فما أصبت بترك الحج مـــن ثمـــن

يعني بماذا اعتضت بترك الحج من الثمن.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٣٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر-رحمه الله تعالى- "وقال أبو العالية: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى -عليه السلام- ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وبالقرآن، وعن عكرمة وقتادة مثله."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل- عن هؤلاء اليهود: **{بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ}** [(٩٠) سورة البقرة].

سبق الحديث عن قوله تعالى: **{بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ}**، وعرفنا معنى بئس وشرى، و[ما] تحتمل أن تكون موصوله، وبعضهم يقول: [ما] موصوفة والمعنى بئس الشيء الذي اشتروا به أنفسهم كفرهم بما أنزل الله، حيث إن قوله: **{أَن يَكْفُرُواْ}** تؤول بمصدر هو كفرهم بما أنزل الله.

وكفرهم بما أنزل الله دافعه الحسد والبغي، والبغي هو التعدي على الآخرين، فالتجاوز والإساءة والظلم والعدوان كل ذلك يقال له: بغي.

وقوله: **{بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ}** أي حسداً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فبئس شيئاً أو بئس الشيء الذي اشتروا به أنفسهم كفرهم بما أنزل الله، أو يمكن أن يكون **{أَن يَكْفُرُواْ}** مؤول بمصدر ويكون هو المخصوص بالذم، أي بئس الشيء كفرهم، والله أعلم.

قوله: **{فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ}** [(٩٠) سورة البقرة] يعني الغضب الأول والغضب الآخر، فالغضب الأول هو ما استحقوا به اللعن وهو غضب الله -عز وجل- بارتكاب الأسباب الموجبة لذلك وهي كثيرة جداً، من كفرهم بالمسيح -عليه الصلاة والسلام- وكذلك ما ذكر الله عنهم من تركهم بالأمر المعروف والنهي عن المنكر، ومحادة الله -عز وجل- ورسله -عليهم الصلاة والسلام- وقتلهم الأنبياء وما أشبه ذلك مما استوجبوا به غضب الله -عز وجل- سابقاً، ثم بعد ذلك الغضب الآخر وذلك بكفرهم بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، فجمعوا كفراً إلى كفر **{فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ}**، وبهذا تعرف أن الكفار متفاوتون غاية التفاوت على النار وليسوا على مرتبة واحدة بل **{إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا}** [(١٧٨) سورة آل عمران]، فالكفار يزدادون من الإثم فتتفاوت أحوالهم في النار وعذابهم بحسب ما عندهم من الجرائم.

"وقوله تعالى: {وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [(٩٠) سورة البقرة]: لما كان كفرهم سببه البغي والحسد ومنشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالمهانة والصغار في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [(٦٠) سورة غافر] أي: صاغرين حقيرين ذليلين راغمين.

وقد روى الإمام أحمد عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **((يحشر المتكبرون أمثال الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له: بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار))**[1]."

قوله: **{وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}** يدل على أنه قد يوجد العذاب ولا توجد الإهانة، فإن العذاب الذي يقع على أهل الإيمان لا يكون موصوفاً بالإهانة، فقد يحصل للإنسان الألم دون أن يحصل له إهانة معه، ولكن ذلك العذاب الذي يقع بالكفار عذاب يهينهم كما أخبر الله -عز وجل- أنهم يسحبون في النار على وجوههم، فالمقصود أن الإهانة هي إيلام للنفس، والعذاب أشمل من ذلك يقع على البدن ويقع على النفس، وربما كان العذاب الواقع على النفس أعظم من العذاب الواقع على البدن، فجمع الله لهم بين هذا وهذا، وذلك في القرآن كثير، حيث يذكر الله -عز وجل- عذاب أهل النار الذين هم أهلها ويذكر معه الإهانة، والأحاديث الواردة في الكِبْر كثيرة جداً، وهذا الحديث الذي ذكره أيضاً منها وهو بإسناد حسن.

ومن الأشياء التي يمكن أن تذكر أن الله -عز وجل- قال: **{وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}** ولم يقل: ولهم مع أن الكناية بالضمير تصلح في هذا الموضع، ولهم عذاب مهين لكن الله قال: **{وَلِلْكَافِرِينَ}** فهذا الذي يسمونه الإظهار في موضع الإضمار، يعني أنه يصلح فيه الضمير ويغني، والضمائر إنما تأتي بها العرب لاختصار الكلام وتقليله، فإذا أظهر في موضع الإضمار **{وَلِلْكَافِرِينَ}** بدلاً من أن يقول: ولهم عذاب، فإن ذلك يكون لنكته؛ وذلك لأن يكون المراد بيان السبب الذي استوجبوا به هذه العقوبة، أي: لماذا كان لهم عذاب مهين؟ لكفرهم، وأن هذا الذي فعلوه من كفرهم بما أنزل الله على محمد -صلى الله عليه وسلم- هو كفر استوجبوا به عذاب الله -عز وجل- فالإظهار في موضع الإضمار تارة يكون لهذا المعنى، وتارة يكون لاستحضار المهابة كما إذا ذكر اسم الجلالة في موضع يصح فيه الإضمار أو غير ذلك من المعاني التي يذكرونها في كل مقام بحسبه، لكن هذا مثال على ذلك.

"{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ} [(٩١-٩٢) سورة البقرة].

يقول تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ} أي لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب آمنوا بما أنزل الله على محمد -صلى الله عليه وسلم- وصدقوه واتبعوه، {قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا} أي يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلا بذلك.

{وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ} يعني بما بعده {وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ} أي: وهم يعلمون أنما أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- {الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ} منصوباً على الحال."

في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ}**: كلمة وراء من الأضداد في لغة العرب، ومعنى أنها من الأضداد أي أنها تأتي لمعنى ولضده، أي تستعمل لمعنيين بينهما تضاد، فكلمة وراء تستعمل بمعنى خلف

[1] - أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ٤٧ (٢٤٩٢) (ج ٤ / ص ٦٥٥) وأحمد (ج ٢ / ص ١٧٩) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٨٠٤٠).

وتستعمل بمعنى أمام فقوله -تبارك وتعالى- في سورة الكهف: **{وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا}** [(٧٩) سورة الكهف] وراءهم ملك يعني أمامهم،وقد جاء ذلك في القراءة الأخرى لكنها غير متواترة: (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً).

فقوله هنا: **{وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ}** يمكن أن يفسر بما بعده، فهم يؤمنون بالتوراة وبموسى -صلى الله عليه وسلم- ويكفرون بمن جاء بعده وهو عيسى -صلى الله عليه وسلم- ومحمد -عليه والصلاة والسلام- هذا هو المعروف في الأنبياء الذين كفر بهم اليهود، ويُذكر أنبياء آخرون، لكن لا يثبت ذلك بشيء يجب الرجوع إليه والوقوف عنده كما يقولون: خالد بن سنان في أصحاب الرس، ولكن هذا لا يثبت.

على كل حال **{وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ}** يمكن أن يفسر بما هو أعم من ذلك -يعني بما بعده- فيقال: **{وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ}** أي بما سواه وهو اختيار كبير المفسرين بن جرير الطبري -رحمه الله- **{وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ}** أي بما سواه، وهذا شيء مشاهد.

قوله: **{مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ} منصوباً على الحال.**

يعني هذه جمل حالية **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ}** [(٩١) سورة البقرة] هذه جملة حالية، فعل وفاعل يكفرون ثم **{بِمَا وَرَاءهُ}** جار ومجرور، فهذه جملة حالية، ثم الجملة التي بعدها أيضاً هي جملة حالية، أي والحال أنه مصدق لما معهم.

ووجه الرد عليهم في ذلك والإلزام أن هؤلاء اليهود يكفرون بغير الكتاب الذي أنزل عليهم وبغير الرسول الذي أرسل إليهم مع أن ذلك حق ثابت، وهو الحق وهو مصدق لما معهم، فكفرهم بهذا الحق المصدق لما معهم يرجع أثره إلى إبطال إيمانهم الأول؛ لأنهم كفروا بالحق الذي صدق الحق الذي كان معهم، فكفرهم به -وهو حق ثابت يصدق ما معهم من الكتاب- هو كفر بكتابهم الأول، هذا وجه الاحتجاج والإلزام لهؤلاء اليهود، وهو لون من ألوان الإلزام المعروفة عند أهل الجدل.

"أي في حال تصديقهم بما معهم من التوراة والإنجيل فالحجة قائمة عليهم بذلك، كما قال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ} [(١٤٦) سورة البقرة].

ثم قال تعالى: {فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(٩١) سورة البقرة] أي: إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم فلِمَ قتلتم الأنبياء الذين جاءوا بتصديق التوراة التي بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها، وأنتم تعلمون صدقهم."

وهذا وجه آخر من الإلزام، فالأول عرفناه والثاني هو أنكم إذا كنتم تدعون أنكم على الحق، وأنكم تؤمنون بما أنزل عليكم فلِمَ تقتلون الأنبياء الذين هم من بني إسرائيل؟ ولكنكم أصحاب أهواء إنما قتلكم بالتشهي، بالتشهي فحسب، فهم يقتلون من لا يوافق أهواءهم من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ويكذبونهم ويردون ما جاءوا به، فليست القضية تقتصر على بني إسرائيل أن يكذبوهم ولكن حتى أنبياء بني إسرائيل لو صدقتم لما قتلتم أنبياءكم، فاحتج عليهم بوجهين وألزمهم بأمرين، الأول يعود على بطلان الإيمان الأول، أنتم تقولون: إنكم على حق، وهذا حق مصدق لما معكم كفرتم به، فإن ذلك الكفر به وهو حق يرجع إلى إيمانكم الأول بالبطلان، والثاني أنكم تدعون أنكم على الإيمان والحال أنكم تكفرون بما سوى ما جاءكم من الرسل أو ما

جاءكم من الأنبياء والكتب مع أنكم تقتلون أنبياء الله الذين كانوا فيكم يا بني إسرائيل، فهل هذا الإيمان صحيح كما تدعون؟ وأنكم أتباع حق؟ فلمَ قتلتموهم وهم منكم إن كنتم صادقين؟

النتيجة من هذا كله أنكم تتبعون الهوى وما تشتهيه الأنفس وتمليه، وأنكم على باطل.

"قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رسل الله، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهي، كما قال تعالى: {أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ} [(٨٧) سورة البقرة]."

قوله: **{أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ}** كلما تدل على التكرار.

{أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ} كعيسى -عليه الصلاة والسلام- ومحمد -صلى الله عليه وسلم- **{وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ}** كما فعلوا مع يحيى -عليه الصلاة والسلام- وزكريا وغير هؤلاء الأنبياء كثير، حتى إنهم قتلوا في يوم واحد سبعين نبياً، فهم قتلة الأنبياء.

"وقال السدي: في هذه الآية يعيرهم الله -تبارك وتعالى-: {قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(٩١) سورة البقرة].

{وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ} [(٩١-٩٢) سورة البقرة] أي بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات على أنه رسول الله، وأنه لا إله إلا الله.

والآيات البينات هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وفرق البحر وتضليلهم بالغمام والمن والسلوى، وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها.

{ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ} [(٩٢) سورة البقرة] أي معبوداً من دون الله، أي في زمان موسى -عليه السلام- وأيامه."

يلاحظ أن العجل إذا ذكرت عبادتهم له في جميع المواضع في القرآن لا يذكر بعده معموله الذي يفسره، والتقدير: ثم اتخذتم العجل إلهاً أو اتخذتم العجل معبوداً، فهذا محذوف يدل عليه السياق، ومعلوم أنهم اتخذوه معبوداً، والعرب تحذف من الكلام ما يفهمه السامع والمخاطب اكتفاء بما ذكر، يعني أنه يفهم المراد مما ذكر.

وبعض أهل العلم يقول: لما كان ذلك غاية في الشناعة حُذف إذ لا يعقل أن يكون ذلك العجل إلهاً معبوداً من دون الله -عز وجل- فهذا أمر لا يمكن أن يتصور، وسواء كان ذلك السبب، أو أنه حذف لكونه معلوماً كما لو قلت مثلاً: من جاء؟ فقيل: زيد، فالمعنى زيد جاء.

وقد قال ابن مالك:

وحذف ما يعلم جائز كما ... تقول زيدٌ بعدَ مَن عندكما؟

فالأصل أن تقول: عندنا زيد، أو زيد عندنا.

وقال أيضاً:

وفي جواب كيف زيدٌ قل: دَنِف ... فزيد استُغني عنه إذ عُرف

وهذا كثير جداً في كلام العرب، يكاد يتكرر في كلام الواحد منا في المجلس الواحد مراراً.

"وقوله: {مِن بَعْدِهِ} [(٩٢) سورة البقرة] أي من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله -عز وجل- كما قال تعالى: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ} [(١٤٨) سورة الأعراف].

{وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ} [(٩٢) سورة البقرة]، أي وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: {وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(١٤٩) سورة الأعراف].

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ} [(٩٣) سورة البقرة].

يعدد -سبحانه وتعالى- عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق وعتوهم وإعراضهم عنه حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه، ولهذا قالوا {سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا} وقد تقدم تفسير ذلك."

هذا سبق الكلام عليه في صدر الآية ولذلك لم يعده ثانياً.

قوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ} أي اذكروا إذ أخذنا عهدكم الموثق {وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ} أي ورفعنا فوقكم الجبل، وسبق الكلام على هذا وبيان المراد به.

{خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم} أي ما أعطيناكم من الكتاب {بِقُوَّةٍ} أي بحزم وجد واجتهاد من غير توان وتفريط، {وَاسْمَعُواْ} أي اسمعوا سماع استجابة لا سماعاً بالأذن مجرداً عن القبول، {قَالُواْ سَمِعْنَا} يعني بآذاننا، {وَعَصَيْنَا} أي بقلوبنا وحالنا وفعلنا.

"{وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ} قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: {وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ} قال: أشربوا حبَّه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم، وكذلك قال أبو العالية والربيع بن أنس."

هذا أحسن ما يفسر به قوله تعالى: {وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ} وإلا فبعضهم يفسر ذلك بقول هو في غاية البعد وهو أن يفسر الشرب بظاهره المجرد، حيث قالوا: إن موسى -صلى الله عليه وسلم- رجع فوجدهم يعبدون العجل، فقال للسامري: {وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا} [(٩٧) سورة طــه]، فالعلماء هناك يتكلمون على قوله {لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا} قالوا: كيف ينسف وهو كتلة من الذهب -مع أنه في ظني لا إشكال في أن ينسف في اليم نسفاً، وذلك بأن حرقه فذهبت معالمه فألقاه في اليم- لكن بعضهم هناك يقول: إنه سحله بالمبارد حتى صار مما يمكن أن يُذرّ، ثم نسفه في اليم نسفاً، فيقولون: ثم إنهم شربوا ماءه ذلك الذي سحل فيه في النيل وهذا معنى {وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ} فأثر ذلك في قلوبهم ونفوسهم، وهذا بعيد.

إنما الصحيح في معنى قوله: {وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ} هو كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- ((فأيما قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء))[2].

فكون القلب يشرب هذه الضلالة أو البدعة أو الانحراف، فمعنى ذلك أنه يتخلله فيؤثر فيه تأثيراً بلغياً لا يكاد يخرج منه أو ينفك صاحبه عنه.

وهذا مثل كلام السلف كما في الآثار في كتب المتقدمين كاللالكائي والآجري وابن بطة والدارمي في مقدمته على السنن وفي رده على بشر المريسي وأمثال هذه الكتب يذكرون فيها بعض الآثار، يقال مثلاً: إذا رأيت الشاب يصاحب صاحب سنة فارجه، وإذا رأيته يخالط صاحب هوى فارفع يدك منه، يعني لا ترجه؛ لأن هذا

---

2 - أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان - باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريبا وأنه يأرز بين المسجدين (١٤٤) (ج ١ / ص ١٢٨).

الإنسان ما دام في مقتبل العمر يصاحب ويخالط أصحاب الهوى فإنه يشرب ذلك في قلبه فلا تستطيع إصلاح حاله غالباً بعد ذلك؛ لأنه شب على ذلك ونشأ عليه، فجعل ذلك تغيير قلبه في غاية الصعوبة، ولذلك يقولون: فاغسل يدك منه، وهذا أمر أغلبي وليس مطلقاً فالهداية بيد الله تعالى.

وعلى كل حال فإن معنى **{وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ}** أي حب العجل، وذلك أن الله -عز وجل- ابتلاهم بهذا الإشراك والذنب العظيم الذي وقعوا فيه حتى تغلغل في شغاف قلوبهم، فصار ذلك لا ينفك عنهم، فصارت ضلالاتهم تلك لعنة تلاحقهم، ومن آثارها أنهم يعبدون المال والذهب ويقدمون ذلك على كل ما أمرهم الله -عز وجل- به وعلى كل ما يمكن أن تستحسنه العقول السليمة والفطر المستقيمة، فهم يفعلون كل رذيلة من أجل عبادة هذا المال، فمن بقايا عبادتهم العجل أنهم يعبدون الذهب كما هو مشاهد، والله المستعان.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٣٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ} [(٩٣) سورة البقرة] "أي بئسما تعتمدونه في قديم الدهر وحديثه من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الأنبياء، ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وهذا أكبر ذنوبكم وأشد الأمر عليكم؛ إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين المبعوث إلى الناس أجمعين، فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة من نقضكم المواثيق وكفركم بآيات الله وعبادتكم العجل من دون الله.

{قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالمِينَ* وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [(٩٤-٩٦) سورة البقرة].

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- :يقول الله تعالى عن نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- {قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب، فأبوا ذلك على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- {وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالمِينَ} أي بعلمهم بما عندهم من العلم بك والكفر بذلك، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات، وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله عنهما- {فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ} فسلوا الموت.

وروى عبد الرزاق عن عكرمة قوله: {فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} قال: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لو تمنى يهود الموت لماتوا.

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه، وهذه أسانيد صحيحه إلى ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

وقال ابن جرير في تفسيره: وبلغنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً))[1].

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجمعة: {قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ* قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}

---

[1] - أخرجه أبو يعلى في مسنده برقم (٢٦٠٤) (ج ٤ / ص ٤٧١) و قال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

[(٦-٨) سورة الجمعة] فهم عليهم لعائن الله تعالى لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى دُعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا علم كذبهم، وهذا كما دعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة فقال الله تعالى: {فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} [(٦١) سورة آل عمران] فلما رأوا ذلك، قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف، فعند ذلك جنحوا للسلم وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فضربها عليهم وبعث معهم أبا عبيده بن الجراح -رضي الله تعالى عنه- أمينا، ومثل هذا المعنى أو قريب منه قول الله تعالى لنبيه أن يقول للمشركين: {قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا} [(٧٥) سورة مريم] أي: من كان في الضلالة منا ومنكم فزاده الله مما هو فيه ومد له واستدرجه، كما سيأتي تقريره في موضعه -إن شاء الله تعالى-.

وقد فسرت الآية بتمني الموت دون التعرض للمباهلة والأول أولى، وسميت هذه المباهلة تمنياً لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له ولاسيما إذا كان في ذلك حجة له في بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت؛ لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة، لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد.

فقوله -تبارك وتعالى-: **{قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ}** [(٩٤) سورة البقرة] هذا التمني ظاهره أن المراد به والله أعلم التشهي، وهو التمني المعروف، وهو أن يتشهى الإنسان المتمني حصول شيء يريده ويطلبه، أو يريد وقوعه كما يتمنى الإنسان أن يكون له الولد أو المال أو يتمنى أن يحصل له أمر محبوب في الدنيا أو في الآخرة، أو أن يحصل لغيره أمر محبوب أو مكروه

تمنى رجال أن أموت فــإن أمــت فتلك ســبيل لــست فيهــا بأوحــد

فهذا التمني بمعنى التشهي، فقوله: **{فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ}** [(٩٤) سورة البقرة] يفسر بالتمني المعروف، أي أنهم يرغبون في حصوله لهم بما يعلمون ما لهم من المنزلة عند الله -عز وجل- لأنهم يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الجنة لن يدخلها إلا من كان يهودياً كما قال -تبارك وتعالى-: **{وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى}** [(١١١) سورة البقرة] يعني اليهود يقولون: إلا من كان يهودياً، والنصارى يقولون: إلا من كان نصرانياً، فـ"أو" هذه للتنويع والتقسيم، فهو سبحانه يقول لهم: إذا كان الأمر كذلك فاطلبوا الموت لما تفضون إليه بعده من الراحة والنعيم والزلفى من الله -تبارك وتعالى- فأنتم تعلمون مآلكم ومصيركم، فما البقاء في هذه الحياة وهي دار النكد والتعب والشقاء والكبد، ويشهد لهذا المعنى ما جاء في نفس الآية: **{قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ}** [(٩٤) سورة البقرة] وكذلك في سورة الجمعة: **{قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ}** [(٦) سورة الجمعة]،

ولهذا قال بعده: {وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} [(٧) سورة الجمعة] فهذا ما قبله وما بعده يدل على أن تمني الموت هو التمني المعروف.

القول الآخر الذي رجحه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو اختيار الحافظ ابن القيم أيضاً أن المقصود بتمني الموت هنا الدعاء به على سبيل المباهلة، والمباهلة معروفة وهي الدعاء على المبطل من الفريقين بالهلاك أو الموت أو نزول العقوبة التي تعجل به في الدنيا، كما دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- نصارى نجران إلى المباهلة.

فبعض أهل العلم يقول: هذا من المباهلة بمعنى أن يُدعى على الفريق المبطل بالموت والهلاك، ومعلوم أنهم لا يقدمون على ذلك لما يعلمون من مصيرهم البائس بعد الموت.

والذي يشهد لهذا القول عندهم هو أن اليهود قد يكون الواحد منهم فقيراً معدماً إلى حد أنه يتمنى الموت على ما يعانيه من الفقر، وقد يكون مريضاً فيشتد به المرض فيتمنى الموت ليستريح من هذا المرض لفرط جزعه، فقالوا هذا يوجد في الدنيا، إذاً هذا على سبيل المباهلة لأنهم لن يقدموا على هذه المباهلة لعلمهم بأنهم على الباطل، هذا هو توجيه هذا القول.

وعلى كل حال وجود أفراد من اليهود على مر العصور والأزمان بحيث يتمنى الواحد منهم الموت عن الحياة لضر نزل به هذا لا يخرم القاعدة العامة من تمسكهم بالحياة ومحبتهم لها، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} [(٩٦) سورة البقرة] والتنكير هنا يؤخذ منه معنى وهو أنهم يحرصون على حياة ولو كانت بائسة لا قيمة ولا معنى لها، فهم يتمسكون بأهداب الحياة مهما كانت حقيرة حيث يأباها الحر الكريم عزيز النفس فالحياة عندهم هي كل شيء ولو كانوا يفقدون معها كل معاني الإنسانية، ولهذا قال: {وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ} [(٩٦) سورة البقرة] كما سيأتي في معناه، فهم أحرص من المشركين الذين لا يؤمنون أصلاً بالبعث والآخرة فأهل الإشراك ليس لهم أصلاً إيمان بالحياة الأخروية فهم بالتالي يتمسكون بهذه الحياة إلى آخر نفس لا يرجون داراً بعدها وحياة يئولون فيها إلى النعيم، فهؤلاء أشد الناس حرصاً على الحياة، وأحرص منهم هؤلاء اليهود الذين علموا بالبعث وعلموا بمصيرهم بعد البعث، فالمقصود أن الآية تحتمل هذين المعنيين، وربما كان الظاهر المتبادر والذي يشهد له قرينتان في نفس الآية قبله وبعده، قبله هو قوله: {إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ} [(٩٤) سورة البقرة] وبعده هو قوله: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} [(٩٦) سورة البقرة] كل ذلك من القرائن التي ربما يفهم منها أن المقصود به التمني بمعنى التشهي، أي اطلبوا الموت لتستريحوا من عناء هذه الحياة فيكون هنا تمني الموت بمعنى الرغبة في حصوله وليس ذلك بالدعاء به على سبيل المباهلة، والله تعالى أعلم.

"ولهذا قال تعالى: {وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ* وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} [(٩٥-٩٦) سورة البقرة] أي على طول العمر لما يعلمون من مآلهم السيىء وعاقبتهم عند الله الخاسرة؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم، وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة، حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ} قال: الأعاجم، وكذا رواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه.

وقال مجاهد {يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ} [(٩٦) سورة البقرة]، قال: حببت إليهم الخطيئة طول العمر."

قوله: **الأعاجم** هذا من قبيل التفسير ببعض ما يصدق عليه المعنى، وإلا فهي في الأعاجم وفي غيرهم، وبعض السلف ينقلها عن بعض الأعاجم تحية يحيي بعضهم بعضاً معناها: عش ألف سنة، ينقلونها بالفارسية عش ألف سنة، لكن هذا لا يختص بالأعاجم، حتى نقل ذلك عن العرب، فمن قال: إنها في الأعاجم فليس المراد بذلك الحصر في الأعاجم؛ فإن الأعاجم لا مزية لهم في هذا على غيرهم وإنما هي في عموم أهل الإشراك من العرب والعجم؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة والأصل بقاء العام على عمومه ولا يجوز تخصيصه إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

قوله: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ} [(٩٦) سورة البقرة] فقوله: {وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ} هل هو كلام جديد مستأنف بدأ يتحدث عن المشركين أم أنه متصل ومرتبط بما قبله؟

هذا الآية تحتمل ثلاثة معانٍ من هذا الجهة، الأول -وربما كان هو المتبادر- هو أن المعنى هكذا {وَلَتَجِدَنَّهُمْ} أي اليهود {أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} أيَّاً كانت مهينة أو رفيعة، شريفة أو وضيعة.

{وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ} يعني وأحرص من الذين أشركوا أيضاً؛ لشدة حرصهم على الحياة فاقوا في هذا الحرص أهل الإشراك الذين لا يؤمنون أصلاً بالآخرة، فهذه الحياة هي الغاية عندهم، حيث قالوا: {مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} [(٢٤) سورة الجاثية] فالمقصود أنهم أحرص من المشركين.

ثم إن قوله: {يَوَدُّ أَحَدُهُمْ} يرجع إلى اليهود، هم أحرص الناس على الحياة وأحرص من المشركين، قد بلغوا غاية الحرص حتى فاقوا المشركين، حتى إن أحدهم ليود -يعني اليهود- {لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ} [(٩٦) سورة البقرة] فالكلام هذا كله في اليهود، حيث بين شدة حرصهم على الحياة فهم أحرص من المشركين حتى إن أحدهم يود لو يعمر ألف سنة، هذا هو الظاهر المتبادر.

والاحتمال الثاني: أن يكون الكلام مستأنفاً، أي في قوله: {وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ} فبعد أن تحدث عن اليهود أنهم {أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} انتقل إلى طائفة أخرى تحرص على الحياة، وهم أهل الإشراك، {وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ} يعني المشركين {لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ} فالكلام كله في المشركين حيث ذكر حرص اليهود وذكر حرص طائفة أخرى على الحياة وهم أهل الإشراك وهم لا يؤمنون بالبعث، وهذا قال به جمع من أهل العلم وهو أبعد هذه الأقوال الثلاثة، وإن كانت الآية تحتمله.

والمعنى الثالث {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ} يعني ولتجدن اليهود أحرص الناس على حياة وأحرص من أهل الإشراك الذين يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، يعني يكون معنى يود يعود إلى المشركين، فاليهود هم أحرص الناس على حياة حتى فاقوا أهل الإشراك الذين يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر، وهذا المعنى الأخير الثالث هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

والخلاصة أن الآية لها ثلاثة معانٍ: الأول أن يكون قوله: {يَوَدُّ} عائداً إلى اليهود، فهم في غاية الحرص حتى فاقوا المشركين بحيث صار الواحد من اليهود يتمنى أن يعمر ألف سنة.

والثاني: أن اليهود أحرص الناس على حياة وأيضاً يوجد طائفة أخرى حريصة على الحياة وهم أهل الإشراك الذين يود أحدهم لو يعمر ألف سنة.

والمعنى الثالث: أن اليهود أحرص الناس على حياة حتى فاقوا أهل الإشراك وأحرص من المشركين الذين يود أحدهم –أي المشركين– لو يعمر ألف سنة، وربما كان الأقرب لظاهر القرآن والله تعالى أعلم هو أن يكون المعنى هكذا: ولتجدن اليهود أحرص الناس على حياة وأحرص من أهل الإشراك حتى إن اليهودي يتمنى لو عمر ألف سنة ولكن ذلك لا ينفعه.

"وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: {وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ} [(٩٦) سورة البقرة] أي وما هو بمنجيه من العذاب وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت."

{وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ} أي ما هو بمنجيه من العذاب، الزحزحة هي التحريك، وزحزحته بمعنى حركته، مزحزحه أي أن ذلك ليس بمباعد له وناقل له من العذاب، أي فليس ذلك بمباعد له من العذاب.

{وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ} الهاء هنا تحتمل أن تعود على يود أحدهم أي بمزحزح أحدهم، فتكون عائدة إلى المذكور من قوله: {أَحَدُهُمْ} أي وما هو بمزحزح أحدهم عن العذاب لو عمر ألف سنة.

والمعنى الثاني: {وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ} أي ذلك التعمير وطول البقاء من العذاب، أي ليس ذلك بمباعده من العذاب، أي أن الضمير يرجع إلى التعمير.

"وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت فهو يحب طول الحياة، وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي بما ضيع ما عنده من العلم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية: يهود أحرص على الحياة من هؤلاء، وقد ودَّ هؤلاء لو يعمر أحدهم ألف سنة وليس بمزحزحه من العذاب لو عمِّر كما أن عمر إبليس لم ينفعه إذ كان كافراً."

وقد ود هؤلاء: يعني على الإشراك على قول عبد الرحمن بن زيد.

"{وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} أي خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر وسيجازي كل عامل بعمله."

يعني أن بصره نافذ فيهم.

وربما لم يشر الحافظ ابن كثير –رحمه الله تعالى– هنا إلى لماذا كانت المباهلة بالموت؟، وأن ذلك كان لشدة حرصهم على الحياة التي هي أغلى شيء عندهم، والموت بالنسبة لهم من أصعب الأمور.

والمباهلة لون من المحاجة يدعى فيها على المبطل من الفريقين بالهلاك، يقول الحافظ ابن حجر –رحمه الله– : إنه قد عرف بالاستقراء والتتبع أن المباهل المبطل لم يمهل أكثر من سنة واحدة؛ حيث لا يدور عليه الحول إلا وقد نزل به ما دعي فيه في المباهلة، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٣٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ* مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} [(٩٧-٩٨) سورة البقرة].

"قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري -رحمه الله تعالى-: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل ولي لهم."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فسبب نزول هذه الآية هو أن اليهود ذكروا أن جبريل -عليه الصلاة والسلام- عدو لهم كما نقل عليه الإجماع ابن جرير -رحمه الله تعالى- والروايات الواردة في هذا كثيرة، وكثير منها لا يصح من جهة الإسناد، ولكن بعضها صحيح وهذا الصحيح منه ما ليس بصريح في سبب النـــزول من جهة العبارة واللفظ، يعني تجد مثلاً في الرواية: فقرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **{مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ}** وتجد في بعضها عبارات ليست بصريحة، وقد عرفنا في بعض المناسبات أن العبارة الصريحة في سبب النـــزول هي أن يذكر حادثة أو سؤالاً ثم يقول: فأنزل الله الآية، فأنزل الله كذا، أو يصرح ويقول: سبب نزول هذه الآية كذا.

أما إذا قال: فقرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **{مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ}** مثلاً، أو نزلت هذه الآية في كذا، فإن هذا يحتمل أن يكون من قبيل سبب النـــزول، ويحتمل أن يكون من قبيل التفسير، فالروايات الصحيحة منها ما ليس بصريح في أنه سبب نزول، ولكنك إذا تتبعت الروايات الواردة وجمعتها تجد فيها ما يصرح بذلك، ولذلك فالإنسان لا يستعجل في مثل هذه القضايا، ويقول: هذه الرواية ليست بصريحة،؛ لأنك تجد في روايات أخرى أحياناً للحديث عبارة صريحة، فيكون ذلك إنما يرجع إلى نقل الرواة، وقد تجد في الحديث الواحد في أوله ما هو غير صريح، وفي آخر الحديث ما يصرح بأنه سبب النزول، وهذا موجود.

فالمقصود أن سبب نزول هذه الآية هو قول اليهود هذا، ولعل من أصح ما ورد فيه هو أن أولئك النفر من اليهود سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن مسائل متعددة، فأجابهم -صلى الله عليه وسلم- وهم يعلمون أنه لا يعرف الجواب إلا نبي، فأجابهم النبي -صلى الله عليه وسلم- عن تلك المسائل، وبعد ذلك سألوه عمن يأتيه بالوحي؟ فلما أخبرهم أنه جبريل -عليه الصلاة والسلام- أخبروه بأن جبريل عدوُّهم، وكان ذلك في زعمهم سبباً لتكذيبهم وكفرهم، حيث قالوا: لو كان ميكائيل لاتبعناك، فهم يقولون: إن جبريل -صلى الله عليه

وسلم- هو الذي يأتي بالعذاب والقحط وأن ميكال هو الذي يأتي بالخصب والأرزاق، ومعروف إفكهم وكذبهم على الله -عز وجل- وعلى رسله وذلك ليس بمستبعد منهم فهم من معادن الشر، والكفر كما هو معلوم.

وجاء في بعض الروايات أن عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- لما قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- مهاجراً إلى المدينة أتاه فسأله عن مسائل، ثم سأله عن صاحبه، فأخبره أنه جبريل فأخبر عبد الله بن سلام النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن جبريل عدو اليهود، وفي بعض الروايات أن ذلك أيضاً وقع لعمر -رضي الله تعالى عنه- لما دخل على بعض اليهود في مكان دراستهم وعبادتهم، فسألهم عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم بعد ذلك جرى بينهم محادثة، وأخبروه أن الذي يمنعهم من اتباعه -عليه الصلاة والسلام- أن جبريل هو الذي يأتيه بالوحي، فجاء ليخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- فوجد الوحي قد سبقه بقوله تعالى: **{قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا}** [(٩٧) سورة البقرة].

هذه خلاصة لأشهر الروايات الواردة في هذا المعنى، وأصح ما جاء في ذلك هي رواية أولئك النفر الذين جاءوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- فسألوه عن مسائل، فأخبرهم فسألوه عن صاحبه فقال: إنه جبريل، فكان منهم ما كان.

قوله تعالى: **{قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ}** [(٩٧) سورة البقرة] القاعدة أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، وعلى هذا **{فَإِنَّهُ}** يعني جبريل -صلى الله عليه وسلم- و**{نَزَّلَهُ}** يعني نزل القرآن، وهل جرى للقرآن ذكر؟ لم يجر له ذكر، وهذا مثال على ما ذكرنا مراراً من عود الضمير إلى غير مذكور لكنه يفهم من السياق، فالقرآن ما ذُكر، فعاد الضمير إليه لأن هذا يفهم من السياق، وهذا أسلوب عربي معروف، وقد سبق ذكره مراراً.

ويكون معنى الآية وهو المتبادر: قل من كان عدوا لجبريل فإن جبريل نزل القرآن على قلبك، وأما ما قيل من أن المراد من كان عدواً لجبريل فإن الله نزله يعني جبريل على قلبك ففيه بعد، وفي الآية قرينة ترده وهي قوله -تبارك وتعالى-: **{مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}** [(٩٧) سورة البقرة]، والمصدق لما بين يديه هو القرآن كما جاء وصفه في مواضع من كتاب الله -عز وجل-.

إذن: يكون المعنى **{فَإِنَّهُ}** أي جبريل **{نَزَّلَهُ}** يعني القرآن، **{عَلَى قَلْبِكَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}** والله تعالى أعلم، وهذه طريقة في الترجيح بين الأقوال يذكرها المفسرون وهي أن يوجد في الآية قرينة تدل على رجحان قول أو ضعف آخر، وهذا مثال عليها.

"قال البخاري: قوله تعالى: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ} قال عكرمة: جبر، وميك وإسراف عبد، و "إيل" الله."

ماذا يعني بقوله: جبر وميك وإسراف بمعنى عبد؟، يعني أن هذه الكلمات الأعجمية مركبة تركيباً إضافياً كما تقول: عبد الرحمن، عبد الله، عبد العزيز، فتكون جبر كلمة وإيل كلمة، وإذا قلنا: إن اللفظة الثانية هي بمعنى الله -وهذا هو المشهور عند كثير من أهل العلم- فإن ذلك يجعلها ذات معنىً متساو، بمعنى أن جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وكل هؤلاء جميعاً بمعنى عبد الله، وهذا أمر فيه إشكال لأن هذه الألفاظ مختلفة، ولذلك فإن بعض أهل العلم عكس القضية فقال: اللفظ الموحد هو بمعنى عبد، واللفظ الموحد فيها كلها إيل، قالوا: إيل هو عبد، واللفظة الثانية اسم، كما تقول: عبد الجبار، عبد العزيز، عبد الرحمن، فتكون إيل بمعنى عبد،

وهذا ليس بمستغرب، وعللوا ذلك بأن الأسماء الأعجمية في الإضافة يكون المضاف فيها مؤخرًا، يعني عكس ما عندنا، فالأسماء الأعجمية المركبة عندهم مثل: إسلام أباد، حيدر أباد، فيصل أباد، فما معنى أباد؟
كأنها بمعنى بلاد، فالأولى: بلاد الإسلام، والثانية بلاد حيدر، والثالثة بلاد فيصل وهكذا.
ومثل ذلك: كلمة (ستان) في تركستان، وباكستان، وأوزبكستان، كأن كلمة ستان معناها أرض، فبعض أهل العلم يقول: اللفظ الموحد الذي هو (إيل) هذا بمعنى عبد، وتلك أسماء لله -عز وجل- بالأعجمية، ومثل ذلك إسرائيل قالوا: معناه عبد الله، والعلم عند الله -عز وجل-.
وقوله تعالى: **{مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ}** [(٩٨) سورة البقرة] فيها لغات كثيرة، فجبرائيل فيه عشر لغات، وميكائيل يذكرون فيه ست لغات ولسنا بصدد ذكرها، ولا حاجة إلى ذلك في نظري، ومن شاء راجعها في بعض كتب التفسير فإنهم يذكرونها، فعلى كل حال ليس مقصودنا هو التوسع في ذكر شيء من ذلك، وإنما بيان وجه ما يذكره ابن كثير -رحمه الله- والتعليق على ما يحتاج إلى تعليق.
"ثم روى عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو في أرض يخترف."
يخترف معناه يجني الثمر.
"فأتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: ((أخبرني بهن جبريل آنفاً)) قال: جبريل؟ قال: ((نعم)) قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة[1] فقرأ هذه الآية: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ} [(٩٧) سورة البقرة]."
هذه الرواية غير صريحة حيث قال فيها: فقرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هذه الآية، بمعنى أنها قد تكون نزلت قبل ذلك فقرأها النبي -صلى الله عليه وسلم- عليه، فلو بقينا مع هذه الرواية فقط لم نحكم بحال من الأحوال أنها سبب النزول؛ لأنها غير صريحة، ولأنه يحتمل أن يكون ذلك قاله رسول -صلى الله عليه وسلم- في هذه المناسبة وإن لم يكن نزل بسببها، ولكن إذا نظرنا إلى الروايات الأخرى نجد منها ما هو صريح في اللفظ، بأنه سبب النـــزول، ولذلك هذه الرواية ثابتة صحيحة ولكنها غير صريحة، ولذلك إذا أردنا أن نرجح ما هو سبب نزول الآية فإننا نستطيع أن نقول بإجمال: إنه ما وقع من اليهود من قولهم وزعمهم بأن جبريل عدوهم، لكن إذا أردنا أن نرجح ما هو السبب المعين، هل هو قول عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- أو قول أولئك النفر من اليهود الذين سألهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أو الذين حاورهم عمر، مثلاً؟ فهنا نستعبد نوعين من هذه الروايات هما أولاً الروايات غير الصريحة، فمثل هذه الرواية صحيحة لكنها غير صريحة وبالتالي نستبعدها، ثم نستبعد الروايات الضعيفة وعامة هذه الروايات ضعيفة، ففي مثل هذا المثال لا يكاد يبقى عندنا إلا رواية أولئك النفر الذين سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن مسائل ثم سألوه عن صاحبه، فأخبرهم أنه جبريل فيكون ذلك هو السؤال، فربما كان أولئك قد جاءوا للنبي -صلى الله عليه وسلم-

---
[1] - سيأتي تخريجه.

قبل عبد الله بن سلام، وإذا تعددت عندنا الروايات وصارت صحيحة، والوقت متقارب -أول مقدم النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة- فنقول عندئذ: إن ذلك وقع في وقت متقارب فنـــزلت الآية بعد هذه الأحداث جميعاً، فكلها سبب نزول.

"**قال: ((أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب))**."

المقصود أشراط الساعة الكبرى التي تكون قبل قيام القيامة، وهذه هي النار التي تخرج من قعر عدن.

"**((وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت))**."

وأولئك النفر الذين سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- سألهم النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى أقروا بأن ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصفر، قال لهم: تعلمون ذلك؟ قالوا: نعم، وأقروا به، ففي تلك الرواية جاء ما يدل على أن الشبه أيضاً والذكورة والأنوثة تقع بسبب هذه القضية، فيكون شبهه لأبيه إذا علا ماء الرجل ماء المرأة، ويكون المولود ذكراً بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل، فإن الشبه يكون للأم، ويكون المولود أنثى بإذن الله، وهو يدل دلالة واضحة وصريحة على أن الإنسان يخلق من مجموع الماءين وذلك أيضاً في قوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ}** [(٢) سورة الإنسان] أي: أخلاط، خلافاً لما يذكره أهل الطب من أن المرأة ليس لها ماء أصلاً، فهذا غير صحيح، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما قيل له: أتحتلم المرأة؟ قال: ((فبم يشبهها الولد؟)) وقال: ((إذا رأت الماء)) لما سئل عن الغسل[2].

"**قال أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، يا رسول الله إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني فجاءت اليهود فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أي رجل عبد الله ابن سلام فيكم؟)) قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، قال: ((أرأيتم إن أسلم؟)) قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، قالوا: هو شرنا وابن شرنا، وانتقصوه فقال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله"[3] انفرد به البخاري من هذا الوجه، وقد أخرجه من وجه آخر عن أنس -رضي الله تعالى عنه-.**"

وهذا مما شابههم به بعض هذه الأمة، حيث وجد هذا حتى عند بعض من يتشبث بالعلم ويدعيه، فإذا وافقهم الإنسان صار علامة الزمان النحرير، وإذا خالفهم ولو في قضية اجتهادية صار هالكاً وجاهلاً ولا يفهم شيئاً، وما إلى ذلك من العبارات، بل ربما طُعن حتى في عرضه واتهم بكل رزية، ولا أدري هل كانت هذه الكبائر والجرائم والموبقات التي يُرمى بها الصالح هل كانت موجودة من قبل أم وجدت عند المخالفة فقط؟، فالمهم أن هذا الذي يفعله بنو إسرائيل، فينبغي للإنسان ألا يشابههم في هذا، بل يتقي الله -عز وجل- وإذا أحب

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب: التبسم والضحك (٥٧٤٠) (ج ٥ / ص ٢٢٦٠) ومسلم في كتاب: الحيض - باب:وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها (٣١٣) (ج ١ / ص ٢٥١).

[3] - أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة - باب كيف آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه (٣٧٢٣) (ج ١ / ص ١٤٣٣).

يقتصد في الحب، فلا داعي للألقاب التي يبالغ فيها، كـ"علامة"، ونحوها، وكذلك عليه إذا أبغض أن يقتصد في البغض، فلا داعي للعبارات أيضاً التي لا يحتاج إليها.

وهنا قاعدة في هذا، وهي أنك إذا رأيت الرجل يبالغ في الحب فلا تأمن أن ينقلب إلى الطرف الآخر تماماً، بل توقع أن هذا الشخص في يوم ما سينقلب مائة وثمانين درجة وستسمع منه عكس ما كنت تسمعه من قبل، وهذا ينبئ عن خلل في طريقة تفكير الإنسان واختلال في مزاحه، وأنه ليس معتدلاً في أموره، وإنما يعيش على المبالغات، فحياته على المبالغات، ولذلك نظره غير مستقيم وغير متزن، وحكمه على الأشياء غير منضبط؛ لأن الذي يحركه نفس تطيش، ومثل هذا أحكامه لا تسلم، سواء في قضايا الأحكام الفقهية ودراستها، أو في حكمه على الأشياء أو الناس أو غير ذلك.

"ومن الناس من يقول: "إيل" عبارة عن عبد والكلمة الأخرى هي اسم الله؛ لأن كلمة "إيل" لا تتغير في الجميع، فوزانه عبد الله، عبد الرحمن، عبد الملك، عبد القدوس، عبد السلام، عبد الكافي، عبد الجليل، فعبد موجودة في هذا كله، واختلفت الأسماء المضاف إليها، وكذلك جبرائيل وميكائيل، وعزرائيل، وإسرافيل ونحو ذلك، وفي كلام غير العرب يقدمون المضاف إليه على المضاف، والله أعلم."

الذي دعا أصحاب القول الأول –وهو المشهور– أن إيل بمعنى الله أنهم وجدوا في كلام العرب في قوله تعالى: **{لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً}** [(٨) سورة التوبة] أن الإل هو الله، ويطلق ذلك أيضاً في كلام العرب على العهد، وكذلك قول أبي بكر الصديق، لما جاءه وفد مسليمة فقال: "اقرءوا عليَّ ما يقوله صاحبكم" فقرءوا عليه بعض الخزعبلات: والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، فالخابزات خبزاً، فاللاقمات لقماً، وغير ذلك من الترهات، فقال: "أشهد أن هذا لم يخرج من إل" بمعنى من رب، لكن يمكن أن يقال: إن إيل غير الإل، وهذا لو قلنا: إنها غير معكوسة، بمعنى أن جبرا وميكا ليست بمعنى عبد، وإنما عبد هي إيل، هذه في اللغة الأعجمية، لكن في اللغة العربية، الإل هو الرب، ويطلق ذلك أيضاً على العهد.

فإذا فككنا الارتباط وهذا أمر لا إشكال فيه؛ لأن هذه اللغة أعجمية وهذه لغة عربية، فصار التشابه في اللفظ، فنقول: هي تقال في لغة العرب كذا، وأما في اللغة الأعجمية، فإن ذلك لا تعلق له بكلام العرب، فهذه الأسماء أعجمية، جبرائيل وميكائيل، ولا إشكال عندئذ.

"وأما تفسير الآية فقوله تعالى: {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ} [(٩٧) سورة البقرة]**، أي من عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له في ذلك، فهو رسول من رسل الله ملكي."**

{فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ} خص القلب؛ لأنه محل العلم والعقل، وهذه الأمة أناجيلها في صدورها، فهذا لا إشكال فيه.

{بِإِذْنِ اللّهِ} أي بإذن الله له في ذلك، وسيأتي الكلام عن الإذن في قوله تعالى: **{وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ}** [(١٠٢) سورة البقرة]، فهنا معنى بإذن الله أي بإرادته، وتسهيله وتيسيره.

"ومن عادى رسولاً فقد عادى جميع الرسل، كما أن من آمن برسول يلزمه الإيمان بجميع الرسل، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ

أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ} [(١٥٠) سورة النساء] الآيتين، فحكم عليهم بالكفر المحقق إذ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم، وكذلك من عادى جبرائيل فإنه عدو لله؛ لأن جبرائيل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه، كما قال: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} [(٦٤) سورة مريم]، وقال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ} [(١٩٢-١٩٤) سورة الشعراء].

وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال الله تعالى: ((من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب))[4] ولهذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه، فقال تعالى: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} [(٩٧) سورة البقرة] أي من الكتب المتقدمة.

{وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [(٩٧) سورة البقرة]، أي هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة وليس ذلك إلا للمؤمنين كما قال تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء} [(٤٤) سورة فصلت] الآية، وقال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا} [(٨٢) سورة الإسراء] الآية، ثم قال تعالى: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} [(٩٨) سورة البقرة]، يقول تعالى: من عاداني وملائكتي ورسلي -ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر كما قال تعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [(٧٥) سورة الحـــج]- {وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا في الملائكة في عموم الرسل."

جبريل وميكال هما من الملائكة لكنهما من أفضل الملائكة ومن ثَمَّ جاء هذا العطف، عطف الخاص على العام، كما قال الله -عز وجل-: {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى} [(٢٣٨) سورة البقرة] مع أنها من جملة الصلوات، لكن لشرفها وأهميتها عطفها عليها، فعطف العام على الخاص يكون لنكتة، كالدلالة على شرفه لأهميته ومنزلته.

فجبريل وميكال هما من الملائكة لكن لشرفهما ومنـــزلتهما عند الله -عز وجل- عطفهما على الملائكة تنزيلاً للتغاير الوصفي منـــزلة التغاير الذاتي، فهما من جملة الملائكة فعطفهما على الملائكة كأنهما من غير الملائكة، لكن كان ذلك العطف لتغاير الأوصاف، فجبريل وميكال من أشرف الملائكة، فنـــزل ذلك منـــزلة التغاير الذاتي، بمعنى كأنهما جنس آخر، كما تقول مثلاً: جاء الرجال والكتب فهذا تغاير ذاتي وليس تغايراً وصفياً، لكن إذا قلت: جاء الرجال وزيد، فزيد من الرجال، لكنك خصصته لمعنى ولسبب من الأسباب بحسب المقام، أو كونه ما يتوقع أنه يأتي مثلاً أو يتوقع تأخره، أو لأهمية مجيئه، أو غير ذلك من الأسباب، فخص بذلك لوصف أو لمعنى قام به، لكن على كل حال المراد أن جبريل وميكال -عليهما الصلاة والسلام- هما قطعاً من جملة الملائكة بالاتفاق، لكن ذلك من باب عطف الخاص على العام لمعنى في هذا الخاص تشريفاً له، وأحياناً يكون العكس، أي يُذكر شيء خاص ثم يذكر بعده العام لقصد التعميم.

---

[4] – أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق – باب: التواضع (٦١٣٧) (ج ٥ / ص ٢٣٨٤) إلا أن لفظه: ((آذنته بالحرب)) وأما لفظ: ((بارزني)) فأخرجه البيهقي (ج ٣ / ص ٣٤٦).

"ثم خصصا بالذكر؛ لأن السياق في الانتصار لجبرائيل، وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أن جبرائيل عدوهم وميكائيل وليُّهم، فأعلمهم الله تعالى أن من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً، ولأنه أيضاً ينزل على أنبياء الله بعض الأحيان، ولكن جبرائيل أكثر، وهي وظيفته، كما أن إسرافيل موكل بالنفخ في الصور للبعث يوم القيامة، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا قام من الليل يقول: ((اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم))[٥]."

بمعنى أن مكانة هؤلاء الملائكة الثلاثة ترتبط بها حياة البشر، فجبرائيل موكل بالوحي، وهو الروح والحياة الحقيقية التي إذا فقدها الإنسان صار فاقداً لإنسانيته وكرامته وصار بمنـــزلة الحيوان البهيم، **{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا}** [(٥٢) سورة الشورى]، فمن دخل في قلبه هذه النفخة كانت له الحياة الأساسية والمهمة الكبرى.

وميكائيل موكل بالأرزاق التي لا قوام للأبدان إلا بها، فالأول لا قوام للأرواح إلا به -أي الوحي-، والثاني لا قوام للأبدان إلا به -أي الرزق-، والثالث إسرافيل الموكل بالنفخ في الصور الذي يكون به قيام الأجساد وعودة الأرواح إليها، والبعث والنشور، فهؤلاء تعلقت بهم هذه الأنواع الثلاثة من الحياة، فذكرهم النبي -عليه الصلاة والسلام-: **((اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل..))** وارجع إلى كلام ابن القيم -رحمه الله- في وجه ذكر هؤلاء الملائكة الثلاثة على وجه التخصيص في مثل هذا الدعاء، ذكر كلاماً مفيداً للغاية.

"وقوله تعالى: {فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} [(٩٨) سورة البقرة] **فيه إيقاع المظهر مكان المضمر، حيث لم يقل: فإنه عدو للكافرين، بل قال: {فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} وإنما أظهر الله هذا الاسم ها هنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره، وإعلامهم أن من عادى ولياً لله فقد عادى الله، ومن عادى الله فإن الله عدو له، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة، كما تقدم الحديث: ((من عادى لي ولياً فقد آذنته بالمحاربة))[٦]."**

قوله تعالى: **{فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ}** يقول: **وإنما أظهر الله هذا الاسم ها هنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره.** يقصد بالاسم لفظ الجلالة **{فَإِنَّ اللّهَ}** أي: إنه لم يقل: فإنه عدو للكافرين، وسبق الإشارة إلى أن الإظهار في موضع الإضمار يكون لنكتة أو لمعنى، فتارة يكون لتربية المهابة بحسب المقام، وهنا يُذكر شيئان: الأول: أن قوله: **{فَإِنَّ اللّهَ}** يقال فيه: أظهر في موضع الإضمار لرفع الالتباس؛ لأنه لو قال: فإنه عدو للكافرين كان سيلتبس بآخر مذكور من قوله: **{مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ}** فالأصل أن الضمير يرجع إلى آخر مذكور وآخر مذكور هو ميكال، ويحتمل أن يكون جبريل؛ لأنه هو سبب النـــزول، ويحتمل أن يرجع إلى الله -عز وجل- ومع أن الأصل أن تذكر الضمائر اختصاراً في كلام العرب عن ذكر ما هي كناية عنه إلا أن الإظهار هنا كان مزيلاً للالتباس الذي كان سيقع لو أضمر، والله أعلم.

فما قال: فإنه عدو للكافرين بل قال: **{فَإِنَّ اللّهَ}** فأظهر في موضع الإضمار لرفع الالتباس هنا، لكن الكلام الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- يصلح بدلاً من الكافرين، فلو قال: من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل

---

[٥] - أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها - باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧٠) (ج ١ / ص ٥٣٤).

[٦] - سبق تخريجه.

وميكال فإن الله عدو لهم، أي لهؤلاء المعادين لجبريل وميكال إلى آخره، و"من" للعموم تصدق على الواحد والجماعة، أي: أيّاً كان عدواً لهؤلاء الملائكة فإن الله عدو لهم.

فالمقصود أن هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير يتعلق بذلك الموضع لا في هذا الموضع والفرق بينهما واضح، ولذلك فهناك صرح وقال: {عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} ولم يقل: عدو لهم من أجل أن يبين أن عداوة جبريل -صلى الله عليه وسلم- كفر بالله -عز وجل- فهؤلاء ما قالوا: إنهم يكفرون بالله بل هم يدعون الإيمان بالله، لكنهم قالوا: إنهم يعادون جبريل، فلو قال: فإن الله عدو لهم بمعاداتهم جبريل لم يحصل به هذا المقصود صراحة، لكن لما قال: {فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} كان ذلك تصريحاً بأن عداوة جبريل -عليه الصلاة والسلام- كفر، وهذا هو الذي ربما مشى عليه جميع أهل العلم فلا أعلم أحداً قال: إن قوله: فإنه هنا أظهر في موضع الإضمار لما ذكره الحافظ ابن كثير، فربما كان وقع ذلك من تصرف أحد في النسخة، أو الذهول أو النسيان، فالإنسان يكتب أحياناً ويصيبه شيء من الوهم والنسيان وإلا فمثل هذا المعنى لا يخفى على الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- والله تعالى أعلم.

"{وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ* أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ* وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ* وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} [(٩٩-١٠٣) سورة البقرة].

قال الإمام أبو جعفر بن جرير -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ..} الآية، أي أنزلنا إليك يا محمد آيات واضحات دالات على نبوتك، وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود ومكنونات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم، وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم التي كانت في التوارة، فأطلع الله في كتابه الذي أنزل على نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف نفسه ولم يدعها إلى هلاكها الحسد والبغي؛ إذ كانت في فطرة كل ذي فطرة صحيحة."

يعني لم يدَعْها إلى الحسد والبغي، بمعنى لم يتركها ويمكن أن يكون ولم يدْعُهَا إلى هلاكها الحسدُ والبغي فيكون الحسدُ فاعلا.

"إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم- من الآيات البينات التي وصف، من غير تعلم تعلمه من بشري، ولا أخذ شيئاً منه عن آدمي، كما قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ولقد أنزلنا إليك آيات بينات، يقول: فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به

غدوة وعشية، وبين ذلك وأنت عندهم أمِّي لم تقرأ كتاباً، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه، يقول الله تعالى: في ذلك عبرة وبيان، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون."

سبق الكلام على معنى الآيات، والبينات بمعنى الواضحات من بان يبين إذا اتضح، فهي لا تدع في الحق لبساً، تكشفه وتوضحه كما أنها بينة أيضاً في نفسها، فلم يخاطبهم بما لا يعقلون وبما لا يفهمون وإنما بلسان عربي مبين، فليس فيه إلغاز ولا غموض، وإنما هو شيء بيِّن واضح.

قوله: **{وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ}** [(٩٩) سورة البقرة] والفسق المراد به مطلق الخروج في أصل كلام العرب، فيطلق على الخروج الأكبر بمعنى الكفر، ويطلق على ما دونه من الخروج عن طاعة الله -عز وجل- إلى معصيته، فهذا هو الفسق، ومعروف عند الأصوليين في مفهوم الموافقة الأولوي الظني الذي يسمونه فحوى الخطاب وذلك بمثالهم الذي يرددونه دائماً في كتبهم، وهو قوله تعالى: **{إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا}** [(٦) سورة الحجرات]، قالوا: مفهوم المخالفة أنه إن جاء العدل لسنا بحاجة إلى أن نتبين، ومفهوم الموافقة أنه إن جاء كافر فالتبين من باب أولى لكنه ظني؛ لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه هو، بمعنى ملتزم بدينه ودينه يحرم عليه الكذب وبالتالي فهو يتحرز من الكذب، فهل نتحرى ونتبين إذا عرفنا أن دينه يحرم عليه الكذب وهو متدين أو لا؟ فمن هنا قالوا: ظني، وهذا مثل ما يقولون في النهي عن التضحية بالشاة العمياء من باب أولى لكنه ظني؛ لأن العمياء يعلفها صاحبها أفضل العلف وترعى وهي رابضة، فهي مظنة السمن لا الهزال، بخلاف العوراء التي لا ترى إلا نصف المرعى.

فهذا المثال الذي يذكره الأصوليون ليس دقيقاً؛ لأن أصل الفاسق يطلق على هذا وهذا، فيشمل الكافر ويشمل ما دونه، لكن هم نزلوه على الفاسق بمعنى العاصي، وهذا حمل للفظ على أحد معنييه، وحتى لو صح فيه سبب النـــزول -مع أنه لا يصح- فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

"وقال مالك بن الصيف حين بُعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وذكرّهم ما أُخذ عليهم من الميثاق وما عُهد إليهم في محمد -صلى الله عليه وسلم- قال: والله ما عُهد إلينا في محمد وما أخذ علينا ميثاقاً، فأنزل الله تعالى: {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم} [(١٠٠) سورة البقرة].

وقال الحسن البصري، في قوله: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٠٠) سورة البقرة]، قال: نعم، ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه يعاهدون اليوم وينقضون غداً."

قوله تعالى: **{أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم}** النبذ معناه الطرح، تقول: نبذت الثوب، ونبذت العهد، بمعنى التخلي عنه وطرحه فهم ينقضون العهد.

وقوله: **{فَرِيقٌ مِّنْهُم}** الفريق بمعنى الطائفة.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}** عند التأمل فيها نجد أنها تحتمل معنيين -والله تعالى أعلم- فتحتمل أن يكون المراد **{أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ}** أي أن بل بمعنى (لا) أي أنه أضرب عن الكلام الأول وقال: لا ينقضه فريق منهم وإنما ينقضه أكثرهم أو كلهم.

وقد يراد بالكثرة الكل، وقد يكون على ظاهره، فيكون إضراباً عن الكلام الأول، نبذه فريق منهم بل نبذه أكثرهم، فيكون ذلك بنبذ العهد.

ويحتمل أن يكون المعنى {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم} ثم قال: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} بمعنى أن هذا النبذ للعهد لا يكون جهلاً منهم بأن ذلك النبذ يحرم عليهم وإنما أكثرهم لا يصدقون بالله ورسله، فيكون المعنى {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم} بحيث لا يفعلون ذلك اعتقاداً أن ذلك يحل لهم، وإنما لكون أكثرهم غير مؤمنين بالله ورسله.

والخلاصة أن المعنى الأول هو {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم} بل الذين يفعلون ذلك هم أكثرهم وليس فريقاً منهم فقط.

والمعنى الثاني أنهم حينما ينقض فريق منهم العهد لا يفعلونه اعتقاداً بحله، ولكن لكفرهم ولعدم تصديقهم نبذوا هذه العهود.

وعلى المعنى الأول يبقى إشكال وهو كيف نحمل قوله: {لاَ يُؤْمِنُونَ}، ومن هنا يمكن أن يكون المعنى الثاني بهذا الاعتبار أكثر ملائمة للسياق، والله تعالى أعلم.

وعلى كل حال فالمعنى الأول ليس ببعيد إذ إنه يمكن أن يفسر هكذا: {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} يعني (لا) وإنما ينبذه أكثرهم.

{لاَ يُؤْمِنُونَ} أي لا يؤمنون بالله وإنما يكفرون به بنقض هذا العهد، وبهذا يمكن أن يدفع الإشكال في المعنى الأول.

ويمكن أن يكون قوله: {لاَ يُؤْمِنُونَ} تعليلا لما وقع منهم من نقض العهد، وأنهم لا يفعلون ذلك جهلاً أو اعتقاداً بحله وإنما لانخرام إيمانهم ولعدم إيمانهم بالله.

وأما على القول الأول فيكون قوله: {لاَ يُؤْمِنُونَ} يعني أنهم لا يلتزمون العهود، فالذي يحصل منهم نقض العهد، فيكون ذلك كفراً منهم نتيجة لنقضهم للعهود.

والمقصود أن تُفتق ذهنك في تأمل القرآن والنظر في معانيه فربما كان الإنسان يقرأ ولا يخطر في باله شيء من ذلك ولو سئل عن المعنى لتوقف، والله المستعان.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٣٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ} [(١٠١) سورة البقرة].

"قال السدي {وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ} قال: لما جاءهم محمد -صلى الله عليه وسلم- عارضوه بالتوراة، فخاصموه بها فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف، وسحر هاروت وماروت، فلم يوافق القرآن فذلك قوله: {كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ}** وهو محمد -صلى الله عليه وسلم- مصدق لما معهم مما جاء في التوراة وفي كتبهم قال: **عارضوه بالتوراة فخاصموه بها، فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة**..الخ: لا شك أن الخطاب فيه موجه إلى اليهود الذين عاصروا النبي -صلى الله عليه وسلم- وذلك أمر لا خفاء فيه، لكن قوله -تبارك وتعالى- بعده: **{وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}** [(١٠٢) سورة البقرة] يحتمل أن يكون الخطاب فيه موجهاً إلى نفس هؤلاء، ويحتمل أن يتوجه فيه الخطاب إلى أولئك الذين كانوا في عهد سليمان -عليه الصلاة والسلام- أي اليهود الذين كانوا في ذلك الوقت اتبعوا السحر، وسيأتي الكلام على هذا إن شاء الله، وهناك نحتاج إلى مثل هذه الرواية، باعتبار أنها أحد القولين في المسألة.

عارضوه بالتوراة فخاصموه بها، فلما وجدوا الاتفاق بين التوراة وبين القرآن، وأنها تصدق ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- عارضوه بالسحر الذي كان مكتوباً وموجوداً منذ ذلك العهد، هذا أحد القولين وسيأتي إن شاء الله بيان ذلك، لكن هنا لا تحتمل غير هذا، الخطاب موجه إلى الذين كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنهم هم الذين أدركوه.

"وقال قتادة في قوله: {كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} قال: إن القوم كانوا يعلمون ولكنهم نبذوا علمهم وكتموه وجحدوا به، وقال السدي في قوله تعالى: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [(١٠٢) سورة البقرة] **أي على عهد سليمان -عليه السلام-."**

قوله: **{وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}** أي عملوا وفعلوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، أي أنهم اشتغلوا بالسحر.

{وَاتَّبَعُواْ} من الاتباع، وبين المعنيين ملازمة، فإذا كانوا اتبعوا ما كانت تتلوه الشياطين على ملك سليمان فمعنى ذلك أنهم اشتغلوا به وتركوا العمل بما أنزل الله، فبعض أهل العلم يفسر قوله: **{وَاتَّبَعُواْ}** بمعنى فعلوا، ككبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- ولا إشكال في هذا، إذا فسرت الاتباع بمعناه الظاهر فإن

ذلك يقتضي العمل به، فلك أن تقول: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ} أي اشتغلوا بالسحر وعملوا به، وأعرضوا عن كتاب الله -عز وجل-، ولك أن تفسر الاتباع بما يتبادر من معناه، اتبع كذا، بمعنى صار تابعاً له، وذلك يقتضي أن يكون مشتغلاً به عاملاً به، فلم يتبعوا وحي الله وإنما اتبعوا السحر.. ومن هؤلاء الذين اتبعوا؟

يمكن أن ينزل على ما قبله، فيقال: هذا خطاب لأولئك الذين عاصروا النبي -صلى الله عليه وسلم- وذلك أنهم أردوا أن يعارضوه بالتوراة، فلما وجدوا الموافقة بين التوراة وبين القرآن جاءوا بكتب السحر هذه فعارضوه بها، كما قال السدي؛ ليكون الكلام بعضه يرجع إلى بعض، في قوله: {وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ} [(٨٩) سورة البقرة]، وقوله: {وَاتَّبَعُواْ} [(١٠٢) سورة البقرة]، فيكون موجَّهاً إلى طائفة معينة.

ويمكن أن يكون ذلك هنا يعود إلى الذين كانوا في زمن سليمان -عليه الصلاة والسلام- حيث اشتغلوا بالسحر، كما قال: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [(١٠٢) سورة البقرة].

وابن جرير -رحمه الله- ذكر معنى يجمع بين هذا وهذا، فقال: ليس ثمة ما تقوم به الحجة من تحديد هذا الخطاب، وتخصيصه بالمعاصرين للنبي -صلى الله عليه وسلم- أو بالذين كانوا في زمن سليمان، ويقول: والذين كانوا في زمن سليمان اتبعوا الشياطين والسحر ولا زال ذلك سارياً في اليهود فاشياً فيهم إلى زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- وإلى يومنا هذا، فيكون قوله: وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} يعني اليهود، فيصدق ذلك على الذين كانوا في زمن سليمان وعلى الذين كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وفي هذا تجمع بين القولين.

لكن حجة أصحاب القول الأول أن السياق يكون مترابطاً متناسقاً، فيقولون: {وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ} وهو النبي -صلى الله عليه وسلم-.

{مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ} [(١٠١) سورة البقرة] وهو القرآن، {كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ* وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [(١٠٢) سورة البقرة].

ولكن طريقة القرآن وإعجازه للفطرة اللغوية وما فيه من البيان العجيب الذي يعجز عنه البشر معروفة، فهو يتحدث عن طائفة ثم يتحدث عن طائفة أخرى ربما كانت بطريقة تأخذ الأسماع دون أن يشعر السامع له أو القارئ ببتر في الكلام أو انفصام أو نحو ذلك، وهذا يسمونه حسن التخلص، فالكلام الذي ذكره ابن جرير -رحمه الله- كلام جيد، والله تعالى أعلم.

قوله: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [(١٠٢) سورة البقرة] {تَتْلُواْ} تحتمل معنيين: المعنى الأول: هو ما يتبادر منها من التلاوة، مثل قولك: يتلو القرآن، يتلو كلام الله، فـ{تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ} أي تقرؤه وتحدث به وتخبر به وتقصه، فيذكرون لهم أشياء وأكاذيب وفرى اختلقوها وربما نسبوها إلى سليمان -عليه الصلاة والسلام- من أمر السحر.

قوله: {عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} {عَلَى} تحتمل أن تكون بمعنى "في" وتحتمل أن تكون على وجهها ولا إشكال؛ فإن حروف الجر تتناوب.

{وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ} أي: ما تقصه وتحدث به وتخبر به الشياطين على ملك سليمان، أي على عهد ملك سليمان -عليه الصلاة والسلام- كما تقول: هذا كان على عهد عمر بن عبد العزيز، هذا على عهد عمر بن الخطاب، على عهد الخلفاء، فتضيفه إلى تلك الفترة.

ويمكن أن يكون {عَلَى} بمعنى "في" أي: واتبعوا ما تقصه وتخبر به وتحدث به الشياطين في عهد ملك سليمان.

ويمكن أن يكون معنى {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ} بأن تفسر {تَتْلُواْ} بمعنى تعمل وتتبع، أي واتبعوا ما تتلوا الشياطين من تلاه إذا كان تابعاً له، بمعنى ما تعمل به الشياطين وتتبعه الشياطين على عهد سليمان -عليه الصلاة والسلام- من السحر والكهانة وما إلى ذلك.

قوله تعالى: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} [(١٠٢) سورة البقرة].

وهذه الآية من الآيات التي فيها إشكال، ويختلف فيها المفسرون اختلافاً كثيراً، فأنا سأحاول أن أقرب المعنى على أقل الاحتمالات المشهورة.

فقوله: {وَاتَّبَعُواْ} قلنا: هم اليهود إما في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- أو في زمن سليمان -عليه الصلاة والسلام-، وابن جرير -رحمه الله- جمع بين المعنيين، فقال: هذا موجه لليهود وما عندنا دليل يخصص طائفة، وكلهم منذ ذلك العهد متبعون للسحر، وهو فاش فيهم، فكلهم متبعون للسحر انتهى كلام ابن جرير.

وهذا جزاء إعراضهم عن كتاب الله -عز وجل- فمن ترك ما خوطب به وأمر به عاقبه الله -عز وجل- بالاشتغال بضده، وهذا فيه قاعدة من القواعد الحسان لابن سعدي -رحمه الله- حيث ذكر أمثلة جميلة عليها، وهي أن من ترك ما هو بصدده أي ما وُجِّه إليه وما خوطب به مما ينفعه اشتغل بضده، فمن ترك سماع القرآن اشتغل بالأغاني، ومن ترك اتباع كتاب الله اتبع الشياطين، والهوى وهكذا، ثم ذكر أمثلة على ذلك..

ومعنى الاتباع عرفناه حيث قلنا يحتمل معنيين أولهما: فعلوا -وهذا اختيار ابن جرير- والثاني: من الاتباع المعروف، و"ما" هنا موصولة قطعاً، أي اتبعوا الذي تتلوه الشياطين على ملك سليمان.

وقلنا إن {تَتْلُواْ} تحتمل معنيين، الأول: تتلوا من التلاوة، أي تحدث وتخبر به وتقصه الشياطين إما عن طريق الكهان حيث يسترقون ثم يكذبون معها أو غير ذلك مما كانوا يتعاطونه من السحر فيحدثون به الناس، ويعلمونهم هذا الشر، أو تتلوا بمعنى تتبع، من تلوته بمعنى تبعته، فتقول: هذا يتلو هذا يعني يتبعه.

{وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} الشياطين معروفة.

{عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} على هذه تحتمل أن تكون على وجهها، أو بمعنى في كما سبق، والمعنى واتبعوا ما تتلوه الشياطين على عهد ملك سليمان، وهذا أسلوب عربي معروف.

{وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ} الروايات التي تذكر في الآية لا يوجد فيها شيء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- مرفوع صحيح إطلاقاً، لكن الروايات الإسرائيلية -التي نقل كثير من السلف كثيراً منها- تقول: إن هؤلاء الشياطين أو هؤلاء السحرة أو هؤلاء اليهود الذين صدقوهم نسبوا ذلك إلى سليمان -عليه الصلاة والسلام- ويذكرون في ذلك أخباراً كثيرة، خلاصتها أن سليمان -عليه الصلاة والسلام- صادر تلك الكتب التي راجت وانتشرت، مما كان ينشره هؤلاء الكهنة أو السحرة ويضللون به الناس فدفنها تحت كرسيه، فلما مات سليمان -عليه الصلاة والسلام- جاء الشيطان وقال لهم: أدلكم على ما كان يسخر به الطير والريح...إلخ فحفروا فوجدوا هذه الكتب -كتب السحر- قالوا: هذا الذي كان سليمان يقيم به ملكه، فاشتغلوا بها وصدقوا الشيطان في ذلك.

نحن ليس عندنا دليل على هذا الكلام، لكن هذه الآية تكذب من نسب السحر إلى سليمان -عليه الصلاة والسلام- فسليمان كان بريئاً من السحر أياً كان من أضاف إليه ذلك، سواء كان الشياطين أو كان اليهود أو غير هذا، وأياً كانت هذه القصص والأخبار التي يذكرونها.

{وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ} هذا يدل على أن الاشتغال بالسحر كفر؛ لأن السؤال الذي يطرح نفسه هنا أو يتبادر إلى ذهن طالب العلم هو: هل هم قالوا: إن سليمان قد كفر حتى يقال وما كفر سليمان؟

الجواب: لا، هم ما قالوا: إنه كفر، هم قالوا: إنه كان يتعاطى السحر، والسحر كفر، فما قال الله -عز وجل- لهم: وما كان سليمان يشتغل بالسحر، وإنما قال: **{وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ}**؛ لأن من اشتغل بالسحر فقد كفر.

{وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ} أي هم الذين جاءوا بالسحر واشتغلوا به وكانوا سحرة فكفروا.

{يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} القول المشهور الذي عليه عامة المفسرين، وهو الذي يتناسب مع ظاهر الآية، وهو الذي اختاره ابن جرير الطبري -رحمه الله- وردّ ما سواه بقوة، يقول: هؤلاء اليهود اتبعوا السحر الذي كان منذ ذلك الحين، وسليمان بريء من هذا، ولكن الشياطين هم الذين كفروا، حيث علموا الناس السحر، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت.

قوله: **{وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ}**، **{وَمَا أُنزِلَ}** **{مَا}** هنا موصولة بمعنى الذي، أي: اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان واتبعوا الذي أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت.

{الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ} الملكين بالفتح، وهاروت وماروت عائدان إلى الملكين، يعني تستطيع أن تقول: إنهما بدل من الملكين، وهذين الملكين اسم أحدهما هاروت، والآخر اسمه ماروت.

{وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ} يعني الملكان.

{وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا} أي: من الملكين.

{مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} وهو السحر.

على هذا القول يكون المعنى أن اليهود اتبعوا السحر الذي كان على عهد سليمان، وكذلك اتبعوا ما أنزل على الملكين من السحر ببابل هاروت وماروت، وكان هذان الملكان ما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر، فالسحر أنزل على الملكين وعلّما الناس وكانا يقولان لكل من تعلم: اتق الله فهذا كفر فلا تشتغل به.

وعلى هذا القول يكون التفسير على ظاهر الآية، ليس فيه دعوى تقديم ولا تأخير، ولا محامل وتأويلات بعيدة.

لكن السؤال الذي يرد على هذا القول والإشكال الكبير هو أن الله تعالى قال: **{لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}** [(٦) سورة التحريم] فكيف توجه أن السحر أنزل على الملكين؟

وقد أجابوا عن هذا الإشكال بجوابين: الأول: أن هذا من قبيل الابتلاء والاختبار للناس، فهؤلاء الملائكة ما كانوا يشتغلون بالسحر وإنما كانوا يعلمون السحر فقط، وبعضهم قال: إن معنى **{يُعلِّمان}** من الإعلام بمعنى يُعْلِم، يقولون: هذا موجود في لغة العرب، يقولون مثلاً:

تعلم شفاء النفس قهر عدوها فبالغ بلطف في التحيل والمكر

يعني اعلم أن شفاء النفس قهر عدوها.

وبعضهم يقول: يعلمون نفس السحر ويقولون للشخص: لا تكفر ولا تشتغل به، فهذا لا يجوز، ابتلاءً واختباراً، كما قال تعالى: **{إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ}** وهؤلاء الملائكة بهذا الاعتبار إنما هم منفذون لأمر الله -عز وجل- لأن الله -عز وجل- جعلهم ابتلاء للخلق، والله يبتلي خلقه بما شاء، كما أنه أوجد الكفر وأوجد الضلال، ووجدت المغريات ووجدت الشهوات، فمن ذلك هذا السحر الذي ابتلى الله -عز وجل- به أولئك، فهذا على أساس أنه ابتلاء والملائكة بهذا لم يعصوا الله -عز وجل- ولا خالفوا أمره وإنما كانوا منفذين.

المعنى الثاني: أن ذلك لما سبق في علم الله لهما، مثل إبليس على القول بأن إبليس كان من الملائكة، قالوا: سبق في علم الله أنه يزيغ ويضل ويصير عدواً لكل فضيلة وخير، فهذان الملكان قضيتهم نفس القضية، وهكذا يوردون روايات إسرائيلية كثيرة، وكلام كثير جداً ما له أي قيمة، ولا عليه أي دليل، منها أنهم استغربوا من عصيان البشر، وأن الله -عز وجل- أنزلهم ووضع فيهم الشهوة، فكان منهم ما كان، وكلام فارغ ما له أي قيمة ولا ينبغي الوقوف عنده، وهو من الأشياء التي يفتريها بنو إسرائيل.

وذكروا قصة القمر والزهرة ذلك النجم اللامع الذي يظهر بعد الشمس وأنه أكبر نجم أو أوضح نجم في السماء ويقولون: إن هذه كانت هي المرأة، وأنها أخذت الاسم الذي يصعدان به منهما فصعدت فمسخت هناك، وبعضهم يقول: هي نفس الزهرة نزلت وصارت بصورة امرأة، وقصة لما سبق في علم الله لهما.

وقصة آصف التي يذكرون أنه هو الذي كان كاتب سليمان، وأنه كان يكتب عن سليمان -عليه الصلاة والسلام- وينسجون عنه أشياء، يقولون: إنه كان يكتب ويدفن تحت كرسي سليمان بأمره، فلما مات سليمان -عليه الصلاة والسلام- جاءت الشياطين وقال لهم، أو أنهم أخرجوا هذه الكتب وكتب بين ذلك أشياء من السحر مع كلام سليمان وأخرجوه وقالوا: هذا الذي كان يكتبه سليمان -عليه الصلاة والسلام- .

بل إن بعض أصحاب هذا القول -بالنظر لما سبق في علم الله- بالغ فقال: إن الملائكة تقع منها الذنوب والمعاصي، وهذا قول عجيب، ويقولون: لكن ذلك يقع منهم تكلفاً كما أن الطاعة تقع من الإنس تكلفاً، وإلا فالنفوس مركبة فيها الشهوات والأهواء بالنسبة للبشر، والشرائع وضعت على خلاف داعية الهوى في النفس، بالنسبة لنا فتحتاج إلى مجاهدة حتى تكون ممتثلة، لكن بالنسبة للملائكة، قالوا: ما يفعلون المعصية إلا تكلفاً، ويذكرون هذا عند قضية **{إِلاَّ إِبْلِيسَ}** [(٣٤) سورة البقرة]، وهذا الكلام باطل لا حقيقة له.

وهناك أقوال أخرى مثل دعوى تقديم وتأخير، وحمل بعض الجمل على بعض المحامل التي قد يكون فيها إشكال أو بعد، نذكرها لاحقاً.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٣٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فلا زلنا نتحدث عن قوله –تبارك وتعالى-: **{وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ..}** الآية [(١٠٢) سورة البقرة].

وذكرنا القول الأول الذي عليه أكثر المفسرين من السلف فمن بعدهم وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري –رحمه الله-: إن الآية على ما يتبادر من ظاهرها لهؤلاء اليهود سواء قلنا الذين في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– أو الذين كانوا في زمن سليمان أو أن المقصود به الجميع؛ لأنهم كلهم معرضون عن كتاب الله –عز وجل– متبعون للسحر، وعرفنا أن معنى تتلوا: ما كانت تحدث به أو ما كانت تفعله الشياطين على عهد أو في ملك سليمان، أي في زمن ملك سليمان، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا حيث نسبوا إليه السحر، وذلك كفر فالله نفى عنه ذلك وما قال: وما كان ساحراً، بل قال: **{وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ}**

{يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ} "ما" موصولة على هذا القول، أي: يعلمون الناس السحر ويعلمونهم أيضاً الذي أنزل على الملكين ببابل، وسيأتي بعض ما يتعلق بهذه من وجوه أخرى محتملة لبعضهم.

وهنا سؤال وهو كيف يقع منهم مثل هذا؟ الجواب أنه ابتلاء لهذا الخلق، أو أنه سبق في علم الله أن هؤلاء الملائكة كإبليس على القول بأنه من الملائكة أنه ينحرف ويضل، وذكرنا قول من قال: إن الملائكة قد تصدر منهم المعصية، لكن يقولون: تصدر منهم تكلفاً، كما أن البشر تصدر منهم الطاعة تكلفاً فهم عكس البشر، وهذا كلام غير صحيح.

{وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ} أي: والذي أنزل على الملكين ببابل، اسم أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت.

قوله: **{وَمَا يُعَلِّمَانِ}** يعني هذين الملكين **{مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ}** قالوا: وهذا ظاهر في أنه ابتلاء من الله –عز وجل– هذا هو القول المشهور.

ويوجد قول آخر في المسألة قال به بعض السلف، لكنهم أقل بكثير من أصحاب القول الأول، ومن أشهر من قال به من المتأخرين القرطبي.

يقولون في قوله: **{وَاتَّبَعُواْ}** يعني اليهود، **{مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}** يعني على عهد سليمان، وهذا الكلام نفس الكلام في أولها لأصحاب القول الأول.

قال: **{وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ}** حيث نسبوا إليه السحر وهو كفر **{وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ}** يعلمون الناس السحر، هنا القضية، يقولون: "ما" هنا نافية، يعني يقول: يعلمون الناس السحر ولم ينزل على الملكين.

فإذا قلنا: إنهم ملائكة فعلى هذا تكون هاروت وماروت عائدة أيضاً إليها.

فعلى هذا القول –أي أنه لم ينـــزل على الملكين ببابل– بعضهم –مثل القرطبي– يقول: إن هاروت وماروت عائدة إلى الشياطين، يعني واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين هاروت وماروت كفروا يعلمون الناس السحر، يعني صارت هاروت وماروت أسماء لشياطين على قول القرطبي، فيصير الكلام واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين، يعني أن الكلام صار فيه تقديم وتأخير.

وخلاصة المعنى للآية: واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين –هنا ما نافية– ولكن الشياطين هاروت وماروت كفروا، يعلمون الناس السحر ببابل.

وبعض أصحاب هذا القول يقول: إن هاروت وماروت تعود إلى الناس، فيصير المعنى واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس هاروت وماروت، أي: يعلمونهم السحر، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر، هذا هو القول الثاني، وهذا القول لا شك أن فيه تكلفاً واضحاً، والقاعدة أنه إذا دار الكلام بين الترتيب والتقديم والتأخير فالأصل فيه الترتيب بحيث يبقى على وجهه.

وهذا القول فيه هذا التكلف وهم لا ينكرون هذا التكلف إلا أن الذي حملهم عليه هو كيف يكونا من الملائكة ويقع منهما هذا الفعل الذي هو كفر؟ فقالوا: إذن نقول: "ما" نافية، ثم ركبوا هذه التأويلات والمحامل البعيدة.

كما أن بعض أهل العلم قال في قوله تعالى: **{وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ}** [(١٠٢) سورة البقرة] بكسر اللام من الملكين، وصارت على هذا "ما" نافية، والمعنى أنهم يعلمونهم السحر ويعلمونهم الذي أنزل على الملِكين –من الملوك– وهذان الملِكان يقول بعضهم: هما داود وسليمان، واحتجوا لهذا القول بقراءة شاذة هي: (يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملِكين داود وسليمان) فهذه قراءة شاذة.

وفي قراءة أخرى شاذة من غير ذكر داود وسليمان تصير موصولة، فيكون المراد بالملِكين أي من ملوك الدنيا، وهذا سواء قلنا: إنهما علجان أعجميان، أو غير ذلك مما قيل، وممكن أن يكون اسم أحدهما هاروت والآخر اسمه ماروت أو غير ذلك مما يقال.

وبعضهم حتى على قراءة الفتح في ملكين –وهي القراءة المتواترة– قال: إنها لغة في الملِكين، حيث يقال: ملَك وملِك أي من ملوك الدنيا، وتكون "ما" نافية على قراءة كسر اللام إذا قلنا: مع داود وسليمان، أي: ولم ينزل على الملكين داود وسليمان.

وتكون موصولة من غير داود وسليمان، يعني: اتبعوا السحر، والذي أنزل على الملكين أياً كانوا من ملوك الدنيا.

طبعاً يوجد إشكال على هذا وهو قضية كيف أنزل وما معنى الإنزال هنا؟ وهل أنزلته الشياطين أو يفسر الإنزال بمعنى آخر غير النزول المعروف وما إلى ذلك، والمقصود أن هذه خلاصة لأشهر ما قيل في الآية، وهو الكلام الموجود مفرقاً في كتب التفسير، وبهذه الطريقة نكون قد رتبنا الأفكار بحيث إذا قرأنا من الكتاب نستطيع أن نجمع ونعيدها إلى هذا.

مسألة أخرى:

بعضهم يقول: إن "ما" في قوله: {وَمَا أُنزِلَ} ترجع إلى "ما" الأولى، فيصير المعنى واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان واتبعوا ما أنزل، فهم اتبعوا شيئين، وعلى هذا فالعطف في الأصل أنه يقتضي المغايرة فيصير الذي أنزل على الملكين غير الذي كانت تتلوه الشياطين، فالذي أنزل على الملكين هو التفريق بين المرء وزوجه، والذي كانت تتلوه الشياطين هو أنواع السحر.

وبعضهم يقول: إن "ما" الثانية ترجع إلى قوله: {يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} والمعنى أنهم يعلمون الناس السحر ويعلمونهم ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت فتكون عائدة إلى ما قبلها، يعلمونهم السحر ويعلمونهم الذي أنزل، وهذا باعتبار أن السحر غير التفريق، مع أن التفريق بين المرء وزوجه هو نوع من السحر؛ بل إن بعض أهل العلم قال: السحر ما له أي تأثير إلا في التفريق بين المرء وزوجه وما إلى ذلك من الحب والبغض وإلا فلا يستطيع الساحر أن يُمرِض أو يحول بعض الأشياء عن حقيقتها كتحويل الفرس إلى بقرة أو الإنسان إلى فرس أو كذا أو يكسر العظم أو يميت أو نحو هذا.

والأقرب -بل هو المشهور- أن السحر يؤثر أكثر من مجرد التفريق والحب والبغض وما أشبه ذلك، فيمكن أن يُمرض ويقتل.

وقوله: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ} [(١٠٢) سورة البقرة] شدد ابن جرير -رحمه الله- على أصحاب القول الذي سبق أن ذكرناه وما فيه من المحامل البعيدة حيث قال لهم: إذا قلنا: إن "ما" نافية في قوله: {وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ} [(١٠٢) سورة البقرة] فما معنى {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ} إذ لو كان الأمر كما زعمتم بأن "ما" نافية فالمعنى أن الملكين لا علاقة لهما بالسحر ولا شيء من ذلك؛ إذ كيف يقول: وما يعلمان -بالتثنية- من أحد السحر حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وهما لم ينزل عليهما شيء من ذلك؟ هذا إيراد أورده ابن جرير -رحمه الله- على أصحاب هذا القول.

نقرأ الآن وتنزلون الكلام الذي يقرأ على هذا الكلام الذي سمعتم.

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

"وقال السدي في قوله تعالى: {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [(١٠٢) سورة البقرة]، أي: على عهد سليمان -عليه السلام-، قال: كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع فيستمعون من كلام الملائكة ما يكون في الأرض من موت أو غيب أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم فتحدث الكهنة الناس، فيجدونه كما قالوا، فلما أمنتهم الكهنة كذبوا لهم وأدخلوا فيه غيره، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة فاكتتب الناس ذلك الحديث في الكتب، وفشا ذلك في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب، فبعث سليمان -عليه السلام- في الناس فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق ثم دفنها تحت كرسيه، ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنوا من الكرسي إلا احترق، وقال: لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه، فلما مات سليمان -عليه السلام- وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان وخلف

من بعد ذلك خلف تمثل الشيطان في صورة إنسان، ثم أتى نفراً من بني إسرائيل فقال لهم: هل أدلكم على كنـــز لا تأكلونه أبداً؟ قالوا: نعم، قال: فاحفروا تحت الكرسي، فذهب معهم وأراهم المكان وقام ناحيته، فقالوا له: فادن فقال: لا، ولكنني ههنا في أيديكم فإن لم تجدوه فاقتلوني، فحفروا فوجدوا تلك الكتب، فلما أخروجها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر، ثم طار وذهب، وفشا في الناس أن سليمان كان ساحراً، واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب فلما جاء محمد -صلى الله عليه وسلم- خاصموه بها فذلك حين يقول الله تعالى: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ} [(١٠٢) سورة البقرة]."

هذه الرواية المذكورة هنا تعود إلى ما أخذ عن بني إسرائيل، فهي من الأشياء الإسرائيلية التي لا يعتمد عليها، لكنها على كل حال قد توضح لك شيئاً يستأنس به فيما يتعلق باتباعهم ما كانت تتلوه الشياطين على ملك سليمان، أي: على عهد سليمان، أو في ملك سليمان حينما يذكرون أخباره وقصصه وأخبار مملكته وملكه -عليه الصلاة والسلام-، فمثل هذا لا يعتمد عليه في تفسير الآية، لكنهم اتبعوا ذلك السحر الذي كان موجوداً في ذلك الزمان، سواء كان كما قيل دفن تحت كرسيه حينما صادر هذه الأشياء منهم أو غير ذلك مما ذكروه من أن آصف كاتب سليمان كان يكتب له ما يأمره به ثم دفنه تحت كرسيه، ثم جاءوا واستخرجوه وزادوا فيه بين كل سطرين، أو أنه ما كانوا يتلقونه من الكهنة وفيه كذب كثير فكانوا يزيدون فيه، أو غير ذلك مما يذكرونه مما لا أصل له، فكل هذه الأشياء لم يرد فيها شيء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لكن المقصود أن اليهود هؤلاء اتبعوا السحر، وتركوا كتاب الله -عز وجل- الذي أنزله عليهم وطالبهم بالعمل به.

"وقوله تعالى: {وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} [(١٠٢) سورة البقرة] اختلف الناس في هذا المقام، فذهب بعضهم إلى أن "ما" نافية، أعني التي في قوله: {وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ} قال القرطبي: "ما" نافية، ومعطوف على قوله: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ}."

نعم ما كفر سليمان ولم ينـــزل السحر على الملكين.

"ثم قال: {وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ} وذلك أن اليهود كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل وميكائيل فأكذبهم الله."

قوله: **{وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ}** بهذا الاعتبار يكون (الملكين) على قول القرطبي هما جبرائيل وميكائيل، فنـــزه سليمان -عليه الصلاة والسلام- عن السحر، ونزه جبريل وميكائيل، وما أنزل على الملكين.

وقوله: **{بِبَابِلَ}** يعني يعلمون الناس السحر ببابل.

"وجعل قوله هاروت وماروت بدلاً من الشياطين."

نعم هذا على توجيه القرطبي، وأما على القول الآخر فهي بدل من الناس، يعلمون الناس هاروت وماروت السحر ببابل.

"قال: وصح ذلك إما لأن الجمع يطلق على الاثنين كما في قوله تعالى: {فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ} [(١١) سورة النساء]."

الإشكال الآن هو كيف صار هاروت وماروت بدلاً من الشياطين، والشياطين جمع؟ قال: لا إشكال؛ لأنه إما أن نقول: إن أقل الجمع اثنان، وهو قول معروف ومنقول عن الإمام مالك، وجماعة، قال تعالى: **{فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ}** [(١١) سورة النساء] وإنما تأخذ الأم السدس إذا وجد أخوَان فأكثر، فقال: إخوة، قال في مراقي السعود:

أقل معنى الجمـع فـي المـشتهر ... اثنـان عنـد الإمـام الحميـري

الإمام الحميري هو مالك -رحمه الله- أقل معنى الجمع في المشهور عنه اثنان، فهذا توجيه.

أو لكونهما لهما أتباع، قال تعالى: **{تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا}** [(٦١) سورة الأنعام]، مع أن الذي يتوفاهم واحد كما قال تعالى: **{قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ}** [(١١) سورة السجدة].

"كما في قوله تعالى: {فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ} أو لكونهما لهما أتباع، أو ذكرا من بينهم لتمردهما، وتقدير الكلام عنده: يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، ثم قال: وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح، ولا يلتفت إلى ما سواه.

وروى ابن جرير بإسناده من طريق العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ} الآية، يقول: لم ينزل الله السحر.

وبإسناده عن الربيع بن أنس في قوله: {وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ} قال: ما أنزل الله عليهما السحر، قال ابن جرير: فتأويل الآية على هذا: واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فيكون قوله: {بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ} من المؤخر الذي معناه المقدم."

يعني نخرج من هذا القول بنتيجة وهي أن قول القرطبي لم ينفرد به وإنما له سلف فيه.

"قال: فإن قال لنا قائل كيف وجه تقديم ذلك؟ قيل: وجه تقديمه أن يقال: واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان وما أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فيكون معنياً بالملكين جبريل وميكائيل -عليهما السلام-؛ لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك وأخبر نبيه محمداً -صلى الله عليه وسلم- أن جبريل وميكائيل لم ينـزلا بسحر، وبرأَّ سليمان -عليه السلام- مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان، اسم أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس ورداً عليهم."

إذا قلنا هاروت وماروت هم شياطين أو من الناس يبقى فيها أيضاً إشكال وهو هل الشياطين سيقولون للناس: لا تكفر إنما نحن فتنة وهم أصلاً يريدون نشر السحر، ويريدون كفر الناس؟ فهذا إشكال على كل حال.

"هذا لفظه بحروفه، وهذا التأويل فيه من التكلف ما لا يخفى."

قوله: **قال ابن جرير فتأويل الآية على هذا**، ليس هذا هو قول ابن جرير، وإنما ابن جرير لما ذكر هذا القول في المسألة وجهه يعني كأنه يقول: كيف يكون المعنى على هذا القول؟ ثم رده، فلا تفهم من هنا -أي من قال

ابن جرير والمعنى على هذا يكون كذا وكذا- أن هذا هو اختيار ابن جرير، وإنما ابن جرير يرد هذا بقوة، بل بعنف، حتى إنه يقول: فإن قال ذو غباء كيف يكون السحر منزلاً على الملكين؟ قلنا: إن ذلك سبق في علمه، أو أن ذلك ابتلاء وامتحان للخلق.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٣٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر –رحمه الله تعالى-: "وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء، وأنهما أنزلا إلى الأرض، فكان من أمرهما ما كان، وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق في علم الله لهما هذا، فيكون تخصيصًا لهما، فلا تعارض حينئذ."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا جواب عن السؤال الذي أشرت إليه سابقاً وذلك بناء على أن ما وقع من هؤلاء الملائكة هو نظير ما وقع من إبليس على القول بأنه من الملائكة وأن ذلك ليس من قبيل الابتلاء والاختبار لبني آدم من غير حصول معصية من هؤلاء الملائكة.

وعلى كل حال فهذا فيه إشكال وكل ما ذكر في هذا المعنى من الروايات لا يصح منه شيء تقوم به الحجة، ويجب الرجوع إليه عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، وأما المنقول عن السلف فهو مبني على ما أخذ عن بني إسرائيل.

"كما سبق في علمه من أمر إبليس ما سبق، وفي قول: إنه كان من الملائكة؛ لقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى} [(١١٦) سورة طــه] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك، مع أن شأن هاروت وماروت –على ما ذكر- أخف مما وقع من إبليس لعنه الله تعالى.

وقد حكاه القرطبي عن علي وابن مسعود وابن عباس وابن عمر –رضي الله تعالى عنهم- وكعب الأحبار، والسدي والكلبي."

يريد بقوله: إنه أخف، أن إبليس عارض أمر الله –عز وجل- وكابر وأبى أن يسجد وقاس ذلك القياس الفاسد، فكان ذلك سبباً لطرده وإبعاده ولعنه وما أشبه ذلك، وأما هؤلاء الملائكة فإن ذلك كان معصية مجردة لغلبة الشهوة –على هذا القول- وذلك في قصة يذكرونها بروايات متعددة وهي أنهم تعجبوا من معاصي ابن آدم فأنزلهم الله –عز وجل- إلى الأرض وركب فيهم الشهوات فوقع منهم ما وقع مما يذكرونه عن الزهرة وأنها صارت صورة امرأة جميلة وأنها طلبت منهم أن يشربوا الخمر وأنهم شربوها، وغير ذلك من أمور لا يليق ذكرها أصلا، فالعلم عند الله –عز وجل- ومثل هذا القول الذي ينسب إلى الملائكة مثل هذه الأمور لا يعتمد عليه.

والقول بأن ذلك أنزله الله –عز وجل- كما قال ابن جرير ابتلاء واختباراً أسهل من هذا بكثير، فلو قال قائل: هؤلاء ملائكة فكيف يقع منهم هذا الأمر، فيمكن القول: إن ذلك كان ابتلاء من الله –عز وجل-، أما هذه القصص المنسوجة بهذه الطريقة ونسبة هذه الأمور إلى الملائكة فلا يصح لإنسان أن يتكلم بها، وأسوأ من هذا وأبعد منه قول من قال: إن الملائكة توجد فيهم الشهوات عموماً، فهذا في غاية النكارة، والله أعلم.

"وأما قصة الزهرة فموضوعة بلا مرية."

نعم قصة الزهرة مكذوبة، والزهرة هي النجم المعروف، وقصتها ما يذكرون من أنها نزلت في صورة امرأة لهذين الملكين وأنهما أعجبا بجمالها فراوداها ولا زالا بها حتى وقعا بها، وفي بعضها أن تلك المرأة التي أعجبتهما سألتهما عن الاسم الذي يصعدان به إلى السماء فصعدت به فمسخت في الأعلى، ولم يستطيعا الصعود وحبسا ببابل، ويذكرون أشياء غريبة منها أنهما معلقان بأرجلهما ويذكرون أشياء غريبة جداً، حتى إنه في بعض الروايات -رواية في ابن جرير وصححها الشيخ أحمد شاكر- عن عائشة -رضي الله عنها- أن امرأة أتتها من دومة الجندل، وأنها سألت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فكان قد قبض، يعني جاءت في الوقت الذي توفي فيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فبكت المرأة، وخلاصة القصة أن هذه المرأة جاءت تسأل عن ذنب اقترفته ما كفارته وكيف المخرج منه، فعلى كل حال هذه المرأة تقول لعائشة -رضي الله عنها-: إنها أرادت زوجها فبحثت عنه طويلاً ولم تجده وأنها سألت عنه فأرشدها ساحر أو ساحرة إلى أمر تفعله، فجيء لها بكلبين أسودين كبيرين فركبت أحد هذين الكلبين والساحر أو الساحرة ركب الآخر فما وجدت نفسها إلا ببابل، فأُدخلت على هذين الملكين المعلقين بأرجلهما فسألتهما فأمراها أن تذهب إلى مكان أرشدا إليه وأن تبول على الرماد فذهبت فرأت منظراً فضيعاً فخافت ورجعت ثم قالا لها: هل فعلت؟ قالت: نعم، قالا: ماذا رأيت؟ قالت: ما رأيت شيئاً، قالا: لم تفعلي شيئاً، فارجعي فرجعت وخافت ثم رجعت، وفي الثالثة فعلت ما طلب منها فخرج منها فارس أسود وارتفع إلى السماء فأخبرت هذين الرجلين بما رأت فقالا: صدقت، وأخبراها أن هذا هو الإيمان خرج منها[1].

فالمقصود أن مثل هذه الأشياء التي وردت في الإسرائيليات عن الملكين لا يعتمد عليها.

"قال أصحاب الهيئة: وبُعْدُ ما بين بابل وهي من إقليم العراق... "

قوله: **قال أصحاب الهيئة**، يعني علوم الهيئة التي يتحدثون فيها عن الأقاليم وحدود الأرض، وخطوط الطول، ودوائر العرض المعروفة وكذلك الهيئة العلوية من الأفلاك والنجوم وما أشبه ذلك، فالحاصل أن ابن كثير -رحمه الله- يأتي بكلام علماء الهيئة من أجل أن يحدد بالضبط موقع بابل من جهة خطوط الطول ودوائر العرض على الكرة الأرضية.

إذا نظرت إلى كلام المفسرين تجد أن بعضهم يقول: بابل في المغرب وبعضهم يقول في نهاوند، وبعضهم يقول: في العراق، وبعضهم يقول: هو إقليم الكوفة وما حوله، فليست القضية عندهم متفقة يقولون فيها: إنها بابل المعروفة في أرض العراق، ومن ثم فإن السبب في كونه أراد أن يحددها تحديداً دقيقاً هو ألا تلتبس به مع غيرها، وإلا فإنه لأول وهلة يقول القائل: ما الحاجة إلى تحديد أين هي سواء على خط طول كذا أو خط عرض كذا؟.

---

[1] - أخرج القصة الحاكم في مستدركه (٧٢٦٢) (ج ٤ / ص ١٧١) وصححه الذهبي في التلخيص.

"قال أصحاب الهيئة: وبُعْدُ ما بين بابل وهي من إقليم العراق عن البحر المحيط الغربي، ويقال له: أوْقيانُوس سبعون درجة، ويسمون هذا طولاً وأما عرضها وهو بعد ما بينها وبين وسط الأرض من ناحية الجنوب، وهو المسامت لخط الاستواء، اثنان وثلاثون درجة، والله أعلم."

على كل حال الأصل أن تحمل بابل على المكان المعروف منذ القديم في التاريخ فليست هي تسمية حادثة، وإنما هي معروفة منذ زمن طويل.

وإذا نظرت إلى ما كتب عن بابل وسبب التسمية تجد أشياء وخزعبلات لا يبنى عليها علم فتجدهم يقولون: هي من بلبلة الألسن، وينسبون إلى الله كذباً وزوراً عن اليهود أشياء لا يليق أن يتفوه بها الإنسان من سوء ظنهم بالله، ويقولون في سبب تسميتها غير ذلك، فعلى كل حال اسمها بابل والأصل في الأسماء ألا تعلل.

والعجيب أننا إذا أردنا أن نفسر بابل بتلك التفسيرات المكذوبة فمعنى ذلك أنا جعلناها عربية، وهم أعاجم أعني الذين قالوا: إنها من البلبلة وهيا نبلبل..الخ، فهم اليهود الأعاجم فكيف فسروها بذلك، فهذا من التناقض، فأحياناً تعرف بطلان القول حينما يفحص ويحلل فيتبين لك أنه ما يصح.

"وقوله تعالى: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ} [(١٠٢) سورة البقرة]**، قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن قيس بن عباد، عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهياه أشد النهي، وقالا له: إنما نحن فتنة فلا تكفر، وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر، قال: فإذا أبى عليهما أمراه أن يأتي مكان كذا وكذا، فإذا أتاه عاين الشيطان فَعلّمه فإذا تعلمه خرج منه النور."**

هذه الروايات مبنية على ما أخذ عن بني إسرائيل، والله -عز وجل- قال: **{وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ}** أي هما اللذان يقومان بهذا التعليم، لا أن يرسلاه إلى الشيطان فيقوم بتعليمه، وبعضهم يقول: وما يعلِّمان، يعني يُعْلِمانه بأن هذا باطل، كما قال القائل:

تعلم شفاء النفس قهر عدوها ....

يعني: اعلم أن شفاء النفس قهر عدوها، وغير ذلك مما يستشهدون به.

لكن ظاهر الآية المتبادر أنهما يعلّمان السحر كما قال الله -عز وجل-: **{يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ}** [(١٠٢) سورة البقرة] بعضهم يقول: وما يُعْلمان لكن الظاهر والله تعالى أعلم أنها من التعليم، هذا الظاهر المتبادر، أي من التعليم المعروف، سواء قلنا: إنهما يعلمان السحر، أو أن الشياطين يعلمون الناس السحر، وهؤلاء يعلمون ما يفرقون به بين المرء وزوجه، سواء قلنا هذا أو هذا، مع أن ما يفرق به بين المرء وزوجه هو نوع من السحر قطعاً؛ بل إن بعض أهل العلم قصر حقيقة السحر عليه، وقال: والباقي خزعبلات، إما أخذاً للأبصار بالتخييل أو معرفة خواص المواد، مثل ما يفعل من يعرف الكيمياء عن طريق خدع كمن يطلي نفسه بطلاء ويدخل في النار ولا يحترق والناس ينبهرون به، أو غير ذلك مما يفعله من تغيير لونه أو غير ذلك، أو بأمور يموه بها بسبب معرفة خواص المواد وإلا فهو لا حقيقة له، أو بخفة اليد بحيث يفعل حركات تستغرب كيف هذا خرج من هنا؟ وكيف هذا جاء من هنا؟ وكل هذا لا شك أنه من ألوان السحر لكن منه ما هو حقيقي ومنه ما هو غير حقيقي، والحقيقي أكثر من هذا، وما يفعلونه اليوم مما يسمى

بالرجل البهلواني أو الرجل الحديدي أو الرجل الذي يقضم الحديد بفمه أو يثنيه بأصابعه، أو يجر السيارة بأسنانه أو يجلس تحتها وتطأ عليه، أو يمشي على المسامير أو ينام عليها أو يمشي فوق النار، هذا كله من السحر، ولو حضرت عندهم لأبطلت عملهم هذا كما يستطيع أن يبطله كل واحد منكم، فهذا الرجل لو قرئ عليه وهو يفعل هذا لدهسته السيارة ومات، ولو دخل في النار لاحترق إذا ما طلا نفسه بطلاء، ولا يستطيع أن يثني الحديد بيده أبداً، ولا يمكن ولا يعقل أن يفعل هذا البشر، ولو جرى على يد أحد من البشر لكان من قبيل المعجزات؛ لأن هذا أمر خارق للعادة تماماً، ولا يمكن للبشر أن يحصلوه بالتمارين والقوة إطلاقاً، وما يذكرونه مما يسمى بعلم التأثير الذي هو قرين ما يسمونه NLB من المشي على النار فهذا أيضاً كله من السحر إذا كان لا يحترق، وأما إذا كان لا يحس فهذا نعقله ونحن أطفال، فأنا أستطيع أن أمشي على النار ولا أحس؛ لأن الإنسان ممكن أن يجرح وهو في حالة من شدة الفرح أو من شدة الحزن، أو شدة الهرب والخوف، ولا يشعر، ويكسر ولا يشعر في فترة ذهول، واسألوا الذين تقع لهم حوادث، اسأله للتو حينما انقلبت به السيارة أو نحو ذلك فربما يجرح وينزف ولم يشعر بشيء إطلاقاً، تجده ينكسر فيريد أن يقوم وهو لا يشعر أن رجله مقطوعة، كل هذا يقع ولا يتفطن له إلا فيما بعد حينما تذهب عنه الصدمة أو يقول له إنسان: ما بال عينك تسيل على خدك، فمن الممكن أن الإنسان ما يحس لكن الجسد لا بد أن يقع عليه أثر النار أو أثر السكين أو نحو ذلك، وفرق بين هذا وهذا.

" فإذا تعلمه خرج منه النور فنظر إليه ساطعًا في السماء فيقول: يا حسرتاه! يا ويله ماذا أصنع؟.

وعن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذه الآية: نعم أنزل الملكان بالسحر ليعلما الناس البلاء الذي أراد الله أن يبتلي به الناس، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحدًا حتى يقولا: إنما نحن فتنة فلا تكفر، رواه ابن أبي حاتم، وقال قتادة: كان أخذ عليهما ألا يعلما أحدًا حتى يقولا: إنما نحن فتنة -أي بلاء ابتلينا به- فلا تكفر."

ابتلينا به هذا على القول بأن الغواية حصلت منهما أصلاً، لكن على قول ابن جرير أنهما يقولان ذلك؛ لأنهما إنما نزلا ابتلاء من الله -عز وجل- للناس دون أن يقع منهما معصية.

"وقال السدي: إذا أتاهما إنسان يريد السحر وعظاه وقالا له: لا تكفر، إنما نحن فتنة، فإذا أبى قالا له: ائت هذا الرماد فبُلْ عليه."

كما في خبر تلك المرأة التي قالا لها: لا تكفري إنما نحن فتنة، فلما أبت أمراها أن تذهب إلى رماد وتبول عليه، والخبر ذكرناه آنفاً أن امرأة جاءت إلى عائشة -رضي الله عنها-.

" فإذا بال عليه خرج منه نور فسطع حتى يدخل السماء وذلك الإيمان. وأقبل شيء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل في مسامعه وكلِّ شيء وذلك غضب الله، فإذا أخبرهما بذلك علماه السحر، فذلك قول الله تعالى: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ} [(١٠٢) سورة البقرة] **الآية.**

وقال سُنَيد عن حجاج عن ابن جريج في هذه الآية: لا يجترئ على السحر إلا كافر، وأما الفتنة فهي المحنة والاختبار."

قوله: {إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ} أصل الفتن هو الاختبار، كأن تعرض الذهب مثلاً أو المعدن على النار فيتخلص مما فيه من أخلاط فيبقى ذهباً صافياً خالصاً، تقول: فتنت الذهب على النار، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا} [(١٠) سورة البروج] على أحد التفسيرات أي أحروقهم بالنار في قصة الأخدود، وقال تعالى: {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} [(٣٥) سورة الأنبياء] أي اختباراً.

"وقد استدل بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر."

استدل بها على تكفيره؛ لأنه قال: {يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ} [(١٠٢) سورة البقرة] يعني لا تتعلم السحر، فإن أبى وتعلم ما يفرق به بين المرء وزوجه، وسواء كان قد تعاطى السحر وعمل به أو اكتفى بتعلمه، فإنه قد جعل ذلك كفراً، وهذا هو القول الأرجح في هذه المسألة، وهو أنه لا يجوز بحال من الأحوال أن يتعلم الإنسان السحر سواء كان ذلك من أجل العمل به أو من أجل معرفة الشر كما يقول بعض أهل العلم:

عرفت الشر لا للشر لكن لأتقيه ومن لا يعرف الخير من الشر يقع فيه

فبعض أهل العلم يقول: يجوز تعلم السحر لإبطاله وإفساده والحذر من مقارفته وتحذير الناس منه، وهذا الكلام غير صحيح؛ لأن هذه الوسيلة وسيلة محرمة في نفسها وذلك أن تعلمه كفر، فلا يجوز للإنسان أن يقدم عليه.

"وقد استدل بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر، واستشهد له بالحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبد الله، قال: ((من أتى كاهنًا أو ساحرًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم))[2] وهذا إسناد صحيح وله شواهد أخر.

وقوله تعالى: {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} [(١٠٢) سورة البقرة]."

قوله: ((من أتى كاهناً أو ساحراً فسأله..)) قد لا يسأله متعلماً للسحر، وإنما يسأله عن بعض الأمور الغائبة ومع ذلك حكم عليه بهذا الحكم، وهو أنه كفر بما أنزل على محمد، فكيف بما أتاه ليتعلم منه السحر؟ لا شك أن هذا أشد.

ولماذا خص التفريق بين المرء وزوجه في قوله: {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} مع أن السحر أوسع من هذا؟

يمكن أن يقال: لأن هذا هو الأشهر والأكثر انتشاراً وهو السحر الذي يؤثر بإذن الله -عز وجل- من جهة الحب والبغض والنفرة والإقبال والاستمالة، ولهذا فإن بعضهم يفسر السحر بأنه الصَّرف، أي لأن الشيء مصروف عن وجهه، حيث صار يحب هذا الذي ما كان يحبه، أو يبغض هذا الذي كان يحبه.

وبعضهم يفسره بالاستمالة لما يحصل فيه من استمالة المسحور، وعلى كل حال سواء فسرناه بهذا أو بهذا، أو فسرناه بما هو أوسع من ذلك كما يقول بعضهم: هو من الخفاء؛ لأن الساحر يأتي بطرق خفية غير مدركة بالنسبة لمن لا يعرف السحر، وهذا أقرب وأوسع ما فسر به السحر بمعنى من أين أُخذ السحر؟ يقال: أخذ من الخفاء، فإذا قيل لماذا ذكر التفريق بين المرء وزوجه؟ يقال: لأنه هو الأفشى والأكثر، كما قال الله -عز

---

[2] - أخرجه البزار بهذا اللفظ (ج ٥ / ص ٢٥٦).

وجل-: {وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ} [(٤) سورة الفلق] فلو قيل: لماذا ذكر النساء السواحر ولم يذكر السحرة من الرجال -ومن شر النفاثين في العقد- حيث الساحر يعقد عقده أيضاً كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر))[3] فيمكن أن يقال: لأن السحر في النساء أكثر منه في الرجال، وأكثر ما يقع ذلك للمرأة وأسوؤه حينما تكون في حال الحيض، ولذلك فإن من أراد أن يعالج السحر يكون العلاج أصعب إذا كانت المرأة في حال الحيض، يعني علاج المرأة المسحورة وهي في غير الحيض أسهل من علاجها في حال الحيض، والساحر إذا أراد أن يفك السحر بسحره -حيث يُعطى مالاً ويقال له: فك السحر- يكون ذلك بالنسبة إليه في رمضان أصعب منه في غير رمضان؛ لأنه يريد أن يفكه عن طريق الشياطين، فتجده يقول للإنسان الذي يأتيه: إذا خرج الشهر تأتي إليَّ، وهذا شيء مشاهد حيث يأتي بعض الناس يسأل عن مثل هذه الأشياء، وربما وقع بعضهم في بعض الأمور العجيبة التي يقصد بها الإصلاح، ومن ذلك فك السحر بالسحر، ومعلوم أن ذلك لا يجوز، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً، وما نقل من بعض العبارات عن بعض السلف فهو محمول على أن المقصود به النشرة عند من قال لا بأس بالنشرة، فالمقصود بالنشرة هي ما يحل به السحر وإن لم يكن بالسحر، كأن يكون بالرقية أو بالأدوية المعروفة غير السحر، حيث توجد الآن أدوية تعطى للمسحور وهي مركبة من أعشاب تعين على استخراجه خاصة إذا كان مأكولاً أو مشروباً فهذه نشرة، فالنشرة تكون بالسحر وبغيره فهي لحل السحر، ولا إشكال فيها إذا كانت بغير السحر، وعلى فرض أن مقصود القائل أن السحر يجوز لفك السحر فإن ذلك القول قول شاذ وليس كل قول قيل يمكن أن يتبع، وعلى كل حال لا يجوز ذلك وعلى الإنسان أن يصبر ويتعاطى الأسباب المعروفة المباحة أو المشروعة لعلاج هذا السحر.

بعض أهل العلم -وهو قول عند بعض الحنابلة- قالوا: يجوز في حالات ضيقة جداً، وذلك مثل المرأة التي تسحر لتبذل عرضها، فالمرأة أحياناً قد يوضع لها سحر وهي شريفة فتصير تخرج تبحث عن الرجال في الشوارع، فقالوا في هذه الحالة يمكن أن يفك بالسحر، لكن هذا الكلام ليس بصحيح، بل مثل هذه المرأة تحبس بأن توضع في مستشفى أو في أي مكان تضبط فيه، كبيت أهلها وعليهم أن يرقوها بالرقى الشرعية حتى تبرأ بإذن الله -عز وجل-.

وهناك طرق صحيحة يفك بها السحر من عرفها وكان له خبرة بها من غير أن يكون فيها مخالفات، حيث إن الله -عز وجل- يفتح على بعض الناس فترى منهم أشياء عجيبة في هذا الباب حيث يوفقهم الله -عز وجل- إلى أمور يفكون بها السحر.

وبعضهم يذكر طرقاً، يقول: دلت عليها التجربة حيث يأتون بأشياء معينة كأن يضعون ماء مع ملح أمام المسحور، ونحو ذلك فهم عندهم طرق معينة يقول لك: يقتل الجني المربوط مع السحر خلال دقائق، ذكروا أنه إذا كان مربوطاً -بحيث ما أمكن إخراجه- يضطرون إلى قتله، كما يقولون، والله أعلم.

---

[3] - أخرجه النسائي في كتاب تحريم الدم - الحكم في السحرة (٤٠٧٩) (ج ٧ / ص ١١٢)والطبراني في الأوسط (ج ٢ / ص ١٢٧)وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٥٧٠٢).

وأحياناً يأتون بالقطران وهو ذو رائحة معينة معروفة مخلوطاً بالماء في زير الماء مثلاً ويضعونه عند أنفه، حيث يقولون: إنه يحبه جداً، فيخرج من أي مكان في الجسم كان مختبئاً فيه، ويضعون أمامه الماء والملح ثم يقولون دعاء معيناً أو أذكاراً معينة، فيقتل بهذه الطريقة كما يقولون، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٤٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} [(١٠٢) سورة البقرة] "أي: فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر وما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة ما إنهم ليفَرِّقُون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف، وهذا من صنيع الشياطين، كما رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الشيطان ليضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة، ويجيء أحدهم فيقول: ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا. فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئًا، ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال: فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول: نِعْم أنت))[1].

وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك أو حقد أو بَغضة أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة، والمرء عبارة عن الرجل، وتأنيثه امرأة، ويثنى كل منهما ولا يجمعان، والله أعلم."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ}** ذكرنا قبلُ أن قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ}** [(١٠٢) سورة البقرة] قد يرجع إلى أول الآية، **{وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}** [(١٠٢) سورة البقرة]، أي: واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما أنزل على هاروت وماروت، فعلى هذا الذي أنزل على هاروت وماروت هو ما كانوا يتلقونه منهم -عند بعض أهل العلم- مما يفرقون به بين المرء وزوجه، فكأن المعنى: اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما يفرقون به بين المرء وزوجه مما تعلموه من هاروت وماروت، أو واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما يفرقون به بين المرء وزوجه، هذا إذا قلت: إن يعلمون الناس السحر وما أنزل يعود إلى هذا، فيكون السحر مما يتلقونه عن الشياطين على الأول، فالذين اتبعوا يعني اليهود، اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، واتبعوا ما أنزل على الملكين، وإن شئت أن تقول: واتبعوا ما يفرقون به بين المرء وزوجه.

وعلى الثاني يكون ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين، وهذا باعتبار أن هاروت وماروت بدل من الشياطين، فنحن قلنا: إما أن تكون بدلاً من الناس أو بدلاً من الشياطين، فيكون

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً (٢٨١٣) (ج ٤ / ص ٢١٦٧).

على هذا هاروت وماروت من الشياطين، وإذا قلنا: إنها بدل من الناس يكون هاروت وماروت إما ملكين من ملوك الدنيا أو كما قيل: هما علجان، أو غير ذلك.

"وقوله تعالى: **{وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ}** [(١٠٢) سورة البقرة] **قال سفيان الثوري: إلا بقضاء الله، وقال الحسن البصري: {وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ} قال: نَعَم، من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط ولا يستطيعون ضر أحد إلا بإذن الله، كما قال الله تعالى.**"

قوله: **{وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ}** الإذن يأتي بمعنى الأمر الذي لا يقيد بإلزام، أي مطلق الأمر، يقال: هذا مأذون فيه، وفلان أذن له في كذا.

ويأتي بمعنى التخلية بينك وبين الشيء، إذا خلَّى بينك وبين الشيء ولم يمنعك منه فهذا إذن منه لك به.

ويأتي بمعنى العلم بالشيء.

فهل يمكن تفسيره بالأول، أي وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله بمعنى إلا بأمره غير الملزم، أي الأمر الكوني؟

الجواب: أنه ليس بأمر غير ملزم بل الأمر الكوني أمر ملزم، فلا يمكن أن يفسر بالأول.

وإن قلنا: وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله، أي: إلا أن يخلي بينهم وبينه، بمعنى لا يمنعهم منه، فهذا يحتمل، ولو شاء الله -عز وجل- لم يحصل ذلك.

والمعنى الثالث: إلا بإذن الله أي إلا بما سبق في علمه، لا يحصل شيء إلا بعلم الله -عز وجل- وهذا العلم هو العلم الأزلي الذي قدر الله فيه مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء، فلا يحصل في الكون تحريكة ولا تسكينة إلا بقدره -سبحانه وتعالى-.

وهذا القدر على أربع مراتب كما هو معلوم، أولها: العلم المحيط الشامل الذي لا يخرج عنه شيء، فلا يحصل أثر هذا السحر إلا لمن سبق في علم الله أن ذلك يحصل له، وهذا المعنى هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

فهذه ثلاثة معانٍ للإذن، أولها لا يصح هنا وإن كان يصح في معنى اللفظة، وإن شئت أن تفسر ذلك بمعنى أوسع لما بين هذه الأمور من الملازمة في باب القدر، **{وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ}** أي إلا بإرادته سبحانه فيخلي بينهم وبين هذا فينفذ السحر ويؤثر وإن شاء لم يحصل كما أن النار لم تحرق إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- مع أن من طبيعتها الإحراق، ولكنه لا يقع في الكون شيء إلا بإرادته وعلمه وتقديره وقضائه، فالملك ملكه والأمر أمره، ومن ثَمَّ يجب التوكل عليه وتفويض الأمر إليه والالتجاء إليه والتعوذ به من أجل أن يحفظ الإنسان من مثل هذه الأمور، والسحرة يعرفون ذلك جيداً، فهم يعرفون أن سحرهم لا ينفذ في كثير من الأحيان، فهم يعملون أعمالاً من السحر كثيرة، ينفذ بعضها وبعضها لا ينفذ إما من غير سبب ظاهر، وإما أن يكون ذلك لسبب ظاهر معلوم تخبرهم به الشياطين وهو أن هذا الإنسان محصن بالذكر، فما استطاعوا الوصول إليه بمثل هذا السحر، ولذلك يخبرون بعجزهم أحياناً لمن طلب السحر منهم لأحد، ويصرحون بهذا، فيقولون: ما تمكنا منه حتى في الحمام، وهذا مع أن الحمام ليس مكاناً للذكر، وقد حدثني بعض من تاب من هذه الأعمال ممن كان يتصل على السحرة، فذكر أنهم كانوا يتصلون بسحرة في بعض

البلاد البعيدة المعروفة بالسحر ويرسلون لهم أموالاً عن طريق الحوالات ويعملون أعمالاً من السحر وكانوا يخبرونهم أحياناً بأنهم مع تكرار المحاولات ما استطاعوا، فالحاصل أن عملهم كثير جداً فهم ليس لهم شغل إلا هذا، ولكن الذي ينفذ منه قليل أو جزء منه، وصدق الله: **{وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ}** [(١٠٢) سورة البقرة] وهذا أيضاً يذكر بقول الله –تبارك وتعالى–: **{وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}** [(٦٩) سورة طـه]، وبقوله تعالى: **{إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}** [(٧٦) سورة النساء] فكيد الشيطان ضعيف، ولذلك فإن مثل هذا المسحور إذا رقي ظهر ضعف الشيطان ورأيت كيف هذا العاتي المارد يبكي ويتوسل أعظم التوسل إلى هذا الراقي ليطلقه ويتركه ولا يلحقه الأذى منه، بينما من ضعف يقينه وضعف توكله ربما عبد هؤلاء الشياطين رجاء نفعهم أو خوف ضررهم فيتلاعبون به غاية التلاعب، قال تعالى: **{وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}** [(٦) سورة الجن].

"وقوله تعالى: {وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ} [(١٠٢) سورة البقرة] أي: يضرهم في دينهم، وليس له نفع يوازي ضرره."

في قوله تعالى: **{وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ}** ردٌّ على الذين قالوا: إن السحر لا تأثير له أصلاً، وهؤلاء في مثل هذه المسألة وفي غيرها من المسائل التي تشبهها يدورون على انحرافات في الاعتقاد عندهم في باب القدر، ولا أريد أن أدخل الآن في تفصيل هذه المسألة لكن أشير إلى المأخذ والأمر الذي وقع منه فساد التصور عند هؤلاء الناس وهو فساد اعتقادهم؛ لأنهم يقولون: لا مؤثر في الكون إلا الله، وهذه عبارة مجملة؛ إذ لا يقع شيء في الكون إلا بأمر الله وبإرادته وهذا أمر معلوم، فلا يقع في ملكه ما لا يريد، لكن هم يسلبون ذلك تماماً، ويقولون: إن دعوى أن شيئاً يؤثر بنفسه في الكون معناه ادعاء أن ثمة رباً مع الله –عز وجل– يدبر معه، وهذا شرك في الربوبية، فهم هكذا تصوروا القضية، ولذلك يأتون بالعجائب، فيقولون مثلاً: إن الانكسار لم يحصل بالكسر وإنما حصل عنده، والنار ليس فيها خاصية الإحراق وإنما حصل الاحتراق عند مقاربة النار وملابستها، فالنار لا تحرق بطبعها، وإنما الله هو الذي جعل هذا يحترق حينما دخل النار ولابسها، وكذلك يقولون: التجمد لم يحصل بسبب البرودة وإنما خلقه الله عند ملابسة البرودة، وكل هذا بناء على هذا الأصل الفاسد.

أما نحن فنقول: جعل الله في بعض الأشياء خاصية أودعها فيها إن شاء سلبها، ولا يقع في كون الله إلا ما يريد، والخلق كله خلقه، والملك ملكه والأمر أمره، فالنار ألقي فيها إبراهيم –صلى الله عليه وسلم– ولم يحترق؛ لأن الله سلبها هذه الخاصية، ولكن من طبيعتها التي أودعها الله الإحراق وهكذا السحر يحصل له تأثير، لكن لا يكون هذا التأثير خارجاً عن إرادة الله –عز وجل– وتقديره، هذه هي خلاصة هذه المسألة ومأخذ هؤلاء أصحاب ذلك الأصل الفاسد.

يقول تعالى: **{وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ}** [(١٠٢) سورة البقرة] قد يقول قائل: إن السحر يحصل لهم به منفعة في الدنيا مثل المال الذي يكتسبونه، ومثل تحصيل بعض مطالبهم كأن يسحر هذه المرأة من أجل أن تحبه، وهي تسحر زوجها من أجل أن يحبها، وهذا يسحر هذا الإنسان ليستحوذ على ماله فيكون مسلوباً منقاداً له، وهذا كثير جداً، حيث تجد من يسحر شخصاً بأتفه الأمور كأن يشتري سيارة من إنسان فيكون ذلك

سبباً لسحر يدمر حياته من أولها إلى آخرها، فبسبب سيارة اشتراها منه يسحره ويستحوذ على ما عنده من مال وعقارات ويجعله يقترض دائماً من أجل أن يعطيه فهو لا يرد له طلباً.

فالمقصود أنه يحصل لهم هذا النفع في بادئ الأمر، وبالتالي فالمراد بقوله تعالى: **{مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ}** كما حمله بعض أهل العلم ومنهم ابن جرير -رحمه الله- أن المقصود ما يضرهم في الدنيا ولا ينفعهم في الآخرة، وإن كان يحصل لهم بعض النفع في الدنيا لكن الضرر فيه أغلب.

ويمكن أن يقال: إن قوله: **{مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ}** هذا ليس نفعاً حقيقياً، وإنما هو كالنفع الذي يحصل للزاني من لذة والسارق من تمتع بهذا المسروق ولكنه في الواقع ضرر، فهو يتجرع ظلماً وسحتاً وناراً، فهذا ضرر وليس بنفع، كالذي يلعق السم ويتلذذ بهذا الطعام الذي فيه السم، فمثل هذا حصل على ما يضره ولا ينفعه.

يقول ابن كثير: **وقوله تعالى: {وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ} [(١٠٢) سورة البقرة] أي: يضرهم في دينهم، وليس له نفع يوازي ضرره**، ابن كثير حمله على أنه ألغى هذا النفع الموهوم واعتبر الضرر المحقق الغالب فيه، فالنفع ألغاه وأهدره؛ لأنه لا قيمة له، فهذا الذي مشى عليه ابن كثير، وأما ابن جرير فعلى غير هذا، إذ يرى أنه يضر في الدنيا ولا ينفع في الآخرة، أي وإن حصل لهم به نفع في الدنيا فقليل، في مقابل الضرر الكثير.

"**{وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ}** [(١٠٢) سورة البقرة] **أي: ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- لمن فعل فعلهم ذلك، أنه ما له في الآخرة من خلاق، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والسدي: من نصيب.**"

قوله: **{وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ}** بعض أهل العلم يقول: إن "اللام" هذه جاءت لمعنى توكيد الكلام وتقويته فقط، و "من" اسم موصول، فيكون المعنى بهذه الطريقة: ولقد علموا الذي اشتراه ما له في الآخرة من خلاق.

{وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ} أي الذي اشتراه ما له في الآخرة من خلاق، يعني الذي اختاره وارتضاه بدلاً من اتباع الحق والوحي والعمل بما أنزل الله -عز وجل- على أنبيائه ورسله -عليهم الصلاة والسلام-.

وبعضهم يقول: إن هذه اللام تدل على القسم وإن هناك قسماً محذوفاً، وهذا يقول به ابن جرير -رحمه الله-، أي: كأن الله تعالى يقسم بنفسه فيقول: والله لمن اشترى السحر ما له في الآخرة من خلاق.

أي: ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

هذا على أساس أن الكلام يرجع إلى اليهود، **{وَلَقَدْ عَلِمُواْ}** أي اليهود، ويحتمل أن يكون راجعاً إلى الشياطين باعتبار أن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله.

{وَلَقَدْ عَلِمُواْ} باعتبار أن هاروت وماروت من الشياطين فإنهم علموا لمن اشتراه.

ويحتمل أن يكون ذلك يعود إلى الملكين باعتبار أن هاروت وماروت من الملائكة فهما يعلمان ذلك، ويُعْلَمان به، يقولان: إنما نحن فتنة فلا تكفر، والله تعالى أعلم.

وسواء قلنا: إن هاروت وماروت ملكان أو إنهما من الشياطين فمجيئه بضمير الجمع في قوله: {وَلَقَدْ عَلِمُواْ} وهما اثنان لا إشكال فيه إما باعتبار الأتباع أو باعتبار أن الاثنين أقل الجمع كما سبق، والله أعلم..

ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول -صلى الله عليه وسلم لمن فعل فعلهم ذلك أنه ما له في الآخرة من خلاق.

في قوله: **الذين استبدلوا بالسحر**، يريد أن يفسر لفظة الاشتراء التي في قوله: {وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ} وقد سبق الكلام على معنى الاشتراء، ومثلنا بقول من قال: كما اشترى المسلم إذ تنصرا، وقلنا: إنه بمعنى استبدل النصرانية ولم يكن نصرانياً من قبل، ومثل ذلك اشتروا الضلالة بالهدى، ومثل ذلك قوله: {لَمَنِ اشْتَرَاهُ} أي: من اختار السحر على الإيمان واتباع الوحي.

{مِنْ خَلاَقٍ} [(١٠٢) سورة البقرة] قال ابن عباس -رضي الله عنهما- ومجاهد والسدي: من نصيب.

"وقوله تعالى: {وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ* وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} [(١٠٢-١٠٣) سورة البقرة]، يقول تعالى: {وَلَبِئْسَ} البديل ما استبدلوا به من السحر عوضًا عن الإيمان ومتابعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- لو كان لهم علم بما وعظوا به."

ويمكن أن يفسر {وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ} أي: ولبئس ما باعوا به أنفسهم فضيعوها وأهلكوها وأوبقوها بتعاطي السحر وترك الوحي المنــزل، ويمكن أن يفسر على ما سبق، ولا منافاة بين هذين المعنيين.

ابن جرير -رحمه الله- يرى أن قوله: {وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ} أي: باعوا، وكلام ابن كثير جرى فيه على معنى الاستبدال في الموضعين، ولا إشكال في هذا الأمر.

"{وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ} [(١٠٣) سورة البقرة] أي: ولو أنهم آمنوا بالله ورسله -صلى الله عليهم وسلم أجمعين- واتقوا المحارم لكان مثوبة الله على ذلك خيرا لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به."

قوله: **واتقوا المحارم لكان مثوبة**، يعني لثواباً، فالمثوبة بمعنى الثواب، مثل العقوبة بمعنى العقاب، ومعنى الآية: لثواب من عند الله خير في العاجل والآجل من هذا الذي اشتغلوا به لو كانوا يعلمون.

قوله: {لَمَثُوبَةٌ} اللام هذه جواب لو الأولى، {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ} أي: لو آمن لكان ثواب الله خيراً له من هذا الذي اشتغل به.

"كما قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [(٨٠) سورة القصص]."

في قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} [(١٠٣) سورة البقرة] وفي الآية التي قبلها: {وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} [(١٠٢) سورة البقرة] الختم لهاتين الآيتين بقوله: {لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} لو كانوا يعلمون سيأتي الكلام عليه مع آية أخرى بإذن الله -عز وجل- في الجمع بين هذا وبين ما قد يتوهم أنه يعارضه، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٤١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ْوَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(١٠٤) سورة البقرة].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد قال الله -عز وجل-: **{وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ}** [(١٠٢) سورة البقرة] ثم قال -تبارك وتعالى- بعد ذلك: **{وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}** [(١٠٢) سورة البقرة]، وقال: **{وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}** [(١٠٣) سورة البقرة].

تأمل في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ}** فأثبت لهم العلم ثم ذكر ما يدل على نفيه عنهم وذلك في قوله: **{وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}** [(١٠٢) سورة البقرة] معناها أنهم لا يعلمون، فكيف تجمع بين الأولى: **{وَلَقَدْ عَلِمُواْ}** والثانية: **{لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}**؟

الجواب هو أن الثانية تكون بمعنى لو كانوا يعقلون.

ففي قوله: **{وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ}** المعنى أنهم عرفوا حكم السحر، وأنه كفر ولا حظَّ ولا نصيب من الثواب والأجر لمن تعاطى السحر.

وفي قوله: **{وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}** وفي قوله: **{لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}** هؤلاء يمكن أن يكون المراد بهم علماء اليهود باعتبار أن الحديث عن اليهود وعن اتباعهم للسحر، وعلى هذا فمعناه أنهم لو كانوا يعلمون علماً ينفعهم، فالعلم الذي أثبته لهم أولاً هو المعرفة، لكن العلم قد لا ينتفع به صاحبه، حيث كثير من الناس يعلم كثيراً من الأحكام لكنه لا يمتثل، ولذلك تقول للإنسان: لو كنت تعلم، أو لو تدري لما فعلت كذا، وهو يعلم بالحكم.

ويمكن أن يكون المراد بقوله: **{وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}**: الإنس، والذين علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق يمكن أن يقال: إن المراد بهم اليهود مثلاً، فالسياق يتحدث عن اليهود، **{وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}** [(١٠٢) سورة البقرة] فيمكن أن يكون المراد بقوله: **{لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ}** الإنس، وتلك في اليهود الذين تعلموا من الملكين ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وقد يقال غير ذلك -والعلم عند الله -عز وجل- ومن أوضح ما يذكر في هذا هو ما ذكرته من أنهم لو كانوا يعلمون علماً ينتفعون به.

"{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ْوَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ* مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [(١٠٤-١٠٥) سورة البقرة].

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم وذلك أن اليهود كانوا يُعَانُون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص -عليهم لعائن الله- فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا يقولوا: راعنا، ويورون بالرعونة، كما قال تعالى: {مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ} [(٤٦) سورة النساء]."

قوله تعالى: {لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا} ما المراد بـــ{رَاعِنَا} وإلى أي شيء ترجع؟

إذا جمعت أقوال وعبارات المفسرين، تجد أنها مأخوذة من الرعاية، ومن الرعونة، ومن الرفق، وراعنا بمعنى أمهلنا، وقال بعضهم: راعنا، بمعنى تكلم بكلام نفهمه عنك، وبمعنى ارقبنا وبمعنى أَرْعِنا سمعك.

فلو نظرنا في المعاني وأرجعناها إلى ما يمكن أن يفسر به راعنا فإنها ترجع إلى أصل وجذر في الكلام فإذا قلنا: إنها بمعنى أَرْعِنا سمعك أو ارقبنا، أو من الرعاية، أو أنها من الرفق، فهل هي مثل الرعونة؟

الجواب: لا، وإنما الرعونة مأخوذة من رعن وهذه المعاني ترجع إلى رعى، وإذا قلنا: إنها من رعن يرعن رعونةً فهو راعن وأرعن، وكلمة راعن وأرعن تدل على الطيش والهوج، يقولون: فلان أرعن يعني أهوج لا تقترب منه فلا تدري ما الذي يصيبك من مقاربته إذ هو أَحمق، رعن يرعن رعونة فهو راعن وأرعن، فالذين فسروها بأن اليهود كانت تلوي ألسنتها، فمعنى ذلك أن هذه اللفظة تعود إلى شيئين، المعنى الأول: أن هذه اللفظة عند اليهود لفظة سبٍّ في لغتهم يعني في غير العربية، فإن قيل: كيف استعملوا لغة أعجمية في مخاطبة النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو عربي؟

يقال: لما استعملها الصحابة -رضي الله عنهم- في المعنى الآخر استغل اليهود الفرصة وصاروا يطلقون هذه اللفظة الأعجمية التي هي عبارة عن سب باللغة العبرية بحيث صاروا يستعملونها يقصدون بها المعنى الذي في لغتهم والذي هو من أقبح السب وأبشعه، والسامع يظن أنهم يتكلمون بلفظة عربية حيث اتفقت لفظة مع لفظة، لكنها في معناها عند العبرانيين سب قبيح، فصاروا يطلقونها ويتضاحكون فيما بينهم، فالمقصود أنهم استغلوا التوافق في اللغة.

المعنى الثاني: أنها عربية من الرعونة، والمعنى أنهم يعبرون بلفظة ظاهرها قد يستعملها اليهودي مريض القلب في معنىً سيء، فالمسلم يقول: راعنا يقصد ارقبنا وانظرنا، لكن هذا يستغلها كأنه يقول له: يا أرعن، ولهذا جاء في قراءة تنسب للحسن البصري وهي شاذة: (راعناً) بمعنى أنهم ينسبونه إلى الرعونة، فالمتكلم بها يحتمل أن يقصد بها ارقبنا وانظرنا، ويحتمل أن يقصد بها نسبته إلى الرعونة، والإنسان لا يتكلم بالألفاظ المحتملة المجملة، وهذا أصل كبير يذكره أهل العلم وأهل السنة سواء في قضايا الاعتقاد أو في غيره، وهي أن الإنسان يتكلم بالكلام البين الواضح الذي لا يحتمل الحق والباطل؛ لئلا يفهم عنه غير المراد.

وهذه الآية أصل في هذا الباب، وهي أصل أيضاً في باب التشبه، فلا تتشبه بهؤلاء اليهود الذين يطلقونها ويقصدون بها المعنى السيئ وإن قصدت معنىً حسناً.

وإذا فسرت هذه اللفظة بأنها من رعى نجد المعاني التي ذكرت -ارقبنا وانظرنا وأمهلنا وما أشبه ذلك- بمعنى لا تعجل علينا، فراعنا وارقبنا وانظرنا من الرعاية ولهذا يقال لراعي الغنم: راعي؛ لأنه يلاحظ هذه الدواب ويرقبها وما إلى ذلك، ويقال للحاكم أو الأمير أو الوالي أو الملك أو الخليفة راعي، وفي الحديث: ((كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته))[1] فذلك يرجع إلى معنى ارقبنا واحفظنا وما أشبه ذلك.

فالإشكال على تفسير الكلمة بالمعنى الثاني -وهو أنها من "رعى"- أنهم عبروا بلفظة محتملة استعملتها اليهود على وجه قصدوا به المعنى السيئ واستعملها المسلمون من الصحابة في معنىً حسن، فــ"راعنا" حينما يقولها المسلمون فهي قطعاً ليست من الأول، بل هي من الثاني قطعاً، وأما اليهود فحينما لووا بها ألسنتهم فهم إنما نطقوا بها على أنها أعجمية -سب عندهم- أو نطقوا بها على أنها عربية وقصدوا الرعونة.

وبعض أهل العلم -ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري- لمّا أرجعها إلى أصلها أرجعها إلى المعنى الثاني أولاً وآخراً، وعلل سبب النهي عنها بما لا يرجع إلى المعنى الأول، فقال: راعنا المراعاة تدل على مفاعلة بين شيئين كالملاحظة، والمراقبة، والمبارزة، والمصانعة، والمناجزة، والمقاتلة، والمبايعة، وما أشبه ذلك.

فهو يقول: إن معنى هذا الكلام أي: إذا قالوا: راعنا فمعناه افهم عنا نفهم عنك، وارقبنا نرقبك، واسمع منا نسمع منك، فصارت القضية على سبيل المشارطة والمقابلة، وهذا لا يليق في خطاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وإنما يليق في ذلك ما كان على سبيل الإفراد لا على سبيل المقابلة، فجاء لهم بلفظة بديلة لا تقتضي هذا وهي أن يقولوا: انظرنا؛ لأنه لا يقال: انظرنا ننظرك، فالمقصود النهي عن التكلم مع النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الطريقة وكأنها مقايضة بحيث لا يسمعون منه حتى يسمع منهم.

هذا هو المعنى الذي ذهب إليه ابن جرير -رحمه الله- فهو لم يذهب بها إلى أن النهي من أجل أنها توهم معنى الرعونة وإنما لقلة الأدب فيها مع النبي -صلى الله عليه وسلم- بمعنى أنهم جعلوه كأدنى الناس ممن تقول له: اسمع مني وأسمع منك، ارقبني وأرقبك، أرْعِني سمعك وأرعيك سمعي، وهذا لا يليق في الخطاب مع النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وبهذا القول تستطيع أن تجمع الأقوال التي قيلت وتعرف إلى أي شيء ترجع، وبهذا نعرف أن كلمة: "راعنا" لم يطلقها من أطلقها من المسلمين بقصد المعنى الأول -من الرعونة-، لكن نهى الله -عز وجل- عنها لما فيها من سوء الأدب في التعبير مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، والشريعة جاءت بما يحسن ويجمل من الألفاظ والتعابير والكلام، ولهذا لا يقال: عبدي وأمتي لكن يقال: فتاي وفتاتي، ولا يقال: وضئ ربك وإنما يقال: وضئ سيدك، قال تعالى: **{لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا}** [(٦٣) سورة النــــور] سواء فسرت بأنها في المناداة والمخاطبة بمعنى لا ترفع صوتك وتتكلم معه كما لو تكلمت مع غيره من الناس، أو كما تتحدثون فيما بينكم، بل تكلم بأدب وخفض صوت، كما قال في الآية الأخرى: **{لَا تَرْفَعُوا**

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: الأحكام - باب: قول الله تعالى: **{أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}** [(٥٩) سورة النساء] (٦٧١٩) (ج ٦ /ص ٢٦١١) ومسلم في كتاب: الإمارة - باب: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم (١٨٢٩) (ج ٣ / ص١٤٥٩).

أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} [(٢) سورة الحجرات]، أو كان المراد به: لا تقل يا محمد –مثلاً– كدعاء بعضكم بعضاً، بل قل: يا رسول الله، فإن المقصود من ذلك هو تعليمهم الأدب في الألفاظ، إما لأن هذه اللفظة محتملة، وقد تستغل كما فعل اليهود حيث استعملوها استعمالاً سيئاً، أو لأنه لا يليق مخاطبة النبي –صلى الله عليه وسلم– بذلك؛ لأنها تُفهِم معنى المفاعلة، وأياً كان، سواء كان هذا أو هذا فكل ذلك لا يليق، ولذلك علمهم الله الأدب في تعاملهم معه بحيث استبعد الألفاظ الموهمة للمعاني الباطلة وجاء بالألفاظ التي –أيضاً– لا رعونة فيها ولا جفاء ولا سوء أدب معه –صلى الله عليه وسلم–.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٤٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يُعَانُون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص -عليهم لعائن الله- فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا يقولوا: راعنا، ويورون بالرعونة، كما قال تعالى: {مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً} [(٤٦) سورة النساء].

وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم، بأنهم كانوا إذا سلَّموا إنما يقولون: السامُ عليكم، والسام هو الموت، ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ"وعليكم"، وإنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا.

والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(١٠٤) سورة البقرة]

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يُعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعلت الذلة والصَّغارُ على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم))[1].

وروى أبو داود عنه -رضي الله تعالى عنه-: ((من تشبه بقوم فهو منهم))[2] ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم، وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولم نُقرر عليها."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فذكرت في الدرس الماضي خلاصة ترجع إليها أقوال أهل العلم في معنى هذه الآية: **{لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا}** [(١٠٤) سورة البقرة] والذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- كما هو ظاهر هنا أن ذلك من أجل أن لا نشابه اليهود، حيث أطلقوا هذه الكلمة وأرادوا بها معنىً من المعاني السيئة قصدوه، وذهب بها -رحمه الله- إلى أنهم قصدوا بها الرعونة.

وعلى كل حال سواء كان ذلك مما يعبرون به عن الرعونة باللغة العربية أو أنها كلمة كانوا يقصدون بها السب والشتم بلغتهم العبرية، فكل ذلك يجري على النهي عن مشابهتهم ومضاهاتهم من جهة، وأن لا يعبر الإنسان بالعبارات المحتملة للحق والباطل، وذكرنا أن المسلمين حينما يطلقون هذه الكلمة إنما يذهبون بها إلى

---

[1] - مسند أحمد (ج ٢ / ص ٩٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٨٣١).

[2] - سنن أبي داود في كتاب: اللباس - باب في لبس الشهرة (٤٠٣١) (ج ٢ / ص ٤٤١)وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦١٤٩).

معنى رعى، أي ارقبنا وما أشبه ذلك، فعلموا كلمة بديلة لا تحتمل الباطل؛ لئلا يقعوا في هذه المضاهاة -وإن لم يقصدوا المعنى السيئ-، وهذا من التأديب الذي أدبهم به الشارع في عباراتهم وألفاظهم.

وعرفنا أن ابن جرير -رحمه الله- ذهب بها إلى معنىً آخر لا يخرج عن حد التأديب، ولكنه لم يربط ذلك باليهود وإنما فسرها بأن المقصود هو أن هذه اللفظة لا تليق من جهة أنها بمعنى المفاعلة -ارقبنا نرقبك، واسمع منا نسمع منك، وراعنا نراعك، وما أشبه ذلك- وأن هذا لا يليق، وإنما الواجب على الإنسان أن يسمع ويطيع ويتأدب مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولا يكون ذلك على سبيل المقابلة والمقايضة أو ما أشبه ذلك مما يطلب فيه من المخاطب فعلاً كفعله هو، بحيث يقول: إن فعلت ذلك أفعل ذلك، افعل كذا وأفعل كذا، هذا لا يليق.

هذا الذي ذهب إليه ابن جرير، وهو غريب؛ وذلك أن ابن جرير -رحمه الله- من كلام الله -عز وجل- عن قصة آدم -صلى الله عليه وسلم- وهو يقرر أن ذلك جميعاً مما خوطب به اليهود، أي من قوله تعالى: **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ}** [(٣٤) سورة البقرة]، فهو يقول: إن الله يذكِّر اليهود بهذه القضية، وهكذا في كل قضية بعدها يقول: إن المراد بها اليهود، ثم جاءت قضية النسخ كما سيأتي، **{مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا}** [(١٠٦) سورة البقرة] وكان المقصود بها الرد على اليهود، ثم جاءت قضية القبلة أيضاً، فقال: والمقصود بها الرد على اليهود، ثم جاءت قضية الولد، وقوله تعالى: **{وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ}** [(١١٨) سورة البقرة]، فجعل مجموعة من الآيات بعدها في النصارى، فالمقصود أنه يجري ذلك على أهل الكتاب، وأغلب هذه الآيات أجراها على اليهود وإن لم يكن لليهود ذكر فيها، فهذه الآية أولى وأحرى أن تجعل في اليهود أو أن يجعل علة النهي من أجل عدم مضاهاة اليهود؛ حيث أطلقوا هذه الألفاظ، لا أن ذلك بسبب أن هذه اللفظة في ذاتها تقتضي المفاعلة، وإنما لأن اليهود قالوا كلمة قصدوا بها معنىً سيئاً، كما قال الله -عز وجل-: **{مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ}** [(٤٦) سورة النساء]، فمعنى ذلك أن اليهود كانوا يطلقون كلمة ظاهرها السلامة أو تحتمل السلامة وقصدوا بها غير ذلك، والله تعالى أعلم.

"وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا} [(١٠٤) سورة البقرة] **قال: كانوا يقولون للنبي -صلى الله عليه وسلم-: أرْعِنا سمعك، وإنما {رَاعِنَا} كقولك: عاطنا."**

قوله: **{رَاعِنَا} كقولك: عاطنا**، عاطنا من المعاطاة يعني أنها تقتضي المفاعلة.

"وقال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي العالية وأبي مالك والربيع بن أنس وعطية العوفي وقتادة نحو ذلك، وقال مجاهد: {لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا} لا تقولوا خلافاً."

قوله: **وقال مجاهد: {لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا} لا تقولوا خلافاً**، كأنه يقول: لا تقولوا مخالفة، أي لا تقولوا قولاً فيه مخالفة، لا تقولوا شيئاً يخالف ما أمركم الله -عز وجل- به، وإنما ينبغي أن تكونوا على حال من الطاعة والانقياد والاستقامة.

فقوله: **لا تقولوا خلافاً**، كما تقول: لا تقل نكراً، يعني لا تقل منكراً، وهذا التفسير إذا أخذ من حيث هو أي بظاهره هكذا على أنه تفسير "راعنا" ففيه إشكال؛ لأن لفظة راعنا، رعى، والمراعاة، ليس من معانيها

المخالفة، وإنما الملاحظة، والمراقبة، والنظر وأشباه ذلك من المعاني التي تدل عليها هذه اللفظة أو تفسر بها، أما المخالفة فليس ذلك من معانيها، لكن يمكن أن يوجه هذا القول بأن يكون معناه لا تقولوا قولاً مخالفاً، بمعنى لا تقولوا الألفاظ والعبارات التي لا تليق كالعبارات التي يمكن أن توصف بالرعونة والجفاء، أو التي لا تكون بمعنى الاستجابة والانقياد لأمر الله -عز وجل- كما يقولون: **{وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا}** [(٤٦) سورة النساء] وكأنهم -أي اليهود- يقولون: اسمع لا سمعت، وإن كان يمكن أن يفهم من ظاهر قولهم: واسمع غير مسمع مثل ما يقول بعضهم: ما عليك أمر، وإن كانت اللفظة لا يريدون بها هذا المعنى.

فقوله: **لا تقولوا خلافاً**، معناها لا تقولوا: سمعنا وعصينا، وإنما قولوا: سمعنا وأطعنا، فبهذه الطريقة يمكن أن يوجه قول مجاهد، أما أن نفسر لفظة راعنا بمعنى لا تقولوا خلافاً فليس هذا من معانيها، وابن جرير -رحمه الله- أنكر هذا المعنى ورده، وقال: لا يعرف في معنى راعيت معنى خالفت، والله أعلم.

" وفي رواية: لا تقولوا: اسمع منا ونسمع منك."

قوله: **اسمع منا ونسمع منك**، هذا يجري على قول ابن جرير -رحمه الله-؛ لأن القضية المشكلة ليست عند لفظة "راعنا" أنها قالتها اليهود، ونهينا لأن اليهود قالتها لما فيها من معنىً سيء في لغتهم، أو أنهم قصدوا بها المعنى السيئ، لا، وإنما لأنها خلاف التأدب مع النبي -صلى الله عليه وسلم- بمعنى أنه يجب عليكم أن تسمعوا أنتم فالأمر إليكم، ومن الأدب أنه عليكم سماعه لا أن تشترطوا أن يسمع منكم.

"وقال عطاء: {لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا} كانت لُغة تقولها الأنصار فنهى الله عنها."

راعنا كانت لغة تقولها الأنصار بمعنى أن الأنصار يقولون: راعنا بمعنى ارقبنا، من المراعاة، وبمعنى انظرنا، لكن هذه اللفظة لما كانت تحتمل المعنى السيئ والمعنى الصحيح نهوا عنها، ولا زالت هذه اللفظة تستعمل بمعنيين إلى يومنا هذا، يستعملها أهل البادية الآن بمعنى نظر البصر، يقولون: راع بمعنى انظر يقصدون بها نظر العين، ويطلقها غيرهم ويقصدون بها معنى المراعاة وهي الالتفات إليهم، ورعي أحوالهم، وملاحظة هؤلاء الناس ليس بالعين وإنما بالفعل، ويدخل فيه ما يقول المشتري للبائع: راعني في هذا، يقصد بها طلب الالتفات إلى مطلوبه وحاجته وتحقيق رغبته في أن يضع له من السعر، وإذا قالها المريض مثلاً فهو يقصد بذلك تقدير حاله وعجزه والالتفات إلى ضعفه ومرضه بحيث لا يطالب بأكثر مما يطيق.

وهؤلاء قالوها للنبي -صلى الله عليه وسلم- بمعنى لا تعجل علينا، وأمهلنا وارقبنا، ولاحظ حالنا، حتى نفهم عنك، ونأخذ عنك، ونتلقى عنك، فهم قصدوا هذا المعنى، لكن هذه اللفظة غير مناسبة في التخاطب مع النبي -صلى الله عليه وسلم- فأعطاهم لفظة تقوم مقامها ولكنها لا تحتمل المعنى السيئ، وذلك أن يقولوا: انظرنا بمعنى ارقبنا ولاحظنا وما أشبه ذلك، فالمقصود أن الأنصار كانوا يعبرون بهذه اللفظة في لهجتهم يقصدون بها ما ذكرت، فعُلّموا لفظة بديلة ليس فيها احتمال.

وعلى قول ابن جرير، اللفظة البديلة لا تقتضي المفاعلة وإنما تكون من طرف واحد، أي انظرنا من أجل أن نفهم عنك، وليس ارقبنا نرقبك، ولاحظنا نلاحظك..

وعلى كل حال فإن الفائدة التي نخرج بها من هذا أن الإنسان المسلم لا يضاهي أهل الباطل بعباراتهم التي يقصدون بها المعاني السيئة، وكذلك لا يطلق العبارات ابتداءً وإن لم يقلها أهل الباطل، وأقصد العبارات التي

تحتمل معنىً صحيحاً ومعنىً باطلاً، وهذا كثير في كلام أهل العلم من أهل السنة حيث يوضحون موقفهم من مثل هذه الأشياء، ففي العقيدة مثلاً تجدهم يتكلمون على ما إذا خاطبوا أهل الكلام فإنهم ينكرون عليهم استعمال الألفاظ التي تحتمل الحق والباطل كلفظة الجسم، والعرض، والجوهر، والجهة، والتحيز، وما أشبه ذلك مما يعبرون به عند الكلام على صفات الله -عز وجل-، فأهل الكلام ينفون عن الله هذه المعاني ويقصدون بها أحياناً أو غالباً نفي معانٍ صحيحة ثابتة، فينفي التحيز مثلاً ويقصد به نفي العلو والاستواء، وينفي الجسم ويقصد به نفي الصفات الذاتية غير المعنوية كاليد والوجه ونحو ذلك، وينفي الأعراض ويقصد بها نفي الصفات المعنوية كالضحك والغضب وأشباه ذلك ويقولون: هذه أعراض وهكذا، فأهل السنة حينما يأتون إلى أهل الكلام ويناقشونهم يقولون لهم: نحن لا نثبت الجهة ولا ننفيها، ولا نستجيز إطلاق ذلك، وأما أنتم فماذا تقصدون بالجهة؟ إن قصدتم بها معنى أنه ما فوق العالم فنحن نقول: هذا صحيح، وإن قصدتم أن الله -عز وجل- تحوطه جهة من الجهات المخلوقة فالله أعظم شأناً من ذلك، فالله فوق العالم بائن منه، لا يحوطه شيء من المخلوقات، فالمقصود أنهم يستفصلون منهم هذا الاستفصال عند مثل هذه الألفاظ والعبارات فلا ينفونها بإطلاق ولا يثبتونها بإطلاق بل لا يعبرون بها ابتداءً وينكرون على من استعمل هذه الألفاظ.

وعلى كل حال هذا الكلام في باب الاعتقاد، وقد ذكرنا في الدرس الماضي بعض الأحاديث الواردة في التأديب، واستعمال بعض الألفاظ كعبدي وأمتي، وماذا يقولون بدلاً من ذلك، فهذه فائدة مهمة وأساسية.

وأما ما وراء ذلك مثل هل هذه نهي عنها؛ لأن اليهود قالتها بلغتها؟ أو لأنها بمعنى السب عندهم؟ أو قالتها بالعربية وتقصد بها الرعونة؟ فهذا القدر لسنا مضطرين إليه، يعني لا يتوقف العمل بالآية على هذا القدر من التفسير، وإنما القدر الذي نحتاج إليه هو أن هذا من التأديب في كيفية التعامل مع الألفاظ التي تحتمل معنىً صحيحاً ومعنىً باطلاً، وما وراء ذلك لا نضطر إليه سواء قالوها بلغتهم أو قالوها بالعربية، وسواء قصدوا بها معنى الرعونة أو غير ذلك فالمهم أنهم استعملوا عبارات ولووا ألسنتهم بالكلام ليصلوا إلى معانٍ قبيحة لا تليق، ونحن منهيون؛ لئلا نضاهي هؤلاء المبطلين من جهة، ولئلا نستعمل الألفاظ التي تحتمل المعاني الصحيحة والمعاني الباطلة من جهة أخرى، فهذا القدر هو الذي نحتاج إليه وينبني عليه العمل في تفسير الآية، فإذا نظر طالب العلم إلى مثل هذه القضايا بهذه الطريقة أراح نفسه من كثير من الإشكالات والدخول في أمور أو مضائق قد لا يحتاج إليها، أو ليس بمضطر إليها، خاصة وأن القطع بشيء من هذه الإشكالات أمر قد لا يوجد عليه دليل يعتمد عليه، لكن الآية فيما أظن لا يقتصر في تفسيرها على ما ذكره ابن جرير -رحمه الله- فقط دون غيره، وهو قوله: نحن منهيون لما فيها من معنى المفاعلة، لكن يمكن أن نقول: هي لفظة غير لائقة، فهي تحتمل معاني باطلة، ومن ذلك أيضاً أن فيها معنى المفاعلة وهذا أمر لا يليق، والله تعالى أعلم.

"وقال السدي: كان رجل من اليهود من بني قينقاع يدعى رفاعة بن زيد يأتي النبي -صلى الله عليه وسلم- فإذا لقيه فكلمه قال: أرْعِني سمعك واسمع غير مُسْمَع، وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تُفَخَّم بهذا، فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مسمع غَيْرَ صاغر، وهي كالتي في سورة النساء.

في سورة النساء قال الله -عز وجل- عن اليهود: **{مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ}** [(٤٦) سورة النساء] فالمقصود أن هذه اللفظة نحن منهيون عنها؛ لأن فيها سوء أدب، واليهود يذهبون بها إلى المعنى السيئ، وعلى كل حال سواء قُصِد بها ما كان بلغتهم أو لا، فالمقصود أننا لا نقول ذلك، وكذلك الأمر في قوله: **{وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ}** لا يجوز استعمالها أياً كان المقصود بها.

" **فتقدم الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا: راعنا، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بنحو من هذا.**"

قوله تعالى: **{وَاسْمَعُوا}** يمكن أن يحمل على ما ذكر في الآية، يعني اسمعوا هذا التوجيه والتعليم بحيث إنكم منهيون عن إطلاق مثل هذه اللفظة، فلا تعبروا بها في مخاطبته -صلى الله عليه وسلم-، ويحتمل أن يكون ذلك على سبيل العموم، أي اسمعوا ما أمرتم به عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وتلقوا عنه.

"**وقوله تعالى: {مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ}** [(١٠٥) سورة البقرة] **يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين حذر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين؛ ليقطع المودة بينهم وبينهم.**

ونبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل، الذي شرعه لنبيهم محمد -صلى الله عليه وسلم- حيث يقول تعالى: {وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [(١٠٥) سورة **البقرة**]."

هذه الآية أيضاً في أهل الكتاب، وهي من جملة الآيات الكثيرة جداً في سورة البقرة وفي غيرها من سور القرآن التي يذكر الله -عز وجل- فيها ما ينفر قلوب أهل الإيمان عنهم.

وحينما نزلت هذه الآيات من سورة البقرة لم يكن اليهود في ذلك الوقت قد احتلوا شيئاً من بلاد المسلمين أصلاً، ولا غصبوا أموالهم، ولا حاربوهم ولا اعتدوا عليهم ومع ذلك فإن الله -عز وجل- يذكر هذه الأمور التي توجب الكراهية والبغض والبراءة من أعداء الله -عز وجل- والله يذكي هذه الكراهية في نفوس المسلمين، وقد صارت هذه الكراهية جريمة لا تغتفر في هذا العصر، وللأسف صار بعض الناس يقول: ليست العداوة للكفار لأنهم كفار؛ وإنما لأنهم قاتلوا النبي -صلى الله عليه وسلم- وبالتالي إنما تكون العداوة للكفار الذين يقاتلون المسلمين، وهكذا يدلسون على الناس في قوله: **{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ}** [(٨) سورة الممتحنة] فتجدهم يفسرون البِرَّ هنا بمعنى المحبة والموالاة، إلى غير ذلك مما يقال، وإنما المقصود أن الموالاة ليست مرتبطة بأنهم اعتدوا على المسلمين أو ما اعتدوا وإنما هم اعتدوا على أعظم حق لله -عز وجل- وهو التوحيد، فهذا هو الذي أوجب العداوة والبغضاء، وليس لأنهم يحاربون المسلمين، فهذا كفر على كفرهم، فالعداوة تجب لجميع الكفار سواء حاربوا المسلمين أو لم يحاربوهم، فالواجب على كل مسلم أن لا يحب أعداء الله، قال تعالى: **{وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}** [(٤) سورة الممتحنة]، فالمقصود أن مثل هذه الأمور ينبغي أن يعرفها المسلم وتكون حاضرة على باله وتبث في الناس، ويعلمها الصغير والكبير؛ لئلا تضيع حدود

الله –عز وجل– ويُلعب بالدين، بل وصل الأمر ببعض المعممين إلى أنه قال أكثر من هذا، حتى قال: العداوة التي بيننا وبين اليهود ليست دينية، وإنما عداوتنا مع الصهاينة فقط؛ لأنهم احتلوا أرضنا!!

نحن نقول: لو أرجعوا فلسطين على طبق من ذهب فهم أعداؤنا وأشد أعدائنا؛ فآيات القرآن واضحة قبل احتلال فلسطين، فهي ليست في الصهاينة فقط وإنما في عموم هؤلاء الكفار، فالله –عز وجل– ذكر طبقاتهم في كفرهم وعداوتهم.

"**{مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ}** [(١٠٦-١٠٧) سورة البقرة] **قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ} ما نبدل من آية.**

وقال ابن جُرَيج عن مجاهد: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ} أي: ما نمحُو من آية.

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ} قال: نثبت خطها ونبدل حكمها."

القولان الأولان اللذان ذكرهما –ما نبدل من آية، وما نمحُو من آية– بينهما مقاربة لا تخفى، وذلك أن النسخ في لغة العرب يأتي لمعنيين، الأول: بمعنى النقل، وذلك إما مع بقاء الأصل المنقول، كما تقول: نسخت الكتاب، فأصله باق وإنما نقلت صورته، وإما أن يكون مع انتقال أصله، فأنا لما أنقل هذا الكتاب من هنا وأضعه هاهنا، فهل بقي أصله في مكانه؟ الجواب: لا، فالنقل يكون على صورتين: إما مع بقاء الأصل المنقول كنسخ الكتاب، فيبقى أصله وإما بنقله بالكلية بحيث لا يبقى أصله.

والمعنى الثاني من معاني النسخ هو بمعنى الإزالة والرفع، وإن شئت أن تقول: الإبطال وذلك يأتي أيضاً على صورتين، الأولى: إزالة يحصل بها ما يحل مكان هذا الذي أزيل، مثلاً لما تقول: نسخت الشمس الظل، فالذي حل محل الظل هي الشمس، وهناك إزالة وإذهاب من غير أن يحل مكانه غيره مثل أن تقول: نسخت الريح الأثر، بمعنى محته وأزالته وأذهبته، فهل جاء مكانه شيء آخر؟ الجواب: لم يأت مكانه شيء آخر.

فالنسخ يأتي لمعنيين يقع كل واحد منهما على صورتين، والمشهور عند أهل العلم حينما يرجعون النسخ إلى أصل معناه اللغوي أنهم يفسرونه بالثاني الذي هو بمعنى الرفع، بصرف النظر عن صورة هذا الرفع هل هو رفع وإذهاب مع إيجاد البديل أو رفع بالكلية للشيء من أصله دون أن يوجد شيء آخر مكانه بناءً على الكلام المعروف وهو سيأتي إن شاء الله عند قوله: **{نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا}** [(١٠٦) سورة البقرة] هل النسخ لا بد فيه من بدل، أو لا يشترط البدل؟ فهذه قضية خلافية، لكن بغض النظر عن خلافهم فيها فعامة الأصوليين والمفسرين يفسرون النسخ بمعنى الرفع، ولهذا يقولون في معناه الشرعي: إنه رفع حكم شرعي متقدم بخطاب متراخ عنه، فهذا أحد التعريفات التي يذكرونها، والمقصود أنهم يعبرون بلفظ الرفع.

بل إن عامة أهل الأصول يفرقون بين النسخ وبين غيره مما قد يعبر السلف عنه بالنسخ من كل ما يعرض للفظ من تخصيص للعموم أي: مما يغيره عن ظاهره، كتخصيص للعموم، وتقييد للمطلق، وما أشبه ذلك مما يسمونه بالنسخ، فعامة أهل الأصول يجعلون النسخ من قبيل الرفع، وأما تخصيص العام وتقييد المطلق وبيان المجمل ونحو ذلك فيجعلونها من قبيل البيان، وهذا نحتاج إليه عند القراءة في الأصول عند الكلام على بعض المعارضات، حيث لما يتكلمون مثلاً على قضية الآحاد، هل يرفع المتواتر؟ وهل يُرفع القطعي بالظني؟ وهل

السنة تنسخ القرآن.. إلى آخره، فتجد أن من يمنع من بعض هذه الصور، إذا قيل له: هل السنة تخصص القرآن؟، يقول: لا، وإنما هذا بيان والنسخ رفع.

وإذا جاء يتكلم على نسخ المتواتر بالآحاد قيل له: هل الآحاد يخصص المتواتر؟ يقول: نعم، فيقال له: ولماذا لا ينسخه؟ فيقول: لا، ذاك بيان وهو أخف والنسخ رفع، ولا يقوى على رفعه إلا ما يكافئه أو يزيد عليه.

وهذه في الحقيقة إنما هي شبه؛ إذ إن الراجح في هذا أن السنة تنسخ القرآن، والآحاد ينسخ المتواتر بصرف النظر عن التطبيقات التي تذكر فليست القضية في مثال، وعلى كل حال هذا الذي مشى عليه عامة أهل العلم.

ابن جرير –رحمه الله– لا ينكر النسخ أبداً وهو يذهب إلى أن النسخ بمعنى النقل، وكلام ابن جرير هذا إذا أردنا أن نوجهه فإنه يقصد به نقل الحكم من حال إلى حال، نقل المكلف من حكم إلى حكم، فالمكلف كان مطالباً باستقبال بيت المقدس ثم نقل منه إلى استقبال الكعبة، فهنا نُقل الحكم من وجوب استقبال بيت المقدس إلى وجوب استقبال الكعبة، فهذا بمعنى النقل، فهو فسره بمعنى النقل، أي نقل الحكم وإن شئت أن تقول أيضاً: نقل المكلف من هذا الحكم إلى حكم آخر، كأن يكون نقل الحكم من الوجوب إلى الاستحباب.

وإذا كان ذلك هو المراد فالخطب يسير، فإننا إذا أثبتنا النسخ فالخلاف في إرجاعه إلى أصل معناه اللغوي هل يرجع إلى معنى النقل أو إلى معنى الرفع فالقضية أشبه ما تكون بالخلاف اللفظي ولا يترتب عليه أثر من الناحية العملية.

ولذلك نجد بعض أهل العلم يقول: إن النسخ يأتي بمعنى النقل ويأتي بمعنى الرفع، فإن فسرناه بمعنى النقل فهو لأن المكلف قد نقل من كذا إلى كذا، أو أن الحكم قد نقل من كذا إلى كذا، وإذا فسرناه بمعنى الرفع فهو رفع الحكم الأول بخطاب متراخ عنه.

وقال ابن أبي نَجيح عن مجاهد: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ} قال: نثبت خطها ونبدل حكمها.

قوله: **عن مجاهد: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ} قال: نثبت خطها**، هذا نوع من أنواع النسخ وليس هو كل النسخ، وإلا فقوله تعالى: (والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ..) فإن خطها هو الذي قد نسخ وأما حكمها فباق، فالمقصود أنه ذكر نوعاً من أنواع النسخ فلا حاجة أن يقال: إن قوله هذا غلط.

"حَدَّث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود –رضي الله تعالى عنهم– وقال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي العالية ومحمد بن كعب القرظي نحو ذلك.

وقال السدي: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ} نسخها: قبضها، وقال ابن أبي حاتم: يعني: قبضها، ورفعها، مثل قوله: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة..)، وقوله: "لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثًا".

القبض بمعنى الرفع.

"وقال ابن جرير: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ} ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره، وذلك أن يحوَّل الحلالُ حراماً والحرام حلالاً، والمباح محظوراً والمحظور مباحاً، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة. "

هو ذكر هنا أقسام الحكم التكليفي، وبين أن النسخ إنما يكون في الإنشاء بمعنى الأمر والنهي سواء كان على سبيل الوجوب أو الاستحباب أو النهي، وسواء كان على سبيل التحريم أو الكراهة، يعني النهي الجازم والنهي غير الجازم، والأمر الجازم وغير الجازم، وبقي طرف خامس وهو الإباحة والمقصود بها هنا قطعاً الإباحة الشرعية وليست الإباحة الأصلية، فالإباحة الأصلية لا يكون رفعها من قبيل النسخ وإنما يكون ابتداء حكم جديد، وإنما المقصود رفع الإباحة الشرعية، يعني الإباحة التي صدرت من الشارع بأن أباح لهم هذا الشيء ثم حرمه مثلاً فهذا هو الذي يكون من قبيل النسخ مثل المتعة، إذ لما رخص لهم في المتعة صار حكم المتعة مباحاً إباحة شرعية، ثم لما حرمت صار ذلك من قبيل النسخ، لكن الأشياء التي كانوا يتعاطونها قبل مجيء الشرع ثم جاء الحكم بتحريمها –مثلاً– فإن ذلك يكون من قبيل فرض الأحكام الجديدة وليس من قبيل النسخ.

وكذلك الأمر في الواجبات والمستحبات، فالصلاة قبل أن تجب عليهم مطلقاً كان الأصل براءة الذمة، وبالتالي فإن وجوب الصلوات بعد ذلك ليس ناسخاً وهذا معنى كلام ابن جرير، وكلامه واضح حيث يصرح فيه بأن النسخ بمعنى النقل.

"فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ."

لو سأل سائل وقال: لماذا لا يكون في الأخبار ناسخ ومنسوخ؟ فالجواب هو أنه لا يصح ذلك؛ لأن النسخ هنا يكون تكذيباً، فلو قلت: ذهب زيد ثم قلت: لم يذهب زيد، فإن هذا تكذيب للخبر، ولذلك لا يقع النسخ في الخبر إلا إذا كان مضمناً لمعنى الأمر أو النهي بمعنى الإنشاء مثل قوله تعالى: **{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ}** [(٢٣٣) سورة البقرة] فهذا ظاهره الخبر ومعناه الإنشاء وهو الأمر، فهو يأمرهن أن يرضعن أولادهن حولين كاملين، ثم بين أن هذا ليس على سبيل الإلزام والوجوب فقال: **{لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ}** [(٢٣٣) سورة البقرة].

وكذلك في مثل قوله –تبارك وتعالى–: **{وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ}** [(٢٤٠) سورة البقرة] فهذا ظاهره الخبر ومعناه الإنشاء.

وكذلك في قوله تعالى: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ}** [(١١٤) سورة البقرة] فهذا خبر مضمن معنى الإنشاء، بمعنى أنه أمر من الله –عز وجل– لأهل الإيمان أن لا يمكنوهم من دخولها إلا في حال الهدنة أو إعطائهم الأمان ونحو ذلك، فيدخلون في حال من الخوف إلى هذه الأماكن، والأمثلة على ذلك كثيرة، والله تعالى أعلم.

فإذا قيل: إن النسخ لا يكون في الأخبار، فالمقصود الخبر الذي هو خبر صيغةً ومعنىً، وما عدا ذلك مما يراد به الخبر المحض فإنه لا يدخله.

ويقولون كذلك: إن النسخ لا يدخل في الثوابت وأصول الدين، فلا يدخل في العقائد، ولا في أصول الأخلاق.

"وأصل النسخ من نَسْخ الكتاب، وهو نقلُه من نسخة."

يصلح أن يكون من نَسَخ الكتاب وأن يكون من نَسْخ الكتاب بمعنى نقله، ولو كان يقصد هنا من نَسَخ الكتاب لقال: من نَسَخ الكتاب إذا نقله.

"وأصل النسخ من نسْخ الكتاب، وهو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره."

نسْخُ الكتاب كما قلنا يكون مع بقاء الأصل، لكن النسخ الذي لا يكون مع بقاء الأصل مثل ما ذكرنا: نسخت الريح الأثر، ومن ذلك قول الله -عز وجل-: **{فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ}** [(٥٢) سورة الحج] بمعنى الإزالة والإبطال، أي: يبطل الله ما يلقي الشيطان.

"فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله ونقل عبارة إلى غيرها، وسواء نسخ حكمها أو خطها؛ إذ هي في كلتا حالتيها منسوخة.

وقوله تعالى: {أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ} فقرئ على وجهين: "نَنْسأها ونُنْسها"."

هاتان قراءتان متواترتان.

"فأما من قرأها بفتح النون، والهمزة بعد السين فمعناها نؤخرها."

(أونُنْسها) هذه قراءة أبي عمرو وابن كثير من السبعة، وأما من قرأها بفتح النون، والهمزة نَنْسأها فهي بمعنى التأخير، أي نؤخرها، والمعنى نؤخرها عن النسخ، فلا ننسخها، تقول: نسأت هذا الأمر بمعنى أخرته، ويقول الله -عز وجل-: **{إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ}** [(٣٧) سورة التوبة] فالنسيء بمعنى التأخير، أي أنهم يؤخرون الأشهر الحرم، فالشهر الحرام هو مثلاً شهر رجب فيعلنون في الحج ويقولون: السنة القادمة سيكون الشهر الحرام هو شعبان، والسنة التي بعدها يجعلونه رمضان، والسنة التي بعدها يجعلونه شوال وهكذا، وهذا أحد المعاني التي فسر بها قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض))[3] قالوا: بمعنى أنه وافق شهرُ ذي الحجة شهرَ ذي الحجة الذي كان على هيئته التي جعله الله -عز وجل- عليها من غير تأخير، ويقولون: الحجة التي حجها أبو بكر لم تكن في ذي الحجة، وهذا الكلام على هذا التفسير بغض النظر عن هذا المعنى، والمقصود أن قوله: أو ننسأها بمعنى أو نؤخرها.

"قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا} [(١٠٦) سورة البقرة] يقول: ما نبدل من آية أو نتركها لا نبدلها.

وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: {أَوْ نُنسأهَا} نثبت خطها ونبدل حكمها."

قول ابن عباس: **{مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا} يقول: ما نبدل من آية أو نتركها لا نبدلها**، نحن قلنا: ننسأها بمعنى نؤخرها عن النسخ، وهذا معنى نتركها فلا ننسخها، فقول ابن عباس هذا يمكن أن يكون تفسيراً لقراءة الفتح -ننسأها- ويمكن أن يكون تفسيراً لقراءة الضم -ننسها-؛ يمكن ذلك لأن ننسها أيضاً يمكن أن يكون من معنى الإنساء الذي هو بمعنى ذهاب المعلوم

ذهاب ما علم قل نسيان	والعلم في السهو له اكتنان

فالفرق بين النسيان والسهو أن السهو المعلوم مكتن، أي أن المعلومة مكتنة في الذهن لكنه سها عنها، لكن النسيان هو ذهاب المعلوم، فيمكن أن يكون قوله: **{أَوْ نُنسِهَا}** من النسيان الذي هو إذهابها أصلاً من القلب، ويمكن أن يكون ذلك من معنى الإنساء الذي هو بمعنى التأخير.

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب قوله: **{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}** [(٣٦) سورة التوبة] (٤٣٨٥) ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات - باب: تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩) (ج٣ / ص ١٣٠٥). تنبيه : يرجى وضع رقم الجزء والصفحة من صحيح البخاري.

فقول ابن عباس يحتمل أن يكون تفسيراً لقراءة الفتح وقد يحتمل أن يكون هنا تفسيراً لقراءة الضم، لكن بعض الأمثلة في التفسير لآية أو لفظة فيها قراءتان أحياناً لا يحتمل التفسير إلا أن يكون تفسيراً للقراءة الأخرى مع أنها أحياناً لم تذكر، فهو ليس بقول آخر في المسألة، وإنما هو تفسير للقراءة الأخرى.

وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: {أَوْ نُنسأهَا} نثبت خطها ونبدل حكمها.

قوله: **نثبت خطها ونبدل حكمها**، هذا يكون من قبيل التفسير بالمثال فحسب، ولا يحمل على شيء آخر، أي أنه قرب المعنى بصورة من الصور التي يقع عليها النسخ.

"وقال عبيد بن عمير ومجاهد وعطاء: {أَوْ ننسأها} نؤخرها ونرجئها، وقال عطية العوفي: {أَوْ ننسأها} نؤخرها فلا ننسخها، وقال السدي مثله أيضاً وكذا الربيع بن أنس.

وأما على قراءة {أَوْ نُنْسِهَا} فقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا} قال: كان الله -عز وجل- ينسي نبيه -صلى الله عليه وسلم- ما يشاء وينسخ ما يشاء."

هذا بمعنى ينسيه -صلى الله عليه وسلم- فقوله: {نُنْسِهَا} من النسيان، فالنسيان ذهاب المعلوم بمعنى يرفعها من القلوب أصلاً -هذا احتمال- ويحتمل أن يكون النسيان بمعنى الترك، كما في قوله: {نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ} [(٦٧) سورة التوبة]، وقوله: {نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ} [(١٩) سورة الحشر]، والله -عز وجل- كما قال عن نفسه: {قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى} [(٥٢) سورة طه] فالله تعالى لا يضل ولا ينسى، ومعنى لا ينسى بمعنى لا يحصل له النسيان الذي هو بمعنى ذهاب العلم، وإنما يفسر النسيان في حق الله -عز وجل- بمعنى الترك، فقوله: {نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ} [(٦٧) سورة التوبة] بمعنى أنه تركهم في العذاب.

فهنا في قوله تعالى: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا}: قال: **كان الله -عز وجل- ينسي نبيه -صلى الله عليه وسلم- ما يشاء وينسخ ما يشاء**، يمكن أن يفسر هذا على قراءة الضم، ويمكن أن يفسر أيضاً على قراءة الضم بمعنى الترك، يعني {أَوْ نُنسِهَا} أي: نتركها فلا نبدلها ولا ننسخها، فيكون بهذا الاعتبار عائداً إلى الأول وهو نتركها، وهذا الذي اختاره ابن جرير فيكون قد ذكر النسخ ومقابله، والذي يقابل النسخ المقصود به الترك، أي عدم النسخ، فهو ذكر الحالين، وهذا القرينة التي جعلت ابن جرير -رحمه الله- يفسر قوله: {أَوْ نُنسِهَا} بمعنى نتركها، يعني نتركها من النسخ، قال: إنه ذكر الأول، وذكر الثاني المقابل، أي ذكر النسخ وذكر ترك النسخ.

"وقوله: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} [(١٠٦) سورة البقرة] أي: في الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا} يقول: خير لكم في المنفعة وأرفق بكم.

وقال أبو العالية: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ} فلا نعمل بها {أَوْ نُنسأهَا} أي: نرجئها عندنا، نأت بها أو نظيرها."

بعضهم يفسر أو ننسأها بمعنى أنها لا تنزل أصلاً، ولكن هذا فيه إشكال، وعلى كل حال قوله هنا: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} هذا وعد من الله -عز وجل- وهذه الآية أصل في الكلام على مسألة أصولية معروفة في باب النسخ، وهي هل يكون النسخ إلى غير بدل، أو لا بُد فيه من البدل؟

الذين قالوا لا بد فيه من البدل كشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وتبعه على ذلك تلميذه ابن القيم، وجماعة من أهل العلم احتجوا بهذه الآية، قالوا: هذا وعد من الله وهو لا يتخلف، والقول بأن النسخ يكون إلى غير بدل، تكذيب لهذا النص.

والذي عليه الجمهور أن النسخ يصح من غير بدل، ولكن كيف يفسرون هذه الآية؟

يقولون: الله يقول: **{نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا}** المقصود أن الشارع لا يترك المكلفين هملاً من غير حكم، فلا بد من حكم، فالتخفيف بمعنى ترك الإيجاب أصلاً، هذا تخفيف ورحمة، فهو خير لهم من هذه الجهة حيث خفف الله عنهم ورفع هذا الحكم بالكلية، وهذا هو الخير بالنسبة لهم، فلم يتركهم هملاً، فبعد أن كان يجب عليهم هذا الأمر صار لا يجب.

ومثل شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- ومن قال بقوله يقولون: قوله: **{نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا}** إذا رفع الوجوب بقي الاستحباب، وأوضح مثال لهم يمثلون به على هذا هي آية النجوى، وهي قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً}** [(١٢) سورة المجادلة]، فهذه الآية كان يجب على الواحد منهم أن يقدم بين يدي المناجاة للنبي -صلى الله عليه وسلم- صدقة، ثم خفف الله -عز وجل- عنهم بعدها حيث قال سبحانه: **{أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}** [(١٣) سورة المجادلة].

شيخ الإسلام -رحمه الله- وابن القيم ومن قال بقولهما يقولون: الصدقة بقيت مستحبة وإنما رفع الوجوب فقط، وأولئك يقولون: لا، بل رفع الحكم بالكلية فلا يحتاج المناجي إلى تقديم صدقة، لكن لو سألت هؤلاء: ما حكم الصدقة بين يدي المناجاة؟ لقالوا: إنها مستحبة، فإن قيل: إذن أنتم توافقونهم؟ سيقولون: نحن لا نخص ذلك بين يدي مناجاة النبي -صلى الله عليه وسلم- فنقول: رفع هذا بالكلية، فإن قيل: ما رأيكم لو أن أحداً تصدق قبل أن يناجي النبي -صلى الله عليه وسلم- هل نقول: إنه يؤجر أم يأثم؟ سيقولون: يؤجر.

فالمقصود أن خلافهم إذا نظرت إليه بهذا الاعتبار فإنه يكاد أن يكون خلافاً لفظياً، فهؤلاء يوجهون البدل إلى أن الشارع لم يتركهم هملاً فأبقى لهم مثلاً الإباحة بدلاً من التحريم، وهذا خير للمكلفين من جهة التخفيف، وأولئك قالوا: لا، بل ينسخ الوجوب ويبقى الاستحباب، يقال لهم: وهل وإذا نسخ التحريم تبقى الكراهة؟!.

فالذي أظنه -والله تعالى أعلم- أن النسخ يكون إلى غير بدل ويوجَّه ذلك بما ذُكر وهو أن البدل هو التخفيف، فبدلاً من التحريم صار ذلك الأمر مباحاً، وبدلاً من الوجوب صار ذلك لا يجب وقد يبقى مستحباً وقد لا يبقى، فإن بقي مستحباً فذاك نسخ إلى بدل خاص بهذا الحكم المعين، والله تعالى أعلم.

لكن هذه المسألة هل يترتب عليها شيء من الناحية العملية التطبيقية؟

لا يترتب عليها شيء بهذه الطريقة التي ذكرت -نسخ إلى بدل ونسخ إلى غير بدل- ونبقى في مناقشة أوضح مثال وهو تقديم الصدقة بين يدي المناجاة ماذا نقول فيه؟

إذا نظرنا إلى هذه القضية سنقول: هل بقيت الصدقة مستحبة بين يدي المناجاة أو أنه لا تجب ولا تستحب؟ وهل الذين يقولون: إن النسخ إلى غير بدل، يقولون: لا تستحب الصدقة؟

لا، بل يقولون: تستحب الصدقة في هذا الموضع وفي غيره، وذلك أنه إذا أذنب تصدق، ويتصدق ابتداءً، ويتصدق بين يدي دعائه، ويتصدق في كل أحواله، فالمسألة إذا نظرت إليها لا تترتب عليها أمور، وهذا بخلاف بعض المسائل الأخرى مثل: هل شرع من قبلنا شرع لنا أو لا؟ فهذه يترتب عليها أشياء فيما لم يرد في شرعنا ما يخالفه هل هو شرع لنا أم ليس بشرع لنا؟ والله أعلم..

"وقال السدي: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} يقول: نأت بخير من الذي نسخناه أو مثل الذي تركناه.

وقال قتادة: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} يقول: آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهي."

آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} نأت بخير منها في العاجل بالتخفيف، وإذا كان النسخ إلى أثقل، حيث قد ينسخ الحكم إلى الأخف وقد ينسخ إلى الأثقل، كما قال صاحب المراقي:

ويُنسخ الخفُّ بما له ثِقَلْ ... وقد يجيء عارياً من البدل

ومثال نسخ الأخف بالأثقل تحريم شرب الخمر بعد أن كان مباحاً بشرط أن لا يقربوا الصلاة في حال السكر، فيشربونه من بعد الفجر فإذا جاء الظهر يكون قد أفاق، ثم حرم بالكلية، وهذا على القول بأن تحريم الخمر نسخ، ومثل ذلك صوم عاشوراء حيث كان واجباً ثم نسخ الوجوب إلى الاستحباب بصيام رمضان فهو نسخ إلى الأثقل.

ووجه الخيرية هنا كما يقول ابن جرير -رحمه الله- وجماعة من أهل العلم: الخيرية في الآجل يعني بالأجر والمثوبة عند الله -عز وجل- فالأجر على قدر المشقة، ويمكن أن يكون في العاجل أيضاً من جهة أنه زيادة في التكاليف، ولا شك أنها تصلح بها نفوسهم، وتستقيم أحوالهم، والشارع عليم حكيم، فصوم رمضان خير لهم من صوم عاشوراء، فيحصل لهم من الخيرات العاجلة بصيام رمضان ما لا يخفى، وكذلك تحريم الخمر خير لهم في العاجل،و نسخ المتعة خير لهم في العاجل، وقل مثل ذلك في نسخ الأمور التي نسخت بالأثقل.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٤٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} [(١٠٦-١٠٧) سورة البقرة]: "يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما خلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويُصحُّ من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى، فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا وامتثال ما أمروا، وترك ما عنه زجروا، وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم -لعنهم الله- في دعوى استحالة النسخ إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفرا، وإما نقلاً كما تخرصه آخرون منهم افتراءً وإفكاً."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلما ذكر الله -عز وجل- النسخ عقبه بهذا التعقيب: **{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [(١٠٦) سورة البقرة] عقبه بهذا الاستفهام الذي يمكن أن يفسر في معناه بالاستفهام التقريري، يعني قد علمت أن الله على كل شيء قدير، ولا شك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلم ذلك، فإذا فسر بهذا المعنى فلا إشكال فيه.

وبعضهم يقول: إن ذلك فيه خطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم- في ظاهره ولكن المراد غيره -عليه الصلاة والسلام- ممن استبعدوا النسخ أو أنكروه، فيكون بهذا الاعتبار من قبيل الاستفهام الإنكاري، فهو ينكر عليهم: **{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [(١٠٦) سورة البقرة] فلا يمتنع عليه ذلك، فهو ينسخ ما يشاء، ويثبت ما يشاء.

وقوله تعالى: **{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}** [(١٠٧) سورة البقرة] يعني أنه يتصرف فيهما، والمُلْك معلوم، والمَلِك -بفتح الميم وكسر اللام- يكون له كمال التصرف في مملكته، والفرق بين المُلْك وبين المِلْك -بكسر الميم وسكون اللام- أن المِلْك المقصود به حيازة الشيء والاستقلال به، أما المُلك فإنه يعني حق التصرف وإن لم يكن هذا المَلِك مالكاً لكل ما تحت مملكته، بحيث لا يعني أن هذه الأشياء جميعاً ملكاً له، فهذا هو الفرق بين المِلْك والمُلْك.

قال تعالى: **{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ}** [(١٠٧) سورة البقرة] يقول ابن كثير -رحمه الله- هنا: **وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف**

شبهتهم -لعنهم الله- في دعوى استحالة النسخ إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً، وإما نقلاً كما تخرصه آخرون منهم افتراءً وإفكاً، يقول: إما عقلاً بمعنى أن لهم شبهات في رد النسخ عقلاً، ولسنا معنيين بنقل الشبه؛ فإن الشبهة قد تقع في قلب ولا تخرج منه، ولكن المقصود أن هؤلاء لهم شبه معروفة يوصلها بعضهم إلى أربع شبه، وهي شبه ساقطة لا قيمة لها، ويزعمون أن النسخ يستلزم البـَداء -بفتح الباء- ويقولون: هذا محال على الله -عز وجل- ومن ثَمَّ فإن النسخ ممتنع، فشبهاتهم تدور حول هذا.

ومعنى البداء: من بدو الشيء بعد خفائه، تقول: بدا له كذا، وتقول: كنت أريد أن أسافر فبدا لي أن أقيم، كنت أريد القراءة لكن بدا لي أمر آخر لم يكن قبل ذلك، فهو طروٌ للعلم بعد الخفاء، واكتشاف للشيء بعد أن كان ذلك غير مدرك ولا معلوم لهذا الذي بدا، هكذا يقولون، ولا شك أن هذا غير صحيح؛ لأن الله يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

ولذلك لمّا ذكر الله -عز وجل- في سورة الأحزاب الميراث على الراجح، لمّا قال: **{وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا}** [(٦) سورة الأحزاب] يعني بالوصية والإحسان إليهم بالهبة بعد أن كانوا يتوارثون بالولاء، فنسخ ذلك، ثم قال: **{كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}** [(٦) سورة الأحزاب] أي في اللوح المحفوظ.

فهذه آية من آيات النسخ التي يثبت فيها النسخ، قال: **{كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}** ففي اللوح المحفوظ كتب الله كل شيء، ولكن الله يشرع في وقت تشريعاً يتلاءم مع حال الناس، وقد علِم أزلاً أن هذا سيرتفع ثم بعد ذلك يكون غيره مما يتلاءم مع حالهم في تلك المرحلة المقبلة، فكل ذلك غير خارج عن علمه -تبارك وتعالى-؛ فعلمه محيط بكل شيء، فالنسخ لا يعني أن شيئاً انكشف لله -عز وجل- بعد أن كان خافياً، ولكن اليهود لجهلهم وقلة معرفتهم بربهم -تبارك وتعالى- وعظمته، ظنوا أن ذلك يعني نسبة الجهل إليه، فقالوا: هذا يستلزم البداء، ويكفي هذا القدر، ولسنا بحاجة إلى إيراد الشبه مفصلة.

ولهم حجج يحتجون بها من جهة النقل، وقبل الحديث عنها لا بد أن نعلم أنه إذا قيل: الأدلة العقلية فالمقصود بها من جهة النظر، والنقل يعني الشيء الذي يؤثر، وهؤلاء ينقلون من التوراة ومن الزبور ومن سائر كتبهم، وينقلون عن موسى -عليه الصلاة والسلام-، فبعض طوائف اليهود مثل الشمعونية والعنانية الذين يمنعون النسخ يزعمون أن في التوراة – وهي كتاب محرف ولو ثبت ذلك أيضاً فيمكن أن يخرج ويحمل على بعض التفسيرات- يقولون في التوراة: هذه شريعة مؤبدة ما دامت السماوات والأرض.

نقول: حتى لو كان هذا مما نزل فيقال: هذه شريعة مؤبدة ما دامت السماوات والأرض، يريد به إلزام هؤلاء العمل بها دون التصرف والترك في وقت أو مكان بمجرد رأيهم أو هواهم، ولكن يقول: أنتم مطالبون بها أبداً، في كل الأوقات والأحوال، ولكن إذا جاء نبي بكتاب ينسخ هذا الكتاب فهنا لا مجال للعمل بذلك الكتاب الأول، والله -عز وجل- قال عن أهل النار: **{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَت السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ}** [(١٠٧) سورة هود] وقال في الجنة: **{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَت السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ}** [(١٠٨) سورة هود] فهذا بلا انقطاع ولا انقضاء، ولكن في مثل التوراة وغيرها من الكتب التي نسخت أن ذلك يبقى ما لم يرد ما ينسخه، وهذا فيما لو أردنا أن نخرج هذا النص لو كان ثابتاً.

والنصوص المنقولة من كتبهم إذا وجد في شريعتنا فيما جاءنا من الوحي المنزل المحفوظ ما يخالفه نعلم أن ذلك من قبيل الكذب والكلام المحرف، وهذه الأشياء التي تنقل عنهم ثلاثة أقسام فنحن عندنا أشياء تدل دلالة صريحة على أن هذا الكتاب مهيمن على تلك الكتب وأن هذه الشريعة ناسخة لها كما قال تعالى: **{وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ}** [(٤٨) سورة المائدة] وكما في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من يهودي ولا نصراني من هذه الأمة يسمع بي، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار))[1]، وكذلك قوله -صلى الله عليه وسلم- لعمر -رضي الله عنه-: ((لو كان أخي موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي))[2] يعني أنه لا يسعه العمل بالتوراة.

وعيسى -صلى الله عليه وسلم- حينما ينزل آخر الزمان لا يحكم بالإنجيل ولا يعمل بأحكام الإنجيل، فهذه وغيرها كثير تدل على هذا المعنى، فهذا النص الذي ينقلونه هو نص محرف، وإن لم يكن من قبل المحرف فيمكن أن يحمل على محمل آخر، غير ما فهموا.

وكذلك ينقلون: "الزموا يوم السبت أبداً"، ويوم السبت معروف، وهو اليوم الذي كان يعظمه اليهود وهو يوم عيدهم، فمعنى ذلك البقاء على يهوديتهم، هذا معنى الزموا يوم السبت أبداً، يعني لا تتحولوا إلى غيره كالأحد أو الجمعة.

وهكذا النصارى الجهلة أيضاً ينقلون عن المسيح -عليه الصلاة والسلام- أنه يقول: السماء والأرض تزولان، وكلامي لا يزول، هذا يمكن أن يخرج لو صح عنه -عليه الصلاة والسلام- فإنه يمكن أن يحمل على محمل لا يعني عدم النسخ بحال من الأحوال، وعلى كل حال النصارى جهلة بل هم معدن الجهل، فلا يستغرب منهم مثل هذا الكلام.

وعلى كل حال هذا تعليق على قول ابن كثير -رحمه الله-: **إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً، وإما نقلاً كما تخرصه آخرون منهم افتراءً وإفكاً**، وهذا يعني -وهو صريح- أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يرى أن تلك النصوص من قبيل المكذوب المحرف وليست من كلام الله -عز وجل- أو من كلام عيسى -عليه الصلاة والسلام- أو موسى -صلى الله عليهم وسلم-.

وهذه المقابلة تعبير دقيق، إما عقلاً وإما نقلاً، وهذا هو التعبير الصحيح، أن يقابل العقل بالنقل، فيقال: دل على ذلك العقل والنقل، ولا يقال: دل على ذلك العقل والشرع؛ لأن العقل الصحيح من جملة أدلة الشرع التي هي الكتاب والسنة والإجماع، والعقل الصحيح، والفطرة السليمة، كل هذه أدلة صحيحة، فلا تقل: دل عليه العقل والشرع؛ فيكون العقل مقابلاً للشرع، وهذا إنما يكون على فرض المعارضة بين العقل والنقل كما هو ظن طوائف كثيرة من أهل الكلام، حيث يجعلون قواعد يمشون عليها في حال هذا التعارض، وهذا غير صحيح على كل حال.

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الإيمان - باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١٥٣) (ج ١ / ص ١٣٤).
[2] - أخرجه أحمد (ج ٣ / ص ٣٣٨) وأبو يعلى (ج ٤ / ص ١٠٢) وابن أبي شيبة (ج ٥ / ص ٣١٢) والبيهقي في الشعب (ج ١ / ص ١٩٩)، وحسنه الألباني في المشكاة (١٧٧).

"قال الإمام أبو جعفر بن جرير –رحمه الله–: فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمد أن لي ملك السماوات والأرض وسلطانهما دون غيري، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي بما أشاء إذا أشاء، وأقر فيهما ما أشاء.

ثم قال: وهذا الخبر وإن كان خطاباً من الله تعالى لنبيه –صلى الله عليه وسلم– على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه –جل ثناؤه– تكذيب لليهود الذين أنكروا نَسْخَ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد –عليهما الصلاة والسلام– لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة فأخبرهم الله أن له ملك السماوات والأرض وسلطانهما، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته، وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء، ونهيهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه."

قوله: **وإن كان خطاباً من الله تعالى لنبيه –صلى الله عليه وسلم– على وجه الخبر عن عظمته فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود**، يعني إذا كان هذا الخطاب قد وجه إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– فإن الاستفهام يكون فيه من قبيل التقرير –الاستفهام التقريري– يعني قد علمت أن الله له ملك السماوات والأرض، وإذا كان للإنكار على اليهود أو قد وجه للمسلمين فإنه بالنسبة لليهود يكون من قبيل الإنكار –الاستفهام الإنكاري–.

وابن جرير –رحمه الله– يرى أن هذا الخطاب وإن كان في أوله قد خوطب به المفرد، والمخاطب بذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– لكن المراد بذلك الصحابة وفي ضمنه إنكار على اليهود يعني يتضمن الإنكار على اليهود، والقرينة التي يحتج بها من الآية هي صيغة الجمع في آخرها: **{وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ}** [(١٠٧) سورة البقرة]، ففي أولها قال: **{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ}** ثم قال في آخرها: **{وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ}** فدل ذلك على أن المراد به الجمع وليس شخص النبي –صلى الله عليه وسلم–، هذا الذي ذهب إليه ابن جرير الطبري –رحمه الله–.

"قلت: الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ، إنما هو الكفر والعناد فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى."

يعني ليس في العقل ما يدل على امتناعه؛ لأن الله يعلم ما كان وما يكون، بل إن مقتضى العقل يؤيده ويقويه، وذلك أن الأمة تمر بأطوار ومراحل يقتضي ذلك أن تنقل من طور إلى طور، وهذا يعني أن تبدل الأحكام، حيناً بعد حين وهذا هو النسخ، فهذا مما يؤديه العقل ويقويه، ولذلك يحتج على النسخ بالعقل لا أن العقل ينسخ، يعني هناك فرق بين أن نقرر النسخ بالكتاب والسنة والإجماع ودليل العقل من جهة النظر كما يقولون، فهذا ممكن، لكن العقل لا ينسخ بحال من الأحوال، فالرد عليهم من جهة النظر أعني من جهة العقل، والرد عليهم أيضاً من كتبهم ومن الكتاب والسنة أمر سهل، ومن شاء فليراجع الكتب التي اعتنت بهذا الجانب، ومن أكثر من اعتنى بهذا فيما وقفت عليه الزرقاني في كتابه (مناهل العرفان) حيث جاء بشبهاتهم ثم رد عليها من كتبهم، وجاء أيضاً بالشبه العقلية التي يحتجون بها ورد عليها، وقرر أدلته من الكتاب والسنة، وهو من أوسع من تكلموا على موضوع النسخ ومن أحسن من تكلم فيه، حتى الآيات التي ذكرها وأوردها، أورد الآيات المشهورة –التي هي أقوى ما ادعي فيه النسخ وهي ما يقرب من إحدى وعشرين آية– التي أوردها

السيوطي في الإتقان ونظمها، وتجدون شرحها للشنقيطي –رحمه الله– وعليها تعليق يسير في ملحق آخر الأضواء.

"لأنه يحكم ما يشاء كما أنه يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم –عليه السلام– تزويج بناته من بنيه ثم حرم ذلك."

هذه ردود عليهم، وهي ليست ردود عقلية، وإنما هي ردود موجودة ويعرفونها فيما خوطبوا به من شرعهم.

"وكما أباح لنوح –عليه السلام– بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حلِّ بعضها، وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل –عليه السلام– وبنيه، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها، وأمر إبراهيم –عليه السلام– بذبح ولده –عليه السلام– ثم نسخه قبل الفعل."

طبعاً هذه الأشياء كلها يقرون بها ولا ينكرونها، بغض النظر عن الذبيح من هو.

"وأمر جمهور بني إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم القتل كي لا يستأصلهم القتل، وأشياء كثيرة يطول ذكرها وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنها.

وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية، فلا يصرف الدلالة في المعنى إذ هو المقصود، وكما في كتبهم مشهوراً من البشارة بمحمد –صلى الله عليه وسلم–، والأمر باتباعه."

يعني هم قد يتمحلون في الإجابة عن هذه الأدلة التي تورد عليهم من تحريم الجمع بين الأختين وما أشبه ذلك مما أورده، يقول: لكن هذه الأجوبة هي أجوبة لفظية لا تقوى على إبطال هذه الحجج والبراهين، يعني هم يتمحلون، ويتكلمون في الجواب عنها، لكن ذلك هو مجرد كلام لا قيمة له حيث لا يصل بقوته إلى رد هذه الأدلة، هذا هو المراد بقوله: **وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية**، يعني ما يتفوهون به ويتكلمون به في الجواب عنها لا يصرف الدلالة في المعنى، والمقصود أن محصلة هذه الأدلة هي أن النسخ ثابت، بغض النظر عما سموه به أو تمحلوا في الجواب عنها، فإن الحقيقة واضحة وثابتة في هذا.

وأقصد أنه ماذا عسى أن يقول الإنسان من هؤلاء الناس، يمكن أن يقول: إن هذه أصلاً كانت مؤقتة ثم بعد ذلك جاء حكم جديد، أو يقولون: هذا حكم مؤقت، وغير ذلك من الأجوبة اللفظية، فنقول: إن ذلك لا يغير الحقيقة فهذا هو النسخ، فهذه أجوبة لفظية، لكن المعنى ثابت وهو أن هذا نسخ، وأنت سمِّه بما شئت.

"فإنه يفيد وجوب متابعته –عليه الصلاة والسلام– وأنه لا يُقبل عمل إلا على شريعته، وسواء قيل: إن الشرائع المتقدمة مُغَيَّاة إلى بعثته –عليه السلام– فلا يسمى ذلك نسخًا."

وهذا مما يمكن أن يجيبوا به عن أفراد تلك الأدلة السابقة، يقول لك: هذه مغياة بغاية، والمغيا بغاية ليس بنسخ.

ومسألة المغيا بغاية فيها تفصيل، وهو أنواع: منه ما حُدَّ بغاية معلومة، يقول: افعلوا كذا إلى وقت كذا مثلاً، فهذا كقوله: **{ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ}** [(١٨٧) سورة البقرة] فهذا ليس بنسخ، فإذا دخل الليل لا يعتبر حكم الإمساك عن الأكل والشرب منسوخاً، وأما ما يفترض فيه من العبارات فإن ذلك لم يرد، كأن يقول مثلاً: اعملوا بالحكم الفلاني حتى كذا، يعني اعملوا به حتى السنة الرابعة للهجرة مثلاً، فهذا غير موجود، وإنما هي افتراضات يذكرها العلماء ليبينوا ويوضحوا أن ذلك ليس من قبيل النسخ، ثم يختلفون في بعض الصور، هل

هو من المغيا بغاية، أو ليس من المغيا بغاية، كقوله -تبارك وتعالى-: **{أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً}** عند قوله في سورة النساء: **{وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً}** [(١٥) سورة النساء] فهل هذا من المغيا بغاية ثم لما جاء حكم الجلد والرجم لم يكن ذلك من قبيل النسخ؛ لأنه مغيا بغاية؟، أم أن هذا ليس من المغيا بغاية وأن الجلد والرجم ناسخ لآية الحبس في البيوت والأذى؟

هذا يختلفون فيه، وسبب الاختلاف هو العبارة فقط فصار عندنا الآن هذه الصور الثلاث، ولا شك من حيث المبدأ أن ما غُيا بغاية ليس من قبيل النسخ، لكن يبقى أن هذه الصورة يختلفون فيها هل هي منه أو لا؟، مع اتفاقهم على الأصل.

وأما ما يذكر من الصور الواضحة الصريحة فهي من قبيل الافتراضات فحسب، كأن يقول: لو قال لهم افعلوا كذا، إلى وقت كذا.. الخ، وأما ما يتضح فإنه ليس من قبيل النسخ إطلاقاً، كقوله: **{ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ}** [(١٨٧) سورة البقرة].

فالحاصل أن أهل الكتاب هؤلاء يمكن أن يتمحلوا فيقولوا: هذا من قبيل المغيا بغاية، فنقول: سموه بما شئتم فهو نسخ.

"فلا يسمى ذلك نسخًا كقوله: {ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ} [(١٨٧) سورة البقرة]، وقيل: إنها مطلقة وإن شريعة محمد -صلى الله عليه وسلم- نسختها، فعلى كل تقدير فوجوب متابعته متعين؛ لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهداً بالله -تبارك وتعالى-.

ففي هذا المقام بين تعالى جواز النسخ رداً على اليهود -عليهم لعنة الله- حيث قال تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١٠٦-١٠٧) سورة البقرة] الآية، فكما أن له الملك بلا منازع فكذلك له الحكم بما يشاء {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [(٥٤) سورة الأعراف].

وقرئ في سورة آل عمران، التي نزل في صدرها خطاباً مع أهل الكتاب وقوع النسخ عند اليهود في قوله تعالى: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ} [(٩٣) سورة آل عمران] الآية، كما سيأتي تفسيره، والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وكلهم قال بوقوعه."

في الآية: **{كُلُّ الطَّعَامِ}** رد عليهم بكل الأحوال حيث زعموا أن الله حرم عليهم أشياء فبين لهم أن الطعام جميعاً كان حلاً ليعقوب -صلى الله عليه وسلم- إلا ما حرم على نفسه، وخبرهم أنه حينما أصابه ذلك الداء وهو عرق النَّسا، فالذي حصل أنه نذر إن شفاه الله أن يحرم أطيب الطعام والشراب إليه، فكان أطيب الطعام والشراب إليه لحوم الإبل وألبانها، فحرمها على نفسه وكان ذلك جائزاً في شريعتهم، ثم بعد ذلك أحل لهم أشياء على لسان عيسى -صلى الله عليه وسلم- **{وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ}** [(٥٠) سورة آل عمران] ثم هذا التحريم حتى لو قلنا: إنه من الله ابتداءً كما يزعمون هم، فهو نسخ بأن كانت مباحة لمن قبله فجاء التحريم في شريعة يعقوب -صلى الله عليه وسلم-.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٤٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ} [(١٠٨) سورة البقرة]: "نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الأشياء قبل كونها كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ} [(١٠١) سورة المائدة] أي: وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه؛ فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة، ولهذا جاء في الصحيح: ((إن أعظم المسلمين جُرْمًا من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته))[1].

ولما سُئِل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الرجل يجد مع امرأته رجلاً فإن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكتَ سكتَ على مثل ذلك؛ فكره رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المسائل وعابها. ثم أنزل الله حكم الملاعنة، ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان ينهى عن قيل وقال، وإضاعة المال وكثرة السؤال[2].

وفي صحيح مسلم: ((ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه))، وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج، فقال رجل: أكُل عام يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاثًا، ثم قال -عليه السلام-: ((لا، ولو قلت: نعم لوجَبَت، ولو وَجَبَتْ لما استطعتم))[3] ثم قال: ((ذروني ما تركتكم..)) الحديث، ولهذا قال أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه-: "نُهينا أن نسأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ}** [(١٠٨) سورة البقرة] السؤال هنا لعل أولى ما يدخل فيه -والله تبارك وتعالى أعلم- هو طلب الآيات، أي أنهم يقترحون على النبي -صلى الله عليه وسلم- الآيات كقولهم: **{لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا}** [(٩٠) سورة الإسراء] إلى

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة - باب: ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه (٦٨٥٩) (ج ٦ / ص٢٦٥٨) ومسلم في كتاب: الفضائل - باب: توقيره صلى الله عليه وسلم وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك(٢٣٥٨) (ج ٤ / ص ١٨٣١).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة - باب: قول الله تعالى {لا يسألون الناس إلحافا} (١٤٠٧) (ج ٢ / ص ٥٣٧) ومسلم في كتاب: الأقضية - باب: النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهي عن منع وهات وهو الامتناع من أداء حق لزمه أو طلب ما لا يستحقه (٥٩٣) (ج ٣ / ص ١٣٤٠).

[3] - أخرجه مسلم في كتاب: الحج - باب: فرض الحج مرة في العمر (١٣٣٧) (ج ٢ / ص ٩٧٥)

غير ذلك مما كانوا يقترحونه من نزول الملائكة، أو أن يكون له بيت من زخرف من ذهب، أو يرقى في السماء، أو نحو ذلك مما اقترحه عليه المشركون، وكذلك أيضاً اليهود طلبوا أشياء من النبي -صلى الله عليه وسلم- على سبيل التعنت، فكل هذا داخل فيه -والله -تبارك وتعالى أعلم-، وقرينة ذلك هي أن الله -عز وجل- ذكر موسى -صلى الله عليه وسلم- حيث قال: {كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ} غير أن ذلك لا يمنع المعنى الآخر، وهو الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا، وهو أن السؤال يدخل فيه أيضاً السؤال عن العلم والمسائل والأحكام، وذلك أوضح وأصرح في الآية الأخرى وهي قوله -تبارك وتعالى-: {لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا} [(١٠١) سورة المائدة]، فهذا واضح بأن المراد هو السؤال عن أمور سكت عنها الشارع، وأما الآية التي هنا فإن أولى ما يدخل فيها هو اقتراح الآيات، ولذلك قال الله في آخرها: {وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ} [(١٠٨) سورة البقرة] وعلى كل حال فالقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة.

والمسائل أنواع، أما اقتراح الآيات على الأنبياء فهذا أمر محرم، وقد دل القرآن على تحريمه وذمه في مواضع كثيرة، وأما المسائل العلمية فإن ذلك على أنواع: منها: كثرة السؤال كما جاء في الحديث، والمعنى المتبادر من كثرة السؤال في الحديث هو السؤال عن الأحكام والمسائل العلمية وما إلى ذلك مما يسأل عنه الإنسان، كثرة السؤال، يسأل عما لا يعنيه، فهذا مذموم.

والنوع الآخر أيضاً هو أن يسأل عن أمور نادرة لا تكاد تقع، فهذا أيضاً من المذموم، كالذي يسأل عن رجل وطأ على دجاجة ميتة فخرجت منها بيضة ففقست عنده، هل هذه الدجاجة أو الفرخ الذي خرج منها هل هو طاهر أو نجس، باعتبار أن البيضة خرجت من دجاجة ميتة ففرخت هذه البيضة عنده، كأن يكون جعلها تحت دجاجة أخرى أو في حاضنة أو غير ذلك، فهذا كان بعض الناس يسألون مثل هذه المسائل فعابهم السلف وردوا عليهم مسائلهم، ولهذا كانوا إذا سمعوا بعض الأسئلة الغريبة والمتكلفة أو النادرة ونحوها فإنهم يسألون السائل: أعراقي أنت؟ أحرورية أنت؟

ومن الأسئلة المذمومة تتبع صعاب المسائل، والمسائل الغامضة، التي ينقر عنها السائل، وكذلك السؤال عن الأمور التي لا يترتب عليها عمل، وإنما من شأنها أن تثير الإشكالات والشبهات وتحرك كوامن النفوس كما كان يسأل صبيغ الناس، فقال عمر -رضي الله عنه-: اللهم أظفرني به، فدخل الناس يتغدون على عمر، فدخل معهم رجل، فلما فرغ سأل عمر، قال: يا أمير المؤمنين {وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا} [(١) سورة الذاريات]، فقال: من أنت؟ قال: عبد الله صبيغ، قال: وأنا عبد الله عمر، فضربه بالعراجين حتى سقطت عمامته وأدمى رأسه مرة بعد مرة، حتى قال: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد ما بي فقد ذهب، يعني ذهب الذي في رأسه لما ضربه بهذه العراجين التي أعدها له، فأحياناً ما ينفع الرد على بعض الناس ولا المناقشة ولا الحوار، وإنما الذي ينفع معه أن يضرب على رأسه بالعراجين حتى يذهب ما في رأسه، بدلاً من أن يقابل بالقنوات ويترك يتفلسف ويتكلم في الأمور العظام، وهو أجهل من حمار أهله لكن أين عمر؟

المقصود أن هذا النوع من الأسئلة مذموم، ولا يلتفت إليه، ولا ينبغي للإنسان أن يتشاغل به، ومثل ذلك ما لا يبنى عليه عمل، وقصة عمر معروفة لما سأل أو سئل: وما الأبّ في قوله تعالى: **{وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}** [(٣١) سورة عبس]، فقال كلاماً معناه: يكفي أنه نبت، لكن تحديد هذا النبت بالذات لا فائدة من معرفته.

وكذلك أيضاً السؤال عن أمور سكت عنها الشارع ولم يتعرض لها من أمور الحلال والحرام في زمن نزول الوحي، كما قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا}** [(١٠١) سورة المائدة]، وكسؤال بني إسرائيل لموسى -صلى الله عليه وسلم- عن البقرة لما قال لهم موسى: **{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}** [(٦٧) سورة البقرة] فتعنتوا في السؤال فشدد الله عليهم، فهذا كله مذموم ولا ينبغي للإنسان أن يتشاغل به، لكن ليس السؤال مذموم بإطلاق؛ فإن الصحابة -رضي الله عنهم- سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أشياء منها ما وقع كالذي سأله عن ماء البحر، وسألوه عن أمور لم تقع لكنها ستقع، مثل أسئلة حذيفة -رضي الله تعالى عنه- في الفتن، "كان الناس يسألون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الخير، وكنت أسأله عن الشر"[٤].

فالمقصود أن الأسئلة ينبغي أن تكون فيما يترتب عليه نفع وعمل، لا أن يكون ذلك من قبيل التكلف والتمحل، واتباع صعاب المسائل والأغاليط والتكلف، فيترك الناس ما هم بصدده ويشتغلون بافتراض وتوليد المسائل، فإن هذا أمر مذموم، فهذه خلاصة فيما يتعلق بالسؤال، والله أعلم.

وفي الحديث الذي ذكر هنا قال: **ولما سُئِل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الرجل يجد مع امرأته رجلاً فإن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكتَ سكتَ على مثل ذلك؛ فكره رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المسائل وعابها**، هذا في قصة عويمر العجلاني وعاصم بن عدي، فإن عويمراً العجلاني لما رأى رجلاً مع امرأته أرسل عاصم بن عدي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ليسأله، فكره النبي -صلى الله عليه وسلم- المسائل وعابها، ثم جاء هلال بن أمية فسأل أيضاً، ورجع إليه عويمر العجلاني، وسأل بنفسه، فجاء الحكم وهو سؤال عن أمر واقع، لكن كان يتعلق بقضية كرهها النبي -صلى الله عليه وسلم- وهي قضيةٌ التحدث بها ليس بالأمر السهل، ولم ينزل آنذاك شيء فيما يتعلق بقذف الرجل لامرأته، فكره النبي -صلى الله عليه وسلم- المسائل وعابها، وإلا فإن الحكم الذي نزل لا شك أنه رحمة، وهو قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ}** [(٦) سورة النــــور] فقد جاء في الآيات ما يدل على أنه رحمة، قال تعالى: **{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ}** [(١٠) سورة النــــور] فهذا لا شك توسعة على الناس وإلا لحقهم حرج عظيم.

"وقوله تعالى: {أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ} [(١٠٨) سورة البقرة] أي: بل تريدون. أو هي على بابها في الاستفهام وهو إنكاري."

قوله: **{أَمْ تُرِيدُونَ}** [(١٠٨) سورة البقرة] (أم) هذه إما أن تكون استفهامية على بابها من قبيل الاستفهام الإنكاري فهو ينكر عليهم الأسئلة التي تكون على سبيل التكلف، كأن تقول لإنسان مثلاً: أتريد أن تكون بمنزلة فلان،

---

[٤] - أخرجه البخاري في كتاب الفتن - باب: كيف الأمر إذا لم تكن جماعة (٦٦٧٣) (ج ٦ / ص ٢٥٩٥٩) ومسلم في كتاب الإمارة - باب:وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة (١٨٤٧) (ج ٣ / ص ١٤٧٥).

أتريد أن يقع لك ما وقع لفلان، أم تريد أن يقع لك ما وقع لفلان؟، أو هي ليست على بابها فهي تكون بمعنى بل، يعني بل تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل، والمشهور هنا أنها بمعنى بل.

"وهو يعم المؤمنين والكافرين فإنه -عليه السلام- رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاء فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ} [(١٥٣) سورة النساء].

هذا من النوع الأول من الأسئلة الذي هو سؤال الآيات، والله أعلم.

"قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير."

على كل حال الشك في هذا لا يضر، لكن محمد بن أبي محمد الحافظ يقول عنه: إنه مجهول.

"عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رافع بن حُرَيْمَلَة -ووهب بن زيد."

قال رافع بن حُرَيْمَلَة ووهب بن زيد، فهنا ليس على سبيل الشك، ورافع بن حُرَيْمَلَة هذا هو ووهب بن زيد يهوديان.

"يا محمد، ائتنا بكتاب تُنزلُه علينا من السماء نقرأه، وفجر لنا أنهاراً نتبعك ونصدقك، فأنزل الله من قولهم: {أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ} [(١٠٨) سورة البقرة]."

هو ذكر هذا على أساس أنه سبب النزول، وهذا الأثر بعض أهل العلم يحسن هذا الإسناد من طريق محمد بن أبي محمد، والحافظ ابن حجر حسن هذه الرواية، ومحمد بن أبي محمد مجهول على كل حال.

ولو كان هذا هو سبب النزول فإن ذلك يكون قاطعاً بأن المراد بالسؤالات التكلف في طلب الآيات، ولا يمنع ذلك من دخول السؤالات عن الأحكام وما أشبه ذلك ضمن سبيل التكلف، لكن ذلك أصرح في الآية الأخرى، **{لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ}** [(١٠١) سورة المائدة].

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ}** [(١٠٨) سورة البقرة] سواء السبيل يعني الوسط من كل شيء، فهو يوصف بأنه سواء، يعني السبيل المستوية، وهذا من باب إضافة الصفة -سواء- إلى الموصوف -وهو السبيل- أي السبيل المعتدلة المستوية، والمعنى أنه ضل عن سبيل القصد أي الاعتدال، وذهب عن نهج الاعتدال والقصد.

"والمراد أن الله ذمَّ من سأل الرسولَ -صلى الله عليه وسلم- عن شَيء على وجه التعنُّت والاقتراح كما سألت بنو إسرائيل موسى -عليه السلام-، تعنتًا وتكذيبًا وعنادًا."

في أول تفسيره للآية ذكر ما يدل على كراهة السؤال عن الأحكام على سبيل التكلف، أو الأمور التي سكت عنها الشارع، وهنا ذكر المعنى الآخر.

" قال الله تعالى: {وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ} [(١٠٨) سورة البقرة] **أي: ومن يَشْتَرِ الكفر بالإيمان {فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ} أي: فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال، وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون**

إليها على وجه التعنت والكفر، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ* جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ} [(٢٨-٢٩) سورة إبراهيم] وقال أبو العالية: يتبدل الشدة بالرخاء."

قول أبي العالية في قوله تعالى: **{وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ}** قال: الشدة بالرخاء هذا قول يبعد أن تفسر به الآية، وإنما ضل سواء السبيل معناه انحرف عن نهج القصد والاعتدال، فالصراط المستقيم وسط بين طرفي الإفراط والتفريط ليس فيه اعوجاج، وحينما يفسر بالرخاء والشدة فهذا بعيد، والكفر معروف، ومن يتبدل الكفر بالإيمان، فقوله: الرخاء والشدة بعيد وقد استبعده ابن جرير إلا أنه وجهه على أن ذلك يحمل على الآخرة، أي أن الإيمان يؤدي إلى النعيم، والنعيم رخاء، والكفر يؤدي إلى العذاب، والعذاب شدة، فمن استبدل الكفر بالإيمان فمعنى ذلك أنه استبدل جزاء هذا بجزاء هذا، استبدل النعيم بالعذاب، هذا هو توجيه هذا القول لكنه مستبعد.

وقوله تعالى: **{وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ}** بمعنى قوله: **{اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى}** [(١٦) سورة البقرة] الذي سبق الحديث عنه، والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٤٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [(١٠٩-١١٠) سورة البقرة].

" يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم -صلى الله عليه وسلم- ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح، ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه.

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن كعب بن مالك -رضي الله تعالى عنه- أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يهجو النبي -صلى الله عليه وسلم- وفيه أنزل الله {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم} إلى قوله: {فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ} [(١٠٩) سورة البقرة].

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن رسولاً أمياً يخبرهم بما في أيديهم من الكتب والرسل والآيات، ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم، ولكنهم جحدوا ذلك كفراً وحسداً وبغياً؛ ولذلك قال الله تعالى: {كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} يقول: من بعد ما أضاء لهم الحق لم يجهلوا منه شيئاً ولكن الحسد حملهم على الجحود فعيرهم ووبخهم ولامهم أشد الملامة، وشرع لنبيه -صلى الله عليه وسلم- وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل الله عليهم وما أنزل من قبلهم، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم.

وقال الربيع بن أنس: {مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم} من قبل أنفسهم. وقال أبو العالية: {مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} من بعد ما تبين أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- رسول الله يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل فكفروا به حسداً وبغياً؛ إذ كان من غيرهم. وكذا قال قتادة والربيع بن أنس."

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الرواية التي ساقها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يهجو النبي -صلى الله عليه وسلم- وفيه أنزل الله: **{وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم..}** هذه الآية هل يقال: إن سبب نزولها هو ما وقع من كعب بن الأشرف بناء على ما مضى ذكره في درس سابق استناداً إلى قواعد أصول التفسير؟

لا يقال: إنه سبب النزول؛ لأنه غير صريح، وقلنا: إن غير الصريح أن يقول: نزلت هذه الآية في كذا، وفيه أنزل الله كذا، وما أشبه ذلك، يعني أنه مما يدخل في معناها مع أن الاحتمال قائم على أن ذلك من قبيل سبب النزول، لكن مثل هذا لا يجزم بأنه سبب النزول، ولا يقال سبب نزول هذه الآية هو كذا وكذا، مع أن الرواية ثابتة صحيحة، فهذه نزلت في هؤلاء اليهود ومنهم كعب بن الأشرف الذين حسدوا المسلمين على بعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، لكونه من الأميين، ولم يكن من الإسرائيليين، وذلك واقع لكعب بن الأشرف ولغيره ممن كذب بالنبي -صلى الله عليه وسلم-.

قوله -تبارك وتعالى-: {حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم} قال الربيع بن أنس: من قِبل أنفسهم، أي الحسد -على أحد التفسيرين- بمعنى أنه الحسد الناشئ من نفوس هؤلاء.

وقوله: {مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم} تحتمل أن تكون متعلقة بالفعل قبلها، وهو قوله: {وَدَّ} في أول الآية، {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم} أي هذا الأمر الذي هو محبتهم لكفركم وتمنيهم له ودّوه من عند أنفسهم، هذا احتمال.

والاحتمال الثاني أن يكون قوله: {مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم} عائداً إلى قوله: {حَسَدًا} وهو الأقرب، والله تعالى أعلم، وعليه يكون المعنى {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم} أي أن هذا الحسد ناشئ من نفوسهم، فهذا هو الأقرب في معناها وهو المتبادر إلى الذهن، والله تعالى أعلم.

"وقوله: {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} [(١٠٩) سورة البقرة] مثل قوله تعالى: {وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا} [(١٨٦) سورة آل عمران] الآية.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ} [(١٠٩) سورة البقرة] : نسخ ذلك قوله: {فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} [(٥) سورة التوبة]، وقوله: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ} [(٢٩) سورة التوبة] إلى قوله: {وَهُمْ صَاغِرُونَ} [(٢٩) سورة التوبة] فنسخ هذا عفوه عن المشركين.

وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدي: إنها منسوخة بآية السيف ويرشد إلى ذلك أيضًا قوله تعالى: {حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ} [(١٠٩) سورة البقرة]."

هذا القول قول معروف ومشهور وهو أن آية السيف وهي قوله في سورة براءة: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [(٥) سورة التوبة] يقولون: إنها نسخت مائة وأربعاً وعشرين آية، يقولون: كل آية فيها عفو أو صفح أو إعراض عن المشركين، فهي منسوخة بآية السيف، لا صفح ولا إعراض ولا عفو، وهذا وإن قال به كثير من السلف إلا أن الأرجح هو القول الآخر وهو أن هذه الآيات لم تنسخ بآية السيف، ولكنه يعمل بها في أوقات الضعف، فإذا كان وقت التمكن والقوة فعندئذ {فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} وفي أوقات الضعف والعجز وعدم القدرة على مجابهتهم فعندئذ العفو والصفح، والتحمل، والصبر، و الإعراض، مع الاشتغال بتحقيق العبودية لله -عز وجل- وإعداد القوة، فيشتغل الناس بمثل هذه الأمور من إصلاح الحال

وبناء النفس والاستقامة على أمر الله -عز وجل-، هذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم- في تفسير هذه الآية، {فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ} [(١٠٩) سورة البقرة].

وقوله: {حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ} يحتمل أن يكون هذا مثالاً على المُغيّا بغاية، وقد عرفنا أن المُغيّا بغاية ليس من قبيل النسخ، وقلنا: إن أشهر الأمثلة التي يمثلون بها هي قوله: {وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً} [(١٥) سورة النساء] وهنا قال: {حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ} [(١٠٩) سورة البقرة].

وأمر الله هو النصر، وإعزاز الدين، وغلبة المسلمين على أعدائهم، فيحتمل أن يكون هذا من قبيل المُغيّا بغاية فلا يكون من قبيل النسخ على فرض أن الآية مما وقع فيه التغيير بالحكم أصلاً، يعني لا عفو، إلى متى؟ حتى يأتي الله بأمره.

ولكن على القول الآخر الذي هو الأرجح أنه لا حاجة لأن يقال: إن هذا من المُغيّا بغاية ليُتلافى فيه موضوع النسخ، وإنما يقال: هذه الآيات محكمات، ففي وقت الضعف العفو، وفي وقت القوة القتل.

"وروى ابن أبي حاتم عن أسامة بن زيد -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: {فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٠٩) سورة البقرة]، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتأول من العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم بالقتل، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش، وهذا إسناده صحيح، ولم أره في شيء من الكتب الستة ولكن له أصل في الصحيحين عن أسامة بن زيد -رضي الله عنهما-."

في قوله -تبارك وتعالى-: {فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ} في الفرق بين العفو والصفح بعض أهل العلم يقول: العفو هو ترك المؤاخذة أي ترك العقوبة، والصفح أبلغ منه وهو إزالة أثر الإساءة من النفس، بحيث لا يبقى لها أثر.

ويمكن أن يقال -والله أعلم-: إن العفو هو إزالة أو ترك المؤاخذة، أو إزالة أثرها في النفوس من عفت الريح الأثر، فينمحي أثر الإساءة، والصفح هو الإعراض -من صفحة العنق- فإذا أعطاه صفحة العنق فمعناه أنه لم يقف عند إساءته، فالإنسان قد يعفو ولكنه يقف عند الإساءة فيعاتب أو يطلب الاعتذار، أو يقول: أنا عفوت عنك، أو يقول: لكن مثل هذا التصرف ما كان ينبغي أن يصدر منك، مثل هذا ما كان ينبغي كذا، وهكذا يبقى يعاتب المسيء مع أنه عفا لكنه لم يعرض عن الإساءة وعن المسيء .

فالعفو محو أثر الذنب والإساءة، والصفح أن يعرض عن هذا المسيء فلا يقف عند إساءته هذه.

وكما قلنا: إنه قد يحصل العفو، ولا يحصل الصفح، وهو شيء مشاهد حيث ترى الإنسان يقول: أنا عفوت عنك، لكن لماذا اجترأت على كذا، لماذا فعلت كذا، ولماذا؟ ويقول: أنا عفوت عنك، لكن أريد أن أوقفك على خطئك، وإساءتك وتقصيرك وكذا، فهذا لم يصفح، لكن لو قال له: أنا صفحت عنك، فما دام صفح فلا يصح منه أن يقف عند الإساءة ويذّكر بها، والله أعلم.

"وقوله تعالى: {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ} [(١١٠) سورة البقرة] يَحُثُهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم وتعود عليهم عاقبتُه يوم القيامة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة حتى يمكن لهم الله النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد {يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [(٥٢) سورة غافر]، ولهذا قال تعالى: {إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [(١١٠) سورة البقرة] يعني أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل ولا يضيع لديه، سواء كان خيراً أو شراً، فإنه سيجازي كل عامل بعمله.

{وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [(١١١-١١٣) سورة البقرة] يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا: {نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} [(١٨) سورة المائدة] فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ثم ينتقلون إلى الجنة وردَّ عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة، فقال: {تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ} [(١١١) سورة البقرة]، قال أبو العالية: أماني تمنوها على الله بغير حق. وكذا قال قتادة والربيع بن أنس، ثم قال: {قُلْ} أي: يا محمد {هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ} [(١١١) سورة البقرة] قال أبو العالية ومجاهد والسدي والربيع بن أنس: حجتكم، وقال قتادة: بينتكم على ذلك {إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(١١١) سورة البقرة] أي في ما تدعونه."

قوله تعالى: {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى} بيان لدعوى اليهود أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى.

و(أو) هذه هل هي للتخيير أو واو عطف يعني لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً ونصرانياً، أو أنها للتقسيم بمعنى أن كل طائفة قالت: لن يدخل الجنة إلا من كان من طائفتها حيث إن "أو" هذه تأتي لمعان فما المراد بها هنا؟

الجواب: (أو) هنا للتقسيم، وهذا لا بد منه؛ لأنه لا يمكن أن النصارى يقولون: لن يدخل الجنة إلا أن يكون يهودياً أو نصرانياً؛ لأنهم يكفرون اليهود، والعكس كذلك، وإنما قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، فقال الله -عز وجل-: {وَقَالُواْ} أي اليهود والنصارى: {لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى} إلا من كان يهودياً أو نصرانياً.

وقوله: {هُوداً} يحتمل أن يكون جمع هائد وهو التائب العائد من الذنب الراجع عن إساءته، فيكون بهذا الاعتبار جمع هائد، تقول: هاد يهود، أي رجع يرجع، كما قيل: يا صاحب الذنب هُدْ هُدْ، أي: ارجع ارجع.

ويحتمل أن يكون {إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً} بمعنى إلا من كان يهودياً، ويحتمل أن يكون مصدراً، والله تعالى أعلم، ولا شك أن المراد به اليهودي؛ لأنه ذكر النصارى سواء قيل: أصل هوداً من هاد يهود، أو أن أصله مصدر، أو أن هوداً بمعنى يهودي.

لما قالوا: {لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى} رد الله عليهم بثلاثة أشياء حيث قال: {تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ} [(١١١) سورة البقرة]، وأيضاً طالبهم بالدليل فقال: {قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ} [(١١١) سورة البقرة]، ثم قال:{بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ} [(١١٢) سورة البقرة] فهذه ثلاثة أشياء، وقد سبقت قاعدة في هذا النوع وهي حينما يحكي القرآن أقوال القائلين، فهو إما أن يسكت عنها، وإما أن يذكر عقبه ما يدل على ردها وبطلانها، وهذا منه، فهنا أشار إلى بطلان هذه المقالة بثلاثة أمور: {تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ} [(١١١) سورة البقرة]، {قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ} [(١١١) سورة البقرة]، {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ} [(١١٢) سورة البقرة]، فهذه الأمور التي تحكى في القرآن، إما أن يأتي ما يدل على بطلانها أو يسكت عنها، وما سكت عنه فالغالب أن ذلك يكون من قبيل الإقرار له، وقلنا مثاله: عدد أصحاب الكهف، لما ذكر الأقوال الباطلة: {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم} [(٢٢) سورة الكهف] فما أشار إلى رد هذا القول وتوهينه.

وقد يذكر شيئين مما يذكرونه فيرد أحدهما ويبقي الآخر مثل: {وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [(٢٨) سورة الأعراف]، فهو رد عليهم ادعاءهم أن الله يأمر بالفحشاء وسكت عن الثانية التي هي دعواهم أنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون، وهو إقرار بأن ذلك صحيح، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٤٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر –رحمه الله تعالى-: "ثم قال تعالى: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ} [(١١٢) سورة البقرة] أي: من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: {فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} [(٢٠) سورة آل عمران] الآية.

وقال أبو العالية والربيع: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّه} يقول: من أخلص لله، وقال سعيد بن جبير: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ} أخلص، {وَجْهَهُ} قال: دينه، {وَهُوَ مُحْسِنٌ} أي: اتبع فيه الرسول –صلى الله عليه وسلم- فإن للعمل المتقبل شرطين: أحدهما: أن يكون خالصًا لله وحده، والآخر: أن يكون صوابًا موافقاً للشريعة، فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل؛ ولهذا قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: ((من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد))[1] [رواه مسلم]."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله –تبارك وتعالى-: **{بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ}** [(١١٢) سورة البقرة] نقل عن الربيع وأبي العالية، قال: **{مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ}** أي: أخلص لله، وهذا التفسير للآية إنما هو تفسير لها بمضمونها والمعنى الذي سيقت لتقريره وهو الإخلاص.

{مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ} قال سعيد بن جبير: دينه، فمعنى أسلم وجهه: أسلم دينه، أي كان مخلصاً لله –عز وجل- في عمله، ولهذا قال بعضهم: **{أَسْلَمَ وَجْهَهُ}** أي من جهة القصد، أسلم مقصده لله –عز وجل- يعني كان مقصده واحداً.

هذه العبارات التي يقولونها في تفسير هذه الآية لم يذكر فيها صفة الوجه لله –عز وجل- وإنما هذه العبارات وغيرها من العبارات التي تذكر في تفسير هذه الآية تدور حول هذا المعنى، ويمكن أن تفسر بالإخلاص وتوحيد القصد، **{أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّه}** أي كان مخلصاً لله في توجهه وفي مقصده وعمله وهذا الذي قال به كثيرون، فهل يعد ذلك من قبيل التأويل في التفسير؟

لا، ليس من قبيل التأويل؛ لأن الوجه يأتي بمعنى الوِجهة والقصد، وسيأتي في قوله –تبارك وتعالى-: **{فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ}** [(١١٥) سورة البقرة]، قول من قال من السلف: إنها ليست من آيات الصفات أصلاً، فالمقصود أن هذا ليس من قبيل التأويل؛ لأن المقصود بالوجه الوجهة، تقول: أنا أريد هذا الوجه، يعني هذه الوجهة، فـ**{مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ}** أي كان مخلصاً في عمله ومن كان موحداً لمقصده، ولهذا قال ابن جرير: **{مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ}** قال: من أسلم بدنه وخضع لله بالطاعة جسدُه، يعني بلى من أخلص طاعته لله وعبادته كان مخلصاً فيها لله –تبارك وتعالى- فهذا هو المراد، وهي كما قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله-: تضمنت

[1] - صحيح مسلم في كتاب الأقضية - باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨) (ج ٣ / ص ١٣٤٣).

شرطي قبول العمل، {مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ} من أخلص وجهه، {وَهُوَ مُحْسِنٌ}، يعني متابع للنبي –صلى الله عليه وسلم–، وكما في أول سورة الكهف: {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ} [(٢) سورة الكهف] حيث ذكر الإيمان والعمل الصالح، والعمل الصالح لا يكون صالحاً إلا إذا كان خالصاً صواباً، فهذه الآية في أول سورة الكهف تضمنت ثلاثة شروط لقبول العمل وهي: الإيمان والإخلاص، والمتابعة، وكذلك في آخر سورة الكهف، {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [(١١٠) سورة الكهف]، فلا بد أن يكون العمل على قاعدة صحيحة، وعلى إيمان صحيح، ولا بد أن يكون صاحبه مخلصاً ولا بد أن يكون العمل صواباً، فهذه ثلاثة شروط، فلو جاء اليهودي أو عابد القبر وصلى صلاة موافقة لصلاة النبي –صلى الله عليه وسلم– وهو مخلص فيها لربه، هل تقبل صلاته؟ لا تقبل؟ لأنه فقد الشرط الأول لأنه ليس بمؤمن، قال تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا} [(٢٣) سورة الفرقان]، .

"فعمل الرهبان ومن شابههم –وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله– فإنه لا يتقبل منهم، حتى يكون ذلك متابعاً للرسول –صلى الله عليه وسلم– المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا} [(٢٣) سورة الفرقان]، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا} [(٣٩) سورة النـــــور]، وقال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ* عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ* تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً* تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ} [(٢-٥) سورة الغاشية].

وأما إن كان العمل موافقًا للشريعة في الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضًا مردود على فاعله، وهذا حال المرائين والمنافقين كما قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً} [(١٤٢) سورة النساء]، وقال تعالى: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ* الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ* وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} [(٤-٧) سورة الماعون] ولهذا قال تعالى: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [(١١٠) سورة الكهف] وقال في هذه الآية الكريمة: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ} [(١١٢) سورة البقرة].

وقوله: {فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(١١٢) سورة البقرة] ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور، وآمنهم مما يخافونه من المحذور فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه {وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} على ما مضى مما يتركونه، كما قال سعيد بن جبير: فلا خوف عليهم يعني: في الآخرة {وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} يعني: لا يحزنون للموت."

الخوف هو الغم من أمر مستقبل، والحزن هو الغم من أمر فائت، وقد يستعمل الحزن بمعنى الخوف، ويمكن أن يفسر به قوله –تبارك وتعالى– عن أهل الجنة حينما دخلوها: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} [(٣٤) سورة فاطر] فيمكن أن يكون ذلك بمعنى الخوف، فالمقصود أن الله –عز وجل– قال هنا: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} [(١١٢) سورة البقرة] يلاحظ أنه أعاد الضمير بصيغة الجمع، وما قبله كان على سبيل الإفراد، فكيف ساغ إعادة ضمير الجمع على المفرد، وهذا يتكرر في القرآن كثيراً، وهذا مثال من أمثلته، فما الجواب عليه؟

لفظة "من" في قوله: {مَنْ أَسْلَمَ} شرطية وأسماء الشرط من صيغ العموم وإذا كانت "من" تستعمل للواحد فأكثر فإن معناها الجمع، فلوحظ فيها في هذا الموضع المعنى، وتجد في بعض المواضع يعاد الضمير إليها بالإفراد مراعاةً للفظها، ولهذا قال بعدها: {مَنْ أَسْلَمَ} ولم يقل: من أسلموا، وقال: {وَهُوَ مُحْسِنٌ} جاء به مفرداً ولم يقل: وهم محسنون، كل ذلك مراعاة للفظ (من) فإن لفظها مفرد ومعناها الجمع، فقوله: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ} [(١١٢) سورة البقرة] يشمل الواحد والكثير.

"وقوله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ} [(١١٣) سورة البقرة] بين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم، كما روى محمد ابن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أتتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال رافع بن حُرَيْملة: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى وبالإنجيل.

وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله في ذلك من قولهما: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ} [(١١٣) سورة البقرة]."

على كل حال هذه الرواية فيها ضعف، و المقصود أن الله -عز وجل- عابهم على هذا، وهذه الآية يستعان بها في تفسير الآية السابقة، وهي قوله تعالى: {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى} [(١١١) سورة البقرة] فهي تدل على أن (أو) للتقسيم كما سبق، فاليهود يكفرون النصارى والنصارى يكفرون اليهود، فلا يمكن أن تقول طائفة عن الطائفة الأخرى إنها ناجية.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ} [(١١٣) سورة البقرة] أي أنهم ليسوا على شيء معتبر، يُعْبَه به، وهم لا شك أنهم على شيء، وهو النصرانية أو الباطل، ولكن نفي الشيء في لغة العرب يأتي أحياناً لهذا المعنى وهو كثير ومعروف في كلامهم، تقول: فلان ليس على شيء بمعنى أنه ليس على أمر يعتد به، فلان ما عنده شيء، يعني ما عنده ما يعتد به، ما عنده شيء يكترث به، ويعتد به، وهكذا.

قوله: {وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ} هذا عيب لهم فهؤلاء يتلون الكتاب ويجدون فيه أن عيسى -صلى الله عليه وسلم- نبي من عند الله حق، والنصارى يتلون في كتابهم أيضاً أن موسى -صلى الله عليه وسلم- نبي الله وأن التوراة هي الشرع الذي تعبدهم الله -عز وجل- به إلا ما نسخ منه ومع ذلك يكابرون، فالمقصود أن هذه الجملة وهي قوله: {وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ} هي نعي عليهم ومزيد ذم لهم أنهم لم يقولوا ذلك من جهل، وأنهم لم يطلعوا على خلافه، وإنما قالوه وهم مطلعون على ما فيه، ويؤخذ من هذه الآية أن الذم المتوجه إلى هذه الأمة ممن يشتغل بالعلم ويطلع على ما لا يطلع عليه غيره من قضايا العلم ثم يتكلم بخلاف ذلك، أو يقع في أمور يدعوه إلى الوقوع فيها هواه من أمور يختلف فيها مع الناس ويقع التفرق والتناحر، وهم يتلون الكتاب ويرون دلائل الحق فيه واضحة، فتحركهم أهواؤهم فلا شك أن ذلك أعظم جرماً ممن وقع في مثل هذه الأمور جهلاً منه؛ لأن ذلك لم يبلغه فيه سوى ما تكلم به واعتقده، فالذين يتلون الكتاب من طلاب العلم

جرمهم أعظم من غيرهم حينما يحيدون عنه، ويكونون متابعين لأهوائهم ويتكلمون بالهوى في الطعن بغيرهم، وتخطئتهم وما أشبه ذلك، وهم يعلمون أن ذلك من الحق، أو أنه مما يسوغ فيه هذا الاختلاف، أو أن ذلك كله من دين الله -عز وجل- كما يحصل في التفرق بين الأمة بسبب تنوع أعمال البر، فهذا يقول: هذا ليس على شيء، وهذا يقول: هذا ليس على شيء؛ لأن هذا يشتغل بإطعام الجوعى وكفالة الأيتام، وهذا يشتغل بالعلم، وهذا يشتغل بالجهاد، وهذا يشتغل بغير ذلك من القضايا المعتبرة في دين الله -عز وجل- ومن الأعمال الصالحة، فهذا يشبه هذا، فلا يجوز للإنسان أن يقع فيه.

"قال: إن كلاً يتلو في كتابه تصديق من كفر به، أي: يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما في يد صاحبه.

وقوله تعالى: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ} [(١١٣) سورة البقرة] يبين بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا من القول، وهذا من باب الإيماء والإشارة.

وقد اختلف في من عنى بقوله تعالى: {الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} فقال الربيع بن أنس وقتادة: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} قالا: وقالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم.

وقال ابن جُرَيج: قلت لعطاء: من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال: أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل.

وقال السدي: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} فهم: العرب، قالوا: ليس محمد -صلى الله عليه وسلم- على شيء، واختار أبو جعفر بن جرير أنها عامة تصلح للجميع، وليس ثمَّ دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال، فالحمل على الجميع أولى، والله أعلم."

قوله تعالى: **{كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ}** بين بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا من القول، وهذا من باب الإيماء والإشارة، بمعنى أن هؤلاء حينما قالوا: هؤلاء ليسوا على شيء، وأن هؤلاء قالوا: ليس هؤلاء على شيء، ثم قال: **{كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ}** إذا قلنا: إن الذين لا يعلمون هنا هم العرب مثلاً فإن هذا يعني أيضاً نسبة هذا الوصف إلى اليهود والنصارى؛ لأن هذا إنما يفعله من لا يعلم، سواء كان لا يعلم أصلاً، أو كان لا يعلم علماً ينفعه.

فقوله: **من باب التنبيه والإشارة**، العبارة هنا لا يريد بها بدقة ما يريده الأصوليون؛ لأنه جمع فيها هنا بين دلالة التنبيه وبين دلالة الإشارة وهما نوعان متغايران، فدلالة الإيماء والتنبيه، هذا نوع، وهي أن يقرن الحكم بوصف لو لم يكن علةً له لكان ذلك عيباً عند العقلاء.

فهنا يمكن أن يخرج هذا على أنه من دلالة التنبيه، فمثلاً، يمكن أن يكون هذا الفعل الصادر إنما كان بسبب الجهل بنوعيه، إما الجهل لأن الإنسان لم يبلغه أو أنه لم ينتفع بما علم فكأنه لم يعلم، فيكون ذلك من قبيل دلالة التنبيه، وبهذا الاعتبار يمكن أن يخرج على الدلالة المعروفة عند الأصوليين فيكون قوله: **{وَقَالَتِ الْيَهُودُ} {وَقَالَتِ النَّصَارَى}** ثم قوله: **{كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ}** [(١١٣) سورة البقرة] فيه تنبيه وإيماء إلى أن هذا الذي صدر إنما هو من قلة العلم وأن من صدر منه مثل ذلك فهو متصف بهذا الوصف الذي هو قلة

العلم، أو عدمه {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ} [(١١٣) سورة البقرة] وأما المقصود بالإشارة هنا في كلامه -والله أعلم- فهو معنىً أعم مما يقصده الأصوليون أو مما يقصده المفسرون بما يسمى بالتفسير الإشاري، فهو لا يقصد هذا، لكن من باب التنبيه والإشارة أي أنه يشير كما نستعمل في كلامنا عادة، فنقول: هذه الآية فيها إشارة إلى أن الذين صدر منهم ذلك أنهم لا يعلمون؛ لأنه قال: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ} [(١١٣) سورة البقرة]، وأما دلالة الإشارة عند الأصوليين فهي معروفة

وهي إشارة اللفظ لما   لم يكن القصد له قد علما

أي إشارته إلى معنىً لم يكن مقصوداً للمتكلم حينما تكلم بهذا الكلام مثل قوله -تبارك وتعالى-: {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ} [(١٨٧) سورة البقرة] لما ذكر: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ} [(١٨٧) سورة البقرة] فمعنى ذلك أنه يحل له أن يجامع إلى آخر جزء من الليل، فمتى يبقى وقت الغسل؟ لا شك أن الجنابة ستبقى إلى ما بعد طلوع الفجر، فالآية ما جاءت لتقرير أن الصوم يصح مع وجود الجنابة، لكن هذا من قبيل دلالة الإشارة، وعلى كل حال يمكن أن يناقش هذا الكلام الذي قاله الحافظ ابن كثير لكن لا أحب الجدل.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٤٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [(١١٣) سورة البقرة] "أي: إنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد ويفصل بينهم بقضائه العدل الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة.

وهذا الآية كقوله تعالى في سورة الحج: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [(١٧) سورة الحـج]، وكما قال تعالى: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} [(٢٦) سورة سبأ].

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [(١١٤) سورة البقرة].

المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعَوا في خرابها هم مشركو قريش كما رواه ابن جرير عن ابن زيد في قوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا} قال: هؤلاء المشركون الذين حالوا بين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم الحديبية وبين أن يدخلوا مكة حتى نحر هديه بذي طُوَى وهادنهم، وقال لهم: ما كان أحد يصد عن هذا البيت وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده. فقالوا: لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} الاستفهام هنا بمعنى الإنكار، وهو مضمن معنى النفي، بمعنى لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله.

وفي قوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا} [(٢١) سورة الأنعام] المعنى لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، ومثل ذلك قوله -تبارك وتعالى-: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ} [(١٥٧) سورة الأنعام].

ووجه الجمع بين هذه الآيات أن يقال: تشترك هذه الآيات في أن كل آية منها تقول: لا أحد أظلم ممن فعل هذا الفعل، على أن كلاً منها تكون مختصة بباب معين، ففي باب الافتراء لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، وفي المنع من دخول المساجد لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وهكذا كل واحدة مختصة بالباب الذي ذكرت فيه، هذا جواب لكيفية الجمع بين هذه الآيات.

والجواب الثاني أن يقال: إن القاعدة في هذا هي أن أفعل التفضيل تمنع من الزيادة ولا تمنع من التساوي، فإذا قلت: زيد أكرم الناس، ثم بعد مدة قلت: عمرو أكرم الناس، فالمقصود أنه فاق غيره في هذا، أي أن أصل أفعل التفضيل في اثنين اشتركا في صفة وزاد أحدهما على الآخر، زيد أكرم من عمرو، فإذا قلت: زيد أكرم الناس، فهذا لا ينفي أن يكون أحد من الناس يماثله في الكرم، ويساويه، لكن لا يزيد عليه، فإذا قلت: لا أحد

أظلم ممن فعل هذا الفعل فإنه لا يفوقه أحد من الناس، ولكن لا يمنع ذلك من وجود من يساويه، فيكون بهذا الاعتبار، ومن أظلم، لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، ولا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، ولا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله -تبارك وتعالى- فكلهم متساوون إذ بلغوا الغاية العظمى في الظلم لكن لا يزيد أحدهم على الآخر.

قوله: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ}** [(١١٤) سورة البقرة] أي لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، هذه الآية عامة تصف من وقع منه هذا الفعل بأنه وقع في أعظم الظلم، ولم يحدد ربنا -تبارك وتعالى- فيها طائفة دون طائفة فيصدق ذلك على المشركين حينما منعوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويصدق على كل من وقع منه هذا الفعل، ومن هؤلاء الذين وقع منهم ذلك النصارى حينما أعانوا بختنصَّر على خراب بيت المقدس وحتى بعد أن رحل عنه وأخذ أشراف اليهود وكبراءهم بعد أن قتل فيهم قتلاً ذريعاً بقي هؤلاء النصارى يمنعون اليهود من دخول المسجد، ولا يمكنونهم من ذكر الله -عز وجل- والصلاة فيه.

وابن جرير الطبري -رحمه الله- يرى أن هذه الآيات في بني إسرائيل عموماً، منها ما يتحدث عن اليهود خاصة، ومنها ما يتحدث عن النصارى، فيرى أن هذه الآية في النصارى وليست في مشركي العرب، والقرينة التي يحتج بها هي قوله -تبارك وتعالى- في نفس الآية: **{وَسَعَى فِي خَرَابِهَا}** [(١١٤) سورة البقرة] وقال: إن العرب من المشركين لم يخربوا الكعبة ولم يسعوا في خراب عمرانها بل على عكس ذلك، فهم كانوا يعمرونها ويكسونها ويطيبونها، ويسقون الحجاج ويطعمونهم، إلى غير ذلك مما عرف عنهم من القيام على الوظائف في الحج.

والخراب في قوله تعالى: **{وَسَعَى فِي خَرَابِهَا}** يشمل الخراب الحسي والخراب المعنوي، فالخراب الحسي بهدم بنيانها وتعطيلها أو الحيلولة دون تجديد ما تقادم عهده منها وانهدَّ بنيانه، وكذلك الخراب المعنوي بمنع ذكر الله -عز وجل- فيها، وبمنع الصلاة، وبتعطيل وظيفة المسجد، كل ذلك من السعي في خرابها، فهو يشمل هذا وهذا، وبالتالي فإن هذه الآية عامة وممن يدخل فيها النصارى، ويدخل فيها أيضاً أهل الشرك، إذ إنهم لم يعمروها حقيقة وإنما عمروا بنيانها مع أن العمارة الأهم والأعظم هي عمارتها بذكر الله -عز وجل- كما قال سبحانه: **{فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ}** [(٣٦) سورة النـــور]، وكما قال: **{إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ}** [(١٨) سورة التوبة]، وقال تعالى: **{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ}** [(١٧) سورة التوبة]، وهذه الآية في أهل الإشراك.

المقصود أن الآية عامة ويدخل فيها النصارى، وهذه الرواية المذكورة في قصة المشركين هي عن ابن زيد وابن زيد لم يدرك شيئاً من ذلك، فهي من قبيل المرسل، والمرسل نوع من الضعيف.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ}** [(١١٤) سورة البقرة] المساجد في الأصل هي موضع السجود، فأماكن الصلاة يقال لها مساجد.

وقوله: **{أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ}** [(١١٤) سورة البقرة] يمكن أن يكون بدلاً من المساجد -هذا احتمال- ويمكن أن يكون مفعولاً له، أي منع مساجد الله كراهية أن يذكر فيها اسمه.

وأوضح من هذا أن يقال -والله أعلم-: إن التقدير ومن أظلم ممن منع مساجد الله من أن يذكر فيها اسمه، هذا أوضح هذه التقديرات، ولعله هو المتبادر لهذه الآية والله تعالى أعلم، وقيل غير هذا على كل حال، والله أعلم.

"وفي قوله: {وَسَعَى فِي خَرَابِهَا} [(١١٤) سورة البقرة] قال: إذ قطعوا من يعمرها بذكره ويأتيها للحج والعمرة.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن قُرَيشاً منعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام فأنزل الله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} [(١١٤) سورة البقرة]."

على هذا يكون الخراب معنوي، وعلى كل حال هذه الرواية لا تخلو من ضعف، ولا شك أن المشركين سعوا في خرابها حينما منعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام، وكان ذلك في وقعة الحديبية المشهورة.

وأما كلام ابن جرير -رحمه الله- فهو كما ذكرنا أن السياق كله في بني إسرائيل ابتداء من قوله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ} [(٣٤) سورة البقرة] وأنها كلها تذكير لبني إسرائيل فهو يرى أن الآيات غير خارجة عن الحديث عن بني إسرائيل بطائفتيهم اليهود والنصارى، وعليه فهذه الآية في النصارى حينما منعوا اليهود على قوله -رحمه الله- فهو يحتج بالسياق ويحتج بقوله تعالى: {وَسَعَى فِي خَرَابِهَا} [(١١٤) سورة البقرة].

"لما وجه الله تعالى الذم في حق اليهود والنصارى شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه من مكة ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم، كما قال تعالى: {وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [(٣٤) سورة الأنفال]، وقال تعالى: {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ* إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [(١٧-١٨) سورة التوبة] وقال تعالى: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [(٢٥) سورة الفتح]، فقال تعالى: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ} [(١٨) سورة التوبة] فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها مصدوداً عنها، فأي خراب لها أعظم من ذلك؟ وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك."

لا ينكر أن عمارة المساجد تكون بالأمرين، العمارة الحسية، والعمارة المعنوية، وإلا ما فائدة المساجد إذا كان لا يدخلها داخل؟.

"وقوله تعالى: {أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ} [(١١٤) سورة البقرة] هذا خبر معناه الطلب، أي لا تُمَكِّنوا هؤلاء -إذا قَدَرتُم عليهم- من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية، ولهذا لما فتح رسولُ الله -صلى

الله عليه وسلم- مكة أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادى برحاب منى: **((ألا لا يَحُجَّن بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عُريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته))**[1]."

يعني من كان له عهد فعهده إلى مدته.

هذه الآية: **{أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ}** هي في المانعين من المشركين، بمعنى أن هؤلاء -أعني أهل الإشراك- ليس لهم ولا يحق بحال من الأحوال أن يهيمنوا على المساجد، وأن يمنعوا الناس من إقامة ذكر الله -عز وجل- فيها، بل على العكس، ليس الشأن أن يتحكموا هم في المساجد ويعطلوا عمارتها وإنما الشأن أن القضية تكون منعكسة، فالواحد من هؤلاء لا يتمكن من دخول المسجد إلا في حال الخوف والترقب، لا أن يكون متمكناً يمنع الناس منها ويتسلط عليها، ويسيطر فيسعى في خرابها، ويمنع من شاء، ويفعل ما شاء، ليس لهم أن يبلغوا هذا المبلغ، وإنما الشأن أنهم ليسوا بأهل في دخولها إلا في حال واحدة هي أن الواحد منهم يدخل وهو في غاية الترقب والخوف والحذر؛ لأنه قد دخل في عرين الأسد، فالمسجد هو عرين الأسد، وهو موضع القيادة، وهو الذي تعقد فيه الألوية، وتقام فيه الخطب، وينهل فيه من ميراث النبوة، فهو بمنزلة القلب النابض في المجتمع الإسلامي أو في الحي الإسلامي، أو في المدينة الإسلامية، فلا يتجرأ الواحد من هؤلاء الأنجاس كما قال تعالى: **{إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ}** [(٢٨) سورة التوبة] أن يدخل هذه المساجد فيقذرها بدخوله، وإنما يدخل وهو في وجل وخوف أنه دخل في مكان له هذه المنزلة والأهمية والمكانة عند المسلمين، فيدخل في حال العهد أو الهدنة أو الجزية كما أدخل النبي -صلى الله عليه وسلم- وفد نصارى نجران إلى المسجد للتفاوض معهم ودعوتهم للإسلام حتى دعاهم إلى المباهلة، وكذلك ربط ثمامة بن أثال في المسجد، وكان مشركاً، فما ظنك بمن يربط في سارية من سواري المسجد هل يكون متحكماً فيه ويكون مهيمناً ومسيطراً عليه؟

الجواب لا، فهذا هو حق أهل الإشراك، وقدرهم ومنزلتهم، لا يدخلونها إلا في هذه الحالة، لا أنهم يفرضون سيطرتهم عليه، **{أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ}** [(١١٤) سورة البقرة] كما هو الحال في اليهود اليوم، فهم الذين يتصرفون ويتحكمون في المسجد الأقصى، فتارة يمنعون صلاة الجمعة فيه، وتارة يمنعون صلاة التراويح، وتارة يقفون دون الناس في الصلاة المكتوبة؛ لئلا يدخلوا فيه، وتارة يدخلونه فينجسونه ويقذرونه بدخولهم هذا.

وأما مسألة دخول المشرك إلى المسجد فليست محل البحث هنا، لكن الراجح أنه يجوز للمشركين أن يدخلوا المساجد حتى المسجد النبوي، لكن هذا الدخول كما قال الله -عز وجل-: **{أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ}** [(١١٤) سورة البقرة]، فلا بأس أن يدخل لإصلاح شيء في المسجد، ولا بأس أن يكون بعض العمال ممن بنى المسجد من المشركين، لا إشكال فالعامل أجير، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ربط ثمامة بن أثال في المسجد، وأدخل وفد نصارى نجران في المسجد، إلا المسجد الحرام، **{إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ}** [(٢٨) سورة التوبة] والمقصود به أرض الحرم جميعاً وليس فقط بناء المسجد.

---

[1] - أخرجه أحمد (ج ١ / ص ٣) والدارمي (ج ١ / ص ٣٩٣) وأصله في الصحيحين.

فهذه الآية من حيث الصيغة خبر **{أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ}** [(١١٤) سورة البقرة] وهي متضمنة لمعنى الطلب، بمعنى لا تمكنوهم من دخولها إلا في هذه الحال، فمن الأحوال التي ينبغي أن يمنعوا منها هذا التسكع الذي يقع في مشارق الأرض ومغاربها، حيث يتسكعون وهم عراة، حيث توجد مساجد لها منزلة في قلوب المسلمين يأتي السواح يتفرجون عليها كما هو مشاهد في المسجد الأموي وغير المسجد الأموي في شرق الأرض وغربها إذ تعتبر هذه المساجد من المعالم السياحية فيأتونها مع نسائهم في غاية العري والتبرج ومعهم الكاميرات ويدخلون بأحذيتهم، فكل واحد يدخل وهو مع كلبته يتفرجون ويتسكعون في أرجاء المسجد، فليس لهم ذلك، وينبغي أن يمنعوا منه؛ فالآية خبر بمعنى الطلب، ولا شك أن الطلب في الآية أمر شرعي وليس قدري؛ إذ لو كان المقصود بالطلب الأمر القدري ما كان دخلها أحد من المشركين؛ فالمقصود أنه أمر شرعي لأهل الإيمان أن لا يمكنوا أهل الإشراك إلا في هذه الحال.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا}** [(٩٧) سورة آل عمران] هذا خبر وهو بمعنى الأمر، إذ هو أمر بتأمين من دخل المسجد الحرام وعدم الاعتداء عليه، فهو أمر شرعي أيضاً، لكن هل ذلك أيضاً واقع من جهة القدر؟

بعض أهل العلم يقول: نعم؛ بدليل أن الله -عز وجل- قال: **{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ}** [(٦٧) سورة العنكبوت]، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٤٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ} [(١١٤) سورة البقرة] قال: "وهذا إنما كان تصديقاً وعملاً بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} [(٢٨) سورة التوبة] وقيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيُظْهِرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم.

وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، وأوصى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان، وأن يجلى اليهود والنصارى منها، ولله الحمد والمنة.

وما ذاك إلا لتشريف أكناف المسجد الحرام وتطهير البقعة التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً -صلوات الله وسلامه عليه- وهذا هو الخزي لهم في الدنيا؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام صُدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة أجلوا عنها {وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [(١١٤) سورة البقرة] على ما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه من نصب الأصنام حوله، ودعاء غير الله عنده والطواف به عُرْيًا، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله.

وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة كما روى الإمام أحمد عن بُسْر بن أرطاة -رضي الله تعالى عنه- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يدعو: ((اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة))[1] وهذا حديث حسن."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فخلاصة ما يقال في هذه الآية، هو أن من أهل العلم من يرى أنها بصيغة الخبر، الذي بمعنى الأمر، فقوله: **{أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ}** الصيغة خبرية ومعناها الطلب، أي لا تمكنوهم من دخولها إلا في مثل هذه الحال.

وعلى كل حال معنى هذا الخبر أن هؤلاء الكفار ليسوا بأهل أن يتحكموا وأن يتولوا شأن المسجد، فيُدخلوا فيه من شاءوا ويمنعوا من شاءوا، وإنما الشأن أن هؤلاء ليسوا بأوليائه إنما أولياؤه المتقون، ومن ثم فإن حق هؤلاء هو الإبعاد والإذلال، وأنهم لا يجترئون على هذه المساجد بالدخول فضلاً عن العبث والسيطرة والتحكم في شئونها، فهذا هو المعنى الأول، والمعنى الثاني أن ذلك من قبيل البشارة، فقوله: **{أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ}** فيه إخبار عن أمر مستقبل سيقع، فتكون الآية بهذا الاعتبار بمعنى الخبر لكنه خبر عن أمر مستقبل، فعلى كل حال المعنى الأول أقرب، والله تعالى أعلم.

---

[1] - أخرجه أحمد (ج ٤ / ص ١٨١) وابن حبان (ج ٣ / ص ٢٢٩) وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده حسن.

ولو قال قائل: إن ذلك الخبر الذي بمعنى الطلب مضمن معنى البشارة فإن ذلك لا يبعد، وهو أولى من القول بأنه خبر محض عن أمر غيبي فهو في حقيقته بشارة لأهل الإيمان بما سيحصل لهم من التمكين والغلبة، وقد تحقق ذلك.

لكن الآية -والله تعالى أعلم- تبين حق هؤلاء الكفار الذي ينبغي أن يكون، وهو أنهم في مرتبة دون هذا الذي ارتقوا إليه من التسلط على المساجد والقيام عليها بصد الناس عن المسجد الحرام.

قال تعالى: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [(٢٥) سورة الفتح] هذا في المشركين وكذلك في النصارى حينما دخلت دولة الرومان في النصرانية، وإن شئت أن تقول: حينما أُدخلت النصرانية إلى وثنية الرومان وذلك باعتناق قسطنطين النصرانية محملاً بوثنيته فأفسدها وحصل ما حصل من تسلط الرومان على اليهود ومن قتلهم، وما وقع بعد ذلك من اجتياح بختنصر لبيت المقدس وخراب المسجد الأقصى فأعانه الرومان على ذلك.

"{وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [(١١٥) سورة البقرة] وهذا -والله أعلم- فيه تسلية للرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضي الله تعالى عنهم- الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومُصَلاهم."

ابن كثير -رحمه الله- هنا يتحدث عن المناسبة بين هذه الآية والتي قبلها باعتبار أن الآية السابقة في المشركين وهي قوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ} [(١١٤) سورة البقرة]، أي: أن المشركين منعوا المسلمين من المسجد الحرام، فيقول: ثم سلى الله -عز وجل- أهل الإيمان لما صُدوا عن المسجد الحرام بأن لله المشرق والمغرب وذلك لتخفيف أثر هذا المنع والصد في نفوسهم.

فهذا باعتبار أن الآية السابقة للمشركين، لكن من قال إن الآية السابقة في النصارى كابن جرير -رحمه الله- كيف يربط بين هذه الآية والتي قبلها؟ يعني ومن أظلم من النصارى الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، إلى آخره، ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا وجوهكم فاذكروه، ولا يمنعكم تخريب بيت المقدس من أن تذكروا الله حيث كنتم فإن ذكر الله -عز وجل- لا يختص بمحل دون محل، فعلى هذا تكون هذه الآية عقب ما حصل من النصارى على قول ابن جرير من إخراب المسجد الأقصى، وإعانة بختنصر على ذلك ومنع اليهود منه، أن الله -عز وجل- قال: لا يكن ذلك -أي الصد وإخراب المسجد الأقصى- سبباً مانعاً من القيام بوظائف العبودية، فإن الله -عز وجل- يعبد في كل مكان {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} [(١١٥) سورة البقرة] هذا إذا ربطنا بين الآية وبين التي قبلها.

ولكن إذا نظرنا إلى أسباب نزول الآية الثانية فهي في التوجه والاستقبال وليس في فعل العبادة في محل دون محل، وهذا مع اختلاف الروايات وتنوعها في سبب نزول الآية كما سأشير إليه بعد قليل إن شاء الله.

فالآية الأولى في المنع من التعبد لله -عز وجل- في المساجد وإخراب المساجد بتعطيل ذكر الله -عز وجل- فيها، أو إخراب عمارتها، والآية الثانية في التوجه، وذلك أن لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله، فيمكن أن لا نربط بين الآيتين فنقول: هذه آية نازلة في سبب، وتلك تتحدث عن موضوع آخر، ولا نحتاج

إلى التكلف في الربط بين الآيات، ومع أن القرآن في غاية التناسق لكن قد لا يظهر وجه ذلك إلا بنوع من التكلف، قد نقول هذا.

ومن حاول الربط كابن جرير -رحمه الله- فهو يربط بين هذه القضية، وبين فعل النصارى على أساس أن الآية السابقة في النصارى، فإذا سلمنا بأن الآية الأولى في النصارى تكون هذه الآية تسلية لليهود على هذا الاعتبار، لكن هل قصد القرآن تسلية اليهود وهو في سياق الرد عليهم وبيان مخازيهم؟

وإذا قلنا: إنها في المشركين فيكون السياق قد خرج عن الحديث عن اليهود وأهل الكتاب إلى المشركين، وتكون تسلية للمسلمين.

فعلى كل حال الله -عز وجل- تعرض للمساجد التي هي محال التعبد فتوعد من قام بتعطيلها، وصد الناس عنها وعمل على خرابها، ولما تحدث عن المساجد التي هي محل التعبد لله -عز وجل- في الأساس وهي أفضل البقاع عند الله -عز وجل- ولما كان الناس فيها يتوجهون في صلاتهم إلى القبلة، تحدث عن قضية القبلة، فنحن إذا عمدنا إلى مثل هذا الربط دون الغوص في الكلام على بعض التفصيلات من حيث الذين عنتهم الآية بتحديدهم على سبيل التخصيص، فإن ذلك قد يظهر وجهه ولا يكون ذلك متكلفاً بالطريقة التي ذكرتها آنفاً.

"**وقد كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه، فلما قدم المدينة وُجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد، ولهذا يقول تعالى: {وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ}** [(١١٥) سورة البقرة]."

على هذا الاعتبار تكون الآية نازلة في تحويل القبلة، وعلى كل حال في قوله: **{وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ}** أين للمكان.

{فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} يعني حيثما تتوجهوا فهنالك وجه الله، أي: **{فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ}** بمعنى هنالك وجه الله.

وقوله: **{إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}** هذا الختم للآية في غاية المناسبة؛ لأنه فتح لهم ووسع لهم في التوجه بظاهر الآية، فناسب أن يعقبه بقوله: **{إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}** [(١١٥) سورة البقرة].

فعلى كل حال الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا أولاً, معناه أن ذلك يتعلق بمسألة تحويل القبلة، وهو أحد أسباب النزول الواردة في هذه الآية؛ وذلك أن المسلمين لما توجهوا إلى بيت المقدس ثم حولت القبلة إلى الكعبة تكلم اليهود، ولما كانوا يتوجهون قبلُ إلى المسجد الأقصى تكلم المشركون، وقالوا: هذا يزعم أنه على دين إبراهيم، ويتوجه إلى غير قبلته، فلما حولت من بيت المقدس إلى الكعبة تكلم اليهود وأرجفوا بالمسلمين، وقالوا: **{مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا}** [(١٤٢) سورة البقرة] وهم السفهاء الذين عناهم الله -عز وجل- بقوله: **{سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا}** [(١٤٢) سورة البقرة] فتكلم اليهود في ذلك فأنزل الله -عز وجل-: **{وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ}** [(١١٥) سورة البقرة] وعلى هذا الاعتبار تكون دلالة الآية إنما هي في الرد على اليهود المعترضين على تحويل القبلة، بمعنى أن الله حيث وجهكم توجهتم فالجهات كلها لله -تبارك وتعالى- وبالتالي لا يفهم من هذا بحال من

الأحوال أن الإنسان مخير بحيث يتوجه إلى أي الجهات شاء ويصلي، بل هو مطالب حينما كانت الوجهة إلى بيت المقدس أن يصلي إلى بيت المقدس ولا تصح صلاته إذا كان عالماً عامداً إلا بهذا، ثم لما وجهت إلى البيت الحرام المقدس صار ذلك من الأمر اللازم الذي لا تصح الصلاة إلا به إلا من عذر بأن عجز عن التوجه لخفاء القبلة أو المحبوس المربوط بحيث لا يستطيع أن يتوجه أو المريض في بعض حالاته، أو نحو هذا من الأعذار ففي مثل هذا يكون ذلك عذراً واستثناءً لهؤلاء.

لكن إذا نظرنا إلى الأسباب الأخرى الواردة في نزول الآية -وقد صح كثير منها- فستجد معانيَ أُخر، فمن ذلك ما ثبت مثلاً عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنه- أنه رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو متوجه من مكة إلى المدينة يصلي على راحلته وابن عمر يقول: وفي هذا نزلت: **{فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ}** [(١١٥) سورة البقرة]؛ فهذه الرواية ثابتة ولكنها غير صريحة.

ولو فرضنا أن هذه الرواية هي سبب نزول أيضاً -لأنها محتملة- فتكون الآية نزلت في هذا، وفي هذا، وفي هذا، وفي هذا، أو يقال: إن ابن عمر -رضي الله عنه- أراد أن ذلك مما يدخل في معناها؛ لأن الشارع أذن للمسافر أن يتنفل على راحلته حيث توجهت به وحتى على غير الراحلة على الأرجح، فهذا صحيح لكنه غير صريح.

وجاء أيضاً في بعض أسباب النزول أن ذلك كان بسبب خفاء القبلة حيث صلوا في ليلة مظلمة ولم يعرفوا القبلة، فاجتهدوا فصلى كل رجل بحسب اجتهاده على حياله، ثم وضعوا أحجاراً أو شيئاً يعرفون به الجهة التي استقبلها كل واحد منهم، فلما أصبحوا رأوا أنهم صلوا إلى غير القبلة فأخبروا النبي -صلى الله عليه وسلم- فنزلت الآية، كما في حديث عامر بن ربيعة(٢) فيكون ذلك أيضاً فيمن خفيت عليه القبلة.

ووردت أسباب أخرى منها الصحيح، ومنها الضعيف، منها الصريح ومنها غير الصريح، فعلى كل حال إذا أردنا أن نجمع في أسباب النزول فإننا نبعد الروايات الضعيفة، مثل أنهم سألوا إلى أين يتوجهون لما أمروا بالصلاة، فأنزل الله -عز وجل-: **{وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}** [(١١٥) سورة البقرة] فهذا لا يصح، وعلى كل حال نبقي الصحيح ونبعد غير الصريح كحديث ابن عمر الذي قال فيه: إنه رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- يصلي على راحلته(٣)، قال: وفي هذا نزلت: **{وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}** [(١١٥) سورة البقرة] فيبقى معنى أن هذه الآية رد على اليهود في اعتراضهم على تحويل القبلة وتطمين للمسلمين وتسلية، وهي أيضاً فيمن خفيت عليه القبلة، ويدخل في معناها أيضاً التوجه إلى غير القبلة في حال العذر أو الرخصة، مثل المسافر يصلي تطوعاً اختياراً إلى غير القبلة فهو مرخص له، وكذلك أيضاً من صلى إلى غير القبلة جهلاً منه أو اضطراراً مثل المريض أو المحبوس، فكل هؤلاء داخلون في عموم قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ}** [(١١٥) سورة البقرة] ويبقى الأصل وهو أن الإنسان لا يجوز له أن يتوجه إلى غير المسجد الحرام؛ لقوله: **{وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ}** [(١٤٤) سورة البقرة] إلا فيما ذكر من الأعذار، وكما هو الشأن في صلاة الخوف في حال المسايفة والاشتباك في الحرب فإنه يصلي ووجهه هاهنا وهاهنا.

---

[2] – أخرجه الترمذي في أبواب الصلاة – باب ما جاء في الرجل يصلي لغير القبلة في الغيم (٣٤٥) (ج ٢ / ص ١٧٦).

[3] – أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب جواز صلاة النافلة على الدابة في السفر حيث توجهت (٧٠٠) (ج ١ / ص ٤٨٦).

بعض أهل العلم أيضاً ينظر إلى لفظة "حيث" في قوله: {وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ}، فيقول: إن المراد فأينما كنتم، أي: في أي مكان سكنتم من الأرض وأقمتم فيه فثم قبلة الله وهي الكعبة، فثم وجه الله، {وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} [(١١٥) سورة البقرة] وعلى هذا المعنى فالآية ليست في معنى الرخصة فليست في التوجه إلى غير القبلة، وليست في تحويل القبلة، وإنما هو يعلمهم ويقول لهم: في أي مكان من الأرض أقمتم فتوجهوا إلى قبلة الله –تبارك وتعالى– وهي الكعبة، وهذا المعنى إذا فسرت الآية به بمجرده هكذا فهو بعيد؛ لأننا سنكون أعرضنا عن أسباب النزول الواضحة الصحيحة التي تبين المراد بالآية بياناً واضحاً لا يبقى معه غبش وبالتالي لا يحتاج إلى مثل هذا مع وجود هذه الروايات، والله تعالى أعلم.

وعلى كل حال يقال في خلاصة الآية: هذه أسباب نزول نزلت الآية فيها جميعاً والله أعلم، فهي رد على اليهود وفي نفس الوقت هي في من خفيت عليه القبلة، وهكذا في صلاة المسافر تطوعاً، وهكذا أيضاً في المريض والمحبوس ومن لم يتمكن من استقبال القبلة، فهؤلاء جميعاً معذورون.

وبعضهم يقول: هذه في الدعاء أي {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ} [(١١٥) سورة البقرة] يعني تتوجهوا بدعائكم إلى أي جهة فثم وجه الله.

وعلى كل حال الحديث عن القبلة لا يختص بالدعاء، وأول ما يتبادر فيه إنما هو الصلاة، التي يطالب الناس فيها باستقبال القبلة، لكن هؤلاء كأنهم نظروا إلى أن الدعاء لا يشترط فيه استقبال فحملوا الآية عليه، وابن جرير الطبري –رحمه الله– يحمل الآية على جميع هذه المعاني، يقول: فإنه لم يرد دليل في تخصيص بعض دون بعض، فالآية تحتملها جميعاً وكلها داخل فيه، وبهذا الاعتبار لا إشكال فالدعاء لا يشترط فيه استقبال، وصلاة التطوع لا يشترط فيها استقبال، ومن خفيت عليه الصلاة في السفر أو كان في مكان مظلم، أو حتى في الحضر إذا كان معذوراً، لا أن يتساهل في البحث عن جهة القبلة أو السؤال أو ينظر إلى المساجد المجاورة أو نحو هذا فهذا مفرط يجب عليه أن يعيد الصلاة.

وعلى كل حال كل هذه المعاني داخلة فيها لكن ذلك لا يفهم منه بحال أن استقبال القبلة غير واجب.

"وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة."

أول ما نسخ من القرآن القبلة باعتبار أنه أول ما نسخ من الأمور والأحكام العملية، كما يقول بعضهم، لكن هذا القيد يحتاج إلى نظر وتأمل؛ إذ هل تنسخ غير القضايا العملية أصلاً؟ فمن المعلوم أن العقائد لا يدخلها النسخ، والأخبار لا يدخلها النسخ؛ فإن ذلك يكون تكذيباً لها، إنما النسخ في القضايا العملية، فلهذا يصير ذلك القيد أشبه ما يكون بالصفة الكاشفة التي لا تفيد قيداً، والله أعلم.

"وذلك أن رسول –صلى الله عليه وسلم– لما هاجر إلى المدينة وكان أهلُها اليهود أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يحب قبلة إبراهيم –عليه السلام– وكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء} [(١٤٤) سورة البقرة] إلى قوله: {فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ} [(١٤٤) سورة البقرة] فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: {مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا} [(١٤٢) سورة البقرة]، فأنزل الله: {قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} [(١٤٢) سورة البقرة] وقال: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} [(١١٥) سورة البقرة].

وقال عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} قال: قبلة الله أينما توجهت شرقاً أو غرباً، وقال مجاهد: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة."

كلام مجاهد هذا بناءً على المعنى الذي ذكرته في الآخر، وهو أن قوله: **{فَأَيْنَمَا}** بمعنى حيثما، ولا شك أن أينما بمعنى حيثما، لكن ما المراد بها؟ قال: أي مكان وجدتم على وجه الأرض فعندكم القبلة تتوجهون إليها، وعلى هذا فالآية لا تكون مختصة بمن خفيت عليه القبلة أو نزلت في كذا أو كذا، وهذا ذكرته آنفاً.

"قيل: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة، قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذناً من الله أن يصلي المتطوع حيث توجه من شرق أو غرب في مسيره في سفره وفي حال المسايفة وشدة الخوف.

فعن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته، ويذكر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يفعل ذلك ويتأول هذه الآية: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} [(١١٥) سورة البقرة]."

معنى يتأول في هذا الموضع معناه العمل بها؛ لأن التأويل يأتي بمعنى التفسير، ويأتي بحسب المقام، فإذا كان ذلك من قبيل الأمر فتأويله العمل بالمأمور والامتثال، وفي حديث عائشة: "كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: ((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي)) يتأول القرآن[٤]، يعني يتأول قوله تعالى: **{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}** [(٣) سورة النصر] أي يمتثل الأمر.

وإذا كان ذلك من قبيل الخبر فتأويله يكون بوقوع المخبر، وإذا كان ذلك من قبيل الرؤيا، فتارة يقصد به التفسير كما في قوله تعالى: **{نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ}** [(٣٦) سورة يوسف]، هذا في تفسير الرؤيا التي رآها الملك، وتارة يكون بتحقق هذه الرؤيا ووقوعها، كما قال يوسف -عليه السلام-: **{هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا}** [(١٠٠) سورة يوسف] لما سجد له أخوته وأبواه، فالحاصل أنها كانت تأويل رؤياه التي قال عنها: **{إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}** [(٤) سورة يوسف] فالمقصود بالتأويل في قول ابن عمر: "كان يفعل ذلك ويتأول هذه الآية: **{فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ}** [(١١٥) سورة البقرة]" يعني يحقق ويمتثل ويعمل بالآية.

"ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن مَرْدُوَيه، وأصله في الصحيحين من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة -رضي الله تعالى عنهم- من غير ذكر الآية."

أيضاً جاء من حديث عامر بن ربيعة في غير الصحيحين مع ذكر الآية وإسناده فيه بعض الضعف، لكنه مع وجود هذه الشواهد يكون من قبيل الحسن، والله أعلم.

"وفي صحيح البخاري من حديث نافع عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها، ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً قياماً على أقدامهم وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، قال نافع: ولا أرى ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- ذكر ذلك إلا عن النبي -صلى الله عليه وسلم-."

---

[٤] - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب التسبيح والدعاء في السجود (٤٦٨٤) (ج ٤ / ص ١٩٠١) ومسلم في كتاب الصلاة - باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤) (ج ١ / ص ٣٥٠).

بمعنى أن هذه أصلاً قضية توقيفية لا يمكن لابن عمر أن يخترع من عنده طريقة في صلاة الخوف، وصلاة الخوف كما هو معلوم لها صفات متعددة، فابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف بين لهم ذلك عملياً ولكنه لم يضفه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- لكن ذلك مبناه على التوقيف، ومن ثم فله حكم الرفع؛ لأنه لا يقال من جهة الرأي.

"وقيل: نزلت فيمن اشتبهت عليه القبلة لأجل الظلمة والسحاب ونحوهما فصلى لغير القبلة."

هذا كما في حديث عامر بن ربيعة، لكن في بعض الروايات السابقة التي نقلها عن جماعة من السلف يقول: **وقال عكرمة عن ابن عباس: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} [(١١٥) سورة البقرة] قبلة الله، وقال مجاهد: حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها**، إلى غير ذلك من الروايات التي جاءت في هذا المعنى مما لم يورده الحافظ ابن كثير -رحمه الله- حيث فسروا بها قوله: **{فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ}** أي فهنالك قبلة الله، ففسروا وجه الله بمعنى القبلة، وبعضهم يقول: الجهة، وعلى هذا الاعتبار تكون الآية ليست من آيات الصفات أصلاً، فهم لم يعدوها ولم يقولوا: إنها من آيات الصفات أصلاً حتى يقول قائل: إنهم قد أولوها مثلاً، وإنما قالوا: الوجه بمعنى الجهة، وليس الوجه الذي هو الصفة المعروفة، تقول: أنا أريد هذا الوجه، يعني هذه الوجهة، وهذا معروف في كلام العرب والسياق والقرائن تبين المعنى المراد وتحدده، فإذا قلت: نظرت إلى وجهك المقصود به الصفة، وإذا ذكرت الإرادة مثلاً أو السفر أو نحو هذا، تقول: أريد هذا الوجه فالقرائن تحدد المراد، هل تريد الصفة أو تريد الشخص أو تريد الجهة التي تريد أن تتوجه إليها وتسافر إليها، وتذهب إلى ناحيتها.

بعض أهل العلم من السلف ومن تبعهم من أهل السنة يرون أن هذه الآية من آيات الصفات، فالذين قالوا: إنها من آيات الصفات قالوا: فيها إثبات صفة الوجه لله -عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته، فهم حملوها على ظاهرها، وهم لا ينكرون أن الوجه يطلق ويراد به الذات أيضاً، قالوا: لكن ذلك لا يقال لمن لم يكن متصفاً، فجعلوها دالة على إثبات صفة الوجه.

والأدلة التي تدل على صفة الوجه من الكتاب والسنة كثيرة، فعدوا هذا منها، وممن ذهب إلى هذا جماعة من أهل العلم منهم عثمان بن سعيد الدارمي في رده على بشر المريسي، رد عليه وتكلم على هذه الآية وهذه القضية في رده على هؤلاء المعتزلة.

وممن حملها على هذا المعنى أيضاً أنها من آيات الصفات كبير المفسرين ابن جرير الطبري، وكذلك الحافظ ابن القيم وأطال في تقرير هذا المعنى في كتاب الصواعق، وهذه من المواضع القليلة التي خالف فيها شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية حيث إن شيخ الإسلام أيضاً أطال الكلام في أكثر من موضع -في ثلاثة مواضع فيما وقفت عليه على الأقل من الفتاوى- تحدث فيه عن هذه الآية أنها ليست من آيات الصفات أصلاً، وبالتالي لا يستطيع أن يتمسك بها أهل الكلام وأهل التأويل والتحريف في نفيهم لصفة الوجه، أو في دعوى أن السلف -رضي الله عنهم- وقعوا في شيء من التأويل، ومن أراد الاطلاع على هذه المسألة والكلام عليها فهي في المجلد الثاني والثالث والسادس من الفتاوى وعزا ذلك إلى جمهور السلف -رضي الله تعالى عنهم- حيث قال: إن جمهور السلف لا يرون أنها من آيات الصفات أصلاً، ولهذا لما وقعت له المناظرة المعروفة معهم في الواسطية وأمهلهم ومعروف ما وقع فيها حينما استعانوا بالصفي الهندي في المجلس الآخر، فالحاصل أنه

كان مما أورده عليه في المجلس الذي بعده لما تحداهم أن يأتوا بمثال واحد أن السلف أولوا شيئاً من الصفات فقال له أحدهم: إنه وقف على مثال وقع فيه التأويل عند السلف فقال له شيخ الإسلام: **{فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ}؟** [(١١٥) سورة البقرة]، قال: نعم، قال: هذه أصلاً ليست من آيات الصفات حتى يقال: إنهم أولوها، ثم بين المراد بها، فهو يعزوا هذا إلى الجمهور من السلف -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم-.

على كل حال الخلاف عند أهل السنة في مثل هذه الآية ليس خلافاً في قضية اعتقادية إطلاقاً وإنما غاية ما في الأمر أنه اختلاف في المعنى والتفسير فقط، وغاية ما يقال عن أحد الفريقين: إنه أخطأ في تفسير الآية كأي خطأ في التفسير ليس له علاقة بالاعتقاد بحيث يقال: هذا أوّلَ وهذا نفى وهذا أثبت؛ لأنهم يثبتون صفة الوجه من الأدلة الكثيرة الأخرى في الكتاب والسنة فهم مثبتون هذا الأمر مقرون به، ولكنهم اختلفوا في آية هل هي تدل عليه أو لا تتعلق به أصلاً مع إثبات صفة الوجه؟، فهذا اختلاف في التفسير فقط، وهذا مثل ما يقال أيضاً في الآية الأخرى: **{يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ}** [(٤٢) سورة القلم] جاء عن بعض السلف ومنهم ابن عباس وجماعة بأن الساق بمعنى الكرب، وهذا معنىً معروف ومشهور في كلام العرب ولا إشكال فيه والآية تحتمله، ومن أهل السنة من قال: إن هذه من آيات الصفات والمقصود بها الساق الذي هو الصفة، واستدلوا عليه بالحديث الآخر، ((فيكشف عن ساقه))[5] فجاء به مضافاً إلى الضمير العائد على الله -عز وجل- وهنا لا يمكن أن يفسر بالكرب، فأهل السنة مثبتون لهذه الصفة مقرون بها، لكن غاية ما هنالك هو هل الآية تتحدث عن هذه الصفة أو تتحدث عن معنىً آخر، وهذا الخلاف سائغ ولا إشكال فيه، فهو خلاف في المعنى إذا كنت تثبت الصفة، لكن المشكلة في الذي يقول: الله ليس متصفاً بهذه الصفة أصلاً، لا الوجه ولا الساق ولا غير ذلك، فيؤولها بالتأويلات البعيدة والمحامل المتكلفة ولا يثبت ذلك ابتداءً، فهذا هو الانحراف ولا شك أنه انحراف، وأعظم منه من جعل قاعدة وأصلاً يسير عليه ويؤول عليه جميع النصوص.

الذين وقعوا في التأويل المذموم منهم من وقع في مفردات، مثل الشوكاني وجماعة، حتى بعض الأكابر ربما وقع في شيء من هذا، كابن خزيمة في كلامه على حديث: ((فإن الله خلق آدم على صورته))[6] فالمقصود أن هذه المفردات إذا وقع فيها الإنسان دون أن يضع قاعدة يجري عليها فإن هذا يكون من الخطأ الذي لا يكاد يسلم منه أحد، والله -عز وجل- يغفر لهذه الأمة خطأها، وإذا كان الإنسان غير متبع للهوى فإن الله -عز وجل- يتجاوز عنه وهو بين أجر وأجرين، لكن الخطر الأشد هو أن يجعل قاعدة فاسدة، فيقول مثلاً: كل آية توهم في ذهنه المعوج التشبيه أو التمثيل فإنها مصروفة عن ظاهرها، ويقول: الأخذ بظواهر الكتاب والسنة أصل من أصول الكفر.

فهذا الكلام غاية في الانحراف، وهذا لا يقارن بمن أخطأ في مثال أو مثالين أو ثلاثة أو عشرة، دون أن يضع أصلاً بدعياً يجري عليه النصوص ويحاكمها إليه، فلا بد أن نفرق بين هذا وبين هذا، ولا نلقي الكلام

---

5 - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** [(٢٢-٢٣) سورة القيامة] (٧٠٠١) (ج ٦ / ص ٢٧٠٦).

6 - أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان - باب بدء السلام (٥٨٧٣) (ج ٥ / ص ٢٢٩٩) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير (٢٨٤١) (ج ٤ / ص ٢١٨٣).

جزافاً على عواهنه بحيث نجد مثالاً أو مثالين أو ثلاثة لأحد من أهل العلم وقع في شيء من التأويل فنجعله بمنزلة ذلك الذي جعل أصلاً منحرفاً يحاكم إليه النصوص، هناك فرق بين هذا وبين هذا، والله أعلم.

"وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما بين المشرق والمغرب قِبْلَة لأهل المدينة وأهل الشام وأهل العراق)) وله مناسبة هاهنا وقد أخرجه الترمذي وابن ماجه بلفظ: ((ما بين المشرق والمغرب قبلة))[7]"

قوله -عليه الصلاة والسلام-: **((ما بين المشرق والمغرب قِبْلَة))** هذا يفيد فائدة وهي أن البعيد لا يستطيع بتوجهه أن يجزم مائة بالمائة أنه إلى عين الكعبة وبالتالي فإن الميل اليسير لا يضر بشرط أن لا يتعمد الإنسان الميل، ولذلك حتى الذين يصلون في وسط الحرم يقع منهم مثل هذا الخطأ وهو عدم التوجه مائة بالمائة إلى عين الكعبة فيكف بالذين يبعدون ألف كيلو متر أو آلاف الكيلو مترات؟!

فالمقصود أنك إذا صليت في الطريق وأنت مسافر مثلاً ووقفت متجهاً إلى القبلة فجاءك من يقول لك: هل أنت متيقن أنك متوجه إلى عين الكعبة؟ فقل له: حتى وإن وقع شيء من الميل فإنه لا يضر؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ما بين المشرق والمغرب قبلة))[8] فالميلان اليسير لا يضر.

وإذا كان السجاد في مصلى المدرسة أو مكان العمل أو غيرهما ووجد فيه ميلان إلى حد ما فالصلاة صحيحة، وكذلك لو أن قبلة مسجد ما فيها ميلان يسير فلا حاجة أن تجعل تلك قضية ومشكلة بحيث تؤدي إلى أن الناس يتحاشون الصلاة فيه بل لا بد من العمل والاستفادة من هذا الحديث: ((ما بين المشرق والمغرب قبلة)) لكن إذا أمكن التحري في هذا وضبط التوجه في الصلاة فهذا هو المطلوب والله المستعان.

"قال ابن جرير: ومعني قوله: {إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [(١١٥) سورة البقرة] يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والإفضال، وأما قوله: {عَلِيمٌ} فإنه يعني: عليم بأعمالهم، ما يغيب عنه منها شيء، ولا يعزب عن علمه، بل هو بجميعها عليم."

قوله: {إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [(١١٥) سورة البقرة]: ذِكْر السعة يتناسب مع قوله سبحانه: **{فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ}** [(١١٥) سورة البقرة]، والعلم أيضاً هنا في غاية المناسبة من جهة أن توجيههم من بيت المقدس إلى الكعبة ومن الكعبة إلى بيت المقدس أولاً، كل ذلك مبني على علمه -سبحانه وتعالى- المحيط بكل شيء فهو عالم ذلك ابتداءً وأن ذلك لن يدوم، وسيحولون منه إلى غيره.

وكذلك مع قوله -تبارك وتعالى-: **{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء}** [(١٤٤) سورة البقرة] فالله -عز وجل- عليم به وبحاله، وما كان يتطلع إليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وعليم بكلام هؤلاء، ما قالوا وما سيقولون من جراء تحويل القبلة، فهو عليم بما يصلح خلقه لا يخفى عليه من أمرهم خافية.

"{وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ* بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(١١٦-١١٧) سورة البقرة] **اشتملت هذه الآية الكريمة والتي تليها**

---

[7] - أخرجه الترمذي في أبواب الصلاة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ما جاء ما بين المشرق والمغرب قبلــة (٣٤٢) (ج ٢ / ص ١٧١) وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب القبلة (١٠١١) (ج ١ / ص ٣٢٣) وصححه الألباني في مختصر الإرواء برقم (٢٩٢).

[8] - سبق تخريجه.

على الرد على النصارى -عليهم لعائن الله- وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ممن جعل الملائكة بنات الله."

يعني هذا باعتبار أن النصارى قالوا المسيح ابن الله، واليهود قالوا عزير ابن الله، والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله، فكل هذه الطوائف الثلاث وقعت في هذه الورطة وإن كان حينما تذكر نسبة الولد إلى الله -عز وجل- فالمتبادر إلى ذلك طائفة من هذه الطوائف اشتهرت به وهم النصارى؛ لأن ذلك غلب عليهم، أما اليهود فإن الذين قالوا: إن عزيراً ابن الله إنما هي طائفة من اليهود لا كل اليهود، وكذلك أيضاً الذين قالوا: الملائكة بنات الله، ليسوا كل العرب أهل الإشراك وإنما هم طائفة من العرب وقعوا في مثل هذا.

قوله: **على الرد على النصارى -عليهم لعائن الله-** على كلام ابن كثير هي رد على الطوائف الثلاث، وعلى ما ذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- فهو يرى أن هذه الآية أيضاً رد على النصارى، لأنه ذكرهم أولاً، **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ}** [(١١٤) سورة البقرة] قال: هي في النصارى، حينما أعانوا على إخراب بيت المقدس ومنعوا اليهود من الصلاة فيه، ثم سلى المؤمنين -أي آنذاك- الذين مُنعوا منه بأن شرع لهم حيثما كانوا أن يتوجهوا إليه سبحانه ويعبدوه، ثم قال: **{وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا}** [(١١٦) سورة البقرة] أي النصارى -على كلام ابن جرير الطبري- فهو يرى أن هذه الآية **{وَقَالُواْ}** الواو فيها عاطفة على قوله: **{وَسَعَى فِي خَرَابِهَا}** [(١١٤) سورة البقرة] عند قوله: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا}** [(١١٤) سورة البقرة] ثم ذكر بعض مخازيهم فقال: **{وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا}** [(١١٦) سورة البقرة].

"وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ممن جعل الملائكة بنات الله فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم: إن لله ولداً فقال تعالى: {سُبْحَانَهُ} [(١١٦) سورة البقرة] أي: تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً.

{بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١١٦) سورة البقرة] أي: ليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملك السماوات والأرض ومن فيهن وهو المتصرف فيهم، وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء، والجميع عبيد له وملك له، فكيف يكون له ولد منهم والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين؟ وهو -تبارك وتعالى- ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد؟! كما قال تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [(١٠١) سورة الأنعام].

وقال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا* لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا* تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا* أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا* وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا* إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا* لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا* وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [(٨٨-٩٥) سورة مريم]، وقال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [(١-٤) سورة الإخلاص].

فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذي لا نظير له ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة فكيف يكون له منها ولد؟!

ولهذا روى البخاري في تفسير هذه الآية من البقرة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي - صلى الله عليه وسلم- قال: ((قال الله تعالى: كَذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إيَّاي فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: إن لي ولداً، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً))[9] انفرد به البخاري.

وفي الصحيحين عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم))[10]".

سيأتي وجه الرد عليهم من هذه الآية، من الوجهين اللذين ذكرهما الله -عز وجل- فيها، وذلك في قوله -تبارك وتعالى-: **{سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ}** [(١١٦) سورة البقرة]، ثم قال: **{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}** [(١١٧) سورة البقرة].

---

9 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة البقرة (٤٢١٢) (ج ٤ / ص ١٦٢٩).

10 - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب الصبر على الأذى (٥٧٤٨) (ج ٥ / ص٢٢٦٢) ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - بـــاب لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل (٢٨٠٤) (ج ٤ / ص ٢١٦٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٤٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المؤلف -رحمه الله-: "وقوله: {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} [(١١٦) سورة البقرة] قال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو سعيد الأشج، أخبرنا أسباط عن مطرف عن عطية عن ابن عباس قال: "قَانِتِينَ" مصلين، وقال عكرمة وأبو مالك: {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} مُقِرُّون له بالعبودية، وقال سعيد بن جبير: {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} يقول: الإخلاص. وقال الربيع ابن أنس: يقول كل له قانتون أي: قائم يوم القيامة، وقال السدي: {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} أي: مطيعون يوم القيامة، وقال خَصيف عن مجاهد: {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} قال: مطيعون، كن إنساناً فكان، وقال: كن حماراً فكان، وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} مطيعون، قال: طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره، وهذا القول عن مجاهد -وهو اختيار ابن جرير- يجمع الأقوال كلها وهو أن القنوت هو الطاعة والاستكانة إلى الله، وهو شرعي وقدري كما قال الله تعالى: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} [(١٥) سورة الرعد]."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فقوله: **عن ابن عباس قال: "قَانِتِينَ" مصلين**، هل هذا المعنى يتأتى في جميع المواضع؟

يقول النبي -عليه الصلاة والسلام-: ((أفضل الصلاة طول القنوت))[1]، فهل يعني طول الصلاة؟ ويقول تعالى: **{يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي}** [(٤٣) سورة آل عمران] هل المعنى يا مريم صلي لربك واسجدي واركعي؟ ويقول تعالى: **{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ}** [(٣٥) سورة الأحزاب]، هل يعني المصلين والمصليات؟

الجواب: ليس بظاهر تفسير القنوت في جميع مواضعه بالصلاة، لكنه يحتمل في بعض المواضع دون بعض.

وقوله: **قال عكرمة وأبو مالك: {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} مُقِرُّون له بالعبودية**، الذين قالوا بهذا قصدوا به أن هذا الإقرار بالنسبة لأهل الإيمان يكون بألسنتهم، وبالنسبة لغيرهم يكون بأمر آخر، ما هذا الأمر الآخر؟

بعضهم يقول: المراد به ما يظهر عليه من أثر صنع الله -عز وجل- فيه، ودلائل قدرته بخلقه التي تبدو عليه، كل ذلك يجعله عبداً مربوباً مخلوقاً لربه وخالقه القدير شاء أم أبى، فإقراره بالعبودية من جهة ظهور أثر صنعة الخالق عليه، فهذا هو الإقرار بالنسبة للكافر على قول بعض أهل العلم.

وبعضهم يذهب بهذا بالنسبة لغيرهم كما في السجود في قوله تعالى: **{وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ}** [(١٥) سورة الرعد] وذلك أنه لما ذكر جميع من في السماوات ومن في الأرض قالوا: سجود الظلال بالنسبة للكافر.

---

1 - أخرجه البخاري في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب أفضل الصلاة طول القنوت (٧٥٦) (ج ١ / ص ٥٢٠).

وقول بعضهم: قانتون بمعنى الإخلاص هذا فيه إشكال إذا فسر في جميع المواضع؛ وذلك أنه لا يصح أن يقال في قوله -عليه الصلاة والسلام- مثلاً: ((أفضل الصلاة طول القنوت))[2] أي طول الإخلاص.

لكن ودون شك أن من قال الإخلاص لم يقصد بذلك تفسيرها في جميع المواضع، وإنما يفسر هذه الآية، أي: **{كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ}** [(١١٦) سورة البقرة] أي مخلصون، وكذلك الأمر في قول من قال: قانتون أي قائم يوم القيامة.

عن الربيع بن أنس: قانتون قال: أي قائم يوم القيامة، وهذا المعنى أخذوه من أصل القنوت، حيث ذهبت طائفة كبيرة من أهل العلم من أهل اللغة وغيرهم لما نظروا في أصلها اللغوي فقالوا: أصل القنوت في كلام العرب بمعنى القيام، فحينما قال: **{كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ}** [(١١٦) سورة البقرة] أي قائم يوم القيامة، وكأن الذي ألجأه إلى هذا المعنى استشكال ما يقع من جهة الكافر إذا قلنا: إن القنوت هنا بمعنى العبادة، أو بمعنى الخضوع إلى آخره، و"كلٌّ" التي في قوله تعالى: **{كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ}** [(١١٦) سورة البقرة] هي أقوى صيغ العموم، والكافر جاحد ومنكر ومكابر ومعرض عن الله -عز وجل- فلهذا -والله أعلم- نظر بعضهم إلى أصل معنى القنوت وحمله على معنىً يكون للمؤمن والكافر وذلك في الآخرة، فقال: أي: قائمون، وسمي بيوم القيامة لقيام الناس فيه لرب العالمين، وهذا المعنى تفسيره في هذا المقام فيه بعد وإن كان لوحظ فيه أصل المعنى اللغوي لكن ضعْفه في كونه جعله في يوم القيامة.

وقال بعضهم: **{كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ}** [(١١٦) سورة البقرة] أي مطيعون يوم القيامة، والقنوت يأتي بمعنى الطاعة، لكنهم قالوا: يوم القيامة لأن الكافر غير مطيع والعاصي عاصي، إذن: هذا يكون يوم القيامة حيث لا يستطيع أحد أن يعصي أصلاً بل كلهم في غاية الذل والخضوع لله -عز وجل- فالقنوت قيل بمعنى القيام، وبعضهم يقول: هو بمعنى الطاعة، فإذا ركب هذا المعنى في الدنيا سيستشكل السامع هذا الكلام؛ إذ ليس كل الناس في طاعة، لذلك قالوا: هذه الطاعة تكون يوم القيامة.

وبعضهم لم يجعلها يوم القيامة وذلك أنهم نظروا إلى معنى آخر للطاعة فيما يتعلق ويتصل بالأمر الكوني، لذلك تجده يقول هنا: **{كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ}** **قال: مطيعون، كن إنساناً فكان، وقال: كن حماراً فكان**، بمعنى الأمر القدري الكوني الذي لا يستطيع الإنسان أن يتخلص أو ينفك منه بحال من الأحوال، فالناس في كل حالاتهم إنما هم تحت قدر الله -عز وجل- لا يخرجون عن ذلك في قليل ولا كثير، والمقصود أن بعضهم نظر إلى الطاعة فجعلها في الآخرة، وبعضهم جعلها في الدنيا لكنهم لم يجعلوها في الأمر الشرعي وإنما جعلوها في الأمر الكوني القدري، فهذا قال: **مطيعون، قال: طاعة الكافر في سجود ظله** فهذا جعلها في الدنيا، إذ الكافر لا يطيع؛ لذلك قال: **في سجود ظله وهو كاره.**

ثم قال: **وهذا القول عن مجاهد هو اختيار ابن جرير يجمع الأقوال كلها** كيف يجمع الأقوال كلها؟

أي: إذا كان مطيعاً فهو مصلٍّ وإذا كان مطيعاً فهو مخلص، وإذا كان مطيعاً فكذلك هو منقاد لأمر الله -عز وجل- في كل حالاته، وكذلك هو مطيع طاعة اضطرار في أمر الله الكوني القدري، سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة.

---

2 - سبق تخريجه.

قال: وهو أن **القنوت هو الطاعة والاستكانة إلى الله وهو شرعي وقَدري**، الحاصل أن ابن جرير -رحمه الله- يفسر القنوت هنا بالطاعة لله -عز وجل- والإقرار له -تبارك وتعالى- وبالعبودية، وهذه الطاعة والاستكانة والإقرار بالنسبة للكافر تكون بما يظهر عليه من أثر الصنعة، وبالنسبة للمؤمن بعبودية الاختيار التي يتقرب فيها إلى الله -عز وجل-، فالحاصل أن ما يظهر على الخلق من آثار الصنعة كل ذلك يدل على أنهم قانتون لله -عز وجل- من هذه الحيثية بمعنى أنهم مُقِرُّون من هذه الجهة وإن جحدوا بألسنتهم فدلائل قدرته وخلقه فيهم أظهر من جحود ألسنتهم؛ فأجسامهم شاهدة على هذا الخلق والقدرة وما أشبه ذلك، والخلاصة أن هذه الطاعة إما إقرار بالألسن والجوارح والقلب وإما إقرار بما يظهر عليهم من أثر الصنعة فهو ظاهر عليهم.

وبعضهم يفسر القنوت بمعنى السكون وبعضهم بمعنى السكوت، حيث إنهم لما كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت: **{وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ}** [(٢٣٨) سورة البقرة] سكتوا فكان نهياً عن الكلام.

شيخ الإسلام له رسالة خاصة في القنوت وفسره في جميع موارده فقال: إنه يدور في جميع هذه المواطن على معنى المداومة والاستمرار على الشيء، هكذا قال -رحمه الله-.

وهذا القول يمكن أن يناقش وقد يرد عليه إشكالات كما يرد على غيره، انظر مثلاً حديث: ((أفضل الصلاة طول القنوت))[3] فالقنوت في الصلاة قد يستشكل هنا، لكن يمكن أن يفسر هذا بمثل: **{وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ}** [(٣٥) سورة الأحزاب] ويمكن أن يفسر بمثل: **{يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ}** [(٤٣) سورة آل عمران]، أي أديمي الطاعة.

وعلى كل حال بعض أهل العلم يقول: إن القنوت مشترك بين هذه المعاني، بمعنى أن القنوت ليس له معنىً واحد، وإنما هو مثل لفظة العين، فهي تطلق على العين الباصرة، وتطلق على العين الجارية، وتطلق على الذهب، وتطلق على الجاسوس، وغير ذلك من الألفاظ المشتركة مثل لفظة أمة، فالأمة بمعنى الجماعة من الناس، أو الجماعة المجتمعة على ملة ودين أو نحلة، أو بمعنى الرجل الجامع لخصال الخير، أو المدة الزمنية كما قال تعالى: **{وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ}** [(٤٥) سورة يوسف]، إلى غير ذلك من المعاني.

فالمقصود أن القنوت من أهل العلم من يقول: إنه مشترك بين معانٍ متعددة، وهذا القول إذا قلنا به تنحلّ به كثير من هذه الإشكالات والاعتراضات التي ترد في بعض المقامات مما لا يصلح أن يفسر بها القنوت بمعنىً بعينه، فيلجئهم ذلك إلى بعض المحامل والمعاني كالذي يقول في الآخرة أو غير ذلك.

فالمقصود أننا قد لا نستطيع في كثير من الحالات على الأقل أن نفسر لفظة بلفظة ترادفها وتأتي بكل معانيها تماماً، ومن ثم يقع الإشكال عند تفسير اللفظة؛ لأنك لا تفسرها بلفظة تؤدي المعنى المطلوب، وإنما هو شيء يقربه فيقع في مثل هذا التفاوت في العبارات، إذ كل واحد يتلمس معنى يقرب المقصود فيأتي في الواقع ببعضه لا بكله، فلفظة القنوت تفسيرها بمجرد الطاعة لا يكفي، وإنما هي طاعة في سكون مثلاً، تقول: فلان قانت لله -عز وجل-، وفلان من القانتين، فهل المقصود أنه فقط من المطيعين؟ لا، وإنما فيه معنى زائد على

---

3 - سبق تخريجه.

مجرد الطاعة، فيرد فيه معنى السكون، ويرد فيه معنى الخضوع والاستكانة، وفيه معنى المداومة على الطاعة بمعنى أنه لا يقال: قانت، أو فلان من القانتين لمن يطيع الله –عز وجل– فترة قصيرة، والله أعلم.

"وقوله تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١١٧) سورة البقرة] أي: خالقها من غير مثال سبق، قال مجاهد والسدي: وهو مقتضى اللغة، ومنه يقال للشيء المحدث: بدعة كما جاء في صحيح مسلم: ((فإن كل محدثة بدعة))[4].

والبدعة على قسمين: تارة تكون بدعة شرعية، كقوله: ((فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة))، وتارة تكون بدعة لغوية كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم: "نِعْمَت البدعةُ هذه[5]".

قال ابن جرير: فمعنى الكلام: فسبحان الله أنى يكون له ولد، وهو مالك ما في السماوات والأرض، تشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوَحْدانيّة وتقر له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه، وهذا إعلام من الله لعباده أن ممن يشهد له بذلك المسيح الذي أضافوا إلى الله بُنُوَّته، وإخبار منه لهم أن الذي ابتدع السماوات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال هو الذي ابتدع المسيح عيسى من غير والد بقدرته، وهذا من ابن جرير، -رحمه الله- كلام جيد وعبارة صحيحة."

وهو نظير قوله –تبارك وتعالى– في سورة الأنعام: **{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ}** [(١٠١) سورة الأنعام] كيف يكون له ولد وهو مخترع هذا العالم العلوي منه والسفلي؟ فلا بد أن يكون هذا العالم بجميع ما فيه ومما فيه المسيح –عليه الصلاة والسلام– أن يكون مربوباً لله –تبارك وتعالى–، كيف وقد جاء المسيح أيضاً من غير والد؟ فالله –عز وجل– خلقه بالكلمة على غير مثال سابق، فلا عهد للناس بهذا، وإنما كان آية تدل على قدرة الله –عز وجل– وبديع صنعه.

{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١١٧) سورة البقرة]: هذه اللفظة "بدع" تدل على الاختراع والإحداث من غير مثال سابق، وهذه الآية مثل آية الأنعام، **{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ}** [(١٠١) سورة الأنعام] ووجه ذلك أن من ابتكر السماوات وخلقها من غير مثال سابق فهو على ما دونها أقرب، فكيف يُخرجون هذا الشخص الذي هو المسيح مثلاً أو عزير من عموم قدرته العظيمة الشاملة التي بها خلق هذه الأفلاك والسماوات فيجعلون ذلك الشخص المُخرَج شريكاً لله –عز وجل– فضلاً عن إخراجهم له من كونه مربوباً مخلوقاً لله –عز وجل–!! وعلى كل حال في هذه الآية **{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ}** [(١١٧) سورة البقرة رد عليهم من عدة وجوه، لا نريد أن نتطرق إلى هذا على سبيل التفصيل..

والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

4 – أخرجه أبو داود في كتاب السنة – باب في لزوم السنة (٤٦٠٧) (ج ٢ / ص ٦١٠) وابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم – باب اجتناب البدع والجدل (٤٦) (ج ١ / ص ١٨) وأحمد (ج ٣ / ص ٣٧١) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٥٤٩).

5 – أخرجه الإمام مالك في الموطأ (ج ١ / ص ١١٤) والبيهقي في شعب الإيمان (ج ٣ / ص١٧٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٥٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وقوله تعالى: {وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(١١٧) سورة البقرة] يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه إذا قَدَّر أمرًا وأراد كونه {فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن} أي: مرة واحدة {فَيَكُونُ} أي: فيوجد على وفق ما أراد كما قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [(٨٢) سورة يـــس]، وقال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(٤٠) سورة النحل] وقال تعالى: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [(٥٠) سورة القمر].

ونبه تعالى بذلك أيضاً على أن خلق عيسى بكلمة كن، فكان كما أمره الله، قال الله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(٥٩) سورة آل عمران]."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلفظة القضاء تأتي لمعانٍ متعددة وهي في كل موضع بحسبه، فقد تختص بمعنى من المعاني في أحد المواضع دون بعض، فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}** [(١١٧) سورة البقرة] يختلف عن قوله -تبارك وتعالى- مثلاً: **{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ}** [(١٠) سورة الجمعة].

لكن من أهل العلم -كالأزهري -رحمه الله- وهو من أئمة اللغة المتقدمين- من يرجع هذه الاستعمالات المتنوعة جميعاً إلى أصل واحد مع تفاوت بينها في بعض المعاني في كل موضع بحسبه، فهو يرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه، وربما يعبر بعضهم بالفراغ من الشيء على وجه من الإحكام والإتقان، ولهذا فسره ابن جرير -رحمه الله- هنا بأنه إذا أحكم أمراً وحتمه، فابن جرير يرجع هذه أيضاً إلى الإحكام والفراغ من الشيء، فانقطاع الشيء وانقضاؤه وتمامه يقال له: انقضاء وقضاء، وقضاه وأشباه ذلك.

ولذلك نجد هذه الاستعمالات في القرآن متنوعة، فقوله -تبارك وتعالى- عن خلق السماوات: **{فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ}** [(١٢) سورة فصلت] قضاهن هنا بمعنى فرغ من خلقهن خلقاً محكماً متقناً، ولكن قوله -تبارك وتعالى-: **{وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ}** [(٤) سورة الإسراء] **{وَقَضَيْنَا}** هنا معناه أعلمنا، لكن الرابط المشترك بين هذا والذي قبله تمام الشيء والفراغ منه، لكن معناها الخاص في هذا الموضع يختلف عن الموضع الذي قبله.

وكذلك في سورة الإسراء يقول تعالى: **{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ}** [(٢٣) سورة الإسراء] قضى يمكن أن تفسر هنا بـــ(أمر) ويمكن أن تفسر بـــ(حكم)، وأحسن ما تفسر به "وصى"، وبعضهم يقول: أَمَرَ ووصى، ويقولون: وصى؛ لأن المذكورات في الإسراء تشتمل على أوامر ونواهٍ، فلا يحسن أن تفسر بأَمَرَ إلا على وجه من التكلف في المنهيات، ولكن الوصية تشتمل على الأمرين معاً.

وقوله تعالى: **{فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ}** [(٢٩) سورة القصص] يعني أتمه وفرغ منه..

وقوله –تبارك وتعالى– هنا: {وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(١١٧) سورة البقرة] الأمر هنا هل هو بمعنى الأمر الذي هو بمعنى الطلب كما في قوله: {وَأَطِيعُوا أَمْرِي} [(٩٠) سورة طـه]، هل الأمر هناك كالأمر هنا، وكما في قوله –عليه الصلاة والسلام– ((إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم))[1]؟

ليس الأمر هنا كالأمر هناك؛ فالأمر يستعمل استعمالين أو يأتي لمعنيين اثنين، فهو يأتي بمعنى الطلب، تقول: الأمر للوجوب، افعل، {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} [(٤٣) سورة البقرة] أمر، وليس ذلك بمقصود هنا في قوله: {وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(١١٧) سورة البقرة] إطلاقاً، وإنما المقصود هو المعنى الآخر وهو الشأن، كالذي في قوله: {وَظَهَرَ أَمْرُ اللّهِ} [(٤٨) سورة التوبة]، وكالذي في قوله: {فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا} [(٦٦) سورة هود] وقوله: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ} [(٥٠) سورة القمر]، وكذلك قوله عن نفسه –سبحانه وتعالى–: {فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(٦٨) سورة غافر] وهكذا قوله: {فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ} [(٢٤) سورة التوبة] فالأمر المذكور في كل ما سبق من الأمثلة ليس بمعنى افعل، وإنما الأمر هنا بمعنى الشأن، {وَإِذَا قَضَى أَمْراً} أي قضى مقضياً، إذا قضى شيئاً {فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(١١٧) سورة البقرة].

فأنت حينما تسأل وتقول: ما الأمر؟ ولا تقصد به الطلب فإنك تقصد السؤال عن الشيء الذي حدث، أو الشيء الذي نزل بالناس مثلاً أو نحو ذلك.

وفي قوله تعالى: {وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ} [(٩٧) سورة هود] ليس معناه وما طلب فرعون برشيد، وإنما المقصود وما شأنه برشيد، فلفظ الأمر إذن يأتي لهذا ولهذا.

والخلاصة هي أن معنى قوله تعالى: {وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(١١٧) سورة البقرة] يعني إذا قضى شيئاً فإنه يقول له: كن فيكون، وابن كثير هنا عبر عنه بقوله: إذا قدر أمراً وأراد كونه فإنما يقول له: كن فيكون، وابن جرير يقول: إذا أحكم أمراً حتمه.

"وقال الله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [(١١٨) سورة البقرة] روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حُرَيملة لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–: يا محمد، إن كنت رسولاً من الله كما تقول فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله في ذلك من قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ} [(١١٨) سورة البقرة]."

بغض النظر عن صحة هذه الرواية، وهي لا تخلو من ضعف، لكن رافع بن حريملة هو من اليهود، وعلى هذا الاعتبار إذا أخذنا بهذه الرواية وقلنا: إنها سبب النزول، فيكون المراد بقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ} [(١١٨) سورة البقرة] هم اليهود، وعلى هذا جرى بعض أهل العلم فقال: المراد به اليهود.

وذهبت طائفة –ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري –رحمه الله– إلى أن ذلك يراد به النصارى؛ لأن النصارى هم الذين يوصفون بعدم العلم، فهم أهل بالجهل وأهل الضلال.

---

1 – أخرجه البخاري في كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة – باب: الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦٨٥٨) (ج ٦ / ص ٢٦٥٨) ومسلم في كتاب:الحج – باب: فرض الحج مرة في العمر (١٣٣٧) (ج ٢ / ص ٩٧٥).

ومما احتجوا به أنهم قالوا: إن الآية التي قبلها في النصارى، وهي قوله تعالى: **{وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا}** [(١١٦) سورة البقرة] لكن كما عرفنا أنها ليست محمولة على النصارى بالاتفاق؛ بل منهم من قال هي في أهل الإشراك؛ لأنهم قالوا: إن الملائكة بنات الله، ومنهم من قال: في اليهود؛ لأنهم قالوا: عزير ابن الله، ومنهم من قال: إنها في النصارى، وأشهر من نسب إلى الله هذه الفرية هم النصارى، ومن أهل العلم من حملها على جميع الطوائف التي وقعت في هذا الأمر.

على كل حال ابن جرير -رحمه الله- كان يحمل الآية السابقة على النصارى، وبالتالي فهو يقول: إن هذه الآية أيضاً لا زالت تتحدث عن النصارى، وهي قوله تعالى: **{وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ}** [(١١٨) سورة البقرة]، وهذه الرواية التي سبق ذكرها تقول: إنها في اليهود، وهو ظاهر صنيع ابن كثير -رحمه الله-.

ولا شك أن المشركين كما قص القرآن طلبوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- في مناسبات متعددة مثل هذا الطلب، حيث أكثروا على النبي -صلى الله عليه وسلم- في طلب الآيات، ولا شك أن هؤلاء المشركين أولى من يصدق عليه عدم العلم، فهم أهل جهل، ويمكن أن تحمل الآية على كل من وقع منه ذلك؛ لأن هذا الطلب إنما يصدر عمن كان موصوفاً بقلة العلم؛ لأنه يطلب الآيات على سبيل التعنت، فهو لم يكتف بما شاهد من الآيات، بل يريد الآيات التي يقترحها هو، فهو يريد من الله أن يكلمه بشخصه أو ينزل عليه كتاباً يقرؤه كما أنزل على هذا النبي، أو أن الله يحقق من الآيات ما اقترحه هو، كأن يحول الصفا ذهباً، أو يأتي الله مع رسوله -صلى الله عليه وسلم- والملائكة قبيلاً، أو أن يرقى النبي في السماء، وليس ذلك فحسب بل لا بد وأن يأتي معه بكتاب من الله -عز وجل- يقرءونه، إلى غير ذلك من الآيات التي اقترحوها.

قوله: **{وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ}** [(١١٨) سورة البقرة] إذا فسرناها بما جاء في القرآن فإننا سنجد أن ذلك وقع كثيراً من المشركين، وكل من طلب هذا الطلب من هؤلاء المتعنتين فهم من الذين لا يعلمون، سواء كان لقلة معرفتهم أو كان عندهم من العلوم ما لا ينفعهم، فالعلم إذا كان غير نافع لصاحبه فإنه يكون كالعدم، ولهذا سمى الله -عز وجل- من عصاه جاهلاً، والسبب في ذلك أن العلم يورث الخشية، لذلك يقول تعالى: **{أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ}** [(٥٤) سورة الأنعام].

"وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدي في تفسير هذه الآية: هذا قول كفار العرب {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ} [(١١٨) سورة البقرة] قال: هم اليهود والنصارى، ويؤيد هذا القول وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب، قوله تعالى: {وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ} [(١٢٤) سورة الأنعام]."

في قوله: **{كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ}** الذين من قبلهم هم اليهود والنصارى، وهذا قاله بعض السلف هنا، وعلى قول ابن جرير -رحمه الله-: إن الذين قالوا لولا يكلمنا الله هم النصارى، فإن المقصود بقوله **{كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ}** هم اليهود.

"وقوله تعالى: {وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا} [(٩٠) سورة الإسراء] إلى قوله: {قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً} [(٩٣) سورة الإسراء] وقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا} [(٢١) سورة الفرقان] الآية وقوله: {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً} [(٥٢) سورة المدثر] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به، إنما هو الكفر والمعاندة، كما قال مَن قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابيْن وغيرهم كما قال تعالى: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاء فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً} [(١٥٣) سورة النساء] وقال تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [(٥٥) سورة البقرة].

وقوله تعالى: {تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ} [(١١٨) سورة البقرة] أي: أشبهت قلوب مشركي العرب قلوب من تقدمهم في الكفر والعناد والعتو كما قال تعالى: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ* أَتَوَاصَوْا بِهِ} [(٥٢-٥٣) سورة الذاريات] الآية.

وقوله: {قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [(١١٨) سورة البقرة] أي: قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى، لمن أيقن وصدق واتبع الرسل، وفهم ما جاءوا به عن الله -تبارك وتعالى-."

ولذلك وصفهم بأنهم لا يعلمون فقال: {وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} [(١١٨) سورة البقرة] يعني أنه قد جاء من الآيات ما يكفي لأهل العلم واليقين أن يؤمنوا بها ويكون برهاناً دالاً على صحة ما جاء به الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فيبقى أهل العناد والتعنت والجهالة يقترحون الآيات.

" وأما من ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة فأولئك الذين قال الله فيهم: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [(٩٦-٩٧) سورة يونس]."

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٥١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال الحافظ -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} [(١١٩) سورة البقرة]: "لا نسألك عن كفر من كفر بك، كقوله: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [(٤٠) سورة الرعد] وكقوله تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ* لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ} [(٢١-٢٢) سورة الغاشية] الآية، وكقوله تعالى: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ} [(٤٥) سورة ق] وأشباه ذلك من الآيات.

وروى الإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عَمْرو بن العاص -رضي الله عنهما- فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في التوراة، فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، وأنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لست بفظٍ ولا غليظ ولا سَخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله فيفتح به أعينا عُمْيًا وآذانًا صُمًّا، وقلوبا غُلْفًا" انفرد بإخراجه البخاري، فرواه في البيوع وفي التفسير[1]".

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ}** [(١١٩) سورة البقرة] الحق الذي أرسل به -صلى الله عليه وسلم- هو هذا الإسلام وهذا القرآن وهذا الوحي الذي جاء به من عند ربه -تبارك وتعالى-.

وأرسل -صلى الله عليه وسلم- بشيراً ونذيراً أي: مبشراً ومنذراً، والبشارة هي الإخبار بما يسر، وذلك غالب في عرف الاستعمال، وقد تستعمل في الإخبار بما يسوء كما في قوله تعالى: **{فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}** [(٢٤) سورة الإنشقاق] لكن الغالب أن تستعمل في الإخبار بما يسر خاصة، وقيل لها ذلك ربما لأنه يظهر أثرها على بشرة المبشَّر، وذلك أن المشاعر النفسانية تظهر آثارها على الإنسان من حمرة في الوجه وبهجة أو صفرة أو غير ذلك.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- جاء بشيراً ونذيراً وجاء أيضاً بأمور أخرى، جاء يعلم الناس الكتاب والحكمة وأشباه ذلك، فهذا لا يدل على الحصر؛ إذ ليست بعثته -صلى الله عليه وسلم- مختصة بذلك فقط وإن كانت ظواهر بعض النصوص تدل على هذا، ولكنه إنما يعلِّم ويأمر وينهى -صلى الله عليه وسلم- من أجل الامتثال فهو يبشر هؤلاء من أهل الامتثال وينذر المعرضين.

---

1 - صحيح البخاري في كتاب البيوع - باب كراهية السخب في السوق (٢٠١٨) (ج ٢ / ص ٧٤٧) وفي كتاب التفسير - باب قوله تعالى: **{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}** [(٨) سورة الفتح] (٤٥٥٨) (ج ٤ / ص ١٨٣١).

والمراد بالنِّذارة الإعلام مع التخويف، فليس كل إعلام بإنذار ولكن كل إنذار يقال له: إعلام، فالنِّذارة أن يعلمه مع تخويف.

وقوله تعالى: **{وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ}** [(١١٩) سورة البقرة] فتفسيره بما ذكره الحافظ ابن كثير –رحمه الله– هو المتعين، وهو المتبادر من ظاهر هذه الآية بأنْ ليس ذلك مما كلف به وإنما هذا يكون إلى الله –عز وجل– وحده لا شريك له.

وفي قراءة أخرى متواترة (ولا تَسْألْ عن أصحاب الجحيم) –بفتح التاء– وعلى هذه القراءة المتواترة يكون معناها أبلغ في الوعيد، مثاله أن تقول: لا تسأل عن حال فلان ما سيُصنع به، أي لا تسأل عما وقع لهم، والمعنى أنه وقع لهم أمر شديد، ويمكن أن تحمل هذه القراءة على أن المراد ليس ذلك مما كلفت به.

"{وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [(١٢٠-١٢١) سورة البقرة].

قال ابن جرير: يعني بقوله –جل ثناؤه–: {وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبدًا، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق."

رضا اليهود والنصارى عن ديننا وعن نبينا محمد –عليه الصلاة والسلام– وعنا لن يتحقق إلا باتباع ملتهم، فـــ(حتى) في قوله: **{وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}** للغاية، أي إن كنت على دين اليهود رضي عنك اليهود وغضب النصارى، وإن كنت على دين النصارى رضي النصارى وغضب اليهود، وأسخطت ربك في كل حال.

وأما الكف عن القتال فإنه يمكن أن يتحقق إذا تخلينا عن ديننا، قال تعالى: **{وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ}** [(٢١٧) سورة البقرة] فالقتال مستمر دائم لا يتوقف إلا بالتخلي عن إسلامنا، وإذا تخلينا عن إسلامنا فلن يرضوا بل لا يزالون يناصبوننا العداوة، وإنما يكون رضاهم إذا كنا على دينهم وأسخطنا ربنا –جل جلاله– وهذا شيء مشاهد، فمهما قدمت لهم من التنازلات فإنهم لا يرضون.

"وقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى} [(١٢٠) سورة البقرة] أي: قل يا محمد: إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى، يعني: هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل.

قال قتادة في قوله: {قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى} [(١٢٠) سورة البقرة] قال: خصومة علَّمها الله محمدًا –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلالة."

قوله: **خصومة علَّمها الله محمدًا –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلالة**، الخصومة بمعنى أنه علمهم طريق الجدل وكيف يردون، فإن قالوا كذا فقل لهم كذا، فهو سبحانه علمهم وجه الرد والمجادلة والاحتجاج.

{قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى} [(١٢٠) سورة البقرة] هم يريدون أن يكون على ملتهم فعلمه أن يقول لهم: **{قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى}** [(١٢٠) سورة البقرة]، ودخول "أل" على الهدى هنا في مثل هذا المقام يدل على استحواذه

على الوصف الكامل، يعني أنه هو الهدى المطلق الكامل من كل وجه، تقول: فلان هو الرجل، يعني الرجل الكامل في صفات الرجولة، وتقول: هذا هو الغناء، يعني هذا هو الغناء الحقيقي، وتقول: هذا هو العلم، يعني هذا هو العلم الصحيح الكثير المقنع، وتقول: هذه هي الحجة بمعنى الحجة المرضية القاطعة لشبهات أهل الزيغ، وهكذا يستعمل الناس ذلك في كلامهم كثيراً، كقولهم هذا هو المسجد، هذا هو البناء، ومنه قوله تعالى: **{قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى}** [(١٢٠) سورة البقرة] أي الهدى الكامل الذي اشتمل على كل ما يحتاج إليه الناس لنجاتهم وفوزهم.

" قال قتادة: وبلغنا أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: **((لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله))**[٢] **قلت: هذا الحديث مُخَرَّج في الصحيح عن عبد الله بن عمرو.**

{وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} [(١٢٠) سورة البقرة] فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما عَلِموا من القرآن والسنة عياذاً بالله من ذلك، فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمته.

وقوله: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ} [(١٢١) سورة البقرة] قال عبد الرزاق عن مَعْمَر عن قتادة: هم اليهود والنصارى، وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

وقال: سعيد عن قتادة: هم أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وقال أبو العالية: قال ابن مسعود: والذي نفسي بيده، إن حق تلاوته أن يُحِلَّ حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله.

وقال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس في هذه الآية قال: يُحِلُّون حلاله ويُحَرِّمُون حرامه ولا يُحَرِّفُونه عن مواضعه.

وعن عمر بن الخطاب، -رضي الله عنه-: هم الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها، قال: وقد روي هذا المعنى عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان إذا مرَّ بآية رحمة سأل، وإذا مرَّ بآية عذاب تعوذ."

قوله: **{يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ}** لا شك أن من تلاوته على الوجه المطلوب أن يتدبره وأن يتفهمه وأن يقف عند مواضع السؤال ويقف عند مواضع الوعيد والتهديد، وأن يعتبر وأن يستشعر أنه مخاطب بهذا الخطاب، وأن يعمل به، يعمل بالكتاب، ويتحاكم إليه، فكل ذلك من تلاوته حق التلاوة.

وذهب بعض السلف -ومشى عليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- إلى أن المراد بهؤلاء **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ}** [(١٢١) سورة البقرة] في هذا المقام هم علماء اليهود، وهذا على اعتبار أن "أل" هنا عهدية، يعني الكتاب المعهود الذي أنزله الله -عز وجل- عليهم وقص الله -عز وجل- علينا خبره في مواضع من كتابه، فعند ابن جرير -رحمه الله- هم علماء اليهود الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله

[٢] - أخرجه مسلم في كتاب الإمارة - باب قوله صلى الله عليه وسلم: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم)) (١٩٢٣) (ج ٣ / ص ١٥٢٤).

فأقروا بحكم التوراة وعملوا بما أمر الله -عز وجل- فيها من اتباع محمد -صلى الله عليه وسلم- والإيمان به، والتصديق بما جاء به عن ربه -عز وجل-، فهؤلاء هم الذين يتلونه حق تلاوته؛ من تلاه إذا تبعه -على قول ابن جرير- فالتلاوة تحتمل أن تكون بمعنى القراءة، وتحتمل أن تكون بمعنى الاتباع، تلا يتلو ويتلوه بمعنى يتبعه،.

{يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ} يعني يتبعونه حق اتباعه؛ لأنهم آمنوا بالتوراة وفي ضمن ذلك ما أخبرت به التوراة من بعث محمد -صلى الله عليه وسلم- وأنه رسول من عند الله حقاً، فهؤلاء يتبعونه حق اتباعه، بل نقل الإجماع على أن المراد بتلاوته هنا حق التلاوة هو الاتباع، أي يتبعونه حق اتباعه، ومن المعلوم أن ابن جرير -رحمه الله- ينقل الإجماع ويريد به الأكثر وإن خالف فيه بعضهم، فهو يطلق الإجماع على قول الأكثرين، فعلى كل حال **{يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ}** أي يتبعونه حق اتباعه، ويبقى الاحتمال قائماً بأن التلاوة المراد بها القراءة، ولكن الذين يتلونه بمعنى يقرءونه حق قراءته لا يكون ذلك متحققاً فيهم إلا إذا اتبعوه حق اتباعه، فلا تكفي التلاوة بل لا بد من التدبر والتفهم، ولا بد من العمل به والتحاكم إليه، وإلا فإن هؤلاء يكونون قد وقعوا في شيء من هجره، كما قال تعالى: **{وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا}** [(٣٠) سورة الفرقان]، وهجره كما قال الحافظ ابن القيم: من هجر قراءته فهو هجره، من هجر تفهمه وتدبر معانيه فقد هجره، وكذلك من هجر العمل به أو هجر التحاكم إليه، فكل هؤلاء داخلون في هجره.

والمقصود هنا إذن أنه يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إن الآية تحتمل المعنيين، فالتلاوة بمعنى الاتباع، والتلاوة بمعنى القراءة، وبينهما ملازمة، فإن من قرأه حق قراءته، فلا بد أن يتفهمه وأن يعمل به ويتحاكم إليه.

والقاعدة أن الآية إذا احتلمت معنيين فأكثر بينهما ملازمة فإنها تحمل على كل هذه المعاني، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فقوله: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ}** [(١٢١) سورة البقرة] أي يقرءونه حق القراءة، ويتبعون ما فيه وينقادون لذلك، والله أعلم.

"وقوله: {أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} خبَر عن {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ} [(١٢١) سورة البقرة]."

أي أن الضمير في قوله: **{يُؤْمِنُونَ بِهِ}** يعود على الكتاب المذكور قبله، والمعنى أن **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ}** من صفتهم كذا وكذا، فهؤلاء هم الذين يؤمنون بالكتاب.

" أي من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد، كما قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم} [(٦٦) سورة المائدة] الآية، وقال: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ} [(٦٨) سورة المائدة]، أي: إذا أقمتموها حق الإقامة وآمنتم بها حَقَّ الإيمان وصدَّقتم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد -صلى الله عليه وسلم- ونَعْته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته، قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ} [(١٥٧) سورة الأعراف] الآية، وقال تعالى: {قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا* وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن

كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً} [(١٠٧-١٠٨) سورة الإسراء] أي: إن كان ما وعدنا به من شأن محمد -صلى الله عليه وسلم- لواقعًا."

وعلى هذا تحمل الآيات التي هي نظير لهذه الآية، وهي التي يتعلق بها الملبسون المدلسون الذين يذكرون مثل هذه الآيات ليقولوا: إن اليهود والنصارى على دين حق، وقد أثنى الله -عز وجل- عليهم ووعد المحسن منهم بالجنة وأنهم ناجون عند الله -عز وجل-، ولا يجوز أن نكفرهم، وكل ذلك من الكذب، بل هم كفار أعداء لله ولرسله، وإنما هذه الآيات التي أثنى الله -عز وجل- فيها على طائفة منهم هم الذين كانوا قبل مبعث محمد -صلى الله عليه وسلم- وكانوا على دين صحيح من غير تحريف، أو الذين أدركوه فاتبعوه، فإن إيمانهم بكتابهم حقاً يقتضي الاتباع لمحمد -عليه الصلاة والسلام- فمن لم يتبع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهو من حطب النار، وهم أكفر أهل الدنيا؛ لأنهم كفروا على علم، حيث أنزل الله عليهم كتبه وأرسل رسله، ومع ذلك وقعوا في هذا التكذيب والجحد والكفر العظيم، فما أحوجنا إلى تفهم هذه المعاني وبثها في الناس وخاصة في مثل هذه الأيام.

" **وقال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ* وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ* أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}** [(٥٢-٥٤) سورة القصص]، **وقال تعالى: {وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}** [(٢٠) سورة آل عمران]، **ولهذا قال تعالى: {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}** [(١٢١) سورة البقرة] **كما قال تعالى: {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ}** [(١٧) سورة هود]."

الضمير في قوله: **{بِهِ}** يرجع إلى نفس الكتاب المذكور، أي أن كل هذه الضمائر المذكورة ترجع إلى شيء واحد هو الكتاب، سواء في قوله: **{أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ}** [(١٢١) سورة البقرة]، أو في قوله: **{وَمَن يَكْفُرْ بِهِ}** [(١٢١) سورة البقرة]، أو في قوله: **{هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ}** [(٥٢) سورة القصص].... الخ..

" **وفي الصحيح: ((والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي، إلا دخل النار))**[3].

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ* وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [(١٢٢-١٢٣) سورة البقرة].

قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة، وكررت هاهنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم نعتَه واسمه وأمره وأمته فحذرهم من كتمان هذا وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم، من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بني عَمِّهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم، ولا يحملهم ذلك الحسدُ على مخالفته وتكذيبه والحيد عن موافقته، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين."

---

3 - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١٥٣) (ج ١ / ص ١٣٤).

على كل حال هذه الآية مضت، وتكرارها من أقرب ما يقال في تفسيره وبيان وجهه هو ما ذكره ابن كثير -رحمه الله-.

وبعض أهل العلم يذكر وجوهاً أخرى لتكرارها، ولكن قد لا يظهر وجهها وعليها معارضات، والعلم عند الله -عز وجل- والتكلف سبيل غير محمود في الكلام على آيات الله -تبارك وتعالى-.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٥٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على رسول الله وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال الحافظ -رحمه الله- في قوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [(١٢٤) سورة البقرة].

: "يقول تعالى مُنَبِّهًا على شرف إبراهيم خليله -عليه السلام- وأن الله تعالى جعله إماما للناس يقتدى به في التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي؛ ولهذا قال: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ} أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابيْن الذين ينتحلون ملَّة إبراهيم وليسوا عليها، وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم أي: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

ففي قوله تعالى: **{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}** [(١٢٤) سورة البقرة] الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: واذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم، و"إذ": منصوب بـــ"اذكر" مقدراً، ولهذا مشى عليه الحافظ -رحمه الله- في التفسير.

قوله: **{وَإِذِ ابْتَلَى}** الابتلاء هو الامتحان والاختبار ويكون بالخير والشر كما هو معروف، ويطلق في الاستعمال غالباً على الابتلاء بما يكره الإنسان، وسيأتي الكلام على الكلمات في قوله: **{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}** [(١٢٤) سورة البقرة].

وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **وأن الله تعالى جعله إماما للناس يقتدى به في التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي،** أي أن الله -عز وجل- امتحنه بكلمات من تكاليف الأمر والنهي، أو غير ذلك مما قيل أو قد يدخل في معناه ويرجع إليه غالباً.

قوله: **{فَأَتَمَّهُنَّ}** أي: قام بهن على الوجه المطلوب، فكافأه الله -عز وجل- على ذلك بقوله: **{إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}** [(١٢٤) سورة البقرة].

وإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- في بعض القراءات المتواترة يُقرأ إبراهام ويقال: إن هذا اللفظ مكون من شيئين هما: أب ورحيم، ويقولون: إن ذلك بالسريانية والله تعالى أعلم، كما يقولون في موسى: إنه مركب من كلمتين هما مو وشى والمعنى ماء وشجر، وهذا سبق ذكره في درس ماض من تفسير هذه السورة.

"{فَأَتَمَّهُنَّ} أي: قام بهن كلهن كما قال تعالى: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} [(٣٧) سورة النجم] **أي: وفَّى جميع ما شرع له فعمل به -صلوات الله عليه-.**

وقال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ* وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ* ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(١٢٠-١٢٣) سورة النحل].

وقال تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(١٦١) سورة الأنعام].

وقال تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [(٦٧-٦٨) سورة آل عمران]

وقوله تعالى: {بِكَلِمَاتٍ} أي: بشرائع وأوامر ونواه، فإن الكلمات تطلق ويراد بها الكلمات القدرية كقوله تعالى عن مريم -عليها السلام-: {وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} [(١٢) سورة التحريم]."

إذا قلت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، حينما تستعيذ بكلمات الله التي لا يجاوزها برٌّ ولا فاجر، فالمقصود بها الكلمات القدرية الكونية؛ لأنك تريد أن يكفيك الله شر كل ذي شر، وأن يكفيك المخاوف وإنما يكون ذلك بالكلمات القدرية الكونية.

ولو قلت: أعوذ بكلمات الله، وقصدت بها الكلمات الشرعية التي هي القرآن -كلام الله -عز وجل- صح ذلك؛ لأنه يجوز الاستعاذة بالصفة، قل أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر، أعوذ بكلمات الله التامات، فكل هذا من الاستعاذة بالصفة.

" وتطلق ويراد بها الشرعية كقوله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً} [(١١٥) سورة الأنعام] أي: كلماته الشرعية، وهي إما خبر صدق، وإما طلب عدل إن كان أمرًا أو نهيًا، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ} [(١٢٤) سورة البقرة] أي: قام بهن."

الكلمات في هذه الآية هي كلمات شرعية والمعنى أن الله ابتلاه بتكاليف معينة أي بشرائع من أمر ونهي، فقام بها على الوجه المطلوب، وهذا هو المشهور وهو الذي اختاره ابن جرير الطبري -رحمه الله- في هذه الآية، وقوله: {فَأَتَمَّهُنَّ} أي: قام بهن.

"{قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} [(١٢٤) سورة البقرة] أي: جزاءً على ما فَعَل، لمّا قام بالأوامر وتَرَكَ الزواجر جعله الله للناس قدوة وإمامًا يقتدى به ويحتذى حذوه."

{جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} الإمام هو المتقدم على غيره، والله -عز وجل- يقول: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا} [(٢٤) سورة السجدة]، فإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- جعله الله إماماً وكان أمة فهو رجل جامع لخصال الخير، وجامع للخصال الكاملة التي تفرقت في غيره، وصار مقدماً يقتدي به من جاء بعده، ويكفي أن الله أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- بأن يتبع ملة إبراهيم حنيفاً.

"وقد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل -عليه السلام- فروي عن ابن عباس في ذلك روايات: فروى عبد الرزاق عن ابن عباس: ابتلاه الله بالمناسك، وكذا رواه أبو إسحاق."

الله أخبرنا أنه ابتلى إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- بكلمات، ولم يحدد شيئاً دون شيء، فهذه الكلمات هي ما ابتلاه الله -عز وجل- به من التكاليف التي كلفه بها، فإلى هذا القدر يمكن أن نقف ونقول: كلفه بتكاليف فقام

بها على الوجه المطلوب الأكمل من غير إخلال ولا نقص ولا تفريط فكافأه الله -عز وجل- على ذلك أن جعله للناس إماماً، دون أن نخوض في تفاصيل هذه الكلمات التي كلفه الله -عز وجل- بها، وهذا الذي مشى عليه بعض المحققين، كابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وكلام السلف كثير في هذه الآية، وسواء قلنا: كلفه بشرائع الإسلام، أو كلفه ببعض التكاليف، بالمناسك، أو بأداء الرسالة، أو بالطهارة، أو بفراق قومه في الله، حينما أُمر بمفارقتهم وبمحاجة النمرود، أو بالصبر على ما وقع له من الأذى العظيم وإلقائه في النار، والهجرة من الأوطان أو ما يتعلق بالضيافة، وخبره في ذلك مع الملائكة معروف، أو ما ابتلي به من ذبح ولده ووحيده، فكل ذلك على كل حال هو من جملة التكاليف التي كلفه الله بها، فكل ذلك داخل تحت هذا المعنى الكبير، وليس هناك ما يوجب تخصيص بعض هذه المعاني دون بعض، وبالتالي يكفي أن نعرف هذا القدر من المعنى، فهو كلفه بتكاليف فقام بها على الوجه المطلوب، والله تعالى أعلم.

"وروى عبد الرزاق -أيضاً- عن ابن عباس: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ} [(١٢٤) سورة البقرة] قال: ابتلاه بالطهارة خمس في الرأس وخمس في الجسد؛ في الرأس قَص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق والسواك وفَرْق الرأس، وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونَتْف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء، قال ابن أبي حاتم: ورُوِي عن سعيد بن المسيب، ومجاهد، والشعبي، والنَّخَعي، وأبي صالح، وأبي الجلد، نحو ذلك."

وكل هذه من جملة التكاليف.

" قلت: وقريب من هذا ما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((عَشْرٌ من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البرَاجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء)) ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة[1]، قال وَكِيع: انتقاص الماء، يعني: الاستنجاء."

البراجم والرواجب بعضهم يقول: البراجم العُقد التي في ظاهر الكف والرواجب هي ما يقابلها من باطن الكف، وبعضهم يعكس، وعلى كل حال إذا قرأت في الفقه غسل البراجم والرواجب فمعناها تعاهد هذه المساقط التي قد ينبو عنها الماء.

"وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الفطرة خمس: الختان والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط))[2] ولفظه لمسلم.

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن: فراق قومه في الله حين أُمر بمفارقتهم، ومحاجَّته نمروذ في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه

---

1 - أخرجه مسلم في كتاب الطهارة - باب خصال الفطرة (٢٦١) (ج ١ / ص ٢٢٣).

2 - أخرجه البخاري في كتاب اللباس - باب تقليم الأظافر (٥٥٥٢) (ج ٥ / ص ٢٢٠٩) ومسلم في كتاب الطهارة - باب خصال الفطرة (٢٥٧) (ج ١ / ص ٢٢١).

خلافه، وصبره على قذفه إياه في النار ليحرقوه في الله على هول ذلك من أمرهم، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم.

قوله: **ليحرقوه في الله على هول ذلك**، ليس المعنى ليحرقوه في الله على هول هذا الجزاء وإنما المقصود مع شدة ذلك.

"وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه، فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء قال الله له: {أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [(١٣١) سورة البقرة] **على ما كان من خلاف الناس وفراقهم."**

على كل حال كل هذه المعاني فيما سبق ترجع إلى شيء واحد وهو التكاليف، والأمر والنهي.

"وقوله: {قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [(١٢٤) سورة البقرة] **لما جعل الله إبراهيم إمامًا، سأل الله أن تكون الأئمةُ من بعده من ذريته."**

قوله: **{وَمِن ذُرِّيَّتِي}** يحتمل أن يكون من قبيل السؤال والطلب والدعاء، أي أن الله أخبره أنه سيجعله إماماً، فدعا ربه لما أخذته الشفقة وما جبل عليه من محبة الخير للذرية، فقال: **{وَمِن ذُرِّيَّتِي}** أي اجعل أئمة سواء قيل:إن "من" بيانية أو قيل: إنها تبعيضية كما هو الخلاف في قوله تعالى: **{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}** [(١٠٤) سورة آل عمران]، فهذه تحتمل أيضاً أن تكون بيانية وأن تكون تبعيضية، فحينما يقول الرجل لأبنائه مثلا: أريد منكم أبناء بررة، فـــ"من" هنا بيانية؛ لأنه لا يريد أن يكون بعض هؤلاء الأبناء بررة والباقين عققة، لكن لما تقول: أريد منكم رجلين يذهبان إلى مكان كذا وكذا، فـــ"من" هنا تكون تبعيضية، والمقصود هنا أن قوله: **{وَمِن ذُرِّيَّتِي}** يحتمل أن تكون "من" بيانية يعني اجعل ذريتي أئمة، وتحتمل أن تكون تبعيضية، أي اجعل بعضهم أئمة.

فيحتمل أن يكون هذا طلباً، ويحتمل أن يكون على سبيل الاستفهام لما أخبره أنه سيجعله للناس إماماً سأل عن الذرية ما شأنهم، هل ستكون لهم الإمامة أو لا؟ فأجابه بأن ذلك لا ينال الظالمين منهم، والأقرب أن ذلك على سبيل الطلب، فهو طلب من ربه –تبارك وتعالى– أن يجعل من ذريته أئمة كذلك.

قوله: **{وَمِن ذُرِّيَّتِي}** الذرية يمكن أن تكون مأخوذة من الذر كما في فالحديث المفسر لقوله تعالى: **{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ}** [(١٧٢) سورة الأعراف] وأنه مسح على ظهر آدم فاستخرج ذريته أمثال الذر.

ويحتمل أن تكون مأخوذةً من: ذرأ، يقال: ذرأ الله الخلق، وقال تعالى: **{وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ}** [(١٣) سورة النحل]، ويحتمل غير ذلك باعتبار أن اللهً ذرأهم على الأرض كما يذرأ الزارع الحب، والله أعلم..

"لما جعل الله إبراهيم إمامًا سأل اللهَ أن تكون الأئمةُ من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون وأنه لا ينالهم عهد الله ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم، والدليل على أنه أجيب إلى طَلِبَتِهِ قول الله تعالى في سورة العنكبوت: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [(٢٧) سورة العنكبوت] **فكل نبي أرسله الله وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه.**

وأما قوله تعالى: {قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [(١٢٤) سورة البقرة] فيخبره أنه كائن في ذريته ظالم لا ينال عهده، ولا ينبغي أن يوليه شيئا من أمره وإن كان من ذرية خليله."

قوله تعالى: **{قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}** [(١٢٤) سورة البقرة] العهد المقصود به عهده بالإمامة، أي: لا ينال عهدي بالإمامة المذكورة في قوله: **{قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي}** [(١٢٤) سورة البقرة] أي الإمامة المشار إليها.

وبعضهم يقول: هي النبوة، وعلى كل حال فالنبوة داخلة في الإمامة؛ لأن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أئمة يقتدى بهم.

وبعضهم يقول: **{لاَ يَنَالُ عَهْدِي}** أي: الخلاص والنجاة من عذاب الآخرة، لكن هذا المعنى لم يجر له ذكر ولا يوجد ما يدل عليه، فهو لم يسأل ربه الخلاص لذريته والنجاة، فقال: **{لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}** أي ليس لهم عندي عهد بذلك.

وقول من قال: إن المقصود بالعهد هنا دين الله -عز وجل- فهذا أيضاً لا يخلو من بُعد، بل بعضهم يذكر معنى أبعد من هذا كله فيقول: أي: لا عهد عليك لظالم فتطيعه، وإنما الأقرب -والله أعلم- أي: لا ينال الإمامة التي أخبر -تبارك وتعالى- عنها أنها كائنة لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، ومن ثَمَّ دعا ربه أن يرزقه ذلك.

وسيأتي حينما أخبر الله عنه أنه دعا لمكة: **{رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ}** [(١٢٦) سورة البقرة] أنه قيد ذلك بقوله: **{مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}** [(١٢٦) سورة البقرة] فهو خص الدعاء بأهل الإيمان بالله وباليوم الآخر تأدباً؛ وذلك أنه لما سأل الإمامة لذريته في الأول فأخبره الله -عز وجل- أن ذلك لا يحصل للظالمين ظن أن الدعاء بالرزق أيضاً إنما يختص بأهل الإيمان، فقال: **{مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}** [(١٢٦) سورة البقرة] وهذا من أدب الأنبياء مع الله -عز وجل-، فهو ظن أن ذلك لا يصح أن يكون لأهل الكفر فبين الله له الفرق بين الرزق والإمامة وأن الإمامة تختلف، فقال: **{وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً}** [(١٢٦) سورة البقرة] فالدنيا تعطى للمؤمن والكافر، والرزق لا يختص بأهل الإيمان فهو شأن يختلف عن الإمامة، ولذلك فالإمامة في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}** [(١٢٤) سورة البقرة] ليس المقصود بها تحصيل الرئاسة والملك؛ فهذا يقع لأهل الخير والفضل ويقع للظالمين ولأهل الكفر، وإنما المقصود أن يكون إماماً يقتدى به في خصال الخير، ويقدم على غيره في الطاعة والصلاح والهدى، كما في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}** [(٧٤) سورة الفرقان]، والله تعالى أعلم.

"واختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة في الخبر أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل -عليه السلام- أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه.

وقال ابن خويز منداد المالكي: الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً ولا شاهداً ولا راوياً."

يعني يؤخذ منها ويفهم منها أن الظالم لا يصلح أن يقدم في الناس، ولكن ذلك ليس من الأمر القدري بحيث إن الله -عز وجل- قضى ذلك وحكم به وقدره بحيث إنه لا يحصل للظالمين، وإنما هو أمر يفهم من هذه الآية،

وهو أنه إذا كانت الإمامة في الدين لا تصلح للظالمين فكذلك أيضاً كل وجه يقدم به أهل الظلم والفجور والكفر ينبغي أن يمنع.

لكن الآية خبر كما هو ظاهر، فيُفْهَم منها هذا المعنى ضمناً، وخاصة أنه لم يرد هذا الخبر لتقرير هذه المعاني ابتداء وما سيق لذلك، وإنما لما قال الله: **{لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}** [(١٢٤) سورة البقرة] فُهم أن هذه الإمامة في ذرية إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- كما قال -عز وجل-: **{وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ}** [(١١٣) سورة الصافات] والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٥٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله.

قال الحافظ -رحمه الله- في قوله تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ من مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة]: " قال العوفي عن ابن عباس قوله تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ} يقول: لا يقضون منه وطرًا يأتونه ويرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً} [(١٢٥) سورة البقرة] أي واذكروا إذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً.

والمراد بقوله: {مَثَابَةً} قيل: مرجعاً يرجع إليه الناس بعد تفرقهم، وبعضهم يقول: مثابة من الثواب، أي أنه موضع للثواب، فهو مكان تعظُم فيه الحسنات وتكثَّر فيه الأجور وتحط فيه الخطايا، والهاء يمكن أن تكون للمبالغة أو للتأنيث.

فالمقصود أن قوله: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً} [(١٢٥) سورة البقرة] إما أن يكون المراد أنه محل للثواب، أو أنهم يثوبون إليه فيكون ذلك موافقاً لما جاء أو روي عن ابن عباس -رضي الله عنه- لا يقضون منه وطراً يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه، بمعنى أنهم لا يكتفون بزيارة واحدة إليه، بل كلما أتوا إليه ورجعوا إلى أهليهم تاقت نفوسهم إليه ثانية.

وابن القيم -رحمه الله- في زاد المعاد جعل ذلك من خصائص مكة، وهذا شيء مشاهد.

{وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً} [(١٢٥) سورة البقرة] يثوبون أي يرجعون إليه.

"قال العوفي عن ابن عباس قوله تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ} يقول: لا يقضون منه وطرًا، يأتونه ويرجعون إلى أهليهم، ثم يعودون إليه.

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً} [(١٢٥) سورة البقرة] يقول: وأمنًا من العدو، وأن يُجعَل فيه السلاح."

يعني يمكن أن يكون قوله: {وَأَمْناً} اسم مكان، أي موضع أمن إذ جعلناه مثابة يثوبون إليه كلما فارقوه تاقوا إليه ثانية.

وقوله: {وَأَمْناً} أي مكاناً يأمنون فيه من الخوف من العدو ومن الاعتداء، وأن يجعل فيه السلاح، ولهذا نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن حمل السلاح بمكة.

"وقد كانوا في الجاهلية يُتَخَطَّف الناس من حولهم، وهم آمنون لا يُسْبَون.

وروي عن مجاهد، وعطاء والسدي وقتادة والربيع بن أنس قالوا: من دخله كان آمنًا.

ومضمون هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفًا به شرعًا وقدرًا من كونه مثابة للناس، أي: جعله مَحَلا تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه ولا تقضي منه وطرًا."

قوله: **شرعاً وقدراً** أي أن الله –عز وجل- جعل مكة موضعاً للأمن كما قال الله –عز وجل-: **{وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ}** [(٦٧) سورة العنكبوت]، فجعلهم بهذه المثابة، أي يأمنون فيه مع كثرة المخاوف المحيطة به، فالناس يحصل لهم من السبي والقتل وما إلى ذلك مما يحصل من غارات القبائل وما إلى ذلك، وأما مكة فقد جعلها الله –عز وجل- موضعاً يأمنون فيه على نفوسهم وأموالهم، وهذا معنى: قدراً، وأما: شرعاً فحرمة مكة معلومة حيث إن الله –عز وجل- قد حرمها مذ خلق السموات والأرض، وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم-: ((إن إبراهيم حرم مكة))[1].

"ولا تقضي منه وطراً ولو ترددت إليه كلَّ عام، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم –عليه السلام- في قوله: {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} [(٣٧) سورة إبراهيم] **إلى أن قال: {رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء}** [(٤٠) سورة إبراهيم] **ويصفه تعالى بأنه جعله آمنًا، من دخله أمن ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمنًا، وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولا."**

هذا الكلام قال به بعض السلف ولكنه ليس محل اتفاق، إذ إن البيت لا يجير من قد أصاب دماً حراماً أو مالاً حراماً أو نحو ذلك، فالراجح من أقوال أهل العلم أنه يؤخذ من أحدث فيه حدثاً.

وتكلم العلماء –رحمهم الله- أيضاً على ما إذا بغى أهل مكة على الإمام ولم يمكن دفعهم عن ذلك البغي إلا بالقتال، فالمقصود أن الحرم موضع للأمن؛ ولكن ليس معنى ذلك أن السارق يسرق فيترك، والقاتل يقتل فيترك، فيكون الحرم محلاً لاجتماع المجرمين، إذ لو كان الأمر كذلك فكل من جنى جناية سيلجأ إلى الحرم.

"وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولاً وهو خليل الرحمن كما قال تعالى: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا} [(٢٦) سورة الحـج] **وقال تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا}** [(٩٧) سورة آل عمران].

وفي هذه الآية الكريمة نَبَّه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده فقال: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة].

وقال سفيان الثوري عن عبد الله بن مسلم عن سعيد بن جبير: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة] **قال: الحَجر مقام إبراهيم نبي الله قد جعله الله رحمة فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة، ولو غَسل رأسَه كما يقولون لاختلف رجلاه."**

قوله تعالى: **{وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}** [(١٢٥) سورة البقرة]، في القراءة الأخرى المتواترة، قراءة نافع وابن عامر بفتح الخاء: (واتَّخَذوا) على سبيل الخبر، والقراءة الأولى على سبيل الأمر **{وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}** [(١٢٥) سورة البقرة]، ولا منافاة بين القراءتين، إذ إن كل واحدة منهما تدل على مشروعية الصلاة عند مقام إبراهيم –عليه الصلاة والسلام-.

والمقصود بمقام إبراهيم –عليه الصلاة والسلام- على المشهور من أقوال أهل العلم أنه الحجر المعروف الذي فيه موطئ قدمه –صلى الله عليه وسلم- وأصل ذلك على المشهور عند أهل العلم أنه كان يرتقي عليه

---

1 - أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب أحد يحبنا ونحبه (٣٨٥٦) (ج ٤ / ص ١٤٩٨) ومسلم في كتاب الحج - باب فضل المدينة ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها (١٣٦١) (ج ٢ / ص ٩٩١).

لبناء الكعبة فظهر أثر قدميه على هذا الحجر مع ملامسة ما يبنى به الطين ونحو ذلك، وليس ذلك كما يقول بعضهم من أنه كان يغتسل عليه أو أنه اغتسل عليه؛ فهذا ليس له علاقة بموضوع بناء الكعبة بل ليس له أصل إذ لو كان قد اغتسل عليه لاختلفت قدماه، أي أن الماء حينما يمتزج بالطين فإنه لا يكون ذلك موضعاً متميزاً تظهر فيه آثار القدم بالأصابع، بمعنى أنه لو كان محلاً للاغتسال لاختلفت قدماه فلا تنطبع فيه بهذه الطريقة، والمغتسِل كذلك لا يجعل رجله بهذه المثابة وإنما هو بحاجة إلى غسلها، فالمقصود أن ذلك الحجر إنما كان يرتقي عليه لبناء الكعبة.

وهذا الحجر كما جاء عن أنس بن مالك –رضي الله عنه– أن أصابع إبراهيم –صلى الله عليه وسلم– كانت ظاهرة فيه، وأنس –رضي الله عنه– من صغار الصحابة كان يقول: إنه أدرك الحجر وإن أصابع قدم إبراهيم كانت ظاهرة فيه، وطبعاً الأصابع الآن غير ظاهرة وإنما الموجود أثر قدم ليس لها آثار الأصابع، ويذكر أن ذلك قد ذهب بسبب مسح الناس عليها، وهذا من أعجب الأمور؛ وذلك أن تلك الآثار بقيت تلك المدة الطويلة ومرت بفترة الجاهلية وهم أهل أوثان ثم ذهبت في مدة يسيرة حيث أدركها أنس وجوداً وعدماً بسبب مسح الناس عليها فهذا يدل على نشاط الشيطان والجهود الحثيثة التي يؤز بها الناس من أجل دفعهم إلى التشبث بالأحجار وما إلى ذلك، فالناس يسرعون إلى مثل هذه الأشياء، وكثير منهم يتعلقون بها، والدلائل والشواهد على هذا كثيرة جداً، ومن ذلك خبر عمر –رضي الله عنه– في الشجرة التي رأى الناس يسرعون إليها في طريقه بين مكة والمدينة فأمر بقطعها، إلى غير ذلك من الأخبار.

"وقال السدي: المقام: الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم حتى غسلت رأسه."

هذا الكلام يفسر الرواية السابقة، فالرواية السابقة قد لا تتضح وهي: **ولو غَسل رأسَه كما يقولون لاختلف رجلاه**، والمقصود أنه كان يغتسل عليه فيما قيل، لكن هذا الكلام فيه نظر.

"حكاه القرطبي وضعفه، ورجحه غيره، وحكاه الرازي في تفسيره عن الحسن البصري وقتادة والربيع بن أنس.

وروى ابن أبي حاتم عن جابر يحدث عن حجة النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "لما طاف النبي –صلى الله عليه وسلم– قال له عمر: هذا مقام أبينا؟ قال: نعم، قال: أفلا نتخذه مصلى؟ فأنزل الله –عز وجل–: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة][2]."

الروايات الثابتة أن عمر –رضي الله تعالى عنه– قال للنبي –صلى الله عليه وسلم–: "لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى"[3]، وإن كان بعض هذه الروايات بمفردها لا يصح من جهة الإسناد كهذه الرواية، ولكن ذلك ثابت بأدلة أخرى من طرق أخرى لا مطعن في ثبوتها.

"وقال البخاري: باب قوله: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة] **مثابة يثوبون يرجعون، ثم روى عن أنس بن مالك، قال: قال عمر بن الخطاب: "وافقت ربي في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث،**

---

2 – أخرجه ابن ماجه في كتاب المساجد والجماعات – باب القبلة (١٠٠٨) (ج ١ / ص ٣٢٢) وقال الألباني: ضعيف منكر كما في سنن ابن ماجه.

3 – أخرجه البخاري في أبواب القبلة – باب ما جاء في القبلة ومن لا يرى الإعادة على من سها فصلى إلى غير القبلة (٣٩٣) (ج ١ / ص ١٥٧) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم – باب من فضائل عمر رضي الله عنه (٢٣٩٩) (ج ٤ / ص ١٨٦٥) واللفظ للبخاري.

قلت: يا رسول الله: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة] **وقلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب، قال: وبلغني معاتبة النبي -صلى الله عليه وسلم- بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت: إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن، حتى أتيت إحدى نسائه قالت: يا عمر أما في رسول ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟ فأنزل الله: {عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ...}** [(٥) سورة التحريم] **الآية[٤].**

وروى ابن جرير عن جابر قال: استلم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الركن، فرمل ثلاثًا، ومشى أربعًا، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم، فقرأ: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة] **فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين، وهذا قطعة من الحديث الطويل الذي رواه مسلم في صحيحه.**

وروى البخاري بسنده عن عمرو بن دينار قال: "سمعت ابن عمر يقول: قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فطاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين"[٥].

فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحَجَرُ الذي كان إبراهيم -عليه السلام- يقوم عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل -عليه السلام- به ليقومَ فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، وكلَّما كَمَّل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى، يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها وهكذا حتى تم جداران الكعبة كما سيأتي بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت من رواية ابن عباس عند البخاري وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه ولم يزل هذا معروفًا تعرفه العرب في جاهليتها؛ ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية:

ومَوطئُ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافيًا غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك."

طبعاً عرف أنه كان حافياً غير ناعل لظهور آثار الأصابع، بينما حالياً لا يظهر فيها أنه كان حافياً غير ناعل، وعلى كل حال المقام المقصود به الحجر، وهذا هو المشهور، وهو الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً، ومن ثم فإن الصلاة تكون مرتبطة به، فمهما تغير مكانه فإنه يصلى خلفه لا خلف المكان الذي هو فيه؛ بدليل أن عمر -رضي الله عنه- لما نقله لم يُنقل عن أحد لا عمر ولا غير عمر أنه صلى في موضعه الأول، أو إلى موضعه الأول، فليست العبرة بمكانه كما هو الحال بالنسبة للكعبة، فإنه كما هو معلوم لو أنها هدمت مثلاً فإنه يصلى إلى الجهة، ولو أن الإنسان صلى من السطح فإنه يصلي إلى الجهة وإن كان لن يقابل البناء وإنما يقابل ما فوقه، فالمقصود أن الاتجاه أو الاستقبال أو الصلاة تكون خلف الحجر، وليس خلف مكان الحجر.

---

4 – أخرجه البخاري في أبواب القبلة – باب ما جاء في القبلة ومن لا يرى الإعادة على من سها فصلى إلى غير القبلة (٣٩٣) (ج ١ / ص ١٥٧) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم – باب من فضائل عمر رضي الله عنه (٢٣٩٩) (ج ٤ / ص ١٨٦٥) واللفظ للبخاري.

5 – أخرجه البخاري في كتاب الحج – باب من صلى ركعتي الطواف خلف المقام (١٥٤٧) (ج ٢ / ص ٥٨٨) ومسلم في كتاب الحج – باب ما يلزم من أحرم بالحج ثم قدم مكة من الطواف والسعي (١٢٣٤) (ج ٢ / ص ٩٠٦).

وهناك من قال: إن مقام إبراهيم المقصود به عرفة -وهذا بعيد- ومنهم من فسره بما هو أوسع من هذا، فقال: مقام إبراهيم، أي مقاماته في الحج، ومقاماته في الحج عرفة ومزدلفة ومنى والجمار وما إلى ذلك، وعلى هذا فالمقصود بقوله تعالى: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة] أي اتخذوا منها متعبدا، وهذا بعيد، والله أعلم.

"وقد أدرك المسلمون ذلك فيه، فعن أنس بن مالك قال: رأيت المقام فيه أثر أصابعه -عليه السلام- وأخْمَص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم.

قلت: وقد كان المقام ملصقًا بجدار الكعبة قديمًا، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك.

وكان الخليل -عليه السلام- لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك؛ ولهذا -والله أعلم- أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عُمَرُ بن الخطاب -رضي الله عنه- أحدُ الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أُمِرْنا باتباعهم، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اقتدوا باللَّذَين من بعدي أبي بكر وعمر))[6] وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصلاة عنده؛ ولهذا لم ينكر ذلك أحد من أصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

قال عبد الرزاق عن ابن جُرَيج حدثني عطاء وغيره من أصحابنا: قال: أول من نقله عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-.

وروى عبد الرزاق أيضًا عن مجاهد قال: أول من أخر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-.

وروى الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن الحسين البيهقي عن عائشة -رضي الله عنها- أن المقام كان في زمان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وزمان أبي بكر -رضي الله عنه- ملتصقًا بالبيت، ثم أخره عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه- وهذا إسناد صحيح مع ما تقدم."

---

[6] - أخرجه الترمذي في كتاب المناقب - باب في مناقب أبي بكر و عمر رضي الله عنهما كليهما (٣٦٦٢) (ج ٥/ ص ٦٠٩) وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٢٨٩٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٥٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} [(١٢٥) سورة البقرة]: **"قال الحسن البصري: قوله: {وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ}** [(١٢٥) سورة البقرة] **قال: أمرهما الله أن يطهراه من الأذى والنَّجَس ولا يصيبه من ذلك شيء، وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره.**

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: قوله: {أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ} [(١٢٥) سورة البقرة] **قال: من الأوثان.**

وقال مجاهد وسعيد بن جُبَير: {طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ} أن ذلك من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -عز وجل-: **{وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ}** [(١٢٥) سورة البقرة]: عهده أي أمره، أي أمرناهما بتطهير البيت، وهذا التطهير يشمل جميع الأقوال التي قالها السلف -رضي الله تعالى عنهم-، إذ إنه يشمل التطهير الحسي، كما يشمل التطهير المعنوي، فقد أمرهما الله -عز وجل- بتطهيره من النجاسات الحسية من كل قذر يدنسه، وكذلك من النجاسات المعنوية كالشرك والفجور والفواحش وأشباه ذلك، فينبغي أن يكون حرمُ الله -عز وجل- أطهر بقعة حساً ومعنى.

"وأما قوله تعالى: {لِلطَّائِفِينَ} فالطواف بالبيت معروف، وعن سعيد بن جبير أنه قال في قوله تعالى: {لِلطَّائِفِينَ} يعني: من أتاه من غُرْبة."

الطائفين يحتمل معنيين، المعنى الأول وهو المشهور المتبادر: أنهم الذين يطوفون بالكعبة، فيطهّر لهم؛ لأن مكة تفترق عن غيرها؛ إذ فيها عبادة تختص بها لا توجد في مكان آخر وهي الطواف، فإذا ذكر الطواف مع البيت فإن المقصود به الطواف المعروف.

ومن أهل العلم من حمل الطواف في قوله: **{لِلطَّائِفِينَ}** على معنى آخر أي من يطوف به بمعنى العابر ومن يلم به، أي من يكون مجيئه عارضاً دون من هم من أهل مكة، وهؤلاء الذين يفسرونه بهذا التفسير يجعلون العكوف مقابلاً له، بمعنى أن الطائف هو الذي يأتي البيت من خارج، ويكون العاكف على هذا الاعتبار هو المقيم بمكة، وتفسير الطائفين بهذا المعنى فيه بعد؛ فالأصل حمل ألفاظ القرآن على المعنى المتبادر المشهور دون المعنى البعيد، والله تعالى أعلم.

قال تعالى: **{لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ}** [(١٢٥) سورة البقرة]: لمّا تقول: طفت البلاد أو تقول: فلان طاف البلاد فمعنى ذلك أنه زارها وقدم إليها ومر بها ونحو ذلك، ولذلك من الطبيعي أن يفسر (العاكفين) بضد (الطائفين) ما دام فسر الطائفين بالواردين إليه من خارجه، إلا أن العكوف لا يفسر بما يقابل الطواف بهذا الاعتبار وإنما

هو لون من ألوان العبادة؛ إذ إن الله -عز وجل- ذكر هذه العبادات في بيته الحرام وهي الطواف -وهو العبادة المعروفة- والاعتكاف -وهو العبادة المعروفة أيضاً-، فيكون قوله: {وَالْعَاكِفِينَ} يعني الملازمين للعبادة فيه على سبيل المجاورة.

وأصل العكوف معروف، فهو يعني البقاء مدة معتبرة يصح أن يقال عنها عكوف على وجه التعبد، وهذا المعنى هو معنىً تقريبي للعكوف، تقول: فلان عاكف على كذا بمعنى أنه يطيل المكث، ومن هنا نعرف أن من قال: إن الاعتكاف يصح ولو لحظة ولو ساعة، وإذا دخلت لتصلي فرضاً فانوِ الاعتكاف، نعرف أن هذا غير صحيح، وبه نعرف أيضاً أنه يعتبر قول من قال: إن أقل الاعتكاف يوم وليلة، فالاعتكاف هو المكث مدة طويلة في المكان وإن لم يكن ذلك محدداً بساعات كيوم وليلة، أو أقل أو أكثر، بل ملازمة طويلة عرفاً يقال لها اعتكاف، وكل من لازم شيئاً يقال له: عكف عليه فهو عاكف، قال تعالى عن إبراهيم -عليه السلام-: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} [(٥٢) سورة الأنبياء].

وعلى كل حال فإن أحسن ما يفسر به قوله تعالى: {وَالْعَاكِفِينَ} أنه الاعتكاف المعروف الذي هو المجاورة على سبيل التعبد -والله أعلم- وهذا هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- مع أنه كما ذكرنا أن جمعاً من أهل العلم من السلف والخلف -رضي الله تعالى عنهم- قالوا: إن المراد بالعكوف هنا الإقامة، فيكون ذلك كما قلت مقابلاً للطائفين على تفسيره بأنه مَن ورد عليه من غير أهل مكة، فيكون العاكفون بهذا الاعتبار هم أهل الحرم، أهل مكة، لكن القول الآخر أحسن والله أعلم.

"{وَالْعَاكِفِينَ} [(١٢٥) سورة البقرة] المقيمين فيه، وهكذا روي عن قتادة، والربيع بن أنس أنهما فسرا العاكفين بأهله المقيمين فيه كما قال سعيد بن جبير، وأما قوله تعالى: {وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} [(١٢٥) سورة البقرة] فروي عن ابن عباس {وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} قال: إذا كان مصليًا فهو من الركع السجود، وكذا قال عطاء وقتادة."

هذا كله حينما يُنظر إليه ويعتبر يمكن أن يفسر به ما قبله، فهو ذكر الطواف والاعتكاف والصلاة وهذه العبادات أظهر وأشهر العبادات التي يمكن أن تكون في بيت الله الحرام، وهناك عبادات أخرى مثل الذكر والصدقة وقراءة القرآن وما أشبه ذلك، ولكن أظهر هذه العبادات هي الاعتكاف والصلاة والطواف، يعني هذه العبادات هي مما يكون أكثر اختصاصاً بالمسجد.

"وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة ومن قوله تعالى: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [(٣٦) سورة النـــــور] ومن السنة من أحاديث كثيرة من الأمر بتطهيرها وتطييبها وغير ذلك من صيانتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك، ولهذا قال -عليه السلام-: ((إنما بنيت المساجد لما بنيت له))[1]، وقد جَمَعْتُ في ذلك جزءًا على حدة، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [(١٢٦) سورة البقرة] روى الإمام أبو جعفر بن جرير عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله

---

1 - أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد (٥٦٩) (ج ١ / ص ٣٩٧).

-صلى الله عليه وسلم-: **((إن إبراهيم حَرَّم بيت الله وأمَّنَه وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها فلا يُصَادُ صيدها ولا يقطع عضاهها))**[٢] **وهكذا رواه النسائي وأخرجه مسلم."**

إبراهيم حرم مكة إما باعتبار أن المخاطبة للمكلفين كانت بتحريم مكة، وإن كان قد حرمها الله -عز وجل- يوم خلق السموات والأرض كما ثبت ذلك عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ولكن الله -عز وجل- لم يخاطب الناس به وإنما أظهر ذلك وخاطبهم به على لسان إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وهذا هو وجه الجمع بين النصوص الواردة في تحريم مكة يوم خلق الله السموات والأرض وبين ما ورد من أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- هو الذي حرم مكة، فيكون باعتبار أن الله لم يخاطب به حينما حرمها وإنما كان الخطاب به على لسان إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فنسب إليه.

ويمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إن الله حرم مكة فهو -تبارك وتعالى- مصدر الأحكام، وهو الذي يحكم، وهو الذي يحلل ويشرع والرسل إنما يبلغون عن الله -عز وجل-، فإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- دعا ربه لمكة واستجاب الله -عز وجل- دعاءه فكان ما كان مما قضاه الله -تبارك وتعالى- تجاه بيته المعظم ومن ذلك أنه جعله حرماً آمناً تهفو إليه الأفئدة ورزق أهله من الثمرات ممن آمن بالله واليوم الآخر ومن لم يؤمن، -والله تعالى أعلم- فهذان وجهان في الجمع بين هذه النصوص، وكلها يحتمل، ويمكن أن يقال: إنه لا منافاة بينها أصلاً، والأمر في ذلك قريب، والله أعلم.

قوله: **((ولا يقطع عضاهها))**: الشجر الذي له شوك يقال له: عضاه، والكلام في حرم المدينة ليس هذا محله، والمقصود أن الله حرم مكة وإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- حرم مكة، وإبراهيم مبلغ عن الله -عز وجل-.

"وقد وردت أحاديث أخَرُ تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السماوات والأرض، كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم فتح مكة: ((إن هذا البلد حَرَّمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحِل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يُعْضَد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلْتَقَط لُقَطَتُه إلا من عرَّفها، ولا يختلى خَلاهَا)) فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذْخَر فإنه لقَينهم ولبيوتهم، فقال: ((إلا الإذخر))[٣]**."**

قوله: **((لا يختلى خلاها))** يعني لا يحتش الحشيش منها.

وقول العباس: **فإنه لقينهم**، القين بمعنى الحدَّاد -وهذا في الأغلب والأشهر- ويطلق على الصانع عموماً، فالحداد يحتاج للإذخر من أجل صنعته.

قوله: **فإنه لقينهم ولبيوتهم**، يعني يوضع في السقف فوق الخشب، ثم يوضع فوقه الطي.

---

[2] - صحيح مسلم في كتاب الحج - باب فضل المدينة ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها (١٣٦٢) (ج ٢ / ص ٩٩٢) والنسائي في السنن الكبرى في كتاب الحج - باب ثواب من صبر على جهد المدينة وشدتها (٤٢٨٤) (ج ٢ / ص ٤٨٧) واللفظ له.

[3] - أخرجه البخاري في أبواب الجزية والموادعة - باب إثم الغادر للبر والفاجر (٣٠١٧) (ج ٣ / ص ١١٦٤) ومسلم في كتاب الحج - باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام (١٣٥٣) (ج ٢ / ص ٩٨٦).

وهذا الحديث فيه مسألة معروفة عند الأصوليين في باب التخصيص عند الكلام على الاستثناء، إذ إن من التفاصيل الداخلة تحت موضوع الاستثناء أن الاستثناء إنما يكون من متكلم واحد في أوله وفي آخره، فتقول مثلاً: لك مائة درهم إلا ثلاثة، يعني لك سبع وتسعون درهماً، وهذا كلام ظاهر، لكن إذا كان الاستثناء من طرف آخر، كأن يقول إنسان: له مائة فقال شخص آخر: إلا ثلاثة، فهل هذا يصح أم لا بد أن يكون من متكلم واحد؟

هذا فيه كلام عند الأصوليين، ومن قال: إن ذلك يصح فقد احتج بهذا الحديث، وعلى كل حال مثل هذا لا يخفى، فإذا كان قد أقر به وكان ذلك متصلاً بكلامه الأول عرفاً فإن ذلك ينـــزل منـــزلة كلامه، وإلا فليس لأحد أن يفتات على متكلم فيلزمه بما لا يلزمه.

"وعن أبي شُرَيح العدوي أنَّه قال لعَمْرو بن سعيد –وهو يبعث البعوث إلى مكة-: ائذن لي –أيها الأمير–أن أحدثَك قولاً قام به رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– الغَد من يوم الفتح."

قال ذلك لعمرو بن سعيد الأشدق حينما كان يبعث البعوث لقتال عبد الله بن الزبير في أيام عبد الملك بن مروان وفي أيام يزيد حيث قتل عبد الله بن الزبير على يد الحجاج، فقبل ذلك كان عمرو بن سعيد يبعث الجيوش يجيشها من المدينة إلى مكة.

"سَمِعَته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تَكَلَّم به، إنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ((إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد تَرَخَّصَ بقتال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد الغائب))، فقيل لأبي شُرَيح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيذ عاصيًا، ولا فارًّا بدم، ولا فارًّا بخَرْبَة"[4] رواه البخاري ومسلم وهذا لفظه."

قوله: **ولا فارًّا بخَرْبَة** يعني ولا فارّاً بجناية.

أتى له بالحديث وهو واضح وصريح في حرمة مكة فقال له: نحن أعلم منك بهذا، وهذا مثل مروان لما أراد أن يخطب في العيد قبل الصلاة من أجل أن يسمع الناس له فلما أخذ أبو سعيد الخدري –رضي الله عنه– بثوبه جذبه مروان منه وصعد المنبر، فقال له أبو سعيد: الصلاة قبل الخطبة، فقال: قد ذهب ما تعلم يا أبا سعيد، إن الناس ما عادوا يسمعون لنا.

وعلى كل حال عمرو بن سعيد هذا ذبحه صاحبه عبد الملك بن مروان ذبحاً كما تذبح الشاة حيث سلطه الله عليه، فقلته شر قتلة بيده، نسأل الله العافية.

"فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حَرَّم مكة يوم خلق السماوات والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم –عليه السلام– حَرَّمها؛ لأن إبراهيم بَلَّغ عن الله حُكْمه فيها وتحريمه إياها، وأنها لم تزل بلدًا حرامًا عند الله قبل بناء إبراهيم –عليه السلام–، لها، كما أنه قد كان رسول الله

---

[4] – أخرجه البخاري في كتاب العلم – باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب (١٠٤) (ج ١ / ص ٥١) ومسلم في كتاب الحج – باب تحـريم مكـة وصـيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام (١٣٥٤) (ج ٢ / ص ٩٨٧).

-صلى الله عليه وسلم- مكتوبًا عند الله خاتم النبيين، وإن آدم لمنجَدِل في طينته، ومع هذا قال إبراهيم -عليه السلام-: **{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ}** [(١٢٩) سورة البقرة] الآية، وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه وقَدَره، ولهذا جاء في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن بَدْءِ أمرك، فقال: ((دعوة أبي إبراهيم -عليه السلام- وبشرى عيسى ابن مريم، ورأت أمي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام))[٥]، أي: أخْبِرْنا عن بدء ظهور أمرك، كما سيأتي قريبًا، إن شاء الله."

هذا واضح في الجمع بين هذه النصوص، وهو كون التحريم أظهره الله على لسان إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-.

"وقوله تعالى إخبارًا عن الخليل أنه قال: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا} [(١٢٦) سورة البقرة] أي: من الخوف، أي لا يَرْعَبُ أهله، وقد فعل الله ذلك شرعًا وقدرًا كقوله تعالى: {وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [(٩٧) سورة آل عمران] وقوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} [(٦٧) سورة العنكبوت] إلى غير ذلك من الآيات، وقد تقدمت الأحاديث في تحريم القتال فيه.

وفي صحيح مسلم عن جابر: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح))[٦]، وقال في هذه السورة: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا} [(١٢٦) سورة البقرة] أي: اجعل هذه البقعة بلدًا آمنًا، وناسب هذا؛ لأنه قبل بناء الكعبة.

وقال تعالى في سورة إبراهيم: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا} [(٣٥) سورة إبراهيم] وناسب هذا هناك؛ لأنه والله أعلم كأنه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت واستقرار أهله به."

هذا الكلام ليس بقاطع وإنما هو احتمال، وهذه من الوجوه التي يتلمسها المفسرون فيما يسمى بالمتشابه اللفظي، فهنا قال: **{رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا}** [(١٢٦) سورة البقرة]، وهناك جاء بالتعريف، **{رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا}** [(٣٥) سورة إبراهيم]، فإذا قيل: لماذا فارق بينهما؟ فيمكن أن يقال: قبل بناء البيت كان موضع البيت بواد غير ذي زرع فدعا ربه أن يكون بلداً آمناً، أي أن يتحول هذا الموضع إلى بلد آمن، فلما صار بلداً دعا له مرة أخرى بـــ"أل" العهدية: **{رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا}** [(٣٥) سورة إبراهيم] لكن هذا القول هو كغيره مما يذكرونه في هذه الوجوه فلا يقطع به؛ لأنه قد يكون المقام واحداً أصلاً والدعاء واحد لم يتكرر، والله تعالى أعلم، وقد سبق الكلام على قوله تعالى: **{رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا}** [(٣٥) سورة إبراهيم] هل ذلك من قبيل الشرع أو القدر.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا}** [(٩٧) سورة آل عمران]، وإن كان يحتمل هذا وهذا إلا أن قوله: **{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ}** [(٦٧) سورة العنكبوت]، هذا يكون بالقدري؛ فهو يريهم أمراً يشاهدونه ويعرفونه، وبالتالي يجاب عن الإشكال الذي قد يرد وهو أن ما يقع فيه من القلاقل في بعض الأحيان فإن ذلك لا عبرة به وإنما العبرة بالغالب، وهذا مثل قول الله -عز وجل-: **{كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي}** [(٢١) سورة المجادلة] فهذا أمر قد قضى الله به، ومع ذلك قد يقتل النبي وقد يهزم جيشه

---

[5] - أخرجه أحمد (ج ٥ / ص ٢٦٢) والطبراني في الكبير (ج ٨ / ص ١٧٥) وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية.

[6] - أخرجه مسلم في كتاب الحج - باب النهي عن حمل السلاح بمكة بلا حاجة (١٣٥٦) (ج ٢ / ص ٩٨٩).

وما إلى ذلك، فلا يحكم بعدم الغلبة في مثل هذه الحالات القليلة التي تعتبر حالات استثنائية وإنما العبرة بالعاقبة، ثم إن الغلبة أيضاً تكون بالحجة والبيان، وإن هزم المسلمون في أُحد ومعهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في أرض المعركة وهو ثابت –صلى الله عليه وسلم– لم ينهزم فهذا لا ينافي قوله تعالى: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [(٢١) سورة المجادلة]، إذ إن المسلمين قد غَلبوا وكانت العاقبة لهم.

"كأنه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت واستقرار أهله وبعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سنًّا من إسماعيل بثلاث عشرة سنة؛ ولهذا قال في آخر الدعاء: {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء} [(٣٩) سورة إبراهيم].

وقوله تعالى: {وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [(١٢٦) سورة البقرة].

روى ابن جرير عن أبي بن كعب: {قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [(١٢٦) سورة البقرة] قال: "هو قول الله تعالى" وهذا قول مجاهد وعكرمة."

إبراهيم –صلى الله عليه وسلم– قال: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [(١٢٦) سورة البقرة] فهو خص المؤمنين بهذا الدعاء وذلك بأن يرزقهم الله –عز وجل– من الثمرات، وقد قلنا: إن بعض أهل العلم ذكر في هذا لطيفة، وهي أن الله –عز وجل– لما أدب خليله –صلى الله عليه وسلم– حينما قال في الإمامة: {وَمِن ذُرِّيَّتِي} [(١٢٤) سورة البقرة] حيث علمه الله –عز وجل– أن الإمامة لا تكون لغير أهل الإيمان فقال: {لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} (١٢٤) سورة البقرة]، فعهده لا ينال ظالماً، ولا يعطى لظالم، والكافر هو من أظلم الظالمين كما قال تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [(١٣) سورة لقمان]، فظن إبراهيم –صلى الله عليه وسلم– بعد ذلك أن الدعاء يقيد أيضاً في طلب الرزق فلذلك قال: {وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [(١٢٦) سورة البقرة] فعلمه الله –عز وجل– مرة أخرى وبين له أن الأمر هنا يفترق، فقال تعالى: {وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [(١٢٦) سورة البقرة].

فقول الله –عز وجل–: {قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً} [(١٢٦) سورة البقرة] هذا من كلامه –سبحانه وتعالى– والمعنى أن الله قال: ومن كفر فإنه يُرزَق أيضاً؛ وذلك أن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فالمقصود أن قوله: {قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً} [(١٢٦) سورة البقرة] هو من كلام الله –تبارك وتعالى– في مقابل قول إبراهيم –صلى الله عليه وسلم– حينما خصص أهل الإيمان بالدعاء بقوله: {وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [(١٢٦) سورة البقرة].

"وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [(١٢٦) سورة البقرة] قال ابن عباس: كان إبراهيم يحجُرها على المؤمنين دون الناس فأنزل الله ومن كفر أيضًا أرزقهم كما أرزق المؤمنين، أأخلق خلقًا لا أرزقهم؟! أمتعهم قليلا ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير، ثم قرأ ابن عباس: {كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا} [(٢٠) سورة الإسراء] رواه ابن مَرْدُويه.

وروُي عن عكرمة ومجاهد نحو ذلك أيضًا، وهذا كقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ* مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} [(٧٠) سورة يونس]، وقوله تعالى: {وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ* نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [(٢٣-٢٤) سورة لقمان]، وقوله: {وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ* وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ* وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} [(٣٣-٣٥) سورة الزخرف].

وقوله: {ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [(١٢٦) سورة البقرة] أي: ثم ألجئه بعد متاعه في الدنيا وبسطنا عليه من ظلها إلى عذاب النار وبئس المصير، ومعناه: أن الله تعالى يُنْظِرُهم ويُمْهِلُهُم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كقوله تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ} [(٤٨) سورة الحـــج].

وفي الصحيحين: ((لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم))[7]
وفي الصحيح أيضًا: ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)) ثم قرأ قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [(١٠٢) سورة هود][8].

وأما قوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [(١٢٧-١٢٨) سورة البقرة] فالقواعد: جمع قاعدة وهي السارية والأساس."

قوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ} [(١٢٧) سورة البقرة] يعني يرفع إبراهيم الأساس وأما القواعد التي في أسفل البناء فإنها لا ترفع على الحقيقة، فإذا قيل: رُفعت القواعد فالمعنى رُفع البناء فوقها، فقوله: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ} يعني يقيم عليها البناء.

"يقول تعالى: واذكر -يا محمد- لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- البيت ورفْعهما القواعدَ منه، وهما يقولان: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [(١٢٧) سورة البقرة].

وحكى القرطبي وغيره عن أبيّ وابن مسعود أنهما كانا يقرآن: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ويقولان رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [(١٢٧) سورة البقرة].

قلت: ويدل على هذا قولهما بعده: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ} [(١٢٨) سورة البقرة] الآية، فهما في عمل صالح وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما.

---

7 - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد –باب قول الله تعالى: {إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} (٦٩٤٣) (ج ٦ / ص ٢٦٨٧) ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - باب لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل (٢٨٠٤) (ج ٤ / ص ٢١٦٠).

8 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة هود (٤٤٠٩) (ج / ص ١٧٢٦) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظلم (٢٥٨٣) (ج / ص ١٩٩٧).

كما روى ابن أبي حاتم عن وهيب بن الورد أنه قرأ: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا} ثم يبكي ويقول: يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مُشْفق أن لا يتقبل منك. وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخلّص في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا} [(٦٠) سورة المؤمنون]، أي: يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات {وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ} [(٦٠) سورة المؤمنون] أي: خائفة ألا يتقبل منهم كما جاء به الحديث الصحيح عن عائشة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما سيأتي في موضعه."

في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** [(١٢٧) سورة البقرة] هو أورد هنا قراءة ابن مسعود: (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ويقولان ربنا..) لأن من المفسرين من يقول: إن هذا الدعاء صدر من إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، ويقولون: إن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- حينما بنى البيت كان إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- في غاية الصغر أو كان رضيعاً لم يبن مع أبيه البيت، وهذا في غاية الغرابة، فالله -عز وجل- يقول: **{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ}** فمعنى ذلك أن إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- كان يشاركه البناء سواء كان يناوله اللبن، أو غير ذلك مما يصنعه معه، المهم أنه كان مشاركاً له، ولذلك فإن الدعاء في قوله -تبارك وتعالى-: **{رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** [(١٢٧) سورة البقرة] صدر منهما -عليهما الصلاة والسلام- ويدل على ذلك من الآية أنه قال بعده: **{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ}** [(١٢٨) سورة البقرة] أي على سبيل التثنية، فالبناء صادر منهما والدعاء كذلك صادر منهما، فهذا هو سبب إيراد ابن كثير -رحمه الله- هذه القضية؛ لأنه وجِد من خالف في هذا.

"وقد روى البخاري[9] عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "أول ما اتخذ النساء المِنْطَق من قبَل أم إسماعيل، اتخذت مِنطقًا لتُعَفِّي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه."

يعني أنها كانت تغار منها فأرادت أن لا يكون لها أثر إذا مشت فكانت تخفي أثرها على سارة أم إسحاق.

حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زَمْزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هنالك، ووضع عندها جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قَفَّى إبراهيم -عليه السلام- منطلقًا فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذًا لا يضيعنا، ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه، فقال: {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ} [(٣٧) سورة إبراهيم] حتى بلغ: {يَشْكُرُونَ} [(٣٧) سورة إبراهيم] وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال: يتلبّط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقربَ جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا، فلم

---

9 - صحيح البخاري في كتاب الأنبياء - باب **{يَزِفُّونَ}** [(٩٤) سورة الصافات] النسلان في المشي (٣١٨٤) (ج ٣ / ص ١٢٢٧).

ترَ أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طَرفَ درعها ثم سعت سَعْيَ الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي. ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحَدًا، فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فلذلك سعى الناس بينهما)).

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تَسَمَّعت فسمعَت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غوَاث فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم فبحث بعقبه -أو قال: بجناحه- حتى ظهر الماء فجعلت تحوطه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف، قال ابن عباس: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينًا مَعينًا))."

قال: **فجعلت تحوطه**، وفي النسخة الأصل تحوضه وهكذا هي الرواية، والمعنى أنها تجعل له حوضاً يجتمع فيه الماء، وفي بعض الروايات: تحفر وهي بمعنى تحوضه أو تحفن أي التراب لتجعل حوضاً، أو تفحص الأرض بيديها.

"قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيتًا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرْهُم -أو أهل بيت من جُرْهم- مقبلين من طريق كَدَاء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرًا عائفًا."

قبيلة جرهم يقال: إنهم من العمالقة، والمؤرخون كانوا يسكنون أو أن بعضهم كان يسكن قريباً من مكة، وكانوا يعرفون هذا المكان وأنه ليس فيه ماء.

يقول: **أهل بيت من جُرْهم مقبلين من طريق كَدَاء**، كداء بالفتح، يعني من أعلى مكة، قال: **فنزلوا في أسفل مكة**: يعني كأنهم جاءوا من أعلاها، وهذا لا إشكال فيه، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- دخل من أعلاها -من كداء- وخرج من أسفلها، فيمكن أنهم جاءوا من أعلاها حتى بلغوا أسفلها.

قوله: **فرأوا طائراً عائفاً**، الطائر العائف هو الذي يحلق فوق الماء ولا يجاوزه.

"فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جَريًّا أو جَرِيَّين."

يعني أرسلوا رسولاً مندوباً عنهم أو وكيلاً أو نحو ذلك، وقيل له: جري؛ لأنه يقوم مقام من أرسله أو لأنه يسعى ويبادر في حاجته والمصلحة التي أرسل من أجلها.

"فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حَقَّ لكم في الماء عندنا، قالوا: نعم، قال ابن عباس قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فألفى ذلك أمُ إسماعيل وهي تحب الأنس))."

يعني أن ذلك صادف شيئاً في نفسها وحاجة وهي أنها تحب الأنس، والأُنس ضد الوحشة فهي كانت مستوحشة فلما عرضوا عليها الإقامة عندها ألفى ذلك شيئاً في نفسها أي حاجة في نفسها.

قوله: **وهي تحب الأنس**، بالضم هو ضد الوحشة، ويمكن أن يكون بكسر الهمزة، أي وهي تحب الإنس يعني بني جنسها، وبين المعنيين ملازمة لا تخفى، فلا تعارض حينئذٍ.

فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهلُ أبيات منهم وشب الغلامُ وتعلم العربية منهم، وأنْفَسَهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم."

قوله: **وأنْفَسَهم وأعجبهم**، من النفاسة، أي أنه صار نفيساً ومرغوباً فيه عندهم فزوجوه وصاهروه.

يقول: **أنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم**، أي صار إسماعيل -عليه الصلاة والسلام- مرغوباً فيه ولم يكن كاسداً -عليه الصلاة والسلام-.

قوله: **وتعلم العربية منهم**، هذا يدل على أن أبويه من غير العرب، وهذا هو المعروف المشهور، وأما ما جاء من أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أول من تكلم بالعربية فإن الذي يصح من ذلك ما جاء مقيداً باعتبار أن إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- هو أول من فتق الله لسانه بالعربية الفصحى، فإسماعيل -صلى الله عليه وسلم- كان أفصح من جُرْهم بما علمه الله -عز وجل- وألهمه، فصارت عربيته أحسن من عربيتهم، وهذه المسألة فيها كلام لأهل العلم كثير، وذلك في قضية العرب العاربة والعرب المستعربة، وهل يقسم الناس بهذا الاعتبار، لما فيه من الإشكال في كون العرب يرجعون في نسبهم إلى إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- والنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- منهم فهل يقال: هو -عليه الصلاة والسلام- من العرب المستعربة؟، وإذا تأملت هذا الخلاف والإشكال الوارد في هذا قد تخرج بنتيجة أن المسألة لا تحتمل ذلك باعتبار أن هؤلاء صاروا هم العرب، والله -عز وجل- وصف نبيه -صلى الله عليه وسلم- بأنه منهم فقال: **{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ}** [(٢) سورة الجمعة] ووصف هذا القرآن بأنه بلسان عربي مبين، وتبقى المسألة في التسمية، هل يليق هذا أو لا يليق؟

"وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيلُ ليطالع تَرِكَتَه فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشَرّ، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئًا. فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألَنا عنك، فأخبرتُه، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أننا في جَهْد وشدَّة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غَيِّرْ عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، فالحقي بأهلك. وَطَلَّقَها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته، فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم -وسألها عن عيشهم وَهَيْئَتِهِم- فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله -عز وجل-، قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ولم يكن لهم يومئذ حَب ولو كان لهم لدعا لهم فيه، قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه)) قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي -عليه السلام- ومُريه يُثَبِّت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة -وأثنت عليه- فسألني عنك، فأخبرته، فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم لَبثَ عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يَبْرِي نَبْلا له تحت دوحة قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد. ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتًا -وأشار إلى أكَمَةٍ مرتفعة على ما حولها- قال: فعند ذلك رَفَعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [(١٢٧) سورة البقرة] قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [(١٢٧) سورة البقرة]."

قال في الحديث: إنه جاء وهو يبري وقد تزوج، وهذا رد واضح وصريح على أولئك الذين قالوا: إن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- بنى البيت وإسماعيل طفل صغير، لا يطيق البناء معه، وأن الدعاء صدر من إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وحده، وعلى كل حال مسألة بناء البيت والأحاديث الواردة فيها صح منها ما صح ولم يصح منها ما لم يصح، والأخبار الإسرائيلية كثيرة جداً، وأخبار الحجر الأسود ومن أين جاء صحت جملة من الأحاديث بأنه نزل من السماء، وعلى كل حال ليس هذا محلاً للكلام على هذه الأشياء.

"ذِكْرُ بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل -عليه السلام- بمدد طويلة قبل مبعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بخمس سنين، وقد نقل معهم في الحجارة وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين.

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: ولما بلغ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خمسًا وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة وكانوا يَهُمُّون بذلك ليسقفوها ويهابون هَدْمها، وإنما كانت رَضماً فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها؛ وذلك أن نفرًا سرقوا كنز الكعبة وإنما كان يكون في بئر في جَوْف الكعبة، وكان الذي وُجد عنده الكنز دويك مولى بني مُلَيح بن عمرو من خزاعة فقطعت قريش يده، ويزعم الناس أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك، وكان البحر قد رَمَى بسفينة إلى جُدَّة لرجل من تجار الروم فتحطمت فأخذوا خشبها فأعدُّوه لتسقيفها، وكان بمكة رجل قبطي نجار فهيأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كانت تُطْرَحُ، فيها ما يُهْدَى لها كل يوم تَتَشدق على جدار الكعبة."

قوله: **تَتَشدق على جدار الكعبة**: أي أنها كانت تخرج لسانها، وهذه قضية معروفة في صفة الحية، فهي كانت تخرج على الجدار وتنظر إلى هؤلاء الناس وتتشدق، فهي في منظر لا شك مخيف ومفزع ولا يستطيع أحد الاقتراب من البئر.

"تتشدق على جدار الكعبة وكانت مما يهابون، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزَألَّت وكشت وفتحت فاها فكانوا يهابونها، فبينا هي يوماً تَتَشدق على جدار الكعبة، بعث الله إليها طائرًا فاختطفها فذهب بها، فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله قد رَضي ما أردنا، عندنا عامل رفيق، وعندنا خشب، وقد كفانا الله الحية.

فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنيانها، قام أبو وهب بن عَمْرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم، فتناول من الكعبة حجرًا فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال: يا معشر قريش، لا تُدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيبًا، لا يدخل فيها مهر بَغِي ولا بيع رباً، ولا مظلمة أحد من الناس.

قال ابن إسحاق: والناس ينتحلون هذا الكلام للوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مَخزُوم."

قوله: **ينتحلون هذا الكلام للوليد**، يعني ينسبونه إليه.

وهذه التفاصيل بهذه الصورة تذكر في كتب السير، ولا شك أن أصل ذلك ثابت وهو أنهم أعادوا بناءها وأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شاركهم في وضع الحجر -عليه الصلاة والسلام- وقضية الحية التي كانت موجودة، هي موجودة في بعض أشعارهم ويذكرون هذا في السير، فالله تعالى أعلم.

"قال: ثم إن قريشا تَجَزَأت الكعبة فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبني جُمَح وسهم، وكان شق الحِجْر لبني عبد الدار بن قُصي، ولبني أسد بن عبد العزى بن قُصي، ولبني عدي بن كعب بن لؤي وهو الحَطيم.

ثم إن الناس هابوا هَدْمها وفَرِقُوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هَدْمها: فأخذ المعْولَ ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم ترعْ، اللهم إنا لا نريد إلا الخير، ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئًا ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد من ليلته غاديًا على عَمَله، فهدم وهدم الناس معه حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس -أساس إبراهيم -عليه السلام- أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنمة آخذ بعضها بعضًا."

قوله: **كالأسنمة**، يعني كأسنمة الإبل.

وقوله: آخذ بعضها بعضاً، يعني أنها مشبكة، ووصفها بالأسنمة ظهر في وقت ابن الزبير لما هدمها وبناها من جديد، حيث أخرج لهم تلك القواعد فرآها الناس وأشهدهم على ذلك ووصفوها بهذه الصفة وهي أنها متداخلة وكالأسنمة، وشوهدت في هذا العصر حينما جدد بناؤها قريباً ووَصف من شاهد ذلك أيضاً بمثل هذه الصفة.

" قال: فحدثني بعض من يروي الحديث أن رجلاً من قريش ممن كان يهدمها أدخل عَتَلة بين حجرين منها ليقلع أيضاً بها أحدهما، فلما تحرك الحجر تنقضت مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك الأساس."

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٥٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فيقول المفسر -عليه رحمة الله-:

النزاع في وضع الحجر الأسود وقضاء محمد بن عبد الله القضاء العادل -صلى الله عليه وسلم-

"قال ابن إسحاق[١]: ثم إن القبائل من قريش جَمَعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن -يعني الحجر الأسود -فاختصموا فيه؛ كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاوروا وتخالفوا وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسُموا لعَقَة الدم، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسًا، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم -وكان عامئذ أسن قريش كلهم- قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال -صلى الله عليه وسلم-: ((هَلُمَّ إليَّ ثوبًا)) فأتي به، فأخذ الركن -يعني الحجر الأسود- فوضعه فيه بيده، ثم قال: ((لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً)) ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده -صلى الله عليه وسلم- ثم بُنيَ عليه.

وكانت قريش تسمي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قبل أن ينزل الوحي: الأمين. فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا، قال الزبير بن عبد المطلب فيما كان من أمر الحية التي كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها:

عجبت لَمَا تصوبت العُقَاب ... إلى الثعبان وهي لها اضطراب
وقد كانت يكون لها كشيش ... وأحياناً يكون لها وثَاب
إذا قمنا إلى التأسيس شَدَّت ... تُهَيِّبُنا البناءَ وقد تُهَابُ
فلما أن خَشينا الزَّجْرَ جاءت ... عقاب تَتْلَئِبُّ لها انصباب
فضمتها إليها ثم خَلَّت ... لنا البنيانَ ليس له حجاب
فَقُمْنَا حاشدين إلى بناء ... لنا منه القواعدُ والتراب
غداة نُرَفِّع التأسيس منه ... وليس على مُسَوِّينا ثياب

---

[١] - سيرة ابن هشام (ج١ / ص ١٩٦ -١٩٧).

أعَــزّ بـــه المليـــكُ بنـــي لُـــؤي فلـــيسَ لأصـــله مـــنْهُم ذَهـــاب
وقد حَـــشَدَتْ هُنَـــاك بنـــو عَـــديّ ومُـــــرَّة قـــــد تقَـــــدَّمَها كـــــلاب
فَبَوَّأنـــــا المليـــــك بـــــذاكَ عـــــزّا وعنـــــد الله يُلْـــــتَمَسُ الثـــــواب

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- ثمانية عشر ذراعًا وكانت تكسى القباطي."

قوله: **وكانت تكسى القباطي**، القباطي جمع قُبطية وهي ثياب بيضاء من الكتان تنسج في البلاد المصرية، أي أن الكعبة لم تكن تكسى بالحرير.

"ثم كُسِيت بعدُ البُرود، وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف."

البُرود -بالواو- أو البُرد -بإسكان الراء وضم الباء- والبرد أصله لحاف مخطط يلتحف به وهي من الثياب الغليظة وفيها خشونة بعض الشيء وهي أفضل من الكتان اللين الذي كانت تكسى الكعبة به قبلُ.

"قلت: ولم تزل على بناء قريش حتى احترقت في أول إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية لما حاصروا ابن الزبير، فحينئذ نقضها ابن الزبير إلى الأرض وبناها على قواعد إبراهيم -عليه السلام- وأدخل فيها الحجر، وجعل لها بابًا شرقيًّا وبابًا غربيًّا ملصقين بالأرض كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولم تزل كذلك مُدَّة إمارته حتى قتله الحجاج فردَّها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مَرْوان له بذلك.

روى مسلم بن الحجاج في صحيحه عن عطاء قال: لما احترق البيت زَمَنَ يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام فكان من أمره ما كان، تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسمَ يريد أن يُجَرِّئَهم أو يُحزبهم على أهل الشام."

يعني حتى إذا رأوا الكعبة محترقة وقع في نفوسهم ما وقع من الغيظ على أهل الشام، فهو يريد أن يحرك نفوس الناس تجاه أهل الشام برؤيتهم بيت الله كيف صنعوا به.

" فلما صدر الناس قال: يا أيها الناس، أشيروا عليَّ في الكعبة أنقضها ثم أبني بناءها أو أصلح ما وَهَى منها؟

قال ابن عباس: فإني قد خرِقَ لي رأي فيها، أرى أن تُصلِحَ ما وَهى منها وتدع بيتًا أسلم الناس عليه وأحجارًا أسلم الناس عليها، وبعث عليها -صلى الله عليه وسلم- فقال ابن الزبير: لو كان أحدهم احترق بيته ما رضي حتى يجدده فكيف بيت ربكم -عز وجل-؟ إني مستخير ربي ثلاثًا ثم عازم على أمري، فلما مضَت ثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها، فتحاماها الناسُ أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمْرٌ من السماء."

قوله: **أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمْرٌ من السماء**، يعني أول واحد يبدأ بالهدم تنزل به عقوبة.

"فتحاماها الناسُ أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمْرٌ من السماء حتى صعده رجل فألقى منه حجارة، فلما لم يَره الناس أصابه شيء تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض، فجعل ابن الزبير أعمدة يستر عليها الستور، حتى ارتفع بناؤه."

يعني بدل أن يكون المكان مستوياً بالأرض لا بناء فيه وضع ستوراً يتوجه إليها الناس في صلاتهم، وليكون ذلك أدعى لبقاء المهابة في نفوسهم؛ فإن بيت الله –عز وجل– له من المنــزلة في نفوس الناس ما لا يخفى.

"وقال ابن الزبير: إني سمعت عائشة –رضي الله عنها– تقول: إن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((لولا أن الناس حديثٌ عهدُهم بكفر وليس عندي من النفقة ما يُقَوِّيني على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع، ولجعلت له بابًا يدخل الناس منه وبابًا يخرجون منه)) قال: فأنا أجد ما أنفق ولست أخاف الناس، قال: فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر حتى أبدى له أسًّا نَظَر الناس إليه فبنى عليه البناء، وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعًا فلما زاد فيه استقصره فزاد في أوله عشرة أذرع، وجعل له بابين أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه، فلما قُتِل ابنُ الزبير كتب الحجَّاج إلى عبد الملك يستجيزه بذلك، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أسٍّ نظر إليه العدول من أهل مكة، فكتب إليه عبد الملك: إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء، أما ما زاده في طوله فأقره، وأما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه، وسد الباب الذي فتحه فنقضه وأعاده إلى بنائه[2]، وقد رواه النسائي في سننه عن عائشة بالمرفوع منه ولم يذكر القصة.

وقد كانَت السنة إقرار ما فعله عبد الله بن الزبير –رضي الله عنه–؛ لأنه هو الذي وَدَّه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ولكن خشي أن تنكره قلوب بعض الناس لحداثة عهدهم بالإسلام وقربِ عهدهم من الكفر، ولكن خفيت هذه السُّنَّةُ على عبد الملك بن مروان، ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: وددنا أنا تركناه وما تولى.

كما روى مسلم عن عبد الله بن عبيد، قال: وَفَدَ الحارث بن عبد الله على عبد الملك بن مروان في خلافته، فقال عبد الملك: ما أظن أبا خُبَيبٍ –يعني ابن الزبير– سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها، قال الحارث: بلى أنا سمعته منها، قال: سمعتها تقول ماذا؟ قال: قالت: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((إن قومك استقصروا من بنيان البيت، ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه، فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فَهَلُمِّي لأريك ما تركوا منه)) فأراها قريبًا من سبعة أذرع[3].

زاد الوليد بن عطاء أحد رواته: قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((ولجعلت لها بابين موضوعين في الأرض شرقيًّا وغربيًّا، وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟)) قالت: قلت: لا، قال: ((تَعَزُّزًا ألا يدخلها إلا من أرادوا، فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها يَدَعونه حتى يرتقي، حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط)) قال عبد الملك: فقلت للحارث: أنت سمعتها تقول هذا؟ قال: نعم، قال: فَنَكَتَ ساعة بعصاه، ثم قال: وَدِدْتُ أني تركت وما تَحَمَّل[4].

---

[2] – أخرجه مسلم في كتاب الحج – باب نقض الكعبة وبنائها (١٣٣٣) (ج ٢ / ص ٩٦٨) وفي النسائي في كتاب مناسك الحج – الحِجــر (٢٩١٠) (ج ٥ / ص ٢١٨).

[3] – أخرجه مسلم في كتاب الحج – باب نقض الكعبة وبنائها (١٣٣٣) (ج ٢ / ص ٩٦٨).

[4] – المصدر السابق.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يُخَرِّب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة)) أخرجاه[5].

وعن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((كأني به أسودَ أفحَجَ، يقلعها حجرًا حجرًا)) رواه البخاري[6].

وروى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يُخَرِّب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ويسلبها حلْيتها ويجردها من كسوتها، ولكأني أنظر إليه أصيلع أفَيْدِعَ يضرب عليها بِمِسْحَاته ومِعْوله))[7].

الفَدَع: زيغ بين القدم وعظم الساق."

قوله -عليه الصلاة والسلام-: ((ذو السويقتين)) يعني أن ساقه دقيقة، ودقة الساقين هذا غالب حال الأفارقة.

ويقول ابن كثير: **الفَدَع: زيغ بين القدم وعظم الساق**، هذا أصله تحول في المفاصل، فإذا كان في القدم بحيث كانت القدم متحركة عن الساق وكأنها قد فارقت المفصل فهذا معنى أفيدع، ومثل هذا التصغير يأتي لمعان منها التحقير.

"وهذا -والله أعلم- إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج؛ لما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لَيُحَجَّنَّ البيتُ ولَيُعْتَمَرَنَّ بعد خروج يأجوج ومأجوج))[8].

وقوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام-: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [(١٢٨) سورة البقرة] قال ابن جرير: يعنيان بذلك واجعلنا مستسلمين لأمرك خاضعين لطاعتك ولا نشرك معك في الطاعة أحدًا سواك ولا في العبادة غيرك.

وقال عكرمة: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ} قال الله: قد فعلت {وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ} قال الله: قد فعلت.

وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- كما أخبرنا الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين في قوله: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [(٧٤) سورة الفرقان] وهذا القدر مرغوب فيه شرعًا؛ فإن من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يحب أن يكون من صلبه من يعبد الله وحده لا شريك له؛ ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيم -عليه السلام-: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} [(١٢٤) سورة البقرة] قال: {وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [(١٢٤) سورة البقرة] وهو قوله: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ} [(٣٥) سورة إبراهيم].

---

[5] – أخرجه البخاري في كتاب الحج – باب هدم الكعبة (١٥١٩) (ج ٢ / ص ٥٧٩) ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة – ١٨ – باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩٠٩) (ج ٤ / ص ٢٢٣٢).

[6] – أخرجه البخاري في كتاب الحج – باب هدم الكعبة (١٥١٨) (ج ٢ / ص ٥٧٩)

[7] – مسند أحمد (ج ٢ / ص ٢٢٠) وقال شعيب الأرنؤوط: بعضه مرفوع صحيح وبعضه يروى موقوفا ومرفوعا والموقوف أصح.

[8] – أخرجه البخاري في كتاب الحج – باب قول الله تعالى: {جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ} [(٩٧) سورة المائدة] حديث رقم (١٥١٦) (ج ٢ / ص ٥٧٨).

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له))[9].

{وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا} [(١٢٨) سورة البقرة] **قال سعيد بن منصور: أخبرنا عتَّاب بن بشير عن خُصيف عن مجاهد قال: قال إبراهيم: {وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا} فأتاه جبرائيل فأتى به البيت فقال: ارفع القواعد، فرفع القواعد وأتم البنيان، ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا."**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فما سبق من ذكر بنيان الكعبة وما جرى فيه كل ذلك من قبيل الاستطراد، وذلك من عادة ابن كثير -رحمه الله- في مواضع من هذا الكتاب فإنه ربما بلغ موضعاً يتعلق به حدث جاءت فيه روايات وأخبار وما إلى ذلك فيستطرد في الكلام فيه، وسيأتي في بعض المواضع مثل هذا كما في قصة الإسراء مثلاً، فإنه يذكر الصفحات التي يسوق فيها الروايات المختلفة في هذا الموضوع، ولو أن ذلك حُذف من هذا المختصر وأبقيت المعاني المتصلة بالآيات فقط لربما كان ذلك أكثر ملاءمة ومناسبة للاختصار، والله أعلم.

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا}** [(١٢٨) سورة البقرة] يحتمل معنيين:

المعنى الأول: **{وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا}** من الرؤية البصرية، أي أنهم يرونها ويشاهدونها ويقفون عليها بالمشاهدة، ويدل على ذلك هذه الرواية: **قال إبراهيم: {وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا} فأتاه جبريل...**، لكن ذلك من جهة الرواية ليس متصلاً فلا يعتمد عليه، ولكن الذي عليه عامة السلف والخلف من المفسرين أن المراد بالرؤية هنا، الرؤية البصرية بحيث أنه يقف ويشاهد المناسك، وذلك يدخل فيه سائر المناسك من الصفا والمروة.. وما إلى ذلك.

والمعنى الثاني: أن تكون **{وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا}** من الرؤية القلبية، فيكون ذلك من جهة التعليم بأن يعرفه ويعلمه ولو لم يكن ذلك بالمشاهدة، فبهذا الاعتبار تكون هذه الرؤية قلبية.

وابن جرير الطبري -رحمه الله- لم يفرق بين الأمرين، ولعل هذا أنسب والله تعالى أعلم؛ إذ إن الآية تحتمل المعنيين وبينهما ملازمة لا تخفى؛ لأنه حينما يقف على هذه المناسك فيراها ببصره فإن ذلك يقتضي العلم بها ولا بد، والعلم بها هو الرؤية القلبية، ويدل على الرؤية القلبية القراءة الأخرى أرْنا مناسكنا -بإسكان الراء- والله أعلم.

والمناسك جمع نسك، ويقول بعضهم: إن أصله في كلام العرب الغسل، وفي الشرع فيه كلام معروف وخلاف؛ إلا أن المناسك تطلق على العبادة عموماً، ولهذا يقال للذبيحة التي تذبح لله: نسيكة، والمكان الذي يذبح فيه يقال له: منسك، ومكان العبادة أيضاً يقال له: منسك، والله -عز وجل- أخبر أنه جعل لكل أمة منسكاً، قال تعالى: **{لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ}** [(٦٧) سورة الحـــج]، وهذا يمكن أن يفسر بأنه مكان للتعبد أو مكان للذبح، ولا شك أن الذبح لله من أجلِّ العبادات، فهو مكان للتعبد، ومن جملة ما يتعبد به لله -عز وجل- الذبح له من الهدايا والقرابين.

والمقصود بقوله: **{وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا}** قال بعضهم: مناسك الحج، أو مواضع الذبح، وقيل: جميع التعبدات، ولا شك أن ما يتعلق بالحج أولى ما يدخل فيه؛ لأنه قال ذلك عند بناء الكعبة، وإبراهيم -صلى الله عليه وسلم-

---

[9] - صحيح مسلم في كتاب الوصية – باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١) (ج ٣ / ص ١٢٥٥).

كما سيأتي هو إمام الحنفاء، وكبير الأنبياء -عليه الصلاة والسلام- فقد سن سنن الهدى، فكان ذلك باقياً من بعده، كالختان ومناسك الحج ونحو ذلك، وصار الدين الحنيف منسوباً إليه -عليه الصلاة والسلام-.

فالمقصود على كل حال أن قوله تعالى: **{وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا}** أي ما يتعبد به لله -عز وجل- ومن أخص ما يدخل في ذلك ما يتعلق بأعمال الحج من وقوف بعرفة، ورمي للجمار، ووقوف عند المشعر الحرام بمزدلفة، وطواف بالبيت، وسعي بين الصفا والمروة، وما إلى ذلك، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٥٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالنص الذي أورده الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فيما يتعلق ببناء قريش للكعبة بعد إبراهيم الخليل -عليه السلام- راجعته وقابلته على عدد من الكتب مثل سيرة ابن هشام وإتحاف الورى، وسبل الهدى وغيرها، ففيما يتعلق ببعض الألفاظ كقوله مثلاً: **ما يُهدى لها كل يوم تتشدق على جدار الكعبة**، الموجود في نسختنا تتشدق وفي بعض نسخ ابن كثير تتشرق، وهي في الكتب التي ذكرتها آنفاً والتي هي أصل لهذا المنقول **تتشرق** -بالراء- حتى إنهم ضبطوها بالخط هكذا: بمثناة فوقية، فشين معجمة، فراء مفتوحات، وهذا واضح أنها تتشرق، وفسروها أيضاً من جهة المعنى فقالوا: تتشرق أي تبرز للشمس.

ومما راجعته قوله هنا: **وكانت مما يهابون وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزألّت**، وهكذا هي في ابن هشام -احزألّت بالحاء- قال: أي رفعت رأسها، لكن وجدتها في غيره مثل سبيل الهدى قال: اخزألّت بالخاء، وضبطها أيضاً بالكتابة فقال: بخاء معجمة، فزاي فهمزة مفتوحة، فلام مشددة، فتاء تأنيث -اخزألّت- ويقول: أي رفعت ذنبها، والمُخْزَئِل المرتفع، وعلى هذا يكون في بعض النسخ بالخاء اخزألّت وفي بعضها احزألّت بالحاء، وهذا لا يستغرب؛ وذلك أنك تجد اللفظة جاءت بهذا وبهذا، وهذا له نظائر كثيرة.

قال: **وكشّت**، كشَّت هي هكذا ومعناها صوتت، يقال: الكشيش صوت احتكاك جلد الحية حيث تتحرك فيظهر صوت لجلدها إذا احتك بعضه ببعض.

وقال في نفس الصفحة: **والناس ينتحلون هذا الكلام للوليد بن المغيرة**، وقد وجدتها **ينحلون هذا الكلام**، ومعنى ينحلونه أي يضيفونه إليه وينسبونه إليه.

وقال: **للوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو**، وفي ابن هشام: **"للوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر"** وهي مضبوطة بفتح الميم وضم العين، فهي عمر وليست عمرو.

ومما قاله هنا: **على أساس إبراهيم -عليه السلام- أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة**، والمشهور أنه كالأسنمة، والذي في سبل الهدى وابن هشام كالأسنمة، والمراد أن الحجارة دخل بعضها في بعض كما تدخل عظام السنام بعضها في بعض، لكن الشاهد أنه يقول: ومن رآه كالأسنة جمع سنان، وهذا يعني أنه جاء أيضاً كالأسنة وهي الرماح، وتشبيهها بالأسنة من جهة أنهم قالوا: إن في لونها خضرة، وهذا لا يستغرب فمن المعروف عن جبال مكة أنها إذا نزل عليها المطر تحول لونها إلى شيء من الخضرة، حتى إن في قوله -تبارك وتعالى-: **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً}** [(٦٣) سورة الحـج] فالفاء تدل على التعقيب المباشر في اللغة، فعلى القول بأن المراد بالآية الخضرة السريعة قال بعض أهل العلم: إن "أل" من الأرض هنا العهدية فالمقصود بها أرض مكة، وقالوا ذلك؛ لأن النبات لا ينـبت بعد المطر مباشرة وإنما يحتاج إلى وقت، إذن هذا خاص في مكة، والمقصود أنه لما كانت جبالها تحتوي على عنصر النحاس فإذا نزل عليها المطر صارت تميل إلى الخضرة، لكن هذا الكلام فيه نظر في تفسير الآية تلك، وإنما الفاء

للتعقيب المباشر لكنه في كل شيء بحسبه، وعلى كل حال فالمقصود أن من قال: كالأسنة فهو ضبطها بهذه الطريقة وقال في اللون.

ومما قاله المؤلف: **فلما تحرك الحجر تنقضت مكة بأسرها،** وهكذا وجدتها في هذه المصادر تنقضت، وهي مضبوطة أيضاً، وفسروها بأنها اهتزت، أي اهتزت مكة بأسرها.

ومن الألفاظ أيضاً قوله: **فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاوروا وتخالفوا،** هكذا في نسختنا، وأما في سبيل الهدى **تحاوزوا وتحالفوا،** فهنا تحاوروا وتخالفوا، وهناك تحاوزوا وتحالفوا أي انحازت كل قبيلة إلى جهة، والتحالف معروف.

وفي ابن هشام وفي سائر الأصول تحاوروا وتخالفوا كما هنا، وعلى هذا فهو جاء بهذا وبهذا.

ثم قال: **ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو،** وليس ابن عمرو، فهذا ما يتعلق ببعض العبارات والألفاظ.

وبالنسبة لضبط الأبيات يقول:

عَجِبْـــتُ لمَـــا تَـــصوَّبَت العقَـــاب	**إلى الثعبان وهي لهـــا اضـــطرابُ**
وقد كانـــت يكـــون لهـــا كَـــشِيشٌ	**وأحيانًـــا يكـــون لهـــا وِثَـــابُ**
إذا قمنـــا إلـــى التأســـيس شَـــدَّت	**تُهَيِّبُنُـــا البنـــاءَ وقـــد تُهَـــابُ**
فلمـــا أن خَـــشِينا الرِّجـــز جـــاءت	**عقـــاب تَتْلَئِـــبُّ لهـــا انتـــصاب**
فـــضمتها إليهـــا ثـــم خَلَّـــت	**لنـــا البنيـــانَ لـــيس لـــه حجـــاب**
فَقُمْنَـــا حاشـــدين إلـــى بنـــاء	**لنـــا منـــه القواعـــدُ والتـــراب**
غـــداة نُرَفِّـــع التأســـيس منـــه	**ولـــيس علـــى مُـــسَوِّينا ثيـــاب**

قوله: **وليس على مُسَوِّينا ثياب،** ضبطها بعضهم مَسَاوينا -جمع سوْءة- والمُسوِّي يعني الباني، أي ليس على من يقوم بالبناء ثياب، وعلى الضبط الآخر يكون المعنى وليس على العورات ثياب، أي أنهم كانوا يبنون مع التعري يفعلون ذلك ديانة يتقربون بذلك إلى الله -عز وجل-.

ثم يقول:

أعَـــزّ بـــه المليـــكُ بنـــي لُـــؤي	**فلـــيسَ لأصـــله مـــنْهُم ذَهـــاب**
وقد حَـــشَدَتْ هُنَـــاك بنـــو عَـــديّ	**ومُـــرَّة قـــد تَقَـــدَّمَها كـــلاب**
فَبَوَّأنـــا المليـــكُ بـــذاكَ عـــزّا	**وعنـــد الله يُلْـــتَمَسُ الثـــواب**

هذا ضبط بعض الألفاظ في ذلك النص، وعموماً هذا من كلام أهل السير، ومعروف أن ما جاء في هذه الكتب إذا طبقت عليه شروط المحدثين ذهب أكثره، فقضية هذه الحية وما أشبهها كله يحتاج إلى إثبات، وأهل السير معلوم أنهم يذكرون مثل هذه الأشياء ويتساهلون فيها حتى إنهم يقولون: إن هذا الثعبان جاء منذ مئات السنين -من أيام العمالقة- وعاش مئات السنين، ويقولون عنها: إنها كانت إذا التفت على الكعبة التصق رأسها بذيلها من طولها، ويذكر أهل السير أيضاً أنه نزل شخص في بئر الكعبة ليسرق كنز الكعبة فسقط

عليه حجر ثم جاءت هذه الحية بعد ذلك، وأن هذا الكلام كله منذ أكثر من خمسمائة سنة من وقت بناء الكعبة، لكن هذا الكلام كله ليس هناك ما يثبته، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: " {وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا} [(١٢٨) سورة البقرة] **قال سعيد بن منصور أخبرنا عتاب بن بشير عن خُصيف عن مجاهد قال: قال إبراهيم -عليه السلام-: {وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا} فأتاه جبرائيل، فأتى به البيت، فقال: ارفع القواعد فرفع القواعد وأتم البنيان ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا، قال: هذا من شعائر الله، ثم انطلق به إلى المروة، فقال: وهذا من شعائر الله، ثم انطلق به نحو منًى، فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كَبِّر وارمه."**

قوله: **فلما كان من العقبة،** أي العقبة التي عندها الجمرة.

وهذا الأثر يدل على أن الرؤية في قوله: **{وَأَرِنَا}** [(١٢٨) سورة البقرة] رؤية بصرية تقتضي علماً بهذا المُبصَر، فيكون بذلك الجمع بين التفسيرين، أي أرنا رؤية بصرية تقتضي علماً بالمُبصَر، وبهذا نكون جمعنا بين القولين في تفسير قوله: **{وَأَرِنَا}** [(١٢٨) سورة البقرة].

"فكبر ورماه، ثم انطلق إبليس فقام عند الجمرة الوسطى فلما جاز به جبريل وإبراهيم قال له: كبر وارمه فكبر ورماه، فذهب الخبيث إبليس وكان الخبيث أراد أن يُدْخِل في الحج شيئًا فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات قال: قد عرفت ما أريتك؟ قالها: ثلاث مرات، قال: نعم، وروي عن أبي مِجْلَز وقتادة نحو ذلك."

ذُكرتْ في سبب تسمية عرفات بهذا الاسم وجوه متعددة وأقوال، فمنهم من قال: إن آدم وحواء التقيا فيها بعد أن أهبطا إلى الأرض فتعارفا هناك -وهذا ليس عليه ما يثبته- وبعضهم يقول: إن جبريل -صلى الله عليه وسلم- كما هو هنا سأل إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: وهل عرفت؟ يعني المناسك، قال: نعم، فقيل لها: عرفات، وبعضهم يقول غير هذا، وليس على شيء من ذلك دليل يمكن أن يوقف عنده، والعلم عند الله -عز وجل- وعلى كل حال هم يذكرون ذلك فقد يكون صحيحاً، وقد لا يكون كذلك، والله أعلم.

قوله تعالى: **{وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}** [(١٢٨) سورة البقرة]، توبة الله على العبد تأتي بمعنى توفيقه للتوبة وقبولها منه والتجاوز عنه وعدم المؤاخذة على التقصير والذنب والخطأ الذي يحصل منه كما قال تعالى: **{ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ}** [(١١٨) سورة التوبة] أي وفقهم للتوبة وقبلها منهم.

فالتوبة هي الرجوع، وتوبة الله على العبد تعني رجوع الله على العبد بالتجاوز عن التقصير والإساءة أو الذنب، أي رجع عليهم بالتوبة ورجع عليهم بالمغفرة ورجع عليهم بالتجاوز.

وتوبة العبد تعني رجوعه من تقصيره وذنبه إلى الحق، ومعلوم أن التوبة تكون من الذنب وتكون من غيره كالتقصير الذي قد لا يكون ذنباً، فهذه هي توبة الله على العبد التي تفسر قوله: **{وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}** [(١٢٨) سورة البقرة] والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٥٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ} [(١٢٩) سورة البقرة].

" يقول تعالى إخبارًا عن تمام دعوة إبراهيم -عليه السلام- لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، أي: من ذرية إبراهيم -عليه السلام- وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قَدَرَ الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن، والمراد أن أول من نوّه بذكره وشهره في الناس إبراهيم -عليه السلام- ولم يزل ذكره في الناس مذكورًا مشهورًا سائرًا حتى أفصح باسمه خاتمُ أنبياء بني إسرائيل نسبًا، وهو عيسى بن مريم -عليه السلام- حيث قام في بني إسرائيل خطيبًا وقال: {إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [(٦) سورة الصف] ولهذا قال في هذا الحديث: ((دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ابن مريم))، وقوله: ((ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام))[1] قيل: كان منامًا رأته حين حملت به وقَصّته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم، وكان ذلك توطئة.

وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم -عليه السلام- إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها، ولهذا جاء في الصحيحين: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك))[2] وفي صحيح البخاري: ((وهم بالشأم))[3].

وقوله تعالى: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ} يعني: القرآن {وَالْحِكْمَةَ} يعني: السنة، قاله الحسن وقتادة ومقاتل بن حيان وأبو مالك وغيرهم، وقيل: الفهم في الدين، ولا منافاة."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ} [(١٢٩) سورة البقرة]، قال: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ} يعني القرآن، وهذا لا إشكال فيه فهو في غاية الوضوح، اللهم إلا في موضع آخر وهو قوله -تبارك وتعالى-: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا

---

[1] - أخرجه أحمد (ج ٥ / ص ٢٦٢) والطبراني في الكبير (ج ٨ / ص ١٧٥) وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية.

[2] - أخرجه البخاري في كتاب المناقب - باب سؤال المشركين أن يريهم النبي -صلى الله عليه وسلم- آية فأراهم انشقاق القمر (٣٤٤٢) (ج ٣ / ص ١٣٣١) ومسلم في كتاب الإمارة - باب قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم)) (١٠٣٧) (ج ٣ / ص ١٥٢٤) كلاهما بلفظ مقارب.

[3] - صحيح البخاري في كتاب المناقب - باب سؤال المشركين أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية فأراهم انشقاق القمر (٣٤٤٢) (ج ٣ / ص ١٣٣١).

مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} [(٢) سورة الجمعة] وهي القرآن، ثم قال: {وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [(٢) سورة الجمعة] فهناك قال: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ} قال جماعة من أهل العلم: المراد به الكتابة، وعللوا هذا بأمرين اثنين: قالوا: الأمر الأول: أن في الآية ما يدل على هذا القول وذلك من جهة أن الله ذكر القرآن قبله حيث قال: {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} [(٢) سورة الجمعة] فمن أجل ألا يكون ذلك تكراراً في الكلام فإن التأسيس مقدم على التوكيد و بناء على هذه القاعدة، قالوا: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [(٢) سورة الجمعة] الكتاب يعني الكتابة التي هي الخط بالقلم، وفي الآية قرينة أخرى وهو أنه ذكر الأميين فقال: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} [(٢) سورة الجمعة] والأمي هو الذي لا يكتب أو لا يعرف الكتابة والقراءة، فهو يمتن عليهم ببعثه -صلى الله عليه وسلم- ومن جملة هذا الامتنان أن عرفوا الكتابة بعد أن كانوا أبعد الناس عنها إذ لم يكن يعرفها منهم إلا نفر يسير لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة.

فالمقصود أن الآية هناك تحتمل، وأما هنا: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ} [(١٢٩) سورة البقرة]، فهو القرآن، وأما قوله: {وَالْحِكْمَةَ} فإن الحكمة في أصلها من الحُكم وهو يدور على معنى المنع، وبعض أهل العلم يذكر له أصلاً آخر كشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- والمشهور عند كثير من أهل العلم أنه يدور على أصل واحد وهو المنع، فتأتي الحكمة تارة بمعنى النبوة، وتارة بمعنى الفقه في الدين، وتأتي تارة بمعنى وضع الشيء في موضعه وإيقاعه في موقعه، بمعنى الإصابة بالقول والعمل.

فهنا قوله: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [(١٢٩) سورة البقرة] قال: يعني السنة، وقيل: الفهم في الدين، وقال: لا منافاة؛ لأن من عرف السنة فإن السنة تكون شارحة للقرآن، فقد فهم عن الله -عز وجل- مراده، فلا منافاة بين قول القائل في قوله: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [(١٢٩) سورة البقرة]: إن الحكمة تعني السنة، أو الفهم في الدين، لأن من كان بالسنة أعلم فهو أفقه في دين الله -عز وجل- ولهذا فإن قول من قال هي الفقه في الدين لا إشكال فيه ولا يعارض من قال: إنها السنة.

ولهذا فإن مثل ابن جرير الطبري كبير المفسرين -رحمه الله- يفسر الحكمة هنا بأنها العلم بأحكام الله -عز وجل- التي جاء بها رسوله -صلى الله عليه وسلم- فإن ذلك لا يعرف إلا من طريقه -عليه الصلاة والسلام-، ومن ثَمَّ فإن هذا العلم بأحكام الله -عز وجل- هو العلم بالسنة؛ لأن الأحكام لا تعرف إلا من طريق النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وعلى كل حال أصل الحكمة من الحُكم الذي هو المنع ومن ثم يقال: الحُكم الفصل بين الناس، والحاكم يقال له: حاكم؛ لأنه يفصل بين الناس ومعنى المنع متحقق فيه، إذ أنه يمنع أحد الخصمين من التعدي على حق الآخر، ولذلك لو أتيت بأي لون من ألوان استعمال هذه اللفظة تجد فيها معنى المنع، فإذا قلت هي من الحَكَمَة التي توضع في الفرس، فإنها تمنعها من الانفلات، وإذا قلت: فلان حكيم فمعنى ذلك أن حكمته تزم رأيه ولسانه فلا يحصل منه الخَطَل والشطط في القول ولا في الحُكم بل تجد أقواله على استقامة وأحكامه على استقامة، فهو واقع على الصواب في القول وفي العمل، وهكذا.

قال: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [(١٢٩) سورة البقرة] أي فصل قضاء الله -عز وجل- بين الناس وأحكامه بحيث يعرفون ذلك ويفقهون دين الله -عز وجل- ويعرفون السنة..الخ، وكل هذه الأقوال التي ذكرها السلف

وما لم يذكروه كله صحيح وهذا يسمى خلاف التنوع، إلا أن من قال: إن الحكمة هي النبوة مثلاً، فهذا يحتاج إلى لون ربط وجمع قد يكون أعسر إلى حد ما من مثل هذه الأقوال، مع أنه يمكن أن يجمع بين هذا وهذا من جهة أن النبي هو الذي يحكم بين الناس.

ولا بد أن يفهم أن المقصود بتفسير الحكمة بالنبوة أن النبي يعلمهم مضامين النبوة التي جاء بها من الله -عز وجل- عن طريق الوحي، فيعلمهم أحكام الشريعة التي أنبأه الله بها، فلا يقول قائل في تفسير الحكمة بالنبوة أن المعنى يعلمهم النبوة بمعنى أنهم يكونون أنبياء مثله أو نحو ذلك، فهذا المعنى غير وارد على الإطلاق.

"**{وَيُزَكِّيهِمْ}** [(١٢٩) سورة البقرة] **قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: يعني طاعة الله.**"

قوله: **{وَيُزَكِّيهِمْ}** قال: **يعني طاعة الله**، وبعضهم يذكر غير هذه العبارة، وكل ذلك بمعنى واحد؛ لأن طاعة الله -عز وجل- هي تطهير للنفوس، فإنما يكون طهرها وصلاحها واستقامتها حينما تكون ملتزمة بالحق الذي جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- فالرسول يزكيهم بمعنى أنه يطهرهم من أدران الشرك والضلال والزيغ وكل لون من ألوان الانحراف الذي يدنس نفوسهم، فكل ما يذكر هنا كله صحيح؛ لأن المراد بذلك كله هو تزكية النفوس بتطهيرها من الشرك وما تفرع منه.

"**وقوله: {إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}** [(١٢٩) سورة البقرة] **أي: العزيز الذي لا يعجزه شيء، وهو قادر على كل شيء.**"

اسم العزيز من العزة أي العزيز الذي لا يغالب ولا تطاق سطوته، والعزة إنما تحصل من مجموعة أوصاف إذا وجدت وتحققت كان ذلك الموصوف عزيزاً، والعزيز لا يكون إلا قوياً ولا يكون إلا قادراً، وما إلى ذلك، ولهذا يفسره بعضهم بقوله: أي الذي لا تطاق سطوته، وبعضهم يقول: الذي لا يغالب، أو الذي لا يضام ولا يرام، وكل هذا داخل في معنى العزيز.

"**الحكيم في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالها لعلمه وحكمته وعدله.**"

اسم الحكيم جمع بين أمرين هما العلم ووضع الشيء في موضعه وإيقاعه في موقعه، فهذا هو الحكيم، والحكمة هي الإصابة بالقول والعمل، وهذه الإصابة لا يمكن أن تكون إلا بتحقق العلم مع الوصف الآخر الذي هو وضع الشيء في موضعه.

" **{وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ* إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ* وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٣٠-١٣٢) سورة البقرة].

يقول -تبارك وتعالى- رَدًّا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء، فإنه جَرد توحيد ربه -تبارك وتعالى- فلم يَدْعُ معه غيره، ولا أشرك به طرفة عين."

قوله: **يقول -تبارك وتعالى- رداً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله**، طبعاً هذه الآيات جميعاً هي في سياق ذكر بني إسرائيل، فأول من يدخل فيها هم اليهود والنصارى حيث إنهم خالفوا ملة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- من جهة الحقيقة إذ إنهم بدلوا وغيروا، كما أنهم خالفوها من جهة الانتساب والتسمية

حيث إنهم ابتدعوا هذه الأسماء، قال تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا} [(٦٧) سورة آل عمران] فالمقصود أن هؤلاء خالفوا دين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وملته فهم أول من يدخل في ذلك مع أنهم يدَّعون الانتساب إليه -عليه الصلاة والسلام- وأنهم على دينه -وسيأتي الرد عليهم في هذه الدعوى- ويدخل فيه أيضاً غيرهم من أهل الإشراك من العرب الذين كانوا يقولون: إنهم على دين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، لكن أولى من يدخل فيها هم اليهود والنصارى، لكنها شاملة للجميع؛ لأن مَن تدل على العموم في قوله: {وَمَن يَرْغَبُ} [(١٣٠-١٣٢) سورة البقرة]، والمعنى أن الرغبة عن ملة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- والإعراض عنها لا يمكن أن تقع إلا ممن سفه نفسه.

" ولا أشرك به طرفة عين وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه حتى تبرَّأ من أبيه، فقال: {يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(٧٨-٧٩) سورة الأنعام]، وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ* إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ} [(٢٦-٢٧) سورة الزخرف]، وقال تعالى: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [(١١٤) سورة التوبة]، وقال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ* وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [(١٢٠-١٢٢) سورة النحل].

ولهذا وأمثاله قال تعالى: {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ} [(١٣٠) سورة البقرة] عن طريقته ومنهجه فيخالفها ويرغب عنها {إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ} [(١٣٠) سورة البقرة] أي: ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال؛ حيث خالف طريق من اصطُفي في الدنيا للهداية والرشاد من حَداثة سنّه إلى أن اتخذه الله خليلا وهو في الآخرة من الصالحين السعداء."

قوله: {إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ} قال: أي ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره، أو قول من قال: {إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ} أي: جهل أمر نفسه فيما يصلحها ويقومها ويحملها على الحق والصواب فلم يفكر فيها، أو قول من قال: {إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ} يعني أهلك نفسه، وغير ذلك مما يمكن أن تفسر به، أي فعل بنفسه فعل أهل السفه بحيث إنه فعل بها من السفه ما صار به سفيهاً، والمقصود أن كل هذا يمكن أن تفسر به هذه الآية، والله تعالى أعلم، ولهذا فإن مثل ابن جرير -رحمه الله- يقول: {إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ} يعني إلا سفيه جاهل بحظ نفسه فيما ينفعها في عاجلها وآجلها.

{وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ} [(١٣٠) سورة البقرة] يعني لا يرغب عن ملة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- أي عن دينه ومنهجه إلا سفيه لا يعرف حظ نفسه قد أضاع نفسه وتردى في أودية الهلكة، فالسفيه هو الذي لا يحسن التدبير ولا يحسن التصرف.

"فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملّته واتبع طُرُقَ الضلالة والغي، فأي سفه أعظم من هذا؟ أم أي ظلم أكبر من هذا؟ كما قال تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [(١٣) سورة لقمان].

قال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود؛ أحدثوا طريقًا ليست من عند الله وخالفوا ملَّة إبراهيم فيما أخذوه، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا

مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [(٦٧-٦٨) سورة آل عمران]."

نعم، يدخل فيه اليهود ويدخل فيه النصارى دخولاً أولياً، ويدخل فيه غيرهم من مشركي العرب وغيرهم ممن خالف دين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وإن كان السياق في الرد على اليهود والنصارى بالدرجة الأولى.

"وقوله تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [(١٣١) سورة البقرة] أي: أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد فأجاب إلى ذلك شرعًا وقدرًا.

وقوله: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ} [(١٣٢) سورة البقرة] أي: وصى بهذه الملة وهي الإسلام لله أو يعود الضمير على الكلمة، وهي قوله: {أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [(١٣١) سورة البقرة] لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة."

قوله تعالى: **{وَوَصَّى بِهَا}** [(١٣٢) سورة البقرة] سواء وصاهم بهذه الكلمة **{فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٣٢) سورة البقرة]، أو وصاهم بهذه الملة -ملة إبراهيم- فإنها هي الإسلام، فهذا مما تجتمع فيه الأقوال أيضاً ولا منافاة.

"حافظوا عليها إلى حين الوفاة ووصوا أبناءهم بها من بعدهم؛ كقوله تعالى: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} [(٢٨) سورة الزخرف]، وقد قرأ بعض السلف "ويعقوبَ" بالنصب عطفًا على بنيه كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضرًا ذلك."

قوله: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ} [(١٣٢) سورة البقرة] إذا كانت بنصب الباء من يعقوب يكون المعنى: وصى إبراهيم بنيه ومن جملة أبنائه -صلى الله عليه وسلم- حفيده يعقوب -عليه الصلاة والسلام-، ويمكن أن يكون خصه بالذكر على هذه القراءة، باعتبار أنه أبٌ للأسباط الذين تفرعت منهم قبائل بني إسرائيل، ولذلك نسبوا إليه فقيل لهم: بنو إسرائيل، وإسرائيل هو يعقوب -عليه الصلاة والسلام-.

والقراءة المشهورة **{وَيَعْقُوبُ}** بالضم، والمعنى أن يعقوب أيضاً وصى بهذه الوصية بنيه، فيكون يعقوبُ على القراءة المشهورة فاعلاً.

"والظاهر، والله أعلم، أن إسحاق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة؛ لأن البشارة وقعت بهما في قوله: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ} [(٧١) سورة هود] وقد قرئ بنصب يعقوب هاهنا على نزع الخافض فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحاق كبير فائدة، وأيضًا فقد قال الله تعالى في سورة العنكبوت: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [(٢٧) سورة العنكبوت] الآية، وقال في الآية الأخرى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً} [(٧٢) سورة الأنبياء] وهذا يقتضي أنه وجد في حياته، وأيضًا فإنه باني بيت المقدس كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة.

وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: ((المسجد الحرام))، قلت: ثم أي؟ قال: ((بيت المقدس))، قلت: كم بينهما؟ قال: ((أربعون سنة)) الحديث[4]."

معنى ذلك أنه غالباً كان في حياة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وبناءً عليه يكون وجه الإعراب في القراءة السابقة **{فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ}** [(٧١) سورة هود] إذا كانت بنزع الخافض ومن وراء إسحاق بيعقوب، فالخافض هو حرف الجر -الباء- فنزع وصار ومن وراء إسحاقَ يعقوبَ.

"وأيضًا فإن وصية يعقوب لبنيه سيأتي ذكرها قريبًا، وهذا يدل على أنه هاهنا من جملة الموصين."

قوله: **وهذا يدل على أنه هاهنا من جملة الموصين**، هذا يفسره قوله -تبارك وتعالى-: **{وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ}** [(١٣٢) سورة البقرة] مع قوله: **{أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي}** [(١٣٣) سورة البقرة] فالقرآن يفسر بالقرآن، فيكون يعقوب -صلى الله عليه وسلم- قطعاً قد أوصى بنيه بهذه الوصية.

ومعلوم أن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ}** [(١٣٢) سورة البقرة] يعني أنه -على قراءة الضم- قد وصى قطعاً فهو فاعل، ويدل على هذا الآية الأخرى: **{أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ...}** [(١٣٣) سورة البقرة] كما سيأتي، فتكون الوصية صادرة من إبراهيم ويعقوب جميعاً.

وتدل قراءة النصب **(ويعقوبَ)** على أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أوصى، ومن جملة من أوصاهم يعقوب -عليه الصلاة والسلام- ومعلوم أن القراءتين إذا كان لكل واحدة منهما معنى يخصها فإنهما بمعنى الآيتين، فيكون ذلك من باب زيادة الوصف أو زيادة الحكم إذا كان ذلك يعود إلى موصوف واحد.

والخلاصة هي أن يعقوب -صلى الله عليه وسلم- هنا موصًى وكذلك هو موصٍ، فكل ذلك حصل، وليس في هذا إشكال ولا غرابة، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - باب **{يَزِفُّونَ}** [(٩٤) سورة الصافات] النسلان في المشي (٣١٨٦) (ج ٣/ ص ١٢٣١) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٠) (ج ١ / ص ٣٧٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٥٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: " وقوله: {يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٣٢) سورة البقرة] **أي: أحسنوا في حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه فإن المرء يموت غالبًا على ما كان عليه ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصد الخير وُفّق له ويسر عليه، ومن نوى صالحًا ثبت عليه."**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير هذه الآية هو جواب لسؤال مقدر؛ إذ إن إبراهيم -عليه السلام- في هذه الوصية يقول موصياً أبناءه: **{فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٣٢) سورة البقرة] فلقائل أن يقول: وهل يملك الإنسان أن يحدد الأمر الذي يموت عليه مع أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء، وهل المقصود أن يموت الإنسان على الإسلام فحسب أم أن المقصود أن يسلك سبيل الله -عز وجل- وصراطه المستقيم وأن يلزمه إلى الممات؟

قال ابن كثير جواباً لهذا: المراد بقوله: **{فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٣٢) سورة البقرة] أي أحسنوا واستقيموا وسيروا سيراً صحيحاً لا معوجاً حتى يختم لكم بخاتمة طيبة صالحة وهي الموت على الإسلام، فالإنسان يموت عادة على ما كان عليه.

"وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح: ((إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا بَاعٌ أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها))[1]."

يعني أن ذلك فيما يبدو للناس، كما جاء في بعض الروايات كما في حديث الرجل الذي جاهد مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأصيب بجراحة شديدة، وقد أثنى عليه من أثنى عليه من الناس، وأنه لم يُبلِ أحد بلاء كبلائه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إنه من أهل النار)) حتى تبعه رجل فنظر فلما أصيب بتلك الجراحة كأنه استعجل الموت أو جزع فوضع ذباب السيف بين ثدييه ثم تحامل عليه حتى قتل نفسه[2].

فمثل هؤلاء لم يكن عملهم على استقامة وإن كان فيما يبدو أنهم على استقامة، وذلك أنه حينما يخبر الرجل عند موته أنه كان يقاتل حمية لقومه فإن هذا ليس من العمل الصالح.

---

[1] - أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب القدر - باب في القدر (٦٢٢١) (ج ٦ / ص ٢٤٣٣).

[2] - البخاري في كتاب المغازي - باب غزوة خيبر (٣٩٦٦) (ج ٤ / ص ١٥٣٩) ومسلم في كتاب الإيمان - باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة (١١٢) (ج ١ / ص ١٠٦).

ومن أعظم ما يكون سبباً لخذلان العبد في الوقت الذي يكون أحوج ما يكون إلى ألطاف الله -عز وجل- أن يكون له خبيئة سيئة من نية أو قصد سيئ أو عمل سيئ لا يطلع عليه الناس، وما إلى ذلك مما يريدونه من العلو في الأرض، أو يكون العمل فيه نوع نفاق، أو عمل يكرهه الله -عز وجل- ويمقت أهله، فهو يعمله في الخفاء ويدوام عليه حتى الممات، فكل ذلك قد يكون سبباً لخذلان العبد عند الموت فيختم له بخاتمة السوء، وإلا فإن الله -عز وجل- بالناس لرءوف رحيم، وهو الذي يقول -جل وعلا-: **{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ}** [(١٧) سورة محمد]، ويقول سبحانه: **{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}** [(١٤٣) سورة البقرة]، ويقول -تبارك وتعالى: **{هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}** [(٤٣) سورة الأحزاب] فهو ينقلهم من هداية إلى هداية ويثبتهم على الحق كما قال سبحانه: **{يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ}** [(٢٧) سورة إبراهيم] ومن هذا التثبيت أن يثبتهم عند الموت، وإنما العبد هو الذي يجني على نفسه، هو الذي يسيء إليها فيخذل بسبب عمله السيئ.

"لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث: ((ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس))، ((ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس))[3]، وقد قال الله تعالى: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى* وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [(٥-١٠) سورة الليل].

{أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ* تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [(١٣٢-١٣٤) سورة البقرة].

يقول تعالى محتجًّا على المشركين من العرب أبناء إسماعيل وعلى الكفار من بني إسرائيل -وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم السلام-..."

قوله تعالى: **{أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء}** "أم" في الآية يُحتمل أن تكون منقطعة بمعنى "بل" ويُحتمل أن تكون متصلة بما قبلها، والمقصود أن الله -عز وجل- ينكر عليهم هذه الدعاوى الباطلة والكذب على الله -عز وجل- وعلى أنبيائه كإبراهيم وإسحاق ويعقوب -عليهم الصلاة والسلام- من أنهم كانوا يهوداً أو نصارى، فهو -عز وجل- يكذبهم بذلك ويذكر أقاويل هؤلاء الأنبياء ويبين حالهم وأنهم كانوا على الإسلام ولم يكونوا يهوداً ولا نصارى.

ونجد في كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: **يقول تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل وعلى الكفار من بني إسرائيل،** نجد أنه عمَّمها في أهل الكتاب والمشركين، وأما ابن جرير -رحمه الله- فهو على عادته في هذه الآيات من أولها -من ذكر خلق آدم -صلى الله عليه وسلم- إلى هذه الآيات جميعاً- يرى أن الخطاب متوجه إلى اليهود والنصارى، ومنها ما يتعلق باليهود، ومنها ما يتعلق بالنصارى، فهو يرى أن هذه الآية رد على النصارى الذين ادعوا أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أو يعقوب -عليه الصلاة والسلام- كان يهودياً، فهو لا يزال يرد عليهم هذه الدعوى الكاذبة، وعلى كل حال فالسياق كله في بني إسرائيل.

---

[3] - سبق تخريجه آنفاً.

"بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال لهم: {مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ} [(١٣٣) سورة البقرة] وهذا من باب التغليب؛ لأن إسماعيل عمُّه."

قوله: **وهذا من باب التغليب**، أي أنه عدَّ الآباء الذين تناسل منهم، والعمُّ ليس من نسله، بمعنى أن إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- ليس جداً ليعقوب -صلى الله عليه وسلم- فذكره من جملة آبائه.

قال ابن كثير: **وهذا من باب التغليب**، وهذا الذي ذكره وجه، وهو أنه عدَّ الآباء وذكر معهم العمَّ من باب التغليب، فإذا كان الجم الغفير الأكثر يصدق عليهم الوصف فإن ذلك لا يؤثر إذا دخل فيهم من ليس متصفاً بذلك، إذا قيل: إن هذا من باب التغليب.

والوجه الآخر في الجواب -وربما كان هو الأحسن- أن العم يقال له: أب، فهو يوصف بذلك وهذه الآية تشهد لهذا حيث قال يعقوب لبنيه: **{مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ}** [(١٣٣) سورة البقرة] فهم ذكروا عمه إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- فهو أب له.

ومن المعلوم أن جماعة من المفسرين يقولون في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً}** [(٧٤) سورة الأنعام]: إن المقصود بأبيه في الآية هو عمه وليس بأبيه الذي هو من صلبه، وهذا الكلام مردود، وسيأتي الكلام عليه -إن شاء الله- في سورة الأنعام، وإن كان مما احتجوا به لهذا القول أنهم قالوا: إن عادة العرب أنهم إذا ذكروا الأب لا يذكرون معه اسمه، فإن أرادوا به العم أو غيره ممن لم يتناسل منه فإن المراد بذلك يكون غير الأب الذي كان له به ارتباط ولادة، بمعنى أنه لو كان آزر أباً لإبراهيم لقال: إذ قال إبراهيم لأبيه يا أبت كذا وكذا، وعلى كل حال هذا كلام مردود فهو ضعيف وليس صحيحاً.

"قال النحاس: والعرب تسمي العم أبًا، نقله القرطبي؛ وقد استدل بهذه الآية الكريمة من جعل الجد أبًا وحجب به الأُخوة، كما هو قول الصديق رضي الله تعالى عنه- حكاه البخاري عنه من طريق ابن عباس وابن الزبير -رضي الله تعالى عنهم-."

قوله: **من جعل الجد أبًا وحجب به الأُخوة**، هذه المسألة في الفرائض وذلك في حال عدم وجود الأب، وإلا فإن الأب يحجب الجد قطعاً بلا إشكال.

وأصل المسألة أنه في حال عدم وجود الأب الذي يحجب الأخوة حيث يرث السدس والباقي تعصيباً، فهل الجد ينــزل منزلة الأب في ذلك فيرث السدس والباقي تعصيباً -بمعنى أن الجد يقوم مقامه- أم أنه يرث مع الأخوة فلا يكون حاجباً لهم؟ والخلاصة أن هذه مسألة معروفة مختلف فيها منذ عهد أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-.

"ثم قال البخاري: ولم يختلف عليه، وإليه ذهبت عائشة أم المؤمنين -رضي الله تعالى عنها-، وبه يقول الحسن البصري وطاوس وعطاء.

وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه: إنه يقاسم الإخوة؛ وحكي ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت -رضي الله عنهم أجمعين- وجماعة من السلف والخلف."

مسائل الفرائض الخلافية قليلة معدودة، ومن أشهرها مسألة الجد والأخوة.

"وقوله: {إِلَهًا وَاحِدًا} أي: نُوَحِّدُه بالألوهية، ولا نشرك به شيئا غيره، {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [(١٣٣) سورة البقرة] أي: مطيعون خاضعون كما قال تعالى: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [(٨٣) سورة آل عمران]."

يعني أنهم لا ينازعون الله -عز وجل- في أحكامه الشرعية ولا القدرية، فهم منقادون لأحكام الله -عز وجل-، مستسلمون لأقداره ومستسلمون لشرائعه وأحكامه ودينه، وهذه هي حقيقة الإسلام، فهو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك وأهله.

"والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوّعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [(٢٥) سورة الأنبياء] والآيات في هذا كثيرة والأحاديث، فمنها قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((نحن مَعْشَرَ الأنبياء أولاد عَلات ديننا واحد))[4]."

يعني أن الذين أشركوا بالله -عز وجل- وادعوا له الولد من اليهود والنصارى هؤلاء ليسوا على دين أحد من الأنبياء وإنما هم ضلال على الكفر والشرك، وهم حطب جهنم، ومن شك في ذلك فهو معهم وفي حكمهم، ولا يجوز لأحد أن يدعي أن هؤلاء على الإيمان، وأنه لا يكفرهم وأنهم لا يستحقون هذه الأوصاف، بل هم مستحقون لها وأهلها، وهم فداء لأهل الإسلام وفكاك لهم من النار؛ كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا كان يوم القيامة دفع الله -عز وجل- إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول: هذا فكاكك من النار))[5].

" وقوله تعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ} أي: مضت {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ} [(١٣٤) سورة البقرة] أي: إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيرًا يعود نفعهُ عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم: {وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [(١٣٤) سورة البقرة]، ولهذا جاء، في الأثر: ((من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه))[6]."

لما ذكر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب -عليهم الصلاة والسلام- قال: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ} [(١٣٤) سورة البقرة].

والأمة من معانيها الجماعة، فهؤلاء الأنبياء الذين عدّدهم يقول: إن هؤلاء قد مضوا بأعمالهم وآمالهم وأفضوا إلى الله -عز وجل- وعنده يلقون جزاءهم، وأما أنتم فليس لكم إلا العمل الصالح الذي يرضي وجهه -تبارك وتعالى- فتقربوا إليه بالتوحيد والانقياد والاستقامة على دينه الذي شرعه، واعلموا أنه لا ينفعكم التكثر بهؤلاء الأنبياء والدعاوى الباطلة أنهم كانوا على دينكم، فإن كنتم تريدون ما عند الله -عز وجل- فكونوا على ما كانوا عليه، أما الدعاوى الفارغة فإنها لا تنفع أصحابها، والمتكثر بالصالحين والأخيار وأنه من نسلهم وأنه على دينهم ومنهاجهم وشريعتهم، وهو أبعد ما يكون عنهم، بعقائدهم وأعمالهم وأخلاقهم فإن هذا لا يغني عنه من الله شيئاً، وهذا أصل كبير يحتاج الإنسان إلى معرفته والعمل بمقتضاه، فالآخرة دار لا تصلح للمفاليس.

---

4 - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - باب {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا} [(١٦) سورة مريم] (٣٢٥٩) (ج ٣ / ص ١٢٧٠) ومسلم في كتاب الفضائل - باب فضائل عيسى عليه السلام (٢٣٦٥) (ج ٤ / ص ١٨٣٧)، إلا أن لفظهما: ((الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد))

5 - أخرجه مسلم في كتاب التوبة - باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٧) (ج ٤ / ص ٢١١٩).

6 - أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٢٦٩٩) (ج ٤ / ص ٢٠٧٤).

يقول تعالى: {وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [(١٣٤) سورة البقرة]، يعني لهم أعمالهم، والله هو الذي يتولى عباده ويجازيهم على ذلك، فدعوا عنكم هذه المنازعة والتكثر بهؤلاء وأنتم تتخبطون وتتمرغون في أودية الشرك والضلال.

" **{وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(١٣٥) سورة البقرة] روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال عبد الله بن صُوريا الأعورُ لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتَّبِعْنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله -عز وجل-: {وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ} [(١٣٥) سورة البقرة].**"

قوله: {وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا} أي: يهوداً، من هاد يهود إذا رجع -وسبق الكلام على هذا- وبعضهم يقول: إن ذلك نسبة إلى جدٍ، وبعضهم يقول: إن هذا مأخوذ من المعنى الذي في قوله: {هُدْنَا إِلَيْكَ} [(١٥٦) سورة الأعراف]، أي: رجعنا إليك، ومن ذلك قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هَادُواْ} [(٦٢) سورة البقرة] أي اليهود وسموا بذلك؛ لأنهم تابوا تلك التوبة العظيمة المعروفة في التاريخ، وذلك أنهم لما عبدوا العجل أمرهم الله -عز وجل- أن يقتلوا أنفسهم، وقد سبق الكلام على هذا المعنى.

قوله: {وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى} [(١٣٥) سورة البقرة] ومثل هذا "أو" تكون فيه للتقسيم، بمعنى أن اليهود قالت: كونوا هوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى؛ وقلنا للتقسيم لأن اليهودي لا يعتقد أنه يكون مهتدياً إذا كان على دين النصارى، وكذلك العكس، فاليهود والنصارى يكفر بعضهم بعضاً، فكل طائفة زعمت أن الهدى من جهتها وفي ناحيتها، فهذا هو تفسير قوله: {وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى} [(١٣٥) سورة البقرة].

"**وقوله: {قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [(١٣٥) سورة البقرة] أي لا نريد ما دعوتم إليه من اليهودية والنصرانية بل نتبع {مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [(١٣٥) سورة البقرة].**"

قال: **بل نتبع {مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [(١٣٥) سورة البقرة]**، هذا الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- بناء على أن ملة هنا جاءت منصوبة بفعل مقدر محذوف هو "نتبع" فتكون ملة مفعولاً به لفعل مقدر محذوف.

وبعضهم يقول: إن هذا نصب على الإغراء، فهو يغريهم بلزومها واتباعها ويحثهم على ذلك؛ وكأنه يقول: بل الزموا ملة إبراهيم، أو عليكم ملة إبراهيم، أو نحو ذلك مما يغريهم به -والله أعلم- كما أنها تحتمل غير هذا نحو: بل نكون أصحاب ملة إبراهيم، أو أتباع ملة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-.

"**بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً أي: مستقيماً، قاله محمد بن كعب القرظي وعيسى بن جارية.**"

وهذا الذي اختاره ابن جرير حيث فسر الحنيف بالمستقيم، وقالوا: إن الحنيف هو المستقيم من كل شيء.

وبعض أهل العلم يقول: أصل كلمة الحنف في اللغة الميل، ويقولون: قيل لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أو من كان على منهاجه إنه حنيف؛ لأنه مائل عن كل دين سوى الإسلام، فهو مائل عن الشرك، يعني مجانب له ومتجافٍ عنه، وما أشبه ذلك، والحاصل أن مثل ابن جرير الطبري -رحمه الله- يقول: حنيفاً أي مستقيماً، وعلى كل حال إذا كان مائلاً عن الشرك فهو مستقيم.

ولا شك أن الحنف عند العرب يطلق على الميل، ومنه قول أم الأحنف بن قيس -يوم كان صغيراً عندما كانت ترقصه-:

والله لــولا حنــف فــي رجلــه ما كان فــي فتيــانكم مــن مثلــه

فابنها هذا كان فيه ميل في الساقين بحيث كأن إحداهما تميل إلى الأخرى وتقترب منها، فهذا هو الحنف.

ومن فسر الحنف بالاستقامة فيمكن أن يوجه ذلك مع قول من قال: إنه الميل، من جهة أن المائل عن كل دين إلى الإسلام هو مستقيم؛ فالصراط المستقيم هو خلاف السبل المعوجة التي منها اليهودية والنصرانية وغير ذلك.

"**وقال مجاهد والربيع بن أنس: حنيفًا أي: متبعًا.**"

حنيفًا أي: متبعًا الحق والهدى الذي ارتضاه الله -عز وجل- لعباده، ولا منافاة بين هذا المعنى والمعنى السابق.

"**وقال أبو قلابة: الحنيف الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم.**"

كل هذه الأقوال صحيحة ولا منافاة بينها ولا تحتاج إلى ترجيح، وهذا الخلاف هو الذي يسمونه خلاف التنوع، ومن المعلوم أنه لا يكون مستقيماً إلا من آمن بجميع الرسل، أما الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض فهؤلاء ليسوا على استقامة، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٥٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [(١٣٦) سورة البقرة].

" أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- مفصلاً وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -رحمه الله-: **أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة** إلى آخره، جعل ابن كثير قوله تعالى: **{قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ..}** إلى آخره خطاباً للمؤمنين، مع أن السياق كما سبق هو في مخاطبة بني إسرائيل، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن ذلك متوجه إلى غير المسلمين من أهل الكتاب وغيرهم من الكفار، أي: أيها المفرقون بين الله ورسله والمفرقون بين الكتب تؤمنون ببعض وتكفرون ببعض آمنوا بالله إيماناً صحيحاً وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا.. إلى آخره- والقول بأن هذا خطاب للكفار يساعده سياق هذه الآيات جميعاً.

ولا يمنع أن يكون ذلك خطاباً للجميع ليكونوا على استقامة وسير صحيح؛ فالجميع مطالب بهذا الأمر، والمعنى أن الله -عز وجل- لما بيَّن كفر اليهود والنصارى وتناقضهم وقولهم على الله -عز وجل- بلا علم، وجه الخطاب للمؤمنين ووجه غيرهم إلى الإيمان الصحيح، وكيف ينبغي أن يكونوا، وعلمهم كيف يصلُح إيمانهم واعتقادهم خلافاً لأهل الكتاب وما هم عليه من التفريق بين الله ورسله يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض.

"ونص على أعيان من الرسل وأجمل ذكر بقية الأنبياء وأن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلّهم."

أي أنه ذكر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- الذين تتصل أنسابهم بهم أو هم من أشهر أنبيائهم، فذكر لهم إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وهو إمام الحنفاء حيث تتنازعه جميع الطوائف، فكل طائفة تزعم أنه منها -اليهود والنصارى والعرب أهل الإشراك-.

وذكر لهم إسحاق -صلى الله عليه وسلم- وأنسابهم ترجع إليه، وذكر يعقوب واليهود منتسبون إليه، وهذا مما يقوي أن الخطاب لأهل الكتاب ومن أخص ما يدخل فيه اليهود، كما ذكر لهم موسى وعيسى، فموسى هو أكبر أنبياء بني إسرائيل، وعيسى -صلى الله عليه وسلم- جفوه وتكلموا في حقه وفي حق والدته بما لا يليق.

والمقصود أنهم مطالبون بالإيمان بهؤلاء الرسل جميعاً ممن ينتسبون إليهم ويعظمونهم أو ممن جفوهم وكفروا بما جاءوا به ورموهم بما لا يليق من الشناعات.

كما ذكر إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- وقلنا: إن الخطاب لجميع الطوائف -للعرب ولليهود والنصارى- فهم جميعاً مطالبون بالإيمان، ولكن أولى من يدخل في هذا الخطاب -كما سبق- هم أهل الكتاب لا سيما اليهود، والله أعلم.

"ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: {وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً* أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا} [(١٥٠-١٥١) سورة النساء] الآية."

في بعض الآيات يذكر الله -عز وجل- بعض الأنبياء، وفي بعضها يذكر آخرين، وهكذا في كل مقام بحسبه، كما في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى}** [(١٣٦) سورة البقرة]، وفي بعضها يذكر نوحاً -عليه الصلاة والسلام- وعيسى ومحمد -عليه الصلاة والسلام- وهكذا.

وبعض أهل العلم فسروا قوله -تبارك وتعالى-: **{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}** [(٣٥) سورة الأحقاف]، بما جاء في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا}** [(٧) سورة الأحزاب]، فقالوا: هؤلاء الخمسة هم أولو العزم.

وعلى كل حال يذكر الله -عز وجل- بعض الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في كل موضع بحسبه، ولا شك أن هؤلاء الذين ذكروا هم من كبارهم وعظمائهم ولكن ذلك لا يعني أن هؤلاء الخمسة هم أولو العزم من الرسل خاصة دون غيرهم، فهذا لا أعلم دليلاً يقوم عليه.

"وروى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبْرَانيَّة ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تُكَذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا))[1]."

علمهم كيف يقولون -يعني هذه الآية- والخطاب في هذا الحديث موجه لأهل الإيمان من قِبَل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وذلك يؤيد أن الخطاب كما أنه متوجه لأهل الكتاب فهو متوجه للمؤمنين، ولا يلزم أن يكون الخطاب في الآية لأهل الإيمان استدلالاً بهذا الحديث؛ لأن الآية قد تنزل في شيء وتستعمل في معنى آخر أخذاً بعمومها، وهذا له نظائر، مثل قوله تعالى: **{وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}** [(٥٤) سورة الكهف]، فهذه الآية في الذي يجادل في البعث، أو يجادل في آيات الله أو في الوحي، أو في وحدانية الله -عز وجل-، فالله -عز وجل- ذكر ذلك على سبيل الذم لهؤلاء، ولكن النبي -صلى الله عليه وسلم- استعملها لما جاء إلى علي وفاطمة -رضي الله عنهما- ووجدهما نائمين، فقال: ((ألا تصليان؟)) فقال علي -رضي الله عنه-: "إن أرواحنا بيد الله متى ما شاء بعثها" فرجع النبي -صلى الله عليه وسلم- يضرب فخذه ويقول: ((وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً))[2]، فمع أن الآية لم تأت أصلاً لتقرير هذا المعنى إلا أن عمومها يصلح أن

---

1 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب قوله تعالى: **{قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا}** [(١٣٦) سورة البقرة] (٤٢١٥) (ج ٤ / ص ١٦٣٠).

2 - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب في المشيئة والإرادة **{وَمَا تَشَاءونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ}** [(٣٠) سورة الإنسان] (٧٠٢٧) (ج ٦ / ص ٢٧١٦) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح (٧٧٥) (ج ١ / ص ٥٣٧).

يستعمل في هذا وفي كل مجادل، ولو لم يكن يجادل في آيات الله أو يجادل في الوحدانية أو في البعث، والله أعلم.

ومثل ذلك قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} [(٢٤) سورة الأنفال]، فقد دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- أبا سعيد بن المعلا وهو يصلي فلم يجبه، قال: ثم أتيت فقال: ((ما منعك أن تأتي)) فقلت: كنت أصلي فقال: ألم يقل الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} [(٢٤) سورة الأنفال]))[3] فمع أن الآية إنما نزلت بدعوة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لهم إلى الإيمان، لكن إذا قال: يا أبا سعيد، أو يا فلان فهل الآية نزلت في هذا بحيث أنه يدخل فيها؟ طبعاً لا يدخل فيها، لكن عمومها أدخله؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يدعوهم إلا إلى خير، والله أعلم.

ومثل ذلك أيضاً الآية التي في سورة التوبة: {لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [(١٠٨) سورة التوبة]، السياق في هذه الآية معلوم أنه في أهل قباء، لكن لما اختلف الخدري مع العوفي حيث العوفي يقول: هو مسجد قباء والخدري يقول: هو مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فاختصموا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال -عليه الصلاة والسلام-: ((هو مسجدي هذا))، فالسياق في مسجد قباء، فيمكن أن يقال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر أحق ما يدخل فيها، فإنه وإن كان السياق في مسجد قباء فإن مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أولى بهذا الوصف، وهو لا يخرج مسجد قباء عنه وهكذا.

ومن أمثلة ذلك: قول النبي -صلى الله عليه وسلم- على المنبر: ((إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراةً غُرلاً))، ثم قرأ: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [(١٠٤) سورة الأنبياء][4] فأصل الآية إنما جاءت للدلالة على القدرة على البعث، فالذي خلق أولاً قادر على الإعادة ثانياً إلا أن عمومها يمكن أن يؤخذ منه هذا المعنى، وهكذا.

وللعلم فإني إنما أذكر هذا لأن مثل هذه الأشياء تنمي الملكة وتبقى مع الإنسان وإن نسي المعاني التي يقرؤها.

"وروى مسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أكثر ما يصلى الركعتين اللتين قبل الفجر بـ{آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا} [(١٣٦) سورة البقرة] الآية، والأخرى بـ{آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [(٥٢) سورة آل عمران][5]."

يعني أنه كان يقرأ في الركعة الأولى من سنة الفجر هذه الآية: {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [(١٣٦) سورة البقرة]، وفي الركعة الثانية يقرأ آية آل عمران: {فَلَمَّا

---

3 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} [(٨٧) سورة الحجر] (٤٤٢٦) (ج ٤ / ص ١٧٣٨).

4 - أخرجه البخاري في كتاب الرقاق - باب كيف الحشر (٦١٦١) (ج ٥ / ص ٢٣٩١) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٦٠) (ج ٤ / ص ٢١٩٤).

5 - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب استحباب ركعتي سنة الفجر والحث عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما (٧٢٧) (ج ١ / ص ٥٠٢) وأبو داود في كتاب الصلاة - باب في تخفيفهما -أي ركعتي الفجر- (١٢٥٩) (ج ١ / ص ٤٠٣) والنسائي في صفة الصلاة - باب القراءة في ركعتي الفجر (٩٤٤) (ج ٢ / ص ١٥٥) ولفظ: أن كثيراً ما كان يقرأ...الخ في أبي داود.

أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [(٥٢) سورة آل عمران] وهذا في صحيح مسلم.

وورد في صحيح مسلم أيضاً أنه قرأ في الركعة الثانية: **{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}** [(٦٤) سورة آل عمران]، فالحاصل أنه يقرأ بهذا مرة وبهذا مرة.

والمشهور في قراءته -صلى الله عليه وسلم- في سنة الفجر أنه كان يقرأ في الأولى بـــ**{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}** [(١) سورة الكافرون]، والثانية بـــ**{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}** [(١) سورة الإخلاص]، وكانت صلاته قبل الفجر -أعني الركعتين- خفيفة كما في حديث عائشة حتى كانت تقول: : كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا طلع الفجر صلى ركعتين أقول: هل يقرأ فيهما بفاتحة الكتاب؟ [٦].

"وقال أبو العالية والربيع وقتادة: الأسباط: بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً ولد كل رجل منهم أمة من الناس، فسمّوا الأسباط."

على قول هؤلاء العلماء من السلف فإن الأسباط هم بنو يعقوب وهم بهذا العدد، ومنهم تفرعت قبائل بني إسرائيل، فهم كانوا على اثنتي عشرة قبيلة، وقد جاء هذا في عدد من آيات القرآن، فهذا هو القول المشهور وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وهو أن الأسباط هم أولاد يعقوب -عليه الصلاة والسلام-.

وبعض أهل العلم يستشكل هذا من جهة أن المعروف أن الأسباط هم قبائل الإسرائيليين، فالأولاد الاثنا عشر لا يمثلون قبائل وبالتالي قال بعضهم: هم أولاد أولاد يعقوب، فهم من الكثرة بحيث يمكن أن يقال: إن كل واحد من هؤلاء الذين تفرعوا من أولاده يمثل مجموعة من الناس، فهم عبارة عن مجموعات كل مجموعة ترجع إلي واحد من ولد يعقوب -صلى الله عليه وسلم-.

لماذا سموا بالأسباط؟

يمكن أن يقال: هل هذه كلمة عربية في أصلها أم لا؟ فإن كانت عربية فيمكن أن نفسرها من كلام العرب بذكر مادة اشتقاقها، وإن كانت غير عربية فلا مجال لهذا؛ لأنك لا تقول مثلاً: من أين أخذت إبراهيم بالعربية؟، لكن بالأعجمية يمكن كما سبق أن ذكرنا أن بعضهم يقول: إن أصل إبراهيم: أب رحيم، وموسى بالعبرانية: موشى، ويقولون: أصلها ماء وشجر، وربما يكون ذلك صحيحاً لكن ذلك لا يرجع إلى العربية، إلا أن اللغة العبرانية فيها تشابه إلى حد كبير مع اللغة العربية، فهي أقرب إلى اللغة العربية من اللغة الإنجليزية مثلاً، لذلك تجد كلمات من كلام العبرانيين يمكنك فهمها لكن قد يكون السين شيناً مثلاً وهكذا.

الحاصل أن بعضهم يقول: إن الأسباط من السبط وهو التتابع، فالأسباط هم جماعة متتابعون، وبعضهم يقول: إنها بالفتح من السبط وهو الشجر، والمعنى أنهم من الكثرة بمنزلة الشجر، وهذا المعنى لا يخلو من غرابة.

---

[6] - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب استحباب ركعتي سنة الفجر والحث عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما (٧٢٤) (ج ١ / ص ٥٠٠).

وبعضهم يقول: هم أولاد أولاد يعقوب؛ لأن الكثرة فيهم وليست في أولاد يعقوب، وعلى كل حال فالمشهور أن الأسباط هم أولاد يعقوب، وبعضهم يقول: هم قبائل الإسرائيليين، وسواء قلنا هذا أو هذا فقبائل الإسرائيليين إنما ترجع إلى أولاد يعقوب، وبالتالي بين القولين نوع ملازمة، وليس من الضرورة أن نرجح بين هذين القولين، وأما الذين قالوا: إنه من الشجر لكثرته أو بمعنى التتابع فإن هذا لا يعارض أن يكون المراد به قبائل بني إسرائيل، فهم لا ينكرون هذا، لكن القول بأنهم سموا بذلك لتتابعهم أو لكثرتهم فهذه محاولة لتعليل التسمية، وليس هناك ضرورة لمثل هذا ولا يترتب عليه كبير فائدة، ولا يتوقف عليه العمل بكتاب الله –تبارك وتعالى– والله أعلم.

"وقال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسماعيل؛ وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط هاهنا شعوب بني إسرائيل وما أنزل الله تعالى من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم كما قال موسى لهم: {اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا} [(٢٠) سورة المائدة] **الآية، وقال تعالى: {وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا}** [(١٦٠) سورة الأعراف] **قال القرطبي: والسبط: الجماعة والقبيلة، الراجعون إلى أصل واحد.**

وقال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به ويصدقُوا بكتبه كلّها وبرسله.

وقال سليمان بن حبيب: إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل ولا نعمل بما فيهما."

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٦٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ} [(١٣٧-١٣٨) سورة البقرة].

"يقول تعالى: {فَإِنْ آمَنُواْ} يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم {بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ} أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم {فَقَدِ اهْتَدَواْ} أي: فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه"

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ}** من المراد بذلك؟ هل للقرآن مثلٌ، أو هل لإيمانهم مثل سواء كان بالقرآن أو بجميع الرسل وبجميع الكتب، وكذلك الإيمان الصحيح بالله -عز وجل- هل له مثلٌ؟

هذا السؤال يجيب عنه العلماء بأجوبة متعددة، فبعضهم يقول: إن لفظة "مثل" صلة، وقولهم هذا من باب التأدب في العبارة وإلا فإن هذه اللفظة إذا قالوها فإنهم يقصدون بها أنها زائدة من جهة الإعراب، وهذا القول موجود في قوله -تبارك وتعالى-: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}** [(١١) سورة الشورى] ومعلوم أن الله ليس له مثل، لكن من الأجوبة التي تقال هناك: إن لفظة "مثل" صلة أي زائدة، ومعلوم أن القرآن ليس فيه زيادة وأن ذلك القول لا يليق وليس من التأدب مع كلام الله -عز وجل- وقد تكلم على دعوى الزيادة في شيء من ألفاظ القرآن جماعة من أهل العلم لكن ليس المقصود أنها مقحمة في القرآن بحيث يقال: إنه جاء بها أحد آخر وإنما يقصدون أنها لا محل لها من الإعراب، والكلام على مثل هذا ذكره الزركشي في البحر المحيط في أصول الفقه في موضعين حيث يقول: لا زيادة في القرآن، وذكره غيره أيضاً، ويقصدون إعراباً كما ذكرنا، ومعلوم أن زيادة المبنى لزيادة المعنى، وهؤلاء حينما يقولون: هذه زائدة وفي الوقت الذي قد لا يذكر فيه بعضهم لها معنى جديداً يقولون: إنها تفيد التأكيد ونحو ذلك، وهذا أحد الأجوبة على لفظة "مثل" في القرآن.

من لم ينح هذا النحو -يعني من لم يقل: إنها صلة- تفرقت أقاويلهم، فمنهم من قال: معلوم أنه ليس له مثل ولكنه قال لهم ذلك تبكيتاً لهم، فهؤلاء الذين كفروا وفرقوا بين رسل الله -عز وجل- وبين كتبه يقول لهم: **{فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ}** [(١٣٧) سورة البقرة] أي فليبحثوا عن إيمان صحيح يوازي هذا الإيمان المقبول عند الله -عز وجل- والهدى الذي أنتم عليه فيكون المراد بذلك التبكيت.

ويمكن أن يكون المراد بقوله: **{فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ}** يعني أنتم آمنتم بكتب الله -عز وجل- من غير تحريف، فإن آمنوا بها على وجهها كما جاءت عن الله -عز وجل- فقد اهتدوا.

ووجه آخر -ولعله من أحسنها وأجودها- وهو: **{فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ}** أي إن آمنوا بمثل ما صرتم به مؤمنين ومهتدين فقد اهتدوا، والذي آمنتم به أنتم هو الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر من غير

تحريف لهذه الكتب ومن غير تفريق بين الله ورسله ومن غير تفريق بين الكتب، فإن سلكوا مثل مسلككم فقد صاروا على هدى واستقامة.

وهذا مثال يمكن أن نمثل به على قضية وهي أن التنقير والتشقيق ربما يورث الإشكالات، فأنت حينما كنت تسمع هذه الآية من قبل **{فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ}** فالمعنى المتبادر إلى ذهنك هو أنهم إن سلكوا الطريق الصحيح في الإيمان بأن آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله فقد صاروا على هدى، هذا الذي يتبادر إلى الذهن، وبالتالي قد لا يرد في ذهنك أصلاً مثل هذا السؤال والإشكال إلا إذا جلس الإنسان يفحص الحروف والألفاظ ويقلبها على وجوه الاحتمال.

"{وَّإِن تَوَلَّوْاْ} [(١٣٧) سورة البقرة] **أي عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم {فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ}** [(١٣٧) سورة البقرة] **أي: فسينصرك عليهم ويُظْفِرُك بهم {وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** [(١٣٧) سورة البقرة]."

القول الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- كأنه جرى فيه على القول الأخير، أي فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به من الإيمان بجميع كتب الله ورسله وبما صرتم به على الإيمان فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه، وإن تولوا أي عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم من التولي وهو الإعراض فإنما هم في شقاق، تقول: تولى فلان إذا أعرض، وقوله: **{فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ}** [(١٥) سورة الأنفال] أي: لا تديروا الظهر منهزمين معرضين عن مواجهة عدوكم وفراراً عن أرض المعركة.

قوله: **{فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ}** [(١٣٧) سورة البقرة]: لم يذكر هنا معنى الشقاق، وعلى كل حال فإن الشقاق مأخوذ من الشق وهو الجانب، فجانب الشيء شقه، والمشاقة والشقاق معناه كأن هذا قد صار في شق والآخر صار في الشق الآخر، ومثله العداوة كأن هذا في عدوة وهذا في عدوة، والعدوة هي جانب الوادي كما في قوله تعالى: **{إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى}** [(٤٢) سورة الأنفال]، وهذا المعنى إذا فسروه فإنهم يولدون منه إشكالات أيضاً لسنا بحاجة إليها؛ لأنها متكلفة، وهي إنما تدور في أذهان أهل الكلام من أهل التكلف والتعمق والخوض الباطل الذي يورث الشبهات، أما معنى الشقاق في كلام العرب فهو أن يكون هذا في شق وهذا في شق بحيث تكون بينهما مباينة ومفارقة ومفاصلة وكل واحد منهم في حال وعلى اعتقاد وعمل مباين للآخر، ومثل ذلك معنى المحادَّة فهذا في حد وذاك في حد.

وبعضهم يقول: إن هذا مأخوذ من فعل ما يشق والمعنى أن كل واحد من هؤلاء المختلفَين يتطلع ويبذل وسعه في الوصول إلى ما يشق به على الطرف الآخر، فهو يهيئ الأسباب التي يحصل بها المكروه للطرف الآخر ويسعى لعداوته ومخالفته ونحو ذلك، وهذا المعنى فيه بُعد؛ فالشقاق هو المخالفة والمباينة والمفارقة، أي أنهم ليسوا على دينكم ومسلككم والهدى الذي أنتم عليه بل هم مباينون لكم ومخالفون لكم ومفارقون للحق الذي أنتم عليه.

"روى ابن أبي حاتم قال: أخبرنا زياد بن يونس، قال: حدثنا نافع بن أبي نُعَيم، قال: أرسل إليَّ بعض الخلفاء مصحفَ عثمان بن عفان ليصلحه، قال زياد: فقلت له: إن الناس ليقولون: إن مصحفه كان في

حجره حين قُتِل فوقع الدم على {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [(١٣٧) سورة البقرة] فقال نافع: بَصُرت عيني بالدم على هذه الآية وقد قُدِّم."

هذا ذكره ابن كثير -رحمه الله- من قبيل الاستطراد، وأقول من قبيل الاستطراد لأنه لا يتوقف فهم المعنى عليه، وإنما هي لطيفة من اللطائف التي تذكر في التفسير؛ إذ إنها ليست من معاني القرآن، وليست من صلب التفسير، إنما هي من اللطائف والملح التي تذكر، ويزعمون إلى الآن أن المصحف الموجود في المتحف في تركيا مصحف عثمان -رضي الله عنه- وأن الدم موجود عليه، وعلى كل حال هذه من الموافقات التي قد تقع للإنسان أحياناً في يومه وليلته، فأحياناً يقول الإنسان شيئاً ويسمع القارئ في المذياع يقرأ نفس الآية التي توافق نطقه، أو يقرأ نفس الآية التي ربما تتعلق بما كان يهم به أو تكلم به أو نحو ذلك فهذه موافقات قد تقع.

"وقوله: {صِبْغَةَ اللّهِ} [(١٣٨) سورة البقرة] قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: دين الله، وكذا روي عن مجاهد وأبي العالية وعكرمة وإبراهيم والحسن وقتادة والضحاك وعبد الله بن كثير وعطية العوفي والربيع بن أنس والسدي نحو ذلك ومعنى: {فِطْرَةَ اللَّهِ} [(٣٠) سورة الروم] أي الزموا ذلك عليكموه."

جاء عن بعض السلف مثل قتادة ما يوضح هذا المعنى حيث قال -رحمه الله-: إن اليهود يصبغون أبناءهم باليهودية، والنصارى يصبغون أبناءهم بالنصرانية، وإن صبغة الله الإسلام، ولا صبغة أحسن من صبغة الإسلام ولا أطهر، وهو دين الله الذي بعث به نوحاً ومن بعده من الأنبياء، فهذه الرواية عن قتادة هي من أوضح ما يفسر به قوله تعالى: {صِبْغَةَ اللّهِ} [(١٣٨) سورة البقرة]، وأقوال السلف فيها كثيرة جداً وبعضها يرجع إلى معنى واحد، ومن تلك الأقوال ما يتفرع عن هذا القول حيث يذكرون بعض الأمور والقضايا التي هي فرع عن الإسلام وقد تكون شعاراً لأهله، لكن قول قتادة أشمل ويدخل فيه عامة أو سائر الأقوال فهو من أوضحها.

وبعض أهل العلم يعبر بعبارة أخرى ليست مخالفة لهذا القول في واقع الأمر، فهم يقولون: إن النصارى مثلاً يغمسون أبناءهم وهم صغار في ماء ويسمون ذلك بالمعمودية وكأنهم بهذا يصبغون أولادهم فيصيرون نصارى بهذا الاعتبار، فالله -عز وجل- يقول: إن صبغته التي ارتضاها لخلقه هي الإسلام، ويلاحظ أن القول بأنهم يصبغون أولادهم بهذا التعميد يمكن أن يرجع إلى القول السابق الذي قاله قتادة وهو أن صبغة الله هي الإسلام لا ما تصبغون به أولادكم بجعلهم يهوداً أو نصارى أو بهذا التعميد الذي تعتقدون أن الولد يكون به نصرانياً.

وبعضهم يقول: إن المراد بصبغة الله هنا الختان فكما أن النصارى يصبغون أبناءهم بهذا التعميد فإن الذي جاء به إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- هو الختان.

ولذلك نجد ابن القيم -رحمه الله- في كتابه تحفة المودود في أحكام المولود تكلم عن الشعار والسمة التي تميز أتباع إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- في أجسادهم، فالله تعالى قال لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: **{إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}** [(١٢٤) سورة البقرة]، يعني يقتدى به ويؤتم به، وإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- قد اختتن وهو ابن ثمانين، وسن ذلك فصار سمة في أجساد أتباع إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- تميزهم عن

غيرهم، فسمتهم في الدين والاعتقاد الإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه وما إلى ذلك، وسمتهم التي تميزهم في الأجساد هي الختان، ويقول -رحمه الله- وهو يوجه هذا القول دون أن يرجحه-: ولهذا فسر بعض السلف صبغة الله بالختان.

وعلى كل حال، لمّا كان النصارى يصبغون الأولاد بالماء، قال بعضهم: إن صبغة الله هي الغسل الذي يكون بين يدي الدخول في الإسلام، والكلام في هذه المسألة معروف حيث إن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر بعضهم بالاغتسال ولم ينقل أنه أمر آخرين فالعلماء مختلفون في هذا الاغتسال هل هو واجب أو غير واجب.

وبعضهم يعبر بعبارة أخرى فيقول: **{صِبْغَةَ اللّهِ}** [(١٣٨) سورة البقرة] أي تطهير الله، وهذا القول لا ينافي القول بأنه الإسلام؛ لأن الإسلام هو أعظم تطهير يحصل للإنسان، كما أنه لا ينافي قول من قال: إنه الاغتسال بين يدي الدخول في الإسلام؛ لأن هذا تطهير، وكذلك لا ينافي قول من قال: إنه الختان، ولا زال الناس يسمون الختان إلى اليوم تطهيراً، فعلى كل حال الإسلام تطهير والاغتسال تطهير والختان تطهير، وقصدي من هذا أن ندرك كيف نربط بين الأقوال وكيف نوجهها ونرجع بعضها إلى بعض من غير حاجة إلى تكلفات في الترجيح أو نحو ذلك، وعلى كلٍ فأشمل هذه الأقوال أن صبغة الله هي الإسلام بكل ما فيه من عقائد وأحكام، فهو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، ويدخل في ذلك الغسل من الجنابة والاغتسال عند الدخول في الإسلام، ويدخل فيه أيضاً الختان، والله أعلم.

قال ابن كثير: **قال الضحاك عن ابن عباس: دين الله**، يعني الإسلام، هذا لا يخالف القول السابق، فدين الله هو الإسلام.

ثم قال: **وكذا روي عن مجاهد، وأبي العالية وإبراهيم والحسن وقتادة والضحاك وعبد الله بن كثير وعطية العوفي والربيع بن أنس والسدي نحو ذلك.**

قوله: **ومعنى: {فِطْرَةَ اللَّهِ}** [(٣٠) سورة الروم]، السياق المناسب أن يقال: إن قوله تعالى: **{صِبْغَةَ اللّهِ}** [(١٣٨) سورة البقرة] هي كقوله سبحانه: **{فِطْرَةَ اللَّهِ}** [(٣٠) سورة الروم] فهذا مثال على تفسير الآية بنظيرتها التي قد تكون أوضح منها حيث يتبادر منها المعنى ويفهم، خاصة وأن بعض السلف مثل مجاهد يفسر قوله تعالى: **{صِبْغَةَ اللّهِ}** بفطرة الله فيقول: **{صِبْغَةَ اللّهِ}** أي فطرة الله، وإلا فإن قوله تعالى: **{فِطْرَةَ اللَّهِ}** [(٣٠) سورة الروم] ليست من ضمن آية البقرة فليُتنبه لذلك.

وإنما قصد ابن كثير -رحمه الله- بيان وجه النصب في قوله: **{صِبْغَةَ اللّهِ}** على أنه يمكن أن يكون على الإغراء بمعنى اتبعوا أو الزموا صبغة الله، فهو يغريهم بلزومها واتباعها، ويمكن أن تكون بدلاً من ملة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فتكون بهذا الاعتبار بدلاً من قوله: **{بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}** [(١٣٥) سورة البقرة]، فملة إبراهيم هي صبغة الله، والله أعلم.

" **{قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}** [(١٣٩-١٤١) سورة البقرة].

يقول الله تعالى مرشداً نبيه –صلوات الله وسلامه عليه– إلى درء مجادلة المشركين: {قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ} أي: تناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد واتباع أوامره وترك زواجره."

قوله: {قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ}، يعني يعلمهم كيف يدرءون ويدفعون مجادلة المشركين، والمشركون هنا ينبغي أن يدخل فيهم دخولاً أولياً اليهود والنصارى، وأخص من يدخل في ذلك اليهود، فالسياق إنما هو فيهم، فلا يتوجه هذا إلى المشركين من العرب مثلاً دون اليهود والنصارى خاصة وأن الآيات إنما تتحدث عن اليهود والنصارى، فهذا من دلالة السياق، ولا شك أنهم داخلون في هذا.

{قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ} يقول: أي تناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد واتباع أوامره...

والمحاجة في الله تحتمل أن يكون على ما ذكره الحافظ ابن كثير، أي: تخاصموننا في توحيده وفي دينه وتقولون: إنكم على الهدى وأن الحق هو ما أنتم عليه، كما أنها تحتمل أن تكون بمعنى أتحاجوننا في القرب منه، حيث تدَّعون القرب منه والزلفى عنده؛ وذلك أنهم يقولون: **{نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}** [(١٨) سورة المائدة] ويقولون: **{لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى}** [(١١١) سورة البقرة]، فهم يقولون: نحن أبناء الله ونحن أحباء الله ونحن أقرب إلى الله منكم وأحظى عنده منكم، والجنة إنما خلقت لنا، وأما أنتم فبعداء عن الله، وأنتم أهل سخطه وعذابه، ولا زالوا يرددون هذا الكلام إلى اليوم، ونسمع ما ينشر هنا وهناك من نسبة المسلمين إلى الضلال والكفر وأن النار خلقت لهم، وأنهم هم الأشرار والشياطين، وغير ذلك.

والمقصود أن هذا قول وهذا قول، لا نحتاج أن نرجح بين القولين وإنما يمكن أن يقال –والله تعالى أعلم–: وقد قال بهذا جمع من أهل العلم؛ لأننا إذا تأملنا كلامهم رأينا أن ذلك المعنى داخل فيه.

فيمكن الجمع بين القولين بأن نقول: **{أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ}**، أي في دينه وتوحيده والإيمان به وتزعمون أنكم على الحق والصواب والجادة، وأنكم أقرب إلى الله –عز وجل– منا ولكم عنده الحظوة والزلفى، فهذا وجه محاجتهم، والله أعلم.

"{وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ} [(١٣٩) سورة البقرة] **المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له! "**

أي أنه يقول لهم: أتحاجوننا في الله، وفي دينه وتوحيده وفي القرب منه، وتقولون: أنتم أقرب إليه إلينا، فالله ربنا وربكم، هو الذي خلقنا، وهو الذي يتصرف فينا وفيكم جميعاً، ويتولانا جميعاً، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فالأمر لا يكون على أهوائكم ودعاواكم الباطلة حيث تقولون على الله –عز وجل– بلا علم، بل الله رب الجميع وسيتولى عباده في الثواب والعقاب ويتصرف فيهم كيف يشاء، وليس لأحد أن يحكم على الله –عز وجل– بأهوائه وأمانيه ودعاواه الكاذبة.

" {وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ} [(١٣٩) سورة البقرة] **أي: نحن برآء منكم ومما تعبدون، وأنتم برآء منا، كما قال في الآية الأخرى: {وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ}** [(٤١) سورة يونس]**، وقال تعالى: {فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ}** [(٢٠) سورة آل عمران] **إلى آخر الآية، وقال تعالى إخباراً عن إبراهيم –عليه السلام–: {وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي**

اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ} [(٨٠) سورة الأنعام] إلى آخر الآية، وقال تعالى: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ}** [(٢٥٨) سورة البقرة] الآية.

وقال في هذه الآية الكريمة: {وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} [(١٣٩) سورة البقرة] **أي: نحن برآء منكم كما أنتم برآء منا، ونحن له مخلصون أي: في العبادة والتوجه."**

أي أن مقتضى ذلك أننا أقرب إلى الله -عز وجل- منكم؛ لأن الإخلاص هو المعيار الذي يعرف به المحق من المبطل، ويعرف به أهل القرب من الله -عز وجل- والحظوة عنده، فهو يقول: أنتم تحاجوننا في الله -عز وجل- وفي دينه وفي القرب منه والله رب الجميع وبيده الثواب والعقاب، وهو المتصرف التصرف المطلق في خلقه، فنحن مختلفون إذ أنتم على دين ونحن على دين، فلسنا منكم في شيء ولستم منا في شيء، ونحن على الإخلاص وأنتم على خلافه، وهكذا كأنه علمهم كيف يردون على هؤلاء بحيث يقولون: نحن على العمل والاعتقاد الذي تنال به الزلفى عند الله -عز وجل-، وهكذا في مواضع في القرآن يعلم الله أهل الإيمان وجه المحاجة والرد على المشركين، وكذلك كان يعلم الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- كيف يرد عليهم.

"ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم، إما اليهودية وإما النصرانية فقال: {قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ} [(١٤٠) سورة البقرة] **يعني: بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى."**

قوله: **{أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ..}** [(١٤٠) سورة البقرة] الآية على هذه القراءة تكون معادلة للهمزة في قوله: **{قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ}** يعني: أي هذين الأمرين تفعلون أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم، أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا على دينكم؟ أي الأمرين واقع منكم؟

وعلى القراءة الأخرى المتواترة: (أم يقولون إن إبراهيم..) الآية تكون أم منقطعة بمعنى بل، أي بل تقولون إن ألأنبياء المذكورين كانوا على دينكم، وعلى القراءتين هو ينكر عليهم هذا وهذا، إذ كله على سبيل الإنكار.

"وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى كما قال تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(٦٧) سورة آل عمران] **الآية والتي بعدها.**

وقوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ} [(١٤٠) سورة البقرة] **قال الحسن البصري: كانوا يقرءون في كتاب الله الذي آتاهم: إن الدين الإسلامُ، وإن محمداً رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية، فشهِدوا لله بذلك، وأقروا على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك."**

قوله: **كانوا يقرءون في كتاب الله الذي آتاهم: إن الدين الإسلامُ، وإن محمداً رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية، فشهِدوا لله بذلك، وأقروا على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك**، هذه هي الشهادة، ولا حاجة للتكلف في تفسير هذه الآية.

قوله: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ}** [(١٤٠) سورة البقرة] **{مَن}** هنا مضمنة معنى النفي، يعني لا أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، وقد سبق الكلام على هذا المعنى عند قوله تعالى: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ..}** [(١١٤) سورة البقرة]، وذكرنا الإشكال أو السؤال الذي قد يرد والجواب

عنه وهو أن أفعل التفضيل لا تمنع التساوي بل تمنع الزيادة، ولهذا لا إشكال أنه في موضع يقول: لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، وفي مواضع يقول: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، وكذلك لا أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، فكلهم قد بلغ في الظلم غايته، أو يكون المعنى أن كل واحد منهم هو أظلم الظالمين في هذا الباب، فمن كتم شهادة عنده من الله أظلم الكاتمين، وأظلم المانعين من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فكل واحدة تختص بالباب الذي ذكرت فيه.

والحاصل أن قوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ} [(١٤٠) سورة البقرة] أي أن هؤلاء يعرفون بما عندهم من الكتب أن دين الله الذي ارتضاه هو الإسلام، وأنه هو الذي كان عليه إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ومن قبله ومن بعده من الأنبياء، ويعرفون أن ما أنتم عليه هو الحق، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة ويبدلون ويكذبون، فتقول اليهود: إن هؤلاء الأنبياء كانوا يهوداً، وتقول النصارى: إنهم كانوا نصارى.

" {وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [(١٤٠) سورة البقرة] تهديد ووعيد شديد، أي: إن علمه محيط بعملكم وسيجزيكم عليه.

ثم قال تعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ} [(١٤١) سورة البقرة] أي: قد مضت {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ} [(١٤١) سورة البقرة] أي: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم."

يُلاحظ أن قوله: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ} كررها مرتين، وقد يفهم من ذلك معنى التهديد، كأنه يقول لهم: إلى متى وأنتم تتشبَّعون بالانتساب إلى هؤلاء الأنبياء وتتمسحون فيهم وهم قد أفضوا إلى الله -عز وجل- ومضوا، فهو الذي يجازيهم على أعمالهم ويتولى ثوابهم، وأما أنتم فمرتهنون بأعمالكم، ومطالبون بإقامة الحق ولزومه والعمل بمقتضاه ولزوم التوحيد والإيمان الصحيح، فدعوكم من الدعاوى الفارغة والأماني العريضة، وعليكم بالعمل على فكاك رقابكم والخلاص من عذاب الله -عز وجل-.

" {وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(١٤١) سورة البقرة] وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا مثلهم منقادين لأوامر الله واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرسل، ولا سيما بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من المكلفين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

{سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ* وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٢-١٤٣) سورة البقرة].

روى البخاري عن البراء -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صلى إلى بيت المقدس ستَّة عشر شهرا أو سبعة عشر شهراً[1]."

---

[1] - صحيح البخاري كتاب التفسير - باب قول الله: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] (٤٢٢٢) (ج ٤ / ص ١٦٣٤) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة (٥٢٥) (ج ١ / ص ٣٧٤).

قوله تعالى: **{سَيَقُولُ السُّفَهَاء}**، لم يتعرض لها المفسر -رحمه الله- هنا، وعلى كل حال كان ينبغي أن يورد تفسيرها هنا كأن يقول مثلاً: السفهاء عامة في اليهود والنصارى وأهل الإشراك بعمومهم.

والمقصود بالسفهاء خفاف الأحلام الذين ليس لهم عقل راجح رزين يزنون به الأمور، ويقدرون به الأشياء على وجه صحيح، فهم الذين أضاعوا حظهم ونصيبهم من الله -عز وجل- باتباع الباطل والإعراض عن الحق حسداً واتباعاً لأهواء النفوس، فهم أهل الجهل والغباء وخفة العقل حيث إنهم اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالثواب.

والمراد بقوله: **{سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا}** هم اليهود في الدرجة الأولى، وأهل النفاق، ويدخل في هؤلاء أيضاً أهل الإشراك، وهذا التعبير هل هو بصيغة الماضي أم أنه يدل على الاستقبال؟ الجواب هو أن ذلك يكون في المستقبل يعني إذا حولت القبلة سيقول السفهاء: كذا وكذا.

وبعض أهل العلم يقول: إن قوله -تبارك وتعالى- في الآيات التي ستأتي: **{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}** [(١٥٠) سورة البقرة] إنها متقدمة، فهو أمرهم بالتوجه إلى البيت الحرام ثم أخبرهم عن قول السفهاء، ولهذا قال بعض أهل العلم في قوله: **{سَيَقُولُ السُّفَهَاء}**: إنه عبر بالمستقبل وهو بمعنى المضي، أي: قال السفهاء، ولكن وجه التعبير بالمستقبل هو أن ذلك حصل بعد أن حولت القبلة وتكلم من تكلم.

قالوا: ووجه التعبير عن الماضي بالمستقبل للدلالة على استدامته، بمعنى أن هذا القول الذي قالوه سيستمرون عليه ويرددونه ويكررونه ويعيدونه مرة بعد مرة في مناسبة وفي غير مناسبة.

وعلى كل حال هنا يطمئن الله تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم- وأتباعه فيقول لهم: لا تبتئسوا ولا تنزعجوا من مقالة هؤلاء فإنهم سفهاء، والسفيه لا يلتفت إليه ولا إلى كلامه؛ إذ ليس له وزن.

فهذا تعليم من الله -عز وجل- لعباده المؤمنين كيف يكون تعاملهم مع أهل السفه، فأقوال أهل السفه والتهم الصادرة منهم وما يذيعونه وينشرونه من قالة السوء أمر لا يحتاج إلى التفات واشتغال ولا ينبغي أن تنزعج منه النفوس وتبتئس منه القلوب بحيث يتثبط الإنسان عن الحق الذي هو عليه، أو يجزع أو يحزن أو يضعف أو يتراجع، فهؤلاء سفهاء والسفيه لا قدر له ولا وزن لكلامه ولا يعبأ به، ولهذا وصفهم بالسفهاء ولم يقل: سيقول اليهود والنصارى ما ولاهم عن قبلتهم، وإنما قال: **{سَيَقُولُ السُّفَهَاء}**، وإذا كانوا سفهاء فالسفيه لا قيمة له، فهو ليس من أهل الحصافة والرأي والنظر السديد بحيث يحتاج كلامه إلى نظر وتأمل، وهكذا الأمر في كل سفيه عليك أن تدعه يتكلم كما يحلو له، فإذا سئلت عنه فقل: كم بلغ سعر الحنطة؟ وإذا مررت به وهو يهذي ويهذر فكبر عليه أربعاً، وإن شئت فزد واحدة وكبر عليه خمساً وإن زدت فلا بأس، لكن لا تقف معه؛ لأنك إن نزلت وطاولته في الكلام وراجعته فيه فقد صرت قرناً له؛ فالعاقل لا ينزل بنفسه مع هؤلاء.

"وكان يعجبه أن تكون قبلته قبَل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم."

هنا في هذه الرواية التي عند البخاري ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، ووجه الجمع بين هذه الروايات ذكرها الحافظ ابن حجر في فتح الباري، وتكلم عنها كذلك العلماء في بعض كتب النسخ مثل كتاب النحاس في الناسخ والمنسوخ حيث ذكر جملة من الروايات.

لقد هاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- وبقي على استقبال بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، والمشهور أنه بقي ستة عشر شهراً، فالعلماء يتكلمون في توقيت هجرته -صلى الله عليه وسلم- ومتى حولت القبلة، والشهر الذي حولت فيه، وأي يوم كان ذلك من الشهر، ثم يذكرون كم كانت المدة التي بقيها النبي -صلى الله عليه وسلم- ومعلوم أنها دون العامين قطعاً، وجاء في بعض الروايات ثمانية عشر شهراً، لكن هذا ضعيف، والصواب أنها ستة عشر شهراً أو سبعة عشر، وعلى كل حال الجمع بين هذه الروايات يوجد في مثل شرح الحافظ ابن حجر على الصحيح في فتح الباري، والله اعلم.

"وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان يصلي معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليتُ مع النبي -صلى الله عليه وسلم- قِبَل مكة، فداروُا كما هم قِبَل البيت."

هذه الرواية في الصحيح[2]، وجاء أيضاً أن أول صلاة كانت صلاة الفجر، وعلى كل حال الكلام على هذا والجمع بين هذه الروايات ليس هذا محله وإنما محله فتح الباري.

"وكان الذي مات على القبلة قبل أن تُحوّل قِبَل البيت رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٣) سورة البقرة] انفرد به البخاري، ورواه مسلم من وجه آخر."

يُلاحظ أن رواية البخاري هذه صريحة في أن سبب نزول قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}** أنهم تساءلوا عن أولئك الذين ماتوا أو قتلوا -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- قبل أن تحوّل القبلة، في غزوة بدر مثلاً التي كانت في السنة الثانية للهجرة في شهر رمضان، أو في غزوة أحد التي كانت في السنة الثالثة للهجرة في شهر شوال، حيث قالوا: ما حال أولئك الذين ماتوا ولم يصلوا إلى الكعبة؟ هل كانت صلاتهم باطلة وكأنهم لم يصلوا؟، فقال الله: **{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}** [(١٤٣) سورة البقرة].

والمقصود أنه حينما يذكر المفسر قضية ويعبر بعدها بمثل قوله: فأنزل الله قوله كذا فهذا يكون من قبيل الصريح لأسباب النزول، وعندما يقول: نزلت هذه الآية في كذا، فهذا غير صريح، وعرفنا الفرق بين الصريح وغير الصريح في درس سابق من تفسير هذه السورة.

قوله: **{سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}** [(١٤٢) سورة البقرة]، هؤلاء السفهاء أثاروا بلبلة بسبب القبلة فقالوا: إن كان توجهكم قبلُ إلى بيت المقدس حقاً فأنتم الآن على باطل، وإن كان توجهكم إلى الكعبة حقاً فقبلتكم الأولى كانت باطلة، والجواب عن هذه البلبلة أن يقال: قبلتهم الأولى كانت بأمر الله وتحولهم إلى الكعبة أيضاً بأمر الله، فالله هو الذي يتصرف فيهم كما يشاء، وهو الذي يشرع لهم تشريعاً موافقاً للحكمة، فيأمر بشيء في وقت تكون فيه المصلحة، ثم يحولهم عنه إلى أمر آخر تكون المصلحة فيه في الحال التي تعقبها، فهذا كله بأمر الله -عز وجل- ففي الحالة الأولى كانوا على حق؛ لأنهم متبعون لأمر الله، ثم صاروا على الحال الأخرى أيضاً على الحق، لأنهم متبعون لأمر الله فالمؤمنون يدورون مع أمر الله حيث دار.

---

[2] - صحيح البخاري في كتاب التفسير - باب قول الله: **{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}** [(٣١) سورة البقرة] (٤٢١٦) (ج ٤ / ص ١٦٣١).

ومن سفه هؤلاء اليهود أنهم قالوا في النبي –صلى الله عليه وسلم–: إن هذا التحول يدل على التذبذب والتردد وهذا لا يكون من نبي فهو متحير، تارة يتبع هذه الجهة، وتارة يتبع هذه الجهة.

والجواب عن ذلك أنه –عليه الصلاة والسلام– دائر مع أمر الله –عز وجل– فهو متبع لأمره مطيع لربه –تبارك وتعالى– فهو لا يتصرف من عند نفسه بحيث يتبع تارة هذا وتارة هذا كما يزعمون.

ومن سفه المشركين أنهم استبشروا خيراً، وقالوا: تحول محمد إلى قبلتنا وترك قبلة اليهود وهذا مؤذن برجوعه إلى ديننا وملتنا، وهكذا رد الله عليهم جميعاً بقوله –تبارك وتعالى–: **{سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** [(١٤٢) سورة البقرة]، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٦١)

الشيخ: خالد السبت

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

"روى محمد بن إسحاق عن البراء -رضي الله عنه- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلي نحو بيت المقدس، ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [(١٤٤) سورة البقرة] **فقال رجل من المسلمين: وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}** [(١٤٣) سورة البقرة][1]."

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الرواية هي من أحسن ما يُفسر به قوله -تبارك وتعالى-: **{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء}** [(١٤٤) سورة البقرة] بمعنى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله ويتطلع إلى توجيه الله -عز وجل- له أن يستقبل الكعبة بدلاً من بيت المقدس، وكذا قوله في هذه الرواية: **"قال رجل من المسلمين..." إلى آخره.**

فهذا الرجل الذي يود لو علم حال من مات ممن كان يصلي إلى بيت المقدس، يعني أن يعرف حالهم من جهة قبول الصلاة، هل كانت صلاتهم مقبولة أم لا؟ وذلك -كما سبق- أن اليهود والمنافقين أثاروا بعض الشبهات في هذا الموضوع، فقالوا لهم: إن كنتم الآن على حق -يعني

١- أخرجه البخاري عن البراء في كتاب التفسير باب قول الله {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] (ج٤/ص١٦٣١) بلفظ: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى -أو صلاها- صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد، وهم راكعون قال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٣) سورة البقرة].

بعد التحويل إلى الكعبة- فإن هذا يعني أنكم كنتم على باطل، بمعنى أن صلاتكم غير صحيحة، وعملكم مردود، وإن كنتم على حق فأنتم الآن على باطل، فالحاصل أن ذلك أقلقهم فتساءلوا عن حال أولئك الذين ماتوا قبل تحويل القبلة، قال رجل من المسلمين: وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة، فهم تساءلوا عن حال إخوانهم، وعن حالهم هم أيضاً، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله: **{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}** [(١٤٣) سورة البقرة] ولذلك يطرح بعض المفسرين سؤالاً -ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- فيقول: ما العلة في أن هؤلاء سألوا عن إخوانهم فخاطبهم الله بقوله: **{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}**؟ [(١٤٣) سورة البقرة] ثم يجيب عنه فيقول: إنهم سألوا عن إخوانهم وهذا السؤال أيضاً يعود إليهم؛ لأنهم كانوا يصلون معهم في السابق.

وأقول: ممكن أن يجاب عن هذا بأوضح من هذا الجواب، فيقال كما جاء في هذه الرواية: إنهم سألوا عن إخوانهم وعن أنفسهم أيضاً صراحة، فكان ذلك سبباً لنزول الآية، فابن جرير أورد سؤالاً وأجاب عنه باجتهاده -رحمه الله-، وهذه رواية صريحة فيما قلناه، والله أعلم.

طالب: يا شيخ الرواية: سألوا عن إخوانهم؟

سألوا عن صلاة إخوانهم وعن صلاتهم، فالسؤال الذي أوردوه عن صلاة إخوانهم: ما بال الذين ماتوا؟ فقال: إن هذا يرجع إليهم بالضرورة باعتبار أنهم كانوا يصلون معهم أيضاً، وفي هذه الرواية التي قرأناها الآن: وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس؟ السؤال عن صلاتهم هم.

"وقال السفهاء من الناس وهم أهل الكتاب: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ}.. إلى آخر الآية."

سيقول السفهاء من الناس وهم أهل الكتاب؛ لأن السياق فيهم كما سبق، وأيضاً يدخل فيها كل من تعلق بهذه القضية من المنافقين ومن المشركين، وذلك أن المنافقين تكلموا في هذا الموضوع، وتكلم فيه المشركون، فقال المشركون: إنه قد تحول إلى قبلتكم وذلك مؤذن بتحوله إلى دينكم، بمعنى أنه رجع إلى قبلتكم ثانية فهذه توطئة إلى رجوعه إلى دينكم وإلا فما الذي حوله؟

"وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بضعة عشر شهراً."

هذه الرواية: "بضعة عشر شهراً" والرواية التي مرت بنا في الصحيح: "ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً" على الشك، أو يكون ذلك باعتبار آخر وهو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت هجرته في ربيع، وحُول إلى الكعبة في السنة الثانية من الهجرة في منتصف شهر رجب، هذا هو المشهور، فإذا حُسبت المدة وحُسب شهر الهجرة مع شهر التحويل كانت سبعة عشر شهراً، وإذا جُبر هذا بهذا باعتبار أن هذا بعض الشهر وهذا في نصف الشهر لا سيما إذا قلنا: إنه هاجر في الثاني عشر من ربيع الأول، والتحويل في منتصف شهر رجب، فإذا جُمع هذا إلى هذا وألغي الزائد جبراً للكسر كان ذلك ستة عشر شهراً بهذا الاعتبار.

ولهذا جاء في بعض الروايات كما ذكرت في السابق مجزوماً به: أنه ستة عشر شهراً، وأما ما ورد من أنه ثمانية عشر شهراً فهذا ضعيف، والله أعلم.

وورد دون ذلك حيث جاء في بعض الروايات: أنه اثنا عشر شهراً، وجاء في بعضها شهران.. إلى غير ذلك مما ورد، لكن المشهور على كل حال بضعة عشر شهراً.

"**وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحب قبلة إبراهيم -عليه السلام-، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله -عز وجل-: {فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}** [(١٤٤) سورة البقرة] **أي: نحوه، فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: {قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** [(١٤٢) سورة البقرة]."

هذه الرواية الآن فيها التصريح بأن الذين قالوا ذلك هم اليهود، **{سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ}** [(١٤٢) سورة البقرة] ولا شك أن اليهود هم أولى من يدخل في ذلك، ويدخل في عموم "السفهاء من الناس" كل من تكلم في هذه القضية.

"**وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أُمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يصلي بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، قاله ابن عباس -رضي الله عنهما- والجمهور.**"

بهذا يمكن الجمع بين ما ورد من كونه توجه إلى بيت المقدس بعد ما هاجر وبين ما ورد من أنه كان يستقبل بيت المقدس وهو في مكة، وهذا ثابت عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وجاء فيه بعض الروايات عن غيره، وقال به جماعة مثل الحافظ ابن عبد البر- قالوا: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان بمكة يستقبل بيت المقدس، وصفة ذلك أنه كان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، ومعنى ذلك أنه كان يقف بين الركنين اليمانيين، ومن ثمّ فإنه في هذه الحالة

لا يتبين أنه كان يستقبل بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة -وهي تقع في شمال مكة- صار لا يمكنه أن يستقبل بيت المقدس إلا أن يستدبر مكة، ولهذا جاء في بعض الروايات: أنه بعد ما هاجر إلى المدينة حول إلى بيت المقدس بعد ما كان يستقبل الكعبة، فالذين قالوا: إنه حول كما جاء في بعض الروايات بعد هجرته -صلى الله عليه وسلم-، على قولهم تكون قد نُسخت القبلة من استقبال الكعبة التي كانت ثابتة بالسنة إلى بيت المقدس، وهذا التحويل أيضاً بالسنة، فيكون من قبيل نسخ السنة بالسنة، ثم حُول بالقرآن إلى الكعبة، فكان ذلك من قبيل نسخ السنة بالقرآن، فهذا مثال من أوضح الأمثلة على نسخ السنة بالقرآن.

وأما إذا قلنا: إنه كان يجعل الكعبة بين يديه، ويصلي إلى بيت المقدس، وأنه لم يكن هناك نسخ للكعبة إلى بيت المقدس، فإن النسخ يكون قد وقع مرة واحدة، ولعل هذا أقرب، والله تعالى أعلم.

وأما قول من قال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يستقبل الكعبة حينما كان بمكة، ثم لما هاجر إلى المدينة استقبل بيت المقدس باجتهاده واختياره، وكان يحب موافقة اليهود، ويطمع في دخولهم في الإسلام فهذا في غاية البعد؛ لأن هذه قضية لا تكون بمحض الاجتهاد والاختيار، إنما هو تشريع، والله -عز وجل- يقول: **{وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}** [(٤) سورة النجم] فلو كانت المسألة بالاختيار لتوجه النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الكعبة؛ لأن الله وصف حاله **{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا}** [(١٤٤) سورة البقرة] فكان يحب أن يستقبل قبلة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، لا سيما وأن المشركين كانوا يحتجون عليه ويقولون: تزعم أنك على ملة إبراهيم ولا تستقبل قبلته؟! أضف إلى ذلك أن اليهود كانوا يعلمون أن القبلة التي كانت للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كانت إلى الكعبة، ويعلمون أنها ستحول.

"وفي صحيح البخاري عن البراء بن عازب -رضي الله عنه- أن الخبر وصل قوماً من الأنصار وهم في صلاة العصر نحو بيت المقدس، فتوجهوا نحو الكعبة[٢].

وفي الصحيحين أيضاً عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أنه قال: "بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة[٣]."

---

[2] - سبق تخريجه في حاشية رقم (١).

٣- أخرجه البخاري في أبواب القبلة باب ما جاء في القبلة ومن لا يرى الإعادة على من سها فصلى إلى غير القبلة [جزء١- صفحة١٥٧- ٣٩٥] وفي كتاب التمني باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام [جزء٦- صفحة ٢٦٤٨-٦٨٢٤] ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة [جزء١- صفحة٣٧٥- ١٣].

على كل حال بعض أهل العلم يقول: إن التحول الذي حصل في صلاة الفجر كان لأهل قباء، وأن التحول الذي كان في صلاة العصر كان في بني سلمة، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- صلى صلاة الظهر في مسجده حيث حُوّل إلى بيت المقدس، هكذا جمع بعض أهل العلم بين هذه الروايات، وعلى كل حال من شاء فليراجع ذلك في مظانه، ومن ذلك ما ورد في الفتح في المجلد الأول في كتاب: الإيمان، في أول الصحيح.

"وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدم نزوله وإبلاغه."

هذه مسألة معروفة في الأصول، وتذكر أيضاً في موضع آخر في غير باب الناسخ والمنسوخ في أصول الفقه، تذكر في أول الأصول عند الكلام على التكليف وشروط التكليف، فهناك شروط عامة في كل تكليف، وهناك شروط خاصة تضاف إليها في التكليف المعين، فشروط الوجوب مثلاً هناك شرطان أساسيان في كل عبادة: القدرة وبلوغ الخطاب، وبعضهم يقول: وفهم الخطاب، إذا لم يبلغه الخطاب فإنه غير مكلف، وهناك شروط خاصة في كل عبادة، مثل ما تقول مثلاً: شرط وجوب صلاة الصبح: زوال الشمس، وشرط وجوب صلاة العصر: أن يصير ظل كل شيء مثله، وهكذا في كل عبادة بحسبها، شرط وجوب رمضان: رؤية هلال رمضان، هذا في العبادة الخاصة.

المقصود أن هؤلاء الذين بلغهم التحويل بعد ذلك، أو: وهم في أثناء الصلاة، قد صلوا بعض الصلاة إلى بيت المقدس، والقبلة حُولت قبل ذلك، فلم يلزموا بإعادة الفرض السابق، ولم يلزموا أيضاً بإعادة الفرض الذي كانوا فيه حينما بلغهم، فصح بناؤهم على هذه الصلاة التي استقبلوا فيها القبلة المنسوخة، وبالتالي فإن التكليف لا يلزم إلا ببلوغ الخطاب، ولذلك مما يدخل في هذه المسألة مسألة معروفة أيضاً عند أهل العلم وهي فيما إذا كان هذا الخطاب لم يبلغ هذا المكلف المعين فهل يؤمر بالإعادة أم لا؟ وهذا له أمثلة:

فمثلاً المرأة التي كانت تصلي -وهي حمنة- كانت تستحاض وتدع الصلاة والصوم، وفي بعض الروايات: تدع الصلاة والصوم سبع سنين، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- ما قال لها: أين أنتِ؟ هذه استحاضة، ويجب عليكِ قضاء سبع سنين حيث كنتِ لا تصلين ولا تصومين، أو على الأقل ما قال لها: يجب عليكِ قضاء سبع رمضانات، علمها ولم يأمرها بالقضاء.

وكذلك حديث المسيء صلاته، قال له: ((ارجع فصل فإنك لم تصل))[٤] لأنه كان في الوقت، لكن الرجل طول عمره وهو يصلي بهذه الطريقة، فما قال له: عليك أن تعيد جميع الصلوات.

وكذلك حديث معاوية السلمي -رضي الله عنه- لما عطس وقال: الحمد لله، ثم قال: واثُكْلَ أُمِّياهْ، وجلس يتلفت، ما قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: أنت الآن صلاتك باطلة، وصلواتك السابقة كلها باطلة؛ لأنك تتكلم وإنما علمه، وبالتالي فإن الأقرب -والله أعلم- في مثل هذا أن يقال: إن كل من لم يبلغه التكليف فهو معفو عنه، ولا يطالب بقضاء ولا إعادة.

"لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء، والله أعلم."

وهذا الكلام الذي ذكرته آنفاً هو الذي يختاره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وإن كان كثير من الفقهاء يطالبون الإنسان بإعادة رمضان، وبإعادة الصوم الذي صامه، والمرأة التي كانت تظن أنها لا يجب عليها في حال الاستحاضة فيقولون: عليكِ أن تقضي هذا اليوم.. إلى آخره.

"ولما وقع هذا حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارتياب وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك، وقالوا: {مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا} [(١٤٢) سورة البقرة] **أي قالوا: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم في قوله: {قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}** [(١٤٢) سورة البقرة] **أي: الحكم والتصرف والأمر كله لله، فأينما تولوا فثم وجه الله، و{لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ}** [(١٧٧) سورة البقرة] **أي: الشأن كله في امتثال أوامر الله، فحيثما وجهنا توجهنا."**

يعني أن الجهات جميعاً ملك لله -عز وجل-، وأما التعبير بالمشرق والمغرب فعادة العرب أن تعبر عن الشيء بذكر طرفيه؛ لإفادة الشمول والعموم والاستيعاب **{لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}** [(١٤٢) سورة البقرة] يعني جميع الجهات، وليس فقط المشرق والمغرب، يأتي غبي ويقول: طيب والشمال والجنوب؟ نقول له: إذا ذكر المشرق والمغرب في كلام العرب فيقصدون بذلك جميع الجهات، فالعرب تذكر طرفي الشيء وتريد الاستيعاب والشمول والعموم، وهذا كثير، وله أمثلة كثيرة.

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت (ج١/ص٢٦٣- ٧٢٤)، وفي باب حد إتمام الركوع والاعتدال فيه والطمأنينة (ج١/ص٢٧٤- ٧٦٠)، وفي كتاب الاستئذان باب من رد فقال: عليك السلام (ج٥/ص٢٣٠٧- ٥٨٩٧)، وفي كتاب الأيمان والنذور باب إذا حنث ناسياً في الأيمان (ج٦/ص٢٤٥٥- ٦٢٩٠) ومسلم في الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (ج٢/ص١٠- ٩١١).

"أي الشأن كله في امتثال أوامر الله، فحيثما وجهنا توجهنا، فالطاعة في امتثال أمره، ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة، فنحن عبيده وفي تصرفه وخدامه."

يعني أن هذا الجهة لا مزية لها على هذه الجهة من حيث الأصل، أصل الجهات، وإنما الشأن هو في امتثال أمر الله –عز وجل–، وإن كان الاستقبال للكعبة لا شك أنه أشرف من استقبال بيت المقدس، والشيء يقال فيه على سبيل الرد ما لا يقال فيه على سبيل الابتداء أحياناً، وهذا هو الجواب الذي ذكره الإمام الشافعي –رحمه الله– في كتابه الرسالة في الكلام على قوله –تبارك وتعالى–: **{قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ}** [(١٤٥) سورة الأنعام] فذكر هذه الأشياء الثلاثة مع أن المحرمات أكثر من هذا، وذكرها بأقوى صيغة من صيغ الحصر وهي النفي والاستثناء التي جاءت بها كلمة التوحيد.

فالشافعي –رحمه الله– يقول: هذا على سبيل الرد على دعاواهم الكاذبة حيث حرموا أشياء وأحلوا أشياء كما في سورة الأنعام: **{وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ}** [(١٣٨) سورة الأنعام].

"حيثما وجهنا توجهنا، وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد –صلوات الله وسلامه عليه– وأمته عناية عظيمة؛ إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن –عليه السلام–، وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرف بيوت الله في الأرض، إذ هي بناء إبراهيم الخليل –عليه السلام–، ولهذا قال: {قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٤٢) سورة البقرة]."

وجه الارتباط واضح **{لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** [(١٤٢) سورة البقرة] يهديه إلى صراط مستقيم، يهديه إلى الإسلام، ويهديه أيضاً إلى القبلة التي هي أشرف وأعظم، كما هداكم إلى هذا الدين، وهداكم إلى قبلة إبراهيم –صلى الله عليه وسلم–.

ولهذا سيأتي في قول الله –تبارك وتعالى–: **{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}** [(١٥٢) سورة البقرة] حيث هديتكم هذه الهداية، ووفقتكم هذا التوفيق، بعد ما ضل عن هذه القبلة اليهود والنصارى، فكما جعلكم الله –عز وجل– **{أُمَّةً وَسَطًا}** [(١٤٣) سورة البقرة] أي: خياراً عدولاً كذلك أيضاً وفقكم إلى أعدل قبلة، وأوسط قبلة، وهي قبلة إبراهيم –صلى الله عليه وسلم–، كل ذلك من إفضاله على هذه الأمة وهدايته وتوفيقه لها.

"وقد روى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- -يعني في أهل الكتاب-: ((إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين))"[٥].

فيهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، هدانا إلى يوم الجمعة، وإلى القبلة، وهدانا إلى الإسلام قبل ذلك.

---

[5] - أخرجه أحمد في المسند (ج٦/ص١٣٤- ٢٥٠٧٣) والبيهقي في السنن الكبرى (ج٢/ص٥٦) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (ج١/ص١٢٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٦٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

"وقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [(١٤٣) سورة البقرة] يقول تعالى: إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم -عليه السلام-، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم؛ لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}** [(١٤٣) سورة البقرة] يُلاحظ في هذه الآية أن الله -عز وجل- غاير فيها تقديماً وتأخيراً عند ذكر شهادتهم وشهادة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عليهم، فقال:**{لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}** [(١٤٣) سورة البقرة] ولم يقل: ويكون الرسول شهيداً عليكم، ومعلوم أن تقديم المعمول على عامله لا يكون إلا لمعنىً قصده المتكلم، فيمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إنه في الأول **{لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء}** [(١٤٣) سورة البقرة] لإثبات شهادتهم على الأمم، وفي الثاني: **{وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}** [(١٤٣) سورة البقرة] من أجل إثبات اختصاصهم بشهادة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقدم الجار والمجرور (عليكم) على قوله: (شهيداً) وتقديم المعمول على عامله يدل على الحصر أحياناً، مثل: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** [(٥) سورة الفاتحة] ومثل: **{وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ}** [(٢٣) سورة المائدة] يعني لا تتوكلوا على غيره، وهنا **{وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ}** [(١٤٣) سورة البقرة] يعني: أنهم يختصون بشهادة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

"إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم -عليه السلام- واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم؛ لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط هاهنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً، أي: خيرها".

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [(١٤٣) سورة البقرة] وكذلك الجعل جعلناكم أمة وسطاً يعني: عدولاً خياراً، هذا أشهر ما فُسرت به، وهو الذي عليه عامة أهل العلم، فكما أن الله -عز وجل- اختار لهم القبلة وهي أعدل الجهات، وكذلك أيضاً اختار لهم الإسلام وهو أعدل الأديان، كذلك أيضاً جعلهم أمة وسطاً في كل شيء، جعلهم أمة خياراً عدولاً يصلحون للشهادة على الخلق.

ولعل أحسن ما يفسر به هذا هو ما ورد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وثبت عنه، حيث بين فيه معنى الوسط، ومعنى شهادة هذه الأمة على الأمم، وشهادة الرسول -صلى الله عليه وسلم- عليهم، وجاء ذلك صريحاً عنه -صلى الله عليه وسلم-، ومن ثم فلسنا بحاجة إلى ذكر الأقوال الأخرى في معنى شهادتهم على الأمم، وشهادة الرسول -صلى الله عليه وسلم- عليهم، أو في بيان معنى الوسط من غير ما ذكرت.

وابن جرير الطبري –رحمه الله– يفسر الوسط هنا في هذه الآية بمعنىً يدخل في عموم وسطية هذه الأمة، ما يفسره بمعنى العدول والخيار وإنما يقول: وسط بين الإفراط والتفريط، بين الغلو والجفاء، فالأمة وسط في هذا، فاليهود عندهم غلو والنصارى عندهم تفريط، فمثلاً في الطهارة اليهود إذا وقعت النجاسة على الثوب قطعوه، والنصارى على العكس لا يتنزهون من النجاسات.

اليهود إذا حاضت المرأة اجتنبوها واعتزلوها فلا يجالسونها ولا يؤاكلونها، والنصارى يلعقون دم الحيض –أعزكم الله–، وأما هذه الأمة فقد أباح الله لها الأكل مع الحائض ومخالطتها، بل ومعاشرتها فيما دون الجماع مخالفة لليهود، وقل مثل ذلك في المطعومات وغيرها من الأمور.

فالحاصل أن هذا لا شك أنه من وسطية هذه الأمة، ولكنه لا يوقف عليه في التفسير؛ لأن ما قاله رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لا شك أنه عين المعنى المراد، ورسول الله –صلى الله عليه وسلم– أعلم بكلام الله –عز وجل– من غيره، وبناءً على هذا يقال: الوسط هم العدول، والعدول هم الخيار، فالوسط من كل شيء هو أفضله وأعدله وأقومه، ولهذا فإن ابن جرير –رحمه الله– يرى أن الخيار والعدول بمعنىً واحد، يرى أن هذا بمعنى هذا، وذلك لأن أعدل الأمور هو خيرها وخيرها هو أعدلها، فهذا راجع إلى هذا ولا يكون إلا به، قال تعالى: **{قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ}** [(٢٨) سورة القلم] أي: قال أعدلهم و**{أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً}** [(١٠٤) سورة طــه] يعني: أعدلهم وخيرهم طريقة.

الأنبياء وسط في قومهم، بمعنى هم أفضل وأعدل قومهم، فعلى كل حال كون هؤلاء هم الأعدل معنى ذلك أنهم ليسوا في جانب الإفراط ولا في جانب التفريط، فهم أزكى الناس، وخير الناس، وقد جاء ذلك في نصوص كثير في الكتاب والسنة **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}** [(١١٠) سورة آل عمران] وكذلك في قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((إن الله اصطفى كنانة))[1].. إلى آخره، وكما في قوله: **{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا}** [(٣٢) سورة فاطر] بفئاتهم الثلاث: الظالم والمقتصد والسابق، فهذا كله في هذا المعنى، والله تعالى أعلم.

ويكفي هذا القدر في بيانه، فإن الحديث واضح وصريح في بيان معنى هذه الآية.

"وكان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر، كما ثبت في الصحاح وغيرها، ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصها بأكمل الشرائع، وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: {هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ} [(٧٨) سورة الحــج].

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟))"[٢].

---

1 – أخرجه مسلم في الفضائل باب فضل نسب النبي –صلى الله عليه وسلم– وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (ج٧/ص٥٨–٦٠٧٧).

2 – أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب قول الله: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] (ج٤/ص١٦٣٢– ٤٢١٧). وأحمد في المسند [جزء ٣ ص ٣٢ – ١١٣٠١)

هذا الحديث يصرح بتفسير هذه الآية، والتفسير النبوي أنواع: منه: ما ذكر مع الآية، فهذا إذا صح سنده فلا يعدل عنه، وهذا من هذا النوع، ومنه: ما لم يذكر فيه النبي -عليه الصلاة والسلام- الآية، ولم يتعرض لها، فيأتي المفسر ويربط بين هذا وهذا، كقوله: **{وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ}** [(٢٣) سورة الفجر] يمكن أن يفسر بحديث: ((يؤتى بالنار يوم القيامة لها سبعون ألف زمام...))[3] إلى آخره.

فأقوى ذلك وأصرحه ما صح مع التصريح بالآية؛ لأن المفسر قد يخطئ حينما يربط بين الآية وبين الحديث، ولهذا إذا قيل -كما سبق في أصول التفسير-: بأن التفسير النبوي يدخله الاجتهاد فالمقصود بهذه العبارة النوع الثاني الذي لم يتعرض فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية، وإنما الاجتهاد يكون من قبل المفسر حينما يحاول أن يربط بين آية وبين حديث وقد يخطئ إذا لم يكن هناك علاقة بين الآية والحديث، لكن إذا ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- الآية فهذا لا مجال للتوقف فيه.

"وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته" قال: فذلك قوله: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [(١٤٣) سورة البقرة] **قال: والوسط: العدل، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم))[4] ورواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه".**

يعني من فسر بغير هذا المعنى فيمكن أن يحمل على أنه لم يبلغه هذا الحديث، أعني التفاسير التي تخالف هذا المعنى وليست التي تدور حوله، يعني من فسره بأنه الخيار كما سبق فإنه يرجع أنهم وسط بين الإفراط والتفريط، لكن هناك أقاويل أخرى، فمثل هذه لا يلتفت إليها.

"وروى الإمام أحمد أيضاً عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه، فيقال: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيدعى محمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا -صلى الله عليه وسلم- فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا، فذلك قوله -عز وجل-: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [(١٤٣) سورة البقرة] **قال: عدلاً {لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}** [(١٤٣) سورة البقرة]))[5].

---

3 - أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين (ج٨/ص١٤٩- ٧٣٤٣).

4 - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} [(١) سورة نوح][جزء٣- ١٢١٥- ٣١٦١] وفي كتاب التفسير باب قول الله {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة][جزء٤ -ص١٦٣٢]، وأحمد في المسند [جزء٣- ص ٥٨ -١١٥٧٥)، والنسائي في السنن الكبرى في كتاب التفسير سورة البقرة [جزء ٦- ص ٢٩٢ - ١١٠٠٧] والترمذي في كتاب تفسير القرآن باب سورة البقرة [جزء٥- ص٢٠٧ - ٢٩٦١] وابن ماجه في كتاب الزهد باب صفة أمة محمد صلى الله عليه وسلم [جزء٢- ص١٤٣٢-٤٢٨٤).

5 - المسند (ج٣/ص٥٨ - ١١٥٧٥) وابن ماجه في كتاب الزهد باب صفة أمة محمد صلى الله عليه و سلم (ج٢/ص١٤٣٢- ٤٢٨٤) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة(ج٢/ص ٤٢٥).

فالنبي –صلى الله عليه وسلم– يشهد على شهادتهم، هم يشهدون للأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– بالبلاغ، والرسول –صلى الله عليه وسلم– يشهد على شهادتهم، ولا يصلح لهذه الشهادة العظيمة على الأمم إلا من كان عدلاً.

"وروى الإمام أحمد عن أبي الأسود أنه قال: أتيتُ المدينة فوافقتها وقد وقع بها مرض فهم يموتون موتاً ذَريعاً، فجلست إلى عمر بن الخطاب –رضي الله تعالى عنه–، فمرّت به جنازة فَأُثْنِيَ على صاحبها خير، فقال: وجبت وجَبَت، ثم مُرّ بأخرى فَأُثْنِيَ عليها شرٌّ، فقال عمر: وجبت، فقال أبو الأسود: ما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم–: ((أيّما مسلم شَهِد له أربعة بخير أدخله الله الجنة)) قال: فقلنا: وثلاثة؟ قال: ((وثلاثة)) قال: فقلنا: واثنان؟ قال: ((واثنان))[6] ثم لم نسأله عن الواحد" وكذا رواه البخاري والترمذي والنسائي".

هذا من أحاديث الرجاء، فلا ينبغي للمسلم أن يركن له، وفرق بين شهادة أهل الفضل والصلاح والخير وبين شهادة الأشرار، فرق بين هذا وهذا، وإلا فإنك تجد رأس البدعة والضلالة بل والكفر لن يعدم من يشهد له من قومه، وممن هو على شاكلته، ومن المعجبين به، وتجد الفاجر المغني مثلاً أو الممثل أو المهرج قد يبكي عليه الملايين من الناس، فالمقصود أن ذلك منوط بأهل الفضل والصلاح والخير.

ولذلك ما جاء من الكلام على تعريف المعروف مثلاً وأنه: ما عرفه أهل الإيمان، واطمأنوا إليه، هذا في وقت استقامة المجتمع، وإلا إذا كان المجتمع منحرفاً فلا عبرة بنظرهم، ففي بعض المجتمعات الإسلامية المتمسك بدينه يلمز بأبشع الأوصاف، فهل ما رآه هؤلاء حقاً ومعروفاً يكون من قبيل الحق والمعروف، وما رأوه منكراً يكون من قبيل المنكر؟ لا.

كذلك قول الإمام أحمد –رحمه الله– لأهل البدع: "بيننا وبينهم يوم الجنائز" معناه: أن جنائز أهل السنة حاشدة، لكن هذا في وقت ظهور السنة وإلا قد يكون رأس الضلال فهذا الرافضي الهالك الخميني يوم مات مزقوا الكفن، وما استطاعوا أن ينزلوه من أجل تهافت البشر عليه بشكل منقطع النظير، قطعوا كفنه ليأخذوه للتبرك حتى بدت سوءته، فهذا في المجتمعات المنحرفة.

وهذه المرأة التي ماتت وهي كافرة نصرانية تتكلم بكل وقاحة في قنوات فضائية عن فواحشها وفجورها لما ماتت بكتها أمم، ولا زالوا يذكرونها أليس كذلك؟! فهل هذه شهادة معتبرة؟ فشهادة الفجرة وأهل السفه من الناس لا عبرة بها وهكذا.

وقد يكون العالم في محل غربة وهو إمام لكنه في أرض بدعة وضلالة فقد لا يجتمع على جنازته ثلاثة، فينزل كل ما ورد من ذلك من النصوص في محله، وهكذا النصوص الواردة عن السلف في كثير من القضايا حينما يقولون مثلاً: من قال كذا فهو كذا، أو من فعل كذا يهجر، أو من فعل كذا لا يُكلم، هذا متى يقال؟ وفي حق من يقال؟ لا يقال بإطلاق في كل وقت، وإنما يختلف ذلك من حين إلى حين، وفي بعض الأحيان قد

---

6 – في المسند (ج١/ص٣٠ – ٢٠٤) وهو في البخاري في كتاب الجنائز باب ثناء الناس على الميت (ج١/ص٤٦٠– ١٣٠٢) وفي كتاب الشهادات باب تعديل كم يجوز؟ (ج٢/ص٩٣٥ – ٢٥٠٠) وفي سنن النسائي الكبرى (ج١/ص٦٢٩– ٢٠٦١)، وفي سنن الترمذي في كتاب الجنائز باب ما جاء في الثناء الحسن على الميت (ج٣/ص٣٧٣ – ١٠٥٩).

يكون قائل هذه المقالة من أفضل أهل زمانه في تلك الناحية، هذا إذا غلب المنكر والانحراف والبدعة على ناحية وأرض، ففرق بين وقت ظهور السنة أو بين وقت ظهور الضلال، فقد يكون هذا شامة بيضاء في جلد ثور أسود، فكل شيء يوضع في محله، ومن الخطأ أن نتلقف نصاً أو أثراً ورد في مناسبة أو في حال من الأحوال ثم ينزل على جميع الحالات والعصور والظروف فهذا غير صحيح، وليس هذا من الفقه في دين الله -عز وجل-.

"وقوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ} [(١٤٣) سورة البقرة] **يقول تعالى: إنما شرعنا لك -يا محمد- التوجه أولاً إلى بيت المقدس".**

يعني معنى ذلك القبلة التي كنت عليها هي بيت المقدس، وهذا هو المتبادر، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، خلافاً لمن قال: بأن المقصود بذلك الكعبة، القبلة التي كنتَ عليها يعني التي حولتَ إليها، يعني ما جعلنا هذه الكعبة قبلة بعد بيت المقدس إلا لنعلم من يثبت ومن لا يثبت؛ لأنها كانت محنة عظيمة جداً، ارتد بسببها جماعة من الناس، وتضعضع آخرون، وأرجف فيها أهل النفاق واليهود وأهل الإشراك، وكلٌ صار يتكلم بما يحلو له كما سبق، أهل الإشراك يقولون: تحول إلى قبلتكم فذلك مؤذن بتحوله إلى دينكم، وأهل النفاق واليهود لربما قال قائلهم: حن إلى دين أبيه، ورجع إلى دين قومه، وآخر يقول: تحير، وآخر يقول: إن كان ذلك -استقبال بيت المقدس- حق فهم على باطل، وإن كان باطلاً فقد كانوا على باطل، إلى غير ذلك من المقالات القبيحة التي قالوها، ولكنهم يدورون مع أمر الله -عز وجل- حيث دار، فهم أهل عبوديته الخاصة، تارة يوجهون إلى هذه الناحية فيتوجهون، وتارة إلى هذه الناحية وهكذا، كل ذلك بناءً على علمه وحكمته -تبارك وتعالى-.

"ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويُطيعك، ويستقبل معك حيثما توجهت {مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ} [(١٤٣) سورة البقرة] **أي: مرتداً عن دينه {وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً}** [(١٤٣) سورة البقرة] **أي: هذه الفعلة".**

يعني الآن في قوله: **{إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ}** [(١٤٣) سورة البقرة] مثل هذا الأسلوب الذي ورد في مواضع من القرآن **{إِلاَّ لِنَعْلَمَ}** [(١٤٣) سورة البقرة] **{وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء}** [(١٤٠) سورة آل عمران] **{حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}** [(٣١) سورة محمد] فـ"حتى نعلم" و"ليعلم" معلوم أن الله -عز وجل- علمه محيط بكل شيء، فهو يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، كل ذلك يعلمه، فما المراد بقوله: **{حَتَّى نَعْلَمَ}** [(٣١) سورة محمد]، هل يخفى عليه شيء؟ أبداً.

أهل السنة يفسرون هذا بأن المقصود العلم الذي يترتب عليه الجزاء، وهو علم المشاهدة، يعني بعد ما كان ذلك من الغيوب التي لم تقع، والله يعلم أنه سيقع، فكان وقوعه هو المراد، **{حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ}** [(٣١) سورة محمد] **{إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ}** [(١٤٣) سورة البقرة] يعني أن يكون ذلك واقعاً معلوماً لله -عز وجل- بعد أن كان في علمه من جهة أنه أمر غيبي، يعني علم الوقوع، وهو لم يقع بعد، والله يعلم أنه سيقع.

وعلم الوقوع هذا هو العلم الذي يترتب عليه الجزاء، فإن الله لا يحاسب خلقه بناءً على ما علم منهم أنهم سيعملونه قبل أن يعملوه، الله يعلم أن فلان سيفعل المعصية الفلانية، في الوقت الفلاني، في المحل الفلاني، لكنه لم يكتبها عليه سيئة حتى يعملها، فهذا هو العلم الذي يترتب عليه الجزاء.

"{وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً} [(١٤٣) سورة البقرة] أي: هذه الفعلة وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي: وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرسول".

{مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ} [(١٤٣) سورة البقرة] أي: مرتداً عن دينه، **{وَإِن كَانَتْ}** [(١٤٣) سورة البقرة] على قول البصريين (إن) هذه مخففة من الثقيلة، وهذا ظاهر كلام ابن كثير هنا الذي مشى عليه في التفسير بناءً على هذا، **{وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً}** [(١٤٣) سورة البقرة] أي: هذه الفعلة، وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي: إن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس إلا على الذين هدى الله، يعني كأنه يقول: وإنها لكبيرة، فهذا التحويل أمر عظيم جداً، زلزل النفوس.

وأما على قول غيرهم فإن (إن) هذه نافية، وإن كانت لكبيرة كأنه يقول: وما هي إلا كبيرة إلا على الذين هدى الله، ما كانت إلا كبيرة وعظيمة إلا على الذين هدى الله، فيكون ذلك من قبيل النفي والاستثناء، إن كانت لكبيرة إلا، فما هي إلا كبيرة وعظيمة إلا على الذين اطمأنت نفوسهم بالإيمان، وثبت في قلوبهم، وهداهم الله -عز وجل-، ووفقهم للثبات، تكون عكس المعنى الأول.

المعنى الأول يقول: وإنها لكبيرة يقرر هذا، فتكون (إن) هذه للتوكيد، وعلى الثاني: تكون نافية، ما هي إلا كبيرة إلا على الذين هدى الله، لكن المعنى العام في النهاية كما ترون هو يقرر أنها عظيمة إلا على من هداهم الله -عز وجل-، سواءً على هذا الاحتمال أو على ذاك.

"أي: وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرسول".

على كل حال وإن كانت لكبيرة يعني التحويل، هذا أجود ما قيل في معناه، ما هو الشيء الكبير العظيم؟ هو تحويلهم من بيت المقدس إلى الكعبة، القبلة شعار كما سبق وليست قضية سهلة، فحينما يتحولون فإن هذا لا شك أنه ليس بالأمر السهل إلا على من هدى الله قلوبهم، واطمأنوا، ولذلك أرجف بهم اليهود وأهل النفاق والمشركون، فإذن أحسن ما يفسر به -والله أعلم- أن التحويل من بيت المقدس إلى الكعبة هو الكبيرة، هو الأمر العظيم على كثير من النفوس، وقد قيل غير ذلك في أقاويل أخرى، لكن لا حاجة إليها، هذا أوضحها وأعدلها، والله تعالى أعلم.

"وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرض فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكاً، كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق، كما قال الله تعالى: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [(١٢٤-١٢٥) سورة التوبة] وقال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا} [(٨٢) سورة الإسراء] ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول -صلى الله عليه وسلم- وإتباعه في ذلك، وتوجه حيث أمره الله

من غير شك ولا ريب من سادات الصحابة، وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا إلى القبلتين.

وروى البخاري في تفسير هذه الآية عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: "بينا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء إذ جاء رجل فقال: قد أنزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، فتوجهوا إلى الكعبة"[٧] رواه مسلم والترمذي".

هذا كما سبق في قباء في صلاة الفجر، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان أول صلاة صلاها كانت العصر في مسجده إلى الكعبة، وفي بني سلمة كانت صلاة الظهر، وبني سلمة أرضهم تقع إلى ناحية الشمال من المدينة قليلاً إلى جهة الغرب، وفيها المسجد المعروف اليوم بمسجد القبلتين، فالتحويل وقع لأهل قباء بصلاة الفجر، ولبني سلمة بصلاة الظهر، وفي مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم- في صلاة العصر، هذا على قول بعض أهل العلم.

فعلى كل حال لربما يستشكل بعض طلاب العلم مسجد القبلتين والمشهور والمعروف أن التحويل كان في قباء، نقول: كان التحويل في مسجد بني سلمة في وقت، وفي قباء في وقت، وفي مسجد الرسول -صلى الله عليه وسلم- في وقت، والله أعلم.

"وعند الترمذي: أنهم كانوا ركوعاً فاستداروا كما هم إلى الكعبة وهم ركوع، وكذا رواه مسلم عن أنس -رضي الله تعالى عنه-، مثله، وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ولرسوله، وانقيادهم لأوامر الله -عز وجل- رضي الله تعالى عنهم أجمعين".

سبق الكلام على بلوغ الخطاب في التكليف وأنه شرط، فهؤلاء اعتبروا أول الصلاة مع أنهم صلوا إلى قبلة منسوخة، فكل من لم يبلغه الخطاب فإنه معذور، والله أعلم.

---

[7] - البخاري في كتاب التفسير باب قول الله {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] (ج٤/ص١٦٣٢- ٤٢١٨) ومسلم في المساجد باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة (ج٢/ص٦٦ - ١٢٠٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٦٣)

الشيخ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

"وقوله تعالى: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك، ما كان يضيع ثوابها عند الله."

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة] ما المراد بالإيمان في هذه الآية؟ قال: أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، لماذا سميت الصلاة إلى بيت المقدس إيماناً؟ بعض أهل العلم قال: لأن الصلاة تشتمل على نية، وهي قضية تتعلق بالقلب، وتشتمل على أقوال، وتشتمل على أفعال، فهي مركبة من هذه الثلاثة كالإيمان قول واعتقاد وعمل، هكذا قال بعضهم، ولا يخلو من تكلف، فالعلماء وإن كان عامتهم يفسرون الإيمان في هذه الآية بأنه الصلاة إلى بيت المقدس، وهو الذي لا ينبغي العدول عنه، لكنهم حينما يتلمسون وجه تسميته بذلك -أي تسمية الصلاة إيماناً- فبعضهم يعلل بهذا التعليل، والأحسن من هذا -والله أعلم- أن يقال: إن الإيمان قول واعتقاد وعمل، فالصلاة إيمان عند أهل السنة، والصوم إيمان، والزكاة إيمان، وما أشبه ذلك، والأدلة على ذلك كثيرة.

وإذا قال قائل: لماذا لم نقل: إن الركوع والقيام والسجود هذا فعل فهو إيمان من جهة أنه يرجع إلى القسم الثالث مما يتركب منه الإيمان الذي هو العمل، ولماذا لم نقل: إن الأقوال التي تكون في الصلاة ترجع إلى القسم الثاني مما يتركب منه الإيمان وهوالقول؟ والنية ترجع إلى الأول؟ يقال: ليس ذلك هو المراد حينما نقول: إن الإيمان اعتقاد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، إذ إن التصديق في الإيمان المقصود به الإقرار الانقيادي، بما يجب الإقرار به، لا قصد التوجه إلى المعبود بالصلاة، ليس هذا بمعنى التصديق الانقيادي، لا، ولذلك فإن التوكل والمحبة والخوف والرجاء والتعظيم والمراقبة وما إلى ذلك من الأعمال القلبية هذا داخل في عمل القلب مما يزيد على قدر التصديق الانقيادي، يزيد على الإقرار، ولهذا يقال: الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، ما الفرق بين قول القلب وعمل القلب؟ قول القلب هو التصديق، وعمل القلب هو سائر الأعمال القلبية التي يحبها الله -عز وجل-، هذا الفرق.

وقول اللسان وعمل اللسان: قول اللسان هو قوله: أشهد أن لا إله إلا الله، وعمل اللسان كالتسبيح والتهليل والذكر وما أشبه هذا من الأعمال التي يتقرب بها إلى الله -تبارك وتعالى-.

وعمل الجوارح: -ما في قول الجوارح- يدخل في عمل الجوارح الصلاة والصوم وما إلى ذلك مما يتقرب به إلى الله -عز وجل-، {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة] يعني الصلاة إلى بيت المقدس؛ لأن الصلاة إيمان، والصوم إيمان، والحج إيمان، والزكاة إيمان، وبر الوالدين إيمان، وإماطة الأذى عن الطريق إيمان، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الإيمان بضع وسبعون شعبة))[1] فذكر من أعلاها: شهادة أن لا إلا إله الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، ولهذا تجدون في ذلك الكتاب العظيم الجامع لشعب الإيمان للبيهقي -رحمه الله- كلاماً على تفاصيل كثيرة جداً، حاول فيها أن يستقرئ شعب الإيمان، مما يتعلق باللسان أو القلب أو الجوارح، والعلم عند الله -عز وجل-.

وبعضهم يقول: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة] بمعنى أن ما كان منهم من التوجه إلى بيت المقدس ثم التحول، هذا كله عائد إلى الإذعان والانقياد لأمر الله -عز وجل-، فهذا إيمان بهذا الاعتبار، فهذا مما يدخل فيه.

وبعضهم يقول: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة] أي: ثوابكم على الإيمان الذي حصل منكم، والتصديق بخبر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، حيث حصلت منكم الثقة بذلك، والاطمئنان إليه، ولم يحصل منكم تردد ولا انتكاس.

وعلى كل حال هذا مما يدخل فيه مثل هذا التصديق والانقياد، فيكفي أن نقول: إيمانكم أي الصلاة إلى بيت المقدس، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، والله تعالى أعلم، وسبب النزول يدل على ذلك، الثبات داخل في هذا الإيمان، ما في إشكال، السلف يعبرون ببعض المعنى لا إشكال، إنما أردت أن أوضح توجيهاً لقولهم هذا بحيث يُعرف كيف يتصل بهذا الموضوع وكيف يرتبط به؟ باعتبار أن الإيمان على هذه الأنواع أو الأجزاء أو الأقسام الثلاثة، فمن قال: إنه ثباتكم. نقول: هو داخل فيه، هذا جزء من المعنى، الثبات على أمر الله -عز وجل-، وهذا القول -الصلاة إلى بيت المقدس- مستلزم لقول من قال مثلاً: إنه الثبات، {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة] أي صلاتكم إلى بيت المقدس، فإن ذلك لا يكون إلا بأنهم ثبتوا وانقادوا واستقبلوا القبلة الأخرى التي أمرهم الله -عز وجل- بها.

"وفي الصحيح من حديث أبي إسحاق السَّبِيعي عن البراء -رضي الله تعالى عنه- قال: مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس فقال الناس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل الله تعالى: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة]**، ورواه الترمذي عن ابن عباس وصححه."**

وهذا نقل عليه بعض أهل العلم الاتفاق أن الآية نزلت بسبب استشكالهم وسؤالهم، وسبقت الرواية أنهم سألوا أيضاً عن حال أنفسهم، عن صلاتهم السابقة.

"روى ابن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة] **أي: بالقبلة الأولى، وتصديقكم نبيكم، واتباعه إلى القبلة الأخرى."**

---

[1] - أخرجه مسلم في الإيمان باب شعب الإيمان (ج/١ص٤٦-١٦١).

لاحظ الآن إيمانكم بماذا قيده؟ إيمانكم بالقبلة السابقة، فصارت المسألة منوطة بالإقرار والإذعان والتصديق، إقراركم بالقبلة الأولى، وتصديق النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذلك، واتباعه إلى القبلة الأخرى، فصار الإيمان هنا هو الانقياد لأمر الله -عز وجل-، وفي المعنى الذي قبله الإيمان هو الصلاة إلى بيت المقدس السابقة، وذلك القول أيضاً يستلزم هذا القول، وذلك -كما سبق- فإن صلاتهم إلى بيت المقدس لا يضيعها الله حيث قبلوا عنه -عز وجل-، وأتمروا بأمره، وانقادوا طواعيةً من غير اعتراض، فبهذا كان ذلك من قبيل الإيمان بالنسبة لهم، بل هو إيمان عظيم جداً؛ لأنه أمر تتزلزل بسببه النفوس، ومعلوم أن القولين إذا كان بينهما ملازمة والآية تحتملهما فإنهما مما يدخلان فيها إن لم يوجد ما يمنع من ذلك، وهنا ليس هناك ما يمنع من هذا.

"أي: لَيُعْطيكم أجرهما جميعاً، {إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَءوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٣) سورة البقرة].

ما فسرها هنا.

"إن الله" هذا تعليل لما سبق، فالله -عز وجل- لا يضيع أجر من أحسن عملاً لكمال رأفته ورحمته بخلقه -جل وعلا-، فلا يضيع أجورهم وأعمالهم، بل يحتسبها لهم، ويجازيهم عليها، ومن أسمائه الشكور، وهو الذي يجازي بالحسنات إحساناً، بل يزيد بالجزاء فيجازيه الجزاء الأوفى، والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، هذا معنى الشكور، وهذا معنى شكر الرب لعبده، شكر الله له بمعنى أثابه على عمله، وضاعف له أيضاً المثوبة والأجر.

{إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَءوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٣) سورة البقرة] فإنّ -هنا- تدل على التوكيد، وفي نفس الوقت تشعر بالتعليل، والرأفة إذا فسرناها بشيء من التوسع في التعبير قلنا: هي الرحمة، وإذا أردنا أن نفرق ونذكر ما تفترق به الرأفة عن الرحمة، نقول: الرأفة نوع من الرحمة، بعض أهل العلم يقول: أكبر وأشد من الرحمة، وبعضهم يقول: الرأفة والرآفة بمعنى الرحمة الرقيقة، يقال: يرأف بكذا، والرأفة بكذا، بمعنى الرحمة، لكنها رحمة رقيقة، **{إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}** [(١٤٣) سورة البقرة] فلا يضيع أعمالهم الصغيرة، **{فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ}** [(٧) سورة الزلزلة] فكيف يضيع صلاتهم التي هي من أعظم أعمالهم، لا سيما مع هذا الثبات العظيم؟! فإن مقتضى رحمته -سبحانه وتعالى- خلاف ذلك.

"وفي الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها، فجعلت كُلَّما وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقته بصدرها، وهي تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على ألا تطرحه؟)) قالوا: لا يا رسول الله، قال: ((فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها))[٢].

{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} [سورة البقرة (١٤٤)]."

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (ج٥/ص٢٢٣٥ -٥٦٥٣)، ومسلم في التوبة باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (ج٨/ص٩٧-٧١٥٤).

{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} [سورة البقرة (١٤٤)] (قد) إذا دخلت على الفعل المضارع ماذا تفيد؟ قد يجود البخيل، وقد يكبو الجواد، هنا (قد) للتقليل؛ لأن ذلك يقع قليلاً منه، (قد يسافر زيد) احتمال، (قد سافر زيد) هذه للتأكيد والتحقيق أن هذا الأمر متحقق، فهنا دخلت على الفعل المضارع {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} [سورة البقرة (١٤٤)] والله قطعاً يرى وجهه يتقلب في السماء، فهذا له نظائر في كتاب الله –عز وجل–، {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ} [(٦٣) سورة النـــــور] وما إلى ذلك، فماذا يقال فيها؟ إذا رأيتها منسوبة مضافة إلى الله –عز وجل– فإن ذلك يعني المبالغة في التحقيق، تدل على التحقيق إذا دخلت على الفعل المضارع منسوباً إلى الله –عز وجل–، ولها أمثلة في القرآن، كلما جاءت مضافة إلى الله فهي للتحقيق، {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ} [سورة البقرة (١٤٤)] أي قد رأينا ذلك.

ومعنى تقلب وجه النبي –صلى الله عليه وسلم– في السماء أنه كان يرفع بصره يتطلع إلى أمر الله –عز وجل– أن يوجهه إلى قبلة أبيه إبراهيم –صلى الله عليه وسلم–، فقد كان يحبها، وهذا فيه رد على قول من قال: إن توجه النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى بيت المقدس كان من عند نفسه، وهذا من أغرب الأشياء، وإن قال به بعض أهل العلم، فهذا ظاهر وصريح في أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يتطلع إلى قبلة إبراهيم، وينتظر أمر الله أن يوجهه إلى القبلة لمحبته لها؛ ولأن المشركين قد شغبوا عليه، قالوا: يدّعي أنه على دين إبراهيم ويخالفه في القبلة؟! وأهل الكتاب يعلمون أن قبلة النبي الذي سيبعث ستكون قبلة الأنبياء قبله وهي الكعبة.

{تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} [سورة البقرة (١٤٤)] أي: تطلع النبي –صلى الله عليه وسلم– برفع بصره إلى السماء ينتظر أمر الله –عز وجل–.

{فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} [(١٤٤) سورة البقرة] هذه اللفظة (نولينك) تحتمل أن تكون بمعنى التولية، تقول: دعه وما تولى، إنسان بيده أموال لأيتام أو تحت يده رعية، أو أمانة من الأمانات فتقول: دعه وما تولى من الولاية (فلنولينك) تقول: الله أولاك نعمه بمعنى أعطاكها، وملكك إياها.

{فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} [(١٤٤) سورة البقرة] يحتمل أن يكون بمعنى نعطينّك قبلة تحبها وترضاها وتعجبك، فهذا وإن كانت تحتمله الآية إلا أنه غير متبادر، والقرآن إنما يحمل على المعنى المتبادر، ولا يحمل على المعنى البعيد إلا بدليل يجب الرجوع إليه، ولذلك كان معنى التولي هنا من التولي الذي هو التوجيه، تقول: ولى وجهه إلى كذا بمعنى وجهه إلى كذا، (فلنولنيك) أي: فلنوجهنك وجهة ترضاها، والقبلة هي الوجهة، وهذا هو المتبادر وهو الأقرب، والله تعالى أعلم.

"قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: كان أوّل ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لما هاجرَ إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بضعة عشر شهراً، وكان يحب قبلة إبراهيم –عليه السلام–، فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} [(١٤٤) سورة البقرة] إلى قوله: {فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} [(١٤٤) سورة البقرة] فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: {مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} [(١٤٢) سورة البقرة]

وقال: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} [(١١٥) سورة البقرة] وقال الله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ} [(١٤٣) سورة البقرة]."

هذه الآية **{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ}** [(١٤٤) سورة البقرة] ذكرنا سابقاً عند قوله: **{سَيَقُولُ السُّفَهَاء}** [(١٤٢) سورة البقرة] أن بعض أهل العلم قال: إن هذه الآية متقدمة في النزول على قوله: **{سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ}** [(١٤٢) سورة البقرة] فهو أعلمهم أن السفهاء سيقولون ذلك ليمهد، ثم بعد ذلك نسخ القبلة **{فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}** [(١٤٤) سورة البقرة] ثم أعلمه ليطمئنه أن السفهاء سيشغبون عليه ويقولون: كذا وكذا فلا تلتفت إليهم، فعلى هذا نسخت القبلة، ثم ذكر الله -عز وجل- ما يطمئن نفوسهم بقوله: **{سَيَقُولُ السُّفَهَاء}** [(١٤٢) سورة البقرة] وكذا على قول من قال: إن قوله: **{سَيَقُولُ السُّفَهَاء}** [(١٤٢) سورة البقرة] كما سبق عُبر بها بصيغة المستقبل وهي من الأمر الماضي؛ لأن ذلك قد استمر، مستمر هذا الشغب والتلبيس بما يتعلق بالقبلة، والله تعالى أعلم.

"روى الحاكم عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه-: {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [(١٤٤) سورة البقرة] قال: شطره: قِبَله، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه."

الشطر بمعنى الناحية والجهة للشيء، ناحية الشيء وجهته، الجهة شطر المسجد الحرام، وإن كان الشطر يأتي بمعنىً آخر لكن في غير هذا الموضع، وهو شطر الشيء بمعنى النصف.

"وهذا قول أبي العالية ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جُبَير وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم، وقوله: {وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ} [(١٤٤) سورة البقرة] أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً."

بمعنى ولوا وجوهكم في أي مكان تكونون ناحية البيت، وهذا أمر مجمع عليه أنه يجب أن يتولى الإنسان الكعبة، فمن كان في المسجد فإنه يستقبل -كما سبق في درس المقنع- الكعبة، ومن كان في خارج المسجد فإنه يستقبل المسجد، وهذا ليس بإطلاق، فإذا كان جنب المسجد بجواره لا نقول: أستقبل المسعى، هذا الكلام غير صحيح، وأما من يصلون في وسط المسجد إلى جهات أخرى -فهذا أمر في غاية العجب- حيث توجهت سجادته أو قبته التي يصلي على عتباتها، فهذا ما تصح صلاته.

"ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر، فإنه يصليها حيثما توجه قالبه، وقلبه نحو الكعبة، وكذا في حال المسايفة في القتال يصلي على كل حال، وكذا من جهل جهة القبلة يصلي باجتهاده، وإن كان مخطئاً في نفس الأمر؛ لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

وقوله: {وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ} [(١٤٤) سورة البقرة] أي: واليهود -الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس- يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها، بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأمته، وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً؛ ولهذا يهددهم تعالى بقوله: {وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} [(١٤٤) سورة البقرة]."

يعني أن أهل الكتاب يعلمون أنه الحق بمعنى: يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها بما يجدونه في كتبهم، وهذا هو المتبادر، وبعض أهل العلم يعبر عن هذا فيقول: يعلمون أنه الحق أنها قبلة إبراهيم والأنبياء من بعده، فقبلتهم جميعاً هي الكعبة، وبعضهم يقول: يعلمون أنه الحق من ربهم أي هذا التحويل، يعلمون من صفته أنه سيحول من هذه القبلة إلى هذه القبلة، وكل ذلك لا إشكال فيه، فهم يعرفون وصف النبي –صلى الله عليه وسلم–، ومهاجره، ويعرفون قبلته، وما سيكون من أمره، فهم يعلمون أن هذه القبلة التي هم يشغبون عليها أنها حق من الله –عز وجل–، وهي قبلة إبراهيم –عليه الصلاة والسلام–، وقبلة الأنبياء من بعده.

وعلى هذا الاعتبار تكون قبلة جميع الأنبياء إلى الكعبة، والأنبياء حجوا البيت، كما هو معروف، وتعرفون الأحاديث الواردة في هذا، ومسجد الخيف صلى فيه سبعون نبياً، وقال النبي –صلى الله عليه وسلم– لما مر بوادي الأزرق: ((كأني أنظر إلى موسى))[٣].. إلى آخره.

فالمقصود أن قبلة الأنبياء إلى الكعبة، وبعض أهل العلم يُفهم من كلامه خلاف هذا، ومن الناحية الواقعية اليهود يستقبلون بيت المقدس، وإن أردت أن تحدد أكثر قل: يستقبلون الصخرة، فالمسلمون لا يعظمون هذه الصخرة، فاليهود يستقبلونها حيث كانوا، والنصارى يستقبلون المشرق مطلقاً حيث كانوا، لماذا اليهود يستقبلون الصخرة؟ يقول بعض أهل العلم: إن اليهود كانوا يحملون معهم التابوت، كما قال تعالى: **{إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ}** [(٢٤٨) سورة البقرة] فكانوا حيثما انتقلوا وحلوا أو ذهبت جيوشهم أو نحو هذا وضعوا التابوت وصلوا إليه، يحملونه في أسفارهم ومغازيهم، وإذا كانوا ببيت المقدس وضعوه على الصخرة واستقبلوه.

التابوت هذا يقولون: فيه بقايا –هكذا يقال–، جاء هذا في بعض الروايات، في رواية حسنها الشيخ الألباني: "عن ابن عباس قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((ليس الخبر كالمعاينة إن الله –عز و جل– أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت))[٤] وجاء في تلك الرواية: "أنه رفع ستة أسباعها وبقي السبع" هذه الرواية حسنها الألباني، وبعض أهل العلم يضعفها.

يقولون: إنها كانت مكتوبة على ألواح من زبرجد فتحطمت، فهذا الذي ترضرض منها، هذا الفتات جمع وهو المراد بقوله: **{وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ}** [(٢٤٨) سورة البقرة] فكانوا يحملونه معهم.. إلى آخره.

فالمقصود أنهم كانوا يستقبلون التابوت، ويضعونه على الصخرة إذا نزلوا في بيت المقدس، فرفع التابوت فصاروا يستقبلون المحل الذي يضعونه عليه دون أن يُوجهوا إلى ذلك، وأما النصارى فهم لشدة عداوتهم لليهود خالفوهم فاستقبلوا المشرق، وإلا فقبلة الجميع هي الكعبة على قول طائفة من أهل العلم، وهو صريح كلام ابن جرير في **{فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا}** [(١٤٤) سورة البقرة].

{لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ} [(١٤٤) سورة البقرة] أي: قبلة إبراهيم والأنبياء من بعده.

---

3 - أخرجه مسلم في الإيمان باب الإسراء برسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلى السماوات وفرض الصلوات (ج/١ص١٠٥ – ٤٣٨).

4 – أخرجه أحمد في المسند (ج/١ص٢٧١ – ٢٤٤٧) وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير سريج بن النعمان فمن رجال البخاري. وصححه الألباني في صحيح الجامع انظر حديث رقم: ٥٣٧٤.

وابن القيم –رحمه الله– في كلامه في عدد من كتبه تكلم على هذه المسألة، وكلامه فيها فيه شيء من الاختلاف، ففي موضع يقرر أن قبلة جميع الأنبياء الذين جاءوا بعد إبراهيم –صلى الله عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وسلم– هي الكعبة، وفي بعضها يقرر أن قبلتهم بيت المقدس أو الصخرة.

ونقل عن السهيلي في بدائع الفوائد ما هو صريح في تقرير هذا المعنى، وعلى كل حال لعل الأقرب –والله أعلم– أن قبلة جميع الأنبياء هي الكعبة، وأن التاريخ الذي كانوا يتعاملون به ليس التاريخ الشمسي، وإنما هو التاريخ القمري أيضاً، وعلى هذا أدلة، ويكفيك منها ما نحن بصدد استقباله قريباً –إن شاء الله– وهو يوم عاشوراء فهو بالتاريخ القمري بهذا الاعتبار، وهو اليوم الذي نجا الله فيه موسى لما هاجر النبي –صلى الله عليه وسلم– وسألهم عن سبب صيامه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير(٦٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

"{وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ} [(١٤٥) سورة البقرة] يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [يونس:٩٦- ٩٧] ولهذا قال هاهنا: {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ} [(١٤٥) سورة البقرة] وقوله: {وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ} [(١٤٥) سورة البقرة] إخبار عن شدة متابعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- لما أمره الله تعالى به."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالله -تبارك وتعالى- بعد ما أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- بالتوجه إلى هذه القبلة، أخبر أن هؤلاء الذين أوتوا الكتاب ليسوا بطلاب حق، وأنهم في غاية المكابرة، وأنهم مهما ظهر لهم من الحجج والدلائل والبراهين لن يتحولوا إلى قبلته -صلى الله عليه وسلم-، ومن ثَمّ فإن ذلك يقتضى قطع الطمع من إيمانهم، ومِن تحرِّي قبولهم وتقريبهم بناءً على موافقتهم في القبلة، فإن موافقتك لهم في قبلتهم في بيت المقدس لا يعني أن هؤلاء سيلينون، تلين عريكتهم، ويتقبلون عنك ما جئت به، بل هم في غاية الإصرار على الباطل، ومن ثم فلا ينبغي للإنسان أن يقلق من تحويل القبلة مخافة أن تنفر قلوب هؤلاء الذين ربما يُطمع في إيمانهم بهذه الموافقة، فهؤلاء لا سبيل إلى استمالة قلوبهم، فهم مكابرون، ومقيمون على ضلالهم وباطلهم، فلا تلتفت إليهم، ولا تعبأ بهم، هذا وجه الارتباط.

{وَلَئِنْ أَتَيْتَ} [(١٤٥) سورة البقرة] اللام هنا هي لام القسم، أو موطئة للقسم، كأنه يقول: والله لئن أتيتهم بكل حجة وبرهان فإنه لا يغير ذلك من حالهم شيئاً، لن يتبعوا قبلتك، فإذاً لا تكترث بهم، ولا تشتغل بهم، ولا تنظر إلى خواطرهم، أو استمالة قلوبهم؛ لأن هؤلاء لن يوافقوك على ذلك، فهذا أَخبَرَ به عن حالهم، ثم وَصف نبيه -صلى الله عليه وسلم- وما هو عليه من الثبات العظيم، هذا هو المعنى المتبادر، وهو الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله-.

{وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ} [(١٤٥) سورة البقرة] هذا إخبار، وإن كان بعض أهل العلم قال: إن هذا بمعنى النهي، نهي للنبي -صلى الله عليه وسلم- أن يتبع قبلتهم، لكنه في غاية البعد، وإنما هو إخبار عن حال رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وثباته على أمر ربه، وقبوله هذه القبلة.

والقبلة -كما ذكرنا من قبل- شعار، فهي من أعظم ما يكون من شعار أهل الدين، وهي رمز له، ومن ثَمّ فإن التحول منها ليس بالأمر السهل، ليس كنسخ قضية تتعلق بالطهارة، أو مسألة تتعلق بعبادة أخرى، إنما هو شعار لأهل الملة والدين، كما ذكر ابن القيم -رحمه الله- فيما ذكرته سابقاً.

"وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم فهو أيضاً مستمسك بأمر الله وطاعته، واتباع مرضاته، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله، ولا كونه متوجهاً إلى بيت المقدس لأنها قبلة اليهود، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى، ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى؛ فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره."

يعني هنا قال: **{وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم}** [(١٢٠) سورة البقرة] فهذا هو الشاهد الذين يَعْنيه ابن كثير -رحمه الله-، بأن الإنسان إذا انحرف عن الحق وهو يعلم، العالم إذا انحرف فإن ذلك أعظم من انحراف غيره من سائر الناس، ولهذا تعرفون ما وقع لذلك الذي يقال له: بلعام بن باعوراء في قوله: **{فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث}** [(١٧٥-١٧٦) سورة الأعراف] فأسوأ مثلين في كتاب الله -عز وجل- هما للعالم المنحرف الذي لا يعمل بعلمه -ما ذكرهما الله -عز وجل- للعوام- الأول الكلب، والثاني الحمار.

الكلب: ضربه الله -عز وجل- مثلاً لرجل من بني إسرائيل أتاه الله آياته، وكان من علمائهم فانحرف، ولم يكن متبعاً لما علم، فحاد عنه، فكان بهذه المثابة.

والثاني: مثلاً ضربه الله لطائفة بكاملها، وهم اليهود الذين أعطاهم الله كتاباً وعلماً، وميزهم بهذا عن سائر الأمم، ومع ذلك لم يعملوا بكتابهم، فمثلهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً، فأهل العلم إذا ضلوا فإن ذلك يكون أعظم من ضلال غيرهم وانحرافهم، فالمسألة تتفاوت، كما قيل: على قدر المقام يكون الملام.

وهذه الآية يتكلم عليها أيضاً أهل العلم فيما يتعلق بالمسألة المعروفة وهي بلوغ التكليف والحجة: **{مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ}** [(١٤٥) سورة البقرة].

"ولهذا قال مخاطباً الرسول والمراد به الأمة: {وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ} [(١٤٥) سورة البقرة]."

يعني من بعد ما جاءك من العلم أن هذه القبلة حق، وأنها من أمر الله -عز وجل- ونحو ذلك، هذا المعنى الذي يتبادر منها، وربما كان المعنى أوسع من هذا، فهذا كله مما أعلمه الله -عز وجل- به، يعني ما الذي أعلمه الله -عز وجل- به؟ أنهم يعلمون ذلك حقاً، **{وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ}** [(١٤٤) سورة البقرة] وأنهم مقيمون على باطلهم، لا يتخلون عنه بحال من الأحوال، لن يتحولوا إلى قبلتك؛ لأن هذه القبلة التي حولتُك إليها هي حق ثابت من عند الله -عز وجل-، فهذا كله مما جاءه من العلم عن الله -عز وجل-، ولهذا فإن ابن جرير الطبري -رحمه الله- يحمل قوله تعالى: **{مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ}** [(١٤٥) سورة البقرة] على هذه المعاني جميعاً، ما الذي جاءه من العلم؟ هي هذه الأمور التي أعلمه الله -عز وجل- بها، ولا يختص بواحد دون غيره، فهي قبلة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وولده، إلى غير ذلك من الأمور التي سبقت، والله تعالى أعلم.

" {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [(١٤٦-١٤٧) سورة البقرة] **يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول -صلى الله عليه وسلم-، كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا."**

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ} [(١٤٦) سورة البقرة] "يعرفونه" يعرفون ماذا؟ يحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعرفون نبوته كما يعرفون أبناءهم، كما جاء ذلك عن عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- أنه يعرف نبوة النبي -صلى الله عليه وسلم- أكثر من معرفته لولده؛ لأن ولده لا يدري لعل امرأته قد قرفت، فأما نبوة النبي -صلى الله عليه وسلم- فهي أثبت عنده وآكد وأقوى وأبين من معرفته لولده الذي من صلبه.

وبعض أهل العلم يقول {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ} [(١٤٦) سورة البقرة]: **إن** الضمير يعود إلى القبلة وليس إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا فابن جرير -رحمه الله- يقول: يعرفون أن الكعبة هي قبلة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وقبلة الرسل من بعده، وأما القبلة التي هم عليها فهي قبلة محدثة، وكذلك قبلة النصارى في التوجه إلى المشرق، يعرفون هذا فهو ثابت عندهم في كتبهم، أو من خبر الأنبياء الذين بعثهم الله -عز وجل- فيهم.

{وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ} [(١٤٦) سورة البقرة] الحق هنا بحسب ما يقال في الضمير في قوله: "يعرفونه"، فإذا قلنا: إن الضمير في "يعرفونه" يعني محمداً -صلى الله عليه وسلم- فيكون: "ليكتمون الحق" يعني في نبوته، فيغيرون صفته، فبدلاً مما يجدون أنه ربعة بين الرجال، يقولون: إنه طويل بائن الطول.. إلى غير ذلك، وإذا قيل: إن قوله: "يعرفونه" الضمير يعود إلى أمر الكعبة وأنها قبلة إبراهيم والأنبياء بعده، فيكون: "ليكتمون الحق" يعني: أمر القبلة.

فعلى كل حال هم يكتمون الحق كما وصفهم الله في آيات كثيرة، ومن كتمهم الحق ما يتعلق بأمر القبلة، وما يتعلق ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، إذ إنهم قد عرفوا صفته ومع ذلك وقع الإنكار منهم.

ثم قال: {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ} [(١٤٧) سورة البقرة] نفس القضية في المراد بالحق من ربك ونفس الاحتمالات السابقة. ويمكن أن يكون الحق من ربك المقصود به جنس الحق، يعني لا يختص بنبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- ولا بأمر القبلة، الحق من ربك فالزمه، {فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [(١٤٧) سورة البقرة].

"كما جاء في الحديث: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لرجل معه صغير: ((ابنك هذا؟)) قال: نعم يا رسول الله، أشهد به، قال: ((أما إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه))[1] قال القرطبي: ويروى أن عمر قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً -صلى الله عليه وسلم- كما تعرف ولدك؟ قال: نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته، وإني لا أدري ما كان من أمه.

---

1 - أخرجه أبو داود في كتاب الديات باب لا يؤخذ أحد بجريرة أخيه أو أبيه [جزء ٢- ص٥٧٥ - ٤٤٩٥)، وأحمد في المسند [جزء ٢- ص ٢٢٦ - ٧١٠٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع انظر حديث رقم : ١٣١٧.

ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمي {لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ} [(١٤٦) سورة البقرة] أي: ليكتمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي -صلى الله عليه وسلم- {وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [(١٤٦) سورة البقرة]."

يعني يعلمون أمر القبلة، أو يعلمون أمر محمد -صلى الله عليه وسلم-، أو يعلمون الأمرين معاً، وهذا كله حق، فهم يكتمون الحق في أمر القبلة، فالآيات نازلة فيها، وهم كتموا الحق أيضاً في حق محمد -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا فإن قوله: {لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [(١٤٦) سورة البقرة] يحمله بعض المفسرين على هذه المعاني جميعاً، في أمر القبلة، وفي أمر محمد -عليه الصلاة والسلام-، ومنهم ابن جرير -رحمه الله-.

"ثم ثبّت تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم- والمؤمنين، وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فقال: {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [(١٤٧) سورة البقرة]."

ما جاء به هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فقال: {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [(١٤٧) سورة البقرة] والامتراء المقصود به الشك، وهل كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شاكاً؟ الجواب طبعاً: لا، حاشا وكلا، فهو أوثق الأمة إيماناً، وأعلمهم بالله -عز وجل-، والنهي عن الشيء لا يقتضي وقوعه من هذا المنهي عنه، وإنما هو للتحذير من ذلك.

وما يتعلق بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، ففي مواضع كثيرة من القرآن يُؤمر -صلى الله عليه وسلم- ويُنهى ويكون المقصود بذلك أمته، إذ إن الأمة تخاطب في شخص قدوتها -عليه الصلاة والسلام-، ولهذا فإن الخطاب الموجه للنبي -صلى الله عليه وسلم- تارة يكون مختصاً به، وتارة تراد به الأمة، وتارة يكون للنبي -صلى الله عليه وسلم- وللأمة.

فالله يقول للنبي -صلى الله عليه وسلم-: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ} [(١) سورة الأحزاب] وهو أتقى الأمة لله، {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} [(١) سورة الأحزاب] وحاشا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يطيع الكافرين والمنافقين، وهنا: {فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [(١٤٧) سورة البقرة] أي: لا تكن من الشاكين.

فعلى كل حال بعض أهل العلم يحمل مثل هذا على أن المراد به الأمة، ابن جرير -رحمه الله- يقول: هذا خطاب للأمة، نهيٌ لها عن الامتراء والشك، وإلا فإن هذا لا يتطرق إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وليس ذلك بمستغرب أن يخاطب النبي -عليه الصلاة والسلام- وتراد أمته، وعلى كل حال -كما قلت- مخاطبة النبي -صلى الله عليه وسلم- أو نهيه عن شيء لا يعني إمكان وقوعه منه، وهذا له أمثلة كثيرة في القرآن، وكذلك بعض الأساليب الأخرى، مثل ما يكون على سبيل الشرط مثلاً فإن ذلك لا يعني إمكان الوقوع، مثل: {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [(٨١) سورة الزخرف] فهذا لا يمكن أن يكون، ولكن هذا يؤتى به لتقرير معنىً، أو لبيان باطل، أو لدفع شبهة، ونحو ذلك.

"{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٤٨) سورة البقرة] قال العوفي عن ابن عباس: {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا} يعني بذلك: أهل الأديان."

القبلة: فِعْلة من المواجهة، وهي بمعنى الجهة، ولكل وجهة يعني: أي جهة هم مستقبلوها، ومتوجهون إليها، على كل حال أي أنهم لا يتبعون قبلتك، ولا أنت ستتبع قبلتهم، لكل وجهة، أي هو متوجه إليها، ومولِيها

وجهه، والضمير في موليها راجع إلى (كل)، هذا الأقرب والأرجح، وهو الذي عليه كثير من أهل العلم من المفسرين والمحققين، واختيار الحافظ ابن القيم، **{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا}** [(١٤٨) سورة البقرة] راجع إلى ما سبق من قوله: "كل"، وعلى هذا يكون المعنى: **{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا}** [(١٤٨) سورة البقرة] أي: متوجه إليها، فكل قوم يتوجهون إلى قبلتهم من أهل الملل والديانات، فكل ملة تتجه إلى قبلتها، هذا هو المعنى المتبادر، وأما ما قيل من غيره ففيه بعد؛ لأن بعضهم يقول **{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا}** [(١٤٨) سورة البقرة]: إن ذلك في أهل الإسلام بحسب مواقعهم من الأرض وتوجههم إلى الكعبة، فناس في الشمال، وناس في الجنوب، وناس في كذا، فهذا فيه بعد.

ومنهم من يقول: إن الضمير في قوله: "هو" عائد إلى الله -عز وجل- مع أنه لم يرد له ذكر، **{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا}** [(١٤٨) سورة البقرة] أي: أن الله موليهم إياها، وهذا أيضاً فيه إشكال إلا إذا فسر بما ذكرت آنفاً مع أن فيه بعداً، إذا فسر بأنه هو موليها أي: الله موليهم إياها، بمعنى أن ذلك في المسلمين حيث يقعون في أنحاء شتى عن الكعبة، فكل يستقبل القبلة من ناحيته، أما عن القول الذي ذكره بعض أهل العلم من أن المقصود هو موليها أي: الله هو موليهم إياها، والمقصود به أهل الملل، فهذا فيه إشكال، فكيف تكون قبلة أولئك المختلقة الله -عز وجل- هو الذي ولاهم إياها؟! فالأقرب أن الضمير "هو" راجع إلى ما سبق من قوله: "كل"، ولكلٍّ يعني من الملل والنحل وأهل الديانات وجهة -جهة- هم مستقبلوها، هو موليها هؤلاء الناس أهل هذه الديانة هم متجهون إليها، وليس الله -عز وجل- هو الذي وجههم إليها.

"وهداكم أنتم أيتها الأمة للقبلة التي هي القبلة، وروي عن مجاهد وعطاء والضحاك والربيع ابن أنس والسدي نحو ذلك، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا} [(٤٨) سورة المائدة]."

لكن على قراءة ابن عامر: "هو مُولاّها" كيف يكون المعنى؟ على ماذا يحمل؟ هل يكون ذلك في أهل الأديان؟ لا، وإنما هو بالنسبة للمسلمين، كما ذكر هذا جمع من أهل العلم، وأحياناً تجدون القول يذكر في التفسير والواقع أنه منزل على قراءة أخرى، وعلى كل حال ربما فسر بعضهم إحدى القراءتين بالأخرى، يعني مثلاً: "هو موليها" تحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله، الاحتمال موجود، ربما بعضهم يفسر هذا بالقراءة الأخرى: "مَولاّها" لكنه لا يخلو من إشكال؛ لأن الضمير: في "هو مُولاّها" في القراءة الأخرى يرجع إلى (كل)، ما يمكن أن يرجع إلى الله، "هو مُولاّها" الله مولاها، ما يجئ.

فعلى كل حال القاعدة: أن القراءتين إن كان لكل واحدة معنى يخصها فهما بمنزلة الآيتين، فيكون هذه لها معنى، وهذه لها معنى.

{هُوَ مُوَلِّيهَا} [(١٤٨) سورة البقرة] أي: صاحب القبلة متوجه إلى قبلته أياً كانت، "هو مُولاها" على هذه القراءة يكون المعنى أن الله موليه إياها، باعتبار أن ذلك في القبلة الحق، ولهذا بعض أهل العلم يقول: إن ذلك في تعدد القبلة حيث كان من أمر الله، فسواء توجهتم إلى بيت المقدس أو توجهتم إلى الكعبة فهذه قبلة وهذه قبلة،

ولكلٍّ وجهة -قبلة- هو مولاها بمعنى أن الله -عز وجل- وجه إلى هذا ووجه إلى هذا، وكله حق حينما وجهكم إليه، وهذا المعنى ليس ببعيد، والآية تحتمل معنى آخر، لكنني لم أقف على أحدٍ ذكره، وهو معنى قريب، والله تعالى أعلم.

وفي قوله: **{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ}** [(١٤٨) سورة البقرة] ما المناسبة بين ذكر استباق الخيرات وبين الوجهة؟ يعني يمكن أن يقال: فبادروا إلى امتثال أمر الله -عز وجل-، واستقبال قبلتكم التي وجهكم إليها، والتقرب إلى الله -عز وجل- بهذا الامتثال، وبالصلاة نحوها.. إلى غير ذلك.

"**وقال هاهنا: {أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٤٨) سورة البقرة]**... "

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٦٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

"وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا} [(٤٨) سورة المائدة] وقال هاهنا: {أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٤٨) سورة البقرة] أي: هو قادر على جمعكم من الأرض، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فعرفنا وجه الشبه بين هذه الآية وبين قوله: **{لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}** [(٤٨) سورة المائدة]، وقوله -تبارك وتعالى-: **{فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ}** [(١٤٨) سورة البقرة] أي: سارعوا إلى امتثال أمر الله -عز وجل- بالتوجه حيث وجهكم إلى هذه القبلة، ويدخل في عمومها المبادرة إلى الأعمال الصالحة، والمسارعة إلى فعل الطاعات، والتقرب إلى الله -عز وجل- بألوان القربات، وقد أخذ منه بعض أهل العلم المبادرة إلى الصلاة في أول الوقت أخذاً من عمومها؛ لأنه قال: **{فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ}** [(١٤٨) سورة البقرة] ومن الاستباق إلى الخيرات المسارعة إلى الصلاة، وفعلها في أول الوقت، فيدخل فيه المسارعة إلى كل خير.

وقوله: **{أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [(١٤٨) سورة البقرة] أي: يجمعكم من سائر الجهات المتفرقة في نواحي الأرض، وذلك في البعث، كما أنكم تتوجهون إلى بيته الحرام من سائر الجهات، فهذا الربط الذي ذكرته بناءً على المناسبة بين خاتمة هذه الآية وبين موضوعها، الموضوع يتعلق بالقبلة، فالله -عز وجل- قال في آخرها: **{أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعًا}** [(١٤٨) سورة البقرة] أي: أن الله -عز وجل- قادر على حشركم ونشركم وجمعكم وإن تفرقتم في أنحاء الأرض، فهو على جمعكم قدير، فكما تتوجهون من سائر الجهات إلى القبلة التي وجهكم إليها فهو أيضاً يجمعكم من سائر الجهات ليوم البعث والنشور.

"وقال تعالى: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(١٤٩-١٥٠) سورة البقرة] هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض، قيل: إنما ذُكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق، فقال: أولاً: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء} [(١٤٤) سورة البقرة]."

يقول: هذا أمر ثالث من الله تعالى: **{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}** [(١٤٩) سورة البقرة] يعني أنه كرر ذلك ثالثاً، والقاعدة في هذا الباب: أنه لا تكرار إلا لمعنى، يعني ليس تكراراً محضاً، وإنما في كل موضع يكون هذا التكرار لمعنىً يتعلق به، وسبق الكلام على هذه القضية، ذكرنا في قصص الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- حينما تتكرر قصة موسى -عليه الصلاة والسلام- في أكثر من موضع هذا ليس تكراراً محضاً فهو يذكر في كلٍّ ما يتعلق بالمناسبة التي من أجلها سيقت هذه القصة، فتارة يذكر منها ما يسلي النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويقويه على تحمل الأذى الذي يصيبه من قومه، وتارة يذكرها لبيان فضل الله -عز وجل- وإنعامه على بني إسرائيل مثلاً، وتارة يذكرها لبيان نقمته، وشديد عقابه، وعظيم سطوته التي لا تطاق، ونكاله بالمجرمين، وتارة يذكر ذلك في سياق بيان فضائل موسى -صلى الله عليه وسلم- إلى غير ذلك.

والآيات التي تتكرر كثيرة، وقد ذكرت لكم من أوضحها قوله -تبارك وتعالى- في سورة الرحمن: **{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}** [(١٣) سورة الرحمن] ففي كل آية من هذه الآيات هي تتعلق بما ذكر قبلها، وليست تكراراً محضاً.

وكذلك قوله: **{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}** [(١-٢) سورة الكافرون] أي: في الحاضر، **{وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** [(٣) سورة الكافرون] أي: في الحاضر، **{وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ}** [(٤) سورة الكافرون] في المستقبل لن أتحول إلى دينكم، **{وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** [(٥) سورة الكافرون] أي: في المستقبل لن تتحولوا إلى ديني، فالكل على حال ودين مخالف للآخر، **{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}** [(٦) سورة الكافرون].

وإذا فهمت هذا المعنى سهلتْ عليك أمور كثيرة جداً، بل حتى يسهل عليك الحفظ، يعني مثل سورة الكافرون بعض الطلاب ربما يستصعب حفظها، فإذا أدرك هذا المعنى اتضحت له القضية، رأيت مرة طالباً في الجامعة يقول: هذه السورة لم أتمكن من حفظها، قلت: الأمر سهل، هذه كذا، وهذه كذا، وهذه كذا، وهذه كذا، قال: لأول مرة الآن حفظتها، ولذلك مما يذكر في تسهيل الحفظ هو ربط المعنى خاصة في الآيات المتشابهة، وهذا له كلام -على كل حال- في غير هذا الموضع.

فهذه الآية: **{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ}** [(١٤٩) سورة البقرة] الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا هو بناء على القاعدة التي ذكرتها آنفاً: أن هذا في كل موضع بحسبه، وذكر بعض أهل العلم غير هذا، لكنّ فيه معانيَ بعيدة، وفيها شيء من التكلف، وبعضهم يقول: هذا كله للتأكيد لأهمية الموضوع، فهو أمر مزلزل لكثير من النفوس، فاحتاج إلى أن يعاد مرة بعد مرة.

والأحسن -والله أعلم- أن يربط كل موضع من هذه المواضع المتكررة بالسياق الذي ذكر فيه، فليس ذلك من التكرار المحض.

وأيهما أحسن أن نقول: هذا للتأكيد أو نقول بأن هذا في كل موضع له معنىً آخر؟ الأحسن الثاني؛ لأن القاعدة أن التأسيس أولى من التأكيد؛ لأن التأسيس يأتينا بمعنى جديد، وأما التأكيد فهو مجرد تكرار ليؤكد فيه المعنى، ولا معنى جديد، إنما هو المعنى الأول يقرره ويؤكده.

"ولا ريب أنهم أدخلُ في هذا الخطاب منه -صلى الله عليه وسلم-، فتأمل هذه النكت البديعة فلعلك لا تظفر بها في موضع غير هذا، والله اعلم.

قال أبو القاسم: وكرر الباري تعالى الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام..."

هو ينقل الآن كلام أبي القاسم السهيلي لا كلام ابن القيم، يذكر وجهاً للسهيلي ثم يرد عليه، ويذكر ما يختاره.

"وكرر الباري تعالى الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام في ثلاث آيات؛ لأن المنكرين لتحويل القبلة كانوا ثلاثة أصناف."

هذا كلام السهيلي يقول: كررها ثلاث مرات لأن المنكرين للقبلة ثلاثة أصناف.

"اليهود؛ لأنهم لا يقولون بالنسخ في أصل مذهبهم، وأهل الريب والنفاق اشتد إنكارهم له؛ لأنه كان أول نسخ نزل، وكفار قريش قالوا: ندم محمد على فراق ديننا فسيرجع إليه كما رجع إلى قبلتنا، وكانوا قبل ذلك يحتجون عليه فيقولون: يزعم محمد أنه يدعونا إلى ملة إبراهيم وإسماعيل، وقد فارق قبلة إبراهيم وإسماعيل، وآثر عليها قبلة اليهود، فقال الله له حينما أمره بالصلاة إلى الكعبة: {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ} [(١٥٠) سورة البقرة] على الاستثناء المنقطع، أي: لكن الذين ظلموا منهم لا يرجعون ولا يهتدون، وقال: {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [(١٤٧) سورة البقرة]."

هذا كلام السهيلي قال كُرر قوله: **{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ}** [(١٤٩) سورة البقرة] ثلاث مرات؛ لأن الطوائف المنكرة ثلاث، لكن هذا فيه إشكال، ننظر رد ابن القيم له في (بدائع الفوائد) صفحة ثلاثمائة وسبعة وخمسين، يقول: "وقول أبي القاسم أنه تعالى كرر ذكر الأمر باستقبالها ثلاثاً رداً على الطواف الثلاث ليس بالبين، ولا في اللفظ إشعار بذلك، والذي يظهر فيه أنه أمر به في كل سياق لمعنىً يقتضيه، فذكره أول مرة ابتداء للحكم ونسخاً للاستقبال..."[1]. المرة الأولى وقع به النسخ، وتوجيه أهل الإيمان إلى استقبال الكعبة هذا في المرة الأولى لما قال: **{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ}** [(١٤٩) سورة البقرة] لأنه لأول مرة يطرق أسماعهم، فهذا الذي حصل به إثبات الحكم، ووقوع النسخ، فقال: **{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ}** [(١٤٤) سورة البقرة].

"ثم ذكر أن أهل الكتاب يعلمون أن هذا هو الحق من ربهم، حيث يجدونه في كتبهم كذلك، ثم أخبر عن عبادتهم وكفرهم" والظاهر أن العبارة فيها تحريف، والصواب: "أخبر عن عنادهم وكفرهم"، "وأنه لو أتاهم بكل آية ما تبعوا قبلته، ولا هو أيضاً بتابع قبلتهم، ولا بعضهم بتابع قبلة بعض، ثم حذره من إتباع أهوائهم، ثم كرر معرفة أهل الكتاب به كمعرفتهم بأبنائهم، وأنهم ليكتمون الحق عن علم، ثم أخبر أن هذا هو الحق من ربه فلا يلحقه فيه امتراء، ثم أخبر أن لكلٍّ وجهة هو مستقبلها، ومُوليها وجهه، فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون الخيرات، ثم أعاد الأمر باستقبالها من حيث خرج في ضمن هذا السياق الزائد على مجرد النسخ". قال: كل ملة لهم وجهة يستقبلونها، فأنتم استقبلوا المسجد الحرام، في هذا السياق لما ذكر أن كل نحلة وطائفة وأهل دين يستقبلون وجهة فأنتم أيها المؤمنون استقبلوا بيت الله الحرام.

---

[1] - بدائع الفوائد.

"ثم أعاد الأمر به غير مكررٍ له تكراراً محضاً، بل في ضمنه أمْرُهم باستقبالها حيث كانوا، كما أمَرَهم باستقبالها أولاً حيث ما كانوا عند النسخ وابتداء شرع الحكم، فأمرهم باستقبالها حيث ما كانوا عند شرع الحكم وابتدائه، وبعد المحاجة والمخاصمة والحكم لهم، وبيان عنادهم ومخالفتهم مع علمهم، فذكر الأمر بذلك في كل موطن لاقتضاء السياق له، فتأمله، والله أعلم".. إلى آخره.

يقول لهم: الآن كل أهل ملة لهم قبلة، فاستقبلوا هذه القبلة، ثم قال لهم: هذه قبلتكم في أي مكان تكونون فيه، في تنقلكم، في مغازيكم، في أسفاركم، إلا ما استثني من صلاة الإنسان النافلة على الراحلة عند جمع من أهل العلم، وعلى قدميه أيضاً على الأرجح فإنه يستقبل الجهة التي هو متوجه إليها، وكذلك في بعض الحالات في الحرب أو الخوف فإنه يسقط الاستقبال.

هذه ثلاث مرات على كلام ابن القيم، وعلى كل حال ربطها بالسياق هو الأولى، وننظر الآن إلى الحافظ ابن كثير ماذا يقول:

"فقال: أولاً: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} [(١٤٤) سورة البقرة] إلى قوله: {وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} [(١٤٤) سورة البقرة] فذكر في هذا المقام إجابته إلى طلبه، وأمره بالقبلة التي كان يود التوجه إليها ويرضاها."

ذكر في هذا المقام الإجابة إلى طلبه، هل هذا يعارض كلام ابن القيم أنه وقع به تقرير الحكم وإثبات النسخ؟ لا يعارضه، إنما كان ذلك بناء على رغبة كانت عند النبي -صلى الله عليه وسلم- وتطلع إلى هذا، ففي المرة الأولى قرر التوجه إلى بيت الله الحرام إجابة إلى طلبه -صلى الله عليه وسلم-، وكان بذلك نسخ الحكم، وتقرير استقبال القبلة في المرة الأولى.

هذا من أنفع الأشياء في التفسير والحديث، وسيأتي في الكلام -إن شاء الله- على حديث: ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى))[2] أن هذا ليس من قبيل التكرار.

"وقال في الأمر الثاني: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [(١٤٩) سورة البقرة] فذكر أنه الحق من الله، وارتقى عن المقام الأول، حيث كان موافقاً لرضا الرسول -صلى الله عليه وسلم-، فبين أنه الحق أيضاً من الله، يحبه ويرتضيه."

يعني الآن في الموضع الثاني يقول: بين له أن هذا هو الحق، وعلى كلام ابن القيم يكون الموضع الثاني لكل أمة وجهة وهذه وجهتكم، وهو قريب من هذا؛ لأنه ذكر ما يتجه إليه أهل الباطل ويستقبلونه، وبين لأهل الحق وجهتهم.

"وارتقى عن المقام الأول حيث كان موافقاً لرضا الرسول -صلى الله عليه وسلم-، فبين أنه الحق أيضاً من الله يحبه ويرتضيه، وذكر في الأمر الثالث: حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحججون

---

[2] - أخرجه البخاري في بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- [جزء ١- ص ٣ - ١] وفي كتاب الأيمان والنذور باب النية في الأيمان [جزء ٦ - ص ٢٤٦١ - ٦٣١١] وفي كتاب الحيل باب في ترك الحيل وأن لكل امرئ ما نوى في الأيمان وغيرها [جزء ٦ - ص٢٥٥١ - ٦٥٥٣]، ومسلم بلفظ الإفراد: ((إنما الأعمال بالنية)) في كتاب الإمارة باب قوله -صلى الله عليه وسلم-: (إنما الأعمال بالنية) وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال [جزء ٣ - ص ١٥١٥ - ١٩٠٧].

باستقبال الرسول إلى قبلتهم، وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنه سيصرف إلى قبلة إبراهيم، -عليه السلام- إلى الكعبة، وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صُرف الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف، وقد كانوا يعظمون الكعبة، وأعجبهم استقبال الرسول إليها."

يُفهم هذا الكلام؛ لأنه كلام جيد، وكذلك كلام ابن القيم، في فرق بين التوجيهين، والأمر قريب؛ لأن ذلك إنما يلتمس بالنظر والاجتهاد، فتختلف فيه الأنظار، لكنه كله يجري على قاعدة: التأسيس مقدم على التوكيد، وربط كل آية بموضعها من السياق، فهذه ملاحِظ حسنة جيدة، ومن حيث التوجيه هي في غاية التقارب، وليس هناك دليل صريح بأنها ذكرت هنا من أجل كذا، لكن كل ذلك محتمل.

نعيدها مرة ثانية حتى نضبطها، كلام ابن القيم: أول مرة تقرير الحكم ونسخ بيت المقدس، والثانية: لكل ملة وجهة وهذه وجهتكم، والثالثة: حيث ما توجهتم، وفي أي مخرج خرجتم فهذه قبلتكم في الحل والترحال، وعلى كلام ابن كثير يكون الأمر الأول: لتقرير الحكم إجابةً لرغبة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وفي الموضع الثاني: أنه الحق الذي يرتضيه ربكم، ليس فقط مجرد إجابة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، بل هو الحق الذي رضيه الله وأحبه، والأمر الثالث: قطع حجج المعاندين **{لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ}** [(١٥٠) سورة البقرة].

"وقيل غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار، وقد بسطها فخر الدين وغيره، والله -سبحانه وتعالى- أعلم، وقوله: {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ} [(١٥٠) سورة البقرة] أي: أهل الكتاب؛ فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة...."

الآن قوله: **{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}** [(١٥٠) سورة البقرة] لاحظ التنويع في الخطاب، **{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ}** [(١٥٠) سورة البقرة] هذا للنبي -صلى الله عليه وسلم-، **{وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}** [(١٥٠) سورة البقرة] لماذا غاير بينهما؟ بعض أهل العلم يقول: هذا في المخرج، **{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}** [(١٥٠) سورة البقرة] **{وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ}** [(١٥٠) سورة البقرة] في حال استقراركم، في أي ناحية من النواحي، **{فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}** [(١٥٠) سورة البقرة] الأول: حيث ما توجهت فول وجهك شطر المسجد الحرام، والثاني: وحيث ما كنتم في أي مكان كنتم نازلين فاستقبلوا هذه القبلة، هذا وجه قريب، وبعض أهل العلم يذكر غير هذا في المفارقة أو في وجه الفرق بين العبارتين، والعلم عند الله -عز وجل-.

"وقوله: {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ} [(١٥٠) سورة البقرة] أي: أهل الكتاب؛ فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس..."

الآن **{لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ}** [(١٥٠) سورة البقرة] الناس هنا الراجح أنهم أهل الكتاب، هذا هو المتبادر، وهو الذي اختاره كثير من المفسرين ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، ما هي حجتهم؟ يمكن أن تفترض عدداً من الأشياء التي يمكن أن يقولوها، أو يؤخذ ببعض ما نقل عنهم مما قالوه، فربما زعموا أنهم هدوا المسلمين إلى قبلتهم وهي بيت المقدس، يدعون أنهم هدوهم إلى هذا، ومن ثم أيضاً يحتجون

عليهم فيقولون: هديناكم إلى هذه القبلة فاتجهتم إلى قبلتنا وخالفتمونا في ديننا، كيف هذا؟! فحولوا إلى المسجد الحرام، هذا احتجاج اليهود **{لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ}** [(١٥٠) سورة البقرة] فهذا هو الأقرب، ومن ثم فإن قوله: **{إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ}** [(١٥٠) سورة البقرة] حمله كثير من المفسرين على أن المقصود به هم المشركون من العرب، فالمشركون من العرب كانوا يحتجون بهذا التحويل على أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- قد تحول إلى قبلة أبائه، وذلك مؤذن بتحوله إلى دينهم، فمثل هؤلاء لا سبيل إلى قطع ألسنتهم، فالناس يتكلمون بما يحلو لهم، ولا يستطيع الإنسان أن يضع قفلاً على أفواه الناس حتى لا يتكلموا، فهم يتكلمون ولكن ما قيمة هذا الكلام، ولهذا فالوقت يضيق الآن عن الكلام على قوله: **{إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ}** [(١٥٠) سورة البقرة] هل الاستثناء هنا متصل أو منفصل؟ بمعنى إذا قلنا: إنه منفصل فيكون معنى الآية: لئلا يكون للناس عليكم حجة لكن الذين ظلموا منهم **{فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي}** [(١٥٠) سورة البقرة]، أو أن الاستثناء متصل...

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٦٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فأنبه أولاً في بداية هذا الدرس إلى أمر مهم وهو حينما يسمع أو يقرأ الإنسان الآيات التي علم تفسيرها يجد فرقاً بينها وبين الآيات التي لم يطلع على تفسيرها، فرق عظيم جداً إذا كنت تستحضر ما قيل، مع أنه شيء يسير، لكن فرق كبير جداً لا تشبع من سماع القرآن، فهكذا يؤثر فهم المعاني في تدبره، والرغبة في قراءته وسماعه، ومن ثم فإن الإنسان قد لا يستطيل الصلاة إطلاقاً، مهما طالت في قيام الليل في رمضان أو في غيره، أو في التلاوة إذا كان يفقه المعاني.

ولهذا يقول ابن جرير -رحمه الله-: "عجبت لمن يقرأ القرآن وهو لا يعرف معانيه كيف يلتذ به؟!" فهذا مثال ونموذج، فكيف لو كانت معرفتك بمعانيه أكثر وأوسع، فهذه القضية نتحدث عنها كثيراً، ولكن لعلك تجرب في نفسك في بعض الأجزاء التي علمت تفسيرها، ستجد فرقاً شاسعاً بين الحال الأولى والحال الثانية، أسال الله -عز وجل- أن يفتح علينا جميعاً، ويشرح صدورنا لفهم كتابه.

الحمد لله رب العالمين، وصلى وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وقوله: {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ} [(١٥٠) سورة البقرة] **أي أهل الكتاب، فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس.**

وقوله: {إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ} [(١٥٠) سورة البقرة] **يعني مشركي قريش، ووجه بعضهم حجة الظلمة وهي داحضة أن قالوا: إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم فلم رجع عنه؟ والجواب: أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولاً لما له تعالى في ذلك من الحكمة، فأطاع ربه تعالى في ذلك، ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم وهي الكعبة."**

قوله: {إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ} [(١٥٠) سورة البقرة] هذا الاستثناء هل هو متصل أو منقطع؟ أكثر المفسرين على أنه منقطع، بناءً على أي شيء قالوا ذلك ورجحوه؟ بناءً على أن هؤلاء المكابرين الظالمين لا حجة لهم أصلاً، فالله -عز وجل- يقول: حولناكم إلى الكعبة لقطع الحجة عنكم؛ لئلا يقول أهل الكتاب: وافقونا في قبلتنا، هديناهم إلى القبلة، فلماذا لا يوافقوننا في ديننا؟ أو يتوهم متوهم منهم فيقول: إنا نجد من صفة هذا النبي أنه يوجه إلى الكعبة، فهي قبلة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فلماذا يتوجه إلى بيت المقدس؟ فهم يعلمون أنه سيحول، ويجدون ذلك في كتابهم، فلقطع حجتهم حولناكم إلى الكعبة، لكن الذين ظلموا منهم وهم المجادلون عناداً ومكابرةً لا حجة لهم، فالله حول المؤمنين إلى الكعبة لقطع حجة الناس وهم اليهود، لكن هؤلاء المكابرين الظالمين لا تعبئوا بهم، ولا تلتفوا إليهم، هذا قول من قال: إن الاستثناء منقطع، وهذا هو الملحظ الذي جعلهم يقولون بهذا القول، لماذا قالوا به؟ لهذا السبب، أن الظالمين لا حجة لهم.

وإذا قيل: إنه متصل، وهذا عليه جماعة من المحققين، منهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري، والشيخ تقي الدين ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم وجماعة، يقولون: هذا الاستثناء متصل وليس منقطعاً **{لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ}** [(١٥٠) سورة البقرة] سيحتجون، لن تنقطع دعاواهم الباطلة، بأي اعتبار؟ قلنا: إن الظالمين المكابرين لا حجة صحيحة لهم، إذاً ما المراد؟ المراد: أن الحجة تأتي في القرآن بمعنى ما يحتج به ويتشبث به، سواء كان صحيحاً أو باطلاً، فهذا أمر موجود في كتاب الله -عز وجل- حيث يذكر دعاوى المبطلين في عدد من المواضع.

وربما سماها حجة مع بطلانها، يقول الله -عز وجل- في نظائر هذا: **{حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ}** [(١٦) سورة الشورى] فسماها حجة ووصفها بالبطلان، داحضة: بمعنى باطلة ذاهبة، وأيضاً: **{لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ}** [(٦٥) سورة آل عمران] وقوله: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ}** [(٢٥٨) سورة البقرة] وقوله: **{قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ}** [(١٣٩) سورة البقرة] وقوله: **{وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ}** [(٨٠) سورة الأنعام] وقوله: **{فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ}** [(٢٠) سورة آل عمران] والشواهد على هذا كثيرة جداً.

فهذه الدعاوى الباطلة التي يقولها الكفار سماها الله حجة، فدل ذلك على أن الحجة تطلق على ما يُحتج به بصرف النظر عن كونه صحيحاً أو باطلاً، يعني: ما يُستدل به، وهو الدليل والحجة، وهنا ما يمكن أن نسميه قاعدة وهي: أن القرآن يعبر أحياناً باعتبار حال السامع، وهذا له أمثلة كثيرة متنوعة، مثل: تسمية دعاوى المبطلين حجة، ومثل تسمية المعبودات التي يعبدونها آلهة، وهي ليست آلهة، ويسميها أرباباً، ويُجري عليها ما يجري على العقلاء فيقول: **{أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا}** [(١٩٥) سورة الأعراف] فهي أصنام غير عاقلة فالأصل أن يقال: تمشي بها، تبطش بها، ما يقال: يمشون بها، يبطشون بها، تقول مثلاً: لا تسقط عليك هذه الثريات، وإذا كانت للعقلاء تقول: لا يسقطون عليك، ولكنه يجري عليها أحياناً ما يجريه على العقلاء، يبطشون، يمشون، يسمعون، يبصرون، ينظرون، وما أشبه ذلك.

وكذلك حينما يعبر بالترجي مثل (لعلّ) في أحد الوجهين في تفسيرها، إذا صدرت من الله -عز وجل-: **{فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}** [(٤٤) سورة طــه] يعني على رجائكما، هذا إذا ما فسرت بالوجه الآخر الذي هو التعليل، يعني على رجائكما بنظر المخلوقين، فاحتمال أن يهتدي إذا قلتما له كلاماً ليناً وإلا فالله يعلم أنه لن يهتدي.

كذلك أيضاً حينما تأتي (أو) التي قد تفيد الشك على أحد وجوه التفسير، في مثل قوله تبارك تعالى عن يونس -صلى الله عليه وسلم-: **{وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}** [(١٤٧) سورة الصافات] إذا قلنا: (أو) هنا بمعنى (بل) فلا إشكال، لكن إذا قلنا: إنها تدل على الشك والاحتمال فهذا لا يكون من الله -عز وجل-، لكن بحسب الناظر إليهم من المخلوقين، يقدرهم فيقول: مائة ألف أو يزيدون، وهناك أمثلة أخرى في مثل هذه وغيرها.

فهنا يمكن أن يكون الاستثناء متصلاً **{إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ}** [(١٥٠) سورة البقرة] يعني ستبقى لهم حجة باطلة؛ لأن قصدهم العناد والمكابرة، سيحتجون ويشغبون عليكم.

ومن هم هؤلاء الذين ظلموا؟ بعض أهل العلم يقول: هم اليهود، وكثير منهم يقول: هم أهل الإشراك، وهذا اختاره ابن جرير، وهو الذي مشى عليه ابن كثير كما هنا، فهؤلاء من أهل الإشراك إذا حولت القبلة ماذا سيقولون؟ يقولون: وافَقَنا وعاد إلى قبلتنا، حنّ إلى دين أبيه، فهذا يؤذن بتحوله إلى ديننا، فلن يسكتوا فلا تعبئوا بهم، واشتغلوا بما أنتم بصدده، فهذا على القول بأن الاستثناء متصل، فالحجة تأتي بمعنى ما يحتج به، بناءً على الأصل الذي ذكرته آنفاً، وهو أن القرآن يعبر أحياناً باعتبار حال السامع ونظره.

يقول: **يعني مشركي قريش**، إذاً هذا اتفق عليه ابن جرير وابن كثير وكثير من المفسرين **{إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ}** [(١٥٠) سورة البقرة] يعني: المشركين، ووجه بعضهم حجة الظلمة وهي داحضة أن قالوا: إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم فلم رجع عنها؟ والجواب: أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولاً لما له تعالى من الحكمة، فأطاع ربه تعالى في هذا، ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم وهي الكعبة فامتثل، وهذا الكلام سبق الإشارة إليه.

"وقوله: {فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي} [(١٥٠) سورة البقرة] **أي: لا تخشوا شبه الظالمين المتعنتين، وأفردوا الخشية لي، فإنه تعالى هو أهل أن يُخشى منه."**

وهذا أصل كبير لأهل الإيمان لا بد أن يدركوا أن ما يثيره أعداؤهم ويشغبون به لا ينبغي أن يكون مثار قلق بالنسبة إليهم، فضلاً عن أن يغيروا دينهم من أجل كسب ودهم ورضاهم، فإن هذا أمر لن يتحقق، إنما هي الهزيمة الحقيقية العظيمة التي لا تقف عند حد، وهذا التقهقر الذي لا يمكن الثبات معه في أرض المعركة، فإن من هزم في مبادئه، وتضعضع، كان ذلك سبباً لتتابع الهزائم عليه، فلا تثبت له قدم، ولا يكون مؤهلاً بحال من الأحوال للثبات أمام عدوه عند المواجهة، فاثبتوا على ما أنتم عليه من حقائق هذا الدين الذي سنه الله –عز وجل– لكم.

وأما هؤلاء فلن يفتئوا ولن ينقطعوا من الشغب على دينكم، ولا يكون ذلك سبباً لقلقكم وخوفكم **{فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي}** [(١٥٠) سورة البقرة] فالخشية تكون من الله وحده، قد لا تقدرون على مواجهتهم، ولكن يجب عليكم أن تثبتوا على دينكم، وهذا لا خيار فيه.

أما التراجع وتغيير المبادئ وتبديل دين الله –عز وجل– من أجل كسب رضاء المخلوقين فإن هذا أمر لا يحل بحال من الأحوال.

"وقوله: {وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ} [(١٥٠) سورة البقرة] **عطف على {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ}** [(١٥٠) سورة البقرة] **أي: لأتم نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة؛ لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها، {وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}** [(١٥٠) سورة البقرة]."

يعني ذكر لهم ثلاثة أشياء من حكمة هذا التحويل وهي: قطع حجة الظالمين عنهم، وإتمام النعمة عليهم بتحويلهم إلى القبلة التي هي قبلة الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام–، وهي القبلة الوسط التي ضل عنها اليهود والنصارى، فهدى الله –عز وجل– لها هذه الأمة **{وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}** [(١٥٠) سورة البقرة] وهذه هي القضية الثالثة أي: من أجل هدايتكم.

"**{وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}** [(١٥٠) سورة البقرة] **أي: إلى ما ضلت عنه الأمم هديناكم إليه، وخصصناكم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها.**"

الآيات التي مضت في تحويل القبلة مما يوطئ لقضية النسخ **{مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا}** [(١٠٦) سورة البقرة] وهذه الآية رقمها مائة وستة، والآيات التي جاءت بعدها مقررة لها، يعني أن الله -تبارك وتعالى- ذكر قضية النسخ وقررها، وبيّن أنه ما ينسخ من آية إلا ويأتي بمثلها أو أفضل منها، وبيّن عموم قدرته **{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [(١٠٦) سورة البقرة] وأن الملك ملكه، والخلق خلقه، يفعل فيهم ويتصرف كما يشاء من غير منازع.ثم علمهم كيف تكون حالهم مع نبيهم -صلى الله عليه وسلم- من الانقياد والقبول والتسليم، ثم ذكر حال أهل الكتاب معهم وأمانيهم حيث يتمنون إضلال هذه الأمة، ورجوعها عن دينها، فهو يبيّن لهم حال عدوهم وأن بغيتهم هو ردتكم عن دينكم، فلا تعبئوا بهم، ولا تكترثوا بكلامهم وأقوالهم ومطالبهم، وإنما أعرضوا عنهم، وأَمَرَهم بما يكون به صلاحهم، وصلاح معاشهم ومعادهم ومجتمعاتهم، بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة.

وبعد ذلك ذكر جملة من مخازي هؤلاء من أهل الكتاب، **{وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى}** [(١١١) سورة البقرة] وقول اليهود: **{لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ}** [(١١٣) سورة البقرة].. إلى آخر ما ذكر عنهم، ورد عليهم.

ثم بيّن بعض فظائعهم، **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ}** [(١١٤) سورة البقرة] وبيّن أن الجهات جميعاً لله -عز وجل-، **{وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ}** [(١١٥) سورة البقرة]، ثم ذكر أيضاً فظائع أخرى من نسبتهم الولد إلى -عز وجل-، والأماني أو المطالب التي يتعنت فيها المتعنتون **{لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ}** [(١١٨) سورة البقرة].

ثم بيّن حال النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأنه ما أرسل لهذا **{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا}** [(١١٩) سورة البقرة] وإنما يأتي بالآيات الله -سبحانه وتعالى-، فهو إنما مهمته البلاغ والإنذار، ثم قطع أمله من اليهود والنصارى في تحصيل رضاهم **{وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}** [(١٢٠) سورة البقرة] وبيّن أن هدى الله هو الهدى الذي يجب أن يتمسك به، وبيّن حال طائفة من أهل الكتاب الذين اتبعوا الحق وآمنوا به، ثم ذكّر بني إسرائيل بما ذكّرهم به من إفضاله عليهم وخوّفهم.

ثم ذكر إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وما جرى له من الابتلاء العظيم والامتحان، وما جعل الله -عز وجل- لبيته الحرام، حيث جله مثابة للناس وأمناً، وذكر بناء إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لهذا البيت، ودعاءه له، وأن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، ثم بعد ذلك بيّن أن من يرغب عن ملة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فقد أضاع حظ نفسه وضيعها، واشتغل بما يضره، وأن دين إبراهيم هو الإسلام، وأن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وصى بذلك أبناءه، ويعقوب وصى بذلك أبناءه أيضاً، فهذا هو دين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وبيّن لهؤلاء اليهود والنصارى الذين ينازعون في إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وإسحاق ويعقوب، أن هؤلاء لهم أعمالهم، وقد مضوا بأعمالهم وآمالهم، وأن الله يتولاهم ويجازيهم، فأين عملكم أنتم؟ وأين ما فيه نجاتكم؟

ثم ذكر حجة وكلاماً باطلاً لهم، {وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ} [(١٣٥) سورة البقرة] ثم بيّن لهم المنهج الصحيح، وهو الإيمان بالله -عز وجل-، والملائكة والكتب والرسل.. إلى آخره، وبيّن أن هذا هو مهيع الهدى إن فعلوه وآمنوا به فقد صاروا على الطريق، وإلا فهم في ضلال وشقاق.

ورد عليهم في المحاجة في إبراهيم، {قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ} [(١٣٩) سورة البقرة] {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ} [(١٤٠) سورة البقرة] ورد عليهم في هذا، ثم قال: {سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ} [(١٤٢) سورة البقرة] بهذه التوطئة من قوله: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ} [(١٠٦) سورة البقرة] الآية مائة وستة، كل ذلك توطئة لما ذكره هنا من تحويل القبلة {سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ} [(١٤٢) سورة البقرة] قطع حجتهم عن هؤلاء، وبيّن أنهم ضُلال، وأن الحق هو ما أنتم عليه، وأنه من عند الله فالتزموه، وبيّن عظم هذا النبي الكبير إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وعظّم بيته الحرام، ثم بعد ذلك بيّن لهم حال هؤلاء اليهود، وأنهم سيقولون كذا وكذا، وقال بعده: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ} [(١٤٤) سورة البقرة].. إلى آخر الآيات، وأن أهل الكتاب لن يقتنعوا مهما أتيتهم؛ لأنهم يكابرون وهم يعرفون هذا الحق، وأن جميع الملل والطوائف كلٌ له وجهة.. إلى آخر ما ذكر.

هذا وجه الترابط، أو ما يسمى بالمناسبات بين الآيات في هذا المقطع الطويل، من مائة وستة إلى مائة وأربعة وخمسين، بل إن شئت أن تقول بأكثر من هذا، إلى مائة وسبعة وخمسين.

"{كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ} [(١٥١-١٥٢) سورة البقرة] يذكّر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- إليهم يتلو عليهم آيات الله مبينات ويزكيهم."

في قوله: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ} [(١٥١) سورة البقرة] قوله: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ} هل هو متعلق بالذي بعده؟ أي كما أنعمت عليكم بهذه النعمة {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [(١٥٢) سورة البقرة] كما أني فعلت لكم هذا فاذكروني شكراً على هذا الإنعام والإفضال، هل هذا هو المراد؟ أم أن قوله: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ} متعلق بأمر قبله وليس بعده، بحيث يكون الكلام مثلاً هكذا: الزموا طاعتي وتوجهوا إلى القبلة التي أمرتكم؛ لتنقطع عنكم حجة اليهود؛ ولأتم نعمتي عليكم؛ ولعكم تهتدون كما ابتدأتكم بنعمتي فأرسلت إليكم رسولاً؟ بهذا الشكل، أو: ولأتم نعمتي عليكم إتماماً مثل ما أرسلنا فيكم رسولاً، فتكون الكاف في موضع نصب، وقد تكون في موضع الحال، أو نعتاً لمصدر محذوف، الحال مثل: ولأتم نعمتي عليكم كما أرسلنا، تكون الكاف في موضع الحال {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً}، وبهذا يكون الكلام مرتبطاً بما قبله، وليس كلاماً جديداً استئنافياً يبتدئ الله فيه تقرير قضية جديدة، ليس المعنى قل لهم: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ} [(١٥١) سورة البقرة] {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [(١٥٢) سورة البقرة] وإنما هو يخاطبهم كما سبق فيقول لهم: {وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا} [(١٥٠-١٥١) سورة البقرة] فهذا من نعمته -

سبحانه وتعالى- عليهم وإفضاله، فهو يمتن عليهم بهذا، أتممت نعمتي عليكم بتحويلكم إلى أعدل قبلة، وهديتكم إليها، كما أني أرسلت إليكم رسولاً هذه صفته، يعني أنه أضاف إليهم بعْثَ الرسول -صلى الله عليه وسلم- وهو أفضل الأنبياء **{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ}** [(٢) سورة الجمعة] فإضافة إلى ذلك أتم نعمته عليهم بتحويلهم إلى أعدل قبلة وهي قبلة الأنبياء وقبلة أبيهم إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-.

"ويزكيهم: أي يطهرهم من رذائل الأخلاق، ودنس النفوس، وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور."

التزكية تشمل المعاني كلها التي يذكرها السلف، يزكيهم من المعاصي، ويزكيهم أيضاً من الشرك، ويزكيهم بالطاعات، ويزكيهم بالتوحيد، فكل ذلك يحصل به التزكية، فعلى قدر استقامة العبد على أمر ربه -تبارك وتعالى- على قدر ما تكون زكاته، فتجد بعض العبارات: يزكيهم بتخليصهم من الشرك، يزكيهم بتطهيرهم من الشرك، يزكيهم بالتوحيد، يزكيهم بإبعادهم عن الذنوب والمعاصي والآثام، كل هذه العبارات بمعنىً واحد، وتدخل في معنى التزكية.

"{وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ} [(١٥١) سورة البقرة] وهو القرآن، {وَالْحِكْمَةَ} [(١٥١) سورة البقرة] وهي السنة {وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ} [(١٥١) سورة البقرة] فكانوا في الجاهلية الجهلاء يُسفَّهون بالقول الفري..."

القول الفري، يعني المفترى، فكانوا في الجاهلية يُسفَّهون أي: ينسبهم الناس للسفه، ويمكن أن يقال: يَسْفَهون بالقول الفري، يعني: المفترى المختلق.

"فكانوا في الجاهلية الجهلاء يُسفَّهون بالقول الفري، فانتقلوا ببركة رسالته، ويمن سفارته إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة."

كانوا يقولون: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً لك تملكه وما ملك" وأشياء مضحكة محزنة مما كانوا يتعاطونه ويقولونه، من يقرأ في مثل كتاب: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، أو في غيره من الكتب كقصص العرب وغيرها يجد أموراً يندى لها الجبين، يستحي العاقل منها ويتعجب كيف كان هؤلاء بهذه المثابة؟! ثم صاروا في عداد العلماء والكبراء والعظماء ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، فصار اشتغالهم بعظائم الأمور من الجهاد والعلم، وتجد كلامهم في تصانيفهم وفيما ينقل ويروى عنهم يُهتدى به، ويُذكر وتُعطر به المجالس، بعد ما كانت تلك الحماقات والسفه والخزعبلات التي يعرق لها الجبين.

وصاروا إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، وصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة...

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير سورة البقرة (٦٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

"وقال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ} الآية [(١٦٤) سورة آل عمران]، وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} [(٢٨) سورة إبراهيم] قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: يعني بنعمة الله محمداً -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة، ومقابلتها بذكره وشكره، فقال: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ} [(١٥٢) سورة البقرة] قال مجاهد في قوله: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ} [(١٥١) سورة البقرة] يقول: كما فعلت فاذكروني، وقال الحسن البصري في قوله: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [(١٥٢) سورة البقرة] قال: اذكروني فيما افترضت عليكم أذكرْكم فيما أوجبت لكم على نفسي، وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى: ((من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه))[1]".

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تبارك وتعالى هنا: **{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}** [(١٥٢) سورة البقرة] أي: كما بعثت إليكم هذا الرسول، وفعلت بكم هذا الإفضال والإحسان فاذكروني.

والذكر: يكون باللسان والقلب والجوارح، ولهذا أورد الحديث هنا: ((من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي)).. إلى آخره، فهذا داخل تحت عموم قوله تبارك وتعالى: **{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}** [(١٥٢) سورة البقرة] اذكروني بألسنتكم أذكركم في الملأ الأعلى، ويدخل فيه أيضاً ذكره تبارك وتعالى بالعمل بالجوارح، ويدخل أيضاً فيه ذكره بالقلب، فإن هذا الذكر تارة يكون بالإقرار بالنعمة باللسان، واستحضارها، وقيام ذلك في القلب مع العمل بالجوارح **{اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا}** [(١٣) سورة سبأ].

ويكون أيضاً باللسان، بذكر الله -عز وجل- بألوان الذكر، ويكون أيضاً بالقلب بقيام القلب بوظائفه التعبدية من محبة وشكر ورضاً وصبر وما إلى ذلك من أعمال القلوب، وكذلك بأعمال الجوارح من صلاة وحج.. إلى غير ذلك، فهذا كله داخل تحت قوله: **{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}** [(١٥٢) سورة البقرة] ولهذا يقول بعضهم كسعيد بن جبير: اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب، فالذكر يكون بالطاعة بجميع أنواعها منقسمة على اللسان والقلب والجوارح، اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب، وكذلك أيضاً بذكره باللسان ((من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)) وهكذا.

---

[1] -أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى (ج ٨/ص٦٧ - ٢٠٠٨).

"وروى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: قال الله -عز وجل-: ((يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ من الملائكة -أو قال: في ملأ خير منه-، وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة))[٢] صحيح الإسناد، أخرجه البخاري."

على كل حال هذا مما يدخل في الذكر كما سبق، وقول سعيد بن جبير هو من أوضح ما عبّر به عن معناها: "اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة" وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، فالآية تشمل هذه الأمور جميعاً.

"وقوله: {وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ} [(١٥٢) سورة البقرة] أمر الله تعالى بشكره، ووعد على شكره بمزيد الخير، فقال: {لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [(٧) سورة إبراهيم]."

الآن في قوله: **{وَاشْكُرُواْ لِي}** [(١٥٢) سورة البقرة] هناك قال: **{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}** [(١٥٢) سورة البقرة] فالذكر يكون باللسان ابتداءً، ويكون بالقلب والجوارح، وأما الشكر فهو كما يقولون: يكون في مقابل النعمة، اشكروا لي على هذا الإنعام والإفضال تزدادوا عبودية لله -عز وجل-، وإتباعاً لنبيه -صلى الله عليه وسلم-.

والشكر -كما مر في بعض المناسبات- أصله: من الظهور أو الزيادة، ولهذا يقال للعُسْلوج الذي يخرج من الشجرة -وهو الغصن الصغير الأخضر بعدما تقطع-: شكير، ويقال للدابة إذا ظهر عليها أثر السمن: شكرت الدابة، بمعنى ظهر عليها أثر السمن، فهذا الشكر هو ظهور أثر النعمة على المنعم عليه باللسان والقلب والجوارح، ولهذا قال الشاعر [٣]:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

يقول: إنعامكم وإفضالكم أثّر عليَّ ونتج عنه شكر هذه الثلاثة: القلب واللسان والجوارح.

"وروى الإمام أحمد عن أبي رجاء العطاردي قال: خرج علينا عمران بن الحصين -رضي الله تعالى عنه- وعليه مُطْرَف [٤] من خَزٍّ[٥] لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

---

2 - في المسند (ج٣/ص١٣٨- ١٢٤٢٨) وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وذكره البخاري عن أنس بن مالك عن أبي هريرة مختصراً في كتاب التوحيد باب ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- وروايته عن ربه (ج٦/ص٢٧٤١ - ٧٠٩٩).

3 - ذُكر البيت غير منسوب لقائل في: ربيع الأبرار (ج١/ص٤٧٢) وفي (نهاية الأرب في فنون الأدب) (ج١/ص٣٣٢) وفي (نفح الطيب) (ج٦/ص٢٧٤) وغيرها.

4 - المُطْرَف: كمُكرم، بكسر الميم وضمّها مع سكون الطاء وفتح الراء فيهما، تقول تميم: مُطْرَف ومُصحَف، وأهل الحجاز يقولون: مِطْرَف ومِصْحَف، وهو واحد المطارف، وهي أردية من خز مربعة لها أعلام، وقيل: ثوب من خز مربع له أعلام، قال الفراء: المطرف من الثياب: ما جعل في طرفيه علمان، والأصل مُطرف بالضم؛ ليكون أخف كما قالوا: مِغزل كمنبر، وأصله مُغزل بالضم من أغزل أي: أدير، والميم زائدة. ينظر: لسان العرب والقاموس المحيط مادة (طرف) والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير(ج٢/ص٣٧١) وجمهرة اللغة (ج١/ص٤١٤) وغيرها.

5 - الخز: هو ضرب من ثياب الإِبْرَيْسَم معروف، وفي هذا الحديث ما يدل على جواز لبسه، قال ابن حجر في فتح الباري (ج١٠/ص٥٥) عند حديث: ((ليكونن من أمتي أقوامٌ يستحلون الحر والحرير)): "ووقع عند الداودي بالمعجمتين -الخز- ثم تعقبه بأنه ليس بمحفوظ؛ لأن كثيراً من الصحابة لبسوه، وقال ابن الأثير: المشهور في رواية هذا الحديث بالإعجام -لأنه متناسب مع ذكر الحرير- وهو ضرب من الأبريسم كذا قال، وقد عُرف أن المشهور في رواية البخاري بالمهملتين -لأنه إذا حرم الحرير فالخز نوع منه فيكون تكراراً فالأنسب أن يكون تحريماً لشيء آخر- وقال ابن العربي: الخز بالمعجمتين والتشديد مختلف فيه والأقوى حله، وليس فيه وعيد ولا عقوبة بإجماع". لكن كونه بالمهملتين أرجح، وهو ما رجحه شراح البخاري منهم ابن

قال: **((من أنعم الله عليه نعمةً فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه))وقال روح مرة: ((على عبده))**[٦]".

من شكر النعمة أن يقر الإنسان بها ولا يجحدها، لا يقول: هذا من عندي، أو إنما أخذته بعلمي وحذقي بألوان المكاسب مثلاً، أو يجحد ويقول: أنا لم أحصّل شيئاً، ولم أربح شيئاً، وهو لم يصدق في هذا الكلام، و مثله الطالب الذي يدخل في الاختبار ويقول للناس بعدما يخرج: أنا لم أعرف الجواب، ولم أحسن الإجابة، وهو غير صادق بهذا، فهذا من كفر النعمة.

وكذلك أيضاً ظهور أثر هذه النعمة باستعمالها فيما أباحه الله -عز وجل- من غير سرف ولا افتخار، ولذلك فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، فإذا كان الإنسان قد أغناه الله -عز وجل- فلا يلبس ثوباً مخرقاً فيظهر أثر ذلك عليه، وهذا لا يعارض: ((من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها))[٧]، وكذلك في قوله: ((البذاذة من الإيمان))[٨] ليس المقصود بالبذاذة: ترك النظافة، وإنما المقصود ترك رفيع الثياب، أي: يلبس أشياء قد تكون وسطاً.

وقوله: **{وَاشْكُرُواْ لِي}** [(١٥٢) سورة البقرة] عدّيت باللام وهو الذي جاء في القرآن وهو الأشهر والأفصح، تقول: شكرت لك، اشكروا لله، وقد تتعدى بنفسها، ولم يرد في القرآن فيما يحضرني، لكنه ورد في كلام العرب.

إنكما إن أنظرتماني ساعةً شكرتكما حتى أُغيّب في قبري[٩]

قال: شكرتكما، ولم يقل: شكرت لكما، ومنه قول الآخر[١٠]:

حجر، وإن قال الصنعاني: إن إدخال الحديث في باب اللباس يرجح المعجمتين؛ لأن الخز من اللباس، لكن نقول: إنه وإن أدخله في باب اللباس فالراجح أنه بالمهملتين، وإدخاله في باب اللباس إنما هو من أجل ما عُطِف عليه وهو الحرير. وقد أورد مالك وابن أبي شيبة وغيرهما ما يدل على الترخص في لبس الخز.

6 – في المسند (ج٤/ص٤٣٨ – ١٩٩٤٨) وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: إسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين غير فضيل بن فضالة القيسي فقد روى له النسائي وهو ثقة، وصحح الألباني لفظ: (على عبده) في صحيح الجامع انظر حديث رقم:١٧١٢.

7 – أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (ج٤/ص٦٥٠ – ٢٤٨١)، وأحمد في المسند (ج٣/ص٤٣٩ – ١٥٦٦٩)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (ج٢/ص ٣٣٧ – ٧١٨).

8 – أخرجه أبو داود في الترجل، باب النهى عن كثير من الإرفاه (ج٤/ص١٢٥ – ٤١٦٣)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب من لا يؤبه له (ج٢/ص١٣٧٩ – ٤١١٨)، والطبراني في المعجم الكبير (ج١/ص٢٧١ – ٧٨٨) معجم إياس بن ثعلبة أبو أمامة البلوي، والبيهقي في الشعب، الشعبة الأربعون من شعب الإيمان، وهو باب في الملابس والزي والأواني، وما يكره منها، فصل فيمن اختار التواضع في اللباس (ج٥/ص١٥٥ – ٦١٧٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم:٢٨٧٩.

9 – البيت نسبه صاحب (تزيين الأسواق في أخبار العشاق) وصاحب (مصارع العشاق) (ج١/ص٨٤) لجميل بن معمر من رائيته المشهورة (ج١/ص٢٩) التي يقول فيها:

خليليّ عوجا اليوم حتى تسلما *** على عذبة الأنياب طيبة النشرِ

فإنكما إن عجتما لي ساعة *** شكرتكما حتى أُغيّب في قبري

وإنكما إن لم تعوجا فإنني *** سأصرف وجدي فأذنا اليوم بالهجرِ

10 – هو أبو نُخيلة الراجز واسمه: يعمر بن حزن بن زائدة بن لقيط بن أبزى بن ظالم بن مخاشن بن حمان، وحمان هو عبد العزى بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، وقيل له: حمان لأنه كان يحمم شفتيه، وهو شاعر راجز محسن متقدم في القصيد والرجز، والبيت من الطويل يمدح فيها مسلمة بن عبد الملك يقول فيها:

شكرتك إن الشكر حبلٌ من التقى   وما كل من أوليته نعمةً يقضي

قال: شكرتك، ولم يقل: شكرت لك، وهذا موجود على كل حال ومعروف، لكن المستعمل في القرآن هو المعدى باللام "شكرت له".

"{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ} [(١٥٣-١٥٤) سورة البقرة] **لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الصبر، والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمة فيصبر عليها."**

أيضاً هذا الذي ذكره في هذا الانقسام إما أن يكون في نعمة فيشكر، وإما في نقمة فيصبر، وهناك ما يزيد على ذلك وهو أن يكون الإنسان في نعمة فيحتاج إلى الصبر مع هذه النعمة؛ لأن الإنسان يطغى في حال الغنى **{كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى}** [(٦) سورة العلق] فيحتاج إلى نوع من الصبر يَثبت فيه على طاعة الله -عز وجل-.

ولذلك تكلم أهل العلم كثيراً في المفاضلة بين الغني الشاكر والفقير الصابر، قالوا: الفقير ليس أمامه إلا الصبر أو الجدار، بينما الغني مباهج الدنيا أمام عينه، ويستطيع أن يصل إلى ما شاء من مطلوباته التي تهواها نفسه، ولذلك كان الغنى مظنة الطغيان، فإذا صبر، وحبس نفسه عن الاسترسال مع داعية الهوى فإن ذلك يكون أعظم مما يقع للفقير من الصبر، فهذا لون من الصبر في الواقع ممزوج بالشكر، ولا يتأتى الشكر إلا بهذا الصبر أصلاً.

وكذلك أيضاً النقمة، هل يشكر على النقمة؟ سيأتي في الكلام على الأعمال القلبية -إن شاء الله- أن الشكر له محل في هذا المقام، إذ إن الإنسان في مقابل النقم مطالب بالصبر وجوباً، فإن ارتقى درجة فالرضا، فإن ارتقى درجة فالشكر لله -عز وجل-، وسيأتي بيان وجه الشكر على هذه المصيبة، ونماذج من كلام السلف، وأحوال السلف -رضي الله تعالى عنهم- في شكرهم إزاء النقم؛ لأن المتبادر أن الشكر يكون في محل النعمة أو بسبب النعمة، والصبر يكون بإزاء النقمة، ولكن فيه ما ذكرت أن هذا يأتي فيه هذا، وهذا يأتي فيه الآخر أيضاً.

أمسلمةٌ يا نَجْلَ خير خليفة *** ويا فارس الهَيْجَا ويا جبلَ الأرضِ

شكرتك إن الشكر حَبْلٌ من التقى *** وما كلُّ من أوليته نعمةً يقضي

وألقيتَ لما أن أتيتك زائراً *** عليَّ لحافاً سابغَ الطول والعرضِ

ونبهْتَ من ذكرى وما كان خاملاً *** ولكن بعض الذكر أنبَهُ من بعضِ.... إلى أخرها

وسمعه الرشيد فقال: "هكذا يكون شعر الأشراف! مدح صاحبه ولم يضع من نفسه" ينظر: (أمالي القالي (ج١/ص١٥) والتذكرة الحمدونية (ج١/ص٤٤٨) و(المحكم والمحيط الأعظم) (ج٣/ص ١٣٣) و(المؤتلف والمختلف) لابن القيسراني (ج١/ص٨٧) و(الحيوان) (ج١/ص١٣٤) و(نهاية الأرب في فنون الأدب) (ج١/ص٣٣٣) و(الجليس الصالح والأنيس الناصح) (ج١/ص٤٢) و(بهجة المجالس وأنس المجالس) (ج١/ص٦٦) و(زهر الآداب وثمر الألباب) (ج١/ص٣٩١).

"كما جاء في الحديث: ((عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له))[11] وبيّن تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة، كما تقدم في قوله: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ} [(٤٥) سورة البقرة]."

يعني استعينوا بالصبر بمعنى حبس النفس بالنسبة للمصائب عن الجزع والتسخط، وفي حال النعمة حبس النفس عن البطر، يحبس الإنسان نفسه فيحملها على طاعة الله -عز وجل- شكراً على هذا الإنعام والإفضال، فالطاعة والعبادة والعمل الصالح يحتاج إلى صبر وإلا لصار الناس في أعلى درجات العبودية، ولكن لماذا هذا التفريط في حق الله -عز وجل-؟ بسبب قلة الصبر على الطاعة، وكذلك المعصية فإن النفس قد جبلت على محبة الشهوات **{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ}** [(١٤) سورة آل عمران] فيحتاج الإنسان من أجل فطامها عن محبوباتها إلى صبر، وهذا أمر مشاهد لا يحتاج إلى تقرير، وبالتالي فالإنسان بحاجة إلى الصبر على الثلاثة.

فقوله: **{وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ}** [(٤٥) سورة البقرة] لأنهما من أعظم ما يقوي الإنسان على لزوم طاعة الله -عز وجل-، وتحمل الأكباد والآلام والأتعاب فيسهُل على السالك سلوك الطريق الشاقة التي حفت بها طريق الجنة ((حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات))[12] فهذا كله يحتاج الإنسان معه إلى استعانة بالصبر والصلاة.

فالصلاة تقوي قلبه وعزمه فيخف عليه السير إلى الله -عز وجل-، ويسهل عليه، فهذه المناجاة تؤثر فيه من ألوان صلاح القلب والحال والعمل، والإنكفاف عما لا يليق، **{إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ}** [(٤٥) سورة العنكبوت].. إلى غير ذلك من آثارها، فيستعين بها، فيحصل له راحة القلب، وإلا فإن قلبه قد يتفلت عليه، يحتاج هذا القلب إلى ضبط وترويض، فالصلاة من أعظم ما يحصل به ذلك.

ولهذا لما نُعي إلى ابن عباس أخوه، نزل من راحلته -وهو بين مكة والمدينة- فصلى وقال: **{وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ}** [(٤٥) سورة البقرة].

ونقل ذلك عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهي زوج عبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالى عنه-، لما مرض فأغمي عليه، فظنوا أنه قد مات، فخرجت إلى المسجد، وجعلت تصلي عملاً بهذه الآية: **{وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ}** [(٤٥) سورة البقرة].

"والصبر صبران، فصبر على ترك المحارم والمآثم، وصبر على فعل الطاعات والقربات، والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود، وأما الصبر الثالث وهو الصبر على المصائب والنوائب، فذلك أيضاً واجب، كالاستغفار من المعايب، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "الصبر في بابين: الصبر لله فيما أحَب، وإن ثقل على

---

11 - الحديث من زيادات عبد الله على المسند [جزء ٥- ص ٢٤- ٢٠٢٩٨] بلفظ: ((لا يقضي الله له شيئاً)) قال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: "حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل ثعلبة بن عاصم، وباقي رجال الإسناد ثقات" وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة [جزء١- ص٢٧٧-١٤٨)، وأصله في مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير [جزء٤- ص٢٢٩٥-٢٩٩٩).

12 - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها [جزء٤- ص٢١٧٤- ٢٨٢٢).

الأنفس والأبدان، والصبر لله عما كَرِه، وإن نازعت إليه الأهواء، فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يُسلم عليهم -إن شاء الله-."

يعني: يسلم عليهم الملائكة **{وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}** [(٢٣-٢٤) سورة الرعد] بما صبرتم على طاعة الله في الدنيا، وصبرتم عن معصيته، وصبرتم على أقداره المؤلمة، وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: إن الثاني أفضل، وهو الصبر على الطاعة، قال: لأنه المقصود، بمعنى أن الإنسان إنما خلق للقيام بوظائف العبودية بالعمل الصالح، وأما الترك فإنه ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو مقصود لغيره، فإذا ترك السرقة والقتل وما إلى ذلك فإن هذا ليس مقصوداً لذاته؛ لأن النفس ما خلقت للترك، فلو تُصور إنسان ما عنده شيء من الأعمال التي يقوم بها، وإنما هو الترك فقط، هو ما يفعل كذا، ولا يفعل كذا، وبعدُ ماذا يفعل؟ ماذا عن صلاته، عن صيامه، عن ذكره لله -عز وجل-؟ هذه التي خُلق الإنسان للقيام بها، هذه وظائف العبودية، هذه التي يكون فيها بناء القلب، ويكون فيها الرقي في الدرجات عند الله -عز وجل-، ولهذا كان الترك لا يؤجر الإنسان عليه إلا إذا كان بنية، كما سيأتي -إن شاء الله- في الكلام على حديث: (الأعمال بالنيات) في أول عمدة الأحكام، ولهذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: "فإن الترك ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو مقصوداً لغيره" قاله في الكلام على مسألة إنكار المنكرات.

فمن الخطأ أن تربي الناس دائماً: احذروا، هذا بدعة، هذا ما يجوز، هذا فيه كذا، هذا لا تقرب منه، لا تفعل كذا، لا تقارف كذا، وبعد هذا؟ ماذا عمل هذا الإنسان؟ أعطه عملاً إيجابياً يقوم به، يشتغل به، بقلبه ولسانه وجوارحه، ما يعرف إلا فقط التحذير، هذا ينتهي ويتلاشى، يموت قلبه، فهو بحاجة إلى عمارة هذا القلب بالعمل الصالح، فهو المقصود، ولهذا كان الصبر على الطاعة أعظم من هذه الحيثية.

"وقوله تعالى: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء} [(١٥٤) سورة البقرة] **يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون، كما جاء في صحيح مسلم: ((إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد إليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يُتركون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى، لما يرون من ثواب الشهادة، فيقول الرب -جل جلاله-: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون))**[13].

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن الإمام الشافعي عن الإمام مالك عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نسمة المؤمن

13 - أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون [جزء٣ - ص١٥٠٢ - ١٨٨٧].

طائر تَعْلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه))[14] ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً، وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً."

هنا يرد سؤالان: السؤال الأول: في وجه تخصيص بعض المؤمنين، أو أصحاب بعض الأعمال الصالحة بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون كالشهداء، مع أن الجميع في حال البرزخ إما ينعمون وإما يعذبون، وحياة الشهداء هي حياة برزخية، فالبرزخ: هو الحاجز، هو تلك المنزلة التي تكون بين الدنيا وبين الآخرة، ولا شك أن نعيم الشهداء ليس كنعيمهم حينما يدخلون الجنة بعد البعث والنشور والحساب، حيث يحاسب الناس، ثم بعد ذلك يدخل الناس الجنة، فالشهداء من جملة من يدخل الجنة آنذاك، فهذا دخول دون دخول في الحياة البرزخية، والحياة البرزخية يحصل فيها النعيم لروح الإنسان، أو العذاب لروحه، ويحصل على سبيل التبع من ذلك للبدن ما يحصل، فكما أن الغالب في هذه الحياة هو نعيم البدن، أو عذاب البدن والروح تبعاً له، فالحياة البرزخية على العكس، والحياة الآخرة يستوي فيها نعيم البدن ونعيم الروح.

فالمقصود ما وجه تخصيص بعض المؤمنين مع أن الجميع إما يعذبون وإما ينعمون؟ وهذا السؤال وارد، وقد أورده بعض أهل العلم كابن جرير الطبري -رحمه الله-، فمنهم من يجيب كابن جرير: بأن أولئك قد خصوا بالذكر تنويهاً بشأنهم، وترغيباً بعملهم، ورفعاً لمقامهم، وإلا فالجميع يُنعم أو يعذب، على اختلاف درجاتهم في النعيم.

وربما يكون أدق في الجواب أن يقال: إن هؤلاء أحياء حياة تختلف عن حياة غيرهم في البرزخ، وإن كانت كلها حياة برزخية، فهم في أجواف طير خضر، تسرح في الجنة، كما أخبر الله -تبارك وتعالى-، فهم أحياء **{وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}** [(١٦٩) سورة آل عمران] فلما كان الذي يقال عادة لمن قُتل: إنه قد مات وقضى نحبه، أخبر الله -عز وجل- أن هؤلاء أحياء، وإن كانت ماتت أجسادهم، ولهذا عوضهم الله -عز وجل- بهذا، فجعل أرواحهم في جوف طير خضر بعد ما تخرقت أجسادهم حينما قتلوا في سبيل الله -عز وجل-، والحديث على ظاهره أن: ((أرواحهم في جوف طير خضر)) فصارت كالمراكب للأرواح، أو كأن الله عوضهم عن أجسادهم بهذه.

بينما الفرق بينه وبين الحديث الآخر -وهذا هو السؤال الثاني-: ما الفرق إذاً بين الأمرين؟ بين الشهيد وبين عموم المؤمنين؟ فهنا الحديث ثابت صحيح ((نسمة المؤمن)) يعني روح المؤمن ((طائر تَعْلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه)) ((أرواح الشهداء في جوف طير خضر)) وبالتالي لا يصح أن يقال كما قال بعضهم: إن المقصود: على هيئة طير خضر،أي أن الأرواح تصور بهيئة طير خضر؛ لأن الحديث صريح وواضح أنها في جوف طير خضر، تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، وتسرح في الجنة، أي تطير في

---

14 - أخرجه مالك في الموطأ رواية يحيى الليثي [جزء١ - ص٢٤٠ - ٥٦٨) والنسائي في كتاب الجنائز باب أرواح المؤمنين [جزء٤ - ص ١٠٨- ٢٠٧٣) وابن ماجه في كتاب الزهد باب ذكر القبر والبلى [جزء٢ - ص ١٤٢٨- ٤٢٧١) وأحمد في المسند [جزء٣- ص ٤٥٥ - ١٥٨١٥) وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب لم يسمع هذا الحديث من جده كعب بن مالك، وأخرجه أيضاً ابن حبان في كتاب السير باب فضل الشهادة [جزء ١٠- ص ٥١٣ - ٤٦٥٧)، والطبراني في المعجم الكبير [جزء١٩- ص٦٣- ١١٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: حديث رقم:٢٣٧٣.

الجنة، بينما أرواح المؤمنين كما قال: ((نسمة المؤمن طائر)) فهي ليست في حواصل طيـر، وإنمـا تكـون طائراً يطير في الجنة، ولاحظ الفرق بينهما تلك -أرواح الشهداء- تسرح في الجنة حيث شاءت، وتأوي إلـى قناديل معلقة في العرش، تلك الطير التي فيها أرواح الشهداء، بينما أرواح المؤمنين تكون طائراً يَعْلق بـشجر الجنة، أيهما أكمل؟ الشهيد أكمل، تسرح في الجنة حيث شاءت، وتأوي إلى قناديل معلقة فـي العـرش، هـذه تعلق -تأتي بضم اللام وفتحها- تَعْلُق وتَعْلَق بشجر الجنة، وهذا اللفظ (تَعْلُق) يُشعر بمعنى، وهذا المعنى هـو ما يحصل به قدر الكفاية من الأكل أو القوت، أو نحو ذلك، ويعرف هذا من استقراء النصوص التـي وردت فيها هذه العبارة: ((تعلُق في شجر الجنة)).

وعلى كل حال مسألة الكلام في الأرواح فيها كلام طويل، والأقـوال والخـلاف فيهـا كثيـر، والله يقـول: **{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً}** [(٨٥) سورة الإسراء] ولكن الذي ينبغي أن يتفطن له الإنسان، ويحتاج إلى معرفته هو وجه الجمع بين النصوص، لو قـال قائـل: مـا مزيـة الشهداء إذاً؟ نقول: إنها تطير في الجنة حيث شاءت، وهي في أجواف طير خضر، وتأوي إلى قناديل معلقـة في العرش، فما يحصل لهم من النعيم أكمل وأعظم مما يحصل لغيرهم.

والكلام على الروح -كما قلت- قضية غيبية، ولذلك لها اتصال بالأجساد، وجاء في الأحاديـث أن المـؤمن تفتح له نافذة في قبره، يرى منها مكانه في الجنة، ويأتيه من روْحها ونعيمها، والكافر يفتح له أيـضاً كـذلك، إلى قيام الساعة، ولهذا يقول المؤمن: رب أقم الساعة، والكافر يقول: رب لا تقم الساعة، فهذا يأتيـه العـذاب في القبر، وهذا يأتيه من الرَوْح ويوسع له في القبر.. إلى آخره.

فهذا يدل على أن الأرواح تعذب وتنعم في القبور، وهذه النصوص التي عندنا والتي ذكرها الحافظ ابن كثيـر -رحمه الله- تدل على أن النعيم يحصل في الجنة، وجاء في بعض النصوص وبعض الآثار عن السلف مـا يشعر بغير ذلك، فعلى كل حال يقال -والله تعالى أعلم-: إن الأرواح لها شأن أخر، ولها حركـة وانتقـال لا تقاس بحركة وانتقال الإنسان في هذه الحياة الدنيا، بل حتى في الرؤى تجد الإنسان نائماً، والله -عز وجـل- أخبر أنه يتوفى الأنفس حين موتها، فالأرواح تصعد ولكنه صعود دون صعود، يبقى تعلقها بالبـدن، ويبقـى الإنسان حياً، لا يقال: مات، فهي وفاة صغرى، لكن هذه الروح تحلق وربما التقت ببعض الأرواح من الموتى أو الأحياء، وربما رأى الإنسان نفسه في مقامات رفيعة في الملأ الأعلى، ورأى نفسه ربما في أماكن بعيـدة من الأرض، فالأرواح لها تنقلات، ولها أحوال.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- رأى الأنبياء كل واحد منهم في مقامه في الملأ الأعلى، مع أنهم ينعمون فـي الجنة، يعني حال الأنبياء أكمل من حال الشهداء وعموم المؤمنين، فإذا كان هذا يحـصل للـشهداء فالأنبيـاء أعظم، ورآهم النبي -صلى الله عليه وسلم- في السماوات، وأخبر أنه رآهم في الجنة، ورأى موسى -صـلى الله عليه وسلم- وهو يصلي في قبره، وصلى -صلى الله عليه وسلم- بالأنبياء في بيت المقـدس وهـم فـي الملأ، وقد رآهم في الملأ الأعلى.

فالأرواح لا تقاس على هذا العالم المادي، فلها من التنقل والحركة ما لا ندركه، وتصل إليه عقولنا، وبالتـالي نقول: أرواح المؤمنين تنعم وتعذب في القبر، وتنعم أيضاً في الجنة، وتتنعم أيضاً ربما في غير ذلـك، بعـض

السلف يقول: على أفنية القبور أرواح المؤمنين، ولكن تنعمها في الجنة لا يكون من قبيل دخول الجنة الـذي هو دخولها حينما يستفتحونها، فيدخلون منازلهم، ولكنها تطير في شجر، تَعْلَق في شجر الجنة، وما إلى ذلـك، أما دخول المنازل فإن ذلك يكون بالدخول الأكبر، وهو ما يكون في الآخرة، نسأل الله -عز وجل- أن يجعلنا وإياكم منهم، فهذا دخول دون دخول.

وكذلك النار فالله -عز وجل- أخبرنا: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [(٤٦) سورة غـافر] لكن قال: {أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا} [(٢٥) سورة نوح] فهم يعذبون في قبورهم، والنبي -صلى الله عليـه وسـلم- رأى أناساً في النار، رأى عمرو بن لحي الخزاعي في النار، ورأى رجالاً يعرفهم، فهذا دخول دون دخـول، فهم يعذبون في قبورهم، وأرواحهم أيضاً لها تنقلات، وتعذب أيضاً في النار، ولكن هذا دخـول دون دخـول، فالدخول الأكبر حينما يؤتى بجهنم، {وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ} [(٢٣) سورة الفجر] ويرونها فيدعون بالويل والثبور، ويعطون كتابهم بشمالهم.. إلى آخره، ثم بعد ذلك يكبكبون فيها، وهم مقيدون بالسلاسل والأغلال، فهـذا هـو الدخول الأكبر -أعاذنا الله وإياكم ووالدينا وإخواننا المسلمين منها-.

فهذا كلام مختصر في مسألة الأرواح بحيث يُدرك الجمع بين هذه الأحاديث، وأنه لا تخالف بينها.

وابن القيم -رحمه الله- يرى أن ذلك بحسب حال كل إنسان، فكما أنه في العموم تَعْلَق في شجر الجنة، لكـن منهم من تحبس روحه، كذلك الشهيد، الأصل أنه في جوف طير خضر لكن النبي -صلى الله عليه وسـلم- أخبر عن ذاك الذي غل الشملة حينما ذكر الصحابة بلاءه، وقالوا: هنيئاً له الشهادة، قال: ((إن الـشملة التـي أصابها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارا))[١٥] فدل على أنه حبس، لم يكن في جـوف طير خضر، وإنما هو في قبره يعذب بتلك الشملة، فابن القيم -رحمه الله- يقول: تختلف أحوال الناس فقـد لا يكون في جوف طير خضر وهو شهيد، فيحبس بسبب عمل عمله، وكذلك أهل الجنة قد تكون روحـه علـى فناء قبره، أو في قبره، أو نحو ذلك، تنعم مثلاً، وقد تكون تطير، وما ذكرته سابقاً لا يعارض هذا علـى كـل حال، والله أعلم.

هذا الحد يكفي في الكلام على هذه المسألة، والاسترسال في هذا والزيادة عليه أمر لا حاجة إليه؛ لأن هذا من الغيوب...

---

15 - أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة خيبر [جزء٤- ص١٥٤٧ - ٣٩٩٣]، وفي كتاب الأيمان والنذور، باب هل يدخل فـي الأيمـان والنذور الأرض والغنم والزروع والأمتعة [جزء٦- ص٢٤٦٦ - ٦٣٢٩].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير سورة البقرة (٦٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [(١٥٥-١٥٧) سورة البقرة]:

"أخبرنا تعالى أنه يبتلي عباده أي يختبرهم ويمتحنهم، كما قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [(٣١) سورة محمد] فتارة بالسراء، وتارة بالضراء من خوف وجوع، كما قال تعالى: {فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ} [(١١٢) سورة النحل] فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه، ولهذا قال: {لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ} [(١١٢) سورة النحل] وقال هاهنا: {بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ} [(١٥٥) سورة البقرة] أي: بقليل من ذلك."

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد أكد الله -عز وجل- هذا الوعد باللام والنون الثقيلة فقال: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ} [(١٥٥) سورة البقرة].

وفي قوله: {حَتَّى نَعْلَمَ} [(٣١) سورة محمد] المقصود بالعلم هنا -كما سبق- العلم الذي يترتب عليه الجزاء، ويكون ذلك بصيرورة هذا الأمر وتحوله من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، حتى نعلم ذلك حاصلاً وواقعاً.

فالحاصل أن ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- هنا تعليق على قوله: {لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ} [(١١٢) سورة النحل] لماذا عبّر هناك بلباس الجوع والخوف، وفي هذه الآية قال: {بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ} [(١٥٥) سورة البقرة] لماذا فرق بينهما؟ هذا الذي ذكره ابن كثير هنا هو ما يسمى بلطائف التفسير، فقال: {فَأَذَاقَهَا اللّهُ} [(١١٢) سورة النحل] أي: تلك الطائفة أو القرية الكافرة عذبها الله -عز وجل-، أنزل بها بأسه، فأذاقها لباس الجوع والخوف، فصار ذلك ظاهراً عليهم، كاللباس الذي يظهر على لابسه.

وهنا يقول لأهل الإيمان: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ} [(١٥٥) سورة البقرة] فهو شيء يسير لا يكون بتلك المثابة التي هي من قبيل العذاب، مثل: أذاقها لباس الجوع والخوف، هذا ما ذكره في وجه التفريق بين العبارتين.

فإذا قيل: لطائف التفسير فهذا مثال منها، وليس ذلك بقاطع في كثير من هذه المواضع التي يذكرون فيها تلك اللطائف، ولكنها معانٍ جميلة، إلا أنه لا يقطع بها في كثير من الأحيان، ولهذا أنكر الشاطبي -رحمه الله- الاشتغال بها، والتعرض لها في التفسير؛ لأنه يرى أن ذلك يخرج بالمفسر عن المعنى المقصود الذي سيقت من أجله الآية، فيُشتغل بهذه الدقائق عن غيرها من المهم، إضافة إلى قضية التكلف والقول على الله -عز وجل- بغير علم، لكن التوسط في هذا -والله أعلم- هو الأحسن، التوسط بين من أغرق في هذه الأشياء وأتى بأمور متكلفة، وأضاع المعنى الذي من أجله سيقت الآية؛ لأنك تقرأ في بعض كتب التفسير فتجد أحياناً أن

المعنى الأصلي ذهب، وشُغل القارئ بدقائق قد تكون متكلفة في كثير من الأحيان، فالتوسط أن يذكر المعنى الأصلي الذي ذُكرت من أجله الآية ويبيّن، ويذكر من هذه الملح واللطائف بغير تكلف.

ولو جُمعت هذه اللطائف كان حسناً، فإذا مر بك شيء من هذا تدونه، أحياناً هذه تجدونها في كتب التفسير، لا سيما التي تعنى بالجوانب البلاغية، مثل تفسير ابن عاشور وأشباهه، وتجد من هذا أيضاً في مثل تفسير الرازي، ومن نقل عنه كابن عادل الحنبلي في كتابه: اللباب، وتجدها أيضاً كثيراً في كلام ابن القيم -رحمه الله-، وتجدها أيضاً في كتب خاصة فيما يعرف بالمتشابه اللفظي وتوجيه ذلك ككتاب الإسكافي: درة التنزيل وغرة التأويل، والبرهان في متشابه القرآن لزكريا الأنصاري، وملاك التأويل للغرناطي، وأمثال هذه الكتب، وتجد أيضاً مثل هذه الأشياء في كتب مفرقة، أحياناً قد تجدها في تراجم بعض العلماء، يقول: وكانت له استنباطات فيذكر بعض الدقائق والاستنباطات العجيبة واللطائف.

"وقال هاهنا: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ} [(١٥٥) سورة البقرة] **أي: بقليل من ذلك، {وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ}** [(١٥٥) سورة البقرة] **أي: ذهاب بعضها، {وَالأنفُسِ}** [(١٥٥) سورة البقرة] **كموت الأصحاب والأقارب والأحباب، {وَالثَّمَرَاتِ}** [(١٥٥) سورة البقرة] **أي لا تغل الحدائق والمزارع كعادتها، ولهذا قال تعالى: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}** [(١٥٥) سورة البقرة] **ثم بيّن تعالى من الصابرون الذين شكرهم، فقال: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ}** [(١٥٦) سورة البقرة] **أي: تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم، وعلموا أنهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة، ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال: {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ}** [(١٥٧) سورة البقرة] **أي: ثناء من الله عليهم ورحمة، قال سعيد بن جبير: أي أمنة من العذاب."**

تفسير الصلاة من الله -عز وجل- هنا بالثناء عليهم أحسن؛ لأن من أهل العلم من يفسره بالرحمة فيكون ذلك من قبيل التكرار، يعني كأنه قال: "أولئك عليهم رحمة من ربهم ورحمة" والأحسن هو ما ذكره ابن كثير وهو اختيار الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: أن الصلوات جمع صلاة، وهي ذكره في الملأ الأعلى، وذلك يقتضي ويستلزم الرحمة، ولذلك من فسره بالرحمة يمكن أن يكون من قبيل التفسير باللازم؛ لأن من ذَكَره الله -عز وجل- في الملأ الأعلى فهو من أهل رحمته، وليس من أهل سخطه وعذابه، ولذلك هؤلاء العلماء ما جاءوا بهذا من فراغ بل يحمل ذلك على أنه من قبيل التفسير باللازم، فإذا قال الإنسان: "اللهم صلِ على محمد" كثير من أهل العلم يقولون: المقصود به الدعاء له بالرحمة، فهذا بمعنى ذكره في الملأ الأعلى، وهو مقتضٍ ومستلزم للرحمة، وأما صلاة الملائكة فهي استغفار، **{وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا}** [(٧) سورة غافر] **{وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ}** [(٥) سورة الشورى] والصلاة من المؤمنين الدعاء.

"{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [(١٥٧) سورة البقرة] **قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-: نعم العدلان ونعمت العلاوة."**

العدلان: عدلا البعير ما يوضع على ظهره يسمى عدلاً، عدل من الجهة اليمنى، والعدل الآخر في الحمل من الجهة الأخرى، هذا هو العدل، ولذلك تجدونهم يضعون على الدابة -مثل الحمار- ما يسمى بالخرج، وهو

معروف، فيه جيب من هاهنا، وجيب من هاهنا، يضعون فيه المتاع، فالمتاع لا يثبت من جهة واحدة، فيضعون ذلك هكذا على ظهره ليعتدل ويثبت، والعلاوة: هي ما يوضع فوق ظهره بينهما، يحمل فوق الظهر فيكون هذا عن يمينه وهذا عن شماله.

"{أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ} [(١٥٧) سورة البقرة] فهذان العدلان، {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [(١٥٧) سورة البقرة] فهذه العلاوة: وهي ما توضع بين العدلين، وهي زيادة في الحمل، فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً."

زيادة في الحمل وهو ما يُحمل على البعير مثلاً، أو الدابة عموماً، فهذا من هذه الجهة وهذا من هذه الجهة وهذا زيادة، فذكر ما لهم بقوله: **{أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ}** [(١٥٧) سورة البقرة] فهذان العدلان، ثم قال: **{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}** [(١٥٧) سورة البقرة] هي العلاوة فوق ذلك، وحصلوا كل ذلك بصبرهم وقولهم: **{إِنَّا لِلّهِ}** [(١٥٦) سورة البقرة].

وهذه الأشياء التي أعطانا الله -عز وجل- إياها من الأموال والأنفس والثمرات إنما هي عارية، يأخذها متى شاء، فإذا وقع لهم شيء من سلب ذلك **{قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ}** [(١٥٦) سورة البقرة] فكل ما بأيدينا إنما هو من الله -عز وجل-، وكله صائر إليه، ونحن أيضاً صائرون إليه -تبارك وتعالى-، فكان ذلك تسلية لنفوسهم.

وقوله: **{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}** [(١٥٧) سورة البقرة] اهتدوا إلى الموقف الحق الصواب، والقول الحق الصواب في مثل هذه المقامات، فلم يحصل منهم جزع، ولا تسخط، ولا خروج إلى ما لا يليق مما يفعله من لم يعرف الله -عز وجل- كما ينبغي.

"وقد ورد في ثواب الاسترجاع وهو قول: "إنا لله وإنا إليه راجعون" عند المصائب أحاديث كثيرة، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- قالت: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: لقد سمعت من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قولاً سررت به، قال: ((لا يُصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته، ثم يقول: اللهم أْجُرني في مصيبتي، وأَخْلِف لي خيراً منها إلا فُعل ذلك به)) قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت: "اللهم أْجُرني في مصيبتي، وأَخْلِف لي خيراً منها" ثم رجعت إلى نفسي فقلت: "من أين لي خير من أبي سلمة؟" فلما انقضت عدتي استأذن عليّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأنا أدبغ إهاباً لي فغسلت يدي من القرض وأذنت له، فوضعت له وسادة أدم، حشوها ليف، فقعد عليها فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله ما بي ألا يكون بك الرغبة، لكنني امرأة فيّ غيرة شديدة..."

تقول: توقفي وترددي لا أنني لا أرغب فيك، وإنما هي من شدة الغيرة، أما موضوع الرغبة فهذا لا إشكال ولا جدال فيه.

"فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن، وأنا ذات عيال، فقال: ((أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله -عز وجل- عنكِ، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالكِ عيالي)) قالت: فقد سلمت لرسول الله -صلى الله عليه

وسلم-، فتزوجها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقالت أم سلمة بعدُ: أبدلني بأبي سلمة خيراً منه، رسول الله -صلى الله عليه وسلم-[1]، ونحوه في صحيح مسلم مختصرا[2].

{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ من شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} [(١٥٨) سورة البقرة] **روى الإمام أحمد عن عروة عن عائشة -رضي الله تعالى عنها وأرضاها- قالت: قلت أرأيتِ قول الله -عز وجل-..."**

قبل هذا هناك بعض الأشياء التي لم يتطرق لها، وهي في قوله: **{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ من شَعَآئِرِ اللّهِ}** [(١٥٨) سورة البقرة] فالصفا يطلق في كلام العرب على الصخر الأملس، أو الحجر الأملس، والمقصود به -معروف- جبل الصفا الذي يسعى الناس بينه وبين المروة.

وأما المروة فبعضهم يقول: هي الحجارة الصغار اللينة، وبعضهم يعكس فيقول: الصلبة، وبعضهم يقول: البيضاء البراقة، وبعضهم يعكس فيقول: السوداء، وبعضهم يقول: يُطلق على الحجارة اللينة والحجارة الصلبة، كل ذلك يقال له: مروة.

فالحاصل أن الحجر الأملس يقال له: صفا، والحجارة التي قد تكون صغيرة لينة أو صلبة يقال لها: مروة، وبعضهم يذكر في لونها البياض، وبعضهم يذكر السواد.

قوله: **{مِن شَعَآئِرِ اللّهِ}** [(١٥٨) سورة البقرة] الشعائر: جمع شعيرة، والشعيرة: هي العلامة، أي من أعلام دينه في المناسك، فالصفا من شعائر الله، والمروة من شعائر الله، والطواف بالبيت من شعائر الله، ورمي الجمار من شعائر الله، وذبح الهدي من شعائر الله، بل الهدي نفسه من أعظم شعائر الله، ولهذا قال الله -عز وجل-: **{لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ}** [(٢) سورة المائدة] فهذا من باب عطف الخاص على العام، فهذا كله من شعائر الله، والدين كله يمكن أن يقال: إنه منقسم إلى شعائر وأمانات، ولا مُشَاحَّة في الاصطلاح، فيكون بهذا الاعتبار وبهذا التقسيم: الشعائر هي الأمور الظاهرة، مثل: الأذان وصلاة الجماعة.. وما أشبه ذلك، والأمانات هي الأمور التي لا تظهر كالطهارة والصيام والصدق مع الله -عز وجل-، والإخلاص له.. وما أشبه ذلك مما لا يطلع عليه الناس، فلو صلى الإنسان وهو غير متوضئ لا يدري عنه أحد، والصوم كذلك، ولهذا قالوا: إن من خصائص الصوم أنه لا يدخله الرياء، بخلاف غيره من الأعمال، بينما يدخله السمعة، يتكلم عن نفسه أنه صائم، فهذا من العبادات التي أشعرها الله -عز وجل- لعباده.

"روى الإمام أحمد عن عروة عن عائشة قالت: قلت..."

طالب: قلت هذه -رعاك الله- لها مكان؟!

عن عروة عن عائشة قالت: قلت: أرأيت قول الله تعالى: **{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ}** [(١٥٨) سورة البقرة] إي نعم ماذا عندكم؟

1 - في المسند (ج٤/ص٢٧- ١٦٣٨٨) وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: رجاله ثقات إلا أن المطلب وهو ابن عبد الله بن حنطب روايته عن الصحابة مرسلة، وهو عند مسلم بغير هذه السياقة".

2 - في الجنائز باب ما يقال عند المصيبة (ج٣/ص٣٧ - ٢١٦٥).

تراجعها؟

طالب:.........

جزاك الله خيراً.

طالب:.........

بالضبط، قالت حينما قلت لها هو هذا، لكن نشوف أصل الرواية هل هي هكذا؟

طالب:..........

ما فيه قالت: قلت؟ اقرأ.

طالب:..........

ابن كثير معك؟

طالب:.........

الأصل؟

طالب:..........

أي طبعة؟

طالب:.........

على كل حال تراجع، إن كانت هكذا الرواية فلا إشكال أنها صحيحة، لكن لو كانت عن عائشة قالت هو يحكي الرواية عنها، ثم يقول: قلتُ، يعني هي قالت ذلك بناءً على سؤاله إياها.

"**روى الإمام أحمد عن عروة عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: قلتُ:** أرأيت **قول الله تعالى:** **{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ من شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا}** [(١٥٨) سورة البقرة] **قلت: فوالله ما على أحد جناح ألا يطوّف بهما...**"

طبعاً عروة فهم هذا من رفع الجناح في الشرع، **{فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا}** [(١٥٨) سورة البقرة]، فإذا رفع الجناح في القرآن **{فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ}** [(٢٣٣) سورة البقرة] معناه رفع الحرج، والجناح: هو الحرج الذي هو الإثم، فإذا قيل: "فلا جناح عليه أن يطوّف بهما" معناه أن السعي غير واجب، وهذا ما فهمه عروة، وفهْمه هذا هل هو بعيد ولا وجه له إطلاقاً أو أنه له وجه؟ له وجه؛ لأن "لا جناح عليه" أي: لا إثم عليه أن يطوّف بهما أو لا يطوف، كأنه فهم هذا.

فقوله: **{أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا}** [(١٥٨) سورة البقرة] مفهوم المخالفة أنه إن لم يطوّف بهما لا جناح عليه، فمجرد رفع الإثم عنه بالطواف على فهم عروة لا يعني وجوب ذلك، يعني أن السعي بين الصفا والمروة لا حرج فيه، هذا الظاهر المتبادر لعروة، وهذا الفهم لم يفهمه عروة وحده، بل قال به أئمة، ومن ثم اختلفوا في السعي بين الصفا والمروة هل هو ركن أو واجب أو مستحب؟ وهذا وقت المتساهلين في الفتوى، الذين يبحثون عن مثل هذه الأشياء.

فممن قال: إن السعي بين الصفا والمروة سنة جماعة من الصحابة منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير، وهما إماما العصر في وقتهما، وقال به من السلف سفيان الثوري، ونقل عن بعض الأئمة مثل أبي حنيفة، وعنه رواية أخرى.

وهو ما فهمه هنا عروة، وهو من التابعين، وذكر فهْمه، وردّت عليه عائشة -رضي الله عنها-.

فالذي يبحث عن الرخص والفتاوى السهلة يجد، فتجد بعضهم يقول: يا جماعة الحج زحمة خففوا على الناس، فالسعي بين الصفا والمروة سنة، وهو قول ليس بمهجور، من لم يسعَ -الحمد لله- ما عليه حرج، وهذا هو ظاهر الآية، وإن ردّت عائشة فهذا فهمها واجتهادها، وخالفها بعض الصحابة، والصحابة إذا اختلفوا نرجح بين أقوالهم بالمرجحات، وابن جرير دائماً يعلمنا أنه لا يجوز العدول عن ظاهر القرآن المتبادر إلى معنىً خفي إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

والمبيت بمنى أيضاً شيخ الإسلام قال: إنه لا يجب، والمبيت في مزدلفة أيضاً قال فيه جمع من الأئمة: إنه سنة ولا يجب، منهم عطاء بن أبي رباح، وهو أعلم الناس بالمناسك، فخلصنا من المبيت في مزدلفة ومنى، وأنتم ضيقتم على أنفسكم وأنتم في الشوارع! فما عليكم سعي، ولا طواف الإفاضة، وربما قالوا: ما عليكم وقوف بعرفة، ارتاحوا وحجوا من بيوتكم كما جاء: ((عليهن جهاد لا قتال فيه الحج والعمرة))[٣].

فإذا روض الإنسان نفسه على أن يتتبع الرخص بناءً على قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا حرج))[٤] وفهم هذا الفهم، وانطلق من هذه القاعدة: "لا حرج" وبدأ يفتي الناس بكل شيء فهذه مشكلة كبيرة، ونحن نقول هذا الكلام لأننا نسمع أشياء عجيبة وغريبة تصدر من بعض طلاب العلم في الحج يفتون فيها الناس.

"فقالت عائشة -رضي الله عنها-: بئس ما قلت يا ابن أختي، إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت: "فلا جناح عليه ألا يطوف بهما" ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يُهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المُشلَّل..."

العرب في الجاهلية كان عندهم أشياء تقترن بالمناسك، منها ما يكون قبل حجهم، ومنها ما يكون بعده، بحسب اختلاف قبائلهم، فإذا قرأتم في: (المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام) تجدون أشياء غريبة من هذا، فمنهم من يرى لزوماً أن يذهب إلى تلك المناسك قبل أن يذهب إلى بيت الله الحرام، فمن شعائر الحج عنده أنه لا يجوز له أن يسعى بين الصفا والمروة حتى يذهب إليها، مثل من ساق الهدي مثلاً فإنه لا يتحلل من إحرامه حتى ينحر الهدي، فعندهم أن من أتى مناة لا يسعى بين الصفا والمروة، هذا على قول عائشة -رضي الله عنها-، فتحرجوا، وجاء في روايات أخرى: أن هذا التحرج سببه أنه كان هناك أصنام يعظمونها إساف ونائلة، ويزعمون أنهما رجل وامرأة زنيا فمسخا إلى حجر، فكانوا يعظمونهما ويتمسحون بهما إلى آخره، فلما أسلموا ظنوا أن السعي بين الصفا والمروة أمرٌ يتصل بعمل أهل الجاهلية وشركهم، فتحرج أهل الإيمان

---

3 - أخرجه ابن ماجه في كتاب المناسك، باب الحج جهاد النساء (ج٢/ص٩٦٨-٢٩٠١) وأحمد في المسند (ج٦/ص١٦٥- ٢٥٣٦١)، وصححه الألباني في الإرواء (٩٨١)، والمشكاة (٢٥٣٤)، والروض النضير (١٠١٨).

4 - أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب الذبح قبل الحلق (ج ٢/ص٦١٥ - ١٦٣٤) وفي باب إذا رمى بعدما أمسى أو حلق قبل أن يذبح ناسياً أو جاهلاً (ج٢/ص٦١٨ - ١٦٤٧) وفي كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسياً في الأيمان (ج٦/ص٢٤٥٤ - ٦٢٨٩) ومسلم في الحج، باب من حلق قبل النحر أو نحر قبل الرمي (ج ٤/ص٨٤ - ٣٢٢٤).

منه، فبيّن الله أنه ليس كذلك، بل هو من شعائر دينه، وإن أحدث فيه المشركون ما أحدثوا، فلا حرج عليكم بهذا السعي، وبذلك يكون هذا الكلام ليس ابتدائياً إنما هو لإزالة ما قد يتوهمونه، وبالتالي يفهم على وجهه، يعني: هناك فرق بين أن تبتدئ كلاماً وتقول: لا حرج على من فعل كذا، وبين أن يكون الكلام جاء ليصحح فهماً، أو ليجيب على سؤال، أو نحو ذلك، وهذا ينحل به إشكالات في أمور كثيرة، وسيأتي -إن شاء الله- في الكلام على قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنما الأعمال بالنيات))[5] القصر هذا هل هو على ظاهره وإلا فهناك أعمال أخرى ما تحتاج إلى نية ويؤجر الإنسان عليها؟ بناءً على هذا التفريق، فالكلام الابتدائي الذي قاله الشارع ليقرر به أصلاً أو معنى أو حكماً، فرق بينه وبين الكلام الذي يكون تصحيحاً لمفهوم، أو جواباً على السؤال، أو نحو ذلك، فهذا إذا فهمته بهذا الاعتبار فإنه يُتكلم في كل مقام بما يناسبه، مثل قول الله -عز وجل- مثلاً: **{قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ}** [(١٤٥) سورة الأنعام] مع أن هناك محرمات أخرى، لكن هذا رد على المشركين حينما قالوا بتحريم أشياء من عند أنفسهم.

ولهذا يقول الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: **{فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ}** [(٢٠) سورة آل عمران] مع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- عليه البلاغ وعليه أيضاً أمور أخرى، هو مبشر ومعلم -صلى الله عليه وسلم- للناس، ويبيّن الأحكام، وهو قدوة، وهو عبد من خيار عباد الله -عز وجل-، فقصره على هذا في مقابل كلام المشركين ومطالبتهم في أن يحول لهم الصفا ذهباً، فرد عليهم قائلاً: **{إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ}** [(٧) سورة الرعد] فليس لقائل أن يقول: لا، هناك مهام أخرى غير الإنذار، فليس هذا كلاماً ابتدائياً جاء ليقرر به صفة النبي -صلى الله عليه وسلم- ابتداءً، وإنما هو في مقابل موقف يرد عليه، ومطالبةٍ من المشركين، ودعاوى وتكلفات.

"وكان من أهلّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقالوا: يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية، فأنزل الله -عز وجل-: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا} [(١٥٨) سورة البقرة] **قالت عائشة -رضي الله تعالى عنها-: ثم قد سن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما[٦]، أخرجاه في الصحيحين[٧]."**

على كل حال سبق في الكلام على أصول التفسير في (مقدمة شيخ الإسلام) في فوائد معرفة أسباب النزول أن ذلك يفيد في فهم المعنى، وقلنا: إن ذلك على درجات، فأحياناً يتوقف المعنى عليه، ولا يفهم إلا به، وأحياناً ينحل به الإشكال، وأحياناً يكون مُعيناً على الفهم يتضح به المراد، وأحياناً هو من باب الفضلة والزيادة فتفهم

---

5 - أخرجه البخاري في بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- [جزء ١- ص٣ - ١] وفي كتاب الأيمان والنذور باب النية في الأيمان [جزء ٦- ص٢٤٦١- ٦٣١١] وفي كتاب الحيل باب في ترك الحيل وأن لكل امرئ ما نوى في الأيمان وغيرها [جزء ٦ - ص٢٥٥١ - ٦٥٥٣] وهو في مسلم بلفظ الإفراد: ((إنما الأعمال بالنية)) في كتاب الإمارة باب قوله -صلى الله عليه وسلم-: (إنما الأعمال بالنية) وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال [جزء ٣ - ص ١٥١٥ - ١٩٠٧].

6 - في المسند (ج٦/ص١٤٤- ٢٥١٥٥) قال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: "إسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين غير أن سليمان بن داود الهاشمي أخرج له أصحاب السنن والبخاري".

7 - البخاري في كتاب الحج، باب وجوب الصفا والمروة وجُعِلَ من شعائر الله (ج٢/ص٥٩٢ - ١٥٦١) ومسلم في الحج، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به (ج٤/ص٦٩- ٣١٤٠).

الآية من غير معرفة سبب النزول، فهو على مراتب، وهذا التفصيل لعله من أحسن ما يقال، وتجد من أهل العلم من يقول بهذا، فهذا في طرف وهذا في طرف، بهذا التفصيل.

على كل حال هذا مما قد يتوقف عليه فهم المعنى، وإلا فلو بقي الناس مع ظاهر الآية ربما فهموا أنه لا يجب عليهم السعي، وعروة بن الزبير ليس أعجمياً، بل هو عربي قح، ورجل من أهل النبوغ والعلم والفقه، ففهم هذا الفهم، فأحياناً يتوقف المعنى عليه، فهذا مثال على سبب النزول الذي يتوقف عليه المعنى، وإن أردت أن تنزل درجة فقل: ينحل به الإشكال...

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير سورة البقرة (٦٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

"وفي رواية عن الزهري أنه قال: فحدثت بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فقال: إن هذا العلم ما كنتُ سمعته، ولقد سمعتُ رجالاً من أهل العلم يقولون: إن الناس -إلا من ذكرتْ عائشةُ -رضي الله تعالى عنها- كانوا يقولون: إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية..."

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلا زال المفسر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يتحدث عن قوله تعالى: **{فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا}** [(١٥٨) سورة البقرة] فذكر قول عائشة -رضي الله تعالى عنها- لعروة بن الزبير -رحمه الله-، وذلك أن الأنصار حين كانوا يهلون لمناة بالمُشلَّل، فكان مَن أهلّ هذا الإهلال لهذه الطاغية مناة يتحرج من السعي بين الصفا والمروة، فأخبرهم الله -عز وجل- أن هذا الحرج منتفٍ عنهم، وأنها من شعائر الله -عز وجل-، ثم أورد هذه الرواية الأخرى، فقال أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: إن هذا العلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يقولون: إن الناس -إلا من ذكرتْ عائشةُ- يعني الأنصار، يعني أن تحرجهم كان من وجه آخر وهو أنهم كانوا يعتقدون أن الصفا والمروة من شعائر الجاهلية ومن أعمال الجاهلية، وأن السعي بينهما ليس من شعائر الله ولا من دينه الذي ارتضاه.

وكذا قول من قال أو توهم أن السعي بين الصفا والمروة لم يأمر الله -عز وجل- به، وإنما قال: **{وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}** [(٢٩) سورة الحج] فالذي جاء الأمر صريحاً به هو الطواف بالبيت، وليس السعي بين الصفا والمروة، فالمقصود أن هذا وغيره مما يُذكر، كل ذلك لا إشكال فيه، فيمكن أن يكون بعضهم قد تحرج بسبب توهمه أن ذلك من عمل الجاهلية، أو لمِا كان يعتقده من عدم حل ذلك لمِا كان يفعله بعض العرب كالأنصار من التحرج من السعي بينهما؛ لأنهم كانوا يهلون لمناة بهذا المكان الذي هو المُشلَّل، والمُشلَّل: محل بين مكة والمدينة، قريب من رابغ أو قديد، وهو المكان الذي كانت إلى ناحيته غزوة المصطلق، فالمقصود أن السبب يمكن أن يكون هذا وهذا وهذا، ويمكن أن تجتمع هذه الأشياء جميعاً، فأخبرهم الله -عز وجل- أن ذلك من شعائر الله، وأن هذا التحرج لا محل له، وأن هذا السعي بين الصفا والمروة لا علاقة له بأمر الجاهلية. ويؤخذ وجوب السعي بينهما من أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك وفعله، فقد كان يسعى -صلى الله عليه وسلم- والناس يسعون بين يديه، ويأمرهم بالسعي، وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: ((خذوا عني

مناسككم))[1] فلا يسقط بحال من الأحوال، فهو ركن من أركان الحج، وبعضهم يقول: هو واجب من واجباته، وليس هذا محل الكلام على هذه القضايا، وإنما الطريق الذي نمشي عليه هو بيان كلام ابن كثير -رحمه الله- وتوجيه الأقوال التي يذكرها.

"وقال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت، ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ} [(١٥٨) سورة البقرة] قال أبو بكر بن عبد الرحمن: فلعلها نزلت في هؤلاء وهؤلاء..."

هذا النص الذي أورده عن أبي بكر بن عبد الرحمن -وهو من التابعين- من النصوص النادرة التي ينـدر أن تقف على مثلها مما يُتعرف به على منهج السلف -رضي الله عنهم- في التفسير، ومما تستنبط منه القواعد والأصول التي يُبنى عليها التفسير، ولذلك ذكرتُ في بعض المناسبات في الكلام على أصول التفسير أن ذلك يؤخذ من جملة أمور: منها:

استقراء الآثار والنصوص الواردة والأخبار عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وعن الصحابة والتابعين، فإن من تتبع ذلك فإنه يجد ولا بد بعض ما تؤخذ منه الأصول التي يُبنى عليها التفسير، فهذا النص النادر يُؤخذ منه ما يتعلق بأسباب النزول، وهو أن الأسباب إذا تعددت ولم تكن متباعدة تُحمل الآية عليها جميعاً، يقال: هذه الآية نزلت بسبب هذا وهذا وهذا، ولا نحتاج إلى أن نرجح بين هذه الأسباب، وقد ذكرت لكم من قبل المسلك في هذا في أسباب النزول إذا تعددت، فإننا ننظر أولاً إلى الصحة فنستبعد الضعيف، ثم ننظر بعد ذلك إلى العبارة، وعرفتم أن أسباب النزول منها ما هو صريح، ومنها ما هو غير صريح، فنستبعد غير الصريح، ثم ننظر في الصحيح الصريح، فإن كان ذلك في وقت متقارب حُملت الآية على هذه الأسباب جميعاً، كما في قصة عويمر العجلاني وهلال بن أمية في اللعان.

وإن كانت متباعدة حُملت الآية على التعدد بأنها نزلت أكثر من مرة، وفي أكثر من مناسبة، ولا مانع من هذا، وبعض أهل العلم يسلك مسلك الترجيح في هذه الحالة، وهذا ذكرنا له أمثلة مثل نزول سورة: **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}** [(١) سورة الإخلاص] لما سأله المشركون واليهود: صف لنا ربك، وكذلك: **{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ}** [(١٢٦) سورة النحل] في أحد وفي عام الفتح لما قال سعد بن عبادة -رضي الله عنه-: "اليوم ذهبت قريش" وكانت معه راية الخزرج من الأنصار فأخذها منه النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأعطاها لابنه قيس.. إلى غير ذلك من الأمثلة.

"وقد روى البخاري نحو ذلك عن أنس -رضي الله تعالى عنه-، وقال الشعبي: كان إساف على الصفا وكانت نائلة على المروة، وكانوا يستلمونهما، فتحرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما فنزلت هذه الآية."

لو أردنا الآن أن نطبق القاعدة -التي ذكرناها قبل قليل- على هذه المرويات سنستبعد بعضها، يعني مثل هذه الرواية عن الشعبي هي من قبيل المرسل، والمرسل من الضعيف، وهكذا نُبقي الروايات الصحيحة

---

1 - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، في كتاب الحج، باب الإيضاع في وادي محسر [ج٥- ص١٢٥]، وصححه الألباني في إرواء الغليل [ج٤- ص٢٧١] وهو في مسلم في كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً بلفظ: ((لتأخذوا مناسككم)) [ج٢- ص٩٤٢] وفي سنن أبي داود في كتاب المناسك، باب في رمي الجمار [ج١- ص٦٠٤] وفي المسند [ج٣- ص ٣١٨ - ١٤٤٥٩].

الصريحة، والصريحة هي ما كانت مثل سبب نزول هذه الآية، أو يذكر واقعة أو سؤالاً ثم يقول: "فأنزل الله"، أو "فنزلت الآية" أما ما يقول فيه: "نزلت هذه الآية في كذا" فإن هذا يحتمل أن يكون من قبيل التفسير، وأن يكون من قبيل سبب النزول، ولذلك اختلفوا في غير الصريح هل له حكم الرفع أو ليس له حكم الرفع لوجود الاحتمال؟ وسبق الكلام على هذا؛ لأنه عند تتبع الروايات أحياناً قد تجد رواية أخرى صريحة في هذا الذي هو غير صريح، نفس الحديث تجده في بعض الروايات صريحاً، وفي بعضها غير صريح، وأحياناً تجد أوله غير صريح وآخره يصرح بعبارة تدل على أنه فعلاً سبب النزول، وهي نفس الرواية، وهذا له أمثلة ذكرتها من قبل في شرح مقدمة شيخ الإسلام ابن تيمية.

"وفي صحيح مسلم من حديث جابر -رضي الله تعالى عنه- الطويل: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من باب الصفا وهو يقول: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ} [(١٥٨) سورة البقرة] ثم قال: ((أبدأُ بما بدأ الله به))[٢] وفي رواية النسائي: ((ابدءوا بما بدأ الله به))[٣].

وروى الإمام أحمد عن حبيبة بنت أبي تجراة -رضي الله تعالى عنها- قالت: رأيتَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يطوف بين الصفا والمروة، والناس بين يديه، وهو وراءهم، وهو يسعى، حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره، وهو يقول: ((اسعوا، فإن الله كتب عليكم السعي))[٤]".

يعني هذا أمر والأمر يفيد الوجوب، كأنه يقول: وإن ظن ظان أن الآية غير صريحة لأنها نفت الحرج، فإن ذلك جاء صريحاً عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

"واستُدل بهذا الحديث على أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج، وقيل: إنه واجب وليس بركن، فإن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم، وقيل: مستحب، والصحيح: أنه ركن أو واجب، فقد بيّن الله تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله، أي مما شرع الله تعالى لإبراهيم -عليه السلام- في مناسك الحج، وقد تقدم في حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن أصل ذلك مأخوذ من تطْواف هاجر وترددها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها، لما نفد ماؤهما وزادهما حين تركهما إبراهيم -عليه السلام- هنالك، وليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت الضيعة على ولدها هنالك ونفد ما عندهما قامت تطلب الغوث من الله -عز وجل-، فلم تزل تتردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى -عز وجل-، حتى كشف الله كربتها، وآنس غربتها، وفرج شدتها، وأنبع لها زمم التي ماؤها طعام طعم، وشفاء سقم، فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في

---

2 - أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب حجة النبي -صلى الله عليه وسلم- [ج ٢- ص ٨٨٦ - ١٤٧].

3 - أخرجه النسائي في السنن الكبرى، في كتاب الحج، الدعاء على الصفا [ج ٢- ص ٤١٣ - ٣٩٦٨] في المسند[ج٣- ص٣٩٤ - ١٥٢٨٠] وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم.

4 - في المسند [ج٦- ص٤٢١ - ٢٧٤٠٧] وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: "حسن بطرقه وشاهده، وهذا إسناد ضعيف لضعف عبد الله بن المؤمل، وقد اضطرب فيه". وأخرجه الدارقطني في كتاب الحج، باب المواقيت [ج٢- ص٢٥٥ - ٨٥] و الطبراني في المعجم الكبير [ج٢٤- ص٢٢٦ -

٥٧٣] والبيهقي في السنن الكبرى في كتاب الحج، باب وجوب الطواف بين الصفا والمروة، وأن غيره لا يجزئ عنه [ج٥- ص٩٨ - ٩١٤٩] وصححه الألباني في إرواء الغليل [ج٤- ص٢٩٠].

هداية قلبه وصلاح حاله، وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله -عز وجل- ليزيح ما هو بــه مــن النقــائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يثبته عليه إلى مماته، وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة، كما فُعل بهاجر -عليها السلام-. "

على كل حال العلماء يتكلمون على حِكَم أعمال الحج، وهناك أمور ظاهرة مثل هذا، فأصــله هــذا الاقتــداء، وصار شرعاً لأهل الإسلام، وهو من دين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، فيتكلمون على هذا وعلى غيــره، وهذا الكلام منه ما هو متكلف، ومنه ما الحكمة فيه ظاهرة، وهذا مِن الذي تظهر حكمته، فهــذا الاستحــضار الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لا شك أنه استنباط صحيح، ولذلك أن هاجر -رحمهــا الله- كانــت تسعى بين الصفا والمروة وذلك لشدة ما نزل بها، حتى جاءها الفرج، فالذي يــسعى بــين الــصفا والمــروة يستحضر ألطاف الله -عز وجل-، وفقره وحاجته وذله فهو ليس بحاجة الآن إلى الشراب أو إلى الطعــام أو إلى المؤنس، وإنما هو بحاجة إلى أمور أخرى، فيستحضر هذه المعاني، ويستحضر أنه لــيس وحــده الــذي يسلك هذا الطريق، وإنما سلكه سالكون قبله، إلى غير ذلك مما يذكره أهل العلم وهو كثير جداً فــي أعمــال المناسك.

وقد تكلمت في بعض المناسبات عن العقيدة في المناسك، وما يؤخذ مما يتعلق بالاعتقاد، فمما يتعلق بالاعتقــاد في مثل هذه القضية ما ذكره ابن كثير، وهو التجاء العبد إلى الله -عز وجل- في حال الشدة والحاجــة، فــلا يلتجئ إلى أحد من خلقه، وإنما يلتجئ إلى الله -عز وجل- ليفرج عنه.. إلى غير ذلك.

"وقوله: {وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا} [(١٥٨) سورة البقــرة] **قيل: زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب ثامنة وتاسعة ونحو ذلك، وقيل: يطوف بينهما في حجة تطوع، أو عمرة تطوع، وقيل: المراد تطــوّع خيــراً فــي ســائر العبادات."**

يعني الآن هذه أقوال ثلاثة، أما الأول: فهو غير صحيح، **{تَطَوَّعَ خَيْرًا}** [(١٥٨) سورة البقــرة] يعني: زاد علــى سبعة أشواط، فهذه زيادة في العبادة غير مشروعة، فهي من قبيل البدعة، فالنبي -صــلى الله عليــه وســلم- سعى سبعة أشواط وقال: ((خذوا عني مناسككم))[5] وهذا وإن كانت الآية تحتمله في ظاهرها إلا أن ذلك ليس بمراد؛ لأن السنة مبينة للقرآن.

بقي الاحتمال الثاني: وهو أن هذا التطوع بالسعي، والسعي لا يكون عبادة مستقلة بمعنى أن الإنسان إذا فــرغ من عمرته مثلاً فأراد أن يتطوع فإن له أن يسعى بين الصفا والمروة كما أن له أن يطوف، فالسعي لا يشرع بهذا الوجه، على المشهور الراجح الذي عليه عامة أهل العلم، لا يتطوع بالسعي، وإن كان ظاهر الآية أيــضاً يحتمله، فبقي أن ذلك إنما يكون في عمرة أخرى، أو في حجة أخرى؛ لأن العمرة الأولى واجبــة، والحجــة الأولى واجبة، فمن زاد فإن الله شاكر عليم، فإن الله يثيبه، ويطلع على عمله فيجازيه عليه، هذا هو الأقــرب في معنى هذه الآية، أن هذا التطوع إنما يكون بالسعي في نسك آخر لا يجب عليــه؛ لأن الواجــب حــصل بالأول، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، وبعضهم يطلق ذلك ويقول: مــن تطوع خيراً بالصدقة وألوان القربات من صلاة وصوم ونحو ذلك فإن الله يثيبه على هذا العمل، لكن لما كــان

---

[5] - سبق تخريجه في حاشية رقم (١).

الكلام على الصفا والمروة والسعي، فإن الأقرب أن يحمل ذلك على التطوع بهذه العبادة على وجه الخصوص في هذه الآية.

"وقيل المراد: تطوّع خيراً في سائر العبادات، حكى ذلك الرازي، وعُزي الثالث إلى الحسن البصري، والله أعلم.

وقوله: {فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} [(١٥٨) سورة البقرة] **أي يثيب على القليل بالكثير، عليم بقدر الجزاء، فلا يبخس أحداً ثوابه، {لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}** [(٤٠) سورة النساء]."

نحن عرفنا معنى الشكر والشاكر، وشكر الله للعبد، وشكر العبد للرب، فالمقصود أن من معاني شكر الله -عز وجل- للعبد ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- أنه يعطي على القليل الكثير، وأيضاً يجازي المحسن بإحسانه، فهو يجازيه بإحسانه ويزيده ويضاعف له ذلك أضعافاً كثيرة، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فهذا من معاني شكر الرب للعبد.

هذه العبارة التي ذكرها: "حكى ذلك الرازي" ما الفرق بينها وبين ما لو قال: "وذكره الرازي بحثاً" أو يقول مثلاً: "وذكره الرازي احتمالاً" وما هو لازم الرازي، بل أي واحد، مثلاً: "ذكره النووي احتمالاً".

طالب:........

أحسنت هو هذا، أنه لم يقل به أحد: ذكره بحثاً، هم يولدون الأقوال، فهو لم يذكره على أنه يتبناه ويرجحه، ولكنه ذكر أن هذا القول مما تحتمله الآية أو يحتمله الحديث، لكنه لم ينسبه لأحد، ما عُرف له قائل، وهو لم يذكره على أنه يتبناه، يقول به ويرجحه، يقول: "ذكره احتمالاً"، "ذكره بحثاً" من باب توليد الأقوال.

"{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ} [(١٥٩-١٦٢) سورة البقرة] **هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة، والهدي النافع للقلوب، من بعد ما بيّنه الله تعالى لعباده من كتبه التي أنزلها على رسله."**

الآن هذه الآية ظاهرها العموم: **{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ}** [(١٥٩) سورة البقرة] فهي عامة في ظاهرها، وبعض أهل العلم كابن جرير على عادته -كما عُرف فيما سبق- أنه يقول: إن هذه الآيات جميعاً قد نزلت في أهل الكتاب، لا سيما اليهود، فهم الذين كتموا صفة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأحقية ما جاء به -عليه الصلاة والسلام-، وكتموا أمر القبلة.. إلى غير ذلك من الأمور التي كتموها.

كما حرفوا وكتموا ما أنزل الله في كتبهم، فجعلوه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً، فالآية وإن كان يدخل فيها هؤلاء دخولاً أولياً إلا أن ظاهرها العموم، فيدخل فيها كل من كتم ما أنزل الله -عز وجل-، لكن ذلك قيّده الله -تبارك وتعالى- بقوله: **{مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى}** [(١٥٩) سورة البقرة] ومعنى ذلك أن هذا الكتمان المتوعد عليه

هو مما يحتاج إلى بيان، وهي البينات والهدى، من الأمور التي توضح الحق وتجليه، والناس يفتقرون إلى هذا الإيضاح والبيان فيكتم عنهم، أو يقال لهم غير ذلك مما لا يعتقده الإنسان، فيتكلم بخلاف ما يؤمن به، وينعقد قلبه عليه، فهذا كله من الكتمان والكذب على الله -عز وجل- إذا قال غير ذلك مغيراً للحقيقة التي علمها عن الله -جل جلاله-، فهذا أخطر.

والمراتب في هذا متفاوتة أعظمها أن يكتم الحق، وأن يبدي غيره، فيكذب، ويقول: حكم الله في المسألة كذا، على خلاف ما يعتقد، ويغيّر حقائق الدين، ويلبّس على الناس فهذا أعظم، المرتبة الثانية: أن لا يذكر لهم هذا التلبيس، ولكنه لا يُبين، لا يظهر الحق الذي عرفه، وما أكثر ما يقع الناس في هذا، وقد عرفنا في اقتضاء الصراط: أن هذه الأمة أشبهت أهل الكتاب في أمور كثيرة، منها: كتمان الحق، فهذه الأمة وإن لم تقع في تحريف الكتاب نصاً بلفظه، ولكنها وقعت في التحريف في معانيه، وتحريف المعاني هو تغييرها عن وجهها الذي أراده الله -تبارك وتعالى-، فهذا القيد في قوله: **{مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى}** [(١٥٩) سورة البقرة] يخرج كتمان ما لا يحتاج إليه الناس، أو ما يتضررون بمعرفته، وفي الحديث المشهور -حديث أبي هريرة- في البخاري، لما قال: "حفظت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعاءين، أما أحدهما فبثثته فيكم، وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم" وذلك مما لا يحتاج إليه الناس من الأمور التي تتعلق بأحداث وأشخاص؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر عن أمور كثيرة مما سيقع، وما من رجل يلي أمر عشرة فما فوق إلا وقد ذكر لهم منه خبراً -عليه الصلاة والسلام-، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه.

فهناك أخبار تتعلق بأناس كانوا يعاصرون أبا هريرة، ولهذا كان يقول: "اللهم إني أعوذ بك من إمارة السفهاء" وكان يقول: "اللهم لا تدركني سنة ستين" فمات سنة سبع وخمسين، وقيل: سنة ثمان وخمسين، وقيل: تسع وخمسين، وسنة ستين كانت فيها إمارة يزيد بن معاوية، وفي إمارته حصل ما حصل من قتل الحسين، ووقعة الحرة، وفيها نُصب المنجنيق على جبل أبي قبيس فضربت الكعبة وتخرقت، وحوصر ابن الزبير، وحصلت فيها للمسلمين أمور عظيمة في ذلك العهد.

فالمقصود أن كتمان ما لا يحتاج إليه الناس أمر لا حرج فيه، ولهذا فإن من العلم ما لا يُطلب نشره وكما قيل: "ما أنت بمحدثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة" وتعرفون حديث معاذ: "أفلا أبشر الناس؟" فقال: ((لا)) وبيّن له علة ذلك ((إذاً يتكلوا))[6]، وحديث عمر مع أبي هريرة لما أعطاه النبي -صلى الله عليه وسلم- نعله -القصة المعروفة- في بشارة من قال: لا إله إلا الله، ومات لا يشرك بالله دخل الجنة، فدفعه عمر -رضي الله عنه- على صدره حتى وقع.

فالمقصود أنه ما كل ما يُعلم يقال، إذا كان هذا الكلام الذي يقال للناس يورثهم شيئاً من التهاون أو التساهل أو الإرجاء أو أنه لا تبلغه عقولهم، ولا تحيط به أفهامهم فيحملونه على غير وجهه فإنه لا يُطلب ذكره ونشره في الناس، ولذلك كان بعض الأئمة لا يرى التحديث ببعض الأبواب من العلم؛ لئلا تفهم على غير وجهها،

---

6 - أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا [ج١- ص ٥٩ - ١٢٨] ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً [ج١- ص٦١ - ٥٣].

ولا حاجة للتمثيل بأكثر مما ذكرت، فنحن في زمان صار الناس يتشبثون فيه بكل شيء من أجل تسويغ ما هم عليه.

"قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب، كتموا صفة محمد -صلى الله عليه وسلم-، ثم أخبر تعالى أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء، والطير في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون."

طبعاً هذا، المقصود به العالم الذي يبيّن الحق للناس، وهؤلاء يفترض فيهم العلم؛ لأن الكتمان إنما يكون من أهل العلم، والناس إنما ينتظرون منهم البيان، ما ينتظرونه من غيرهم، وهم الذين يسمع الناس منهم، وتمتد إليهم أعناقهم، فإذا سكتوا ضاع الناس، وبقي الحق خفياً عليهم، فهؤلاء الذين يلعنهم اللاعنون يفترض فيهم أنهم من أهل العلم، ولذلك ذكرتُ من قبل أنه على قدر المقام يكون الملام، وأن أسوأ مثلين في القرآن هما لأهل العلم، الأول: **{كَمَثَلِ الْكَلْبِ}** [(١٧٦) سورة الأعراف] والثاني: **{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ}** [(٥) سورة الجمعة] فهذان مثلان لأهل العلم الذين لم يتحملوا تبعته، ولم يقوموا به كما أمر الله -عز وجل-.

فهذه نزلت في أهل الكتاب الذين كتموا الحق، وهي في هذه الأمة أشد؛ لأن هذه الأمة أشرف وأعظم، ولذلك فإنه يلحقهم من العتب أعظم مما يلحق غيرهم.

"وقد ورد في الحديث المسند من طرقٍ يشد بعضها بعضاً عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- وغيره: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: ((من سُئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار)) [7]

وفي الصحيح عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: لولا آية في كتاب الله ما حدثتُ أحداً شيئاً، {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ} [(١٥٩) سورة البقرة] **...الآية، وقال مجاهد: إذا أجدبت الأرض قالت البهائم: من أجل عصاة بني آدم، لعن الله عصاة بني آدم."**

يعني على هذا الآن **{وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ}** [(١٥٩) سورة البقرة] أي يلعنهم كل شيء، هذا هو القول الأول، يلعنهم الناس والملائكة والجن وتلعنهم الدواب، وإذا قلنا: يلعنهم الناس فإن ذلك يعني أن جميع الناس يلعنونهم ليس فقط أهل الإيمان، مع أنه يرد على هذا أن الكثيرين لم يطلعوا على فعلهم، أكثر الناس ما اطلعوا على جرمهم وكتمانهم، بل ربما ما عرفوهم هذا من جهة ومن جهة أخرى أن أهل الضلال والشر يعجبهم هذا الكتمان، وهم أكثر الناس: **{وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}** [(١١٦) سورة الأنعام] فهؤلاء كيف يلعنونهم؟ فلهذا قال بعض أهل العلم: إن هذا اللعن يكون في الآخرة؛ لأنهم يرون أثر ذلك عياناً فيلعنونهم على هذا الكتمان؛ لأنهم أضلوهم ولبسوا عليهم، فأودوا بهم إلى هذا المصير، وبعضهم يقول: في الدنيا

---

7 - في المسند [ج٢- ص ٤٩٥ - ١٠٤٢٥]عن أبي هريرة، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: "صحيح، وهذا إسناد حسن" وأخرجه الترمذي أيضاً عن عن أبي هريرة في كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم [ج ٥- ص ٢٩ - ٢٦٤٩] وابن ماجه عن أنس بن مالك، في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب من سئل عن علم فكتمه [ج١- ص٩٧ - ٢٦٤] وابن حبان عن عبد الله بن عمرو، في كتاب العلم، باب الزجر عن كتبة المرء السنن مخافة أن يتكل عليها دون الحفظ لها [ج١- ص ٢٩٨ - ٩٦]، والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة [ج١- ص١٨٢ - ٣٤٥]، والطبراني في المعجم الكبير عن طلق بن علي [ج٨ - ص٣٣٤ - ٨٢٥١]، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم:٦٢٨٤.

والآخرة تلعنهم الدواب، ويلعنهم أهل الإيمان، ومن اطلع على فعلهم، ويلعنهم جميع الناس والجن في الآخرة، وبعض أهل العلم يقول: إنما يكون هذا اللعن، من الملائكة، ومن أهل الإيمان، وهم الناس، فلفظ الناس يكون من العام الذي أريد به الخصوص، وهو أسلوب عربي معروف، كما في قوله: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ} [(١٧٣) سورة آل عمران] فليس كل الناس قالوا ذلك، وليس كل الناس قيل له ذلك، فالعام تارة يراد به ظاهره من العموم، وتارة يراد به معنىً خاص، فهو وإن كان بظاهره عاماً فإنه في معنى من معاني هذا العام، العام المراد به الخصوص فيكون المراد به أهل الإيمان والملائكة، كما قال الله –عز وجل– على الكفار: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [(١٦١) سورة البقرة] فابن جرير الطبري –رحمه الله– يحمل اللعن هنا {وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} [(١٥٩) سورة البقرة] على أن المراد به لعن هؤلاء، الملائكة والناس أجمعين، والله أعلم.

"وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة: {وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} [(١٥٩) سورة البقرة] يعني تلعنهم الملائكة والمؤمنون، وقد جاء في الحديث: ((إن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر))[8]، وجاء في هذه الآية أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون واللاعنون أيضاً، وهم كل فصيح وأعجمي، إما بلسان المقال أو الحال، أن لو كان له عقل، ويوم القيامة، والله أعلم."

وابن كثير يحمل الآية على جميع المعاني المذكورة، فما لا يتأتى في الدنيا فإنه يكون في الآخرة، {وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} [(١٥٩) سورة البقرة] ممن لم يبلغه فعلهم من أهل الإيمان، أو ممن يرتضي فعلهم في الدنيا فهو لا يلعنهم، لكنه يلعنهم في الآخرة، فكل ذلك واقع، ومن كل مَن يتأتى منه اللعن، من الإنسان أو الجن أو الملائكة أو الدواب فإنها تلعن عصاة بني آدم، كما أن الحيتان تستغفر للعالم فإنها كذلك تلعنه إذا كتم الحق.

"ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه، فقال: {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ} [(١٦٠) سورة البقرة] أي رجعوا عما كانوا فيه، وأصلحوا أعمالهم وأحوالهم، وبيّنوا للناس ما كانوا يكتمونه، {فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [(١٦٠) سورة البقرة]."

يعني: أصلحوا أحوالهم وأصلحوا أيضاً ما أفسدوا، مما يتأتى فيه الإصلاح؛ لأنه ليس كل شيء يتأتى فيه الإصلاح، فهو عليه أن يُبيّن ويصلح ما أفسد إن كان ذلك بإمكانه، إنسان أضل الناس فتنتصر على يده خلائق وقبائل، أو نشر كتباً فيها ضلالات وبدع ثم تاب فماذا يصنع؟ عليه أن يكتب في نقض ذلك، وأن يدعو هؤلاء الناس الذين أضلهم، لكن قد لا يستطيع ذلك بسبب ما قد علق في قلوبهم فصاروا يتحمسون لدينهم الباطل، فماذا يصنع؟ عليه أن يُبيّن، وينقض الباطل الذي قرره لهم، فإن كان وضعه في كتاب فينقضه في كتاب، وإن كان ظهر في قناة فضائية فيظهر في قناة فضائية، إن كان ذلك مسجلاً عنه فإنه يفعل ذلك، أو ما هو أبلغ

8 – أخرجه الترمذي عن أبي الدرداء في كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة [ج ٥– ص ٤٨ – ٢٦٨٢] بلفظ: ((إنه ليستغفر للعالم من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر)) وابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم [ج١– ص٨١ – ٢٢٣] وأحمد في المسند[ج ٥ – ص١٩٦ – ٢١٧٦٣] والدارمي في المقدمة، باب في فضل العلم والعالم [ج١– ص١١٠– ٣٤٢] وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه [ج١– ص٤٣ – ١٨٢].

منه، المهم أنه يُبيّن للناس، ولا يقول: أنا تائب ويجلس ساكتاً، فهذا لا يكفي، لا بد من إصلاح ما أفسد، وعلى كل حال هذا التفصيل تجدونه في كتب الأصول، فالشاطبي تكلم على هذه المسألة، وذكرنا ذلك في المراقي:

من تاب بعد أن تعاطى السببا   فقد أتى بما عليه وجبا

وذكر أمثلة لذلك، من رمى بسهم فتاب قبل أن يصل السهم الرمية، لكن السهم سريع، إلا أن هناك أشياء أخرى تصل بعد مدة "**أو بث بدعة عليها يتّبع**".. إلى غير ذلك.

"**{فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}** [(١٦٠) سورة البقرة]**، وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه، ثم أخبر تعالى عمن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأنّ {عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا}** [(١٦١ - ١٦٢) سورة البقرة] **أي في اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة، ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التي لا يخفف عنهم العذاب، (فيها) أي لا ينقص عما هم فيه، {وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ}** [(١٦٢) سورة البقرة] **أي لا يغيّر عنهم ساعة واحدة ولا يفتر، بل هو متواصل دائم، فنعوذ بالله من ذلك.**"

يعني قوله: **{خَالِدِينَ فِيهَا}** [(١٦٢) سورة البقرة] يمكن أن يعود إلى اللعنة؛ لأنها هي المذكورة قبله، والضمير الأصل أن يرجع إلى المخبر عنه، إلى أقرب مذكور، وقد يرجع الضمير إلى غير مذكور، وذكرنا له أمثلة في عدد من المناسبات، يرجع إلى غير مذكور يدل عليه السياق، وهذا لا مانع منه، فيمكن أن يكون المراد بالضمير -الهاء- هنا: **{خَالِدِينَ فِيهَا}** [(١٦٢) سورة البقرة] أي النار، فهي وإن لم تكن مذكورة لكن السياق يدل عليها، وهل بين القولين منافاة فنحتاج إلى أن نرجح بينهما؟ ليس بينهما منافاة؛ لأن هؤلاء الذي لعنهم الله أين جزاؤهم إن لم يغفر الله -عز وجل- لهم، ويتداركهم برحمته؟ جزاؤهم النار، وإذا كانوا خالدين في اللعنة فمعناها أنهم خالدين في النار وهكذا، فلا منافاة بين القولين.

فصل: لا خلاف في جواز لعن الكفار:

وقد كان عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- ومن بعده من الأئمة يلعنون الكفرة في القنوت وغيره."

وبعض المتحذلقين في هذا الزمان يقول لك: يا أخي ادعُ لهم بالهداية، ما كل الناس يُدعى له بالهداية، بعض الناس يُدعى له بالهلاك واللعن، وأن الله يمحقه، وجبريل -صلى الله عليه وسلم- جاء أنه كان يأخذ من وحل البحر ويضعه في فم فرعون لئلا تدركه الرحمة، فكان يقول: **{آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ}** [(٩٠) سورة يونس] فخاف أن تدركه الرحمة فوضع في فمه الوحل، فليس دائماً الدعاء بالهداية، أحياناً يُدعى له بالهداية، وأحياناً يُدعى أن الله لا يهديه، وأن يطمس على قلبه، وموسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- كيف دعيا؟ قالا: **{رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ}** [(٨٨) سورة يونس] فهؤلاء الأنبياء هم أرحم الخلق بالخلق، ومع ذلك نوح -صلى الله عليه وسلم- لما بيّن الله له أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن دعا عليهم بالهلاك، فقال: **{رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا}** [(٢٦-٢٧) سورة نوح] فلكل مقام مقال، أحياناً يكون المناسب هو الدعاء بالهداية، وأحياناً نسأل الله أن يربط على قلبه، ويموت على ما هو عليه، وأن يهلكه، وأن

يلعنه، فلعن الكفار هذا ثابت في الكتاب والسنة، وعليه عمل المسلمين منذ زمن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى يومنا هذا، فلا إشكال فيه.

"فأما الكافر المعين فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن؛ لأنا لا ندري بما يختم الله له."

هي مسألة خلافية، لكن أكثر أهل العلم على أنه لا يلعن المعيّن لهذا السبب، وقد لعن النبي -صلى الله عليه وسلم- رجالاً بأعيانهم، لعن سهيل بن عمرو العامري، وصفوان بن أمية وجماعة، وأسلموا، هداهم الله -عز وجل- إلى الإسلام، وقال الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: **{لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ}** [(١٢٨) سورة آل عمران] ولعن النبي -صلى الله عليه وسلم- قبائل بعينها، ذكوان وعصية، القبائل التي غدرت بالقراء، فأخذ منه بعض أهل العلم جواز لعن المعيّن، ولكن الذي عليه عامة أهل العلم أنه لا يلعن المعيّن، ولعْن النبي -صلى الله عليه وسلم- رجالاً بأعيانهم يكون ذلك مما يختص به، ومن ثم فإن الإنسان يتحرز من هذا ولا يلعن المعيّن، ولكنه يلعن الصنف ((لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله))[9] ولكن ذلك لا يعني وقوع اللعن على هذا الذي ورد فيه الوعيد باللعن لاختلال شرط، أو لوجود مانع، وسبق الكلام في سورة النور على قول الله -تبارك وتعالى- في الذين يرمون المحصنات: **{إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}** [(٢٣) سورة النور] فبعض أهل العلم يقول: إن المقصود به الكفار المشركون الذين كانوا يطعنون في عرض من خرجت مهاجرة من مكة إلى المدينة، كل هذا من أجل توجيه كيف لعنوا في الدنيا والآخرة؟ والذي يُلعن في الدنيا والآخرة لا يبقى له نصيب -نسأل الله السلامة-، فقالوا: هذا في الكفار، وهذا فيه نظر، وبعضهم قال: هذا خاص في عائشة بعد ما بيّن الله ما يتعلق بها، وبعضهم قال: هذا في عبد الله بن أُبي، وبعضهم قال: هذا فقط في أمهات المؤمنين، والآية عامة، والجواب عن هذا الإشكال: أن هذا جزاؤه إن تحقق فيه ذلك، وإلا فكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: إن هذه النصوص من الوعيد واللعن قد تتخلف عن المعيّن إما بسبب مغفرة الله -عز وجل-، أو حسنات ماحية، أو مصائب مكفرة، أو توبة، أو شفاعة، هذه الأمور قد يتخلف بسببها مقتضى اللعن، فلا يبقى على هذا المعيّن، فالذين يرمون المحصنات المؤمنات الغافلات لعنوا في الدنيا والآخرة، ما لم يُكفَّر ذلك عنهم بسبب من هذه الأسباب ولا إشكال، والله أعلم.

"وقالت طائفة أخرى: بل يجوز لعن الكافر المعيّن، وفي قصة الذي كان يؤتى به سكران فيحده، فقال رجل: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله))[10] فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يُلعن، والله أعلم."

طبعاً هذا استنباط، وفي بعض الروايات أنه نهاهم من أجل ألا يعينوا عليه الشيطان، فالمقصود أن من أراد أن يتتبع الآثار التي ورد فيها اللعن سواء عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو عن السلف -رضي الله

---

9 - أخرجه مسلم في كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة والمتفلجات والمغيرات خلق الله [ج٣- ص١٦٧٨ - ١٢٠].

10 - أخرجه بهذا اللفظ أبو يعلى في المسند [ج١- ص ١٦١ - ١٧٦] والبزار[ج١- ص ٣٩٣ - ٢٦٩] وعبد الرزاق في المصنف في كتاب الطلاق، باب حد الخمر [ج٧- ص٣٨١ - ١٣٥٥٢] وهو في البخاري: بلفظ: ((لا تلعنوه فو الله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله)) في كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر، وأنه ليس بخارج من الملة[ج ٦- ص٢٤٨٩ - ٦٣٩٨].

عنهم- وعن الصحابة فسيجد من هذا أشياء، لكن يبقى عندنا الأصل وهو: ((ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء))[11]، وأن الله لم يتعبدنا باللعن، فما ينبغي أن ينصرف هم الإنسان إلى البحث عن نصوص اللعن من أجل أن يلعن، فالله ما كلفك بهذا ولا تعبدك به، فينبغي للإنسان أن يكف لسانه عن اللعن ولا يشتغل به، وإنما يشتغل بذكر الله -عز وجل- وشكره وطاعته ونحو ذلك، لكن الكلام فيمن يتفلسف على الناس، ويقول: لا يجوز لعن الكفار، ادعُ لهم بالهداية، وينكر على من يلعنهم، نقول له: لا، هذا الكلام غير صحيح، لكن إذا سألَنَا إنسانٌ نقول له: أنت لم تُتعبد بهذا، فأما لعن المعين فكُف عنه، وأما اللعن بالعموم فإن الكفار يلعنون في القنوت عموماً ((لعن الله اليهود والنصارى))[12]، وما إلى ذلك.

"{وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [(١٦٣) سورة البقـرة] يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية، وأنه لا شريك له ولا عديل له، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا إله إلا هو، وأنه الرحمن الـرحيم، وقد تقدم تفسير هذين الاسمين في أول الفاتحة، وفي الحديث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن -رضي الله تعالى عنها- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: {وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [(١٦٣) سورة البقرة] و{الم * اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [(١-٢) سورة آل عمران]))[13]، ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بخلق السماوات والأرض."

الأحاديث الواردة في الاسم الأعظم سبق الكلام عليها في موضعين في الكلام على سورة الفاتحة، وفي الكلام على آية الكرسي، وأن الراجح أن الاسم الأعظم هو (الله)، وأنه هو المتكرر في السور الثلاث التي ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهي سورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة طه، ثم يلي ذلك في القوة (الحي القيوم) وما على الإنسان إذا دعا أن يقول: "اللهم إني أسألك باسمك الأعظم الذي إذا سئلت به أعطيت، وإذا دعيت به أجبت، يا الله يا حي يا قيوم" يقول هذا.

"ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بخلق السماوات والأرض وما فيهما وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته، فقال: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا

---

11 - أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب الإيمان [ج ١- ص ٥٧ - ٢٩] وسكت عنه الذهبي في التلخيص، والبيهقي في شعب الإيمان في الرابع والثلاثون من شعب الإيمان، وهو باب في حفظ اللسان، فصل ومما يجب حفظ اللسان منه الفخر بالآباء وخصوصا بالجاهلية والتعظيم بهم [ج٤ - ص ٢٩٣ - ٥١٤٩] وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم:٥٣٨١.

12 - أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور[ج١- ص ٤٤٦ - ١٢٦٥] وفي باب ما جاء في قبر النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- [ج١- ص٤٦٨ - ١٣٢٤] ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد [ج١- ص ٣٧٦ - ١٩].

13 - أخرجه أبو داود في كتاب سجود القرآن، باب الدعاء [ج١- ص٤٧٠ - ١٤٩٦] والترمذي في كتاب الدعوات [ج٥- ص٥١٧ - ٣٤٧٨] وابن ماجه في كتاب الدعاء باب اسم الله الأعظم [ج٢- ص ١٢٦٧- ٣٨٥٥] والدارمي في كتاب فضائل القرآن، باب فضل أول سورة البقرة وآية الكرسي [ج٢- ص ٥٤٢ - ٣٣٨٩] وقال حسين سليم أسد: "إسناده حسن من أجل عبيد الله بن أبي زياد" والطبراني في المعجم الكبير [ج٢٤- ص١٧٤- ٤٤٠] وابن أبي شيبة في المصنف في كتاب الدعاء، في اسم الله الأعظم [ج٦- ص ٤٧ - ٢٩٣٦٣] والبيهقي في شعب الإيمان: التاسع عشر من شعب الإيمان، هو باب في تعظيم القرآن، ذكر سورة البقرة وآل عمران [ج٢- ص ٤٥٤ - ٢٣٨٣] وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم:٩٨٠.

من كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [(١٦٤) سورة البقرة] يقول تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١٦٤) سورة البقرة] تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها."

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١٦٤) سورة البقرة] السماوات غالباً تأتي مجموعة، والأرض مفردة، والعلماء يذكرون لذلك توجيهات، تجدها في كتاب: (الإتقان) للسيوطي، و(البرهان) للزركشي، وفي غيرهما، ومن أوضحها وأسهلها وأقربها للفهم: أن الأرض جنس تصدق على الواحد والكثير، فهو بمعناه، وبعضهم يقول: لما كانت كل سماء مخلوقة من جنس فإنها ذكرت بالجمع بخلاف الأرض فهي جنس واحد، وهذا الكلام يحتاج إلى تأمل ويحتاج إلى دليل، وقيل غير ذلك على كل حال.

{وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [(١٦٤) سورة البقرة] المقصود باختلاف الليل والنهار اختلافهما طولاً وقصراً وتعاقباً، الليل يأتي ويأتي بعده النهار، وهكذا في عمل دءوب لا يسبق هذا هذا ولا يتخلف عنه، يأتي بعده مباشرة، والليل معروف من بعد غروب الشمس، والنهار العلماء يختلفون فيه هل هو من طلوع الشمس أو يكون من طلوع الفجر؟ وهل القسمة ثنائية أو ثلاثية؟ هل الليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، ثم يكون ذلك الوقت بينهما وهو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، ثم النهار يكون من طلوع الشمس إلى غروبها، والنهار منقسم إلى صباح ومساء، إلى ما قبل الزوال هذا صباح، والمساء من بعد الزوال بعد الظهر، فتكون القسمة على هذا الاعتبار ثلاثية، ليل من الغروب إلى طلوع الفجر، ومن الفجر إلى طلوع الشمس لا يقال له: ليل، ولا يقال له: نهار، وإنما هو فاصل، ومن طلوع الشمس إلى الغروب فهذا هو النهار، هذا على قول بعض أهل العلم، وبعضهم يقول: الليل يمتد إلى الفجر، ومن طلوع الفجر إلى الشمس هذا هو من الليل وهو في آخره، وأما النهار فيكون من طلوع الشمس، وبعضهم يقول: الليل إلى طلوع الشمس، من غروبها إلى طلوعها، والنهار من الطلوع إلى الغروب.

{وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ} [(١٦٤) سورة البقرة] الفُلْك: هي السفن، تطلق هذه اللفظة (فُلْك) على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، كل ذلك يقال له: فُلْك، وبعضهم يقول: هو جمع واحده (فُلْك)، والأقرب وهو المشهور والذي عليه عامة أهل العلم أن الفُلْك يطلق على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، والله -عز وجل- يقول: {حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم} [(٢٢) سورة يونس] يعني في السفينة.

"يقول تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١٦٤) سورة البقرة] تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها، وكواكبها السيارة، والثوابت ودوران فلكها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها، وجبالها وبحارها، وقفارها ووهادها وعمرانها، وما فيها من المنافع، {وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [(١٦٤) سورة البقرة] هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [(٤٠) سورة يس] وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا، ثم يتقارضان، كما قال تعالى: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} [(٦١) سورة الحج] أي يزيد من هذا في هذا ومن هذا في هذا، {وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ} [(١٦٤)

سورة البقـرة] أي في تسخير البحر لحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهـل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء وما عند أولئك إلى هؤلاء."

فـ(ما) هنا تحتمل أن تكون موصولة، وتحتمل أن تكون مصدرية، إذا كانت موصولة كيف يكـون المعنـى؟ يكون: تجري في البحر بالذي ينفع الناس، وإذا كانت مصدرية فيكون: تجري في البحر بنفْع الناس، والمعنـى كما ترون قريب.

"{وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} [(١٦٤) سورة البقرة] كما قال تعالى: {وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ} [(٣٣) سورة يـس]... إلى قولـه: {وَمِمَّـا لَـا يَعْلَمُونَ} [(٣٦) سورة يـس]، {وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ} [(١٦٤) سورة البقـرة] أي علـى اخـتلاف أشـكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه، لا يخفى عليه شيء من ذلـك، كمـا قـال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُـلٌّ فِـي كِتَـابٍ مُبِـينٍ} [هود :٦]."

في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ}** [(١٦٤) سورة البقرة] لاحظ وتأمل هذه الآية وهذه اللفظـة فيها: **{وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ}** [(١٦٤) سورة البقرة] العطف هنا (وبث) يعود إلى أي موضع في الآيـة؟ الـواو حرف عطف هل يرجع إلى قوله في الآية: **{وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء}** [(١٦٤) سورة البقرة] فيكـون المعنـى هكذا: "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع النـاس، وما أنزل الله من السماء، وما بث من الدواب" فتكون آية نظير الآيات التي ذكرها وعددها: من إنزال المطـر والفلك، وخلق السماوات والأرض، فيكون بث الدواب من جملة هذه الآيات، هذا على القول بأنه عائـد إلـى قوله: **{وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء}** [(١٦٤) سورة البقرة].

أو يكون عائداً إلى قوله: **{فَأَحْيَا}** [(١٦٤) سورة البقرة] فيكون قوله: **{وَبَثَّ}** [(١٦٤) سورة البقرة] تابعاً لـ(أحيـا)، فأحيا وبث، الآن كيف يكون المعنى؟ "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلـك التـي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء" هذه آية، عدّد آيات، الفلك، وخلق السماوات، ومـا أنزل من السماء، فأثّر ذلك أثرين: إحياء الأرض، وبث الدواب، لاحظت الفرق الآن بين المعنيـين؟ **{وَبَـثَّ}** [(١٦٤) سورة البقرة] يمكن أن يكون آية من جملة الآيات، مثل الفلك، وخلق السماوات الأرض.. إلـى آخـره، ويمكن أن يكون ذلك عائداً إلى قوله: **{فَأَحْيَا}** [(١٦٤) سورة البقرة] "وأنزل من السماء ماء فأحيا به، وبث"، أحيا الأرض وبث فيها الدواب، فالآية تحتمل هذا وهذا.

والظاهر المتبادر أن ذلك يعود إلى قوله: **{فَأَحْيَا}** [(١٦٤) سورة البقرة] أحيا فكان نتيجة هذا المطر النازل مـن السماء أن الله أحيا به الأرض، ثم ذكر أمراً آخر عطفه عليه، فقال: **{وَبَثَّ}** [(١٦٤) سورة البقرة] فتكون الـواو عاطفة على (فأحيا) فكان ذلك نتيجة لنزول المطر، فكانت به حياة النبات والحيوان، والبث معناه: النشر.

"{وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ} [(١٦٤) سورة البقرة] أي فتارة تأتي بالرحمة، وتارة تأتي بالعذاب، تارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمعه."

هذا الكلام الذي يذكره ابن كثير الآن هو جمع لأقوال السلف؛ لأنك إذا نظرت إلى مقالاتهم في هذه الآية تجد أن بعضهم يقول: {وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ} [(١٦٤) سورة البقرة] يقول: هذه تأتي بالعذاب وهذه تأتي بالرحمة، وبعضهم يقول: هذه جنوبية وشرقية وغربية -في الجهات- وهذه بينهما، فكل ذلك داخل تحت معنى الآية، سواء اعتبرته من قبيل اختلاف التنوع، أو اعتبرته من قبيل اختلاف التضاد الذي يمكن أن يجمع تحت مدلولها، فهذا الكلام من ابن كثير -رحمه الله- هو جمع لهذه الأقوال، وهو من التفسير الجيد الحسن، فمن التحقيق في التفسير وتحريره، أن تجمع الأقوال التي يمكن أن تجتمع تحت الآية بدلاً من أن تعدد، ويقال: القول الأول كذا والقول الثاني والثالث والرابع {وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ} [(١٦٤) سورة البقرة] هذه تأتي بالمطر، وهذه تأتي بالعذاب، وهذه شمالية، وهذه شرقية، وهذه تسوق السحاب، وهذه يحصل بها تلقيح النبات وهكذا مما يحصل.

"وتارة تفرقه وتارة تصرفه، ثم تارة تأتي من الشمال وهي الشامية، وتارة تأتي من ناحية اليمن، وتارة صَبَاً، وهي الشرقية التي تصدم..."

الصِّبا: هو الصغر، والصَّبَا: هي الريح التي تأتي من قبل المشرق، والدَّبور: هي الريح التي تأتي من قبل المغرب، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نصرتُ بالصَّبَا، وأهلكتْ عاد بالدَّبور))[١٤].

"وتارة صَبَاً: وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة، وتارة دَبوراً، وهي غربية تنفذ من ناحية دُبر الكعبة، وقد صنف الناس في الرياح والمطر والأنواء كتباً كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها، وبسط ذلك يطول هاهنا، والله أعلم."

والكتب المخطوطة التي إما لم توجد، أو لم تطبع أكثر من المطبوع في هذه الأمور، في الكلام على الرياح، وفي الكلام على الأنواء والنجوم، وحتى قضايا الإسطرلاب، كتب كثيرة أحياناً تمل أن تقرأ في فهارس المخطوطات من كثرة ما يمر بك من هذه الكتب والرسائل.

"{وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ} [(١٦٤) سورة البقرة] أي سائر بين السماء والأرض، يسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن، كما يصرفه تعالى."

السحاب قيل له ذلك ربما يكون لأنه ينسحب في الهواء؛ لأنك إذا نظرت إليه -خاصة الآن في الطائرات ترى ذلك من قرب- كأن بعضه يجر بعضاً، فهو منسحب في الهواء، {وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ} [(١٦٤) سورة البقرة] بعضهم يفسر المسخر: أي أن الله يمسكه بين السماء والأرض فلا يقع فهو ثابت، ينزل منه المطر متى ما شاء الله -عز وجل-، وبعضهم يفسر التسخير: أي أن الله يسيره حيث شاء، ويسوقه بالرياح، وهذا لا منافاة بينه، فهو مسخر بين السماء والأرض حيث إن الله أثبته بين السماء والأرض فلا يقع، وهو وعاء المطر، وكذلك من تسخيره أن الله يسوقه، وقد أخبرنا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الرعد ملك

---

14 - أخرجه البخاري في كتاب الاستسقاء، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نصرت بالصبا)) [ج١- ص٣٥٠ - ٩٨٨] وفي كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله: {وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته} (الفرقان / 48) [ج٣- ص١١٧٢- ٣٠٣٣] وفي كتاب الأنبياء [ج٣- ص١٢١٩- ٣١٦٥] وفي كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب [ج٤- ص ١٥٠٧- ٣٨٧٩] ومسلم في كتاب صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور،[ج٢- ص ٦١٧- ٩٠٠].

من الملائكة، وأن البرق سوطه، وأن الرعد صوته، فهو مسخر بأمر الله -عز وجل-، وتعرفون الحديث، الرجل الذي سمع صوتاً من السحاب يقول: اسقِ أرض فلان، فتبعه... إلى آخره، هذا كله مسخر ينزل حيث شاء الله -عز وجل-، حتى نزوله على البحر له معان وأشياء كثيرة، حتى تكلم عليها المعاصرون، وقضية ما يتبخر من البحار فتزداد الملوحة، فينزل المطر فيكون ذلك سبباً لاعتدال مياه البحر بنسبة معينة ثابتة، وإلا لبقي لا يطاق لانعقاد ملوحته الكثيفة، فيحصل به هذا التوازن، والعلماء تكلموا على قضية انعقاد اللؤلؤ بسبب نزول المطر، وعلاقته بهذه القضية، فحتى الذي ينزل على البحار يكون لمنافع يعلم الخلق بعضها، ويجهلون أكثرها.

"**{لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [(١٦٤) سورة البقرة] أي في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى، كما قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [(١٩٠-١٩١) سورة آل عمران]."**

وتعرفون الحديث في آية آل عمران لما قرأها النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: ((ويل لمن قرأها ولم يتفكر))[15]، وهي تشبه هذه الآية كثيراً، **{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}** [(١٩٠) سورة آل عمران] فالحاصل أن الإلف هو الذي يمنع الناس من هذا التفكر، وإلا فلو قدِّر أن أحداً من الناس وجد في مكان تحت الأرض، ولد فيه حتى نشأ وترعرع، ثم أخرج من هذا المكان فنظر إلى التربة، وجعل يتلمس ذراتها، وينظر إليها، ثم فجأه طلوع الشمس، وارتفاع الشمس، وتحول الظلام إلى نور تام.. إلى غير ذلك مما يشاهده في يومه وليلته، ثم نظر إلى غروبها، وتحول ذلك إلى ظلام، ثم نظر إلى الكواكب وطلوعها، والنجوم والأفلاك والقمر فإنه لا ينقضي عجبه من ذلك، ولكن الإلف يمنعه من هذا، ولذلك الإنسان الذي ما رأى البحر قط إذا رآه هاله ذلك، وأدرك أنه من أعظم آيات الله -عز وجل-، وهكذا فإن كل من لم يشاهد شيئاً فشاهده لأول وهلة فإن ذلك يشده ويستولي على لبه، فيلجئه إلجاءً إلى التفكر والنظر، ولكنه يحتاج إلى تكلف في هذا النظر إذا كان مما يألفه وتكرر عليه فلا يلفت نظره.

طالب:.........

الأذكار الأحسن أن تقال بعد العصر، وذلك أن الله -عز وجل- ذكر الغدو والآصال، وذكر الذكر طرفي النهار، والآصال: إنما تكون بعد العصر، "**وقفت فيها أصيلاناً** -وأصيلالاً- **أسائلها**" يعني في وقت الأصيل، ويطلق ذلك غالباً على بدء اصفرار الشمس وذبولها، فهذا هو الطرف الأخير من النهار فهذا وقت للذكر، وفي أوله، فهذا هو الأحسن، فمن قالها بعد الظهر أجزأته، ومن قالها بعد المغرب أجزأته، ولكن الأحسن أن تقال بعد العصر، والله أعلم.

طالب:.........

---

15 - أخرجه ابن حبان في كتاب الرقائق، باب التوبة [ج٢- ص ٣٨٦ - ٦٢٠] وقال شعيب الأرنؤوط : "إسناده صحيح على شرط مسلم" وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب [ج٢- ص ٨٨].

لا، إذا كان لم يتحقق من ذلك فلا يجوز له أن يتكلم بلا علم، فإن كان ذلك مما يعرفه ولا يخفى فهذا يبين لهم، أما الأشياء التي تحتاج إلى استنباط وتحتاج إلى فهم دقيق، هو لم يتأهل لهذا فيقول لهم: اسألوا أهل العلم، أو ينقل لهم إذا كان يضبط هذا النقل، يقول لهم: سمعت فلانا يقول كذا، قرأت لفلان كذا.

طالب:.......

لا، لا أبداً، وماذا تقول في قوله: **{أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}** [(١٦١) سورة البقرة] ما يمكن هذا.

طالب:.......

الليلة تكون سابقة ليومها هذا صحيح، **{وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ}** [(٤٠) سورة يس] فلا يحصل فيه اختلال على هذا الترتيب الذي رتبه الله -عز وجل-، **{لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ}** [(٤٠) سورة يس] فهذا يأتي بعد هذا، لا يرجع فيتقدم عليه أو يتأخر عنه، وإنما بحسب ما رسمه الله -عز وجل-، وإلا فما تقول في قوله: **{لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ}** [(٤٠) سورة يس] والشمس هي آية النهار، إذاً النهار لا يدرك الليل، فهذا لا يمكن هو ليل ونهار، فهذا يأتي بعد هذا، بمعنى أن ذلك النظام لا يختل، فلا يخرج عما رسمه الله -عز وجل- له، هذا المراد.

طالب:........

"قال: قلت" إي هذا الذي عندنا، لكن هل وجدته في شيء من الأصول الأخرى؟

طالب:........

فقط؟

طالب:........

لكن هل فيه: "قالت: قلت"؟

طالب:........

خلاص إذاً نعدلها، هي صفحة كم؟

طالب:.........

صفحة (١١٩) انظروا **{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ}** [(١٥٨) سورة البقرة] "روى الإمام أحمد عن عروة عن عائشة" الذي في المسند ماذا؟

طالب:........

"قال: قلت" إذاً نمسح "قالت" ونضع "قال"، "قال: قلت" جزاك الله خيراً.

طالب:........

يحتمل، لكن أنت راجعتَ ضبطها؟

طالب:........

ما راجعتها، المشرفة: المرتفعة، هي تبحث عن أحد تراه من مكان تُشرف فيه، فيحتمل هذا، وهي أيضاً مشرَّفة.

طالب:........

كيف؟

طالب:........

أنا لا أدري بأيها تضبط فعلاً، لكن أقول لك: هذا له وجه وهذا له وجه، إن استطعت أن تراجعها لنـــا فهــذا جيد.

طالب:.......

الأصل فيه التتابع والاتصال، لكنه إن قطعه لعذر كأن يستريح لطوله ونحو هذا، أو يشرب أو يصلي فهــذا لا إشكال فيه، فإن قطعه قطعاً يطول عرفاً من غير عذر فمثل هذا ذهب كثير من أهل العلم إلى أنه يستأنف من جديد.

طالب:........

هم غيروا وبدلوا كثيراً، طيب ماذا تقول في فرقة السامرة حينما يستقبلون جبلاً بالشام، ويضللون إخوانهم من اليهود، ويقولون: ليست القبلة التابوت ولا الصخرة ولا بيت المقدس ماذا تقول فيهم؟ طيب هم حينمـــا كـــانوا يستقبلون التابوت في كل مكان يذهبون إليه في أسفارهم ينقلونه معهـــم، مـــا يـــستقبلون بيـــت المقـــدس ولا الصخرة، فصاروا يستقبلون الصخرة لما رفع التابوت، ومتى رفع التابوت؟...

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير سورة البقرة (٧٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [(١٦٥-١٦٧) سورة البقرة]: "يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا، ومآلهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أنداداً أي أمثالاً ونظراء يعبدونهم معه، ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له، ولا ند له، ولا شريك معه."

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ}** [(١٦٥) سورة البقرة] الأنداد سبق مراراً في دروس متعددة كشرح كتاب التوحيد وغيره أن الند هو: النظير المناوئ، تقول: فلان ند لفلان أي نظير له مناوئ، فهو أخص من مطلق النظير، **{أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ}** [(١٦٥) سورة البقرة] قوله: **{يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ}** [(١٦٥) سورة البقرة] يحتمل معنيين، يحتمل أن يكون المراد كما قال ابن كثير هنا: كحبه، أي كما يحبون الله، سوّوا بين محبة هؤلاء الأنداد وبين محبة الله -تبارك وتعالى-، فكانت محبتهم بهذا الاعتبار محبة شركيةً ناقصة، ونقصانها أنهم قد صرفوا جزءا منها إلى هؤلاء الأنداد والنظراء، وهذا الذي عليه كثير من المحققين من أهل العلم كالشيخ تقي الدين ابن تيمية -رحمه الله- وتلميذه ابن القيم، وهو الذي مشى عليه ابن كثير هنا، فيكون معنى: **{كَحُبِّ اللّهِ}** [(١٦٥) سورة البقرة] أي كما يحبون الله، ولهذا كانت محبة أهل الإيمان كاملة؛ لأنه لم يصرف نصيب منها لشيء من الأنداد والنظراء والآلهة، ولهذا قال: **{وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ}** [(١٦٥) سورة البقرة].

والمعنى الآخر الذي تحتمله الآية هو أن قوله: **{يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ}** [(١٦٥) سورة البقرة] أي كحب المؤمنين لله، ثم بيّن أن حب المؤمنين أكمل من حب هؤلاء المشركين، وذلك أن حب هؤلاء المشركين لله ليس بخالص وإنما هو مبعض، فجعلوا جزءا ونصيباً من هذه المحبة لغيره، وأما أهل الإيمان فمحبتهم خالصة، فهذا المعنى كما ترون ليس هو الظاهر المتبادر، وقد لا يخلو من إشكال، يعني كأنه يقول: يحبونهم كما يحب المؤمنون الله، ثم يقول: **{وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ}** [(١٦٥) سورة البقرة] في البداية جعل محبتهم بمنزلة محبة المؤمنين لله، ثم قال: إن الذين أمنوا أكثر حباً لله منهم، فكأنه ليس كالقول الأول في ظهوره ورجحانه بهذا الاعتبار، فكيف يقول: **{كَحُبِّ اللّهِ}** [(١٦٥) سورة البقرة] يعني: كحب المؤمنين لله ثم جعل حب المؤمنين لله أكمل؟! بينما الأول لا إشكال فيه، **{يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ}** [(١٦٥) سورة البقرة] أي كمحبتهم هم لله، فكانت محبة

أهل الإيمان أكمل وأعظم؛ لأنه لا تشريك فيها، فرجحان القول الأول ظاهر، وليس فيه إشكال، والله تعالى أعلم.

"وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك))[1].

وقوله: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ} [(١٦٥) سورة البقرة] **ولحبهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده، ويتوكلون عليه، ويلجئون في جميع أمورهم إليه."**

هو يشير إلى سبب نقص محبة المشركين أنها مبعضة، شرّكوا فيها فنقص جزء منها أو شطرها فصارت لتلك الأنداد، وعلى كل حال القول الثاني: كحب المؤمنين لله، قال به طائفة من السلف فمن بعدهم، وهو اختيار ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

"ثم توعد تعالى المشركين به، الظالمين لأنفسهم بذلك فقال: {وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً} [(١٦٥) سورة البقرة] **يقول: لو يعلمون ما يعاينونه هنالك، وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال."**

لاحظ الآن كيف فسر قوله: **{وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ}** [(١٦٥) سورة البقرة] ماذا قال؟ قال: "لو يعلمون" ففسّر الرؤية هنا بالعلم، والرؤية تارة تكون بصرية، وتارة تكون علمية، رؤية بالعلم، ورؤية بالقلب، والآية هنا تحتمل المعنيين، وفيها قراءات ثلاث متواترة، قراءة الياء هذه **{وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ}** [(١٦٥) سورة البقرة] وهي قراءة أهل مكة وأهل الكوفة وأبي عمرو البصري، وهي القراءة التي نقرأ بها.

فعلى هذه القراءة يحتمل أن يكون المراد بذلك العلم، أي: "لو يعلمون" كما قال ابن كثير، ويحتمل أن يكون المراد بذلك الرؤية البصرية، فيكون المعنى: **{وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ}** [(١٦٥) سورة البقرة] في الدنيا عذاب الآخرة لعلموا حين يرونه: **{أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً}** [(١٦٥) سورة البقرة]، فيكون **{إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ}** [(١٦٥) سورة البقرة] أي: يعاينونه بأبصارهم، فالرؤية هنا في: **{إِذْ يَرَوْنَ}** [(١٦٥) سورة البقرة] يمكن أن تكون بصرية، أي: حين يرون العذاب وشدة النكال لعلموا أن القوة لله جميعاً.

ويحتمل أن تكون الرؤية "علمية" لو يعلمون حقيقة قوة الله وشدة عذابه لتبينوا ضرر اتخاذهم للآلهة، فصارت الرؤية علمية.

والقراءة الثانية بالتاء **{ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب}** ففي قراءة التاء الخطاب ظاهره أنه موجه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب لعلمت أن القوة لله جميعاً، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يعلم ذلك قطعاً، وهو أعلم الناس بالله -عز وجل-، وبشرعه وجزائه، وهو أخشاهم لله لكمال علمه، ولكن المراد بذلك أمته، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يُخاطب تارة ويراد أمته

---

1 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قول الله: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] [ج٤- ص١٦٢٦- ٤٢٠٧] وفي باب تفسير سورة الفرقان [ج٤- ص١٧٨٤- ٤٤٨٣] وفي كتاب الأدب، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه[ج٥- ص٢٢٣٦- ٥٦٥٥] وفي كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب إثم الزناة [ج٦- ص٢٤٩٧- ٦٤٢٦] وفي كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً} [(٢٢) سورة البقرة] [ج٦- ص٢٧٣٤ - ٧٠٨٢] ومسلم في كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده [ج١- ص٩٠ -١٤١].

بهذا الخطاب، وهذا كثير في القرآن، فالأمة كما سبق مراراً قد تخاطب في شخص قدوتها -عليه الصلاة والسلام-، وهذا الذي اختاره ابن جرير الطبري -رحمه الله- في تفسير قوله: **{ولو ترى}** أي يا محمد، والمراد أمته؛ لأنه أعلم الأمة بالله -عز وجل-، فما يقال في حقه: "لعلمْتَ أن القوة لله جميعاً"؛ لأنه يعلم ذلك، وله كمال العلم في هذه القضية.

أما القراءة الثالثة فهي في قوله: **{إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ}** [(١٦٥) سورة البقرة] قرئت بالمبني للمجهول: **{إذ يُرون}** وعلى هذه القراءة تكون الرؤية في الثانية بصرية، وعلى القراءة الأولى: **{إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ}** [(١٦٥) سورة البقرة] أيضاً الرؤية بصرية، يعني يعاينونه بأبصارهم، والاختلاف إنما هو في الأولى "ولو ترى"، "ولو يرى" والله أعلم.

"ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم، وتبري المتبوعين من التابعين، فقال: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ} [(١٦٦) سورة البقرة] تبرأت منهم الملائكة التي كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا."

قوله: **{إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ}** [(١٦٦) سورة البقرة] يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: **{إِذْ يَرَوْنَ}** [(١٦٥) سورة البقرة] الذي سبق، فيكون المعنى: "ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله، ولو يرى الذين ظلموا إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا"، "ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب في ذلك الحين يتبرأ المتبِّعون من المتبَّعين" إذا رأوا العذاب في ذلك الحين يحصل التبرؤ بين الأتباع والمتبوعين، فيكون: "إذ تبرأ الذين اتبعوا" بدل من قوله: "إذ يرون العذاب" فهم إذ يرون العذاب ما الذي يحصل؟ يحصل التبرؤ بين الأتباع والمتبوعين.

"فتقول الملائكة: {تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ} [(٦٣) سورة القصص] ويقولون: {سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ} [(٤١) سورة سبأ]."

يعني كل من عُبد من دون الله يتبرأ من عابديه، فالملائكة عبدتهم بعض العرب فهؤلاء يتبرءون، والجن من عبدهم تبرءوا منه، والصالحون والأنبياء من عبدهم تبرءوا منه وهكذا، حتى الشيطان يتبرأ من أتباعه.

"والجن أيضاً تتبرأ منهم، ويتنصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [(٥-٦) سورة الأحقاف] وقال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [(٨١-٨٢) سورة مريم] وقال الخليل -عليه السلام- لقومه: {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ} [(٢٥) سورة العنكبوت] وقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [(٣١-٣٣) سورة سبأ] وقال تعالى: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا

قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(٢٢) سورة إبراهيم].

وقوله: {وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ} [(١٦٦) سورة البقرة] أي عاينوا عذاب الله، وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص، ولم يجدوا عن النار معدلاً ولا مصرفاً، قال عطاء: عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ} [(١٦٦) سورة البقرة] قال: المودة، وكذا قال مجاهد في رواية ابن أبي نجيح."

{وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ} [(١٦٦) سورة البقرة] أي جميع الصلات التي كانت بينهم في الدنيا، لم يعد هناك بينهم وشيجة ولا سبب للنجاة، تقطعت بينهم المودة وأسباب الخلاص والنجاة، فصار كل واحد مرتهن بعمله.

"وقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا} [(١٦٧) سورة البقرة] أي: لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم، بل نوحد الله تعالى بالعبادة، وهم كاذبون في هذا، بل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون، كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك، ولهذا قال: {كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ} [(١٦٧) سورة البقرة] أي: تذهب وتضمحل، كما قال تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا} [(٢٣) سورة الفرقان] وقال تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ} [(١٨) سورة إبراهيم].. الآية، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء} [(٣٩) سورة النور].. الآية، ولهذا قال تعالى: {وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [(١٦٧) سورة البقرة]."

قوله: **{كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ}** [(١٦٧) سورة البقرة] قال: تذهب وتضمحل، هي تذهب وتضمحل وأكثر من هذا، فهي ليست تذهب وتضمحل فقط، بل تكون عليهم حسرات، والحسرات: جمع حسرة: وهي أعظم الشدة والضيق، ويكون الإنسان بسبب ذلك في حال لا يحسد عليها، قد انقطعت به الأسباب، ويحصل له بسبب ذلك من الألم ما لا يقادر قدره.

{يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ} السيئة **{حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ}** [(١٦٧) سورة البقرة] فتكون سبباً لآلام نفوسهم وقلوبهم، وسبباً للشدة الواقعة بهم، فيتمنى الواحد منهم أن بينه وبينها بعد المشرقين، وأنه لم يفعل شيئاً من ذلك، ولم يقارف منها شيئاً، ولهذا يقولون: **{يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}** [(٤٩) سورة الكهف].

"{يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [(١٦٨-١٦٩) سورة البقرة] لما بيّن تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقل بالخلق، شرع يبيّن أنه الرزاق لجميع خلقه."

هذا الكلام الذي يذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا هو ما يعرف بالمناسبة بين الآية وبين الآية التي قبلها، والمقصود بالمناسبة: وجه الارتباط بين الآية وما قبلها، وهناك أنواع أخرى من المناسبة على كل

حال، لكن هنا يقرر وجه الارتباط بين الآية وبين ما قبلها، لما بيّن تعالى أنه لا إله إلا هـو، وأنـه المستقل بالخلق شرع يبيّن أنه الرازق لجميع خلقه.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً} [(١٦٨) سورة البقرة] سُمي (حلالاً) ربما لانحلال عقدة الحظر عنه، **{وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}** [(١٦٨) سورة البقرة] خطـوات الـشيطان: جمـع خُطـوة، والخطوة تقال بالفتح خَطوة، وتقال بالضم خُطوة، والخَطوة: هي واحدة الخَطْو، تقول: خطوت خطوة، يعنـي واحدة، خطوتين، ثلاث، والخُطوة: هي ما بين القدمين حال الخَطْو، وأما الخَطوة: فهي الواحدة، تقـول: هـذه خَطوة، خَطَوات الدرس كما يقال، وخَطَوات الموضوع، والخَطَوات التي نسير عليها، المقصود بها الواحـدة، وتجمع على خَطَوَات، خَطوة خَطَوَات، فَعْلَة فَعَلات، هذا هو الأصل أنه بـالفتح تقـول: حلَقـات وحـسَرات وزفَرات إلا لضرورة الشعر، يقول الشاعر:

حُمّلتُ زفْـرات الـضحى فأطقتهـا   وما لي بزفْـرات العـشيِّ يـدانِ[2]

قال: (بزفْرات) وهذا قليل جداً، وهو يرد في ضرورة الشعر.

طالب: يقول الأصفهاني: "الحسرُ: كشف الملبس عما عليه، يقال: حسرت عن الذراع، والحاسر: من لا درع عليه ولا مغفر.

لا، هات الحسرات.

طالب: هو ذكر المعنى ثم سرد الآيات التي ذُكرت فيها.

قال: "والحاسر من لا درع عليه ولا مغفر، والمحسرة المكنسة، وفلان كريم المحسّر كناية عـن المختبـر، وناقة حسير: انحسر عنها اللحم والقوة، ونوق حسراء، والحاسر: المعيا لانكشاف قـواه، ويقـال للمعيـا: حاسر ومحسور، أما الحاسر فتصور أنه قد حسر بنفسه قواه، وأما المحسور فتصور أن التعب قد حـسره، وقوله -عز وجل-: {يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ} [(٤) سورة الملك] يصح أن يكون بمعنى حاسـر، وأن يكون بمعنى محسور، قال تعالى: {فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} [(٢٩) سورة الإسراء] والحسرة: الغم على مـا فاته والندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على مرتكبه، أو انحسرت قواه من فرط غم، أو أدركه إعياء من تدارك ما فرط منه، قال تعالى: {لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ} [(١٥٦) سورة آل عمران] وقال: {وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ} [(٥٠) سورة الحاقة] وقال تعالى: {يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِـي جَنـبِ اللَّـهِ} [(٥٦) سورة الزمر] وقال تعالى: {كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ} [(١٦٧) سـورة البقـرة]، وقولـه

---

[2] – هذا البيت من قصيدة نونية طويلة عدتها ثلاثة وسبعون بيتاً لعروة بن حزام العذري، المتوفى -على ما ذكر الذهبي في تاريخه- في خلافة عثمـان سنة ثلاثين من الهجرة، لعشر بقين من شوال، وقيل: سنة ثمان وعشرين، ومن محاسن شعره قصيدته هذه التي ضمنها حكاية حاله بألفاظ رقيقة، ومعان أنيقة يقول في مطلعها:

خليلي من عليا هلال بن عامر *** بصنعاء عوجا اليوم وانتظراني

ولا تزهدا في الأجر عندي واجعلا *** فإنكما بي اليوم مبتليان

يُنظر: خزانة الأدب (ج١/ص٤٣٢) وتزيين الأسواق في أخبار العشاق (ج١/ص٦٠) وشرح ابن عقيل (ج٤/ص١١٢) وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك (ج١/ص٤٣٨).

تعالى: **{يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ}** [(٣٠) سورة يـــس]، وقوله تعالى في وصف الملائكة: **{لَا يَـسْتَكْبِرُونَ عَـنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ}** [(١٩) سورة الأنبياء]...[٣].

ولا يستحسرون أي: لا ينقطعون، والكلمة في كل استعمالاتها ترجع إلى معنى الكلال والانقطاع، حسير: يعني كليل، **{يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ}** [(٤) سورة الملك] يعني كليل، ومنه قول الشاعر:

بها جيف الحسرى فأما عظامها فبيضٌ وأما جلدها فصليبُ[٤]

يصف الشاعر بيداء -صحراء- واسعة، لا يقطعها إلا الواحد بعد الواحد من الناس، يقول: قطعتها وبها جيف الحسرى، وهي النوق تنقطع في السفر من طول المشي والمسير، فتحرِن الواحدة منها في مكانها، ولا تقوم منه وتموت، وينقطع بها السير لشدة ما يلحقها من التعب.

يقول: "**بها جيف الحسرى**" وهي الإبل والدواب المنقطعة من طول المسير، "**فأما عظامها فبيض**" أي: تلوح عظامها ميتة من زمان متفسخة، "**وأما جلدها فصليبُ**" جلودها يابسة.

فالمقصود -على كل حال- أن قوله: **{حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ}** [(١٦٧) سورة البقرة] جمع حسرة، وهي شدة الضيق والغم الذي يحصل لهم بسبب التفريط والتضييع، ولذلك هنا لما قال: إنها ذهبت واضمحلت فيكون ذلك سبباً لهذا الغم الذي وقع لهم، إذا رأوا أعمالهم قد ذهبت واضمحلت ما الذي يحصل؟ يحصل لهم الحسرة، **{يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ}** [(٥٦) سورة الزمر].

"فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً..."

---

3 - غريب القرآن للأصفهاني (ج١/ص١١٨).

4 - هذا البيت من قصيدة طويلة لعلقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس، مطلعها:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ في الحِسَانِ طَرُوبُ *** بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حانَ مَشِيبُ

يُكَلِّفُنِي لَيْلَى وقد شَطَّ وَلْيُهَا *** وعادَتْ عَوَادٍ بيننا وخُطُوبُ

يُنظر: خزانة الأدب (ج٣/ص١٠٦) والجليس الصالح والأنيس الناصح (ج١/ص٢٣٩) والمفضليات (ج١/ص٧١) ومنتهى الطلب من أشعار العرب (ج١/ص١٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٧١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

"لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقل بالخلق شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه، فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله طيباً، أي: مستطاباً في نفسه غير ضارٍ للأبدان ولا للعقول، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وهي: طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البَحَائر والسوائب والوصائل ونحوها مما كان زيّنه لهم في جاهليتهم، كما في حديث عياض ابن حمار -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- الذي في صحيح مسلم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((يقول الله تعالى: إن كل مال منحته عبادي فهو لهم حلال)) وفيه: ((وإني خلقت عبادي حُنَفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم))[1].

وقوله: {إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [(١٦٨) سورة البقرة] **تنفير عنه وتحذير منه، كما قال: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}** [سورة فاطر(٦)] **وقال تعالى: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا}** [سورة الكهف (٥٠)].

وقال قتادة والسدي في قوله: {وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} [(١٦٨) سورة البقرة] **كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان.**

وروى عبد بن حميد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: "ما كان من يمين أو نذر في غضب فهو من خطوات الشيطان، وكفارته كفارة يمين."

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد مضى بعض الكلام بالأمس على قوله -تبارك وتعالى-: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}** [(١٦٨) سورة البقرة] وعرفنا معنى الخطوات من جهة اللغة، وهنا قال: "كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان" وهذا التفسير تفسير صحيح، إذ إن اتباع خطوات الشيطان هو اتباع مسالكه وطرائقه، وما يزينه للناس، ويمليه لهم، هذه هي خطوات الشيطان، فيكون الإنسان متبعاً له، مطيعاً له، والشيطان كما هو معلوم إنما يأتي كل إنسان بحسب حاله، فهو -كما يقول ابن القيم -رحمه الله-: يشم قلبه، فإن رأى فيه ميلاً إلى التشديد جاءه من هذا الباب فأوقعه في الغلو، وإن كان فيه ميل إلى الشهوات جاءه من هذا الباب، وإذا كان فيه ميل إلى الجهاد جاءه من هذا الباب، وإذا كان فيه ميل إلى الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والغيرة جاءه من هذا الباب، وهكذا فهو يزين له شيئاً فشيئاً

---

1 - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (ج٨/ص١٥٨- ٧٣٨٦).

يوقعه في أمر ثم يجره ذلك إلى ما بعده، حتى يوقعه في الأمر العظيم الذي ربما لم يخطر في بال هذا الإنسان أنه سيصل إليه في يوم من دهره.

{إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [(١٦٨) سورة البقرة] أي ظاهر العداوة، ليست عداوته بخافية عليكم، وأصل العداوة معروفة، وأظن سبق الكلام على هذا المعنى، وأن أصله في كلام العرب مأخوذ من أن أحد المتعاديين في عدوة والآخر في العدوة الأخرى، وعدوة الوادي هي شقه وجانبه، كما يقال في الشقاق والمشاقة هذا في شق وهذا في شق، والمحادة هذا في حد وهذا في حد وهكذا.

"وقوله: {إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [(١٦٩) سورة البقرة] أي: إنما يأمركم عدوّكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم، فيدخل في هذا كل كافر وكل مبتدع أيضاً."

{إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء} [(١٦٩) سورة البقرة] (إنما) تدل على الحصر، يعني هو لا يأمركم إلا بهذا، والسوء ربما سمي بذلك لأنه يسوء صاحبه إذا وجده في صحائف أعماله.

{وَالْفَحْشَاء} [(١٦٩) سورة البقرة] هي لون من السوء، فيكون ذلك من قبيل عطف الخاص على العام، إذ إن الفحشاء هي سوء خاص، فكل ما يسوء صاحبه فهو سوء، ولكن الفحشاء نوع منه أعظم، هذه الفحشاء هي السوء العظيم، وأصلها سوء المنظر وفظاعته، وتُستعمل في كل ما يقبح من المعاني، وإلا فإن الفحشاء يقال فيما يفحش أي يعظم، ولذلك تقوله حتى في الأمور الحسية تقول: هذا مال فاحش، يعني كثير، فصارت تُستعمل في الاستعمال الخاص في الذنوب القبيحة العظيمة، وربما أطلقت على بعضها كالزنا وما في معناه، ولهذا بعضهم يقول: الفحشاء إذا أطلقت فهي الزنا وما في معناه الفحشاء والفاحشة، وهذا غير دقيق، وبعضهم يفرق بين المعرف بـــ(أل) الفاحشة والفحشاء والمنكر (فاحشة)، وبعضهم يقول: إن ما جاء منه مقيداً كقوله -تبارك وتعالى-: {مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} [(٣٠) سورة الأحزاب] فإن المراد به عقوق الزوج، والتطاول على الأحماء، وإذا جاءت معرفة بـــ(أل) الفاحشة فهي الزنا وما في معناه، وإذا جاءت منكرة فهي كل ذنب عظيم، وهذا الكلام أيضاً غير دقيق، فالحاصل أن الفاحشة هي الذنب العظيم، ويطلق في عرف الاستعمال كثيراً على الزنا وما في معناه.

{وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ} [(٣٧) سورة الشورى] فهنا كبائر الإثم يدخل فيها الزنا، فذكْر الفواحش بعدها يكون من عطف الخاص على العام، ما ظهر منها وما بطن، كما يقولون: الزنا سراً مع الخليلات، والزنا علانية وجهراً مع البغايا اللاتي يعلن ذلك، ويعرضن أنفسهن لكل من هب ودب ودرج.

على كل حال إنما يأمركم بالسوء وهو كل ما يسوء ويقبح، من كل ذنب ومعصية، والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون.

"{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ} [سورة البقرة (١٧٠ - ١٧١)]

يقول تعالى: {وَإِذَا قِيلَ} لهؤلاء الكفرة من المشركين: {اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ} على رسوله، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل، قالوا في جواب ذلك: {بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا} أي: وجدنا {عَلَيْهِ آبَاءَنَا}."

الضمير في قوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا} [(١٧٠) سورة البقرة] يرجع إلى أي شيء؟ يحتمل أن يرجع إلى موضع سابق، وهو قوله -تبارك وتعالى-: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ} [(١٦٥) سورة البقرة]... الآية التي تكلمنا عليها بالأمس، والمعنى إذا قيل لهؤلاء الذين اتخذوا الأنداد من دون الله يحبونهم كحبه على أرجح المعنيين في (كحبه) قالوا ذلك، هذا المقصود في مرجع الضمير.

ويحتمل أن يكون عائداً إلى ما ذُكر من الناس في الآية التي قبلها، وهي قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [(١٦٨) سورة البقرة]، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا} [(١٧٠) سورة البقرة] فعلى هذا يكون من قبيل الالتفات، والمقصود بالالتفات: أن يرد التنويع فيها باستعمال الضمائر ونحوها، يعني مثلاً في قوله: {حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ} [(٢٢) سورة يونس] هذا الضمير للمخاطب، {وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ} [(٢٢) سورة يونس] الضمير للغائب والمحدث عنه واحد، فهذا من التفنن في الخطاب، وله فوائد: منها: تنشيط السامع، وغير ذلك مما يذكرونه، وهو من ضروب البلاغة، فإذا قيل: إن قوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ} [(١٧٠) سورة البقرة] يرجع إلى الناس، يكون هذا من قبيل الالتفات: لأن في {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} [(١٦٨) سورة البقرة] الخطاب يكون للمخاطب، ثم قال: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ} [(١٧٠) سورة البقرة] وهم الناس الذين خاطبهم قبل قليل، قال: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا} [(١٧٠) سورة البقرة] فيكون هذا من قبيل الالتفات والتفنن في الخطاب، تحوّل من خطاب المخاطب إلى الغائب، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري أنها تعود إلى ما قبلها وهو قوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا} [(١٧٠) سورة البقرة].

والذين حملوها على قوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً} [(١٦٥) سورة البقرة] كأنهم استشكلوا كيف يكون ذلك عائداً إلى الناس قبله من قوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ} [(١٦٨) سورة البقرة] وليس كل الناس إذا قيل لهم: {اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا} [(١٧٠) سورة البقرة] وهذا ليس فيه إشكال والله أعلم؛ لأن المخاطب بذلك هم الناس وليس أهل الإيمان، والناس في أغلبهم على هذه الحال، خاطبهم القرآن، وخاطبهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فأبى أكثر الناس إلا كفوراً، وكان اعتلالهم كثيراً باتباع الآباء والأجداد وتقليدهم، والتمسك بما ألفوا عليه آباءهم، والله أعلم.

"{بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا} [(١٧٠) سورة البقرة] أي: وجدنا {عَلَيْهِ آبَاءنَا} أي: من عبادة الأصنام والأنداد، قال الله تعالى منكرًا عليهم: {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ} أي: الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم {لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ} [(١٧٠) سورة البقرة] أي: ليس لهم فهم ولا هداية.

وروى ابن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنها نزلت في طائفة من اليهود دعاهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى الإسلام فقالوا: "بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا" فأنزل الله هذه الآية.

ثم ضرب لهم تعالى مثلاً كما قال تعالى: {لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ} [(٦٠) سورة النحل] فقال: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(١٧١) سورة البقرة] أي: فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالدواب السارحة التي

لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعق بها راعيها أي: دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط."

يعني الآن على كلام ابن كثير -رحمه الله- هنا يكون هذا المثل مضروباً في الداعي أم في المدعو الذي لا يستجيب ولا يرعوي؟ في المدعو، مع أن الله -عز وجل- يقول: **{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء}** [(١٧١) سورة البقرة] لاحظ "كمثل الذي ينعق..." فهذه الآية على قول ابن كثير هي مثل ضرب في المدعو، وقوله: **{كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء}** [(١٧١) سورة البقرة] قالوا: هذا ليس بمقصود أن الله أوردها من أجل أن يمثل حال الداعي وإنما المقصود بها حال أولئك الذين لا ينتفعون من هذه الدعوة، ولا تنفتح قلوبهم، ولا يستجيبون لدعاء هذا الداعي، أو هذا الرسول كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداءً، وهذا المعنى الذي ذكرته -أنها في المدعو- هو اختيار ابن جرير الطبري -رحمه الله-، هذا مثل ضربه الله في الكفار، حيث لا يجدي معهم الوعظ ولا النصح ولا التذكير ولا الدعوة.

وبعض أهل العلم يقول: هي في الداعي والمدعو، يعني هي تصور حال هؤلاء الكفار وحال من يدعوهم، فمثل الذي ينعق، ينعق: بمعنى يصيح، حينما يزجر غنمه، ويصيح بها، هي تسمع صوته لكن هل تفهم؟ هل تدري ما يقول؟ هي لا تفهم شيئاً **{كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء}** [(١٧١) سورة البقرة] يسمع دعاءً ونداء، فهم صم لا يسمعون سماع انتفاع، وبكم لا يتكلمون بالحق، وعميٌ لا يبصرون الحق ودلائله، هذا حالهم، فهي مثل يصور حال الداعي والمدعو الذي هذه صفته، هكذا بعض أهل العلم يقول.

لكن على قول من قال: إن هذه الآية في المشركين مع دعائهم لأصنامهم، يكون الكلام هكذا: "ومثل الذين كفروا حينما يدعون آلهتهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء" فصارت الآن ليست في الداعي بمعنى الدعوة إلى الله، الداعي بمعنى السائل، والمدعو هو المعبود من دون الله -عز وجل-، هذه الأصنام والأنداد أو المقبورون -الموتى-، فهم حينما يصيحون بآلهتهم ويدعونها ويخاطبونها يتقربون إليها بألوان القربات فهذه الأصنام والموتى أولئك لا يستجيبون لهم، وهم عن دعائهم غافلون، فلا يعون ما يقوله لهم هؤلاء الناس، يخاطبون أحجاراً ويدعونها، ويتقربون إليها، وربما يقولون عندها بعض الأوراد والأذكار.. وما إلى ذلك، وهي لا تسمعهم، فبعض أهل العلم يقول: هذا المثل في حال المشركين مع معبوداتهم، "مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداء" هذا القول وإن قال به جماعة من السلف والخلف -رضي الله تعالى عنهم-، لكنه لا يخلو من إشكال، وذلك أن الله -عز وجل- قال: **{كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء}** [(١٧١) سورة البقرة] الآن إلا دعاءً ونداء، الأصنام هل تسمع دعاءً ونداء؟ تسمع شيئا؟ ما تسمع شيئا أصلاً، لا تسمع دعاءً ولا نداءً فضلاً عن أن تنتفع، لكن البهائم تسمع الدعاء والنداء، تسمع صياحا، يصيح بها الراعي، فهذا يرجح القول الأول بأن هذا مثل لهؤلاء المدعوين حينما توجه إليهم الدعوة، فهم إنما يسمعون قولاً وكلاماً دون أن يفقهوا حقيقته ومعناه، فهم لا ينتفعون، ولهذا قال: **{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ}** [(١٧١) سورة البقرة] والله أعلم.

طالب:.....

بغض النظر ما الذي يتغير بالنسبة لهذا القول؟

طالب:.....

لا هذا فيه بعد، ولا حاجة لحمله على المنقطع أصلاً، والأصل في الاستثناء الاتصال وليس الانقطاع، هذا هو الأصل وليس الانقطاع، وبالتالي لا حاجة لهذا أصلاً، المعنى يتضح ولا يسمع إلا دعاء ونداء، والدعاء مما يسمع، فما في حاجة، والله أعلم.

فعلى كل حال إذا كانت في الداعي والمدعو على طريقة ابن جرير -رحمه الله- في أن هذه الآيات أصلاً في أهل الكتاب لا سيما اليهود، وهو يرى أن هذه الآية في اليهود **{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء}** [(١٧١) سورة البقرة] فيدخل فيها اليهود، ويدخل فيها طوائف الكفار، بجميع أديانهم ومللهم، ويدخل فيها على كل حال النصارى كذلك والمشركون من العرب.

طالب:.....

إنه ماذا؟ ما هو القول الثاني الذي ذُكر عندك؟

يراجع هذا، انظر تفسير ابن جرير عندك هنا.

ابن جرير -رحمه الله- يقول: إن هذا مثل لهؤلاء المدعوين حيث توجه إليهم الدعوة ولا ينتفعون بها، هذا مثل في وعظ الكافر وواعظه، على كل حال هو يحمل الآية على اليهود، ويرد على من قال إنها في دعاء المشركين لآلهتهم وأصنامهم بأمور، منها ما ذُكر هنا من قوله: **{بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء}** [(١٧١) سورة البقرة] وكذلك في قوله بعده: **{إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ}** [(١٧٣) سورة البقرة]... إلى آخره، رد على اليهود حيث حرموا على أنفسهم بعض ما أحل الله -عز وجل-، وعلى كلٍ يدخل فيها اليهود وغير اليهود؛ لأن المشركين أيضاً حرموا على أنفسهم أشياء كما هو معروف مما ذكره الله في سورة الأنعام، قالوا: **{هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء}** [(١٣٨) سورة الأنعام].

"هكذا روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وأبي العالية ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والربيع بن أنس نحو هذا.

وقوله: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ} [(١٧١) سورة البقرة] أي: صمٌّ عن سماع الحق، بكمٌ لا يتفوهون به، عمي عن رؤية طريقه ومسلكه {فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ} [(١٧١) سورة البقرة] أي: لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه."

يعني حيث عطلت هذه الحواس وما في معناها فصارت كالعدم فصاروا (صم بكم عمي)، مع أن الله أثبت لهم أبصاراً، فقال: **{وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم}** [(٢٦) سورة الأحقاف] فإذا عطلها الإنسان صارت كالعدم، وبالتالي صح أن يطلق عليه أنه أصم وأبكم وأعمى.

طالب:.....

الذي هو في المدعو، مثل الذي ينعق بغنمه وليس في الأصنام، هكذا عندك في ابن كثير أنها في الأصنام؟

طالب:.....

من الذي قال الأول؟

طالب:.....

إذن يعلق على هذا من كلام ابن جرير فيما نقله ابن كثير بأن الذي رجحه ابن جرير –رحمه الله– هو أنها في الداعي والمدعو الذي لا يستجيب ولا ينتفع بالدعوة، وليس في دعاء الكفار لأصنامهم، يعلق على هذا بأن اختيار ابن جرير هو هذا، والله أعلم.

طالب:.....

على كل حال قد يكون عند ابن كثير –رحمه الله– نسخة فيها شيء من هذا.

طالب:.....

كيف؟

طالب:.....

ابن كثير –رحمه الله– حينما كتب هذا الكتاب هو يضيف إليه ويحذف منه، فقد يكتب الإنسان شيئاً أحياناً ثم بعد ذلك يمسحه ويتراجع عنه، وما كان عندهم طبعة أولى وطبعة ثانية ومنقحة، فإذا حذف تناقل الناس نسخاً وربما تكون تلك النسخة هي التي طبعت وهذا موجود، وهذه المشكلة واضحة في تفسير ابن كثير، واضح أنه كان يحذف منه أشياء ويضيف إليه أشياء، فلذلك الذي يحقق ابن كثير المفروض أنه ينتبه لهذه القضية أولاً قبل كل شيء حتى لا يظن أن هذا من قبيل السقط ثم يفرح به ويورد مجموع ما في النسخ ويحشره في نسخة واحدة، والنساخ يتساهلون ويتصرفون، وأصحاب الكتب يعلقون أحياناً وربما يُظن أن هذا من كلام المؤلف.

"{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [سورة البقرة (١٧٢ – ١٧٣)] يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عبيده، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمامُ أحمد عن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [سورة المؤمنون (٥١)] وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [(١٧٢) سورة البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك"[2] ورواه مسلم والترمذي."

ولهذا حمل هذه الآية جمع من السلف كعمر بن عبد العزيز –رحمه الله– والضحاك وجماعة على أن المراد بها الكسب الحلال، **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ}** [(١٦٨) سورة البقرة] المقصود بها الكسب الحلال، وكثير من أهل العلم يحملون هذه الآية على أن المقصود بها الامتنان على خلقه، فهذا الأمر أمر إباحة، وتعرفون أن الأمر كما يذكره الأصوليون يأتي لمعان كثيرة منها الأصل أنه يأتي للوجوب، وقد يكون لمعنىً آخر لقرينة كالاستحباب والإباحة ونحو ذلك.

---

2 – في المسند (ج٢/ص٣٢٨– ٨٣٣٠) وهو في مسلم في الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (ج٣/ص ٨٥– ٢٣٩٣)، والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة (ج٥/ص٢٢٠– ٢٩٨٩).

فهنا كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً، على هذا يكون هذا الأمر للإباحة والامتنان، ولهذا الأصوليون يوردون هذه الآية –وكذلك الفقهاء– في مقام الكلام على أن الأصل في الأشياء الحل والإباحة، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، والعبادات الأصل فيها المنع، والفروج الأصل فيها المنع، وبعضهم يذكر الذبائح أيضاً يقول: الأصل فيها المنع إلا ما ذبح أو ذكي بالطريقة الشرعية.

"ولما امتن تعالى عليهم برزقه وأرشدهم إلى الأكل من طيبه..."

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٧٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

"ولما امتنّ تعالى عليهم برزقه، وأرشدهم إلى الأكل من طيبه ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة، وهي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية، وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو متردية أو نطيحة، أو قد عدا عليها السبع.

وقد خصص من ذلك ميتة البحر؛ لقوله تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ} [سورة المائدة (٩٦)] على ما سيأتي -إن شاء الله-، ولحديث العنبر في الصحيح[1]، وفي المسند والموطأ والسنن قوله -عليه السلام- في البحر: ((هو الطهور ماؤه، والحل ميتته))[2]، وروى الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني حديث ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- مرفوعاً: ((أحل لنا ميتتان ودمان، السمك والجراد، والكبد والطحال))[3]، وسيأتي تقرير ذلك -إن شاء الله- في سورة المائدة."

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -رحمه الله- هنا: "**إلا الميتة**" وهي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية، سواء كانت منخنقة أو موقوذة أو متردية، يعني بأي سبب ماتت سوى التذكية، حتى ولو كان بفعل الإنسان، فإن ذلك لا يحلها إلا بالتذكية، اللهم إلا ما جاء في الصيد، سواء كان عن طريق الجوارح والكلاب المعلمة أو الطيور التي يُصطاد بها، أو كان ذلك عن طريق ما تُصاد به مما يحل أكل ما صيدت به كالسهام والرماح ونحو ذلك، وأما ما عدا هذا فإنه لا يحل.

---

1 - يريد بحديث العنبر ما أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب عزوة سيف البحر [ج٤- ص١٥٨٦ - ٤١٠٤] عن جابر -رضي الله عنه- قال: "غزونا جيش الخبط وأمر أبو عبيدة فجعنا جوعاً شديداً، فألقى لنا البحر حوتاً ميتاً لم نر مثله، يقال له: العنبر، فأكلنا منه نصف شهر، فأخذ أبو عبيدة عظماً من عظامه فمر الراكب تحته، فأخبرني أبو الزبير أنه سمع جابراً يقول: قال أبو عبيدة: "كلوا" فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((كلوا رزقاً أخرجه الله، أطعمونا إن كان معكم))، فأتاه بعضهم بعضو فأكله"، وهو أيضاً في كتاب الذبائح والصيد، باب قول الله تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ} [(٩٦) سورة المائدة] [ج٥- ص٢٠٩٣- ٥١٧٤]، وفي مسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب إباحة ميتات البحر [ج٣- ص١٥٣٥- ١٧].

2 - أخرجه أبو داود في الطهارة، باب الوضوء بماء البحر (ج ١/ص٣١- ٨٣) والترمذي في أبواب الطهارة، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور (ج١/ص١٠٠- ٦٩) والنسائي في السنن الكبرى (ج١/ص٧٥- ٥٨) وابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها، باب الوضوء بماء البحر (ج ١/ص١٣٦- ٣٨٦) وأحمد في المسند (ج٢/ص٣٦١- ٨٧٢٠) وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم: (٧٠٤٨).

3 - أخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال (ج ٢/ص١١٠٢- ٣٣١٤) وأحمد في المسند (ج٢/ص٩٧- ٥٧٢٣) والبيهقي في السنن الكبرى (ج١/ص٢٥٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ج٣/ص١١١).

فلو ضرب الصيد بحجر فإنه لا يحل، وكذلك الصبيان مثلاً حينما يضعون الحجر في المقلاع ويرمون به الطائر فإنه لا يحل؛ لأن هذا من قبيل الموقوذة التي رميت بحجر، وكذلك لو صدمه بالسيارة أو نحو هذا، وسيأتي في آية المائدة -إن شاء الله- وجه الاستثناء في آية: **{إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ}** [(٣) سورة المائدة] يعني هل هو يعود إلى المذكورات **{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ}** [(٣) سورة المائدة]...؟ وهل الموقوذة والمتردية والنطيحة إذا أدركت وهي في حال النزع فذكيت هل تحل؟ أو أن ذلك الاستثناء منقطع؟ يأتي -إن شاء الله- تفصيل هذا.

"**مسألة: ولبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره.**"

هذه المسألة جاءت استطراداً، ولو حذفها المختصر وأبقى على ما يتعلق بتفسير الآيات فقط لكان أولى، أو ذكرها على الأقل عند الكلام على آية المائدة مثلاً، أو عند: **{قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ}** [(١٤٥) سورة الأنعام].

يقول: "**لبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره**" لأنه جزء متولد منها، أما بالنسبة للبن فواضح، ويكفي أنه في وعاء نجس؛ لأن الميتة من الأعيان تصير عيناً نجسة، فهذا الوعاء نجس، واللبن شيء قليل من شأنه أن يتغير بهذا الوعاء النجس.

وأما بالنسبة للبيض فقال: "**عند الشافعي وغيره**" مع أن هذا عند الشافعي، ولكن في مذهب الشافعية يُفرق بالنسبة للبيض بين ما كان قشرته صلبة فإنه لا ينجس؛ لأن النجاسة لا تصل إليه، فصار في حكم المنفصل فيجوز أكله، لذا قال: "**لأنه جزء منها**".

والمالكية، يقولون: البيض سواء كان قشره بلغ حال الشدة والصلابة أو لم يبلغ فإنه لا يؤكل؛ لأنه جزء منها.

وتعرفون الذي سأل عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فقال: "ما تقول في رجل وطأ دجاجة ميتة فخرج منها بيضة، ففقست فرخاً، فهل هذا الفرخ الذي صار دجاجة نجس أم طاهر؟ يحل أكله أو ما يحل أكله؟ فقال: من أين أنت؟ قال: من العراق، قال: فعل الله بأهل العراق كذا كذا، يعني أنه سؤال متكلف.

"**وقال مالك في رواية: هو طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة.**"

يعني هو طاهر بنفسه لكنه تنجس بسبب أن هذا الوعاء النجس صار ظرفاً له، وفرق بين قول الإمام مالك وبين المذهب، وقول الشافعي والمذهب، وقول الإمام أحمد والمذهب، وإلا فالأحناف يرون حتى اللبن -لبن الميتة- طاهرا فضلاً عن البيض.

"**وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف.**"

بكسر الهمزة (إِنفحة)، ويقال أيضاً بتشديد الحاء (إنفحّة)، وإنفحة الميتة معروفة، فالعجل الصغير قبل أن يأكل العشب وما في معناها وما زال يرضع من أمه فقط، فإن هذا الوعاء الذي هو بمنزلة المعدة أو الكرش قبل أن يصير كذلك يؤخذ فيجبن به، يوضع في اللبن فيساعد على تحويله إلى مادة أخرى وهي الجبن، فإذا أكل العشب هذا الجدي أو العجل الصغير فإن ذلك الوعاء يتحول إلى كرش يصير شيئا آخر، فإذا كان العجل ميتاً مثلاً، وأخذ منه تلك المادة فهي نجسة بطبيعة الحال، لكن إذا وضعت في الحليب وتحولت إلى جبن هل يحل أكله أو لا يحل؟ وتعرفون أن هذه المسألة مسألة مطروقة، والصحابة -رضي الله عنهم- لما ذهبوا إلى فتوح العراق وفارس نُقل عنهم أنهم أكلوا من تلك الأجبان في تلك البلاد المفتوحة، مع أنهم يصنعون الجبن

بهذه الطريقة، فعلل ذلك بعض أهل العلم بأن هذا شيء يسير يوضع في الحليب فلا يحصل به تغير بسبب النجاسة، والكلام في هذه المسألة ليس هذا موضعه، لكن ابن كثير –رحمه الله– تطرق لها هنا.

"وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف، والمشهور عندهم أنها نجسة، وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة –رضي الله تعالى عنهم– من جبن المجوس، فقال القرطبي في التفسير هاهنا: يخالط اللبن منها يسير، ويعفى عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المائع، وقد روى ابن ماجه عن سلمان –رضي الله تعالى عنه–: سئل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن السمن والجبن والفراء..."

ما الفرق بين الجُبُن والجُبْن؟

الجُبُن: المأكول، والجُبْن: الخوف، بضم الباء هو المأكول، وبالسكون هو الضعف عن المواجهة، أي: الجبان.

"فقال: ((الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه))[4]، وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير، سواء ذكّي أو مات حتف أنفه، ويدخل شحمه في حكم لحمه إما تغليباً..."

يعني أن الخنزير لا تطهره الذكاة، وكذلك كل السباع، وما يحرم أكله فإن الذكاة لا تؤثر فيه شيئاً، فسواء ذكي أو مات حتف أنفه فالأمر في ذلك سيان.

الفرق بين الموت حتف أنفه –بهذا القيد– وبين الذكاة، الذكاة تكون بالطريقة الشرعية، ويلحق بها ما في حكمها كالصيد، وكذلك أيضاً ما ندَّ من البهائم التي ليست هي وحشية في أصلها، وكذلك مثلا لو أن الدابة –البعير مثلاً– سقط في بئر ولم يتبين منه إلا دبره –الجزء الأخير منه–، والباقي في البئر، كيف يوصل إلي هذا وهو ما مات؟

طالب:.......

لا، ما هو بالشوزن، الآن هو في البئر، وأنت تستطيع الوصول إليه، لكن لا تستطيع نحره؛ لأن رقبته ومقدمه داخل في البئر، وقد ملأ البئر ولا تستطيع أن تصل إليه، فماذا يُصنع به؟ يمكن أن يتوصل إلى إزهاق نفسه من آخره فيكون ذلك مستثنى.

ولو ندّ البعير –هرب–، ولم يمكن الوصول إليه إلا عن طريق الرمي يُؤكل، أو ندت شاة فرميت في قلبها أو في كبدها فماتت تُؤكل.

"ويدخل شحمه في حكم لحمه إما تغليباً، أو أن اللحم يشمل ذلك، أو بطريق القياس على رأي."

هذه صور ثلاث في المسألة.

الله –عز وجل– يقول: **{أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ}** [(١٤٥) سورة الأنعام] فالمحرم هو لحم الخنزير، طيب والشحم؟ بعض أهل العلم يقول: يلحق به قياساً لعدم الفارق، ولكن هل هذا يحتاج إلى قياس؟ أو أن اللحم في كلام العرب إذا

---

4 – أخرجه الترمذي في كتاب اللباس، باب ما جاء في لبس الفراء (ج٤/ص٢٢٠– ١٧٢٦) وابن ماجه في كتاب الأطعمة، باب أكل الجبن والسمن (ج٢/ص١١١٧– ٣٣٦٧) والبيهقي في السنن الكبرى (ج١٠/ص ١٢) والطبراني في المعجم الكبير (ج٦/ص ٢٥٠– ٦١٢٤) وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم: (٣١٩٥).

أطلق فإنه يصدق على الأبيض والأحمر، يعني الشحم واللحم، فكل ذلك يقال له: لحم، إذا أطلق دخل فيه هذا وهذا، وهذا هو الأقرب، فهو ليس من باب القياس.

يقول: "**إما تغليباً**" تغليباً بمعنى أنه ذكر اللحم لأنه هو الغالب، أي أكثر في البهيمة، وهو المقصود أصلاً فذكره تغليباً، لكن الأقرب -والله أعلم- أن اللحم في كلام العرب يطلق على هذا وهذا، وهذه المسألة تجدون فيها كلاماً ومناقشات بين بعض الفقهاء وبين الظاهرية، ولعله يأتي -إن شاء الله- عند الكلام على قوله: **{أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ}** [(١٤٥) سورة الأنعام].

"وكذلك حَرَّم عليهم ما أهلَّ به لغير الله، وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام، ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له."

الإهلال أصله: رفع الصوت، ومنه الإهلال بالتلبية، فصار ذلك يقال عند الذبح أو النحر؛ لأنهم يذكرون أسماء آلهتهم عند ذبح هذه البهائم والدواب، يذبحونها لهذه للأصنام، فقيل له: إهلال، فصار ذلك يطلق ولو كان من غير رفع الصوت، يقال: أهل به لغير الله، حتى لو لم يتكلم بشيء لا في سره ولا في نطقه، ولكنه نوى أن تكون هذه لغير الله فإنه يحرم أيضاً أكلها، وإذا ذكر غير اسم الله فإنه يحرم أكلها من باب أولى، فصار عندنا -فيما أهل به لغير الله- ثلاث صور، وكلها داخلة في التحريم من حيث الحقيقة.

"وأورد القرطبي عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين، فقالت: ما ذُبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه، وكلوا من أشجارهم."

معناه أن هذه الذبائح لا يحل أكلها لكن غير الذبائح لو صنعوا طعاماً آخر كالحلوى أو الكيك أو نحو هذا بمناسبة العيد فهل يؤكل هذا أو لا يؤكل؟ أو أقاموا سوقاً بهذه المناسبة هل يجوز الشراء منه أو لا يجوز؟ هي مسألة معروفة، وأظن مر بنا طرف منها في اقتضاء الصراط المستقيم، فبعض أهل العلم يفرق بين الذبائح وبين المطعومات الأخرى، وذكرنا -في ذلك الحين- أنه إذا فهم أن ذلك من مشاركتهم، أو أن فيه نوعا من المشاركة لهم، أو الإقرار على أعيادهم فإن الإنسان قد يمتنع من الأكل والقبول لهديتهم بتلك المناسبة، وما أشبه ذلك.

طالب:......

كيف؟

طالب:......

ليس هذا محل اتفاق، ولاحظ كلام عائشة -رضي الله عنها-: "وكلوا من أشجارهم" يعني المقصود لو جاءوا بشيء صُنع من البر أو الذرة أو نحو هذا، وليس المقصود: امسكوا شجرهم وكلوا من الثمر، والمسألة على كل حال ليس هذا موضعها، الأصل في التفسير هنا أن نتكلم فقط على ما يتعلق بالآيات.

"ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها، عند فقد غيرها من الأطعمة، فقال: {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ} [(١٧٣) سورة البقرة] **أي: في غير بغي ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد، {فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ}** [(١٧٣) سورة البقرة] **أي: في أكل ذلك، {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** [(١٧٣) سورة البقرة]**، وقال مجاهد: فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ قاطعاً للسبيل، أو مفارقاً للأئمة، أو خارجاً في معصية الله فله الرخصة."**

قوله: **{فَمَنِ اضْطُرَّ}** [(١٧٣) سورة البقرة] الاضطرار معروف، ومعناه: أن يشرف على الهلكة، وليس مجرد الجوع الذي يستطيع معه الصبر من غير لحوق التلف أو الضرر الشديد الذي يشرف به على الهلكة.

{غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ} [(١٧٣) سورة البقرة] في غير بغي ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد فلا إثم عليه، مجاوزة الحد في ماذا؟ بعض أهل العلم يفسر: **{غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ}** أي: غير متجاوز الحد في أكله هذا، كأن يأكل أكثر من الحاجة، أو أن يأكل تشهياً، أو أن يأكل من غير ضرورة، أو أن يلجأ إلى الأكل مع وجود بديل أخف منه، كالذي ما وجد شيئا مذكى لكنه وجد -على خلاف بين أهل العلم- طعاماً لإنسان لم يأذن له به، أو وجد صيداً في الحرم ووجد ميتة أيهما يقدم؟ هذه مسائل فيها خلاف، مسألة الصيد بعض أهل العلم يقول: لا يُقْدم على الصيد؛ لأن الله أباح الميتة مطلقاً للمضطر، والصيد حُرم على الإنسان إذا كان محرماً، أو كان في الحرم -وإن لم يكن محرماً-، فقالوا: هذا ألصق به وأعلق وأخص، فلا يقرب الصيد، هذا قول لبعض أهل العلم، وبعضهم قال: يُقْدم على الصيد.

لكن لو وجد طعاماً لإنسان لم يأذن به هل يُقْدم عليه أو يُقدِّم الميتة؟ يُقدِّم طعام هذا الإنسان إلا إذا كان ذلك سيؤدي إلى تهمة له بالسرقة وقطع يده.

المقصود أن الإنسان لا يُقْدم على الميتة إلا في حال الاضطرار، ثم إن الضرورة تقدر بقدرها **{غَيْرَ بَاغٍ}** [(١٧٣) سورة البقرة].

وإذا أبيح له الميتة فهل له أن يأكل حتى الشبع؟ وهل له أن يأكل ذلك تشهياً يقول: فرصة آكل حتى أشبع؟ الضرورة تقدر بقدرها.

وقد يظهر بغيه وتجاوزه وتعديه ببعض تصرفاته، كما لو أنه جلس يصنع هذه اللحوم بطرق يتفنن فيها، هذا حال إنسان مضطر؟! يقول: ما دام أنه أبيحت الميتة أنا سأصنع كبابا عراقيا، وكبابا إيرانيا، وأفعل من ألوان هذه الأشياء التي أراها في لوحات الشوارع، هذا متجاوز للحد.

كما لو أبيح له التصوير مثلاً لضرورة، ويوم جاء يتصور وهو ليس من عادته أن يلبس الزر، أو العقال، فذهب ولبس عقالا وضبط نفسه، ومشط لحيته، وركب أزاريره، وربما لبس معها ثوب زينة، وجاء في أبهى صورة، فهل هذا يعتبر مضطراً؟! ما هو مضطر، هذا صار عنده بغي.

"**ولا عادٍ**" أي: ما لم يكن عاصياً في سفره كقاطع الطريق، ومن خرج على الإمام، وما شابه ذلك؛ لأن هذه الرخصة صار من شأنها أن تعينه على باطله وظلمه ومعصيته، بناءً على أن العاصي لا يترخص بالرخص، مثل مسألة القصر هل للعاصي في سفره أن يصلي الصلاة قصراً ويجمع بين الصلاتين أم لا؟ هذه مسألة خلافية.

"ومن خرج باغياً أو عادياً أو في معصية الله فلا رخصة له، وإن اضطر إليه، وكذا روي عن سعيد بن جبير، وقال سعيد -في رواية عنه-: وعن مقاتل بن حيان: {غَيْرَ بَاغٍ} [(١٧٣) سورة البقرة] يعني: غير مستحله، وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ} قال: {غَيْرَ بَاغٍ} في الميتة {وَلا عَادٍ} في أكله، وقال قتادة: فمن اضطر غير باغ ولا عاد قال: {غَيْرَ بَاغٍ} في الميتة أي في أكله، أن يتعدى حلالاً إلى حرام وهو يجد عنه مندوحة."

هذا -كما مثلت- كمن يجد شيئا يسد به الرمق لكنه يقول: لا، أنا أريد أكل لحم، طيب عندك هذه الأشياء من النباتات وتستطيع أن تستغني بها الآن! قال: لا، أنا أريد لحما، فمثل هذا يعتبر باغيا، كذلك إذا أكله تشهياً، فالباغي قد يكون من صوره: الأكل فوق الحاجة، أو أن يأكله تشهياً أو نحو ذلك، والعادي على قول بعضهم: هو الذي يأكل ويجد مندوحة عنه، يجد شيئاً آخر.

على كل حال ابن جرير الطبري -رحمه الله- يحمله على جميع هذه المعاني، "غير باغ ولا عاد" سوى الخارج في المعصية فإنه لا يقول به، يقول: رخصة من الرخص، لا يستثنى منها أحد، لكن "غير باغ ولا عادٍ" أن يأكل وهو يجد مندوحة، أو أن يأكل فوق الحاجة، أو أن يأكل في غير حال الاضطرار، أو أن يأكل تشهياً وتلذذاً بهذا الأكل، أو نحو ذلك من الصور التي تدل على أن هذا الإنسان باغٍ أو عادٍ.

"مسألة: إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذى فإنه لا يحل له أكل الميتة."

على كل حال وجد مضطر ميتة وطعام الغير، هذا يأكل منه؛ لأنه في حال الاضطرار، وهو أولى من الميتة إلا فيما يلحقه فيه هذه التهمة، وأطال بنا الكلام على هذا، وأنا وهمت حينما قلت: ليس هذا موضعه، **{إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ}** [(١٧٣) سورة البقرة] وهو يتكلم على هذه الآية، فهذا من المواضع الذي يذكر فيها الكلام على هذه الأشياء، لكن يؤخذ من منهج ابن كثير -رحمه الله- أنه يتطرق إلى الأحكام الفقهية، ولو أن المختصر ترك هذا واقتصر على تفسير الآيات ربما يكون أنسب -والله أعلم-.

"بل يأكل طعام الغير بلا خلاف، روى ابن ماجه عن عباد بن شرحبيل الغبري -رضي الله تعالى عنه- قال: "أصابتنا عاماً مخمصة فأتيت المدينة، فأتيت حائطاً، فأخذت سنبلاً ففركته وأكلته، وجعلت منه في كسائي، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخبرته، فقال للرجل: ((ما أطعمته إذ كان جائعاً أو ساغباً، ولا علمته إذ كان جاهلاً))[٥] فأمره فرد إليه ثوبه، فأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق" إسناد صحيح قوي جيد، وله شواهد كثيرة."

على كل حال هذا الرجل أكل في حال الاضطرار فهذا لا إشكال فيه، لكنه أخذ أيضاً في كمه، وتعرفون الحديث: ((غير متخذٍ خُبْنَةً))[٦] فإذا كان مضطرا يأكل ما يسد به الرمق لكن ليس له أن يحمل معه من هذا الطعام ويتزود.

ولذلك مسألة الميتة تكلم العلماء فيها، هل يحمل معه شيئا منها أو لا؟ وهل يتخير؟ يقول: ما دام أن الميتة مباحة الآن أنا أحب لحمة الكتف أو الظهر؟!

---

5 - أخرجه ابن ماجه في كتاب التجارات، باب من مر على ماشية قوم أو حائط هل يصيب منه؟[ج٢- ص٧٧٠ - ٢٢٩٨]، والطبراني في المعجم الأوسط [ج٨- ص٢٤١- ٨٥١٩] وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه [ج٢-ص٣١ - ١٨٦١].

6 - أخرجه أبو داود في كتاب اللقطة، التعريف باللقطة [ج١- ص٥٣٤ - ١٧١٠]، وفي كتاب الحدود، باب ما لا قطع فيه [ج٢- ص٥٤٢ - ٤٣٩٠]، والترمذي في كتاب البيوع، باب ما جاء في الرخصة في أكل الثمرة للمار بها [ج٣ - ص٥٨٤ - ١٢٨٩]، والنسائي في كتاب قطع السارق الثمر يسرق بعد أن يؤويه الجرين [ج٨- ص٨٥ - ٤٩٥٨]، وأحمد في المسند [ج٢- ص٢٢٤- ٧٠٩٤]، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود [ج١- ص٣٢١ - ١٥٠٤].

"من ذلك حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده -رضي الله تعالى عنه-: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الثمر المعلق، فقال: ((من أصاب منه من ذي حاجة بفيه غير متخذ خُبْنَةً فلا شيء عليه))[7]... الحديث."

الثمر المعلق: كان يؤتى بالعذق ويوضع في مكان في سقيفة أو نحو ذلك فيأكل منه أهل الحائط أو أهل البيت أو نحو هذا، فإذا جاء إنسان وأخذ منه غير ما بذل للناس صدقة كالذي كان يؤتى مثلاً به لفقراء المسلمين لأهل الصفة فيأكلون منه، حتى جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- مرةً فرأى عذق شيص، فقال: ((إن رب هذه الصدقة يأكل الحشف يوم القيامة))[8]، فهذا يوضع صدقة يؤكل منه بلا إشكال، لكن الكلام فيما ليس ذلك، في الذي ما بُذل من أجل الناس.

"وقال مقاتل بن حيان في قوله: {فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٧٣) سورة البقرة] فيما أكل من اضطرار."

يعني فيما أكل من اضطرار ما فيه إشكال.

"وقال سعيد بن جبير: غفور لما أكل من الحرام، رحيم إذ أحل له الحرام في الاضطرار، وعن مسروق قال: من اضطُرَّ فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار، وهذا يقتضي أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة."

هذا هو الراجح، وهذه المسألة تذكر في التروك، هذا الإنسان ما قتل نفسه بيده ولكنه ترك شيئاً من شأنه أن يفضي به إلى الهلكة، فإنه يكون بذلك متسبباً، وهل يدخل فيه بعض الصور مثل لو ترك العلاج حتى مات؟ الجواب: لا، هذا يختلف عن هذا؛ لأن حصول الشفاء بتعاطي هذا العلاج مظنون أصلاً، بينما الأكل الأمر فيه يختلف، فيجب عليه أن يأكل، وسبق الكلام في مراقي السعود في مسائل الترك هل يُعد من الأفعال؟

فكفنا بالنهي مطلوب النبي ... والترك فعل في صحيح المذهبِ
له فروع ذكرت في المنهجِ ... وسردها من بعد ذي البيت يجي
من شربٍ أو خيط ذكاةٍ فضل ما ... وعَمَدٍ رسم شهادة وما
عطَّل ناظر وذو الرهن كذا ... مفرط في العلْف فادرِ المأخذا
وكالتي ردت بعيب وعَدِمِ ... وليُّها وشِبْهِها مما عُلِم

7 - أخرجه الترمذي في كتاب البيوع، باب ما جاء في الرخصة في أكل الثمرة للمار بها [ج٣ - ص٥٨٤ - ١٢٨٩]، والنسائي في السنن الكبرى في كتاب قطع السارق الثمر يسرق بعد أن يؤويه الجرين [ج٤ - ص٣٤٤ - ٧٤٤٦]، وحسنه مشكاة المصابيح [ج٢- ص١٨٨ - ٣٠٣٦].

8 - أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة، باب ما لا يجوز من الثمرة في الصدقة [ج١- ص٥٠٥ - ١٦٠٨] وابن ماجه في كتاب الزكاة، باب النهي أن يخرج في الصدقة شر ماله [ج١- ص٥٨٣ - ١٨٢١]، وأحمد في المسند [ج٦- ص٢٣ - ٢٤٠٢٢] وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: "إسناده حسن"، وابن خزيمة في كتاب الزكاة، باب كراهية الصدقة بالحشف من الثمار وإن كانت الصدقة تطوعاً إذ الصدقة بخير الثمار وأوساطها أفضل من الصدقة بشرارها [ج٤- ص١٠٩ - ٢٤٦٧] وقال الأعظمي: "إسناده حسن لغيره صالح بن أبي عريب ضعيف لكن للحديث شواهد"، وابن حبان في كتاب التاريخ، باب إخباره -صلى الله عليه وسلم- عما يكون في أمته من الفتن والحوادث [ج١٥- ص١٧٧ - ٦٧٧٤[وقال شعيب الأرنؤوط: "إسناده حسن"، الحاكم في المستدرك [ج٢ - ص٣١٣ - ٣١٢٦] (تعليق الذهبي قي التلخيص: صحيح)، والطبراني في المعجم الكبير [ج١٨- ص٥٥ - ٩٩] والبيهقي في السنن الكبرى في كتاب الزكاة، باب ما يحرم على صاحب المال من أن يعطي الصدقة من شر ماله [ج٤- ص ١٣٦- ٧٣١٨] وحسنه الألباني في صحيح أبي داود [ج١ - ص٣٠٢ - ١٤١٩].

يعني لو أن شخصاً في شدة العطش، وشخصاً آخر عنده ماء ورفض أن يعطيه من فضل ماءٍ عنده، فهل يعتبر هذا قتلا له؟ تسبباً بالقتل؟ يضمن أو لا؟ ولو جُرح واحتاج إلى خيط يخيط به الجراح فأبى أن يعطيه فمات؟ ولو أن البهيمة تعافس الموت فقال: أعطني هذه السكين التي معك لأذكيها قبل أن تموت حتف أنفها حتى نستفيد منها فأبى فماتت فهل يضمن؟ وهكذا لو قال له: أعطني الخشبة التي عندك الزائدة أريد أن أرفد بها البيت الذي سيطيح، فأبى، فسقط السقف هل يضمن أو لا؟ فهنا لو تخلى عن الأكل في حال الاضطرار ومات، فما الحكم؟

طالب:......

بنك البلاد أنا لم أطّلع على برامجهم مفصلة، وعدد من الإخوة وعدني أن يأتي بها وما رأيتها، والذي وصلني كلام مجمل أنهم يلتزمون بالمعاملات الإسلامية، وأن عندهم لجنة وسموها، وهذه اللجنة لا يمرر شيء إلا عن طريقها، وهي لجنة لا تعرف بالتساهل، فبهذا الشكل المجمل لم أرَ شيئاً محظوراً، ولا أستطيع أن أحكم، مع أني أتخوف من كثير من المعاملات التي يسمونها إسلامية وهي لفة وحيلة على الربا، ولا أدري هل هؤلاء سيفعلون هذا أو لا؟ وبالتالي لا نستطيع أن نقول للناس: لا تساهموا، أو هذا حرام، ونحن ما رأينا شيئا، والأصل في المعاملات الحل.

فلو أن إنساناً اشترى فإذا بدا تبادل الأسهم ووجدت للبنك أشياء من مبانٍ أو أي أمور أخرى غير السيولة، فعند ذلك يجوز بيع الأسهم.

والعجيب من تهافت الناس عليه، أنا أول الأمر كنت أظنه أنه يشتري له بخمسة ملايين، بعشرة ملايين، فتبين أنه أربعة أسهم وخمسة أسهم ما تساوى تشغيلة السيارة للبنك، ويشغلون الناس، حتى إنني أصبحت لا أرد على الجوال، والناس في هذه الأيام ما لهم سؤال إلا عن هذا البنك، في البداية كنت أحسبه شيئا يستحق، وهو فتات الفتات، أربعة أسهم أو خمسة لا تساوي الذهاب إلى البنك أو رفعة السماعة، وماذا يجنون من ورائه؟ لو افترضنا أن السهم يربح فيه ألفا بدل خمسين ريال، ماذا يفيدك هذا المبلغ الذي ما يسدد الفواتير، سبحان الله! شيء عجيب حرص الناس على هذه الدنيا.

شيء غيره؟

طالب:......

يأكل المحتاج ولا يأكل غير المحتاج.

طالب:......

كيف؟

طالب:......

استعمل في غير الأكل قصدك الخنزير؟

طالب:......

تكلم الفقهاء على بعض المسائل في الخنزير مثل شعر الخنزير هل يخرز به أو لا؟ أجاز بعض أهل العلم أن يُخرز به.

على كل حال النجاسة تنتقل بالرطوبة، فإذا قلنا: الخنزير كله نجس، فالنجاسة لا تنتقل بالجفاف، تنتقل بالرطوبة، فإذا قلنا مثلاً: يخرز به فعرقت الرجلُ أو ابتلّ النعلُ أو الرجلُ، تصل النجاسة بهذا الاعتبار على القول بهذا؛ لأن كله نجس.

لكن هذه المسألة هل شعر الخنزير نجس أو لا؟ هي على كل حال باعتبار أن الشعر له حكم المنفصل.

طالب:......

هذه مسألة ثانية وهي استخدام شحم الخنزير أو أجزاء منه في أمور لا تؤكل كالعلاج، مما يسمى الاستعمال الخارجي، فهل يجوز استعمال هذه الأعيان النجسة في الأمور الخارجية أو لا؟ هذه المسألة محل بحث ونظر.

ابن عمر -رضي الله عنه- لما ذكرت له الخمر وأنه يعالج بها، قال: "لا أضعه على قرحة في دبر حماري" فمثل هذه الأشياء التي حرمها الله -عز وجل- إذا وضعت في مركبات أدوية كالمراهم ونحوها، أو أدوات التجميل أو غيرها هل يحل استعمالها أو لا؟.

فإذا قال الله: **{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ}** [(٣) سورة المائدة] فهنا لا بد من مقدر؛ لأن الأعيان لا يتعلق بها الحكم، فما هو المقدر؟ حرم عليكم أكل الميتة أو الانتفاع بالميتة؟ وتعرفون حديث ميمونة والحديث الآخر أيضاً -الذي فيه كلام- وهو قوله: ((لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب))[9] مع قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((هلا انتفعتم بجلدها))[10] إنما حرم أكلها أيضاً، وأشباه ذلك.

فالمقصود أن من أهل العلم من يقول: طالما أنها حرمت فيحرم جميع أنواع الانتفاع بها إلا ما دل الدليل على استثنائه كالجلود مثلاً، والفقهاء تكلموا على مسألة طلاء السفن بشحوم الميتة.

طالب:......

في الأشياء الخارجية ذكرت لكم كلام ابن عمر، وليس ذلك محل اتفاق في الأشياء الخارجية، وبالتالي فإن هذه الخمرة لو استعملت في أشياء مثل الطيب أو في تركيبات كثير من الأمور هي مسكرة، منها ما هو من نوع السموم فتقتل، ومنها ما يسكر دون أن يقتل، وهذه الأشياء التي تسمى الكحول هي أنواع عند أهل الاختصاص وليست نوعاً واحداً، بل منها ما إذا تعاطاه الإنسان مات، ومنها ما ليس كذلك، الأطباء يعرفون هذا، ويفرقون بين هذه الأمور.

---

9 - أخرجه أبو داود في كتاب اللباس، باب من روى أن لا ينتفع بإهاب الميتة [ج٢- ص٤٦٥ - ٤١٢٨]، والترمذي في كتاب اللباس، باب ما جاء في جلود الميتة إذا دبغت [ج٤- ص٢٢٢ - ١٧٢٩]، والنسائي في كتاب الفرع والعتيرة، ما يدبغ به جلود الميتة [ج٧ - ص١٧٥- ٤٢٤٩] وابن ماجه في كتاب اللباس، باب من قال: لا ينتفع من الميتة بإهاب ولا عصب [ج٢- ص١١٩٤ - ٣٦١٣] وأحمد في المسند [ج٤ - ص٣١٠ - ١٨٨٠٢] وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: "إسناده ضعيف فيه علتان أولاهما: الانقطاع وثانيتهما: الاضطراب"، وابن حبان في كتاب الطهارة، باب جلود الميتة [ج٤- ص٩٤- ١٢٧٨]، والطبراني في المعجم الأوسط [ج١- ص٢٥١ - ٨٢٢]، والصغير [ج٢- ص٢١٤ - ١٠٥٠]، وابن أبي شيبة في كتاب العقيقة، من كان لا ينتفع من الميتة بإهاب ولا عصب [ج٥ - ص٢٠٦ - ٢٥٢٧٦] والبيهقي في السنن الكبرى [ج١ - ص ١٤ - ٤٢] وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه [ج٢- ص٢٨٥ - ٢٩١٠].

10 - أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب الصدقة على موالي أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- [ج٢ - ص٥٤٣ - ١٤٢١]، وفي كتاب الذبائح والصيد، باب جلود الميتة [ج٥ - ص٢١٠٣- ٥٢١١]، ومسلم في كتاب الحيض، باب طهارة جلود الميتة بالدباغ [ج١- ص٢٧٦ - ١٠٠].

فالمقصود لو قلنا: إنه يحرم استعمال الخمر حتى في غير الشرب؛ لأن الله قال: **{فَاجْتَنِبُوهُ}** [(٩٠) سورة المائدة] هل اجتنبوا شربه وتعاطيه على وجه الإسكار؟ يعني الشرب وما يقوم مقامه كالشم وغيره، هل هذا هو المقصود أو المقصود اجتنبوه مطلقاً؟ فإذا قلنا: اجتنبوه مطلقاً فمعناها أن الأطياب التي فيها الكحول لا يجوز استعمالها.

غير مسألة النجاسة فالأقرب أنه ليس بنجس عيناً، لكن الأطياب التي فيها هذا الكحول ما يجوز استعمالها على هذا الاعتبار، وأيضاً كل ما ركب من البنزين مسكر فهل نقول للناس: تعبئة البنزين حرام، ونستبدله بالطاقة الشمسية أو بطريقة أخرى؟! وأنا ما أقول: إن البنزين حرام، أنا بهذا أصور المسألة، وما يلحق الناس فيها من حرج لو قاله قائل، فالأصباغ والغراء وكثير من الأشياء يدخل في تركيبتها الكحول.

طالب:.......

ليس ذلك بالضرورة في الأشياء الخارجية، هل يدل عليها الحديث ضرورة؟ "إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم"[(١١)] هذا المنحى ممكن أن يحمل عليه مثل ما جاء عن ابن عمر، لكن هذا هل هو محل اتفاق؟ الجواب: لا، والناس يسألون كثيراً عن الحشيشة، يقولون: زيت الحشيش يباع أظنه بأكثر من مائتي ريال عند العطارين، يقولون: إنه ينمي الشعر ويكثفه، وينبت الشعر، هذا دائماً الناس يسألون عنه، مع أنه صدر بيان من وزارة التجارة يقولون فيه: إنه أجريت تحاليل على هذا المنتج فوجدوا أنه ليس بزيت حشيشة أصلاً، ثم لو فرض أن إنساناً جاء بزيت الحشيش فإنه لا علاقة إطلاقاً بينه وبين تنمية الشعر وتغذيته وتطويله وتنعيمه وتكثيفه، ما في أي علاقة بين الأمرين، والعجيب أنك تقول للناس هذا ليس زيت حشيش وحتى زيت الحشيش ما له علاقة بالموضوع، فيقال: ما يخالف، هل يجوز أو ما يجوز؟ خلاص المرأة متبرمجة أنها تضع زيت حشيش لأجل أن يصير شعرها مضبوطا.

طالب:......

من أهل العلم من قال: يتزود من الميتة لا ليأكل منها في غير حال الاضطرار، وإنما لو اضطر وهو يعلم أنه ليس مقبلاً على بلد أو قرية أو ناحية يجد فيها الطعام، فهو من باب الاحتياط، فهذا في الميتة له وجه، أما في مسألة الخُبْنة –طعام الغير– فالأمر في ذلك محتمل لكنه أشد؛ لأن الميتة هذه إنما يحرم عليه أكلها لا حملها، أما طعام الغير فهو قد استولى عليه وأخذه، وأضاع حق صاحبه، فهل يأكل بقدر ما يسد الرمق أم يحمل معه ليأكله إذا احتاج إليه؟ طيب وإذا ما اضطررت له تكبه أو تتصدق به بنية؟! نقول: يأخذ بقدر ما يحتاج، والله أعلم.

---

11 – أخرجه البخاري في كتاب الأشربة، باب شراب الحلوى والعسل من كلام ابن مسعود، [ج٥ – ص٢١٢٩].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٧٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نزلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} [سورة البقرة (١٧٤ -١٧٦)]

"يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ} يعني اليهود الذين كتموا صفة محمد -صلى الله عليه وسلم- في كتبهم التي بأيديهم، مما تشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم إياهم، فخشوا -لعنهم الله- إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاءً على ما كان يحصل لهم من ذلك، وهو نزرٌ يسير، فباعوا أنفسهم بذلك، واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النزر اليسير، فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة؛ أما في الدنيا فإن الله أظهر لعباده صِدْقَ رسوله -صلى الله عليه وسلم- بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عوناً له على قتالهم، وباءوا بغضب على غضب، وذمهم الله في كتابه في غير موضع. فمن ذلك هذه الآية الكريمة: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا}، وهو عرض الحياة الدنيا {أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ} أي: إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [سورة النساء (١٠)]**، وفي الحديث الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب والفضة، إنما يُجَرْجِرُ في بطنه نار جهنم))**[1]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ}** تجد هذه الآية وإن كانت نازلة في اليهود إلا أنها لا تختص بهم، فكل من وقع في شيء من ذلك وشابههم في هذه الصفة فإنه يشمله هذا الخطاب. قوله: **{وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا}** مرَّ بنا قبل أن الاشتراء في مثل هذه المواضع يأتي بمعنى الاستعاضة كما في قوله -سبحانه وتعالى- في أول هذه السورة: **{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى}**

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الأشربة - باب آنية الفضة (٥٣١١) (٥/٢١٣٣)، ومسلم في كتاب اللباس والزينة - باب تحريم استعمال أواني الذهب والفضة في الشرب وغيره على الرجال (٢٠٦٥) (٣/١٦٣٤) إلا أن قوله ((أو يشرب في آنية الذهب)) أخرجها ابن أبي شيبة (٢٤١٣٥) (٥/١٠٣) وصححه الألباني في الجامع الصغير برقم (١٦٩٢).

[(١٦) سورة البقرة]، فاستعاضوا هذا بهذا، وهؤلاء اشتروا بما عرفوا من أحكام الله -عز وجل- ووحيه، والحق المنزل، واستعاضوا عنه بثمن قليل مقابل الإبقاء على رئاساتهم، وما كانوا يحصلون عليه من المنافع من تعظيم الناس لهم، وتقديمهم إياهم، وما كانوا يتقاضونه منهم من الأموال والجبايات، فاستعاضوا هذا بذاك، وهذا شأن بعض الناس يحرف ويبدل ويكتم الحق؛ لأنه يرى أن له في الباطل شهرة ومعيشة ومغنم؛ وهذا ما نلمسه جلياً في شيوخ الضلال، ورءوس أهل البدع فمهما بلغهم من النصوص المحكمة، والدلائل القاطعة على بطلان ادعائهم، فإن الواحد منهم لا يرجع عما هو فيه؛ لأن ذلك يقتضي ضياع رئاساته، وخسارته للأموال التي تحصل عليها من المخدوعين به، وضعف الأتباع وتساقطهم، ونسبته إلى الباطل والزيف، ونسبة آبائه وأجداده وما إلى ذلك إليه.

وكذا الجهود والأعمال التي بنى عليها منزلته ومكانته هي خوض في الباطل، لكنه يأبى أن يقر أو يرجع أو يعترف بالحق، كل ذلك لئلا يضيع ويفوت على نفسه شيئاً من تلك المصالح التي تحصل عليها من دجله على الناس وغشهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وبالرغم من كل ما يأخذونه إلا أنه يعتبر **{ثَمَنًا قَلِيلا}** كما أخبر الله -سبحانه-؛ لأنه مهما كان كثيراً ومثيراً فهو قليل، وكل ما في الدنيا قليل بالنسبة للآخرة.

قوله: **{أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ}** بعض أهل العلم يقول: المراد بذلك أنهم يأكلون ما يوجب لهم النار، بأخذهم الرشا وأكلهم أموال الناس بالباطل، وقد يصل بهم الحال إلى أنهم يفتون أهل الأهواء من الأغنياء بما يهوونه مما يوسع عليهم في أمر المكاسب، من أجل ثمن بخس ودراهم معدودة، وربما أفتوا العامة والفقراء بأمور تناسبهم من أجل أن يحظوا بتأييدهم واتباعهم، أو الحصول على منافع ولو كان ذلك عن طريق السخرة، فيتفرغون له يوماً في الأسبوع يسمونه بالسخرة يشتغلون عنده فيه مجاناً، في حقله، في إقطاعاته، في مزارعه، في أراضيه وهكذا.. فالمقصود أن من أهل العلم من يفسر قوله -تبارك وتعالى-: **{أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ}** يعني ما يوجب لهم النار، فالرشا التي يأكلونها، والأموال التي يأخذونها بالباطل توجب لهم العذاب والعياذ بالله، فسمي كذلك لاعتبار نتيجته وما يئول إليه، وعاقبته، وهذا أسلوب عربي معروف، ولكن الأولى من ذلك والأحسن هو ما مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أنهم يأكلون ناراً؛ لأن هذه الأشياء التي يأخذونها هي نار يتجرعونها ويجرجرونها في بطونهم، ويؤيده ما روته زينب بنت أم سلمة عن أمها قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحوٍ مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار))[٢] يعني هذه التي حُكم له بها، سواء كانت أرضاً أو غير ذلك، إنما هي قطعة من نار، وأوضح من هذا أيضاً هذه النصوص التي أوردها ابن كثير -رحمه الله- كقوله -تعالى-: **{إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا}** [(١٠) سورة النساء]، ماذا قال الله -عز وجل- عنهم؟ قال: **{إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا}**، وكذلك من يشرب بآنية الذهب والفضة إلى غير ذلك من النصوص الدالة

---

2 - رواه البخاري في كتاب الشهادات- باب من أقام البينة بعد اليمين (٢٥٣٤) (٢/٩٥٢)، ومسلم في كتاب الأقضية- باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة (١٧١٣) (٣/١٣٣٧).

على كون هذه الرشا والأموال تكون ناراً يتجرعها من يتعامل بها، وهذا ما دل عليه ظاهر الآيات، والله أعلم بالصواب.

"وقوله: {وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} وذلك لأنه تعالى غضبانُ عليهم؛ لأنهم كتموا وقد علموا، فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم ولا يزكيهم، أي: لا يثني عليهم ولا يمدحهم، بل يعذبهم عذابا أليماً."

فتأمل كيف جازاهم الله جراء تعنتهم في كتمان ما علموه واستعاضتهم الحق بالباطل قال الله: {لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، إلا أنه قد يعترضنا إشكال في شبه التناقض فقد جاءت نصوص تدل على أنه يكلمهم كقوله -تبارك وتعالى-: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [(١٠٨) سورة المؤمنون] فهذا تكليم، وفي هذه الآية ينفي الله -عز وجل- تكليمه لهم، وهنا للعلماء جوابان في الجمع بينهما:

الأول: أن ذلك يختلف باختلاف المقامات، لا يكلمهم في مقام، ويكلمهم في مقام آخر.

والأحسن منه أن المقصود لا يكلمهم تكليم رضا، تكليم ثناء، ولكنه يكلمهم تبكيتاً وإهانةً وتحقيراً لهم، ومفهوم المخالفة للآية أنه إذا لم يكلم هؤلاء تكليم رضا، فإنه يكلم أهل الإيمان كذلك نسأل الله أن يجعلنا منهم.

{وَلا يُزَكِّيهِمْ}، لا يزكيهم لا بالثناء، ولا يزكيهم بأن يطهرهم من أرجاسهم وآثامهم وانحرافاتهم مطلقاً، فهم منغمسون منغمرون في أوحال الذنوب والآثام والأرجاس، ولذلك سلبهم الله التزكية مطلقاً، بخلاف أهل الإيمان الذين امتن عليهم ببعث رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وذكر أن من المعاني الحاصلة لهم أن الله -عز وجل- يزكيهم في الدنيا والآخرة.

"قال تعالى مخبراً عنهم: {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى} أي: اعتاضوا عن الهدى، وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء، واتباعه وتصديقه، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه بالضلالة، وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم {وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ} أي: اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب وهو ما تعاطَوْه من أسبابه المذكورة.

وقوله تعالى: {فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} يخبر تعالى أنَّهم في عذاب شديد عظيم هائل، يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك، مع شدة ما هم فيه من العذاب، والنكال، والأغلال عياذًا بالله من ذلك."

هذا المعنى ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره عند قوله: {فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} يقول: يخبر أنهم في عذاب شديد هائل، يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك، مع شدة ما هم فيه من العذاب، فسيقت الآية مساق التعجب من صبرهم على الرغم من شدة هول العذاب النازل بهم، وبعض أهل العلم يعبر بعبارة قريبة فيقول: {فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} يعني: ما أجرأهم على النار، باعتبار أنهم لم يدخلوها بعد، إذ لا طاقة لهم بها، ولذا أخبر الله -عز وجل- أنهم يدعون بالويل والثبور وينادون {يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ} [(٧٧) سورة الزخرف]، ويلعن ويتبرأ بعضهم من بعض في النار، وليست هذه حال من يصبر، فتقحمهم الأسباب والطرائق التي توصل إلى النار وتوجب دخولها مهما ظهر لهم من الآيات، ومهما عرض عليهم من الحجج والبينات، هو من أعظم الجرأة على الله يقول أحد رءوس الكفر: أعرف أن مصيري إلى جهنم، ولكنني إذا دخلتها سأجد فيها كبار الرأسماليين، والرؤساء الأمريكيين، فما أجرأهم على النار، وما أقرهم على أنفسهم،

وهؤلاء اليهود الذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم- كانوا يعرفون أنه على الحق كما قال الله سبحانه: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ} [(١٤٦) سورة البقرة] ومع ذلك هم باقون على ما هم عليه من الضلال والكفر، وكثير من أهل الشرك والباطل يدركون أنهم على ضلال خاصة الرؤساء، رؤساء الفرق والمذاهب والطوائف المنحرفة، وأنهم زجوا بأتباعهم في مستنقع الغواية، ومع ذلك مصرون على غيهم وباطلهم، فمثل هؤلاء يقال: ما أصبرهم على النار، باستعاضتهم عن الهدى بالضلال جراءة على عذاب الله -عز وجل-، وهذا هو الذي اختاره ابن جرير الطبري -رحمه الله- تعالى، وذهب إليه عامة المفسرين سلفاً وخلفا والله تعالى أعلم.

وبعض أهل العلم يقول: إن ما هذه استفهامية بمعنى ما الذي حادهم؟ لكن هذا بعيد، والصواب ما ذكرناه أن ما هنا للتعجب، فهو استفهام للتعجب، والله أعلم.

"**وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نزلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}** [(١٧٦) سورة البقرة] **أي: إنما استحقوا هذا العذاب الشديد؛ لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- وعلى الأنبياء عليهم السلام قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزوًا.**"

كلام ابن كثير هذا بناءً على أن الكتاب المذكور في الآية {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نزلَ الْكِتَابَ} اسم جنس يشمل الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم، وما إلى ذلك من الكتب التي أنزلها الله -عز وجل- على رسله بالحق، والجنس يصدق على الواحد وعلى الكثير.

ومن أهل العلم من يخص ذلك بالقرآن، فيقول: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نزلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}، أي: القرآن، أنزله متلبساً ذلك الإنزال بالحق، فهو منزل بالحق، وهو حق ثابت، لا مرية فيه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والآية وإن كانت محتملة للمعنيين إلا أن السياق يشعر أن المراد المعنى الذي ذكره ابن كثير إذ هذا القول متضمن للقول الآخر وأشمل منه، وعليه الأدلة، وذلك أن الإنسان لا يكفي أن يؤمن بالقرآن فقط، والله -عز وجل- يقول: {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [(١٣٦) سورة البقرة]، وما يؤكده أن الله أخبر في مواضع أخرى من القرآن عن حال أهل الكتاب في كتابهم، وأنهم في شك منه مريب، وأن ذلك واقع لهم أيضاً في القرآن، فهم في امتراء في الكتب المنزلة عليهم.

"**وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزوًا. فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره، فخالفوه وكذبوه.**

وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه، ويكتمون صفته، فاستهزءوا بآيات الله المنزلة على رسله؛ فلهذا استحقوا العذاب والنكال؛ ولهذا قال: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نزلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}."

الذين اختلفوا في الكتاب، بعضهم يقول: هم أهل الإشراك، والكتاب الذي اختلفوا فيه هو القرآن، فمن قائل: إنه سحر، ومن قائل: إنه كهانة، ومن قائل: يعلمه بشر، ومن قائل: اختلقه وافتراه، إلى غير ذلك من أقاويلهم المتنوعة التي وصفوا بها القرآن.

ومن أهل العلم من يقول: وإن الذين اختلفوا في الكتاب يعني: اليهود والنصارى، فهذا القول يرجع إلى أن المراد من الكتاب الأول في قوله: {نَزلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}، هو جنس الكتاب، أنزله الله إنزالاً متلبساً بالحق، وعلى كل حال الكتاب في الآية يحتمل أن يكون القرآن، ويحتمل أن يكون سائر الكتب كالتوراة والإنجيل..، إلا أن الذي اختاره ابن جرير –رحمه الله– أن الكتاب هنا هو القرآن، لكن هذا ليس محل اتفاق فقد خالفه أئمة في ذلك، والعلم عند الله –عز وجل–.

{لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} أي: فهم في غاية البعد عن الحق.

"{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [(١٧٧) سورة البقرة].

اشتملت هذه الآية، على جمَل عظيمة."

في قوله: {لَيْسَ الْبِرَّ} البر خبر ليس، واسمها؟ أن تولوا، فيكون فيه تقديم وتأخير، وهذه القراءة التي نقرأ عليها قراءة حفص، ووافقه عليها حمزة، وهناك قراءة أخرى متواترة بالضم لكلمة البر {لَيْسَ الْبِرُّ} فيكون البر بهذا الاعتبار اسم ليس، وهي قراءة بقية السبعة من القراء.

وعلى قراءة النصب يكون تقدير الكلام، ليس البرَّ توليتُكم وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البرَّ برُّ من آمن بالله.

ويمكن أن يكون التقدير: ولكن ذو البر من آمن بالله.

وبعض أهل العلم يقول: إن البر مصدر، ويصح أن يراد به الفاعل، والمعنى: ولكن البر أي البار: من آمن بالله.

{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ} بعض أهل العلم يقول: لما كانت القضية تتعلق بالتوجه إلى المشرق والمغرب فهي إذاً لها تعلق بالصلاة، فحمله عليها، والمراد: ليس البر هو الصلاة وحدها، فهي وإن كانت مهمة وعظيمة، لكنْ هناك أمور أخرى عظام من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه إلى آخره..، فهذه أمور لا بد منها وهي من أعظم أمور البر، والبر: اسم جامع لكل خصال الخير، فخص البر بمعنى الصلاة بقرينة قوله: {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ}.

وبعضهم يقول: هذا أصلاً رد على اليهود والنصارى، حيث إن اليهود يستقبلون المغرب، فهم يستقبلون بيت المقدس، والنصارى يستقبلون جهة المشرق وجاء ذكره للمشرق والمغرب بناء على اعتبار الجهة التي تحدث عنهم فيها، أو رد عليهم وهم فيها، وقد ورد في هذا رواية ضعيفة، وهذا المعنى مشى عليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري –رحمه الله– وهو أنها رد على اليهود والنصارى، والمعنى: ليس البر أن توجهوا وجوهكم قبل هذه الجهة أو تلك، وإنما البر حقيقة هو: أن تؤمنوا إيماناً حقيقياً بجنس الكتب والرسل جميعاً، ولا تنسبوا لله الولد، وإذا حصل لكم ذلك كنتم على الهدى، وحققتم في قلوبكم الإيمان الحقيقي، والإنسان يقال له أحياناً: ليس البر هو فعلك كذا وكذا، يعني –من الأعمال التي يعملها– يريد أن يتقرب بها إلى الله –عز

وجل-، ولكن البر هو أن تفعل كذا وكذا وكذا، مما تذكره له من أمور البر العظيمة التي غفل عنها، وتشاغل بغيرها من أمور البر، فالبر بر من آمن بالله واليوم الآخر. والله أعلم.

"اشتملت هذه الآية، على جمَل عظيمة، وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة، وأما الكلام على تفسير هذه الآية، فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حوَّلهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب، وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله -عز وجل-، وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وَجّه، واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه؛ ولهذا قال: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ...} الآية."

كلام ابن كثير جيد، وهو يلمح إلى أن الآية لا تختص باليهود أي: بالرد على اليهود والنصارى، وإنما هي عامة، يخاطب فيها أولئك الذين شغبوا على قضية القبلة من جهة، ومن جهة يخاطب فيها أيضاً المنافقين، ويخاطب فيها أهل الإشراك، ويخاطب فيها المسلمين المؤمنين، ويبين لهم أن قضية التوجه جهة المشرق والمغرب ليست هي محل النجاة، ومناط الفوز، وتحقيق الاستقامة، فلا بد من طاعة الله ورسوله، ولا بد من الإيمان الصحيح بهذه الأمور المذكورة، حتى يتمكن المرء من تحقيق المعنى الأسمى للبر.

"كما قال في الأضاحي والهدايا: {لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ} [(٣٧) سورة الحج].

وقال أبو العالية: كانت اليهود تُقْبل قبل المغرب، وكانت النصارى تقبل قبل المشرق، فقال الله تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} يقول: هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل."

قول أبي العالية: كانت اليهود تُقْبل قبل المغرب، هذا باعتبار أنهم عنه بناحية يكونون إلى الغرب، فهم يستقبلون بيت المقدس من تلك الناحية، وكانت النصارى تستقبل المشرق، يعني مطلع الشمس، هذه هي القبلة التي يستقبلونها، فقال الله تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ} وهذه الرواية ثبت ضعفها، لكن الملفت في كلام أبي العالية قوله: هذا كلام الإيمان، وحقيقته العمل، فماذا يقصد بذلك؟

يقصد والله أعلم أن الأمور المذكورة في الآية تنقسم إلى قسمين:

- الإيمان بالله واليوم الآخر، قولوا آمنا بالله، فهذا كلام الإيمان، أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فذكر هذه الأصول العظام التي يجب على الإنسان أن يؤمن بها.
- حقيقته العمل، حيث ذكر بعده في الآية **{وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}** [(١٧٧) سورة البقرة] فهذه الأعمال لا يستقيم إيمان المرء إلا بجميعها.

والإيمان في حقيقته: قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، قول اللسان: النطق بالشهادتين، وما يدخل الإسلام إلا بالشهادتين، وقول القلب: بالإقرار والتصديق الانقيادي.

وعمل القلب واللسان والجوارح، عمل القلب: كالخوف والتوكل والرجاء، وهو غير تصديق القلب، غير قول القلب، وعمل اللسان: كالذكر وقراءة القرآن، وعمل الجوارح: كألوان العبادات، وما يوضح عبارة أبي العالية أكثر ما ذكره الحافظ ابن كثير عن الحسن والربيع بن أنس، وخاصة عبارة الربيع، يقول فيها: "تكلموا كلام الإيمان، فكانت حقيقة العمل، صدقوا الله"، والله أعلم بالصواب.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير(٧٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- تعالى: "وقال الثوري: {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} الآية، قال: هذه أنواع البر كلها.

وصدق -رحمه الله-؛ فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في عرى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله، وأنه لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله {وَالْكِتَابِ} وهو: اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها، وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب، الذي انتهى إليه كل خير، واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة، ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد -صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين-.

وقوله: {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ} أي: أخرجه، وهو محب له، راغب فيه كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- مرفوعا: ((أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى، وتخشى الفقر))[1].

وقال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا} [(٨-٩) سورة الإنسان٩].

وقال تعالى: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ} [(٩٢) سورة آل عمران] وقوله: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [(٩) سورة الحشر] نمط آخر أرفع من هذا وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

قوله -تبارك وتعالى-: {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ} ورد في عود الضمير في {عَلَى حُبِّهِ} ثلاثة أقوال:

الأول: أن الضمير الهاء يرجع إلى حب المال، وهو ظاهر سياق الآية، وأقرب ما تفسر به، وقد ساق ابن كثير في المقدمة جملة من الآيات الدالة على ذلك.

الثاني: أن الضمير يرجع إلى الله -عز وجل-.

الثالث: أن الضمير يرجع إلى الإيتاء، والمعنى {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ} حب الإيتاء وهذا القول بعيد جداً.

---

[1] - رواه البخاري في كتاب الزكاة -باب أي الصدقة أفضل، والصدقة وأنت صحيح شحيح (١٣٥٣) (٢/٥١٥)، ومسلم في كتاب الزكاة - باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح (١٠٣٢) (٢/٧١٦).

ولعل الأقرب القول الأول وهو أنه يرجع على حب المال؛ لأن هذا الذي تكمل به درجة العبد، وتعظم به نفقته، وذلك أنه إذا أعطى وهو صحيح وشحيح كما في الحديث فإن ذلك يكون أعظم ممن أعطى الدنيا وهي وراء ظهره عند الموت.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ} [(٩) سورة الحشر] كما يقول الحافظ: نمط آخر أرفع من هذا يعني أرفع من قوله: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ}، فإن إعطاءهم مع وجود الخصاصة وهي: الحاجة الشديدة التي ينفرد بها دون غيره، تكون أرفع في الميزان.

فهذا أعظم من الأول الذي يعطي المال وهو يحبه، لكنه قد لا يكون بحاجة ماسة إليه، والخصاصة هذه الكلمة قد تكون مأخوذة من خصاص السقف، أو خصاص البيت أو نحو هذا، وربما تكون مأخوذة من غير ذلك، لكنها تدل أو تشعر بالانفراد بالحاجة يعني -الحاجة الشديدة-، والله أعلم.

"وقوله: {ذَوِي الْقُرْبَى} وهم: قرابات الرجل، وهم أولى من أعطى من الصدقة، كما ثبت في الحديث: ((الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذوي الرحم ثنتان: صدقة وصلة))[٢]. فهم أولى الناس بك وببرك وإعطائك، وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير موضع من كتابه العزيز.

{وَالْيَتَامَى} هم: الذين لا كاسب لهم، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب، وقد روى عبد الرزاق عن علي -رضي الله تعالى عنه-، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يتم بعد حلم))[٣].

{وَالْمَسَاكِينَ} وهم: الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم، وكسوتهم، وسكناهم."

بعض أهل العلم يقول: سمي المسكين بذلك؛ لأنه ساكن إلى الناس، ساكن إلى ما في أيديهم، ليس عنده شيء ولا اكتساب، وإنما يسكن إلى الناس من أجل أن يجد كفايته، وما يقيم أوده ويكفي حاجته.

وبعضهم يقول: قيل له ذلك لمسكنته، بمعنى أن الفقر أسكنه ليس له صنعة، ولا حرفة، ولا تجارة، فعلى كل حال كلام أهل العلم في المسكين معروف، وإذ ذكر المسكين دخل معه الفقير.

"فيعطون ما تسد به حاجتهم وخلتهم، وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه))[٤]."

يعني المتعفف، وهو المسكين حقيقة المستحق للعطاء أكثر من غيره ما دام بهذه المثابة، ولا ينفي ذلك أن غيره فقير أو مسكين، ولكن المقصود التنبيه على من هو أحق بهذا الوصف.

---

[2] - رواه الترمذي (٦٥٨) (٣/٤٦)، ورواه النسائي (٢٥٨٢) (٥/٩٢)، ورواه ابن ماجه (١٨٤٤) (١/٥٩١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٨٩٢).

[3] - رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٥/٧)، والصغير (١٥٨/٢)، ورواه عبد الرزاق في مصنفه عن جابر بن عبد الله (٤٦٤/٧).

[4] - رواه البخاري في كتاب الزكاة - باب قول الله تعالى: {لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} [(٢٧٣) سورة البقرة] (١٤٠٩) (٥٣٨/٢)، ورواه مسلم في كتاب الزكاة - باب المسكين الذي لا يجد غنى ولا يتفطن له فيتصدق عليه (١٠٣٩) (٧١٩/٢).

"**{وَابْنَ السَّبِيلِ} وهو: المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته، فيعطى ما يوصله إلى بلده، وكذا الذي يريد سفراً في طاعة، فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه، ويدخل في ذلك الضيف، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: "ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين".**"

هذا القول قال به ابن عباس -رضي الله عنهما- وقال به غيره، والذي يظهر أن ابن السبيل لا يخرج عن القول الأول، وسمي بذلك نسبة إلى السبيل وهي الطريق لملازمته لها، وكل من لازم شيئاً فإنه يصح أن ينسب إليه، كما يقولون للطائر المعروف: "ابن الماء" سمي بذلك لملازمته الماء.

وعلى هذا فابن السبيل هو: المسافر الذي انقطع في سفره، إما لذهاب نفقته، أو سرقته، أو ضياع أمواله، أو انتهاء مئونته، فيعطى ولو كان في بلده مستغنياً، ولو كان من أغنى الناس فإنه يعطى من الغنيمة، ومن الفيء، ومن زكاة بيت مال المسلمين، ولا يكون ذلك على سبيل الإقراض حتى لو كان غنياً، بل يعطى هبة وإحساناً وتمليكاً.

وأما القول بأن "ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين" فقد قال به ابن عباس وغيره، وهو يقصد به الإنسان الذي ينزل ببلد فهو ابن سبيل، فإن كان محتاجاً فإنه يجب أن يعطى كفايته، لكن لو كان من أهل البلد وجاء إلى آخر ونزل ضيفاً عنده هل هذا يصدق عليه أنه ابن السبيل؟ الجواب لا، والله تعالى أعلم.

"**وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو جعفر الباقر، والحسن، وقتادة، والضحاك، والزهري، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان.**

{وَالسَّآئِلِينَ} وهم: الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات.

{وَفِي الرِّقَابِ} وهم: المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم.

وسيأتي الكلام على كثير من هذه الأصناف في آية الصدقات من براءة، إن شاء الله تعالى."

قوله تعالى: **{وَفِي الرِّقَابِ}** يدخل فيها ما ذكر وهو المكاتب؛ وذلك أن الرقيق يكاتب سيده على أن يعتق إذا دفع قدراً من المال يتفق عليه مع صاحبه، وكثير من أهل العلم يقولون: إن ذلك يكون على أقساط معلومة، فهذا هو المكاتب يعطى من الزكاة ومن بيت المال، كما قال الله -عز وجل- **{وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ}** [(٣٣) سورة النـــــور]، ويدخل فيه أيضاً إعتاق العبيد ابتداء من غير مكاتبة، ويدخل فيه أيضاً فك الأسارى فكل ذلك داخل تحت قوله سبحانه: **{وَفِي الرِّقَابِ}**.

"**وقوله: {وَأَقَامَ الصَّلاةَ} أي: وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها، وسجودها، وطمأنينتها، وخشوعها، على الوجه الشرعي المرضي.**

وقوله: {وَآتَى الزَّكَاةَ} المراد به زكاة المال، كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان."

ذكر الله -عز وجل- قبل قوله: **{وَآتَى الزَّكَاةَ}** هذه الأصناف **{وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ}** [(١٧٧) سورة البقرة] وهي من الأصناف التي تعطى من الزكاة كما قال الله -عز وجل- في سورة براءة: **{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}** [(٦٠) سورة التوبة] وهنا لفتة ذكرها بعض أهل العلم وهي: أن تعداد هذه الأصناف بعد ذكر آية الزكاة دليل

على جواز أنهم يعطون أيضاً من الصدقة لقوله: {وَآتَى الْمَالَ} يعني على سبيل التصدق والتطوع، والتقرب إلى الله من غير الفريضة، وما يعضد هذه اللفتة أن الله -عز وجل- لما مدح أهل الأنصار مدحهم بقوله: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [(٩) سورة الحشر] مع أنهم في غاية الفقر، ومن ثم فإن الزكاة لا تجب عليهم لكن مع هذا يؤثرون غيرهم مع شدة حاجتهم إليها، وهذا الذي ذكره الله -عز وجل- في صفة أهل الإيمان، {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [(٨) سورة الإنسان] فهؤلاء هم الذين مدحهم الله تبارك وتعالى، فيكون ذلك الإيتاء مطلقاً لا يختص بالزكاة؛ لأنه ذكر بعد ذلك إخراجهم للزكاة، فإخراجهم المال على سبيل التطوع، وإخراجهم أيضاً على سبيل الوجوب.

وبعضهم يقول: إن المراد بذلك الزكاة، ولكنه عطف العام على الخاص؛ لأنه ذكر بعض الأصناف التي تعطى لهم الزكاة، والآية تحتمل القولين، والله أعلم بالصواب.

"وقوله: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ} كقوله: {الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ} [الرعد: ٢٠] وعكس هذه الصفة النفاق، كما صح في الحديث: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان))[٥]. وفي الحديث الآخر: ((إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر))[٦]."

قوله:{وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ} جاء بها مرفوعة، وما قبلها منصوبة: {وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ} فما وجه ذلك؟

بعض أهل العلم يقول: إنه معطوف على قوله: {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ} فجعله معطوفاً على ذلك المرفوع في أول الآية.

وبعضهم قال: هو خبر لمبتدأ محذوف على تقدير: وهم الموفون.

وبعضهم يقول: هو مبتدأ وخبره، والخبر محذوف.

"وقوله: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ} أي: في حال الفقر، وهو البأساء، وفي حال المرض والأسقام، وهو الضراء."

قوله{وَالصَّابِرِينَ} جاءت منصوبة بعد مرفوع، ما قال: والصابرون في البأساء والضراء، ولعل من أحسن ما يجاب به أن يقال: إن القاعدة عند العرب إذا تطاول الكلام فإنها تقطع أوصاف المدح أو الذم بالرفع تارة، وبالنصب تارة، هذا من أوضح الأجوبة التي يجاب بها عن هذا، وإلا فإن الأجوبة عن مثل هذا كثيرة متعددة، حتى إن بعضهم ألف رسالة في أحد المواضع، رسالة مستقلة، وهذا له نظائر في القرآن عديدة أن يأتي المرفوع بين منصوبات أو المنصوب بين مرفوعات مثل قوله سبحانه: {وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ...} [(١٦٢) سورة النساء] فجاء بمنصوب بين مرفوعات، ويقول أهل اللغة: هذا أبلغ، وذلك أنه يدفع الملل والسآمة لطول الكلام، فيجدد لدى السامع أو القارئ النشاط، فلا يستطيل الكلام بهذه الأوصاف لتنوع النمط الكلامي، والله أعلم.

---

[5] - رواه البخاري في كتاب الأدب - باب: قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ} [(١١٩) سورة التوبة] (٥٧٤٤) (٢٢٦٢/٥)، ورواه مسلم في كتاب الإيمان - باب: بيان خصال المنافق (٥٩) (٧٨/١).

[6] - رواه البخاري في كتاب الإيمان - باب علامة المنافق (٣٤) (٢١/١)، ورواه مسلم في كتاب الإيمان - باب بيان خصال المنافق (٥٨) (٧٨/١).

قوله: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ} أي: الصابرين في حال الفقر وهو البأساء، وفي حال الضراء وهي المرض والأسقام، وهذا أبلغ من قول من يقول: إن المقصود به التوكيد بذكر المترادفات، وجعل ذلك من قبيل التكرار، فهنا تحمل البأساء على أنها الفقر الشديد، والضراء على المرض والسقم، والله أعلم.

"{وَحِينَ الْبَأْسِ} أي: في حال القتال والتقاء الأعداء، قاله ابن مسعود، وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم-، وأبو العالية، ومرة الهمداني، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان، وأبو مالك، والضحاك، وغيرهم.

وإنما نصب {وَالصَّابِرِينَ} على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال؛ لشدته وصعوبته، والله أعلم، وهو المستعان وعليه التكلان."

كلام ابن كثير يرجع إلى ما ذكرته من أن العرب تقطع إذا تطاولت صفة الواحد في المدح أو الذم، ويكون ذلك أبلغ في مدحه أو ذمه، وبعضهم يجيب بأجوبة غير هذا، كأن يقول مثلاً: وأخُصُّ الصابرين، أو أقدر، والأصل في الكلام عدم التقدير، ومهما أمكن حمل الكلام على الاستقلال فإنه أولى من دعوى الإضمار، فإذا أمكن حمل الآية على معنى صحيح من غير حاجة إلى تقدير فهذا هو المطلوب، وإن احتيج إلى التقدير فالقاعدة الأخرى أنه يقدر في الكلام ما هو أشبه ببلاغة القرآن وفصاحته.

"وقوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا} أي: هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم؛ لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}."

خص الله الصابرين في الآية في هذه الحالات الثلاث: البأساء، والضراء، وحين البأس، ومع أن الصبر مطلوب في كل الأمور كالصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، والصبر على أقداره المؤلمة، لكنه خص هذه الأمور الثلاثة؛ لأنها شديدة جداً، والصبر فيها لا شك أنه في غاية المشقة، وإلا فالأصل أنه مطلوب في كل الأحوال.

ثم أحسن وصفهم فقال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} فجاء بالفصل بالضمير، ضمير الغائب هم بين طرفي الكلام، وهذا يشعر بأن هؤلاء حققوا الوصف الكامل من هذه الأمور، فهم أحق من يوصف بالصدق، وأحق من يوصف بالتقوى، فكأنه يقول: أولئك هم أصحاب الوصف الكامل من الموصوفين بهذه الصفة، ومجيء الضمير بين طرفي الكلام يدل على تقويته، فهو يشبه الحصر؛ كأنه حصر هذه الأوصاف بهؤلاء الموصوفين، بمعنى أنهم حققوا الوجه الكامل منها.

"{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}، لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [(١٧٨-١٧٩) سورة البقرة]

يقول تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ} العدل في القصاص -أيها المؤمنون -حركم بحركم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا، كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم، وسبب ذلك قريظة والنضير."

{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ} كتب بمعنى: فرض، أي فرض عليكم القصاص، ومعلوم أن القصاص قد يستغنى عنه بالعفو مطلقاً من غير عوض، وقد يستغنى عنه أيضاً بالدية، وهذا هو معنى السلطان الذي ذكره الله –عز وجل– في موضع آخر في سورة الإسراء **{فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا}** [(٣٣) سورة الإسراء] فلعل من أحسن ما فسر به السلطان المذكور في الآية: أن الله جعل لولي الدم تسلطاً على القاتل شرعاً وقدراً وذلك بثلاثة أمور: القصاص، أو الدية، أو العفو، والخيار خياره، فهذا من أحسن ما تفسر به آية الإسراء، والله تعالى أعلم.

فالمقصود أنه قال: ولا تتجاوزا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم، وسبب ذلك قريظة وبني النضير إلى آخره، والمراد أن بني النضير كانوا يرون أنهم أشرف من قريظة، فكانوا يرون أن دماءهم لا تتكافأ، فإذا قُتل أحد من بني النضير –قتله قرظي– فإنه يقتل به، وإذا كان القاتل من بني النضير فإنه لا يقتل، لكن ما مناسبة إيراد خبر قريظة وبني النضير في تفسير قوله –تبارك وتعالى–: **{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ}**؟ لعله تلميح لأهل الإيمان أن لا تغيروا أحكام الله كأولئك الذين غيروها، ولذلك صدر الآية بخطاب الذين آمنوا فيكون (كُتب) يتصل بقوله (الحر)، وهذا الذي اختاره جمع من المفسرين منهم ابن جرير الطبري –رحمه الله–، **{الْحُرُّ بِالْحُرِّ}** يعني كتب عليكم أن تعدلوا في القصاص فلا يقتل غير القاتل، ولهذا جاءت بعض الروايات عن بعض السلف: بأن أهل الجاهلية كان إذا قتل الرجل الرجل، قتلوا كل من وجدوا من عشيرته وقبيلته كما قال الشاعر:

كـل قتيـل مـن كليـب غـرة		حتـى يـوافي القتـل أهـل مـرة

فكل قتيل من هؤلاء غرة بمنزلة العبد حتى يوافي القتل أهل مرة، والقرآن حذر من هذا الصنيع، يقول –عز وجل– في الإسراء: **{فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ}** [(٣٣) سورة الإسراء] فيدخل فيه قتل غير القاتل، ويدخل فيه التمثيل به، ويدخل فيه قتل الجماعة بالواحد إن لم يشتركوا في قتله.

أحيانا يقولون: هذا لا يكافئه إلا رئيس القبيلة، أو فارس القبيلة، أو يقولون: لا يكافئه إلا أن نقتل به عشرة من القبيلة فهذا من الإسراف في القتل، بعض أهل العلم يقول: إن هذه الآية نزلت تتحدث عن مثل هؤلاء، إذا قُتل منهم الرجل –عبد مثلاً– لم يرضوا إلا بقتل حر مكانه، وإذا كانت امرأة قد قتلت امرأة فإنهم لا يكتفون بقتل هذه المرأة بل يقولون: لابد أن نقتل رجلاً من هذه القبيلة.

وبعضهم يقول: إن هذه الآية أصلاً نزلت في قوم وقع بينهم قتال، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– أصلح بينهم، وجعل هذه الدماء الموجودة بين الفريقين، جعل القتلى النساء من الفريقين هؤلاء يعدلن هؤلاء، والعبيد بالعبيد، والأحرار بالأحرار، وأصلح بينهم على هذا الأساس، فكِفاءُ دماء هؤلاء بهؤلاء، وما زاد فيمكن أن يعطوا من المال الديات ما يعوض هذا التفاوت، وعلى هذا تكون الآية لا مفهوم لها؛ لأن نزولها وتقرير الحكم فيها لم يكن ابتدائياً، وإنما هو نازل في توصيف حالة واقعة فهي أحد المواضع السبعة، أو الثمانية التي لا يعمل فيها بمفهوم المخالفة، والتي جمعها الناظم الشنقيطي في قوله:

....		ودع إذا الـساكت عنـه خافـا
أو جهل الحكم أو النطـق انجلـب		للسؤل أو جري على الذي غلـب

أو امتنــــــان أو وفـــــاق الواقــــع		والجهــل والتأكيــد عنـــد الــسامع

وهذه الآية نزلت على وفاق واقع معين، وهي كقوله -تبارك وتعالى-: **{لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ}** [(٢٨) سورة آل عمران]، فمفهوم المخالفة أنه يجوز اتخاذ الكافرين أولياء بشرط أن يكون معهم مؤمنون، ولكن ليس هذا المراد؛ لأن الآية نزلت بسبب قوم من المؤمنين اتخذوا بعض الكافرين أولياء ضد بعض المؤمنين، فنزلت الآية تتحدث عن هذا الأمر، فيكون ذلك قد نزل في توصيف واقع معين.

وكما قال الله -عز وجل-: **{وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا}** [(٣٣) سورة النـــــور] فهل إذا كانت هذه الأمة لا تريد التحصن والعفاف وترغب في الفجور، يجوز تركها استدلالاً بمفهوم المخالفة؟ لا، لأن الآية نزلت في واقعة معينة، وهو أن عبد الله بن أبي بن سلول كان له جارتان فأسلمتا، فكان يرغمهما على البغاء مقابل أجرة يتكسبها من وراء هؤلاء الجواري، ويضربهما على ذلك، فأنزل الله: **{وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا}**.

فقوله: **{الْحُرُّ بِالْحُرِّ}** لا يعني أنه إذا قتل الحر العبد أو العكس أن معناه أنه لا يطالب بالقصاص، فليس هذا هو المراد، فالآية إنما نزلت على توصيف، أو تعالج واقعاً معيناً، وترد على بعض المفاهيم التي كانت منغرسة في بعض الأفهام، وليس نزولها لتقرير حكم ابتداء، وبالتالي فإن قوله: **{الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ}** ليس المقصود منه أن المرأة إذا قتلت الرجل، أو الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها، وإن كان الإمام أحمد ذهب إلى أن الرجل إذا قتل المرأة وحكم بالقصاص فإنه تكمل له دية الرجل، فإذا كانت دية الرجل مائة ألف، ودية المرأة خمسين ألفا، فيدفع إليه أولياء المقتول خمسين ألفا نصف الدية الباقي ويقتل، وهذه المسألة محل خلاف والله أعلم بالصواب.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير(٧٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-، وعلى آله وصحبه أجمعين.

"يقول تعالى: كُتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون، حركم بحركم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا، كما اعتدى من قبلكم، وغيروا حكم الله فيهم."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى}** [(١٧٨) سورة البقرة]

أي: فرض عليكم أن تعدلوا في القصاص، وعبارة الحافظ ابن كثير -رحمه الله- تشير إليه، يقول: كتب عليكم العدل، وجعل كُتب عليكم القصاص مرتبطاً بقوله: الحر بالحر، والمعنى كُتب عليكم العدل في القصاص بألا تتجاوزوا حد الله -عز وجل- فتخرجوا عن العدل، بقتل غير القاتل، أو بقتل الحر بدلاً من الرقيق المقتول، وما إلى ذلك مما كانوا يفعلونه.

وقوله هنا: **{الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى}** مفهوم المخالفة فيها أنه إذا حصل التفاوت بين القاتل والمقتول في المرتبة فإنه لا ينفذ حكم القصاص في الواقعة، وقد ذكر العلماء عدة أجوبة على تقرير أن مفهوم المخالفة لا عبرة له في هذا الموطن فمن ذلك:

- أن هذه الآية يمكن أن تكون قد نزلت في معالجة حال معينة واقعة، ذكرها الحافظ ابن كثير وذلك أن بني النضير كانوا يرون أنهم أشرف من قريظة، وكلهم من اليهود، فالرجل من النضير إذا قتله القرظي قُتل القرظي به، وإن كان القتل من النضير لأحد من قريظة فإنه لا يقتل به، ويقولون: لا يقتل به؛ لأنه لا يكافئه، فجاءت الآية تعالج هذه القضية.
- أو أن ذلك فيما كان عليه الحال قبل النبي -صلى الله عليه وسلم- فكان الناس لا يعدلون في القصاص، فإذا قتل الرجل رجلاً فإن أولياء الدم أو عشيرة المقتول يقتلون من وجدوا من عشيرة القاتل وقرابته، وربما رأوا أن القاتل لا يكافئ المقتول فعمدوا إلى غيره، فقتلوا بالواحد جمعاً من الناس لا علاقة لهم بقتله، وربما قتلوا فارس القبيلة، أو سيد القبيلة، أو الوجهاء من القبيلة، مع أنهم لا علاقة لهم بقتل هذا الإنسان، وإذا كان القاتل عبداً لم يقبلوا بالقصاص منه بل قتلوا حراً مكانه، وإذا كان القاتل امرأة لم يقبلوا بالقصاص منها بل قتلوا رجلاً من عشيرتها بدلا منها، فجاءت الآية تعالج هذا الواقع.
- أو أن ذلك كان في مقتلة وقعت، فوقع قتلى من الطرفين رجال ونساء وأرقاء، فأصلح بينهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، فنظر في القتلى من الطرفين، فجعل النساء في مقابل النساء، والرجال

الأحرار في مقابل الأحرار، والعبيد في مقابل العبيد، وأصلح بينهم بهذا الاعتبار فجاءت الآية وفاقا لواقع معين.

فهذه الروايات الواردة وإن ثبت في بعضها ضعف إلا أن جميعها تؤكد أنها نازلة في علاج واقع بعينه، ونزول الآية في علاج واقعة معينة يعد من المواضع التي لا عبرة فيها بمفهوم المخالفة.

والمقصود بمفهوم المخالفة: المعنى المسكوت عنه بكلام منطوق ومفهوم، فالمنطوق: ما دل عليه اللفظ في محل النطق مثاله: أكْرِم التقي، فالمنطوق إكرام التقي، ومفهوم المخالفة لا تكرم غير التقي.

ومفهوم الموافقة: يجاري المنطوق، لكنه مسكوت عنه، فمفهوم المخالفة حجة على قول الجماهير من أهل العلم، لكنه في بعض المواضع لا يكون حجة، ومنها هذا الموضع أن تكون الآية أو النص نزل لمعالجة واقع معين.

وعليه فقوله: **{الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ}** معناه: أنه إذا قتل الرجل امرأة فإنه يقتل بها، وإذا قتلت المرأة أحداً من الرجال فإنها تقتل به، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن المسلمين تتكافأ دماؤهم، ومن أهل العلم من يشترط التكافؤ في القصاص، ويطالب بالتفاوت في الدية بين الرجل والمرأة، وكثير من أهل العلم على خلافه، فعلى هذا تكون الآية على ظاهرها عندهم ولا نسخ فيها.

وبعضهم قال: إنها منسوخة، نسخها قول الله -تبارك وتعالى-: **{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ}** [(٤٥) سورة المائدة]، وهذه الآية من سورة المائدة، وسورة المائدة هي آخر ما نزل في الأحكام، لم ينسخها شيء، ولكن هذه الآية التي ذكروا إنما نزلت في بني إسرائيل، فهي تخبر عما شرع لبني إسرائيل، ومعروف أن شرع من قبلنا لا يكون شرعاً لنا إن وجد في شرعنا ما يخالفه، فإذا قيل: إن هذه الآية ثابتة: **{الْحُرُّ بِالْحُرِّ...}** فتكون مخالفة لما شرع لبني إسرائيل في آية المائدة، فلو لم تنسخ فعندئذ يكون ذلك مخالفاً لما كتب على بني إسرائيل، وهذا توضيح لقوله سبحانه: **{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا}** ولقوله: **{الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى}** والله تعالى أعلم.

" وسبب ذلك قريظة والنضير، كانت بنو النضير قد غزت قريظة في الجاهلية وقهروهم، فكان إذا قتل النضري القرظي لا يقتل به، بل يفادي بمائة وسق من التمر، وإذا قتل القرظي النضري قتل به، وإن فادوه فدوه بمائتي وسق من التمر ضعف دية قريظة، فأمر الله بالعدل في القصاص، ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم، كفراً وبغيا."

معلوم أن بني إسرائيل كان لا يحل لهم أخذ الدية، وإنما حل ذلك لهذه الأمة تخفيفاً ورحمةً بها، وإيراد ابن كثير -رحمه الله- لهذه القضية في بني إسرائيل وما كان يحصل بينهم كأنه يريد أن يقول: إنها نزلت تصف حالاً معينةً منكرةً، فلا يكون للآية مفهوم مخالفة، ولا يفهم أن التفاوت والتكافؤ إذا لم يحصل لا يحصل القصاص، ودليله ما ذكره أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: "عدا يهودي في عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على جارية فأخذ أوضاحاً كانت عليها، ورضَخَ رأسها، فأتى بها أهلُها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهي في آخر رمق، وقد أُصمتت، فقال لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من قتلك؟ فلان؟))، لغير الذي قتلها فأشارت برأسها أن لا، قال: فقال لرجل آخر غير الذي قتلها فأشارت أن لا، فقال:

((فـفلان؟)) لقاتلها، فأشارت أن نعم، فأمر به رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فرُضخ رأسه بين حجرين[1]

"وقوله: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى} منها منسوخة، نسختها {أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ} [(٤٥) سورة المائدة]، وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر لما ثبت في البخاري عن علي –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((ولا يقتل مسلم بكافر)).[2]"

القاعدة الثابتة: أن النسخ لا يثبت بالاحتمال، فالأصل في الآية الإحكام وليس النسخ، ودعوى النسخ تكثر في كلام المفسرين والفقهاء –رحمهم الله– ولا بد له من دليل، والحكم بالنسخ بمجرد تعارض يلوح للمفسر أو الفقيه أمر غير سائغ؛ لأن النسخ فيه إهدار لأحد الدليلين، والأصل إعمال الدليلين ما أمكن، فإن تعذر ذلك لجأ إلى الترجيح ويبقى النسخ في الأخير، فالنسخ على كل حال إن لم يثبت بدليل يقوي القول به، وإلا فإنه لا يلجأ إليه، وهذه الطريقة التي مشى عليها ابن كثير –رحمه الله– في أول كلامه يقول: كتب عليكم العدل في قصاص القتلى الحر بالحر...، ولا تفعلوا كما فعلت قريظة، أو كما كان يفعله بعض العرب في الجاهلية، فلا نسخ.

لكنه قال بعد ذلك: هذا القدر من الآية منسوخ، وهو غريب ......

جاء في الأصل قوله:

"رواية عن سعيد بن جبير في قوله تعلى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ...} [(١٧٨) سورة البقرة] يعني: إذا كان عمداً الحر بالحر، وذلك أن حيين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل، فكان بينهم قتل وجراحات حتى قتلوا العبيد والنساء، فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا، فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر في العدة والأموال، فحلفوا ألا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم، وبالمرأة منا الرجل منهم فنزل فيهم: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى} منها منسوخة نسختها النفس بالنفس."

من الكلام السابق تفهم أنه لابن كثير –رحمه الله–، وظاهر كلام ابن كثير خلاف هذا فهو يرى أن الآية غير منسوخة بل يرى أن قوله سبحانه: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ} مرتبطة بما بعده من قوله: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ ...} ثم ذكر القصة بعده، مما يدل على أنها نازلة تعالج واقعة معينة فلا مفهوم لها، فالقول بالنسخ عن ابن كثير لا يصح، إنما هذه رواية نقلها عن سعيد بن جبير، وفي آخرها أنه قال: إن هذا القدر من الآية منسوخ، والنسخ يطلق عند السلف على كل ما يعرض للنص العام فتقييد المطلق، وتخصيص العام، وبيان المجمل، كل ذلك يقولون له نسخ كما قال ابن عباس في قوله تعالى: {وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ} [(٩٧) سورة آل عمران] قال: نسختها التي بعدها {مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} فهذا من باب تخصيص العام قطعاً ولا يحتمل النسخ؛ لأن النسخ الاصطلاحي بمعنى الرفع ولم يُرِدْه، هذا إذا صحت الرواية عن سعيد بن جبير؛ لأن الروايات الواردة في

---

[1] – رواه البخاري في كتاب الطلاق – باب الإشارة في الطلاق والأمور (٤٩٨٩) (٥/٢٠٢٩)، ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات – باب ثبوت القصاص في القتل بالحجر وغيره من المحددات والمثقلات وقتل الرجل بالمرأة (١٦٧٢) (٣/١٢٩٩).

[2] – رواه الترمذي برقم (١٤١٣) (٤/٢٥)، ورواه ابن ماجه برقم (٢٦٥٩) (٢/ ٨٨٧)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١٣٧١٠).

سبب النزول فيها ضعف، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن غاية ما يقال: إن هذا رأي لسعيد بن جبير وخالفه غيره، والله أعلم.

"لما ثبت في البخاري عن علي -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ولا يقتل مسلم بكافر))[3] ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا، وأما أبو حنيفة فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة."

وهي قوله: **{النَّفْسَ بِالنَّفْسِ}** [(٤٥) سورة المائدة] وتوجيهه للآية: أن الكافر نفس والمسلم نفس فيقتل به لهذا الجامع، إلا أن الآية نزلت في بني إسرائيل، وعندنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يقتل مسلم بكافر))[4]، وقال: ((المسلمون تتكافأ دماؤهم))[5] ومفهوم المخالفة أن غير المسلمين لا تتكافأ دماؤهم.

"ومذهب الأئمة الأربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد، قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في غلام قتله سبعة فقتلهم...."

أورد هذا القضية لأن الله قال: **{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى}** والمعنى كما تقدم العدل في القصاص **{الْحُرُّ بِالْحُرِّ....}** ومن مقتضى العدل أنه إذا مجموعة قتلوا واحدا، فإنهم يقتلون به.

"قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في غلام قتله سبعة فقتلهم، وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم، ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة، وذلك كالإجماع، وحكي عن الإمام أحمد رواية: أن الجماعة لا يقتلون بالواحد، ولا يقتل بالنفس إلا نفس واحدة. وحكاه ابن المنذر عن معاذ، وابن الزبير -رضي الله تعالى عنهم-، وعبد الملك بن مروان، والزهري، وابن سيرين، وحبيب بن أبي ثابت."

ذكر عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي المعروف باعتبار أنه فقيه، معدود من أهل الفقه ومحسوب عليهم.

"وقوله: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ} فالعفو: أن يقبل الدية في العمد، وكذا روي عن أبي العالية، وأبي الشعثاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، والحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان.

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ} يعني فمن ترك له من أخيه شيء يعني: أخذ الدية بعد استحقاق الدم، وذلك العفو."

القتل إذا كان بغير عمد فلا مجال للعفو عن القصاص؛ لأنه لا يحق له أصلاً أن يقتص منه، إذ الحكم بالقصاص إنما يكون في العمد، فمن عفا مقابل عوض وهي الدية فعند ذلك يقال: **{فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ}** والقرينة التي تبين أنه المراد قوله: **{فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ}** يعني إلى الدية من القصاص **{فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ}** العفو إما أن يكون بالتنازل عن الدية ففي هذه الحالة لا مجال للتوجيه بالاتباع بالمعروف والأداء بإحسان، وإما أن يكون إلى الدية إلى عوض، فهذا هو الذي دلت عليه الآية، والله أعلم.

---

[3] - سبق تخريجه.

[4] - سبق تخريجه.

[5] - رواه أبو داود برقم (٢٧٥١) (٢/٨٩)، وابن ماجه برقم (٢٦٨٣) (٢/٨٩٥)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١١٦٥٨).

"**{فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ} يقول: فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قبل الدية {وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ} يعني: من القاتل من غير ضرر ولا معك، يعني: المدافعة.**"

قوله: **{فَاتِّبَاعٌ}** ورد في إعرابها مرفوعة حالتان:

أولها: أن تكون مرفوعة بفعل محذوف والتقدير: فليكن منه إتباع بالمعروف، يعني ولي الدم.

ثانيها: أنها خبر لمبتدأ محذوف، وتوجيه الآية بأن لولي الدم اتباع القاتل والمطالبة بالمعروف من غير تعنت ولا إضرار، بأن يدفع الدية على أقساط معلومة، خلال أزمنة محدودة تسقط الدية عنه، ولا ينبغي له أن يتصرف بما يلحق به الضرر بسبب مطالبته بهذه الدية فهذا أمر لا يسوغ.

والوجه الذي تعين عليه تسليم الدية قوله –سبحانه–: **{وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ}** وهذا فيه الاحتمالان السابقان من الناحية الإعرابية: فليكن منه أداء إليه بإحسان، أو فالأمر أداء، فهذا الإنسان الذي تعينت في حقه الدية ينبغي عليه أن يؤدي هذا الحق الذي عليه، ولا يماطل أولياء الدم ويؤخر التسليم بدون مبرر ولا دافع.

"وقوله: {ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ} يقول تعالى: إنما شرع لكم أخذ الدية في العمد تخفيفاً من الله عليكم ورحمة بكم، مما كان محتوماً على الأمم قبلكم، من القتل أو العفو، كما روى سعيد بن منصور عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– قال: كتب على بني إسرائيل القصاص في القتلى، ولم يكن فيهم العفو، فقال الله لهذه الأمة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ} فالعفو أن يقبل الدية في العمد، ذلك وأخرجه ابن حبان في صحيحه. وقال قتادة: {ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ} رحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية، ولم تحل لأحد قبلهم، فكان أهل التوراة إنما هو القصاص وعفو ليس بينهم أرش، وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به، وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأرش.

وهكذا روي عن سعيد بن جبير، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، نحو هذا.

وقوله: {فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} يقول تعالى: فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها، فله عذاب من الله أليم موجع شديد. وهكذا روي عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان: أنه هو الذي يقتل بعد أخذ الدية."

وهذا هو المشهور والظاهر من الآية، أن من اعتدى بالقتل على القاتل بعد أخذ الدية منه فإنه متوعد بالعذاب الأليم، والعذاب الأليم يشمل عذاب الآخرة وما ينتظره من النكال فيها، وعذاب الدنيا بأن يقتص منه، ويطالب بإرجاع الدية إلى أولياء القاتل الأول، وهذا فيه نظر.

وذهب طائفة من السلف إلى أنه لا يقبل من هذا الذي اعتدى بعد ما قبل الدية، لا تقبل منه دية، ولا يقبل في حقه العفو؛ لأن الله –عز وجل– قال: **{فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}**، فهو محمول على قتله، وأن لا لا يقر ولي الدم ويقبل بالعفو ولو طالب بالدية.

والحقيقة أن الله –عز وجل– توعده بالعذاب الأليم إلا أنه لم يحدد، ولم يرد دليل في الكتاب ولا في السنة يدل على أنه لا تقبل منه الدية، وإنما الذي ورد أنه يعامل كغيره من القتلة، والقول بأن الدية ترجع إلى أولياء

قاتل الثاني ويكون هذا بهذا، بحاجة إلى نظر، والأقرب أنه يكون كغيره من القتلة، يخير أولياء الدم بين القتل، وبين الدية، وبين العفو.

وأما العذاب الأليم الذي توعده الله –عز وجل– به فقد يعجل له في الدنيا، وقد يدخر له في الآخرة، ولكنه لا يفهم منه كما أسلفنا أنه لا تقبل منه دية، ولا يقبل في حقه عفو فلا يوجد دليل يقوم بذلك، وما نقل عن بعض السلف –رضي الله تعالى عنهم– فإنه قد نقل ما يخالفه عن غيرهم.

"وقوله: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} [(١٧٩) سورة البقرة] يقول تعالى: وفي شرع القصاص لكم –وهو قتل القاتل– حكمة عظيمة لكم، وهي: بقاء المهج وصونها؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل..."

قوله: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} يأتي القصاص بمعنى المماثلة.

ويأتي بمعنى: اتباع الأثر كما في قوله –سبحانه–: {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ} [(١١) سورة القصص] يعني: اتبعي أثره، وهذا لا يعارض المعنى الأول؛ لأن متبع الأثر يفعل به كما فعل بغيره، حذو القذة بالقذة، هذا معنى اتباع الأثر، إلا إن كان بطريقة محرمة كالقتل بالمسكر، أو بالفاحشة، أو بالإحراق بالنار فلا، ولكن يقتل بمثل ما قتل على قول جماعة من أهل العلم، ويستدلون على هذا بأدلة: حديث أنس بن مالك –رضي الله عنه– "أن يهوديا رَضَخ رأس جارية بين حجرين، قيل من فعل هذا بك أفلان أفلان؟ حتى سمى اليهودي: فأومت برأسها، فأخذ اليهودي فاعترف، فأمر به النبي –صلى الله عليه وسلم– فرُضخ رأسه بين حجرين"[6]، وحديث النفر الذين قتلوا الراعي من العرنيين، فسمل النبي –صلى الله عليه وسلم– أعينهم[7].

ومن أهل العلم من يقول: إنه يقتل بالسلاح فقط، فإذا قتله بالسيف فإنه يقتل بالسيف، وإن قتله بطعن يطعن دون غيره، وبعضهم يقول: يقتل بالسيف مطلقاً؛ لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((إذا قتلتم فأحسنوا القتلة))[8] وتفصيل مثل هذا الكلام في أحاديث الأحكام.

"وفي شرع القصاص لكم –وهو قتل القاتل– حكمة عظيمة لكم، وهي بقاء المهج وصونها؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه، فكان في ذلك حياة للنفوس، وفي الكتب المتقدمة..."

في هذا الكلام إشارة إلى الحكمة العظيمة من القصاص، وهي ظاهرة في قوله: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ}، فجاء بها مُنَكَّرة، وهذا التنكير يفهم منه التعظيم من وجهين:

الوجه الأول: أن القاتل أو القاصد للقتل عندما يغلي الدم في عروقه، ويبلغ به الغضب غايته، يتذكر أنه سيعرض على السيف، وأنه سيقتل بالمقتول فيردعه ويخذله ذلك عن الإقدام على القتل، فيكون بذلك حياة لنفسه أولاً، ثم حياة للآخرين فيقلّ القتل، ولهذا قالوا: القتل أنفى للقتل، ولا مقارنة بين قول الله –تعالى–:

---

[6] – رواه البخاري في كتاب الخصومات – باب ما يذكر في ا لأشخاص والملازمة والخصومة بين المسلم واليهودي(٢٢٨٢) (٨٥٠/٢)، ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات – باب ثبوت القصاص في القتل بالحجر وغيره من المحددات والمثقلات وقتل الرجل بالمرأة (١٦٧٢) (١٢٩٩/٣).

[7] – رواه أحمد في مسند المكثرين من الصحابة – باب مسند أنس بن مالك (١٢٦٩٠) (١٦٣/٣)، وعلق عليه الأرنؤوط بأن إسناده صحيح على شرط الشيخين.

[8] – رواه مسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان –باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة (١٩٥٥) (١٥٤٨/٣).

{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} وبين قول العرب: القتل أنفى للقتل، وقد ذكر بعض أهل العلم سبعة أوجه، أو ثمانية أوجه، من الفروق البلاغية بين التعبيرين، فأين الثرى من الثريا!.

الوجه الثاني: أن العرب في جاهليتهم كانوا إذا قُتل لهم أحد، لا يكتفون بواحد بل يقتلون من وجدوا من عشيرة القاتل، وقد يصل بهم الحد إلى قتل رئيس العشيرة أو القبيلة؛ لأنهم يرون أن القاتل لا يعادل ولا يساوي المقتول في شيء، فلما شرع القصاص على ما أمر الله -عز وجل- به أن يقتل القاتل في مقابل المقتول، بقيت النفوس الأخرى مصونة محفوظة لا يصل إليها عدوان ولا قتل، فصار عندنا حياة القاتل، ومن أراد القتل، وحياة الطرف الآخر الذي كان سيوجه إليه القتل، وحياة -أيضا- الآخرين الذين ربما كانوا يقتلون انتقاماً من القاتل، هذا هو المقصود من الحياة في القصاص والله أعلم.

"وفي الكتب المتقدمة القتل أنفى للقتل، فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح، وأبلغ، وأوجز.

{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة."

هناك فرق بين القتل وبين القصاص، فالقتل: قد يكون بحق، وقد يكون بغير حق، وقد يكون بمثلة، وقد يكون بعدوان، ولذا جاء الأمر في آية الإسراء لمثل هذا، قال سبحانه: **{فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ}** [(٣٣) سورة الإسراء]، وعليه فليس كل قتل يحصل به الحياة، إذ قد يتسبب القتل أحياناً في بلايا ورزايا، فالقتل ليس على إطلاقه أنه أنفى للقتل والواقع شاهد، ولك أن تتأمل أين هذا -أنفى للقتل- من قوله حياة؟، فالفرق شاسع والبون كبير، ولهذا خاطب به ذوي العقول فقال: **{يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ }** أي: يا أصحاب العقول الراجحة؛ لأنهم هم الذين يعقلون هذه المعاني.

"قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل، فتمنعه مخافة أن يقتل.

وكذا روي عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي مالك، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان، {يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [(١٧٩) سورة البقرة] **يقول: يا أولي العقول والأفهام والنهى، لعلكم تنزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه، والتقوى: اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات."**

فائدة:

الآية قد تفسر السياق، والسياق قد يفسره سياق آخر في موضع ثانٍ، وهذا في حالة ما إذا كان السياق متشابهاً، فيفسر أحدهما بالآخر إذ قد يكون أوضح منه، وهذا مثل قوله -تبارك وتعالى-: **{فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ}** [(١٧٨) سورة البقرة] فإنه يشبه قوله -تبارك وتعالى- في التركيب: **{وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم}** [(٩٥) سورة المائدة] فالآية نزلت في الصيد، وخاطب الله المؤمنين بحرمة قتل الصيد وهم حرم وقال: **{وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء}** فجزاء أي: فالحكم جزاء، أو فالواجب جزاء، أو فعليه جزاء، أو فليكن جزاء.

وكذلك قوله في المطلقات: **{الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ}** [(٢٢٩) سورة البقرة] فبعد الطلاق مرتان إن أراد أن يراجع فهو بالخيار بين واجبين: إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، إذ لا مجال لبقائها عنده بعد الثالثة.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٧٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ* فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ* فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٨٠- ١٨٢) سورة البقرة].

"اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين، وقد كان ذلك واجباً على أصح القولين قبل نزول آية المواريث، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.. وبعد:

{كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ} جاءت هذه الآية مقررةً في كتاب الله -عز وجل-، تتحدث عن الوصية على سبيل الفرض، وقد عرفنا بأن **{كُتِبَ}** من ألفاظ الوجوب والإلزام، كما سبق في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: **{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى}** [(١٧٨) سورة البقرة] أن كتب بمعنى فرض.

وفي الآية أن أصل الوصية للأقارب الذين لا ميراث لهم مستحبة استئناساً بآية الوصية وشمولها، ولما ثبت عن ابن عمر --رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين، إلا ووصيته مكتوبة عنده))[1]، قال ابن عمر -رضي الله عنهما- "ما مرت على ليلة منذ سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلا وعندي وصيتي"، ولا خلاف بينهم في هذه المسألة.

وإنما الاختلاف الناشئ بينهم في الوصية للوالدين والأقربين من لهم حق في الميراث، فالذي يفهم من ظاهر الآية أن الوصية واجبة لهم، وإليه ذهب جماعة من السلف والخلف، قالوا: إن كان عنده ما يوصي به فإنه يجب عليه ذلك، ولم ينسخ الأمرَ بالوصية شيءٌ، وهذا قول متجه.

والذي ذهب إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن قوله سبحانه: **{إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ}** منسوخ بآية المواريث وقوله -صلى الله عليه وسلم- ((لا وصية لوارث))[2]، فلا يجب على كل من ترك مالاً أن يوصي إلا إن كان للأقارب الذين لا ميراث لهم كما جاء الأمر بها في حديث ابن عمر،

[1] - رواه البخاري في كتاب الوصايا - باب الوصايا وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- وصية الرجل مكتوبة عنده (٢٥٨٧) (٣/١٠٠٥)، ومسلم في كتاب الوصية (١٦٢٧) (٣/١٢٤٩).

[2] - رواه أبو داود برقم (٢٨٧٠) (٢/١٢٧)، ورواه النسائي في سننه برقم (٣٦٤١) (٦/٢٤٧)، وأحمد في مسنده برقم (١٧٦٩٩) (٤/١٨٦)، وصحيح الألباني الجامع الصغير وزيادته برقم (٢٦٧٠).

وهو محمول على مثل هذا، فهذا توجيه قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بأن الآية منسوخة من هذه الحيثية، ومن جهة أخرى أن الوصية للوالدين والأقربين من المواضع التي اشتهرت فيها دعوى النسخ في القرآن، وهناك مواضع تقرب من واحد وعشرين موضعاً في كتاب الله -عز وجل- هي أقوى دعاوى النسخ، وهي التي اقتصر عليها السيوطي -رحمه الله- في كتاب "الإتقان"، وأيضاً الزرقاني في "مناهل العرفان"، ونظمها السيوطي وعلق عليها الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- صاحب "الأضواء"، وألحقها بآخر "الأضواء"، والقول بالنسخ قال به كثيرون منهم: أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه: "الناسخ والمنسوخ"، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، والنحاس في كتابه: "الناسخ والمنسوخ"، ومكي بن أبي طالب في كتابه: "الإيضاح"، ورجح نسخ هذه الآية أيضاً الشيخ: محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-.

وخالفهم ابن جرير بناءً على الأصل والقاعدة المعروفة، وهي: أن النسخ لا يثبت بالاحتمال، فلا يصح في كل حالة يلوح فيها التعارض أن يدعى فيها النسخ؛ لأن النسخ يقتضي إهدار أحد الدليلين، والجمع بين الدليلين أولى من إهمال أحدهما، ولا منافاة ولا تعارض في الآية إذ المراد في الوصية للوالدين والأقربين غير الوارثين، فالآية محكمة لم ينسخها شيء، لكن هل يكون الأب غير وارث؟ الجواب: نعم، يكون غير وارث في الحالات الثلاث المشهورة التي تمنع الإرث وهي: الرق، والقتل، واختلاف الدين، فإذا كان الوالد رقيقاً مملوكاً فإنه لا يرث، ومثله إذا كان قاتلاً، وكذا إذا كان مخالفاً في الدين بأن يكون كتابياً أو مجوسياً...، فله أن يوصي والحالة هذه لأبيه؛ لأن والده لن يرث منه في هذه الحالات الثلاث، كما لو أن الأب كاتب سيده، فهو بحاجة إلى إعانة، والولد حر فكتب في وصيته لوالده أن يعطى قدر كذا وكذا بما لا يجاوز الثلث، فعندئذ يعطى لهذا الوالد، والخلاصة أنه إذا قام بالوالد مانع من موانع الإرث فإنه يوصى له، وتحمل القرابة في الآية على غير الوارثين، وهذا وجه حسن لا إشكال فيه.

وأما القائلون بنسخها، فقد اختلفوا في ناسخها هل هي آيات المواريث أو الحديث، باعتبار الأصل عند كثير من أهل العلم كالشافعي نص في رسالته على أن القرآن لا ينسخه إلا القرآن، وأما السنة فما جيء بها إلا لتبين القرآن وتشرح مشكله، والنسخ رفع ولا تقوى على رفعه هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا الحديث من أحاديث الآحاد، والآحاد عند بعضهم لا يقوى على نسخ المتواتر -القرآن-، ولذلك أجابوا بأن الذي نَسخ هو آيات المواريث، أو مجموع الأمرين.

والصحيح أن الآحاد ينسخ المتواتر، وأن السنة لا مانع من نسخها القرآن.

فائدة:

من أجود كتب النسخ أربعة: كتاب" "الناسخ والمنسوخ" لأبي عبيد القاسم بن سلام، وهو من أئمة القراءة، والحديث، والتفسير، واللغة، توفي سنة مائتين وأربع وعشرين للهجرة، وكتاب: "الناسخ والمنسوخ" للنحاس، وهو مطبوع في طبعة أنيقة حسنة محققة تحقيقاً بديعاً، تصلح أن تكون نموذجاً في تحقيق الرسائل الجامعية، وكتاب: "الإيضاح" لمكي بن أبي طالب، وهو مطبوع في مجلد، وكتاب: "نواسخ القرآن" لابن الجوزي، مطبوع في مجلد طبعة الجامعة الإسلامية.

قوله سبحانه: {إِن تَرَكَ خَيْراً} معناه: إن ترك مالاً، فالخير يراد به المال في هذا الموضع، كما في قوله -تبارك وتعالى- في الموضع الآخر: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [(٨) سورة العاديات] أي: لحب المال، وقال سبحانه في موضع ثالث: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [(٢٠) سورة الفجر]، وليس المراد حب العمل الصالح، والبر، والتقوى، والإحسان إلى الناس، والإحسان مع الله -عز وجل- كما يفهم البعض، ومن هنا يعلم خطأ من قال: إن الأصل في الناس حب الخير، والله أعلم.

"وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتماً، من غير وصية ولا تحمل منة الموصي، ولهذا جاء في الحديث الذي في السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يخطب وهو يقول: ((إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث))[3].

وروى الإمام أحمد عن محمد بن سيرين قال: "جلس ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- فقرأ سورة البقرة حتى أتى على هذه الآية: {إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ}، فقال: نسخت هذه الآية".

وكذا رواه سعيد بن منصور والحاكم في مستدركه و........"

قول ابن عباس لا يلزم منه الحمل على النسخ الاصطلاحي الذي بمعنى الرفع؛ لأن السلف يطلقون النسخ على كل ما يعتور النص العام من تخصيص لعموم، أو تقييد لإطلاق، أو بيان لإجمال، أو رفع وهو النسخ الاصطلاحي، فلا يلزم من هذا أنه يقصد النسخ بمعنى الرفع، ولكنه يحتمل ذلك احتمالاً كبيراً؛ لأن أكثر أهل العلم يقولون بالنسخ وهو قول له وجه قوي.

"رواه سعيد بن منصور، والحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرطهما.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ}، نسختها هذا الآية: {لِّلرِّجَالِ نَصيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا} [(٧) سورة النساء].

ثم قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عمر وأبي موسى......"

يقصد بقوله: نسختها للرجال نصيب يعني آيات المواريث، وهذا لا يعارض قول من قال: إن آيات المواريث تبدأ من قوله: {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ} [(١١) سورة النساء]؛ لأن المراد أنها آية تطرقت إلى الكلام عن المواريث، وكل المواضع التي تحدثت في القرآن عن المواريث تأخذ حكمها واسمها، وقد يكون الناسخ أمر آخر، لأن آية {لِّلرِّجَالِ نَصيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ} ليست ضمن السياق الذي ذكرت فيه آيات المواريث، إلا أنها تعد من جملة ما يتحدث عنها، فتدخل في الناسخ والله أعلم.

"ثم قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عمر وأبي موسى -رضي الله تعالى عنهم-، وسعيد بن المسيب، والحسن، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، ومحمد بن سيرين، وعكرمة، وزيد بن أسلم، والربيع بن

---

[3] - رواه أبو داود برقم (٢٨٧٠) (١٢٧/٢)، ورواه النسائي في سننه برقم (٣٦٤١) (٢٤٧/٦)، وأحمد في مسنده برقم (١٧٦٩٩) (١٨٦/٤)، وصـــحيح الألباني الجامع الصغير وزيادته برقم (٢٦٧٠).

أنس، وقتادة، والسدي، ومقاتل بن حيان، وطاووس، وإبراهيم النخعي، وشريح، والضحاك، والزهري أن هذه الآية منسوخة، نسختها آية الميراث.

بقي الأقارب الذين لا ميراث لهم يستحب له أن يوصي لهم من الثلث استئناساً بآية الوصية وشمولها."

يذكر الحافظ ابن كثير أن الأقارب الذين لا ميراث لهم، يستحب استئناساً بآية الوصية هذه أن يوصى لهم، وهنا يرد إشكال على كلام ابن كثير، وهو إذا كانت الآية منسوخة فكيف يؤخذ منها الاستحباب؟ والجواب أن يقال: إن حقيقة النسخ تارة تكون من الفرض والإلزام إلى الاستحباب وهذا ما قصده الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فهو غير متناقض، لأنه قصد نسخ وجوب الوصية فقط، باعتبار أن الله أعطى كل ذي حق حقه، وبقي الاستحباب بالوصية لغير الورثة من القرابات، وهذا يجري أيضاً على قول من فسر قوله -تبارك وتعالى-: **{مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا}** [(١٠٦) سورة البقرة]، بأنه لا بد من البديل في النسخ، فالبديل في الآية عن الوصية هو الميراث، وهذا يدفعنا للتعريج على مسألة وكلام أهل العلم في النسخ إلى غير بدل، والذي عليه اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أنه لا نسخ إلى غير بدل، وأوضح مثال له قوله -تبارك وتعالى- في آية المناجاة: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [(١٢) سورة المجادلة]، فبقى الأمر بتقديم الصدقة بين يدي المناجاة على سبيل الاستحباب ولم ترفع الصدقة كما ذكر ابن تيمية، وأما القائلون بالنسخ إلى غير بدل فيرون أن الأمر رفع نهائياً في آية المناجاة، والله أعلم بالصواب.

"ولما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده))[٤]."

الأظهر أن الخطاب يفهم منه الوجوب إن كان عنده ما يوصي به، كالحقوق، والديون، وما أشبه ذلك من الأمور التي يحتاج أن يوصي بها؛ لئلا تضيع الحقوق فيجب أن يثبت ذلك في وصيته، أما من ليس عنده شيء فلا يشمله النص؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه وهو خالي الوفاض من المال، فلا ينبغي الفهم أن الوصية واجبة على كل أحد أخذاً من هذا الآية، بل الصحيح حصرها فيمن يملك وذمته مرهونة بحقوق للآخرين.

"قال ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: "ما مرت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول ذلك إلا وعندي وصيتي"، والآيات والأحاديث بالأمر ببر الأقارب والإحسان إليهم كثيرة جداً، والمراد بالمعروف أن يوصي لأَقْرَبِيه وصية لا تجحف بورثته من غير إسراف ولا تقتير، كما ثبت في الصحيحين أن سعداً -رضي الله تعالى عنه- قال: "يا رسول الله --صلى الله عليه وسلم-- إن لي مالاً ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأوصي بثلثي مالي، قال: ((لا)). قال: فبشطر. قال: ((لا)). قال: فالثلث، قال: ((الثلث والثلث كثير))."

قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الثلث والثلث كثير)) فهم كثير من السلف ومن بعدهم -رضي الله تعالى عنهم- أن الثلث ليس بمستحب في الوصية، لقوله: ((كثير))، وإنما يوصي دون الثلث كالربع، وبعضهم قال: دونه كالخمس ونحو هذا؛ لئلا يضر بالورثة، والناس يتفاوتون في هذا، من كان له مال كثير، ومن كان ماله

---

[٤] - سبق تخريجه.

قليل، ومن كان له ورثة كثر ...، فهذا يختلف من حال إلى حال، واستنبطوا منها أحكاماً فقهية تجدونها في مواضعها، في مسائل تتعلق بالغبن في البيع، إذا كان يبلغ الثلث لقول النبي –صلى الله عليه وسلم-: ((الثلث والثلث كثير))، إلى غير ذلك.

"((الثلث والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس))[٥].

وفي صحيح البخاري أن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– قال: "لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع، فإن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: الثلث والثلث كثير".

وقوله: {فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [(١٨١) سورة البقرة]، يقول تعالى: فمن بدل الوصية وحرفها، فغير حكمها وزاد فيها أو نقص، ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى، {فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ}".

قوله سبحانه: {فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ} التبديل نوعان، هذا هو النوع الأول، التبديل المذموم بتغيير وصية الميت وتحريفها بغير وجه حق، أو كتمان الوصية بالكلية، بأن أوصاه بكذا ولم يخبر الرجل، أو أوصى بالثلث يبنى فيه مساجد فكتم ذلك؛ لئلا يذهب شيء من الميراث عنه، أو أنه أوصى لفلان من الناس فحسده، فكتم الوصية، فمثل هذا لا يجوز، إذ هو من الكتمان المذموم والتبديل المذموم، والنوع الآخر وهو التبديل والتغيير المحمود، وذلك إذا كان في الوصية إجحاف وظلم، بـأن أوصى بأكثر من الثلث، فيبدلها إلى الثلث، وكذا لو قال: أوصي بنصف مالي أو بكل مالي أعيد إلى الثلث، ولو كان عنده ستة عبيد فقط، هي كل التركة، وقال: هؤلاء العبيد أحرار، كُتِب في الوصية ما يعتقون، فالحاصل أنه يقرع بين هؤلاء العبيد قرعة فيُعتق اثنان، ويبقى أربعة على الرق، وهكذا لو أنه أوصى لأحد الوارثين، فإن ذلك لا ينفذ، والواجب أن يغير الإجحاف والظلم والمنكر من الوصية، لا أن تلغى كل الوصية، والله أعلم.

"قال ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– وغير واحد: وقد وقع أجر الميت على الله، وتعلق الإثم بالذين بدلوا ذلك.

{إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} أي: قد اطلع على ما أوصى به الميت، وهو عليم بذلك، وبما بدله الموصى إليهم.

وقوله تعالى: {فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا} [(١٨٢) سورة البقرة]، قال ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– وأبو العالية، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أنس والسدي: الجنف: الخطأ."

ذكر في الآية الجنف والإثم، مما يدل على أن معناهما متغاير إذ الإثم الظلم، والجنف الميل أو المجاوزة، وأراد الله بقوله: {فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا} أي: حصل منه تجاوز بغير قصد، لعله أراد خيراً فلم يوفق إليه، {أَوْ إِثْمًا} بأن تعمد المخالفة أو الإضرار بالورثة ونحو هذا.

وقوله –سبحانه وتعالى-: {فَمَنْ خَافَ} فسر بعض أهل العلم الخوف بمعنى العلم، فمن خاف أي: علم، وبعضهم يحمله على وجهه، فمن خاف أي: من خاف منه إثماً أو جنفاً.

وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها بأن زاد وارثاً بواسطة أو وسيلة، كما إذا أوصى ببيعه الشيء الفلاني محاباة.

---

[5] – رواه البخاري في كتاب الوصايا – باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس (٢٥٩١) (٣/١٠٠٦)، ورواه مسلم في كتاب الوصـيـة – باب الوصية بالثلث (١٦٢٨) (٣/١٢٥٠).

محاباة لأحد الورثة.

"أو أوصى لابن ابنته ليزيدها."

فيوصي لابن البنت الذي ليس له في الميراث سهم نصيبا من الوصية بالثلث؛ ليزيد في سهم أمه من التركة، يريد بذلك أن يعوضها النقص الذي لحق بها، أو يساويها بإخوانها، فهذا ما يجوز، وهو ما قصده بقوله: بأن زاد وارثاً بواسطة أو وسيلة.

"أو نحو ذلك من الوسائل، إما مخطئا غير عامد، بل بطبعه وقوة شفقتة من غير تبصر."

وهذا يقع فيه كثير من العامة يقول: هذه البنية مسكينة، مكسورة الجناح، ليس عندها ما تتكسب، أو أنها مطلقة لا يقوم بشأنها أحد، فيوصي لها إضافة للميراث شيئاً من أمواله من باب الارتفاق بها، بخلاف الرجال، هذا الصنيع ما يجوز، وينبغي له أن يعلم أن الله أرحم وأحكم وأعلم.

"أو متعمداً آثماً في ذلك، فللوصي والحالة هذه أن يصلح القضية، ويعدل في الوصية على الوجه الشرعي."

هذا وجه من تفسير قوله: **{فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ}** [(١٨٢)سورة البقرة] وهو وجه جيد، والمراد أصلح الوصية أي: عدل وغير فيها بما يوافق الوجه الشرعي، وهو التغيير والتبديل المحمود في الآية.

"ويعدل عن الذي أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء إليه وأشبه الأمور به، جمعاً بين مقصود الموصي والطريق الشرعي، وهذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل في شيء، ولهذا عطف هذا فبينه على النهي عن ذلك؛ ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل والله أعلم."

ويحتمل أن يكون **{فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ}**، أي: أصلح بين الورثة والموصي والموصى له لرفع ما فيه من ضرر وإشكال؛ لأن تلك القسمة مظنة التنازع، فيكون مصلحاً بين الأطراف الثلاثة، إذ لم يأت التحديد في الآية لمن يشملهم الصلح فتعم هذه الأصناف الثلاثة، وليس المراد من الآية مجرد إصلاح الوصية، وإن كان إصلاح الوصية نفسها هو إصلاح في الواقع بينهم؛ لأن هذه الوصية للوارث ظلم وتعدي وتضييع لحقوق الورثة، وتسبب مشاكل وبلايا لا تخفى لدى كثير من الناس.

وهذا المعنى الأخير اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، أصلح بينهم، أي بين الموصي والموصى له والورثة، برفع الظلم والتعدي والمجاوزة بهذه الوصية.

"روى عبد الرزاق عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فإذا أوصى حاف في وصيته، فيختم له بشر عمله فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل في وصيته، فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة))، قال أبو هريرة -رضي الله تعالى عنه-: اقرءوا إن شئتم: {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا} [(٢٢٩) سورة البقرة] الآية[٦]."

في قوله -تبارك وتعالى-: **{فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [(١٨٢) سورة البقرة] يمكن أن يحمل على أنه غفور للموصي إذا هم بالجور ثم عدل عنه، رحيم بمن أصلح بينهم على قول ابن جرير -رحمه الله-.

[6] - رواه ابن ماجه في سننه برقم (٢٧٠٤) (٢/٩٠٢)، وأحمد في مسنده برقم (٧٧٢٨) (٢/٢٧٨)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٣٣٨٢).

ويمكن أن يحمل على أنه غفور رحيم لهذا الذي غير وبدل في الوصية تغييراً محموداً، فإن الله لا يؤاخذه بذلك؛ لأنه ساع بالحق والإصلاح والمعروف.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٧٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ* أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(١٨٣-١٨٤) سورة البقرة].

"يقول تعالى مخاطباً للمؤمنين من هذه الأمة، وآمراً لهم بالصيام وهو: الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله -عز وجل-، لما فيه من زكاة النفوس، وطهارتها، وتنقيتها من الأخلاط الرديئة، والأخلاق الرذيلة، وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم، فلهم فيه أسوة."

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.. أما بعد.

فقوله -رحمه الله-: الصيام هو: الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله -عز وجل-، هذا معنى الصيام الشرعي، وأصله في اللغة: الإمساك.

قوله: لما فيه من زكاة النفوس، وطهارتها، وتنقيتها من الأخلاط الرديئة إلى آخره...، هذا الكلام تفسير لقوله: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، فمن أجل تحقيق التقوى، شرع الصيام لهذه الحكمة، وهذا مثال للعلة المنصوصة، بخلاف أكثر العلل التي يذكرها الفقهاء فهي علل مستنبطة، وقال بعض السلف: إن المقصود بقوله: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} أي: تتقون ما يخل بالصوم من أكل وشرب ووقاع، وهذا اختاره ابن جرير -رحمه الله-، ولكن المعنى الأول أظهر وأقرب إلى ظاهر السياق، وهو المشهور من تفسير الآية، وعليه عامة أهل العلم.

وكثير ممن يتحدثون عن المعنى الذي لأجله شرع الصيام، تجدهم يلفتون إلى حكم عجيبة وفوائد غريبة، تربط الناس وتشدهم شداً إلى ماديتهم ومصالحهم الدنيوية، فيعددون فوائد الصوم بالنسبة للدم، وبالنسبة للمعدة، وبالنسبة لأمور أخرى، والناس ليسوا بحاجة إلى مزيد من الإغراق فيها، وإن كانت هي وسيلة ناجعة في إقناع الناس وترويضهم على الطاعة، إلا أن الأولى أن لا يعلقوا الناس في الأمور التعبدية بهذه الماديات، وإنما يجعلونها رافدة ومعضدة، وإذا علقوا الناس بشيء فليعلقوه بما يصحح نياتهم ومقاصدهم، فيربطوهم بآخرتهم، وما أعد الله لهم من نزل، والعلم عند الله -عز وجل-.

قوله سبحانه: {كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ}: ذكر الله أنه كما أوجبه علي هذه الأمة فقد أوجبه على من كان قبلهم، فلهم فيه أسوة، ولذا قال كُتب أي: فرض.

وقوله: {كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ} الكلام في الكاف كلام طويل، والعلماء مختلفون في دلالة التشبيه اختلافاً كثيراً، هل هي تشبيه في أصل الفرضية؟ أو أنها تشبيه في الوقت والمقدار؟ أو أنها تشبيه في الصفة؟

هذه ثلاثة احتمالات، فإذا قلنا: إنها تشبيه في أصل الفرضية، صار المعنى أن الله فرض عليكم الصيام كما فرضه على الذين من قبلكم، أي: أنكم لستم الذين يفرض عليكم الصيام فحسب، بل كان مفروضاً على الأمم التي مضت، فلا يلزم من ذلك أن يكون الصوم عندهم في رمضان، وأنه كان لمدة شهر ثم زادوا عليه، أو أنه كان بصفة معلومة فكان ذلك فرضاً على هذه الأمة بتلك الصفة؛ حيث يحرم عليهم ليلة الصيام الوقاع مثلاً، أو أن الواحد إذا أفطر ثم حصل له نوم بعد ذلك فإنه يحرم عليه أن يأكل أو يشرب حتى يفطر في اليوم الآخر، فيلزمه مواصلة الصيام.

والصوم شرع تشريعاً متدرجاً لهذا الأمة، كان أهل الجاهلية يعرفون عاشوراء، ويصومونه، ربما يكون ذلك انتقل إليهم من بني إسرائيل، كانوا يعرفونه في مكة، ولما قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة ورأى اليهود، كما هي القصة المعروفة، قال: ((نحن أحق بموسى منكم)) فصامه -صلى الله عليه وسلم- وأمر الناس بصيامه"[1]، فكان ذلك فرضاً، ثم بعد ذلك شرع للناس صيام رمضان، ولكنه كان على التخيير، من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم كما سيأتي في قوله تعالى: **{وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ}** [(١٨٤) سورة البقرة]، وذلك لأن الصيام عبادة شاقة إذا كانت النفوس ما اعتادت عليها فإنها تحتاج إلى التهيئة والترويض، ثم كان الصوم بهذه الكيفية.

وإذا قلنا إن التشبيه في الوقت والمقدار، بمعنى أنه كان يجب عليهم أن يصوموا شهراً **{كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ}** [(١٨٤) سورة البقرة]، فكان يجب عليهم شهراً ثم زادوا فيه وتلاعبوا بالصوم، وجعلوه في فصل الربيع، فزادوا فيه في مقابل ذلك، بمعنى أنه يصوم في شهر رمضان ولمدة شهر كامل، فعلى هذا لا نسخ في الوقت والمقدار.

وعلى القول بأن التشبيه في الصفة فتكون الآية بهذا الاعتبار قد تخللها النسخ، فيحرم عليهم في ليلة الصيام الوقاع والأكل والشرب إذا حصل منهم نوم، أو كما جاء في بعض الآثار كان يفطر إلى العشاء، ولا يحل له بعد العشاء أن يأكل، أو يشرب، أو يواقع، إلى اليوم الثاني حتى أنزل الله -عز وجل- قوله تعالى: **{أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ}** [(١٨٧) سورة البقرة]، وقال أيضاً: **{وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}** فألغى الحكم الأول، والقول بالنسخ هو مذهب جمع من أهل العلم منهم الحافظ ابن كثير، وأبو عبيد القاسم بن سلام، والعلامة محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في أضواء البيان، فالناسخ أحل لكم ليلة الصيام، فيكون هذا هو النسخ الأول في آية الصيام، والنسخ الثاني وليس محل اتفاق أيضاً هو في قوله: **{وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ}** [(١٨٤) سورة البقرة].بناء على أن التشبيه في الصفة، وليس في أصل الفرضية، أو في الوقت والمقدار، والله أعلم.

"وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك، كما قال تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ} [(٤٨) سورة المائدة] الآية.

---

[1] - رواه البخاري في كتاب الصوم -باب صيام يوم عاشوراء برقم (١٩٠٠) (٢/٧٠٤).

ولهذا قال هاهنا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [(١٨٣) سورة البقرة]؛ لأن الصوم فيه تزكية للبدن، وتضييق لمسالك الشيطان، ولهذا ثبت في الصحيحين ((يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء))[2]".

وإيراده لمثل هذا الكلام إصرار منه على تأكيد مذهبه في حكمة مشروعية الصوم، على خلاف ما ذهب إليه ابن جرير من أن معنى قوله {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، أي: تتقون المفطرات من أكل، وشرب، ووقاع، مثلما اتقوا.

"ثم بين مقدار الصوم، وأنه في أيام معدودات؛ لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأداءه."

تهوين فرض الصيام وتخفيفه عنهم يكمن في أمور:

الأول أنه قال: أنتم لستم وحدكم من فرض عليكم الصيام، وإنما هو طريق مسلوك، وشرع معهود، وفعل معروف، ودرب سلكه سالكون قبلكم فأنتم على أثرهم.

ثانياً: قال لهم: إن ذلك شرع من أجل تحقيق التقوى.

ثالثاً: أنه حصره في فترة محددة فقال: {أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ}.

رابعاً: ذكر التخفيف فيه، على المريض والمسافر، مع التخيير للمطيق.

خامساً: أنه بين حكمته في هذا التخفيف، وأنه يريد اليسر بعباده، لا يريد بهم المشقة الخارجة عن طوقهم، كل هذه التلطف وهو غني عنهم -سبحانه وتعالى-.

وفي نصب {أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ} إعرابان: الأول: أن يكون منصوباً بناءً على أنه مفعول ثانٍ لكتب، إذ الصيام في الأصل هو المفعول الأول، لكن لما حذف الفاعل صار نائباً للفاعل، والتقدير: كتب أيام.

الثاني: النصب على اعتبار أنه ظرف زمان مقطوع.

"وقد أخرج البخاري ومسلم عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: "كان عاشوراء يصام، فلما نزل فرْض رمضان كان من شاء صام، ومن شاء أفطر".

وروى البخاري عن ابن عمر وابن مسعود -رضي الله تعالى عنهم- مثله."

وقع في الصوم ثلاثة من النسخ، نسخ فرض صوم عاشوراء ليصير بعد ذلك مستحباً، ثم نسخ وقع في صفة الصوم من جهة ما ذكرت فيما يتعلق بليلة الصيام، وثالث أيضاً وقع فيما يتعلق بالترخيص للمطيق، أن يتحول إلى البدل وهو الإطعام.

"وقوله تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} [(١٨٤) سورة البقرة]، كما قال معاذ -رضي الله تعالى عنه-: كان في ابتداء الأمر من شاء صام."

قوله: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ} يطيقونه هذه القراءة المتواترة، وجاء عن ابن عباس أنه قرأ: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطَوَّقُونَهُ} وهي قراءة ليست متواترة، وفي رواية: { يَطّيّقُونَه} ومعناها على الراجح أي: الذين يطيقون الصيام لهم أن يتحولوا إلى بدل وهو الإطعام، إذ ليس بلازم لكل أحد أن يصوم في أول الأمر، بل هو

---

[2] - رواه البخاري في كتاب النكاح -باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- ((من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج)) برقم (٤٧٧٨) (٥/١٩٥٠) ، ورواه مسلم في كتاب النكاح -باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم برقم (١٤٠٠) (٢/١٠١٨).

بالخيار بين الصيام، وبين الإطعام، وهذا الشهور في معنى هذه القراءة، وبناءً عليه تكون هذه الآية أيضاً منسوخة بقوله: {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [(١٨٥) سورة البقرة]، فصار ذلك لازماً لكل مطيق، إلا أن يكون مسافراً أو مريضاً يرخص له الفطر.

وقيل: إن قوله: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ} بمعنى يتكلفونه، ومنه قراءة "يُطَوَّقُونَه"، أو قراءة "يَطّوّقونه" أو "يَطّيّقُونَه" فكلها بمعنى يتكلفون الصوم ويشق عليهم، فمثل هؤلاء الذين ضعفت قواهم فإنه يرخص لهم أن يتحولوا إلى البدل وهو الإطعام، وعليه فلا يكون في الآية نسخ، والله أعلم.

قوله: {يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} أهل الشام والمدينة يقرءونها بالإضافة، فتكون {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةُ طَعَامِ مِسْكِينٍ}، ومسكين أيضاً على قراءة أهل المدينة والشام تقرأ بالجمع "مساكين"، والمعنى واحد؛ لأن المسكين جنس يطلق على الواحد والكثير، فدية طعام مسكين أو طعام مساكين، فيمكن أن يعطى طعام من أيام متعددة لمسكين واحد، أو لمساكين متعددين، فيحتمل الوجهين بخلاف ما إذا ذكر العدد بأن قال: عشرة مساكين، أو ستين مسكيناً، أو نحو هذا فلابد من استيعاب العدد من المساكين على الراجح.

وقوله: {فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} الفدية: بمعنى الجزاء

"كما قال معاذ -رضي الله تعالى عنه-: كان في ابتداء الأمر من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً.

وهكذا روى البخاري عن سلمة بن الأكوع -رضي الله تعالى عنه- أنه قال لما نزلت: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} [(١٨٤) سورة البقرة]، كان من أراد أن يفطر يفتدي، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها[٣].

وروي أيضاً من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: هي منسوخة.

وقال السدي عن مرة عن عبد الله ......"

الراجح في هذه الآية أنها منسوخة بقوله سبحانه: {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [(١٨٥) سورة البقرة]، وبه قال كثير من أهل العلم كابن جرير، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وأبي عبيد القاسم بن سلام، وآثارهم صريحة في ذلك، ومن المعاصرين محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-.

"وقال السدي عن مرة عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: لما نزلت هذه الآية: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ}، قال: يقول: وعلى الذين يطيقونه أي: يتجشمونه..."

بمعنى يشق عليهم الصيام لزمانة أو لتقدم في العمر.

"قال عبد الله: فكان من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً.

{فَمَن تَطَوَّعَ} يقول: أطعم مسكيناً آخر."

قوله: {فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا} وفي قراءة حمزة والكسائي {فَمَن يَطَّوع}، والمراد أطعم مسكيناً آخر وهذا الأقرب. وقيل معناه: يزيد في إطعام المسكين الواحد على أي تقدير، وبعضهم يقول: {تَطَوَّعَ خَيْرًا} بالجمع بين الصوم

---

٣ - رواه البخاري في كتاب التفسير -باب سورة البقرة برقم (٤٢٣٧) (١٦٣٨/٤)، ورواه مسلم في كتاب الصيام -باب بيان نسخ قوله تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} بقوله: {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} برقم (١١٤٥) (٨٠٢/٢).

والإطعام، وبعض أهل العلم يقول: بما أن الله لم يحدد شيئا دون شيء فإنه يحمل على هذه الزيادة التطوعية، فيكون ذلك من الزيادة التي يحبها الله، وهي خير للإنسان؛ لأنها تزيد في تقربه.

"{فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ} [(١٨٤) سورة البقرة]."

بناء على أنه مخير بين الفدية والصيام هذا على قول الجمهور بأن الآية منسوخة بالآية الأخرى: **{فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}**، وعلى القول بأنها ليست منسوخة، والتخيير للقادرين لم يثبت، فالمعنى وأن تصوموا في السفر الذي ليس فيه مشقة كبيرة عليكم، والمرض الذي لا يفضي بكم إلى العطب أو الضرر هو خير وأفضل لكم؛ لأنه أبرء للذمة، وإيقاع لهذا العبادة الشريفة في وقتها الأصلي، وهو وقت شريف لا يجد عنه عوضاً، ولهذا كان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يحب أن يقضي رمضان في العشر من ذي الحجة؛ لأنها أفضل الأيام عند الله -عز وجل-.

لكن الراجح أنها منسوخة، وأن قوله: **{وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ}**، سائر على التخيير بين الإطعام والصيام.

"فكانوا كذلك حتى نسختها {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} والله أعلم."

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٧٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر –رحمه الله تعالى–: "وروى البخاري عن عطاء سمع ابن عباس يقرأ: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} [(١٨٤) سورة البقرة]، قال ابن عباس: ليست منسوخة، هو للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً، وهكذا روى غير واحد عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس نحوه.

فحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله: {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [(١٨٥) سورة البقرة]، وأما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام فله أن يفطر ولا قضاء عليه؛ لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء، بل يجب عليه فدية عن كل يوم، كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ} أي: يتجشمونه، كما قال ابن مسعود وغيره، وهو اختيار البخاري فإنه قال: وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم أنسٌ بعدما كبر عاماً أو عامين عن كل يوم مسكيناً، خبزاً ولحماً وأفطر".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، وصلاة وسلاماً على رسول الله، أما بعد:

فقوله تبارك وتعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ} عامة أهل العلم على أنها منسوخة في حق الصحيح المقيم فيوجبون الصيام عليه؛ لأنه في أول الأمر كانت المسألة على التخيير.

وأما ابن عباس فيرى أنها ليست منسوخة بل هي متقررة في حق الشيخ الكبير الفاني، والمرأة الكبيرة، إلا أنه ورد عليه إشكال إذ الشيخ الفاني قد لا يتمكن من الصوم أصلاً، فكيف يقول الله: {وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ} [(١٨٤) سورة البقرة]، فأجابوا بأنها فيمن رخص له الفطر، إما لمريض مع إطاقته الصوم من غير ضرر، أو لمسافر ولم تلحقه مشقة عظيمة، أو الهرم الكبير الذي يستطيع الصيام لكن بنوع تكلفة ومشقة من غير ضرر يلحق به، فهولاء الصيام خير لهم من أن يأخذوا بهذه الرخصة، والراجح أنها منسوخة.

مسألة المسافر والمريض الذي لا يضره الصوم، أما المريض فمن أهل العلم من يقول: كل ما أطلق عليه مرض فإنه يرخص له في الفطر، ومنهم من يقول: المعتبر المرض الذي يشق معه الصوم، وهذا الأقرب؛ لأن وجع الضرس مرض، والصداع الخفيف مرض، والجرح الذي يصيب ويقع للإنسان في يده أو رجله ونحوه مرض، والمرض في حقيقته هو اختلال مزاج البدن، فإذا لم يتأثر بالصوم فيكون مأموراً بالصيام على سبيل الوجوب، فالمرض المقصود في الآية هو المرض الذي يشق معه الصوم، ويصير صاحبه بحاجة إلى الطعام أو الشراب أو الدواء؛ لأنه بالصيام يزداد وهناً وتعباً، ونحن نلاحظ أن الكثيرين ممن لم يعتد الصوم إذا صام وهو صحيح برك وخارت قواه، فكيف إذا كان مريضاً؟.

وأما المسافر إذا لم يشق عليه الصوم، أو يجد مشقة لكنها يسيرة، فالأفضل في حقه الصيام وليس الأمر محل اتفاق؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يصوم في السفر، ولما سئل عن الصيام في السفر لم ينه عنه، ولكنه قال -عليه الصلاة والسلام-: ((ليس من البر الصيام في السفر))[1]، إلا أنه لم يقله النبي -صلى الله عليه وسلم- ابتداءً وإنما قاله في مناسبة وقعت، وهو أنه رأى رجلاً قد أغمي عليه، يظلله الناس في السفر وهو صائم، فقال: ((ليس من البر الصيام في السفر))[2]، فهذا الكلام ذكره توجيهاً في حالة معينة واقعة، والمعنى: ليس من البر الصيام الذي يفضي بصاحبه إلى مثل هذا في السفر، لأنه ثبت عن أبي الدرداء قال: كنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في سفر، وإن أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر، وما منا صائم إلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعبد الله بن رواحة"[3] ، فلا شك أنه يلحقه مشقة بهذا ولكنها مشقة محتملة، فيكون ذلك أبرأ إلى ذمة الإنسان، وأسرع في المبادرة بالإتيان بفرض الصوم، وهو أسهل على الإنسان من القضاء، كما أنه إيقاع لهذه العبادة في وقت شريف لا يجد عنه عوضاً، والله أعلم.

"وهذا الذي علقه البخاري وقد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده عن أيوب بن أبي تميمة قال: ضعف أنس عن الصوم فصنع جفنة من ثريد فدعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم".

من لزمه الإطعام مخير بين حالتين:

الأولى: أن يطعم عن كل يوم بيومه.

والثانية: أن يصنع كما صنع أنس -رضي الله عنه- فيؤجل الإطعام إلى آخر الشهر، ثم يطعم ويملك المستحقين له، وهو بالخيار في إطعامهم، إما أنه يجمعهم عليه في مائدة فيأكلونه، وإما أنه يعطيهم إياه، لكن لا يجوز له أن يقدم الإطعام؛ لأنه إنما تعلق به الحكم حينما أفطر، والله أعلم.

"ومما يلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما، يفديان فقط ولا قضاء عليهما".

هذه المسألة فيها خلاف كثير بين العلماء، فمنهم من قال: يفطران ويفديان ويقضيان، وقيل: يفديان فقط ولا قضاء، وقيل: يجب القضاء بلا فدية، وقيل: يفطران ولا فدية ولا قضاء.

والصواب النظر في هذا العذر الذي لأجله أفطر من يجب في حقه الصيام: فهو إما أن يرجع لمصلحة نفسه، وإما أن يرجع إلى مصلحة غيره، وإما أن يكون ذلك متعلقاً بالأمرين، مصلحة الغير ومصلحة النفس.

فجمهور أهل العلم على أنه في الحالات الثلاث لا يلزم المفطر إلا القضاء -الصيام- وعللوا ذلك بأنه لم يثبت شيء في الشرع يوجب الجمع بين القضاء والإطعام، ولذا فإن الله -عز وجل- في كتابه لم يذكر سوى القضاء قال سبحانه: {فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} [(١٨٤) سورة البقرة] لأصحاب الأعذار المؤقتة.

---

[1] رواه البخاري في كتاب الصوم - باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لمن ظُلل عليه واشتد الحر ((ليس من البر الصوم في السفر)) برقم (١٨٤٤) (٢/٦٨٧)، ورواه مسلم في كتاب الصيام - باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية إذا كان سفره مرحلتين فأكثر وأن الأفضل لمن أطاقه بلا ضرر أن يصوم ولمن يشق عليه أن يفطر برقم (١١١٥) (٢/٧٨٦).

[2] سبق تخريجه.

[3] رواه البخاري في كتاب الصوم - باب إذا صام أياما من رمضان ثم سافر برقم (١٨٤٣) (٢/٦٨٦)، ومسلم في كتاب الصيام - باب التخيير في الصوم والفطر في السفر برقم (١١٢٢) (٢/٧٩٠).

ولكن صح عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- وعن ابن عمر أيضاً أنهما قالا -في الحامل والمرضع-: "إذا خافتا على ولديهما أفطرتا وأطعمتا"، فجمعا بين الإفطار وبين الإطعام، وقول الصحابي إذا لم يعلم له مخالف فإنه يعمل به في الأصح، فمن أهل العلم من حمل كلامهما لكون الحامل والمرضع أفطرتا من أجل الغير فلزمهما الأمرين: القضاء والإطعام لهذا الاعتبار، والمسألة ليست محل اتفاق، والخلاف فيها معروف مشهور.

وقالوا: إما إذا أفطرتا خوفاً على نفسيهما فإنهما يقضيان فقط، وإما إذا اجتمع الأمران غُلبت مصلحة النفس؛ لأنهما أفطرتا ملاحظة لنفسيهما ومصلحتيهما وليس من أجل الغير، فليس عليهما إلا القضاء فقط.

ويدخل في حكم الحامل والمرضع كل من أفطر من أجل غيره، مثل لو أنه أفطر من أجل إنقاذ إنسان في هدم أو غرق أو حريق أو غير ذلك من الأمور التي تقع للناس، فاحتاج إلى الفطر فإنه يلزمه القضاء والإطعام. والله أعلم.

"وقال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [(١٨٥) سورة البقرة]، يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم فيه".

قوله سبحانه: **{شَهْرُ رَمَضَانَ}** سمي الشهر شهراً لاشتهاره، وإذا لم يشتهر فلا عبرة بذلك، وهذا الذي اعتمد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية، وقرر بناء عليه أصلاً كبيراً، وهو أن الإنسان إذا رأى الهلال ولم تعتبر رؤيته لسبب أو لآخر، هل يجب عليه أو من وثق به وسمعه أن يصوم سراً؟، شيخ الإسلام يقول: لا يجوز له أن يصوم سراً؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((صوموا لرؤيته))[4] وهو يعني الشهر، والشهر لا يعد شهراً إلا إذا اشتهر، ولذا جاء عن نبينا -صلى الله عليه وسلم- قوله: ((الصوم يوم تصومون، والفطر يوم تفطرون))[5]، باعتبار أن هذه الأمور لا يلزم أن يقع المكلفون فيها على ما في معلوم الله -عز وجل- حقيقة، وإنما إذا اشتهر عند الناس وحكموا بإكمال العدة ثلاثين، أو أن الشهر قد دخل حتى لو أخطئوا فيه، فهذا شهر معتبر صحيح، ولا غضاضة عليهم في ذلك، ومثله لو وقفوا يوم ثمانية بدلاً من تسعة في عرفة، فهل يعتبر الوقوف باطلا؟ الصحيح أن حجّهم صحيح؛ لأن الأضحى يوم تضحون، وهذا من لطف الله -عز وجل-، ولذا كان من الأوجُه المتعددة التي فسر بها قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((شهرا عيد لا ينقصان))[6] يعني رمضان وذا الحجة أنه لو كان شهر رمضان حقيقة في علم الله ثلاثين يوماً، والناس أكملوا العدة؛ لأنهم

---

[4] رواه البخاري في كتاب الصوم -باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- ((إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا)) برقم (١٨١٠) (٢/٦٧٤)، ورواه مسلم في كتاب الصيام -باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال وأنه إذا غم في أوله أو آخره أكملت عدة الشهر ثلاثين يوماً برقم (١٠٨٠) (٢/٧٦٢)

[5] رواه الترمذي برقم (٦٩٧) (٣/٨٠)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٧٣١٦).

[6] رواه البخاري في كتاب الصوم -باب شهرا عيد لا ينقصان برقم (١٨١٣) (٢/٦٧٥)، ومسلم في كتاب الصيام -باب بيان معنى قوله -صلى الله عليه وسلم- شهرا عيد لا ينقصان برقم (١٠٨٩) (٢/٧٦٦).

ما رأوا الهلال لغيم أو نحوه، فصاموا تسعاً وعشرين، لهم أجر ثلاثين لا ينقص من أجورهم شيئ، كأنهم صاموا ثلاثين يوماً، وهو أشهر الأوجه.

{رَمَضَانَ} الجاهليون سموا الشهور في الجاهلية بأسماء مختلفة، فرمضان كان يسمى في الجاهلية: ناتق، سمي بذلك لشدة الحر فيه.

وسمي رمضان بذلك، قيل: من رمض الصائم إذا احترق جوفه من شدة العطش، أو لشدة الحر الواقع فيه، يقال: رمضت الفصال إذا اشتد الحر، وقيل: لأنه يرمض الذنوب، والحقيقة أن هذه التعليلات ليس عليها دليل، والتفسير بأن رمضان سمي بذلك لشدة الحر يرد عليه اعتراض بأن رمضان يقع في بعض أحيانه في الشتاء. والجواب أن يقال: إن التسمية باعتبار ما وقع فيه الشهر وقت حلول الفصول، فشهر رمضان صادف وقت حر فسمي بذلك، ولذلك شهر ربيع معلوم أنه يأتي في وسط الشتاء، وفي أوله، وفي وسط الصيف، ومع هذا لم تزل التسمية ملاصقة له، فكان ذلك باعتبار ما وقع فيه آنذاك وقت التسمية، والله أعلم.

"وكما اختصه بذلك فقد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء، روى الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- عن واثلة يعني ابن الأسقع أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لستٍّ مضيْن من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان))[٧]".

هذا الحديث فيه ضعف، ولكنه ضعف قد ينجبر، ولهذا حسنه الشيخ الألباني -رحمه الله- وضعفه آخرون، والذين حققوا المسند في الطبعة الجديدة حكموا بضعف هذا الحديث.

{أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} يُحتمل في المراد بنزوله أمران:

الأول: أن إنزال القرآن كان جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ثم نزل مفرقاً حسب الوقائع والأحداث.

الثاني: أن يكون المراد ابتدأ نزوله على النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومعلوم أن ابتداء الوحي كان بالرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح كما في حديث عائشة، وكان ذلك ستة أشهر قبل نزول الملك، وكان يتحنث في غار حراء ويتعبد، وقد جاء في التواريخ والسير أن تحنثه كان يقع في شهر رمضان، فنزل عليه الملك أول ما نزل بإقرأ في شهر رمضان، وهذا يمكن أن يفسر به أول الآية: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} يعني ابتدأ إنزاله على النبي -صلى الله عليه وسلم- في شهر رمضان.

ويمكن الجمع والقول بأنه لا منافاة بين القولين: وذلك بأن يكون القرآن نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر من رمضان كما قال سبحانه: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ} [(٣) سورة الدخان]، ثم بدأ نزول أوله في ليلة القدر من رمضان، ثم نزل منجماً حسب الوقائع والأحداث، وهذا أحسن الأقوال في الجمع بين الآراء وتوجيهها وتفسير هذه الآية، والعلم عند الله -عز وجل-، خلافاً لمن قال من السلف كالشعبي -رحمه الله-: إنه كان ينزل عليه في كل ليلة قدرٍ من رمضان، ما سينزل عليه في السنة، ثم يفرق على

---

[7] رواه أحمد في مسنده برقم (١٧٠٢٥) (٤/١٠٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٥٧٥)، وعلق عليه شعيب الأرنؤوط بأنه حديث ضعيف تفرد به عمران القطان وهو ممن لا يحتمل تفرده.

النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا فيه نظر، لأن جبريل أصلاً كان يأخذ القرآن من الله مباشرة، لا يأخذه من اللوح المحفوظ، ولا من أيدي الملائكة، ولا من بيت العزة في سماء الدنيا كما قال الزهري: أحدث آية بالعرش آية الدين، فلو كان في سماء الدنيا لما قال: أحدث آية، فالمستقر عند السلف هو أحاديث تكلُّم الله بالوحي، وإذا تكلم الله بالوحي، فهذه كلها تدل على أن جبريل يأخذ من الله مباشرة، وأما كونه في سماء الدنيا، أو في اللوح المحفوظ، أو في صحف مكرمة، فهذا كله لمزيد عناية الله -عز وجل- بهذا القرآن، وتشريفه له.

"وقوله -جل وعلا-: {هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} [(١٨٥) سورة البقرة]**، هذا مدح للقرآن الذي أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه، وبينات أي: دلائل وحججاً بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها، دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال، والرشد المخالف للغي، ومفرقاً بين الحق والباطل، والحلال والحرام.**

وقوله تعالى: {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [(١٨٥) سورة البقرة]**، هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر أي: كان مقيماً في البلد حين دخل شهر رمضان وهو صحيح في بدنه أن يصوم لا محالة، ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيماً أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم كما تقدم بيانه، ولما حتم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر في الإفطار بشرط القضاء فقال: {وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}** [(١٨٥) سورة البقرة]**، معناه: ومن كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه، أو كان على سفر أي: في حالة السفر فله أن يفطر، فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره في السفر من الأيام، ولهذا قال: {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}** [(١٨٥) سورة البقرة]**، أي: إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض وفي السفر مع تحتمه في حق المقيم الصحيح تيسيراً عليكم ورحمة بكم".**

قوله -تبارك وتعالى-: **{فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ}** ليس معناه أنه إن أدرك أول الشهر، وعرض له عارض من مرض أو سفر فلا يحل له الفطر كما ذكر عن بعض السلف، فليس هذا هو المراد، وعامة أهل العلم سلفاً وخلفاً على خلافه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ثبت أنه سافر في رمضان وأفطر، كما حصل في غزوة الفتح وكانت في رمضان ومع هذا أفطر -عليه الصلاة والسلام-، والحاصل أن الإنسان إذا عرض له ما يبيح له الفطر أفطر بشرط القضاء، وهذا -كما أسلفنا- عليه عامة أهل العلم.

"وقد ثبتت السنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه خرج في شهر رمضان لغزوة الفتح فسار حتى بلغ الكديد، ثم أفطر وأمر الناس بالفطر[٨]. أخرجه صاحبا الصحيح والأمر في ذلك على التخيير وليس بحتم؛ لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في شهر رمضان، قال: فمنا الصائم، ومنا المفطر، فلم يعب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم".

---

[8] رواه البخاري في كتاب الصوم -باب إذا صام أيام من رمضان ثم سافر برقم (١٨٤٢) (٢/٦٨٦) ورواه مسلم في كتاب الصيام -باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان في غير معصية إذا كان سفره مرحلتين فأكثر، وأن الأفضل لمن أطاقه بلا ضرر أن يصوم، ولمن يشق عليه أن يفطر برقم (١١١٣) (٢/٧٨٤)

أمْر النبي -صلى الله عليه وسلم- للصحابة بالفطر في غزوة الفتح كان من أجل تقويهم به على القتال، فإنهم لما قربوا من مكة أخبرهم أنهم سيلقون عدوهم في الغد، وأن الفطر أقوى لهم، ولمّا بلغه أن رجالاً لم يفطروا، قال: ((أولئك العصاة، أولئك العصاة))[9]، وهذه حالة تعتبر معينة، يقاس عليها مثلها.

وأما السفر، فإن المسافر لا يخلو من إحدى الحالات: إما أن لا يؤثر فيه الصوم ولا يشق عليه، فمثل هذا الأولى في حقه الصوم، أو يشق عليه الصيام مشقة لكنها يسيرة فالأفضل أيضاً في حقه الصيام، فإن كانت المشقة كبيرة فلا بأس بالفطر، وإذا أفضي الصيام به إلى الضرر ففي هذه الحالة يجب عليه الفطر لقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((ليس من البر الصيام في السفر))[10]، والسفر -بإطلاق- الإنسان مخير فيه بين الفطر والصيام إلا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر: ((أن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه))[11]، فيندب له الترخص من أجل التيسير والتخفيف والرفق به.

"فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام، بل الذي ثبت من فعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه كان في مثل هذه الحالة صائماً، لما ثبت في الصحيحين عن أبي الدرداء -رضي الله تعالى عنه- قال: "خرجنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في شهر رمضان في حر شديد، حتى إنْ كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا صائم إلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعبد الله بن رواحة"، والإفطار في السفر أفضل أخذاً بالرخصة، ولما ثبت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه سئل عن الصوم في السفر فقال: ((من أفطر فحسن، ومن صام فلا جناح عليه))[12]".

نص أهل العلم على جواز الفطر أو فرضية الصيام في رمضان لاعتبارات معينة منها: هذا الحديث الوارد في حق الصائم في السفر: ((من أفطر فحسن، ومن صام فلا جناح عليه))، فترك الأمر له بالخيار بين الصيام والإفطار، وهناك اعتبار آخر للمريض فأحيانا يمتنع عن الأكل والشرب وهو غير صائم، فالأفضل له أن ينوي الصيام، ولا ينبغي إكراهه على الأكل وإرغامه على الشرب ونفسه تعافه؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإنما يطعمهم الله ويسقيهم))[13]، إذ قد يكون الصوم أروح لقلبه، ويجد انشراحاً وإقبالاً بسببه، ويعينه على التخلص من مرضه، فلا يكره عليه، ويترك الأمر له فهو أعرف بحاله.

وأحياناً المسافر لا يجد شيئاً يأكله فالأفضل أن ينوي الإمساك عن المفطرات، وهو مأجور على نيته إن أصلح نيته وأعملها، فمثل هذه الاعتبارات لا بد أن تلاحظ في هذا الجانب، والله أعلم.

---

[9] رواه مسلم في كتاب الصيام -باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية إذا كان سفره مرحلتين فأكثر، وأن الأفضل لمن أطاقه بلا ضرر أن يصوم، ولمن يشق عليه أن يفطر برقم (١١١٤) (٧٨٥)

[10] سبق تخريجه.

[11] سبق تخريجه.

[12] رواه مسلم في كتاب الصيام -باب التخيير في الصوم والفطر في السفر برقم (١١٢١) (٢/٧٨٩).

[13] رواه الترمذي في سننه برقم (٢٠٤٠) (٤/٣٨٤)، وابن ماجه برقم (٣٤٤٤) (٢/١١٤٠)، وحسنه الألباني.

"وقال في حديث آخر: عليكم برخصة الله التي رخص لكم، وقالت طائفة: هما سواء لحديث عائشة أن حمزة ابن عمرو الأسلمي قال: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إني كثير الصيام أفأصوم في السفر. فقال: ((إن شئت فصم، وإن شئت فأفطر)).[14] وهو في الصحيحين".

الجمع بين النصوص أولى من إهمال أحدها، وأحاديث الصيام في السفر جاءت بعضها مثبتة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يصوم في السفر، وبعضها نفت الأمر بالصيام في السفر كحديث: ((ليس من البر الصيام في السفر)) فلا يحكم بأفضلية أحد الأمرين على الآخر، بل المطلوب الجمع بين هذه الأحاديث، وعند الجمع يعرف أن الحكم يتفاوت.

"وقيل: إن شق الصيام فالإفطار أفضل لحديث جابر -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأى رجلاً قد ظُلل عليه فقال: ((ما هذا))؟ قالوا: صائم. فقال: ((ليس من البر الصيام في السفر)). أخرجاه.

فأما إن رغب عن السنة ورأى أن الفطر مكروه إليه فهذا يتعين عليه الإفطار ويحرم عليه الصيام، ولا يجب التتابع في القضاء، بل إن شاء فرق وإن شاء تابع، وعليه ثبتت الدلائل؛ لأن التتابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر، فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر، ولهذا قال تعالى: {فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} [(١٨٥) سورة البقرة]".

قوله: **{فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}** لم يقيد التتابع في القضاء، فلا يجب، وتبقى الآية كما أطلقها الله -عز وجل-، لكن هل يجب القضاء قبل رمضان القادم؟ لم يرد فيه شيء لا في الكتاب ولا في السنة، وغاية ما ورد في ذلك حديث عائشة: "كان يكون عليّ الصومُ من رمضان فلا أستطيع أن أقضيه إلا في شعبان؛ لمكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم-مني"، فكانت تتحرى أن لا يدخل عليها رمضان الآخر إلا وقد صامت ما عليها من القضاء، ففهم منه بعض أهل العلم أنه لا يأتي عليه رمضان الآخر إلا وقد قضى ما عليه، وإن فاته رمضان ذلك العام، ودخل عليه رمضان الآخر، قالوا: إن كان ذلك لغير عذر، فإنه يجب عليه الصوم والإطعام، كفارة عن التأخير، وهذا قال به جماعة من السلف -رضي الله تعالى عنهم- وليست المسألة محل اتفاق، والله أعلم بالصواب.

وصلى الله وسلم على نبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

[14] رواه البخاري في كتاب الصوم -باب الصوم في السفر والإفطار برقم (١٨٤١) (٢/٦٨٦)، ورواه مسلم في كتاب الصيام -باب التخيير في الصوم والفطر في السفر برقم (١١٢١) (٢/٧٨٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٧٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "ثم قال تعالى: {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [(١٨٥) سورة البقرة]، وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا))[1]، أخرجاه في الصحيحين.

وفي الصحيحين أيضاً أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن: ((بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا))[2].

ومعنى قوله: {يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ}، أي: إنما أرْخَصَ لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر، وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.. أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ} أي: إنما أرخَصَ لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوه لإرادة اليسر، وإنما أمركم بالقضاء تخفيفاً لكم من أجل إكمال عدة الصوم، وجبراناً لذلك النقص الحاصل بسبب هذا العذر.

"وقوله تعالى: {وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي: ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم كما قال: {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} [(٢٠٠) سورة البقرة]، وقال: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [(١٠) سورة الجمعة]، وقال: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} [(٣٩-٤٠) سورة ق]، ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات، وقال ابن عباس: ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلا بالتكبير".

من أهل العلم من يرى سنية الجهر بالذكر دبر الصلاة المفروضة استدلالاً بأثر ابن عباس، حتى إن بعضهم ألف في هذه المسألة رسالة مستقلة، ومن أهل العلم من يرى خلافه مستدلاً على ذلك بقوله -سبحانه-: {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ} [(٢٠٥) سورة الأعراف]، وقوله -عز وجل-: {ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} [(٥٥) سورة الأعراف]، وبأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بخفض الصوت بالذكر لما كان الصحابة يرفعون أصواتهم في أسفارهم بالتكبير كلما علوا

---

[1]- رواه البخاري في كتاب الأدب -باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- ((يسروا ولا تعسروا)) برقم (٥٧٧٤) (٥/٢٢٦٩)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير -باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير برقم (١٧٣٤) (٣/١٣٥٩)

[2] - رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير -باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه برقم (٢٨٧٣) (٣/١١٠٤)، ورواه مسلم في كتاب الجهاد والسير برقم (١٧٣٣) (٣/١٣٥٩).

مرتفعاً من الأرض، أو بالتسبيح إذا هبطوا وادياً، وقال: ((إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً...))[3]، لكن الملاحظ أن الآية الأولى جاءت في الذكر العام، والثانية وردت في الدعاء، وأثر ابن عباس نص على أدبار الصلوات، وهذا مما يمكن الجمع ويدفع توهم التعارض وذلك بأن يقال: إن الأصل في الذكر خفض الصوت، ودون الجهر من القول، إلا ما وردت النصوص في استحباب رفع الصوت بالذكر فيه كتكبيرات العيد، وأيام التشريق، والتلبية، والذكر بعد الصلاة، وهذا خلافاً لمن قال: إن الأصل في الذكر ترك الجهر، وأطلق ذلك وعممه على جميع النصوص، وواضح خطأ القول به؛ لأنه إهدار لمثل هذه الأحاديث.

وعند الشافعي جواز رفع الصوت بالذكر إذا كان في مقام التعليم، ويحمل عليه أحاديث رفع النبي –صلى الله عليه وسلم– صوته بالذكر، إلا أنه لا دليل يؤكد ذلك، وعلى فرضية صحته فإن الناس في زماننا بحاجة إلى التعليم أكثر من زمان الصحابة، فيصعب اطراده لعدم انضباط المسألة، إذ قد يؤدي إلى التوسعة فيه، والخروج عن المقبول والمعقول، وسد الذرائع أمر مقنن في الدين، والخلاصة أن غاية ما قيل في أمر رفع الصوت بالذكر أدبار الصلوات أنها من السنة، والله تعالى أعلم.

"ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية {وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ} [(١٨٥) سورة البقرة]".

من رأوا مشروعية التكبير مستدلين بهذه الآية، اختلفوا في بداية التكبير، فذهب بعضهم إلى اعتبار رؤية هلال شوال، وهو قول كثير من أهل العلم، ويرون أن برؤية هلال شوال يكونون قد أكملوا عدة الشهر، ويشرع لهم عندئذ التكبير.

وذهب آخرون إلى أن بداية التكبير بعد صلاة فجر يوم العيد، وتستمر حتى يخرج الإمام إلى الصلاة، وقيل غير هذا.

والتكبير في عيد الفطر تكبير مطلق لا يتقيد بأدبار الصلوات، والله أعلم.

"وقوله تعالى: {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي: إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه، وترك محارمه، وحفظ حدوده فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [(١٨٦) سورة البقرة]".

قوله –سبحانه-: **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ}** هذا إخبار من الله –عز وجل– عن قرب إجابته إذا سأله عباده، لكن هذا الدعاء هل هو دعوة الداعي إذا سأل بلسان المقال فقال: يا ربي اغفر لي، أو أن المراد بذلك السؤالُ بالفعل والحال؛ لأن المتقرب إنما يتقرب إلى الله –عز وجل– بصلاته وصيامه واعتكافه وحجه من أجل تحصيل مرضات الله –عز وجل–، فيعتبر سائلاً بفعله وحاله؟، وحقيقة من تأمل الآية وجد أنها تحتمل المعنيين، ولذلك قال بعد ذلك جواباً لهذا: **{فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي}**، والمعنى أنهم إذا استجابوا له آمنوا وعبدوه واستقاموا على طاعته، فيجازيهم على إيمانهم وعبادتهم وتقواهم، فيدخل في المراد دعاء المسألة ودعاء العبادة.

[3] – أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير – باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير (٢٨٣٠) (ج ٣ / ص ١٠٩١) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والاستغفار – باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٤) (ج ٤ / ص ٢٠٧٦).

قوله: {فَإِنِّي قَرِيبٌ} القرب المقصود به القرب العام، بمعنى أن الله قريب من خلقه، والقرب الخاص للسائلين والداعين والعابدين، جاء في الحديث ((ومن تقرب مني شبراً، تقربت منه ذراعاً))[4]، فالمقصود بهذا القرب قرب خاص لمن تقرب إليه، وفي قوله -تبارك وتعالى- عن المحتضر: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [(١٦) سورة ق]، فسر بأن القرب يرجع إلى الله -عز وجل-، وفسر بأنه قرب يرجع إلى الملائكة، والخلاصة أن القرب تارة يراد به معنى عام، وتارة يراد به معنى خاص، أي: قريب ممن سأله، قريب من عابديه.

"وروى الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري قال: كنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في غزاة فجعلنا لا نصعد شَرَفاً ولا نعلوا شَرَفاً.."

الشَّرَف -محرّكة- العلو، والمكان العالي والمجد، أو علو الحسب، ومن البعير سنامه إلى آخره.

"فجعلنا لا نصعد شَرَفاً، ولا نعلو شَرَفاً، ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير، فدنا منا فقال: ((يا أيها الناس ارْبَعُوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته، يا عبد الله بن قيس، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة، لا حول ولا قوة إلا بالله))[5]. أخرجاه في الصحيحين، وبقية الجماعة بنحوه.

وروى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يقول الله تعالى: ((أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني))[6].

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما من مسلم يدعو الله -عز وجل- بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الأخرى، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها)) قالوا: إذاً نكثر، قال: ((الله أكثر))[7].

وروى عبد الله ابن الإمام أحمد عند جبير بن نفير أن عبادة بن الصامت حدثهم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما على ظهر الأرض من رجل مسلم يدعو الله -عز وجل- بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو كف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم))[8]. ورواه الترمذي.

وروى الإمام مالك عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول دعوت فلم يستجب لي))[9]. أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك وهذا لفظ البخاري -رحمه الله- وأثابه الله الجنة.

---

[4] - رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار -باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى برقم (٢٦٨٧) (٢٠٦٨/٤).

[5] - رواه البخاري في كتاب القدر -باب لا حول ولا قوة إلا بالله برقم (٦٢٣٦) (٢٤٣٧/٦).

[6] - رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار -باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى برقم (٢٦٧٥) (٢٠٦٧/٤).

[7] - رواه الترمذي برقم (٣٥٧٣) (٥٦٦/٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته برقم (١٠٥٧٤).

[8] - رواه أحمد في مسنده برقم (٢٢٨٣٧) (٣٢٩/٥)، وقال شعيب الأرنؤوط: هو صحيح لغيره وهذا إسناد حسن من أجل ابن ثوبان.

[9] - رواه البخاري في كتاب الدعوات -باب يستجاب للعبد ما لم يعجل برقم (٥٩٨١) (٢٣٣٥/٥)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار -باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لي برقم (٢٧٣٥) (٢٠٩٥/٤).

وروى مسلم عنه عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: ((لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل))، قيل يا رسول الله: وما الاستعجال. قال: ((يقول: قد دعوت، وقد دعوت فلم أر يستجاب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء))[10].

وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((ثلاثة لا ترد دعوتهم، الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء، يقول: بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين))[11]".

قوله –صلى الله عليه وسلم–: ((والصائم حتى يفطر)) هكذا وقع في المسند الصحيح، وهي تفيد أن للصائم دعوة مستجابة صادف دعاؤه أي لحظة من يومه، ولا يُعلم حديث صحيح يقضي بغير هذا، إلا أنه قد جاء في بعض الروايات ما يفيد تخصيص الإجابة للصائم عند فطره فحسب كما عند الترمذي: ((والصائم حين يفطر))[12] لكن حكم العلماء بضعفها بما فيهم الألباني في الجامع الصغير، والله أعلم.

"وقال تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [(١٨٧) سورة البقرة]".

قوله –سبحانه–: **{أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ}** تعتبر هذه الآية ناسخة، إما لما سبق من قوله: **{كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** [(١٨٣) سورة البقرة]، لاعتبار أن التشبيه في الصفة، أو تكون ناسخة لما ثبت في السنة.

وقوله –سبحانه–: **{إِلَى نِسَآئِكُمْ}** عديت بـــ"إلى" لتضمنها معنى الفعل، وهي أحسن من تضمنها معنى الحرف؛ لأننا إذا قلنا: إنها تتضمن معنى الحرف كانت بمعنى مع، وإذا تضمنت معنى الفعل صارت بمعنى الإفضاء والمقصود الإفضاء إلى النساء بالقسط؛ وقد ورد التعدي بإلى في غير موضع كما في قوله تعالى: **{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ}** [(٨) سورة الممتحنة] فالمتبادر أن يقول: تقسطوا معهم، لكنه قال: وتقسطوا إليهم، فهنا يقال بالتضيمن، فهو مضمن معنى الإحسان والإفضاء، والبر في الآية بمعنى الإحسان، والقسط بمعنى العدل، وأراد من تضمينه معنى الإفضاء تداخل المصالح في العلاقات التجارية التي تشتركون فيها، في حالة إذا لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم، ولم يظاهروا على إخراجكم.

---

[10] – رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار –باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول: دعوت فلم يستجب لي بـــرقم (٢٧٣٥) (٤/٢٠٩٥).

[11] – رواه الترمذي برقم (٢٥٢٦) (٤/٦٧٢)، ورواه ابن ماجه برقم (١٧٥٢) (١/٥٥٧)، وأحمد في مسنده برقم (٨٠٣٠) (٢/٣٠٤)، ولم يوجد بهــذا اللفظ في سنن النسائي.

[12] – رواه الترمذي برقم (٢٥٢٦) (٤/٦٧٢)، وضعفها الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٦٣٣٩).

"هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين ورفْع لما كان عليه الأمر في ابتدأ الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء، أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة".

كلام الحافظ ابن كثير –رحمه الله– هو جمع بين الآثار الواردة؛ لأن منها ما قيدتْ ذلك بصلاة العشاء ولم تذكر النوم، فأباحت له الأكل والشرب حتى صلاة العشاء في الليلة القابلة، ومنها: ما جاء التقييد فيها بالنوم، فإذا نام حرم عليه الطعام والشراب إلى الفطر في اليوم الثاني، فهو جمع بينهما بقوله: يأكل ويشرب ويحل له الجماع إلى العشاء ما لم ينازعه النوم قبل ذلك، فإن نازعه امتنع بعدها عن الأكل والشرب حتى الليلة القابلة.

"والرفث هنا هو الجماع قاله ابن عباس –رضي الله تعالى عنه–، وعطاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وطاوس، وسالم بن عبد الله، وعمرو بن دينار، والحسن، وقتادة، والزهري، والضحاك، وإبراهيم النخعي، والسدي، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان".

كثير من السلف على أن الأصل في معنى الرفث أنه أعم من الجماع، وهو كل ما يطلبه الرجل من امرأته من ألوان الاستمتاع، يقال له: رفث، وهو الأصل في كلام العرب، لكن ما المراد به في بعض المواضع، مثل قوله تعالى هنا: **{أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ}؟** [(١٨٧) سورة البقرة] ظاهر كلام الحافظ ابن كثير، وكثير من السلف أن المقصود الوقاع فقط، فلم يدل دليل على تحريم ما دونه في نهار رمضان على مفهوم المخالفة، وفي قوله –تبارك وتعالى–: **{فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ}** [(١٩٧) سورة البقرة]، المقصود بالرفث هو الجماع ودواعيه ومقدماته، حتى الكلام بخصوصه في حضرة النساء يدخل فيه.

"وقوله تعالى: {هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ} [(١٨٧) سورة البقرة]**، قال ابن عباس –رضي الله تعالى عنه–، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدي، ومقاتل بن حيان: يعني هن سكن لكم وأنتم سكن لهن.**

وقال الربيع بن أنس: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن، وحاصله أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه، فناسب أن يرخص لهم في المجامعة في ليل رمضان؛ لئلا يشق ذلك عليهم ويحرجوا".

قوله سبحانه: **{هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ}** تفسير من فسره بالسكن يعتبر من تفسيره باللازم؛ لأن هذا السكن إنما يحصل بهذه المعاشرة، والمضاجعة.

وقول من قال: هن لحاف لكم وأنت لحاف لهن، هذا أشبه ما يكون بالتفسير المطابق؛ والمعنى: أنّ كل واحد منكم ستر لصاحبه –فيما يكون بينكم من الجماع– عن أبصار سائر الناس.

أو كما يقول بعضهم: **{هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ}** فقال: للامتزاج، الذي يحصل بامتزاج كل منهما بالآخر عند الوقاع، كما يحصل الامتزاج بين الثوب ولابسه، ومعلوم أن المرأة يقال لها: فراش، ويقال لها أيضاً: إزار، يكنى عن المرأة بالإزار وبالفراش.

وبعضهم يقول: **{هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ}** بالنظر إلى تجردهما في لحاف واحد، فكل واحد منهما يكون بالنسبة للآخر بمنزلة ما يلبسه على جسده من ثيابه، فهو كناية على هذا الاعتبار عن اجتماعهما متجرديْن في فراش واحد، أو في لحاف واحد، هذا قاله بعض أهل العلم، والثياب يكنى بها عن الجسد، فهو

أحد المعاني المذكورة في قوله تعالى: **{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}** [(٤) سورة المدثر]، فقد قيل: القلب والنفس، وقيل: الجسد، وقيل: الثياب الظاهرة تطهر من النجاسات، وهذه المعاني كلها تدخل فيه،والله أعلم.

"وقال أبو إسحاق عن البراء بن عازب -رضي الله تعالى عنه- قال: كان أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا كان الرجل صائماً فنام قبل أن يفطر، لم يأكل إلى مثلها، وإنّ قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً، وكان يومه ذلك يعمل في أرضه، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال: هل عندك طعام. قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك، فغلبته عينه فنام، وجاءت امرأته فلما رأته نائماً قالت: خيبة لك أنمت؟ فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فنزلت هذه الآية: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ} إلى قوله: {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}، ففرحوا بها فرحاً شديداً".

سبب النزول في الآية صريح، ابن كثير نظر إلى هذه الرواية، ونظر إلى الروايات الأخرى التي تذكر ذلك محدوداً بحد، وهو وقت العشاء، فجمع بينها بقوله: يأكل ويشرب إلى العشاء فقط ما لم يحصل له نوم، فإن حصل النوم امتنع عن الأكل والشرب، وهذا وجه حسن من الجمع بين الروايات.

"ولفظ البخاري هاهنا من طريق أبي إسحاق سمعت البراء قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله: {عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ} [(١٨٧) سورة البقرة]".

قوله -سبحانه-: **{تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ}** الخيانة المقصود بها الخروج عن الطاعة، والوقوع في المعصية، والمعنى أنكم تفعلون ما نهاكم عنه.

وقوله -سبحانه-: **{فَتَابَ عَلَيْكُمْ}** لها نظائر في القرآن الكريم، ويحتمل أن المراد بها قبول التوبة؛ لأن بعضهم كان يختان نفسه فالله -عز وجل- وفقهم للتوبة فندموا عليها، ولذا جاء عمر -رضي الله عنه- إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يخبره بما وقع له وهو نادم، فجعل ندمهم توبة لهم، وعليه فيكون معنى قوله: **{فَتَابَ عَلَيْكُمْ}** أي: قبل توبتكم.

ويحتمل أن يكون **{فَتَابَ عَلَيْكُمْ}** بمعنى خفف عنكم، ورخص لكم هذا التكليف الشاق على نفوسكم، كما جاء في قوله تعالى: **{عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ}** [(٢٠) سورة المزمل] ففي أحد الوجوه في تفسيرها خفف عنكم في قيام الليل، وكذا الكفارة للقتل الخطأ، يقول سبحانه: **{فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ}** [(٩٢) سورة النساء] يحتمل أن يكون توبة صادرة من المتعدي، أو توبة من الله على العبد، فيكون ذلك تخفيفاً من الله على عباده، والمعنى **{تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ}** أي: تخفيفاً عليهم حيث قبل منهم الصيام وشرعه لهم؛ والقاتل خطأ ليس عليه ذنب حتى يقال يتوب، فالتوبة صادرة من الرب؛ لأن العبد ما صدر منه معصية.

"وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- قال: "كان المسلمون في شهر رمضان إذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم إن أناساً من المسلمين أصابوا من النساء والطعام في شهر رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-، فشكوا ذلك

إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأنزل الله تعالى: {عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ ...} الآية [(١٨٧) سورة البقرة]، وكذا روى العوفي عن ابن عباس".

قوله سبحانه: {وَعَفَا عَنكُمْ} قد يراد به العفو عن الذنب أي: عفا عن إساءتكم، ويحتمل أن يكون العفو هنا بمعنى خفف عنكم، ووسع لكم، وتاب عليكم فلا يكون ذلك مختصاً بتجاوز من وقع منه الإساءة فحسب، بل تشمل مجموع الأمة، فنسخ هذا الحكم الذي شق عليكم تخفيفاً عنكم وتوسيعاً لكم، والآية تحتمل الأمرين، ولا شك أن إسقاط الحكم عنهم هو من سعة عفوه -سبحانه وتعالى-، وهولاء الذين وقعوا في الإساءة داخلون في هذا دخولاً أولياً؛ لأنهم سبب نزول الآية، والله أعلم بالصواب.

{فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ} أصل المباشرة من ملاقاة البشرة للبشرة، ويكنى بذلك عن الوقاع، ويدخل فيه أيضاً ما دون الجماع كمقدماته ودواعيه، وقد ثبت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يباشر ويقبل وهو صائم، ويقصدون بها ما دون الوقاع من الأمور المباحة للزوج، لكن لعل المراد من المباشرة في الآية الجماع وما دونه، فهو شامل للأمرين بناء على الأصل وهو حل مثل هذه المحظورات للصائم ما دام قد دخل عليه وقت الإباحة استشهاداً بقوله سبحانه: {فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ} أي: بعد غروب الشمس، ودخول وقت الفطر للصائم حتى طلوع الفجر الصادق.

"وقوله تعالى: {وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ} [(١٨٧) سورة البقرة] قال أبو هريرة، وابن عباس، وأنس -رضي الله تعالى عنهم-، وشريح القاضي، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء، والربيع بن أنس، والسدي، وزيد بن أسلم، والحكم بن عتيبة، ومقاتل بن حيان، والحسن البصري، والضحاك، وقتادة، وغيرهم: يعني الولد".

إذا فسرنا المراد من قوله: {وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ} بأنه الولد الذي هو نتيجة للجماع، فيحتمل أن يكون ذلك من قبيل التفسير باللازم؛ لأنه يبيح لهم الوقاع ليلة الصيام الذي هو سبب الولد، وهذا قول بعض السلف، ومن السلف من فهم غير هذا فلا يُخطَّأ، لكن من قال: إنه بمعنى الولد، أو طلب الولد، قد لا يسّلم له بأن ذلك من قبيل التفسير باللازم؛ لأن دلالة الآية تحتمل أكثر من وجه، والله أعلم بالصواب.

"وقال قتادة: وابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم، وقال سعيد عن قتادة: وابتغوا ما كتب الله لكم، يقول: ما أحل الله لكم".

اختلف المفسرون في المراد بقوله سبحانه: {وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ} على أقوال:

أنها بمعنى الرخصة، أي: ابتغوا الرخصة التي وسع بها عليكم كما جاء في الحديث: ((إن الله يحب أن تؤتى رخصه))[13]، وقيل: ما أحل لكم، وهو معنى مقارب جداً للرخصة، وهذا يسمى خلاف التنوع، وليس ذلك من خلاف التضاد في شيء، وبعضهم يقول: {وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ} يعني القرآن بما أبيح لكم فيه، فالقرآن تتلقون منه التشريع، فهو يخاطبكم ويقول لكم: إن ذلك قد أبيح بعد أن كان محرماً عليكم، فابتغوا ما كتب الله لكم، واطلبوه لتتعرفوا على الحلال والحرام؛ لأنه مصدر التشريع.

وقيل: {وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ} يعني الإماء والزوجات.

[13] - رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (٥٨٦٦) (٢/١٠٨)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٢٧٦٦).

وقيل: المراد به ليلة القدر، ويلاحظ هذا التباين الكبير بين هذه الأقوال، ولكن توجيه ذلك ينحل به الإشكال، فالقائلون بأن المقصود من لفظ الآية ليلة القدر، وجهوا قولهم بأن الله أحل لهم الجماع في ليالي الصيام، ثم نبههم ولفت أنظارهم إلى ما لا ينبغي أن يشغلهم عنه هذا الوقاع الذي وسع الله به عليهم، وأحله لهم عن التماس ليلة القدر، التي هي في أحد ليالي هذا الشهر، ولابن القيم -رحمه الله- جمع جيد بين هذه الأقوال مفاده: أن الله -عز وجل- لما خفف عنهم بإباحة الجماع، وكان المجامع دافعه إلى ذلك الشهوة وتلبية الغريزة، أرشدهم إلى طلب مرضاته بهذا الوطر **{وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ}**، يعني يحتسبون في ذلك الأجر عند الله، ويطلبون به العفاف والولد؛ ليكون نتيجة هذا الجماع إنسان يقيم العبودية لله -عز وجل-، فهذا الولد يخرج ليعبد ربه -تبارك وتعالى-، ويطلبون الرخصة لأن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، ولا يشغلهم هذا الوقاع عن التماس ليلة القدر وطلبها، وهذا من أجمل وأجود ما يكون من الجمع بين الأقوال التي يتوهم الإنسان لأول وهلة أنها في غاية التنافر والتباعد، وأما ابن جرير -رحمه الله- فإنه يحمله على معنى قريب، يقول: **{وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ}** في اللوح المحفوظ من هذه الرخص من ولدٍ وتوسعة وجماع، فأدخل فيه هذه المعاني لكن بهذه الطريقة، والتوجيه الذي ذكره ابن القيم أحسن من هذا وأقرب، والعلم عند الله -عز وجل-.

فائدة: التحقيق في اسم قيس بن صرمة، وواقعة سبب نزول الآية: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ} إلى قوله: {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}.

فيه قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في الإصابة: صرمة بن مالك الأنصاري ذكره ابن شاهين وابن قانع في الصحابة، وأخرج من طريق هشيم بن حصين عن عبد الرحمن بن أبي ليلى بسنده ثم ساق سبب النزول الذي ذكر سابقاً، وفيه صرمة بن مالك، ويقال: إن القصة وقعت لصرمة بن أنس أخرج ذلك هشام بن عمار في فوائده، بسنده عن القاسم بن محمد ثم ذكر بالنزول وقال فيه: صرمة بن أنس، قال: وفيه إسحاق بن أبي فروة وهو متروك.

وأخرج الطبري من طريق حماد بن سلمة بسنده إلى يحيى بن حبان أن صرمة بن أنس، ثم ذكر سبب النزول.

وأخرج الطبري من طريق السدي وذكر سبب النزول وفيه أبو قيس بن صرمة، ووقع في صحيح البخاري أن الذي وقع له ذلك قيس بن صرمة، أخرجه من طريق البراء بن عازب، ووقع عند أبي داود من هذا الوجه صرمة بن قيس، وفي روية النسائي أبو قيس بن عمرو.

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: فإن حمل هذا الاختلاف على تعدد أسماء وقع لهم ذلك، وإلا فيمكن الجمع برد جميع الروايات إلى واحد، فإنه قيل فيه: صرمة بن قيس، وصرمة بن مالك، وصرمة بن أنس، وقيل فيه: قيس بن صرمة، وأبو قيس بن صرمة، وأبو قيس بن عمرو، فيمكن أن يقال: إن كان اسمه صرمة بن قيس فمن قال فيه: قيس بن صرمة قلبه، وإن كان اسمه صرمة فكنيته أبو قيس أو العكس، وأما أبوه فاسمه قيس أو صرمة على ما تقرر من القلب، فكنيته أي -كنية أبيه-، فكنيته أبو أنس، ومن قال فيه: أنس حذف أداة الكنية، ومن قال فيه: ابن مالك نسبه إلى جده، والعلم عند الله تعالى.

وقال الحافظ ابن عبد البر في "الاستيعاب": صرمة بن أنس، صرمة بن أبي أنس، اسم أبي أنس صرمة بن مالك بن عدي بن عامر بن غن بن عدي بن النجار الأنصاري، يكنى أبا قيس، غلبت عليه كنيته، وربما قال فيه بعضهم: صرمة بن مالك، فنسبه إلى جده، وهو الذي نزلت بسببه، وفي عمر، ثم ذكر الآيات، هذا والله أعلم.

وصلى الله وسلم على نبيه محمد وآله وأصحابه أجمعين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٨٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- قوله تعالى: {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} [(١٨٧) سورة البقرة].

"أباح تعالى الأكل والشرب مع ما تقدم من إباحة الجماع في أي الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصبح من سواد الليل، وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود، ورفع اللبس بقوله: {مِنَ الْفَجْرِ}، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الله البخاري عن سهل بن سعد قال: أنزلت {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ} ولم ينزل من الفجر، وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله بعد {مِنَ الْفَجْرِ}، فعلموا أنما يعني الليل والنهار[١]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ} أي: يتميز لكم بياض الصبح من سواد الليل، وذلك بظهور الفجر الصادق الذي ينتشر في السماء، وينبلج ولا يزال يزداد حتى تطلع الشمس.

ويستنبط من رواية البخاري عن سهل بن سعد فوائد كثيرة، أهمها فائدتان:

الأولى: أن ذلك وقع لجماعة حيث ربطوا خيطاً أبيض وخيطاً أسود.

والثانية: أن قوله: {مِنَ الْفَجْرِ} لم تنزل مع الآية ابتداءً، وإنما نزلت متأخرة، وهذان الأمران أبلغ جواب في الرد على من قال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قصد بقوله: ((إن وسادك لعريض القفا))[٢]، والوساد هو المخدة، وهذا الكلام كناية عن الوصف بالغباوة إذا فهم هذا الفهم، وفعل هذا الفعل، ومثله في الحديث: ((إنك لعريض القفا))[٣] وهو مؤخرة الرأس، وعرضه عنوان الغباوة في المرء، قصد عدي بن حاتم -رضي الله عنه-، لما جعل تحت وسادته خيطين أسود وأبيض، فكان يأكل ويشرب وينظر إليهما، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك؛ لأن هذا أولاً: لم يقع لعدي -رضي الله عنه-، وإنما وقع لجماعة كما ورد في هذه الرواية من الحديث.

---

[١] رواه البخاري في كتاب الصوم -باب قول الله تعالى: {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} [(١٨٧) سورة البقرة] برقم (١٨١٨) (٦٧٧/٢)، ورواه مسلم في كتاب الصيام -باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، وأن لــه الأكل وغيره حتى يطلع الفجر، وبيان صفة الفجر الذي تتعلق به الأحكام من الدخول في الصوم، ودخول وقت صلاة الصبح وغير ذلك برقم (١٠٩١) (٧٦٧/٢).

[٢] رواه البخاري في كتاب التفسير -باب تفسير سورة البقرة، برقم (٤٢٣٩) (١٦٤٠/٤).

[٣] رواه البخاري في كتاب التفسير -باب تفسير سورة البقرة برقم (٤٢٤٠) (١٦٤٠/٤).

ثانياً: أن قوله: {مِنَ الْفَجْرِ} لم تنزل إلا متأخرة فلم يدركوا أن المراد من الخيط الأبيض والخيط الأسود هو الفجر الصادق والفجر الكاذب، فحملوا الخطاب على ظاهره، فلما تبين لهم من لفظة {مِنَ الْفَجْرِ} أحجموا عن صنيعهم هذا.

إضافة إلى أن الصحابة -رضي الله عنهم- من أكمل الناس عقلاً، وعدي بن حاتم كان سيداً عظيماً من سادات قومه، وأخلاق النبي -صلى الله عليه وسلم- تأبى أن يقول ذلك لرجل من أدنى أصحابه فضلاً عن أن يقوله لرجل من سادات العرب وكبرائهم، وإذا كان الرجل لا يقول ذلك لصاحبه تخلقاً وتأدباً فما بالك بالنبي -صلى الله عليه وسلم- الذي هو أكمل الناس خلقاً عليه -الصلاة والسلام-، فهذا بعض ما يجاب به عن ذلك الكلام الذي يقرأ كثيراً في شروح الحديث، وفي الكلام أحياناً على مسألة الصيام.

"وروى البخاري عن الشعبي عن عدي قال: أخذ عدي عقالاً أبيض وعقالاً أسود حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينا، فلما أصبح قال: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جعلت تحت وسادتي، قال: ((إن وسادك إذاً لعريض إن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك))[4]".

هذا جواب أصرح من الرواية الأخرى في الجواب على من زعم أن المقصود في الحديث عدي بن حاتم؛ لأنه قال: ((إن وسادك لعريض إن كان))، باعتبار أن الوسادة تضمن بياض الصبح وسواد الليل.

ويؤخذ من الآية أن الصائم يعذر ولا يؤمر بالقضاء إذا أكل وشرب جاهلاً وقد طلع الفجر، وهذا واضح من دلالة الحديث، وهذا له صور كثيرة جداً في قضايا مختلفة، مثل حديث معاوية بن أبي الحكم السلمي لما تكلم في الصلاة، فلم يأمره النبي -صلى الله عليه وسلم- بالقضاء، وحديث المسيء صلاته ما أمره النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا بقضاء الصلاة التي في الوقت، حيث علمه أن صلاته هذه لا تصح ولا تجزئ، وقصة حمنة عندما كانت تستحاض فتترك الصلاة والصيام سبع سنين ما أمرها النبي -صلى الله عليه وسلم- بالقضاء، إلى غير ذلك من أمور كثيرة جداً، وأدلة يؤخذ منها هذا الحكم.

"وجاء في بعض الألفاظ ((إنك لعريض القفا))، ففسره بعضهم بالبلادة وهو ضعيف، بل يرجع إلى هذا؛ لأنه إذا كان وساده عريضاً فقفاه أيضاً عريض، والله أعلم.

ويفسره رواية البخاري أيضاً عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود أهما الخيطان؟ قال: ((إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين))، ثم قال: ((لا، بل هو سواد الليل وبياض النهار))[5].

وفي إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور؛ لأنه من باب الرخصة والأخذ بها محبوب، ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالحث على السحور، ففي

---

[4] سبق تخريجه برقم (٢).

[5] سبق تخريجه.

الصحيحين عن أنس -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تسحروا فإن في السحور بركة))[6].

وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر))[7].

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((السحور أكله بركة فلا تدعوه، ولو أن أحدكم تجرع جرعة ماء فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين))[8].

وقد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة من ماء تشبها بالآكلين".

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- استخرج من إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر الدليل على استحباب السحور، فمن أين مستخرج الاستحباب؟

يطرق الأصوليون مسألة موجب الأمر بعد الحظر إلى ما يرجع الحكم فيه؟ فيقولون: يرجع الحكم إلى ما كان يفيده قبل الحظر، فالأكل والشرب كان مباحاً ابتداء ليلة الصيام بعد العشاء أو بعد النوم، لينزل بعده الحكم بالتحريم في الحالين، ثم جاء الأمر في الآية: **{وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ}** [(١٨٧) سورة البقرة]، والأمر يأتي للإباحة، ويأتي للاستحباب، ويأتي للوجوب، والأصل أنه للوجوب إلا لصارف، وعندنا قرينة صرفت الأمر من الوجوب في الآية، إلى ما كان عليه قبل ذلك من الإباحة، فصار الأكل والشرب في ليلة الصيام وبعد النوم مباحاً، وفي المقابل وجدت نصوص أخرى تدل على طلب الشارع ومحبته للأكل والشرب في وقت السحر، فصار مقوياً للأمر من مجرد الإباحة إلى الاستحباب، وعليه فقوله -سبحانه: **{وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ}** يؤخذ منه استحباب الأكل والشرب في وقت السحور، إذ إن في وقت السحر عندنا قدراً زائداً من الأدلة يمكن أن نفهم على ضوئها هذا الأمر بالأكل والشرب فيها، كحديث: ((إن الله وملائكته يصلون على المتسحرين))، وحديث: ((فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحور))، ومثله: ((تسحروا فإن في السحور بركة)) إلى غير ذلك من الأدلة..، فمن مجموع هذه الأمور أخذ استحباب أكلة السحور من قوله -سبحانه-: **{وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}** [(١٨٧) سورة البقرة]، والله أعلم.

"ويستحب تأخيره إلى وقت انفجار الفجر كما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- عن زيد بن ثابت -رضي الله تعالى عنه- قال: تسحرنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم قمنا إلى الصلاة، قال أنس: قلت لزيد كم كان بين الأذان والسحور. قال: قدر خمسين آية[9]".

---

[6] رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة -باب وقت الفجر برقم (١٨٢٣) (٢/٦٧٨)، ومسلم في كتاب الصيام -باب فضل السحور وتأكيد استحبابه واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر، برقم (١٠٩٥) (٢/٧٧٠).

[7] رواه مسلم في كتاب الصيام -باب فضل السحور وتأكيد استحبابه واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر برقم (١٠٩٦) (٢/٧٧٠).

[8] رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (١١١٠١) (٣/١٢)، وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح وهذا إسناد ضعيف لجهالة أبي رفاعة.

[9] رواه البخاري في كتاب الصوم -باب قدر كم بين السحور وصلاة الفجر برقم (١٨٢١) (٢/٦٧٨)، ورواه مسلم في كتاب الصيام -باب فضل السحور وتأكيد استحبابه واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر برقم (١٠٩٧) (٢/٧٧١)

المستحب في السحور تأخيره إلى وقت طلوع الفجر كما جاء عن أبي ذر –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور))[١٠]، وهنا تحديد للمقدار بين الأذان والسحور قال: قدر خمسين آية، فإذا كان المؤذن يؤذن الأذان الثاني عند طلوع الفجر، والأول قبل ذلك، فالوقت بينهما يسير وقد جاء في المقنع أنه قدر ما ينزل هذا ويصعد هذا، والمقصود تقليل مدة الوقت، فيأكلون في ذلك الوقت الذي هو آخر أجزاء الليل، أو من آخر أجزاء الليل، وعلى هذا تحمل مثل هذه الروايات.

وأما النصوص الأخرى الواردة عن بعض الصحابة –رضي الله عنهم– كأبي بكر، وجماعة من كبار الصحابة، بما يشعر ظاهره أنهم كانوا يأكلون بعد طلوع الفجر وقت الإسفار أو قريباً منه، فمثل هذه النصوص مشكلة في ظاهرها ومحملها ومعناها، إلا أنّ لأهل العلم محاملَ وتأويلاتٍ في ذلك، والأفضل التعامل معها وفق ما قرره الإمام الشاطبي –رحمه الله– في كتابه "الموافقات" حيث جعل قاعدة في التعامل مع النصوص، ومحورها إلى خمسة أقسام:

القسم الأول: النصوص الجادة حيث تتوارد النصوص وتتضافر على معنى من المعاني، فهذا يعمل به، ولا إشكال فيه.

النوع الثاني: أن تتضافر النصوص وتتوارد في معنى، ويوجد في النادر ما ظاهره يخالف ذلك، فيعمل به على الجادة، والأصل الذي تضافرت فيه النصوص.

القسم الثالث: ما وردت فيه النصوص متضافرة تقرر معنى، ووجد قليل يخالف ذلك، فهذا إن ظهر له محمل حمل عليه، وإن لم يظهر له محمل فإنه يعمل بالأصل الذي تتابعت النصوص على تقريره.

القسم الرابع: أن يوجد أدلة كثيرة تدل على معنى، ويوجد أدلة أخرى كثيرة تخالفها، فمثل هذه يجمع بين هذه الروايات، وينظر أنه كان يفعل هذا أحياناً، أو كان ذلك على وجه كذا، أو نحو ذلك.

القسم الخامس: ما وردت فيه الأدلة في كذا وكذا، فمثل هذا لا تطرح الأدلة الأخرى وينظر فيها، فمسألة الأكل والشرب بعد الإسفار، أو عند الإسفار أو نحو هذا، نرجع فيها إلى الأصل المحكم الثابت وهو قوله سبحانه: **{وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}** [(١٨٧) سورة البقرة]، ولا نتتبع أشياء أخرى تخالف هذا الأصل.

ومثل هذه القضية ما جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص في قصة الرجل الذي قال فيه النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((يطلع عليكم رجل من أهل الجنة))،... فلما قام النبي –صلى الله عليه وسلم– تبعه عبد الله بن عمرو –رضي الله عنه– إلى بيته فقال له: "إني لاحيت أبي، فآليت أن لا أدخل عليه ثلاثاً،.. " ثم أخبره بعد مضي الثلاث أنه لم تكن بينه وبين أبيه أي ملاحاة، أنما أراد أن ينظر في صنيعه وعبادته..."القصة، فالشاهد هل يصح أن نجوّز الكذب للمصلحة، حيث لا ضرر، ونقررها قاعدة للناس ونستدل بهذا الدليل؟ الجواب لا؛ لأننا سنترك الأدلة الكثيرة المخالفة والمتضافرة في الكتاب والسنة على تحريم الكذب، ووسْمه بأنه ثلث النفاق، وأما صنيع عبد الله بن عمرو –رضي الله عنه– فهو لاعتبارات معينة، فهم ذلك وتأول، ولسنا

---

[١٠] رواه أحمد في مسنده برقم (٢١٣٥٨٠) (١٤٧/٥)، وضعف إسناده شعيب الأرنؤوط.

متعبدين بما أقدم عليه، فهذه القواعد التي أرساها الإمام الشاطبي عظيمة لو تحاكمنا إليها عند ورود مثل هذه الإشكالات.

"وقد روي عن طائفة كثيرة من السلف أنهم تسامحوا في السحور عند مقاربة الفجر، روي مثل هذا عن أبي بكر -رضي الله تعالى عنه-، وعمر، وعلي، وابن مسعود، وحذيفة، وأبي هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وزيد بن ثابت -رضي الله تعالى عنهم- أجمعين، وعن طائفة كثيرة من التابعين منهم محمد بن علي بن الحسين، وأبو مجلز، وإبراهيم النخعي، وأبو الضحى، وأبو وائل وغيره من أصحاب ابن مسعود، وعطاء، والحسن، والحكم بن عتيبة، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، وإليه ذهب الأعمش، ومعمر بن راشد، وقد حررنا أسانيد ذلك في كتاب الصيام المفرد، ولله الحمد".

ابن جرير الطبري أورد في تفسيره روايات عن جمع من الصحابة والتابعين في جواز السحور عند مقاربة الفجر، بل ووقْت رؤيتهم له وبعد طلوعه، إلا أن ابن كثير حملها على تسامحهم في السحور في هذا الوقت، لكن مثل هذا لا يُترك فيه المحكمات، ويُلجأ إلى مثل هذه المشكلات، ولا يفهم إنسان هذا الفهم فيصدق عليه قول الشاعر:

ألقاك فهمك في مهاون ... فليتك ثم ليتك ما فهمت

"وقد ورد في الصحيحين من حديث القاسم عن عائشة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يمنعكم أذان بلال عن سحوركم فإنه ينادي بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم، فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر))[11] لفظ البخاري.

وروى الإمام أحمد عن قيس بن طلق عن أبيه أن رسول الله صلى الله وعليه وسلم قال: ((ليس الفجر المستطيل في الأفق، ولكن المعترض الأحمر))[12]".

يشير في الحديث إلى الفرق بين الفجرين الصادق والكاذب، وكلام الفقهاء أن الفجر الكاذب كذنب سرحان أي: كذنب الذئب حيث يكون ضوؤه إلى أعلى ويكون مستطيلاً، وأما الفجر الصادق فيكون معترضاً ومنبلجاً ويزيد إضاءةً، أما ذاك فيختفي.

"ورواه أبو داود والترمذي ولفظهما ((كلوا واشربوا ولا يَهِيدَنَّكم الساطع المُصعَد، فكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر))[13].

وروى ابن جرير عن سمرة بن جندب -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يغرنكم أذان بلال، ولا هذا البياض -لعمود الصبح- حتى يستطير))[14].

ورواه مسلم في صحيحه مثله سواء.

---

[11] - أخرجه البخاري في كتاب الأذان - باب الأذان قبل الفجر (٥٩٦) (ج ١ / ص ٢٢٤) ومسلم في كتاب الصيام - باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر وأن له الأكل وغيره حتى يطلع الفجر وبيان صفة الفجر الذي تتعلق به الأحكام من الدخول في الصوم ودخول وقت صلاة الصبح وغير ذلك (١٠٩٣) (ج ٢ / ص ٧٦٨).

[12] رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٦٣٣٤) (٤/٢٣)، وحسنه شعيب الأرنؤوط.

[13] رواه الترمذي برقم (٧٠٥) (٣/٨٥)، وأبو داود برقم (٢٣٤٨) (١/٧١٧)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٨٦٣٥).

[14] رواه مسلم في كتاب الصيام -باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر وأن له الأكل برقم (١٠٩٤) (٢/٧٦٩).

مسألة: ومن جعْلِه -تعالى- الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام، يُستدل على أنه من أصبح جنباً فليغتسل، وليتم صومه، ولا حرج عليه، وهذا مذهب الأئمة الأربعة، وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً".

هذا النوع من الاستنباط يعرف عند الأصوليين بدلالة الإشارة، والراجح أن دلالة الإشارة من أنواع المنطوق، لكنه المنطوق غير الصريح؛ لأن المنطوق ينقسم إلى قسمين:

- منطوق صريح.
- منطوق غير صحيح.

فهي من المنطوق غير الصريح ويعرفه الأصوليون بأنه: إشارة اللفظ لما لم يكن القصد له قد علما.

ودلالة الإشارة تارة تكون بنص واحد، وتارة تكون بالجمع بين الدليلين، فمثل الأول ما جاء في قوله سبحانه: **{وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}** إذ المعنى أنه يجوز للرجل أن يجامع إلى آخر جزء من الليل حتى بعد طلوع الفجر، وهذا يدل على جواز أن يصبح الإنسان جنباً، لكن الآية ما سيقت لتقرير هذا المعنى، ولذلك سميت دلالة الإشارة.

وتارة بدليلين مثل قوله سبحانه: **{وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا}** [(١٥) سورة الأحقاف] مع قوله سبحانه: **{وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ}** [(١٤) سورة لقمان]، فالعامان أربعة وعشرون شهراً، فإذا وضعتَ أربعة وعشرين من ثلاثين يبقى ستة شهور هي مدة الحمل؛ لأنه إذا ثبت كون مدة الرضاع حولين من ثلاثين شهراً، بقي ستة أشهر فتكون هي مدة الحمل ضرورة أخذاً من مجموع الدليل، فهذه أيضاً دلالة إشارة، مع أنه ما سيق أحد الدليلين لتقرير أقل مدة الحمل، ودلالة الإشارة عند الأصوليين غير دلالة الإشارة عند المفسرين، وعند الصوفية، والله أعلم.

"وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً لما رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة -رضي الله عنهما- أنهما قالتا: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصبح جنباً من جماع غير احتلام ثم يغتسل ويصوم[15].

وفي حديث أم سلمة عندهما ثم لا يفطر ولا يقضي.

وفي صحيح مسلم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن رجلاً قال: يا رسول الله تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم)) فقال: لست مثلنا يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: ((والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي))[16]".

وهذا التأخر من النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يمكن أن يكون وقع على وجه التساهل والتفريط؛ لأنه مشرِّع وأتقى الأمة لله.

---

[15] رواه البخاري في كتاب الصوم -باب اغتسال الصائم برقم (١٨٣٠) (٢/٦٨١)، ورواه مسلم في كتاب الصيام -باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب برقم (١١٠٩) (٢/٧٧٩).

[16] رواه مسلم في كتاب الصيام -باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب برقم (١١١٠) (٢/٧٨١).

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٨١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

يقول المفسر -رحمه الله تعالى-: "وقوله تعالى: {ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ} [(١٨٧) سورة البقرة] يقتضي الإفطار عند غروب الشمس حكماً شرعياً، كما جاء في الصحيحين عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم))[1]، وعن سهل بن سعد الساعدي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر)) أخرجاه[2].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول الله -عز وجل-: ((إن أحب عبادي إليَّ أعجلهم فطراً)) ورواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب[3]."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

قوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ} [(١٨٧) سورة البقرة] لما كانت "إلى" تدل على الغاية وأنها في بعض صورها يكون المغيا خارجاً عما قبله، كما في هذا المثال فإن الليل بهذا الاعتبار ليس محلاً للصوم، فلا يقول قائل: إنه لا يتحقق صيام النهار إلا بصيام جزء من الليل، فإن هذا يذكرونه من باب ما لا يتم الواجب إلا به، لكن لا شك أن الجميع يوافق على أن وقت الصوم هو النهار إلى آخر جزء منه، أي: إلى غروب الشمس فقط، وهذا الذي دلت عليه هذه الغاية وهذا الاستنباط الذي أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- والحديث الذي ذكره كقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم))[4]، يحتمل أنه يكون معنى ((أفطر الصائم)) أي: قد حل فطره، ويحتمل أن يكون معناه قد أفطر حقيقة أو حكماً، ومعنى أفطر حكماً أي أنه صار في حكم المفطرين شاء أم أبى، والكلام في مسألة الصيام في الليل -الوصال- معروف.

---

1 - أخرجه البخاري في كتاب الصوم - باب متى يحل فطر الصائم (١٨٥٣) (ج ٢ / ص ٦٩١) ومسلم في كتاب الصيام - باب بيان وقت انقضاء الصوم وخروج النهار (١١٠٠) (ج ٢ / ص ٧٧٢).

2 - أخرجه البخاري في كتاب الصوم - باب تعجيل الإفطار (١٨٥٦) (ج ٢ / ص ٦٩٢) ومسلم في كتاب الصيام - باب فضل السحور وتأكيد استحبابه واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر (١٠٩٨) (ج ٢ / ص ٧٧١).

3 - أخرجه الترمذي في كتاب الصوم - باب ما جاء في تعجيل الإفطار (٧٠٠) (ج ٣ / ص ٨٣) وأحمد (ج ٢ / ص ٢٣٧) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٤٠٤١).

4 - سبق تخريجه.

"ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة النهي عن الوصال: وهو أن يصل يوماً بيوم ولا يأكل بينهما شيئا، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تواصلوا))، قالوا: يا رسول الله إنك تواصل، قال: ((فإني لست مثلكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني))[٥]."

قوله: **((يطعمني ربي ويسقيني))**: على الأرجح من أقوال أهل العلم وهو الذي يقتضيه الحال أنه ليس معنى ذلك الطعام والشراب الحقيقي، وإلا لم يكن صائماً بهذا الاعتبار، وإنما المقصود ما يحصل له من الكفاية عن الطعام والشراب بلذة المناجاة والقرب من الله -عز وجل-، وما أشبه ذلك من المعاني، وهذا هو الذي ذكره المحققون، وهو أمر ليس بمستغرب، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإن الله يطعمهم ويسقيهم))[٦]، ولذلك تجد المريض ربما يبقى اليوم واليومين لا يطعم ومع ذلك لا يجد أثر الجوع، كما أنه يحصل للإنسان من الإعانة في وقت الصوم ما لا يحصل له في غيره إذا كان صحيح القصد والنية.

أما ترون أن الإنسان إن كان صائماً ينتصف عليه النهار، بل يذهب معظمه، وهو لا يجد أثر الجوع في كثير من الأحيان؟ وإذا كان مفطراً فلا يكاد ينتصف عليه النهار إلا وهو في غاية الجوع حتى إن أطرافه ربما ترتعش؟ وإذا كان صائماً لا يلتفت إلى شيء من هذا، فالإنسان يعان على الصيام، وأحوال الناس في هذا في غاية التفاوت، والمقصود أن الإنسان ربما يحصل له شيء من هذه المعاني، ولا شك أن ذلك دون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمراحل، لكن المقصود الدلالة على أصل المعنى وتقريبه.

حكم الوصال:

الذي تدل عليه ظواهر النصوص بمجموعها أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يعزم عليهم في النهي عن الوصال وإنما نهاهم عنه رفقاً بهم وشفقة عليهم، وقد كان بعض الصحابة يواصل، بل نقل عن عبد الله بن الزبير -رضي الله عنه- أنه كان يواصل خمسة عشر يوماً، والحافظ ابن حجر -رحمه الله- يقول كلاماً معناه: أطول من حفظنا عنه في الوصال ما جاء عن ابن الزبير أنه كان يواصل عشرة أيام متواصلة، وكان يواصل هذا الوصال في الوقت الذي كان محاصراً في المسجد الحرام، وكان يخرج على الكتيبة بمفرده، فيفلها حتى ربما بلغ بهم الحَجُون ولا يقف أحد في وجهه مع أنه كان يواصل هذا الوصال العظيم، حتى إنه سئل مرة كيف تطيق هذا؟ فذكر أنه يشرب الوَدَك، ومعلوم أن الوَدَك إذا شربه الإنسان فإنه لا يهضم بسهولة؛ لكثافته وكثرة ما فيه من الدهون.

"قال: ((فإني لست مثلكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني)) قال: فلم ينتهوا عن الوصال، فواصل بهم النبي -صلى الله عليه وسلم- يومين، وليلتين ثم رأوا الهلال، فقال: ((لو تأخر الهلال لزدتكم)) كالمنكل لهم،

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع (٦٨٦٩) (ج ٦ / ص ٢٦٦١) ومسلم في كتاب الصيام - باب النهي عن الوصال في الصوم (١١٠٣) (ج ٢ / ص ٧٧٤). وأحمد (ج ٢ / ص ٢٨١).

[6] - أخرجه الترمذي في كتاب الطب - باب ما جاء: لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب (٢٠٤٠) (ج ٤ / ص ٣٨٤) وابن ماجه في كتاب الطب- باب لا تكرهوا المريض على الطعام (٣٤٤٤) (ج ٢ / ص ١١٤٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٤٣٩).

وأخرجاه في الصحيحين[7]، وقد ثبت النهي عنه من غير وجه، وثبت أنه من خصائص النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنه كان يقوى على ذلك ويعان."

يعني أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتقرب إلى الله عز وجل- بهذا، فهو بالنسبة إليه، من مراتب الكمال، وأما الأمة فهي غير مطالبة بذلك، وإنما تجشمه من تجشمه من الصحابة لفرط رغبتهم في مزيد من التقرب والعبادة، لكن لا يقال: إن الأمة مطالبة بهذا وتندب إليه، كما أنه لا يقال: إنه حرام.

"والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنوياً لا حسياً، وإلا فلا يكون مواصلاً مع الحسي، وأما من أحب أن يمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك كما في حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تُواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر)) قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله، قال: ((إني لست كهيئتكم إني أبيت لي مطعم يطعمني وساق يسقيني)) أخرجاه في الصحيحين أيضا[8]."

الأصل أن نهي النبي -صلى الله عليه وسلم- بقوله: ((لا تُواصِلوا)) للتحريم، ولكن الصحابة لم يفهموا هذا من مقتضى الحال، وإنما فهموا أنه نهاهم عنه شفقة عليهم، وإلا لم يواصلوا معه -صلى الله عليه وسلم- ولم يقرهم هو على هذا؛ لأنه لا يقر -عليه الصلاة والسلام- على باطل، والصحابة لا يمكن أن يتقربوا إلى الله -عز وجل- بمعصية رسوله -صلى الله عليه وسلم- فالأصل أن النهي للتحريم ما لم يوجد له صارف.

"وقوله تعالى: {وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ} [(١٨٧) سورة البقرة]**، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان."**

الاعتكاف معروف، وأصله بمعنى الملازمة وطول المكث، كما قال تعالى عن إبراهيم -عليه السلام-: **{إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ}** [(٥٢) سورة الأنبياء]، تقول: فلان عاكف على كذا، بمعنى أنه يطيل المكث معه أو عنده، ولذلك كان الاعتكاف هو ملازمة المسجد على سبيل القربة على وجه مخصوص، أو بشرطه، أو نحو ذلك من العبارات التي تقرب معناه.

والأرجح أن الاعتكاف لا يحد بيوم وليلة، إذ لا دليل على ذلك، وغاية ما يستدلون به كما هو معروف سؤال عمر للنبي -صلى الله عليه وسلم- أنه نذر أن يعتكف ليلة في المسجد الحرام، وقالوا: الليلة إذا ذكرت عند العرب فمعها اليوم، فنقول: ما الحكم فيما إذا كان قد سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الاعتكاف ثماني عشرة ساعة؟

فأظن أن الوسط في هذه المسألة هو بين قول هؤلاء وقول الحنفية الذين قالوا: يصح أن يكون الاعتكاف ولو بوقت يسير، ولذلك فإنهم إذا أرادوا دخول المسجد للصلاة، قالوا: انووا الاعتكاف، والصواب أن هذا لا يعتبر

---

7 - سبق تخريجه في الحاشية رقم (٥).

8 - أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري في كتاب الصوم - باب الوصال ومن قال ليس في الليل صيام (١٨٦٢) (ج ٢ / ص ٦٩٣) واللفظ للبخاري، ومسلم عن عائشة في كتاب الصيام - باب النهي عن الوصال في الصوم (١١٠٥) (ج ٢ / ص ٧٧٦) ولفظه: نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن الوصال رحمة لهم فقالوا إنك تواصل قال: ((إني لست كهيئتكم إني يطعمني ربي ويسقيني)).

اعتكافا، ولا يقال لهذا الإنسان: إنه معتكف، وإنما الاعتكاف هو المكث الطويل، والأحسن لمن أراد أن يعتكف ألا يقل اعتكافه عن يوم وليلة.

ومسألة هل يدخل المعتكف المسجد من قبل غروب الشمس أو قبيل الغروب أو مع الغروب أو يدخل بعد طلوع الفجر أو مع الفجر على الحديث الوارد أنه دخل معتكفه بعد أن صلى الفجر -عليه الصلاة والسلام-[٩] كل هذا ليس محله هنا.

"فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً حتى يقضي اعتكافه، وقال الضحّاك: كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد جامع إن شاء، فقال الله تعالى: {وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ} [(١٨٧) سورة البقرة]، أي لا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجد، ولا في غيره."

يقول ابن عباس: **فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً حتى يقضي اعتكافه**، هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غيره؛ فالاعتكاف لا يختص برمضان، وإن كان النبي -صلى الله عليه وسلم- اعتكف في رمضان، فالمقصود أن الله حرم على المعتكف أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً؛ لأن الوطء من مفسدات الاعتكاف.

قال الضحّاك: كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد جامع إن شاء، {وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ} [(١٨٧) سورة البقرة]، هذه الرواية لها حكم المرسل وبالتالي لا يعتمد عليها بأنه كان جائزاً في أول الأمر أن المعتكف يخرج لحاجته فيمكن أن يواقع في هذا الخروج.

قال الله تعالى: {وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ}: أي لا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجد، ولا في غيره. يقصد إن اعتكفتم في المسجد فلا تباشروهن في المساجد ولا في غير المسجد، فالوطء في المسجد لا يجوز بكل حال سواء كان الشخص معتكفاً أو غير معتكف، فالمساجد ما بينت لهذا، وكذلك لا يجوز للمعتكف أن يجامع أهله ولو في خارج المسجد ما دام معتكفاً..

"أي لا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجد ولا في غيره، وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد أنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت هذه الآية."

قوله: **{وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ}**: أصله من مس البشرة، فهل المنهي عنه هو المس مطلقاً أو على سبيل الاستمتاع، أو المقصود به معنىً أخص من ذلك وهو الجماع؟

أما مجرد اللمس فهذا ليس له وجه إطلاقاً في قوله: **{وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ}**، وأما القول بأن المراد به النهي عن جميع أنواع الاستمتاع فهذا هو الظاهر والله تعالى أعلم، وأما الجماع فهو داخل قطعاً، وبعض أهل العلم يحرم الجماع ويبيح ألوان الاستمتاع الأخرى، إلا أن المعتكف في الأصل معرض عن هذا كله ومشتغل بالإقبال على الله -عز وجل- فهو ليس بصدد قضاء وطره ولذاته إذ حال المعتكف على النقيض من هذا.

---

٩ - أخرجه البخاري في كتاب الاعتكاف – باب الاعتكاف في شوال (١٩٣٦) (ج ٢ / ص ٧١٨) ومسلم في كتاب الاعتكاف – باب متى يدخل من أراد الاعتكاف في معتكفه (١١٧٢) (ج ٢ / ص ٨٣٠).

والعلماء رحمهم الله في مسألة الاعتكاف تكلموا عن أمور أخرى كالقراءة في الفقه –مثلاً– هل يشتغل به المرء وهو معتكف أم لا؟ فكيف يقال له: اذهب لمباشرة أهلك دون الجماع! فهناك فرق بين الاعتكاف وبين الصوم، فالصائم له أن يباشر وهو صائم، لكن الاعتكاف انقطاع إلى الله –عز وجل– فهو بمنأى عن هذا، والله أعلم.

ومما يدل على أن اللمس المطلق ليس داخلاً في المنهي عنه للمعتكف أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان في معتكفه يخرج رأسه لعائشة –رضي الله عنها– فترجله[١٠]، وبالتالي فمثل هذا لا إشكال فيه.

"قال ابن أبي حاتم: روي عن ابن مسعود ومحمد بن كعب ومجاهد وعطاء والحسن وقتادة والضحّاك والسدّي والربيع بن أنس ومقاتل قالوا: لا يقربها وهو معتكف."

لا يقربها وهو معتكف، يعني لا بجماع، ولا بما دونه من وجوه الالتذاذ والاستمتاع، وهذا المعنى نقل عليه الحافظ ابن عبد البر الإجماع، وإن كان قد وجد من يقول بجواز التقبيل ونحو ذلك إلا أنه قول ضعيف.

"وهذا الذي حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً في مسجده، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يتلبث فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الغائط أو الأكل.

وليس له أن يقبل امرأته ولا أن يضمها إليه ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه، ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مارٌّ في طريقه، وللاعتكاف أحكام مفصلة في بابه، وقد ذكرنا قطعة صالحة من ذلك في آخر كتاب الصيام، ولله الحمد والمنة."

جاء عن بعض السلف كعائشة –رضي الله عنها– فيما يتعلق بالمريض أنها كانت إذا دخلت سألت دون أن تقف، فالمقصود أنه لا يتلبث في شيء من هذه الأمور دون حاجته الأصلية ويكون ذلك بقدر الإمكان، بمعنى أنه إذا كان يستطيع أن يأكل في محل قريب من معتكفه فلا يذهب إلى بيته البعيد، وإذا كان لا يجد أو لا يصلح لمثله أن يأكل في الشارع أو في الساحة، أو نحو ذلك، أو لا يلائمه هذا وإنما يحتاج إلى نوع خاص من الطعام فيذهب، وكذلك إذا كان يجد مكاناً قريباً يغتسل فيه أو نحو ذلك فلا يذهب إلى المكان البعيد، أما أنه يذهب ليأكل ثم يشتري في الطريق أغراضا ليست ضرورية كعطر أو أشياء من هذا القبيل مما يتوسع فيها الناس ويتساهلون كأن يذهب ليشحن الجوال، أو يعِد صاحبه في مكان في الساحة أو نحوها فيخرج إليه فمثل هذا ليس خروجاً للحاجة الأساسية، وهذه الأمور تضييع لمعنى الاعتكاف المشروع.

ومن تضييع معنى الاعتكاف أنك تجد عشرين أو ثلاثين شخصاً يعتكفون معا بحيث يجدون من الأنس والانبساط والضحك والقيل والقال في المسجد الحرام أو في المسجد النبوي ما لا يجدونه في بيوتهم، فمثل هذا اعتكاف صوري وليس حقيقيا؛ إذ لم يشرع الاعتكاف من أجل هذا إطلاقاً، وإذا كان الذي يصلي ليس له من صلاته إلا نصفها، إلا ربعها..الخ فإن قضية الاعتكاف مثل ذلك.

---

[10] – أخرجه البخاري في كتاب الاعتكاف – باب الحائض ترجل المعتكف(١٩٢٤) (ج ٢ / ص ٧١٤) ومسلم في كتاب الحيض – باب جواز غسل رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء في حجرها وقراءة القرآن فيه (٢٩٧) (ج ١ / ص ٢٤٤).

فالاعتكاف لا يؤدي إلى الثمرة المرجوة إلا بأن يجمع المعتكف بين حبس النفس عن الطعام والشراب في الصوم وبين حبسها عما ألفت عليه من الخلطة –لا سيما عند من يشترط الصوم للاعتكاف– بحيث يكون منقطعاً، فإذا حصل له هذا وهذا حصل له المعنى الذي من أجله شرع الاعتكاف، لذلك من أراد أن يعتكف فليعتكف لوحده، وإن كان ولا بد من رفيق فليكن مع شخص واحد من الجادين بحيث يكون مقبلاً على مصحفه وذكر ربه ودعائه لا يشغله رفيقه بالكلام والقيل والقال.

"ولهذا كان الفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف اقتداء بالقرآن العظيم فإنه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم."

كذلك لا سيما أن النبي –صلى الله عليه وسلم– اعتكف في رمضان فناسب ذكره بعده، والأمر الآخر: أن كثيراً من أهل العلم يقولون: إن الاعتكاف من شرطه الصوم فلا يصح من غير صوم، وهذه المسألة ليست محل اتفاق، لكن على كل حال هذا وجه ذكر الاعتكاف بعد الصوم، وليس الحديث الآن عن الاعتكاف.

"وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام، أو في آخر شهر الصيام."

هذا مثلُ ما سبق أنه ذكر قوله: **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ}** [(١٨٦) سورة البقرة] بين آيات الصوم، فاستنبط منها العلماء معنى وهو أن للصائم دعوة مستجابة، فالدعاء في حال الصوم له مزية وبالتالي ذكرت آية الدعاء بين آيات الصيام.

"وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام، أو في آخر شهر الصيام، كما في السنة عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله –عز وجل– ثم اعتكف أزواجه من بعده، أخرجاه من حديث عائشة أم المؤمنين –رضي الله تعالى عنها–[١١]."

قوله: **ثم اعتكف أزواجه من بعده**، هذا يدل على أن الاعتكاف مشروع للمرأة كالرجل مع أن النبي –صلى الله عليه وسلم– في حياته لما رأى تلك الحصر التي أعدتها زوجاته في المسجد للاعتكاف قال: ((آلبر تردن))[١٢] وأمر بهتكها وإزالتها ورفعها؛ والسبب أنه وإن كانت النساء شقائق الرجال ولكن الاعتكاف ليس أفضل للمرأة من أن تبقى في بيتها، وهذا الكلام لا يعجب النساء إطلاقاً ولكنه هو الحق الذي لا مرية فيه، قال تعالى: **{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ}** [(٣٣) سورة الأحزاب]، والأحاديث واضحة في أن مكان المرأة بيتها بل في أبعد مكان في بيتها، وصلاتها فيه أفضل من صلاتها في مسجد حيها، وصلاتها في مسجد حيها أفضل من صلاتها في المسجد الجامع، وصلاتها في المسجد الجامع خير من صلاتها في مسجد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وخلفه، فالأحاديث الواردة في هذا معروفة، فكيف الحال إذا كان خروجها لتكون بائعة في الصيدلية أو المستلزمات النسائية، تتجول في السوق أو غير ذلك؟

---

11 – أخرجه البخاري في كتاب الاعتكاف – باب الاعتكاف في العشر الأواخر والاعتكاف في المساجد كلها (١٩٢٢) (ج ٢ / ص ٧١٣) ومسلم في كتاب الاعتكاف – باب اعتكاف العشر الأواخر من رمضان (١١٧٢) (ج ٢ / ص ٨٣٠).

12 – أخرجه البخاري في كتاب الاعتكاف – باب الأخبية في المسجد (١٩٢٩) (ج ٢ / ص ٧١٥) ومسلم في كتاب الاعتكاف – باب متى يدخل من أراد الاعتكاف في معتكفه (١١٧٢) (ج ٢ / ص ٨٣٠) واللفظ لمسلم.

ولقد أصبحت قضية خروج المرأة مشكلة بل حتى قضية اعتكاف المرأة صارت مشكلة إذ ربما وصل العدد في بعض المساجد -غير المسجد الحرام والمسجد النبوي- إلى ثمانين معتكفة بل وأكثر من ذلك، وإذا تسامعت النساء بهذا ستأتي أعداد أضعاف هذا العدد، وقضية خروج المرأة منه ما هو إسلامي أو خروج تحت راية الشيطان بحيث تكون أجيرة عند الآخرين، وهكذا تستغل المرأة بأنها شقيقة الرجل، وأنها نصف المجتمع ولا يطير المجتمع إلا بجناحين اثنين، ولا بد أن تعطى فرصة وغير ذلك من الدعوات التي تصدقها المرأة، فأعداء الإسلام يريدون أن يخرجوا المرأة من حصنها الحصين في غاية التبرج عبر الوسائل المختلفة من قيادة السيارة إلى المشاركة السياسية إلى التمثيليات، فلا يكفي أن تقف المرأة عند ما يناسبها من الأعمال بما يتوافق مع الشريعة الإسلامية، والله المستعان.

"وفي الصحيح أن صفية بنت حيي كانت تزور النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو معتكف في المسجد فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت لترجع إلى منزلها وكان ذلك ليلاً، فقام النبي -صلى الله عليه وسلم- ليمشي معها، حتى تبلغ دارها، وكان منزلها في دار أسامة بن زيد في جانب المدينة، فلما كانا ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي -صلى الله عليه وسلم- أسرعا، وفي رواية: تواريا، أي حياءً من النبي -صلى الله عليه وسلم- لكون أهله معه، فقال لهما النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((على رسلكما، إنها صفية بنت حيي)) أي لا تسرعا، واعلما أنها صفية بنت حيي، أي زوجتي، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا)) أو قال: ((شراً))[١٣].

قال الشافعي -رحمه الله-: أراد -عليه السلام- أن يُعلم أمته التبري من التهمة في محلها؛ لئلا يقعا في محذور، وهما كانا أتقى لله من أن يظنا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- شيئاً، والله أعلم."

أي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذا الجواب يشرِّع لأمته ويؤدبهم بهذا الأدب، وهو أن لا يجعل الإنسان نفسه في موضع ريبة، فإن كان في مقام ربما يرتاب فيه أحد بيّن له الحال، ليدفع عن نفسه التهمة؛ لأن الإنسان قد لا يلام إذا حكم بالظاهر، ومما يدل على ذلك أنه لما بركت ناقة النبي -صلى الله عليه وسلم- في قصة الحديبية، قال بعض الصحابة: خَلأت القصواء، فأعلمهم أن ذلك ليس لها بخُلُق، وأن الذي حبسها إنما هو حابس الفيل، فلم ينكر عليهم قولهم ذلك ولم يقل لهم: استعجلتم بحكمكم هذا أو كيف تحكمون بالظاهر، وإنما بيّن لهم معنى آخر، فالمقصود أن الإنسان يدفع عن نفسه التهمة، ولا يجعل نفسه في موضع ريبة ثم ينتظر من الآخرين أن يحسنوا الظن به.

"ثم المراد بالمباشرة إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل ومعانقة ونحو ذلك، فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به، فقد ثبت في الصحيحين عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: كان رسول الله -صلى الله عليه

---

[13] - أخرجه البخاري في كتاب الخمس - باب ما جاء في بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وما نسب من البيوت إليهن (٢٩٣٤) (ج ٣ / ص ١١٣٠) ومسلم في كتاب السلام - باب بيان أنه يستحب لمن رئي خاليا بامرأة وكانت زوجته أو محرما له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به (٢١٧٥) (ج ٤ / ص ١٧١٢).

وسلم- يدني إليَّ رأسه فأرجله وأنا حائض، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان، قالت عائشة -رضي الله عنها-: ولقد كان المريض يكون في البيت، فلا أسأل عنه إلا وأنا مارة[١٤].

وقول تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ} [(١٨٧) سورة البقرة] أي هذا الذي بيّناه وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه، وما أبحنا فيه وما حرمنا، وذكرنا غاياته ورخصه وعزائمه حدود الله."

الحد: أصله من المنع، وقيل له ذلك؛ لأنه يمنع غيره من الدخول فيه، نقول: هذا الحد، أو الزم هذا الحد، أو الزم حدك، أو نحو ذلك، وربما قيل للحدود التي تقام على أصحاب بعض الذنوب -الحدود الشرعية- حدود؛ لأنها تمنع مَن واقَعَ شيئاً من هذه الذنوب أن يعود إليها، فهي تردعه وتمنع الآخرين أيضاً من الدخول في شيء من ذلك، والله أعلم.

"أي شرعها الله وبيّنها بنفسه، فلا تقربوها: أي لا تجاوزوها وتتعدوها."

قوله: **{تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ}** [(١٨٧) سورة البقرة]، أي هي تلك التي شرعها في أحكام الصوم والاعتكاف، وأنه لا يباشر أهله من هو معتكف في المسجد، فهذه حدود الله -عز وجل-، فلا يقول الإنسان: أنا معتكف تطوعاً فأريد أن أتوسع في هذا الاعتكاف، فيرتكب شيئاً أو أشياء مما يخل بالاعتكاف أو يبطله، ومثل هذا الشعور يوجد أحياناً عند الإنسان فيكون مسيئاً باعتكافه هذا، متعدياً فيه حدود الله -عز وجل- ولو بغير المباشرة، كأن يذهب ليتعشى في شقته مثلاً فينبسط في الحديث ويطيل المكث فهذا الأمر لا يسوغ، بل ربما بطل اعتكافه بسبب ذلك المكث الطويل، أو بسبب الخروج المتكرر من غير ضرورة بأن يخرج مرة لحاجة إنسان، ومرة ليتعشى ومرة يخرج ليأتي بالجوال، ومرة يخرج ليشتري أشياء كمالية ليست ضرورية يريد أن يدخلها معه، فالله المستعان.

مسألة الاشتراط في الاعتكاف:

مسألة الاشتراط في الاعتكاف مسألة ينبغي التحرز والاحتياط فيها، أما أن يقول: أشترط أن أخرج للحاجة الفلانية، ثم يخرج -مثلاً- من الحرم إلى جدة من أجل معاملة تجارية حان وقتها وهو معتكف فيذهب يتم معاملته ثم يرجع إلى معتكفه، فأي اعتكاف هذا وأي اشتراط؟!!

وتجد معتكفاً آخر يشترط الزيارات للمرضى، أو زيارات لطلاب العلم ليلقي عليهم درسا أو نحو ذلك وهذا كثير، فهذا لا ينبغي وعلى الإنسان أن يحتاط لهذا الأمر؛ فقد لا يجد دليلاً يسعفه في مثل هذه القضايا.

"وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني هذه الحدود الأربعة، ويقرأ: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ} [(١٨٧) سورة البقرة] حتى بلغ: {ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ} [(١٨٧) سورة البقرة]، قال: وكان أبي وغيره من مشيختنا يقولون هذا ويتلونه علينا.

{كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ} [(١٨٧) سورة البقرة]: أي كما بيّن الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله، كذلك يبيّن سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-.

---

[14] - أخرجه مسلم في كتاب الحيض - باب جواز غسل رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء في حجرها وقراءة القرآن فيه (٢٩٧) (ج ١ / ص ٢٤٤).

{لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [(١٨٧) سورة البقرة]: أي يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [(٩) سورة الحديد]."

{لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [(١٨٧) سورة البقرة] بالنسبة لـــ"لعل" تحتمل المعنيين من التعليل أو معنى الترجي، وأما التقوى هنا أي يتقون ما حرم الله -عز وجل- عليهم، فهذه حدود الله فلا يواقعوا شيئاً من ذلك، أو بمعنى أنهم إن كانوا مراعين لحدود الله -عز وجل- فإن ذلك يكون سبباً لتحقيق التقوى، وبين المعنيين ملازمة لا تخفى، والله أعلم.

"وقوله تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(١٨٨) سورة البقرة]."

قوله: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ} [(١٨٨) سورة البقرة]، لا تأكلوها، ليس الأكل مراداً في ذاته هنا وإنما كلُّ أخذ واستلاب لأموال الناس بأي طريق كان ولأي غرض كان -للأكل أو لغيره- فهو من أكل أموال الناس بالباطل، فكل طريق لا يحل فيه أخذ المال فهو داخل في هذا.

بعض الناس يسول لنفسه أخذ المال من شركات التأمين ويقول: دعني آخذ هذه الأموال وسأذهب بها إلى أهل الخير في الجمعيات الخيرية أو نحو ذلك بدلاً من أن أتركه لهؤلاء الذين أخذوه من غير حله، وهكذا يتأول لنفسه، وما علم أن هذا التصرف من أكل أموال الناس بالباطل الوارد في الآية.

قال: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم}، ومسألة التعبير بأموالكم هنا، يعني لا يأكل بعضكم مال بعض؛ حيث إن النفوس المجتمعة على شيء واحد تنزل منزلة النفس الواحدة؛ إذ يقول الله -عز وجل-: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} [(٢٩) سورة النساء]، أي لا يقتل بعضكم بعضاً، ويقول -جل وعلا-: {فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} [(٥٤) سورة البقرة]، أي فليقتل بعضكم بعضاً، ويقول -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ} [(٨٥) سورة البقرة]، أي يقتل بعضكم بعضاً، وقوله سبحانه: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم} أي لا يأكل بعضكم مال أخيه، وذكر الأكل لأنه أغلب وجوه الانتفاع، والعرب تعبر به عن سائر ألوان الانتفاع، كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا} [(١٠) سورة النساء]، فلو لم يأكل مال اليتيم وإنما بنى به بيتاً، أو اشترى به سيارة أو أثاثاً فالحكم واحد لكن عبر بالأكل؛ لأنه غالب وجوه الانتفاع، ولذلك يقال: فلان أكل مال فلان، بمعنى أخذه بغير حق.

وقوله تعالى: {وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ} [(١٨٨) سورة البقرة]: أصل الإدلاء يدل على التوصل إلى الشيء، والدلو المعروف سمي بذلك؛ لأنه وسيلة وواسطة يتوصل به إلى الماء، ولذلك تقول: فلان يدلي إلى فلان بالقرابة الفلانية، فما يتوصل به فهو الإدلاء، ومنه قيل: للدلو دلوٌ.

فقوله: {وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ} يعني تريدون التوصل إلى استلابها وأخذها بالترافع إلى الحاكم أو القاضي، أي أنه -مثلاً- يأخذ مال أخيه ثم يترافع إلى القاضي، ويكون ألحن بحجته من الآخر، أو يكون المظلوم ليس عنده إثباتات مكتوبة تثبت أن له عند خصمه شيئاً، فيقول الآخر: ليس له شيء عندي وإنما يدعي عليَّ ذلك دون دليل، وربما جاء بالحديث الصحيح أن النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: ((لو يعطى الناس بدعواهم

لادعى ناس دماء رجال وأموالهم))[15] وهكذا يحتال بهذا الكلام على أنه ليس في ذمته شيء لأخيه، ويبقى ذاك لا يستطيع أن يفعل شيئاً، والله المستعان.

"وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بينة، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه."

قوله تعالى: **{وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ}** تحتمل وجهين:

الأول: أن يكون قوله: **{وَتُدْلُواْ}** معطوفاً على قوله: **{وَلاَ تَأْكُلُواْ}** أي: لا تأكلوا ولا تدلوا، أي أنَّ تأكلوا وتدلوا مجزومان بـــ"لا" الناهية، وقد جاء هذا في قراءة لكنها شاذة وليست من القراءات المتواترة، وعلى هذا يكون النهي عن الأمرين، أي: لا تأكلها خلسة أو سرقة أو نحو ذلك، ولا تترافع إلى القاضي لتتوصل إلى أخذ ماله بغير حق بحيث تقول مثلاً: ليس عنده شيء يثبت، والمال تحت يدي، وهو مدعي بهذا الاعتبار، والبينة على المدعي، وما عنده بينة إطلاقاً...الخ، فيؤدي ذلك إلى أن يحكم القاضي لك بالمال.

ويحتمل أن يكون قوله: **{تَأْكُلُواْ}** مجزوماً بـــ"لا" الناهية، وقوله: **{وَتُدْلُواْ}** منصوباً بـــ"أن" مضمرة كقول الشاعر:

لا **تنهَ** عــن خلــق **وتــأتيَ** مثلــه   عــارٌ عليــك إذا فعلــت عظــيم

وبهذا الاعتبار يكون قد نهاه عن قضية واحدة صوَّرها وهي أن يستلب مال أخيه، ويتوصل لذلك بواسطة ترافع فيجحد ما عليه من حق، فيحكم الحاكم أو القاضي بأن المال له، فهو أخذ مال أخيه بغير حق بأن قال له -مثلاً-: أعرني مالاً، فأعاره إياه، أو قال: بعني إياه بالأقساط، فلما باعه إياه ولم يكتب بينهم ثقة بذلك مثلاً، قال له: ليس لك عندي شيء، وإنما هذا مالي ورثته عن آبائي، فاشتكاه عند القاضي، فقال: هذا مالي، فإذا كان عنده بينِّه فليأت بها.

المقصود أن النهي يكون عن شيء واحد هو أكل أموال الناس بالباطل والتوصل إلى ذلك بطريق الترافع إلى الحاكم من أجل أن يحكم له بهذا المال، وهذا هو الفرق بين المعنيين.

وإن كان المعنى الثاني هو المتبادر، وهو أن النهي عن أمر واحد بصورته التي ذكرت، وهو الذي يميل إليه بعض المحققين كابن جرير الطبري -رحمه الله-، فإن هذا لا يعني أن التحريم منحصر فيها، ولكنه ذكرها لخطرها، وعموم ضررها، وكثرة وقوعها، فخصها بذلك محذراً؛ لأن هذا يقع ويتكرر كثيراً بحيث يبقى الإنسان يتحسر ويتجرع الألم إذ ليس في يده إثبات، فتضيع عليه أموال طائلة، وذاك يضحك منه، ويسخر منه، ويتهكم به، والله المستعان.

"فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم آكل حرام، وكذا روي عن مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم."

---

15 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير- باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٧٧) (ج ٤ / ص ١٦٥٦) ومسلم في كتاب الأقضية - باب اليمين على المدعى عليه (١٧١١) (ج ٣ / ص ١٣٣٦) واللفظ لمسلم.

هذه الآية تدل على تحريم أموال الناس وأخذها من كل طريق محرم ولو طابت نفس المعطِي، وذلك مثل الربا، فلو قال له: أقرضني المائة بمائة وعشرين وأنا راضٍ بل وشاكر لك فهذا لا يجوز بل هو من أكل أموال الناس بالباطل، ومثل ذلك في التحريم ما يسمى بالتأمين، ومثال ذلك أيضاً: مهر البغي، فالمعطِي تطيب نفسه بإعطاء هذا المال، لكن لا يحل لهذه المرأة أن تفجر ولا أن تأخذ مالاً مقابل بضعها وشرفها وعفافها، وكذلك ثمن الكلب والسنور محرم وسائر العقود المحرَّمة ولو طابت نفس المعطِي؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن ذلك، وهكذا كل طريق محرم لأخذ المال هو من أكل أموال الناس بالباطل ولو طابت نفس المعطِي أو الدافع، فكله داخل في عموم قوله تعالى: **{وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ}** [(١٨٨) سورة البقرة]، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: **{لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا}** [(١٨٨) سورة البقرة]، الفريق: يعني الجزء أو القطعة من الشيء، و(فريقاً) من المال: يعني جزءاً من المال، أو بعضاً من المال.

وبعض أهل العلم يدعي في هذا معنىً آخر، ومن ذلك القول بالتقديم والتأخير في الآية أي: لتأكلوا أموال فريقٍ من الناس، والقاعدة في هذا هي أن الأصل إذا دار الكلام بين الترتيب والتقديم والتأخير، فالأصل فيه الترتيب، أي: لا يلجأ إلى دعوى التقديم والتأخير من غير ضرورة، فإن كان يمكن حمل الآية على معنىً يصح من غير تكلف، فإنه لا يلجأ إلى دعوى التقديم والتأخير، الله أعلم.

"وقد ورد في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ألا إنما أنا بشر وإنما يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضيَ له))[١٦]".

هذا الحديث ساقه أيضاً باعتبار المعنى السابق الذي هو الترافع إلى القاضي من أجل التوصل إلى أموال الناس، فهو ولو حكم له القاضي، فإنما يحكم له بقطعة من نار، وإذا كان لا يحق له هذا المال فإن حكم القاضي وفتوى المفتي لا تغير حقيقة الحكم، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وبينهما مشبَّهات))[١٧]، وقال: ((استفت قلبك))[١٨] وقال: ((الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس))[١٩]، فالإنسان لا يتكئ على فتوى ويقول: بهذا تبرأ ذمتي، فالإنسان إذا كان متبعاً للهوى أو مجارياً لأهواء النفس فإنه سيبحث عن الأسهل، وسيقول: أفتاني عالم، فالحقيقة أنه لا يكفي هذا، بل لا بد من التحري فيمن يسأل فلا يكون الإنسان حينما يتخير المفتي متجارياً مع داعية الهوى، أو يسأل هذا وهذا وهذا؛ ليبحث عمن يرخص له، فإن الذمة لا تبرأ، وكذلك رشوة القاضي تعتبر صورة من الصور التي تدخل ضمن قوله تعالى: **{وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ}** [(١٨٨) سورة البقرة] وذلك أنه يترافع إلى القاضي ويعطيه مالاً من أجل أن يحكم له ويتوصل إلى مبتغاه ومصلحته.

---

16 – أخرجه البخاري في كتاب الأحكام – باب القضاء في كثير المال وقليله (٦٧٦٢) (ج ٦ / ص ٢٦٢٧) ومسلم في كتاب الأقضية – باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة (١٧١٣) (ج ٣ / ص ١٣٣٧) إلا أنه قال: ((أبلغ)) بدلاً من قوله: ((ألحن)).

17 – أخرجه البخاري في كتاب الإيمان – باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢) (ج ١ / ص ٢٨) ومسلم في كتاب المساقاة – باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩) (ج ٣ / ص ١٢١٩) ولفظ: ((مشبهات)) عند البخاري، وعند مسلم: ((مشتبهات)).

18 – أخرجه أحمد (ج ٤ / ص ٢٢٨) والدارمي (ج ٢ / ص ٣٢٠) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٧٣٤).

19 – أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب – باب تفسير البر والإثم (٢٥٥٣) (ج ٤ / ص ١٩٨٠).

"((فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار، فليحملها أو ليذرها))[٢٠] فدلت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يحل في نفس الأمر حراماً هو حرام، ولا يحرم حلالاً هو حلال، وإنما ملزم في الظاهر فإن طابق في نفس الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره."

يعني أن شهادة الزور أو التدليس في القضية بحيث يصدر الحكم على خلاف ما يجب أن يكون كل ذلك لا يغير من الحكم شيئاً لا سيما المسائل التي تتعلق بالطلاق مثلاً، بحيث يأتي الرجل ولا يوضح القضية كما ينبغي حتى يحكم القاضي له بإرجاع المرأة إليه وفي حقيقة الأمر أن الصورة الواقعة لا تحل فيها هذه المرأة له، فهو حتى وإن حكم له القاضي فإن ذلك لا يغني عنه عند الله شيئاً.

لذلك تجد بعض الأغبياء يظن أن حكم القاضي له بإرجاع امرأته يجعلها له حلالاً، وليس الأمر كذلك، فالرجل يكتم أشياء ويخفي أشياء ويدلس أشياء عندما يصف للقاضي الواقعة التي حصلت، وبناء على ما يسمع القاضي يصدر الحكم، والحقيقة أنه لا يحل له هذا الحكم.

ومن الصور المنتشرة أن مثل هذا الشخص قد يأتي بشهود وهؤلاء الشهود الزور في ظنهم أنهم يريدون الخير والإحسان إليه، ولا يرضون بتشتت الأولاد –مثلاً– لأنه له عشرة من الولد وليس من مصلحتهم أن يتفرق الأبوان، ويجدون المرأة تبكي وهي والأولاد في حال يرثى لها، فأشفق هؤلاء الشهود على المرأة وأولادها فيشهدون شهادة زور لترجع هذه المرأة إلى صغارها، وهكذا يلمون شمل هذه الأسرة بالحرام، والله المستعان.

"ولهذا قال تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(١٨٨) سورة البقرة] أي تعلمون بطلان ما تعملونه وتروجونه في كلامكم.

قال قتادة: اعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضي لا يحل لك حراماً، ولا يُحق لك باطلاً، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرى ويشهد به الشهود، والقاضي بشر يخطئ ويصيب، واعلموا أن من قضي له بباطل أن خصومته لم تنقضِ، حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة فيقضي على المبطل للمحق بأجود مما قضى به للمبطل على المحق في الدنيا..."

---

[20] – هنا تمام حديث: ((ألا إنما أنا بشر وإنما يأتيني الخصم..)) الذي سبق تخريجه في الحاشية (١٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٨٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر في تفسير قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(١٨٩) سورة البقرة]: "قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: سأل الناس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الأهلة فنزلت هذه الآية: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ} [(١٨٩) سورة البقرة]، يعلمون به حِلَّ دينهم، وعدة نسائهم ووقت حجهم."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ}** [(١٨٩) سورة البقرة]، أولاً هذا السؤال، هل كان عن فائدة هذه الأهلة والمنافع المنوطة بها، ومن ثم جاء الجواب مطابقاً للسؤال فقال: **{هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ}** [(١٨٩) سورة البقرة]؟ أم أن السؤال إنما كان: لماذا يبدو الهلال في أول الشهر دقيقاً ثم يكبر حتى ينير، ثم بعد ذلك يكتمل فيكون قمراً ثم بدراً، ثم لا يزال ينقص حتى يعود هلالاً في آخر الشهر، ثم يختفي؟

كثير من البلاغيين والمفسرين قالوا:إن السؤال إنما كان عن الثاني: لماذا يبدوا الهلال دقيقاً ثم بعد ذلك لا يزال يزداد حتى يصير بدراً..؟

ومن ثَمَّ يقولون: إن الجواب جاء على طريقة الأسلوب الحكيم، والمراد بالأسلوب الحكيم عندهم: أن يأتي الجواب على سؤال بغير ما سأل به السائل، وإنما بما هو أجدر أن يسأل عنه، أي أنه يجيبه بما هو أحوج إليه وأنفع له دون ما سأل عنه؛ لأن ذلك لا ينتفع به أو لا يعنيه.

هكذا يقولون إلا أن هذه المسألة ليست محل اتفاق بين أهل العلم، أعني عن ماذا كان السؤال، وبالتالي هل طابقه الجواب أو لا، فمن أهل العلم من يقول: إن السؤال إنما كان عن فائدة الأهلة، وبالتالي جاء الجواب مطابقاً له، وممن قال بهذا جماعة من المحققين، ويمكن الرجوع إلى كلام الشاطبي -رحمه الله- في الموافقات.

قوله تعالى: **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ}** [(١٨٩) سورة البقرة]، الأهلة: جمع هلال، وإذا قيل: لماذا لم يقل: يسألونك عن الهلال، فيمكن أن يقال: إنه نزّل اختلاف الأوقات منزلة اختلاف الذوات، فالهلال يكون في أول الشهر ويكون في آخر الشهر، والقمر حينما يتضاءل فإنه لا يزال كذلك حتى يصير هلالاً، وعلى كل حال فهو في يومه الأول ليس كيومه الثاني، وليس كيومه الثالث وهكذا، ففي كل وقت تختلف حاله.

لماذا سمي الهلال هلالاً:

يمكن أن يقال: لأن الناس حينما يرونه يرفعون أصواتهم إخباراً به، فرفع الأصوات هذا هو إهلال، كما تقول: أهل بالإحرام، وكقوله تعالى: **{وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ}** [(١٧٣) سورة البقرة] وذلك أنهم كانوا يرفعون أصواتهم عند ذكر أصنامهم وآلهتهم على الذبيحة فقيل له: إهلال، ولو لم يحصل فيه ذلك كما يقال لليمين: حلف باعتبار أن كل واحد منهما يأخذ بيد صاحبه توثيقاً، فاليمين قول يصاحبه فعل، ثم صارت تطلق اليمين على كل حلف، وعلى كل حال ربما يكون سمي الهلال بهذا؛ لأنهم يرفعون أصواتهم عادة إخباراً به عند رؤيته.

وبعض أهل العلم يقول عن الهلال: إنه لا يزال هلالاً حتى يستدير وإذا استدار صار بدراً، وبعضهم يقول: لا، إنما يكون ذلك حتى ينير، وذلك ليلة السابع، ومن ثم يكون قمراً ثم بدراً.

يعلمون به حلَّ دَيْنِهِم، وعدة نسائهم ووقت حجهم.

في قوله: **{قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ}** [(١٨٩) سورة البقرة] يجيبهم عن فوائد الأهلة، فيقول: **{هِيَ مَوَاقِيتُ}** أي: مواقيت لعِدَد النساء؛ فالمتوفى عنها زوجها تتربص أربعة أشهر وعشراً، والمطلقات الصغيرات والآيسات يتربصن ثلاثة أشهر وذلك يعرف بالأهلة.

وبالهلال كذلك يعرفون وقت الصوم والفطر، والكفارات حينما يصوم شهرين متتابعين، كما أنه يعرف بذلك أيضاً مواقيت الديون والآجال، إلى غير ذلك مما يحتاجون إلى معرفة ميقاته من العهود والعقود والمواثيق المؤقتة بوقت وما إلى ذلك.

ثم ذكر بعدها الحج فقال: **{قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ}** [(١٨٩) سورة البقرة] فالحج من جملة المواقيت –ولكن يمكن أن يكون سبب هذا الإفراد له أن الحج هو أعظمها– وذلك أن الناس إنما يقفون في عرفة بناءً على معرفة الوقت، فكل الناس يكون وقوفهم بناءً على هذه الرؤية، بل في الدنيا جميعاً إنما يعرفون ذلك اليوم ويوم النحر وأيام التشريق بناءً على رؤية الهلال فيكونون تبعاً فيه لأهل مكة، ولذلك لا يختلفون في عيد الأضحى فهم تبع لأهل مكة، والمقصود أنه ذكر الحج بعد العموم؛ لأهميته بالنسبة للأمور الأخرى من العِدَد وما إلى ذلك، فهي قضايا تتعلق بالإنسان نفسه، لكن الحج هو أعظمها، فهو ركن من أركان الإسلام، ويتعلق به حكم المكلَّفين جميعاً.

"وروى عبد الرزاق عن ابن عمر –رضي الله تعالى عنهما– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((جعل الله الأهلة مواقيت للناس، فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين يوماً))[1]

ورواه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقوله تعالى: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا} [(١٨٩) سورة البقرة]."

يُلاحظ أن الله تعالى جعل الأهلة مواقيت، ولم يجعل الشمس كذلك، وبالتالي فإن ضبط المواقيت إنما يكون بالأهلة لا بالشمس، وهذه هي الطريقة الشرعية، وقد تكلم ابن القيم –رحمه الله– في مواضع من كتبه على أن

---

[1] – أخرجه ابن خزيمة في صحيحه(ج ٣ / ص ٢٠١) والحاكم (ج ١ / ص ٥٨٤) والطبراني في الكبيــر (ج ٨ / ص ٣٣١) والدارقطني (ج ٢ / ص ١٦٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٠٩٣).

ذلك أثبت وأدق، وبيّن وجه هذا، خلافاً لما يتداوله الناس اليوم جهلاً أو تقليداً للكفار من التوقيت بغير ذلك، وذكر أن التوقيت الذي كان عليه الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– إنما كان بالأهلة ولم يكن بالشمس، واستدل على هذا بأمور منها: حديث عاشوراء الذي فيه أن النبي –صلى الله عليه وسلم– جاء في اليوم العاشر فرآهم يصومون ذلك اليوم فصامه النبي –عليه الصلاة والسلام– وأمر بصيامه.

"عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا} [(١٨٩) سورة البقرة]."

هذه الآية هي مثال على ما قد يخفى معناه إلا بمعرفة سبب النزول، ومن المعلوم أن سبب النزول في الأهمية ليس على مرتبة واحدة، فأحياناً يتوقف عليه فهم المعنى، وأحياناً يزول به بعض الإشكال أو الغموض، وأحياناً يكون من باب زيادة الإيضاح، وأحياناً لا يؤثر في المعنى، فهذا مما قد يتوقف عليه فهم المراد، يقول: **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا}** [(١٨٩) سورة البقرة] المراد بهذا الكلام بيّنه سبب النزول وهو أن بعض العرب من الأنصار أو من غير الأنصار كانوا يرون أن دخول البيوت من الأبواب أو الاستظلال تحت السقوف من محظورات الإحرام، فإذا جاء أحدهم لحاجة فإنه يأتي البيت من ظهره لا من بابه؛ لأنه يرى أنه ممنوع من هذا، فبيّن الله –عز وجل– أن البر ليس له تعلق بإتيانكم البيوت بهذه الصفة وإنما تؤتى البيوت من أبوابها، هذا هو سبب نزول الآية.

مسألة:

من الناس من يعتمد على التفسير بما تحتمله اللغة العربية من غير نظر إلى أسباب النزول، ومن أمثلة ذلك قول أبي عبيدة معمر بن المثنى من المعتزلة في قوله –تبارك وتعالى– في سورة الأنفال: **{وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ}** [(١١) سورة الأنفال]: "المقصود الربط على القلوب بحيث تثبت القدم في المعركة فلا يفر" وهذا المعنى تحتمله اللغة لكنه ليس المراد، فأسباب النزول وملابسات النزول تدل على أنه نزل مطر فلبّد الأرض وكانت تسوف فيها الأقدام، فحصل ما حصل.

وهذا مثال آخر: **{وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا}** [(١٨٩) سورة البقرة] بعضهم قال: هذا مثل ضربه الله –عز وجل–، وهو أن تؤتى البيوت من أبوابها بمعنى أن الإنسان إذا أراد شيئاً فإنما يأتيه من وجهه الذي يحصَّل به وذلك بتعاطي الأسباب الصحيحة والطرق الموصلة إلى المطالب، وهذا الكلام وإن كانت تحتمله اللغة، لكنه ليس مراداً هنا، فالمقصود أنه إذا عرف المراد وفسرت الآية به، فلا مانع عندئذ أن يقال: إن هذا العموم في اللفظ يمكن أن يعتبر في المعنى الآخر، بل هو يستعمل استعمال المثل بمعنى أنه إذا كانت للإنسان حاجة فينبغي أن يعرف السبيل الموصل إليها، وإلا فإن ذلك قد يضيع عليه حاجته، ويفوت مطلوبه، والله أعلم.

"هكذا رواه أبو داود الطيالسي عن البراء –رضي الله تعالى عنه– قال: كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم لم يدخل الرجل من قبل بابه فنزلت هذه الآية."

يُلاحظ في هذه الروايات أن صياغاتها صريحة حيث يقولون: فنزلت، وأما الاختلافات فهي في ألفاظ هذه الروايات وهي يسيرة، ففي بعضها يقال: إنهم كانوا يرون ذلك من محظورات الإحرام، وفي بعضها أنهم كانوا إذا قدموا من سفر، وعلى كل حال يمكن أن تحمل هذه الألفاظ المختلفة على أنهم كانوا يفعلون ذلك في هذا وفي هذا، أو أن بعض العرب يفعله في هذه الحال، والبعض الآخر يفعله في حال أخرى، فقد كانت لهم من العقائد والعادات أمور في عداد العجائب، ومن أراد أن يطلع على شيء من طقوسهم الدينية –لا سيما ما يتعلق بالإحرام والحج والمناسك– فليقرأ في مثل كتاب: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، فهذا كتاب كبير، يبلغ نحو تسعة مجلدات أو أكثر، وفيه كل ما يتعلق بالعرب، ومن ذلك ما يتعلق بالمناسك والحج، وكيف يصنعون، وقبائل العرب ماذا تصنع كل قبيلة إذا أحرمت، وتلبية كل قبيلة، ومحظورات الإحرام، والعادات المتبعة عندهم، وأمور غريبة عجيبة جداً، وتجد أن منهم من يذهب قبل حجه لزوماً إلى بعض المحال التي تعظم فيها الأوثان؛ لأنه يرى أن ذلك من تمام النسك، ومنهم من يكون منصرفه إليها بعد قضائه لحجه، وتجد كيف هي طريقة التلبية التي يرددونها، فقبيلة عك مثلاً يتقدم غلامان أسودان عاريان أمام الموكب ويصيحان بأعلى صوتهما، نحن غرابا عك، فيصيح الجمع خلفهم، ويقولون: عك إليك عانية، عبادك اليمانية، وكلام فارغ كثير مما يضحك منه العاقل يوجد في تلك الكتب.

"وقال الحسن البصري: كان أقوام من أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً وخرج من بيته يريد سفره الذي خرج له ثم بدا له بعد خروجه أن يقيم ويدع سفره لم يدخل البيت من بابه ولكن يتسوره من قبل ظهره فقال الله تعالى: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا} [(١٨٩) سورة البقرة] الآية."

المقصود أن هذه الاختلافات في هذه الروايات لا تؤثر في فهم المعنى، وإنما الذي يفهم به المعنى أن نعرف أنه كانت لبعضهم عادات في بعض الأحوال، فبعضهم كان يتسور داره، والآخر يأتي البيت من ظهره دون الدخول من بابه، وسواء كان ذلك إذا أنشأ سفراً، أو كان قد أحرم، فكل هذا لا يؤثر ما دام المقصود واضحاً.

"وقوله تعالى: {وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(١٨٩) سورة البقرة] أي اتقوا الله فافعلوا ما أمركم به واتركوا ما نهاكم عنه لعلكم تفلحون غداً إذا وقفتم بين يديه فيجازيكم على التمام والكمال.

وقوله تعالى: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ* وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ* فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ* وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} [(١٩٠-١٩٣) سورة البقرة].

قال أبو جعفر الرازي: عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} [(١٩٠) سورة البقرة]، قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة."

بعض أهل العلم يرى أن أول آية نزلت في القتال هي قوله: **{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا}** [(٣٩) سورة الحـج]، فكان إذناً مطلقاً، ثم بعد ذلك جاء الأمر به مقيداً: **{وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ}** [(١٩٠) سورة البقرة]، فلم يكن الأمر بالقتال في أول الأمر على سبيل العموم والإطلاق، فيرى هؤلاء العلماء أن هذه ثاني آية نزلت في القتال.

ومنهم من يرى أن هذه هي الآية الأولى التي نزلت بالأمر بالقتال: **{وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ}** [(١٩٠) سورة البقرة]، ومن ثم فإن طائفة من هؤلاء يقولون: إنها قد نسختها الآية الخامسة من سورة براءة، وهي قوله تعالى: **{فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ}** [(٥) سورة التوبة]، ويقولون: إن هذه الآية نسخت مائة وأربعا وعشرين آية، أي: آيات العفو والصفح، ومثل هذه الآيات في القتال كقوله: **{وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ}** [(١٩٠) سورة البقرة]، ومثل ذلك قوله تعالى: **{وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً}** [(٣٦) سورة التوبة]، فلم يقيد ذلك بقتال الذين يقاتلون، وهذا قول معروف لطائفة من السلف والخلف.

وذهب آخرون إلى أن الآية ليست منسوخة، وليس هذا هو معناها أصلاً وإنما جيء بهذه الصيغة: **{الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ}** [(١٩٠) سورة البقرة] من أجل التحضيض والتحريض على قتالهم، كما قال لهم في سورة براءة: **{أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ* قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ* وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللّهُ...}** [(١٥) سورة التوبة] أي أن ذلك على سبيل التحريض على القتال، فبعض أهل العلم يقول: هذه على هذا الباب: **{وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ}** [(١٩٠) سورة البقرة]، أي: أن الله أمر بالقتال مقروناً بهذا ليكون ذلك حاثاً لهم على مقاتلة الأعداء، أي كأنه يقول: هم يقاتلونكم فكيف تقعدون عن قتالهم؟ وبالتالي ليس المقصود بالأمر بالقتال هنا على هذا القول قتال من قاتلهم فقط.

ومن أهل العلم من يقول: إن هذه الآية ليست منسوخة وليست على ما فهمه أولئك من أن القتال يختص بمن يقاتلهم من طوائف الكفار، وإنما تكون في من يقدر على حمل السلاح دون النساء والشيوخ والرهبان ممن لا يشارك في القتال، ولا رأي ولا تدبير له فيه، فالمقصود قاتلوا الرجال المقاتلة.

وهكذا اجتمع لنا في هذه الآية ثلاثة أقوال مشهورة: الأول على النسخ، والثاني والثالث على أنه لا نسخ فيها، وكل هذه الأقوال ترجع إلى أن هذه الآية ليس المراد بها الاقتصار في القتال على من قاتل المسلمين فقط من طوائف الكفار، إلا أن يكون باعتبار أن هذا هو المعنى ثم نسخ، وإما أن المراد التحضيض والتحريض بذكر أمر تتحرك معه النفوس، وإما بأن المراد مقاتلة من يقدر على القتال ومَن مِن شأنه القتال من الرجال، وبالتالي لا نسخ.

وعلى كل هذه التقديرات ندرك أن ما يروجه بعض المفتونين والذين يكذبون على الله –عز وجل– في مثل هذه الأيام، ويتنصلون من شرائع الإسلام، ويقولون للمسلمين ولغير المسلمين: الإسلام عندنا يقول: قاتلوا في سبيل الذين يقاتلونكم فقط، بل حتى الذين يقاتلون المسلمين صارت مقاتلتهم إرهاباً إذا دافع المسلمون عن عرضهم وبلدهم وحريمهم، فلا بد من الاستكانة والخضوع ودفن الرءوس في التراب، ومن قاتل هؤلاء الكفار دهموا بلده وانتهكوا عرضه وقتلوا نساءه؛ لأنه من الخوارج بزعمهم، أما الذي يهدم القرى والمدن على بيوت الناس بأنواع الأسلحة الفتاكة فهذا حامل الحضارة والمدنية ورسولها، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

وعلى كل حال هذا هو معنى الآية على كل التقديرات التي قال بها أهل العلم، ومن أراد أن يكذب على الله ويبدل شرائع الإسلام فهذا شأن آخر، فالإنسان يمكن أن يسكت؛ لأنه يرى أنه لا مصلحة في بعض الكلام

أحياناً، لكن لا يجوز له أن يكذب على الله في كل حال، وعلى كلٍ نحن مطمئنون والحمد لله بأن الجهاد باق إلى يوم القيامة، ولا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يقاتل آخرهم الدجال، فهذا وعد صادق لا يمكن أن يتخلف.

ولذلك فهؤلاء مشكلتهم مع القرآن وليست مع شيء آخر، ولذلك أخرجوا قرآناً آخر وطلبوا من المسلمين أن يتبعوه، وبالتالي فليست القضية إلا في من جاء من المفتونين المنسلخين، الذين قالوا: إن الصحابة فهموا القرآن بناءً على معطيات عندهم، ونحن بشر مثلهم وهم بشر، ونحن رجال وهم رجال، ولهم فهم ولنا فهم، وكل عصر يفهم القرآن على ضوئه، وقالوا: لا بد من قراءة جديدة للقرآن، ويقصدون بالقراءة الجديدة أنه يفسر بنفس آخر مثل ما يقول فهمي هويدي الذي يفسر الجهاد في الإسلام فيقول: هو أن يوجد حلف ضد دولة معتدية على دولة أخرى، فتطالب بدايةً بالسبل الدبلوماسية، فإن تعذر ذلك فإن هذا الحلف يكسر هذا العدوان، كما قادت أمريكا حلف الأطلسي أو الناتو في محاربة صربيا عندما اعتدت على البوسنة.

وهذا داعية إسلامي في بلاد الغرب يدافع عن الإسلام على حد زعمه فيقول في بعض القنوات الفضائية عن الحور العين: هؤلاء يجاهدون من أجل الحور العين ولا يوجد شيء اسمه حور عين أصلاً، وهذا تكذيب للقرآن، والله المستعان.

"قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقاتل من قاتله ويكف عمن كفَّ عنه، حتى نزلت سورة براءة.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم حتى قال: هذه منسوخة بقوله: {فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} [(٥) سورة التوبة] وفي هذا نظر؛ لأن قوله: {الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} [(١٩٠) سورة البقرة]، إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همَّتهم قتال الإسلام وأهله، أي كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم، كما قال: {وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً} [(٣٦) سورة التوبة]، ولهذا قال في الآية: {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ} [(١٩١) سورة البقرة] أي: لتكن همتكم منبعثة على قتالهم كما همتهم منبعثة على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصاً."

قوله تعالى: **{حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ}** [(١٩١) سورة البقرة] ليس معنى ثقفتموهم وجدتموهم فقط، وإنما لفظة "ثقف" تدل على حذق في الشيء، فالرجل الثقف في القتال هو الحاذق الحذر البصير، وبالتالي فإن معنى قوله: **{حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ}** أي: حيث أدركتموهم وتمكنتم من أخذهم، فهي حذق ومهارة في إدراكهم وأخذهم، وحيث: تدل على الزمان أو على المكان.

"وقوله تعالى: {وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ} [(١٩٠) سورة البقرة] أي: قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك، ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي كما قال الحسن البصري -رحمه الله تعالى-: من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم."

إلا إذا كان له رأي فيقتل، مثل ما قتل النبي -صلى الله عليه وسلم- دريد بن الصمة لما كانت وقعة حنين حيث جيء به شيخ كبير، قد عمي بصره، وكان له رأي وتجربة في الحروب، وقد وقع حوار بينه وبين مالك ابن عوف النصري قائد هوازن، ومعلوم كلامه الذي قاله:

ليتنـــــــي فيهـــــــا جـــــــذع أخـــــــب فيهـــــــا وأضـــــــع

إلى آخر ما قال، ثم أُخذ وقُتل بالسيف بعد المعركة مع أنه شيخ كبير أعمى قد فني ولا قدرة له، لكن كان له رأي فاستحق القتل.

"والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم."

لا تفعل هذه الأمور لغير مصلحة، أما إذا كان ذلك فيه مصلحة كإغاظة العدو أو كسر شوكته فيجوز ذلك كما فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- في حصار بني النضير، فقال الله -عز وجل-: **{مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ}** [(٥) سورة الحشر] هذا إذن قدري وإذن شرعي، والقرآن يعبِّر بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فالله أذن لهم بهذا في حصار عدوهم إذا احتاجوا إليه لكسر العدو، فإذا كان ذلك لا يتأتى إلا بإحراق هذه الأشجار فإنها تحرق؛ لما فيه من إغاظة الأعداء عندما يرون مالهم يصير إلى الحرق.

قوله: **{مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ}** [(٥) سورة الحشر] يعني: من نخلة، سواء كان نوعاً خاصاً من النخل، كما قال بعضهم: العجوة، أو أنواع النخيل ما عدا العجوة، أو ما عدا العجوة والبرني، أو غير ذلك من الأقوال.

"ولهذا جاء في صحيح مسلم عن بريدة -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: ((اغزوا في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثِّلواولا تقتلوا وليداً ولا أصحاب الصوامع))[2]."

المُثلة معروفة، وهي لا تجوز ابتداء، واختلف العلماء فيها هل تجوز على سبيل المقاصة أم لا؟ فمن أهل العلم من يرى أن ذلك يجوز؛ لقوله تعالى: **{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ}** [(١٢٦) سورة النحل]، وكذلك ما فعله النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث سمل أعين العرنيين، وقطع أيديهم وأرجلهم وألقاهم في الحرة، فكانوا يستغيثون ويطلبون الماء، ولم يعطوا ماءً حتى ماتوا؛ لأنهم فعلوا بالراعي مثل ذلك، وعلى كل حال فالمسألة معروفة وهي ليست محل اتفاق.

"وفي الصحيحين عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنه- قال: "وُجِدت امرأة في بعض مغازي النبي -صلى الله عليه وسلم- مقتولة فأنكر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قتل النساء والصبيان"، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً."

وكذلك من أعطى الجزية وصاحب العهد والمستأمن لا يجوز قتلهم، فيكون على هذا القول قوله تعالى: **{وَلاَ تَعْتَدُواْ}** [(١٩٠) سورة البقرة] أي: لا تعتدوا بقتل من أعطى الجزية، والمعاهد، والمستأمن، والشيخ الكبير، والمرأة، والطفل، والرهبان في الصوامع، وما أشبه ذلك، وعلى القول بأنها منسوخة، يكون العدوان بقتال

---

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير - باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من غير تقدم الإعلام بالإغارة (١٧٣١) (ج ٣ / ص ١٣٥٦).

الطوائف التي لم يحصل منها قتال، والنبي -صلى الله عليه وسلم- وجد امرأة مقتولة في بعض المغازي، فأنكر قتل النساء والصبيان[٣]، وفي رواية قال: ((ما كانت هذه تقاتِل فيمن يقاتل))[٤]، يعني أنه أنكر قتلها.

وهذا القول الأخير أي: لا تعتدوا بقتل من لا يستحق القتل من صاحب جزية أو مستأمن أو شيخ كبير أو نحو ذلك، هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وبهذا الاعتبار تكون الآية ليست منسوخة.

"ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال، نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصدِّ عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم وأطمّ من القتل ولهذا قال: {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [(١٩١) سورة البقرة]."

هذا جواب كبير لسؤال أو لشبهة تطرح في قضية الجهاد، وهي: أن فيه إزهاقاً للنفوس فالله يقول: **{وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ}** [(١٩١) سورة البقرة]، ويقول في موضع آخر: **{وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ}** [(٢١٧) سورة البقرة]، أي: ما هم فيه من الكفر أو فتن الناس عن دينهم وصدهم عن سبيل الله -عز وجل- حتى يصيروا إلى الكفر هذا أعظم من القتل، ولذلك ينبغي أن نستفيد من أجوبة القرآن في الرد على دعايات الكفار ضد المسلمين، وتشويه صورة الإسلام.

"قال أبو مالك: أي ما أنتم مقيمون عليه أكبر من القتل، وقال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس في قوله: {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [(١٩١) سورة البقرة]، يقول: الشرك أشد من القتل."

هذا معنى ما ذكر في الرواية السابقة من أن الفتنة هي الشرك، ومن أهل العلم من يقول: **{وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ}** [(١٩١) سورة البقرة] أي: صد الناس عن الدين وامتحانهم حتى يتحول الرجل من الإيمان إلى الكفر بالله أشد وأعظم من سفك دمه، وهذا الذي اختاره ابن جرير في معنى الآية.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب قتل النساء في الحرب (٢٨٥٢) (ج ٣ / ص ١٠٩٨) ومسلم في كتاب الجهاد والسير - باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب (١٧٤٤) (ج ٣ / ص ١٣٦٤).

[4] - صحيح ابن ماجه في كتاب الجهاد - باب الغارة والبيات وقتل النساء والصبيان (٢٨٤٢) (ج ٢ / ص ٩٤٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٨٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وقوله تعالى: {وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [(١٩١) سورة البقرة]، كما جاء في الصحيحين: ((إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق الله السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، ولم يحلَّ لي إلا ساعة من نهار، وإنها ساعتي هذه حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شجره ولا يختلى خلاه، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم))[1] يعني بذلك -صلوات الله وسلامه عليه- قتاله أهلها يوم فتح مكة، فإنه فتحها عنوة، وقتلت رجال منهم عند الخندمة، وقد آمنهم بقوله: ((من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن))[2]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ}** [(١٩١) سورة البقرة]: هذه الآية صريحة في تحريم القتال في الحرم، والمراد بالمسجد الحرام الحرم بأجمعه، وليس المقصود به مسجد الكعبة المعروف فقط، وإنما الحرم كله.

قال بعض أهل العلم في هذه الآية كابن جرير -رحمه الله-: إنها منسوخة بقوله -تبارك وتعالى- في سورة براءة: **{فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ}** [(٥) سورة التوبة]، وبقوله -تبارك وتعالى-: **{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ}** [(١٩٣) سورة البقرة]، على أن قوله تعالى: **{حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ}** عام، يدخل فيه الحرم وغيره، وقوله: **{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ}** بمعنى حتى لا يكون كفر، فحيث وجد الكفر وجد القتال.

وهذا القول فيه نظر؛ لأن تلك الآيات وإن كانت عامة فإنها مخصصة بهذه الآية: **{وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ}** [(١٩١) سورة البقرة]، أي: قاتلوا الكفار ولكن المسجد الحرام لا يحل لأحد أن يقاتل فيه، وإنما أحل للنبي -صلى الله عليه وسلم- ساعة من نهار.

والذي يدل على أن هذه الآية محكمة غير منسوخة هو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صرَّح بعد فتح مكة بأن القتال لا يحل لأحد بعده، فقال: ((وإنما أحلت لي ساعة من نهار))[3].

---

1 - أخرجه البخاري في أبواب الجوية - باب إثم الغادر للبر والفاجر (٣٠١٧) (ج ٣ / ص ١١٦٤) ومسلم في كتاب الحج - باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام (١٣٥٣) (ج ٢ / ص ٩٨٦).

2 - أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير - باب فتح مكة (١٧٨٠) (ج ٣ / ص ١٤٠٥).

3 - سبق تخريجه.

وغزوة تبوك نزلت فيها أو بعدها بقليل كثير من آيات سورة براءة، وذلك قبل حجة الوداع كما هو معلوم، وحجة الوداع كانت في آخر حياته حيث لم يعش بعدها النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا قريباً من ثمانين يوماً، وقد قال -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه في ذلك الجمع العظيم في خطبته: ((أي يوم هذا، أي شهر هذا، أي بلد هذا))، ثم قال لهم: ((إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا))[4]، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام-، فهو يرسخ هذا المفهوم ويؤكد مدلول الآية بأن الحرم لا يجوز لأحد أن يقاتل فيه، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً، ولكن العلماء اختلفوا في بعض التفصيلات، كما لو التجأ إلى الحرم أحد ممن عليه دم، فبعضهم يقول: يضيق عليه حتى يخرج منه ثم يؤخذ، وبعضهم قال: إن الحرم لا يعصم دم من عليه دم أو جناية، وقتاله لا يكون مخالفاً لمدلول هذه الآية، وهذا هو الأرجح، وهو أن من كان عليه جناية من الجنايات فإن وجوده في حرم الله لا يمنع من أن يقتص منه، ويدل على هذا أيضاً أمور منها:

أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر بقتل ابن خطل وغيره ممن أهدر دمه -صلى الله عليه وسلم- حينما فتح مكة، ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة، وقد وجدوا ابن خطل متعلقاً بأستار الكعبة فقُتل، وهذه هي خلاصة مسألة القتال في المسجد الحرام بإيجاز شديد، وستأتي مسألة أخرى إن شاء الله في موضعها في سورة براءة، في قوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ}** [(٣٦) سورة التوبة] فعندنا القتال في الحرم: فهو يختص بالبقعة ولا يتوقت بوقت، وعندنا القتال في الأشهر الحرم: فهو لا يختص ببقعة ولكنه مؤقت بوقت في أرجاء الدنيا، وهذا الوقت هي الأشهر الحرم -ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب- فهذه لا علاقة لها بالبقعة، والخلاف فيها أكثر من الخلاف في المسألة الأولى وهي مسألة القتال في الحرم، ويأتي إن شاء الله تعالى الكلام على هذا.

قال المؤلف: **يعني بذلك -صلوات الله وسلامه عليه- قتاله أهلها يوم فتح مكة**، يلاحظ أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وهنا يقول: إن مكة فتحت بالقوة عام الفتح، وهذه مسألة فيها خلاف كثير جداً بين أهل العلم وتترتب عليها مسائل من قضية القتال في مكة، ومسائل تتعلق ببيوت مكة وأرضها، وهل دخلها النبي -صلى الله عليه وسلم- صلحاً أو فتحها بالقوة والقهر، وهذه المسائل مبسوطة في كتب الفقه، والقول بأنها فتحت بالقوة أو فتحت صلحاً يترتب عليه أحكام، والأقرب من كلام أهل العلم أنها فتحت بالقوة، وحصل يوم الفتح قتال بعض النواحي مع بعض فلول المشركين ولكنه قليل، وقتل منهم من قتل، وفر من فرَّ.

يقول: **وقتلت رجال منهم عند الخندمة**، الخندمة تطلق على محال واسعة، ويمكن أن يراد بها جبال مكة الشرقية إلى ناحية الشمال قليلاً ابتداء من جبل أبي قبيس إلى جبل ثبير، وجبل ثبير كان يقول المشركون فيه وهم في منى: أشرق ثبير كي ما نغير، أي لأجل أن يذهبوا إلى عرفة، فالمقصود أن الخندمة تدخل فيها هذه المناطق كلها، ومنها المناطق التي لم يكن الناس يأتونها في السابق مثل: محبس الجن، وتدخل فيها منطقة

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب حجة الوداع (٤١٤٤) (ج ٤ / ص ١٥٩٩) ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات - باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩) (ج ٣ / ص ١٣٠٥).

الملاوي والروضة والعزيزية، ومن جهة الشمال قليلاً يدخل فيها شعب عامر، وفيها الأبيات المعروفة لحماس ابن قيس لما كان يعد امرأته دائما ويقول لها: سأُخدِمُك بنات محمد، فلما حصل الفتح جاءها فاراً يطرق بابه، ويطلب منها أن تفتح مع أنه كان يقول لها: لا تفتحي لي الباب إذا انهزمت، فجاء فاراً ذلك اليوم، فقالت: أين ما كنت؟، وكان يبحث عن مكان يختبئ فيه، فقال لها:

إنك لو شهدت يوم الخندمة	إذ فر صفوان وفر عكرمة
واستقبلتنا بالسيوف المسلمة	يقطعن كل ساعد وجمجمة
لهم نهيت خلفنا وغمغمة	لم تنطقي باللوم أدنى كلمة

"وقوله تعالى: {حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ} [(١٩١) سورة البقرة] **يقول تعالى: ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدءوكم بالقتال فيه، فلكم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعاً للصائل، كما بايع النبي -صلى الله عليه وسلم- أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال لما تألبت عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحابيش عامئذ."**

من هم الأحابيش؟:

لما يتكلم أهل السير عن غزوة أحد يقولون: جاءت قريش، وجاء أهل تهامة ومن معهم من الأحابيش، وتهامة معروفة وأما الأحابيش فهم بطون من العرب أو قبائل حول مكة ليسوا من قريش مثل: بني الهون وبني المصطلق من خزاعة، وبني الحارث بن عبد مناة وأمثال هؤلاء يقال لهم: الأحابيش، وقيل لهم ذلك بناء على حلف حصل بين هذه القبائل -قبائل من كنانة ومن خزاعة أو بطون من كنانة وخزاعة- يقال: إنهم تحالفوا عند وادٍ من الأودية يقال له الأحبش فنسبوا إليه، ويقال: إنهم تحالفوا عند جبل قريب من عرنة بجوار عرفة، يقال له: حُبْشِي فنسبوا إليه.

"ثم كفَّ الله القتال بينهم فقال: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} [(٢٤) سورة الفتح]**، وقال: {وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}** [(٢٥) سورة الفتح]**، وقوله: {فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [(١٩٢) سورة البقرة] **أي فإن تركوا القتال في الحرم، وأنابوا إلى الإسلام والتوبة فإن الله يغفر ذنوبهم، ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله، فإنه تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه."**

{لَوْ تَزَيَّلُوا} [(٢٥) سورة الفتح] يعني لو تميز المسلمون من الكفار في مكة لسلط الله على أهل مكة أصحاب الحديبية فهم جيش متكامل، لكن لما كان يوجد في أهل مكة مسلمون حبس الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- عد دخول مكة لئلا يحصل ضرر على هؤلاء المسلمين المستضعفين بين أهل مكة فقد يحصل فيهم جراح أو قتل، فأين هذا من فعل بعض الجهلة الذين يقتلون من لم يخوَّلوا بقتلهم أصلاً بل وفيهم من فيهم من المسلمين؟! فالله حبس رسوله -صلى الله عليه وسلم- ومن معه وهم خيار أهل الأرض، من أجل عدد قليل في مكة كانوا على الإسلام مع أن أهل مكة كانوا محاربين، ، فأين هذا من قول من يقول: إن هؤلاء يقتلون تبعاً؟!.

"ثم أمر الله بقتال الكفار: {حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ} [(١٩٣) سورة البقرة]، أي شرك، قاله ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وقتادة والربيع ومقاتل بن حيان والسدي وزيد بن أسلم.

{وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ} [(١٩٣) سورة البقرة]: أي يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- قال: سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله))[5]، وفي الصحيحين: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله))[6].

وقوله تعالى: {فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} [(١٩٣) سورة البقرة] يقول تعالى: فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين فكفوا عنهم، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم، ولا عدوان إلا على الظالمين، وهذا معنى قول مجاهد: ألا يقاتل إلا من قاتل، أو يكون تقديره فإن انتهوا فقد تخلصوا من الظلم، وهو: الشرك، فلا عدوان عليهم بعد ذلك، والمراد بالعدوان هاهنا المعاقبة والمقاتلة."

ذكر ههنا معنيين في قوله: **{فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ}** [(١٩٣) سورة البقرة]: الأول: **{فَإِنِ انتَهَواْ}** يعني إن انتهوا عما أوجب قتالهم فإن قتالهم في هذه الحالة ظلم؛ حيث قال: **{فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ}** [(١٩٣) سورة البقرة]: يعني قاتلوهم إلى هذه الغاية **{حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ}** [(١٩٣) سورة البقرة]، فإن حصل منهم كف عن الشرك فلا يجوز لأحد أن يقاتلهم، فمن قاتلهم فهو ظالم معتدٍ.

والمعنى الثاني: **{فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ}** [(١٩٣) سورة البقرة]: يعني أنكم مأمورون بالكف عنهم إلا من تعدى وظلم منهم، من حصل منه عدوان وظلم فإنه يكف ظلمه وعدوانه، وربما كان هذا هو الأقرب والمتبادر، والمناسب للسياق، والله أعلم.

"والمراد بالعدوان هاهنا المعاقبة والمقاتلة كقوله: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [(١٩٤) سورة البقرة]، وقوله: {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} [(٤٠) سورة الشورى]، وقوله: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ} [(١٢٦) سورة النحل]."

قوله: **{فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ}**: هؤلاء المسلمون يقاتلون المشركين بحق ومع ذلك سمى هذا الفعل عدواناً، فكيف سماه عدواناً؟ بعض أهل العلم يقول: هذا من قبيل المشاكلة، وهي نوع من المجاز عند كثير من أهل اللغة، فقوله: **{فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ}** [(١٩٣) سورة البقرة]، قال: لأنهم اعتدوا سمي القصاص منهم بالاسم الذي استوجبوا به هذا القصاص، ومثل ذلك قوله تعالى: **{فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}** [(١٩٤) سورة البقرة]، مع أن فعل هذا الإنسان الذي يكف الشر والعدوان لا يكون معتدياً بالمعنى المعروف، أي

---

[5] – أخرجه البخاري في كتاب التوحيد – باب: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} [(١٧١) سورة الصافات] (٧٠٢٠) (ج ٦ / ص ٢٧١٤) ومسلم في كتاب الإمارة – باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (١٩٠٤) (ج ٣ / ص ١٥١٢).

[6] – أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير – باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام والنبوة وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله (٢٧٨٦) (ج ٣ / ص ١٠٧٧) ومسلم في كتاب الإيمان – باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويؤمنوا بجميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وأن من فعل ذلك عصم نفسه وماله إلا بحقها ووكلت سريرته إلى الله تعالى وقتالِ من منع الزكاة أو غيرها من حقوق الإسلام واهتمام الإمام بشعائر الإسلام (٢١) (ج ١ / ص ٥٢).

أن صاحبه متعدّ ظالم، وإنما هو يقوم بالعدل، لكن سماه عدواناً في مقابل فعلهم، كما قال تعالى: {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} [(٤٠) سورة الشورى]، فهذا المقتص فعله ليس سيئة.

وعلى كل حال بغض النظر عن نوع هذه التسمية هل هي من قبيل المشاكلة أو لا، فإننا إذا أردنا أن نفحص هذه الألفاظ في مثل قوله: {فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} [(١٩٣) سورة البقرة]، نجد أن هذا الإنسان له حق وله حد وله حرمة، فإن حصل منه تجاوز فإن ذلك الحق يسقط، وحرمة دمه إن كان قد أصاب دماً حراماً ترتفع، فيجوز أن ينال منه بقدر ما فعل، فبهذا الاعتبار يمكن أن يقال له: عدوان، لكنه عدوان بحق.

قوله: {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} [(٤٠) سورة الشورى]، السيئة إنما سميت سيئة؛ لأنها تسوء صاحبها، هي مما يُستاء منه، فمن أساء لقي ما يسوءه، وليس معنى ذلك أن من صدر منه عقوبة للمسيء فإن ذلك يكون سيئة في حظه وميزانه عند الله -عز وجل-، فليس هذا هو المراد، ولكن المراد أن هذا الفعل الذي صدر منه بالنسبة إلى ذلك المعاقب يعتبر سيئة، أي أنه يسوء ذلك المعتدي، والله أعلم.

"ولهذا قال عكرمة وقتادة: الظالم الذي أبى أن يقول: لا إله إلا الله، وروى البخاري تحت قوله: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ} [(١٩٣) سورة البقرة] الآية.."

هذا يمكن أن يكون وجهاً ثالثاً، فالأول: لا عدوان إلا على من اعتدى على هؤلاء الذين كفوا عن الكفر، والثاني: {فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} [(١٩٣) سورة البقرة] أي: لا عدوان إلا على من حصل تجاوز منهم وظلم، والثالث: {فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} [(١٩٣) سورة البقرة] أي إلا على الكافرين، فهؤلاء قد تركوا الكفر فإذن قتالهم ليس عدواناً عليهم؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام))[7].

"عن نافع عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنه- قال: أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا:.."

بعض العلماء يسمونها فتنة ابن الزبير، ونجد هذا أيضاً في كلام ابن كثير وجماعة، وهم يقولون: فتنة ابن الزبير مع أن ابن الزبير صارت له الحجاز والعراق وخراسان ومصر، ولم يبق لبني أمية إلا الشام فقط، حتى إنه لما مات يزيد جاء قائد الجيش الذي كان يحاصر ابن الزبير في مكة من أهل الشام واسمه إبراهيم وذلك قبل الحجاج، جاء وطلب ابن الزبير وجلس معه، وقال له: معي وجوه الناس وأشرافهم، لا يختلف عليك رجل واحد منهم وأنت أحق بهذا الأمر، لكنه طلب منه أمراً وهو أن يعاهدهم على العفو ولا يحصل قتل لأحد ولا أخذ لأحد منهم، وإن كانوا قد حاصروا الكعبة ووضعوا المنجنيق على جبل أبي قبيس، وتخرقت الكعبة، فالمقصود أنه طلب منه أن يكف عنهم على أن يبايع له أهل الشام الذين بقوا فقط، فأبى ابن الزبير أن يعطيه شيئاً، فغضب الرجل وتكلم بكلام لا يليق في حق ابن الزبير وذهب، ثم إن مروان أيضاً كان يرى أن ابن الزبير أحق منه بمسافة، فليس هناك مقارنة بين مروان وبين ابن الزبير، وأراد أن يخرج من دمشق ويترك الأمر لابن الزبير فهو أحق منه بهذا، فجاء بعض من كلمه وأغراه أن يأخذ الخلافة فرجع، ولم يمكث طويلاً حتى مات، ثم جاء عبد الملك وحصل ما حصل.

---

[7] - سبق تخريجه.

"عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنه- قال: أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير، فقالا: إن الناس قد ضيعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبي -صلى الله عليه وسلم-."

هم يسمونها فتنة ابن الزبير؛ لأن الأمر لم يستقر له.

"فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أن الله حرم دم أخي، قالا: أولم يقل الله: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ} [(١٩٣) سورة البقرة]، فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله."

أي أنه كان يقول له: يا ابن عمر إن الناس يتقاتلون وتوجد مفاسد عظيمة حيث إن الأمة تفرقت وكذا، وكذا وأنت أحق الناس بالخلافة ممن جعلهم عمر -رضي الله عنه- بعده، وهو فعلاً كان بمنزلة يستحق معها الخلافة بعد أبيه، فهو في مقياس عمر، ومع ذلك لما تأخر الزمان وحصل ما حصل كانوا يقولون له: هذا وقتك، أنت أحق بهذا الأمر، والله يقول: **{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ}** [(١٩٣) سورة البقرة]، والآن الأمة تعيش في فتنة تمزق، ولا يوجد أحد يدانيك فأبى ذلك.

"وزاد عثمان بن صالح: أن رجلاً أتى ابن عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن ما حملك على أن تحج عاماً وتعتمر عاماً وتترك الجهاد في سبيل الله -عز وجل- وقد علمت ما رغب الله فيه؟ فقال: "يا ابن أخي بني الإسلام على خمس الإيمان بالله ورسوله والصلوات الخمس وصيام رمضان وأداء الزكاة وحج البيت"، قالوا: يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ} [(٩) سورة الحجرات]، {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ} [(١٩٣) سورة البقرة]، قال: فعلنا على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكان الإسلام قليلاً، فكان الرجل يفتن في دينه إما قتلوه أو عذبوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال: أما عثمان فكان الله عفا عنه، وأما أنتم فكرهتم أن يعفوا عنه، وأما علي فابن عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وختنه، وأشار بيده فقال: هذا بيته حيث ترون."

قوله: **أما عثمان فكان الله عفا عنه**، أي عفا عنه الله حيث يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- عنه: ((ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم))[٨]، يعني بعدما جهز جيش العسرة.

وقوله: **وأما علي فابن عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وختنه**، يعني زوج ابنته.

وهذا الجواب الذي أجاب به ابن عمر جواب في غاية الاعتدال والصواب، فهؤلاء دخلوا في هذه المشكلات، فهم يريدون من الآخرين إما أن يكونوا معنا أو ضدنا، فكانوا يمتحنون الناس بهؤلاء الأشخاص، فابن عمر قال: هؤلاء كلهم من أهل الفضل والصلاح والخير والإمامة في الدين، ولا نقول فيهم إلا خيراً، أي أنه لا يلزمنا إذا أحببنا هذا أن نعادي الآخر، ولكن النفوس إذا تصحرت واعتلجت الفتنة في قلوب الكثيرين لا يحتملون هذا ولا يفهمونه، فتجد الواحد منهم إما أن يحب هذا حباً غالياً ويبغض الآخر بغضاً متناهياً أو العكس، ولذلك تجد أن مثل هؤلاء يقع منهم السب والشتم واللعن، بل ربما وصل الأمر إلى حد الرمي بالكفر،

---

[8] - أخرجه الترمذي في كتاب المناقب - باب في مناقب عثمان بن عفان -رضي الله عنه- (٣٧٠١) (ج ٥ / ص ٦٢٦) وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٢٩٢٠).

فالخوارج كفروا علياً وكفروا أهل الشام، وكثير من أهل الشام كانوا يلعنون علياً –رضي الله عنه– ومن معه من جيش أهل العراق ويدعون عليهم في القنوت، وأهل الشام وأهل العراق كانوا أيضاً يقنتون على الطائفة الأخرى، ووجدت فرقة جديدة أيضاً غير الخوارج والشيعة، وهذه الفرقة هي أقرب ما تكون بالفرقة السياسية وهي الناصبة، وهذه الفرقة انتهت بذهاب دولة بني أمية.

فالمقصود أن مثل هذه الردود والأجوبة كجواب ابن عمر –رضي الله عنه– هي التي تكون لأهل الدين والتجرد من الهوى ممن لم ينغمس في فتنة.

"وقوله تعالى: {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [(١٩٤) سورة البقرة]، قال عكرمة عن ابن عباس والضحاك والسدي وقتادة ومقسم والربيع بن أنس وعطاء وغيرهم لما سار رسول الله –صلى الله عليه وسلم– معتمراً في سنة ست من الهجرة، وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت، وصدوه بمن معه من المسلمين في ذي القعدة وهو شهر حرام حتى قاضاهم على الدخول من قابل، فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين وأقصه الله منهم فنزلت في ذلك هذه الآية: {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ} [(١٩٤) سورة البقرة]."

معناها بهذا الاعتبار أنهم منعوا النبي –صلى الله عليه وسلم– من دخولها في ذي القعدة، وهو شهر حرام، فدخلها النبي –صلى الله عليه وسلم– في ذي القعدة من السنة التي بعدها معتمراً –عليه الصلاة والسلام–.

وقوله تعالى: **{وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ}** [(١٩٤) سورة البقرة]، الحرمات: جمع حرمة، وهي كل ما حرم الشارع انتهاكه.

"وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: "لم يكن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزى وتغزوا، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ". هذا إسناد صحيح."

يعني أنه لم يكن يبدأ بالغزو، فإذا دخل الشهر الحرام مكث في المدينة، لكنه إذا غزي فإنه لا يبقى متفرجاً، ومن المعلوم أن النبي –صلى الله عليه وسلم– لما فتح مكة عام الفتح في رمضان، تجمعت هوازن ومن معها، حتى جاءوا إلى وادي حنين بين مكة والطائف فخرج إليهم النبي –صلى الله عليه وسلم– في شوال، ووقع القتال والحصار لأهل الطائف في ذي القعدة، أي أن قتالهم كان في الشهر الحرام، ولكن من الذي بدأ ومن الذي جهز ومن الذي جيش الجيوش؟ الذين بدءوا هم أهل الطائف.

"ولهذا لما بلغ النبي –صلى الله عليه وسلم– وهو مخيم بالحديبية أن عثمان قتل وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين، بايع أصحابه وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة."

وهذا كان في شهر ذي القعدة، حيث إنه لما بعثه –صلى الله عليه وسلم– ليتفاوض مع المشركين جاءت إشاعة أن عثمان –رضي الله عنه– قد قتل، فبايع أصحابه، فبعضهم يقول: بايع على القتال وألا يفروا، وهذا عليه كثير من المحققين، قال تعالى: **{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ}** [(١٨) سورة الفتح]، فهم عزموا على قتال المشركين، رداً على هذا الإجرام والاعتداء وهو قتل السفراء، فالسفراء ما كانوا يقتلون لا في جاهلية ولا في إسلام، ولهذا قال النبي –صلى الله عليه وسلم– لوفد مسيلمة الكذاب: ((لولا أن

الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما))[9]، حيث قال وفد مسيلمة للنبي -صلى الله عليه وسلم-: إن مسيلمة يقول: أنا نبي وأنت نبي، والله خلق الأرض وجعلها نصفين، فجعل نصفها لك ونصفها لي، فغضب النبي -صلى الله عليه وسلم- من هؤلاء وقال لهم هذا القول: ((لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما)).

"وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كف عن ذلك وجنح إلى المسالمة والمصالحة، فكان ما كان.

وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين وتحصن فلُّهم بالطائف عدل إليها فحاصرها، ودخل ذو القعدة وهو محاصر لها بالمنجنيق، استمر عليها إلى كمال أربعين يوماً، كما ثبت في الصحيحين عن أنس -رضي الله تعالى عنه- فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها، ولم تفتح، ثم كرَّ راجعاً إلى مكة، واعتمر من الجعرَّانة حيث قسم غنائم حنين، وكانت عمرته هذه في ذي القعدة أيضاً عام ثمان -صلوات الله وسلامه عليه-.

وقوله تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [(١٩٤) سورة البقرة]**، أمرٌ بالعدل حتى في المشركين كما قال: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ}** [(١٢٦) سورة النحل]**.**

وقوله: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [(١٩٤) سورة البقرة] **أمرٌ لهم بطاعة الله وتقواه، وإخبار بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة."**

قال أهل العلم في قوله تعالى: **{وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ}**: لما صدَّ المشركون نبي الله -صلى الله عليه وسلم- عن البيت كان القصاص منهم وفق المعاهدة أن يدخلها في نفس الوقت بعد عام.

إلا أن ظاهر الآية أعم من ذلك، ويدل على ذلك قوله تعالى: **{فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}** [(١٩٤) سورة البقرة]، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

---

[9] - أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد - باب في الرسل (٢٧٦١) (ج ٢ / ص ٩٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٩٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٨٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

"قال الله تعالى: {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [(١٩٥) سورة البقرة]، روى البخاري عن حذيفة -رضي الله تعالى عنه-: {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}، قال: نزلت في النفقة، ورواه ابن أبي حاتم مثله."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}**، النفقة هنا أعم من أن تكون مختصة بالنفقة الواجبة التي هي الزكاة، فهو أمر عام بإخراج الأموال، ما كان ذلك الإخراج فيه على سبيل الوجوب كالزكاة، وما كان على سبيل التطوع.

قوله: **{فِي سَبِيلِ اللّهِ}**، سبيل الله إذا أطلق في القرآن فالأصل أن المراد به الجهاد وهذا هو الغالب، ومعلوم أن من مصارف الزكاة الجهاد في سبيل الله كما في سورة براءة: **{وَفِي سَبِيلِ اللّهِ}** [(٦٠) سورة التوبة]، فالأرجح من أقوال أهل العلم أن المراد به الجهاد خاصة.

وقوله: **{وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}**، العرب تقول للمستسلم: أعطى فلان بيديه، يعني استسلم، وتقول لمن استجاب وخضع لما يطلب منه: أعطى بيديه، فالعرب تعبر باليدين عن الاستسلام والانقياد التام من غير معارضة ولا مقاومة.

فقوله: **{وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}** [(١٩٥) سورة البقرة] يعني لا تستسلموا للهلكة.

وأحسن ما فسرت به هذه الآية: **{وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}** [(١٩٥) سورة البقرة] ما جاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ما خلاصته ومحصلته: أنكم إذا تركتم النفقة في الجهاد قوي عدوكم وكان من نتيجة ذلك أن تسلَّط عليكم وقهركم، وأخذ ما بأيديكم، وقتل من قتل منكم وانتهك الأعراض، وفعل فعله فيكم، فهذا معنًى يدخل في الآية دخولاً أولياً أصلياً.

ويدخل في معنى الآية أيضا ما ذكره طوائف من السلف من أن تركهم للإنفاق في سبيل الله -عز وجل- الذي أمرهم الله به هو لون من إلقاء النفس في التهلكة، وهذا المعنى معنًى ظاهر يدخل في الآية أيضاً بلا شك، فترك أمر الله -عز وجل-، والإعراض عنه من إلقاء النفس في التهلكة.

ويدخل في عموم اللفظ في قوله: **{وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}** كل طريق وسبيل يفضي بالإنسان إلى التهلكة، أي لا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة، ولا تلقوا بأيديكم، ولا تلقوا بأرواحكم، فمن سلك طريقاً مخوفة من غير موجب يقال له: لا تلق بيديك إلى التهلكة، ومن سافر سفراً طويلاً بعيداً يحتاج معه إلى الزاد فذهب من غير زاد وليس في طريقه ما يجد فيه حاجته، فإنه يقال: ألقى بيده إلى التهلكة، ومن تعاطى شيئاً من الأمور

الضارة فإنه يكون قد ألقى بيديه إلى التهلكة، ومن عرَّض نفسه للأخطار من غير موجب يقال: ألقى بيده إلى التهلكة، وهكذا كل ما يفضي بالإنسان إلى الهلكة من غير موجب، فإن ذلك يدخل تحت عموم هذه الآية.

"قال روي عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنه– ومجاهد وعكرمة وسعيد ين جبير وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان نحو ذلك.

وقال الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران قال: حمل رجلٌ من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ومعنا أبو أيوب الأنصاري –رضي الله تعالى عنه– فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية."

يعني أن هذا الرجل حينما دخل في صف العدو لوحده، أو إذا خرج إلى العدو من غير درع، قالوا عنه: ألقى بيده إلى التهلكة، فهل هذا هو المراد؟

يقال: الجواب لا؛ لأنه يجوز للإنسان في الجهاد أن يخرج من غير درع، ويجوز له أن يحمل على العدو لوحده ولو كان المظنون غالباً أنه يقتل إذا كان لا يتحمل تبعة ذلك غيره من المسلمين بحيث يعود عليهم بالضرر، أما إذا كان تصرفه يفضي إلى ضرر يتحمله غيره فيقال له: لا وألف لا؛ لأنه يسع الإنسان في نفسه ما لا يسعه في غيره، وهذه قاعدة مهمة، فالإنسان يمكن أن يحمل نفسه على أمور من الورع، أو أمور تتصل بالجهاد أو نحو ذلك من الأمور التي فيها لون من المخاطرة بالنفس، لكن لا يتحمل تبعة هذا غيره، ولذلك عمر –رضي الله تعالى عنه– لم يكن يولي البراء بن مالك –رضي الله تعالى عنه– مع أنه من خيار الصحابة؛ وذلك لفرط جراءته، ففي يوم اليمامة كما هو معلوم طلب من الصحابة أن يجعلوه على ترس، ويرفع على أسنة الرماح الطوال، ثم ألقوه في حديقة الموت في حصن أهل اليمامة، فنزل عليهم يضربهم بالسيف حتى فتح الباب، فهذا الأمر يمكن أن يفعله رجل واحد، وإن كان المتوقع غالباً أنه يموت، لكن لا يقدم على هذا إنسان يقود مجموعة من الجيش، ويحملهم على هذه الأمور بهذه الطريقة فيفضي بهم ذلك إلى هلكة وموت غالب، فهو يسعه في نفسه ما لا يسعه في غيره، وهذا إذا كان قتله بيد العدو، وهو بخلاف ما إذا كان موته بيده هو، فهذه قضية ثانية.

"فقال أبو أيوب: "نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا، صحبنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار نجيًّا فقلنا:..."

نجيًّا: يعني في حال نجوى، أي نتناجى، أي أنهم انفردوا عن غيرهم، فالنجوى: كل حديث تنفرد به طائفة عن غيرها وهذه الطائفة اثنان فأكثر.

"فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه –صلى الله عليه وسلم– ونصره، حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما، فنزل فينا {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [(١٩٥) سورة البقرة] فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد". رواه أبو داود والترمذي والنسائي وعبد بن حميد في تفسيره، وابن أبي حاتم، وان جرير وابن مردويه والحافظ أبو يعلى في مسنده، وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، وقال الحاكم: على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ولفظ أبي داود: عن أسلم أبي عمران: كنا بالقسطنطينية وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى أهل الشام رجل يريد فضالة بن عبيد فخرج من المدينة صف عظيم من الروم فصففنا لهم، فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم، ثم خرج إلينا فصاح الناس إليه، فقالوا: سبحان الله، ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: يا أيها الناس إنكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه، وكثر ناصروه قلنا فيما بيننا: لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها، فأنزل الله هذه الآية."

قوله: **قلنا فيما بيننا**، هذه هي النجوى، وقوله: **فأنزل الله هذه الآية**، هذا من قبيل سبب النزول الصريح الذي عرفناه في درس ماضٍ، وذلك بأن يذكر واقعة أو سؤالا ثم يقول بعده: فأنزل الله، وهذا بخلاف ما لو قال كما في الرواية السابقة: إنما نزلت فينا معشر الأنصار، فهذه الرواية غير صريحة، وإنما المعنى أننا ممن يدخل في معناها، لكن في هذه الرواية قال في آخرها: فنزل فينا، فهذا مثال على أحد أنواعه، وهو ما جمع فيه بين الصيغتين، ففي أول الحديث غير صريح، وفي آخره جاء ذلك صريحاً حيث قال: فنزلت الآية، ولهذا فإن أهل العلم تكلموا في هذا النوع وهو فيما إذا قال: هذه الآية نزلت في كذا، هل له حكم الرفع أم ليس له حكم الرفع؟

كثير من أهل العلم يقولون: ليس له حكم الرفع؛ لأنه متردد، فهو يحتمل أن يكون من قبيل التفسير، كما في مثل قول ابن عمر –رضي الله عنهما– لما رآهم يغلقون حوانيتهم للصلاة قال: في هؤلاء نزلت: **{رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ}** [(٣٧) سورة النــــور] وكان هذا بعد وفاة النبي –صلى الله عليه وسلم– بمدة طويلة، فلا يمكن أن تكون نزلت هذه الآية في هؤلاء الذين أغلقوا الحوانيت، وإنما يقصد أن هؤلاء ممن يدخلون في معناها، أي في عمومها، والمقصود أن هذا اللفظ محتمل، فأحياناً يقصد به سبب النزول وأحياناً لا يقصد ذلك، ولذلك لا يحكم عليه بأنه من قبيل المرفوع إلا ما كان صريحاً، فهذا المثال –الرواية السابقة– هي مثال واضح على أن ذلك تارة يراد به هذا وتارة يراد به هذا، وهي مثال على ما اجتمع فيها الصيغتان.

والخلاصة هي أن هذه الرواية في قوله: **{وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}** [(١٩٥) سورة البقرة] نزلت في الرجل الذي أغار على الروم لوحده أو دخل في صفهم، وهي تدل على أنهم كانوا يفهمون من عموم الآية أنه إذا اقتحم الإنسان طريقاً يغلب فيه عليه الهلاك فهو مقصود بالآية، لكن في هذا المثال المعين كان الحكم غير صحيح؛ لأن هذا الفعل كما قلت آنفاً فيه قربة وطاعة وجهاد وهو إنما اقتحم بنفسه ولم يحمل غيره على هذا الاقتحام، فيسعه في نفسه ما لا يسعه في غيره من العمل المشروع في أصله لا الأمر غير المشروع.

صور من إلقاء النفس في التهلكة:

تقرأ في الأخبار –في الإنترنت مثلاً– أن رجلاً ذهب ليجاهد في العراق ثم دخل بين الرافضة في يوم عاشوراء وفجر نفسه، هل هذا جهاد؟

هذا إلقاء بالنفس في التهلكة، وهو من أسوأ الأعمال؛ حيث يترك أهله ويسافر، ثم هذه نهايتها، لكن الجاهل يفعل بنفسه ما لا يفعله به عدوه نسأل الله العافية.

كيف تكون نهاية الإنسان بهذه الطريقة؟ ومن الذي حمله على هذا؟ ومن الذي زين له هذا العمل، ومن الذي قال له: إن عملك هذا جهاد، وإن عملك هذا مشروع؟.

قد عدَّ نفسه أنه على خير وطاعة وقربة، والحقيقة أن من يفعل هذا يقال له: ليتك ثم ليتك ما ذهبت ولا جاهدت.

"وقال أبو بكر بن عياش عن أبي إسحاق السبيعي قال: قال رجل للبراء بن عازب -رضي الله تعالى عنه-: "إن حملت على العدو وحدي فقتلوني أكنت ألقيت بيدي إلى التهلكة؟" قال: "لا، قال الله لرسوله: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ} [(٨٤) سورة النساء] **وإنما هذه في النفقة" رواه ابن مردويه، وأخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ورواه الثوري وقيس بن الربيع عن أبي إسحاق عن البراء، فذكره وقال بعد قوله: لا تكلف إلا نفسك، ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقي بيده إلى التهلكة ولا يتوب."**

من الصور التي تدخل في إلقاء النفس في التهلكة أن يتقحم الإنسان الذنوب ومعصية الله -عز وجل- ويستمر على ذلك.

وقل مثل ذلك في الأمور الأخرى التي أشرت إليها آنفاً، كأن يركب الإنسان الأخطار من غير موجب، فيسافر من غير زاد، وهو يعلم أنه لن يجد في طريقه ذلك، فهذا يكون ألقى بيده إلى التهلكة، وهكذا في كل ما يتصور في هذا من غير موجب.

وهذه الآثار التي تذكر هنا يستدل بها عادة من يقول بجواز ما يسمى بالأعمال الانتحارية، وليس الأمر كذلك فيما أظن؛ لأن الذين ذكروا في هذه الآثار التي استُدل بها إنما قتلوا على يد عدوهم وليس على أيديهم هم.

"وقال عطاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [(١٩٥) سورة البقرة] **قال: ليس ذلك في القتال إنما هو في النفقة أن تمسك بيدك عن النفقة في سبيل الله، ولا تلق بيدك إلى التهلكة."**

القتال من الممكن أن يكون فيه تهلكة وذلك أنه لو حمل قائد الجيش جيشه على ارتكاب المهالك والأخطار العظيمة التي تفضي بهم إلى الهلكة غالباً، وإنما قوله هنا: **ليس ذلك في القتال:** يعني على ما فهمه هؤلاء من أن هذا الإنسان الذين اقتحم في صف العدو وحده ليس هو المراد وإنما المراد ترك النفقة في الجهاد في سبيل الله، فإن ذلك إلقاء باليد إلى التهلكة، ويوضحه قول ابن عباس -رضي الله عنهما- الذي سبق ذكره وهو قوله: "إذا تركتم النفقة في الجهاد قوي عدوكم وكان من نتيجة ذلك أن تسلّط عليكم وقهركم، وأخذ ما بأيديكم، وقتل من قتل منكم وانتهك الأعراض، وفعل فعله فيكم".

"ومضمون الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر القربات ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء وبذلها فيما يقوى المسلمون على عدوهم، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده.

ثم عطف بالأمر بالإحسان وهو أعلى مقامات الطاعة فقال: {وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [(١٩٥) سورة البقرة]**."**

أمرهم الله بقوله: **{وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}** ثم أمرهم بالإحسان عموماً فقال: **{وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}** [(١٩٥) سورة البقرة] وذلك لا يختص بوجه دون وجه، ولذلك حمله ابن

جرير على أوسع معانيه، فقال: أحسنوا بأداء فرائضي واجتناب النواهي والإنفاق في سبيل الله، وبعض أهل العلم يقول: **{وَأَحْسِنُوَاْ}** أي: أحسنوا ظنكم بالله في إخلافه عليكم وعائدته عليكم بهذه النفقة التي أنفقتموها كي لا تضيع، لكن هذا المعنى بعيد، فالأصل في مثل هذا حيث يحذف المتعلق أنه يحمل على أعم معانيه، فهو قال: **{وَأَحْسِنُوَاْ}** ولم يقل: ظنكم ولا يوجد في السياق ما يدل عليه، لكن بعض المفسرين لما نظروا إلى قوله: **{وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ}**، قالوا: هذا إحسان بالمال، ثم قال ثانياً: **{وَأَحْسِنُوَاْ}**، فقالوا: هذا الإحسان إذاً إحسان الظن، وليس ذلك بلازم، وإنما يقال: إن قوله: **{وَأَحْسِنُوَاْ}** أي إضافة إلى إحسانكم السابق بالإنفاق في سبيل الله الذي أمرهم به، فيدخل فيه النفقة، ويدخل فيه سائر وجوه الإحسان القولية والفعلية والمالية، فيحمل على عموم معناه، حيث لم يخصص معنًى دون معنى، وهكذا التهلكة تحمل على أعم المعاني وإن كان يدخل فيها ما سبق دخولاً أولياً، وهو سبب نزول الآية.

وفي الأصول –أصول الفقه– أن الأفراد الداخلة تحت العموم ثلاثة أنواع من حيث القوة، ومنها:

الأول: صورة السبب –سبب النزول– فهي تدخل دخولاً أولياً تحت العام، فالعام هنا مثلاً قوله: **{وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}** [(١٩٥) سورة البقرة] فكل صورة من صور التهلكة داخلة فيه، والتي نزلت بسببها الآية هي ترك النفقة في سبيل الله، وهذا بعض أفراد العام، فالتهلكة يدخل فيها ترك النفقة في سبيل الله، ويدخل فيها إنسان يربط الحبل في عنقه، ويدخل فيها أن يرقى إنسان جبلاً شاهقاً، أو عمارة عالية من غير موجب، أو تكون هوايته تسلق الحبل المربوط بين عمارتين ونحو ذلك من صور التهلكة، فهؤلاء جميعاً يقال لهم: **{وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}**، لكن ترك النفقة في سبيل الله هي صورة سبب النزول فهي أقوى صورة داخلة من أفراد العام في هذا المعنى.

النوع الثاني الذي يلي الصورة الأولى في الدرجة وفي قوة الدخول في العام هو ما يسمى بالتخصيص بالمجاورة، أي المجاور لسبب النزول، أي علاقة المناسبة بين الآيات، ومثال ذلك قوله –تبارك وتعالى–: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}** [(٥١) سورة النساء]، فالمقصود بذلك هم اليهود لما ذهبوا إلى قريش وحرضوهم على قتال النبي –صلى الله عليه وسلم–، وسألهم المشركون أيُّنا أهدى؟ فقالوا: أنتم أهدى من محمد، وسجدوا لآلهة المشركين إلى آخر القصة المعروفة، وهي كانت بعد غزوة أحد، وقد نزلت مجموعة من الآيات بسبب هذه القضية في سورة النساء، وبعد هذه القضية يقول تعالى: **{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا}** [(٥٨) سورة النساء]، وهذه ليس لها علاقة بهذه القضية فهي نزلت عام الفتح، ويذكرون فيها سبب نزول جاء في رواية فيها ضعف وذلك في قصة مفاتيح الكعبة، إلا أن قوله: **{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ}** [(٥٨) سورة النساء] يدخل فيها جميع أنواع الأمانات، من أمانة الكلمة والشهادة بالحق، وإذا أخذت من الإنسان شيئاً يجب أن ترجعه إليه، ويدخل في ذلك دخولاً صورة سبب النزول –إن صحت– وهي إرجاع مفاتيح الكعبة لأصحابها ويدخل في ذلك أنك إذا أخذت من الإنسان شيئاً ترجعه إليه، ويلي ذلك في القوة ما جاوره مع أنه لم ينزل معه وهو ما ذكر في المقطع الذي قبله أي شهادة اليهود التي كتموها، وذلك أنهم قالوا: أنتم أهدى من محمد، فالشهادة بالحق تدخل تحت أفراد العام، ويدخل فيه سائر أفراد العام مثل لو أن إنساناً استكتمك على شيء فعليك كتمه، إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة التي

تدخل في هذا الموضوع، ومثل هذا قوله: {وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [(١٩٥) سورة البقرة] فهو يحمل على معناه الأعم في الإحسان، فتدخل فيه النفقة في سبيل الله، ويدخل فيه التصدق على الفقراء، والإحسان إلى الأقارب، ويدخل فيه الإحسان بالقول والكلام كما قال تعالى: {وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} [(٨٣) سورة البقرة]، ويدخل فيه الإحسان بالفعل وإعانة المحتاج ومواساة المريض إلى غير ذلك.

"وقول الله تعالى: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(١٩٦) سورة البقرة] لما ذكر تعالى أحكام الصيام، وعطف بذكر الجهاد شرع في بيان المناسك فأمر بإتمام الحج والعمرة"

هذا الكلام يسمى المناسبة بين الآيات، أو وجه الارتباط بين الآيات.

ما المراد بإتمام الحج والعمرة في قوله: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ}؟

من أهل العلم من يقول: إن المراد بذلك أن يأتي بهما من غير إخلال ولا شائبة، ولا تحمله العجلة على أن ينقص منها أو يضيع أحكام الله -عز وجل- التي فيها أو يتجاوز حدوده التي حدها، أو يرتكب محظورات الإحرام أو نحو ذلك، فهذا نقص في الحج وقد يفضي به أحياناً إلى بطلانه كالجماع.

وبعضهم يقول: الإتمام هو أن يخرج لهما لا لغيرهما، وهؤلاء نظروا إلى لفظة الإتمام بمعنى الإكمال، لكن الله -عز وجل- يقول: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} [(١٩٨) سورة البقرة] وهي التجارة في الحج، ولا شك أن من خرج وهو يريد الحج فحسب هو أتم وأكمل منزلة وحالاً ممن كانت نيته مشتركة بأمر يجوز الالتفات إليه يحصل على سبيل التبع، فهذا يجوز ويصح حجه، لكن مرتبة الأول أعلى، فهم نظروا إلى لفظة الإتمام، فعبر كل واحد بمثل هذه العبارات.

وبعضهم نظر إلى الإتمام فقال: أن تحرم بهما من دويرة أهلك، وقال: هذا أكمل، والحقيقة أن الإحرام من دويرة أهله أصلاً غير مشروع، وإنما يحرم الإنسان من الميقات، وقصة الرجل الذي سأل الإمام مالك معروفة، فمع أن أبعد المواقيت ميقات المدينة ومع ذلك لما قال له: أريد أن أحرم من المسجد، قال: إني أخشى عليك الفتنة، فقال: وأي فتنة؟ فقال: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(٦٣) سورة النـــــور] وبين له أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- أحرم من ذي الحليفة، فمع أن ذا الحليفة قريب جداً، فهو يعتبر في طرف المدينة، ومع ذلك فالأصل الاتباع لا القرب والبعد، لكن هناك فرق بين لبس الإحرام في البيت وبين نية النسك، فلبس ثياب الإحرام في البيت ليس بإحرام، وإنما المقصود بالإحرام الإهلال بالنسك أو نية الدخول فيه، وعلى كل حال فهذا القول الذي ذكروه فيه إشكال.

وبعضهم نظر إلى أن الكمال والإتمام هو أن يأتي بالحجة مستقلة في سفرة، والعمرة مستقلة في سفرة، وهذا لا شك أن من فعله ممن لا يتأتى منه حج ولا عمرة سوى هذه في العام هو أكمل ممن جاء إليهما في سفرة

واحدة، وهذا مراد شيخ الإسلام -رحمه الله- حينما قال: إن الإفراد أفضل، فهو يقصد هذا المعنى لا ما فهمه كثير من طلبة العلم.

صور مراتب الكمال في مناسك الحج الثلاثة:

القسمة العقلية التي تبين مراتب الكمال للأنساك الثلاثة في الحج كما يأتي:

المرتبة الأولى: وهي أعلى مرتبة، وذلك أن يأتي إنسان فيقول: أنا أعتمر في رمضان، وأعتمر في الصيف، وأعتمر في الفصل الدراسي الأول، وأعتمر في الفصل الدراسي الثاني، فما هو الأفضل في الحج الإفراد أم التمتع أم القران؟

يقال له: الأكمل والأفضل لك أن تحج متمتعاً، فإن لم يكن فقارناً، وذلك أنه بدلاً من أن يكون لك أربع عُمَر في السنة، صار عندك خمس عمر.

المرتبة الثانية: أن يأتي إنسان آخر فيقول: أنا ليس بإمكاني أن أعتمر في السنة إلا عمرة واحدة وحجة واحدة، فهل آتي بهما في سفرة واحدة أم أجعل العمرة في سفرة وحدها والحجة في سفرة وحدها؟ فهذا نقول له: الأكمل أن تؤدي العمرة في سفرة مستقلة عن سفرة الحج، فيكون الإفراد في هذه الصورة أكمل من أن يتمتع بالعمرة إلى الحج في سفرة واحدة، وهذا الذي قصده عمر -رضي الله عنه- حينما نهى الناس عن المتعة، فهو أراد ألا يُهجر البيت بحيث لا يأتيه الناس إلا في مرة واحدة للحج والعمرة معاً ويبقى أثناء السنة لا يأتيه أحد.

المرتبة الثالثة في الكمال: هي أن يأتي إنسان يأتي في السنة مرة واحدة للحج والعمرة معاً.

المرتبة الرابعة، وهو ذلك الإنسان الذي يأتي في السنة مرة واحدة فقط وبحجة إفراد.

فبعض الناس فهم كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- على أنه يقصد هذا بقوله: إن الإفراد أفضل، وهو إنما يقصد أن يأتي بالحجة في سفرة وبالعمرة في سفرة أخرى.

أما من كان يتردد أثناء السنة فالبيت معمور بأمثال هؤلاء، فمثل هذا يقال له: إذا جئت في الحج فتعال بحج وعمرة، فهذا من باب الزيادة والفضل، فالتمتع أفضل بكثير من الإفراد والقران.

والمقصود من هذا الكلام كله أنهم نظروا إلى لفظ "الإتمام" ففسرها كل واحد بما يحتملها لفظ "الإتمام".

وبعضهم قال: إن كمالها يكون بالإنفاق الطيب، وهذا كله لا شك أنه من الكمال، ولكن المعنى المتبادر هنا هو أن الحج والعمرة ليستا كغيرهما، فلابد من إكمالهما، فمن أحرم فيهما حتى ولو لم يكن إحرامه واجباً ابتداءً فإنه إذا شرع وأحرم فيجب عليه الإتمام.

والعلماء يتكلمون في مسألة العبادات غير الواجبة إذا شرع فيها العبد كصلاة النافلة أو صيام التطوع أو الاعتكاف أو نحو ذلك، هل يجوز له أن يقطعه؟

الراجح أنه يجوز للمتطوع في كل الأعمال الصالحة أن يقطعها من غير حرج، ولا يطالب بالبدل، خلافاً لمن قال: إن عليه أن يكمل، أو قال: عليه البدل لقوله تعالى: **{وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}** [(٣٣) سورة محمد]، فإنه ليس هذا هو المراد، وإنما المراد لا تبطلوها بالمن والأذى والرياء، وبعض أهل العلم يخص بعض العبادات، يقول: يجوز فيها الإكمال، كما في المراقي:

صـــــلاتنا وصـــــومنا وحجنــــا	وعمـــرة لنــــا كـــذا اعتكافنــــا
طوافنــــا مــــع ائتمــــام المقتــــدي	فيلــــزم القــــضاء بقطــــع عامــــد

فالمالكية يرون أنه من الأمور التي يلزم إتمامها إذا شرع فيها ما ذكر في هاتين البيتين وهي الصلاة والصيام والحج والعمرة وكذا المأموم إذا اقتدى بإمامه، فهؤلاء جميعاً على مذهب المالكية يلزمهم القضاء إذا قطعوا هذه العبادات عمداً.

والصحيح أنه لا يلزم ذلك إلا في الحج والعمرة لقوله تعالى: **{وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ}** [(١٩٦) سورة البقرة].

وهذه الآية يُستدل بها على وجوب العمرة، وقد جاءت أدلة أخرى من السنة تدل على أن العمرة واجبة على الراجح مرة في العمر كالحج، وبالنسبة للاستدلال على هذا من الآية فإنه مبني على أصل مختلف فيه وهو هل الأمر بالإتمام أمر بالابتداء أو لا؟ فبعضهم قال: إن الأمر بالإتمام أمر بالابتداء، يعني لزوماً أو ضمناً وليس صراحة مطابقة، وعلى كل حال فإن من قال بهذا قال: إن الآية تدل عليه.

وبعضهم لم يأخذ وجوب الابتداء بالنسبة للحج من هذه الآية وإنما أخذه من قوله تعالى: **{وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً}** [(٩٧) سورة آل عمران].

وإذا أرادوا أن يستدلوا به على العمرة فإنهم يربطون معه أحاديث وأدلة أخرى مثل قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة))[1]، ومنها قوله -عليه الصلاة والسلام-: ((وتحج وتعتمر))[2]، إلى غير ذلك من الأدلة التي يستدلون بها، كما أنه يقال للعمرة: حج أصغر.

وعلى كل حال ليس حديثنا هنا على هذا الأمر، لكن يشار إشارة إلى الأحكام؛ لأن ابن كثير من منهجه الإشارة إليها، والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

---

[1] - أخرجه أبو داود في كتاب المناسك – باب إفراد الحج (١٧٩٢) (ج ٢ / ص ٩٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٣٧٣).

[2] - أخرجه الدارقطني (ج ٢ / ص ٢٨٢) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير(٨٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما، ولهذا قال بعده: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ} [(١٩٦) سورة البقرة] أي صُددتم عن الوصول إلى البيت، ومُنعتم من إتمامهما، ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع في الحج والعمرة ملزم.

وقال مكحول: إتمامهما إنشاؤهما جميعاً من الميقات، وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن الزهري قال: بلغنا أن عمر -رضي الله تعالى عنه- قال في قول الله: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ} [(١٩٦) سورة البقرة]: من تمامهما أن تفرد كل واحد منهما من الآخر، وأن تعتمر في غير أشهر الحج؛ إن الله تعالى يقول: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} [(١٩٧) سورة البقرة].

وقال السدي في قوله: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ} [(١٩٦) سورة البقرة]: أي أقيموا الحج والعمرة، وقال قتادة عن زرارة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-، أنه قال: الحج عرفة والعمرة الطواف.

وكذا روى الأعمش عن إبراهيم عن علقمة في قوله: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ} [(١٩٦) سورة البقرة]، قال: قراءة عبد الله، وأتموا الحج والعمرة إلى البيت لا يجاوز بالعمرة البيت، قال إبراهيم: فذكرت ذلك لسعيد بن جبير فقال: كذلك قال ابن عباس.

وقال سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة: أنه قال: وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت، وكذا روى الثوري أيضاً عن إبراهيم عن منصور عن إبراهيم أنه قرأ: وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فسبق الكلام على أول هذه الآية، وأن أرجح الأقوال في المراد بالإتمام: هو أن يكمل أعمال الحج والعمرة إذا دخل في واحد منهما؛ وذلك أن الإنسان لا يسعه بحال من الأحوال أن يرفض الإحرام، إلا إذا أحصر فقد جعل الله -عز وجل- له مخرجاً، ولهذا قال: **{فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}** [(١٩٦) سورة البقرة]، فذلك قاطع للإتمام الذي أمر الله -عز وجل- به.

وعبارة من قال: إن الحج عرفة وبإتمامه يتم الحج، وإن العمرة لله والعمرة الطواف بالبيت، فذلك باعتبار أن العمرة لا يجاوز بها البيت، بحيث إنه لا يطلب أن يأتي الجمار إلى منى أو إلى مزدلفة أو إلى عرفة أو نحو ذلك، وأما الحج فإن ركنه الأكبر هو الوقوف بعرفة، هذا هو معنى قول من قال: إن الحج عرفة والعمرة الطواف، وليس معنى ذلك أنه إذا طاف فإنه قد أتى بما طلب منه وأتم العمرة، ولكن الطواف هو أصل في العمرة، والعلماء يختلفون في السعي كما هو معروف ما لا يختلفون في الطواف، فإذا جاء البيت وطاف به فإن ذلك قد حصل به معنى الزيارة التي أخذ منها اسم العمرة التي هي الزيارة لبيت الله على وجه القربة والنسك على وجه مخصوص، ثم عليه أن يطوف وأن يقصر أو يحلق.

وكذلك في الحج فإنه إذا وقف بعرفة فليس معنى ذلك أن هذا منتهاه، بل بقي عليه المزدلفة والجمار والبقاء في منى، إلى غير ذلك من طواف الإفاضة الذي هو ركن من أركان الحج، وكذلك السعي إن كان لم يسعَ سعي الحج.

"وقوله تعالى: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [(١٩٦) سورة البقرة]، ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست، أي: عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبين الوصول إلى البيت وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكمالها، وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدي، وكان سبعين بدنة، وأن يحلقوا رءوسهم وأن يتحللوا من إحرامهم، فعند ذلك أمرهم -عليه السلام- بأن يحلقوا رءوسهم ويتحللوا فلم يفعلوا انتظاراً للنسخ، حتى خرج فحلق رأسه ففعل الناس، وكان منهم من قصر رأسه ولم يحلقه، فلذلك قال -صلى الله عليه وسلم-: ((رحم الله المحلقين)) قالوا: والمقصرين يا رسول الله، فقال في الثالثة: ((والمقصرين))[1]".

الذين تأخروا وتباطئوا في الحلق لم يكن تباطؤهم ذلك اعتراضاً منهم على حكم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وإنما كما ذكر المؤلف هنا حيث قال: **انتظاراً للنسخ**، وإلا فهؤلاء هم خيار الناس، وهم أعظم مبادرة إلى امتثال أمر الله وأمر رسوله -صلى الله عليه وسلم- لكن المراد أنهم كانوا يؤمّلون بهذه المراجعة والتأخر أن يحصل نسخ، كما حصل في قصة المجادلة حيث إن النبي -صلى الله عيه وسلم- كان يقول لها: ((ما أراك إلا قد بنتِ منه))، وهي لا تزال تراجع النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يرد عليها هذا الكلام مرة بعد مرة حتى أنزل الله حكمه في ذلك، فليس معنى ذلك أنها معترضة على حكم الله -عز وجل- وإنما كانت تؤمّل أن ينزل الله في أمرها شيئاً فيكون فيه مخرج، فأنزل الله: **{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}** [(١) سورة المجادلة] الآيات، وإلا فإن الصحابة الكرام يعلمون أن الله يقول: **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}** [(٣٦) سورة الأحزاب]، ويعرفون قوله -عز وجل-: **{فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا}** [(٦٥) سورة النساء]، ويقول: **{إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا}** [(٥١) سورة النـــور]، فليس معنى ذلك أنها أبطأت، أو أن هؤلاء الصحابة أبطئوا اعتراضاً على حكم الشارع، وإنما المقصود: أنهم كانوا يرجون أن ينزل الله -عز وجل- غير ذلك.

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((رحم الله المحلقين)) ثلاثاً فهذا القول قاله مرتين، فحمل مرة على إطلاقه وعمومه وذلك في مكة عام الفتح، ومرة في عام الحديبية لما أمرهم بالحلق وكان معناه أنه لن يكون هناك عمرة هذه المرة، فحلق من حلق، وقصر بعضهم أملاً أنه سيكون هناك شيء آخر، فيستطيع حلق ما بقي من شعره في النسك إذا وصل البيت، والله أعلم.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الحج - باب الحلق والتقصير عند الإحلال (١٦٤٠) (ج ٢ / ص ٦١٦) ومسلم في كتاب الحج - باب تفضيل الحلق على التقصير وجواز التقصير (١٣٠١) (ج ٢ / ص ٩٤٥).

"فقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك، كل سبعة في بدنة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم، وقيل: بل كانوا على طرف الحرم، فالله أعلم."

الحديبية منطقة معروفة، جزء منها في الحل وجزء منها في الحرم، وهم كانوا في الناحية التي تلي الحرم من الحل، وكلام أهل العلم في هذا معروف، وهو هل النبي –صلى الله عليه وسلم– قدم هديه إلى منطقة الحرم فنحر فيه، أو أنه نحر في الحل؟، فهذه مسألة معروفة.

"والحصر: أعم من أن يكون بعدوٍّ أو مرض أو ضلال وهو التوهان عن الطريق أو نحو ذلك."

مسألة الإحصار مسألة مشهورة، وأشهر ما استدل به من يرى أن الإحصار لا يكون إلا بالعدوّ لا بالمرض والكسر ونحوه قوله تعالى: **{فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ...}** [(١٩٦) سورة البقرة] الآية، وذلك من ثلاثة وجوه:

الأول: أنه قال: **{أُحْصِرْتُمْ}** فمن أهل العلم من قال: إن هذه الصيغة ليس معناها حبستم أنفسكم، وإنما المقصود وقع الإحصار من غيركم أي: بالعدوّ، فهؤلاء فرَّقوا في الصيغة بين (أحصرتم) وبين (حصرتم)، فيقولون: إن أحصرتم معناه وقع عليكم الإحصار من غيركم.

الثاني: قالوا: إن هذا وقع للنبي –صلى الله عليه وسلم– بحصر العدوّ، وإن هذه الآية لا تنفصل عن سبب وملابسات النزول.

الثالث: أن الله قال بعده: **{فَإِذَا أَمِنتُمْ}** [(١٩٦) سورة البقرة].

هذه ثلاثة أمور هي أشهر ما ذكروا في الاستدلال على أن الحصر يكون بالعدوّ، والأقرب أن الإحصار لا يختص بذلك، وأن هذه المناسبة وإن كان الإحصار فيها بسبب العدوّ إلا أن ذلك لا ينحصر فيه، بل كل ما عاق الإنسان عن الوصول إلى البيت، أو إتمام النسك فإن ذلك يكون من قبيل الإحصار، وللإنسان أن يتحلل بعد أن ينحر هديه أو يذبحه.

قال بعض أهل العلم: إن ذلك ليس بحصر العدوّ فقط، وإنما المقصود حبستم أنفسكم بسبب المرض أو أقمتم بسبب حصر العدوّ لكم، أو نحو ذلك، وممن قال ذلك ابن جرير الطبري –رحمه الله– حيث يرى أن أُحصر، إنما يكون بحبس الإنسان نفسه، كما في قول الله تعالى في الآية الأخرى: **{لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ}** [(٢٧٣) سورة البقرة] حيث إنك إذا نظرت في كلام ابن جرير في تفسيره لهذه الآية تجده يرد على هؤلاء بقوة، ويقول: ليس ذلك بحصر العدوّ.. إلى أن قال: ولو كان ذلك بسبب حصر العدوّ لقال: للفقراء الذين حصروا في سبيل الله.

ومن أهل العلم من يقول: (أُحصر) تأتي لهذا وتأتي لهذا، أي ما يحصل بسبب العدوّ وما يحصل بحبس الإنسان نفسه وإن لم يحبسه غيره، وعلى كل حال فالإحصار يكون بسبب العدوّ وبسبب المرض والكسر وما أشبه ذلك مما إذا وقع للإنسان أعاقه عن الوصول إلى البيت .

"روى الإمام أحمد[2] عن الحجاج بن عمروٍ الأنصاري قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((من كُسر أو عرج فقد حل وعليه حجة أخرى)) قال: فذكرت ذلك لابن عباس وأبي هريرة -رضي الله تعالى عنهما- فقالا: صدق[3]."

مسألة هل يلزم المحصر أن يأتي بنسك آخر بدلاً من الذي أحصر فيه فيها قولان، فالذين يقولون: يجب ذلك يحتجون بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- اعتمر من قابل، والذين يقولون: لا يجب ذلك، يقولون: إن الله -عز وجل- لم يأمر بذلك وإنما قال سبحانه: **{فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}** [(١٩٦) سورة البقرة]، ويقولون: إن ما وقع للنبي -صلى الله عليه وسلم- لا يعني أنه يجب ذلك، ولم ينقل عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه أمر كل من خرج معه ممن تحلل أن يعتمروا، وإنما كان ذلك على سبيل المقاصة والاستيفاء، كما قال الله -عز وجل-: **{وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ}** [(١٩٤) سورة البقرة]، فهؤلاء صدوهم عن البيت فكان من عهدهم أن يعتمر المسلمون من قابل، والمسألة على كل حال محلها كتب الفقه.

"وأخرجه أصحاب الكتب الأربعة، وفي رواية لأبي داود وابن ماجه ((من عرج أو كُسر أو مرض))[4] فذكر معناه، ورواه ابن أبي حاتم.

ثم قال: وروي عن ابن مسعود وابن الزبير وعلقمة وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير ومجاهد والنخعي وعطاء ومقاتل بن حيان أنهم قالوا: الإحصار من عدو أو مرض أو كسر، وقال الثوري: الإحصار من كل شيء آذاه.

وثبت في الصحيحين عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دخل على ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب فقالت: يا رسول الله إني أريد الحج وأنا شاكية، فقال: ((حجي واشترطي أن محلي حيث حبستني))[5] ورواه مسلم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- بمثله، فصح الاشتراط في الحج لهذا الحديث."

إذا حصل الاشتراط عند الإحرام ولا بد، فله أن يتحلل من غير أن يذبح ولا شيء عليه، لكن المسألة السابقة فيما إذا لم يشترط.

"وقوله تعالى: {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [(١٩٦) سورة البقرة]."

التقدير: **{فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ}** [(١٩٦) سورة البقرة] فالواجب ما استيسر من الهدي، أو فعليكم ما استيسر من الهدي، وهذا باعتبار أن "ما" في محل رفع، أي فالواجب عليكم ما استيسر من الهدي، ويمكن أن تكون في محل نصب، فيكون التقدير فاذبحوا أو فانحروا ما استيسر من الهدي.

---

[2] - ذكره الإمام الطحاوي في كتاب شرح معاني الآثار.

[3] - أخرجه أبو داود في كتاب المناسك - باب الإحصار (١٨٦٢) (ج ١ / ص ٥٧٥) والترمذي في كتاب الصوم - باب ما جاء في الذي يهلُّ بالحج فيكسر أو يعرج (٩٤٠) (ج ٣ / ص ٢٧٧) والنسائي في كتاب مناسك الحج - باب فيمن أحصر بعدو (٢٨٦٠) (ج ٥ / ص ١٩٨) وابن ماجه في كتاب المناسك - باب الحصر (٣٠٧٧) (ج ٢ / ص ١٠٢٨) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٢٤٩٧).

[4] - صحيح ابن ماجه في كتاب المناسك - باب الحصر (٣٠٧٨) (ج ٢ / ص ١٠٢٨).

[5] - أخرجه البخاري في كتاب النكاح - باب الأكفاء في الدين (٤٨٠١) (ج ٥ / ص ١٩٥٧) ومسلم في كتاب الحج - باب جواز اشتراط المحرم التحلل بعذر المرض ونحوه (١٢٠٧) (ج ٢ / ص ٨٦٧).

"روى الإمام مالك عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- أنه كان يقول: {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} شاة."

وهذا قول الجمهور؛ لأن الله قال: **{فَمَا اسْتَيْسَرَ}**، يعني ما تيسر لك مما يصح أن يقال له: هدي، وأدنى ذلك الشاة، وأعلاه البدنة.

"وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-: الهدي من الأزواج الثمانية، من الإبل والبقر والمعز والضأن، وروى عبد الرزاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- في قوله: {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} قال: بقدر يسارته، وقال العوفي عن ابن عباس: إن كان موسراً فمن الإبل وإلا فمن البقر، وإلا فمن الغنم."

قوله: **{فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}** على التفسير الثاني نظر القائل به إلى معنى اللفظة ودلالتها؛ فالمعنى الأول لقوله: **{فَمَا اسْتَيْسَرَ}** تدل على ما تهيأ له، وما تيسر له، وما حصل له، فيكون أدنى ذلك شاة.

والقائل بالتفسير الثاني نظر إلى معنى اللفظة ودلالتها؛ فإن اليسار فيه معنى السعة والغنى، وعلى هذا فإن قوله: **{فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}** يعني أن ذلك لا يكون بأدنى شيء، وإنما بشيء فيه يسار، فإن كان غنياً فبدنة، وإن كان دونه فبقرة، وإن كان دونه فشاة، أي بحسب حاله من الغنى والفقر.

"وقال هشام بن عروة عن أبيه: {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} قال: إنما ذلك فيما بين الرخص والغلاء."

صاحب هذا القول لم ينظر إلى الأنواع باعتبارها بدنة وبقرة وشاة، وإنما نظر إلى الثمن والقيمة، فقال: **{فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}** أي لا يكون ذلك بأدنى ما يصدق عليه هدي بحيث يشتري شاة بثمن بخس؛ لضعفها أو لنوعها أو نحو ذلك وإنما يكون ذلك بالمتوسط.

وعلى كل حال فإن السبب في تعدد هذه الأقوال -والله تعالى أعلم- أنهم نظروا إلى بعض دلالات لفظة "استيسر" مع أن دلالتها الظاهرة المتبادرة هي: ما تيسر وتهيأ له، وأدنى ذلك شاة، ولا شك أن الأفضل والأكمل في الهدي هي البدنة.

"والدليل على صحة إجزاء ذبح الشاة في الإحصار أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدي، أي مهما تيسر مما يسمى هدياً، والهدي من بهيمة الأنعام وهي: الإبل والبقر والغنم."

الهدي في قوله: **{فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}** أي من بهيمة الأنعام، وكذلك الأمر في قوله: **{فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}** [(١٩٦) سورة البقرة]، أي من هذه الأنواع التي ذكرها الله -عز وجل- في سورة الأنعام، وكذلك حينما يقال: المتمتع والقارن عليهما الهدي، فهذا هو المقصود به، وإذا قيل: الجزاء فإنه يخير فيه أيضاً بين الأمور الثلاثة، فالدم يكون بالبدنة أو بالبقرة أو بالشاة إما وجوباً مثل من جامع في الحج، وإما أن يكون ذلك استحباباً ويجزيه دونه، ومثل ذلك من جامع في العمرة مثلاً فعليه شاة ولو أنه نحر بدنة فإن ذلك أكمل.

ومن قص أظافره أو حلق شعره أو نحو هذا وهو محرِم فإنه يخير بين ثلاثة أمور، إما ذبح شاة أو إطعام ستة مساكين، أو صيام ثلاثة أيام.

وكذلك من ترك شيئاً من نسكه الواجب كما لو لم يحرم من الميقات مثلاً فإنه يقال: عليه دم، فإذا ذبح شاة أجزأ، وإذا نحر بدنة فهذا أكمل، وكذلك إذا اشترك بسُبع بدنة في منزلة الشاة، فهو أفضل من الشاة.

فالهدي في مثل المسائل السابقة لا يكون إلا من هذه الأصناف، وأما في غير هذه المسائل فهل يمكن أن يهدى إلى البيت على سبيل التطوع غير الأنواع الثمانية المذكورة في قوله تعالى: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} [(١٤٣) سورة الأنعام]؟

نعم، يمكن أن يهدى إلى البيت كسوة للكعبة، ويمكن أن يهدي طعاماً للحجاج، كما أنه يمكن أن يقدم هدياً من الغنم أو الإبل أو البقر وهو في بلده لم يحج كما فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويمكن أن يقدم إلى البيت مالاً دراهم أو ذهباً، أو يقدم شراباً للحجاج أو نحو هذا، فكل ما يقدم إلى البيت فإنه يقال له هدي، والله تعالى أعلم.

"وهي: الإبل والبقر والغنم كما قاله الحبر البحر ترجمان القرآن وابن عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- قالت: "أهدى النبي -صلى الله عليه وسلم- مرة غنماً"[6]."

قولها: **أهدى مرة غنماً**، هذا قبل حجته حيث بعث بها وهو في المدينة، وهذا يدل على أنه يمكن للإنسان فعل ذلك ولا يلزمه شيء من الإحرام.

وقول بعض السلف: إنه يكون كالمحرم حتى ينحر هديه أو يذبح، فهذا كلام لا دليل عليه، وحديث عائشة في هذا المعنى معروف.

والهدي: جمع هدية، وربما قيل له ذلك؛ لأن مُهديه يتقرب فيه إلى المُهدَى إليه، والإنسان لما يأتي ويهدي لإنسان هدية فإنما يفعل ذلك من أجل استمالته، فالهدية تذهب وَحَرَ الصدر وتفعل في النفوس ما لا يخفى من تحبيب هذا الإنسان، ولذلك جاء في الأثر: ((تهادوا تحابوا))[7].

"وقوله تعالى: {وَلاَ تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ} [(١٩٦) سورة البقرة] معطوف على قوله: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ} [(١٩٦) سورة البقرة]، وليس معطوفاً على قوله: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [(١٩٦) سورة البقرة] كما زعمه ابن جرير -رحمه الله-."

قوله تعالى: {وَلاَ تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ} تحتمل أن تكون معطوفة على قوله: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ} أي كما هي هكذا: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ} [(١٩٦) سورة البقرة]، فإذا قلنا: إنها عائدة إلى قوله: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ}، فالمعنى أن من أنشأ حجاً وعمرة فإنه يلتزم محظورات الإحرام، ومن ذلك حلق الشعر، فلا يحلق رأسه حتى يبلغ الهدي محله.

والعلماء مختلفون في هذه المسألة إلا أن أقرب ذلك وأرجحه هو أن الحلق يكون يوم النحر سواء قدم ذبح هديه أولاً ثم حلق، أو حلق رأسه قبل النحر؛ وذلك أن رجلاً من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- سأله

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب الحج – باب تقليد الغنم (١٦١٤) (ج ٢ / ص ٦٠٩).

[7] - أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ج ١ / ص ٥٣٢) وأبو يعلى (ج ١١ / ص ٩) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٠٠٤).

عن تقديم وتأخير حصل منهم، فكان في كل مرة يقول –عليه الصلاة والسلام–: ((افعل ولا حرج))[8]، فبلوغ الهدي محله يوم النحر، ومن أهل العلم من يقول غير هذا.

وإذا قلنا: إن قوله: {وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ} [(١٩٦) سورة البقرة] عائد إلى قوله: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ} فالمعنى يتغير تماماً، حيث يكون المعنى: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ} [(١٩٦) سورة البقرة]، فإن حال دونه حائل فلا يحل لكم أن تحلقوا رءوسكم وتتحللوا حتى يبلغ الهدي محله.

وعلى هذا فقوله: {حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ} [(١٩٦) سورة البقرة] قيل: إن دم الإحصار يجب أن يكون في الحرم وبالتالي يجب على المحصر أن ينتظر حتى يُذبح أو ينحر في الحرم فهو محله ولا يجزئ خارج الحرم، وهذا على القول بأن النبي –صلى الله عليه وسلم– قدم هديه فنحر في الحرم من الحديبية.

ومن أهل العلم من يقول: إنه –صلى الله عليه وسلم– نحر هديه خارج الحرم، وبالتالي يقدم المحصر هديه حيث أحصر، فلا يلزمه أن يقدمه في الحرم.

والأقرب أن المحصر ينحر هديه حيث أحصر، ويفرق على من حضره من الفقراء في المحل الذي نحره فيه، ولا يلزم أن ينقل إلى فقراء الحرم، والله أعلم.

فالمقصود أن ابن جرير –رحمه الله– لا ينازع في أن قوله تعالى: {وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ} [(١٩٦) سورة البقرة]، عائد إلى قوله تعالى: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ} [(١٩٦) سورة البقرة]، فهو يوافق الجمهور في هذا، ومنهم ابن كثير، وإنما يخالف ابن جرير في قضيتين هما:

الأولى: أنه يجب عليه أن يحج من قابل قضاء لهذه الحجة، وإن كان معتمراً فيجب عليه قضاء هذه العمرة، وأن مجرد نحر الهدي أو ذبحه لا يعفيه من حجة أخرى، وإنما ذلك رخص له التحلل من الإحرام فقط، وهذا كلام معروف قال به أئمة، فهي مسألة لم ينفرد بها ابن جرير، وإنما قال بها كثير من أهل العلم.

والمسألة الثانية وهي مسألة خالف فيها عامة أهل العلم: أن ابن جرير في قوله تعالى: {فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [(١٩٦) سورة البقرة] يقول: هذه تتعلق بالمحصر الذي تحلل من إحرامه بالحج، فعليه أن يأتي بعمرة في أشهر الحج القادمة؛ لأنه تحلل ولم يصل إلى البيت حينما أحصر، فيكون بهذه العمرة قد طاف بالبيت وسعى، ثم بعدُ يأتي متى ما تيسر له بحجة يقضي بها حجته الأولى.

فابن جرير يرى أن الدم الذي أهداه ليس دم التمتع المعروف في الأنساك الثلاثة، وإنما هو شيء آخر خاص بالمحصر، مع أن المعروف عند أهل العلم والذي عليه عامتهم أن قوله: {فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ} [(١٩٦) سورة البقرة] يعني التمتع المعروف الذي هو جمع بين الحج والعمرة في سفرة واحدة.

"لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم، فأما في حال الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق حتى يبلغ الهدي محله، ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارناً، أو من فعل أحدهما إن كان مفرداً."

---

[8] – أخرجه البخاري في كتاب الحج – باب الفتيا على الدابة عند الجمرة (١٦٥٠) (ج ٢ / ص ٦١٩) ومسلم في كتاب الحج – باب من حلق قبل النحر أو نحر قبل الرمي (١٣٠٦) (ج ٢ / ص ٩٤٨).

الفراغ ليس المقصود به الفراغ من كل شيء، وإنما إذا جاء من عرفة، ففي يوم النحر يكون الهدي قد بلغ محله، ولا زال عليه طواف الإفاضة، وسعْي الحج إن كان لم يسعَ، وبقى عليه رمي الجمار.

"أو مِن فعل أحدهما إن كان مفرداً، أو متمتعاً كما ثبت في الصحيحين عن حفصة -رضي الله تعالى عنها- أنها قالت: يا رسول الله، ما شأن الناس حلوا من العمرة ولم تحل أنت من عمرتك فقال: ((إني لبدت رأسي وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر))[٩]."

قوله: **((لبدت رأسي))**، أي أنهم كانوا يضعون صمغة على الشعر؛ لأن شعورهم كثيرة، وفي السفر يحتاج مدة طويلة في إحرامه، فالشعر ينتفش ويصيبه ما يصيبه من الغبار والأتربة ونحو ذلك، فهو يلبد رأسه بأن يضع عليه صبغة تجعله ثابتاً مستقراً، وبالتالي فإن من ساق الهدي لا يحل إلى يوم النحر، فلذلك لم يتحلل النبي -صلى الله عليه وسلم- كما تحلل أصحابه بعمرة، ولهذا قال -عليه الصلاة والسلام-: ((لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي وجعلتها عمرة))[١٠].

---

[9] - أخرجه البخاري في كتاب الحج - باب التمتع والإقران والإفراد بالحج وفسخ الحج لمن لم يكن معه هدي (١٤٩١) (ج ٢ / ص ٥٦٨) ومسلم في كتاب الحج - باب بيان أن القارن لا يتحلل إلا في وقت تحلل الحاج المفرد (١٢٢٩) (ج ٢ / ص ٩٠٢).

[10] - أخرجه أبو داود في كتاب الحج - باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم (١٢١٨) (ج ٢١ / ص ٨٨٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٨٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وقوله: {فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ} [(١٩٦) سورة البقرة]: روى البخاري عن عبد الرحمن بن الأصبهاني سمعت عبد الله بن مَعقل، قال: قعدت إلى كعب بن عُجْرَةَ -رضي الله تعالى عنه- في هذا المسجد -يعني مسجد الكوفة- فسألته عن {فِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ}، فقال: حملتُ إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- والقملُ يتناثر على وجهي، فقال: ((ما كنتُ أرَى أن الجَهد بلغ بك هذا، أما تجد شاة؟)) قلت: لا، قال: ((صُمْ ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك))، فنزلت فيّ خاصة، وهي لكم عامة[1]."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى: {أَوْ نُسُكٍ}: المقصود بالنسك الذبيحة.

وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- لكعب بن عجرة: **((أما تجد شاة؟)) قلت: لا، قال: ((صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين))**، قد يفهم من ظاهر هذا الحديث أنه يُبدأ أولاً بما ذكر هنا، وأن الثلاثة ليست على التخيير بإطلاق، وإنما فيها ترتيب بين ذبح شاة، فإن لم يجد فعندئذ يخير بين الإطعام والصيام، كما في كفارة اليمين، عتق رقبة، فإن لم يجد فإنه يخير بين الإطعام أو الكسوة، فإن لم يجد فعندئذ يصوم ثلاثة أيام.

فالمقصود أن هذا في فدية الأذى ليس مراداً والله تعالى أعلم، وإنما رتب ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- باعتبار أنه الأفضل مثلاً، ويمكن أن يقال: إنه قدم الصوم باعتبار أنه الأسهل من جهة الكلفة المادية، وذلك أنه يستطيعه الغني والفقير بخلاف الذبح مثلاً أو الصدقة، ويدل على أن هذا على التخيير الروايات الأخرى الواردة في حديث كعب بن عجرة وهي حادثة واحدة لم تتكرر معه، وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خيره، كما في بعض الروايات أنه قال: ((فاحلقه وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك نسيكة))[2] فإذا جمعت هذا وهذا مع الآية، تبين لك المراد، والله تعالى أعلم.

والخلاصة أنه لا يقال لمن عليه فدية أذى كحلق الشعر أو نحو ذلك: إن عليك أولاً أن تذبح، فإن لم تستطع خيرت بين الإطعام والصيام، بل هو مخير بإطلاق، ولهذا فإنه ينبغي جمع الروايات والنصوص في المعنى الواحد دون أن يعجل الإنسان ويأخذ برواية ويقول: هذا على الترتيب؛ لأن النبي -عليه الصلاة والسلام- أمره أولاً بالذبح.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب قول الله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] (٤٢٤٥) (ج ٤ / ص ١٦٤٢) ومسلم في كتاب الحج – باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى ووجوب الفدية لحلقه وبيان قدرها (١٢٠١) (ج ٢ / ص ٨٥٩) واللفظ للبخاري.

[2] - سيأتي تخريجه.

"وروى الإمام أحمد عن كعب بن عجرة -رضي الله تعالى عنه- قال: أتى عليّ النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنا أوقد تحت قدر، والقَمْلُ يتناثَرُ على وجهي -أو قال: حاجبي- فقال: ((يؤذيك هوام رأسك؟)) قلت: نعم. قال: ((فاحلقه وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك نسيكة))، قال أيوب: لا أدري بأيتهن بدأ[3].

ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل: {فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ} [(١٩٦) سورة البقرة] ولما أمَرَ النبي -صلى الله عليه وسلم- كعبَ بن عجرة -رضي الله تعالى عنه- بذلك أرشده إلى الأفضل، فالأفضل، فقال: ((انسك شاة، أو أطعم ستة مساكين أو صم ثلاثة أيام))، فكلٌّ حسن في مقامه، ولله الحمد والمنة.

وقوله: {فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [(١٩٦) سورة البقرة] أي: إذا تمكنتم من أداء المناسك فمن كان منكم متمتعاً بالعُمرة إلى الحج، وهو يشمل من أحرم بهما، أو أحرم بالعمرة أولاً فلما فرغ منها أحرم بالحج وهذا هو التمتع الخاص."

يقول تعالى: {فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} فقوله: {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} يمكن أن تكون "ما" في محل رفع أو تكون في محل نصب، فإن كانت في محل رفع يكون التقدير فعليكم ما استيسر من الهدي، وإن كانت في محل نصب يكون التقدير: فاذبحوا ما استيسر أو نحو ذلك مما يقدر بحيث تكون في محل نصب.

ومن قال بأن "ما" هنا في محل رفع قال: هذا له نظائر في كتاب الله -عز وجل- كقوله تعالى في كفارة اليمين: {فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ} [(٨٩) سورة المائدة] أي فعليه صيام ثلاثة أيام.

"وهو يشمل من أحرم بهما، أو أحرم بالعمرة أولاً فلما فرغ منها أحرم بالحج."

هذا هو التمتع الخاص، والمقصود به أن يجمع بين الحج والعمرة في سفرة واحدة، وهذا الذي فسر به عامة أهل العلم قوله تعالى: {فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [(١٩٦) سورة البقرة]، إلا أن ابن جرير -رحمه الله- يفسرها بغير هذا، فهو يقول: إن قوله: {فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ} هذه في المحصر وليست في التمتع الخاص المعروف الذي هو أحد الأنساك الثلاثة، ويقول: فإنه إذا اعتمر في أشهر الحج التي تأتي فإنه يستمتع بإحلاله من عمرته إلى أن يحج فعليه ما استيسر من الهدي، هذه عمرة يأتي بها المحصر الذي لم يستطع الوصول إلى البيت إذا أمن.

"وهذا هو التمتع الخاص، وهو المعروف في كلام الفقهاء، والتمتع العام يشمل القسمين، كما دلت عليه الأحاديثُ الصحاح، فإن من الرُواة من يقول: تمتع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وآخر يقول: قرن، ولا خلاف أنّه ساق الهدي."

نعم فالقارن يجب عليه الهدي؛ لأنه جمع بين الحج والعمرة بسفرة واحدة مع أنه لم يحصل له إحلال ولا تمتع، والآية تقول: {فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [(١٩٦) سورة البقرة] وذلك أنه يتمتع

3 - أخرجه أحمد (ج ٤ / ص ٢٤١) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

بإحلاله فيفعل كل ما كان محظوراً عليه فعْله، فالقارن أيضاً عليه هدي باعتبار أنه جاء بالعمرة مع الحج، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم خلافاً للظاهرية الذين قالوا: إن هذا لم يرد عليه دليل وهو قياس على التمتع، والقياس أصلاً لا يصح عندهم.

"وقال تعالى: {فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [(١٩٦) سورة البقرة]، أي: فليذبح ما قدر عليه من الهدي، وأقله شاة، وله أن يذبح البقر؛ لأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذبح عن نسائه البقر."

على كلام ابن كثير هنا تكون "ما" في محل نصب، أي: فليذبح ما استيسر من الهدي.

"وقال الأوزاعي: "عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذبح بقرة عن نسائه وكنَّ متمتعات" رواه أبو بكر بن مَرْدويه."

وجاء في بعض الروايات: "ضحى عن نسائه بالبقر"[٤] ففهم منه بعض أهل العلم أن الحاج يضحي أيضاً إضافة إلى الهدي، ولكن الروايات يفسر بعضها بعضاً، فالمقصود بأنه ضحى عن نسائه في الرواية المشهورة أن ذلك كان في الحج، فهو من قبيل الهدي لا الأضحية، وبالتالي فإن الحاج حقه الهدي وليس عليه أضحية، لكن لو أنه ترك أهله في البلد وترك عندهم أضحية فهذا لا إشكال فيه، لكن الكلام فيه هو هل يضحي أم أنه ليس مطالباً بذلك وإنما يكتفي بالهدي؟

"وفي هذا دليل على مشروعية التمتع، كما جاء في الصحيحين عن عمْران بن حُصين -رضي الله تعالى عنهما- قال: "تنزلت آية المتعة في كتاب الله، وفعلناها مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولم ينزل قرآن يُحَرّمها، ولم يُنْهَ عنها، حتى مات، قال رجل بِرَأيه ما شاء، قال البخاري: يقال: إنه عُمَر -رضي الله تعالى عنه-."

سبق الكلام في الدرس الماضي لماذا عمر -رضي الله عنه- نهى عن التمتع، وأن ذلك كان من قبيل السياسة الشرعية رعاية لمصلحة تتصل بالبيت، وذلك أنه كره أن يهجر البيت سائر العام، أي حتى لا يأتي الناس بالعمرة والحج في سفرة واحدة أيام الحج فقط ويخلو البيت من المعتمرين في سائر السنة، فهو طالبهم أن يأتوا أثناء العام بالعمرة.

"وهذا الذي قاله البخاري قد جاء مصرحاً به أن عمر -رضي الله تعالى عنه- كان ينهى الناس عن التمتع، ويقول: "إن نأخذ بكتاب الله يأمر بالتمام، يعني قوله: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ} [(١٩٦) سورة البقرة] وفي نفس الأمر لم يكن عمر -رضي الله تعالى عنه- ينهى عنها محرِّماً لها، إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين، كما قد صرح به -رضي الله تعالى عنه-.

وقوله: {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ} [(١٩٦) سورة البقرة] يقول تعالى: فمن لم يجد هدياً فَلْيصُمْ ثلاثة أيام في الحج، أي: في أيام المناسك.

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الأضاحي - باب من ذبح ضحية غيره (٥٢٣٩) (ج ٥ / ٢١١٣) ومسلم في كتاب الحج - باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع والقران وجواز إدخال الحج على العمرة ومتى يحل القارن من نسكه (١٢١١) (ج ٢ / ص ٨٧٠).

وقال العوفي: عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: إذا لم يجد هَدْيًا فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة."

لم يجده بمعنى أنه لم يجد الثمن، أو أنه لم يجد الهدي إذا عدم مثلاً بحيث لم يقف على شيء منه، هذا هو المراد بقوله: **{فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ}** [(١٩٦) سورة البقرة].

"إذا لم يجد هَدْيًا فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة، فإذا كان يومُ عرفة الثالث فقد تم صومه وسبعة إذا رجع إلى أهله."

قوله: **صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة**، بمعنى أنه لا يبدأ بها يوم عرفة، وليس المقصود أن يوم عرفة غير داخل فيها، وإنما يبتدئ هذه الأيام الثلاثة قبل عرفة.

والعلماء لهم كلام كثير في مسألة متى يبتدئ هذه الأيام الثلاثة، وهل له أن يصوم هذه الأيام الثلاثة بمجرد الإحرام الأول الذي وقع منه، كأن يكون أحرم بالتمتع مثلاً في اليوم الأول من ذي الحجة ثم لما تحلل من العمرة له أن يصوم بإحلاله هذا؟ أم أنه يجب أن يصوم إذا لبى بالحج؟ وهذا الكلام بخلاف ما إذا كان قد جاء مفرداً أو قارناً فهو محرم بالحج لم يتحلل من الإحرام، فله أن يصوم حتى وإن جاء يوم الخامس عشر من ذي القعدة؛ لأنه محرم بالحج، لكن الإشكال فيما إذا جاء متمتعاً فتحلل، متى يصوم؟

يقول: يحرم بالحج ويصوم قبل يوم عرفة، فإذا أحرم يوم الرابع من ذي الحجة فله أن يصوم مثلاً يوم خمسة وستة وسبعة، أو يصوم يوم سبعة وثمانية وتسعة، ومن المعلوم أنه يحرم بالاتفاق صيام يوم النحر، وأما ما يتعلق بأيام التشريق فالراجح أنه يحرم صيامها إلا لمن لم يجد الهدي، لكنه لا يؤخر الصوم على الأرجح إلى أيام التشريق إلا إن اضطر لذلك، كأن يكون هذا الإنسان مثلاً مرض ولم يستطع الصوم إلا في أيام التشريق فإنه يصومها، أو أن يكون هذا الحاج لم يفقد ماله إلا يوم العيد، فهذا ليس أمامه إلا أن يصوم أيام التشريق، فيرخص لمن لم يجد الهدي أن يصوم هذه الأيام الثلاثة، والمقصود أن صيام هذه الأيام لمن لم يجد الهدي مأمور بها على التفريق، فلا يصوم الأيام العشرة سرداً في الحج.

والعلماء لهم كلام في هذه الصورة الثانية وهي فيمن لم يتمكن من صيامها إلا في أيام التشريق، هل يصوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر؟ وهل له أن يصوم الباقي معها على أن المراد بقوله: **{وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ}** إذا رجعتم إلى رحالكم، أم أن المقصود إذا رجعتم إلى بلادكم؟

فمن قال من العلماء: إن قوله: **{إِذَا رَجَعْتُمْ}** أي رجعتم إلى رحالكم يعني من منى، يقول: يصح له أن يسرد الصوم عشرة أيام؛ لأنه رجع من منى، ومن فسره بأن المراد إذا رجعتم يعني إلى أهلكم -وهذا هو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم- فإنه لا يسردها، وإنما يصوم السبعة الباقية إذا رجع إلى أهله، وهذا أيضاً على خلاف بينهم في رجوعه هذا ما المراد به؟، أي هل يكون الرجوع بمجرد الشروع فيه بحيث يصوم في الطريق إذا استراح ببلد مدة أسبوع أو أكثر، أم لا بد من الوصول إلى بلده؟ فمن أهل العلم من قال: إن قوله: **{إِذَا رَجَعْتُمْ}** يصدق عليه القول بشروعكم في الرجوع، وعلى هذا له أن يصوم إن شاء ولو لم يصل إلى موطنه، والمشهور من كلام أهل العلم أن ذلك إنما يكون برجوعه إلى بلده.

"وكذا روى أبو إسحاق عن وبرة عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: "يصوم يوماً قبل التروية ويوم التروية ويوم عرفة"، وكذا روى عن جعفر بن محمد، عن أبيه عن علي -رضي الله تعالى عنه- أيضًا."

قوله: **يصوم يوماً قبل التروية ويوم التروية ويوم عرفة**، هذا يفسر الكلام السابق من أنه قبل يوم عرفة، يعني الابتداء، وكذا روى جعفر بن محمد عن أبيه عن علي أيضًا.

ومثّل ابن جرير الطبري -رحمه الله- لا يفرق في ذلك، فهو لا يقول: إنه يصوم أيام التشريق إذا اضطر إلي هذا، كأن لم يجد قدرة إلا في أيام التشريق أو نحو ذلك، وإنما يقول: هو مخير، إن شاء صام قبل عرفة، وإن شاء صام في أيام التشريق، فكل ذلك يكون فيه ممتثلاً؛ لأن الله -عز وجل- قال: **{فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ}** فهو لازال في الحج.

والذي عليه عامة أهل العلم أنه يصومها قبل عرفة، وإن اختلفوا في التفصيلات، مثل متى يبتدئ الصيام؟، ولكن أيام التشريق لا تصام؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال عنها: ((أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل))[5] وعدَّها من أيام العيد، فقال: ((يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام))[6] ونهى عن صيامها -صلى الله عليه وسلم-.

"فلو لم يصمها أو بعضها قبل العيد يجوز أن يصومها في أيام التشريق؛ لقول عائشة وابن عمر -رضي الله تعالى عنهم- في صحيح البخاري: "لم يرَخّص في أيام التشريق أن يُصَمن إلا لمن لا يجد الهَدي"[7].

وروى سفيان، عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي -رضي الله تعالى عنه- أنه كان يقول: من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج صامهن أيام التشريق.

وبهذا يقول عُبَيد بن عُمَير الليثي وعكرمة، والحسن البصري، وعروة بن الزبير؛ وإنما قالوا ذلك لعموم قوله: {فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ} [(١٩٦) سورة البقرة].

وأما ما رواه مسلم عن قتيبة الهذلي -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل))[8] فهذا عام، ورواية عائشة وابن عمر -رضي الله تعالى عنهم- مخصوصة منه."

الآن صار النظر في هذه النصوص على ثلاثة مناحٍ هي:

الأول: أنه يمنع مطلقاً صيام أيام التشريق؛ باعتبار أنها أيام أكل وشرب.

الثاني: الجواز والإباحة بإطلاق لمن لم يجد الهدي، أي أن له أن يتخير صيامها ابتداءً فيقول مثلاً: أنا لا أريد أن أصوم يوم ثمانية ولا يوم سبعة، أنا أريد أن أصوم أيام التشريق، وهذا قول ابن جرير -رحمه الله-.

---

[5] - أخرجه أحمد (ج ٥ / ص ٧٦) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

[6] - أخرجه أبو داود في كتاب الصوم - باب صيام أيام التشريق (٢٤٢١) (ج ٢ / ص ٢٩٥).

[7] - أخرجه البخاري في كتاب الصوم - باب صيام أيام التشريق (١٨٩٤) (ج ٢ / ص ٧٠٣).

[8] - أخرجه مسلم في كتاب الصيام - باب تحريم صوم أيام التشريق (١١٤١) (ج ٢ / ص ٨٠٠) دون قوله: ((وذكر الله عز وجل)) ورواه أحمد واللفظ له (ج ٥ / ص ٧٥).

الثالث: -وهذا أعدل هذه الأقوال- أن يصوم قبل يوم عرفة فإن لم يتمكن فإنه يؤخر ذلك إلى أيام التشريق.

"**وقوله: {وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ} [(١٩٦) سورة البقرة] فيه قولان: أحدهما: إذا رجعتم إلى رحالكم، الثاني: إذا رجعتم إلى أوطانكم.**

روى عبد الرزاق عن سالم، سمعت ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ} [(١٩٦) سورة البقرة] قال: إذا رَجَع إلى أهله، وكذا رُوي عن سعيد بن جُبَير، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والزهري، والربيع بن أنس."

طبعاً هذا ليس محل اتفاق كما سبق بيانه آنفاً من أن بعض أهل العلم يقول: إن قوله: **{إِذَا رَجَعْتُمْ}** يصدق عليه الشروع في الرجوع ولو لم يصل إلى موطنه، والقول بأن الرجوع في الآية يقصد به رجوعه إلى رحله في مكة أو نحوها هو قول الإمام مالك.

وبعضهم بالغ في هذا غاية المبالغة فقال: قوله: يقول: **{وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ}** هذا ليس على الوجوب، وإنما هو من أجل التخفيف والرفق بالمكلفين فقط، وإلا فإنه إذا شاء أن يصوم في أيام الحج فإنه يصوم، وهذا قال به ابن جرير، ويقولون: إن هذا مثل قوله: **{فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}** [(١٨٤) سورة البقرة]، فالمريض والمسافر إذا صام في مرضه وسفره فإنه يجزئه، وإنما قال له: أفطر وصم أياماً تقضِ فيها ما أفطرت على سبيل الرفق به فقط، فإذا قال: أنا أريد أن أتجشم الصوم فإن هذا يصح ولا إشكال فيه، وكذلك في الحج يقال: إنما هو من باب الإرفاق بالمكلفين فقط.

وهذا خلاف ما عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً، بل إن الكثير منهم قالوا: لا يجزئه الصوم إلا بالتفريق؛ لأن الأمر بالصيام جاء على ثلاثة أنواع: تارة يأمر بها بإطلاق كما في كفارة اليمين على القراءة المتواترة، **{فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ}** [(٨٩) سورة المائدة].

وتارة جاء الأمر به مقيداً بالتتابع كما في كفارة القتل، وكفارة الظهار، **{فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ}** [(٩٢) سورة النساء]، [(٤) سورة المجادلة] وتارة جاء مقيداً بالتفريق كما هنا في عدم إمكانية الهدي قال: **{فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ}** [(١٩٦) سورة البقرة]، وكما جاء في كفارة اليمين في قراءة ابن مسعود غير المتواترة، وهي: (صيام ثلاثة أيام متتابعات).

وعلى كل حال فإن الله فرق بينها بهذه الطريقة فيمتثل العبد ذلك بأن يصوم أياماً متفرقة، ثلاثة في الحج وسبعة إذا رجع، والله أعلم.

"**وقد روى البخاري عن سالم بن عبد الله أن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: تمتع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في حَجَّة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى، فساق معه الهَدْي من ذي الحُلَيفة، وبدأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأهلَّ بالعمرة، ثم أهلَّ بالحج، فتمتع الناس مع النبي -صلى الله عليه وسلم- بالعمرة إلى الحج، فكان مِنَ الناس مَنْ أهدى فساق الهَدْي، ومنهم من لم يهد، فلما قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- مكة قال للناس: ((من كان منكم أهدى فإنه لا يَحل من شيء حَرُم منه حتَى يقضي حَجّه، ومَنْ لم يكن منكم أهدى فَلْيَطُفْ بالبيت وبالصفا والمروة، ولْيُقَصِّر وليَحلل ثم ليُهِلّ بالحج، فمن لم**

يجد هدياً فليصمْ ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله)) وذكر تمام الحديث، والحديث مخرج في الصحيحين[9]."

وجاء أيضاً في الصحيح من حديث ابن عباس –رضي الله عنهما-: ((وسبعة إذا رجعتم إلى أمصاركم))[10].

والحديث جاء فيه الأمر بالصوم مفرقاً ولم يفصل لهم فيه، أي: أنه لم يقل لهم النبي –صلى الله عليه وسلم-: وذلك ليس بعزيمة مثلاً، أو نحو ذلك، ثم إن الأصل أن الأمر للوجوب ما لم يصرف عن ذلك صارف، إلا أن مثل ابن جرير –رحمه الله- يرى أن الصيغة والصورة خبرية لكنها بمعنى الأمر، وهذا خلاف المشهور في تفسير الآية.

"وقوله: {تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ} [(١٩٦) سورة البقرة] قيل: تأكيد، كما تقول العرب: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، وكتبت بيدي."

في قوله: **{تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ}** يقول ابن كثير: هذا تأكيد، والمعنى أنه خبر محض، فهو يخبر أن صيام سبعة أيام وثلاثة نتيجته عشرة أيام، لكن ابن جرير يقول: لا، ليس المعنى هنا هو التأكيد، وإنما المقصود أن هذا خبر مضمن معنى الإنشاء الذي هو الأمر، أي: عليكم أن تكملوا صيام هذه الأيام العشرة من غير نقص.

"وقوله: {تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ} [(١٩٦) سورة البقرة] قيل: تأكيد، كما تقول العرب: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، وكتبت بيدي، وقال الله تعالى: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [(٣٨) سورة الأنعام]، وقال: {وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ} [(٤٨) سورة العنكبوت]، وقال: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً} [(١٤٢) سورة الأعراف]، وقيل: معنى {كَامِلَةٌ} الأمر بإكمالها وإتمامها."

قوله: **وقيل: معنى {كَامِلَةٌ} الأمر بإكمالها وإتمامها**، هذا قول ابن جرير –رحمه الله-، وأما ابن كثير فإنه يقول: إن قوله: **{كَامِلَةٌ} جاءت** للتأكيد كقوله: **{وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ}** [(٣٨) سورة الأنعام]، فالطائر لا يطير برجليه، وكقوله تعالى: **{يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم}** [(١٦٧) سورة آل عمران] ومعلوم أن الإنسان لا يتكلم بأذنه، وكقوله: **{يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ}** [(٧٩) سورة البقرة]، والإنسان لا يكتب برجله، وهذا أسلوب عربي معروف، وله دلالة في كل موضع بحسبه.

ومن العلماء من يذكر وجوهاً أخرى في التفسير، ففي قوله: **{وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ}** [(٣٨) سورة الأنعام] يقولون: لئلا يتوهم أن المقصود الإسراع؛ لأن العرب تعبر بالطائر أحياناً لتكني به عن السرعة، وإنما المقصود هنا الطائر المعروف.

وقال: **{يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ}** [(٧٩) سورة البقرة]: أي ليسجل عليهم هذا الجرم من باب الإدانة، وفي قوله: **{يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم}** [(١٦٧) سورة آل عمران]، أي: أنه لم يكتبه غيره أو عزاه إلى غيره بكتابته وإنما قاله بفيه، والمقصود أن هذا أسلوب عربي معروف.

---

9 – أخرجه البخاري في كتاب الحج – باب من ساق البدن معه (١٦٠٦) (ج ٢ / ص ٦٠٧) ومسلم في كتاب الحج – باب وجوب الدم على المتمتع وأنه إذا عدمه لزمه صوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله (١٢٢٧) (ج ٢ / ص ٩٠١).

10 – أخرجه البخاري في كتاب الحج – باب قول الله تعالى: **{ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}** [(١٩٦) سورة البقرة] (١٤٩٧) (ج ٢ / ص ٥٧٠).

فالمقصود أن بعض أهل العلم لا يخرج ذلك عن قول من قال: إنه للتوكيد كما قال ابن كثير؛ أو للاحتراز من أن يفهم غير المراد، فالله تعالى قال: **{تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ}** [(١٩٦) سورة البقرة]؛ لئلا يتوهم أنه بقي منه شيء بعد ذكر السبعة والثلاثة لما قال: **{فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ}** [(١٩٦) سورة البقرة]، إذ يمكن أن ينتظر السامع زيادة أيام أخرى يطالب بها، فهو أغلق هذا الاحتمال فقال: **{تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ}** [(١٩٦) سورة البقرة]، يعني من غير زيادة.

كما أنه يمكن أن يقال: إنه قال ذلك لئلا يرد وهم آخر حيث قد يظن السامع أنه مخير بين صيام ثلاثة أيام في الحج أو يصوم سبعة إذا رجع، فيكون ذلك لا على سبيل الجمع وإنما يكون ذلك على سبيل البدل، إما هذا أو هذا، فقال: **{تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ}** [(١٩٦) سورة البقرة]، والله أعلم.

"وقوله: {ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [(١٩٦) سورة البقرة] حاضروه هم أهل الحرم، فلا متعة لهم، وروى عبد الرزاق عن طاوس قال: المتعة للناس لا لأهل مكة."

هذا الذي عليه عامة أهل العلم، وهو أن أهل مكة ليس عليهم متعة، والعلماء مختلفون في أهل مكة هل تشرع لهم العمرة أم لا؟، وذلك باعتبار أن العمرة هي الزيارة، وأهل مكة هم قاطنو البيت، وعلى قول من قال: إن العمرة تشرع لهم فإنهم يخرجون إلى الحل ليجمعوا بين الحل والحرم، فيكون قاصداً للبيت من خارج الحرم.

وابن جرير –رحمه الله– يحمل قوله تعالى: **{ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}** [(١٩٦) سورة البقرة] على من لم يكن بينه وبين مكة مسافة قصر، أي: حتى لو كان من غير أهل الحرم، فالتنعيم مثلاً هو حي من أحياء مكة حيث إن بعضه في الحل وبعضه في الحرم، وعرفة من الحل، وكذلك القرى القريبة من عرفة ونحو ذلك، فهل أهل هذه المناطق يشرع لهم التمتع أم لا؟ ابن جرير –رحمه الله– يقول: من ليس بينه وبين مكة مسافة قصر فهو من حاضري المسجد الحرام.

"عن طاوس قال: المتعةُ للناس لا لأهل مكة مَنْ لم يكن أهله من الحرم، وكذا قول الله –عز وجل–: {ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} قال: وبلغني عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– مثلُ قول طاوس."

يقول: **{ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}**، اسم الإشارة **{ذَلِكَ}** يعود إلى التمتع، والمعنى أن التمتع لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام، فمفهوم المخالفة أن من كان أهله من أهل المسجد الحرام فإنه لا متعة لهم.

وبعض أهل العلم يحمل اسم الإشارة على أنه يرجع إلى وجوب الهدي والصيام المذكور في قوله: **{فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ}** [(١٩٦) سورة البقرة]، أي أن صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم **{لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}**، إذ إنه إذا كان من أهل الحرم فكيف سيرجع إلى المصر الذي جاء منه ليصوم الأيام السبعة.

والقائلون بهذا يقولون: إن أهل مكة يتمتعون كما يتمتع غيرهم، بل إن بعضهم يقول: حتى من ساق الهدي يمكن أن يتمتع لكنه لا يحل من إحرامه لوجود المانع، وأما النسك فإنه يقع تمتعاً، وهذا القول قال به قليل من أهل العلم، لكن المعنى المشهور هو أن اسم الإشارة **{ذَلِكَ}** يعود إلى التمتع، أي أن التمتع إنما يكون لمن لم

يكن أهله حاضري المسجد الحرام، وبالتالي فأهل مكة لا متعة لهم، إلا أنه لا بد من الأخذ في الاعتبار أن المسألة ليست محل اتفاق.

"**وقوله: {وَاتَّقُواْ اللّهَ} أي: فيما أمركم وما نهاكم، {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [**(١٩٦) سورة البقرة**] أي: لمن خالف أمره وارتكب ما عنه زجره.**"

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٨٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ} [(١٩٧) سورة البقرة].

"قوله: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} أي: لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره، وهو مروي عن ابن عباس وجابر -رضي الله تعالى عنهم- وبه يقول عطاء وطاوس ومجاهد رحمهم الله، والدليل عليه أن تخصيص وقت الحج بأشهر معلومات من بين سائر شهور السنة يدل على أنه لا يصح قبلها كميقات الصلاة."

قوله -تبارك وتعالى-: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} أي: وقت الحج أشهر معلومات، وهذا يدل على أن الحج موقَّت بوقت، وهذا منشأ الكلام على هذه المسألة التي أشار إليها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهي هل يصح أن يحرم بالحج قبل أشهره التي هي شوال وذو القعدة وذو الحجة أو عشر من ذي الحجة أم لا؟

هذه مسألة خلافية مشهورة، وظاهر الآية أن ذلك لا يكون إلا في أشهره، كميقات الصلاة، والله أعلم.

"وروى الشافعي -رحمه الله- عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: لا ينبغي لأحد أن يُحْرِم بالحج إلا في شهور الحج، من أجل قوله تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} [(١٩٧) سورة البقرة].

وروى ابن خزيمة في صحيحه عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج، فإن من سنة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج.

وهذا إسناد صحيح، وقول الصحابي: "من السنة كذا" في حكم المرفوع عند الأكثرين، ولا سيما قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- تفسيراً للقرآن وهو ترجمانه.

وقد ورد فيه حديث مرفوع، روى ابن مردويه عن جابر -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج))[1]، وإسناده لا بأس به. لكن رواه الشافعي والبيهقي من طُرق عن ابن جريج عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- يسأل: أيُهَلّ بالحج قبل أشهر الحج؟ فقال: "لا"[2]، وهذا الموقوف أصحّ وأثبت من المرفوع، ويبقى حينئذ مذهب صحابي يتقوّى بقول ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: "من السنة أن لا يحرم بالحج إلا في أشهره" والله أعلم.

---

1 - انظر سنن الترمذي في كتاب الصوم - باب ما جاء في العمرة أواجبة هي أم لا؟ (٩٣٢) (ج ٣ / ص ٢٧١) وانظر تصحيح الألباني له في صحيح الترمذي برقم (٩٣٢).

2 - أخرجه الشافعي في مسنده (ج ١ / ص ١٢١) والبيهقي في معرفة السنن والآثار (ج ٧ / ص ٣٩٢).

وقوله: {أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} قال البخاري: قال ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: هي شوال، وذو القَعْدة، وعشر من ذي الحجة، وهذا الذي علقه البخاري عنه بصيغة الجزم رواه ابن جرير موصولاً عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} قال: شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة" إسناد صحيح، وقد رواه الحاكم أيضًا في مستدركه، وقال: هو على شرط الشيخين."

القول المشهور عن جماعة من الصحابة ومن بعدهم أن أشهر الحج شهران وعشرة أيام، وبعضهم يقول: إن شهر ذي الحجة من أشهر الحج بكامله، وهذا أيضاً قال به جماعة من الصحابة فمن بعدهم، والمسألة معروفة في كتب الفقه، وليس من شأننا هنا أن نذكر أو نستطرد في الكلام في المسائل الفقهية، وعلى كل حال هو قول معروف، وممن قال به من الصحابة -رضي الله عنهم- ابن مسعود وابن عمر، وقال به جماعة من كبار التابعين منهم عطاء الذي هو أعلم الناس في زمانه بالمناسك، ومذهب الإمام مالك أيضاً أن شهر ذي الحجة بكامله من أشهر الحج.

"قلت: وهو مَرْوِيّ عن عُمَر وعليّ، وابن مسعود وعبد الله بن الزبير وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم أجمعين- وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وإبراهيم النخعي، والشعبي، والحسن، وابن سيرين، ومكحول، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حَيّان، واختار هذا القول ابن جرير."

ذكر هنا جماعة مثل: ابن مسعود وعطاء ومجاهد والربيع، مع أنه جاء عن هؤلاء الذين ذكرهم جميعاً أنهم قالوا: إن أشهر الحج هي ثلاثة أشهر على أن شهر ذي الحجة بكامله من أشهر الحج، وهذا يوجد بكثرة في كتب التفسير وفي كتب الخلاف في الفقه، ولذلك فإن مثل هذا يحتاج إلى تحرير من خلال النظر في هذه الروايات هل تصح أم لا؟، ثم ينظر في المتقدم والمتأخر من الروايات التي تروى عن هذا الصحابي أو التابعي، فإن عرف ذلك عمل بالمتأخر، فإن لم يعرف فإنه ينقل عنه هذا وهذا.

ومما يوجد أحياناً في مسألة ما أنه يقول: هذا قال به الخلفاء الأربعة وفلان وفلان وفلان، وإذا نظرت في أدلة القول الثاني تجد أنه يعدد أيضاً بعض من ذكرهم في القول الأول، وإذا نظرت في الروايات المنقولة عنهم تجد أن كثيراً منها قد لا يصح أصلاً، ومن ثَمّ فإن الإنسان لا يحكم لأول وهلة بمجرد ما يرى من الأسماء أن هذا هو فعلاً مذهب هؤلاء جميعاً من الأئمة.

بل إن أئمة المذاهب تُنقل عنهم أحياناً أشياء مع وجود روايات أخرى نُقلت عنهم بخلاف ذلك ربما كانت أثبت من هذا المنقول، ولذلك فإن المذاهب إنما تنقل من الكتب المعتمدة عند أهلها وأصحابها، أما نقل ذلك من كتب أخرى فإنه مظنة لوقوع الخطأ.

وكذلك الأمر في الفرق والخلاف في العقائد، فإنك إذا نظرت في كتاب الملل والنحل للشهرستاني تجد أشياء كثيرة جداً مما يضاف إلى أهل الفرق مما لا يقولون به، ولا يثبت عنهم، أو أن القائل به هو بعض هؤلاء.

فالحاصل أنهم ينقلون من كتب خصومهم ممن ألف في الفرق أو ألف فيهم أو رد عليهم، فهم ينقلون من كتب خصومهم ويضيفون إليهم ما ليس فيهم، ولذلك تجدهم إذا عرضوا مذهب أهل السنة يعرضونه مشوهاً، والكُرَّامية مثلاً تُنسب إليهم أشياء لا توجد في كتبهم، وإنما نُقلت من كتب مخالفيهم، وهذه الطريقة ليست دقيقة في العلم والخلاف.

"قال: وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب كما تقول العرب: زرته العام ورأيته اليوم."

على كل حال القول الأول: إنها إلى عشر ذي الحجة هو قول مشهور يقول به عامة أهل العلم من أصحاب المذاهب وغيرهم، وقد سمى هنا جماعة مع أن بعضهم نُقل عنه غير ذلك، وهذا مذهب الأئمة الثلاثة، أعني أبا حنيفة والشافعي وأحمد.

ويترتب على مسألة تحديد أشهر الحج عمل وهو هل له أن يؤخر باختياره بعض أعمال الحج إلى ما بعد اليوم العاشر من ذي الحجة أم لا يجوز له التأخير؟

"للتغليب كما تقول العرب: زرته العام ورأيته اليوم وإنما وقع ذلك في بعض العام واليوم؛ قال الله تعالى: {فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ} [(٢٠٣) سورة البقرة] **وإنما تعجل في يوم ونصف يوم."**

على كل حال هذه الآية يستدل بها من يقول: إنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره، بمعنى أن ذلك يحرم، وهو المعروف من مذهب الشافعي -رحمه الله- وقال به جماعة من السلف -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- وبه يقول الأوزاعي، ومن أهل العلم من قال: إن ذلك يجوز لكن مع الكراهة من غير تحريم.

وعلى كل حال جاء عن الإمام أحمد أن ذلك يكره، وكذلك نقل عن الإمام مالك -رحمه الله- أنه يكره وأن ذلك يجزئه.

وبعضهم يقول: إنه يجوز أن يحرم بالحج في سائر العام متى شاء كالعمرة، لكن ليس معناه أنه يحج في شهر صفر أو ربيع مثلاً، فهذا لم يقل به أحد، وإنما المقصود الإحرام فقط، أي أنه يلبي بالحج متى شاء لكن ليس معنى هذا أن يقف في عرفة في غرة ر بيع مثلاً وإنما يقف في اليوم التاسع من ذي الحجة.

ومن قال بجواز الإحرام سائر العام يحتج بمثل قوله تعالى: **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ}** [(١٨٩) سورة البقرة]، فهؤلاء يقولون: إن الله -عز وجل- جعل الأهلة مواقيت للناس والحج، فيستطيع الإنسان أن يحرم بالحج في أي وقت من العام من غير كراهة، وعلى كل حال هذا قول فيه نظر -والله تعالى أعلم- مع أن القائل به أئمة، فأحياناً بعض الأقوال تستغربها وتجد أن القائل بها من الكبار كإسحاق بن راهويه وسفيان الثوري، فإذا رأى الإنسان مسألة من هذه المسائل لا يستعجل بالشناعة وإنما يتريث وينظر، وربما ترك ما يعتقده من القول بعد مدة وانتقل إلى هذا الذي كان يشنع عليه، إلا إذا كان الشيء لا دليل عليه أصلاً بحيث كان مخالفاً للنصوص الصريحة الواضحة فنعم، أما مثل هذه المسائل فهي كما هو واضح أن المسألة هذه ذكرت لها عمدة الأدلة فلا تشنيع إذن، والله أعلم.

"وقوله: {فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ} [(١٩٧) سورة البقرة] **أي: أوجب بإحرامه حَجًّا."**

قوله: **أوجب بإحرامه حَجًّا**، يعني أوجب بإحرامه على نفسه حجاً.

"فيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج والمضي فيه."

هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- وهو قوله: أي: **أوجب بإحرامه حَجًّا**، بمعنى أوجب بإحرامه على نفسه حجاً كما أسلفت هو أقرب ما تفسر به الآية، وهناك معان أخرى تذكر فيها، لكن هذا من أقربها مأخذاً ومن أسهلها ومن أوضحها، وذلك أن من شرع في الحج بأن لبى به فقد لزمه إتمامه؛ كما قال تعالى في الآية السابقة: **{وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ}** [(١٩٦) سورة البقرة] والله تعالى أعلم.

وفيما يتعلق بقوله: **{أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ}** على قول من قال: إنها شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، يكون توجيه صيغة الجمع بأحد وجهين:

الوجه الأول: باعتبار جبر النقص، بمعنى أنه إذا وجد أيام من الشهر الثالث فبالنظر إلى تكميل النقص وجبره كما هو معروف عند العرب صحَّ أن يطلق على ذلك أشهر، ومثل هذا سيأتي في قوله -تبارك وتعالى-: **{فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ}** [(٢٠٣) سورة البقرة]، وذلك أن الحاج إذا رمى الجمرات بعد الزوال في اليوم الثاني عشر من ذي الحجة فإنه لا يحتاج أن ينتظر إلى الغروب ليكتمل اليوم الثاني، ومع ذلك اعتبر أنه تعجل في يومين من باب جبر النقص.

والوجه الثاني: أن أقل الجمع عند بعض أهل العلم من أهل اللغة اثنان، وهو قول منقول عن الإمام مالك أيضاً كما في المراقي:

أقل معنى الجمع في المشتهر اثنان عند الإمام الحميري

يعني عند الإمام مالك -رحمه الله- ويدل عليه قوله -تبارك وتعالى-: **{فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ}** [(١١) سورة النساء] وقوله: **{إِخْوَةٌ}** جمع، ومعلوم أن الذي يحجب الأم حجب نقصان من الثلث إلى السدس وجود أخوين.

" قال ابن جرير: أجمعوا على أن المراد من الفَرْض هاهنا الإيجاب والإلزام."

يعني ألزم نفسه بذلك، أي شرع فيه بالتلبس بإحرامه، وإن شئت أن تقول: لبى بالحج أو أهلَّ به، فكل هذه العبارات تؤدي المعنى ولا حاجة أن نجعل من الأقوال في الآية إشكالاً، فهو ملزم بالإتمام متى شرع بالإهلال بالتلبية، وبالشروع بالتلبس، فهو متى دخل في إحرامه فعليه أن يستوفي ذلك.

"وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ} [(١٩٧) سورة البقرة] يقول: من أحرم بحَجّ أو عمرة، وقال عطاء: الفرض الإحرام، وكذا قال إبراهيم، والضحاك، وغيرهم"

يقول: **الفرض الإحرام**، ولا شك أن من أحرم بهما فقد فرض وأوجب ذلك على نفسه.

"وقوله: {فَلاَ رَفَثَ} [(١٩٧) سورة البقرة] أي: من أحرم بالحج أو العمرة، فليجتنب الرفث، وهو الجماع."

بعض أهل العلم فسر الرفث بمعنى هو من أشهر معانيه وهو الجماع، ومن أهل العلم من يحمله على العموم، حيث إن لفظ "رفث" نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي والنهي والشرط والاستفهام تدل على العموم وهذا النفي هنا مضمن معنى النهي، أي: فلا يرفث جميع أنواع الرفث، فيدخل فيه الجماع ومقدماته، ويدخل فيه الكلام في ذلك.

هل الكلام عن الجماع ممنوع وإن لم يكن بحضرة النساء؟:

من أهل العلم من خصه بحضرة النساء، بمعنى أنه لا يتكلم معها في شيء من ذلك، وقد نُقل عن ابن عباس -رضي الله عنه- بيت فسئل عن هذا فبين أن ذلك إنما يحرم بحضرة النساء، وإلا فإن البيت الذي قاله كان بعبارة صريحة ليس فيها أي كناية.

"والرفث هو الجماع، كما قال تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ} [(١٨٧) سورة البقرة]، وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك، وكذلك التكلم به بحضرة النساء.

روى ابن جرير عن نافع أن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- كان يقول: الرفثُ إتيانُ النساء، والتكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم."

يعني أن ابن عمر -رضي الله عنهما- يرى أنه لا يختص منع الكلام في ذلك بحضرة النساء فقط، وإنما يرى منع التحدث بهذا حتى عند الرجال، وعلى كل حال الآية تحتمل هذا، ولا أعلم شيئاً يخصصه بحضرة النساء إلا ما نقل عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، ومعلوم أنه إذا خالف صحابي صحابياً آخر فإنه يلجأ إلى الترجيح بين أقوال الصحابة، ولا يكون قول الواحد منهم حجة على الآخر.

"وقال عطاء بن أبي رباح: الرفثُ: الجماع وما دونه من قول الفحش، وكذا قال عمرو بن دينار."

قوله: **وما دونه من قول الفحش**، أي من قول الفحش المتصل بهذا الباب، وأما قول الفحش الآخر فيدخل في عموم قوله: **{وَلاَ فُسُوقَ}** [(١٩٧) سورة البقرة].

"وقال عطاء: كانوا يكرهون العرابة وهو التعريض وهو مُحرِم."

استعمال الكنايات عن الجماع ونحو هذا يقال له ذلك، فكيف بالكلام الصريح؟ وقد فسر قوله تبارك وتعالى عن نساء الجنة: **{عُرُبًا أَتْرَابًا}** [(٣٧) سورة الواقعة]، بأن معناه أنهن متحببات إلى أزواجهن، يتغنجن بالكلام عند أزوجهن، وعلى كل حال فإن الكنايات تكون أحياناً أقبح من التصريح، وفي بعض الكتب التي جمعت في هذا الباب خاصة من الكنايات يستحي الإنسان أن يدخلها في بيته.

"وقال طاوس: هو أن تقول للمرأة: إذا حللت أصبتك، وكذا قال أبو العالية."

هذا من باب التفسير بالمثال، ويقال غير هذا مما هو أشد منه.

"عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الرفث: غَشَيَان النساء والقُبَل والغَمْز، وأن يُعَرّض لهَا بالفحش من الكلام ونحو ذلك.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أيضًا وابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: الرفثُ: غشيانُ النساء، وكذا قال سعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، وإبراهيم، وأبو العالية عن عطاء، ومكحول، وعطاء الخراساني، وعطاء بن يسار، وعطية، وإبراهيم النَّخَعي، والربيع، والزهري، والسدي، ومالك بن أنس، ومقاتل بن حيان، وعبد الكريم بن مالك، والحسن، وقتادة والضحاك، وغيرهم."

على كل حال هو لا يختص به كما سبق، وقد مرَّ ما نقل عن ابن عمر من أنه: التحدث به عند الرجال والنساء، وابن عباس يرى أنه عند النساء خاصة، بل نقل كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- أن المقصود بالرفث التحدث به بحضرة النساء خاصة، بإجماع، ومذهب ابن جرير في نقل الإجماع معلوم أنه يقصد به قول أكثر أهل العلم.

"وقوله: {وَلاَ فُسُوقَ} [(١٩٧) سورة البقرة] **قال مِقْسَم وغير واحد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هي المعاصي."**

أي المعاصي بإطلاق، وبعض السلف يخص ذلك بنوع منه، ولكن الآية ظاهرها العموم؛ فالفسوق نكرة في سياق النفي، فهي للعموم، فيدخل فيها النظر الحرام، والغيبة والكذب والاستهزاء بالناس، إلى غير ذلك من الفسوق الذي يقع من كثير ممن يحرم بالحج أو العمرة.

"وكذا قال عطاء، ومجاهد، وطاوس، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، ومحمد بن كعب، والحسن، وقتادة، وإبراهيم النخعي، والزهري، ومكحول، وابن أبان، والربيع بن أنس، وعطاء بن يسار، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان."

نعم، ظاهر الآية العموم، ومن أهل العلم من يحمله على معنى خاص يختص بالإحرام، وبعضهم يحمله على معنى يختص بالحرم، فعلى الأول: الفسوق المراد به أن يفعل شيئاً من محظورات الإحرام، كالصيد ولبس المخيط، والطيب، وحلق الشعر، وما أشبه ذلك، كما هو قول ابن جرير -رحمه الله-، وعلى الثاني: يحمل الفسوق على ما يتصل بالحرم كقطع الشجر، وقتل الصيد، ولكن لا دليل على هذا التخصيص، والأصل حمل العام على عمومه حتى يأتي دليل يخصصه، والآية ليس فيها قرينة توجب صرف هذا العموم إلى معنى خاص.

لكن هؤلاء العلماء لم يقولوا هذا من عند أنفسهم هكذا من غير أي مستند، وإنما قال من قال: إن هذا يختص بالحرم أو الإحرام بسبب أنه ممنوع أصلاً من الغيبة والنظر الحرام والفجور بأنواعه، والذنوب والمعاصي بكل صورها وأشكالها، فهذه كلها لا تختص بالإحرام حتى يُنهى عنه في الإحرام، بل هو مستصحب للمنع والتحريم، فإذن هنا لا بد من شيء جديد آخر يختص بالإحرام وهو قتل الصيد، والطيب، وما أشبه ذلك من محظورات الإحرام أو مما يختص بالحرم.

ولا شك أن من سمع هذا التوجيه لهذا القول اتسع صدره وتبين له أن له وجها من النظر، بينما قبل ذلك ربما ينظر الإنسان إلى القول الذي لم يعرف مأخذه فيقول: هذا مخالف للنص، ولماذا يقولون هذا؟، ولماذا هؤلاء يتحكمون بآرائهم؟، والحقيقة أن الأمر ليس كذلك، فهؤلاء أئمة وأذكياء وأهل تقوى وورع، والواحد منهم أكبر من الجبل.

"وروى ابن وهب عن يونس عن نافع أن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- كان يقول: الفسوق إتيان معاصي الله في الحرم، وقال آخرون: الفسوق هاهنا السباب، وقد يتمسك لهؤلاء بما ثبت في الصحيحين: ((سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر))[3]."

هذا القول هو أشبه ما يكون بالتفسير بالمثال، ونصُّ النبي -صلى الله عليه وسلم- على أن سباب المسلم فسوق، لا يدل على أن الفسوق يختص بالسباب من بين سائر الذنوب، فهناك ما هو أعظم من السباب، وهو أولى بالفسوق، فالفسق أصله الخروج عن الطاعة، وكلام أهل اللغة في ذلك معروف حيث يقولون: فسقت الفأرة، ويقال لها: فويسقة؛ لأنها تخرج من جحرها للإفساد، وهكذا الخروج عن طاعة الله -عز وجل- يقال له: فسوق، وقد يكون ذلك فسوقاً أكبر أو فسوقاً أصغر، ولهذا يقول الله -عز وجل-: **{إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ}** [(٦) سورة الحجرات]، فهو يشمل الكافر والعاصي مع أن الأصوليين يذكرون هذا في أشهر أمثلتهم عند الكلام على مفهوم الموافقة الأولوي الظني، فيقولون: **{إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ}** يعني إن جاءكم كافر فمن باب أولى، إلا أنهم يقولون: لا يقطع بذلك؛ لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه فهو يتحرز من الكذب، وبالتالي يحتمل أن

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب ما ينهى من السباب واللعن (٥٦٩٧) (ج ٥ / ص ٢٢٤٧) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)) (٦٤) (ج ١ / ص ٨١).

نكون مطالبين بأن نتثبت في خبر الكافر المتدين الذي دينه يحرم عليه الكذب ويحتمل عدم ذلك، لكن الصحيح أن الآية تشمل الكافر والعاصي، والله أعلم.

"وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الفسوق هاهنا: الذبح للأصنام، قال الله تعالى: {أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ} [(١٤٥) سورة الأنعام] وقال الضحاك: الفسوق: التنابز بالألقاب."

هذا كله يصلح أن يكون من قبيل التفسير بالمثال.

"والذين قالوا: الفسوق هاهنا هو جميع المعاصي، الصواب معهم، كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم."

يعني أن هذا جواب عن أولئك الذين خصوه بالحرم أو الإحرام، فقالوا: إن هذه محرمة أصلاً في سائر السنة وفي كل الأحوال، فلا يختص التحريم بها في حال الإحرام، فيقال: هذا آكد كما قال الله -عز وجل- عن الأشهر الحرم: {فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ} [(٣٦) سورة التوبة] مع أن ظلم النفوس بمعصية الله -عز وجل- محرم في سائر الشهور، لكنه يتأكد في الأشهر الحرم.

"كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم. وإن كان في جميع السنة منهيًّا عنه، إلا أنه في الأشهر الحرم آكد؛ ولهذا قال: {مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ} [(٣٦) سورة التوبة]، وقال في الحرم: {وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [(٢٥) سورة الحـج].

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي حازم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه))[4].

وقوله: {وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ} [(١٩٧) سورة البقرة] المراد بالجدال المخاصمة.

روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- في قوله: {وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ} قال: أنْ تماري صاحبك حتى تغضبه."

يعني أن الجدال يحمل على العموم فيما يكون ممنوعاً، وهو المراء، لكن المجادلة التي تكون بمعنى المحاورة التي يراد بها التوصل إلى الحق، كما قال الله -عز وجل-: **{وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [(١٢٥) سورة النحل]، فهذا لا إشكال فيه، لكن أن تجادل صاحبك الجدال العقيم الذي يهدف من ورائه كل واحد من المتجادلين إلى زحزحة صاحبه عن قوله وإخراجه منه وفتله من ذلك، ويريد أن ينتصر لقوله ولنفسه ويصحح مذهبه، فهذا هو الممنوع، وهو الذي عليه عامة أهل العلم في تفسير الجدال هنا، خلافاً لما ذكره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- حيث حمله على معنى آخر فقال: ليس هذا للنهي عن الجدل بمعناه العام وإنما هو نهي عن الجدل في الحج خاصة من حيث أصل مشروعيته وأنه من دين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وأنه موقَّت بوقت هو وقته، وهذا المعنى مردُّه إلى أن أهل الجاهلية كانوا يغيرون في الأوقات، كما بين ذلك قوله تعالى: **{إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ}** [(٣٧) سورة التوبة]، فربما جاء وقت الحج في شهرٍ محرمٍ بسبب أنهم كانوا يغيرون الشهور فيؤخرون ذا الحجة إلى محرم، وهذا أحد الأوجه التي فُسِّر بها قول النبي -صلى الله عليه

---

[4] - أخرجه البخاري في أبواب الإحصار وجزاء الصيد - باب قول الله تعالى: {فَلاَ رَفَثَ} [(١٩٧) سورة البقرة] (١٧٢٣) (ج ٢ / ص ٦٤٥) ومسلم في كتاب الحج - باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (١٣٥٠) (ج ٢ / ص ٩٨٣).

وسلم-: ((إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض))[٥]، فبعضهم قال: المراد به أن ذا الحجة في السنة التي حج فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- وقع كما هو بعد أن كانوا يغيرون ويؤخرون شهراً شهراً وفي تلك السنة التي حج فيها النبي -عليه الصلاة والسلام- وقع في وقته، هذا أحد الأقوال في توجيه هذا الحديث وبيان معناه.

وعلى كل حال فإن قول ابن جرير: ليس المقصود بالنهي عن الجدال أن تجادل صاحبك، وإنما المراد لا تجادل في مواقيت الحج أنها صحيحة ولا تجادل في أصل مشروعيته.

"وكذا روى مِقْسَم والضحاك عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وكذا قال أبو العالية، وعطاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وجابر بن زيد، وعطاء الخراساني، ومكحول، والسدي، ومقاتل بن حيان، وعمرو بن دينار، والضحاك، والربيع بن أنس، وإبراهيم النَّخَعي، وعطاء بن يسار، والحسن، وقتادة، والزهري."

[5] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة {براءة} [التوبة] (٤٣٨٥) (ج ٤ / ص ١٧١٢) ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات - باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩) (ج ٣ / ص ١٣٠٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٨٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وقوله: {وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ} [(١٩٧) سورة البقرة] لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً وفعْلاً حَثَّهم على فعل الجميل وأخبرهم أنه عالم به وسيجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة.

وقوله: {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [(١٩٧) سورة البقرة] روى البخاري وأبو داود عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان أهل اليمن يَحُجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فأنزل الله: {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [(١٩٧) سورة البقرة].

وروى ابن جرير وابن مَرْدُويه عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها واستأنفوا زادًا آخر، فأنزل الله تعالى: {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [(١٩٧) سورة البقرة] فَنُهوا عن ذلك، وأمِرُوا أن يتزودوا الدقيق والسويق والكعك."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الآية جاءت في سياق الآيات التي تتحدث عن الحج، وسبب النزول المذكور هاهنا يتصل بهذا الموضوع اتصالاً ظاهراً، حيث إنهم كانوا يفعلون ذلك في حجِّهم، ويقولون: نحن أضياف الله، ومن ثَمَّ يعتقدون بأنه لا يليق أن يحملوا معهم الأزواد، وذلك من أول سفرهم، أو من حين إحرامهم، وليس المراد بذلك ما عرف عن العرب من غير الحمس أنهم إذا دخلوا أرض الحرم وليس الإحرام، فالإحرام قد يحرم الواحد من مكان بعيد، وقد يكون الميقات بعيداً، كميقات أهل المدينة، ولكن كان من طقوسهم التي كانوا عليها في الحج أن غير الأحمسي -والحمس هم قريش وما ولدت- كانوا يلقون الأزواد إذا دخلوا أرض الحرم؛ ذلك أن الحمس كانوا إذا دخلت أشهر الحج لا يسلؤون ولا يأقطون بمعنى أنهم ما كانوا يأخذون من الألبان الجبن ولا الزبدة ولا يأخذون الأقط ولا غير ذلك، وإنما كانوا يطعمون ذلك الحجيج، فقد كانوا يطعمونهم الألبان، ويسقونهم النبيذ ونحو ذلك، وكانوا يتنافسون في هذا مجاناً، وكانوا يرون أنه لا يليق أن يدخل الحاج من غير الحمس أرض الحرم ومعه طعام، ولذلك كانوا يتكفلون له بذلك كله، حيث كانوا يرون أن ذلك من صميم وظيفتهم في القيام على البيت مع قلة ذات اليد.

والآية هاهنا يختلف الكلام فيها عن هذا الأمر بالنسبة للحمس، وذلك أن بعض العرب كبعض أهل اليمن كانوا إذا أحرموا تركوا أزوادهم باعتبار أنهم أضياف الله وبالتالي فإن الله سيرزقهم ويهيئ لهم، فيكون الواحد منهم عالة على أزواد الناس، وهذا هو الذي أشارت إليه الآية، وعليه فيكون قوله تعالى: {وَتَزَوَّدُواْ} أمر لهم بحمل الأزواد معهم في سفرهم إلى الحج.

وابن جرير -رحمه الله- يحمل هذه الآية على ما يتصل بالحج خاصة من حمل الأزواد، بحيث إنه يذكر في معناها: وتزودوا ما فيه بلاغكم إلى حجكم، أي ما فيه البلغة إلى حجكم، أو إلى أداء فرض ربكم، فإنه لا بر لكم في ترك التزود في أسفاركم للحج بحيث تسألون الناس وتركنون إلى أزوادهم، ولكن البر في تقوى ربكم باجتناب ما نهاكم عنه في سفركم لحجكم.

وقوله: **{فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}** أي لا خير لكم بإلقاء الأزواد أو بترك التزود وإنما خير الزاد هو التقوى وذلك بأن تتقوا ربكم في سفركم إلى الحج بترك ما نهاكم عنه من محظورات الإحرام ومن غيرها.

ومن أهل العلم من حمل الآية على معنى أوسع من هذا، أي: ، تزودوا في الحج وفي غير الحج فإن خير الزاد التقوى، أي فإن خير الزاد ما اتقى به المرء أسباب الهلكة في سفره فيضطر إلى السؤال، وعلى هذا الاعتبار فالمقصود بخير الزاد التقوى هنا أي إن خير الزاد ما تتقي به الهلاك وتتقي به سؤال الناس والحاجة إليهم، فإن الحاجة إلى الناس مذلة، لكن ليس هذا هو المعنى المتبادر من الآية.

ومن أهل العلم من يحمل قوله تعالى: **{وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}** [(١٩٧) سورة البقرة] على معنى تزودوا لآخرتكم من دنياكم، ثم وجههم إلى أفضل الزاد الموصل إلى رضوان الله -عز وجل- وهو التقوى، فهؤلاء جعلوا القضية تتعلق بالعبودية لله -تبارك وتعالى-، وهذا له نظائر في القرآن- وهؤلاء يبدو أنه غلب عليهم نعم هذه الحال فحملوا نظائر ذلك على هذه المعاني فيما يتصل بالعبادة في مثل قوله تعالى: **{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ}** [(١٠) سورة الجمعة]، فالمعروف أن المعنى أنه طلب منهم أن يبتغوا من فضل الله بالتجارة بالبيع والشراء بعد أن نهاهم عنه إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة، إلا أن بعضهم قال: ليس هذا هو المراد من قوله: **{وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ}** وإنما المراد منهم أن يبتغوا من فضل الله مما يقربهم إليه، بعيادة المريض، وصلة الأرحام، واتباع الجنائز، وما أشبه ذلك مما يكون به التعبد لله -عز وجل- والتقرب إليه.

وكذلك الأمر في مثل قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}** [(٧٧) سورة القصص]، فالمقصود بالآية: خذ من دنياك ما يحصل به الكفاف والبلاغ فإن الإنسان مضطر إلى ذلك، وهذا هو المعنى المشهور، إلا أن من أهل العلم من يقول: إن المعنى ولا تنس نصيبك من الدنيا فيما يبلغك إلى الله -عز وجل- والدار الآخرة من الأعمال الصالحة، فهم في مثل هذه النظائر يحملونها على العمل الصالح.

وعلى كل حال فظاهر الآية -والله تعالى أعلم- وسبب النزول يدل على أنه في قوله: **{وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}** [(١٩٧) سورة البقرة] جمع لهم بين التوجيه إلى التزود في سفرهم وفي حجهم مما يحتاجون إليه من الطعام ونحو ذلك، ثم أرشدهم إلى معنى أشار إليه بهذه المناسبة فإن الشيء بالشيء يذكر، فقال لهم: **{فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}** [(١٩٧) سورة البقرة] وهذا كما في قوله -تبارك وتعالى- في سورة المدثر: **{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}** [(٤) سورة المدثر]، فإن الله -عز وجل- يذكر هذا وهذا، أي يذكر ما يتصل بأمور تحصل بها مصلحتهم في الدنيا من اللباس أو القوت أو نحو ذلك، ويذكر أمراً يتعلق بآخرتهم مما يتصل بهذا المعنى.

ومن نظائر ذلك أيضاً قوله -تبارك وتعالى-: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** [(٢٢-٢٣) سورة القيامة] حيث جمع بين أمر محسوس وأمر معنوي، فمعنى ناضرة أي من البهاء والنضارة، ومعنى إلى ربها ناظرة

أي النظر إلى وجه الله الكريم في الآخرة، ومن نظائر ذلك أيضاً قوله تعالى: {وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا} [(١١) سورة الإنسان]، فالنضرة تكون في الوجه بالحسن والبهاء والإشراق، والسرور يكون بالنفس، ففي الآية الأولى جمع لهم بين نضارة الوجه وبين أعظم لذة وهي النظر إلى وجه الله –تبارك وتعالى–، وهنا لقاهم نضارة الوجه وبهجة النفس.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: {قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ} [(٢٦) سورة الأعراف]، فهو ذكر اللباس الذي يلبسه الإنسان أو يتقي به الحر والبرد، وذكر لباس التقوى الذي لا يستغني عنه العباد.

ومن نظائر ذلك قوله تعالى: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ} [(٦) سورة الصافات] فهي زينة ظاهرة، ثم قال: {وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ} [(٧) سورة الصافات]،.

ومن ذلك قوله –تبارك وتعالى– لآدم –صلى الله عليه وسلم–: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى} [(١١٨) سورة طــه]، فجمع له بين نفي الجوع عنه وهو شعور داخلي، ونفى عنه العري، وهو أمر يتصل بالظاهر، وهذا كثير في القرآن، فالمقصود أن قوله: {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [(١٩٧) سورة البقرة] معناه تزودوا من الأقوات ما فيه بلاغكم إلى حجكم، ثم نبههم بهذه المناسبة إلى أن خير ما يُتزود به في هذه الدار هو تقوى الله –عز وجل–؛ لأن الآخرة دار لا تصلح للمفاليس، والله أعلم.

"وقوله: {فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [(١٩٧) سورة البقرة]: لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها، كما قال: {وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ} [(٢٦) سورة الأعراف] لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشداً إلى اللباس المعنوي، وهو الخشوع والطاعة والتقوى، وذكر أنه خير من هذا وأنفع.

وقوله: {وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ} [(١٩٧) سورة البقرة]: يقول: واتقوا عقابي ونكالي وعذابي لمن خالفني ولم يأتمر بأمري يا ذوي العقول والأفهام.

{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ} [(١٩٨) سورة البقرة]: روى البخاري عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– قال: كانت عكاظ ومَجَنَّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية فتأثَّموا أن يتجروا في المواسم فنزلت: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} [(١٩٨) سورة البقرة] في مواسم الحج.

وروى أبو داود وغيره عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– قال: كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم، والحج، يقولون: أيام ذكر، فأنزل الله: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} [(١٩٨) سورة البقرة]، وهكذا فسرها مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومنصور بن المعتمر، وقتادة، وإبراهيم النخعي والربيع بن أنس، وغيرهم.

وروى ابن جرير عن أبي أميمة قال: سمعت ابن عمر –رضي الله تعالى عنهما– سُئِل عن الرجل يحجُّ ومعه تجارة، فقرأ ابن عمر: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} [(١٩٨) سورة البقرة].

وهذا موقوف، وهو قوي جيد، وقد روي مرفوعًا.

روى أحمد عن أبي أمامة التيمي قال: قلت لابن عمر: إنا نُكرَى فهل لنا من حج؟ قال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون المُعَرَّفَ، وترمون الجمار، وتحلقون رءوسكم؟ قال: قلنا: بلى، فقال ابن عمر: جاء رجل إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– فسأله عن الذي سألتني فلم يجبه، حتى نزل عليه جبريل –عليه السلام– بهذه الآية: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} [(١٩٨) سورة البقرة] **فدعاه النبي –صلى الله عليه وسلم–، فقال: ((أنتم حجاج))**[1]."

قوله تعالى: **{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ}** المشهور في معناها هو ما ذكره ابن كثير هنا، وهو الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفا، أي أنه التجارة في الحج، وإن كان هناك من حمل ابتغاء الفضل هنا على معنى آخر يتصل بالعبادة، ولكن المعروف والمشهور في معنى الآية هو التجارة في مواسم الحج.

وقد جاء في بعض القراءات غير المتواترة ما يبين أن المراد بذلك التجارة في موسم الحج.

قال: **عن أبي أمامة التيمي قال: قلت لابن عمر: إنا نُكرَى، فهل لنا من حج؟** أي أن الواحد منهم كان يخرج أجيراً مع الحجيج، وربما أسقط شيئاً من أجرته من أجل أن يمكنوه من الحج، فهو يخرج ليرتزق مع هؤلاء الناس حتى يحصل على بعض المال، لكن لا يكون مشتغلاً بالخدمة في سائر الوقت، فسأل أبو أمامة ابن عمر: هل لنا من حج؟ أي أنه يتساءل عن التشريك في النية هل تبطل حجه أم لا؟، فابن عمر –رضي الله عنه– أجابه بهذه الآية، **{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ}** [(١٩٨) سورة البقرة].

ومن قرأ حديث الأعمال بالنيات ومسألة مراتب العمل المتعلقة بهذا الحديث يجد أن هذه الصورة هي المرتبة الثانية، فالمرتبة الأولى: أن يقصد وجه الله –عز وجل– بالعمل ولا يلتفت إلى شيء آخر فهو يحج للحج فقط. والمرتبة الثانية: أن يلتفت إلى أمر يحصل على سبيل التبع مما يجوز الالتفات إليه، فهو يحج ويريد أيضاً التجارة، فهذا لا إشكال فيه، لكنه دون الأول، وكمن يجاهد وهو أيضاً يريد الغنيمة، لكن مع إرادة وجه الله –عز وجل– فهذا جهاده صحيح ويؤجر عليه، لكنه أيضاً ليس كمن تمحضت نيته بإرادة وجه الله –تبارك وتعالى–، ومثل ذلك من يصوم ليصح بدنه مع نية التقرب إلى الله تعالى فهو أيضاً ليس كمن تمحضت نيته بإرادة وجه الله تعالى، فكل هذه الصور لا إشكال فيها ولا تحبط العمل خلافاً للرياء والسمعة فإن ذلك يفسد العمل، ولا يجوز الالتفات إليه بحال من الأحوال.

"وروى ابن جرير عن أبي صالح مولى عمر –رضي الله تعالى عنه– قال: قلت: يا أمير المؤمنين، كنتم تتجرون في الحج؟ قال: وهل كانت معايشهم إلا في الحج؟.

وقوله تعالى: {فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ} [(١٩٨) سورة البقرة] **إنما صرف عرفات وإن كان علماً على مؤنث؛ لأنه في الأصل جَمْعٌ كمسلمات ومؤمنات، سمي به بقعة معينة فروعي فيه الأصل، فصرف. اختاره ابن جرير.**

وعرفة: موضع الوقوف في الحج، وهي عمدة أفعال الحج؛ ولهذا روى الإمام أحمدُ وأهل السنن بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن يَعمر الديَلي –رضي الله تعالى عنه– قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه

---

[1] – أخرجه أحمد في المسند (ج ٢ / ص ١٥٥) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح.

وسلم- يقول: ((الحج عرفات -ثلاثاً- فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك، وأيام منى ثلاثة فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه))[٢].

ووقت الوقوف من الزوال يومَ عرفة إلى طُلوع الفجر الثاني من يوم النحر؛ لأنّ النبيّ -صلى الله عليه وسلم- وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس وقال: ((لتأخُذوا عني مناسككم))[٣] وقال في هذا الحديث: ((فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك))[٤]".

قوله تعالى: {فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ} [(١٩٨) سورة البقرة] يعني إذا أفضتم من عرفات إلى مزدلفة، فالمقصود بالمشعر الحرام بهذا الاعتبار هو مزدلفة، وسيأتي الكلام على هذا عند تفسير الآية التالية وهي قوله تعالى: {ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} [(١٩٩) سورة البقرة]، مع بيان وجه الآية وهل فيها تقديم وتأخير، أو أنها على هذا الترتيب.

"وعن عروة بن مُضَرِّس بن حارثة بن لام الطائي -رضي الله تعالى عنه- قال: أتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة، فقلت: يا رسول الله، إني جئت من جَبَلَيْ طي، أكللت راحلتي وأتعبت نفسي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لي من حَجٍّ؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من شَهِد صلاتنا هذه، فوقف معنا حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجُّه وقضى تفثَه))[٥] رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي."

مسألة: هل يجوز لغير الضَّعَفَة أن يدفعوا إلى منى إذا غاب القمر، أو بعد منتصف الليل؟ وهل يقال: إنه يستحب أن يبقوا بها حتى يسفر جداً بعد أن يصلوا صلاة الفجر؟ هذه مسألة فيها كلام معروف لأهل العلم، ومما يحتج به من يقول: إنه لا يجوز ذلك لغير الضعفة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من شهد صلاتنا هذه ووقف معنا حتى ندفع وقد وقف بعرفة قبل ليلاً أو نهاراً فقد أتم حجَّه وقضى تفثه))[٦].

فقوله: ((من شهد صلاتنا هذه)) يعني صلاة الفجر يوم النحر في المزدلفة.

وقوله: ((ووقف معنا حتى ندفع)) أي عند المشعر الحرام حتى يسفر جداً، وقد وقف -عليه الصلاة والسلام- حتى أسفر جداً.

فهذا من أقوى ما يستدل به من قال: إنه يجب على الحاج أن يبقى في المزدلفة إلى الفجر، ويسن له أن يبقى حتى الإسفار، ولا يرخص بالدفع قبل ذلك إلا للضعفة، وعلى كل حال فهذه مسألة خلافية مشهورة، لذلك ينبغي لمن كان من غير الضعفة أن يحتاط لنفسه.

---

[٢] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ومن سورة البقرة (٢٩٧٥) (ج ٥ / ص ٢١٤) والنسائي في السنن الكبرى - كتاب الحج - باب فرض الوقوف بعرفة (٤٠١٢) (ج ٢ / ص ٤٢٤) والدارمي في كتاب المناسك - باب بمَ يتم الحج (١٨٨٧) (ج ٢ / ص ٨٢) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (٢٩٧٥).

[٣] - أخرجه مسلم دون قوله: ((عني)) في كتاب الحج - باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا وبيان قوله -صلى الله تعالى عليه وسلم-: ((لتأخذوا مناسككم)) (١٢٩٧) (ج ٢ / ص ٩٤٣).

[٤] - سبق تخريجه برقم (٢).

[٥] - أخرجه الترمذي في كتاب الحج عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج (٨٩١) (ج ٣ / ص ٢٣٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٣٢١).

[٦] - سبق تخريجه.

"ثم قيل: إنما سميت عَرَفات لما رواه عبد الرزاق، أخبرني ابن جريج قال: قال ابن المسيب: قال علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه-: بعث الله جبريل -عليه السلام- إلى إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فحج به، حتى إذا أتى عرفة قال: عرفت، وكان قد أتاها مرة قبل ذلك، فلذلك سميت عَرَفَة."

يعني أنه كان يطوف به في المناسك فجاء به إلى عرفة فقال له: عرفت؟ قال: نعم، ثم ذهب به إلى المزدلفة، ثم ذهب به عند الجمار، وهكذا كان يطوف به في المناسك ويعرفه -صلى الله عليه وسلم- المناسك في الحج، فكان يسأله في كل مرة ويقول له: هل عرفت؟ ولهذا سميت عرفة، وبعضهم يقول غير هذا، والله تعالى أعلم.

"وقال ابن المبارك: عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء قال: إنما سميت عرفة؛ لأنّ جبريل كان يُرِي إبراهيم المناسك، فيقول: عَرَفْت عَرَفْت، فسميت عرفات."

قد يقول قائل: إن جبريل كان يريه المناسك ولم يختص ذلك بعرفة فقط، فلماذا خص هذا الاسم بعرفة ولم يطلق على مزدلفة أو منى مثلاً؟

فالجواب هو كما يقول أهل اللغة: إن الأسماء لا تعلل، فمن الأسماء ما هو مرتجل، ومنها ما هو منقول، فالله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: قيل لها ذلك؛ لأن آدم وحواء تعارفا فيها، وهذه روايات إسرائيلية، وبعضهم يقول: سميت عرفات؛ لأن الناس يتعارفون فيها حيث يجتمعون فيها، فهي عيد مكاني زماني يتكرر كل سنة في نفس الوقت وفي مكان واحد، ولذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام))[7].

"وروي نحوه عن ابن عباس، وابن عمر وأبي مجلز -رضي الله تعالى عنهم- فالله أعلم.

وتسمى عرفات المشعر الحرام، والمشعر الأقصى، وإلال، على وزن هلال، ويقال للجبل في وسطها: جبل الرحمة."

يقال لعرفات: المشعر الحرام، لكن ليست هي المراد بقوله: **{فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ}** [(١٩٨) سورة البقرة]، فالمشعر الحرام هنا يطلق على المزدلفة، ويطلق أيضاً على معنى أخص وهو جزء من مزدلفة، وهو المكان الذي يقال له: جبل قزح، كما يقال لعرفة: المشعر الأقصى تفريقاً بينها وبين مزدلفة، ويقال لعرفة -كما في بعض النسخ-: المشعر الحلال بدلاً من المشعر الحرام، وهذه التسمية هي الأنسب؛ لأن عرفة أصلاً ليست من الحرم، وإنما المزدلفة هي التي من الحرم، فتكون عرفة هي المشعر الحلال والمشعر الأقصى، ومزدلفة هي المشعر الحرام.

"وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: "كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رءوس الجبال كأنها العمائم على رءوس الرجال دفعوا، فأخر رسول الله -صلى الله

---

7 - أخرجه أبو داود في كتاب الصوم - باب صيام أيام التشريق (٢٤٢١) (ج ٢ / ص ٢٩٥) والترمذي في كتاب الصوم - باب ما جاء في كراهية الصوم في أيام التشريق (٧٧٣) ج ٣ / ص ١٤٣) والنسائي في كتاب مناسك الحج - باب النهي عن صوم يوم عرفة (٣٠٠٤) (ج ٥ / ص ٢٥٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٤١٩).

عليه وسلم- الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس"[8] ورواه ابن مردويه، وزاد: "ثم وقف بالمزدلفة وصلى الفجر بغَلَس، حتى إذا أسفر كل شيء وكان في الوقت الآخر دفع" وهذا حسن الإسناد.

وفي حديث جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- الطويل الذي في صحيح مسلم قال فيه: "فلم يزل واقفاً -يعني بعرفة- حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القُرْصُ، وأردف أسامة -رضي الله تعالى عنه- خلفه، ودفعَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد شنق للقصواء الزّمام، حتى إنّ رأسها ليصيب مَورِك رحله."

إذا شنق للناقة الزمام فمعناه أنها لا تستطيع الانطلاق في السير، وإنما يضعف سيرها.

"حتى إنّ رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: ((أيها الناس، السكينة السكينة)) كلما أتى حَبْلاً من الحبال أرْخَى لها قليلاً حتى تصعد."

قوله: **كلما أتى حبْلاً من الحبال**، أي: حبال الرمل المستطيل الممتد،، والرحل تحتاج إلى مزيد من الجهد من أجل المشي عليه وتجاوزه، فلرفقه -صلى الله عليه وسلم- يرخي لها حتى تستطيع أن تسير بسهولة ويسر.

"أرْخَى لها قليلاً حتى تصعد، حتى أتى المُزْدَلِفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يُسَبِّحْ بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفَجرُ فصلى الفجر حين تَبَيَّن له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة، فدعا الله وكبره وهلله ووحَّده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلُع الشمس[9].

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد -رضي الله تعالى عنهما- أنه سُئِل كيف كان يسير رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين دَفَعَ؟ قال: "كان يسير العَنَق فإذا وجد فجوة نَصَّ"[10]، والعنق: هو انبساط السير، والنص فوقه."

يعني أنه لا يسرع في مشيه -صلى الله عليه وسلم-، وإنما يمشي مشياً معتدلاً، فإذا وجد فرجة أسرع قليلاً.

وركوبه -صلى الله عليه وسلم- القصواء في مزدلفة عند الدعاء بعد الفجر وكذلك في عرفة يؤخذ منه أن الأفضل أن يدعو الإنسان في عرفة وكذا في مزدلفة بعد الفجر وهو راكب السيارة ونحوها إذا تيسر له ذلك.

"وروى عبد الرزاق عن سالم قال: قال ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: المشعر الحرام المزدلفة كلها."

ربما يكون ذلك كما يقول بعض أهل العلم: إنه مأخوذ من الشعار، والشعار هو العلامة، فتقول: هذا شعار لكذا بمعنى علامة.

وهناك جملة من أعمال الحج يشرع إقامتها في مزدلفة، من صلاة ودعاء وذكر ومبيت، فكل هذه يفعلها الحاج في المزدلفة، حيث صلى فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- المغرب والعشاء وصلى فيها الفجر بعد أن بات فيها، وذكر الله -عز وجل- حتى أسفر جداً، فهذه الأعمال هي من جملة شعائر الحج، التي تقام في مزدلفة.

---

[8] - تفسير ابن أبي حاتم (ج ٢ / ص ٣٧) وصحيح ابن خزيمة (ج ٤ / ص ٢٦٢) وقال الألباني: إسناده حسن لغيره.

[9] - أخرجه مسلم في كتاب الحج - باب حجة النبي -صلى الله عليه وسلم- (١٢١٨) (ج ٢ / ص ٨٨٦).

[10] - أخرجه البخاري في كتاب الحج - باب السير إذا دفع من عرفة (١٥٨٣) (ج ٢ / ص ٦٠٠) ومسلم في كتاب الحج - باب الإفاضة من عرفات إلى المزدلفة واستحباب صلاتي المغرب والعشاء جميعاً بالمزدلفة في هذه الليلة (١٢٨٦) (ج ٢ / ص ٩٣٦).

"وقال هُشَيم عن حجاج عن نافع عن ابن عمر –رضي الله تعالى عنهما– أنه سئل عن قوله: {فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ} [(١٩٨) سورة البقرة] قال: فقال: هو الجبل وما حوله."

يقصد بالجبل جبل قزح الذي أشرت إليه آنفاً.

"وروي عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– وسعيد بن جُبير، وعكرمة، ومجاهد، والسدي، والربيع ابن أنس، والحسن، وقتادة أنهم قالوا: هو ما بين الجبلين."

يعني حد مزدلفة من جهة عرفة ما بين المأزمين، وهما الجبلان اللذان بينهما مضيق يدخل منه الحجاج، وهو من أوضح ما يكون للداخل إلى مزدلفة، وهما ليسا من مزدلفة، وإنما هما خارجان عنها، فمما بعدهما تبدأ مزدلفة، وهذا المكان هو من أوضح وأوسط الطرق –أي ما بين هذين الجبلين– وهذان الجبلان يمتدان إلى نهاية مزدلفة من جهة وادي محسر، ومزدلفة ما بينهما.

"وقد روى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم –رضي الله تعالى عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم–: قال: ((كل عرفات موقف وارفعوا عن عُرنة، وكل مزدلفة موقف وارفعوا عن مُحَسِّر، وكل فجاج مكة مَنْحر، وكل أيام التشريق ذبح))[11].

وقوله: {وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ} [(١٩٨) سورة البقرة] تنبيه لهم على ما أنْعَم الله به عليهم، من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج على ما كان عليه من الهداية إبراهيم الخليل –عليه السلام– ولهذا قال: {وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ} [(١٩٨) سورة البقرة] قيل: من قبل هذا الهدي وقبل القرآن وقبل الرسول –صلى الله عليه وسلم–، والكل متقارب ومتلازم وصحيح."

نعم الكل متقارب ومتلازم وصحيح؛ لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– هو الذي جاء بالقرآن، وهذه الأمور التي عرفوها من أعمال الحج من وقوفهم بعرفة ثم الدفع إلى مزدلفة إلى غير ذلك بعد أن كان الناس يقفون من الحمس في مزدلفة أو في حدود الحرم ولا يخرجون إلى عرفة، كل ذلك إنما جاء بهداية الله –عز وجل– لهم حينما بعث نبيه –صلى الله عليه وسلم– فعرفهم مناسكهم، فهذه المعاني معانٍ لا إشكال ولا خلاف بينها.

القراءات في قوله تعالى: {فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ} وأوجه إعرابها:

ذكر أبو حيان في قوله تعالى: {فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ} أربع قراءات وقال:

الأولى: قرأ أبو جعفر بالرفع والتنوين في الثلاثة: {فلا رفثٌ ولا فسوقٌ ولا جدالٌ في الحج}.

الثانية: وقرأ أبو رجاء العطاردي بالنصب والتنوين في الثلاثة: {فلا رفثاً ولا فسوقاً ولا جدالاً في الحج}.

الثالثة: قرأ الكوفيون ونافع بفتح الثلاثة –وهي قراءتنا–: {فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ في الحج}، من غير تنوين.

الرابعة: قرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع الأولين وفتح الثالث، أي: {فلا رفثٌ ولا فسوقٌ ولا جدالَ في الحج}.

أوجه الإعراب للقراءات الأربع:

---

[11] – أخرجه أحمد (ج ٤/ ص ٨٢) وابن حبان (ج ٩ / ص ١٦٦)، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف، سليمان بن موسى – وهو الأموي المعروف بالأشدق– لم يدرك جبير بن مطعم، وقد اضطرب فيه ألواناً.

وجه رفع الجميع مع التنوين {فلا رفثٌ ولا فسوقٌ ولا جدالٌ في الحج} في ملخص من تفسير أبي حيان يقول: على وجهين: إما أن تكون "لا" غير عاملة ورفعه ما بعدها على الابتداء، والخبر {في الحج}، أو أن تكون "لا" عاملة عمل ليس فيكون في الحج في موضع نصب خبراً لها.

يقول أبو حيان: جزم به ابن عطية وهو ضعيف، ثم ذكر أسباباً كثيرة لضعفه في أن "لا" لا تعمل عمل ليس إلا في القليل.

وجه نصب الثلاثة: {فلا رفثاً ولا فسوقاً ولا جدالاً في الحج}، يقول أبو حيان: هي منصوبة على المصادر، والعامل فيها أفعال من لفظها، والتقدير، فلا يرفث رفثاً ولا يفسق فسوقاً، ولا يجادل جدالاً، ويكون {في الحج} متعلقاً بما شئت من هذه الأفعال على طريقة الإعمال والتنازع.

القراءة الثالثة وهي فتح الثلاثة فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ في الحج، على أن "لا" نافية للجنس تعمل عمل إن.

أما القراءة الرابعة وهي رفع الأوليْن بالتنوين، وفتح {ولا جدالَ} بغير تنوين، ففيها أوجه:

الأول: أن يكون الرفع في الأوليْن على أن "لا" مهملة، والرفع بالابتداء والخبر محذوف.

والوجه الثاني: أن تكون "لا" في الرفث والفسوق عاملة عمل ليس، وفتحت ولا جدال على أن لا نافية للجنس.

الوجه الثالث: رفع الأوليْن على تقدير فلا يكونن رفثٌ ولا فسوقٌ، وفتح الثالث على تقدير أنّ لا نافية للجنس، فالأوليْن فيهما النهي، والثالث فيه الإخبار.

يقول أبو عبيد في هذا الوجه الأخير: وإنما افترقت الحروف عندهم عند من قرأ هذه القراءة؛ لأنهم جعلوا قوله: {فلا رفثٌ ولا فسوقٌ}، بمعنى النهي، أي لا يكون فيه ذاك، وتأولوا قوله: {ولا جدال} أي: لا شك في الحج ولا اختلاف أنه في ذي الحجة، وهي القراءة التي اختارها ابن جرير -رحمة الله تعالى عليه-.

يقول: فإذا كان ذلك كذلك فالذي هو أولى بالقراءة من القراءات المخالَفة بين إعراب الجدال، وإعراب الرفث والفسوق ليعلم سامع ذلك -إذا كان من أهل الفهم باللغات- أن الذي من أجله خولف بين إعرابيهما اختلاف معنييهما.

وإن كان صواباً قراءة جميع ذلك باتفاق إعرابه على اختلاف معانيه، إذ كانت العرب قد تتبع بعض الكلام بعضاً بإعراب مع اختلاف المعاني، وخاصة في هذا النوع من الكلام.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٨٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٩٩) سورة البقرة] "ثم" هاهنا لعطف خبر على خبر وترتيبه عليه، كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفَع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات، كما كان جمهور الناس يصنعون، يقفون بها إلا قريشاً، فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم، فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحِلِّ، ويقولون: نحن أهل الله في بلدته، وقُطَّان بيته."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ}، جاء بعد قوله -عز وجل-: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ} [(١٩٨) سورة البقرة] يعني إذا انتقلتم من عرفة إلى مزدلفة: {فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ} [(١٩٨) سورة البقرة] ثم قال: {ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} [(١٩٩) سورة البقرة] فهل هذه الإفاضة هي من مزدلفة إلى منى فتكون على هذا "ثم" على بابها للترتيب مع المهلة والتراخي، أم أن الإفاضة هنا هي نفسها التي ذكرت قبل وهي الإفاضة من عرفات إلى مزدلفة حيث قال: {فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ} فتكون "ثم" على هذا ليست للترتيب، أم أن في الكلام تقديماً وتأخيراً؟

فأما القول بأن في الكلام تقديماً وتأخيراً فهذا لا يلجأ إليه إلا للضرورة، لكن يحتمل أن يكون هذا من باب عطف جملة على جملة من غير قصد للترتيب، أي أن "ثم" تكون لمجرد العطف فقط من غير نظر إلى الترتيب، وبالتالي نقول: إن الله -عز وجل- أمرهم بالذكر إذا أفاضوا من عرفات كما أن الله -عز وجل- أمرهم بأن يفيضوا من عرفات ووجههم بجملة أمور: منها أن يذكروه إذا أفاضوا من عرفات في المزدلفة، ووجههم أن تكون إفاضتهم من عرفة من الحل إلى مزدلفة لا أن يقفوا دون ذلك كما كانت تفعل الحمس حيث كانوا يقولون: نحن قطان البيت وأهل الحرم فلا نخرج منه إلى الحل، فكان الناس يذهبون إلى عرفة وهم يقفون عند طرف الحرم، فالناس يفيضون من عرفة إلى مزدلفة وهؤلاء لم يخرجوا أصلاً إلى عرفة، فالله قال لهم: {ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ}، فيكون هذا من باب عطف جملة على جملة دون مراعاة للترتيب؛ لأنه لا زال يتحدث عن الإفاضة من عرفة، فهناك أمرهم بالذكر، وهنا أمرهم أن تكون إفاضتهم من عرفات، لا كما كانت تفعله الحمس، فقوله: {ثُمَّ أَفِيضُواْ} بهذا الاعتبار يمكن أن يكون المخاطب به هم الحمس، أي قريش ومن ولدت، وبالتالي "ثم" ليست للترتيب، وإنما هي لمجرد العطف.

وإذا قلنا: إن "ثم" على وجهها وإن الإفاضة إنما هي إفاضة أخرى غير الأولى، أي الإفاضة من مزدلفة إلى منى فيكون الخطاب على هذا لجميع الناس، أي أنه يأمرهم بعد أن يقفوا في المشعر الحرام في مزدلفة أن يفيضوا منه إلى منى، ويحتمل أن يكون ذلك أيضاً أمراً لجميع الناس بأن يفيضوا من عرفة إلى مزدلفة.

فإذا قلنا: إن الأمر هنا بالإفاضة من مزدلفة إلى عرفة، تكون "ثم" على بابها من الترتيب، وقوله: **{مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ}** يمكن أن يكون المراد به إبراهيم –صلى الله عليه وسلم– الذي نقتدي به في المناسك.

وإذا كان على الأول، أي أفيضوا من عرفة، فيكون المعنى أفيضوا كما تفيض سائر قبائل العرب أو سائر الأمة خلافاً لهؤلاء الحمس الذين كانوا يخالفون ويبقون في الحرم، وعلى هذا تكون "ثم" على ظاهرها من الترتيب.

وبعض أهل العلم يقول: إن في الآية تقديماً وتأخيراً، وممن قال بهذا ابن جرير الطبري –رحمه الله– مع تغاير أقوال هؤلاء وتفاوتها في هذا التقديم والتأخير، لكنهم قالوا بأصله وتفاوتت أقوالهم في سياق الجملة، مع أنه خلاف الأصل، فابن جرير الطبري –رحمه الله– يرى أن الترتيب هكذا: **{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ}** [(١٩٧) سورة البقرة] وبعد ذلك: **{ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ}** [(١٩٩) سورة البقرة] ثم: **{وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ}** [(١٩٧) سورة البقرة]، وهذا فيه شيء من التكلف.

والتقديم والتأخير له أمثلة تذكر، منها ما هو قريب ومنها ما هو بعيد، ففي قوله تعالى مثلاً عن عيسى –صلى الله عليه وسلم–: **{إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ}** [(٥٥) سورة آل عمران] فقوله: **{إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}**، هذه الوفاة إما أن نقول: إن المراد بها ليست الوفاة الحقيقية المعروفة وإنما مستوفيك بروحك وبدنك، أو متوفيك يعني في النوم، بمعنى أنه رفعه في حال النوم التي تسمى الوفاة الصغرى، فيكون على هذا الكلام مرتباً، أو يقال: في الكلام تقديم وتأخير وتقديره: (وإذ قال الله يا عيسى إني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك في النهاية، أي بعد أن ينزل إلى الأرض، فالوفاة بهذا الاعتبار تكون حقيقية، وهي الوفاة المعهودة، ولا أعني أن هذا القول في الآية راجحاً، وإنما المقصود أن هذا أحد الأمثلة التي يدعى فيها التقديم والتأخير، والله تعالى أعلم.

وهناك صورة أخرى أيضاً أو وجه آخر يمكن أن يقال فيه إن "ثم" للترتيب، لكن ليس الترتيب في الواقع والخارج، وإنما هو الترتيب في الذكر، حيث يذكر أخباراً يرتب بعضها على بعض دون أن يقصد أن ذلك مرتب في الواقع والخارج، كأن تقول لإنسان: فعلت كذا ثم فعلت كذا ثم فعلت كذا، وأنت لا تقصد أن هذه الأمور مرتبة بهذه الطريقة، والسياق أحياناً يبين أنك إنما تريد أن تعدد عليه، فأنت ترتب هذه الأمور في الذكر دون أن تقصد أن ذلك وقع في الخارج مرتباً كما ذكرته معطوفاً بـــ"ثم"؛ ولذلك ينبغي أن يُعلم أن "ثم" يمكن أن تكون لترتيب الأخبار أو الجمل بعضها على بعض دون أن يكون الأمر كذلك في الواقع ومن أمثلة ذلك من القرآن قوله تعالى: **{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا}** [(١٧) سورة البلد]، فالإيمان هو مطالب به من البداية وإلا لم يقبل منه عمل أصلاً، ولذلك فإن بعض أهل العلم يقول: هذا من باب ترتيب الجمل والأخبار بعضها على بعض، والله أعلم.

"روى البخاري عن عائشة –رضي الله تعالى عنها– قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسَمَّون الحُمْس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات."

كانوا يُسَمَّون الحُمْس، قيل: لأنهم يتحمسون لدينهم، يعني أن أكثر قبائل العرب تمسكاً وتديناً في نظر العرب وتقديرهم هم قريش؛ نظراً لما لهم من المكانة وما أعطاهم الله –عز وجل– من القيام على البيت.

"فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه –صلى الله عليه وسلم– أن يأتَي عرفات، ثم يقف بها ثم يُفيض منها، فذلك قوله: {مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} [(١٩٩) سورة البقرة].

وكذا قال ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– ومجاهد، وعطاء، وقتادة، والسدي، وغيرهم."

وبهذا الاعتبار يكون المراد بقوله: {مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} يعني سائر القبائل، أو سائر الناس، والمعنى لا تنفردوا دونهم وتقفوا في حد الحرم، وإنما أفيضوا من حيث أفاض الناس، فهنا إن قلنا إن "ثم" للترتيب فلا بد أن نقول بالتقديم والتأخير أو يقال: إن هذا ترتيب في الذكر فقط، أي ترتيب جملة على جملة، وخبر على خبر، وأمر على أمر فقط دون أن يكون ذلك مراعى به ما يقع في الخارج، والله أعلم.

"واختاره ابن جرير، وحكى عليه الإجماع."

الذي حكى عليه ابن جرير الإجماع أنهم يفيضون من عرفة إلى مزدلفة، هذا الذي قاله ابن جرير، ثم بعد ذلك ذكر القول بالتقديم والتأخير، وكأنه أراد أن يوجه –مع هذا– القول الذي يستشكل في"ثم" بأن يجعل "ثم" على ظاهرها للترتيب، فقال: الكلام فيه تقديم وتأخير، والقائلون بالتقديم والتأخير هم قليل حتى إن بعضهم رده صراحة وقال: هذا لا يصح، مثل ابن عطية، وهو خلاف الأصل.

لكن ابن جرير مع أنه كان يستحسن القول الآخر وهو أن الإفاضة المراد بها الإفاضة من مزدلفة إلى منى وهذا القول قال به كثيرون، ومع ذلك قال ابن جرير: هذا قول جيد، ووجهه حسن ولكننا لا نستجيز مخالفة الإجماع، ومعلوم أن مقصود ابن جرير بالإجماع قول الأكثر، وإلا فالقائلون بالقول الثاني كثيرون جداً أيضاً، فالله أعلم.

لكن العجيب أنك ترى كثيراً من أهل العلم يقولون: إن ابن جرير يقول بالقول الآخر، وهي أن الإفاضة من مزدلفة، ولا أدري ما الذي أوقعهم في هذا، فربما أنهم نظروا إلى أنه جعل "ثم" على بابها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنه استحسن القول الثاني بعد أن ذكر وجهه، وأنه قول حسن، فربما نظروا إلى هذا دون ما قبله وما بعده حيث إن أسلوب ابن جرير –رحمه الله– كما هو معروف أنك تجده يتحدث عن معنى وكأنه يرجح هذا القول ثم يذكر بعده قولاً آخر فربما رجع للقول الذي قبله، وهكذا تجده يعلق بعد كل قول من أقوال أبي جعفر في التفسير ويعلق تعليقاً مشابهاً له في موضع بعد القول الثاني أو الثالث، أو في النهاية بعد أن يذكر الأقوال، فإذا جمعت عباراته التي يرجح بها وقارنت بينها تبين لك مراده، لكن ربما يقف الإنسان على جملة من أربعة أو خمسة أو عشرة أسطر، مما يقرر فيها توجيه هذا القول أو ترجيحه أو ردَّ غيره، فيظن الإنسان أحياناً أن هذا هو قوله من أوله إلى آخره، وليس الأمر كذلك، بل يحتاج أن ينظر في التعليقات الأخرى التي علق فيها على باقي الأقوال وما قاله في النهاية، حتى إنك تجد أحياناً كلامه في غاية التشابه هنا وهنا.

"وروى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم -رضي الله تعالى عنه- قال: أضللتُ بعيرًا لي بعرفة، فذهبت أطلبه، فإذا النبي -صلى الله عليه وسلم- واقف، قلت: إن هذا من الحُمْس ما شأنه هاهنا؟"[1] أخرجاه في الصحيحين."

جبير بن مطعم -رضي الله عنه- كان من قريش، فكان ذلك عادتهم ومألوفهم، فهو مستغرب أن النبي -صلى الله عليه وسلم- واقف مع الناس بعرفة.

"ثم روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ما يقتضي أن المراد بالإفاضة هاهنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار، فالله أعلم.

وقوله: {وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٩٩) سورة البقرة] كثيرًا ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات، ولهذا ثبت في صحيح مسلم أنّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر ثلاثًا[2]، وفي الصحيحين أنَّه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثًا وثلاثين[3]، وقد أوردناه في جُزْء جمعناه في فضل يوم عرفة."

هذا وجه حسن في توجيه ذكر الأمر بالاستغفار بعد قضاء المناسك مع أنهم كانوا في عبادة من أجلِّ العبادات، فكما أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا فرغ من صلاته استغفر فهنا كذلك، وذلك لا شك أنه يقتضي دفْعَ العجب والاستمرار على الطاعة، فيفرغ من عبادة ثم يدخل في أخرى، كما أن هذا يحتاج إليه العبد وذلك أن العبادة التي يقوم بها لا تخلو من نقص وتقصير، فهو يستغفر الله من ذلك.

ومن أهل العلم من يقول: إن الأمر بالاستغفار في قوله هنا: **{وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ}** [(١٩٩) سورة البقرة] يعني أنهم لمّا كانوا في مقامات حريٌّ أن يستجاب للعبد بها أمروا بالاستغفار، فالإنسان يدعو في الطواف، وعلى الصفا والمروة، وبين ذلك، ويدعو أيضاً في عرفة وفي آخر مقامه في مزدلفة ثم أيضاً إذا رمى الجمار في أيام التشريق يقف بعد الأولى والثانية ويدعو طويلاً قريباً من سورة البقرة، فهذه مواطن لهذه العبادات الشريفة وهي حري أن يستجاب للعبد بها، فربما كان الأمر بالاستغفار بسبب ذلك.

وبعض أهل العلم يقول: هذا موجه للحمس الذين كانوا يقفون في الحرم، حيث أمروا بالاستغفار من وقوفهم دون عرفة، وهذا بعيد غاية البعد؛ لأن الخطاب هنا يشرع لهم فيه ويبين لهم المناسك وما ينبغي لهم فعله، فهو لا يخاطب أولئك المشركين الذين وقفوا في المزدلفة؛ ثم إن هؤلاء لا حج لهم أصلاً؛ لأن الحج عرفة، فحجهم باطل، وليس لهم إلا التعب، فهذا لا يكفي فيه مجرد الاستغفار، بل لازالوا على إحرامهم، وفاتهم الحج، وعليهم أن يكملوا هذا الحج الفاسد، ويتحللوا منه بالطواف بالبيت، ثم عليهم على قول بعض أهل العلم

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الحج - باب الوقوف بعرفة (١٥٨١) (ج ٢ / ص ٥٩٩) ومسلم في كتاب الحج - باب في الوقوف وقوله تعالى "ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس" (١٢٢٠) (ج ٢/ ص ٨٩٤).

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (٥٩١) (ج ١ / ص ٤١٤).

[3] - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب من لم ير رد السلام على الإمام واكتفى بتسليم الصلاة (٨٠٧) (ج ١ / ص ٢٨٩) ومسلم في كتاب الصلاة - باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (٥٩٥) (ج ١ / ص ٤١٦).

أن يأتوا بحجة أخرى، وهذا إذا أردنا أن ننزل الحكم على المشركين، مع أن عباداتهم أصلاً مردودة؛ لأنهم أهل إشراك، والله لا يقبل من المشركين شيئاً.

"وأورد ابن مَرْدويه هاهنا الحديث الذي رواه البخاري عن شداد بن أوس -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوءُ لك بنعمتك عَلَيّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة))[٤].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- أن أبا بكر -رضي الله تعالى عنه- قال: "يا رسول الله، عَلمني دعاء أدعو به في صلاتي" فقال: ((قل: اللهمّ إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مَغْفِرةً من عندك وارحمني، إنَّك أنت الغفور الرحيم))[٥]، والأحاديث في الاستغفار كثيرة.

{فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ* وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ* أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [(٢٠٠-٢٠٢) سورة البقرة] يأمرُ تعالى بذكره والإكثار منه بعد قَضَاء المناسك وفراغها."

عرفنا قبلُ أن المناسك هي أعمال الحج، أو أن المراد بها ما يتعلق بالذبح.

"وقوله: {كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ} قال سعيد بن جُبَير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم، فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحَمَالات ويحمل الديات، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم."

قد يشكل عند البعض في قوله تعالى: {كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ} أن الإنسان قد لا يذكر أباه في الحج، بل قد يمر عليه اليوم واليومان لا يذكره، فما وجه الآية هنا؟

لقد وُجه هذا الإشكال إلى ابن عباس -رضي الله عنهما- فبين -رضي الله عنه- وجهاً للآية غير هذا الظاهر المتبادر، فقال: {كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ}، أي: أن تغضب لله كما تغضب لأبيك إذا ذكر بسوء أو انتقص منه، أو أشد غضباً إذا انتهكت حرمات الله -عز وجل-، فهذا التفسير يمكن أن يخرج على أنه تفسير باللازم أو بالتضمن، لكنه ليس تفسيراً بالمطابقة، فالظاهر المطابق لقوله: {كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ} أنكم تكثرون من ذكره كما تكثرون من ذكر آبائكم، وهذا يتضمن أنهم إذا انتقص آباؤهم فإنهم لا يرضون بذلك بل يغضبون لهم؛ لشدة محبتهم وافتخارهم وتعظيمهم لهم، والله أعلم.

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الدعوات - باب أفضل الاستغفار (٥٩٤٧) (ج ٥ / ص ٢٣٢٣).

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الدعوات - باب الدعاء في الصلاة (٥٩٦٧) (ج ٥ / ص ٢٣٣١) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب استحباب خفض الصوت بالذكر (ج ٤ / ص ٢٠٧٨).

وهذا الذكر المشروع لم يحدد هنا في الآية، إلا أن بعض أهل العلم نظر إلى المناسبة، فقال: إن الذي يفعله الحاج بعد قضاء المناسك ورمي جمرة العقبة هو التكبير، فهو الذكر المشروع حينذاك في حقه، ومن ثم يقال: **{فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا}** أي: اذكروه بالتكبير، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وبعض أهل العلم نظر إلى ما سبق من أنهم كانوا يذكرون آباءهم ويتفاخرون فيهم، فقال: يلهج بذكر الله -عز وجل- مع الاستكانة والتضرع؛ لأن ذكر الآباء عند البررة بآبائهم يكون مع الاستكانة والتضرع، ولهذا جاء عن بعضهم كرجاء بن حيوة وغيره في صفة برهم بآبائهم أن الواحد منهم إذا كان عند أمه تراه كأنه مريض، فيسأل عن مرضه، فيقال: إنه ليس مريضاً ولكن هكذا حاله دائماً مع أمه، فمن شدة الاستكانة عندها ومن شدة بره وإجلاله وتعظيمه لأمه يراه الناظر إليه كأنه مريض.

وبعضهم كان لا يتكلم مع أمه أو مع أبيه إلا كالمتضرع، وبعضهم كان لا يكلم أباه أو أمه إلا كمن يتكلم سراً مع أحد فلا يكاد يسمع؛ لئلا يحصل منه رفع صوت على أبيه وأمه!!.

وبعض الشباب للأسف إذا سئل عن حاله افتتح بالمقدمة فيقول: أنا ملتزم، وهو في الحقيقة صاحب كبائر وعقوق لوالديه، وهو يظن أن التزامه يكون بمجرد إعفاء لحيته، والأمر ليس كذلك؛ إذ كيف يكون ملتزماً من يعقُّ والديه، أو يترك الصلوات، أو من كان قاطعاً لرحمه، فمثل هذا لا يكفيه مجرد الالتزام بإعفائه لحيته أو نحو ذلك ما دام حاله كذلك، نسأل الله العافية.

"فأنزل الله على محمد -صلى الله عليه وسلم-: {فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله -عز وجل- ولهذا كان انتصاب قوله: {أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} على التمييز، تقديره كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا."

أمرهم الله -عز وجل- بأن يذكروه كذكرهم لآبائهم، وهذا يقتضي الإكثار من ذكره، نعم الإكثار، أو يذكروه ذكراً يماثل ذكر آبائهم، والكاف في قوله: **{كَذِكْرِكُمْ}** للتشبيه أي ذكراً يماثل ذكرهم لآبائهم أو أشد بحيث يكثرون من ذكره، وسبب النزول يوضح ذلك.

يقول ابن كثير -رحمه الله-: **والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله -عز وجل- ولهذا كان انتصاب قوله: {أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} على التمييز، تقديره كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا**، و"أو" هنا لتحقيق المماثلة في الخبر، يعني أنها ليست للتخيير ولا للإباحة وإنما هي للتحقيق، وكأنها بمعنى "بل" أي: بل أشد ذكراً، كما يقوله بعض أهل العلم، وما ذكره ابن كثير -رحمه الله- هنا من أن **{أَشَدَّ}** منصوب على التمييز ليس محل اتفاق، بل إن مسألة النصب هنا تحتمل أشياء أخرى غير التمييز، كما أنها تحتمل الجر أيضاً؛ وذلك لأن لفظ "ذكر" في قوله: **{كَذِكْرِكُمْ}** مجرورة بالكاف، فيمكن أن تكون **{أَشَدَّ}** عائدة إلى ذكر فتكون أيضاً مجرورة، ويمكن أن تكون عائدة إلى الضمير الذي هو الكاف في "ذكركم" وهي مضاف إليه فتكون مجرورة أيضاً، فالجر محتمل وكذلك النصب، والقائلين بالنصب أكثر، ووجوه النصب المحتملة ربما تصل إلى خمسة أوجه منها ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- من أنه منصوب على التمييز.

والخلاصة أن المعنى –والله أعلم– هو أنه أمرهم أن يذكروه ذكراً كثيراً يماثل ذكرهم الكثير لآبائهم، بل أشد ذكراً من ذكر آبائهم؛ لأن الله أعظم وأجلّ، وإنما يهلج الإنسان ويذكر كثيراً من يعظمه ويحبه، فالإنسان إذا أحب أحداً من الناس ذكره في كل مناسبة ومن غير مناسبة فكيف بالله –عز وجل–؟!

"و"أو" هاهنا لتحقيق المماثلة في الخبر كقوله: {فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [(٧٤) سورة البقرة]، وقوله: {يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً} [(٧٧) سورة النساء] وقوله: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} [(١٤٧) سورة الصافات]."

"أو" في هذه الآيات ليست للشك قطعاً؛ لأن ذلك لا يرد على الله –عز وجل–، فالله يعلم خفايا الأمور ودقائق الأشياء، لكن هذا يمكن أن يوجه بأنه للتحقيق مثلاً أو بمعنى "بل"، فيكون المعنى: وأرسلناه إلى مائة ألف بل يزيدون، فكان قاب قوسين بل أدنى، ويمكن أن يكون ذلك بناءً على قاعدة ذكرناها سابقاً وهي أنه قد يرد الخطاب في القرآن باعتبار حال أو نظر المخاطب، فهي بالنسبة لهؤلاء المخاطبين لو نظروا للقوم الذين أُرسل إليهم يونس –صلى الله عليه وسلم– بعد أن أنجاه الله من بطن الحوت فسيقدرونهم بمائة ألف أو يزيدون، وعلى القاعدة يكون قوله: {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} [(٩) سورة النجم]، أي في تقديراتكم.

"وقوله: {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} [(٩) سورة النجم]. فليست هاهنا للشك قطعاً، وإنما هي لتحقيق المخبر عنه كذلك أو أزيَد منه.

ثم إنه تعالى أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره، فإنه مظنة الإجابة، وذم من لا يسأله إلا في أمر دنياه، وهو معرض عن أخراه، فقال: {فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ} [(٢٠٠) سورة البقرة] أي: مِنْ نَصيب ولا حظٍّ، وتضمَّن هذا الذمّ التنفير عن التشبه بمن هو كذلك.

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف، فيقولون: اللهم اجعله عام غَيث وعام خصْب وعام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم: {فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ} [(٢٠٠) سورة البقرة]، وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [(٢٠١) سورة البقرة] فأنزل الله: {أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [(٢٠٢) سورة البقرة] ولهذا مدح من يسأله الدنيا والأخرى فقال: {وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [(٢٠١) سورة البقرة]."

سبب نزول قوله تعالى: {وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [(٢٠١) سورة البقرة] يبين معناها، فهم يقولون: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً} أي يسألون الله –عز وجل– من خيري الدنيا والآخرة.

ومن أهل العلم من يحمل مثل هذه الآيات على أمور تتعلق بالتعبد، فقالوا: آتنا في الدنيا حسنة ليس المراد به الزوجة الحسناء أو المال أو ما أشبه ذلك، وإنما {فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} يعني العبادة والتوفيق للطاعة، {وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً} يعني الجنة.

وقد مرت بنا في الدرس الماضي آيات حملها بعض أهل العلم على نظائر هذا، مثل قوله تعالى: **{أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ}** [(١٩٨) سورة البقرة]، وقوله تعالى: **{وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}** [(١٩٧) سورة البقرة]، وقوله: **{وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}** [(٧٧) سورة القصص]، وقوله: **{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ}** [(١٠) سورة الجمعة]، فهذا منحى لبعض أهل العلم يفسِّر به مثل هذه الآيات، وإن كنا لا نقول إن هذا هو المعنى الراجح فيها.

فالمقصود أن الحسنة في قوله تعالى: **{رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً}** [(٢٠١) سورة البقرة] غير محددة، فيدخل فيها كل ما يحتاج إليه الإنسان ويُسرُّ به ويستحسنه من أمور هذه الدنيا وحطامها من المال والولد والزوجات والمراكب، ويدخل في ذلك أيضاً ما يوفق إليه من العبادات والطاعات فكل ذلك من الحسنة في الدنيا، وأما الآخرة فهي الجنة.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (٩٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "ولهذا مدح من يسأله الدنيا والأخرى فقال: {وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [(٢٠١) سورة البقرة] فجمعت هذه الدعوةُ كلَّ خير في الدنيا وصرَفت كلّ شر؛ فإن الحسنة في الدنيا تشملُ كلّ مطلوب دنيوي، من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عباراتُ المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا.

وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العَرَصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام.

وقال القاسم بن عبد الرحمن: "من أُعطي قلبا شاكراً، ولساناً ذاكراً، وجسداً صابرًا، فقد أوتي في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووقي عذاب النار"، ولهذا وردت السنة بالترغيب في هذا الدعاء.

روى البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: "كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((اللَّهم ربَّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار))[1]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا اللون من التفسير هو من أحسن ما يقال في تفسير هذه الآية، وإذا جرى المفسر على هذا النمط في كثير من المواضع التي يمكن فيها أن تجمع الأقوال سواء كانت من خلاف التنوع أو خلاف التضاد فإن هذا هو التحقيق في التفسير، وهذا تجده كثيراً في تفسير ابن كثير -رحمه الله- وتجده أيضاً في تفسير ابن جرير، وتجد ذلك أيضاً في كلام الحافظ ابن القيم، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وأيضاً في أضواء البيان، وأمثال هذه الكتب التي كتبها أئمة محققون، وهذا بخلاف بعض الكتب التي أولع أصحابها بتشقيق الأقوال وتعدادها فلا تجد فيها مثل هذا، ولهذا إذا قرأ في تلك الكتب من لا بصر له في التفسير ربما لا يزيده ذلك إلا حيرة في معرفة الراجح من هذه الأقوال الكثيرة.

وعلى كل حال فهذا مثال على هذا النوع من التحقيق، وذلك أن الله -عز وجل- لم يخصص حسنة دون حسنة، وإنما قال: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً} فيدخل فيه كل ما ذكره المفسرون مما يصدق عليه أنه حسنة.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب قول الله: {وعلم آدم الأسماء كلها} (٤٢٥٠) (ج ٤ / ص ١٦٤٤) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب فضل الدعاء باللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار(٢٦٩٠) (ج ٤ / ص ٢٠٧٠) واللفظ للبخاري.

والمعنى الذي ذكره أيضاً في قوله: {وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} مما يتعلق باتقاء الشبهات والمحرمات إلى آخره، هذا كله مما يذكر قد بُني على ما يذكر في الأصول من أن النص تسلط عليه أنواع الاستنباط المأخوذة من أنواع الدلالة المعروفة، فيؤخذ منه ومن معناه المطابق والمتضمن واللازم، ودلالة الإشارة، ودلالة الإيماء والتنبيه، فإذا قال: {وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} فإن لازم ذلك أن يقيه أسباب دخول النار.

"وروى أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عاد رَجُلاً من المسلمين قد صار مثل الفَرْخ، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إيَّاه؟)) قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((سبحان الله! لا تطيقه -أو لا تستطيعه- فهلا قلت: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ))، قال: فدعا الله، فشفاه" [انفرد بإخراجه مسلم][2].

وروى الحاكم في مستدركه عن سعيد بن جبير قال: جاء رَجُل إلى ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- فقال: إني أجرت نفسي من قوم على أن يحملوني، ووضعت لهم من أجرتي على أن يدعوني أحجَّ معهم، أفيجزي ذلك؟ فقال: أنت من الذين قال الله: {أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [(٢٠٢) سورة البقرة]، ثم قال الحاكم: [صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه][3]."

سبق الكلام في قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} [(١٩٨) سورة البقرة] عن الذي يكري نفسه في الحج، وهذه الرواية مفسِّرة لتلك الرواية، فهو يكري نفسه بالحج ويضع من أجرته على أن يمكنوه من الحج.

واسم الإشارة في قوله -تبارك وتعالى-: {أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ} [(٢٠٢) سورة البقرة] يرجع كما قال بعض أهل العلم إلى الذي أراد الدنيا بقوله: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا} [(٢٠٠) سورة البقرة] وإلى الذي أراد الدنيا والآخرة بقوله: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [(٢٠١) سورة البقرة].

والأقرب -والله أعلم- أن اسم الإشارة يرجع إلى المذكور الآخِر وهو قوله: {وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [(٢٠١) سورة البقرة] وهذا على قاعدة أن اسم الإشارة يرجع إلى أقرب مذكور، وهذا الذي عليه كثير من المحققين سلفاً وخلفاً وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وابن كثير لم يتعرض لهذه المسألة.

وسريع الحساب من قوله تعالى: {وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [(٢٠٢) سورة البقرة] يحتمل معنيين:

المعنى الأول: أن مجيءَ اليوم الآخر الذي يقع فيه الحساب وهو يوم القيامة سريع وقريب، ومعلوم أن كل ما هو آت قريب، والله أخبر عن أمر الساعة أنه كلمح البصر أو هو أقرب، وأن هذه الدنيا قصيرة وسريعة الانقضاء والزوال.

والمعنى الثاني المتبادر والأشهر وهو الذي عليه كثير من المفسرين، وهو اختيار ابن جرير الطبري -رحمه الله- أن ذلك الحساب لا يطول لكثرة الخلق الذين يحاسبهم الله، بخلاف حال المخلوقين فإنهم إذا كثر ذلك

---

2 - أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا (٢٦٨٨) (ج ٤ / ص ٢٠٦٨).

3 - أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٠٩٩) (ج ٢ / ص ٣٠٥).

عليهم فإن هذا يقتضي طول الوقت الذي تستغرقه تلك المحاسبة، والله لا يحتاج إلى إحصاء وعد وضبط بيدٍ أو آلة يضبط فيها هذا الحساب؛ فحساب النفوس جميعاً عنده سبحانه كحساب نفس واحدة، والله تعالى أعلم.

"{وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [(٢٠٣) سورة البقرة].

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: "الأيام المعدودات" أيام التشريق و"الأيام المعلومات" أيام العَشْر، وقال عكرمة: {وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ} يعني التكبير في أيامَ التشريق بعد الصلوات المكتوبات: الله أكبر، الله أكبر."

هذا القول بأن الأيام المعلومات هي أيام العشر، والمعدودات هي أيام التشريق هو الذي عليه السواد الأعظم، وهو يشبه الإجماع، وإن وجد من خالف في ذلك باعتبار أن الله -عز وجل- قال: **{وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ}** [(٢٨) سورة الحـج]، فقالوا: إنما يكون ذلك في أيام الذبح والنحر ابتداءً من يوم النحر وثلاثة أيام بعده -على خلاف في العدد- فقالوا: هذه قرينة تدل على أن الأيام المعلومات أيضاً هي تلك الأيام، وهذا القول فيه نظر؛ لأن الله يقول: **{وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ}** [(٢٠٣) سورة البقرة] وهذا دليل واضح أن المراد بهذه الأيام أيام التشريق إذ لا تعجل في أيام العشر، ولأن ذِكر اسمه -تبارك وتعالى- على ما رزق من بهيمة الأنعام لا يعني أنها أيام ذبح وأنها هي المقصودة، ولكن الناس يذكرونه في تلك الأيام التي هي مقدمة لأيام أخرى شريفة منها أعظم يوم عند الله -عز وجل- وهو يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر على قول كثير من أهل العلم وهو الراجح، ثم أيام التشريق التي تأتي بعد يوم النحر، وهي أيضاً أيام عيد، ثم إن كثيراً من الذين جاءوا للحج هم ممن يسوقون الهدي فناسب ذلك ذكر بهيمة الأنعام عند الحديث عن أيام العشر فهي إذن الأيام المعلومات، والله أعلم.

قوله: **قال عكرمة: {وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ}** [(٢٠٣) سورة البقرة] **يعني التكبير في أيامَ التشريق بعد الصلوات المكتوبات: الله أكبر، الله أكبر**، هذا ورد عن جماعة من الصحابة وعن التابعين أن الذكر في هذه الأيام المعدودات يكون بالتكبير الذي بعد الصلوات، وهو الذي يسميه الفقهاء التكبير المقيد، ويكاد يتفق هؤلاء الفقهاء -رحمهم الله- على أن هذا التكبير المقيد يكون في الأيام المعدودات، وإن اختلفوا في ابتدائه هل يكون من فجر يوم عرفة أو من يوم النحر أو غير ذلك، فهم مختلفون في هذا كثيراً، ولكنهم يكادون أن يتفقوا على أن ذلك التكبير يكون بعد الصلوات في أيام التشريق، ولا يعني هذا أنه يكبر بعد الصلوات ولا يكبر باقي الوقت، بل يكبر مطلقاً أيضاً؛ لأنها أيام أكل وشرب وذكر لله تعالى، وإذا ذكروا التكبير الذي ذكره الله -عز وجل- في الأيام المعلومات التي هي أيام العشر لا يذكرون أن ذلك يكون بعد الصلاة، ولذلك قال الفقهاء -رحمهم الله- عن هذا التكبير: إنه التكبير المطلق، وهذه المسألة وإن لم يوجد فيها نص صريح يحدد ذلك بدقة إلا أنّ تتبع مثل هذه الآثار ربما يكون مستنداً لهذا التفريق بين التكبير المطلق والتكبير المقيد، والله أعلم.

"وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يوم عَرَفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدُنا أهل الإسلام، وهي أيام أكل وشرب))[4].

وروى أحمد أيضًا عن نُبَيشة الهذلي -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أيام التشريق أيامُ أكل وشرب وذكر الله)) ورواه مسلم أيضًا[5].

وتقدم حديث جبير بن مطعم -رضي الله تعالى عنه-: ((عَرَفَة كلها موقف وأيام التشريق كلها ذبح)).

وتقدم أيضًا حديث عبد الرحمن بن يَعْمَر الدِّيلي -رضي الله تعالى عنه-: ((وأيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه))[6].

وروى ابن جرير عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أيام التشريق أيام طُعْم وذكر الله))[7].

وروى ابن جرير أيضاً عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعث عبد الله بن حُذافة -رضي الله تعالى عنه- يطوف في منى: ((لا تصوموا هذه الأيام؛ فإنها أيام أكل وشرب، وذكر الله عز وجل))[8].

وقال مِقْسَم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: "الأيام المعدودات أيام التشريق أربعة أيام، يوم النحر وثلاثة بعده".

ورُوِي عن ابن عمر، وابن الزبير، وأبي موسى -رضي الله تعالى عنهم- وعطاء، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وأبي مالك، وإبراهيم النخَعي، ويحيى بن أبي كثير، والحسن، وقتادة، والسدي، والزهري، والربيع بن أنس، والضحاك، ومقاتل بن حيّان، وعطاء الخرساني، ومالك بن أنس وغيرهم مثل ذلك.

وعليه دل ظاهر الآية الكريمة، حيث قال: {فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ} [(٢٠٣) سورة البقرة] فدل على ثلاثة بعد النحر."

المشهور الذي عليه عامة أهل العلم أن أيام التشريق التي هي أيام الذبح والذكر هي ثلاثة أيام بعد يوم النحر، أي أنها تنتهي بغروب شمس اليوم الثالث عشر من ذي الحجة، وفي كلها يكون الذبح سواء في ليلها أو

---

[4] - أخرجه أبو داود في كتاب الصوم - باب صيام أيام التشريق (٢٤٢١) (ج ٢ / ص ٢٩٥) والترمذي في كتاب الصوم - باب ما جاء في كراهية الصوم في أيام التشريق (٧٧٣) (ج ٣ / ص ١٤٣) والنسائي في كتاب مناسك الحج - باب النهي عن صوم يوم عرفة (٣٠٠٤) (ج ٥ / ص ٢٥٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٤١٩).

[5] - أخرجه مسلم دون قوله: ((وذكر الله)) في كتاب الصيام - باب تحريم صوم أيام التشريق (٢٤٢١) (ج ٢ / ص ٢٩٥) وأحمد (٢٠٧٤١) (ج ٥ / ص ٧٥) واللفظ له.

[6] - أخرجه أبو داود في كتاب المناسك - باب مَنْ لَمْ يُدْرِكْ عَرَفَةَ (١٩٥١) (ج ٢ / ص ١٤١) والترمذي في كتاب الحج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج (٨٨٩) (ج ٣ / ص ٢٣٧) والنسائي في كتاب مناسك الحج - باب فيمن لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة (٣٠٤٤) (ج ٥ / ص ٢٦٤) وابن ماجه في كتاب المناسك - باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع (٣٠١٥) (ج ٢ / ص ١٠٠٣) وصححه العلامة الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٢٧١٤).

[7] - أخرجه أحمد (٧١٣٤) (ج ٢ / ص ٢٢٩) وقال شعيب الأرنؤوط: "صحيح لغيره وهذا إسناد حسن ".

[8] - أخرجه أحمد (١٠٦٧٤) (ج ٢ / ص ٥١٣) وقال شعيب الأرنؤوط: "صحيح وهذا إسناد ضعيف لضعف صالح بن أبي الأخضر".

نهارها لا فرق، وإنْ فرّق بعض أهل العلم إلا أن هذا هو الذي عليه عامة أهل العلم وهو التي تدل عليه الأدلة، والله أعلم.

"ويتعلق بقوله: {وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ} [(٢٠٣) سورة البقرة] ذكْرُ الله على الأضاحي، والذكر المؤقَّت خلف الصلوات، والمطلق في سائر الأحوال، ويتعلق بذلك أيضاً التكبيرُ وذكر الله عند رمي الجمرات كلّ يوم من أيام التشريق، وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: ((إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله عز وجل))[9]."

يقصد بهذا أن أيام التشريق يجتمع فيها الذكر المطلق في كل وقت والذكر المقيد أدبار الصلوات، وقد جاء عن عمر -رضي الله عنه- أنه كان يكبر بقبته بمنى فيكبر الناس.

"ولما ذكر الله تعالى النَّفْر الأول والثاني وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والمواقف قال: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [(٢٠٣) سورة البقرة] كما قال: {وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [(٧٩) سورة المؤمنون]."

هذا نوع من وجه المناسبة بين موضوع الآية وخاتمة الآية، فتارة تكون فيما يتعلق بالمذكور في آخرها من الأسماء الحسنى، مثل: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٣٨) سورة المائدة]، فالمناسبة بذكر هذين الاسمين من بين سائر الأسماء ظاهرة، لكن {إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(١١٨) سورة المائدة]، المناسبة هنا تحتاج إلى استنباط.

ومن هذه المناسبات التي بين موضوع الآية وخاتمتها هذا المثال، فهنا ذكر النفْر فقال: {وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى} [(٢٠٣) سورة البقرة]، ثم قال: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [(٢٠٣) سورة البقرة]، فوجه المناسبة أن الله -عز وجل- ذكّرهم بتقواه مع شيء من الوعيد والتهديد غير الصريح حيث قال: {وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} فإنه إذا علم أنه سيحشر إلى الله -تبارك وتعالى- خاف واستعد لذلك الحشر، فالله تعالى ذكر هذا الحشر بعد ذكر التفرق، فهم ينفرون بعد حجهم من كل وجه فيتفرقون في أرض الله فناسب ذكر الحشر بعده.

قوله سبحانه: {فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ} [(٢٠٣) سورة البقرة]: التعجل إنما يكون في يوم ونصف؛ لأنه ينفر بعد أن يرمي في اليوم الثاني عشر بعد الزوال، والعرب تكمل الكسر وبقية اليوم أو العام أو الشهر أو الأسبوع، فذكر الله اليومين هنا من هذا الباب، والله أعلم.

وبالنسبة لنفي الله للإثم في الموضعين حين قال: {فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ} فإن بعض أهل العلم يقول: إن من العرب من كان يعتقد أن التعجل أمر مذموم، ومنهم من كان يعتقد أن التأخر أمر مذموم، فالله -عز وجل- بيّن بطلان ذلك الاعتقاد وأن التعجل لا إشكال فيه، وأن التأخر لا إشكال فيه، ولهذا قال: {فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ} [(٢٠٣) سورة البقرة]، فبعد أن

---

9 - أخرجه أبو داود في كتاب المناسك - باب في الرَّمَلِ (١٨٩٠) (ج ٢ / ص ١١٨) وأحمد (٢٤٣٩٦) (ج ٦ / ص ٦٤) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٢٠٥٦).

كان المتبادر أنه من يتعجل لا إثم عليه لئلا يتوهم أن عمله ناقص ذكر أن الذي يتأخر لا إثم عليه وتبين أن السبب هي هذه العلة التي ذكرها أهل العلم، والله تعالى أعلم.

وفي قوله: **{وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى}** [(٢٠٣) سورة البقرة] من أهل العلم من يقول: إن النفي في قوله: **{فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ}** المقصود به أن ذنوبه تغسل جميعاً في حجته هذه، وليس المقصود فلا إثم عليه في تأخره وتعجله، وبهذا القول لا نحتاج إلى جواب عن نفي الإثم مع التعجل والتأخر؛ لأنه على هذا القول الذي اختاره ابن جرير الطبري -رحمه الله- وقال به جماعة من السلف يكون المعنى أن هذا الإنسان الذي حج واتقى الله في حجه قد حُطت ذنوبه، فهو إن تعجل في يومين فلا إثم عليه؛ فقد حُطت ذنوبه، وإن تأخر فلا إثم عليه؛ لأن ذنوبه قد حُطت؛ فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة))[١٠] وقال -عليه الصلاة والسلام-: ((من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه))[١١] وبالتالي لا إشكال في نفي الإثم في التأخر والتعجل؛ لأن المقصود حطُّ الخطايا والذنوب جزاءً للحج المبرور لمن اتقى فلم يرفث ولم يفسق في حجه ذلك.

ويمكن أن يقال: **{فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ}** إن كان متقياً لله -عز وجل- في تعجله وتأخره، وهذا معنى قريب جداً ومتبادر ولا يبعد أن يكون هو المراد بالآية، فذلك سائغ وإن كان التأخر أفضل، وهو لا يعارض قول من قال: إن من العرب من كان يتوهم أن التعجل غير محمود أو أن التأخر غير محمود فيمكن أن تجمع بين هذا وهذا، لكنه قول يختلف عن قول ابن جرير -رحمه الله-.

ويكون الإنسان محصلاً لهذا المعنى بحيث يكون متعجلاً لم يتق الله إن حمله تعجله على تعدي حدود الله كأن يرمي قبل الزوال، فهذا لم يتق وعليه إثم، ورميه قبل الزوال لا يجزئه، ومثله من حمله تعجله على تضييع الرَّمل مثلاً، ومن ذلك ما يقع من بعض الناس حيث يوكل من يرمي عنه ويذهب بحُجة أن عنده حجزاً في الطائرة، ويوجد في الشباب -وللأسف الشديد- من يفتيه ويقول له: الشريعة جاءت بنفي الحرج، فاذهب ولا إشكال عليك، والحقيقة أن هذا تلاعب بالحج وإلا فلماذا الحجز في ذلك الوقت الضيق ومعلوم أن للحج رمياً في اليوم الثاني عشر، فلماذا هذا العبث الذي نسمعه والفتاوى العجيبة الغريبة.

فالمقصود أن هذا من التعجل الذي لم تصاحبه تقوى الله تعالى، ومن حاله كهذا فقد لا يسلم من الإثم، فيجب على المسلم أن يتقي الله في تعجله إن تعجل.

ويكون الإنسان محصلاً لمعنى التأخر مع الإثم إذا حمله تأخره على معصية الله -عز وجل- أيضاً، ومن صور ذلك أن منطقة منى تكون قد خلت من الناس ولم يبق فيها إلا أناس قليل فربما يجترئ بعض من يتأخر على بعض الأمور السيئة كملاحقة النساء، وأمور أخرى غير لائقة، إضافة إلى أنه قد يستطيل مدة المكث فربما يحصل له من الانبساط مع قلة الزحام فيقع في أمور من المخالفات والمحرمات من غيبة وتهكم بالناس

---

[10] - أخرجه البخاري في كتاب الحج - باب وجوب العمرة وفضلها (١٦٨٣) (ج ٢ / ص ٦٢٩) ومسلم في كتاب الحج - باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (١٣٤٩) (ج ٢ / ص ٩٨٣).

[11] - أخرجه البخاري في كتاب الحج - باب قول الله تعالى { فلا رفث } (١٧٢٣) (ج ٢ / ص ٦٤٥) ومسلم في كتاب الحج - باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (١٣٥٠) (ج ٢ / ص ٩٨٣).

وتعليق وما أشبه ذلك، والخلاصة أن من تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى، ومن تأخر بلا إثم فهو أفضل ممن تعجَّل.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٩١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ* وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ* وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ* وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ} [(٢٠٤ - ٢٠٧) سورة البقرة]: "قال السدي: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، جاء إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأظهر الإسلام وفي باطنه خلاف ذلك.

وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أنها نزلت في نفر من المنافقين، تكلموا في خبيب وأصحابه -رضي الله تعالى عنهم- الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم، فأنزل الله في ذم المنافقين ومدح خبيب وأصحابه، {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ}، وقيل بل ذلك عام في المنافقين كلهم، وفي المؤمنين كلهم، وهذا قول قتادة ومجاهد والربيع بن أنس وغير واحد وهو الصحيح."

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالملاحظ في هذه الآيات أن الله قسم الناس فيها إلى فريقين متقابلين متناقضين، قال في الفريق الأول: **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}**، وقال في الفريق الآخر: **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ}**، ولهذا ذهب كثير من المفسرين إلى أن الآية الأولى عامة في المنافقين، والآية الثانية عامة في المؤمنين، وما روى عن السدي أنها نزلت في مثل الأخنس بن شريق الذي أظهر الإسلام، وباطنه على الخلاف، ثم بعد ذلك قتل أناساً، وقتل حمراً، وأفسد حرثاً وما أشبه ذلك، فهذه الرواية عن السدي لا تصح؛ لأنها في حكم المرسل، وعلى افتراض صحتها فالعبرة كما يقول المفسرون بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وعليه فتحمل على كل من يشملهم الوصف في الآية.

وكذا قوله سبحانه: **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ}**، تعتبر عامة في أهل الإيمان الذين صدقوا في إيمانهم، ولم يخالطوه بنفاق، ولا تختص بأحد دون أحد منهم، والله أعلم.

وهذا ما اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- أنها عامة، وأما الرواية الأخرى التي نقلها عن ابن عباس أنها نزلت في نفر من المنافقين، تكلموا في خبيب وأصحابه الذي قتلوا بالرجيع، فحصل لهم الغدر، وعابوهم فقالوا: إن هؤلاء قد غرروا بأنفسهم وأوقعوها في القتل، فلم يستبقوا مهجهم، ولم يؤدوا ما طلب منهم، وجلسوا يتكلمون عليهم، ويقعون في أعراضهم، ويشمتون بهم، وما علموا أن هؤلاء بذلوا نفوسهم

في سبيل الله -عز وجل- فحصل مقصودهم من الشهادة، فهذه الرواية تؤكد ما ذهب إليه ابن جرير الطبري وابن كثير من عمومها، وشمولها جميع أفراد العام الذين يصدق فيهم هذا الوصف الوارد في الآية.

"وروى ابن جرير عن القرظي عن نوف وهو البكالي وكان ممن يقرأ الكتب، قال: إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل."

نوف البكالي كان ممن يقرأ الكتب السابقة، ويروي الإسرائيليات، وينقلها كثيراً.

"قوم يحتالون على الدنيا بالدين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، يلبسون للناس مسوك الضأن، وقلوبهم قلوب الذئاب."

الصبر هو نبات معروف، لا يطاق طعمه؛ لأنه مر.

والمسوك جلود الضأن، فهم ذئاب ويلبسون جلود الضأن، والمراد أنهم يتظاهرون بالخير والصلاح، وحقيقتهم خلاف ذلك.

"يقول الله تعالى: فعليّ يجترئون، وبي يغترون، حلفت بنفسي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم فيها حيران. قال القرظي: تدبرتها في القرآن فإذا هم المنافقون، فوجدتها {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ..} الآية، وهذا الذي قاله القرظي حسن صحيح."

الآية بظاهرها وعمومها تصدق في أهل النفاق؛ لأنهم يظهرون الصلاح والدين والخير والطاعة ويبطنون الكفر، وهكذا كل من تظاهر بالإسلام وأبطن خلافه يقاس عليهم، فتجدهم يتربصون بأهل الإسلام الدوائر فإذا ألم بالمسلمين حادثة، أو اعتراهم ضعف أو نحو ذلك، أظهروا كوامن النفوس فصاروا يشمتون ويطعنون في دين الله -عز وجل- وشرعه وأهله، ويسخرون منهم، ويدعون إلى الإصلاح المبطن بالإفساد في الأرض يقول الله في وصف حقيقتهم: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ* أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ}** [(١١- ١٢) سورة البقرة].

"وأما قوله: {وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ}، معناه أنه يظهر للناس الإسلام ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق، كقوله تعالى: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ....} [(١٠٨) سورة النساء] الآية، هذا معنى ما رواه ابن اسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

وقيل معناه: إنه إذا أظهر للناس الإسلام حلف، وأشهد الله لهم أن الذي في قلبه موافق للسانه، وهذا المعنى صحيح."

يَحتمل في الإشهاد **{وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ}** معنيين:

الأول: أنه يقول قولاً والواقع أن الله يشهد على خلافه، ويعلم من باطنه وحاله خلاف ما أظهره، وهذا المعنى تشهد له قراءة ابن عباس وهي غير متواترة **{والله يشهد على ما في قلبه}**، والآية تحتمله احتمالاً قوياً.

والثاني: أنه يدعي الإسلام، ومحبة الله ورسوله، وطاعته واتباعه لشرائع الإسلام، ويعقب ذلك بقوله: والله يشهد على ما أقول من إرادتي للخير والإصلاح وما أشبه ذلك، وهو كذاب في ادعائه وإشهاده، وهذا المعنى هو المتبادر إلى الأذهان، ويشهد له قوله تعالى: **{إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}** [(١) سورة المنافقون]، فهم جاءوا بلفظ الشهادة "نشهد" مؤكدة

بإن ولام القسم، ورغم هذا بين الله حقيقة شهادتهم، فقال عنهم: **{وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}**، وهذا القول...

"قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير وعزاه إلى ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وحكاه عن مجاهد. والله أعلم."

ويمكن أن يستدل أيضاً للقول الثاني بقراءة أخرى ليست متواترة، وهي قراءة ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: **{ويستشهد الله على ما في قلبه}**، والآية إذا كانت تحتمل معنيين مختلفين بدون معارض، فإنها تحمل عليهما جميعاً؛ لأن القرآن يعبر عنه بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فهذا المنافق الذي يقول: إنه مؤمن، ومحب لله ورسوله، ومريد للخير، هو في الواقع حينما يقول ذلك أو يتفوه به، إنما يجعل الله يشهد على أن حاله على خلافه، وأن باطنه مكذب لظاهره.

والإشهاد كذباً بالله يلجأ إليه كثيراً المنافق؛ لأنه يعلم أنه في موضع تهمة وريب، فيتخذ من الإشهاد مطية للخروج من المأزق الذي وقع فيه، وهذه سجيتهم أخبر الله عنهم في معرض التشنيع بهم في أكثر من آية يقول سبحانه: **{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً}** [(٢) سورة المنافقون]، **{يَحْلِفُونَ لَكُمْ}** [(٩٦) سورة التوبة] **{يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ}** [(٦٢) سورة التوبة] حتى إنهم في اليوم الآخر إذا بعثهم الله -عز وجل- يحتذون بما اعتادوه في الدنيا من الأيمان الفاجرة كما أخبر الله عنهم بقوله: **{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ}** [(١٨) سورة المجادلة] ظناً منهم أن أيمانهم التي كانت تروج في الدنيا، فحقنوا بها دماءهم، وأحرزوا بسببها أموالهم تروج في الآخرة، فلأجل ذلك إذا قاموا من قبورهم يوم القيامة اشتغلوا بالأيمان الكاذبة على الله -عز وجل-، وفي سورة المنافقون جاءت المؤكدات قوية في كلامهم **{قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ}** [(١) سورة المنافقون]، لكن جاء الرد عليهم بنفس الطريقة **{وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}**، المهم أن كل معنى من هذه المعاني يوجد ما يشهد له من الدلائل، فيمكن أن تحمل الآية على الوجهين، والله تعالى أعلم.

"وهو ألد الخصام، الألد في اللغة: الأعوج، {وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا} [(٩٧) سورة مريم]**، أي عوجاً."**

الألد جاءت في كلام العرب، وقد فسرت في الآية بأحد معنيين:

الأول: يرجع إلى معنى الخصومة، والمراد أنه من أشد الناس خصومة.

والثاني: يرجع إلى معنى الميل والاعوجاج واتخاذ الجانب، وهذا الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله-، وأراد أنه مائل في خصومته، يكذب، ويتزايد، ويحرف الدليل وقول مخالفه ويقوّله ما لم يقل، ويستدل بأمور يعلم عدم صلاحها لإثبات المطلوب، ويكابر في الحق بعدما يتبين له، فكل ذلك داخل فيه، فهو معوج غير مستقيم في خصومته وجداله.

فالمعنى الأول يدل على أنه صاحب جدال كما قال الله عن المشركين: **{بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}** [(٥٨) سورة الزخرف]، أي شديدو الخصومة، ومن هنا لا تجد الخصومة في القرآن الكريم تذكر إلا في مقام الذم، ومثلها المراء إلا في قوله: **{فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِرًا}** [(٢٢) سورة الكهف]، بخلاف الجدال فجاء الأمر به تمدحاً في مواضع: **{وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [(١٢٥) سورة النحل]، **{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}**

[(٤٦) سورة العنكبوت]، بينما جاء في موضع آخر على سبيل الذم **{يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ}** [(٦) سورة الأنفال]، إلى غير ذلك من النصوص.

وأما المعنى الثاني: فإنه ينبه إلى أنه غير مستقيم في خصومته، وإنما هو صاحب اعوجاج، والمعنيان يصبان في تفسير الألد، فيكون شديد الخصومة صاحب اعوجاج عند افتعالها، ولهذا ابن جرير -رحمه الله- يرى بأن المعنيين متقاربان، ولا مانع من حمل الآية عليهما، ولا حاجة للترجيح بين هذين المعنيين.

ومن أهل العلم من يقول: إن أصل اللدد مأخوذ من صفحة العنق، إذ إن شديد الخصومة صعب أن يثنيه أحد، أو يجعله يحيد ويميل برأيه تلقاء ما يراه مجادله؛ لأنه وجه نفسه إلى شيء مازج دمه وخالط فكره، فأخذوا منه المعنى الأول.

وأخذوا المعنى الثاني من كون صفحة العنق في الجانب، وعليه جعلوا معنى ألد الخصام أي: شديد الخصومة مائل فيها، والله أعلم.

"وهكذا المنافق في حال خصومته يكذب ويزّور عن الحق ولا يستقيم معه، بل يفتري ويفجر، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر))[1]."

إذا خاصم فجر: أي يميل في خصومته، فتحمله على البغي والعدوان، وتجاوز الحد.

"وروى البخاري عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- ترفعه قال: ((إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم))[2]."

الخصام في قوله سبحانه: **{وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ}** [(٢٠٤) سورة البقرة]، يحتمل أن يكون مصدراً لخاصم يخاصم خصاماً فيكون بهذا الاعتبار أي: شديد الخصومة.

ويحتمل أن يكون جمعاً للخصم أو المخاصم، فيقصد به أكثر الخصماء أو أكثر المخاصمين مخاصمة وخصومة وهو معنى ألدهم، والله أعلم.

"وقوله: {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ} [(٢٠٥) سورة البقرة]، أي هو أعوج المقال، سيئ الفعال، فذلك قوله وهذا فعله."

قوله سبحانه: **{وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ}** يحتمل أن يكون من الولاية، يعني إذا صارت له سلطة كانت مدعاة له للإفساد والتغيير والتبديل.

ويحتمل أن يكون المعنى أنه إذا صار له التولي أعرض وذهب، كما قال الله -عز وجل- عن المنافقين: **{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ}** [(٤) سورة المنافقون]، فيسمعك كلاماً ممتازاً مصففاً منمقاً أحلى ما يكون، إلا أن الفعال أقبح ما تكون، فهم أشباح بلا أرواح، وجسوم بلا

---

[1] أصل الحديث عند البخاري ((أربع من كن فيه....)) رواه في كتاب الإيمان -باب علامة النفاق برقم (٣٤) (٢١/١)، ورواه مسلم في كتاب الإيمان -باب بيان خصلة المنافق برقم (٥٨) (٧٨/١).

[2] رواه البخاري في كتاب المظالم -باب إذا أذن إنسان لآخر شيئا جاز برقم (٢٣٢٥) (٨٦٧/٢)، ورواه مسلم في كتاب العلم -باب في الألد الخصم برقم (٢٦٦٨) (٢٠٥٤/٤).

فهوم، شبههم بالخشب المسند الذي لا ينتفع به لا في عمد ولا في سقف، وهكذا المنافق لا يقوم بنفسه ولا بغيره.

ويحتمل أن يكون تولى بمعنى ضل وغضب، وكل هذه الاحتمالات يحتملها لفظ الآية.

وقوله سبحانه: {وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ} الحرث قيل: هو الزرع وهذا هو المعنى المتبادر، وبعضهم يقول: النساء، أي ويسمعك كلاماً حسناً وإذا تولى منك أفسد المرأة، وهذا من بلاغة القرآن فمعانيه لا تنقضي، وعجائبه لا تفنى.

والنسل بمعنى الذرية، وأصل النسل من السقوط، ولهذا قيل لما يخرج من المرأة نسل.

"كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة، والسعي هاهنا هو القصد."

ولا يفهم من السعي في الأرض أنه جرى أو مشى مشياً سريعاً، كما في قوله سبحانه: {وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى} [(٢٠) سورة القصص] فليس هذا هو المقصود، وإنما المقصود به العمل.

"كما قال إخباراً عن فرعون: {ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى} [(٢٢-٢٦) سورة النازعات]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [(٩) سورة الجمعة]، أي: اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة، فإن السعي الحسي إلى الصلاة منهي عنه بالسنة النبوية: ((إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة والوقار))[3].

فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد في الأرض وإهلاك الحرثِ -وهو محل نماء الزروع والثمار- والنسلِ -وهو نتاج الحيوانات- اللذين لا قوام للناس إلا بهما، وقال مجاهد: إذا سعى في الأرض فساداً منع الله القطر، فهلك الحرث والنسل."

تفسير مجاهد لقوله: {وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ} يعتبر من باب الملازمة، وتوجيه القول: أن الله علّق انحباس القطر ونزع البركات الذي يحصل به هلاك الزرع والنسل بتقحم بني آدم على الذنوب والمعاصي، وإفسادهم في الأرض، وهو تفسير حسن.

"والله لا يحب الفساد، أي لا يحب مَن هذه صفته، ولا من يصدر منه ذلك.

وقوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ} [(٢٠٦) سورة البقرة]، أي: إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله، وقيل له: اتق الله وانزع عن قولك وفعلك وارجع إلى الحق، امتنع وأبى، وأخذته الحمية والغضب بالإثم أي: بسبب ما اشتمل عليه من الآثام."

الباء في قوله: {بِالإِثْمِ} للسببية، واختلفوا في معنى الآية فقيل: إنها بمعنى مع، أي: أخذته العزة مع الإثم، وهذا فيه بعد.

وقيل: إنها بمعنى اللام، أي: أخذته العزة للإثم والمراد أنها حملته على ذلك.

---

[3] رواه البخاري بلفظ آخر في كتاب الأذان -باب قول الرجل فاتتنا الصلاة برقم (٦٠٩) (٢٢٨/١)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة -باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن إتيانها سعيا برقم (٦٠٣) (٤٢١/١).

وقيل: إنها بمعنى على، أي حملته العزة على الإثم، وقريب منه القول بأن العزة أخذته وحملته بما يؤثمه، والله أعلم بالصواب.

"وهذه الآية شبيهه بقوله تعالى: **{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}** [(٧٢) سورة الحــج]، ولهذا قال في هذه الآية: **{فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ}** [(٢٠٦) سورة البقرة]، أي: هي كافيته عقوبة في ذلك، وقوله: **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ}** [(٢٠٧) سورة البقرة]، لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة، ذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال: **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ}** [(٢٠٧) سورة البقرة]، قال ابن عباس وأنس -رضي الله تعالى عنهم- وسعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدي وعكرمة وجماعة: نزلت في صهيب بن سنان الرومي -رضي الله تعالى عنه- وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- وجماعة إلى طرف الحرة وقالوا له: ربح البيع، فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبره أن الله أنزل فيه هذه الآية، ويروى أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال له: **((ربح البيع صهيب))**[4].

ومعنى الآية عام يدخل فيه كل مجاهد في سبيل الله، كما قال تعالى: **{إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}** [(١١١) سورة التوبة]، ولما حمل هشام بن عامر -رضي الله تعالى عنه- بين الصفين، أنكر عليه بعض الناس، فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة -رضي الله تعالى عنهما- وغيرهما، وتلوا هذه الآية: **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ}** [(٢٠٧) سورة البقرة]."

جرت هذه الآيات على عادة القرآن الكريم في ذكر النقيضين، فإنه يذكر أصحاب النار ثم يذكر أصحاب الجنة، يأتي على ذكر الوعد ويثني بذكر الوعيد، يعرج على صفات الأبرار ويتلوها بصفات الفجار، فالله -عز وجل- لما ذكر حال الأولين وهم أهل النافق الذين:

يعطون من طرف اللسان حلاوة ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب

ذكر حال الطرف الآخر وهو **{مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ}**، أي: يبيع نفسه طلباً لمرضاة ربه، فمثلهم أهل لرحمة الله -عز وجل-، ولهذا ختم الله هذه الآية بقوله: **{وَاللّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}** أي: لهم أرقّ الرحمة وهي الرأفة، إذ الرأفة نوع من الرحمة، وأما أهل النفاق فقال في صنيعهم: **{وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ}**.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبيه وآله وصحبه.

---

[4] رواه الحاكم في مستدركه برقم (٥٧٠٠) (٣/٤٥٠)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وصححه الذهبي في التلخيص برقم (٥٧٠٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٩٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ* فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٢٠٨-٢٠٩) سورة البقرة].

"يقول الله تعالى آمراً عباده المؤمنين به المصدقين برسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك.

قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وطاوس والضحاك وعكرمة وقتادة والسدي وابن زيد في قوله: {ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ}: يعني الإسلام."

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً}، تفسير ابن كثير للآية بأن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا، هو المعنى المتبادر، وهو من أحسن ما تفسر به الآية.

والخطاب في الآية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ} موجه لأهل الإيمان كما يدل عليه ظاهر النص، وإليه ذهب ابن كثير.

ومن أهل العلم من يرى أن الخطاب موجه لأهل الكتاب الذين لم يدخلوا في الإسلام، باعتبار أن السلم هو الإسلام، والمراد بكافة أي: ادخلوا فيه جميعاً بجميع شرائعه، لا تتركوا شيئاً من العمل أو الاعتقاد الذي شرعه الله -عز وجل- وبينه في كتابه، فهم مطالبون جميعاً بالدخول فيه باعتبار مجموع الأفراد مسلمين كانوا أو غير مسلمين.

وقال جماعة من السلف: إنها خطاب لبعض من أسلم من أهل الكتاب ممن بقي عنده نوع شائبة من دينه الذي كان عليه، كأن يعظم يوم السبت، أو يتعبد لله -عز وجل- ببعض ما كان عليه من العمل والعبادة، مما لم يشرعه الله -عز وجل- في دين الإسلام، فهذا التردد والتلكؤ هو المقصود بقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً}، يعني من غير أن تبقوا على شيء مما كنتم عليه في دينكم السابق، ولكن ما عليه عامة أهل العلم، ويدل عليه ظاهر القرآن أنها خطاب لأهل الإيمان جميعاً سواء من أسلم من أهل الكتاب وتردد، وبقي في رأسه اعتقادات من دينه السابق، أو من يأخذ ببعض الدين ويترك بعضاً لهواه، فيتخير من دين الله -عز وجل- أموراً تناسبه، ويترك ما سواه، فأهل الإيمان جميعاً مطالبون بالدخول في الإسلام، ولذا لما خاطب الله -عز وجل- نبيه يحيى قال: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} [(١٢) سورة مريم]، يقول

أهل العلم: فمن أَخْذِه بقوة ألا يترك شيئاً منه، وألا يتردد أو يتلكأ في الاتّباع والانقياد والتسليم والعمل، وهذا المعنى اختاره ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

{السِّلْمِ} يقال: السِّلْم والسَّلْم والسَّلَم بمعنى الإسلام، ومن أهل العلم من يفرق بين السِّلم والسَّلم، فيقول: السِّلم هو الإسلام، والسَّلم المقصود به المسالمة بترك الحرب والاستسلام والمصالحة مع دفع الجزية، فيكون ذلك خطاباً لأهل الكتاب **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً}** يعني مع المصالحة ودفع الجزية، والله تعالى أعلم.

"وقوله: {كَآفَّةً} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد، وأبو العالية، وعكرمة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان، وقتادة، والضحاك جميعاً.

وقال مجاهد: أي اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر، خاصة من آمن من أهل الكتاب."

هذا المعنى باعتبار أن المراد من قوله: **{ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً}** أي: ادخلوا في جميع شرائع الدين، فيدخل فيه من أسلم من أهل الكتاب وغيرهم، وتكون **{كَآفَّةً}** حالاً من السِّلم.

ويمكن أن تكون **{كَآفَّةً}** حالاً من ضمير المؤمنين في قوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ}** والمعنى: ادخلوا أيها الناس في الإسلام جميعاً.

"كما روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً}، كذا قرأها بالنصب يعني مؤمني أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمور التوراة والشرائع التي أنزلت فيهم، فقال الله: {ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً}، يقول: ادخلوا في شرائع دين محمد -صلى الله عليه وسلم- ولا تدعوا منها شيئاً، وحسبكم الإيمان بالتوراة وما فيها.

وقوله: {وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} [(٢٠٨) سورة البقرة]**، أي اعملوا الطاعات، واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان {إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}** [(١٦٩) سورة البقرة]**، {إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}** [(٦) سورة فاطر]**، ولهذا قال: {إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}** [(٢٠٨) سورة البقرة]**."**

المقصود بالخطوات: طرائق الشيطان ومسالكه فلا يُتبع في شيء مما يزينه للناس من الباطل، ومن طرائقه ما يتدرج به مع الإنسان ليوقعه بعد ذلك في المهالك، فتجده يبدأ معه شيئاً فشيئاً من التوسع في المباح، ثم يجره إلى الوقوع في المشتبه، فلا يدري إلا وقد أوقعه في الحرام، تحت أي مبرر أو حجة، فهذه كلها من خطوات الشيطان.

"وقوله: {فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ} [(٢٠٩) سورة البقرة]**، أي: عدلتم عن الحق بعدما قامت عليكم الحجج {فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}."**

قوله سبحانه: **{فَإِن زَلَلْتُمْ}** زل: بمعنى انحرف وحاد ومال، والمراد إذا عدلتم ووقع منكم انحراف، ومخالفة بعد ما تبين لكم الحق، فالتهديد بانتظاركم.

"{فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} أي: في انتقامه لا يفوته هارب، ولا يغلبه غالب، حكيم في أحكامه ونقضه وإبرامه، ولهذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس: عزيز في نقمته، حكيم في أمره.

{هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ} [(٢١٠) سورة البقرة]، **يقول تعالى مهدداً للكافرين بمحمد –صلوات الله وسلامه عليه–: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ}، يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر."**

الظُلَل: جمع ظُلَّة، وهي كل ما أظلك من غمام وغير ذلك، والمقصود بالغمام كما يفسره بعض أهل العلم: السحاب الأبيض الرقيق، وقد جاء في الحديث عن النبي –صلى الله عليه وسلم–أنه قال: ((اقرءوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما حزقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما))[1]، فالغياية: كل شيء أظل الإنسان، وغطاءه، ولهذا سمي أسفل البئر: "غيابة الجب" وهي قعره، وكلّ ما غيّب شيئاً فهو غيابة .

ويقال للسحاب غمام، ويقال له ظُلَّة، ويجمع على ظُلَل.

"ولهذا قال تعالى: {وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ}."

قوله سبحانه: **{وَقُضِيَ الأَمْرُ}** فعل عبر به بالماضي؛ لأنه متحقق الوقوع، فما كان متحقق الوقوع مما سيحصل في المستقبل يمكن أن يعبر عنه بالفعل الماضي، ومثل الآية قوله تعالى: **{أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ}** [(١) سورة النحل]، مع أنه لم يأت بعد.

وبعضهم يذكر كلاماً مختلفاً، لكن هذا من أقرب ما تفسر به الآية، والله أعلم.

"كما قال الله تعالى: {كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا* وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا* وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} [(٢١-٢٣) سورة الفجر]، وقال: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ....} [(١٥٨) سورة الأنعام] الآية، وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ} [(٢١٠) سورة البقرة]، يقول: الملائكة يجيئون في ظلل من الغمام، والله تعالى يجيء فيما يشاء."

هذا التفسير باعتبار أن قوله: **{فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ}** من صلة الملائكة، ولكن هذا خلاف الظاهر، والراجح أن قوله: **{فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ}** يرجع إلى مجيء الله –تبارك وتعالى–، وهذا يدل عليه ظاهر القرآن، واختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري، وغيره من أئمة السنة في غالب ما نقل عنهم، إذ إن المجيء ثابت لله –عز وجل– كما أخبر عن نفسه أنه يأتي، لكن إتيانه كما شاء على الوجه اللائق به، والواجب أن نؤمن ونصدق به كما أخبر، من غير أن ندخل في شيء من ذلك بأفهامنا وآرائنا، وإنما المرجع في ذلك كله إلى الوحي.

والذين يؤولون المجيء بمجيء أمر الله –عز وجل–، أو قضائه، أو عذابه، أو جزائه، أو نحو ذلك، ترد عليهم الآية الأخرى **{هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ}** [(١٥٨) سورة الأنعام]، وقوله –عز وجل–: **{وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}** [(٢٢) سورة الفجر]، ولا حاجة لهذه التأويلات،

---

[1] رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها –باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة برقم (١/٥٥٣) (٨٠٤).

فمجيئه على الوجه اللائق به، كما أن سمعه وبصره على الوجه اللائق به، وفعله وإرادته على الوجه اللائق به، فالقول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر.

"يقول: والملائكة يجيئون في ظلل من الغمام والله تعالى يجيء فيما يشاء، وهي في بعض القراءات: {هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة في ظلل من الغمام}، وهي كقوله: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا} [(٢٥) سورة الفرقان]."

القراءة الثانية يوجد فيها الاحتمال بأن قوله: **{فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ}** من صلة الملائكة، وعليه فلا تكون الآية مخالفة لظاهر القرآن، إلا أن الصواب في تفسير الآية ما أسلفناه.

"{سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ* زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ } [(٢١١-٢١٢) سورة البقرة]، يقول تعالى -مخبراً عن بني إسرائيل-: كم شاهدوا مع موسى -عليه السلام- من آية بينة؟!."

قوله سبحانه: **{سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ}** هذا سؤال تقريع وتوبيخ، لا سؤال استفادة، والمعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- **{كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ}** المراد كم شاهدوا من الآيات البينات على يد أنبيائهم، ومن أعظمهم موسى -صلى الله عليه وسلم-؟، كما قال الله -عز وجل-: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ}** [(١٠١) سورة الإسراء] هو الأصح في تأويل الآية، لا قول من قال: إن المقصود من الآية النبي -صلى الله عليه وسلم- مما جاء به من دلائل صدقه وأمارات نبوته، إذ ليس هذا هو الظاهر، وبالرغم من الآيات البينات والشواهد الساطعات، والدلائل المؤكدات **{مَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ}** [(١٠١) سورة يونس].

"أيْ حجة قاطعة على صدقه فيما جاءهم به، كيَده، وعصاه، وفلقه البحر، وضرب الحجر، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر، ومن إنزال المن والسلوى، وغير ذلك من الآيات الدالة على وجود الفاعل المختار."

ظللهم الغمام حينما كانوا في التيه فالتفحوا بوهج الحر؛ لأنهم تاهوا في الصحراء فكان الغمام يظللهم، ويتنزل عليهم من لطف الله بهم وحسن تدبيره المن والسلوى كما أخبر سبحانه بقوله: **{وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى}** [(٥٧) سورة البقرة].

"وصدْقِ من جرت هذه الخوارق على يديه، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها، وبدلوا نعمة الله كفرا، أي استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها، {وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(٢١١) سورة البقرة]، كما قال تعالى إخباراً عن كفار قريش: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ* جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ} [(٢٨-٢٩) سورة إبراهيم].

ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها، واطمأنوا إليها، وجمعوا الأموال، ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها مما يُرضي الله عنهم، وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها."

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ}** جملة حالية، والمراد حال كونهم ساخرين من الذين آمنوا.

"وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم، وبذلوا ابتغاء وجه الله، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد، والحظ الأوفر يوم معادهم، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومنشرهم ومسيرهم ومأواهم، فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين، وخلد أولئك في الدركات في أسفل سافلين."

جاء في المراد بالفوقية في قوله: **{وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}** :أنه العلو في الدرجة؛ لأنهم في الجنة والكفار في النار، ويحتمل أن يراد بالفوق المكان؛ لأن الجنة في السماء، والنار في أسفل سافلين، أو أن المؤمنين هم الغالبون في الدنيا كما وقع ذلك من ظهور الإسلام، وسقوط الكفر، وقتل أهله، وأسرهم، وتشريدهم، وضرب الجزية عليهم، ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك لولا التقييد بكونه في يوم القيامة، ومن تأمل تفسير ابن كثير –رحمه الله– للآية يجده من أجمع ما يقال في معنى الآية، فأهل الإيمان في درجات الجنة في مراتب علية ومقامات سمية، وأهل الكفر في دركات النار، يتجرعون غصصها، ويكتوون بنارها، ولا تسأل عما يغشاهم من ألوان الذل وصنوف المهانة.

أما ترى أن السيف يـنقص قـدره　　　إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

"ولهذا قال تعالى: {وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ} [(٢١٢) سورة البقرة]، أي: يرزق من يشاء من خلقه ويعطيه عطاء كثيراً جزيلاً بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة، كما جاء في الحديث: ((ابن آدم أَنفِقْ، أُنفقْ عليك))[2]، وقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((أَنفِقْ بلال، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً))[3]، وقال تعالى: {وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [(٣٩) سورة سبأ]، وفي الصحيح ((أن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم، فيقول أحدهم: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً))[4]."

قوله سبحانه: **{وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ}** قيل المراد: أنه عطاء متتابع كثير، بلا عد ولا حساب، وجاء بهذا اللفظ ليعبر به عن الكثرة، والغاية في التوسعة عليهم.

وبعض أهل العلم يقول: **{يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ}** يعني من غير محاسبة لهم على هذا العطاء، فرزْقُهم هنيء مليء مما أعده الله لهم في جناته، لا يلحقهم فيه تبعة، وليس وراءه مطالبة أو محاسبة، ولكن المعنى الظاهر المتبادر أنه عطاء كثير؛ لأن الذي يُحسب ويُعد من العطاء إنما هو القليل، وأما الكثير فلا حصر له ولا حد، والله أعلم.

"وفي الصحيح: ((يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، وما لبست فأبليت، وما تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس))[5]."

---

[2] رواه البخاري في كتاب النفقات –باب فضل النفقة على الأهل بلفظ ((أنفق يا ابن آدم أنفق عليك)) برقم (٥٣٥٢) (٣٨٤/١٣)، ورواه مسلم في كتاب الزكاة –باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف برقم (٩٩٣) (٦٩٠/٢).

[3] رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (١٠١٨) (٤٤٢/١)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (١٨٨٥).

[4] رواه البخاري في كتاب الزكاة –باب قول الله تعالى **{فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى* وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}** [(٥-١٠) سورة الليل] ((اللهم أعط منفق مال خلفا)) برقم (١٣٧٤) (٥٢٢/٢)، ومسلم في كتاب الزكاة –باب في المنفق والممسك برقم (١٠١٠) (٧٠٠/٢).

[5] رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق –باب حدثنا قتيبة بن سعيد برقم (٢٩٥٨) (٢٢٧٣/٤).

وفي مسند الإمام أحمد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له))[6].

{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(213) سورة البقرة].

روى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان بين نوح وآدم -عليهما السلام- عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله -رضي الله عنه- {كان الناس أمة واحدة فاختلفوا}.

ورواه الحاكم في مستدركه ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، كذا رواه أبو جعفر الرازي عن أبي العالية عن أبي بن كعب -رضي الله تعالى عنه- أنه كان يقرؤها: {كان الناس أمة واحدة فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين}."

قوله -سبحانه-: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً} اختلف أهل التأويل في المراد بالناس المذكورين في هذه الآية فبعضهم يقول: آدم، وبعضهم يقول: آدم وحواء، وبعضهم يقول: حينما استخرجهم الله -عز وجل- من ذرية آدم -عليه الصلاة والسلام-، وبعضهم يقول غير هذا، والمعنى الذي ذكره ابن كثير هو أرجح أقاويل المفسرين، وهذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ} [(19) سورة يونس]، فكانوا كذلك من بعد آدم -عليه الصلاة والسلام- إلى عهد نوح -عليه الصلاة والسلام- ثم وقع الشرك، وهو أول ما وقع في الأرض كما دل عليه أثر ابن عباس، وعليه عامة السلف وهو قول المحققين، كابن جرير الطبري، وابن القيم، وجماعة غيرهم.

{فَاخْتَلَفُواْ} هذا المقدر تدل عليه قراءة أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود -رضي الله عنهما-، واقتُبس من لفظ الآية، وهذا ما يسمى بدلالة الاقتضاء من قسم المنطوق غير الصريح عند الأصوليين، والاقتضاء تارةً يكون اقتضاء لغوياً، وتارة عقلياً، وتارة شرعياً، ولا منافاة بين العقل والشرع، فحينما يقول الله -عز وجل-: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ} [(23) سورة النساء]، فقول الشرع لا يدل على أن التحريم يتعلق بالذوات، فلا بد من مقدر، هل حرم عليكم أكل أمهاتكم، أو ضرب أمهاتكم، فدلالة الاقتضاء تقتضي أنه حرم عليكم الاستمتاع بأمهاتكم.

وفي آية الصيام {أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} [(184) سورة البقرة] دلالة الاقتضاء الشرعي: فأفطر فعندها يجب عليه عدة من أيام أخر، والعرب تترك من الكلام ما كان مدركاً للسامع لا يخفى عليه اختصاراً، وهذا من الفصاحة والبلاغة، ولذا يقول ابن مالك:

وحــــذف مـــــا يعلــــم جـــــائز ....

والله تعالى أعلم.

[6] رواه أحمد في مسنده برقم (24464) (6/71)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (6757).

{وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ} [(٢١٣) سورة البقرة] (أل) تحتمل أن تكون للجنس، جنس الكتب التي أنزلها الله -عز وجل- على الأنبياء.

وتحتمل أن تكون (أل) العهد، ويكون المراد بالكتاب التوراة، وهذا المعنى اختاره بعض السلف، واختاره ابن جرير الطبري -رحمه الله-، ولكن ظاهر القرآن أن (أل) للجنس في لفظ الكتاب؛ لأنه ذكر النبيين ولم يذكر بعضاً منهم.

وابن جرير -رحمه الله- كلامه يتراوح في هذه الآيات فيحملها على بني إسرائيل تارة، ويجعلها عامة تارة أخرى، ولا شك أن بني إسرائيل ممن يدخلون في هؤلاء الذين وقع بينهم هذا التفاوت والاختلاف والافتراق، لأجل ذلك بعث الله النبيين بحيث إن أكثر الأنبياء في بني إسرائيل.

{لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ} يحتمل أن يكون المراد أن الله يحكم بين الناس، ويحتمل أن يكون الذي يحكم هو الكتاب المذكور وهذا هو الأقرب، ولا إشكال أن يضاف الحكم إلى الكتاب والمقصود به من بعث بالكتاب، أو من يقوم على الحكم به كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ} [(٤٤) سورة المائدة]، والله -عز وجل- قال: {هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ} [(٢٩) سورة الجاثية]، فعبر بنطق الكتاب، وقصد أن الأنبياء ينطقون عنا بالحق من هذا الكتاب المنزل.

{وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ} في عود الضمير احتمالات:

- أنه يعود إلى الكتاب المذكور، وهذا المتبادر.
- أنه يعود إلى الحق، وهذا معنى قريب ومحتمل.
- أنه يعود إلى من أُنزل عليه الكتاب وهو محمد -صلى الله عليه وسلم-، باعتبار أن الذي أنزل عليه الكتاب هو محمد -عليه الصلاة والسلام-، وهذا بعيد، لأن الكتاب كما سبق جنس يصدق على كل الكتب المنزلة، والقاعدة في هذا الباب: أنه إذا أمكن إتحاد مرجع الضمائر فإنه لا يصار إلى تفريقها، والعلم عند الله -تبارك وتعالى-.

{إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ} يعني أوتوا الكتاب وأعطوا علمه، وهم الأمم الذين أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب بعدما وقع الشرك والخلاف والكفر في الناس، وابن جرير -رحمه الله- يحملها على معنى خاص، يحملها على اليهود، وعلى كتابهم وهو التوراة.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٩٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة في قوله: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً} [(٢١٣) سورة البقرة]، قال: كانوا على الهدى جميعاً فبعث الله النبيين، فكان أول من بعث نوحاً -عليه السلام-.

وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- في قوله: {فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ...} الآية.

قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، فغداً لليهود وبعد غد للنصارى))[1].

وقال ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه في قوله: {فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ...}، فاختلفوا في يوم الجمعة، فاتخذ اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد، فهدى الله أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- ليوم الجمعة، واختلفوا في القبلة، فاستقبلت النصارى المشرق، واليهود بيت المقدس، فهدى الله أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- للقبلة، واختلفوا في الصلاة، فمنهم من يركع ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلي وهو يتكلم، ومنهم من يصلي وهو يمشي، فهدى الله أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- للحق من ذلك، واختلفوا في الصيام، فمنهم من يصوم بعض النهار، ومنهم يصوم عن بعض الطعام، فهدى الله أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- للحق من ذلك، واختلفوا في إبراهيم -عليه السلام-، فقالت اليهود كان يهودياً، وقالت النصارى كان نصرانياً، وجعله الله حنيفاً مسلماً، فهدى الله أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- للحق من ذلك."

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله سبحانه: {مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ} [(٢١٣) سورة البقرة] يعني الحجج الواضحات، والبراهين الساطعات.

{بَغْيًا بَيْنَهُمْ} أي: ما وقع الخلاف والشر بين الناس إلا بسبب تجاوزهم للحد وعدوانهم، وغالب الاختلاف بين الناس نتيجة للبغي أو الجهل بمسائل العلم والدين، ولو أنصف الناس من أنفسهم واتقوا الله -عز وجل-، وجعلوا العلم مطيتهم قاصدين منه الحق ليس غير؛ لاستراحوا من كثير من هذا الشر الملموس فيما بينهم.

---

[1] رواه مسلم في كتاب الجمعة -باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة برقم (٨٥٥) (٢/٥٨٥).

{فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ} المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير هذا المقطع معنى جامع لجميع أقوال المفسرين من السلف -رضي الله تعالى عنهم-، وهذا الأحسن في التفسير ألا يقتصر على جزء من المعنى، أو على مثال مما ذكره السلف، فالهداية لما اختلفوا فيه من الحق شملت كل الأبواب، هداهم إلى الدين الحق وهو الإسلام، وهداهم إلى الحق من أنبيائهم كعيسى -صلى الله عليه وسلم-، وهداهم إلى الحق فيما يتعلق بالأزمان والأوقات، كرمضان، ويوم الجمعة وما أشبه ذلك، وهداهم إلى الحق في عباداتهم، وفي معاملاتهم، وفي كل شئونهم، فلا يختص بمعنى دون آخر.

قوله -تبارك وتعالى-: **{فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ}**، هنا قد يرد سؤال، هداهم لما اختلفوا فيه، أو هداهم للحق الذي اختلفوا فيه؟ أو للحق فيما اختلف الناس فيه ممن قبلهم، ما هو المراد؟ بعض أهل العلم كابن كثير يرى أن الآية على ظاهرها، ولذا أورد النصوص بأن هذه الأمة مرحومة، وأن الله قد هداها في الأمور المذكورة وفي غيرها مما اختلف فيه الناس.

ومن أهل العلم من يقول: إن في الآية تقديماً وتأخيراً، والمعنى فهدى الله الذين آمنوا بالحق لما اختلف فيه اليهود والنصارى في الكتاب الذي أوتوه، وهو قول جماعة من أهل اللغة، واختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، والمعنى في هذا القول ظاهر، لكن الأصل أن الآية إذا احتملت القول بالقلب -كالتقديم والتأخير- فالأصل الترتيب إذا أمكن حملها على معنى صحيح، فلا حاجة للقول بالتقديم والتأخير، والله أعلم.

"هم اختلفوا في عيسى -عليه السلام-، فكذبت به اليهود وقالوا لأمه بهتاناً عظيماً، وجعلته النصارى إلهاً وولداً، وجعله الله روحه وكلمته، فهدى الله أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- للحق من ذلك.

وقوله: {بِإِذْنِهِ}، أي: بعلمه بهم، وبما هداهم له، قاله ابن جرير."

فأهل الإسلام إنما صاروا مهتدين بعلم الله في تلك الأمور التي اختلف فيها من اختلف، ويحتمل أن يكون هداهم بعلمه يعني بحالهم، حين غرس الله -عز وجل- فيهم من الصفات الخيرة ما يؤهلهم ليكونوا بها أمة وسطاً.

وبعض أهل العلم يقول: **{فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ}** أي: بأمره، ومنهم من صرح بخطأ المعنى الأول، والحقيقة أن المعنى الأول ليس ببعيد، بل هو مستلزم للمعنى الثاني، فإن الهداية تقع بإذن الله -عز وجل- الكوني، هداهم كوناً، وهداهم ديناً، فكلا المعنيين قريب، وتفسر بهما هذه اللفظة من الآية، ولا شطط في ذلك، والله أعلم.

"{وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ} أي: من خلقه، {إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} أي: وله الحكم والحجة البالغة.

وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا قام من الليل يصلي يقول: ((اللهم رب جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم))[2]."

((لما اختلف فيه من الحق بإذنك)) كما جاء في تأويل الآية، أي: بعلمك أو بأمرك.

---

[2] رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها -باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم (٧٧٠) (١/٥٣٤).

"وفي الدعاء المأثور: ((اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل، واجعلنا للمتقين إماماً))[3].

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ} [(٢١٤) سورة البقرة].

يقول تعالى: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة، قبل أن تُبتلوا، وتختبروا، وتمتحنوا."

أم: المشهور أنها بمعنى بل في هذا الموضع من القرآن.

وبعض أهل العلم يقول: إن أم تأتي بمعنى همزة الاستفهام الاستنكاري "أحسبتم؟"، والمقصود أنه أنكر عليهم هذا الظن الذي قد يساور نفوسهم بأنهم يمكنهم السلامة والعافية من الابتلاء في الحياة الدنيا، ثم يعقبه النجاة لهم في الآخرة.

"كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم، ولهذا قال: {وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء} [(٢١٤) سورة البقرة]، وهي الأمراض، والأسقام، والآلام، والمصائب، والنوائب.

قال ابن مسعود وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم-، وأبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومرة الهمداني، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع، والسدي، ومقاتل بن حيان: البأساء: الفقر.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: والضراء: السقم."

من أهل العلم من خص كلاً من السراء والضراء بمعنى خاص، فجعل البأساء: بمعنى الحاجة والفقر والجوع والمسغبة، والضراء: بمعنى ما يعتور الأبدان مما يختل به مزاجه من المرض وما أشبه ذلك، فتطلق البأساء على ما يتعلق بجانب الفقر، والضراء على ما يتعلق بجانب المرض، وهذا التفريق لا يكون من قبيل التوارد على معنى واحد، إذ الأصل أن التأسيس مقدم على التوكيد، والله أعلم.

"وزلزلوا خوفاً من الأعداء زلزالاً شديداً، وامتحنوا امتحاناً عظيماً، كما جاء في الحديث الصحيح عن خباب ابن الأرت -رضي الله تعالى عنه- قال: قلنا يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ألا تستنصر لنا، ألا تدعوا الله لنا، فقال: ((إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه، لا يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه، ثم قال: والله ليُتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون))[4]."

أصل الزلزلة: التحريك بشدة، وحروفها تدل على ذلك لما فيها من التكرار، ومن مثيلتها الصلصلة، والجلجلة، وما أشبه ذلك، فحركة الأرض واضطرابها يقال لها: زلزال وزلزلة.

والزلزلة في الآية باعتبار أنهم امتحنوا امتحاناً شديداً، فقد وقع عليهم ألوان من الأذى والإرجاف، وأنواع المخاوف التي تحرك النفوس تحريكاً شديداً للوقوع في الفتنة، فلا يكاد يثبت فيها إلا أصحاب الإيمان الراسخ، كما قال الله -عز وجل- في وقعة الأحزاب: **{إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ**

---

[3] ذكره البهوتي في شرح منتهى الإرادات وعزاه إلى عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-.

[4] رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة -باب ما لقي النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه من المشركين بمكة برقم (٣٦٣٩) (١٣٩٨/٣).

{وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [(١٠-١١) سورة الأحزاب] هذه الزلزلة كشفت المنافقين وعرّت الذين في قلوبهم مرض حتى إنهم قالوا كما قص القرآن خبرهم: **{مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}** [(١٢) سورة الأحزاب].

"وقال الله تعالى: {الم* أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [(١- ٣) سورة العنكبوت]، وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة -رضي الله تعالى عنهم- في يوم الأحزاب، كما قال الله تعالى: {إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ منكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا* وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [(١٠-١٢) سورة الأحزاب]، الآيات.

ولما سأل هرقل أبا سفيان هل قاتلتموه؟ قال: نعم، قال: فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال: سجالاً، يدال علينا وندال عليه. قال: كذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لها العاقبة[5].

وقوله: {مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم} [(٢١٤) سورة البقرة]، أي سنتهم كما قال تعالى: {فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ} [(٨) سورة الزخرف]، وقوله: {وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ}، أي: يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة، قال الله تعالى: {أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}، كما قال: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [(٥-٦) سورة الشرح]، وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها، ولهذا قال تعالى: {أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}."

أُثر عن خالد بن الوليد -رضي الله عنه- قوله: على قدر المئونة تنزل المعونة، وهذا شيء مشاهد، فإن الله ينزل من ألطافه على الناس في أوقات الشدائد ما يبعث على الاستغراب والدهشة، ولا يخطر لهم على بال من تحملهم ألوائها العظام التي نزلت بهم!، وما يدرون أن اللطيف هو الله -عز وجل-.

وقوله سبحانه: **{حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ}**، من أهل العلم من استشكل هذا، إذ كيف يقول الرسول: متى نصر الله؟! لما فيه من الكناية عن استبطائه النصر، وهو أعظم الناس ثقةً ويقيناً، وعلماً بالطريق الموصل إلى الله، وبالله -عز وجل- الذي لا يخذل أولياءه، وجعل الابتلاء سنة على الموحدين من عباده، وما أشبه ذلك.

فحملوا المراد على وجوه من التفسير لا يدل عليها ظاهر القرآن، فمنهم من يرى أن في الآية تقديماً وتأخيراً، والمعنى: حتى يقول الذين آمنوا: متى نصر الله؟، ويقول الرسول: ألا إن نصر الله قريب، ولا يخفي ما في هذا التفسير من تغيير للمعنى الظاهر من الآية؛ لأن قوله: **{أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}**، جواب من الله -عز وجل-، يدل عليه قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ولكنكم تستعجلون))[6]، فهذا الذي وقع من هؤلاء الرسل عليهم -الصلاة والسلام-، ومن أقوامهم ممن صبر وثبت معهم، ما قالوه إلا لشدة ما نزل بهم، بل قال

---

[5] رواه البخاري في كتاب بدء الوحي -باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- برقم (٧) (٧/١) ومسلم في كتاب الجهاد والسير -باب كتاب النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام برقم (١٧٧٣) (١٣٩٣/٣).

[6] رواه البخاري في كتاب المناقب -باب علامات النبوة في الإسلام برقم (٣٤١٦) (١٣٢٢/٣).

الله –عز وجل-: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا} [(١١٠) سورة يوسف] وهي أوضح من آية البقرة، فمتى ينزل النصر؟ لما يبلغ الحال في الشدة غايته، عندها ينزل النصر، فيسقط كل منافق، وينكشف زيف كل صاحب مرض، ويُعرف على رءوس الأشهاد، وتتبين الأمور على حقائقها، فمن الناس من يسقط في أول الطريق، ومنهم يسقط في أثنائه، ومنهم من يطول نفَسُه ثم ما يدري إلا وقد زلت به قدمه، فيسقط الجميع، ولا يبقى إلا أصحاب الإيمان الصحيح.

وبعض أهل العلم يختار القراءة الأخرى: {أنهم قد كُذّبوا} يعني أن أقوامهم قد كذبوهم؛ لأنهم وعدوهم بالنصر، وقد تأخر مجيئه، فخافوا من تكذيب أقوامهم لهم، لكن القراءة المشهورة تدل على معنى لا إشكال فيه إطلاقاً، وعليه فنخلص من هذا أنه لا يُسلَّم بأنه كلما خطر في بال المفسر من إشكال يدعي التقديم والتأخير في الآية، إذ الأصل عدم ذلك.

ومن أحسن ما تفسر به هذه الجملة من الآية أن يقال: إن هذا من الخواطر التي تقع وترد على القلب من غير أن تستقر فيه، فيجب دفعها مباشرةً دون تريث، وهذه الخواطر لا يلام الإنسان فيها، وهي شبيهة بتفسير الهم فيما حكاه الله –عز وجل– عن يوسف مع امرأة العزيز يقول الله –عز وجل-: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا} [(٢٤) سورة يوسف]، فمن تأمل أقوال المفسرين يجد الكثير من التعسفات والتكلفات في تفسير الآية، وحملها على المحامل البعيدة، ومن أحسن ما ورد في تفسيرها، ما قاله بعض السلف وهو اختيار الإمام أحمد –رحمه الله-، أن ثَمّة فرقاً بين الهمين، هم يوسف –عليه الصلاة والسلام-، وهم امرأة العزيز، إذ هم امرأة العزيز كان من قبيل العزم، وأما هم يوسف –عليه الصلاة والسلام– فهو من قبيل الخطرات، فدفع ذلك ولم يتحول إلى فكرة فضلاً عن أن يتحول إلى عزيمة أو عمل، وهكذا ما قاله الرسول قد يرد على القلب في أوقات الشدة، ولكن ما يلبث أن يدفعه ولا يثبت فيه، فلا يضر الإنسان، وهذا المعنى من أحسن من تكلم عليه الشيخ: عبد الرحمن بن سعدي –رحمه الله-، في كتابه: "القواعد الحسان"، إذ أورد أمثلة وجهها بهذا التوجيه، ومن أهل العلم من يوجهها بتوجه آخر، إلا أن هذا التوجيه جيد وليس فيه أي تكلف.

"{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [(٢١٥) سورة البقرة]، قال مقاتل بن حيان: هذه الآية في نفقة التطوع، ومعنى الآية يسألونك كيف ينفقون، قاله ابن عباس –رضي الله عنهما– ومجاهد."

إذا فسرت {مَاذَا يُنفِقُونَ} بكيف ينفقون، فيكون السؤال عن جهة الصرف –الجهة التي يعطى لها المال-، لا عن المال المنفق في الآية، وما يدعم هذا التفسير اقتصار الجواب على ذكر الجهات: الوالدين، والأقربين، واليتامى، والمساكين،..... إلى آخره، لكن بعض أهل العلم يقول: إن السؤال كان عن المال المنفق كما دل عليه ظاهر الآية، ودلت عليه الآية الأخرى {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ} [(٢١٩) سورة البقرة]، يعني ما فضل عن حاجتكم، وحاجة عيالكم، ومن يدخل تحتكم، فجاء الجواب متعلقاً بالمال المنفق.

ومن أهل العلم من يقول: كان السؤال عن المال المنفق، إلا أن الجواب جاء عن المطلوب الأهم وهو جهة الصرف، وهذا ما يسميه البلاغيون: "أسلوب الحكيم"، والمعنى أنه كان ينبغي لكم أن تسألوا عن هذا الذي تحتاجون إلى معرفته أكثر.

ومن أهل العلم من يقول: إن سؤالهم عن المال المنفق قد ذكر جوابه ضمناً في قوله: **{مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ}** فالمنفق الخير وهو: المال الطيب الحلال، والله أعلم.

"ومعنى الآية: يسألونك كيف ينفقون؟ قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد، فبين لهم تعالى ذلك فقال: {قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ..} [(٢١٥) سورة البقرة]**، أي اصرفوها في هذه الوجوه كما جاء الحديث: ((أمك، وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك))**[٧]**، وتلا ميمون بن مهران هذه الآية ثم قال: "هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبلاً، ولا مزماراً، ولا تصاوير الخشب، ولا كسوة الحيطان"."**

كسوة الحيطان: أشياء توضع على الجدران وتغطيها، وهي أشبه ما تكون بالديكورات اليوم، ومقصود ابن مهران أن النفقة لا تكون في صرف الأموال على أمور لا طائل تحتها، ولا يحسن المبالغة فيها؛ لأنه يدخل في التبذير المنهي عنه وقد قال -سبحانه-: **{إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ}** [(٢٧) سورة الإسراء]، وكذا صرفها في المحرمات والأمور غير الجائزة شرعاً.

"ثم قال تعالى: {وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [(٢١٥) سورة البقرة]**، أي: مهما صدر منكم من فعل معروف فإن الله يعلمه، وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء، فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة."**

هذه الآية متضمنة معنى الوعد، كأنه يقول: ما أنفقتم من مال تبتغون به وجه الله فأنا أعلم بما تقومون به وبما تنفقونه، وسأجازيكم عليه إحساناً وخيراً، فهو وعد مبطن بالجزاء والإنعام، وقد ورد ذكر أمثلة له في مواضيع عديدة من القرآن الكريم.

"{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [(٢١٦) سورة البقرة]**، هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام."**

{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ} أي: فرض عليكم.

"وقال الزهري: الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد، فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين، وإذا استغيث أن يغيث، وإذا استنفر أن ينفر."

معنى كلام الزهري أن الجهاد واجب على كل أحد قعد أو غزا، باعتبار أنه فرض على مجموع الأمة على الكفاية، وإذا لم يقوموا به على الفرض فإنهم يأثمون جميعاً، ويدخل في الفرضية من كان الناس بحاجته في جانب لا يحسنه غيره، أو انتدب له من قبل الإمام فإنه لا يسعه الجلوس، ويجب عليه أن ينفر، ويعتبر في حقه فرض عين.

وابن جرير الطبري ينقل الإجماع على فرضية الجهاد على الكفاية، والصواب في المسألة أن ذلك ليس محل إجماع، وإن كان ما ذهب إليه ابن جرير هو الراجح من أقوال أهل العلم، لكن ابن جرير -رحمه الله- ينقل الإجماع باعتبار قول الأكثر، وجاء عن بعض السلف القول بأن الجهاد فرض على كل مكلف، في كل وقت،

---

[٧] سنن النسائي برقم (٢٥٣٢) (٥/٦١)، وأحمد في مسنده برقم (٧١٠٥) (٢/٢٢٦)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١٤٠٢٧).

وليس في الحالات التي يذكرها الفقهاء، كحالة إذا دهم العدو بلاد المسلمين، واستدلوا بقول الله تعالى: **{انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً}** [(٤١) سورة التوبة]، وأن الله توعدهم فقال: **{إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}** [(٣٩) سورة التوبة] حتى نقل عن بعضهم أنه خرج وقد كف بصره، ومنهم من خرج إلى الجهاد وقد ضعف وشاخ فكان أبناؤه يحملونه، فلما قال له أبناؤه: نحن نكفيك. قال: هذه الآية لم تدع أحداً: **{انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً}**، وبعضهم كان يحمل الراية وهو أعمى.

لكن الراجح أن الله -عز وجل- قد خفف عنهم بعد ذلك كما في سورة براءة، قال: **{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}** [(١٢٢) سورة التوبة]، فعلى أحد القولين في معنى الآية، أن تنفر طائفة مع النبي -صلى الله عليه وسلم- فتصحبه في أسفاره، وتتفقه مما يرون من حاله -عليه الصلاة والسلام- ومقاله، فيرجعون إلى قومهم يعلمونهم ما تعلموه منه -صلى الله عليه وسلم-.

والقول الآخر: أنها تبقى طائفة تتفقه، وطائفة تجاهد في سبيل الله، قال الإمام أحمد -رحمه الله-: لا أعلم شيئاً أفضل من العلم إذا كان له نية، ولا الجهاد في سبيل الله.

فالمقصود أن هذه الآية تدل على فرضية الجهاد باعتبار أصل الفرض على مجموع الأمة ، وقال بعض أهل العلم كالإمام أحمد -رحمه الله- وطائفة: إنه يجب على الإمام أن يسير جيشاً في جهاد الطلب، في كل عام مرة، وتكلموا في مسألة الصلح وأنها لا تزيد عن عشر سنين، أما جهاد الدفع فإذا هجم العدو على بلد المسلمين فيجب عليهم وجوباً أكيداً عينياً على كل قادر ممن داهم العدو أرضهم أن يدفعه.

"وإن لم يُحتج إليه قعد، قلت: ولهذا ثبت في الصحيح: ((من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو، مات ميتة جاهلية))[8].

وقال -عليه السلام- يوم الفتح: ((لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا))[9].

وقوله: {وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ}، أي: شديد عليكم ومشقة، وهو كذلك، فإنه إما أن يقتل، أو يجرح مع مشقة السفر، ومجالدة الأعداء.

ثم قال تعالى: {وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}، أي لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء، والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذراريهم وأولادهم."

والله أعلم، وصلى الله على نبيه وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

---

[8] رواه مسلم في كتاب الإمارة -باب ذم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو برقم (١٩١٠) (٣/١٥١٧).

[9] رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير -باب فضل الجهاد والسير برقم (٢٦٣١) (٣/١٠٢٥)، ومسلم في كتاب الإمارة -باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير وبيان معنى ((لا هجرة بعد الفتح)) برقم (١٨٦٤) (٣/١٤٨٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٩٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٢١٧-٢١٨) سورة البقرة].

"روى ابن أبي حاتم عن جندب بن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعث رهطاً، وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح -رضي الله تعالى عنه-، فلما ذهب ينطلق بكى صبابة إلى رسول الله -صلى لله عليه وسلم-، فحبسه، فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش -رضي الله تعالى عنه، وكتب له كتاباً وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، وقال: ((لا تكرهن أحداً على السير معك من أصحابك))، فلما قرأ الكتاب استرجع، وقال: سمعاً وطاعة لله ولرسوله. فخبرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلان وبقي بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأنزل الله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ....} الآية[1]."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. أما بعد:

فهذه الآية يحتاج إليها المسلمون كثيراً في هذه الأيام خاصة حينما يهاجمهم الكفار بالدعايات الكاذبة، والأقاويل المغرضة، ويشنعون علي المسلمين نظراً لتصرفات فردية صدرت من بعضهم لا تمثل جمعهم، وإذا بلغك دفاع ورد من المسلمين عليهم فهو في غاية التهافت، فلا يخلو إما أن يكون شناعة على هذا المتصرف دون نظر إلى فعل الكفار، وإما تملصاً من حقائق الدين وشرائع الإسلام، أو أخذاً ببعض النصوص دون التفات إلى النصوص الأخرى في الباب نفسه، فهذه القضية استغلها المشركون استغلالاً شنيعاً، وأرادوا أن يُلحقوا من جرائها النقيصة بالمسلمين، وأن يشوهوا صورتهم، ويسيئوا إلى سمعتهم، كون هذه السرية خرجت في شهر جمادى، والتقوا بتلك القافلة في آخر شهر جمادى الثاني، وكان هؤلاء الكفار يريدون مكة، وليس بينهم وبين حدود أرض الحرم إلا مسافة يسيرة إن دخلوها نجوا، فتردد المسلمون هل دخل الشهر الحرام أو لم يدخل؟، فاجتهدوا في عدم دخوله، عند ذلك أقدموا فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه....القصة، عندئذ رفع الكفار عقيرتهم يبثون الكذب والبهتان ضد المسلمين، فإذا المسلمون الذين كانوا

---

[1] رواه البيهقي في السنن الكبرى برقم (١٧٥٢٣) (٩/١١)، ورواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (١٦٤٨) (٢/٢٢٢).

في مكة ولم يهاجروا بعدُ، انبروا للدفاع عن إخوانهم لما سمعوا سهام النقد توجه إليهم معتذرين لهم بكونهم لم يعلموا بدخول الشهر.

عندها نزل القرآن الكريم بالحادثة مفصلاً فيها، فأجاب عن الجانب الأول بما يتعلق بالمسلمين بكلمة **{قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ}** أي: هذا أمر عظيم.

وأجاب عن الجانب الآخر –الكفار– فقال: إن فتنتكم الناس عن دينهم، وكفركم بالله العظيم، وإفسادكم في الأرض، أعظم وأشنع وأشد جرماً مما وقع من هذه الطائفة التي انتهكت حرمة الشهر الحرام، فكيف تشنعون عليهم، وأنتم ترتكبون ما هو أقبح وأشد وأنكى جرماً من صنيعهم، هكذا جاء رد القرآن فقطع عليهم الطريق، وألجم أفواههم بهذا الجواب، وهذا فقه في الرد، ومنهج للقرآن في الرد على دعاية الكفار المغرضة، ولذا كان لا بد لمن يتكلم في هذه المسائل أن يبني كلامه على علم وعدل وفقه، فيما يجب أن يقال في هذه المقامات لأعداء الله –عز وجل–.

وأما سبب استرجاع عبد الله بن جحش فإنه يعود إلى كونه مقدماً على أمر قد تكون النجاة فيه ضعيفة؛ فعدد الذين خرجوا معه قليل لم يتجاوزوا الثمانية، والمكان لا يأمنون فيه على أنفسهم وأرواحهم خاصة بين مكة والطائف –ثقيف وقريش–، إضافة إلى أن النبي –صلى الله عليه وسلم– فتح باب الخيار لمن أراد أن يرجع منهم، وإن كان الصحيح عند الجمع بين الروايات أنه لم يرجع منهم أحد، وأما ما قيل من رجوع اثنين منهم فإنه لم يكن إلى المدينة، بل كان لسبب آخر، وهو أن سعد بن أبي وقاص –رضي الله عنه–، وعتبة بن غزوان أضلا بعيراً لهما، كانا يعتقبانه، أي: يركبانه بالتعاقب والتناوب، فكانا يبحثان عنه، فلم يكن ذلك رجوعاً عن هذه السرية، ويشهد لهذا هذه الرواية.

"وقال عبد الملك بن هشام –راوي السيرة–: عن زياد بن عبد الله البكائي، عن محمد بن إسحاق بن يسار المدني –رحمه الله– في كتاب السيرة له، أنه قال: وبعث رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب مقفله من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً، وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين، ثم من بني عبد شمس ابن عبد مناف أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، ومن حلفائهم عبد الله بن جحش، وهو أمير القوم، وعكاشة بن محصن أحد بني أسد بن خزيمة، ومن بني نوفل بن عبد مناف عتبة ابن غزوان بن جابر حليف لهم، ومن بني زهرة بن كلاب سعد بن أبي وقاص، ومن بني عدي بن كعب بن ربيعة حليف لهم من عنز بن وائل، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرين بن ثعلبة بن يربوع أحد بني تميم حليف لهم، وخالد بن البكير أحد بني سعد بن ليث حليف لهم، ومن بني الحارث بن فهر سهيل بن بيضاء –رضي الله تعالى عنهم– وأرضاهم أجمعين، فلما سار عبد الله بن جحش يومين، فتح الكتاب فنظر فإذا فيه: ((إذا نظرت في كتابي هذا، فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم))، فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال: سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله –صلى الله عليه وعلى آله وسلم– أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر،

وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد، فسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له: نجران، أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان -رضي الله تعالى عنهما- بعيراً لهما كانا يتعقبانه، فتخلفا عليه في طلبه ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابة حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارةً من تجارة قريش..."

الأدم: يعني الجلود.

"فيها عمرو بن الحضرمي، واسم الحضرمي عبد الله بن عباد أحد الصدف، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة، فلما رآهم القوم هابوهم، وقد نزلوا قريباً منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمنوا، وقالوا: عمار لا بأس عليكم منهم."

أرادوا أن هؤلاء جاءوا من العمرة.

"وتشاور القوم فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب، فقال القوم: والله لأن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلنّ الحرم، فليمتنعن منكم، ولأن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام."

هذه الرواية باعتبار أنهم يعرفون أنه قد دخل الشهر، وفي رواية أخرى أنهم ترددوا في دخول الشهر الحرام، ويفهم من مجموع الروايات أنه وقع عندهم شيء من التردد والالتباس، وعند من أجرى مقتضى القواعد فإن الأصل بقاء شهر جمادى، فيباح لهم ما أقدموا عليه.

"فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة، قال ابن إسحاق: وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش، أن عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- مما غنمنا الخمس، وذلك قبل أن يفرض الله الخمس من المغانم، فعزل لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- خمس العير، وقسم سائرها بين أصحابه، قال ابن إسحاق: فلما قدموا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام))، فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فلما قال ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أسقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحل محمد -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال، فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة، إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان، وقالت اليهود: تفاءلوا بذلك على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، عمرو ابن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله، عمروٌ عَمَرت الحرب، والحضرمي...."

اليهود يستنبطون من الأسماء معاني تروق لهم، ويريدون بكلامهم أن الحرب قامت بين قريش وبين النبي -صلى الله عليه وسلم-، فأفرحهم هذا كثيراً، ظناً منهم أن هذه الحادثة ستكون مؤذنة بقيام حرب، وصنيعهم هذا يشبه حال الوزَغ التي كانت تنفخ في النار على إبراهيم، لكن مشيئة الله كما أخبر عنها: **{كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا}** [(٦٤) سورة المائدة].

"عمروٌ عمرت الحرب، والحضرمي حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله وقدت الحرب، فجعل الله عليهم ذلك لا لهم."

ولم يقولوا: عمرو عمرت البلاد وما أشبه ذلك، إمعاناً منهم في التأكيد على المعنى الذي يريدون.

"فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ}، أي: إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهله، أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم."

الأقاويل في تفسير الآية كثيرة وفي بعضها بُعد، إلا أن ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- عليه عامة المفسرين من السلف والخلف، وهو من أحسن ما تفسر به الآية، والمقصود أنه رد على المشركين، إذ كيف تستعظمون علينا القتال في الشهر الحرام، وما تفعلون أنتم من الصد عن سبيل الله لمن أراد الإسلام، ومن الكفر بالله، والصد عن المسجد الحرام، ومن إخراج أهل الحرم أكبر جرماً عند الله -عز وجل-، كما قال الله سبحانه **{قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ}** أي: هذا الأمر عظيم.

قوله سبحانه: {وَكُفْرٌ بِهِ} راجع إلى آخر مذكور وهو صد عن سبيل الله، وقد جرى على خلاف الأصل، إذ الأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور.

ولا يفهم أحد أن المسلمين خرجوا مختارين، أو أنهم أخذوهم وألقوهم خارج مكة أو خارج الحرم، لا، لكن يقال: إنهم فعلوا معهم ما ضيّق عليهم حتى اضطروهم إلى الخروج، لذلك سماه الله إخراجاً، كما قال الله -عز وجل-: **{يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ}** [(١) سورة الممتحنة] مع أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- والصحابة خرجوا بأنفسهم، لكنهم حملوهم على الخروج، فصح نسبة ذلك إليهم، ومثله قوله -عز وجل-: **{الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ}** [(٤٠) سورة الحـج]، أي: حُملوا على الخروج من ديارهم بما حصل لهم من الأذى والتضييق.

وقوله سبحانه: **{وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ}** يعني من هذا الفعل الذي حصل.

وقوله سبحانه: **{وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ}** أي: وحمْل الناس على الكفر، وتبديل الدين الذي أنزله الله -عز وجل-، هذا أعظم من القتل في الشهر الحرام.

وأهل العلم مختلفون اختلافاً مشهوراً في مسألة نسخ القتال في الأشهر الحرم، فمنهم من يقول: إن هذه الآية في سورة البقرة منسوخة بقوله: **{وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً}** [(٣٦) سورة التوبة] فيدخل في ذلك قتالهم في كل وقت على هذا المعنى، وآية السيف **{فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ**

وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [(٥) سورة التوبة]، وذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، والقاعدة تقول: إن النسخ لا يثبت بالاحتمال.

ويستدل القائلون بالنسخ كذلك بوقائع مثل حصار النبي -صلى الله عليه وسلم- لأهل الطائف في شهر ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم، ومن تأمل تلك الوقائع يجد أنها لم تكن واقعة ابتداءً من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في قتال المشركين، وإنما غاية ما في الأمر أنهم ابتدءوه، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لما فتح مكة في رمضان، اجتمعت هوازن ومن دخل تحتها لقتال النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكمنوا له في وادٍ بين مكة والطائف من وراء عرفة، يقال له: وادي حنين، فخرج إليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- في شهر شوال وهو ليس من الأشهر الحرم، وجعل يتبع فَلّهم -المنهزمين منهم- الذين تحصنوا بحصن الطائف، فهذا من لواحق وتوابع الغزوة، ولم يكن ذلك ابتداءً من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فما وقع في حنين وفي أوطاس لم يكن إلا امتداداً لغزوة هوازن، ولا يعلم شيء في سيرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه ابتدأ القتال من غير مبادأة المشركين في شيء من الأشهر الحرم، وبهذا يجاب عن جميع الأمثلة والشواهد التي يستدل بها من يقول بأن الآية منسوخة، وأن القتال في الأشهر الحرم جائز، فَيُخلص من هذا أن الأقرب أن حرمتها باقية، وآية براءة التي يستدلون بها هي آخر ما نزل في القتال، والله -عز وجل- يقرر فيها {مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً} والله أعلم بالصواب.

"{وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} أي: قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل."

كثير من السلف يفسر الفتنة في الآية بالشرك، والمعنى الذي مشى عليه ابن كثير أخص من ذلك إذ المراد بالفتنة عنده: هي حمل الناس على الكفر، وإضلال الناس عن دين الله -عز وجل- وهذا أعظم من القتل، وهذا المعنى ذكره ابن القيم -رحمه الله- من معاني الفتنة، وحمل عليه هذه الآية ونظائرها.

وأما الفتنة التي ترد مضافة إلى الله -عز وجل-، فتأتي بمعنى الابتلاء والامتحان كما قال الله -سبحانه-: {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} [(٣) سورة العنكبوت] يعني امتحناهم وبلوناهم، وهي خلاف الفتنة التي تقع بين المسلمين من الاقتتال وما أشبه ذلك، كتلك التي قال عنها النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما رواه عنه أبو هريرة -رضي الله عنه-: ((تكون فتنةٌ النائمُ فيها خير من اليقظان، واليقظان فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الساعي))[2]، فهذه في الشر الذي يقع بين المسلمين والقتال، ويختلف عنها الفتنة التي ذكرها الله -عز وجل- في قوله: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} [(١٥) سورة التغابن]، وجاء في أول حديث حذيفة: ((فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره))[3] فعدها فتنة وذلك لتعلق القلب بالأموال والأولاد، مما يستدعي ترك

---

[2] رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة -باب نزول الفتن كمواقع القطر برقم (٢٨٨٦) (٤/٢٢١١).

[3] رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة -باب الصلاة كفارة برقم (٥٢٥) (١/٥٣٦)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة -باب في الفتنة التي تموج كموج البحر برقم (٧٤٥٠) (٨/١٧٣).

القيام ببعض وظائف العبودية، فالفتنة تأتي بمعانٍ متعددة، لكن المقصود بها هنا هذا المعنى الذي أورده ابن كثير، والله أعلم.

"**{وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ} أي: ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين.**"

أعداء الله لن ينتهوا عن قتال أهل الإسلام حتى يتخلوا عن دينهم، وينكصوا على أعقابهم، ما لم يحدث ذلك فسيستمر قتالهم للمسلمين، وتنكيلهم بهم، وأما رضاهم فـ**{لَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}** [(١٢٠) سورة البقرة]، فالإنسان أياً كان لن يسلم منهم بحال، ما لم يوافقهم على دينهم وملتهم.

"قال ابن إسحاق: فلما نزل القرآن بهذا من الأمر، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشدة، قبض رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا، يعني -سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان-، فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم))، فقدم سعد وعتبة، ففداهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- منهم، فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافراً.

قال ابن إسحاق: فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه -رضي الله تعالى عنهم- ما كانوا فيه، حين نزل القرآن طمعوا في الأجر، فقالوا: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين؟، فأنزل الله -عز وجل-: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٢١٨) سورة البقرة]، **فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء[4]."**

فمع الإشكال الذي وقعوا فيه من القتال في الأشهر الحرام عُدت لهم غزوة، وفي التطبيق العملي على الواقع ينبغي لنا التفريق عند الحكم على الأمور، ووضع الموازين في نصابها، وأن ندرك حقائق الدين وكنهها، ونقيم أود الجهاد على معايير صحيحة محكمة بالمصالح والمفاسد، وأن تكون غيرتنا على ديننا مضبوطة بلجام الشرع، ولا نجعل من تبريراتنا منطلقاً للإساءة على الإسلام وإن أردنا الإحسان إليه، فالخطأ يبقى خطأ، والنية لا تصلح العمل الفاسد.

وأما من يتعلل بأن المسلمين الذين يقاتلون الكفار في الجهاد الشرعي الصحيح قد وقعت منهم أخطاء وتجاوزات كما حصل من خالد بن الوليد -رضي الله عنه- في القصة المعروفة، فالجواب أن ذلك الخطأ نادر وقليل ولم يكن الأصل، وهذا التصرف إنما وقع منهم بعد اجتهاد ونظر وقد جانبوا فيه الصواب فهو مغفور لهم ومتجاوز عنه لاجتهادهم، ولا ننسى فإن لهم من الحسنات العظام ما يكفر ذلك.

المهم أن مثل هذه الأمور ينبغي أن تضبط ويحكم عليها بالعلم والعدل؛ لأن الله -عز وجل- يقول: **{وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}** [(٨) سورة المائدة]، ويقول: **{إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ**

[4] جاء ذكر القصة في كتاب سيرة ابن هشام (١/١٨٨).

فَقِيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا} [(١٣٥) سورة النساء]، فلا يكون الحب أو البغض لأحد دافعاً لمجانبة العدل في الحكم على أفعال الناس وتصرفاتهم، وإن كانت هذه الأمور كثُر فيها الالتباس لدى الكثير، والله المستعان.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٩٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ* فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٢١٩-٢٢٠) سورة البقرة].

"روى الإمام أحمد عن أبي ميسرة عن عمر -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: لما أنزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية التي في البقرة: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ}، فدُعي عمر -رضي الله تعالى عنه- فقُرئتْ عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في النساء: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى} [(٤٣) سورة النساء]، فكان منادي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا أقام الصلاة نادى أن لا يقربن الصلاة سكران، فدُعي عمر -رضي الله تعالى عنه- فقُرئتْ عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة فدُعي عمر -رضي الله تعالى عنه- فقُرئتْ عليه فلما بلغ {فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} [(٩١) سورة المائدة] قال عمر: انتهينا انتهينا"[1]. هكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي، وقال علي بن المديني: هذا الإسناد صالح صحيح، وصححه الترمذي، وسيأتي هذا الحديث أيضاً مع ما رواه أحمد من طريق أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أيضاً عند قوله في سورة المائدة {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٩٠) سورة المائدة] الآيات.

فقوله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ} أما الخمر فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-: إنه كل ما خامر العقل، كما سيأتي بيانه في سورة المائدة، وكذا الميسر وهو القمار."

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في الخمر: إنه كل ما خامر العقل، أراد غطاه، والخمر من خمر الشيء بمعنى غطاه، والتخمير التغطية، سميت بذلك لأنها تغطي العقل فيزول بسببها، ويحصل الإسكار.

وتأتي الخمر بمعنى المخالطة، ما خامر العقل أي: خالطه، أو من التخمير وهو ضد الفطير، تقول: تركته حتى خمر فهو خمير، والمعنى تركته حتى أدرك، تقول: تركت العجين حتى تخمّر، أو خمر.

---

[1] رواه الترمذي برقم (٣٠٤٩) (٥/٢٥٣)، والنسائي برقم (٥٥٤٠) (٨/٢٨٦)، وأحمد برقم (٣٧٨) (١/٤٤٣)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٣٠٤٩).

وتقول في الرأي هذا رأي خمير، أي ليس بفطير، بمعني أنه قد قلب من جميع الوجوه، وحصل فيه أناة حتى نضج، فيمكن أن تكون بهذا الاعتبار؛ لأنها تركت حتى تغيرت، والفواكه التي يصنع منها الخمر تترك حتى تتخمر، فيلقي بالزبد ثم بعد ذلك تكون مسكرة.

والمشهور الأول وهو أنها سميت خمراً؛ لأنها تغطي العقل، ولا تعارض مع المعنى الآخر؛ لأن المراد أنها تخالط العقل فإذا صارت المخالطة فإن العقل لا يكون في حالة سوية، والله تعالى أعلم.

قوله سبحانه: {وَالْمَيْسِرِ} الميسر: من يسر ييسر وهو القِمار الذي كان يتعاطاه العرب قديماً قبل الإسلام، ويدخل فيه القداح والأزلام إلى غير ذلك من هذه الأمور التي يتخاطر الناس فيها، سواء كانت من قبيل اللهو كالشطرنج والنرد، والكعاب التي يلعب بها الصبيان، فهذا كما يسميه الإمام مالك –رحمه الله–: ميسر اللهو، أو الذي يتخاطر الناس فيها بمقابل، فيقامر الرجل على فرسه، أو جمله، أو بيته، أو أرضه، أو ماله، وقد يصل الحال ببعضهم أن يقامر على امرأته، إذا لم يبق له شيء من أجل أن يسترجع ما فات، ويلحق باللهو الباطل لعب الورق، والكيرم، والفريرة، وألعاب تشبه المنيبولي، وأخرى تشبه النرد لكنها كما يقال: بطريقة إسلامية، وهي محل نظر وتأمل، فتعتبر من اللهو الذي يشغل الناس عن ذكر الله –عز وجل–، وعن الصلاة، ومدعاة للعداوة والبغضاء بين المسلمين، ولا تخرج الأمة منه بكبير طائل، ولا بفائدة، أو قوة في بنائها وجهادها وحضارتها، بل هي سبب في صرف صاحبها عن المطالب العالية، ويدخل فيه كثير من الألعاب الإلكترونية اليوم، والله تعالى أعلم.

وصورة القمار والقداح والأزلام المعروفة عند العرب أنهم يأتون بأقداح معدودة بعدد، في كل واحد منها مكتوب سهم، وفيها ما ليس فيه شيء، ويتقامرون على لحم جزور مثلاً، ثم يأتي صاحب القداح بكيس ويلتحف بثوب، فيدخل يده في الكيس، ثم يخرج لكل واحد سهمه ونصيبه فيأخذه طواعية أو كرها، وكان لكل قدح من هذه القداح اسم عند العرب.

"وقوله: {قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} أما إثمهما فهو في الدين، وأما المنافع فدنيوية من حيث إن فيها نفع البدن، وتهضيم الطعام، وإخراج الفضلات، وتشحيذ بعض الأذهان، ولذة الشدة المطربة التي فيها، وكذا بيعها والانتفاع بثمنها."

عد الإمام الشاطبي –رحمه الله– جملة من فوائد الخمر، لكنها ضئيلة بالنسبة لمفاسدها ومنها:

أنها تشجع الجبان لذلك كانت العرب تشربها في الحروب، فإذا شربها أحدهم ربط على رأسه خرقة حمراء فلا يكاد يقف في وجهه أحد. يقول أحدهم:

ونـــــشربها فتتركنــــا ملوكـــــاً   وأُسْـــــداً مـــا يُنَهْنِهُنـــا اللقـــاءُ

ومنها: أن البخيل إذا شربها صار جواداً كريماً، ولحمزة بن عبد المطلب –رضي الله عنه– قصة مشهورة في هذا مع شارف علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– يحكيها عليٌّ فيقول: كانت لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان النبي –صلى الله عليه وسلم– أعطاني مما أفاء الله عليه الخمس يومئذ، ..أردت أن أبتني به بفاطمة عليها السلام، ...فخرجت لسوق بني قينقاع فلما رجعت، إذا أنا بشارفي قد أجبت أسنمتهما، وبقرت خواصرهما، وأخذ من أكبادهما فلم أملك عيني حين رأيت المنظر قلت: من فعل هذا؟

قالوا: فعله حمزة بن عبد المطلب وهو في البيت، في شرب من الأنصار عنده قينة وأصحابه، فقالت في غنائها: ألا يا حمز للشرف النواء، فوثب حمزة إلى السيف وصنع ما رأيت!

قال علي: فانطلقت حتى أدخل على النبي -صلى الله عليه وسلم- وعنده زيد بن حارثة، وعرف النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي لقيت فقال: ((ما لك))؟ قلت: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ما رأيت كاليوم، عدا حمزة على ناقتي... فطفق النبي -صلى الله عليه وسلم- يلوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة ثمِل محمرة عينه، فنظر حمزة إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم صعد النظر فنظر إلى ركبته، ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه، ثم قال حمزة: وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟، فعرف النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه ثمِل، فنكص رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على عقبيه القهقرى، فخرج وخرجنا معه"[2]

الشاهد من الحادثة أن شرب الخمر تشجع الجبان، وتجعل البخيل كريماً، ولا يفهم من القصة أن حمزة -رضي الله عنه- كان بخيلاً، بل هو من أكرم الناس وأفضلهم وأجلهم وأعلاهم، وما شرب الخمر إلا لأنها لم تكن حرمت حينها، فالمقصود أن البخيل وغير البخيل يجود بماله وبغير ماله في حالة تعاطيه لها، ولهذا يقول بعضهم:

وإذا شربت فإنني رب الخورنق والسدير وإذا صحوت فإنني رب الشويهة والبعير

ويقصد بالشطر الأول أنه في حال السكر ربُّ القصر الذي يجلس فيه الملك يأكل، بل وفوق الملك، وإذا صحا فإنه راعي إبل وغنم يرجع إلى حاله الطبيعية.

فهذه بعض فوائد الخمر، ولكنها فوائد ضئيلة إذا ما قوبلت بالمفاسد الكبيرة من شربها، والعبرة إنما هي بما غلب ولذا قال أحدهم في الخمر:

رأيـــت الخمــــر صــــالحة وفيهـــا خـــصالاً تفـــسد الرجـــل الحليمـــا

فــــلا والله أشــــربها صـــــحيحا ولا أشـــفى بهــــا أبــــداً ســــقيما

ولا أعطــــي بهــــا ثمنـــاً حيـــاتي ولا أدعـــوا لهــــا أبــــداً نــــديما

ولا يوجد على ظهر الدنيا مفسدة خالصة كما يقول الأصوليون، وبالمقابل لا يوجد فيها مصلحة خالصة، إنما هي مشوبة بين هذا وذاك.

أما اللذات الخالصة فمحلها الجنة، والمفاسد الخالصة فمحلها النار، فإذا نظر الإنسان إلى الأشياء المحرمة وجد أنها تشتمل على بعض الأشياء التي فيها مصلحة لكن هذه المصلحة قليلة بالنسبة للمفسدة الكبيرة، وإذا نظر إلى الأشياء المباحة وجد فيها مفسدة، لكنها قليلة بالنسبة للمنفعة كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن البقر بقوله: ((ألبانها شفاء، وسمنها دواء، ولحومها داء))[3].

وأما مرضى القلوب من المنافقين فتجدهم يتعلقون بمصلحة مرجوحة في بعض مسائل الدين تتوافق مع أهوائهم، ويتغاضون عن المفاسد الكبيرة المترتبة علي الإقدام على هذه المسألة، ولذا الصواب القول: إنه ليس كل شيء يحصل فيه منفعة للإنسان يفهم منه الإباحة والجواز، والله أعلم.

---

[2] رواه البخاري في كتاب المغازي -باب شهود الملائكة بدراً برقم (٣٧٨١) (٤/١٤٧٠)، ومسلم في كتاب الأشربة -باب تحريم الخمر وبيان أنها تكون من عصير العنب ومن التمر والزبيب وغيرهما مما يسكر برقم (١٩٧٩) (٣/١٥٦٨)

[3] رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٢١١٩٤) (٢٥/٤٢)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٨٤٢٢).

"وما كان يقمشه بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله، ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته الراجحة؛ لتعلقها بالعقل والدين."

فالميسر يكسب من ورائه المقامر المال من غير تعب، فيحصل له بسببه فرح وسرور وهذه مصلحة لكنها لا توازي المضرة والمفسدة؛ وهي كونه أخذ ماله بغير حق، فتترجح حينها المفسدة وتغلب، ولا يكون للمقامر حق في أخذ المال بالمقامرة؛ للمفسدة الراجحة، والله أعلم.

"ولهذا قال الله تعالى: {وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا} [(٢١٩) سورة البقرة]."

كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- يقول: إثمهما يعني: إثم ما ينتج عنهما، ويعلل ذلك بأن هذه الآية نزلت قبل التحريم، وأن سياقها إنما يفهم منه الإخبار فقط، فلا يلحق شاربها الإثم بمجرد شربها؛ بل باعتبار ما ينتج عن تعاطيها من ظلم الآخرين بلسانه وبيده، أو فعل ما لا يليق مما يوقعه في الحرج.

والإثم يطلق على معنيين: العمل الذي ينتج عنه المؤاخذة والتبعة، تقول: من فعل كذا فهو آثم، ومنه أُطلق على الكذب إثم، والزنا إثم.....الخ

وكثر إطلاقه على الخمر من بين الذنوب؛ لكثرة ما فيها من المفاسد والقبائح، والعرب كانت تسميها بالإثم كما قال أحدهم:

شربت الإثم حتى ضل عقلي ... كذاك الإثم تفعل بالعقول

وبعض العلماء يقول: إن أول آية نزلت في الخمر هي قوله -سبحانه- في سورة النحل: {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا} [(٦٧) سورة النحل]، قالوا: السَّكَر هو المسكر، ثم نزلت هذه الآية {فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ}، لكن المشهور أن آية البقرة هي أول ما نزل في المدينة، وأما آية النحل فليس المقصود بالسَّكَر الخمر على الأرجح، إنما هو ما شرب من عصير هذه الثمار المسمى: "النبيذ"، فإنهم يلقون الرطب في الإناء ويتركونه يوماً وليلة أو نحو هذا، مما يورث هذا الشراب مذاقاً حلواً، فالآية إنما جاءت في مقام الامتنان، ويستحيل أن الله -عز وجل- يمتن على عباده بالخمر، وهي كثيرة الشر والآثام، ومفسدتها أعظم من مصلحتها، وما ذكر من تأويلات ومحامل لتبرير هذا الامتنان فهو بعيد، والله أعلم.

"ولهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر على البتات، ولم تكن مصرّحة بل معرّضَة، ولهذا قال عمر -رضي الله تعالى عنه- لما قُرئتْ عليه: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} [(٩٠-٩١) سورة المائدة]، وسيأتي الكلام على ذلك في سورة المائدة إن شاء الله تعالى، وبه الثقة.

قال ابن عمر -رضي الله تعالى عنه-، والشعبي، ومجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن هذه أول آية نزلت في الخمر {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ} [(٢١٩) سورة البقرة]، ثم نزلت الآية التي في سورة النساء، ثم نزلت الآية التي في المائدة فحرمت الخمر."

تحريم الخمر أخذ منحى التدريج على مراحل فأول شيء ذَكَرَ الله –عز وجل– لهم في آية سورة البقرة هذا الملحظ في الخمر، وهو أن إثمها أعظم من نفعها، فالعاقل ينبغي له أن يتحرز منها ما استطاع، ثم جاء النهي أن يقربوا الصلاة وهم سكارى، وهذا يقتضي امتناعهم عن شرب الخمر إلا في وقتين:

– بعد العشاء فلا يدخل وقت صلاة الفجر إلا وقد أفاق.

– بعد صلاة الفجر من أجل أن يأتي الظهر وقد أفاق، وفي حالة إذا كان شاربها مدمناً لها، أو يشربها بمقادير محددة لا تؤدي إلى فقدانه عقله، فلا بأس، وهذا من ترويض النفس على ضبطها تجاه الخمر، ثم نزل التحريم الصريح أخيراً في سورة المائدة، يقول –سبحانه–: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٩٠) سورة المائدة].

"وقوله: {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ} [(٢١٩) سورة البقرة]، قُرِئ بالنصب وبالرفع، وكلاهما حسن متجه قريب."

قُرِئتْ {قُلِ الْعَفْوَ} بالنصب وبالرفع، فالجمهور يقرءونها بالنصب، وأبو عمرو بن العلاء من القراء السبعة قرأها بالرفع، وتوجيه الرفع والنصب بالنظر في لفظة ماذا، فإذا فصلنا ما وذا على حدة، أعربنا ذا اسماً موصولاً بمعنى الذي، والتقدير: ما الذي ينفقون؟ والجواب: الذي ينفقون هو العفو.

وإذا جعلنا ماذا للاستفهام بهذا التركيب، فعندئذ النصب، والتقدير: ينفقون العفو، فالعفو بهذا الاعتبار في موقع مفعول به.

"وقال الحكم: عن مقسم، عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ} قال: ما يفضل عن أهلك، كذا روي عن ابن عمر –رضي الله تعالى عنهما–، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، والحسن، وقتادة، والقاسم، وسالم، وعطاء الخرساني، والربيع بن أنس وغير واحد."

ورد في المراد بالعفو في قوله: {قُلِ الْعَفْوَ} أقوال: فقيل: ما سهل وتيسر ولم يشق على القلب، كما قال الله في آية الأعراف: {خُذِ الْعَفْوَ} [(١٩٩) سورة الأعراف] أي: ما تيسر وسهل من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم والمعنى: أنفقوا ما فضل عن حوائجكم ولا تجهدوا أنفسكم، وقيل: هو ما فضل عن نفقة العيال، وقيل: العفو نفقات التطوع.

وما عليه عامة أهل العلم، وهو الظاهر المتبادر، أن المراد بالعفو ما فضل عن حاجتك وحاجة أهلك وعيالك، وبعض أهل العلم يقول: إن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة المفروضة {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ} [(٣٤-٣٥) سورة التوبة] مستدلين بتفسير أبي ذر –رضي الله تعالى عنه– وفهمه لهذه الآية حيث يرى أن لا يُبقي الإنسان شيئاً فوق حاجته، وإلا عمه العقاب فيكوى جنبه وظهره، والصواب القول بأن الله وسع على الناس في الأرزاق، وصار الإنسان إذا أخرج زكاة المال فلا يطالب أن ينفق ما زاد عن حاجته وحاجة عياله، ولا يكون المال المدخر كنزاً ولو بلغ أمثال الجبال، أو كان مدفوناً في باطن الأرض، وهذا الذي عليه عامة أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم–، وأما دعوى النسخ فلا بد فيها من دليل، إذ إن النسخ لا يثبت بالاحتمال.

والعلماء يتكلموا في مسألة معروفة هل في المال حق سوى الزكاة أو لا؟، فالمقصود أن هذه الآية اشتملت على توجيه الناس إلى الأدب في النفقة كما قال الله –عز وجل–: **{وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}** [(٢٩) سورة الإسراء] والمعنى أي تلومك نفسك، ويلومك سائلوك، ومن وجب عليك أن تنفق عليهم من أهل وقرابة؛ لأنك لم تترك لهم شيئاً، ولم تستطع أن تبذل، أو تنفق، أو تقدم القرى للضيف، أو تتصرف في شئونك، فالله يوجههم ويرشدهم في الإنفاق، فيقول: ما فضل عن حاجتكم، فهذا مجال للإنفاق، وأما سواه فلا، والله تعالى أعلم.

"وروى ابن جرير عن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رجل يا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عندي دينار، قال: ((أنفقه على نفسك))، قال: عندي آخر، قال: ((أنفقه على أهلك))، قال: عندي آخر، قال: ((أنفقه على ولدك))، قال: عندي آخر، قال: ((فأنت أبصر))[4] وقد رواه مسلم في صحيحه.

وأخرج مسلم أيضاً عن جابر –رضي الله تعالى عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال لرجل: ((ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل شيء عن أهلك فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا))[5]."

هذا من أحسن ما يفسر به العفو.

"وفي الحديث أيضاً ((ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف))[6].

وقوله: {كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ* فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} [(٢١٩–٢٢٠) سورة البقرة]، أي: كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها، كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعده ووعيده.

{لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ}، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: يعني في زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها."

ومن أهل العلم من يقول: في الجزء من الآية تقديم وتأخير: أي: كذلك يبين الله لكم الآيات في الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون فيهما، ودعوى التقديم والتأخير لا وجه لها ولا حاجة إليها؛ لأن المعنى ظاهر بدونها.

قوله سبحانه: **{فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ}** قيل: إنها متعلقة بالتبيين، والمعنى كذلك يبين لكم الآيات في الدنيا والآخرة، وهذا لا حاجة إليه ويتغير به المعنى، والأقرب تعلقها بالتفكر، والمعنى كذلك يبين الله لكم الآيات من أجل أن يحصل لكم الاعتبار والتفكر في الدنيا والآخرة، وهو ما ذكره ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–.

وقال بعضهم: **{لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ}** أي تتفكرون في أمرهما بزوال هذه وبقاء هذه.

وقيل: إنها خطاب للإنسان، إنك إذا تفكرت في دنياك أصلحت فيها ما تحتاج إليه من أمر المعاش، وإذا تفكرت في آخرتك حاسبت نفسك وعملت لآخرتك وأنفقت في وجوه البر، فيكون الإنسان مصلحاً لأمر معاشه ومعاده، وهذا المعنى وإن كان قريباً من الأول، إلا أن ثمة فرقاً بينهما يدركه المتمعن فيهما، ويمكن الجمع بين هذه

---

[4] رواه النسائي برقم (٢٥٣٥) (٥/٦٢)، ورواه أبو داود برقم (١٦٩١) (١/٥٢٩)، وقال الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي: حسن صحيح برقم (٢٥٣٥).

[5] رواه مسلم في كتاب الزكاة –باب الابتداء في النفقة بالنفس ثم أهله ثم القرابة برقم (٩٩٧) (٢/٦٩٢).

[6] رواه مسلم في كتاب الزكاة –باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، وأن اليد العليا هي المنفقة وأن السفلى هي الآخذة برقم (١٠٣٦) (٢/٧١٨).

المعاني فنقول: إن التفكر يحصل بذلك كله، لأن الله لم يحدد شيئاً دون شيء، فيُبقي الإنسان عنده ما يحتاج إليه في هذه الحياة، ولا يكون ذلك مانعاً له من النفقة والصدقة. والله أعلم.

وصلى الله على نبيه محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٩٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ} [(٢٢٠) سورة البقرة] الآية.

"روى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: لما نزلت: {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [(١٥٢) سورة الأنعام]، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [(١٠) سورة النساء]، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأنزل الله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ}، فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم"[1] وهكذا رواه أبو داود والنسائي والحاكم في مستدركه، وهكذا ذكر غير واحد في سبب نزول هذه الآية كمجاهد، وعطاء، والشعبي، وابن أبي ليلى، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف.

وروى وكيع بن الجراح عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: إني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي على حدة، حتى أخلط طعامه بطعامي، وشرابه بشرابي، فقوله: {قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ} أي على حدة، {وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ} أي وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم فلا بأس عليكم؛ لأنهم إخوانكم في الدين، ولهذا قال: {وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} أي يعلم مَن قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح.

وقوله: {وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} أي ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم، ولكنه وسع عليكم، وخفف عنكم، وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن كما قال تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [(١٥٢) سورة الأنعام]، بل قد جوز الأكل منه للفقير بالمعروف، إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر أو مجاناً، كما سيأتي بيانه في سورة النساء إن شاء الله وبه الثقة".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلما تهدد الله -عز وجل- وتوعد الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا} [(١٠) سورة النساء]، وقع الحرج لدى الناس، فصاروا يعزلون طعامهم عن طعامهم، ويضعون طعامهم في إناء، وطعام اليتيم في إناء مختلف، وإذا أبقى اليتيم طعاماً فلا ينتفع به أحد، بل يترك حتى يفسد، فلحق بالناس مشقة شديدة جراء ذلك، فأنزل الله التخفيف عليهم بقوله سبحانه: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ} والمعنى: أنْ تثمر ماله وتقوم بإصلاحه دون مخالطة، أو تأخذ

[1] رواه أبو داود برقم (٢٨٧٣) (٣/٧٣)، والنسائي برقم (٣٦٦٩) (٦/٢٥٦)، والحاكم في مستدركه برقم (٢٤٩٩) (٢/١١٣)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٣٦٦٩).

شيئاً منه لقيامك عليه، ورعايتك للمال ولصاحبه اليتيم دون إجحاف فهذا أفضل؛ لما في هذا الصنيع من صيانة لمال اليتيم وحفظ ورعاية له، وللمفسرين أقوال في تأويل الآية، لكن هذا من أقربها ومن أكثرها ملاءمة للسياق، ويعتبر من أحسن ما تفسر به الآية، ولفظة خير في الآية يمكن أن تكون بمعنى أفعل التفضيل: "أخير"، ومعلوم أن صيغة خير وشر تأتي بمعنى التفضيل أحياناً، كما قال ابن مالك –رحمه الله-:

وغالبــاً أغنـــاهم خيـــر وشـــر عــن قــولهم أخيــر منــه وأشــر

{وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ} المخالطة قيل: المعاشرة، وقيل: هي المصاهرة التي وردت في سورة النساء: **{وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ}** [(٣) سورة النساء] إذ إن المعنى المشهور للآية: إن خفتم أن لا تعدلوا في اليتيمة ويقع منكم ظلم تجاهها فلا تنكحوهن، إذ إن الظلم الواقع على اليتيمة أعظم من الذي يقع على غيرها، وقد قال الله لنبيه: **{فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ}** [(٩) سورة الضحى]، فاليتيم له حق زائد؛ لأنه بحاجة إلى مزيد رعاية وعناية تعويضاً له عما فقده من الأبوة.

والصواب أن المقصود بالآية إنما هو المخالطة في المال والنفقة لكونهما سببا التحرج، فلذلك يدخلان في الآية دخولاً أولياً، والمخالطة في المال والنفقة تقع على صور متعددة، يقدرها ولي اليتيم بحسب استهلاكه من النفقة في قوته ومعاشه تماشياً مع العرف السائد بين الناس، ويحسب حساب القائم على مال اليتيم بالتربية وحسن التنشئة إذا كان محتاجاً فقيراً، فله أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف وهو حق ضمنه الله –عز وجل- له بقوله: **{وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ}** [(٦) سورة النساء]، ومن المعروف أن لا تكون النفقة التي يتعاطاها على سبيل التوسع أو التقتير، أو من المبادرة والاستغلال لماله قبل أن يبلغ سن الرشد، كما قال الله –عز وجل-: **{وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ}** [(٦) سورة النساء]، يريد أن يقول: ادفعوا أموال يتاماكم أيها الولاة والأوصياء، ولا تأكلوها مسرفين في الأكل ومبادرين بالأخذ خشية أن يكبروا، بأن تفرطوا في إنفاقها وتقولوا: ننفقها كما نريد قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا.

ولهذا عقّب بقوله: **{وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ}** جملة على قِصر لفظها واختصارها إلا أنها حملت معنى عظيماً لا يقوم غيرها مقامها في تأديته، إذ إن الكثير من الأمور قد لا يعلمها الناس، ولا يستطيعون الحكم عليها بالصواب والخطأ عند التصرف؛ لأن هذا يرجع إلى قضايا تتعلق بالعرف والحاجة، فيبقى قوله: **{وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ}**، فالمصلح: من قصد حفظ مال اليتيم وصيانته ورعايته، والمفسد: من قصد استغلال مال اليتيم لحظوظه ومصالحه الشخصية، والله المطلع على خفايا النفوس وما تضمره الصدور، فمثل هذه الآية تجعل الإنسان يعامل الله في تصرفاته إزاء هذا اليتيم وماله، لأنه يعلم أنه إن خفي على الناس تصرفه، فإنه لن يخفى على الله – عز وجل- الذي قال عن نفسه: **{إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء}** [(٥) سورة آل عمران].

قوله: **{وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ}** العنت: هو الضيق والشدة، فإذا شدد عليكم لحقكم الحرج، والله أعلم.

"{وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [(٢٢١) سورة البقرة].

هذا تحريم من الله -عز وجل- على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان، ثم إن كان عمومها مراداً وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية، فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ} [(٥) سورة المائدة]".

{وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ} أل في المشركات للجنس، وذلك يشمل كل مشركة بلا استثناء، فيدخل فيها أمم الكفر قاطبة بما فيهم اليهود والنصارى؛ لأنهم من المشركين، فاليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، وإن كان الشرك في النصارى أكثر منه في اليهود، إلا أن الكفر ملة واحدة، فبهذا الاعتبار يدخل اليهود والنصارى في عموم المشركين، لكن جاءت الإباحة بنكاح نساء أهل الكتاب في قوله -تبارك وتعالى- في سورة المائدة: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ} [(٥) سورة المائدة] فهل نسخت هذه الآية بعض ما دخل تحت آية البقرة، أو يكون هذا من قبيل التخصيص -فنقول: هذه عامة، وتلك خاصة في أهل الكتاب، والعام يحمل على الخاص-؟ لا شك أن القول بالتخصيص هو الأسهل والأقرب؛ لأن التخصيص بيان، والنسخ رفع، ومن الفروق بينهما:

- أن النسخ لا يثبت بالاحتمال، بينما التخصيص يثبت بالاحتمال.
- النسخ فيه إهدار لأحد النصين، بخلاف التخصيص ففيه إعمال للنصين.
- النسخ له شروط ذكرها العلماء لم يذكروها في التخصيص.

والمقصود من سرد الفروق أن يُعلم أن التخصيص أخف أثراً من النسخ، ولذا فالقول بالتخصيص هو الأولى من القول بالنسخ؛ لأن فيه إعمالاً لكلا الدليلين، وإعمال كلا الدليلين أولى من إهمال أحدهما.

وذهب بعض أهل العلم إلى القول بأن الآية لا نسخ ولا تخصيص فيها، واستدلوا بقوله تعالى: {وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ} ووجهوا الآية بأن التحريم يخص نساء المشركات دون نساء أهل الكتاب، بدليل أن الله - عز جل- فرق بين الاثنين في مثل قوله: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ} [(١) سورة البينة]، فأهل الكتاب بنص الآية لا يدخلون في عموم المشركين وبالتالي فلا نسخ ولا تخصيص؛ لأن هذه إنما تحرّم نكاح المشركات كالبوذية والمجوسية ...، وسائر صنوف أهل الشرك بما فيهم الملاحدة.

والأقرب أن أهل الكتاب داخلون في عموم المشركين، فتشملهم الآية، وإنما أخرجوا منها بتخصيص الآية الأخرى التي في سورة المائدة، وإليه ذهب ابن كثير، والله تعالى أعلم.

ومن أهل العلم من أخذ بظاهر الآية وقال: لا يجوز التزوج بالكتابية أصلاً، باعتبار أن هذه الآية ناسخه لآية المائدة وهذا من أغرب الأقوال؛ لأن سورة البقرة من أول ما نزل في المدينة، وسورة المائدة من آخر ما نزل من الأحكام، ولم ينسخ منها شيء، حتى إن الصحابة -رضي الله عنهم- كانوا يكتفون أحياناً بالتعبير عن

الشيء أنه لم ينسخ بكونه نزل في سورة المائدة، فيعدونه من المحكم الذي لم يتطرق إليه نسخ، وقولهم هذا يقتضي مخالفة ما جاء عن عامة أهل العلم من جواز التزوج بالكتابية.

{وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ} [(٢٢١) سورة البقرة]، الأمة تحتمل أمرين:

الأول: أن تكون الحرة باعتبار أنها أمة الله، ولذا عند ندائها يقال: يا أمة الله، ويعنون المرأة المؤمنة.

الثاني: أن تكون المرأة الرقيقة المملوكة، والمعنى أن تتزوج جارية مؤمنة أفضل من أن تتزوج تلك الحرة الكتابية مهما كان نسبها أو جمالها أو أحسابها أو غير ذلك، هذا هو الظاهر المتبادر.

وإن كان التزوج بالمملوكة لم يرغب الشارع فيه إلا في حالة ما إذا خشي الإنسان على نفسه العنت –الزنا–؛ كما قال سبحانه: **{وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ}** [(٢٥) سورة النساء]، ثم خص ذلك وقيده بقوله: **{ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ}**، وتبعه بقوله: **{وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ}**؛ ذلك لأن أولاده من الأمة إذا دخل بها سيكونون أرقاء تبعاً لأمهم، يتصرف فيهم كما يتصرف في العبيد بيعاً وشراءً، بخلاف الأمة إذا تسرى بها فإن الأولاد سيكونون أحراراً تبعاً لسيد الأمة.

وكذلك قوله: **{وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ}** والمعنى أن الرقيق أفضل من الحر المشرك، هذا هو ظاهر المعنى من الآية، واختاره جمع من المحققين، ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري –رحمه الله– حيث رأي أن الآية من العام المراد به الخصوص.

والعام عند الأصوليين ثلاثة أنواع:

- العام الباقي على عمومــه.
- العام المراد به الخصوص.
- العام المخصوص.

"قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– في قوله: {وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ} [(٢٢١) سورة البقرة]، استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب، وهكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومكحول، والحسن، والضحاك، وزيد بن أسلم، والربيع بن أنس وغيرهم.

وقيل: بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان، ولم يرد أهل الكتاب بالكلية، والمعنى قريب من الأول والله أعلم".

قول ابن كثير: والمعنى قريب من الأول، لا يترتب عليه شيء مختلف من ناحية النتيجة النهائية، لأن هذا إما أن يكون من العام المراد به الخصوص، فتكون هذه الآية عامة خصتها الآية الثانية، فأخرجت بعض أفراد المشركين وهم أهل الكتاب، أو أن آية البقرة قصدت نوعاً من المشركين وهم أهل الأوثان، والنتيجة النهائية جواز التزوج بالكتابية.

لكن قول من قال: إن هذه الآية في سورة البقرة ناسخة لآية المائدة فيه إشكال، وقيل: هو أحد قولي الشافعي –رحمه الله– فيما نقل عنه، وابن المنذر صاحب كتاب "الإجماع" ينفي أن يكون ذلك عرف عن أحد من المتقدمين من السلف –رضي الله تعالى عنهم–، لكن الصحيح أنه ثبت عن بعض السلف القول بالمنع في مسألة التزوج من الكتابية كابن عمر وغيره، وحملوا آية المائدة على بعض المحامل، ولا بد أن يعلم أن هناك

فرقاً من الناحية الصناعية في هذا المنع، إذ قد تصل إلى نتيجة واحدة في قولين، أحدهما يكون أحياناً مبنياً على القياس، ومعلوم أن القياس لا بد له من النظر بالأركان الأربعة، فإذا انطبقت وتوفرت اعتبرنا القياس، وإذا قلنا: إنه أصلاً ليس بقياس فلا اعتبار له، والنتيجة واحدة، فالحكم بأن هذه الآية عامة خص منها بعض الأفراد، أو أنها من العام المراد به الخصوص، أو تلك الآية تكلمت عن نوع، وهذه الآية تكلمت عن نوع، من الناحية الصناعية لا يؤثر في الحكم النهائي، وإن كان يؤثر على أشياء في النص نفسه، فمثلاً من الأصوليين من قال -وهو قول لبعض أصحاب المذاهب-: إن التخصيص يعد من قبيل النسخ، فإذا طالعنا شروط النسخ عنده وجدناها لا تتطابق مع التخصيص، ويترتب عليه عند النظر في النصوص قضية أخرى، وهي أن النص الذي لم يتطرق إليه التخصيص، أقوى من النص الذي تطرق إليه التخصيص؛ لأن ذلك يضعفه، ولهذا العلماء مختلفون في العمل بالدليل الذي دخل عليه التخصيص، فالجمهور يرون العمل به في باقي الأفراد وهذا عليه أدلة، ليس هذا موضع الكلام عليها، إنما الشاهد أن الآخرين يقولون لا يعمل به، ويرون السبب أن هذا صار مجازاً، ليس بحقيقة، لأن اللفظ العام بعد إخراج بعض الأفراد منه، انتزع منه العموم، ولم يعد يصدق على كل الأفراد، بل على بعضها، فيبطل العموم فيه وينتقض، وإذا انتقض العموم فلا يمكن العمل به في باقي الأفراد.

كذلك في باب التعارض والترجيح بين الأدلة يذكرون نحو مائة طريق للترجيح، منها العام الذي لم يتطرق إليه التخصيص فيجعلونه أقوى كحديث ((لا صلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس، ولا صلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس))[2] الذي دل على الخصوص مع حديث: ((من نسي صلاة فليصلِّ إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك))[3] فكيف نصنع إزاء هذه النصوص المتعارضة في ظاهر الأمر؟ إن من وجوه الجمع أن يقال: حديث من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها عام في الأوقات، خاص في الصلوات المنسية والتي نام عنها، والثاني: لا صلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس، ولا صلاة... هذا عام في الصلوات، خاص في الأوقات، فجاء تخصيص ((لا صلاة بعد الصبح...)) في بعض الصور.

وقد يقول قائل: الثاني باقي على خصوصه فيستثنى من الحديث، ومنهم من يجمع بطرق أخرى، فالمقصود أن هذا يؤثر عند النظر في النصوص، لكن قد تكون النتيجة واحدة فيما يتعلق بالمسألة التي أمامنا من العام الذي تطرق إليه التخصيص. والله أعلم.

"قال أبو جعفر بن جرير -رحمه الله تعالى- بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات".

يقصد بحكاية الإجماع أنه قول الأكثر؛ لأنه وجد من خالف هذا القول وهم قليل منهم عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-.

"وإنما كره عمر -رضي الله تعالى عنه- ذلك لئلا يزهد الناس في المسلمات".

---

[2] رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة – باب لا يتحرى الصلاة قبل غروب الشمس برقم (١٣٠) (٢٨١/١).

[3] رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة – باب من نسي الصلاة فليصل إذا ذكرها ولا يعيد إلا تلك الصلاة برقم (٥٧٢) (٢١٥/١)، ومسلم في كتاب المسجد ومواضع الصلاة – باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها برقم (٦٨٤) (٤٧٧/١).

هذا من السياسة الشرعية المناطة بمراعاة المصلحة العامة بحسب نظر الإمام، فله الحق أن يمنع التزوج من الكتابيات، إذا أعرض الناس وزهدوا في التزوج من المسلمات، مما مؤداه أن تبقى نساء المسلمين عوانس في البيوت.

"أو لغير ذلك من المعاني كما روى أبو كريب عن شقيق قال: تزوج حذيفة -رضي الله تعالى عنه- يهودية، فكتب إليه عمر -رضي الله تعالى عنه- خل سبيلها، فكتب إليه أتزعم أنها حرام فأخلي سبيلها؟، فقال: لا أزعم أنها حرام، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن. وهذا إسناده صحيح".

فعمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إنما منع الزواج من الكتابيات لكون الفساد والانحراف ومقارفة الفواحش غالباً فيهن، فلا يؤمن جانبهن، ويخشى على الرجل أن يخنّه في عرضه، فينبغي للمسلمين أن لا يتساهلوا في القران بهن والزواج منهن لأجل مثل هذه الأمور.

"وروى ابن جرير عن زيد بن وهب قال: قال عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-: المسلم يتزوج النصرانية، ولا يتزوج النصراني المسلمة، قال وهذا أصح إسناداً من الأول".

هذا مما يؤكد أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لم يقصد التحريم المطلق في منعه التزوج من الكتابيات، وحذيفة بن اليمان موطن سر الرسول -صلى الله عليه وسلم- كما سبق تزوج يهودية، فالزواج منهن جائز ولا حرج على من أقدم على ذلك، لكن مما ينبغي النظر إليه عند طلب القران بهن هو النظر في الآثار السلوكية والعواقب الوخيمة خاصة في هذا العصر، ومعلوم كم من أسر ضاعت بما فيها الأولاد والبنات جراء التهاون بهذه القضية.

وملمح آخر نستطيع أن نستشفه من زواج المسلم بكتابية يهودية أو نصرانية، وهو مدى أثر الإعلام في صناعة عقول الناس، فمثلاً لو بلغنا أن أحد طلبة العلم تزوج يهودية، لكانت هذه في حقه أعظم مسبة ومدعاة للشناعة عليه، والقدح فيه، وتوجيه التهمة إليه، بل يكفي أن يقال: إنه متزوج يهودية، بالرغم من أن صحابياً جليلاً كحذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- تزوج بيهودية، صحيح أن الزواج من اليهودية مصدر للتوجس والاستفزاز ولا إشكال في ذلك، لكن الكلام في الحكم هل يجوز أو لا ما يجوز؟ فلا يقال في إنسان تزوج يهودية: إنه سقطت عدالته ومروءته....، ويتهم في الدين، وهناك فرق بين من يقترن بكتابية؛ لأنه معجب بقومها، ومنصهر في بوتقتهم، ومولع بحضارتهم، غارق في مستنقعهم الآسن، متنكر لدينه وأمته، وبين من يقترن بيهودية وهو متمسك بدينه، ثابت علي مبدئه، والخلاصة أن التزوج بالكتابية أمر غير سائغ، والإقدام عليه فيه من المفاسد والمخاطر ما لا يحمد عقباه، وإذا استطاع المسلم أن يتخلى عن الالتصاق بكتابية فهو خير وأفضل وأصوب، والله أعلم.

"وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أنه كره نكاح أهل الكتاب، وتأول {وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ}".

بمعنى أنه حمل هذه الآية على عموم المشركات والكتابيات باعتبار أن الكفر والشرك ملة واحدة.

"وقال البخاري: قال ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول: ربها عيسى".

ومن محامل التأويل القول بأنه تعارضَ المبيح والحاظر، وعند الترجيح معلوم أنه يقدم الحاظر على المبيح؛ لأنه أكثر صيانة واحتياطاً للدين، إلى غير ذلك من أوجه التأويل، لكن الراجح الذي عليه عامة أهل العلم هو جواز ذلك، ولا يصح إدعاء الإجماع في ذلك لوجود المخالف.

"وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك))[٤].

فإذا كانت الشريعة ترغب في الزواج من ذات الدين، فماذا عسى الإنسان أن يجد عند الالتصاق بيهودية أو نصرانية من الدين إلا الضلال، وإذا كانت تقوم على تربية أولاده، وتنشئتهم ورعايتهم، فإن الخطب أفدح، والمأمول أفضح، وما الذي ينتظره الرجل من مستقبل أولاده مع امرأة تدين بغير دينه!!.

ومما يمكن أن يقال عند النظر في هذه النصوص: إن القاعدة والأصل في الفروج الحظر، كما إن الأصل في العبادات المنع كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- ((من أحدث في أمرنا هذا))[٥]، فلو قال قائل من المانعين: هذه آيةٌ أباحتها في ظاهرها، وهذه آية حرمتها، فنبقى على الأصل وهو المنع، فهذا قول مرجوح ومحتمل، وله متمسك من الأدلة، فلا بد أن يتسع له صدر المخالف،؛ لأن المطلوب النظرة الواسعة في النصوص، وفي مآخذ العلماء، والاطلاع على مبرراتهم عند الجنوح إلى هذا الرأي أو ذاك.

"ولمسلم عن جابر -رضي الله تعالى عنه- مثله، وله عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة))[٦]، وقوله: {وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ} [(٢٢١) سورة البقرة] أي: لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات كما قال تعالى: {لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ} [(١٠) سورة الممتحنة]".

استنبط الفقهاء من قوله سبحانه: **{وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ}** حكماً وهو أن المرأة لا تتزوج إلا بولي؛ لأنه قال: **{وَلاَ تُنكِحُواْ}** والمعنى: لا تزوِّج يا ولي المرأة المشرك ما بقي على شركه، ولم يقل: ولا تَنكح المؤمناتُ المشركين، وجعلوا هذا الفهم من الآية عاضداً لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها، فنكاحها باطل))[٧].

"ثم قال تعالى: {وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ} [(٢٢١) سورة البقرة]، أي: ولرجل مؤمن ولو كان عبداً حبشياً، خير من مشرك وإن كان رئيساً سَرِياً".

---

[4] رواه البخاري في كتاب النكاح – باب الأكفاء في الدين برقم (٤٨٠٢) (٥/١٩٥٨)، ومسلم في كتاب الرضاع –باب استحباب نكاح ذات الدين (١٤٦٦) (٢/١٠٨٦).

[5] رواه البخاري في كتاب الصلح – باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود برقم (٢٥٥٠) (٢/٩٥٩)، ومسلم في كتاب الأقضية –باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور برقم (١٧١٨) (٣/١٣٤٣).

[6] رواه مسلم في كتاب الرضاع – باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة برقم (١٤٦٧) (٢/١٠٩٠).

[7] رواه أبو داود برقم (٢٠٨٥) (٢/١٩٠)، والترمذي برقم (١١٠٢) (٣/٤٠٧)، وابن ماجه بلفظ: ((أيما امرأة لم ينكحها الولي ....)) برقم (١٨٧٩) (١/٦٠٥).

ابن كثير لم يحمل الآية على خصوص الحر أو العبد، وهذا تفسير جيد منه، فإذا كان الله فضل العبد المؤمن على الكافر، فمن باب أولى القول: إن المؤمن الحر أفضل من المشرك، فجمع –رحمه الله– بين القولين بهذه العبارة الوجيزة.

"{أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ}، أي: معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا، واقتنائها، وإيثارها على الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وخيمة، {وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ}، أي: بشرعه، وما أمر به وما نهى عنه، {وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}".

قوله سبحانه: **{أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ}** ليست دعوتهم محتكرة في المخالطة والمعاشرة التي تبعث على حب الدنيا، وإيثارها، بل تشمل الدعوة في جميع المناحي كالدعوة إلى مذاهبهم الباطلة، ونحلهم المحرفة، وآرائهم الفاسدة، ومعلوم أن الناس أسرى لعقائدهم وأفكارهم، ولذا تجدهم أكثر تحمساً لدعوة الناس إليها، وهذه طبيعة، وسجية في الإنسان، فإذا اقتنع بشيء فتجده كثيراً ما يدافع وينافح عنه، حتى لو كان في الأشياء البسيطة، وإذا أعجب بشخص يتبناه، ويجادل ويخاصم عنه، وقد يصل به الحد إلى الإطراء والثناء عليه كلما جلس في مجلس، أو جاءت مناسبة لذكره، ويريد من جميع الناس أن ينظروا بنفس النظرة التي ينظر بها إليه، فما بالك إذا كانت القضية عقيدة ومذهباً!!، ولذلك تجد أصحاب العقائد تلح عليهم عقائدهم، وهو يكتب في التفسير، ويكتب في اللغة، ويكتب في أصناف الفنون، تجد هذا النفس في كتاباته، ويبحث عما يؤيدها، ولا يستطيع التخلص مهما حاول أن يتجرد إلا أن هذه اللوثة تلاحقه، فالناس أسرى لأفكارهم معتقداتهم.

{وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ} أي: بشرعه، وما أمر به ونهى عنه، وبينه غاية البيان بهذا القرآن، وبما أنزل على الرسول –صلى الله عليه وسلم– مما يوصلكم إلى مرضاته حيث بين الصراط المستقيم بياناً شافياً، وأمركم باتباعه والسير عليه لتدركوا الفلاح المبين.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه محمد وآله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (٩٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [(٢٢٢-٢٢٣) سورة البقرة].

"روى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه-: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم، لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- فأنزل الله -عز وجل-: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ} حتى فرغ من الآية، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اصنعوا كل شيء إلا النكاح))، فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر -رضي الله تعالى عنهما- فقالا: يا رسول الله، إن اليهود قالت كذا وكذا أفلا نجامعهن؟، فتغير وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى ظننا أنْ قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأرسل في آثارهما فسقاهما، فعرفا أن لم يجد عليهما، ورواه مسلم[1]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد تباينت أقوال المفسرين في المراد من اعتزال النساء حال الحيض، فبعضهم يطلق المراد على المكان ويقرر أن المرأة إنما تجتنب في مكان الحيض فقط، وآخرون يرجعون المراد إلى الزمان وأن المرأة إنما تجتنب في وقت وزمن الحيض، وكلا القولين يلزم من الآخر لزوماً يتضح به المعنى، لكن لو قلنا: إن المقصود هو اجتناب المرأة زمان الحيض، فإن هذا الاجتناب يكون لموضع الحيض ولغيره، بخلاف ما لو جعلنا المراد اجتناب موضع الحيض، فإن اجتناب موضع الحيض يلزم منه اجتناب ذلك في وقت حيضتها، فيكون ذلك أدل على المراد؛ لأن المجتنب من المرأة نوع من الاستمتاع خاص، هو ما بين السرة إلى الركبة أو مكان الحيض خاصة على خلاف، وأما ما دونهما فيحل الاستمتاع به، والنصوص الأخرى تدل عليه، فقد ثبت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا أراد من امرأته شيئاً وهي حائض، أمرها أن تتزر ما بين السرة والركبة، وفي بعض الروايات ألقى على فرجها ثوباً، فالترجيح بين القولين بهذه الطريقة مما يتضح به المعنى، وهذه الرواية التي أوردها ابن كثير -رحمه الله- هي سبب نزول صحيح صريح لهذه الآية، وتدل دلالة واضحة على أن المرأة الحائض إنما يجتنب منها موضع الحيض، ويحل منها ما عداه من ألوان الاستمتاع، ناهيك عن جواز المخالطة والمؤاكلة وما إلى ذلك فهو من باب أولى، والله أعلم.

---

[1] رواه مسلم في كتاب الحيض -باب جواز غسل رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء في حجرها وقراءة القرآن فيه برقم (٣٠٢) (٢٤٦/١).

"فقوله: **{فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ}** يعني الفرج".

بحسب الاحتمالين السابقين، أي: وقت الحيض يسألونك ماذا يحل لهم من النساء؟، أو يسألونك عن محل الحيض من المرأة عند حيضها، هل يحل لهم الاستمتاع به أم لا؟ والتقارب بين المعنيين كبير، إلا أن ابن كثير مال إلى أن المراد من الآية محل الحيض، واستدل بما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم-

"لقوله: **((اصنعوا كل شيء إلا النكاح))**".

والنبي -صلى الله عليه وسلم- أراد بقوله: ((إلا النكاح)) الوطء، فعلق الحيض بمكانه ومحل خروجه، وهذا الحديث يستدل به القائلون بجواز الاستمتاع ما بين السرة والركبة، وإن كان الأفضل أن يكون فيما فوق هذا المقدار، لكن الشيء المحرم قطعاً هو موضع الحيض؛ لأنه موضع الأذى وهو الذي تتعلق به العلة، وما عداه فليس محلاً للأذى، وإنما كرهه من كرهه مبالغة في التباعد، وقد يتأثر هذا الحكم -ما يتعلق بالمباعدة عن موضع الحيض- باعتبارات تطرأ نظراً لما استحدثه الناس في هذا الزمان، فالحاصل أنه لا يجوز لأحد أن يطأ المرأة في وقت الحيض بحال من الأحوال إطلاقاً.

وأما بالنسبة لمن قارف ووقع على أهله في حال الحيض فقد ورد عن بعض أهل العلم أنه يتصدق بدينار.

وبعض أهل العلم يفرق جمعاً بين الروايات، بين الوطء في زمن الدم، والوطء بعد انقطاعه وقبل الغسل، وكل ذلك لا يجوز.

وأما ما يفعله البعض من الوطء في محل البول، فهذا لن يستطيع التباعد عن محل الأذى، فلا بد أن يلامسه أولاً.

ثانياً: أن ذلك ليس بمحل للوطء حتى ولو في حال الطهر، إنما محل الوطء هو موضع الولد خاصة، ولذا فتركه أولى.

"ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج.

روى أبو داود عن عكرمة عن بعض أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا أراد من الحائض شيئاً ألقى على فرجها ثوباً[2].

وروى أبو جعفر بن جرير أن مسروقاً ركب إلى عائشة -رضي الله تعالى عنها- فقال: السلام على النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلى أهله، فقالت عائشة -رضي الله تعالى عنها-: أبو عائشة، مرحباً مرحباً، فأذنوا له، فدخل فقال: إني أريد أن أسألك عن شيء وأنا أستحي، فقالت: إنما أنا أمك، وأنت ابني، فقال: ما للرجل من امرأته وهي حائض؟ فقالت: له كل شيء إلا فرجها، وهذا قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد، والحسن، وعكرمة، قلت: ويحل مضاجعتها ومؤاكلتها بلا خلاف، قالت عائشة -رضي الله تعالى عنها-: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض، وكان يتكئ في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن[3].

---

[2] رواه أبو داود برقم (٢٧٢) (١/١١١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٨٧٩٢).

[3] رواه البخاري في كتاب الحيض -باب قراءة الرجل في حجر امرأته وهي حائض برقم (٧١١٠) (٦/٢٧٤٤)، دون قوله: ((يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض)).

وفي الصحيح عنها -رضي الله تعالى عنها- قال: كنت أتعرق العرق وأنا حائض، فأعطيه النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه، وأشرب الشراب فأناوله فيضع فمه في الموضع الذي كنت أشرب منه[4]".

العرق هو: العظم الذي أخذ أكثر اللحم، والمعنى أن عائشة كانت تأكل ثم تناوله النبي -صلى الله عليه وسلم- فيأكل من الموضع الذي أكلت منه.

"وثبت في الصحيحين عن ميمونة بنت الحارث الهلالية -رضي الله تعالى عنها- قالت: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهي حائض، وهذا لفظ البخاري[5].

ولهما عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- نحوه.

وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن سعد الأنصاري -رضي الله تعالى عنه- أنه سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض، قال: ((ما فوق الإزار))[6].

فقوله تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ} [(٢٢٢) سورة البقرة] **تفسير لقوله: {فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ}، ونهى عن قربانهن بالجماع ما دام الحيض موجوداً، ومفهومه حله إذا انقطع. وقوله: {فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ}، فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال، وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تتيمم إن تعذر ذلك عليها بشرطه".**

حكم الوطء بعد الحيض ينطبق عليه قاعدة: الأمر بعد الحظر يرجع إلى ما كان عليه قبل النهي، فمن قال: إنه مستحب لكونه سبباً للولد وسبباً للعفاف ولأجل قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وفي بضع أحدكم صدقة))[7] رجع إلى الاستحباب.

ومن قال: إنه مباح، جعله باعتبارين، مباح بالجزء وواجب بالكل، والمعنى أنه ينظر له من جهتين جهة الفاعل المعين وجهة العموم، فالفاعل المعين يتردد حكم الوطء في حقه من الوجوب -إذا خشي على نفسه العنت- إلى سائر التكاليف الباقية: "المباح - المستحب - المكروه - المحرم" وهي في كل مقام بحسب، وأما من جهة العموم فإنه يتعين على الرجل أن يطأ امرأته، حفاظاً على النسل من الانقطاع، وأما المقدار في الوطء فهذا لا ينضبط والكل أعرف بنفسه، فالوطء بعد الطهر يعرف حكمه بالاعتبار السابق، وهكذا سائر الأحكام ينظر إليها باعتبارين، يسميها الشاطبي -رحمه الله- الكل والجزء.

ولقد اختلف أهل التأويل في المراد بقوله سبحانه: **{حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ}** فبعضهم زعم أن المراد بطهارتهن يعني انقطع الحيض عند المرأة وهذا محتمل.

---

[4] رواه مسلم في كتاب الحيض -باب جواز غسل رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء في حجرها وقراءة القرآن فيه برقم (٣٠٠) (١/٢٤٥).
[5] رواه البخاري في كتاب الحيض -باب مباشرة الحائض برقم (٢٩٧) (١/١١٥).
[6] رواه أبو داود برقم (٢١٢) (١/٥٨)، وأحمد في مسنده برقم (٨٦) (١/٢٤٧).
[7] رواه مسلم في كتاب الزكاة -باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف برقم (١٠٠٦) (٢/٦٩٧).

والبعض الآخر قال: يحتمل أن المراد من التطهر الاغتسال، وعليه عامة أهل العلم، فلا يجوز له أن يطأها حتى تغتسل، ويدل عليه القراءة الأخرى المتواترة: **{لا تقربوهن حتى يَطّهَرْنَ}** والمعنى يتطهرن، التاء للطلب، فهذا يدل على صنع وفعل وتكلف يصدر من ناحيتها وجهتها، فليس انقطاع الدم هو المراد فحسب بل لا بد من فعلٍ يصدر منها وهو الاغتسال، وهذا خلافاً لمن أمضى عليها عشرة أيام، وبعضهم يقول: تتوضأ، فيقوم وضوءها مقام الاغتسال. والله أعلم بالصواب.

"وقال ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما-: حتى يطهرن: أي من الدم، فإذا تطهرن: أي بالماء، وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، ومقاتل بن حيان، والليث بن سعد وغيرهم".

قراءة **{يَطّهَرن}** قراءة حمزة والكسائي وعاصم في إحدى الروايتين عنه وهي قراءة متواترة، وبقية القراء السبعة على الأولى **{حَتَّىَ يَطْهُرْنَ}** وهي محتملة انقطاع الدم، ومحتملة للانقطاع مع الاغتسال كما سبق، ولكن لما كانت القراءات يفسر بعضها بعضاً سواء كانت متواترة أو من قبيل الآحاد فسرت القراءة الثانية الأولى، فيتبين المراد من ذلك أنه لا يجوز له أن يقربها حتى ينقطع الدم وتغتسل، وفي بعض المواضع من القرآن الكريم قد ترد في الآية قراءتين ويكون لكل منهما معنى يخصها فتنزل بمنزلة الآيتين.

"وقوله: {مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ} قال ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد، يعني: الفرج، وفيه دلالة على تحريم الوطء في الدبر، كما سيأتي تقريره قريباً إن شاء الله تعالى.

وقال أبو رزين وعكرمة والضحاك وغير واحد: {فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ}، يعني طاهرات غير حيض".

وبعضهم يقول: **{فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ}** أي بالحلال وهو النكاح، وبعضهم يقول: من غير مانع مثل أن تكون معتكفة أو هو معتكف، أو تكون صائمة صيام الفرض، فهذا لا يجوز له أن يفسد صومها، لكن الأقرب من هذه المعاني وهو الظاهر المتبادر ما ذكره ابن عباس –رضي الله عنه- أن المراد بذلك الفرج. والله أعلم.

"ولهذا قال: {إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ} أي من الذنب وإن تكرر غشيانه، {وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} أي المتنزهين عن الأقذار والأذى، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض أو في غير المأتَي".

هذه من جنس الآيات السابقة المتكررة التي يجمع الشارع فيها بين أمرين.

وقوله: {نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ} [(٢٢٣) سورة البقرة]، **قال ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما-: الحرث موضع الولد، {فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} أي كيف شئتم".**

أصل الحرث الزرع، تقول: فلان صاحب حرث، يعني صاحب زرع، ثم أطلق على سببه، فصارت المرأة المزدرع الذي يوضع فيه البذر، لكونها محل مزدرع الرجل.

ومعلوم أن موضع الزرع من المرأة القبل، ولا يكون الحرث إلا في هذا الموضع، والآية دلالتها واضحة وصريحة في تحريم إتيان المرأة في غير القبل، وإن كان يحل منها جميع أنواع الاستمتاع فيما عدا محل الأذى "الدبر"، بل وتواردت الأحاديث في هذا المعنى وإن كانت لا تخلوا من ضعف، إلا أن بعضها يتقوى، فيرتقي إلى درجة الحسن، وعلى فرضية أنه لم يصح شيء منها كما نقل عن بعض أهل العلم من الأئمة

المتقدمين، فهذا لا يفهم منه الجواز والحل؛ إذ إنهم محكومون بالآية وهي في غاية الوضوح وناصعة الاستدلال.

وأما ما ينسب إلى الأئمة كالإمام مالك أنه أجازه، فهذا كذب عليه صريح، ويوجد في كلامه ما يكذبه صراحةً، ويبرِّئه منه، وكذا ما نسب إلى الشافعي إنما كان ذلك عن طريق أحد الكذابين.

وأما ما نقل عن جماعة كابن عمر –رضي الله عنه– وغيره من الكلام الذي فُهم منه قصده هذا المعنى، فقد جاء في روايات أخرى عنه ما ينفيه صراحة وأنه لا يريده ولا يقصده، وإنما حمله الناس عنه على غير الوجه الذي قصده، ولذا أنكره ابن عمر –رضي الله عنه– غاية الإنكار، والحقيقة أن هذا الفعل لا يقدم عليه إلا صاحب هوى ممسوخ، وفطرة منكوسة، نسأل الله العافية.

"{فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} أي: كيف شئتم مقبلة أو مدبرة في صِمام واحد، كما ثبتت بذلك الأحاديث".

أراد الله سبحانه بقوله: **{أَنَّى شِئْتُمْ}** أي على أي هيئة مكانية أو فترة زمانية شئتم فيما حدده لكم الشرع فقد أجاز إتيان المرأة مقبلة أو مدبرة إلى آخره، وابن جرير –رحمه الله– يقول: إن السياق يبين المراد، ولذا فسر المراد من قوله: **{فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}** أي من قبل المأتى، وهذا تفسير مطابق، وانتقد من فسرها باعتبار الزمان أو المكان، ويقول: إن ذلك كان بسبب ألوان من الاستعمال جاءت في كلام العرب، فكلٌّ حمل المراد على معنى، لكن الملاحظ في التركيب والسياق وأصل المعنى إذا تمعن فيه المتمعن وجده: من أي وجه شئتم. والله أعلم.

"روى البخاري عن ابن المنكدر قال: سمعت جابر –رضي الله تعالى عنه– قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: {نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}، ورواه مسلم وأبو داود[8]".

المراد من الجماع في رواية جابر ما كان في موضع الولد قطعاً؛ لأن الولد لا يأتي إلا إذا جامعها في القبل، والمقصود من إيراد سبب نزول الآية أن للمرء الخيار في طريقة الجماع، وهي مقبلة أو مدبرة أو على جنبها أو بأي شكل كان، والآية إنما وردت في مقام التهكم باليهود؛ لأنهم كانوا يتصورون هذا التصور المنحرف الخاطئ، ولذا كانوا يجامعون نسائهم على جنب ويقولون: إن ذلك أستر، ويعتقدون في الجماع بتلك الهيئة ما سبق، فجاء الشرع بخلاف ما اعتقدوه، ونفى ضمناً ما ظنوه.

"وروى ابن أبي حاتم عن محمد بن المنكدر أن جابر بن عبد الله –رضي الله تعالى عنهما– أخبره: أن اليهود قالوا للمسلمين: من أتى امرأة وهي مدبرة جاء الولد أحول، فأنزل الله: {نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}. قال ابن جريج في الحديث: فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك في الفرج))[9].

---

[8] رواه البخاري في كتاب التفسير –باب تفسير سورة البقرة برقم (٤٢٥٤) (٤/١٦٤٥)، ومسلم في كتاب النكاح –باب جواز جماعه امرأته في قبلها من قدامها ومن ورائها من غير تعرض للدبر برقم (١٤٣٥) (٢/١٠٥٨).

[9] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/١٢٢).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: أنزلت هذه الآية {نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ....}، في أناس من الأنصار أتوا النبي -صلى الله عليه وسلم- فسألوه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ائتها على كل حال إذا كان في الفرج))[10].

وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن سابط قال: دخلت على حفصة ابنة عبد الرحمن بن أبي بكر فقلت: إني سائلك عن أمر وأنا أستحي أن أسألك عنه، قالت: فلا تستح يا ابن أخي. قال: عن إتيان النساء في أدبارهن، قالت: حدثتني أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- أن الأنصار كانوا لا يُجَبُّون النساء، وكانت اليهود تقول: إنه من جَبّى امرأته كان ولده أحول، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا في نساء الأنصار فجَبّوهن..."

التجبية: أن تكون المرأة باركة على وجهها كالساجدة، ويأتيها في موضع الولد خاصة، وفي حديث وفد ثقيف لما أنزلهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- المسجد ليكون أرق لقلوبهم، فاشترطوا أن لا يحشروا ولا يعشروا ولا يُجَبُّوا، أي يسجدوا كناية عن امتناعهم عن الصلاة، وفي صحة الحديث نظر.

"فأبت امرأة أن تطيع زوجها وقالت: لن تفعل ذلك حتى آتي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك، فقالت: اجلسي حتى يأتي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فلما جاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- استحيت الأنصارية أن تسأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فخرجت فحدثت أم سلمة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((ادعي الأنصارية))، فدعيت فتلا عليها هذه الآية: {نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}، صماماً واحداً)).[11] ورواه الترمذي وقال حسن".

هذا الأثر الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود ليس من أسباب نزول الآية؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الحادثة إنما تلا هذه الآية ليبين الحكم فقط ليس غير، وقد سبق الإشارة إلى سبب نزولها وأنها نزلت في اليهود، وقد جاء في بعض الروايات ما يشبه هذه الرواية، وهو أن قريشاً كانوا يشرحون النساء -يأتون المرأة مستلقية-، فتزوج رجل من قريش امرأة من الأنصار فامتنعت.... القصة.

ويؤخذ من الرواية أنه لا يمنع الإنسانَ الحياءُ من السؤال في الدين، وهذا العبارة أصوب من قول بعضهم: لا حياء في الدين، وكأنه غفل أن الدين كله حياء، بل إن الحياء شعبة من الإيمان كما أخبر بذلك المصطفى -صلى الله عليه وسلم-.

"وروى النسائي عن كعب بن علقمة عن أبي النضر أنه أخبره أنه قال لنافع مولى ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: إنه قد أكثر عليك القول إنك تقول عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- إنه أفتى أن تؤتى النساء في أدبارهن، قال: كذبوا عليّ، ولكن سأحدثك كيف كان الأمر، إن ابن عمر عرض المصحف يوماً وأنا عنده حتى بلغ {نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}، فقال: يا نافع هل تعلم من أمر هذه الآية؟ قلت: لا، قال: إنا كنا معشر قريش نُجَبِّي النساء، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار، أردنا

---

[10] رواه أحمد في مسنده برقم (٢٤١٤) (٢٦٨/١)، وعلق عليه شعيب الأرنؤوط بقوله: حسن لغيره، وإسناده ضعيف لضعف رشدين بن سعد.

[11] - رواه أبو داود برقم (٢٩٧٩) (٢١٥/٥)، وأحمد في مسنده برقم (٢٦٦٠١) (٣٠٥/٦)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٩٧٩).

منهن مثلما كنا نريد، فإذا هن قد كرهن ذلك وأعظمنه، وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود، إنما يؤتيْن على جنوبهن، فأنزل الله: {نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}.[12] وهذا إسناد صحيح".

هذه الرواية صريحة في نفي وتكذيب ما نسب إلى ابن عمر، ولعل ذلك فهم من ابن عمر على غير قصده، والرواية الأخرى الواردة عنه في مخالفته لهذا القول جاءت في البخاري.

"روى أحمد عن خزيمة بن ثابت الخُطَمي –رضي الله تعالى عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((لا يستحيي الله من الحق ثلاثاً، لا تأتوا النساء في أعجازهن))[13] رواه النسائي وابن ماجه.

وروى أبو عيسى الترمذي والنسائي عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في الدبر))[14]. ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب، وهكذا أخرجه ابن حبان في صحيحه، وصححه ابن حزم أيضاً".

حسن بعض أهل العلم كالشيخ الألباني هذا الحديث، والأحاديث وإن كانت متضافرة في هذا الباب إلا أنها لا تخلو من ضعف، والآية وحدها دلالاتها كافية في تحريم إتيان النساء في أدبارهن.

"وروى الإمام أحمد عن علي بن طلق –رضي الله تعالى عنه– قال: نهى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أن تؤتى النساء في أدبارهن، فإن الله لا يستحيي من الحق،[15] وأخرجه أبو عيسى الترمذي وقال: هو حديث حسن.

وروى أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي في مسنده عن سعيد بن يسار أبي الحباب قال: قلت لابن عمر –رضي الله تعالى عنهما–: ما تقول في الجواري حين أحمض لهن؟ قال: وما التحميض. فذكرت الدبر، فقال: وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين، وهذا إسناد صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك.

وقال أبو بكر بن زياد النيسابوري: حدثني إسماعيل بن حصن، حدثني إسماعيل بن روح، سألت مالك بن أنس: ما تقول في إتيان النساء في أدبارهن؟ قال: ما أنتم قوم عرب، هل يكون الحرث إلا موضع الزرع، لا تعدوا الفرج!!، قلت: يا أبا عبد الله، إنهم يقولون إنك تقول ذلك، قال: يكذبون عليّ، يكذبون عليّ.

فهذا هو الثابت عنه، وهو قول سعيد بن المسيب، وأبي سلمة، وعكرمة، وطاوس، وعطاء، وسعيد بن جبير، وعروة بن الزبير، ومجاهد بن جبر، والحسن وغيرهم من السلف، إنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار، ومنهم من يطلق على فاعله الكفر، وهو مذهب جمهور العلماء".

مراد ابن كثير من قوله: وهو مذهب جمهور العلماء، أي تحريم إتيان المرأة في الدبر، وليس إطلاق الكفر عليه، ولا يكاد يوجد مخالف في هذه المسألة، ومن نُقل عنه خلاف ذلك فهو كذب كما أسلفنا.

---

[12] رواه النسائي في سننه الكبرى برقم (٨٩٧٨) (٥/٣١٥).

[13] رواه النسائي في سننه الكبرى برقم (٨٩٨٦) (٥/٣١٧)، وابن ماجه بلفظ ((في أدبارهن)) برقم (١٩٢٤) (١/٦١٩)، والترمذي برقم (١١٦٤) (٣/٤٦٨)، وأحمد برقم (٢١٩٠٣) (٥/٢١٣)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١٣٦٦٩) عن طريق خزيمة بن ثابت.

[14] رواه النسائي في السنن الكبرى برقم (٩٠٠١) (٥/٣٢٠)، والترمذي برقم (١١٥٦) (٣/٤٦٩)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١٣٧٥٩).

[15] رواه الترمذي برقم (١١٦٤) (٣/٤٦٨)، وأحمد في مسنده برقم (٢١٩٠٧) (٥/٢١٣)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٢٧٣٣).

"وقوله: {وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ} أي: من فعل الطاعات مع امتثال ما نهاكم عنه من ترك المحرمات".

الأقرب في تفسير الآية والأظهر ما ذكره ابن كثير، ولذا اختاره جمع من المحققين منهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري –رحمه الله– وقد جاء في الآية الأخرى: **{وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ}** [(١١٠) سورة البقرة]، والمعنى قدموا لأنفسكم من فعل الخير ما تعمرون به آخرتكم.

وبعضهم يقول: قدموا لأنفسكم، يعني الذكر الذي يقال عند الجماع: ((اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا))[16]، وقيل غير هذا لكنها معانٍ بعيدة.

"ولهذا قال: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ} أي: فيحاسبكم على أعمالكم جميعها، {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} أي: المطيعين الله فيما أمرهم، التاركين ما عنه زجرهم.

وروى ابن جرير عن عطاء قال: أراه عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: {وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ}، قال: تقول: بسم الله –التسمية عند الجماع–.

وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً))[17]".

هذا المعنى في تفسير المراد من الآية وإن كان حكماً ثابتاً، لكنه يمكن أن يكون من الأمثلة على تفسير القرآن بالسنة مما يدخله الاجتهاد إلا أنه جانب الصواب، وذلك أن تفسير القرآن بالسنة على نوعين:

- نوع تعرض فيه النبي –صلى الله عليه وسلم– للآية بالتفسير والتوضيح، هذا لا إشكال فيه إذا ثبت عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، ولا ينظر إلى قول أحد بعد النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ لأنه أعلم الناس بكلام الله ومراده.
- ما يجتهد فيه المفسر من تفسيره للقرآن بالسنة من خلال فهمه لكلام الله –عز وجل–، فيعمد المفسر إلى حديث لا تعلق له بالآية فيتكلف في الربط بين الآية وبين الحديث، وقد يوفق في الربط، وقد لا يوفق، مثل من فسر هذا الحديث بأنه المراد من قوله سبحانه: **{وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ}**، فهذا يعتبر من قبيل النوع الثاني من تفسير القرآن بالسنة مما يدخله اجتهاد المفسر، وهو مأجور على اجتهاده فيما ذهب إليه من تفسيره وإن لم يوفق للصواب.

والخلاصة أن يُفسر قوله: **{وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ}** بما ذكره ابن كثير من فعل الطاعات مع امتثال ما نهاهم عنه من ترك المحرمات، وهو الأصوب، والله أعلم.

ويبقى سؤال هو ما وجه المناسبة بين قوله: **{فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}** وما بعدها **{وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ}**؟

الجواب يكمن في أن أعظم متعة في هذه الدنيا هي النساء، كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((حبب

---

[16] رواه البخاري في كتاب الوضوء –باب التسمية على كل حال وعند الوقاع برقم (١٤١) (٦٥/١)، ومسلم في كتاب النكاح –باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع برقم (١٤٣٤) (١٠٥٨/٢).

[17] سبق تخريجه.

إلي من الدنيا النساء والطيب...))[18]، ولذلك كان العرب يقولون عن النكاح والطعام: الأطيبان؛ لأنه أطيب ما في الدنيا، وقد يشغل العبدَ السعيُ في طلب الزوجة والبحث عنها، وما يتعلق بكماليات وأمور ومتطلبات الحياة الزوجية، وذلك كله مآله إلى الوطء، يشغله عما هو بصدده من عبادة الله -عز وجل-، لأن النساء من الزينة المحببة إلى قلب الإنسان كما قال سبحانه: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ...} [(١٤) سورة آل عمران] وتأمل كيف أن الله بدأ بذكر النساء من الشهوات التي يبحث عنها الناس، لما علم أنه لا يعادلها قناطير ولا أنعام ولا حرث ولا خيل مسومة لكنه قال بعدها: {ذلك مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ} فيكون ذلك من قبيل لفت أنظار المكلفين إلى أن هذه المتع في الحياة الدنيا زائلة، وأن هذه المرأة التي يحرص على نكاحها والالتصاق بها سوف تشمط يوماً ما، وتظهر آثار الزمان على وجهها، وتشيخ عند كبرها، عندها يذهب جمالها وبهاؤها ورونقها وحسنها وشبابها، فتصير إلى حالة لا يطلب فيه أحد نكاحها، ولا تتوق إليها النفوس، فلا ينبغي أن ينشغل العبد بالنساء عن عبادة الله -عز وجل-، بل لا بد أن يقدم لنفسه زاداً يدخره لآخرته؛ فالآخرة دار لا تصلح للمفاليس، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

---

[18] رواه النسائي برقم (٣٩٣٩) (٦١/٧)، وأحمد في مسنده برقم (١٣٠٧٩) (١٩٩/٣)، وقال الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي: حسن صحيح برقم (٣٩٣٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (٩٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [(٢٢٤-٢٢٥) سورة البقرة] يقول تعالى: لا تجعلوا أيمانكم بالله -تعالى- مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتم على تركها كقوله تعالى: {وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٢٢) سورة النـــــور].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فما أورده ابن كثير في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ}** جرى على حمل العرضة في الآية على معنى الشيء المعترض -كالحاجز-، من قولهم هذا الشيء عرضة بمعنى: حاجز، وهذه الأحجار عرضة في الطريق أي: حاجزة للمارة فلا يتمكنون من اجتيازها، ويكون المعنى على هذا: لا تجعلوا الله حاجزاً ومانعاً لأيمانكم التي هي بركم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس كما حلف أبو بكر -رضي الله عنه- ألا يصل مسطحا، وأن يقطع عنه النفقة التي كان يتعهده بها بعدما تكلم في قصة الإفك المعروفة بما تكلم، فصار حَلِف أبي بكر -رضي الله عنه- حاجزاً دون إيصال البر والإحسان إلى هذا القريب، ومثله لو حلف الإنسان ألا يزور أمه أو لا ينفق على امرأته لأصبح حلفه حائلاً دون بلوغ هذا البر والمعروف سواء كان واجباً أو مستحباً، فلا ينبغي للإنسان أن يقيم على هذه اليمين التي تحول بينه وبين إيصاله البر والمعروف إلى أقربائه وسائر الناس، وإنما هو مطالب أن يكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير، وقد ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قوله: ((.... لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها))[1]، فهذا هو المعنى المشهور والمتبادر الذي عليه الجمهور.

وقيل: العرضة بمعنى القوة والشدة أي: لا تجعلوا اليمين بالله قوة لأنفسكم في الامتناع من الخير، وهذا المعنى معروف في كلام العرب، فالآية تحتمله وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وقيل: يحتمل أن تكون من قولهم: فلان عرضة للناس بمعنى أنهم يقعون فيه كثيراً بما يكره، فتحمل الآية على النهي عن ابتذال الاسم الكريم، والإكثار من الحلف بذلك، ومعلوم أن كثرة الحلف ليست بالأمر

---

[1] رواه البخاري في كتاب الخمس -باب ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين برقم (٢٩٦٤) (١١٤٠/٣)، ومسلم في كتاب الأيمان -باب نذر من حلف يمينا فرأى غيرها خيرا منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه برقم (١٦٤٩) (١٢٦٨/٣).

المحمود، بل هي من صفات المنافقين كما قال الله –عز وجل– عنهم: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [(١٦) سورة المجادلة]، وكثرة الحلف لا يتفق مع تعظم المعبود –جل جلاله– التعظيم الواجب؛ لأن من اعتاده وصار ديدنه أعمله كثيراً في تعاملاته المختلفة لغرض أو لآخر، فتخف جذوة تعظيم المحلوف به في قلبه وتضعف، ولذلك أثر عن بعض السلف كإبراهيم النخعي –رحمه الله– أنه كان يؤدب الصبيان ويضربهم على الحلف؛ لئلا يكون سهلاً على ألسنتهم فيعتادونه، وقديماً قيل: من أكثر الحلف كثر منه الحنث، والله أعلم.

وبعض المفسرين يرى أن المراد من الآية الحلف كذباً بحجة الإصلاح بين الناس، فإنه وإن كان يرخص للإنسان فيه لكن شريطة أن لا تضيع الحقوق بسببه، ومثله لو حلف بحجة أن قصده الخير وتكثير سواده فهذا مما لا يجوز، وصاحبه مقترف لكبيرة من الكبائر، والغاية لا تبرر الوسيلة.

وبعض أهل العلم يحمل الآية {وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ} على أحد المعاني المذكورة، ويجعل قوله: {أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ} جملة جديدة حذف منها الخبر لا تعلق لها بما سبق، والمعنى البر والتقوى والإصلاح أولى لكم، والله أعلم.

فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير، كما روى البخاري عن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((نحن الآخرون السابقون يوم القيامة))[2]، وقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((والله لأن يلج أحدكم بيمينه في أهله، آثم له عند الله من أن يعطي كفارته التي افترض الله عليه))[3]. وهكذا رواه مسلم وأحمد.

وقال علي بن طلحة عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– في قوله: {وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ} قال: لا تجعلن عرضة ليمينك ألا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير، وكذا قال مسروق والشعبي وإبراهيم النخعي ومجاهد وطاووس وسعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومكحول والزهري والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والضحاك وعطاء الخرساني والسدي –رحمهم الله تعالى–.

هذا المعنى يوافق المعنى الأول: لا تجعلوا أيمانكم حاجزاً ومانعاً يحول بينكم وبين فعل البر والتقوى.

ويؤيد ما قاله هؤلاء الجمهور ما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((إني والله إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها))[4].

وروى مسلم عن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير))[5].

---

[2] رواه البخاري في كتاب الجمعة –باب فرض الجمعة برقم (٨٣٦) (٢٩٩/١)، ومسلم في كتاب الجمعة –باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة برقم (٨٥٥) (٥٨٥/٢).

[3] رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور برقم (٦٢٥٠) (٢٤٤٤/٦)، ورواه مسلم في كتاب الأيمان –باب النهي عن الإصرار على اليمين فيما يتأذى به أهل الحالف مما ليس بحرام برقم (١٦٥٥) (١٢٧٦/٣)،

[4] سبق تخريجه.

[5] رواه مسلم في كتاب الأيمان –باب نذر من حلف يمينا فرأى غيرها خيراً منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه برقم (١٦٥٠) (١٢٧١/٣).

وقوله: {لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ} [(٢٢٥) سورة البقرة] أي: لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية، وهي التي لا يقصدها الحالف بل تجري على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد.

اليمين: الحلف، وأصل التسمية أن الواحد كان إذا حلف يأخذ بيمين صاحبه من باب التأكيد، فصارت تطلق على الحلف وإن لم يصحبها أخذ بيمين الحالف.

ومن تأمل عبارة ابن كثير –رحمه الله– في تفسير الآية يلاحظ أنه يقصد الأيمان التي لا كفارة فيها، وهي على نوعين:

- الأول: أيمان يلحق صاحبها إثم وهذه كاليمين الغموس.
- الثاني: أيمان لا يلحق صاحبها إثم، وهي: ما كان على اعتقاد الحالف بالنسبة للأخبار والأمور الماضية، أو كان على سبيل اللغو وهو: ما يجري على اللسان من غير عقد في القلب.

وهناك صور أخرى العلماء مختلفون فيها، مثل اليمين في حال الغضب في بعض صورها، أو اليمين التي يقصد بها الإكرام فيحلف علي إنسان بالضيافة والقِرَى، فبعض أهل العلم كشيخ الإسلام –رحمه الله– له كلام في هذه المسألة.

وأما الأيمان التي تتعلق بها الكفارة فهي ما أراده الله سبحانه في قوله: **{وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ}** [(٢٢٥) سورة البقرة] وهي اليمين التي يقصدها الحالف ويعقد عليها قلبه، سواء كانت على أمر ماضٍ أو مستقبل كما قال سبحانه: **{وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ}** [(٨٩) سورة المائدة].

وقوله سبحانه: **{لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ}** اللغو هو: الباطل، والأحسن أن تحمل الآية على كل يمين لا مؤاخذة فيها، فيدخل فيها ما حلف عليه الإنسان في أمر ماضٍ يعتقد فيه شيئاً وهو على خلافه، وكذا الأمور المستقبلة مما يجري على لسان الإنسان من غير قصد لليمين، وبعض أهل العلم يعد من اللغو يمين المعصية، وعلل ذلك بأن الأصل أن لا يقدم على هذه المعصية وبالتالي لا يحتاج إلى التكفير.

وبعض أهل العلم يرى أن اليمين اللغو هي: ما يحصل من الإنسان إذا اشتط غضباً فيدعو على نفسه ويقول: إنه يهودي ونصراني إذا فعل كذا.

والبعض الآخر قال: إنها اليمين المكفَّرة؛ لأنها صارت غير معتبرة؛ لكونه كفر عن يمينه فصارت اليمين لا توجب على العبد الوقوف عندها، وهذا القول بعيد.

والأقرب أن تحمل يمين اللغو على ما لا كفارة فيه ولا إثم، وابن جرير –رحمه الله– حملها على جملة من هذه المعاني السابقة، قال: هي التي لا كفارة فيها، لكن يبقى تقييد هذا بما لا إثم فيه؛ لأن اليمين الغموس لا كفارة فيها، لكن الإنسان يؤاخذ بها.

كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((من حلف فقال في حلفه: باللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله))[6].

فهذا قاله لقوم حديثي عهد بجاهلية قد أسلموا، وألسنتهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد، فأمروا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد؛ لتكون هذه بهذه.

---

[6] رواه البخاري في كتاب التفسير –باب تفسير سورة **{والنجم}** [(١) سورة النجم] برقم (٤٥٧٩) (٤/١٨٤١).

فهذه من لغو اليمين باعتبار أنه لا كفارة فيها، وعدّ بعضهم قوله -صلى لله عليه وسلم-: ((فليقل: لا إله إلا الله)) كفارتها، وظاهر الأمر في الحديث للوجوب، والكفارة ليس بالضرورة أن تكون عتق رقبة، أو إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو صيام ثلاثة أيام أو...، بل قد تكون بشيء آخر كما في هذا الحديث.

وأما لو قال: والكعبة ...، فهل تلزم الكفارة أم لا؟ المسألة خلافية بين أهل العلم، إلا أنهم متفقون على أن قوله هذا يعتبر من الحلف بغير الله، ولذلك جعل بعضهم كفارته أن يقول: لا إله إلا الله، لكن تبقى مسألة ثانية وهي هل هذه يمين منعقدة مثل الطلاق والتحريم في قوله سبحانه: {لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ} [(١) سورة التحريم]، لأن التحريم ورد فيه ثلاثة أقوال معتبرة هي في غاية التناقض مختارة من بين ثمانية عشر قولاً:

القول الأول: أن هذا لا تغير فيه حقيقة، ولا ينقلب الحلال إلى حرام، وهذا لفظ لا يعتد به، ولا يجوز للإنسان أن يقدم عليه، وهو لغو يمين لا يترتب عليه شيء.

القول الثاني: أن فيه كفارة الظهار، وهذا من أقوى الأقوال.

القول الثالث: أن فيه كفارة يمين؛ لأن الله قال بعده: {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} [(٢) سورة التحريم]، وعلى هذا القول فمن حلف بالحرام على شيء فإنه يلزمه كفارة اليمين، ويشكل على هذا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما جاء في بعض الروايات حلف عند تحريمه للجارية ألا يطأها، لكن هذا محمول كما ذكر أهل العلم على كون الكفارة باعتبار حلفه لا باعتبار لفظ التحريم المذكور بمجرده، والله أعلم.

وهناك أشياء أجراها طائفة من أهل العلم مجرى اليمين، وإن لم تكن بصيغة الحلف كأدوات القسم وهي: الواو، التاء، الباء، وأشهرها الواو، أو فعل القسم، وأكمل صيغ القسم ما اجتمعت فيه حروف القسم والمقسم به والمقسم عليه، وقد لا تكون الصيغة من صيغ القسم لا مختصرة ولا تامة، مثل، مسألة التحريم أو الطلاق، ومع هذا يجريها بعض أهل العلم مجرى اليمين بحسب نية المتكلم.

ولهذا قال تعالى: {وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} [(٢٢٥) سورة البقرة] الآية، وفي الآية الأخرى {بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ} [(٨٩) سورة المائدة].

قال أبو داود: باب لغو اليمين، ثم روى عن عطاء في اللغو في اليمين قال: قالت عائشة -رضي الله تعالى عنها-: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته، كلا والله، وبلى والله))[٧].

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان.

وروى أيضاً عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: لغو اليمين أن تحرّم ما أحل الله لك، فذلك ما ليس عليك فيه كفارة.

المسألة فيها خلاف كثير، إلا أن تفسير النبي -صلى الله عليه وسلم- للغو اليمين بما ورد في حديث عائشة هو المعنى المتبادر المشهور، لكن هل يقتضي هذا الحصر؟ أو يدخل فيه الصور الأخرى مما لم يرد فيها النص، فتكون لا كفارة فيها ولا إثم ولا تبعة؟ المسألة تحتمل، والله أعلم بالصواب.

---

[7] رواه أبو داود برقم (٣٢٥٤) (٢/٢٤٣)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٣٢٥٤).

وكذا روي عن سعيد بن جبير، وقال أبو داود: باب اليمين في الغضب، ثم روى عن سعيد بن المسيب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث، فسأل أحدهما صاحبه القسمة، فقال: إن عدت تسألني عن القسم فكل مالي في رتاج الكعبة، فقال له عمر -رضي الله تعالى عنه-: إن الكعبة غنية عن مالك، كفر عن يمينك وكلم أخاك، سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لا يمين عليك، ولا نذر في معصية الرب -عز وجل-، وفي قطيعة الرحم، وفيما لا تملك))[8].

بهذا الاعتبار يدخل قول من قال: إن المراد من قوله سبحانه: **{لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ}** أنها اليمين في معصية الله -عز وجل-، والمقصود أنه لا يجوز للإنسان أن يمضي في يمين المعصية، ومثلها ما لا يملكه ابن آدم، ولذلك تلك المرأة من المسلمين التي أسرها العدو، وقد كانوا أصابوا قبل ذلك ناقة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلما رأت من القوم غفلة ركبت ناقة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم جعلت عليها أن تنحرها، فلما قدمت المدينة وأرادت أن تنحر الناقة مُنعت من ذلك، فذُكر ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: بئسما جزيتيها، ثم قال: ((لا نذر لابن آدم فيما لا يملك، ولا في معصية الله -تبارك وتعالى-)) فبين النبي -صلى الله عليه وسلم- تشريعاً عاماً وهو أنه لا نذر للعبد فيما لا يملكه.

وقوله: {وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} [(٢٢٥) سورة البقرة] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد: هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب.

قال مجاهد وغيره: وهي كقوله تعالى: {وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ} [(٨٩) سورة المائدة] الآية.

هذا من تفسير القرآن بالقرآن، وهذا يجري على قول الجمهور بأن المراد من الآية اليمين المقصودة، وأما تفسير ابن عباس فمحمول على اليمين التي لا كفارة فيها ولكن يلحق صاحبها الإثم، وبعض أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- يحمل الآية على المعنيين، والله أعلم بالصواب.

{وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} أي: غفور لعباده حليم عليهم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

---

[8] رواه أبو داود برقم (٣٢٧٢) (٢/٢٤٧)، وقال الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود: ضعيف الإسناد برقم (٣٢٧٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (٩٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- تعالى في تفسير قوله تعالى: {لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [(٢٢٦-٢٢٧) سورة البقرة].

الإيلاء: الحلف، فإذا حلف الرجل ألا يجامع زوجته مدة، فلا يخلوا إما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها، فإن كانت أقل فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته، وعليها أن تصبر، وليس لها مطالبته بالفيئة في هذه المدة.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أما بعد:

قوله -تبارك وتعالى-: {لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ} الإيلاء: الحلف، وذلك أنه مأخوذ من الألية، تقول: آلى يؤلي إيلاء يعني حلف حلفاً، وبعضهم يقول: أصل الإيلاء الامتناع باليمين، ويقال له: الحلف على وجه التوسع.

الإيلاء شرعاً: الامتناع باليمين من وطء الزوجة.

مدة الإيلاء: اتفق الفقهاء على أن من حلف ألا يمس زوجته أكثر من أربعة أشهر كان مولياً، واختلفوا فيمن حلف ألا يمسها أربعة أشهر: فقال أبو حنيفة وأصحابه: يثبت له حكم الإيلاء.

وذهب الجمهور ومنهم الأئمة الثلاثة: إلى أنه لا يثبت له حكم الإيلاء؛ لأن الله -عز وجل- جعل له مدة أربعة أشهر، وبعد انقضائها فهو بالخيار بين الفيء، أو الطلاق.

وبعض أهل العلم يرى جواز اعتبار الإيلاء فيما دون أربعة أشهر، وكذا لو حلف ألا يطأ امرأته مطلقاً وهذا ليس محل اتفاق.

وليس للزوجة أن تطالبه في هذه المدة أربعة أشهر بالوطء، وإنما تتربص به وتنتظر، فإذا مضى عليها أربعة أشهر فمن حقها المطالبة، فإما أن يرجع ويكفر عن يمينه، وإما أن يفارقها ويطلقها، والراجح أن الإيلاء ليس بطلاق إذا تمت المدة ولم تحصل المراجعة فيها، ويلزمه القاضي بالطلاق إذا أبى المراجعة، والله أعلم.

وهذا كما ثبت في الصحيحين عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- آلى من نسائه شهراً، فنزل لتسع وعشرين، وقال: ((الشهر تسع وعشرون))[1]. ولهما عن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- نحوه.

---

[1] رواه البخاري في كتاب الصوم -باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- ((إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا)) برقم (١٨١١) (٢/٦٧٥)، ومسلم في كتاب الصيام -باب الشهر يكون تسعاً وعشرين برقم (١٠٨٣) (٢/٧٦٣).

فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر، فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر: إما أن يفيء -أي: يجامع -وإما أن يطلق، فيجبره الحاكم على هذا، وهذا لئلا يضر بها. ولهذا قال تعالى: {لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ من نسائهم} أي: يحلفون على ترك الجماع من نسائهم، وفيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء كما هو مذهب الجمهور، {تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ} أي: ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف ويطالب بالفيئة أو الطلاق.

ولهذا قال: {فَإِنْ فَآؤُوا} أي: رجعوا إلى ما كانوا عليه، وهو كناية عن الجماع قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، ومسروق والشعبي وسعيد بن جبير وغير واحد، ومنهم ابن جرير -رحمه الله-.

العلماء مختلفون في الفيئة بناءً على اختلافهم في معنى الإيلاء، فمن قال: بأن الإيلاء: هو أن يحلف ألا يجامعها، فعندئذ تكون الفيئة بالجماع، ومن وسع المعنى فقال الإيلاء: هو أن يحلف ألا يكلمها أو يهجرها، وكل ما فيه أذية الزوجة والتضييق عليها فالفيئة تكون بأن يرجع إليها ويكلمها، وهذا قال به بعض السلف لكنه قول شاذ.

والصواب أن المراد بالفيئة في الآية الجماع، وأما من لم يتيسر له ذلك فبعض أهل العلم يرى إنها ترجع له بالنية والقصد، ويمكن أن يشهد على الإرجاع ويتكلم به، وهذه الصورة تتحقق في حق الرجل المسافر أو المريض.

والبعض الآخر يرى أنه لا يكفي القصد والنية، فهو إما أن يجامع وإما أن يطلق.

والإيلاء له ثلاث حالات:

- صريح: كأن يحلف ألا يجامعها أو يطأها.
- شبيه بالصريح: كأن يحلف ألا يغتسل لها من جنابة.
- كناية: كأن يحلف ألا يجمعه بها فراش واحد، أو نحو ذلك مما ليس بصريح في الجماع.

فالصريح يؤخذ به، وغير الصريح ينظر إلى قصده، بحسب نيته كما يقال في الأيمان.

{فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} أي: لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين.

استدل بعض أهل العلم بهذه الآية على أن الكفارة تسقط عنهم ولا يؤاخذوا بهذا الرجوع ولو حلفوا، وهذا يجري على قول من قال: إن الأيمان المحرمة لا كفارة فيها، وأدخلها في جملة لغو اليمين المنصوص عليها في قوله سبحانه: **{لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ}** [(٨٩) سورة المائدة].

وقيل: بل المراد أن الله غفور رحيم فيما حنثوا فيه بما شرعه لهم من الكفارة للخروج من الحرج، فكان ذلك توسعة على المكلفين للخروج من أيمانهم إلى ما هو الأصلح والأرفق والأفضل، فهذا من سعة رحمة الله -عز وجل- على عباده؛ لأن الناس كانوا في الجاهلية يؤلي الرجل من امرأته السنة والسنتين والعشر، أو قد يولي منها إلى الأبد، فيتركها لا هي زوجة ولا هي مطلقة ولا يطالبه أحد بشيء، لتأتي الشريعة بما تحمله من يسر في تشريعاتها فتنقض حكم الجاهلية، وتحد الإيلاء بفترة محددة إما أن يطلق بعدها أو يفيء وعفا الله عما سلف.

وقوله: {وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلَاقَ} [(٢٢٧) سورة البقرة] فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر.

كما روى مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر –رضي الله تعالى عنهما– أنه قال: إذا آلى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر حتى يوقف، فإما أن يطلق وإما أن يفيء. وأخرجه البخاري.

هذا الأثر جرى على العمل به جماهير أهل العلم سلفاً وخلفاً، خالف في ذلك أبو حنيفة كما مضى فإنه يقول: إذا مضى على إيلائه أربعة أشهر ولم يراجع امرأته فإنها تبين منه بطلقة بائنة ليس فيها عدة يراجع فيها، وإنما تبين منه بمجرد انتهاء هذه المدة، ويحتجون بهذه الآية على أنه طلاق من أربعة أوجه، ليس هذا موضع سردها، وإنما المقصود الوقوف على الحكم بصورة مختصرة، وأما التوسع في المسألة فمحله كتب الفقه.

قوله سبحانه: **{سَمِيعٌ عَلِيمٌ}** أي: سميع لأقوالهم إذا تكلموا بالطلاق، عليم بأحوالهم إذا أصروا وبقوا على إيلاءهم، أو رجعوا إلى زوجاتهم.

وروى ابن جرير عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه قال: سألت اثني عشر رجلاً من الصحابة عن الرجل يولي من امرأته، فكلهم يقول: ليس عليه شيء حتى تمضي أربعة أشهر فيوقف، فإن فاء وإلا طلق.

ورواه الدارقطني من طريق سهيل، قلت: وهو يروى عن عمر وعثمان وعلي وأبي الدرداء وعائشة أم المؤمنين وابن عمر وابن عباس –رضي الله تعالى عنهم– أجمعين، وبه يقول سعيد بن المسيب وعمر بن عبد العزيز ومجاهد وطاووس ومحمد بن كعب والقاسم.

التحديد بالأربعة أشهر بناءً على حق الزوجة، وما يلحق بها من ضرر، وهذا التحديد بالمدة المذكورة من لطف الشارع الحكيم، ولهذا بعض أهل العلم قال: إنما جعلت هذه المدة؛ لأنها هي الحد الذي تستطيع أن تصبر المرأة معه، ولذا عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– لما سمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليل واسود جانبه	وأرقني ألا حليل ألاعبه
فو الله لولا الله لا شيء غيره	لحرك من هذا السرير جوانبه
مخافة ربي والحياء يعفني	وإكرام بعلي أن تنال مراكبه

سأل عنها، فأخبر أن زوجها في الغزو، فسأل ابنته حفصة كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قالت: أربعة أشهر، وجاء في بعض الآثار أنه سأل نسوة، فأخبرنه أن المرأة تصبر شهراً، وتتصبر شهرين، ولا تطيق الصبر أكثر من أربعة أشهر، وهذا يقال في المرأة المتزوجة التي اعتادت على الوطء، كما هو مشاهد حتى في الرجال، ولهذا قالوا: في حكمة الرجم للمحصن والمحصنة بالضرب بالحجارة حتى الموت كما نص عليها العلامة/ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله– وغيره: إن من اعتاد الوطء من الرجال والنساء فإنه لا يصبر عنها إلا بعقوبة رادعة كهذه، وهذا بخلاف من لم يتزوج فإنه يصبر السنين الطويلة.

والعلماء –رحمهم الله– في مسائل الكفارات لا يذكرون شيئاً يتصل بالإلزام إلا فيما يتصل بحق الغير، فمثلاً رجل ظاهر من امرأته، قال لها: أنتِ عليّ كظهر أمي فيه الكفارة وهي: عتق رقبة، فإن لم يستطع فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً، وعلى الراجح من أقوال أهل العلم أنه لا يقربها ليلاً ولا نهاراً، وإن كان النهار بالاتفاق، بل ومنهم من يقول: لا يستمتع بها بأي لون من ألوان

الاستمتاع لقوله سبحانه: **{مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا}** [(٣) سورة المجادلة]، فتجلس هذه المدة، فمن أهل العلم من يرى أنه يحبس حتى يكفر؛ لأنه حق يتعلق به الغير، وأما في مسألة الإيلاء فإنه لا يحبس لكن يلزمه القاضي بأمرين:

إما الإطلاق وإما الإيفاء، وينبغي عدم التساهل في هذه الأمور وأخذها بالاعتبار وحكم الشرع.

{وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكُيمٌ} [(٢٢٨) سورة البقرة]**، هذا أمر من الله -سبحانه وتعالى- للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء بأن يتربص بأنفسهن ثلاثة قروء، أي: بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء، ثم تتزوج إن شاءت.**

المطلقة لا تخلو حكمها من إحدى ثلاث:

- إما أن تكون غير حامل فهذه عدتها بنص الآية ثلاثة قروء، والقرء على الراجح من كلام أهل العلم أنه الطهر بين الحيضتين.
- وإما أن تكون حاملاً، والحامل لا تحيض بإطلاق عند كثير من أهل العلم، وعند بعضهم أنها تحيض وهذا نادر، فعدتها كما قال الله -عز وجل-: **{وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}** [(٤) سورة الطلاق] فهي مخصصة لهذا الآية.
- وأما أن تكون كبيرة وهي التي وصلت إلى سن اليأس فلا تحيض، فهذه عدتها ثلاثة أشهر، ومثلها الصغيرة التي لم تحض بعد كما قال الله -عز وجل-: **{وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ}** [(٤) سورة الطلاق].

وقوله: **{إِنِ ارْتَبْتُمْ}** جملة اعتراضية، سيقت من أجل رفع اللبس في التي لا تحيض لكبر سنها أو لصغره. **روى الثوري عن علقمة قال: كنا عند عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- فجاءته امرأة فقالت: إن زوجي فارقني بواحدة أو اثنتين، فجاءني وقد وضعت مائي، ونزعت ثيابي، وأغلقت بابي.**

تقصد أن مدة عدتها بالإقراء انتهت فوضعت الماء ونزعت الثياب؛ لأجل أن تغتسل حين انقطع عنها الدم.

فقال عمر لعبد الله بن مسعود: ما ترى؟، قال: أراها امرأته ما دون أن تحل لها الصلاة.

لأن الصلاة لا تحل لها إلا إذا اغتسلت بعد ما تنتهي من حيضها، هذا تفسير الرواية.

قال عمر: وأنا أرى ذلك.

وهكذا روي عن أبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت وأنس بن مالك وابن مسعود ومعاذ وأبي بن كعب وأبي موسى الأشعري وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- أجمعين، وسعيد بن المسيب وعلقمة والأسود وإبراهيم ومجاهد وعطاء وطاووس وسعيد بن جبير وعكرمة ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة والشعبي والربيع ومقاتل بن حيان والسدي ومكحول والضحاك وعطاء الخرساني أنهم قالوا: الأقراء: الحيض.

وهذا هو مذهب الإمام أحمد -رحمه الله-، وعليه كثير من أهل العلم، ويؤيد تفسيرهم للقرء بالحيض الرواية السابقة للمرأة التي وضعت ماء الاغتسال لتغتسل، فهي تدل أن القرء يفسر بالحيض لا بالطهر.

والطلاق على أربعة أوجه:

الأول: طلاق سنة ويقع في صورتين.

الثاني: طلاق بدعة ويقع في صورتين كذلك.

فطلاق السنة إما أن يطلق في طهر لم يجامعها فيه، أو يطلق وهي حامل.

وطلاق البدعة إما أن يطلق في طهر قد جامعها فيه، أو يطلق وهي حائض أو نفساء، وبعض أهل العلم يرى أن الطلاق البدعي لا يقع لقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد))[2]. وحديث ابن عمر: ((مره فليراجعها))[3]، والخلاف في تفسير الحديث معروف.

لكن المقصود أننا إذا فسرنا الأقراء بالحيض فمعنى ذلك أنها تنتظر حتى تحيض ثم تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم تحيض، فإذا حاضت الثالثة وانقطع دمها فإن ذلك يعني انقضاء العدة، وهذا مما يبعد الاحتمال به؛ لأنه لم يتأت على مقاصد الشرع من احتساب المدة.

وعلى القول بأن المراد من القرء الطهر فتحسب العدة بزمن الأطهار -من أول طهر لم يجامع فيه-، وتنتهي العدة بانتهاء الحيضة الثالثة، فإذا رأت الطهر بعد الحيضة اغتسلت وانتهت عدتها بهذا الاعتبار، وتفسير القرء بالطهر هو الذي دل عليه الأثر، وأختاره كثير من أهل العلم.

وأصل القرء: الوقت، ويطلق على الشيء المؤقت مجيئه وإدباره، فهذا يقال له: قرء في أصل كلام العرب، ولفظ القرء من قبيل المشترك اللفظي: وهو اللفظ الواحد الذي يدل على أكثر من معنى، فالقرء بهذا الاعتبار صار يدل على معنيين متناقضين الطهر وغير الطهر، ولا يمكن أن يرتفع عنها الطهر والحيض وما في معناه مثل النفاس، فيقال: لا حائض ولا طاهر، فإذا كان لا يمكن أن يرتفع الوصفان، ولا يمكن أن يجتمع فمعنى ذلك التناقض، فهذا نوع من المشترك، وبالتالي فلا يمكن حمل المراد إلا على أحد المعنيين وهو المعنى الذي رجحه كثير من أهل العلم والمفسرين.

ومن أمثلة المشترك اللفظي قوله سبحانه: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} [(١٧) سورة التكوير]، فعسس كما يقول المفسرون مترددة بين إقبال الليل وإدباره، ولا يمكن إن يجتمعان في وقت واحد، لكن يجوز حمله على المعنيين إذا كان يتأتي في تفسير الآية وهو الراجح، فالمراد بعسعس: أن الله أقسم بالليل في حال إقباله، وفي حال إدباره، وهذا مظهر تتجلى فيه العظمة، وما يدعم هذا أن الله أقسم به في الحالتين في مواضع أخرى كما قال سبحانه: {وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} [(٢) سورة الضحى] أي: سكن وأظلم وأدلهم، وقال: {وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ} [(٣٣) سورة المدثر]، أقسم به في هذا وفي هذا، فنحمل الآية على المعنيين.

---

[2] رواه البخاري في كتاب الصلح -باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود برقم (٢٥٥٠) (٩٥٩/٢)، ومسلم في كتاب الأقضية -باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور برقم (١٧١٨) (١٣٤٣/٣).

[3] رواه مسلم في كتاب الطلاق -باب تحريم طلاق الحائض بغير رضاها وأنه لو خالف وقع الطلاق ويؤمر برجعتها برقم (١٤٧١) (١٠٩٣/٢).

وأما في لفظ القرء فلا يمكن حملها على المعنيين فنقول: يعني الحيض والطهر في وقت واحد؛ لان التناقض كبير وواضح، ويصعب معه الجمع أو التوافق، والعجيب أن يوجد بعض المتأخرين من المفسرين من يقول: لا مانع من حمل الآية على المعنيين، باعتبار أن المشترك يمكن أن يحمل على معنييه. والله أعلم.

ويؤيد هذا ما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي عن فاطمة بنت أبي حبيش -رضي الله تعالى عنها-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لها: ((دعي الصلاة أيام أقرائك))[4]، فهذا لو صح لكان صريحاً في أن القرء هو الحيض، ولكن المنذر أحد رواته، قال فيه أبو حاتم: مجهول ليس بمشهور، وذكره ابن حبان في الثقات.

المنذر بن المغيرة المدني قال عنه الحافظ بن حجر -رحمه الله- في "التقريب": مقبول، وهذا المصطلح يعني به كما هو معروف من طريقته -رحمه الله- أنه من لم يرو عنه إلا القليل، لكنه لم ينقل عنه ما يوجب رد روايته أو القدح فيه فإن توبع وإلا فهو لين الحديث، لكن عند التأمل يتضح لنا أن الحديث الذي كان أحد رواته المنذر هو غير الذي أورده ابن كثير -رحمه الله- ولفظه: ((إذا أتى قرؤك فلا تصلي فإذا مر قرؤك فتطهري، ثم صلي ما بين القرء إلى القرء))[5] فهو لفظ آخر رواه أبو داود والنسائي، والعلامة/ ناصر الدين الألباني -رحمه الله- يصححه، ويصحح الحديث الآخر الذي أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وهو من حديث عائشة -رضي الله عنها- من رواية الزهري، وسهيل بن أبي صالح الذي رواه عن الزهري لم يرو هذه اللفظة: ((دعي الصلاة أيام أقرائك))، وهكذا رواه عامة من رووه من الثقات عن الزهري خالفهم أحد الرواة وهو إمام معروف كبير سفيان بن عيينة، فرواه بهذه اللفظة فقالوا: هذه اللفظة غير محفوظة بل هي شاذة، وجاء من غير حديث عائشة -رضي الله عنها- مرسلاً: ((دعي الصلاة أيام أقرائك))، إلا أن هذا المرسل يعتضد بمثل هذه الرواية عن سفيان بن عيينة وقد يتقوى، ولهذا العلامة الألباني -رحمه الله- يصحح رواية ابن عيينة عن الزهري عن عمرة عن عائشة قالت: "إن أم حبيبة كانت تستحاض، فسألت النبي -صلى الله عليه وسلم- فأمرها أن تدع الصلاة أيام أقرائها". وأما أبو داود بعد ما ذكره قال: هذا وهم من ابن عيينة ليس هذا في حديث الحفاظ عن الزهري إلا ذكر سهيل بن صالح، فالمنذر إنما جاء ذكره في الرواية الأخرى، وإذا صححت هذه الرواية فمعنى ذلك صحة احتجاج من يقول: بأن القرء هو الحيض، والمعنى من الحديث أمرها أن تصلي من القرء إلى القرء، أي: من الحيضة إلى الحيضة، وجعلوا المراد من قوله سبحانه: **{وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ}** أي ثلاثة حيضات.

وكذا احتجوا القائلون بأن القرء هو الحيض من نفس الآية، ووجه احتجاجهم أن المفسرين ذكروا أن الآية قد تحتمل معنيين، فما يمنع حملها على معنى الحيض؟ وقرينة ترجيحه أن العدد في الآية مؤنث **{ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ}**، والقرء إذا فسر بالحيضة فهو مؤنث، والصواب في هذه جريها على القاعدة النحوية: أن العدد يخالف المعدود، تقول: ثلاث نسوة، وتقول: ثلاثة رجال، فهنا قال: ثلاثة قروء، ففسروه بالطهر، لأن الطهر مذكر فيحسن تنزيل القاعدة عليه، وبالتالي لا ممسك لهم من الآية.

---

[4] رواه الدارقطني برقم (٣٦) (١/٢١٢).

[5] رواه أبو داود برقم (٦٢٠) (١/٢٠٣)، والنسائي برقم (٢١١) (١/١٢١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٤١٢٨).

وكذا احتج القائلون بأن معنى القرء الحيض بحديث عائشة عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: ((طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان))[6]، فلو صح هذا الحديث لكان نصاً في الموضوع لكنه ضعيف، بغض النظر عن المدة وكونها للأمة.

ويحتجون بدليل من النظر يقولون: بأن المقصود من العدة استبراء الرحم، ولا يعلم استبراءه إلا إذا خرج الدم وحاضت، حينها يعلم أنه ليس هناك حمل، ويمكن أن يرد قولهم: بأن الحامل قد يحصل منها حيض، فالحاصل أن المسألة فيها كلام لأهل العلم معروف في محله، لكن ما ينبغي التأكيد عليه أن أكثر المفسرين على القول بأن القرء هو الطهر، وهو مذهب عائشة وابن عمر وزيد بن ثابت والزهري والشافعي، ويحتجون بمثل قول النبي –صلى الله عليه وسلم– لابن عمر: ((مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر فتلك العدة))[٧] والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه وسلم.

---

[6] رواه أبو داود برقم (٢١٩١) (٢/٢٢٣)، ورواه الترمذي برقم (١١٨٢) (٣/٤٨٨)، وابن ماجه برقم (٢٠٧٩) (١/٦٧٢)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٢١٨٩).

[7] – سبق تخريجه في الحاشية رقم (٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (١٠٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله: {وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ} [(٢٢٨) سورة البقرة] أي: من حبل أو حيض، قاله ابن عباس وابن عمر -رضي الله تعالى عنهم-، ومجاهد والشعبي والحكم بن عتيبة والربيع بن أنس والضحاك وغير واحد.

وقوله: {إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} تهديد لهن على قول خلاف الحق، ودل هذا على أن المرجع في هذا إليهن؛ لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن، وتتعذر إقامة البينة غالباً على ذلك فَرُد الأمر إليهن، وتُوُعِّدن فيه؛ لئلا يخبرن بغير الحق، إما استعجالاً منها لانقضاء العدة، أو رغبة منها في تطويلها؛ لما لها في ذلك من المقاصد، فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة ولا نقصان.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فما ذكره ابن كثير -رحمه الله- بأن المراد من قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ}** أي: من حبل أو حيض، هو المعنى المتبادر من الآية، ولذا اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، ولا يمكن اختصاص اللفظة بأحد المعنيين دون الآخر.

ومرجع الأمر إليهن فإذا ادعت المرأة شيئاً مما يتعلق بالحبل أو عدمه، والحيض أو الطهر قُبل قولها، إلا إذا قامت القرائن أو نحو ذلك على خلافه، ولا يجوز لها أن تكتم شيئاً مما خلقه الله -عز وجل- في رحمها، وهن متوعدات إن أخبرن بغير الحق إما استعجالاً منهن لانقضاء العدة، أو رغبة منهن في تطويلها لكونها تريد أن تبقى مع زوجها فتدعي أنها ما رأت الطهر أو ما رأت الحيض بحسب تفسير القرء لتطول المدة، أو تدعي الحمل وليست بحامل فتجلس تسعة أشهر، وقد تدعي أنها رأت الطهر أو الحيض أو أنها حاضت مراراً في شهر واحد، من أجل أن تقطع الطريق علي زوجها؛ لئلا يراجعها.

أو لغرض آخر فتشعر أنها تورطت بهذا الحمل الذي قد يكون مانعاً للزوج من التطليق، أو سبباً للشقاق بين الزوجين، وهي تريد أن تأخذ هذا الولد، أو تخشى أن يتشتت هذا الولد بين الأبوين في حال الفراق، فتسكت ولا تخبر بالحمل وتدعي أنها تحيض وتطهر، ثم بعد ذلك تتزوج وتضيف هذا الولد إلى زوج آخر، وإذا وضعت ادعت على الزوج الآخر أن الحمل لستة أشهر...، فهذه كلها من الحيل الداخلة تحت قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ}**.

وقوله: {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحًا} [(٢٢٨) سورة البقرة] أي: وزوجها الذي طلقها أحق بردها ما دامت في عدتها إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير، وهذا في الرجعيات.

فلا يحق للمطلقة طلاقاً رجعياً أن تمتنع، أو لوليها أن يقف دون عودتها أو يرجع إلى رأيها في حال أراد زوجها إرجاعها، والواجب أن تعتد في بيت زوجها ولا غضاضة عليها إذا تزينت وتجملت له فذلك أدعى لمراجعته لها، وأما خروجها فالأصل أن لا تخرج إلا لحاجة لا يقوم غيرها مقامها، أو في حال اقترافها فاحشة مبينة كما نص القرآن على ذلك قال –عز وجل-: {وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} [(١) سورة الطلاق]، والفاحشة المبينة قيل: الزنا، وقيل: عقوق الزوج وأحمائه.

فأما المطلقات البوائن فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن، وإنما صار ذلك لما حصروا في الطلقات الثلاث، فأما حال نزول هذه الآية فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة، فلما قصروا في الآية التي بعدها على ثلاث تطليقات صار للناس مطلقة بائن وغير بائن.

هذه الآية تقرر أحكام الطلاق وأن للبعل –الزوج- الحق في إرجاع زوجته المطلقة في الطلاق الرجعي ما دامت في العدة كما قال سبحانه: {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحًا}، بخلاف المطلقة البائن كما في الآية التي بعدها: {الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} [(٢٢٩) سورة البقرة] فليس له الحق بعد الطلقات الثلاث أن يراجعها إلا بعد زواجها من رجل آخر، وكذا لو طلقها قبل الدخول بها صارت امرأة أجنبية بمجرد التلفظ بهذه الكلمة ولا يلزمها عدة، وإذا أراد أن يرجعها فبعقد جديد ومهر جديد.

وقوله: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} أي: ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر –رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قال في خطبته في حجة الوداع: ((فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف))[1].

وفي حديث بهز بن حكيم عن معاوية بن حيدة القشيري عن أبيه عن جده –رضي الله تعالى عنه- أنه قال: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا؟ قال: ((أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت))[2].

وقال وكيع: عن بشير بن سليمان عن عكرمة عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما- قال: إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة؛ لأن الله يقول: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ}، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

دلت هذه المعاني المذكورة في تفسير الآية على أن للرجل والمرأة حقوقاً حيال بعضهما، وليس الحق متوجهاً إلى أحدهما دون الآخر، فكما أن الرجل مطالب بتقوى الله في زوجته وملزم بأداء حقوقها من نفقة وسكنى ...، فكذا المرأة مطالبة برعاية حقوقه والقيام على مصالحه المنوطة بها التي ذكرت في الحديث.

---

[1] – رواه مسلم في كتاب الحج –باب حجة النبي –صلى الله عليه وسلم- برقم (١٢١٨) (٢/٨٨٦).

[2] – رواه أبو داود برقم (٢١٤٤) (٢/٢١٠)، وأحمد في مسنده برقم (٢٠٠١١) (٣٣/٢١٣)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٢١٤٢).

ويدخل فيه ما ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- وهو حق الجماع لكليهما، وفسر به الآية.

وأيضاً يدخل فيه ما اختاره ابن جرير الطبري -رحمه الله- بأن الرجل لا يرجع إلا إذا أراد الإصلاح كما قال سبحانه: {إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحًا}، فكذلك المرأة لا تكتم ما خلق الله -عز وجل- في رحمها، فابن جرير خص المعروف بأمر يتعلق بالطلاق والرجعة اللذين هما محور خطاب الآية.

وكذلك ما ذكره ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- من أنه يحب أن يتزين لامرأته، كما يحب أن تتزين له، فيضع نفسه مكانها في هذه الأمور، فإنها يعجبها منه ما يعجبه منها وتكره منه ما يكرهه منها، فهذه المعاني جميعها تفسر المراد بقوله: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ}.

وقوله: {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} أي: في الفضيلة في الخَلق، والخُلق، والمنزلة، وطاعة الأمر، والإنفاق، والقيام بالمصالح، والفضل في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ} [(٣٤) سورة النساء]، وقوله: {وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكُيمٌ} أي: عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، حكيم في أمره وشرعه وقدره.

اختلف أهل التأويل في المراد بهذه الدرجة في الآية {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ}؛ لأنها جاءت مبهمة فقيل: هي القوامة، وقيل: ما فضل به الرجل من كمال العقل، وبعد النظر وحسن التدبير وما إلى ذلك.

وبعضهم نظر إلى معنىً آخر يختص بالرجل فقال: إنه يلي الإمارة، والنساء لا ولاية لهن من الولايات العامة وقيل: بل المراد أن الرجل له لحية والمرأة ليس لها لحية، وقيل: {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} بما فضل عليها من الميراث، ودية المرأة نصف دية الرجل.

وابن جرير الطبري -رحمه الله- سرد في معنى الدرجة أقوال جمع من المفسرين، ثم قال: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله ابن عباس: "ما أحب أن أستنزف جميع حقي عليها؛ لأن الله -تعالى ذكره- يقول: {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ}"، والدرجة في هذا الموضع الصفحُ من الرجل لامرأته عن بعض الواجب عليها، وأداء كل الواجب لها عليه.

ولذلك جاءت عَقب قوله سبحانه: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} فكأنه إخبار منه -تعالى ذكره- أن على الرجل من ترك ضرارها في مراجعته إياها في أقرائها الثلاثة وفي غير ذلك من أمورها وحُقوقها، مثل الذي له عليها من ترك ضراره في كتمانها إياه ما خلق الله في أرحامهنّ وغير ذلك من حقوقه.

ثم ندب الرجال إلى الأخذ عليهن بالفضل إذا تركن أداءَ بعض ما أوجب الله لهم عليهن، فقال -تعالى ذكره-: {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} بتفضّلهم عليهن، وصفحهم لهن عن بعض الواجب لهم عليهن، وهذا هو المعنى الذي قصده ابن عباس -رضي الله عنه-، وهذا القول وإن كان ظاهرُه الخبر إلا أنه يفهم من معناه ندب الرجال إلى الأخذ على النساء بالفضل؛ ليكون لهم عليهن فضل درَجة، وهذا الوجه في تفسير الآية جيد ومعناه قريب.

ومن أولى ما يدخل في هذه الدرجة المذكورة ما فضل به الرجل على المرأة حساً ومعنى من كمال العقل، وقوة البدن، والأطباء يقولون: إن تلافيف عقل الرجل تختلف عن تلافيف عقل المرأة، فتركيبة المخ مختلفة، ولذا فإن الرجل أكثر وأوفر وأقدر على التفكير الصحيح من المرأة، وكذا ما ينتج ويترتب عليه مما رتبه

الشارع عليه من كونه أهلاً للولاية، ويملك القوامة على المرأة فكل ذلك راجع إلى هذا المعنى، وقد يوجد في النساء من هي بمثابة الرجل في جسارتها لكن العبرة بالغالب، وهذا الأمر مشاهد في أحوال الرجال وأحوال النساء، فالمرأة تبع للرجل فطرةً وشرعاً ولا تستقل بأمرها، بل يرعاها وليها ويتولى شئونها ويحوطها ويحفظها، ولا تسافر إلا مع ذي محرم ولو كان إلى حج بيت الله الحرام، ولا يخلوا بها الرجل الأجنبي، ولا يتركها القائم بأمرها عرضة لكل أسر وكاسر، والحاصل من هذا كله أن المرأة أضعف من الرجال في تفكيرها وعقلها كما أخبر الصادق المصدوق من لا ينطق عن الهوى أنهن ((ناقصات عقل ودين))[1]، ولذلك كانت هذه الرفعة والمنزلة في الدرجة لحكمة وملمح عجيب.

{الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}

[(٢٣٠) سورة البقرة].

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله إلى ثلاث طلقات، وأباح الرجعة في المرة والثنتين وأبانها بالكلية في الثلاثة فقال: {الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ}.

من أهل العلم من استنبط من التعبير بقوله: **{الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ}** ملمحاً دقيقاً، وهو أن الطلاق لا يقع حتى يكون مرة بعد مرة، فلا يطلق الإنسان تطليقاً مجتمعاً بلفظ واحد كأن يقول: أنت طالق ثلاثاً، أو يقول لها: أنت طالق، أنت طالق، أو يقول لها: أنت طالق وطالق في مرة واحدة سواء بلفظ واحد أو بالتكرار، ولو كان ذلك متفرقاً في العدة الواحدة، والله أعلم.

قال أبو داود –رحمه الله– في سننه: باب نسخ المراجعة بعد الطلقات الثلاث، ثم روى عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ} الآية، وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعتها وإن طلقها ثلاثاً، فنسخ ذلك فقال: {الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ} الآية، ورواه النسائي.

إذا اعتبرنا هذا الأمر مما كان عليه الناس في الجاهلية ولم ينزل حكم يتعلق به، فهذا يعتبر ابتداء حكم جديد وهو ما يعرف عند الأصوليين بمسألة البراءة الأصلية فلا يعتبر نسخاً.

وأما إذا أقرهم الشارع على هذا الأمر حتى صار الناس يطلقون بعدد لا حصر له، ثم بعد ذلك حُد بالثلاث فيكون ذلك من قبيل النسخ، والله أعلم.

---

[1] رواه البخاري في كتاب الحيض – باب ترك الحيض الصوم برقم (٢٩٨) (١١٦/١)، ومسلم في كتاب الإيمان – باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله ككفر النعمة والحقوق برقم (٧٩) (٨٦/١).

وروى ابن أبي حاتم عن عروة أن رجلاً قال لامرأته: لا أطلقك أبداً، ولا آويك أبداً، قالت: وكيف ذلك، قال: أطلقك حتى إذا دنى أجلك راجعتك، فأتت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فذكرت ذلك له، فأنزل الله -عز وجل-: {الطلاق مرتان ...}. وهكذا رواه ابن جرير في تفسيره.

وقوله: {فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} [(٢٢٩) سورة البقرة] أي: إذا طلقتها واحدة أو اثنتين فأنت مخير فيها ما دامت عدتها باقية، بين أن تردها إليك ناوياً الإصلاح بها والإحسان إليها، وبين أن تتركها حتى تنقضي عدتها فتبين منك، وتطلق سراحها محسناً إليها لا تظلمها من حقها شيئاً ولا تضار بها.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين فليتق الله في ذلك -أي في الثلاثة-، فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها، أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً.

ما ذكره ابن كثير في تفسير الجملة من الآية هو المعنى القريب والمتبادر، وبعض أهل العلم يقول: {فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} بأن يطلقها الثالثة قاله جماعة من السلف، وابن جرير -رحمه الله- ساق في تفسيره معنى للآية لكن فيه غرابة وبعد.

فقوله: {وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا} [(٢٢٩) سورة البقرة] أي: لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن؛ ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه كما قال تعالى: {وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} [(١٩) سورة النساء]، فأما إن وهبته المرأة شيئاً عن طيب نفس منها فقد قال تعالى: {فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا} [(٤) سورة النساء].

قوله سبحانه: {وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا} أي: لا يحل لكم أيها الأزواج أن تأخذوا مما أعطيتم نساءكم من المهور أو غير المهور، مما اعتاد الناس في بعض أحوالهم على إعطائه للنساء وإن لم يعد ذلك من قبيل المهر، إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله.

يقول: {وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ} يعني لا يضايقها ويضارها حتى يرغمها على طلب الطلاق فتفتدي نفسها فترجع إليه المهر أو بعض المهر فهذا لا يحل، لكن إن تعذرت المعاشرة بين الزوجين، وكانت المرأة غير مطيقة للرجل فعندئذ لا جناح عليها أن تفتدي منه.

وأما تحديد الصداق المرجوع فمن أهل العلم من يقول: إن ذلك يكون بأقل من الصداق الذي أعطاه وبما لا يزيد عليه، ومنهم من يقول: إن ذلك لم يحد بحد كما قال الله -عز وجل-: {وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا} فيجوز لها أن تفتدي بأقل أو بأكثر أو بالمهر الذي دفعه لها، ولا يعلم دليل على تحديد شيء من ذلك، واستدل القائلون بالتحديد بقول النبي -صلى الله عليه وسلم- لامرأة ثابت بن قيس: ((أتردين عليه حديقته))[1]، والصواب أن دلالة الحديث ليس فيها ما يدل على عدم مشروعية أخذ أكثر من المهر المسمى بينهما، لكنه دليل على جواز الافتداء بالمهر وما دونه من باب أولى، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

[1] رواه البخاري في كتاب الطلاق – باب الخلع وكيفية الطلاق فيه برقم (٤٩٧١) (٥/٢٠٢١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (١٠١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وأما إذا تشاقق الزوجان ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته فلها أن تفتدي منه بما أعطاها، ولا حرج عليها في بذلها له، ولا حرج عليه في قبول ذلك منها، ولهذا قال تعالى: {وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ} [(٢٢٩) سورة البقرة] الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

المراد بحدود الله هو: ما أوجبه الله -عز وجل- من الحقوق بين الزوجين، فإذا كانت المرأة كارهة للرجل نافرة منه مبغضة له تخشى أن تضيع حقوقه أو يصدر منها عقوق تجاهه، مما مؤداه أن يعاملها بنفس المعاملة فيقع التقصير والتضييع من كل واحد من الطرفين فحينئذ لها أن تفتدي منه بما أعطاها، وهذا ما يسمى بالخلع وهو: ما كان بعوض عند عامة أهل العلم.

وأما إذا كان الرجل هو الذي لم يعد له رغبة في المرأة وأبغض عشرتها، فينبغي عليه أن يطلق إذا ترجحت المصلحة في ذلك، ولا يجوز له أن يطالبها بأن تفتدي منه، أو أن يضيق عليها من أجل أن تطلب الطلاق وتفتدي نفسها.

قوله سبحانه: {إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ} في بعض القراءات: بني الفعل خاف على المجهول {يُخافا} وهي قراءة متواترة قرأ بها حمزة من السبعة، وعليه فيكون هذا الخوف مبهم الجهة إما صادراً من الزوجين، أو صادراً من أهل الإيمان المحتفين بهم والمطلعين على أمرهم من أهل وقرابة، أو عقلاء الناس، أو يكون ذلك التخوف من قبل الولاة كالقاضي إذا عرض عليه ذلك، ورأى أن الحياة بهذه الطريقة قد تتعذر، فعند ذلك يحصل الخلع، ولأهل العلم كلام في إيقاع الخلع هل يكون عن طريق القاضي أو الحاكم، أو أنه يقع بين الزوجين ولو لم يوقعه حاكم؟ فمن ذهب إلى أن الخلع ليس بيد الزوجين قالوا: لأن الله -عز وجل- قال: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ} ولم يقل: فإن خافا، كما في جاء في الجملة قبلها للدلالة على أن المراد الحاكم أو العصبة المؤمنة، والمعنى فإن خفتم أيها الحكام، أو أيها المؤمنون...، وابن جرير -رحمه الله- يجعل الخطاب في الآية متوجهاً لأهل الإيمان، ويدخل فيهم القاضي ومن في معناه، والله أعلم.

ومن أهل العلم من يرى أنها منسوخة بالآية الأخرى وهي قوله -تبارك وتعالى-: {وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً} [(٢٠) سورة النساء]، إلا أن النسخ لا يثبت بالاحتمال كما هي القاعدة المعروفة، ويمكن الجمع بين الآيتين بالقول بأنه لا يجوز للرجل أن يأخذ مما أعطاها ونحلها من المهر مقابل ما استحل من بضعها شيئاً، إلا أنه يستثنى من ذلك إذا هي فرطت في حقوقه وكرهت مقامها

عنده أو طلبت الطلاق ابتداء فعندئذ له أن يأخذ منها ما تفتدي منه نفسها، وكذا إذا أعطته بمحض إرادتها وطيب نفسها دون إكراه وتخوف، والله أعلم.

فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه فقد روى ابن جرير عن ثوبان -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً في غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة))[1].

وهكذا رواه الترمذي وقال حسن.

وقد جاء عند الترمذي من حديث ثوبان -رضي الله عنه- مرفوعاً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((المختلعات هن المنافقات))[2]، وفي بعض الروايات: ((المختلعات والمنتزعات))[3]، فالمختلعات: يعني التي تطلب الخلع، وفسرت المنافقات بأنها المطيعة ظاهراً لا باطناً، ويحمل الحديث على المرأة التي تطلب الطلاق من غير مبرر معتبر، أما إذا لم توافقه ولم يحصل بينهما ملائمة، أو إذا رأته أصابها جذام القلب والقذى في عينها كما يقال فهذه أعذار تجعل للمرأة الحق في أن تطالب بالطلاق؛ لأنها ليست مكلفة ولا مطالبة بأن تمتحن وتعذب مع إنسان تبغضه، والإسلام ما جاء بالحرج على الناس والتضييق عليهم، فمثل هذه لا يلحقها الوعيد إذا طلبت الطلاق، لكن إذا كان له رغبة فيها فإنها تفتدي نفسها منه بالخلع كما أسلفنا.

وقد ذكر ابن جرير -رحمه الله تعالى- أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شماس -رضي الله تعالى عنه- وامرأته حبيبة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول -رضي الله تعالى عنها-.

وروى الإمام مالك في موطئه عن حبيبة بنت سهل الأنصارية -رضي الله تعالى عنها-: أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس.

اختلف في اسم امرأة ثابت بن قيس هل هي حبيبة بنت عبد الله، أو حبيبة بنت سهل الأنصارية؟ والله أعلم بالصواب.

وأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خرج إلى الصبح، فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في الغلس، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من هذه)) قالت: أنا حبيبة بنت سهل يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: ((ما شأنك؟)) فقالت: لا أنا ولا ثابت بن قيس -لزوجها-....

يعني لا نجتمع بحال من الأحوال.

فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هذه حبيبة بنت سهل قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر)). فقالت حبيبة: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كل ما أعطاني عندي،

---

[1] رواه الترمذي بدون قوله: ((زوجها)) برقم (١١٨٧) (٣/٤٩٣)، وأبو داود برقم (٢٢٢٨) (٢/٢٣٥)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (١١٨٧).

[2] رواه الترمذي برقم (١١٨٦) (٣/٤٩٢)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١١٦٢٧).

[3] رواه أحمد في مسنده برقم (٩٣٤٧) (٢/٤١٤)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف لانقطاعه.

فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((خذ منها))، فأخذ منها وجلست في بيت أهلها"[4]، وهكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي.

هذه الرواية دليل لمن رأى جواز أن تفتدي المرأة بالمهر كاملاً؛ لأنها قالت: كل ما أعطاني عندي، ويدعم هذا القول ما جاء في الرواية الأخرى عند البخاري ونصها:

وروى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالت: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما أعتب عليه في خلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أتردين عليه حديقته؟))، قالت: نعم، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اقبل الحديقة وطلقها تطليقة))[5]، وكذا رواه النسائي.

فالمرأة لم تذكر مبرراً لطلبها الطلاق إلا أمراً يتصل بمشاعرها، ومعنى قولها: إنها تكره الكفر في الإسلام محمول على كفران العشير كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عن النساء: ((وتكفرن العشير))، والمعنى أنها تبغضه، وتخشى أن يؤدي بغضها له إلى ضياع حقوقه، وهذا مبرر لقبول عذرها، والحديث حجة لمن قال بأن الخلع طلاق، وأن المختلعة تعتد عدة المطلقة.

روى الترمذي عن الرُبّيع بنت معوذ بن عفراء -رضي الله تعالى عنها-: أنها اختلعت على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأمرها أو أمرت أن تعتد بحيضة[6].

حديث الربيع ثابت صحيح وهو صريح في دلالته على أن المختلعة تعتد بحيضة، وجاء عند الترمذي وغيره أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر امرأة ثابت بن قيس أن تعتد بحيضة، فهذان دليلان صحيحان مرفوعان على أن من خالعت زوجها تعتد بحيضة، والمسألة فيها خلاف معروف، والله أعلم بالصواب.

وقوله: {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [(٢٢٩) سورة البقرة]، أي: هذه الشرائع التي شرعها لكم هي حدوده فلا تتجاوزوها، كما ثبت في الحديث الصحيح: ((إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم محارم فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها))(٧).

فلا يجوز للرجل أن يأخذ مما أعطاها شيئاً إلا بهذا القيد {أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ} وإلا صار معتدياً ومتجاوزاً، وهذه حدوده قد بينها فيما يتعلق بالعشرة بين الزوجين، وما يحل له أخذه وما لا يحل، وكيف يتم الخلاص من هذا النكاح الذي لم يتلاءم فيه الطرفان.

وقد استدل بهذه الآية على أن جمع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام، ويدل له حديث محمود بن لبيد -رضي الله تعالى عنه- الذي رواه النسائي في سننه أنه قال: أخبر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

---

[4] رواه أبو داود برقم (٢٢٢٩) (٢/٢٣٦)، والنسائي برقم (٣٤٦٢) (٦/١٦٩)، وأحمد برقم (٢٧٤٨٤) (٦/٤٣٣)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي برقم (٣٤٦٢)، وسنن أبي داود برقم (٢٢٢٧).

[5] رواه البخاري في كتاب الطلاق -باب الخلع وكيفية الطلاق فيه برقم (٤٩٧١) (٥/٢٠٢١)، والنسائي برقم (٣٤٦٣) (٦/١٦٩)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي برقم (٣٤٣٦).

[6] رواه الترمذي برقم (١١٨٥) (٣/٤٩١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (١١٨٥).

[7] - رواه الحاكم في المستدرك برقم (٧١١٤) (٤/١٢٩)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٣٥٢٠).

عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً، فقام غضبان ثم قال: ((أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟!))، حتى قام رجل فقال: يا رسول الله ألا أقتله"[8].

وموضع الدلالة في تحريم جمع الطلقات الثلاث بلفظ واحد في الآية هو قوله سبحانه: **{الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ}** [(٢٢٩) سورة البقرة]، وذلك لأن التعبير جاء بلفظ مرتان ولم يقل: طلقتان، كأنه يعني أن الطلاق يكون مرة بعد مرة، ثم بعدها إما **{إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ}**؛ لأن المقصود إما أن يراجع في العدة أو تنقضي العدة، فإذا انقضت العدة حصل الافتراق عندها **{لاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ}** [(٢٣٠) سورة البقرة].

وقوله تعالى: {فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ} [(٢٣٠) سورة البقرة] أي: إذا طلق الرجل امرأته طلقة ثالثة بعدما أرسل عليها الطلاق مرتين فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره، أي: حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح، فلو وطئها واطئ في غير نكاح ولو في ملك اليمين لم تحل للأول؛ لأنه ليس بزوج.

كأن تكون هذه المرأة مملوكة فتزوجها إنسان ثم طلقها طلاقاً بائناً، فلما بانت منه حل لسيدها وطؤها، فإن هذا الوطء لا يحلها لزوجها إذا أراد أن يراجعها، بل لا بد من اعتبار نكاح صحيح حتى يحل له نكاحها.

والنكاح في كتاب الله -عز وجل- يأتي لثلاثة معانٍ:

الأول: الوطء وهو أحد التفسيرات المشهورة لآية النور: **{الزَّانِي لَا يَنكِحُ إلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً}** [(٣) سورة النـــور]، ومال إليه جمع من أهل العلم سلفاً وخلفاً، وأما إذا فسرنا النكاح في آية النور بمعنى العقد فسيستشكل علينا كيف يجوز للزاني المسلم أن يتزوج مشركة، وكيف يجوز للمسلمة الزانية أن تتزوج مشركاً؟ ولذا بعض المفسرين جعل لفظ الشرك في الآية محمول على النكران لهذا الحكم، وهذا القول اختاره الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، ولكن إذا كان مقراً به معترفاً له إنما خالفه من الناحية العملية فتزوج زانية، فإن هذا العقد يكون محرماً ولا يصح زواجه؛ لأنه خالف شرط الكفاءة في العفاف، وهذا عليه جمع من أهل العلم، وهو مذهب الإمام أحمد وغيره.

وبعض أهل العلم يوجه الآية بتوجيه أبلغ منه، فيقول: إن الزواج أعظم المعاشرة، ولذلك يقال للزوج عشير، وإذا كانت المرأة تعلم أن زوجها يزني أو العكس، ثم بقيا على هذه العشرة دون انفصال التصق بأحدهما ما عرف به الآخر؛ لأن الله -عز وجل- يقول: **{إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ}** [(١٤٠) سورة النساء]، مع كونه لا يؤمن عليه أو عليها أن تقع في الزنا نكاية به، أو لفرط دياثته؛ لأن الزاني في الغالب تموت عنده الغيرة، وإذا وقعت امرأته في شيء من ذلك فتجده قد لا يحرك ساكناً.

الثاني: يطلق على مجرد العقد، وأوضح دليل على هذا قوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ}** [(٤٩) سورة الأحزاب] فسمى العقد نكاحاً مع أنه لم يدخل بها، وهذا لا إشكال فيه.

---

[8] رواه النسائي برقم (٣٤٠١) (٦/١٢٤)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي برقم (٣٤٠١).

الثالث: يطلق على مجموع الأمرين العقد والوطء؛ لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك))[9] والمقصود بالعسيلة لذة الجماع وهو أكمل إطلاقات النكاح.

وهكذا لو تزوجت ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول.

فلا بد من شرطين لزواج الرجل من مطلقته بعد الثالثة:

أولاً: أن يكون العقد صحيحاً، في وطء صحيح لا تشوبه أدنى شبهة زنا أو شبهه.

ثانياً: أن يكون نكاح رغبة لا تحليل، فقد لعن الله المحلِّل وهو من يسميه الفقهاء: "التيس المستعار"، والمحتال كما هي القاعدة يعامل بخلاف قصده، ولعل حكمة الشارع في بينونته منها بعد الثلاث ليحصل له شيئ من التوبيخ والتقريع جراء تهاونه وتساهله في أمر الطلاق، ذلك أن الذين اعتادت ألسنتهم الطلاق يكثرون من إيقاعه ولا يقفون عند حد.

روى مسلم في صحيحه عن عائشة –رضي الله تعالى عنها– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: سئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها، فتتزوج رجلاً فيطلقها قبل أن يدخل بها، أتحل لزوجها الأول؟ قال: ((لا، حتى يذوق عسيلتها))[10]، ورواه البخاري أيضاً[11].

وروى الإمام أحمد عن عائشة –رضي الله تعالى عنها– قالت: دخلت امرأة رفاعة القرظي وأنا وأبو بكر عند النبي –صلى الله عليه وسلم–، فقالت: إن رفاعة طلقني البتة، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني، وإن ما عنده مثل الهدبة وأخذت هدبة من جلبابها، وخالد بن سعيد بن العاص بالباب لم يؤذن له، فقال: يا أبا بكر، ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فما زاد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– على التبسم، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((كأنك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة، لا، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك))[12]، وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي، وعند مسلم أن رفاعة طلقها آخر ثلاث تطليقات.

والمراد بالعسيلة: الجماع لما رواه الإمام أحمد والنسائي عن عائشة –رضي الله تعالى عنها–: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((ألا إن العسيلة: الجماع))[13].

فصل: والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغباً في المرأة، قاصداً لدوام عشرتها كما هو المشروع من التزويج، فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلها للأول فهذا هو المُحلِّل الذي وردت الأحاديث بذمه ولعنه، ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة.

---

٩ رواه البخاري في كتاب الأدب –باب التبسم والضحك برقم (٥٧٣٤) (٥/٢٢٥٨)، ومسلم في كتاب النكاح –باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره ويطأها ثم يفارقها وتنقضي عدتها برقم (١٤٣٣) (٢/١٠٥٥).

10 رواه مسلم في كتاب النكاح –باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره ويطأها ثم يفارقها وتنقضي عدتها برقم (١٤٣٣) (٢/١٠٥٥).

11 رواه البخاري في كتاب الطلاق –باب من أجاز طلاق الثلاث برقم (٤٩٦١) (٥/٢٠١٤).

12 رواه البخاري في كتاب الأدب –باب التبسم والضحك برقم (٥٧٣٤) (٥/٢٢٥٨)، ومسلم في كتاب النكاح –باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره ويطأها ثم يفارقها وتنقضي عدتها برقم (١٤٣٣) (٢/١٠٥٥)، والترمذي برقم (١١١٨) (٣/٤٢٦)، والنسائي برقم (٣٤٠٩) (٦/١٤٦)، وأحمد برقم (٢٤١٠٤) (٦/٣٤).

13 رواه أحمد في مسنده برقم (٢٤٣٧٦) (٦/٦٢)، قال شعيب الأرنؤوط معلقاً على هذا الحديث: إسناده ضعيف.

روى الإمام أحمد عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: لعن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الواشمة والمستوشمة، والواصلة والمستوصلة، والمحلِّل والمحلَّل له، وآكل الربا وموكله[14].

ورواه الترمذي والنسائي، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

قال: والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة، منهم عمر وعثمان وابن عمر -رضي الله تعالى عنهم- وهو قول الفقهاء من التابعين، ويروى ذلك عن علي وابن مسعود وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- أجمعين.

وروى الحاكم في مستدركه عن نافع أنه قال: جاء رجل إلى ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً، فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه، هل تحل للأول؟ فقال: لا، إلا نكاح رغبة، كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وهذه الصيغة مشعرة بالرفع.

لأنه قال: كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأضاف ذلك إلى زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذه قرينة على الرفع، وهناك صورة أخرى يفعلها بعض الناس لتحليلها للزوج الأول، وذلك أن تعمد المرأة إلى رجل فتعرض عليه نفسها بمهر ضئيل، ثم بعد البناء بها والدخول عليها والوطء يأتي أحد أقاربها ويعرض على الرجل عرضاً مغرياً مقابل أن يطلق، وهذه صورة من صور التحليل المبطنة لا تجوز في الشرع.

وهكذا روى أبو بكر بن أبي شيبة والجوزجاني وحرب الكرماني وأبو بكر الأثرم عن قبيصة بن جابر عن عمر -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: لا أُوتى بِمُحلِّل ولا مُحَلَّل له إلا رجمتهما.

وقوله: {فَإِن طَلَّقَهَا} أي الزوج الثاني بعد الدخول بها، {فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا} أي: المرأة والزوج الأول، {إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ} أي: يتعاشرا بالمعروف، قال مجاهد: إن ظنا أن نكاحهما على غير دلسة، {وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ} أي: شرائعه وأحكامه، {يُبَيِّنُهَا} أي: يوضحها {لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}.

فالمعاشرة بالمعروف قيد مهم عند نية إرجاع الرجل المرأة إلى عصمته بعد طلاقها من الزوج الآخر غير المحلل، وبغير هذا القيد لا يحق له أن يرجع إليها أو يتزوجها؛ لأن الراجح أن من تزوجها بعد زوج فكأنه استأنف نكاحها من جديد، فيرجع إليها بثلاث طلقات شرعية، فقد يرجع إلى صنيعه الأول فيطلق، ثم يطلق، ثم يطلق، فيخالف مقصد الشرع من استدامة الحياة بينهما.

{وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النَّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [(٢٣١) سورة البقرة].

هذا أمر من الله -عز وجل- للرجال إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدتها، ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها.

---

[14] رواه النسائي برقم (٣٤١٦) (٦/١٤٩)، وأحمد برقم (٤٢٨٣) (١/٤٤٨)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي برقم (٥١٠٤).

عامة أهل التفسير على أن المراد من قوله -تبارك وتعالى-: {فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ} أي: قاربن بلوغ الأجل، ولم يبق لهن إلا مدة يسيرة وتنتهي عدتهن.

فإما أن يمسكها أي: يرتجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف وهو أن يشهد على رجعتها، وينوي عشرتها بالمعروف، أو يسرحها أي: يتركها حتى تنقضي عدتها، ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح، قال الله تعالى: {وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَّتَعْتَدُواْ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، ومجاهد ومسروق والحسن وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان وغير واحد: كان الرجل يطلق المرأة فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً؛ لئلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه فقال: {وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} أي: بمخالفته أمر الله تعالى.

وقوله تعالى: {وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا} روى ابن جرير عند هذه الآية عن أبي موسى -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- غضب على الأشعريين، فأتاه أبو موسى قال: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أغضبت على الأشعريين؟ فقال: يقول أحدكم: ((قد طلقت، قد راجعت، ليس هذا طلاق المسلمين، طلقوا المرأة في قُبُل عدتها))[15].

هذا الحديث صححه بعض أهل العلم مثل الشيخ: أحمد شاكر -رحمه الله-، ويحتج به من يفسر القَرْء بمعنى الطهر، وذلك لقوله -صلى الله عليه وسلم- ((طلقوا المرأة في قُبُل عدتها)) أي: طلقوها في طهر لم تجامع فيه، كما قال الله -عز وجل-: {إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} [(١) سورة الطلاق].

وأما غضب النبي -صلى الله عليه وسلم- على الأشعريين؛ فلأنهم كانوا يطلقون طلاقاً غير منضبط بالضوابط الشرعية، وهو ما يفهم من قوله: ((قد طلقت، قد راجعت، ليس هذا طلاق المسلمين)) ومثله أن يطلق في طهر جامعها فيه، أو يطلقها وهي حائض أو نفساء فهذا يسمى طلاقاً بدعياً لا يجوز في الشرع، وقد يتساهل البعض في إطلاق لفظ الطلاق إما مازحاً أو لكونه لم يتزوج أو... فهولاء يشملهم عتاب الله لهم في قوله: {وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا}؛ لأن الطلاق من الأحكام الشرعية، ولذا عده النبي -صلى الله عليه وسلم- من الثلاث اللاتي جدهن جد، وهزلهن جد، فلا يحل لأحد التلاعب به، أو الإتيان به على سبيل العبث، ويدخل في هذا ما شأنه التلاعب بالألفاظ الشرعية، أو ما يكون فيه الامتهان لكتاب الله -عز وجل- أيا كانت صورته وشكله، فكلها قد حذر الله فاعلها منها بقوله: {وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا}.

وقال مسروق: هو الذي يطلق في غير كنهه، ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها؛ لتطول عليها العدة.

كنه الأمر حقيقته، وقد يطلق على مقداره أو غايته، والمراد أنه يضار المرأة بطلاق أو ارتجاع في غير غايته، مثل أن يطلق في طهر جامع فيه.

وقال الحسن وقتادة وعطاء الخرساني والربيع ومقاتل بن حيان: هو الرجل يطلق ويقول: كنت لاعباً، أو ينكح ويقول: كنت لاعباً فأنزل الله: {وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا} فألزم الله بذلك.

---

[15] مصنف ابن أبي شيبة (٤/٣) بلفظ أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وجد عليهم، فأتاه فذكر ذلك له فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول أحدكم: قد زوجت قد طلقت، وليس كذا عدة المسلمين، طلقوا المرأة في قُبل عدتها)).

كل هذا داخل في اتخاذ آيات الله هزواً، وعدم التزام حدود الله -تبارك وتعالى-.

وقوله: {وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ} أي: في إرساله الرسول بالهدى والبينات إليكم، {وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ} أي: السنة، {يَعِظُكُم بِهِ} أي: يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم، {وَاتَّقُواْ اللّهَ} أي: فيما تأتون وفيما تذرون، {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} أي: فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية، وسيجازيكم على ذلك.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (١٠٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [(٢٣٢) سورة البقرة].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين فتنقضي عدتها، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها وتريد المرأة ذلك، فيمنعها أولياؤها من ذلك فنهى الله أن يمنعوها.

وكذا روى العوفي عنه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أيضاً، وكذا قال مسروق وإبراهيم النخعي والزهري والضحاك: إنها أنزلت في ذلك، وهذا الذي قالوه ظاهر من الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ}** بلوغ الأجل في هذه الآية غير بلوغ الأجل في الآية التي قبلها وهي قوله سبحانه: **{وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ}** [(٢٣١) سورة البقرة] إذ معنى بلوغ الأجل في قوله سبحانه: **{وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ}** أي: انقضاء العدة إذا طلقها طلاقاً رجعياً وبانت منه، ثم وجدت الرغبة بين الزوجين في أن يرجع كل واحد منهما إلى صاحبه فلا ينبغي عضلهن عن ذلك، وهذا دليل على أن اللفظة الواحدة قد تستعمل في معانٍ متعددة.

وتباينت أقوال المفسرين في المعنيِّ بالخطاب في قوله سبحانه: **{وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ}** فقيل: إن المراد إذا طلقتم أيها الأزواج النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن يعني أيها الأولياء، والسياق يدل على هذا المعنى دلالة ظاهرة، وإن اختلف المقصود بالخطاب في أوله وآخره، واختاره عامة أهل العلم بما فيهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، وهو الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا ونقله عن جماعة.

ومن أهل العلم من رأى توحيد وجهة الخطاب فحمله على الأولياء في الأول والآخر، والمعنى إذا طلقتم أيها الأولياء النساء فلا تعضلوهن، وعللوا ذلك بقولهم: إنه لما كان الطلاق ناتجاً عن عقد النكاح، ثم بعد ذلك ترتب على هذا التزويج الطلاق، أضيف الطلاق إليهم بهذا الاعتبار، وهذا نوع من التكلف حملهم على اعتباره أنهم أرادوا أن يوحدوا وجهة الخطاب.

وقيل: إن وجهة الخطاب واحدة والمقصود بها الأزواج، والمعنى إذا طلقتم أيها الأزواج النساء فبلغن أجلهن فلا تمنعونهن من التزويج، وذلك على طريقة بعض العظماء، أو بعض من عندهم حمية الجاهلية، فإذا طلق المرأة فإنه لا يمكنها –بسلطانه– مَن ليس له سلطان، وإنما جعلوا الخطاب للزوج الأول وهي قد بانت منه باعتبار ما كان، وكذا أطلقوا على الخاطب الجديد زوجاً باعتبار ما سيكون من النتيجة والعاقبة.

والحقيقة أن سبب النزول بين المقصود من الخطاب في الآية فلذا يرجع إليه، ولقد كان من فوائد سبب النزول أنه يوضح المعنى ويرفع الإشكال على درجات متفاوتة، فطالما هذه الاحتمالات موجودة وإن كانت ضعيفة في نظرنا، إلا أن سبب النزول يجلي المراد، ولا يمنع هذا من تفريق الخطاب؛ لأن السياق يدل على الجميع، وليس في هذا إخلال لا من جهة اللغة ولا من جهة البلاغة.

قوله: **{إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ}** الضمير جاء بصيغة الجمع، والمراد الرجل والمرأة إذا اصطلحوا على ما يحصل به التراضي على قدر معين يستحل به الرجل بضع المرآة، ويدخل فيه ما يختص بالمهر وما يتعلق بسواه كالسكنى والمعاملة والحقوق وما أشبه ذلك كما يذكر ابن جرير –رحمه الله–. والله أعلم.

وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها، وأنه لابد في تزويجها من ولي.

لأن الخطاب في قوله: **{فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ}** للأولياء، مما يؤكد على أن المرأة ليس أمرها بيدها، بل لا بد في تزويجها من ولي، وإلا فلا معنى من الإشارة إليه في الآية.

كما قاله الترمذي وابن جرير عند هذه الآية، كما جاء في الحديث: ((لا تزوج المرأة المرأة، ولا تزوج المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها))[1].

وفي الأثر الآخر: "لا نكاح إلا بولي مرشد وشاهدي عدل"[2].

أصل الحديث رواه عن النبي –صلى الله عليه وسلم– جماعة من الصحابة كابن عباس وأبي موسى الأشعري وأبي هريرة –رضي الله عنهم–... وغيرهم، وهو حديث ثابت مشهور صح من وجوه متعددة.

وقد روي أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار المزني وأخته –رضي الله تعالى عنهما–، فقد روى البخاري –رحمه الله– في كتابه الصحيح عند تفسير هذه الآية، أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها، فتركها حتى انقضت عدتها فخطبها فأبى معقل، فنزلت: {فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ}[3] وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه من طرق متعددة عن الحسن عن معقل بن يسار به، وصححه الترمذي أيضاً، ولفظه عن معقل بن يسار: أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب، فقال له: يا لكع، أكرمتك بها وزوجتك فطلقتها، والله لا ترجع إليك أبداً آخر ما عليك، قال: فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها، فأنزل الله: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ

---

[1] – رواه ابن ماجه برقم (١٨٨٢) (٦٠٦/١)، وصحح الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير هذا الحديث دون قوله: ((فإن الزانية هي التي تزوج نفسها)) فحكم بضعفها برقم (١٣٢٥٤).

[2] رواه البيهقي في السنن الكبرى عن ابن عباس برقم (١٣٤٢٨).

[3] رواه البخاري في كتاب التفسير –باب تفسير سورة البقرة برقم (٤٢٥٥) (١٦٤٥/٤).

النِّسَاء}، إلى قوله: {... وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}، فلما سمعها معقل قال: سمعاً لربي وطاعة، ثم دعاه فقال: أزوجك وأكرمك[٤] زاد ابن مردويه: وكفرت عن يميني.

وجاء في بعض الروايات أنها نزلت بسبب جابر بن عبد الله -رضي الله عنه-، وأياً كان سبب النزول فإن الروايات تعاضدت على أن العضل غالباً ما يكون من قبل الأولياء كما نص عليه الجمهور.

وقوله: {ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} أي: هذا الذي نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف، يأتمر به ويتعظ به وينفعل له من كان منكم أيها الناس {يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} أي: يؤمن بشرع الله ويخاف وعيد الله وعذابه في الدار الآخرة وما فيها من الجزاء، {ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ} أي: اتباعكم شرع الله في رد الموليات إلى أزوجهن، وترك الحمية في ذلك أزكى لكم وأطهر لقلوبكم، {وَاللّهُ يَعْلَمُ} أي: من المصالح فيما يأمر به وينهى عنه، {وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} أي: الخيرة فيما تأتون ولا فيما تذرون.

إنما كان الخطاب في قوله: {فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ...} للأولياء للدلالة على أن الأولياء في الغالب هم من يقفون حجر عثرة أو حاجزاً حائلاً دون رجوع المرأة إلى زوجها المطلقة منه طلاقاً بائناً، وغالباً ما يصحب هذا الطلاق تكدر الأجواء بين أهل المرأة وأهل الرجل، خاصة أن المرأة تُظهر بعد طلاقها كل ما أخفته وما لم يطلع عليه وليها من معاملات زوجها ومواقفه معها طيلة فترة التصاقه بها، يدفعها لذلك صدمة الطلاق، أو كون الأمور قد بلغت مداها، مما يزيد الشحناء في القلوب، ويبعث على البغضاء، ويذكي نار الغل في النفوس فتسكنها النفرة والامتعاض، ويجعل الولي يصر على الحيلولة بينه وبين رجوعه إليها، وهذا يخالف المقصد الشرعي في استدامة الحياة بينهما؛ لأن الرجل قد يرجع إلى صوابه، وكذا المرأة تعود إلى رشدها بعدما تنتهي ثورة الغضب في النفوس فيفكرا بعودة الحياة بينهما لا سيما إذا كان لهما ذرية وأولاد، فإذا وقف الأولياء موقفاً مضاداً خالفوا أمر الشارع في ذلك؛ لأنه قال: **{فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}** ثم أشار الله -عز وجل- إلى الحكمة من رد الموليات إلى أزواجهن وتذليل الأولياء العقبات في حال ما إذا قررا أن يجددا العشرة بينهما فقال -عز وجل-: **{ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ}**، ولقد أشار ابن جرير إلى هذه اللفتة الرائعة بقوله: يعني -تعالى ذكره- بقوله: **{ذَلِكُمْ}** أي: نكاحهن أزواجهن، ومراجعة أزواجهن إياهن بما أباح لهن من نكاح ومهر جديد **{أَزْكَى لَكُمْ}** أيها الأولياء والأزواج والزوجات...، ثم قال: ويعني بقوله: **{أَزْكَى لَكُمْ}** أي: أفضل وخير عند الله من فرقتهن أزواجهن.

وأما قوله: **{وَأَطْهَرُ}** فإنه يعني بذلك: أطهر لقلوبكم وقلوبهن وقلوب أزواجهن من الريبة؛ وذلك أنه إذا كان في نفس كل واحد منهما -أعني الزوج والمرأة- علاقة حب لم يؤمن أن يتجاوزا ذلك إلى غير ما أحله الله لهما،... فأمر الله -تعالى ذكره- الأولياء إذا أراد الأزواج التراجع بعد البينونة بنكاح مستأنف في الحال التي أذن الله لهما بالتراجع أن لا يعضل وليته عما أرادت من ذلك وأن يزوجها؛ لأن ذلك أفضل لجميعهم، وأطهر لقلوبهم مما يخاف سبوقه إليها من المعاني المكروهة.

---

4 - رواه الترمذي برقم (٢٩٨١) (٥/٢١٦)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٩٨١).

ثم أخبر –تعالى ذكره– عباده أنه يعلم من سرائرهم وخفيات أمورهم ما لا يعلمه بعضهم من بعض، ودلهم بقوله لهم ذلك في هذا الموضع: إنه إنما أمر أولياء النساء بإنكاح من كانوا أولياءه من النساء إذا تراضت المرأة والزوج الخاطب بينهم بالمعروف، ونهاهم عن عضلهن عن ذلك؛ لما علم مما في قلب الخاطب والمخطوب من غلبة الهوى والميل من كل واحد منهما إلى صاحبه بالمودة والمحبة، فقال لهم –تعالى ذكره– : افعلوا ما أمرتكم به إن كنتم تؤمنون بي وبثوابي وبعقابي في معادكم في الآخرة، فإني أعلم من قلب الخاطب والمخطوبة ما لا تعلمونه من الهوى والمحبة، وفعلكم ذلك أفضل لكم عند الله ولهم، وأزكى وأطهر لقلوبكم وقلوبهن في العاجل" فهذا ملحظ جيد ذكره ابن جرير –رحمه الله–.

{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [(٢٣٣) سورة البقرة].

هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة وهي سنتان، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك.

الخطاب في الآية جاء بصيغة خبرية مضمنة معنى الأمر، فهو أمر بصيغة الخبر **{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ}**، ومن أهل العلم من يرى أن الخطاب في الآية خبر محض، وهذا القول فيه نظر.

والآية خاصة بالمطلقات فقط كما قال به جماعة من المفسرين والفقهاء، واختار هذا القول ابن جرير الطبري –رحمه الله–، وقالوا: إن المرأة تعطى أجرة مقابل الرضاع يعطيها الزوج أو وارث الزوج في حال وفاته، أو يؤخذ من تركة الصبي، فإن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى، فإن لم تقبل أجبرت أمه على الرضاع بالأجر.

ولهذا قال: {لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ} فلا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين.

ظاهر الآية واضح في تحديد أمد الرضاع إلى الحولين لمن أراد أن يتم الرضاع ويجوز فطامه قبل ذلك، وبعض أهل العلم يرى أن المراد بيان الرضاع التام لمن أراد أن يكمله، وإلا فإن الرضاع قد يحصل بعد ذلك وهذا فيه نظر؛ لأن الرضاعة المؤثرة التي يكون بها نبات العظم واللحم تنتهي في الحولين.

ومن أهل العلم من قال: إن الله –عز وجل– يقول: **{وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا}** [(١٥) سورة الأحقاف] فلا يبقى إذا حذفنا مدة الرضاع –حولين– إلا ستة أشهر للحمل، فلو كان الحمل تسعة أشهر فلا يبقى للرضاع من الثلاثين شهراً إلا واحداً وعشرين شهراً، وهذا يعني أنه رضع أقل من أربع وعشرين شهراً، ولهذا بعض أهل العلم ذكر أن هذا يتفاوت بحسب مدة الحمل، فإذا كان الحمل ستة أشهر فالرضاع يكون في سنتين، وإذا كان الحمل في تسعة أشهر فينقص من الثلاثين قدراً؛ لأن الله ذكر المجموع بالثلاثين ولكن هذا فيه نظر؛ والصواب أن الرضاع يكون في عامين لقوله–سبحانه–: **{وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ}** [(١٤) سورة لقمان]، وأما تحديد الثلاثين شهراً للحمل والرضاع في الآية فالمراد به التنويه على أدنى مدة الحمل، والعلم عند الله –عز وجل.

وهذه المسألة يترتب عليها أحكام، إذا رضع بعد الحولين هل يؤثر فيه أو ما يؤثر؟ لكن ما ذكره أهل العلم في هذا أن الرضاع بعد الحولين يضر الولد في عقله وبدنه.

وأما مسألة رضاع الكبير في قصة رضاعة سالم مولى أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة وهو كبير، عندما تبناه أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة -رضي الله عنه- كما تبنى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- زيد بن حارثة، وأنكح أبو حذيفة سالماً -وهو يرى أنه ابنه- أنكحه بنت أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة وهي يومئذ من المهاجرات الأول، ومن أفضل أيامى قريش، فلما أنزل الله -تعالى- في زيد بن حارثة ما أنزل فقال: **{ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ}** [(٥) سورة الأحزاب] رُد كل واحد من أولئك إلى أبيه، فمن لم يُعلم له أب رد إلى مولاه، فجاءت سهلة بنت سهيل -رضي الله عنها- امرأة أبي حذيفة من بني عامر بن لؤي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالت: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، إنا كنا نرى سالماً ولداً، وكان يأوي معي ومع أبي حذيفة في بيت واحد ويراني فُضْلاً وقد أنزل فيه ما علمت، فكيف ترى فيه؟ فقال لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أرضعيه تحرمي عليه ويذهب الذي في نفس أبي حذيفة))، فأرضعته خمس رضعات فكان بمنزلة ولدها من الرضاعة[5] وقد ذهب عامة علماء المسلمين من الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة إلى أن رضاع الكبير وهو من تجاوز السنتين -سن الرضاع- لا أثر له في ثبوت المحرمية، وحملوا هذا الحديث على الخصوصية، أو أنه قد نسخ حكمه بما ثبت من أدلة أخرى.

وأما عائشة -رضي الله عنها- وقد وافقها بعض السلف- فكانت ترى بأن رضاع الكبير يؤثر في المحرمية أخذاً من هذا الحديث، ولهذا كانت تأمر بنات أخواتها وبنات إخوتها أن يرضعن من أحبت عائشة أن يراها ويدخل عليها وإن كان كبيراً خمس رضعات ثم يدخل عليها، وأبت أم سلمة وسائر أمهات المؤمنين أن يدخلن عليهن بتلك الرضاعة أحداً من الناس حتى يرضع في المهد، وقلن لعائشة: والله ما ندري لعلها كانت رخصة من النبي -صلى الله عليه وسلم- لسالم دون الناس.

وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- توسط في هذه المسألة، فهو يرى أن رضاع الكبير يجوز إن احتيج إلى جعله ذا محرم للحاجة، وتعقب ذلك بقوله: وقد يجوز للحاجة ما لا يجوز لغيرها، وهذا الكلام فيه نظر، والله أعلم بالصواب.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

---

[5] - رواه البخاري في كتاب النكاح - باب الأكفاء في الدين برقم (٤٨٠٠) (٥/١٩٥٧)، ورواه مسلم بلفظ مقارب في كتاب الرضاع - باب رضاعة الكبير برقم (١٤٥٣) (٢/١٠٧٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (١٠٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة وهي سنتان، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك ولهذا قال: {لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ} [(٢٣٣) سورة البقرة]، فلا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم.

قال الترمذي: باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر دون الحولين.

ثم روى عن أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام))[١]، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وغيرهم أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين، وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرم شيئاً.

قلت: تفرد الترمذي برواية هذا الحديث، ورجاله على شرط الصحيحين.

ومعنى قوله: ((إلا ما كان في الثدي)) أي: في محل الرضاعة قبل الحولين، كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن البراء بن عازب -رضي الله تعالى عنه- قال: لما مات إبراهيم ابن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن ابني مات في الثدي، إن له مرضعاً في الجنة))[٢].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد مضى الكلام على قوله تعالى: **{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ}** وما يتعلق به من مسائل، مما يغنينا عن الإعادة.

لكن ينبغي أن نفهم أن مراده -صلى الله عليه وسلم- في قوله: ((ما كان في الثدي)) أي: ما كان في فترة الرضاع، وهي في العامين الأولين من حياة الطفل، ولذا إذا قيل: فلان لازال في الثدي، فإنهم يعنون بذلك أنه لم يتجاوز فترة الرضاع، والله أعلم.

ويؤيده ما رواه الدارقطني عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين))[٣].

قلت: وقد رواه الإمام مالك في الموطأ عن ثور بن زيد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- مرفوعاً.

---

[1] - رواه الترمذي برقم (١١٥٢) (٣/٤٥٨)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١٣٥٩١).

[2] - رواه أحمد في مسنده برقم (١٨٦٨٦) (٤/٣٠٠)، ورواه البخاري عن البراء -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال -لما مات إبراهيم -: ((إن له مرضعاً في الجنة)) في كتاب بدء الخلق -باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة برقم (٣٠٨٢) (٣/١١٨٨).

[3] - رواه الدارقطني بلفظ ((لا رضاع إلا ما كان...)) (١٠) (٤/١٧٤).

ورواه الدراوردي عن ثور عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وزاد: ((وكان بعد الحولين فليس بشيء))[٤] وهذا أصح.

وقد روي في الصحيح عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: أنها كانت ترى رضاع الكبير يؤثر في التحريم، وهو قول عطاء بن أبي رباح، والليث بن سعد، وكانت عائشة -رضي الله تعالى عنها- تأمر بمن تختار أن يدخل عليها من الرجال لبعض نسائها فترضعه، وتحتج في ذلك بحديث سالم مولى أبي حذيفة -رضي الله تعالى عنه-: حيث أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- امرأة أبي حذيفة أن ترضعه وكان كبيراً، فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة، وأبى ذلك سائر أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-، ورأين ذلك من الخصائص وهو قول الجمهور.

وهذا جاء صريحاً في بعض الروايات عن أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- أنها أنكرت ذلك على عائشة -رضي الله عنها- ورأت أن ذلك مختص بسالم مولى أبي حذيفة -رضي الله عنه-، وهذا الذي سار عليه جماهير العلماء سلفاً وخلفاً أن رضاع الكبير لا يؤثر في المحرمية، إلا أن شيخ الإسلام يرى جواز ذلك للحاجة، وأن الواقعة ليس فيها دليل على اختصاصها بسالم، والعلم عند الله.

وقوله: {وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف.

قيل: الآية عامة في عموم النساء، وبعض أهل العلم يرى أن الآية خاصة بالمطلقات، والأصل أنه لا يلزمها إرضاع ولدها في حال الخيار، ولها الحق أن تأخذ أجرة مقابل هذا الإرضاع، وتطالب بالكسوة والنفقة، وأوجب العلماء عليها إرضاع ابنها في صور معدودة منها:

- إذا لم يقبل الرضاع إلا من ثدي أمه.
- إذا كان الأب معدماً فقيراً لا يملك نفقة المرضعة.
- إذا فقدت المرضعات في البلد بعد البحث والتحري.

وهنا مسألة: إن ثبت أن الأب موسر والمراضع حاضرات فهل يجب على المرأة غير المطلقة أن ترضع الولد، وأن تطالب بالنفقة؟ أم أن هذا يختلف من امرأة لامرأة؟ كأن يقال الشريفة لا يجب عليها الإرضاع، والمرأة التي دونها في الشرف والمرتبة يجب عليها الإرضاع فيفرق بين النساء بهذا الاعتبار، هذه مسائل معروفة محلها الفقه.

لكن من رأى عموم الآية في المطلقات وغيرهن كالإمام أحمد وإسحاق بن راهويه ومن وافقهم، فإنهم لا يوجبون على المرأة أن ترضع الولد إلا في الحالات المذكورة، وبعضهم يخص الوجوب في أول الولادة حيث يكون لبن الأم اللِّبَأ؛ إذ يرون أنه لا غنى للصبي عنه أو للمولود بحال.

وبعضهم قال بالنسخ كما ينقل ابن عطية ويرويه عن قتادة أنه نزل أولاً: **{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ...}** ثم نسخت بقوله تعالى: **{لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ}** إلا أن هذا القول متداع وضعيف؛ لأن الشيء إنما ينسخ بنقيضه، وما محمله هنا إلا أنّه نسخ في الأخف.

---

[4] - رواه البيهقي في السنن الكبرى برقم (١٥٤٤٥) (٧/٤٢٦).

وآية سورة الطلاق واضحة الدلالة: **{وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى}** [(٦) سورة الطلاق] فهي تدل على أن المطلقة لا شك أنها تستحق أجر الرضاعة، وأما غير المطلقة فهذا محل خلاف، ولعل الأقرب -والله أعلم- أن المرأة لا يجب عليها إرضاع الولد، ومن حقها أن تطالب بالنفقة والأجرة، والله أعلم.

وقوله: {وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أي: بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته في يساره وتوسطه وإقتاره كما قال تعالى: {لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} [(٧) سورة الطلاق].

في القرآن أشياء كثيرة أحال فيها على العرف منها هذه الصورة، والعرف يختلف بحسب الزمان والمكان، وحال الرجل وحال المرأة من الإعسار والإيسار، ويختلف من وقت إلى آخر، ومن بلد إلى بلد غيره، والعلماء تكلموا في المقدار الذي تعطاه الأم المرضعة فقالوا: ما اعتادت عليه في بيت أهلها من اللباس والطعام والسكنى فإن ذلك يطلب منه.

قال الضحاك: إذا طلق زوجته وله منها ولد فأرضعت له ولده، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف.

وكلام الضحاك يعني به المرأة المطلقة.

وقوله: {لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا} أي: بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللِّبَأ الذي لا يعيش بدون تناوله غالباً، ثم بعد هذا لها دفعه عنها إن شاءت، ولكن إن كانت مضارة لأبيه فلا يحل لها ذلك كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضِّرار لها، ولهذا قال: {وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ}.

قوله -تبارك وتعالى-: **{لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا}** يحتمل معنيين من جهة التصريف:

الأول: لا تُضارِرُ بالرفع، ويكون ذلك على سبيل الإخبار، ويمكن أن تتضمن معنى النهي.

الثاني: لا تُضارِرَ بالنصب، ويكون ذلك على سبيل النهي، وكل واحد من هذين المعنيين تشهد له قراءة غير متواترة يمكن حمل معنى الآية عليها، وهذا الحمل يعتبر من قبيل المشترك اللفظي السائر على طريقة القرآن في التعبير عن الشيء بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فالأم منهية أن تضار والد الصبي، وكذا والده منهي عن مضارة الأم، وهذا القول ذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (١٠٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ}، قيل: في عدم الضرار لقريبه، قاله: مجاهد والشعبي والضحاك، وقيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل، والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور، وقد استقصى ذلك ابن جرير في تفسيره.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيُحتمل في المراد بقوله سبحانه: **{وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ}** شيئان:

الأول: وارث الصبي إذا مات الوالد مثل ذلك: يعني في عدم المضارة، والمعنى أنها مأمورة بأن لا تلحق الضرر بالولد، ووالد الصبي ووارثه -في حال موت والده- مأموران بأن لا يلحقا الضرر بهذه المرأة بسبب الصبي، فهذا الجزء من الآية يتحدث عما قبله مباشرة **{لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ}** أي: في عدم المضارة.

الثاني: يحتمل أن يكون المراد من قوله: **{وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ}** أي: من النفقة والأجرة التي تكون بسبب هذا الرضاع، سواء قلنا بأن الورثة هم الذين تولوا أمر هذا الصبي بعد موت الأب، أو وارث والد الصبي، أو وارث الصبي نفسه من أحد الأبوين، أو أن المقصود وارث المرضعة فهذه احتمالات وأقوال في المراد بالآية، وخلاصة القول: إن من تولى الصبي في تصريف شئونه فعليه ألا يلحق الضرر بالآخر، وعليه أن يدفع النفقة للأم المرضعة.

وهذا الاحتمال باعتبار أن الإشارة ترجع إلى المعنى الذي سيقت الآية من أجله، وهو ما يتعلق بالرضاع وأجرته ونفقته، لا إلى الأقرب من المذكورات وهو عدم الضرر.

وأما إذا جعلنا الإشارة في الآية إلى أقرب المذكورات فيكون المراد من الآية عدم الضرر، وهذا أحد المعنيين اللذين نقلهما ابن كثير قال: قيل: في عدم الضرار لقريبه قاله مجاهد والشعبي والضحاك، واختاره القرطبي -رحمه الله-.

ويمكن أن تحمل الإشارة على المعنيين وهو ما نقله ابن كثير عن الجمهور بقوله: وقيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل، والقيام بحقوقها، وعدم الإضرار بها فهذا القول بناءً على جمع المعنيين، كأنه جعل الآية سيقت لتقرير هذا المعنى، أن الأم ترضع الولد ويتحمل النفقة الأب، ولا يحق لأحدهما أن يلحق الضرر بالآخر، وهذا من أحسن ما يكون في التفسير أن يجمع بين المعاني.

ومثل ما يمكن أن تحمل الإشارة فيه على المعنيين ما جاء في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء}** [(٢٥٥) سورة البقرة] فالآية تحتمل المعنيين: بعلم الله، أو بعلم ما بين أيديهم وما خلفهم،

وبين المعنيين ملازمة مفادها: أنهم إذا كانوا لا يحيطون بشيء من علم الله، ومن علم ما بين أيدهم وما خلفهم فالإحاطة بعلم الله -عز وجل- من باب أولى، والأمثلة في هذا الباب كثيرة.

وبعض أهل العلم يقول: الآية منسوخة، والقاعدة الأصولية أن النسخ لا يثبت بالاحتمال.

وبعضهم يقول: هذه الآية في المطلقة، والصواب خلافه؛ لأن الله -عز وجل- يقول: {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}، ويقول في نفس الآية: {وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى} [(٦) سورة الطلاق].

وهذه الآية -بالمناسبة- يحتج بها بعض الفقهاء -رحمهم الله- على جواز دفع النفقة للقريب كالأب والأم، والمسألة فيها تفصيل:

فإذا كانت الزكاة للأصول والفروع فالإجماع منعقد على أنها لا تعطى للأصول والفروع، وإن علوا أو نزلوا. وأما إذا كانت للحواشي كالأخ والأخت فالتفصيل قائم عند طائفة من أهل العلم وأن ذلك بحسب حال هذا المعطى، فإن كان المعطي يرثه فإنه لا يعطيه، مثل مسألة هلك هالك عن أخ وأب فيجوز أن يعطى الأخ من الزكاة؛ لأنه محجوب بالأب، بخلاف لو هلك هالك عن أخ وبنت فإنه يرث في هذه الصورة فلا يعطى من الزكاة واستدلوا على هذا بقوله: {وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ} بناءً على تفسير هذه الآية بالنفقة، إذ لو فسرناها بعدم الضرر فلا وجه للاستدلال، قالوا: فجعل ذلك حقاً على الوارث -يعني أجرة ونفقة المرضعة أو الأم-.

وقد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد إما في بدنه أو عقله، وقال سفيان الثوري: عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة أنه رأى امرأة ترضع بعد الحولين فقال: لا ترضعيه.

لأنها رضاعة في غير محلها، وهذا ليس محل اتفاق بين أهل العلم فقد خالف ابن القيم -رحمه الله- وذكر بأن الطفل ينتفع بالرضاع بعد الحولين، ويحسن على الأقل أن يرضع إلى منتصف السنة الثالثة، وأحسن ما يكون الفطام في وقت الاعتدال -الخريف أو الربيع-، أما الربيع فلأنه يستقبل الصيف، وأما الخريف فلأنه يستقبل الشتاء فيكون نهمه للطعام أكثر منه في الصيف فتكون الحرارة الغريزية أوفر، والناس بحاجة إلى الطعام في الشتاء أكثر من حاجتهم إليه في الصيف، وكذلك أيضاً في الجماع عندهم من القدرة عليه والنهم به أعظم ما يكون في الصيف، وذلك لوفور الحرارة الغريزية.

وقوله تعالى: {فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا} [(٢٣٣) سورة البقرة] أي: فإن اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين ورأيا في ذلك مصلحة له، وتشاورا في ذلك، وأجمعا عليه، فلا جناح عليهما في ذلك، فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر قاله الثوري وغيره، وهذا فيه احتياط للطفل وإلزام للنظر في أمره، وهو من -رحمة الله- بعباده حيث حجر على الوالدين في تربية طفلهما، وأرشدهما إلى ما يصلحهما ويصلحه كما قال في سورة الطلاق: {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى} [(٦) سورة الطلاق].

وقوله تعالى: {وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ} أي: إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يستلم منها الولد إما لعذر منها، أو لعذر له فلا جناح عليها في بذله، ولا

عليه في قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف، قاله غير واحد.

ويحتمل أن يكون المراد بالتسليم من المسالمة والتراضي بينهما بإرضاع الولد من مرضعة غير الأم، وهذا القول فيه بعد؛ لأن دلالة الآية واضحة في ثبوت أجرة الإرضاع للأم إذا أبته إلا بمقابل، ولذلك جاءت نسبة الولد في الآية للأب لتقرير أحقية الأم في مطالبة ولي الولد بأجرة الإرضاع قال سبحانه: **{وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ}** والأكمل والأحسن أن لا تأخذ الأجرة مقابل إرضاعه إكراماً لولدها وإحساناً للعشرة مع زوجها، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَاتَّقُواْ اللّهَ} أي: في جميع أحوالكم، {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} أي: فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم.

ويدخل في طلب تقواه ما يتصل بإرضاع الولد وعدم إلحاق الضرر بأمه، أو بوالد الصبي أو وارثه، وهذا التفسير جارٍ على عادة السلف في ربط المعنى بأقرب مذكور، والمعنى واتقوا الله فيما ذكر من الأمور السالفة.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [(٢٣٤) سورة البقرة].

هذا أمر من الله للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع، ومستنده في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة.

ينص الفقهاء -رحمهم الله- على حكمة العدة للمتوفى عنها زوجها فيذكرون في كثير من الأحيان قضية استبراء الرحم، والملاحظ أن العدة ليست فقط لمجرد استبراء الرحم؛ لأن المرأة قد يتوفى عنها زوجها قبل الدخول بها، ويذكر الفقهاء لذلك صوراً عديدة منها: لو تزوج مشرقي بمغربية ما رآها قط ثم مات عنها، فيوجبون عليها العدة لأمرين:

الأول: لاستبراء الرحم، وثانياً: مراعاة لحق الزوج وحرمته، وهذه القضية ليست في كل الحالات، بدليل أن المرأة إذا مات عنها زوجها ثم وضعت الحمل تنتهي عدتها بمجرد وضع الحمل، ولو كان بعد الوفاة بلحظة على قول الجمهور.

وهذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذي أن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها، فترددوا إليه مراراً في ذلك فقال: أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه، لها الصَداق كاملاً، وفي لفظ: لها صَداق مثلها لا وكس ولا شطط، وعليها العدة ولها الميراث، فقام معقل بن يسار الأشجعي -رضي الله تعالى عنه- فقال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قضى به في بَرْوَع -رضي الله تعالى عنها-، ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً[1].

---

[1] - رواه أبو داود برقم (٢١١٨) (٢/٢٠٢)، وسنن الترمذي (١١٤٥) (٣/٤٥٠)، والنسائي برقم (٣٣٥٤) (٦/١٢١)، وأحمد برقم (٤٢٧٦) (٧/٣٠٨)، وصححه الألباني في مختصر إرواء الغليل برقم (١٩٣٩).

وفي رواية فقام رجال من أشجع فقالوا: نشهد أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قضى به في بَرْوَع بنت واشق[2].

ومعنى قوله: "لا وكس" يعني لا ينقص من حقها الذي يكون لمثيلاتها، وقوله: "شطط" أي لا يزاد عليه بالإجحاف فيفرض لها أكثر مما تستحق، ويحمّل أكثر مما ينبغي أن يعطيه لمثلها.

بروع: إما بالفتح "بَروع" أو بالكسر كسر الباء.

ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها وهي حامل، فإن عدتها بوضع الحمل، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة؛ لعموم قوله تعالى: {وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} [(٤) سورة الطلاق]، ولما ثبتت به السنة في حديث سُبيعة الأسلمية –رضي الله تعالى عنها– المخرج في الصحيحين من غير وجه: أنه توفي عنها زوجها سعد بن خولة وهي حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته.

وفي رواية فوضعت حملها بعده بليال، فلما تَعَلّت من نفاسها...

يعني ارتفعت من النفاس، وذهب عنها أثره.

تجملت للخُطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك، فقال لها: ما لي أراك متجملة، لعلك ترجين النكاح، والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر، قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت عليّ ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزويج إن بدا لي"[3].

وخالف بعض السلف في عدة الحامل إذا توفي عنها زوجها كعليٍّ –رضي الله تعالى عنه– فقال: إنها تعتد بأطول الأجلين، ومستندهم قوله تعالى: **{وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}** [(٤) سورة الطلاق] مع قوله: **{وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا}** [(٢٣٤) سورة البقرة] فأراد أن يجمع بين الآيتين ويحتاط للعدة، فقال: إنها تبقى الأجلين بحسب حالها، فإن كان الأكثر هو مدة الحمل بقيت، أو الأشهر الأربعة بقيت، ورد على حديث معقل بن يسار الأشجعي بقوله: لا نترك كتاب الله لقول أعرابي، كأنه لم يثبت عنده، ولم يتوثق منه لأجل ذلك رده.

وأما الجمهور فعلى خلافه فهم يجعلون الأول من باب العام والثاني من باب الخاص، ويقولون: العام **{وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا}**، يحمل على الخاص **{وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}**، فالحامل سواء طال أو قصر حملها فإنها تبقى مدة الحمل –تسعة أشهر أو أكثر أو أقل– ثم تنقضي عدتها وتُستبرأ رحمها.

وقد ذكر سعيد بن المسيب وأبو العالية وغيرهما أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً؛ لاحتمال اشتمال الرحم على حمل.

---

[2] - رواها أبو داود برقم (٢١١٨) (٢/٢٠٢)، وأحمد برقم (٤٢٧٦) (٧/٣٠٨).

[3] - رواه البخاري في كتاب المغازي –باب فضل من شهد بدرا برقم (٣٧٧٠) (٤/١٤٦٦)، ومسلم في كتاب الطلاق –باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها وغيرها بوضع الحمل برقم (١٤٨٤) (٢/١١٢٢).

هذه الحكمة مراعاة في كل حالة على حسب كما سبق، فمثلاً من مات عنها زوجها قبل الدخول بها فلا مجال للاحتياط للرحم قطعاً في هذه الصورة، بدليل أنه لو طلقها زوجها فليس عليها عدة، وإنما العدة لها من باب أن حرمة الزوج مرعية، واستثنى من ذلك الحمل إذا وضعت بعد وفاته.

فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجوداً كما جاء في حديث ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- الذي في الصحيحين وغيرهما ((إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح))[4] فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر، والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه، والله أعلم.

هذا تعليل لاعتبار هذه المدة في عدة المتوفى عنها زوجها، ووجهه ظاهر.

ومن هنا ذهب من ذهب إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة ها هنا، ويؤيدهم ما رواه الإمام أحمد عن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: لا تلبسوا علينا سنة نبينا، عدة أم الولد إذا توفى عنها سيدها أربعة أشهر وعشر، رواه أبو داود وابن ماجه.

هذا الأثر عن عمرو بن العاص ضعفه بعض أهل العلم كالإمام أحمد، وأبي عبيد القاسم بن سلام، وصححه بعض أهل العلم كالعلامة الألباني -رحمه الله- من المعاصرين، وقول الصحابي إذا خالفه غيره فإنه يفقد حجيته، ويصار حينها إلى الترجيح، ولذا بعضهم ذهب إلى أنها تعتد نصف عدة الحرة، وقيل: تعتد ثلاث حيضات.

والذي عليه الجمهور -ومنهم الأئمة الثلاثة سوى الأحناف- أنها تعتد بحيضة، فإن كانت لا تحيض لصغر سنها أو يأسها فإنها تبقى شهراً واحداً.

وأما المراد بأم الولد فهي الجارية التي لها ولد، وهي على العكس من الجارية التي لا ولد لها فإن عدتها إذا توفى عنها سيدها نصف عدة الحرة فتعتد شهرين وخمسة أيام، وهذا نقل عليه بعض أهل العلم كابن العربي -صاحب أحكام القرآن- الإجماع، والله أعلم.

وقوله تعالى: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [(٢٣٤) سورة البقرة].

يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها؛ لما ثبت في الصحيحين من غير وجه عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أمي المؤمنين -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً))[5].

---

[4] - رواه البخاري في كتاب التوحيد - باب {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} [(١٧١) سورة الصافات] برقم (٧٠١٦) (٢٧١٣/٦)، ومسلم في كتاب القدر - باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته برقم (٢٦٤٣) (٢٠٣٦/٤).

[5] - رواه البخاري في كتاب الجنائز - باب حد المرأة على غير زوجها برقم (١٢٢١) (٤٣٠/١)، ومسلم في كتاب الطلاق - باب وجوب الإحداد في عدة الوفاة وتحريمه في غير ذلك إلا ثلاثة أيام برقم (١٤٨٦) (١١٢٣/٢).

وفي الصحيحين أيضاً عن أم سلمة -رضي الله تعالى عنها-: أن امرأة قالت: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها، فقال: ((لا))، كل ذلك يقول: ((لا))، مرتين أو ثلاثاً"[٦].

مع أن الكحل قد يكون لحاجة العلاج، وقد يكون من نوع الإثمد الأحمر الذي لا لون، ومع ذلك منعها النبي -صلى الله عليه وسلم- منه لكنه علل.

ثم قال: ((إنما هي أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكن في الجاهلية تمكث سنة..

وجه الاستدلال على وجوب الإحداد من الحديث أنه منعها من الكحل مع حاجتها إليه، وكذا يجب أن تجتنب المرأة في العدة الزينة وكل ما يرغب الرجال بها، ولا تتزوج ولا تخطب؛ لعموم الآية: **{يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا}** وهذا خبر مضمن معنى الأمر، والأمر الأصل فيه الوجوب إلا لصارف، فيجب على المرأة أن تبقى هذه المدة في بيتها لا تخرج إلا لحاجة لا يقوم غيرها مقامها فيها، وخروجها بالنهار أسهل من خروجها بالليل، أما الأمور الأخرى فلا تمنع منها كالاغتسال، والتنظف، ومكالمة الرجال بالمعروف.

قالت زينب بنت أم سلمة -رضي الله تعالى عنها-: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشاً..

الحفش: بيت صغير ضيق نازل السقف، والمقصود أنها تبحث عن أضيق مكان في البيت وتكتن به، ولا تغتسل سنة كاملة، فهذه الهيئة التي كانت عليها المعتدة في وفاة زوجها في الجاهلية.

ولبست شر ثيابها، ولم تمس طيباً ولا شيئاً حتى تمر بها سنة، ثم تخرج فتعطى بَعْرة.

هذه إشارة لانتهاء العدة والخروج منها.

فترمي بها ثم تؤتى بدابة، حمار أو شاة أو طير فتفتض به...

بمعنى أنها تمسح بهذا الطائر أو الحيوان فرجها.

فقلما تفتض بشيء إلا مات.

وذلك لشدة ما علق بها من الأذى والقذر.

والغرض أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلي وغير ذلك، وهو واجب في عدة الوفاة قولاً واحداً، ويجب الإحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن سواء في ذلك الصغيرة والآيسة والحرة والأمة والمسلمة والكافرة لعموم الآية.

وقوله: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ} أي: انقضت عدتهن، قاله الضحاك والربيع بن أنس، {فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ} قال الزهري: أي على أوليائها، {فِيمَا فَعَلْنَ} يعني النساء اللاتي انقضت عدتهن، وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-: إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنع وتتعرض للتزويج فذلك المعروف، وروي عن مقاتل بن حيان نحوه، وقال ابن جُريج عن مجاهد: {فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} قال: النكاح الحلال الطيب، وروي عن الحسن والزهري والسدي نحو ذلك.

---

[6] - رواه البخاري في كتاب الطلاق – باب تحد المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا برقم (٥٠٢٤) (٥/٢٠٢٤)، ومسلم في كتاب الطلاق – باب وجوب الإحداد في عدة الوفاة وتحريمه في غير ذلك إلا ثلاثة أيام برقم (١٤٨٨) (٢/١١٢٤).

فأباح الله –عز وجل– للمعتدة عدة الوفاة أن تتهيأ للخطاب في المعروف –فتتحاشى ما لا يليق من مكارم الأخلاق أو مشين المروءات كالتبرج وإظهار الزينة أمام الرجال الأجانب ونحوه فهذا ليس من المعروف– ولا يلحقها في ذلك معرة ولا إثم.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (١٠٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [(٢٣٥) سورة البقرة].

يقول تعالى: ولا جناح عليكم أن تعرضوا بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزوجهن من غير تصريح، قال الثوري وشعبة وجرير وغيرهم عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء} قال: التعريض أن يقول: إني أريد التزويج، وإني أحب امرأة من أمرها ومن أمرها -يعرض لها بالقول بالمعروف-، وفي رواية: وددت أن الله رزقني امرأة، ونحو هذا ولا ينتصب للخطبة.

ورواه البخاري تعليقاً عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء} هو أن يقول: إني أريد التزويج وإن النساء لمن حاجتي، ولوددت أن ييسر لي امرأة صالحة.

وهكذا قال مجاهد وطاوس وعكرمة وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي والشعبي والحسن وقتادة والزهري ويزيد بن قصيد ومقاتل بن حيان والقاسم بن محمد وغير واحد من السلف والأئمة في التعريض: إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة، وهكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لفاطمة بنت قيس -رضي الله تعالى عنها- حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص -رضي الله تعالى عنه- آخر ثلاث تطليقات، فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم -رضي الله تعالى عنه- وقال لها: ((فإذا حللتِ فآذنيني)) فلما حلت خطب عليها أسامة بن زيد -رضي الله تعالى عنهما- مولاه فزوجها إياه.

فأما المطلقة فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

هذا الخطاب في الآية يفهم منه رفع الجناح -وهو الإثم- فيما يعرض به الإنسان من خطبة النساء اللاتي توفي عنهن أزواجهن، بأن يقول: أنا أبحث عن امرأة، أو مثلك يُرغب فيها كثيراً، ونحو ذلك من العبارات التي تشعر بأن رغبته متجهة إليها، وعبارات أهل العلم في التمثيل على التعريض متفاوتة، وقد يختلفون في بعض الألفاظ هل هي من قبيل التصريح أو التعريض، فمثلاً لو قال لها: لا تسبقيني بنفسك، فبعض أهل العلم عده تعريضاً، وعده آخرون تصريحاً، إلا أنه إن لم يكن من قبيل التصريح فهو قريب منه غاية القرب؛ لأن

فيه إشعاراً بالحجز، فالمقصود أنه يجوز أن يقول لها كلاماً يشعرها برغبته فيها دون أن يصرح، ومثلها المطلقة المبتوتة -بمعنى أنها طلقت ثلاثاً- فيجوز للرجل أن يعرض لخطبتها، بخلاف المرأة التي طلقت طلاقاً رجعياً، وما زالت في عدتها بعد الطلقة أو بعد الطلقة الثانية، فلا يجوز لأحد أن يصرح بخطبتها أو يعرض بذلك؛ لأنها ما زالت في عصمة الزوج، ولا تخرج من عصمته إلا بانقضاء العدة، ولا يجوز لها أن تخرج من بيته أو يخرجها كما قال سبحانه: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ}** [(١) سورة الطلاق].

وأما مراد ابن كثير في قوله: "فأما المطلقة فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها، ولا التعريض بها" فإنه يقصد المرأة المطلقة طلاقاً رجعياً، لا المرأة التي طلقت قبل الدخول ولا عدة عليها، أو المرأة التي بتّ في طلاقها ولو كانت في عدتها كالمطلقة ثلاثاً.

وقوله: {أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ} أي: أضمرتم في أنفسكم من خطبتهن، وهذا كقوله تعالى: {وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ} [(٦٩) سورة القصص]، وكقوله: {وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ} [(١) سورة الممتحنة].

والمعنى أنه يبيت في نفسه تزوجها بمجرد انقضاء العدة فهذا لا مؤاخذة فيه، وإنما المؤاخذة فيما إذا تحدث به صراحةً، والله أعلم.

ولهذا قال: {عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ} أي: في أنفسكم فرفع الحرج عنكم في ذلك، ثم قال: {وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا}، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا} لا تقل لها: إني عاشق، وعاهديني ألا تتزوجي غيري ونحو هذا.

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: **{عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ}** الذكر باللسان، لكن من غير تصريح بالخطبة، وذلك راجع إلى قلة صبره وخشيته أن تفوته هذه المرأة، والأمر لا يستغرب فقد كان الناس قديماً يتسابقون على المرأة المفارقة لزوجها إما بطلاق أو وفاة زوج فينتظرون متى تنقضي العدة ليتقدموا لخطبتها، فهذا الذكر جائز بشرطه **{وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا}**، وبعضهم يذكر في التعريض عند الولي ما سبق كأن يقول: إذا انقضت عدتها فآذني أو أخبرني أو أعلمني أو لا تسبقني بتزويجها أو نحو ذلك، فهذا من ذكرها، والله أعلم.

ولقد اختلف أهل التأويل في معنى "السر" الذي نهى الله -تعالى- عباده عن مواعدة المعتدات به على أقوال:

فقال بعضهم: معنى ذلك: ولا تنكحوهن في عدتهن سراً.

وقال آخرون: بل معنى ذلك لا تأخذوا ميثاقهن وعهودهن في عددهن أن لا ينكحن غيركم كأن يقول لها الرجل: "لا تسبقيني بنفسك".

وقال غيرهم: إن كلمة السر في الآية تطلق على الجماع، والمعنى لا يذكر لها قدرته على الجماع وقوته على ذلك، وما قد يرغبها فيه ويدعوها إليه، وسماه سراً لأن الجماع لا يكون إلا في السر.

وقال بعضهم: هو الزنا، وهذا المعنى اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، وعلل ذلك بأن العرب تسمي الجماع وغشيان الرجل المرأة "سرا"؛ لأن ذلك مما يكون بين الرجال والنساء في خفاء غير

ظاهر مطَّلع عليه فيسمى لخفائه "سرا"، ثم لا معنى لذكر السر بمعنى الخفاء وما يقابل العلانية إذا كان التصريح بالخطبة لا يجوز علانية ولا سراً، وكذا لو أنه أخبر أو عرض بخطبتها فلم يعد ذلك من قبيل السر؛ ويمكن القول إن المراد من المواعدة سراً أن لا يكون ذلك من دون علم الناس أو اطلاعهم، ثم السر يمكن أن يكون بين اثنين أو ثلاثة أوأكثر إذا قصدوا به الحفظ، واحترزوا من فشوه وظهوره.

والخلاصة أن المعنى الأول -أي لا تبرموا اتفاقاً معهن لا يطلع عليه أحد- هو الأقرب، ويبعد أن يكون المراد بالمواعدة الجماع؛ لأنه ليس له أي شبهة إطلاقاً لا عقد ولا نكاح...، وكذا المعنى الذي اختاره ابن جرير؛ لأنه لو كان المراد أنه يريد أن يزني بها بحجة أنه سيتزوجها بعد انقضاء العدة لما قال: {لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا}، ولقال: ولا تزنوا بهن، أو لا تجامعوهن لهذه الحجة.

فالخطاب في الآية مفهومه النهي عن مواعدة المعتدات سراً؛ إذ الرجل لشدة ما يوجد في نفسه أحياناً من حرصه على أمر خشية أن يفوته، فإنه قد يتأول لنفسه أو تحمله العجلة على الاتفاق مع هذه المرأة من دون سائر الناس، وهذا لا يجوز، والله أعلم.

وكذا روي عن سعيد بن جبير والشعبي وعكرمة وأبي الضحى والضحاك والزهري ومجاهد والثوري: هو أن يأخذ ميثاقها ألا تتزوج غيره.

وقوله: {إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا}....

هذا المقطع من الآية يضعف ما ذهب إليه ابن جرير من أن المراد من المواعدة سراً أن يطلب منها الزنا، إلا إذا جعل هذا الاستثناء منقطعاً، وذلك لأن الزنا ليس فيه قول معروف، وما عرف هذا القول عن أحد، والله أعلم.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وسعيد بن جبير والسدي والثوري وابن زيد: يعني به ما تقدم من إباحة التعريض، كقوله: إني فيك لراغب، ونحو ذلك.

وقال محمد بن سيرين: قلت لعبيدة: ما معنى قوله: {إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا}، قال: يقول لوليها: لا تسبقني بها، يعني لا تزوجها حتى تعلمني، رواه ابن أبي حاتم.

هذه العبارات في الحقيقة قريبة من التصريح ولقد ذكرها العلماء من باب التمثيل ليس غير، وبعضهم أدرج ما ليس بتصريح في حقيقته في التعريض وإن كان قريباً من التصريح، ومثال التصريح بالخطبة أن يقول لها: أنا أتقدم لخطبتك...

وقوله: {وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ} يعني ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة.

هذا القول قال به أيضاً جمع من أهل اللغة كالنحاس، ولعل علة النهي عن العزم مع أن المحظور هو إيقاع العقد في فترة العدة هو من باب المبالغة، وإذا ورد النهي عن التصريح بالخطبة في عدة المطلقة طلاقاً رجعياً فما بالك بالعزم الذي هو أبلغ من مجرد الخطبة، وقال بعضهم: العزم والعقد شيء واحد، وهذا الكلام بناء على تعريف العزم بأنه: عقد القلب المصمم، والمعنى: لا تعقدوا عقد النكاح في قلوبكم، ولا يفسر العقد في الآية إلا بمعناه الشرعي وهو: ما يحصل به الإيجاب والقبول بين الزوجين الذي يترتب عليه أحكام استحلال البضع ونحو ذلك.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والشعبي وقتادة والربيع بن أنس وأبو مالك وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان والزهري وعطاء الخرساني والسدي والثوري والضحاك: {حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ} يعني: ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة.

سمي الكتاب كتاباً لأنه محدود بحد، وكل محدد بأجل معلوم فهو كتاب، والعدة المحددة هي أربعة أشهر وعشرة أيام في غير ذات الحمل، وأما في الحامل فالعدة بوضع الحمل، ولهذا قال الله -عز وجل-: **{إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا}** [(١٠٣) سورة النساء] أي: مكتوباً محدود الأوقات مقدراً.

وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة.

وقوله: {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ} توعدهم على ما يقع في ضمائرهم من أمور النساء، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر، ثم لم يؤيسهم من رحمته ولم يقنطهم من عائدته فقال: {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}.

{لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} [(٢٣٦) سورة البقرة] **أباح -تبارك وتعالى- طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها.**

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وطاوس وإبراهيم والحسن البصري: المس: النكاح.

استعمال المس بمعنى الوطء معروف في كلام العرب، وقد يأتي بمعنى المباشرة واللمس المجرد، تقول: هذا لم تمسه الأيدي، لكنه إذا قيل للمرأة فقد يراد به الوطء، بل الوطء داخل فيه قطعاً ولا شك، ولكن هل تنزل الخلوة منزلة الوطء؟ بمعنى إذا سمى للمرأة صداقاً ثم أرخى لها ستراً وخلا بها ثم طلقها دون مساس، فهل ذلك ينزل منزلة الوطء؟

معلوم أن الرجل إذا طلق امرأته بعد ما سمى لها صداقاً وإن لم يدخل بها فإنها تستحق نصف المهر، وأما إذا أرخى لها ستراً وكشف لها وجهاً فجمهور أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم على أن الخلوة بها ولو لم يطأها تنزل منزلة الوطء فتستحق المهر كله.

وقال بعضهم: إنها لا تستحق إلا نصف المهر، وحملوا المساس في الآية على الظاهر وهو الجماع، والله أعلم.

بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها والفرض لها إن كانت مفوضة، وإن كان في هذا انكسار لقلبها، ولهذا أمر -تعالى- بإمتاعها، وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله {عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ} [(٢٣٦) سورة البقرة].

التفويض نوعان:

مفوضة البضع: وهي المرأة التي لم يحدد لها مهر، يقال: امرأة مفوضة على بضعها.

مفوضة المهر: أن تفوض وليها في تحديد مهرها.

قوله سبحانه: **{لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ}** عند الجمهور أن هذه الآية المقصود

بها صنف واحد، وهي من طلقت قبل الدخول بها واجتمع فيها هذا الوصفان {مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً} أي: صداقاً، فإنها تستحق المتعة بالإجماع جبراً لخاطرها، ويبقى الخلاف في الأنواع الأخرى هل تجب المتعة لكل مطلقة كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} [(٢٤١) سورة البقرة] أم لا؟ وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله.

وبالنسبة لابن جرير -رحمه الله- فيرى أن الآية جاءت لتقرر حكمين بالنسبة للنساء غير المدخول بهن، الأول: المرأة التي سمى لها صداقاً فهذه يجوز للرجل أن يطلقها، وتعطى نصف الصداق المسمى، الثاني: المرأة التي لم يسم لها صداقاً فيجوز له أن يطلق، ولا تستحق مهراً، وإنما تعطى شيئاً لجبر خاطرها، وهو المتعة، والله أعلم.

وقد روى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد وأبي أسيد -رضي الله تعالى عنهما- أنهما قالا: تزوج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أميمة بنت شراحيل، فلما أُدخلت عليه بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازِقيين[1].

لم يأت في تحديد المتعة شيء من الكتاب ولا من السنة، وثبت عن بعض أهل العلم تحديد أعلى المتعة وأدناها، ولكن هذا لا دليل عليه، وقال بعضهم: ينظر في المتعة إلى حال المرأة وما يصلح لمثلها غنىً وفقراً، لكن الله -عز وجل- لم يربط المتعة بحال المرأة وما يصلح لها، وإنما علق المتعة بالزوج بحسب حاله من عسر ويسر وغنىً وفقر، مصداق ذلك ما ذكره الله -عز وجل- بقوله: {عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ} يعني على من وسع الله -عز وجل- عليه رزقه، ومن ضيق عليه رزقه بحسب استطاعته، فذلك بحسب العرف.

وقوله -تبارك وتعالى-: {حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} المراد بالإحسان في الآية الإحسان الواجب، ومن ذلك إعطاء المتعة لهذه المطلقة غير المدخول بها ولم يسم لها الصداق، وهذا أحسن ما يقال فيه، والله أعلم.

ومثله ما قاله الله -عز وجل- في عموم المطلقات: {وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} [(٢٤١) سورة البقرة] فلقد فهم بعض أهل العلم أن الإمتاع لا يجب على الرجل؛ لأن الله -عز وجل- إنما أناطه بصنف من الناس وهم المتقون، وليس كل الناس من المتقين، وهذا الكلام فيه نظر؛ لأن التقوى واجبة على الناس جميعاً، وقد خاطب الله -عز وجل- جميع الناس بها، فقال -جل من قائل-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...} [(١) سورة النساء]،

وأما قوله: "ثوبين رازِقيين" أي: ثوبان أبيضان من الكتان.

{وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إَلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [(٢٣٧) سورة البقرة]، **وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض إذا طلق الزوج قبل الدخول، فإنه لو كان ثمّ واجب آخر من متعة لبيّنها، لاسيما وقد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية، والله أعلم.**

[1] - رواه البخاري في كتاب الطلاق – باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق برقم (٤٩٥٧) (٢٠١٣/٥).

وتشطير الصداق والحالة هذه أمر مجمع عليه بين العلماء، لا خلاف بينهم في ذلك، فإنه متى كان قد سمى لها صداقاً ثم فارقها قبل دخوله بها فإنه يجب لها نصف ما سمى من الصداق.

المطلقة قبل الدخول وقبل تسمية الصداق، هذه تجب لها المتعة بالإجماع بنص الآية، ولكن اختلف العلماء في المرأة التي طلقت قبل الدخول وقد سمي لها الصداق هل تجب لها المتعة أم لا؟

ذهب كثير من أهل العلم أن هذه لا متعة لها وإنما تعطى فقط نصف الصداق واستدلوا بقوله سبحانه: **{وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ }** فذكر الله نصف المهر المسمى ولم يذكر المتعة.

وقالت طائفة: إن المتعة واجبة على عموم المطلقات، و"أل" في المطلقات للجنس تفيد العموم، وقالوا: إن القرآن كله كنص واحد، فما ذكر في موضع فإن ذلك يغني عن تكراره في كل موضع، ولهذا يقول الله –عز وجل– لنبيه –صلى الله عليه وسلم–لما اجتمع عليه نساؤه للمطالبة بزيادة النفقة والتوسعة عليهن كما في سورة الأحزاب: **{فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا}** [(٢٨) سورة الأحزاب] والسراح وإن اختلف أهل العلم في معناه، إلا أن الأقرب أن المراد به الطلاق بقرينة ذكر المتعة معه، وهذا الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–؛ لأن الطلاق لا أذية معه، وبهذا الاعتبار لو وقع عليهن الطلاق فإنه يكون بعد الدخول، ورغم ذلك فقد نصت الآية على فرض متعة لهن، وهذا القول ذهب إليه ابن جرير –رحمه الله–.

والقائلون بالاستحباب، قالوا: إن الله –عز وجل– لم يذكر المتعة في الآية لمن سمي لها الصداق وطلقت قبل الدخول، وأيضاً قال: **{حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ}** [(٢٤١) سورة البقرة]، فخص به المتقين دون غيرهم، وسبق الجواب على هذا الإشكال.

وقال بعضهم: إن المرأة لا تستحق المتعة إلا إن كانت مطلقة قبل الدخول ولم يسم لها الصداق، والله أعلم.

مسألة:

المرأة الحامل إذا وضعت حملها بعد أن مات زوجها، فهل يجوز لها أن تغسّله؟

جمهور العلماء على جواز غسل المرأة لزوجها بل قد حكي عليه الإجماع وحكاه ابن المنذر وابن عبد البر وابن رشد وغيرهم، وقال الإمام أحمد: ليس فيه اختلاف.

وتبقى مسألة إذا مات الزوج عن المرأة وهي حامل ثم وضعت الحمل وانقضت عدتها بذلك، هل يجوز لها أن تغسّله؟ اختلفوا في ذلك على مذاهب.

الأول: أن لها أن تغسله حتى ولو انقضت عدتها بوضع الحمل، وهو مذهب المالكية والمشهور عند الحنابلة والشافعية.

قال ابن القاسم في المدونة: ولو مات عن امرأته وهي حامل، فوضعت قبل أن يغسل لم يكن بأس أن تغسله، وإن كانت عدتها قد انقضت، وليس يعتبر في هذا العدة، ولا يلتفت إليها، ولو كان ذلك للعدة ما غسل الزوج امرأته؛ لأنه ليس في عدة منها.

وقال: الدردير في الشرح الكبير: وقدم على العصبة الزوجان، يعني في التغسيل، إلى أن قال: أو إن وضعت الزوجة بعد موته فيقضي -أي الحاكم- لها به، أي بتغسيله؛ لأنه حكم ثبت بالزوجية فلا يتقيد بالعدة كالميراث.

وقال الشربيني في مغني المحتاج: تغسل المرأة زوجها وإن انقضت عدتها وتزوجت.

وقال النووي في روضة الطالبين: إلى متى تغسل زوجها؟ قال: فيه ثلاثة أوجه، أصحها أبداً.

وقال البهوتي في شرح المنتهى: ولما انقضت عدتها بوضع عقب موته ما لم تتزوج.

وقال المرداوي في الإنصاف: وكذا لو ولدت عقب موته على الصحيح من المذهب، أي: أن لها أن تغسله.

ولاحظ أن الصحيح عند الشافعية أن لها ذلك أبداً، وعند الحنابلة يقيد ذلك بعدم الزواج.

المذهب الثاني: أنه لا يجوز لها أن تغسله وهو مذهب الحنفية ووجه عند الشافعية ووجه عند الحنابلة وذكره الشيخ/ محمد بن عثيمين -رحمة الله عليه- في الشرح الممتع.

قال الكاساني في بدائع الصنائع: إلا المرأة لزوجها، أي يجوز لها أن تغسله إذا لم تثبت البينونة بينهما حال الحياة ولا حدث بعد وفاته ما يوجب البينونة، وقال: لأن إباحة الغسل مستفادة بالنكاح، فتبقى ما بقي النكاح، والنكاح باق بعد الموت إلى انقطاع العدة.

وقال ابن نجيم في البحر الرائق: قال في المحيط: لو مات عنها وهي حامل فوضعت لا تغسله لانقضاء عدتها.

وقال النووي في روضة الطالبين: إلى متى تغسل زوجها؟ فيه ثلاثة أوجه، سبق ذكر الأول، قال: الثاني: ما لم تنقضِ عدتها بأن تضع حملاً عقيب موته، والثالث: ما لم تتزوج.

وحكى هذا القول وجهاً عند الحنابلة ابن مفلح في الفروع والمرداوي في الإنصاف، قال الشيخ/ محمد بن عثيمين -رحمة الله تعالى عليه- في شرح الممتع: مسألة: لو مات زوج عن زوجته الحامل قبل أن يغسل فهل لها تغسيله؟ قال: الجواب: ليس لها ذلك؛ لأنها بانت منه حيث إنها انقضت عدتها قبل أن يغسل فصارت أجنبية منه.

فملخص المسألة: أن بعض العلماء وهو الحنفية يقيدون جواز تغسيل المرأة بالعدة، وبعضهم يقيد ذلك بالزواج، والآخرون يجيزون ذلك مطلقاً، والله أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (١٠٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله: {إِلاَّ أَن يَعْفُونَ} أي: النساء عما وجب لها على زوجها من النصف، فلا يجب لها عليه شيء.

قال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {إِلاَّ أَن يَعْفُونَ} قال: إلا أن تعفوا الثيب فتدع حقها.

قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم -رحمه الله-: وروي عن شريح وسعيد بن المسيب وعكرمة ومجاهد والشعبي والحسن ونافع وقتادة وجابر بن زيد وعطاء الخرساني والضحاك والزهري ومقاتل بن حيان وابن سيرين والربيع بن أنس والسدي نحو ذلك.

وقوله: {أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ} قال ابن أبي حاتم: روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((وليُّ عقد النكاح الزوج))[1]، وهكذا أسنده ابن مردويه، واختاره ابن جرير، ومأخذ هذا القول: أن الذي بيده عقدة النكاح حقيقة الزوج، فإن بيده عقدها وإبرامها ونقضها وانهدامها، وكما أنه لا يجوز للولي أن يهب شيئاً من مال المولية للغير فكذلك في الصداق.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلا إشكال عند أهل العلم في أن مراد قوله سبحانه: **{إِلاَّ أَن يَعْفُونَ}** أي: النساء، والمعنى أن لها الحق في إسقاط ما لها من نصف الصداق، سواء وقع المهر في يدها، أو كان ديناً في ذمته، وذلك لا ينافي إطلاق العفو عليه.

وأختلف أهل العلم في المراد من قوله سبحانه: **{أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ}** فقالت طائفة: إن المراد به الزوج، وذلك أن العصمة بيده فهو إن شاء طلق وإن شاء أمسك، وعضدوا رأيهم بأنه صار بذلك يقابل الطرف الآخر وهي المرأة، فيكون -بهذا الاعتبار- العفو واقعاً من أحد الطرفين -المرأة أو الرجل-، واستدلوا بالحديث المتقدم: ((وليُّ عقد النكاح الزوج))، وهذا هو قول عامة أهل العلم، وحديث عمرو بن شعيب لو صح لكان رافعاً للخلاف، ولكن هذا الحديث في سنده ابن لَهِيْعة وفيه كلام.

وقالت طائفة: إن الذي بيده عقدة النكاح ولي المرأة كالأب أو الأخ أو ابن العم ممن له ولاية عليها، ومِن لازم هذا القول أن يصير الولي متصرفاً في مهر المرأة، فله الحق أن يسقطه وله أن يثبته وهذا فيه إشكال؛ لأن الولي لا يملك حق التصرف في مال غيره، ولذلك لجأ بعضهم إلى حمله على لون من النساء في الولاية

---

[1] سنن الدارقطني برقم (١٢٨) (٣/٢٧٩)، والبيهقي في السنن الكبرى برقم (١٤٨٤٤) (٧/٢٥١).

عليهن، فبعضهم قال: هي الصغيرة، وبعضهم قال: هي البكر، وهذا من التأويلات البعيدة؛ لأن الآية جاءت بالاسم الموصول "الذي" وهو يفيد العموم كما هو معلوم، فلا يخص ذلك ولياً دون ولي، وإنما تشمل عموم الأولياء، فالمقصود أن الرجل الولي لا يملك شيئاً من المهر، وإلا كان مدخلاً له للتسلط على أموال النساء وحقهن في مقابل البضع وهذا غير صحيح، فالمهر حق ثابت للمرأة لا يتصرف فيه الولي إلا وفق رضاها والرجوع إليها سواء كانت بكراً أو ثيباً، وهذا مما يضعف هذا القول، ويرجح ما عليه عامة أهل العلم أن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج، فهما طرفان متقابلان –الرجل والمرأة– إلا أن يعفو هذا أو يعفو الآخر.

وقوله: {وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} قال ابن جرير: قال بعضهم: خوطب به الرجال والنساء.

وعن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: {وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} قال: أقربهما للتقوى الذي يعفو.

فكل عفو واقع من أحد الطرفين فإن ذلك أقرب للتقوى، سواء وقع ذلك في الصداق، أو في غيره من الحقوق كالمظالم التي تكون بين الناس والإساءة، وما أشبه ذلك، فالله يقول: **{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [(٣٤) سورة فصلت] وقال الله –عز وجل– في القصاص: **{فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ}** [(٤٥) سورة المائدة]، وكذلك أيضاً في الديون لما قال: **{وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}** [(٢٨٠) سورة البقرة] فإسقاط مثل هذه الحقوق سواء تعلقت بالمال، أو بالعرض أو نحو ذلك فهذا أقرب للتقوى.

وكذا روي عن الشعبي وغيره، وقال مجاهد والنخعي والضحاك ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والثوري: الفضل هاهنا أن تعفو المرأة عن شطرها، أو إتمام الرجل الصداق لها.

ولهذا قال: {وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ} أي: الإحسان، قاله سعيد.

فمن الإحسان أن يكمل الرجل للمرأة بقية المهر، أو أن تسقط المرأة نصف الصداق الذي وجب لها، بالعفو، فهذا المراد به أن يتفضل كل طرف على الآخر.

{إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} أي: لا يخفى عليه شيء من أموركم وأحوالكم وسيجزي كل عامل بعمله.

ومن ذلك ما يتعلق بهذه الحقوق والتفضل فيها، فالله –عز وجل– يجزي هذا الإنسان المتفضل المتصدق، وهو بصير به، عالم بحاله، مطلع على عمله لا يَضيع منه شيء، وفي المقابل يجازي من قصر في عمله وتوانى في الحقوق، وتساهل في الإيفاء.

{حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ * فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ} [(٢٣٨-٢٣٩) سورة البقرة].

ما وجه المناسبة بين هذه الآية، وبين الآيات التي قبلها والتي بعدها التي تحدثت عن الطلاق وأحكامه، والعِدد..؟

يمكن القول: إنه أورد ذكر الصلاة بين هذه الأحكام؛ ليدل على أن الاستعانة بالصلاة سبب للخروج من المشكلات التي تقع بين الناس، ودافعة للهموم والآلام والمصائب، والنكد والكمد، وكذا ما يقع بين العشيرين –الزوجين– بحاجة إلى صبر، ومما يعين على ذلك المحافظة على الصلاة.

وبعضهم قال: إن الله -عز وجل- لما بيّن طرفاً من حقوق الخلق التي غالباً ما تقع فيها المشاحة في هذه الآيات، رجع ليبيّن حقاً يخصه فأرشدهم إلى أمر يحصل به حسن الصلة به ألا وهو الصلاة، وهذا الاستنباط يسمى عند العلماء بعلم المناسبة، وهو ليس على مرتبة واحدة، فمنه ما يكون كالشمس يلوح في الظهور والوضوح، ومنه ما يكون دون ذلك، ومنه ما يكون متكلفاً، فمثل استنباط هذه المناسبة من إيراد آيات المحافظة على الصلاة بين هذه الأحكام ليست من القوة والمرتبة والدرجة بمكان، وليس فيها ذلك التكلف، إنما هو وجه من النظر محتمل، ولا ينبغي أن يجزم به، والعلم عند الله.

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها، وحفظ حدودها، وأدائها في أوقاتها، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أي العمل أفضل؟ قال: ((الصلاة على وقتها)) قلت: ثم أي؟ قال: ((الجهاد في سبيل الله))، قلت: ثم أي؟ قال: ((بر الوالدين)). قال: حدثني بهن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولو استزدته لزادني[2].

وخص -تعالى- من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى، وهي صلاة العصر.

قوله سبحانه: **{حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ}** يشمل جميع الصلوات، وخص الوسطى من قبيل عطف الخاص على العام، وهذا التخصيص بذكر أحد أفراد العام إنما يكون لأهميته ولفضله أو نحو ذلك، ومثله قوله سبحانه: **{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}** [(١٦٣) سورة النساء] فخص هؤلاء الأنبياء دون غيرهم، وقوله: **{مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ}** [(٩٨) سورة البقرة] فخص بالذكر جبريل وميكال؛ ليبين أن لهم مزية خاصة.

{والصَّلاَةِ الْوُسْطَى} الوسطى: تأنيث الوسط، ويأتي بمعنيين:

يأتي بمعنى أعدل الشيء وخير الشيء كما قال سبحانه: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}** [(١٤٣) سورة البقرة]، أي: عدولاً خياراً.

ويأتي الوسط للواقع بين الطرفين، وهذا في الأمور المعدودة والمحسوسة وما أشبه ذلك.

فإذا فسر بالأول يكون المقصود بالصلاة الوسطى، يعني التي هي أفضل الصلوات، وأعظم الصلوات، ولهذا جاء في التخلف عنها والتحذير من تركها قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله))[3]، وقوله: ((من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله))[4].

ويمكن تفسيرها على المعنى الآخر باعتبار أن قبلها صلاتين في أول النهار-الفجر والظهر-، وبعدها صلاتين من الليل -المغرب والعشاء- فهي في الوسط بهذا الاعتبار.

وخص -تعالى- من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى، وهي صلاة العصر.

---

[2] - رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة -باب فضل الصلاة لوقتها برقم (٥٠٤) (١/١٩٧)، ومسلم في كتاب الإيمان -باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال برقم (٨٥) (١/٨٩).

[3] - رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة - باب إثم من ترك العصر برقم (٥٢٨) (١/٢٠٣).

[4] - رواه النسائي برقم (٤٧٨) (١/٢٣٧)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي برقم (٤٧٨).

قال الترمذي والبغوي –رحمها الله–: وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم.

وقال القاضي الماوردي: وهو قول جمهور التابعين.

وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر.

وقال أبو محمد بن عطية في تفسيره: وهو قول جمهور الناس.

وقال الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي في كتابه المسمى: بـ" كشف المغطى في تبيين الصلاة الوسطى" وقد نص فيه أنها العصر.

وحكاه عن عمر وعلي وابن مسعود وأبي أيوب وعبد الله بن عمرو وسمرة بن جندب وأبي هريرة وأبي سعيد وحفصة وأم حبيبة وأم سلمة وعن ابن عباس وعائشة –رضي الله تعالى عنهم– أجمعين، على الصحيح عنهم، وبه قال عبيدة وإبراهيم النخعي ورزين وزر بن حبيش وسعيد بن جبير وابن سيرين والحسن وقتادة والضحاك والكلبي ومقاتل وعبيد بن أبي مريم وغيرهم.

أهل العلم على خلاف في المراد بالصلاة الوسطى، حتى إن بعضهم ذكر في المسألة ثمانية عشر قولاً، لكن الصواب الذي عليه عامة أهل العلم أنها صلاة العصر، ودليل ذلك ما جاء في فضل العصر وعظيم خطر شأن المتهاون بها، مثل: حديث ((من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله))...، وأن الله –عز وجل– أقسم بالعصر في كتابه الكريم، والله لا يقسم بشيء إلا لشرفه وعلو مكانته وسمو منزلته، وكذا ما جاء في تفسير قول الله –عز وجل–: **{تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ}** [(١٠٦) سورة المائدة] فقد ذكر أهل التفسير أنها جاءت في الرجل الذي حلف بعد العصر كاذباً؛ للدلالة على أن عظم شأن الحلف بعد العصر من جهة الزمان، فهذه نوع من الأدلة على أن المراد بالصلاة الوسطى العصر.

ولقد ثبت في السنة ما يؤكد أن الصلاة الوسطى صلاة العصر، من ذلك ما جاء عن بعض الصحابة كعليٍّ –رضي الله عنه– قال: كنا نراها صلاة الفجر، حتى قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في يوم الأحزاب: ((ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس))[5] يقصد صلاة العصر، فهذا الخبر نص ودلالة صريحة في أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر.

واستدل القائلون بخلاف ذلك بما جاء في القراءات الواردة في هذه الآية عن حفصة في مصحفها، ومصحف عائشة، وأم سلمة **{حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر}** فهذا أشكلَ على كثير من أهل العلم، باعتبار أن "الواو" تقتضي المغايرة، وهذا يعنى أن الصلاة الوسطى غير صلاة العصر، وجاء في قراءة أخرى: **{حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهي}** وذكر العصر، ولكن تعقب هذا القول بعض أهل العلم فقال: إن هذه القراءات التي جاءت بالعطف مما يوهم أن الصلاة الوسطى غير صلاة العصر، جاء ما يقابلها من قراءات تدلل على أن المقصود بالصلاة الوسطى صلاة العصر، كما أن الأحاديث واضحة صريحة في ذلك كالحديث السابق: ((شغلونا عن الصلاة الوسطى)).

---

[5] – رواه البخاري في كتاب الجهاد –باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة برقم (٢٧٧٣) (٣/١٠٧١)، و– رواه مسلم بلفظ ((شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارا)) أو قال: ((حشا الله أجوافهم وقبورهم نارا)) في كتاب المساجد ومواضع الصلاة – باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر (٦٢٨) (ج ١ / ص ٤٣٧).

وقيل: إنها صلاة الظهر، واستدلوا بأن الصحابة كانوا يلقون فيها عنتاً وشدة بسبب الحر، فأنزل الله سبحانه: **{حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى}** [(٢٣٨) سورة البقرة] يثبتهم عليها، ومن أهل العلم من قال: العشاء والمغرب، وقيل: غير ذلك، ويلجئون إلى وجوه من النظر إلا أنها لا تكفى لمجرد الاستدلال، فلا بد أن يلجأ فيها إلى النقل، فالحاصل أن المشهور والراجح في المراد بالصلاة الوسطى أنها صلاة العصر، والله أعلم.

روى الإمام أحمد عن علي -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم الأحزاب: ((شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر)).

يقول على بن أبي طالب -رضي الله عنه- -في أول الحديث-: كنا نراها الفجر، حتى سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول يوم الأحزاب: ((شغلونا...)) إلى آخره.

ومن السلف من أشار إلى ملمح تربوي عن المراد بالصلاة الوسطى فقال: حافظْ على الصلوات تدركها -أي الصلاة الوسطى-، وهذا وجه في الجواب جيد؛ لأن الإنسان مأمور أن يحافظ على جميع الصلوات، فإذا حافظ عليها سيدرك الوسطى لا محالة، وهذا خير له من أن يشغل نفسه كثيراً في معرفة المراد بالصلاة الوسطى، خاصة إذ لم يكن هناك أثر ولا نتيجة ولا عمل.

((شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً)) ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء[6].

وكذا رواه مسلم والنسائي وأخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وغير واحد من أصحاب المسانيد والسنن والصحاح من طرق عن علي -رضي الله تعالى عنه-، وحديث يوم الأحزاب، وشغل المشركين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه عن أداء صلاة العصر يومئذ مروي عن جماعة من الصحابة يطول ذكرهم، وإنما المقصود رواية من نص منهم في روايته أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، وقد رواه مسلم أيضاً من حديث ابن مسعود، والبراء بن عازب -رضي الله تعالى عنهما-.

وجاء من حديث أم سلمة، ولكن في إسناده ضعف، وكذلك جاء من حديث حذيفة في قصة الأحزاب.

وروى الإمام أحمد عن سمرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الصلاة الوسطى صلاة العصر))[7].

هذا الحديث غير حديث قصة الأحزاب في بيان الصلاة الوسطى وفيه ضعف، ولكن يمكن أن يحسن لشواهده، ومما يشهد له ما وقع في قصة الأحزاب ((شغلونا عن الصلاة الوسطى)).

وفي لفظ: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى)) وسماها لنا أنها هي صلاة العصر.

وفي لفظ آخر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((هي العصر))[8]، قال ابن جعفر: سئل عن الصلاة الوسطى، ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

---

[6] - أصل الحديث عند مسلم - رواه في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر برقم (٦٢٧) (٤٣٦/١)، و- رواه أحمد في مسنده برقم (٩١١) (١١٣/١).

[7] - رواه أحمد في مسنده برقم (٢٠١٤١) (١٢/٥)، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه عليه: صحيح لغيره رجاله رجال الصحيح.

إذا ثبتت صحة هذا الحديث فالقاعدة في التفسير إن ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- شيء فلا التفات إلى قول أحد معه، لكن من أهل العلم من لا يصحح هذا الحديث أصلاً، ويناقش بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر أحد أفراد العام؛ لأنه أولى بذلك الوصف، مع أن ذلك لا ينفيه عن غيره، لكن هذا يحتاج أن يقال: الصلوات كلها وسطى، والقول بهذا واضح أنه في غاية التكلف.

وروى أبو حاتم بن حبان في صحيحه عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((صلاة الوسطى صلاة العصر))[9].

وقد روى الترمذي عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((صلاة الوسطى صلاة العصر))[10] **ثم قال: حسن صحيح.**

هذه كلها شواهد إذا اجتمعت يحصل لأصل هذا الحديث قوة، فيرتقي بشواهده إلى درجة الحسن لغيره، والله أعلم.

وأخرجه مسلم في صحيحه ولفظه: ((شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر...))[11] **الحديث.**

في وقعة الأحزاب، والأحاديث المرفوعة جاءت عن جماعة من الصحابة كابن عباس، وأبي هريرة، وابن عمر، وأبي مالك الأشجعي وغيرهم.

فهذه نصوص في المسألة لا تحتمل شيئاً، ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها قوله -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الصحيح، عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله))[12].

يعني كأنه سلب أهله وماله.

وفي الصحيح عن بريدة بن الحصيب -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((بكروا بالصلاة في يوم الغيم فإنه من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله))[13].

قوله هنا: "بكروا بالصلاة في يوم الغيم" هذا من كلام بريدة بن الحصيب -رضي الله عنه-، جاءت هذه الرواية صريحة عند البخاري أن بريدة -رضي الله تعالى عنه- قال لهم: بكروا بالصلاة في يوم الغيم، فإني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم ذكر الحديث، فليعلم.

وأما بالنسبة للمراد من قوله -صلى الله عليه وسلم- ((فقد حبط عمله)): فقد أورد الحافظ ابن حجر كعادته أقوالاً كثيرة في تبيين المقصود قال: فمنهم من يقول: أي حبط عمله الدنيوي الذي اشتغل به، وضيع الصلاة من أجله، إن كان تجارة فقد بطلت وذهبت بركتها وما أشبه ذلك، وفيه تكلف.

---

[8] - رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٦٦٨١) (٣٣٨/٦).

[9] - رواه ابن حبان في صحيحه برقم (١٧٤٦) (٤١/٥)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

[10] - رواه الترمذي برقم (١٨١) (٣٣٩/١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٧٢٨٢).

[11] - رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة -باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر برقم (٦٢٧) (٤٣٦/١).

[12] - سبق تخريجه.

[13] - سبق تخريجه.

وبعضهم يقول: فقد حبط عمله الذي يعمله في ذلك الوقت، إن كان عمل عملاً صالحاً فهو مخصوص بهذا، وهذا الكلام لا دليل عليه؛ لأن الأصل أن العمل مفرد مضاف إلى الضمير، ومعلوم أن المفرد المضاف من صيغ العموم، كما قال سبحانه: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ} [(٨٣) سورة النحل] يعني نعم الله، و{أَوْ صَدِيقِكُمْ} [(٦١) سورة النـــــور] أي أو أصدقائكم، وأشباه ذلك.

والصواب أن هذا الحديث من نصوص الوعيد لا يتعرض له بتفسير؛ لئلا يرتفع الزجر المقصود من الحديث بالتأويلات والمحامل التي تضعف أثره في النفوس، وهذا وجه مشى عليه جماعة من أهل العلم، والإمام أحمد كان لا يرى التعرض لمثل هذه النصوص، وهذا الذي اختاره الحافظ ابن حجر –رحمه الله-.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه محمد وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة البقرة (١٠٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ومصطفاه سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ} [(٢٣٨) سورة البقرة] أي: خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمنافاته إياها، ولهذا لما امتنع النبي -صلى الله عليه وسلم- من الرد على ابن مسعود حين سلم عليه وهو في الصلاة اعتذر إليه بذلك وقال: ((إن في الصلاة لشغلاً))[١]، وفي صحيح مسلم أنه -صلى الله عليه وسلم- قال لمعاوية بن الحكم السُلمي حين تكلم في الصلاة: ((إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وذكر الله))[٢].

وروى الإمام أحمد بن حنبل عن زيد بن أرقم قال: كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحاجة في الصلاة، حتى نزلت هذه الآية: {وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ}، فأمرنا بالسكوت،[٣] رواه الجماعة سوى ابن ماجه.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد أورد بعض المفسرين في معنى القنوت ثلاثة عشر قولاً، وهذا الاشتراك في اللفظ مع الاختلاف في المعنى يعرف عند الأصوليين بالمشترك اللفظي، بحيث يكون للفظ في كل موضع معنى يفهم من السياق، ومدلولات الألفاظ قد تختلف بحسب الإفراد والتركيب كما هو مقرر عند علماء التفسير.

ولا شك أن استعمال هذه اللفظة في بعض المواضع يكون أعلق ببعض المعاني من المواضع الأخرى، فهنا جاء ذكر القنوت بعد أمر الله -عز وجل- عباده بالمحافظة على الصلاة، قال سبحانه: **{حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى}** ثم قال: **{وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ}**، مما يؤكد أن هذا الأمر يتصل بالصلاة، ولذا فسر بعض السلف القنوت في الصلاة بمعنى السكوت، وهذا المعنى من أقرب ما يفسر به القنوت في الآية، ذلك لأن الرواية جاءت نصاً في هذا المعنى، فقد كانوا يتكلمون في الصلاة فلما نزلت هذه الآية سكتوا، ولا يمكن الجزم بذلك؛ وذلك لأنه جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قوله: ((أفضل الصلاة طول القنوت))[٤]، قال أهل العلم المقصود به: طول القيام، فلا يمكن أن يفسر هذا الحديث بطول السكوت؛ لأن السكوت لازم في

---

[1] - رواه أبو داود في سننه برقم (٩٤٢) (١/٣٤٧)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٩٢٣).

[2] - رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة -باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة برقم (٥٣٧) (١/٣٨١).

[3] - أصله في الصحيحين - رواه البخاري في كتاب أبواب العمل في الصلاة -باب ما ينهى من الكلام في الصلاة برقم (١١٤٢) (١/٤٠٢)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة -باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة برقم (٥٣٩) (١/٣٨٣)، و- رواه أحمد في مسنده برقم (١٩٢٩٧) (٤/٣٦٨).

[4] - رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها -باب أفضل الصلاة طول القنوت برقم (٧٥٦) (١/٥٢٠).

الصلاة بإطلاق، وهذا مما يدلل على أن السياق هو الذي يبين المعنى من بين المعاني المتنوعة بما هو أعلق به في المقام.

وأحياناً في بعض المواضع لا بد من الترجيح، وتارة يمكن الجمع بين هذه المعاني التي تواردت على اللفظ الواحد، ولشيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية -رحمه الله- رسالة خاصة في القنوت ضمن بعض المجاميع، خرج فيها بنتيجة -بعد استقراء هذه اللفظة ودلالاتها في القرآن- أن القنوت يرجع إلى معنى واحد، وهو: دوام الطاعة، وأما ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في أن المراد من القنوت في الآية الخشوع والاستكانة بين يدي الله -عز وجل-، وقال: هذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمنافاته إياها، فمراده أن هذا إنما هو معنىً من معاني القنوت وإلا فله معانٍ أخرى، فقد فسر القنوت بالطاعة، وفسر بالخشوع، والاستكانة، والسكون، والسكوت، وطول القيام ...، وأما طريقة الجمع فيمكن أن يقال: إن الله -عز وجل- أمر أن يقوموا لله قانتين: أي مطيعين، ويدخل في هذه الطاعة السكوت في الصلاة وطول القيام والسكون والخشوع ...، وكل ما أمر الله -عز وجل- به فهو داخل تحت الطاعة، وهذا ما اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، إذ أدخل جميع هذه المعاني تحت الآية؛ باعتبار أن جميعها يدخل في طاعة الله -تبارك وتعالى-، ولهذا جاء أثر عن مجاهد -رحمه الله- يؤيد هذا، يقول: "من القنوت الركوع والخشوع وطول الركوع -يعني القيام-، وغض البصر، وخفض الجناح والرهبة..." فكل هذه المعاني أدخلها مجاهد في القنوت، وقول مجاهد هذا موافق لما ذكره ابن جرير -رحمه الله-، وهذا من التفسيرات الحسنة عن السلف -رضي الله تعالى عنهم- التي توضح سعة نظرهم وشمول تفسيرهم للمعاني التي تحتملها الآية، وأنهم حينما يذكرون أحد هذه المعاني في كثير من الأحيان فإنما يقصدون بذلك التقريب والتمثيل لا الحصر، والله أعلم.

وقوله: {فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ} [(٢٣٩) سورة البقرة]، **لما أمر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها، وشدد الأمر بتأكيدها، ذكر الحال التي يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل وهي حال القتال والتحام الحرب فقال: {فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا} أي: فصلوا على أي حال كان، {رِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا} يعني: مستقبلي القبلة وغير مستقبليها.**

يعني هذا من باب اللازم -مستقبلي القبلة وغير مستقبليها-، وإلا فأصل معنى **{رِجَالاً}** الذين يسيرون على أقدامهم كما قال سبحانه: **{وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا}** [(٢٧) سورة الحج] يعني على أرجلهم راجلين، **{أَوْ رُكْبَانًا}** يعني كل من ركب شيئاً فإنه يقال له: راكب، والخلاصة أنه رخص لهم ذلك في حال الحرب، فمن مقتضيات ذلك أنهم يصلون على أحوال مختلفة من حيث جهة الاستقبال، والله أعلم.

كما قال مالك عن نافع أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها، ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً على أقدامهم، أو ركباناً مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها، قال نافع: لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، ورواه البخاري -وهذا لفظه- ومسلم.

إذا كان الناس يستطيعون أن يصلوا صلاة الخوف في حالة عدم المواجهة على الهيئات الواردة عن النبي – صلى الله عليه وسلم– جماعة مع استقبال القبلة فهذا هو المطلوب، وأما في حال المواجهة فلا يمكن أن يصلوا جماعة بالطريقة التي وردت، فعندئذ يصلون فرادى بحسب ما يتيسر لهم.

وروى مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن جرير عن ابن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم –صلى الله عليه وسلم– في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة، وبه قال الحسن البصري وقتادة والضحاك وغيرهم.

هذا قول معروف لطائفة من السلف فقد جعلوا الركعة تجزئ عن الفرض في حال الالتحام والخوف الشديد، وخالف الجمهور في ذلك فقالوا: إن الصلاة لا تختصر في الخوف، فإذا لم يتيسر له الركوع فيومئ إيماء، وإذا لم يتيسر له الإيماء فهل يصلي بمجرد التكبير وهو قائم؟ خلاف بين أهل العلم فمنهم من يرى أنه يصلي؛ واستدلوا بقوله سبحانه: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** [(١٦) سورة التغابن]، ومنهم من يرى أنه لا يصلي ولو خرج الوقت، ويحتجون على ذلك بأن النبي –صلى الله عليه وسلم– في يوم الأحزاب لم يصل العصر إلا بعد غروب الشمس، واستدرك هذا الدليل بأنهم لشدة ما وقع عليهم في ذلك الموقف كأنهم نسوا الصلاة، أو كأنهم شغلهم العدو عنها فلم يتفطنوا لها، وهذا واضح جلي من رواية الحديث.

وبعض أهل العلم مثل ابن جرير الطبري –رحمه الله– يقول: لا أحب له أن يختصر الصلاة إلى ركعة واحدة، فإن اضطر إلى ذلك فتجزئه ركعة ذات سجود وركوع.

وقال البخاري: باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو.

وقال الأوزاعي: إن كان تهيأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة صلوا إيماء كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء أخروا الصلاة حتى ينكشف القتال، أو يأمنوا فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين، فإن لم يقدروا لا يجزئهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا، وبه قال مكحول، وقال أنس بن مالك: حضرت مناهضة حصن تُستَر

في بلاد فارس.

عند إضاءة الفجر، واشتد اشتعال القتال فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصلِّ إلا بعد ارتفاع النهار فصليناها ونحن مع أبي موسى، ففتح لنا، قال أنس: وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها، هذا لفظ البخاري.

وقوله: {فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ} [(٢٣٩) سورة البقرة] **أي: أقيموا صلاتكم كما أمرتم، فأتموا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وهجودها.**

{فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ} أي: مثل ما أنعم عليكم وهداكم وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة، فقابلوه بالشكر والذكر، كقوله بعد صلاة الخوف: {فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا} [(١٠٣) سورة النساء]**، وستأتي الأحاديث الواردة في صلاة الخوف وصفاتها في سورة النساء عند قوله تعالى: {وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ}** [(١٠٢) سورة النساء].

{وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيَ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى

الْمُتَّقِينَ * كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [(٢٤٠-٢٤٢) سورة البقرة] **قال الأكثرون: هذه الآية منسوخة بالتي قبلها وهي قوله: {يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا} [(٢٣٤) سورة البقرة].**

الجمهور من المفسرين والفقهاء على القول بأن التربص لمدة سنة منسوخ بالأربعة الأشهر والعشر، وهذا النسخ جرى على غير العادة؛ لأن الناسخ يأتي بعد المنسوخ في ترتيب المصحف، بخلاف هذه الآية؛ فالذي نسخها جاء قبلها في ترتيب المصحف، ولكن هذا ليس في النزول قطعاً؛ لأن النسخ هو رفع الخطاب الشرعي المتقدم بخطاب متأخر متراخ عنه، فلا يمكن أن يكون معه، فكيف يكون قبله، فهذا في الترتيب، وترتيب الآيات كما هو معروف توقيفي، فتنزل الآية فيقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ضعوها في مكان كذا.

وأما الوصية في قوله: **{وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ}** فذهب عامة أهل العلم إلى أنها منسوخة بآية المواريث، فصار لها من الميراث الثمن والربع مما ترك الزوج.

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- فيقول بأن هذه الآية لم تنسخ فيها الوصية إلى الحول، وإنما ذلك على سبيل الاستحباب فقط لا الوجوب، والأقرب: أنها منسوخة، والله أعلم.

روى البخاري عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان بن عفان: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا} قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها -أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه.

ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوهم بقاء حكمها، فأجابه أمير المؤمنين: بأن هذا أمر توقيفي، وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها، فأثبتها حيث وجدتها.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ} فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكناها في الدار سنة فنسختها آية المواريث، فجعل لهن الربع أو الثمن مما ترك الزوج.

القراءة في قوله سبحانه: **{وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم}** جاءت بالرفع وبالنصب، فمن قرأها بالنصب قدر في إعرابها فعلاً محذوفاً تقديره: فليوصوا وصية، أو أوصى الله وصية، أو كتب الله عليهم وصية، والمعنى أن الله -عز وجل- يطالب الأزواج أن يوصوا قبل موتهم لزوجاتهم أن يمتعن في بيوتهم سنة تجرى عليهن النفقة ولا يخرجهم الورثة، وعلى قراءة الرفع **{وصيةٌ لأزواجهم}** تعرب مبتدأ والخبر لأزواجهم، ويكون المعنى أن عليهم وصية تلزمهم لأزواجهم وهي إمتاعهن سنة في بيوتهم، وأكثر الأقوال والتقديرات ترجع إلى الأول.

ولعل من أدق ما قيل في معناها -وهو المتبادر من ظاهر الآية- هو ما ذكره ابن جرير الطبري -رحمه الله- بأن المعنى: كتب الله لأزواجهم عليكم وصية منه لهن أيها المؤمنون ألا تخرجوهن، فالخطاب لأهل الإيمان من الورثة والأولياء، ومن يتحاكمون ويتراجعون إليه، فهم مأمورون بأن ينفذوا ما ذكر الله -عز وجل-، وذلك ليس على سبيل اللزوم بالنسبة للمرأة في أول الأمر، لكن ذلك يلزم الورثة ومن بيده ذلك كالوصي والوكيل ومن يتراجعون إليه ويتحاكمون كالقاضي.

قوله سبحانه: **{مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ}**: يمكن أن يكون منصوباً بفعل محذوف والتقدير: أي متعوهن متاعاً إلى الحول، أو جعل الله لهن ذلك متاعاً، ويمكن أن تقدر على الحال.

قوله: {غَيْرَ إِخْرَاجٍ} يمكن أن يكون هذا حالاً: أي غير مخرجات، والمعنى متعوهن إلى الحول غير مخرجات، أو مخفوض بنزع الخافض والتقدير أي: من غير إخراج، والله أعلم بالصواب.

وروي من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كان الرجل إذا مات وترك امرأته، اعتدت سنة في بيته يُنْفَق عليها من ماله، ثم أنزل الله بعد: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا} [(٢٣٤) سورة البقرة] فهذه عدة المتوفى عنها زوجها، إلا أن تكون حاملاً فعدتها أن تضع ما في بطنها، وقال: {وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ} [(١٢) سورة النساء] فبيّن ميراث المرأة وترك الوصية والنفقة.

قال: وروي عن مجاهد والحسن وعكرمة وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان قالوا: نسختها {أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا}.

وروى البخاري عن مجاهد: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا} قال: كانت هذه العدة، تعتد عند أهل زوجها واجب، فأنزل الله {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيَ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٢٤٠) سورة البقرة] قال: جعل الله لها تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية، إن شاءت سكنت في وصيتها وإن شاءت خرجت، وهو قول الله: {غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ}.

وقال عطاء: قال ابن عباس: نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها، فتعتد حيث شاءت وهو قول الله تعالى: {غَيْرَ إِخْرَاجٍ}.

المقصود بالعدة عند أهلها، أي: أهل زوجها، ويشهد لهذا أثر مجاهد السابق قال: كانت هذه العدة، تعتد عند أهل زوجها واجب، ولكن نُسخ وجوب أمر العدة في بيت زوجها، فلها أن تعتد في بيت أبيها، أو في بيت آخر تملكه، أو غير ذلك.

قال عطاء: إن شاءت اعتدت عند أهلها وسكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت لقول الله: {فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ} قال عطاء: ثم جاء الميراث فنسخ السكنى، فتعتد حيث شاءت ولا سكنى لها، وقول عطاء ومن تابعه على أن ذلك منسوخ بآية الميراث إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلَّم، وإن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر وعشر لا تجب في تركة الميت فهذا محل خلاف بين الأئمة، وقد استدلوا على وجوب السكنى في منزل الزوج بما رواه مالك في موطئه عن زينب بنت كعب بن عجرة أن الفريعة بنت مالك بن سنان وهي أخت أبي سعيد الخدري -رضي الله عنهما-، أخبرتها أنها جاءت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة، فإن زوجها خرج في طلب أعبُدٍ له أبقوا حتى إذا كانوا بطرف القدوم لحقهم فقتلوه قالت: فسألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن أرجع إلى أهلي في بني خدرة فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة، قالت: فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نعم))، قالت: فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أو أمر بي فنوديت له، فقال: ((كيف قلت؟)) فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي، فقال: ((امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله)) قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً، قالت:

فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلي فسألني عن ذلك فأخبرته، فاتبعه وقضى به، وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وجاء في بعض الروايات: أن نعْيه بلغها وهي في دور بعض الأنصار شاسعة عن أهلها –بعيدة–، فلم تكن في بيت زوجها، وهو لم يترك لها داراً ولم يترك لها مالاً، فأخذ منه عامة أهل العلم أن المرأة إنما تعتد في البيت الذي بلغها فيه نبأ وفاة الزوج.

وأما قوله: **{فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ}** هذا بناء على أنها كانت مخيرة، فإن خرجت في أثناء العدة فلا جناح عليكم أيها الورثة بهذا الخروج إذا كان لغير معصية الله –عز وجل– من معروف لا يزري بها أو بأهلها، وإلا فإنها تمنع ويؤخذ على يدها.

وقوله: {وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} [(٢٤١) سورة البقرة] قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزل قوله تعالى: {مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} [(٢٣٦) سورة البقرة]، قال رجل: إن شئتُ أحسنت ففعلت، وإن شئت لم أفعل، فأنزل الله هذه الآية: {وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ}، وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة.

وأيضاً يحتج بها من ذهب إلى استحباب المتعة لكل مطلقة لا الوجوب، وعللوا ذلك بأن المطلقة قبل الدخول بها تعطى نصف الصداق المسمى لها، كما قال الله –عز وجل–: **{فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ}** [(٢٣٧) سورة البقرة] فيكفيها ما أخذت، وأن الله –سبحانه– لم يسم لها متعة في الآية، فلا تستحقها، وعمموا هذا الحكم على المرأة التي طلقت بعد الدخول بها؛ لأنها أخذت من المهر في مقابل ما استحل من بضعها، فلا تستحق معه شيئاً.

لكن الذي يظهر أن الرجل مطالب بأن يمتع المرأة المطلقة شيئاً يجبر خاطرها به، سواء كانت تلك المرأة مطلقة قبل الدخول، أو بعد الدخول؛ لأن الله –عز وجل– عم ذلك بقوله: **{وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ}**، وتعقب على القائل بأن تلك الحالة ذكرت بمفردها ولم تذكر في بعض صور الطلاق، وبأن الله –عز وجل– قد يذكر الحكم في موضع ولا يلزم منه أن يورده في جميع المواضع، والله تعالى أعلم.

قوله سبحانه: **{حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ}** مفهوم المخالفة في الآية غير مراد، فلا يجعل المعنى: أن هذا الحق على المتقين، أما غير المتقين فلا يجب عليهم؛ لأن التقوى منها ما هو واجب، ومنها ما هو مستحب، وهذا الأمر بالإمتاع في الآية من تقوى الله الواجبة.

سواء كانت مفوِّضة أو مفروضاً لها.

المفوِّضة: هي التي لم يفرض لها صداق معين فهذه تعطى المتعة بنص الآية.

أو مطلقاً قبل المسيس، أو مدخولاً بها، وإليه ذهب سعيد بن جبير وغيره من السلف، واختاره ابن جرير.

وقوله تعالى: {لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} [(٢٣٦) سورة البقرة] من باب ذكر بعض أفراد العموم.

وقوله: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ} [(٢٤٢) سورة البقرة] أي: في إحلاله وتحريمه، وفروضه وحدوده فيما أمركم به ونهاكم عنه، بيّنه ووضحه وفسره، ولم يتركه مجملاً في وقت احتياجكم إليه، {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} أي: تفهمون وتتدبرون.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (١٠٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ومصطفاه سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ من دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ * وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [(٢٤٣-٢٤٥) سورة البقرة]**: "روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانوا أهل قرية يقال لها: داوردان، وقال علي بن عاصم: كانوا من أهل داوردان قرية على فرسخ من قبل واسط، وروى وكيع بن الجراح في تفسيره عن ابن عباس: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ من دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ} قال: كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون، قالوا: نأتي أرضاً ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا، قال الله لهم: موتوا، فماتوا، فمر عليهم نبي من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم فذلك قوله -عز وجل-: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ من دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ} الآية".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالاستفهام في هذه الآية: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ من دِيَارِهِمْ}** استفهام تقريري، والرؤية المذكورة رؤية قلبية، بمعنى العلم.

والباري سبحانه إنما أورد هذه القصة ليبين لهم قدرته على إحياء الموتى، وللتدليل على إمكانية البعث بعد النشور الذي أنكره المشركون من قريش وغيرهم، وقد ذكر الله -عز وجل- قدرته على ذلك في خمسة مواضع من سورة البقرة:

الموضع الأول: قوله سبحانه: **{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** [(٥٦) سورة البقرة].

الموضع الثاني: قوله سبحانه: **{وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}** [(٧٣) سورة البقرة] والمعنى: أن الله سبحانه أمرهم بضرب القتيل الذي اختلفوا في قاتله ببعض البقرة التي أُمر بنو إسرائيل بذبحها، فضربوه بجزء منها، فرد الله عليه روحه فتكلم وأخبرهم بقاتله، وبين سبحانه أن في هذه القصة دليلاً على إحيائه الموتى لذوي العقول.

الموضع الثالث: قوله سبحانه: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ من دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ}** [(٢٤٣) سورة البقرة].

الموضع الرابع: قوله سبحانه: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ} [(٢٥٩) سورة البقرة].

الموضع الخامس: قوله سبحانه وتعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٢٦٠) سورة البقرة]، فهذه خمسة مواضع ذكرها الله –عز وجل– في الإحياء بعد الإماتة، وهذا الاستدلال ما هو إلا نوع من الأدلة القرآنية التي يستدل بها على البعث والإحياء بعد الإماتة.

ومن أنواعه: الاستدلال على إحياء الأرض بعد موتها بالبعث بعد النشور كما قال سبحانه: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(٣٩) سورة فصلت].

والآية إنما سيقت لبيان معنى وهو الحث على الجهاد، فلا يترك من أجل استبقاء النفوس والمهج، فإن الآجال لا بد أن تقع كما حددها الله –عز وجل– دون أن تتقدم أو تتأخر، فهؤلاء لما فروا من الموت {فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ}.

ولا بد من العلم أن هذه الروايات التي ذكرها ابن كثير والتفاصيل لا دليل عليها، ولا طائل من تحتها وهي مما أخذ من بني إسرائيل فلا سبيل للوصول إلى معرفة أسانيدها، ثم إن بينها من التناقض ما لا يخفى على مطّلع، مما يؤكد دخول التحريف والكذب في هذه الروايات، فيحسن عدم الاعتماد عليها في التفسير والنقل. والله أعلم.

"وذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة في زمان بني إسرائيل استوخموا أرضهم، وأصابهم بها وباء شديد، فخرجوا فراراً من الموت هاربين إلى البرية، فنزلوا وادياً أفيح، فملئوا ما بين عدوتيه فأرسل الله إليهم ملكين، أحدهما من أسفل الوادي والآخر من أعلاه، فصاحا بهما صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم، موتة رجل واحد، فحيزوا إلى حظائر وبني عليهم جدران وقبور، وفنوا وتمزقوا وتفرقوا، فلما كان بعد دهر مر بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له: حزقيل، فسأل الله أن يحييهم على يديه، فأجابه إلى ذلك، وأمره أن يقول: أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي، فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنادى أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً وعصباً وجلداً، فكان ذلك وهو يشاهده، ثم أمره فنادى أيتها الأرواح، إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره، فقاموا أحياء ينظرون، قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة، وهم يقولون: سبحانك لا إله إلا أنت.

وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع، على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة، ولهذا قال: {إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ} أي: فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة، والدلالات الدامغة، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ} أي: لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم، وفي هذه القصة عبرة ودليل على أنه لا يغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء خرجوا فراراً من الوباء، طلباً لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد، ومن هذا القبيل الحديث

الصحيح الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- خرج إلى الشام حتى إذا كان بصرح لقيه أمراء الأجناد، أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فذكر الحديث، فجاءه عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيباً لبعض حاجته، فقال: إن عندي من هذا علماً سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه))[1]، فحمد الله عمر ثم انصرف، وأخرجاه في الصحيحين".

الشاهد من الرواية قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه))، لأن هذا الخروج لن ينفعكم، وما بعده لا يعارضه فهذا من باب بذل السبب، مع أن المقدر لابد أن يقع، ولذا يحكى أن أعرابياً لما رأى الموتى في القرى خاف، فسأل: كيف السبيل إلى التوقي منه؟ فقيل له: إن القرى يكثر فيها الوباء وعليك بالبوادي، فخرج إلى البادية، يطلب العافية، فوجد قبرين عند كثيب، فقال:

ونبأتماني أنما الموت في القرى   فكيف وهذي هضبة وكثيب

وصدق الله: {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ} [(٧٨) سورة النساء].

"وقوله: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [(٢٤٤) سورة البقرة]، أي كما أن الحذر لا يغني من القدر، كذلك الفرار من الجهاد، وتجنبه لا يقرب أجلاً ولا يبعده، بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدر مقنن لا يزاد فيه ولا ينقص منه، كما قال تعالى: {الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(١٦٨) سورة آل عمران]، وقال تعالى: {وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً * أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ} [(٧٧-٧٨) سورة النساء]، وروينا عن أمير الجيوش، ومقدم العساكر، وحامي حوزة الإسلام، وسيف الله المسلول على أعدائه، أبي سليمان خالد بن الوليد -رضي الله عنه-، أنه قال وهو في سياق الموت: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة، وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء، يعني أنه يتألم لكونه ما مات قتيلاً في الحرب، ويتأسف على ذلك، ويتألم أن يموت على فراشه.

وقوله: {مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} [(٢٤٥) سورة البقرة] يحث تعالى عباده على الإنفاق في سبيل الله، ولقد كرر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع، وفي حديث النزول أنه يقول تعالى: من يقرض غير عديم ولا ظلوم".

أصل القرض في كلام العرب: هو كل ما يلتمس عليه الجزاء، ثم شاع استعماله في المعنى المعروف بالقرض، وهو غير خارج عن هذا؛ إلا أنه إذا كان القرض بمقابل من زيادة يحتسبها المقرض، فإن ذلك هو الربا، جاء في الحديث ((كل قرض جر نفعاً فهو ربا))، وأما إذا كان يحتسب بذلك الجزاء عند الله -عز وجل- في الآخرة فهو المقصود المراد في الآية، والله أعلم.

---

[1] رواه البخاري بلفظ آخر في كتاب الطب -باب ما يذكر في الطاعون برقم (٥٣٩٧) (٥/٢١٦٣)، ومسلم في كتاب السلام -باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها برقم (٢٢١٨) (٤/١٧٣٧)، ورواه أحمد في مسنده برقم (١٦٨٣) (١/١٩٤).

"وقوله: **{فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً}** كما قال تعالى: **{مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء}** [(٢٦١) سورة البقرة] الآية، وسيأتي الكلام عليها.

وقوله: **{وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ}** أي أنفقوا ولا تبالوا، فالله هو الرزاق، يضيق على من يشاء من عباده في الرزق، ويوسعه على آخرين، له الحكمة البالغة في ذلك، **{وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** أي يوم القيامة".

والمعنى أن هذه النفقة ليست هي التي يحصل بسببها الإقلال، وإنما ذلك يرجع إلى تقدير الله -عز وجل-، وحكمته الباهرة وبصريته النافذة في خلقه.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [(٢٤٦) سورة البقرة].

الاستفهام في أول الآية تقريري، والرؤية قلبية علمية كما تقدم.

وقوله سبحانه: **{إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ}** الملأ المراد بهم أشراف الناس، وعِلية القوم، قيل في سبب تسميتهم بذلك؛ لأنهم يملئون صدور المجالس.

وقيل: لأنهم ملِئون بما يطلب منهم وينتظر من قضاء حاجات الناس عندهم، وقيل: سموا بالملأ لأنهم يتمالئون على الأمر، لكونهم أهل الحل والعقد، وقيل: لأنهم مُلئوا شرفاً أو غير ذلك.

وقوله سبحانه: **{هَلْ عَسَيْتُمْ}** عسى من أفعال المقاربة، ودخول أداة الاستفهام عليه إنما هو لتقرير ما هو متوقع عنده من عدم قتالهم، والإشعار بأنه كائن كما قال سبحانه: **{فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}** [(٢٢) سورة محمد].

وقوله سبحانه: **{إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ}** قد يستشكل المعنى عند إعمال التركيب باعتبار أن أصل اللفظة وما لنا أن لا نقاتل، ولذا فإن كثيراً من أهل العلم يلغي عمل أن، ويجعلها زائدة لا اعتبار لها، فيصبح المعنى وما منعنا أو يمنعنا أن نقاتل...، وقال بعضهم: بل يمكن استبقاء أن دون إشكال ويكون المعنى: وأي شيء لنا في أن لا نقاتل، والله أعلم بالصواب.

"قال مجاهد: هو شمويل -عليه السلام-".

شمويل يعني شمعون.

"وقال وهب بن منبه وغيره: كان بنو إسرائيل بعد موسى -عليه السلام- على طريق الاستقامة مدة من الزمان، ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام".

هذه الرواية من الإسرائيليات، وهي من النوع الذي ليس في شرعنا ولا في كتابنا ولا عن رسولنا ما يصدقه ولا يكذبه، ولذا فقد نص أهل العلم على أن هذه الروايات لا نؤمن بها ولا نكذبها، بل تمر كما جاءت دون التعرض لها تصديقاً وتكذيباً، والعلم عند الله.

"ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويقيمهم على منهج التوراة، إلى أن فعلوا ما فعلوا، فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا خلقاً كثيراً وأخذوا

منهم بلاداً كثيرة، ولم يكن أحد يقاتلهم إلا غلبوه، وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان، وكان ذلك موروثاً لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم –عليه الصلاة والسلام–، فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب، وأخذ التوراة من أيديهم ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل، وانقطعت النبوة من أسباطهم ولم يبق من سبط لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قتل، فأخذوها فحبسوها في بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم، ولم تزل المرأة تدعو الله –عز وجل– أن يرزقها غلاماً، فسمع الله لها ووهبها غلاماً، فسمته شمويل –أي سمع الله دعائي–، ومنهم من يقول: شمعون وهو بمعناه.

فشب ذلك الغلام ونشأ فيهم، أنبته الله نباتاً حسناً، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم، وكان الملك أيضاً قد باد فيهم، فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً أن لا تفوا بما التزمتم من القتال معه؟ {قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا } أي: وقد أخذت منا البلاد، وسبيت الأولاد، قال الله تعالى: {فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} أي: ما وفوا بما وعدوا، بل نكل عن الجهاد أكثرهم والله عليم بهم".

قوله سبحانه: {وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا} عبروا بذلك عن جميعهم والمراد من سبي منهم، وأخرج من بلده وداره، وهذا من باب أن الواقع على بعضهم كالواقع على كلهم، فيكون الذين أخرجوا من ديارهم وأبنائهم هم السبايا الذين سباهم عدوهم، بدليل أنهم خاطبوا نبيهم وهم في أرضهم وديارهم، وهذا المعنى هو الذي ذكره ابن كثير، لكن عبارة ابن جرير –رحمه الله– أصرح منها إذ يرى أن المقصود بذلك هو من سبي منهم.

وأما بالنسبة لكونه لم يؤخذ في السبايا إلا الأبناء دون البنات، فلعل ذلك باعتبار ما هو أشرف وأعز على نفوسهم، فإنّ أخذ الأولاد مؤذن بالضعف وتلاشي القوة وذهاب دولتهم، فلا يبقى عندهم رجال يحمون أرضهم ونساءهم، مع أن أخذ النساء من وجه آخر أعظم وأشد، لما فيه من ذهاب العرض، ولذلك قال الله –عز وجل– عن فرعون، ممتناً على بني إسرائيل: {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ} [(٤٩) سورة البقرة]، ثم فسر سوء العذاب بقوله: {يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ} فعدّ استحياء النساء أي إبقاءهن حيات من جملة العذاب الذي يسومونهم به، لما فيه من استذلالها واسترقاقها، وتعرضها للمكروه، وتكليفها ما لا يطاق، فهذا الأمر لا يقل شناعة عن القتل والذبح، والله أعلم.

"{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [(٢٤٧) سورة البقرة] أي: لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً منهم فعين لهم طالوت، وكان رجلاً من أجنادهم، ولم يكن من بيت الملك فيهم؛ لأن الملك فيهم كان في سبط يهوذا، ولم يكن هذا من ذلك السبط، فلهذا قالوا: {أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا} أي كيف يكون ملكاً علينا، {وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ} أي: هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقّاءً،

وقيل: دباغاً، وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف، ثم قد أجابهم النبي قائلا: {إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ} أي اختاره لكم من بينكم والله أعلم به منكم، يقول: لست أنا الذي عينته من تلقاء نفسي، بل الله أمرني به لمّا طلبتم مني ذلك، {وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ} أي: وهو مع هذا أعلم منكم وأنبل، وأشكل منكم، وأشد قوة، وصبراً في الحرب ومعرفة بها، أي أتم علماً وقامة منكم، ومن هاهنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن، وقوة شديدة في بدنه ونفسه، ثم قال: {وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء} أي هو الحاكم الذي ما شاء فعل، ولا يسأل عما فعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه، ولهذا قال: {وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} أي هو واسع الفضل يختص برحمته من يشاء، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه".

قد لا يكون في الآية ما يستدل به على اشتراط الشكل الحسن الذي أشار إليه ابن كثير، والمتفق عليه المستنبط من الآية في صفات الملك: البسطة في العلم بمعنى السعة فيه حتى يبلغ رتبة الاجتهاد المطلق كما اشترطه بعضهم، والبسطة في الجسم بمعنى اكتمال القامة، وقوة البدن، وفَوْر القوة، فيكون ذا رأي وعلم وبصر في الأمور، وقوياً يتحمل الأعباء ويتجلد في الشدائد، ويصبر عند المقارعة والنزال، سليم الأعضاء، ليس فيه عاهة تعطله من القيام بما يناط به، والناس وإن تفاوتوا في هذه الصفات، إلا أن اكتمالها من الكمالات المطلوبة في المتصدر للملك والزعامة، والله أعلم بالصواب.

"{وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(٢٤٨) سورة البقرة] **يقول لهم نبيهم: إن علامة بركة ملْك طالوت عليكم، أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم".**

ويمكن أن يقال: إن علامة ملك طالوت عليكم **{أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ}** والتابوت: صندوق أصله من التوب؛ لأنهم يرجعون إليه، وكانوا ينقلونه معهم في مغازيهم وحروبهم.

"{فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ} قيل: معناه وقار وجلالة، قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: {فِيهِ سَكِينَةٌ} أي: وقار، وقال الربيع: رحمة، وكذلك روي عن العوفي عن ابن عباس".

للمفسرين أقوال في المراد بالسكينة بعضها في غاية التناقض والبعد، فبعضهم صور السكينة كأنها قطة في التابوت لها عيون تشع، ولها ذيل وآذان، فإذا دقت طبول الحرب أطلت برأسها ويديها، فيُفزع العدوَّ منظرُها وينهزمون.

وبعضهم يقول: هي ريح مثل الإعصار له رأسان، كل رأس له وجه، وقيل: إنهم يسكنون إلي التابوت فيما يتصل باختلافهم على طالوت، بحيث يرتفع ذلك الخلاف وهذا الاعتراض، ولكن هذا لا يختص بهذا المعنى، والله أعلم.

ولعل من أحسن ما يفسر به قوله: **{فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ}** أن ذلك من السكون، ففي هذا التابوت من الآيات ما تسكن إليه نفوسهم، وتقوى قلوبهم على قتال عدوهم عند رؤيته، لذا كانوا يحملونه معهم في أسفارهم ومغازيهم، ويضعونه بين أيديهم، وهذا المعنى ذكره ابن جرير في تفسيره.

{آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ} آل فلان يراد بها تارة فلان نفسه، وتارة يراد بها قومه أو أهله، والمقصود بالآل في الآية موسى وهارون، وهذا له شواهد في القرآن كما قال الله -عز وجل- عن آل فرعون: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [(٤٦) سورة غافر] وأراد فرعون، ولكن لا يمنع أن يدخل في الآية قوم فرعون، وكذا قوله سبحانه: {إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} [(٣٣) سورة آل عمران] يعني الأنبياء آدم ونوحاً وإبراهيم، وقيل غير هذا.

"{وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ} روى ابن جرير عن ابن عباس في هذا الآية: {وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ}، قال: عصاه ورضاض الألواح، وكذا قال قتادة والسدي والربيع بن أنس، وعكرمة وزاد: والتوراة، وقال عبد الرزاق: سألت الثوري عن قوله: {وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ}، فقال: منهم من يقول: قفيز من منٍّ، ورضاض الألواح، ومنهم من يقول: العصا والنعلان".

استدل القائلون بأن البقية هي رضاض الألواح بحديث حسنه بعض أهل العلم؛ لأن الألواح -وكانت مكتوبة على زبرجد- لما ألقاها موسى تحطمت، فبقي منها سبعٌ ورُفع الباقي، فوضعوه في التابوت.

وقيل: إن ما بقي في التابوت ليس من موسى وهارون فقط، بل من الأنبياء الذين من نسل نبي الله يعقوب -عليه السلام-؛ لأن من نسله جاء أنبياء بني إسرائيل، والآل هم أجدادك وهؤلاء منهم فيشملهم لفظ الآل، فكان في هذا التابوت آثار لهؤلاء الأنبياء من بني إسرائيل. والله أعلم.

"وقوله: {تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ} قال ابن جريج: قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض، حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون، قال السدي: أصبح التابوت في دار طالوت، فآمنوا بنبوة شمعون، وأطاعوا طالوت.

وقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ} أي على صدقي فيما جئتكم به من النبوة، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت، {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} أي بالله واليوم الآخر".

وجاء في بعض الروايات أنهم جاءوا بالتابوت تسوقه الملائكة بعربات ودواب، وهذا احتمال واضح؛ لأن الآية جاءت بلفظ الحمل وهو منتفٍ في هذه الرواية، والحقيقة أن الإسرائيليات في صفة مجيء الملائكة بهذا التابوت كثيرة، وفيها من المبالغات ما يصعب على المرء تخيله وتصديقه، وبعضها مردود، ولذا يحسن عدم الخوض في تفاصيل الروايات الإسرائيلية؛ لأنه لا يمكن للإنسان أن يصل إلى نتيجة، بسبب ضعف الروايات، ولا يمكنه الاستنباط والفهم من الرواية، ثم لا فائدة تذكر في معرفة هذه التفاصيل، والله أعلم بالصواب.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه محمد، وآله وصحبه، وسلم تسليماً مزيداً إلى يوم الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (١٠٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [(٢٤٩) سورة البقرة]: **"يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل، وكان جيشه يومئذ فيما ذكره السدي ثمانين ألفاً".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله سبحانه: **{فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ}** يعني لما خرج بهم، وذلك بعد أن تبين لهم ما أوجب انقيادهم لحكمه، وإذعانهم لأمره، وإقرارهم لملكه فتبعوه، وجاء في بعض الروايات أن عددهم كان ثلاثمائة ألف وثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة عشر تقريباً، والحقيقة أن الاختلاف في العدد بين هذه الروايات على الرغم من كونها واقعة واحدة، يدل دلالة واضحة على عدم صحتها، فلا يعول عليها في الاستناد، والعلم عند الله.

"فالله أعلم، أنه قال: {إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم} أي مختبركم بنهر، قال ابن عباس وغيره: وهو نهر بين الأردن وفلسطين، يعني نهر الشريعة المشهور.

{فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي} أي: فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه".

مراده من قوله: **{فَلَيْسَ مِنِّي}** يعني ليس مؤمناً بي، ولا هو من أتباعي أو ممن يصحبني بدليل أنه قال: **{فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ}.**

"{وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ} أي: فلا بأس عليه".

القراءة بالضم للغين في قوله: **{غُرْفَةً بِيَدِهِ}** هي قراءة أكثر القراء، وخالف في ذلك نافع وابن كثير وأبو عمرو فقرءوها بالفتح **{إلا من اغترف غَرفة بيده}** ومن أهل العلم من يعد القراءتين -الضم والفتح- بمعنى واحد، وبعضهم يفرق فيجعل الغَرفة بالفتح: ما يكون باليد، والغُرفة بالضم: ما يكون بالإناء، لكن هذا الكلام فيه نظر؛ لأنه قال: **{إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ}** ولذلك يستبعد هذا المعنى.

وذهب آخرون إلى أن الغُرفة بالضم: الماء المأخوذ، وتقدير أخذه باليد من باب الملازمة، وأما الغَرفة بالفتح: فالمرة الواحد، وهذا الذي اختاره جماعة من المحققين في الجمع بينهما، ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، والله أعلم بالصواب.

"قال الله تعالى: {فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ} قال ابن جريج: قال ابن عباس: من اغترف منه بيده روي، ومن شرب منه لم يرو، وقد روى ابن جرير عن البراء بن عازب قال: كنا نتحدث أن أصحاب محمد -صلى

الله عليه وسلم- الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جازه معه إلا مؤمن، ورواه البخاري بنحوه".

ظاهر الآية أن هذا الصنيع صدر من الذين لم يشربوا من النهر إلا بالمقدار الذي حدده لهم، أولئك الذين نجحوا في اجتياز الاختبار الأول، لكنهم سقطوا بعد ذلك حينما رأوا جيش العدو، وهذا ما عليه عامة أهل العلم.

وذهب ابن جرير -رحمه الله- إلى أن هذه الطائفة هي الطائفة الأولى التي شربت، ووجَّه قوله: بأن هؤلاء الذين شربوا لم يرجعوا وإنما ساروا معه، وأن الله إنما خص بالذكر في كتابه الذين يستحقونه ممن أتبعو الملك الذي عينه رسوله، وأغفل ذكر الباقين الذين نكصوا على أعقابهم، وهذا فيه غرابة، وظاهر القرآن يخالفه؛ لأن الله -عز وجل- قال: **{فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ}** وهذا يعني أنه لم يبق معه سوى من امتنعوا عن الشرب إلا بالمقدار المحدد لهم، لكنهم لما رأوا كثرة جيش عدوهم تخاذلوا وتناخروا، ولم يثبت إلا فئة قليلة، ورد في بعض الروايات أن عددهم ثلاثمائة وبضعة عشر، والله أعلم.

وهنا لفتة تربوية ومعنى كبير يؤخذ من هذه الآيات فأكثر الناس على هذه الحال التي قصها الله -عز وجل- في خبر طالوت، إذا تأملت حالهم في شتى الأبواب تجدهم يتطلعون إلى أشياء، ثم بعد ذلك لا يسعون إلى تحققيها، وكثيراً ما يتساقطون إما في الوهلة الأولى، أو في وسط الطريق، أو في آخره، ولا يبقى ولا يستمر إلا أصحاب العزائم القوية، وهذا الأمر لم يسلم منه حتى جيل الصحابة، فإن أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- لما سألوه، عن أحب الأعمال إلى الله، فأخبرهم أنه القتال، تراجع وتباطأ وتثاقل من تثاقل، فأنزل الله -عز وجل-: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ}** [(٢-٤) سورة الصف] فهذا في القتال، وكذلك في سائر الأمور.

والخلاصة أن الإنسان إذا انتدب نفسه لشيء فلا بد أن يستمر عليه حتى آخر لحظة، ولذلك كان الأولى للإنسان أن لا يدخل في شيء إلا إذا كان كما قال ابن القيم: يعلم أن لديه القدرة عليه، وأنه أصلح له في دينه ودنياه ومعاشه وعاقبة أمره وعاجله وآجله، ثم يستخير الله -عز وجل- قبل أن يقدم عليه.

ولا يكون ممن يجيد الكلام ولا يحسن الفعل، فمثله حسبك به ذماً ونقصاً، ولا يصلح إطلاقاً للمؤمن أن يتحلى بغير هذا الخلق، وإلا فلا يضع نفسه في مثل هذه الأمور، ولا يتكلم في شيء منها، وقد قيل: إن في الصمت حكمة.

"ولهذا قال تعالى: {فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ} أي: استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم".

ابن جرير يقول: إن الذين **{قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ}** هم المنافقون والكفار الذين شربوا من النهر، واستمروا مع طالوت، لكن لسوء صنيعهم لم يستحقوا الذكر، والذي يظهر أن هؤلاء ليسوا الذين شربوا أكثر مما قدر لهم، وإنما هم الذين سقطوا في المواجهة والمجابهة إذ إنهم لما رأوا العدو انكسروا وضعفوا، والله أعلم.

"فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عدد ولا عُدد، ولهذا قالوا: {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} [(٢٤٩-٢٥٢) سورة البقرة] أي لما واجه حزب الإيمان -وهم قليل من أصحاب طالوت- لعدوهم أصحاب جالوت وهم عدد كثير قالوا: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا} أي: أنزل علينا صبراً من عندك، {وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا} أي: في لقاء الأعداء، وجنبنا الفرار والعجز {وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}".

ذكر أهل التاريخ أن جالوت هو أمير من العمالقة، وكانت بلدتهم في أريحا في الغور من أرض الأردن.

"قال الله تعالى: {فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ} أي: غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم".

الإذن المراد في هذا المقطع من الآية هو الإذن الكوني القدري، لا الإذن الشرعي، والمعنى أن هزيمتهم إنما كانت بإرادة الله وتقديره.

"{وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ}: ذكروا في الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان في يده، رماه به فأصابه فقتله".

المقلاع: أداة يوضع فيها شيء ليرمى على الخصم، وقد يكون الشيء المرمي صغيراً أو كبيراً.

"وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته، ويشاطره نعمته، ويشركه في أمره فوفى له، ثم آل الملك إلى داود -عليه السلام- مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة، ولهذا قال تعالى: {وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ} الذي كان بيد طالوت، {وَالْحِكْمَةَ} أي: النبوة بعد شمويل، {وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء} أي: مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به -صلى الله عليه وسلم-".

وبعضهم يقول: {وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء} مما ذكره الله -عز وجل- في موضع آخر من كتابه، فقد قال سبحانه: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ} [(٨٠) سورة الأنبياء]، فعلمه نسج الدروع، والتقدير في السرد، لكن هذا من جملة ما علمه الله -عز وجل- إياه ولا يختص به.

"ثم قال تعالى: {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ} أي: لولا الله يدفع عن قوم بآخرين، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت، وشجاعة داود لهلكوا، كما قال تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} [(٤٠) سورة الحج] الآية. وقوله: {وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} أي: ذو منٍّ عليهم ورحمة بهم، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً، وله الحكم والحكمة، والحجة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله، ثم قال تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}: أي هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل، {وَإِنَّكَ} يا محمد {لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}، وهذا توكيد وتوطئة للقسم.

{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ

اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [(٢٥٣) سورة البقرة] يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض".

يحتمل في قوله سبحانه: **{تِلْكَ الرُّسُلُ}** ثلاثة احتمالات:

الأول: يحتمل أن تكون (أل) في الرسل للجنس، فتشمل المفاضلة جميع المرسلين عليهم -الصلاة والسلام-.

الثاني: يحتمل أن يكون المراد عائداً إلى الرسل الذين ذكرهم الله -عز وجل- في هذه السورة، ممن قص الله -عز وجل- خبرهم وأتى على ذكرهم.

الثالث: يحتمل أن المقصود بالرسل أولئك الذين أعلم الله -عز وجل- نبيه -صلى الله عليه وسلم- خبرهم من الأنبياء، ولعل حمل الآية على العموم أقرب هذه المعاني، والله أعلم.

"كما قال تعالى: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [(٥٥) سورة الإسراء]، وقال هاهنا: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ} [(٢٥٣) سورة البقرة] يعني موسى ومحمداً -صلى الله عليهما وسلم-، وكذلك آدم كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر -رضي الله عنه-[1]".

فأما تكليم موسى لربه فقد ذكره الله في كتابه بقوله سبحانه: **{وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}** [(١٦٤) سورة النساء]، وأما محمد -صلى الله عليه وسلم- فكلمه ربه في ليلة المعراج، حينما نادى الله -عز وجل-: إني قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي، وأما تكليم آدم فقد ورد في صحيح ابن حبان من حديث أبي ذر -رضي الله عنه- المعروف وفيه: أنه سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن عدد الأنبياء والمرسلين...، فلما سأله عن آدم قال: نبي مكلم... والحديث مشهور وفيه ضعف؛ لجهالة بعض رواته، وضعّف بعضهم، ومن أهل العلم من يحسن الحديث، بناء على مجموع طرقه وشواهده، لكن الضعف فيها شديد فهي ما بين رجل متروك أو مجهول.

"{وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله -عز وجل-، فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودي في قسم يقسمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده، فلطم بها وجه اليهودي، فقال: أي خبيث! وعلى محمد -صلى الله عليه وسلم-؟، فجاء اليهودي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فاشتكى على المسلم، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تفضلوني على الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي، أم جوزي بصعقة الطور، فلا تفضلوني على الأنبياء))[2] وفي رواية: ((لا تفضلوا بين الأنبياء))، فالجواب: أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر، وأن مقام التفضيل ليس إليكم، وإنما هو إلى الله -عز وجل-، وعليكم الانقياد والتسليم له، والإيمان به".

---

[1] - رواه أحمد في مسنده برقم (٢١٥٨٦) (٥/١٧٨)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف جدا لجهالة عبيد بن الخشخاش.

[2] - رواه البخاري في كتاب الخصومات -باب ما يذكر في الأشخاص والملازمة والخصومة بين المسلم واليهودي برقم (٢٢٨٠) (٢/٨٤٩).

وقال بعض أهل العلم: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر ذلك تواضعاً، فقد جاء في حديث آخر: ((لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى عليه الصلاة والسلام))[3].

ومن أهل العلم من يقول: إن الممنوع هو ما كان على سبيل العصبية والحمية بأن تحمل صاحبها على انتقاص الأنبياء والازدراء بهم، والتنزيل من قدرهم، فإذا أدت المفاضلة بين الأنبياء إلى هذا فتحرم، ولا شك أن فتح باب المفاضلة على وجه الحمية يؤدي إلى أمور لا تحمد عقباها، خاصة بين الجهلة الذين لا يفقهون في دين الله، ولذلك ذكّر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- بأن من الناس من إذا سمع الوقيعة في أبي بكر من بعض الرافضة، فإنه يسب علياً -رضي الله عنه-، وأنه كان في صف القتال، إذا قام النصارى بسب النبي -صلى الله عليه وسلم-، قام بعض المسلمين بسب عيسى -صلى الله عليه وسلم-، إغاظة لهم ورداً عليهم، فهذا لا يجوز، وهو وجه من الجمع، وهذه القاعدة عامة فتشمل الكلام على القراءات القرآنية، إذ يوجد في كثير من كتب التفسير ما يسمى بتوجيه القراءات، فحينما يوجهون القراءة تجد كلاماً يشعر بانتقاص القراءة المفضل عليها، وهذا أمر لا يليق لأن هذا كلام الله -عز وجل-، لكن يمكنه الترجيح دون انتقاص أو تطاول على القراءة الأخرى.

ولا شك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو أفضل الأنبياء والمرسلين، كما يدل عليه حديث الشفاعة، ويدل عليه قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((آت محمداً الوسيلة والفضيلة))[4]، وقوله: ((أنا سيد ولد آدم...))[5] إلى آخره.

وهناك من أهل العلم من يقول: إنه لا حاجة لهذا الجمع أصلاً، ولا يجوز التفضيل بين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- على سبيل الخصوص، وأن الآية إنما هي إخبار من الله -عز وجل- على تفضيله بعض الأنبياء على بعض، ولذا ورد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى الناس أن يفضلوا بين الأنبياء؛ لأنه أمر ليس إليهم كما قال ابن كثير، وهذا الكلام فيه نظر، والجمع بين الأحاديث لا شك أنه أوفق، والله أعلم.

"وقوله: {وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ} أي: الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به من أنه عبد الله ورسوله إليهم، {وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ} يعني أن الله أيده بجبريل عليه السلام".

حكى القرطبي عن مجاهد والحسن البصري أنهما قالا: القدُس: هو الله تعالى، وروحه: جبريل، وقيل غير هذا، والله أعلم بالصواب.

"ثم قال تعالى: {وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ من بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ} أي بل كل ذلك عن قضاء الله وقدره، ولهذا قال: {وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}.

---

[3] - رواه البخاري في كتاب التفسير -باب تفسير سورة النساء برقم (٤٣٢٧) (١٦٨١/٤)، و- رواه مسلم بلفظ ((لا ينبغي لعبد)) في كتاب الفضائل - باب في ذكر يونس عليه السلام وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- ((لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى)) برقم (٢٣٧٧) (١٨٤٦/٤).

[4] - رواه البخاري في كتاب الأذان -باب الدعاء عند النداء برقم (٥٨٩) (٢٢٢/١).

[5] - رواه مسلم في كتاب الفضائل -باب تفضيل نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- على جميع الخلائق برقم (٢٢٧٨) (١٧٨٢/٤).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [(٢٥٤) سورة البقرة] **يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله، سبيل الخير؛ ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكهم، ويبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا، {مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ} يعني يوم القيامة، {لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ} أي لا يباع أحد من نفسه، ولا يفادي بمال ولو بذله، ولو جاء بملء الأرض ذهباً، ولا تنفعه خلة أحد، يعني صداقته، بل ولا نسابته".**

ذكر ابن القيم مراتب المحبة وعدها عشر مراتب، ونقلها أيضاً من غير عزوٍ شارحُ الطحاوية ابن أبي العز الحنفي في الكلام على المحبة، وعد منها الخلة: وهي المحبة الشديدة التي تخالل شغاف القلب، ولذلك جعلها الله لخيرة أنبيائه إبراهيم ومحمد عليهما –الصلاة والسلام– فقد قال سبحانه: **{وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}** [(١٢٥) سورة النساء] وجاء عن أبي الأحوص قال: سمعت عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– يحدث عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: ((لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنه أخي وصاحبي وقد اتخذ الله –عز وجل– صاحبكم خليلاً))[6] فالخلة درجة عالية في المحبة، وليست مطلق المحبة أو الصداقة أو الصحبة أو القرابة أو نحو ذلك، والمعنى أنه لا تنفع الإنسان خلة أحد، وإن بلغت ما بلغت.

"كما قال: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ} [(١٠١) سورة المؤمنون]، **{وَلاَ شَفَاعَةٌ} أي ولا تنفعهم شفاعة الشافعين، وقوله: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} مبتدأ محصور في خبره، أي ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً، وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، ولم يقل: والظالمون هم الكافرون".**

لأن الظلم أوسع من الكفر، وعلى هذا المعنى يصير كل ظالم كافراً، ودخول ضمير الفصل بين طرفي الكلام مشعر بالحصر إضافة إلى تعريف الطرفين –الكافرون والظالمون–، كأنه يقول: الظلم مختص بهم، والظلم له صوره وأشكاله ومنه ما هو دون الكفر، لكن الظلم الأكبر والأعظم المقصود بهذه الآية هو الشرك: أن يجعل العبد لله نداً وهو خلقه ورزقه...، كما قال الله تعالى: **{لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}** [(١٣) سورة لقمان]، وقال: **{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}** [(٨٢) سورة الأنعام] فهم بإشراكهم قد استجمعوا الوصف الكامل من الظلم، هذا هو المراد، والله أعلم.

"{اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [(٢٥٥) سورة البقرة]، **هذه آية الكرسي ولها شأن عظيم، وقد صح الحديث عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بأنها أفضل آية في كتاب الله، روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب: أن النبي –صلى الله عليه وسلم– سأله: ((أي آية في كتاب الله أعظم؟)) قال: الله ورسوله أعلم، فرددها مراراً ثم قال أبيّ: آية الكرسي قال: ((لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر، والذي نفسي بيده إن**

---

[6] – رواه مسلم في كتاب الفضائل –باب من فضائل أبي بكر الصديق –رضي الله عنه– برقم (٢٣٨٣) (١٨٥٥/٤).

لها لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش))[7] ورواه مسلم وليس عنده زيادة ((والذي نفسي بيده)) إلى آخره".

((لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر)) هذا دعاء له كأنه يقول: هنيئاً لك العلم الذي استطعت به أن تستنبط من آيات القرآن على كثرتها أعظم آية في القرآن الكريم من غير سابق علم ولا دراية، فهذا أمر يدل على ثقوب النظر، والقدرة العالية في الاستنباط والاستحضار عند ذلك الجيل الأكمل والرعيل الأنبل.

"روى الإمام أحمد عن أبي أيوب أنه كان في سهوة له تمر".

قال الجزري –في النهاية–: السهوة: بيت صغير منحدر في الأرض قليلاً شبيه بالمخدع والخزانة، وهذا هو الأشهر، وقيل: هو كالصفة تكون بين يدي البيت، وقيل: شبيه بالرف أو الطابق يوضع فيه الشيء، انتهى.

"وكانت الغول تجيء فتأخذ فشكاها إلى النبي صلى الله عليه وسلم".

الغول: الجن أو الشياطين حينما تتمثل للناس في الليل أو تتبدى لهم بصورة آدمي أو غير ذلك، يقال: تغولت الغيلان، يعني تبدت لهم الجن بصور يرونها.

"فشكاها إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال: ((فإذا رأيتها فقل: بسم الله أجيبي رسول الله)) قال: فجاءت فقال لها، فأخذها فقالت: إني لا أعود، فأرسلها فجاء فقال له النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((ما فعل أسيرك؟)) قال: أخذتها، فقالت لي: إني لا أعود، فأرسلتها فقال: ((إنها عائدة))، فأخذتها مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك تقول: لا أعود، وأجيء إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– فيقول: ((ما فعل أسيرك؟)) فأقول: أخذتها وتقول: لا أعود، فيقول: ((إنها عائدة)) فأخذتها فقالت: أرسلني وأعلمك شيئاً تقوله فلا يقربك شيء: آية الكرسي، فأتى النبي –صلى الله عليه وسلم– فأخبره فقال: ((صدقت وهي كذوب))[8]، ورواه الترمذي في فضائل القرآن، وقال: حسن غريب، والغول في لغة العرب: الجان إذا تبدى في الليل".

هذا الحديث صحيح ثابت عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، وهو يدل على صحة وجود هذه الغول –الجن–، ومن أهل العلم من يقول: إن الغول ومثله العنقاء أشياء لا وجود لها ولا حقيقة، وإنما تجري على ألسنة الناس وفي القصص والأخبار وأشعار العرب، ومن ذلك قول صاحب مراقي السعود، لما ذكر مذهب الإمام مالك في بلاد المغرب

وغيره مثل عنقاء مُغْرِب   في كل قطر من نواحي المغربِ

وهو يعنى أن المذهب الوحيد السائد في نواحي المغرب هو مذهب مالك، ولا يوجد سواه من المذاهب في بلاد المغرب، إنما هي أشبه بخبر العنقاء –طائر يُذكر ولا يُرى–، والله أعلم.

"وقد ذكر البخاري مثل هذه القصة عن أبي هريرة فروى في كتاب فضائل القرآن، وفي كتاب الوكالة، وفي صفة إبليس من صحيحه عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: وكلني رسول الله –صلى الله عليه وسلم–

---

7 – رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها –باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي برقم (٨١٠) (١/٥٥٦)، و– رواه أحمد في مسنده برقم (٢١٣١٥) (٥/١٤١)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

8 – رواه الترمذي في سننه برقم (٢٨٨٠) (٥/١٥٨)، وأحمد في مسنده برقم (٢٣٦٤٠) (٥/٤٢٣)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٨٨٠).

بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: دعني فإني محتاج، وعليّ عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟)) قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته وخليت سبيله، قال: ((أما إنه قد كذبك وسيعود))، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: إنه سيعود، فرصدته فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، قال: دعني فإني محتاج، وعليّ عيال، لا أعود، فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟)) قلت: يا رسول الله شكا حاجة وعيالاً فرحمته وخليت سبيله، قال: ((أما إنه قد كذبك وسيعود)) فرصدته الثالثة فجعل يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهذا آخر ثلاث مرات، إنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود، فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: وما هن؟، قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: {اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...} حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله فأصبحت، فقال لي رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((ما فعل أسيرك البارحة؟))، قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله، قال: ((وما هي؟)) قال: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية: {اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...}، وقال لي: لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص شيء على الخير، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((أما إنه صدقك وهو كذوب، تَعْلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟)) قلت: لا، قال: ((ذاك شيطان))[9]، ورواه النسائي في اليوم والليلة".

الشياطين: هم كفار الجن، وبعضهم يقول: إن السعالي هم سحرة الجن، إلا أن الحديث الوارد فيه ضعفه أهل العلم.

فائدة:

إقرار النبي –صلى الله عليه وسلم– الشيطان على قوله: لا يزال عليك من الله حافظ، يحمل على أعم معانيه، فهذا الحافظ من الله –عز وجل– يحفظه من شر الآدميين، ومن شر كل ذي شر من السباع والهوام وكل ما يتخوف من جهته، وقوله بعده: ولا يقربك شيطان حتى تصبح، هذه الجملة الأخيرة في الشياطين، وما قبلها في كل ذي شر، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً، ومزيداً إلى يوم الدين.

[9] – رواه البخاري في كتاب الوكالة –باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز برقم (٢١٨٧) (٨١٢/٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (١١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "روى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد بن السكن -رضي الله تعالى عنها- قالت: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول في هاتين الآيتين {اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [(٢٥٥) سورة البقرة] و{الم * اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [(١-٢) سورة آل عمران]: ((إن فيهما اسم الله الأعظم))[1]، وكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى ابن مردويه عن أبي أمامة -رضي الله تعالى عنه- يرفعه قال: ((اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث: سورة البقرة، وآل عمران، وطه))[2]، وقال هشام وهو ابن عمار خطيب دمشق: أما البقرة فـــ {اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}، وفي آل عمران: {الم * اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}، وفي طه: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} [(١١١) سورة طـــه]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الأحاديث التي أوردها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تحديد الاسم الأعظم، هي مما يقوي القول بأن المراد به الحي القيوم، وعليه جمع من أهل العلم.

وذهب جمع سواهم من أهل العلم إلى اعتبار لفظ الجلالة "الله" الاسم الأعظم، وقد ورد فيه بعض النصوص مثل حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- رجلاً يقول: "اللهم إني أسألك، إني أشهدك أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد"، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب))[3]، وقالوا: إن هذا الاسم تكرر في كثير من الأحاديث الصحيحة التي تذكر الاسم الأعظم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا الاسم ترجع إليه الأسماء الحسنى لفظاً، بمعنى أنها تأتي معطوفة عليه، ولا يعطف على شيء منها.

وترجع إليه معنى، لكونه متضمناً لصفة الإلهية التي يرد إليها جميع الصفات.

وهناك وجه حسن للجمع وهو أن تُجمع هذه الأسماء التي جاءت في تجلية الاسم الأعظم، فيقال: اللهم إني أسألك إني أشهدك أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الحي القيوم، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فتكون بمثابة أقوى ما قيل في تحديده وتعيينه، والله أعلم.

---

[1] - رواه أبو داود برقم (١٤٩٨) (١/٥٥٥)، والترمذي برقم (٣٤٧٨) (٥/٥١٧)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير بـــرقم (٩٨٢)، ولفظهما مختلف عما رواه أحمد في مسنده برقم (٢٧٦٥٢)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف لضعف عبيد الله بن أبي زياد وشهر بن حوشب.

[2] - رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٧٩٤١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٩٨١).

[3] - رواه أبو داود برقم (١٤٩٥) (١/٥٥٤)، والترمذي برقم (٣٤٧٥) (٥/٥١٥)، والنسائي برقم (١٣٠٠) (٣/٥٢)، وابن ماجه (٣٨٥٨) (٢/١٢٦٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٦٤٠).

"وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة فقوله: {اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق.

{الْحَيُّ الْقَيُّومُ} أي: الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً، المقيم لغيره، فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غني عنها لا قوام لها بدون أمره كقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ} [(٢٥) سورة الروم]".

الحي: يعني الذي له الحياة الكاملة من كل وجه، لم تسبق بعدم، ولا يلحقها عدم، ولا يعتورها نقص بخلاف حياة المخلوق.

القيوم: القائم بنفسه والمقيم لغيره، وكل مخلوق إنما يقوم بإقامة الله -عز وجل- له، فهو مفتقر إلى إقامته كل الافتقار، ولولا إقامة الله -عز وجل- على خلقه بأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم لذهبوا واضمحلوا.

"وقوله: {لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ} أي: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه خافية".

هذا من باب التفسير باللازم، وهو يتضمن نفي النقص عن الله -عز وجل-، وهذا تفسير جيد، سار عليه السلف فمن بعدهم من العلماء، فهم قد يفسرون الشيء بلازمه، أو بدلالة تضمنه، أو بغير ذلك من أنواع الدلالة، وكل ذلك صحيح.

وأما التفسير المطابق فجاء في قول ابن كثير بعده.

"ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سِنة ولا نوم، فقوله: {لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ} أي لا تغلبه سنة، وهي الوَسَن والنعاس، ولهذا قال: {وَلاَ نَوْمٌ}؛ لأنه أقوى من السِّنَة".

فالسِّنة في قوله سبحانه: **{لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ}** يعني مقدمة النوم، وهي فتور طبيعي يعتري الإنسان بين يدي النوم، كما قيل: هي خُثُورة النوم ومبادئه ومقدماته، وبعض أهل العلم يقول: إن السِّنة هي النعاس، وبعضهم يقول: السِّنة في الرأس، والنعاس في العين، والنوم في القلب.

وأما النوم فمعروف، وهذا يتضمن أو يقتضي كما سبق نفي النقائص عن الله -عز وجل-؛ لأن النوم نقص، وهو كمال بالنسبة للمخلوق، لكنه ليس بكمال مطلق، والقاعدة التي يذكرها أهل العلم في مجال الرد والمحاجة لطوائف المتكلمين: كل كمال ثبت أو أضيف للمخلوق فالخالق أولى به؛ لأنه معطي الكمال، ومقصودهم بذلك: الكمال المطلق لا النسبي، فالزواج والنوم والولد و...، من الكمالات النسبية بالنسبة للمخلوق، لكن بالنسبة لله -تبارك وتعالى- فإن ذلك نقص في حقه لا يليق فينزه عنه -تبارك وتعالى-.

وقد يرد على هذا سؤال وهو: ألا يكفي نفي أحدهما لنفي الآخر، فإذا قلنا: لا يعتريه سِنة فمن باب أولى لا يعتريه نوم؟ فالجواب أن يقال: إن النوم قد يهجم على قلب الإنسان بدون مقدماته كالنعاس ونحوه، وبالمقابل فقد يرد على العبد النعاس ولا يرد عليه النوم، كما هو مشاهد وملاحظ، ولذلك استحسن إيرادهما في مقام النفي عن الله -عز وجل-؛ ويلاحظ أنه جاء بالنفي بعد إثبات اسميه الحي والقيوم؛ وهذا لتبيين أنه من كمال حياته وقيوميته لا يعتريه ما ذكر، والله أعلم.

"وفي الصحيح عن أبي موسى -رضي الله تعالى عنه- قال: قام فينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأربع كلمات فقال: ((إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار

قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه))[4].

وقوله: {لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه، وتحت قهره وسلطانه، كقوله: {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [(٩٣-٩٥) سورة مريم]".

هذا المقطع من الآية فيه دلالة على سعة ملكه -جل جلاله-، وعظمة خلقه وقوة سلطانه وقهره.

"وقوله: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} كقوله: {وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى} [(٢٦) سورة النجم]، وكقوله: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} [(٢٨) سورة الأنبياء]، وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه -عز وجل-، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذن له في الشفاعة، كما في حديث الشفاعة: ((آتي تحت العرش فأخر ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تشفع، قال: فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة))".

قوله سبحانه: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} له اتصال بما قبله في الدلالة على سعة ملكه وعظيم سلطانه، ووجه: أن ملك المخلوق ناقص، ونقصه من وجوه متعددة منها: أنه يشفع بين يديه من غير إذنه، وأن المخلوق قد يقبل الشفاعة خوفاً من الشافع، سواء كان الخوف من غائلته، أو من تحول قلبه، أو نحو ذلك.

وأما الله -عز وجل- فليس شيء من ذلك واقعاً، فهو -سبحانه وتعالى- لكمال ملكه ليس بحاجة إلى أحد، ولا يخشى أحداً من المخلوقين، ولا يقوم ملكه بأحد منهم، ولذلك فإنه لا يتقدم بالشفاعة أحد بين يديه إلا لمن يأذن له، ولا يشفع إلا فيمن ارتضى، فهذا من كمال ملكه سبحانه وتعالى.

والاستفهام في قوله: {مَن ذَا الَّذِي} معناه أي لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه.

"وقوله: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها، كقوله إخباراً عن الملائكة: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} [(٦٤) سورة مريم]".

وهذا فيه دلالة على سعة العلم والإحاطة، فإحاطته -سبحانه- شملت هذه الأرض الممتدة الأطراف، الشاسعة البون، العظيمة الخلق، مطلع على شئون خلقه فيها، محيط بكل حركاتهم وتصرفاتهم على ظهرها، لا يخفى عليه شيء من أمورهم البتة، بخلاف ملوك الدنيا فإنه يخفى عليهم عامة ما يجري من أحوال تلك البقعة التي صاروا ملوكاً فيها.

"وقوله: {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء} أي لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله -عز وجل- وأطلعه عليه، ويحتمل أن يكون المراد لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم الله عليه كقوله: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [(١١٠) سورة طـه]".

---

[4] - رواه مسلم في كتاب الإيمان -باب في قوله عليه السلام: ((إن الله لا ينام))، وفي قوله: ((حجابه النور لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)) برقم (١٧٩) (١/١٦١).

ويحتمل اللفظ معنى آخر قريباً: وهو أن الضمير يرجع إلى المذكور آخراً وهو قوله: **{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}** والمعنى ولا يحيطون بشيء من علم ما بين أيديهم وما خلفهم، الذي هو جزء من علم الله، وعليه فعندنا ثلاثة احتمالات في مرجع الضمير فهذا الأول.

والثاني: يحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله -عز وجل-، والمعنى أنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، فعلمه محيط بهم وهم لا يحيطون بشيء من علم ذاته وصفاته إلا ما أطلعهم الله -عز وجل- عليه، وليس ذلك بإحاطة.

والثالث: يحتمل أن يرجع الضمير إلى علم الله، والمعنى أن الله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وهم لا يحيطون بشيء من علمه سبحانه وتعالى.

وبين المعنيين الثاني والثالث تلازم كبير، وهما الأشهر في التأويل، فعلم ما بين أيديهم وما خلفهم هو جزء من علم الله، فإذا قلت: إنهم لا يحيطون بشيء من علم الله، فشيء: نكرة في سياق النفي تفيد العموم، فيدخل فيه علم ما بين أيديهم وما خلفهم من باب دلالة التضمن؛ لأن التضمن: هو دلالة الشيء على جزء معناه، ويدخل فيه عموم علم الله -عز وجل- من باب أولى بدلالة الالتزام، لأنهم إذا كانوا لا يحيطون ببعضه وهو ما يتصل بما بين أيديهم وما خلفهم، فيلزم من ذلك أنهم لا يحيطون بالكل، فالمقصود أن بين المعنيين ملازمة، والقاعدة: أن الآية إذا احتملت أكثر من معنى فلا مانع من حملها على الجميع، والمعنى **{وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ}** يعني لا من علم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا من عموم علم الله -تبارك وتعالى-، ولا نحتاج أن نرجح بين هذه المعاني، وهذا من بلاغة القرآن، أنه يعبر عنه بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة.

"وقوله: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}، روى وكيع في تفسيره عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره، ورواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- موقوفاً مثله، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لو أن السماوات السبع، والأرضين السبع، بسطن، ثم وصلن بعضهن إلى بعض، ما كن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة.

وقوله: {وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا}: أي لا يثقله ولا يكرثه حفظ السماوات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغير بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة، وهو الغني الحميد الفعَّال لما يريد، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم، لا إله غيره ولا رب سواه".

أصل يئوده: من آده أي جعله ذا عوج، يقال للعمود وضع عليه: آده، أي وضع عليه شيء ثقيل جداً حتى انثنى ومال، والمعنى أنه لا يثقله حفظ السموات والأرض ولا يعجزه، وهذا يدل على كمال قوته وعظمته.

"فقوله: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} كقوله: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} [(٩) سورة الرعد]**، وهذه الآيات**

وما في معناها من الأحاديث الصحاح، الأجود فيها طريقة السلف الصالح، إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه".

الأحسن أن يعبَّر بالقول: من غير تكييف ولا تمثيل، فنثبت لله –عز وجل– هذه الأسماء والصفات، وهي على قسمين: ثبوتية وسلبية

فالثبوتية: ما أثبته الله –تعالى– لنفسه في كتابه، أو على لسان رسوله –صلى الله عليه وسلم–، وكلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، كالحياة والعلم والقدرة والاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا والوجه واليدين ونحو ذلك، فيجب إثباتها لله تعالى حقيقة على الوجه اللائق به، بدليل السمع والعقل.

والصفات السلبية: ما نفاها الله سبحانه في كتابه، أو على لسان رسوله –صلى الله عليه وسلم–، وكلها صفات نقص في حقه كالموت والنوم والجهل والنسيان والعجز والتعب، فيجب نفيها عن الله تعالى مع إثبات ضدها على الوجه الأكمل؛ لأن النفي بمجرده ليس بكمال، ولا يمدح أحد به، إلا أن يتضمن ما يدل على الكمال، فالنفي عدم، والعدم ليس بشيء فضلاً عن أن يكون كمالاً، والله أعلم.

"{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [(٢٥٦) سورة البقرة]، يقول تعالى: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام فإنه بيّن واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكرَه أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقصوراً".

كلام الحافظ ابن كثير في معنى الآية يعتبر من أحسن ما قيل في تفسيرها، ومن أهل العلم من استشكله، وعقدة الإشكال نابعة من مسألة فرضية الجهاد، وأن الكفار من غير أهل الكتاب كالمجوس والوثنيين مخاطبون بالإسلام أو السيف ولا تقبل منهم الجزية، على قول كثير من أهل العلم، وهذا يتنافي مع مسألة لا إكراه في الدين، وحقيقة هذا المحك هو الذي جعل أقوال أهل العلم تتباين في الكلام على الآية.

فقال بعضهم: إن هذه الآية كانت في أول الأمر على البراءة الأصلية ثم نسخت بآيات الجهاد بمثل قوله: **{سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ}** [(١٦) سورة الفتح]، وقوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً}** [(١٢٣) سورة التوبة] وقالوا: إن الله لم يجعل إلا أحد الخيارين إما القتال أو الإسلام، لكن القاعدة: أن النسخ لا يثبت بالاحتمال، فليس مجرد توهم المقابلة بين النصوص يكون مسوغاً لدعوى النسخ؛ لأن النسخ شديد، وذلك أنه يقتضي إهدار أحد الدليلين، أو الحكم برفع أحد النصين، والعلماء متفقون على أن الجمع مطلوب ما أمكن.

وبعض أهل العلم حاول أن يجمع بين الأمرين وهذا هو الأوفق، فمنهم من قال: هذه الآية ظاهرها العموم لأنه قال: **{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}** والإكراه هنا نكرة في سياق النفي فتفيد العموم، فهذا عام لكنه يراد به الخصوص، فتبقى الآية من العام المراد به الخصوص، وجعلوها منزّلة على من له خيار ثالث وهو الجزية، فهي تؤخذ من أهل الكتاب ومن المجوس، إذ يسن بهم سنة أهل الكتاب، وبهذا الاعتبار فالآية محكمة، وليست بمنسوخة، وأما العرب فلم يدخلوا فيها؛ لأن لفظها عام، ويراد بها معنى خاص وهم: أهل الكتاب.

وقال بعضهم: المراد من الآية السبي من أهل الكتاب لا تكرهوهم على اعتناق الإسلام، وهذا المعنى اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري –رحمه الله–.

ومن أهل العلم من قال: إن هذه الآية عامة خصصتها الأدلة الأخرى، والعام يحمل على الخاص، ولا تعارض بين العام والخاص.

وذهب آخرون إلى أن هذه الآية باقية على عمومها، وهو مضمون كلام ابن كثير، واختاره الحافظ ابن القيم –رحمه الله– وجماعة من المحققين، وهو المتبادر وذلك أن الله –عز وجل– لم يأمر بإكراه أحد على الدخول في الدين، ولم ينقل عن النبي –صلى الله عليه وسلم– في حالة واحدة في جهاده وحروبه –عليه الصلاة والسلام– أنه أكره أحداً على الدخول في دين الله –عز وجل–، والشواهد كثيرة من صنيع النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه في المغازي وغيرها.

ولذلك لما قدم النبي –صلى الله عليه وسلم– المدينة وكان فيها بعض المشركين من اليهود وغيرهم صالحهم، ومن جملة من صالحهم أيضاً العرب بما فيهم أهل مكة وهو في المدينة، واستمر بينه وبينهم العهد حقبة من الزمن حتى نقضوا ما أبرموه وعاهدوا الله عليه، مما اضطر النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى قتالهم لتفتح مكة بعدها عنوة، وتصبح في حوزة المسلمين، وبعد فتح مكة لم يجبر أحداً على الدخول في الدين وكان هذا بمقدوره، حتى إنه لما قاتل بعدها في حنين خرج بعضهم معه للقتال ولم يسلم بعد، وإنما خرجوا حمية أو ليروا نتيجة المعركة والغلبة لمن؟ ولذلك اختلفوا في بعض من خرج، وكان له في الكفر شأن كصفوان بن أمية هل أسلم حينها أم لا؟، فالحاصل أنه –صلى الله عليه وسلم– لم يكن ليكره أحداً بعينه سواء من أهل مكة أو غيرهم على الدخول في الإسلام إطلاقاً.

وأما من استشكل مشروعية الجهاد بقوة السيف وتوهم معارضته في الظاهر للآية، فليس له فيه أدنى متلمس من حجة، ذلك أن الجهاد إنما شرع لصد عادية الكفار، وأيضاً لإبلاغ دين الله –عز وجل– بقمع الكفار وكسر شوكتهم حتى يبلغ دين الله –عز وجل– الآفاق، فلا يحال بين الناس وبين الحق، فيبقى شرع الله –عز وجل– مبثوثاً حاكماً في أرضه، أما الأفراد فلا يكره أحد منهم على ذلك، فالآية باقية على عمومها، ولذلك عمر –رضي الله عنه– كما أخرج البخاري في صحيحه مر بعجوز نصرانية فقال لها: أسلمي تسلمي، فأبت فقرأ هذه الآية: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}، وقال لزنبق وهو غلام لعمر نصراني، قال له: أسلم كي أستعملك في شيء من أمانة المسلمين، فأبى فقرأ عمر: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}، والله أعلم.

"وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عاماً ".

والله أعلم، وصلى وسلم، وبارك على نبيه وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً ومزيداً إلى يوم الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير تفسير ابن كثير (١١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "روى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كانت المرأة تكون مقلاة فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله -عز وجل-: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [(٢٥٦) سورة البقرة]،[1] وقد رواه أبو داود والنسائي".

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الرواية التي نسبت لابن جرير صحيحة صريحة في سبب نزول قوله: **{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}**، وهي وإن نزلت لبيان واقع معين، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وسبب النزول كما هو معلوم يوضح المعنى ويرتفع به الإشكال، فتبقى هذه الآية على ظاهرها وعمومها، فلا يُكرَه أحد على الدخول في الدين، امتثالاً لأمر المشرع العظيم -جل جلاله-، ولأنه لم يعهد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في غزواته وحياته عمل شيء من ذلك، والله أعلم.

"فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لرجل: ((أسلم)) قال: إني أجدني كارهاً، قال: ((وإن كنت كارهاً))[2]، فإنه ثلاثي صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل، فإنه لم يكرهه النبي -صلى الله عليه وسلم- على الإسلام بل دعاه إليه، فأخبره أن نفسه ليست قابلة له بل هي كارهة، فقال له: أسلم، وإن كنت كارهاً، فإن الله سيرزقكم حسن النية والإخلاص".

المراد بالحديث الثلاثي الصحيح: هو الذي يكون بين المصنف وبين النبي -صلى الله عليه وسلم- ثلاثة رواة -الصحابي والتابعي وتابع التابعي من أهل القرون المفضلة-، وهذه الأحاديث مشهورة بثلاثية الإسناد أو ثلاثية مسند أحمد.

وقد ساق ابن كثير هذا الحديث ليؤكد أنه ليس حجة لأحد في تقرير جواز الإكراه على الدين، مستنداً في دعواه ومشروعيته على ذلك بحديث أنس؛ لأنه ليس من هذا الباب كما بينه، ثم هناك فرق بين أن تكون الكراهية منبعثة من نفس الإنسان على أمر دون أن يكره عليه، وبين إرغامه وإلزامه بأمر على سبيل الإكراه، وهذا ما يفهم خلافه من الحديث.

---

[1] - رواه أبو داود برقم (٢٦٨٤) (٣/١١)، و- رواه النسائي في سننه الكبرى برقم (١١٠٤٩) (٦/٣٠٤)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٢٦٨٢).

[2] - رواه أحمد في مسنده برقم (١٢٨٩١) (٣/١٨١)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

"وقوله: **{فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}** **[(٢٥٦) سورة البقرة]**".

هذه الآية فيها تمثيل لأمر معنوي بصورة أمر حسي، فقد مثل الله –عز وجل– الذي اعتصم بهدى الإيمان كمن تعلق وتمسك بعروة شيء وثيقةٍ لا تنكسر، يجني من وراء تمسكه بها مقصوده من النجاة، فيحظى ببلوغ المطلوب، وينجو من أليم المرهوب، فهذا تصوير للمعنويات بأمر حسي غاية في البلاغة والأسلوب، والله تعالى أعلم.

"أي من خلع الأنداد والأوثان، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحد الله فعبده وحده، وشهد أنه لا إله إلا هو {فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ} [(٢٥٦) سورة البقرة]**: أي فقد ثبت في أمره، واستقام على الطريق المثلى، والصراط المستقيم".**

هذه العبارة القصيرة على اختصارها جمعت كثيراً مما قاله السلف –رضي الله تعالى عنهم–.

ومعنى الطاغوت: فعلوت من طغى يطغى ويطغو، أي جاوز الحد، فهو اسم جنس لكل ما يعبد من دون الله –عز وجل–، وبعضهم يقول: إنه مصدر يطلق على الواحد وعلى الجمع، وعبارات السلف فيه كثيرة.

"روى أبو قاسم البغوي عن حسان بن فائد العبسي قال: قال عمر –رضي الله تعالى عنه–: إن الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان، وإن الشجاعة والجبن غرائز تكون في الرجال، يقاتل الشجاع عمن لا يعرف، ويفر الجبان من أمه، وإنّ كرم الرجل: دينه، وحسبه: خلقه وإن كان فارسياً أو نبطياً.

ومعنى قوله في الطاغوت: إنه الشيطان، قوي جداً، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان، والتحاكم إليها، والاستنصار بها".

وبعضهم يقول الطاغوت: الكاهن، وبعضهم يقول: الساحر، وبعضهم يقول: ما عبد من دون الله –عز وجل– وهو راض بطبيعة الحال، والحقيقة أن الطاغوت يحتمل جميع ما ذكر، فكل من جاوز حده وطغى فهو طاغوت، فذو الطغيان الذي جاوز حده يقال له: طاغوت، والله أعلم.

"وقوله: **{فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا}** [(٢٥٦) سورة البقرة] أي: **فقد استمسك من الدين بأقوى سبب".**

وهو الحبل الوثيق المحكم.

والوثقى: يمكن أن تكون من الوثاقة، وهو تصوير يقرب المعنى بصورة محسوسة، ففيه تشبيه، والمعنى أن من أراد الخلاص لنفسه فإنه يتمسك بشيء وثيق يعتصم به، وهذا الذي يؤمن بالله – عز وجل–، ويخلع الأنداد والأضداد ويكفر بجميع أنواع الطواغيت، الكبار والصغار، الأحياء والأموات، قد أخذ من النجاة المحققة بأوثق سبب، وقد سلك طريق الخلاص، فلا يلحقه هلكة ولا مكروه.

"**{لاَ انفِصَامَ لَهَا}** **فهي في نفسها محكمة مبرمة قوية، وربطها قوي شديد، ولهذا قال: فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها".**

يقول معاذ بن جبل –رضي الله تعالى عنه–: **{لاَ انفِصَامَ لَهَا}** أي لا انقطاع لها دون دخول الجنة، وهذا تفسير قريب من جهة المعنى.

والانفصام في اللغة: أي الانكسار من غير إبانة، ومع الإبانة يقال له: قصم، قال الشاعر:

إن الألـــى يـسكن غـور تهامـــة فكل كَعاب تترك الحجـل أفـصما

أفصما: يعني منكسراً، تكسر الحجل لضخامة ساقها، وفي بعض روايات البيت: تترك الحجل أقصما: أي منكسراً مع الإبانة، فيكون المعنى **{لاَ انفِصَامَ لَهَا}** يعني لا انكسار لها، فما دام قد اعتصم بطاعة الله فهو كالمتمسك بالوثيق من الأشياء التي لا يخشى انكسار عراها، هذا معنى كلام ابن كثير، وذكره ابن جرير، وعليه عامة المحققين، وكلام السلف يدور حول هذا المعنى، إلا أنهم يعبرون عنه بعبارات قريبة لكنها تدور في فلكه. والله أعلم.

"قال مجاهد: العروة الوثقى يعني الإيمان، وقال السدي: هو الإسلام".

هذا يسمى في التفسير خلاف التنوع.

"وروى الإمام أحمد عن قيس بن عباد قال: كنت في المسجد فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع، فدخل فصلى ركعتين أوجز فيهما، فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة، فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله فدخلت معه فحدثته، فلما استأنس قلت له: إن القوم لما دخلت قبل المسجد، قالوا: كذا وكذا، قال: سبحان الله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لمَ: إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقصصتها عليه، رأيت كأني في روضة خضراء، قال ابن عون: فذكر من خضرتها وسعتها، وفي وسطها عمود حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة فقيل لي: اصعد عليه، فقلت: لا استطيع، فجاءني منصف، قال ابن عون: هو الوصيف، فرفع ثيابي من خلفي فقال: اصعد، فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة فاستيقظت وإنها لفي يدي، فأتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقصصتها عليه فقال: ((أما الروضة فروضة الإسلام، وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهي العروة الوثقى، أنت على الإسلام حتى تموت))، قال: وهو عبد الله بن سلام -رضي الله تعالى عنه- وأرضاه[3]، أخرجاه في الصحيحين، وأخرجه البخاري من وجه آخر.

{اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٢٥٧) سورة البقرة] يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم ويحيدونهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك، {أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٢٥٧) سورة البقرة]، ولهذا وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد، والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة، كما قال: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [(١٥٣) سورة الأنعام]، وقال تعالى: {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [(١) سورة الأنعام]،

---

[3] - رواه البخاري بلفظ آخر في كتاب فضائل الصحابة -باب مناقب عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- برقم (٣٦٠٢) (٣/١٣٨٧)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- باب من فضائل عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- برقم (٢٤٨٤) (٤/١٩٣٠)، وهذه الرواية بلفظ أحمد رواها في مسنده برقم (٢٣٨٣٨) (٥/٤٥٢)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وقال تعالى: {عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ} [(٤٨) سورة النحل] إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتفرقه وتشعبه".

ليست الآية على ظاهرها كما يتوهم البعض فقوله سبحانه في الفريق الأول: **{يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ}** [(٢٥٧) سورة البقرة] ليس المراد أنهم كانوا في الظلمات، وكذا قوله في حق الكافرين: **{يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ}** [(٢٥٧) سورة البقرة]، أنهم كانوا في النور، بل المراد كما نص عليه أهل التفسير أنه من كان على إيمان ثم خرج منه إلى الكفر، مثل من كان على الإسلام ثم ارتد، أو كان على النصرانية التي جاء بها عيسى قبل مبعث النبي –صلى الله عليه وسلم– ثم صار مُثلثاً، أو كان على التوحيد الذي جاء به عيسى –صلى الله عليه وسلم– فلما بعث محمد –عليه الصلاة والسلام– بقي على نصرانيته ولم يؤمن برسول الله –صلى الله عليه وسلم– فكَفر، فهؤلاء لا شك أن الشيطان أخرجهم من نور الهداية التي كانوا فيها إلى الظلمات، وهذا المعنى مال إليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري –رحمه الله–، وهذه كقوله –تبارك وتعالى– في أول سورة البقرة: **{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ}** [(١٧٥) سورة البقرة] ومعلوم أنهم لم يكونوا على الهدى حتى يستعيضوا به الضلالة، ولم يملكوا المغفرة حتى يستبدلوا عنها العذاب، بل إنهم لما اختاروا الكفر والضلالة على الإسلام صح إطلاق ذلك عليهم **{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}** [(١٦) سورة البقرة].

إذاً فمعنى قوله سبحانه: **{يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ}** [(٢٥٧) سورة البقرة] أي يخرجونهم من نور الفطرة، ويصرفونهم عن دلائل الحق وبيناته، وبراهين الإسلام التي بعث بها رسله –عليهم الصلاة والسلام– إلى ظلمات الكفر والشُّبه والحيرة والضلال بجميع أنواعه.

وقوله سبحانه: **{يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ}** المراد أنه يخرجهم من ظلمات الكفر والشُّبه إلى نور الإسلام وبيناته وهداياته، سواء كان الإنسان عادماً لأصل ذلك، فلم يكن على الإسلام فهداه الله –عز وجل– إليه، أو كان مسلماً فإن الله ينقله من هداية إلى هداية، ويبيّن له من براهين الحق ما يدفع عنه الشُّبه المضلة، كما قال –تبارك وتعالى– في سورة أخرى: **{هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ}** [(٤٣) سورة الأحزاب] المراد أنه ينقلهم من هداية إلى هداية، ولهذا أُمر المسلمون بأن يقولوا في كل ركعة: **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}** [(٦) سورة الفاتحة] والمعنى ثبّتنا وسددنا، والصراط متشعب وتفاصيله كثيرة جداً، لذا يحتاج الإنسان أن يعرف الحق، وبعده يحتاج الهداية إلي العمل، ثم يعرف وجوه المفاضلة بين الأعمال فيهدى ويسدد ليختار الأفضل ويوفق إليه، وتبقى له أخيراً الوسيلة في الثبات علي الطريق حتى الممات، فالإنسان بحاجة ملحة إلى وسائل الهداية ما دام أن تفاصيل الشريعة كثيرة، والخلاف بين أفراد الأمة على أوجه وأوسع أبوابه.

"{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [(٢٥٨) سورة البقرة]، هذا الذي حاج إبراهيم –عليه السلام– في ربه هو ملك بابل

نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، ويقال: نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح".

هذه الأسماء أعجمية لم تنقل عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، إنما يذكرها المؤرخون في مصادرهم المختلفة ومع هذا لم يتفقوا علي شيء منها، وتجد الاختلاف يحصل بينهم في التقديم والتأخير، أو تحديد الاسم أحياناً، وهذا قد يكون مرده إلى خطأ في الطباعة، أو من قبل الناسخ، أو بسبب المحقق والرواة النقلة، ولذلك لا يعول عليها في الإثبات أو النفي، والله أعلم.

"والأول قول مجاهد وغيره، قال مجاهد: وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان بن داود عليهما السلام، وذو القرنين، والكافران نمرود، وبختنصر، والله أعلم.

ومعنى قوله: {أَلَمْ تَرَ} أي بقلبك يا محمد".

بمعنى أن الرؤية رؤية قلبية؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما حضر ذلك ولا شاهده بعينه، فهي رؤية قلبية بمعنى: ألم تعلم؟ كما سبق.

"{إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ} أي: وجود ربه، وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره، كما قال بعده فرعون لملئه: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [(٣٨) سورة القصص]".

ظاهر قوله سبحانه: **{مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي}** قد يشكل عليه ما جاء في الآية الأخرى، وهي قول الملأ لفرعون: **{وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ}** [(١٢٧) سورة الأعراف]، فدلالتها واضحة في كون فرعون له آلهة أخرى، وكذا القراءة الأخرى غير المتواترة: **{ويذرك وإلهتك}** فإلهتك مصدر، والمصدر يقع على الفاعل والمفعول، ومعناها يحتمل أمرين:

الأول: ويذرك وعبادتك، أي لا يعبدك.

الثاني: أي فيختار لوناً آخر من العبادة يخالفك بها في الدين، ولكنها قراءة ليست متواترة، ولا تفسِّر القراءة المتواترة في هذا الموضع؛ لاختلافهما في المعنى.

والجواب على هذا الإشكال كما قال العلماء: إن فرعون ما دعاه إلى قوله: **{مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي}** إلا المكابرة في مقام الخصومة فقط، ويشهد له رد موسى عليه، وتقريره خلاف مقاله: **{قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ}** [(١٠٢) سورة الإسراء]، وهكذا فضح القرآن خُبْرَه في أكثر من آية، وجحوده واستكباره وأنفته من الحق قال الله -عز وجل-: **{وَجَحَدُوا بِهَا}** أي فرعون وقومه جحدوا بالآيات الدالة على رسالة موسى وصدق دعوته **{وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}** [(١٤) سورة النمل] وهذا هو المشهور عند أهل العلم.

وبعض أهل العلم قال: إنه كان يُعبّد الناس لنفسه وهو يعبد آلهة أخرى، ومن نظر في تاريخ الفراعنة يجد أنهم كانوا يعبدون من دون الله -عز وجل- معبودات كثيرة، لكن الذي يظهر أنه كان لا يعتقد ذلك.

والمعلمي -رحمه الله- له كلام غريب في توجيه هذا في بعض كتبه، لم يوافقه أحد عليه، فالله أعلم.

"وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره وطول مدته في الملك، ولهذا قال: {أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ}".

المعنى على كلام ابن كثير: لأن آتاه الله الملك، فتكون أن هنا تعليلية واختار هذا المعنى ابن جرير، وبعضهم يجعل المعنى: من أجل أن آتاه الله الملك، أي أن الملك أبطره وغره حتى تعاظم هذا التعاظم مما أداه إلى جحد الرب -تبارك وتعالى- جحداً كلياً.

وبعضهم يحملها على معنى آخر وهو أضعف من هذا بكثير فيقول: **{أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ}** أي أنه وضع هذا الكفر موضع الشكر، فبدلاً من أن يشكر الله -عز وجل- على هذا الملك، كانت النتيجة أنه كفر كفراً شنيعاً فجحد المعبود -سبحانه وتعالى-، ونصّب نفسه إلهاً، لكن فيه بعد، والله أعلم.

"وكأنه طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه، فقال إبراهيم -عليه السلام-: {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} أي إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة؛ لأنها لم تحدث بنفسها، فلابد لها من موجد أوجدها، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له، فعند ذلك قال المحاج وهو النمرود: {أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}، قال قتادة، ومحمد بن إسحاق، والسدي وغير واحد: وذلك أنِّي أوتى بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء والإماتة".

هذا قاله كثير من أهل العلم من السلف فمن بعدهم، والله -عز وجل- يقول فيما أخبر عن بني إسرائيل: **{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}** [(٣٢) سورة المائدة] والمعنى فمن خلص نفساً من الهلكة والموت، فذلك بمنزلة إحياء جميع النفوس، هذا هو المعنى المشهور.

"والظاهر والله أعلم: أنه ما أراد هذا؛ لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ولا في معناه؛ لأنه غير مانع لوجود الصانع، وإنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذي يحيي ويميت كما اقتدى به فرعون في قوله: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي}، ولهذا قال له إبراهيم -عليه السلام- لما ادعى هذه المكابرة: {فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ} أي إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته، وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فإن كنت إلهاً كما ادعيت تحيي وتميت فأت بها من المغرب".

هذا الذي عليه كثير من أهل العلم من المفسرين، وأهل الأصول خاصة عند كلامهم على قضايا الاحتجاج، ومن ألف في الجدل، ويسمون حجة إبراهيم على النمرود في طلب إتيان الشمس من المغرب انتقالاً، فهو لما طالبه بأمر ادعى قدرته عليه، انتقل معه إلى أمر أوضح وأكبر لا يستطيع المكابرة معه.

ورأى بعض أهل العلم فيها معنى آخر، وهو أن حجة إبراهيم عليه السلام على النمرود لا تعتبر من باب الانتقال، إنما هي من باب طرد الدليل، والمعنى أنك ما دمت بهذه المثابة تملك الإحياء والإماتة، وبيدك هذه القدرة الهائلة على التصرف في الكون كما زعمت، فنريد منك أن تغير نظامه فتأتي بالشمس من المغرب، فإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لم يعرض عن الدليل الأول؛ لأنه كابر فيه، وإنما استمر معه بناء على دعوى النمرود، وهذا القول يحمل عليه تفسير ابن كثير، ومال إليه الحافظ ابن القيم.

والحقيقة أن من ألفوا في الجدل والحجج والمناظرة، وبعض من كتبوا في الأصول، يذكرون هذا في باب طرق الرد، وما يتصل بطرائق الجدل كالانتقال من البرهان الأدنى إلى البرهان الذي أعلى منه، يعني التدرج في المناظرة مع المخالف، ويأخذون هذا من أمور، منها هذا التدرج في المناظرة الذي وقع في هذه الآية، بناء على أن هذا من باب الانتقال، والإعراض عن دليل ساقه في مقام المناظرة إلى دليل آخر أكبر وأوضح منه، لا أنه تكملة للدليل الأول أو طرد له، والله أعلم.

"فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت، أي أخرس فلا يتكلم وقامت عليه الحجة".

وبعض المفسرين -بناء على روايات إسرائيلية- يزعم أنه أراد القول: أنا الذي آتي بالشمس من المشرق، إلا أنه كان بالمجلس من هو أكبر منه سناً، فلو ادعى هذا لكذبوه؛ لأنهم كانوا يرونها تأتي من المشرق قبل أن يولد، فكيف هو الذي يأتي بها من المشرق؟!، وهذا قول ليس فيه ما يمكن الوثوق به أو الرجوع إليه، فالله أعلم.

"قال الله تعالى: {وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} أي لا يلهمهم حجة ولا برهاناً، بل حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد".

الآية وردت في مقام المناظرة والرد على أهل الضلال والاحتجاج عليهم، ولذا حسن أن يفسر نفي الهداية عنهم في خاتمتها بما أورده ابن كثير، أي أن الهداية يسلبها الله -عز وجل- منهم في مقام المحاجة، فلا يكون لهم برهان ودليل يبطلون به دلائل الحق، أو يدحضون به حجة أهله، وتفسيرها بهذا لا يمنع من بقاء المعنى العام في كونهم لا يوفقون للهداية العامة هداية التوفيق والإرشاد إذا شاءت حكمة الرب وإرادته، ويحمل مراده من نفي الهداية عنهم على أهل الإصرار منهم على الظلم، أو ممن كتب الله -عز وجل- عليهم الضلال والشقاء، ومضى عليهم سبق علم الله -تبارك وتعالى- في كونهم لا يحصل لهم هداية، والله أعلم.

"وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين: إن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه، ويبيّن بطلان ما ادعاه نمرود في الأول والثاني، ولله الحمد والمنة.

وقد ذكر السدي: أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمرود بعد خروج إبراهيم -عليه السلام- من النار، ولم يكن اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم، فجرت بينهما هذه المناظرة".

وحكى السُّهيليُّ أن النُّمرود كان ملكاً على السَّواد، وكان ملكه الضحاك الذي يُعْرَفُ بالأزدهاق، وذلك أن النَّاس قحطوا على عهده، فجعلوا يمتارون من عنده الطعام، وكان إذا أتاه الرجل في طلب الطعام سأل: مَنْ رَبُّكَ؟ فإن قال: أَنت، نال من الطعام، فأتاه إبراهيم فيمن أتاه، فقال له نمرود: من ربُّكَ؟، فقال له إبراهيم: **{ربيّ الّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ}**. فاشتغل بالمحاجَّة، ولم يعطه شيئاً، فرجع إبراهيم عليه -الصلاة والسلام- فمر على كثيبٍ من رَمْلٍ أعفر، فأخذ منه تطييباً لقلوبِ أهلِه إذا دخل عليهم، فلما أَتى أهله، ووضع متاعه نام، فقامت امرأته إلى متاعه، ففتحته فإذا هو بأجود طعام رأَته، فصنعت له منه فقربته إليه، فقال: من أين هذا؟

قالت: مِن الطعام الذِي جئت به، فعرف أن الله -تعالى- رزقه فحمد اللهَ تعالى، وهذا كله من الإسرائيليات التي لا يعول عليها.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً ومزيداً إلى يوم الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (١١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(٢٥٩) سورة البقرة]: **"تقدم قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ}** [(٢٥٨) سورة البقرة]**، وهو في قوة قوله: هل رأيت مثل الذي حاج إبراهيم في ربه، ولهذا عطف عليه بقوله: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا}، روى ابن أبي حاتم عن ناجية بن كعب عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: هو عزير، ورواه ابن جرير عن ناجية نفسه، وحكاه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، والحسن، وقتادة، والسدي، وسليمان بن بريدة، وقال مجاهد بن جبر: هو رجل من بني إسرائيل، وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس، مر عليها بعد تخريب بخت نصّر لها وقتل أهلها".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالمشهور عند المفسرين أن عطف هذه الآية على ما قبلها محمول على العطف في المعنى ليس غير، وأما بخصوص تحديد صاحب القصة بأنه عزير فلم يثبت في تعيينه شيء صحيح، بل قال بعضهم: إنه حزقيل، وقيل: أرميا، وكذا تحديد هذه القرية الصواب أنه لم يثبت في تحديدها شيء، ولا طائل من معرفة ذلك، فالأولى أن لا يشتغل المرء بمثل هذه المبهمات؛ لأنه ليس فيها مراجع موثّقة يستند عليها، ولا طريق للوصول إلى التأكد من صحتها ومصداقيتها، والله أعلم.

"{وَهِيَ خَاوِيَةٌ} أي ليس فيها أحد، قوله: {عَلَى عُرُوشِهَا} أي ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها".

أشار بقوله سبحانه: **{وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا}** إلى خلو القرية، والمعنى أنها غدت خالية من الساكنين، تقول: هذه الديار خاوية على عروشها، أي لا ساكن فيها، مع أن تفسيرها الأقرب إلى اللفظ المعبر به هو سقوط السقوف، وتهاوي الجدران؛ لأن العروش هي السقوف، فإذا سقطت بسبب تداعي الزمن سقطت على أثرها الجدران، لكن هذا المعنى ملازم للذي قبله، وهو يدل على خراب القرية.

"فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة، وقال: {أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا} وذلك لما رأى من دثورها، وشدة خرابها، وبعدها عن العَوْد إلى ما كانت عليه".

اختلف أهل التأويل في المراد بقوله سبحانه: **{أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا}** فقيل: أهل القرية، وقيل: هذه القرية.

والقرية تارة تطلق ويراد بها البنيان، وتارة تطلق ويراد بها أهل القرية، والأقرب في الدلالة على المقصود هو القول الأول: إنهم أهل القرية، وذلك أن الله لما أماته ثم أراه الإحياء؛ إنما أراد –جل جلاله– بذلك أن يريه قدرته على إحياء الموتى، ولذلك ذكر الله –عز وجل– أنه أراه العظام كيف يقيمها!، ويركب بعضها على بعض!، وأراه بعد ذلك كيف ينشزها لحماً!، فجعل الله –عز وجل– له هذه آية في نفسه.

ويحتمل أن يكون المراد الأمرين: أهل القرية مع القرية، ولكن ذلك لم ينقل بطريق يعتمد عليه، وما ورد من الروايات أنها عمرت من جديد وقامت، كله من الإسرائيليات فلا يعول عليها، والله أعلم.

"قال الله تعالى: {فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ}، قال: وعمرت القرية بعد مضي سبعين سنة من موته، وتكامل ساكنوها، وتراجع بنو إسرائيل إليها، فلما بعثه الله –عز وجل– بعد موته كان أول شيء أحيى الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه، كيف يحيي بدنه!، فلما استقل سوياً قال الله له –أي بواسطة الملك–: {كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} قالوا: وذلك أنه مات أول النهار، ثم بعثه الله في آخر النهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم، فقال: {بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ}".

على هذا التفسير يكون المراد بقوله –تبارك وتعالى–: **{وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا}** أنها عظام نفسه وخلقته، يدعوه ربه إلى التأمل في قدرته على تركيب عظامه بعضها على بعض!، ثم كيف يكسوها لحماً!...، وبعد ذلك أراه نفس الآية في حماره الذي تفرقت عظامه يميناً وشمالاً.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد عظام حماره، والله أعلم.

وأما قوله: **{لَمْ يَتَسَنَّهْ}** قيل: من السَّنة أي لم تغيره مضي السنون بل بقي على حاله، وبعضهم يقول: إن أصله لم يتسنَّ الهاء للسكت، والمعنى أنه لم يتغير، بالرغم من كون الطعام يسرع إليه الفساد والتغير أكثر من بدن الإنسان أو الحيوان، إشارة ودلالة على قدرة الله –عز وجل– وعظمته، واختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري –رحمه الله–.

"وذلك أنه كان معه _فيما ذكر_ عنب وتين وعصير فوجده كما فقده لم يتغير منه شيء، لا العصير استحال، ولا التين حمض ولا أنتن، ولا العنب تعفن".

لا فائدة تذكر من تحديد ماهية هذا الطعام، وليس هناك نصوص يعتمد عليها في هذا.

"{وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ} أي: كيف يحييه الله –عز وجل– وأنت تنظر".

ما يظهر من الآية أن الله لفت نظره إلى إحياء الحمار بعد موته لأجل أن ينظر إلى قدرة الله –عز وجل– في إحياء الموتى، وبعض أهل العلم قال: إن المقصود انظر إليه أي الحمار قائماً هذه المدة لم يتغير ولم يحصل له شيء، ولكن المشهور القول الأول وهو أن حماره قد مات وتلاشى واضمحل، فأراه الله –عز وجل– قدرته على الإحياء بهذا الحمار. والله أعلم.

"{وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ} أي دليلاً على المعاد، {وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا} أي نرفعها فيركب بعضها على بعض".

وأصل النشوز الارتفاع تقول: أرض ناشزة بمعنى مرتفعة، وامرأة ناشز بمعنى أنها ترفعت عن طاعة الزوج.

"وقد روى الحاكم في مستدركه عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قرأ {كَيْفَ نُنشِزُهَا} بالزاي، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[1]، وقرأ {ننشرها}: أي نحييها قاله مجاهد {ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا}".

قراءة الزاي هي قراءة حفص عن عاصم، والكوفيين، وابن عامر، وأما الباقون فقرءوها بالراء **{كيف ننشرها}** وهي قراءة سبعية متواترة، ومعناها من النشور وهو الإحياء بعد الإماتة، يقال: أنشره الله -عز وجل- إذا أحياه بعد إماتة، ولذلك قيل لليوم الآخر -يوم القيامة-: يوم النشور، ويوم النشر.

"وقال السدي وغيره: تفرقت عظام حماره حوله يميناً ويساراً، فنظر إليها وهي تلوح من بياضها، فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة، ثم ركب كل عظم في موضعه، حتى صار حماراً قائماً من عظامٍ لا لحم عليها، ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً، وبعث الله ملكاً فنفخ في منخري الحمار فنهق، كله بإذن الله -عز وجل-.

وذلك كله بمرأى من عزير، فعند ذلك لما تبين له هذا كله {قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}: أي أنا عالم بهذا، وقد رأيته عياناً، فأنا أعلم أهل زماني بذلك.

وقرأ آخرون: {قال اعلمْ} على أنه أمر له بالعلم.

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(٢٦٠) سورة البقرة] ذكروا لسؤال إبراهيم -عليه السلام- أسباباً منها: أنه لما قال للنمرود: {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} [(٢٥٨) سورة البقرة]، أحب أن يترقى من علم اليقين في ذلك إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}، فأما الحديث الذي رواه البخاري عند هذه الآية عن أبي هريرة -رضي الله تعالى- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}))[2] فمعناه أننا نحن أحق بطلب اليقين".

أراد إبراهيم -عليه السلام- بطلبه أن ينتقل من مرتبة من مراتب الكمال وهي علم اليقين إلى مرتبة أعلى منها وهي عين اليقين، ذلك أن مراتب اليقين ثلاث:

الأولى: علم اليقين: وهو الاعتقاد الجازم الثابت الذي لا يتطرق إليه شك ولا يقبل التشكيك.

الثانية: عين اليقين: وهذا لا يتوصل إليه إلا بالمشاهدة.

---

[1] - رواه الحاكم في مستدركه برقم (٢٩١٨) (٢/٢٥٥)، وعلق الذهبي في التلخيص: في السند إسماعيل بن قيس من ولد زيد بن ثابت ضعفوه.

[2] - رواه البخاري في كتاب التفسير -باب تفسير سورة البقرة برقم (٤٢٦٣) (٤/١٦٥٠)، ومسلم في كتاب الإيمان -باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة برقم (١٥١) (١/١٣٣).

الثالثة: حق اليقين: وهذه لا تتحقق إلا بملابسة الشيء والدخول فيه، فإبراهيم أراد أن ينتقل من مرحلة التصديق الجازم إلى المشاهدة الواقعة ليحقق عين اليقين فكان له ما أراد، يقول ابن القيم في كتابه –التبيان في أقسام القران– معقباً على كلامه عن مرتبة عين اليقين: "وهذه المرتبة هي التي سألها إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى!؛ ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين، فكان سؤاله زيادة لنفسه وطمأنينة لقلبه، فيسكن القلب عند المعاينة ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان، وعلى هذه المسافة أطلق النبي لفظ الشك حيث قال: ((نحن أحق بالشك من إبراهيم))، ومعاذ الله أن يكون هناك شك من إبراهيم، وإنما هو عين بعد علم، وشهود بعد خبر، ومعاينة بعد سماع".

وعلى افتراض اعتبار طلب نبي الله إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– شكاً، فيحمل على ما يعرض للإنسان من الخواطر التي يدفعها بمجرد قدحها في الذهن، ولا يسترسل معها، فلا يكلف بها ويحاسب عليها، ومن أمثلة وروده في الوحيين ما جاء في قوله –تبارك وتعالى–: **{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ}** [(١١٠) سورة يوسف] والمعني تخلف الوعد، فهذا مما يخطر على النفوس، ولكنها لا تسترسل معه فيكون مغتفراً، ومثله ذلك الرجل الذي أمر أهله أن يحرقوه ثم يذرّوه بعد ذلك، فلما كان إقدامه على هذا الصنيع ليس شكاً في قدرة الله –عز وجل– على جمعه وإحيائه من جديد، إنما حصل له بسبب غلبة الخوف تجاوز الله عنه وصفح.

والحواريون حينما طلبوا من عيسى –صلى الله عليه وسلم– كما حكاه الله على لسانهم بقولهم: **{هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء}** [(١١٢) سورة المائدة]، وكانت علتهم: **{نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ}** [(١١٣) سورة المائدة] ولا يعقل أن يكون خاصة أصحاب المسيح –عليه الصلاة والسلام– مشككين في قدرة الله –عز وجل–، بدليل أن الاستطاعة تأتي مستفهَماً عنها في بعض الأحيان، مراداً بها الفعل، مثل قولك: هل تستطيع أن تذهب معي إلى مكان كذا وكذا؟ لأجل ذلك لم يؤاخذوا.

والخلاصة أن الآية يمكن أن تحتمل المعنيين، إلا أن الأحسن حملها على القول الأول وهو أن إبراهيم –عليه السلام– أراد أن ينتقل من مرتبة عالية في اليقين إلى مرتبة أعلى منها.

وبهذا التوضيح ينتفي استشكال ورود لفظ الشك في الحديث، بما قرره ابن القيم ورجحه، وإذا عُلم أن الشك في البعث ينفر منه كثير من آحاد الناس، فيكف بأبي الأنبياء إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– مَن عُرف برسوخ الإيمان وثباته، والله أعلم.

"وقوله: {قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ}، اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي؟ وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان في ذلك مهم لنص عليه القرآن".

الروايات الإسرائيلية المنقولة في تحديد هذه الطيور تجدها في غاية الاختلاف، وهذا يدل على تطرق الكذب إليها، ولا يوجد مستند صحيح يعتمد عليه في تحديد نوعها.

"وقوله: {فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ}: أي قطعهن، قاله ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو مالك".

أقوال المفسرين تباينت في تفسير قوله: {فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ} فبعضهم يقول: قطعهن، وبعضهم يقول: أَمِلْهن، من قولهم: رجل أصور أي مائل العنق، والمعنى مختلف، والذي يظهر أن كل معنى من هذه المعاني يرجع إلى قراءة، فإذا قرأت {فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ} بالصاد مضمومة، فهي بمعنى الإمالة أي اجعلهن نحوك، وبعضهم فسره بمعنى ضمهن إليك وهو لا يخالف هذا المعنى، وإذا قرأت {فَصِرْهُنَّ إِلَيْكَ} بكسر الصاد يكون المعنى قطعهن، فلا حاجة للترجيح بين القولين، والقراءات إذا وجد لكل منها معنى يخصها فهي بمنزلة الآيات، وقيل غير هذا مما ظاهره التكلف، والله أعلم.

"فذكروا: أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض، ثم جزأهن أجزاءً، وجعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل: أربعة أجبل، وقيل: سبعة، قال ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: وأخذ رءوسهن بيده، ثم أمره الله –عز وجل– أن يدعوهن، فدعاهن كما أمره الله –عز وجل–، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعياً؛ ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم –عليه السلام– فإذا قدّم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته، ولهذا قال: {وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} أي عزيز لا يغلبه شيء، ولا يمتنع منه شيء، وما شاء كان بلا ممانع؛ لأنه العظيم القاهر لكل شيء، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن أيوب في قوله: {وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} قال: قال ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: ما في القرآن أرجى عندي منها.

وروى ابن أبي حاتم عن محمد بن المنكدر أنه قال: التقى عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله تعالى عنهم–، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص: أي آية في القرآن أرجى عندك؟ فقال عبد الله بن عمرو: قول الله –عز وجل–: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ} [(٥٣) سورة الزمر] **الآية، فقال ابن عباس: لكن أنا أقول: قول الله –عز وجل–: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى} فرضي من إبراهيم قوله بلى، فهذا لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان. وهكذا رواه الحاكم في المستدرك مثله، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.**

{مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [(٢٦١) سورة البقرة] **هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف".**

ابن جرير ذكر وجهاً للارتباط والمناسبة بين هذه الآية، والآيات السابقة فقال: وهذه الآية مردودة إلى قوله: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة: ٢٤٥]، والآيات التي بعدها التي ذكرت قصص بني إسرائيل وخبرهم مع طالوت وجالوت، وما بعد ذلك من نبأ الذي حاجّ إبراهيم، وأمْرِ الذي مرّ على القرية الخاوية على عروشها، وقصة إبراهيم ومسألته ربَّه ما سأل، اعتراض من الله –تعالى ذكره– بما اعترضَ به من قصصهم بين ذلك، احتجاجاً منه ببعضه على

المشركين الذين كانوا يكذبون بالبعث وقيام الساعة، وحضّاً منه ببعضه للمؤمنين على الجهاد في سبيله الذي أمرهم به في قوله: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٤٤]، يعرّفهم فيه أنه ناصرهم وإن قل عددهم وكثر عدَد عدوّهم، ويعدهم النصرة عليهم، ويعلّمهم سنته فيمن كان على منهاجهم من ابتغاء رضوان الله أنه مؤيدهم، وفيمن كان على سبيل أعدائهم من الكفار بأنه خاذلهم ومفرِّق جمعهم ومُوهِنُ كيدهم، وقطعًا منه ببعض عذر اليهود الذين كانوا بين ظهرَانَيْ مُهاجر رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، بما أطلع نبيَّه عليه من خفيِّ أمورهم، ومكتوم أسرار أوائلهم وأسلافهم التي لم يعلمها سواهم؛ ليعلموا أن ما أتاهم به محمد –صلى الله عليه وسلم– من عند الله، وأنه ليس بتخرُّص ولا اختلاق، وإعذارًا منه به إلى أهل النفاق منهم، ليحذروا بشكِّهم في أمر محمد –صلى الله عليه وسلم– أن يُحِلَّ بهم من بأسه وسطوته، مثل الذي أحلَّهما بأسلافهم الذين كانوا في القرية التي أهلكها، فتركها خاوية على عروشها.

ثم عاد –تعالى ذكره– إلى الخبر عن {الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا}، وما عنده له من الثواب على قَرْضه، فقال: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ} يعني بذلك: مثل الذين ينفقون أموالهم على أنفسهم في جهاد أعداء الله بأنفسهم وأموالهم.

وأما معنى قوله سبحانه: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ} فبعضهم جعله مقدراً بقوله: مثل نفقة الذين ينفقون؛ لأن التشبيه للنفقة وليس للمنفقين، ويمكن أن يكون التقدير {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ} أي كمثل زارع حبة، فيكون ضرب المثل بهم.

"فقال: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ} قال سعيد بن جبير: يعني في طاعة الله، وقال مكحول: يعني به الإنفاق في الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك".

على قول سعيد بن جبير تكون الآية محمولة على العموم، فتشمل النفقة في سبيل الله كل باب من أبواب الخير، كالدعوة إلى الله –عز وجل–، والعلم، والجهاد، والفقراء، وسائر وجوه البر في النفقات.

والغالب في القرآن الكريم إذا أطلق فيه لفظ في سبيل الله أريد به الجهاد في سبيل الله –تبارك وتعالى–، ولذلك جعلوا هذه المضاعفة للحسنات إلى سبعمائة ضعف للنفقة في الجهاد فقط، وأما في الأبواب الأخرى فإن الحسنة بعشر أمثالها كما قال الله –عز وجل–: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} [(١٦٠) سورة الأنعام].

"وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله –عز وجل– لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف، روى الإمام أحمد عن ابن مسعود –رضي الله تعالى عنه–: أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة))[3] ورواه مسلم والنسائي، ولفظ مسلم: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: يا رسول الله، هذه في سبيل الله، فقال: ((لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة))[4]، حديث آخر: روى أحمد عن أبي هريرة –رضي الله

---

[3] – رواه النسائي برقم (٣١٨٧) (٤٩/٦)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي برقم (٣١٨٧).

[4] – رواه مسلم في كتاب الإمارة –باب فضل الصدقة في سبيل الله وتضعيفها برقم (١٨٩٢) (١٥٠٥/٣).

تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله، يقول الله: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشهوته من أجلي، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولَخُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، الصوم جنة))[5] وكذا رواه مسلم".

ظاهر هذه المضاعفة المذكورة في الحديث إلى سبعمائة ضعف أنها عامة في جميع الأعمال سواء كانت في الجهاد أو في غير الجهاد من النفقات في سبيل الله، إلا أنه قد جاء ما يخالف هذا الفهم في حديث آخر عن أبي عبيدة مرفوعاً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فبسبعمائة، ومن أنفق على نفسه وأهله أو عاد مريضاً أو ماز أذى- يعني أماط أذى- فالحسنة بعشر أمثالها))[6] فدلالة الحديث ظاهرة في اختصاص المضاعفة إلى سبعمائة ضعف في الأجر بالنفقة في الجهاد، وأما النفقة في غير الجهاد فتلك الحسنة بعشر أمثالها، والله أعلم.

"وقوله هاهنا: {وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء} أي بحسب إخلاصه في عمله، {وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} أي فضله واسع كثير أكثر من خلقه، {عَلِيمٌ} بمن يستحق ومن لا يستحق، سبحانه وبحمده".

يُحتمل في المراد من المضاعفة في الآية أمران:

- أن الله يضاعف هذه المضاعفة يعني من العشرة إلى السبعمائة ضعف لمن شاء وأراد من خلقه، وليس كل الناس يحظون وتشملهم هذه المضاعفة في الأجر.
- أن الله يضاعف هذا العدد -السبعمائة- فيزيد في الجزاء والأجر على السبعمائة لمن يشاء، فيعطيه أكثر من السبعمائة، والذي يفهم من السياق أن المضاعفة في العدد، فيجازي الله -عز وجل- ويضاعف الحسنات للإنسان إلى سبعمائة ويزيد من شاء فوق السبعمائة، وهذا الذي اختاره ابن جرير وابن القيم -رحمهما الله- ولعل مرد هذا العطاء والمضاعفة في الأجر والثواب إلى حال المنفق والنفقة، واعتبار الموضع والزمان، فإذا كانت النفقة في وقتٍ الناس أحوج ما يكونون إليها كمجاعة مثلاً، فهي أعظم من النفقة في حال زهد الناس فيها، وإذا كانت من أطيب الكسب، فهي أفضل مما دونها من الكسب، وإذا أخرجها العبد وهو طيب النفس كامل اليقين بجزاء الله -عز وجل-، وأن يخلفه على هذه النفقة خيراً، كانت أفضل ممن يخرجها وهو يشعر أنها مغرم، أو يكون متردداً في إخراجها، أو أن قلبه متعلق بها، فالجزاء والأجر في النفقات بحسب ما يقوم بقلب الإنسان من الإخلاص واليقين وعموم النفقة ونفعها وحاجة الناس إليها وثمنها ونفاستها، فهذه الأمور سبب لمضاعفة الأجر وزيادته، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

[5] - رواه مسلم في كتاب الصيام - باب فضل الصيام برقم (١١٥١) (٢/٨٠٦)، ورواه أحمد في مسنده برقم (٩٧١٢) (٢/٤٤٣)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

[6] - رواه أحمد في مسنده برقم (١٦٩٠) (١/١٩٥)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (١١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [(٢٦٢-٢٦٤) سورة البقرة]: "يمدح -تبارك وتعالى- الذين ينفقون أموالهم في سبيله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات مناً على من أعطوه، فلا يمنون به على أحد، ولا يمنون به لا بقول ولا بفعل.

وقوله: {وَلاَ أَذًى} أي لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهاً يحبطون به ما سلف من الإحسان، ثم وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل على ذلك فقال: {لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ} أي ثوابهم على الله لا على أحد سواه، {وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} أي فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة، {وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} أي على ما خلفوه من الأولاد، ولا ما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها لا يأسفون عليها؛ لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول، أما بعد:

فقد سبق الكلام على أن الأقرب في حمل الآيات المادحة للمنفقين أموالهم في سبيل الله على العموم في الجهاد وغير الجهاد.

وقوله سبحانه: {ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنًّا وَلاَ أَذًى} المن: نوع من الأذى ولكنه خاص منه، فالمن: أن يمتن على المعطى بالعطية، بأن يذكره ويبكته بها، أو يقرره بإحسانه إليه....،

والأذى: يحصل بهذا المن ويحصل بغيره، كأن يعطيه ثم يسمعه ما يكره، بأن يغلظ عليه بالقول أو يشتمه أو يجرح مشاعره أو يرفع صوته، أو يبدي امتعاضه وتذمره منه، أو نحو ذلك من الكلام، فهذه الأمور قد تذهب بأجر صدقته، سواء كان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر.

"ثم قال تعالى: {قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ} أي من كلمة طيبة ودعاء لمسلم، {وَمَغْفِرَةٌ} أي عفو وغفْر عن ظلم قولي أو فعلي، {خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ} عن خلقه.

{حَلِيمٌ} أي يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم".

القول المعروف من كلمة طيبة أو دعاء لمسلم في حال الاعتذار، وكذا التلطف من العبد في الكلام والعبارة، خير وأفضل من العطاء مع الأذية وجرح المشاعر، أو المن عليه، أو إبداء الضجر منه، والناس قد تذهب أجور صدقاتهم بسبب هذه الأمور المحتفة بها، وقد قال دريد:

لا تـــدخلنك ضـــجرة مـــن ســـائل	فلخير دهــرك أن تُــرى مــسئولاً
لا تجـــبهن بـــرد وجـــه مؤمـــل	فبقـــاء عـــزك أن تُـــرى مـــأمولاً

قوله سبحانه: **{وَمَغْفِرَةٌ}** قال: أي عفو وغَفْر عن ظلم قولي أو فعلي صدر من هذا السائل، إذ إنه قد يصدر منه إساءة، أو يتكلم بكلام لا يليق، أو يلح في الطلب...، وبعضهم جعل معنى المغفرة من الغَفْر: وهو الستر مع العفو، والتجاوز في عدم المؤاخذة بالإساءة؛ ومنه سُمي المِغْفَر الذي يوضع على الرأس بذلك؛ لأنه يستر رأس لابسه، ويقيه الضرب، والمعنى أن تستر خلته حين أظهر لك حاجته ومسغبته وقصدك في الطلب دون غيرك، واختار هذا الرأي كبير المفسرين ابن جرير الطبري –رحمه الله–.

وقيل: المغفرة بالنسبة للسائل نفسه، بمعنى أن السائل ينبغي له أن يقدِّر، وأن يلتمس العذر، ويغفر للإنسان الذي سأله فلم يعطه، وهذا المعنى بعيد.

قوله: **{وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}** يحتمل في المعنى إذا ربطناه بالآية، أن الله غني عن صدقاتكم، حليم فلا يعجل العقوبة لهذا المانِّ، ويحتمل معنى آخر وهو أن الله –عز وجل– مع غناه الكامل المطلق إلا أنه حليم برغم ذلك، وأنتم مع فقركم وقلة ما في أيديكم تضجرون حينما تُسألون شيئاً من هذا الحطام الذي في أيديكم، والمعنى الذي قبله أحسن منه، والله أعلم.

"وقد وردت الأحاديث بالنهي عن المنّ في الصدقة، ففي صحيح مسلم عن أبي ذر –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب))[1]، ولهذا قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى} [(٢٦٤) سورة البقرة] فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى، ثم قال تعالى: {كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ} أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كما تبطل صدقة من راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله، وإنما قصده مدح الناس له، أو شهرته بالصفات الجميلة ليُشكر بين الناس أو يقال: إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى، وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه، ولهذا قال: {وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}".

ما ذكره الحافظ ابن كثير –رحمه الله– جيد في الربط بين الجملتين، وجلي في توضيح المعنى.

"ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه، قال الضحاك: والذي يتبع نفقته مناً أو أذى فقال: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ} [(٢٦٤) سورة البقرة] وهو جمع صفوانة، فمنهم من يقول: الصفوان يستعمل مفرداً أيضاً، وهو الصفا وهو الصخر الأملس".

في قوله سبحانه: **{فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ}** تشبيه لحال الإنسان المرائي بالمطر الشديد الذي نزل على صخر أملس عليه تراب قد علق به، فأزال المطر هذا التراب، فلم يعد حينها محلاً لإخصاب النبات، ولا أرضاً طيبة تقبل المطر وتنبت العشب، فهذا مثل لحال المرائي.

---

[1] – رواه مسلم في كتاب الإيمان – باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم برقم (١٠٦) (ج ١ / ص ١٠٢).

والحافظ ابن القيم –رحمه الله– يشبه هذا الصفوان بقلب المنافق، والتراب الذي عليه بما ظهر للناس من عمله من صدقة أو سواها...، فعمل المنافق بمنزلة التراب الذي على الصفوان زاح عندما هَمَع عليه ماء المطر.

والصفوان يستعمل للمفرد والجمع بلفظ واحد، وبعضهم يقول: الصفوان مفرد وجمعه: صُفِي بضم أوله وكسر ثانيه، وصِفِي بكسر الصاد والفاء.

"**{فَأَصَابَهُ وَابِلٌ}** **وهو المطر الشديد".**

الذي يكون قطره كبيراً متتابعاً.

"**{فَتَرَكَهُ صَلْدًا}** **أي فترك الوابل ذلك الصفوان صلداً، أي أملس يابساً، أي لا شيء عليه من ذلك التراب".**

بمعنى أنه رجع على حالته وصورته الحقيقية.

"**بل قد ذهب كله، أي وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب، ولهذا قال: {لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}.**

{وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [(٢٦٥) سورة البقرة] **وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضات الله عنهم في ذلك، وتثبيتاً من أنفسهم".**

وورود هذه الآيات متتابعة على الرغم من كونها مختلفة في الدلالة جاءت على طريقة القرآن إذ يأتي بالشيء وما يقابله، فتجده يذكر حال أهل الجنة ثم يعرج على ذكر حال أهل النار، يورد صفة الجنة وأهلها وبعدها يعقب بذكر صفة النار وأهلها، يرغب ثم يرهب أو العكس وهكذا ....

"**{وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ}** **أي وهم متحققون متثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، ونظير هذا في معنى قوله –عليه السلام– في الحديث المتفق على صحته: ((من صام رمضان إيماناً واحتساباً))**[2] **أي يؤمن أن الله شرعه ويحتسب عند الله ثوابه".**

فتحقيق القبول لهذه النفقات نابع من التصديق بوعد الله الناشئ من جهة أنفسهم، وباليقين الثابت الراسخ بعائدة هذه النفقة ومردودها، وأنها مخلوفة، أما من يرى هذه النفقة من المغرم، أو تعلق قلبه بها غاية التعلق فلا يخرجها إلا وهو متردد، يكاد قلبه ينخلع معها، فمثل هذا الإنسان ليس بهذه المثابة التي وصفها الله –عز وجل–، لأن من لازمِ قبول هذه النفقات احتسابها عند الله –عز وجل– وهو منتفٍ هنا.

وبعض أهل العلم يقول: إن قوله: **{ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتًا}** مفعول لأجله، والمعنى ومثل الذين ينفقون أموالهم طلباً لمرضات الله وطلباً للتثبيت، أو لأجل الابتغاء والتثبيت.....

وقيل: بل إن قوله: **{وَتَثْبِيتًا}** مصدر، والمعنى أنهم بهذا الإنفاق يروضون النفس ويثبتونها، ويدربونها ويخطمونها بتقويتها على البذل والإنفاق لئلا تضعف، فتمتد أيديهم في الإنفاق طاعة لله –عز وجل–، وهذا المعنى الذي ذهب إليه كثير من أهل العلم ومنهم الحافظ ابن القيم –رحمه الله–.

---

[2] – رواه البخاري في كتاب الإيمان – باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان برقم (٣٨) (٢٢/١)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم (٧٦٠) (٥٢٣/١).

وقيل: المعنى أن نفوسهم هي التي تثبتهم عند بذل هذه النفقات، وهذا قال به كثير من السلف، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري، وكلا المعنيين تحتملهما الآية.

قوله سبحانه: {ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ} أي أن إنفاقهم خالصٌ لوجه الله –تبارك وتعالى–.

"وقوله: {كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ} أي كمثل بستان بربوة، وهو عند الجمهور المكان المرتفع المستوي من الأرض، وزاد ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– والضحاك: وتجري فيه الأنهار".

الربوة: هي ذات الارتفاع اليسير، والبستان إذا احتضنته ربوة فُضِّل على المكان المنخفض؛ لأن المكان المنخفض يكون مجمعاً للأتربة، وأرضه فيها ضعف ورخوة، أما الربوة فأرضها أطيب وأصلب وأقوى وأثبت للنبات وأحفظ للماء ويضربها الهواء من كل ناحية، وتصيبها الشمس وما أشبه ذلك.

وقوله: {أَصَابَهَا وَابِلٌ} وهو المطر الشديد كما تقدم، {فَآتَتْ أُكُلَهَا} أي ثمرتها، {ضِعْفَيْنِ} أي بالنسبة إلى غيرها من الجنان".

ابن القيم –رحمه الله– ينزل هذا المثل على المنفقين أموالهم في سبيل الله، ويجعلهم قسمين: الأول: السابقون بالخيرات، وهم الذين ينفقون الإنفاق الكثير الطيب ويتحرون في البذل أفضل أموالهم، فهؤلاء: {كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ}، والثاني: المقتصدون، وهم من كانت نفقاتهم دون ذلك فأصابها الطل، وهو الرذاذ أو المطر الخفيف، وكل ذلك يثمر أحسن الثمر، والله يجازي عليه أحسن الجزاء.

ومن أهل العلم من ينزل الآية على شيء واحد، باعتبار أن هذه الأرض –لطيبها وحسن منبتها وتربتها– إن أصابها وابل أخرجت ألوان الثمار والأشجار، وإن لم يصبها وابل يكفيها الطل، فتخرج بهجتها، ويمكن أن تشمل هذا النفقة قليل المال وكثيره إذا كانت طيبة من مال طيب، وبنفس طيبة من مُخرجها مع تحقق الإخلاص لله –عز وجل– عند إخراجها، فتكون النفقة بهذه المنزلة.

والضمير في قوله سبحانه: {أَصَابَهَا وَابِلٌ} يحتمل أن يرجع إلى الجنة لأنها موضع الحديث، ويحتمل أن يرجع إلى الربوة، وما دام أن الأصل في عودة الضمير أن يرجع إلى أقرب مذكور، فأقرب مذكور هو الربوة، والواقع أن بينهما تلازماً، والله أعلم.

قوله سبحانه: {فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ} قال ابن القيم: اختلف في الضعفين، فقيل: ضعفا الشيء مثلاه زائداً عليه، وضعفه مثله، وقيل: ضعفه مثلاه، وضعفاه ثلاثة أمثاله، وثلاثة أضعافه أربعة أمثاله، كلما زاد ضعفاً زاد مثلاً، والذي حمل هذا القائل على ذلك فراره من استواء دلالة المفرد والتثنية فإنه رأى ضعف الشيء هو مثله الزائد عليه، فإذا زاد إلى المثل صار مثلين وهما الضعف، فلو قيل لها ضعفان لم يكن فرق بين المفرد والمثنى، فالضعفان عنده مثلان مضافان إلى الأصل، ويلزم من هذا أن يكون ثلاثة أضعاف ثلاثة أمثاله مضافة إلى الأصل ومثله، وعليه يدل قوله تعالى: {فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ} أي مثلين، وقوله تعالى: {يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ} [(٣٠) سورة الأحزاب] أي مثلين، ولهذا قال في الحسنات: {نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ} [(٣١) سورة الأحزاب]، وأما ما توهموه من استواء دلالة المفرد والتثنية فوهمٌ منشؤه الظنُّ أن الضعف هو المثل مع الأصل وليس كذلك، بل المثل له اعتباران، إن اعتبر وحده فهو ضعف، وإن اعتبر مع نظيره فهما ضعفان، والله أعلم.

"**{فإن لم يصبها وابل فطل}** قال الضحاك: هو الرذاذ وهو اللين من المطر، أي هذه الجنة بهذه الربوة لا تُمحل أبداً ".

تقدير المقطع: **{فإن لم يصبها وابل فطل}** أي يكفيها الطل.

"لأنها إن لم يصبها وابل فطل، وأيّاً ما كان فهو كفايتها، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً، بل يتقبله الله ويكثره وينميه، كل عامل بحسبه، ولهذا قال: {وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} أي لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء.

{أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} [(٢٦٦) سورة البقرة]".

ابن جرير يرى أن هذا المثل الذي ضربه الله للمنفقين أموالهم رياء الناس في هذه الآية، نظير المثل الآخر الذي ضربه لهم بقوله: **{فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ...}** [(٢٦٤) سورة البقرة]، ويقول: هذا مثل آخر لنفقة الرياء، إنه ينفق ماله يرائي الناس به، فيذهب ماله منه وهو يرائي فلا يأجره الله فيه، فإذا كان يوم القيامة واحتاجَ إلى نفقته وجدها قد أحرقها الرياء، فذهبت، كما أنفق هذا الرجل على جنته، حتى إذا بلغت وكثر عياله واحتاج إلى جنته جاءت ريح فيها سَموم فأحرقت جنته، فلم يجد منها شيئًا. فكذلك المنفق رياء.

{وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ} الواو يمكن أن تكون حالية والمعنى وقد أصابه الكبر.

{فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ} الإعصار: الريح الشديدة التي تهب من الأرض مرتفعة إلى السماء، تدمر ما يمر بها في طريقها.

"روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وعن عبيد بن عمير أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- قال يوماً لأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ورضي عنهم: فيمن ترون هذه الآية نزلت: {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ}؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر وقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ضربت مثلاً لعمل، قال عمر: أيّ عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله".

كلام ابن عباس يعني أن الآية أعم من أن يكون مختصاً بها المنافق، ويشهد لذلك حديث: ((إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها...))[٣].

"وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية، وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً، ثم بعد ذلك انعكس سيره فبدل الحسنات بالسيئات عياذاً بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح، واحتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال، فلم يحصل له منه شيء فخانه أحوج ما كان إليه،

---

[3] - رواه البخاري في كتاب القدر- برقم (١٢٢٦) (٢٤٣٣/٦)، ومسلم في كتاب القدر – باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته برقم (٢٦٤٣) (٢٠٣٦/٤).

ولهذا قال تعالى: {وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ} وهو الريح الشديد، {فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ} أي أحرق ثمارها، وأباد أشجارها فأي حال يكون حاله؟

وقد روى ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: ضرب الله مثلاً حسناً، وكل أمثاله حسن، قال: {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ} يقول: ضيعه في شيبته، {وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ} وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره، فجاءه إعصار فيه نار فأحرق بستانه فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله، ولم يكن عند نسله خيرٌ يعودون به عليه، وكذلك الكافر يوم القيامة إذا رُد إلى الله -عز وجل- ليس له خير فيستعتب، كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه، ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه، كما لم يغنِ عن هذا ولده، وحُرم أجره عند أفقر ما كان إليه، كما حرم هذا جنة الله عند أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته.

وهكذا روى الحاكم في مستدركه: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول في دعائه: ((اللهم اجعل أوسع رزقك عليّ عند كبر سني وانقضاء عمري))[4]، ولهذا قال تعالى: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} أي تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني، وتنزلونها على المراد منها، كما قال تعالى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } [(٤٣) سورة العنكبوت]".

في ضرب هذا المثل عبرة عظيمة جداً لكل إنسان فرداً كان أو جماعة أو غير ذلك، أن يحذر درب الغواية بعد الهداية؛ لأن العبد إذا كانت له أعمال طيبة، وأيادٍ بيضاء، ونفع للقريب والبعيد، وتعليم للناس، ويَحمِل الاعتقاد الصحيح وما إلى ذلك، ثم بعد ذلك ينسلخ من هذا الخير، ويتنصل منه، ويدير ظهره له، ويركب موجة أخرى تناقض ما كان عليه في السابق، فبصنيعه هذا يهدم كل ما بناه بيديه عبر السنين الطوال، وينقض ما كان يشتغل به، ويبذل فيه الوقت والمال وما أشبه ذلك، وهذه الأيام تعج بمثل هذه التقلبات والانتكاسات، نسأل الله أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت.

والله أعلم، وصلى الله وسلم، وبارك على نبيه وآله وصحبه وسلم.

---

[4] - رواه الحاكم في مستدركه برقم (١٩٨٧) (١/٧٢٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تفسير ابن كثير (١١٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ومصطفاه، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} [(٢٦٥-٢٦٧) سورة البقرة]: **"يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإنفاق -والمراد به الصدقة هاهنا قاله ابن عباس- من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها، ومن الثمار والزروع التي أنبتها لهم من الأرض.**

قال ابن عباس: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيئه وهو خبيثه، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، ولهذا قال: {وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ} أي تقصدوا الخبيث، {مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ} أي لو أُعطيتموه ما أخذتموه إلا أن تتغاضوا فيه، فالله أغنى عنه منكم فلا تجعلوا لله ما تكرهون، وقيل: معناه {وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ} أي لا تعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد اختلف أهل التأويل في المراد بالإنفاق من الآية في قوله سبحانه: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ}** فذهب الحافظ ابن كثير -رحمه الله- إلى أن المراد بالإنفاق هنا الصدقة، وقرينة ما ذهب إليه في الآية هي أن الله -عز وجل- قال: **{وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ}** ومعلوم أن الزكاة إنما تخرج من أوساط المال رديئاً كان أو جيداً، بخلاف الصدقة فالحث فيها على أطيب المال وأفضله.

وذهب كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وغيره إلى أن هذه الآية نزلت في الزكاة، واستند من الآية بأن الله -عز وجل- ذكر أصنافاً هي من الأموال المخرجة في الزكاة، فقوله: **{أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ}** يعني التجارات والأموال التي حصلتموها، **{وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ}** هي الزروع والثمار، والذي يظهر أن الآية عامة في الصدقة وفي الزكاة؛ إذ لا دليل يخصص واحداً منهما، فيدخل في الإنفاق الجميع.

والطيب من المكاسب المقصود به الذي لم يتحصل من طريق محرم، وأيضاً ما كان من الأموال غير رديء، فالإنسان في الزكاة إذا كان ماله من الطيب أو مختلطاً فإنه لا يعمد إلى الرديء فيُخرج منه الزكاة، وإنما يخرج من الوسط؛ ليصدق عليه أنه من الطيبات.

وذكر هذين الصنفين في الآية دون سواهما **{طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ}**؛ لأن بقية الأصناف ترجع إليها في النهاية، إما مباشرة أو بواسطة كالبترول والذهب والفضة فإن أصله من الأرض.

وقوله سبحانه: **{وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ}** ابن جرير الطبري -رحمه الله- يرى أن هذه في الزكاة، وأن هؤلاء المستحقين للزكاة صار لهم حظ وحق ونصيب في هذا المال فهم فيه شركاء، فإذا قصد الإنسان إعطاء الرديء لهؤلاء المستحقين فإنه يكون قد جار وتعدى وظلم؛ لكونه أعطى حصة الشريك من رديء المال.

وفي الآية معنىً آخر ذكره ابن كثير بقوله: "**أي لا تعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه**".

قوله سبحانه: **{إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ}** أصل الإغماض بمعنى: التغاضي والتجاوز، كأنه يغمض عينه فلا يرى هذا الشيء الذي يكرهه، ومراده: أنكم لن تأخذوا هذا الشيء إذا أخذتموه إلا على وجه الاستحياء والمجاملة وإلا فإن نفوسكم لا تقبله -هذا أحد المعاني المشهورة في الآية- فلا ينبغي للإنسان أن ينظر إلى الرديء من الأموال فيتصدق بها، والجيد منها فيحتكره ويضمه إليه، هذا هو المراد، والله أعلم.

وعلى رأي من جعل الآية في الزكاة كابن جرير الطبري، فينص على اختلاف أهل التأويل في تأويل ذلك، فيقول: قال بعضهم: معنى ذلك: ولستم بآخذي الرديء من غرمائكم في واجب حقوقكم قبلهم إلا عن إغماض منكم لهم في الواجب لكم عليهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: ولستم بآخذي هذا الرديء الخبيث -إذا اشتريتموه من أهله- بسعر الجيد إلا بإغماض منهم لكم في ثمنه، والله أعلم.

"**روى ابن جرير -رحمه الله- عن البراء بن عازب -رضي الله عنه- في قول الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ} الآية، قال: نزلت في الأنصار، كانت الأنصار إذا كان أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها أقناء البسر فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أقناء البسر يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك: {وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ}**".

في أول الرواية قال: نزلت هذه الآية في الأنصار، وهذا سبب نزول غير صريح؛ وفي آخرها أورد عبارة تدل على أن سبب النزول كان صريحاً عند قوله: فأنزل الله فيمن فعل ذلك..، وهذا مما يذكره المفسرون من الأمثلة التي يقصد بها سبب النزول حقيقة وإن جاءت الرواية بعبارة غير صريحة في ذلك، وأحياناً قد يكون قوله: نزلت في كذا من قبيل التفسير للآية، ولا يحكم له بالرفع؛ لأنه متردد بين التصريح وغير التصريح.

وفي رواية أخرى: عن البراء -رضي الله عنه- قال: نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل فكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته، وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه فيسقط منه البسر والتمر فيأكل، وكان ناس ممن لا يرغبون في الخير يأتي الرجل بالقنو فيه الشيص والحشف، وبالقنو قد انكسر فيعلقه فأنزل الله

-تبارك تعالى- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ} قال: لو أن أحدكم أُهدي إليه مثل ما أعطاه لم يأخذه إلا على إغماض أو حياء، قال: فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده"[1] وأو في الحديث يمكن أن تكون عاطفة، يعني على إغماض وحياء، فيكون معناهما واحد، وجاء في بعض الروايات لو صحت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه رأى عذقاً من الشيص قد علق في المسجد فقال: ((إن رب هذه الصدقة يأكل الحشف يوم القيامة))[2].

والشيص: الأقناء أو الأكمام من النخيل إذا أبرت خرج الثمر ضعيفاً مستطيلاً، مسطح الجوانب، أصغر من حجمه المعروف.

"وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: {وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ}، يقول: لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه، قال: فذلك قوله: {إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ} فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم؟ وحقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه" رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وزاد: وهو قوله: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ} [(٩٢) سورة آل عمران]".

هذا بناء على أنه ما كان على وجه الاستحقاق، إما على قول ابن جرير في الزكاة الواجبة، أو أن ذلك يضرب لهم به المثل بحيث إنه يقول: لا تتصدقوا بالرديء فلو كان لأحدكم حق قد لزم على غيره بشراكة أو غيرها فأعطاه الرديء فإنه لا يقبل ذلك، فأنتم أيضاً لا تجعلوا مال الله -عز وجل- من نفقاتكم هو الرديء.

"وقوله: {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} أي وإنْ أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غني عنها، وما ذاك إلا ليساوي الغني الفقير كقوله: {لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ} [(٣٧) سورة الحـج]، وهو غني عن جميع خلقه، وجميع خلقه فقراء إليه، وهو واسع الفضل، لا ينفد ما لديه فمن تصدق بصدقة من كسب طيب، فليعلم أن الله غني واسع العطاء كريم جواد، وسيجزيه بها ويضاعفها له أضعافاً كثيرة، ومن يقرض غير عديم ولا ظلوم، وهو الحميد أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره لا إله إلا هو، ولا رب سواه".

ويمكن أن يكون المعنى أنه غني عن صدقة هذا المتصدق بالرديء من المال، وحميد: أي أنه مستحق للحمد، فلا يليق معه أن تجعل له الرديء من صدقاتك، فهذا يخالف مقتضى حمده -تبارك وتعالى-.

---

[1] - رواه الترمذي برقم (٢٩٨٧) (٢١٨/٥)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٩٨٧).

[2] أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة، باب ما لا يجوز من الثمرة في الصدقة [ج١- ص٥٠٥ - ١٦٠٨] وابن ماجه في كتاب الزكاة، باب النهي أن يخرج في الصدقة شر ماله [ج١- ص٥٨٣ - ١٨٢١]، وأحمد في المسند [ج٦- ص٢٣ - ٢٤٠٢٢] وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: "إسناده حسن"، وابن خزيمة في كتاب الزكاة، باب كراهية الصدقة بالحشف من الثمار وإن كانت الصدقة تطوعاً إذ الصدقة بخير الثمار وأوساطها أفضل من الصدقة بشرارها [ج٤- ص١٠٩ - ٢٤٦٧] وقال الأعظمي: "إسناده حسن لغيره، صالح بن أبي عريب ضعيف لكن للحديث شواهد"، وابن حبان في كتاب التاريخ، باب إخباره -صلى الله عليه وسلم- عما يكون في أمته من الفتن والحوادث [ج١٥- ص١٧٧ - ٦٧٧٤] وقال شعيب الأرنؤوط: "إسناده حسن"، والحاكم في المستدرك [ج٢ - ص٣١٣ - ٣١٢٦] (تعليق الذهبي قي التلخيص: صحيح)، والطبراني في المعجم الكبير [ج١٨- ص٥٥ - ٩٩] والبيهقي في السنن الكبرى في كتاب الزكاة، باب ما يحرم على صاحب المال من أن يعطي الصدقة من شر ماله [ج٤- ص ١٣٦- ٧٣١٨] وحسنه الألباني في صحيح أبي داود [ج١ - ص٣٠٢ - ١٤١٩].

"وقوله: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [(٢٦٨) سورة البقرة] روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان، ثم قرأ: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً} الآية))[٣]، وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننيهما جميعاً، ومعنى قوله تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ} أي: يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيدكم فلا تنفقوه في مرضات الله، {وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء} أي: مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق".

من أهل العلم من نظر إلى هذين الأمرين، الإيعاد بالفقر والأمر بالفحشاء من الشيطان باعتبار الاقتران الذي يرتبط مع المعنى، فالشيطان يوهم المتصدق بالفقر، وقلة المال، وبوادر الاحتياج إليه، ويأمر بالفحشاء: قيل: البخل، والمعنى يمنعك من الإنفاق، وقيل: كل فحشاء في القرآن يراد بها الزنا إلا في هذا الموضع، وفيه نظر.

وابن القيم -رحمه الله- في بعض المواضع من كتبه نقل الإجماع على أن الفحشاء المراد بها في هذا الموضع البخل، وهذا الإجماع غير صحيح فقد نقضه في موضع آخر من كتبه عندما حمل الآية على العموم فقال: قوله سبحانه: {وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء} أي بكل فاحش قبيح، وكل خلق ذميم رديء، ويدخل فيه البخل باعتبار أن الآيات في الإنفاق، فالسياق قرينة تبين المراد.

والفحشاء تطلق على الذنب الكبير العظيم، وقد غلب إطلاق استعمالها على الزنا، إلا أن الصواب أن كل ما فحش من القول والفعل يسمى فحشاء وفاحشة وفاحشاً، والله يبغض الفاحش البذيء.

"قال تعالى: {وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ} أي في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء، {وَفَضْلاً} أي في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر، {وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}.

وقوله: {يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله".

الحكمة: أصل هذه اللفظة مادة "حكم"، وإمام اللغة أحمد بن فارس -رحمه الله- في كتابه المقاييس يرجعها إلى أصل واحد وهو المنع، وبعض أهل العلم يرجعها إلى أصلين كشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، فإرجاعها إلى المنع معناه أنها في جميع موارد الاستعمال ترجع إلى هذا المعنى، فإذا جئت بأي لفظة فيها حكم ويحكم وحاكم وما أشبه ذلك كحكمة فهي ترجع إلى المنع، ولذلك الحاكم إنما سمي حاكماً؛ لأنه يمنع أحد الخصمين من الاعتداء على حق الآخر، والقطعة من الحديد توضع على فم الفرس سميت حكمة؛ لأنها تمنعه من الانفلات، فهذا مما يؤكد أن أصول هذه اللفظة تدور وترجع إلى شيء واحد، وإن كانت معاني هذه اللفظة متعددة.

---

[3] - رواه الترمذي برقم (٢٩٨٨) (٥/٢١٩)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٤٧٧٣).

وقد تباينت أقوال العلماء في المراد بالحكمة، فقيل: هي الإصابة في القول والعمل، وهذا بمعنى وضع الشيء في موضعه وإيقاعه في موقعه، والحكمة تقتضي اجتماع الأمرين.

وقيل: هي الفقه في الدين، وهذا يقتضي أن يعرف الإنسان الحق كما هو، ويضع الشيء في موضعه؛ لأن من عنده علم وليس عنده فقه قد يخطئ في أحكامه، ويحيد في رؤيته، ويضل في دعوته، ويزيغ في فتواه، والفتوى تحتاج إلى فقه ونظر إلى الواقع ومآلات الأمور، وليست المسألة مجرد معلومات يحفظها الإنسان ويلقيها.

وقيل: إنها النبوة في بعض المواضع، كما قال الله -عز وجل- عن داود -عليه الصلاة والسلام-: **{وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ}** [(٢٥١) سورة البقرة] قال بعض المفسرين: إن المراد بالملك والحكمة في الآية النبوة، ومن مسلمات النبوة أن يعطى النبي من العلم والفهم ما يسدده ويرشده، ليكون مسدداً في الأحكام التي يبينها وفيما يأتي ويذر، وهذا لا يتأتي إلا بعبق من الوحي.

وقيل الحكمة: العقل، وقيل: فهم القرآن، وقيل: الفهم والعلم، وقيل: غير هذا، والملاحظ أن كل هذه المعاني الواردة في تفسير الحكمة قريبة من بعضها في المعنى، لكن من أوفاها في الدلالة على المعنى أن يقال: هي الإصابة في القول والعمل، وقد يراد بها معنى أعظم وأجل وأوفر إذا قصد بالحكمة النبوة، والنبوة: منحة إلهية، وتفضل من الله -عز وجل- لا ينال بالاكتساب، من آثارها التسديد والعلم والفقه والفهم والإصابة في القول والعلم، ومن أخذ من ميراث النبوة واقتبس كان له من الصواب والفهم والفقه بقدر ما أخذ، والحكمة لا شك أنها تحتاج إلى عقل حتى تكتمل للعبد.

"وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها))[٤] وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه".

قوله: **((ورجل آتاه الله حكمة))** بمعنى: آتاه الله علماً وفقهاً في الدين.

"وقوله: {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} أي: وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لُبٌّ وعقل يعي به الخطاب ومعنى الكلام.

{وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [(٢٧٠-٢٧١) سورة البقرة] يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده، وتوعد من لا يعمل بطاعته، بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره، فقال: {وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} [(٢٧٠) سورة البقرة] أي يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته".

---

[4] - رواه البخاري في كتاب الزكاة – باب إنفاق المال في حقه برقم (١٣٤٣) (٥١٠/٢)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلّمها برقم (٨١٦) (٥٥٩/١)، ورواه ابن ماجه برقم (٤٢٠٨) (١٤٠٧/٢)، ورواه أحمد في مسنده برقم (٣٦٥١) (٣٨٥/١).

الضمير في الآية جاء موحداً على الرغم من عودته على شيئين النفقة والنذر، وهذا محمول على عود الضمير المذكور على المعنى لا اللفظ، إذ المعنى أن الله يعلم ما ذكر من النفقة والنذر، ولهذا النوع من عود الضمير الموحد على أكثر من شيء أمثلة في القرآن عديدة كقوله سبحانه: **{وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ}** [(٣٤) سورة التوبة] وكقوله: **{وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا}** [(١١) سورة الجمعة] وقوله: **{وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ}** [(١١٢) سورة النساء] ولم يقل: بهما **{بَرِيئًا}**، وقد يثنى الضمير كقوله سبحانه: **{إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا}** [(١٣٥) سورة النساء].

"وقوله: {إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ} [(٢٧١) سورة البقرة] أي إن أظهرتموها فنعم شيء هي".

عامة أهل العلم على أن المراد بالإنفاق في الآية صدقة التطوع؛ لأنه قال: **{وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ}**، وهذا القدر بهذا الإطلاق لا يقال في الزكاة، لأن الزكاة معلوم أنه يطلب فيها الإظهار لأمور:

- كونها واجبة أصلاً.
- أن الإنسان لا يتمدح بإخراجها، فالجميع تلزمه الزكاة.
- لدفع التهمة عنه؛ لئلا يقال: فلان لم نره يخرج الزكاة.
- لما في إخراجها علانية من إظهار لشعيرة من شعائر الدين، وركن من أركان الإسلام، فيتداعى الناس إلى ذلك، ويكون إخراجها أمراً معروفاً في المجتمع، لا يستوحش منه أحد، ولا يجترئ إنسان على تركها أو التنصل منها.

"وقوله: {وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ} فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها؛ لأنه أبعد عن الرياء إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به، فيكون أفضل من هذه الحيثية، وقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: ((الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة))[5].

والأصل أن الإسرار أفضل لهذه الآية، ولما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: ((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه))[6]".

فالأصل أن الإسرار في الصدقات أفضل لعموم الأدلة، إلا إذا ترتب على الجهر مصلحة راجحة من اقتداء الناس وتفانيهم في الصدقات من باب التنافس في الخير، ففي هذه الحالة تُفضَّل صدقة الجهر من هذه الحيثية، ولذلك لما جاء إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– وفد عامتهم من مضر حفاةٌ عراةٌ مجتابي النِّمار ...، تمعّر

[5] – رواه أبو داود برقم (١٣٣٥) (١/٥١٠)، والترمذي برقم (٢٩١٩) (٥/١٨٠)، والنسائي برقم (٢٥٦١) (٥/٨٠)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٥٤١٦).

[6] – رواه البخاري في كتاب الزكاة– باب الصدقة باليمين برقم (١٣٥٧) (٢/٥١٧)، ومسلم في كتاب الزكاة – باب فضل إخفاء الصدقة برقم (١٠٣١) (٢/٧١٥).

وجه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذن وأقام، فصلى ثم خطب ... وحث على الصدقة، فجاء رجل من الأنصار بصُرّة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى اجتمع كومين من طعام وثياب ... القصة[7]، فالمصلحة هنا كانت داعية إلى أن يُظهر الناس صدقاتهم، وهناك حالات قد لا يتأتى معها السر، مثل لو أن الإنسان أراد أن يصلح طريقاً أو يبني جسراً، أو سوى ذلك مما يحتاج إلى أعوان، فلا بأس لكن لا بد من استحضار الإخلاص في الصدقة حتى تقبل عند الله –عز وجل– قال سبحانه: {وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} [(٢٢٠) سورة البقرة]، والنبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((إنما الأعمال بالنيات))[8].

"وقوله: {وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ} أي بدل الصدقات ولا سيّما إذا كانت سراً يحصل لكم الخير في رفع الدرجات ويكفر عنكم السيئات، وقوله: {وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} أي لا يخفى عليه من ذلك شيء وسيجزيكم عليه".

قرئت {وَيُكَفِّرُ} بالرفع، وقرئت بالجزم أيضاً {وَيُكَفِّرْ}، وجميعها قراءات متواترة، ونحن لا نذكر في العادة القراءات التي تكون بمعنىً واحد ولا يتأثر بها المعنى.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

---

[7] – رواه مسلم في كتاب الزكاة – باب الحث على الصدقة لو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار برقم (١٠١٧) (٧٠٤/٢).

[8] – رواه البخاري في كتاب بدء الوحي – باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– برقم (١) (٣/١)، ومسلم بلفظ ((إنما الأعمال بالنية)) في كتاب الإمارة – باب قول –صلى الله عليه وسلم– ((إنما الأعمال بالنية))، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال برقم (١٩٠٧) (١٥١٥/٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ * لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٢٧٢-٢٧٤) سورة البقرة]: "قال أبو عبد الرحمن النسائي: عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فسألوا فرخص لهم، فنزلت هذه الآية: {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ}".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالمراد من الآية وأثر ابن عباس أن الصحابة -رضوان الله عليهم- كانوا يكرهون أن يجعلوا شيئاً من وصاياهم لقرابتهم من المشركين، فبيّن الله -عز وجل- أن ما يخرجونه من الصدقات على قرابتهم من الكفار قربة لله -عز وجل- سيجدون جزاءها عند ربهم لا يضيع منه شيء، فلا يمنعهم شركهم بالله من الإحسان إليهم والتصدق عليهم فإن كفرهم ليس بمانع لكم من الصدقة، وهذا الخطاب في الآية يستثنى منه الزكاة؛ فإنها لا تعطى للمشرك إلا إذا كان من المؤلفة قلوبهم، والله أعلم.

"وقوله: {وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ} كقوله: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ} [(٤٦) سورة فصلت] ونظائرها في القرآن كثيرة، وقوله: {وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ} قال الحسن البصري: نفقة المؤمن لنفسه، ولا ينفق المؤمن إذا أنفق إلا ابتغاء وجه الله، وقال عطاء الخرساني: يعني إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله، وهذا معنىً حسن، وحاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب، ألبرٍّ أو فاجرٍ أو مستحق أو غيره، وهو مثاب على قصده".

أراد الله سبحانه أن يذكّر المتحرجين من دفع صدقاتهم لقرابتهم من المشركين لسبب أو لآخر بثلاثة أمور:

الأول: أن ما يقدمه الإنسان لنفسه من صدقة وبر إنما ذلك قربة يتقرب بها العبد إلى ربه-عز وجل- فلا يخاف ولا يخشى، وذلك قوله سبحانه: **{وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ}**.

الثاني: أن العمل لا بد في قبوله من شرط الإخلاص فيه وهو قوله سبحانه: **{وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ}** والمعنى: بما أنك تريد وجه الله -عز وجل- فلا عليك ما عمل هذا الإنسان وحاله، وبعض أهل العلم يقول: هذه الآية وردت على سبيل الإخبار عن أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنهم يحققون

الإخلاص في نفقاتهم فهي بمقام التزكية، وقيل: هذه الآية بمعنى الشرط فهي تدل على اشتراط الإخلاص لله -عز وجل-، كأنه يقول لهم: لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله، والذي يظهر أنها تبيّن لهم معنى يدفع عنهم ذلك الاستشكال والتوقف، يقول لهم: أنتم إنما تريدون بذلك وجه الله -عز وجل- فلا عليكم ما يكون عليه عمل هذا الإنسان الذي يُتصدَّق عليه.

الثالث: أن أي نفقة عائد نفعها على صاحبها، وسيوفيه الله أجره غير منقوص فيه، وسيجد جزاءه يوم يلقونه فلا يتمنع المرء من الإحسان إلى هذه القرابات ما داموا فقراء.

"ومستند هذا تمام الآية: {وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ} والحديث المخرج في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((قال رجل: لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبح الناس يتحدثون تُصدِّق على زانية، فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقتها فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون تُصدِّق على غني، قال: اللهم لك الحمد على غني، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون تُصدِّق الليلة على سارق، فقال: اللهم لك الحمد على زانية، وعلى غني وعلى سارق، فأُتي فقيل له: أمّا صدقتك فقد قبلت، وأما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زناها، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته))[1]".

هذا الرواية في الصدقة على الزانية والغني والسارق تقرر معنى الآية، فلا يمنع حال الإنسان من صلاح وفساد من إيصال البر والإحسان إليه والصدقة عليه ولو خالط العبد الكفر ففي كل كبد رطبة أجر، وكذا إعطاء الصدقة للمستكثر منها، فإنه يعطى ولن يتر الله أجر المتصدق، ولكن ينبغي التلطف في إيصال الصدقة بالطريقة المناسبة لمن علم من حاله أنه يستعين بها في باطل.

"وقوله: {لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ} [(٢٧٣) سورة البقرة] يعني المهاجرين الذين انقطعوا إلى الله وإلى رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وسكنوا المدينة، وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم، و{لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ} يعني سفراً للتسبب في طلب المعاش، والضرب في الأرض: هو السفر، قال الله تعالى: {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ} [(١٠١) سورة النساء] وقال تعالى: {عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [(٢٠) سورة المزمل] الآية".

يحتمل أن يرجع قوله سبحانه: {لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ} إلى ما سبق من الآيات وهو قوله سبحانه: {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ * لِلْفُقَرَاء} والمعنى اجعلوا هذه النفقات للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله، فهم أولى الناس بصدقاتكم ونفقاتكم.

ويحتمل أن يكون معنى الآية على تقدير: أنفقوا عليهم، أو غير ذلك مما يمكن أن يقدر هاهنا.

---

[1] - رواه البخاري في كتاب الزكاة – باب إذا تصدق على غني وهو لا يعلم برقم (١٣٥٥) (٢/٥١٦)، ومسلم في كتاب الزكاة – باب ثبوت أجر المتصدق وإن وقعت الصدقة في يد غير أهلها برقم (١٠٢٢) (٢/٧٠٩).

وقوله سبحانه: {أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ} سبق الكلام على هذه اللفظة "أحصروا" و"حصروا"، فمن أهل العلم من لا يفرق بينهما ويجعل معناهما واحد سواء كان ذلك الإحصار الواقع من جهة العدو، أو حصر نفسه عن التقلب والسعي في الأرض بأن اشتغل بالجهاد وتفرغ له.

وابن جرير –رحمه الله– يجعل هذا اللفظ بصيغة "أحصروا" من جهة اللغة دالاً على معنى محدد، فلا يقال إلا فيمن حصر نفسه بسبب تفرغه لعمل يقوم به، وهؤلاء لما تفرغوا للجهاد شغلوا به عن التجارة والتكسب مما أدى إلى عوزهم وفقرهم.

وقال بعضهم: إنهم مَن حصرهم العدو فلم يستطيعوا السفر للتجارة والتقلب في الأرض؛ لأن العدو يطلبهم ويتربص بهم في كل مكان، فإذا ذهبوا أُخذوا، مما اضطرهم ذلك إلى البقاء في المدينة.

والكلام على ما ورد في لفظة الإحصار مر عند قوله –تبارك وتعالى–: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [(١٩٦) سورة البقرة] وبناء عليه وقع الخلاف في الإحصار في الحج أو العمرة، هل يكون ذلك مختصاً بحصر العدو أو أن جميع صور الحصر داخلة فيه؟، الله أعلم بالصواب.

"وقوله: {يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ} أي: الجاهل بأمرهم وحالهم، يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم، وفي هذا الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غِنىً يغنيه، ولا يُفطن له فيُتصدقَ عليه، ولا يسألُ الناس شيئاً))[2]، وقد رواه أحمد من حديث ابن مسعود –رضي الله تعالى عنه– أيضاً".

فهذا الصنف لا يسألون صراحة ولا يتعرضون للسؤال، لا بالمقال، كأن يقول: أعطني ونحوه...، ولا بالحال كأن يتعرض للناس في طريقهم ويقف أمامهم يفهمهم أنه محتاج.

"وقوله: {تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ} أي: بما يظهر لذوي الألباب من صفاتهم، كما قال تعالى: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم} [(٢٩) سورة الفتح]، وقال: {وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} [(٣٠) سورة محمد]".

بمعنى أن المتفرس يعرفهم ويدرك فقرهم وحاجتهم، وذلك يشمل ما ذكره المفسرون في معنى هذه الآية، فصاحب العلة يعرف بما يظهر عليه من ملامح وجهه كصفرة وشحوب وصعوبة في مشيه وحركاته...، والفقير يعرف برذاذة ثيابه ورثاثته ومسكنته....

"وقوله: {لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} أي: لا يلحون في المسألة، ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن من سأل وله ما يغنيه عن السؤال فقد ألحف في المسألة".

الإلحاف: بمعنى الإلحاح، وأصل الكلمة من اللحاف الذي يعطاه الإنسان ليشتمل به في جميع أعضائه، وأبشع صور المسألة وأقبحها الإلحاح في السؤال، ولذلك نفى الله –عز وجل– عن هؤلاء الإلحاف في المسألة، ومقتضى مفهوم المخالفة في الآية أنهم يسألون لكن من غير إلحاف، وهذا يفهم منه معارضة المنطوق السابق

---

[2] – رواه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة البقرة برقم (٤٢٦٥) (١٦٥١/٤)، ورواه مسلم في كتاب الزكاة – باب المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يتفطن له فيتصدق عليه برقم (١٠٣٩) (٧١٩/٢).

وهو قوله: {يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ} والعفيف إنما سمي بذلك؛ لأنه لا يطلب من الناس شيئاً، ولا يكلم أحداً في حاجته، وإلا لما ظنهم الجاهل أغنياء، وما أطلق عليهم لفظ العفيف.

والجواب عن هذا الإشكال أن يقال: إن الشيء قد يرد نفيه مقيداً والمراد نفيه أصلاً، وذلك أبلغ في النفي، وهنا ذكر صفة في السؤال تستثقلها النفوس وتستقبحها فنفاها، ولم يقصد إثبات مفهوم المخالفة منها، فهذا الصنف لا يسألون لا بإلحاف ولا بغير إلحاف، وهذا التعبير موجود في كلام العرب وفي أشعارهم، إذا أرادوا أن يمدحوا إنسانا نفوا بعض الأوصاف السيئة عن الممدوح، ويقيدونها أحياناً بصورة مباشرة إذا سمعتها النفوس نفرت، فينفيها، والله أعلم.

"وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- قال: سرحتني أمي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أسأله فأتيته فقعدت، قال: فاستقبلني فقال: ((من استغنى أغناه الله، ومن استعف أعفه الله، ومن استكفى كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف))[3]، قال: فقلت: ناقتي الياقوتة خير من أوقية، فرجعت فلم أسأله، وهكذا رواه أبو داود والنسائي.

قوله: {وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ} أي: لا يخفى عليه شيء منه، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة أحوج ما يكون إليه".

قوله سبحانه: {وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ} هذا وعد مبطن متضمن للجزاء، والمعنى أن الله سيجازيكم على نفقاتكم وصدقاتكم، ولن يضيع من أجوركم شيئاً، وقد يتوهم متوهم أن ثمة ترابطاً بين هذه الآية والتي قبلها في المعنى، والصواب أن هناك فرقاً بينهما ذلك أن قوله سبحانه: {وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ} دلالته صريحة يراد به أن جزاءكم تأخذونه وافياً كاملاً من غير نقص ولا بخس من أجوركم شيئاً، فهو صريح الدلالة، وأما قوله سبحانه: {وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ} فدلالة الآية غير صريحة في الجزاء، إنما هو وعد مبطن يتضمن الجزاء.

"وقوله: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٢٧٤) سورة البقرة] **هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء مرضاته، في جميع الأوقات من ليل ونهار، والأحوال من سر وجهار".**

فحيث وجدتْ الحاجة فهو لا يتوقف ولا يتردد، وهذا أكمل ما يكون في البذل والإحسان والإنفاق، إذا كان في مقام السر قدمها سراً، أو في حال العلانية بادر بها علانية، والمقصود أنه حيث وجدتْ الحاجة فهو سباق إلى ذلك.

"حتى إن النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضاً، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لسعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- حين عاده مريضاً عام الفتح، وفي رواية عام

[3] - رواه أبو داود برقم (١٦٣٠) (٢/٣٤)، ورواه النسائي برقم (٢٥٩٥) (٥/٩٨)، ورواه أحمد في مسنده برقم (١١٠٥٧) (٣/٩)، وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده قوي.

حجة الوداع: ((وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى ما تجعل في في امرأتك))[4].

وروى الإمام أحمد عن أبي مسعود -رضي الله تعالى عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة))[5]. أخرجاه.

وقوله: {فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ} أي يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات، فـ {لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} تقدم تفسيره".

لما كان المال عزيزاً على النفوس، وهؤلاء قلقون على هذا البذل الذي بذلوه، والعطية التي أعطوها، والنفقات التي أنفقوها، قدم الله -عز وجل- المعمول على سواه، وذلك لما قدم الأمر الذي يتوجه إليه الاهتمام بقوله: **{لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ}** فأراد الله أن يطمئنهم على مصير هذه النفقات والمآل الذي ينتظرهم.

وقوله سبحانه: **{لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}**

الخوف هو: القلق من أمر مستقبل.

والحزْن هو: القلق بسبب أمر فائت، وقد يستعمل أحدهما في مكان الآخر، فهؤلاء المنفقون أموالهم بالليل والنهار، سراً وعلانية، لا يخافون شيئاً في المستقبل، فالله يؤمنهم من المخاوف، وكذلك أيضاً لا يحزنون على أمر فائت إكراماً من الله لهم جزاء لبذلهم وعطائهم.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

---

[4] - رواه البخاري في كتاب النفقات - باب فضل النفقة على الأهل برقم (٥٠٣٩) (٥/٢٠٤٧)، ومسلم في كتاب الوصية - باب الوصية بالثلث برقم (١٦٢٨) (٣/١٢٥٠).

[5] - رواه البخاري في كتاب النفقات - باب فضل النفقة على الأهل برقم (٥٠٣٦) (٥/٢٠٤٧)، ورواه مسلم في كتاب الزكاة - باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين برقم (١٠٢٢) (٢/٦٩٥)، ورواه أحمد برقم (١٧١٢٣) (٤/١٢٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٢٧٥) سورة البقرة].

"لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات، المخرجين الزكوات المتفضلين بالبر والصدقات لذوي الحاجات والقرابات في جميع الأحوال والأوقات شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم، فقال: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه، وتخبط الشيطان له، وذلك أنه يقوم قياماً منكراً.

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يخنق، رواه ابن أبي حاتم".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في أول كلامه على هذه الآية يعرف بالمناسبة ووجه الارتباط بين الآيات، والمناسبة في هذه الآيات بين مقطع ومقطع، ليس بين آية وآية، فقد جعل الله -عز وجل- الناس أقساماً في التعامل مع المال:

الأول: المنفق ماله في وجوه الخير قربة إلى الله -عز وجل- وابتغاء رضوانه.

الثاني: الممسك ماله بخلاً وشحاً.

الثالث: المتسلط على أموال الناس بغير حق، وهؤلاء هم أكلة الربا لا يقومون أي من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له، وهذا أحسن ما تفسر به الآية، والله تعالى أعلم.

وقوله سبحانه: **{لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ}** يحتمل معناه أمرين:

الأول: أن الذين يأكلون الربا لا يقومون من المس إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان، فيكون قوله: من المس مرتبطاً بقوله: يقومون، وهذا الاحتمال مرجوح.

وأحسن منه الاحتمال الآخر، ومؤداه أن الذين يأكلون الربا لا يقومون من قبورهم إلا كما يقوم الممسوس الذي يتخبطه الشيطان من المس، فمن المس يرجع إلى قيام هذا الأخير، لا إلى قيامهم هم، هذا هو المعنى والله أعلم.

والتخبط: هو الضرب على غير استواء، ولا اهتداء، يقال: فلان يتخبط، أو يخبِط خبْطَ عشواءَ، وهذه الآية نص صريح في أن الشيطان يلابس الإنسان ملابسة يصيبه فيها الصرع، ولا يفهم منه أن الصرع سببه

الشيطان فحسب، فقد يكون الصرع بسبب أورام في الدماغ، أو أبخرة تصعد من المعدة إلى الدماغ، وإنما ذكرت فقط هذا المعنى بهذا التصوير لحال هذا المرابي، والله أعلم.

"وقال ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يخنق، رواه ابن أبي حاتم، قال: وروي عن عوف بن مالك، وسعيد بن جبير، والسدي، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان نحو ذلك.

وقد روى البخاري عن سمرة بن جندب –رضي الله تعالى عنه– في حديث المنام الطويل: فأتينا على نهر حسبت أن كان يقول: أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع الحجارة عنده فيفغر له فاه، فيلقمه حجراً، فذكر في تفسيره أنه آكل الربا.

وقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} أي إنما جُوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه، وليس هذا قياساً منهم للربا على البيع؛ لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا: {إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا}، أي هو نظيره، فلم حُرم هذا وأبيح هذا؟، وهذا اعتراض منهم على الشرع، أي هذا مثل هذا، وقد أحل هذا وحرم هذا".

ما دفع الحافظَ ابن كثير –رحمه الله– للقول بأن تشبيههم البيع بالربا ليس من باب القياس أمران:

الأول: أنهم لا يقرون بحكم الشرع أصلاً، والقياس إنما هو إلحاق أصل بفرع في حكم لعلة جامعة بينهما، فهم لا يعترفون لا بالأصل ولا بالفرع ولا بالعلة ولا...

الثاني: أنهم قالوا: إنما البيع مثل الربا، ومعلوم أن البيع متفق عليه بين أهل الإيمان أنه حلال، وإنما الكلام والخلاف في الربا، فكيف يصح قياس المتفق عليه على المختلف فيه؟.

فإذا قيل: ما وجه اعترض الكفار على الشرع يوم قالوا: إنما البيع مثل الربا فقلبوا القضية وعكسوها؟ الجواب أن يقال: إنما دعاهم إلى قولهم هذا المبالغة منهم في المكابرة كما ذكر المفسرون، بحيث جعلوا الربا لعظم استحلالهم له كأنه أصل، والبيع كأنه فرع، مع المفترض أن يحدث العكس، والله تعالى أعلم.

واختلفت أفهام المفسرين في السبب الذي لأجله ذكر الله قيامهم من القبور بهذه الهيئة المنكرة الواردة في قوله سبحانه: **{الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا}**

فذهب بعض المفسرين إلى أن السبب لهذه العقوبة هو أكلهم الربا، كما يدل عليه ظاهر الآية وصدرها.

وذهب بعضهم إلى أن هذه العقوبة جعلت لمن كان مستحلاً للربا كما يدل عليه ما بعده وهو قوله: **{بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا}**.

والصواب القول: إن لفظ الآية ما دام جاء بصيغة العموم **{الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا}** –لأن "الذين" اسم موصول يفيد العموم– فهو يصدق على الآكل والمستحل، وإنما الله –عز وجل– ذكر الآكل في الآية؛ لأنه غالب وجوه الانتفاع، وإلا فبأي وجه من الوجوه صار الانتفاع من الربا؟ فهو داخل في هذه الآية، ولذلك الله –عز وجل– لما

توعد الذين يأكلون أموال اليتامى، أراد من تصرف فيه بأي لون من التصرف الذي ينتفع به، ولذلك فكل من قال: إنما البيع مثل الربا، أو أنه عصب الاقتصاد، ولا يقوم اقتصاد العالم إلا به، فهذا يكفر بكلامه هذا كفراً أكبر يخرج به من الملة.

وبعضهم يأكل الربا طمعاً أو حباً للمال أو تغلبه نفسه عليه فهذا أيضاً ممن يشمله الوعيد في الآية.

وليس التعليل في الآية لاستحقاقهم هذه العقوبة لقولهم: {إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا} بحجة لقائل؛ لأنه يمكن أن يكون ذكر ذلك باعتبار حالة وقعت مع المشركين فنزلت الآيات، وهذه الآية أصلاً نزلت تحرم الربا، وهي آخر ما نزل، وكان الناس يتعاملون به في الجاهلية، ولما فتح الله قلب قريش وثقيف للإسلام، جاءت ثقيف تتقاضى من قريش، وقد كانوا يقرضونهم قروضاً ربوية، فقالوا: لا نعطيكم شيئاً حتى نسأل رسول الله –صلى الله عليه وسلم–.

فالحاصل أن آية الربا هذه منعت من أن يتعاطى أحد شيئاً من الأموال الربوية وجاءت كرد على هؤلاء المشركين الذي لم ينقادوا لهذا الحكم، ولم يستسلموا أو يذعنوا له.

"وقوله تعالى: {وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} [(٢٧٥) سورة البقرة] يحتمل أن يكون من تمام الكلام رداً عليهم، أي على ما قالوه من الاعتراض، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً، وهو العليم الحكيم الذي لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها، وما ينفع عباده فيبيحه لهم، وما يضرهم فينهاهم عنه، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل".

يحتمل في إيراد هذا المقطع من الآية {وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} ثلاثة احتمالات:

- أنها جملة جديدة لتقرير الحكم، بغض النظر عن دعوى هؤلاء الناس المبطلين.
- أن تكون من جملة قولهم، يعترضون بها على حكم الله وشرعه، كأنهم يقولون: إنما البيع مثل الربا، فلماذا يحل الله البيع ويحرم الربا؟ وهذا القول فيه بعد.
- أن تكون من قبيل الرد عليهم، وهذا القول أقرب الاحتمالات لاتصال المقطع بما قبله؛ لأنهم قالوا: إنما البيع مثل الربا، فرد الله –عز وجل– عليهم بأنه أحل البيع وحرم الربا.

ويستفاد من هذا الرد فائدة عظيمة، وهي أنه لا يجب عند الرد على المبطلين وأصحاب الشبهات والمعترضين أن يكون مشتملاً على الدلائل العقلية المقنعة لمن لا ينقاد للوحي، وإن كانت المناظرة بدلائل العقل والحس مما يخضع لها المعاند للحق غير المؤمن به، والله أعلم.

"ولهذا قال: {فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ} أي من بلغه نهي الله عن الربا، فانتهى حال وصول الشرع إليه فله ما سلف من المعاملة، لقوله: {عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف} [(٩٥) سورة المائدة]، وكما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– يوم فتح مكة: ((وكل رباً في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين، وأول رباً أضع ربا العباس))[1]. ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية، بل عفا عما سلف، كما

---

[1] – رواه الترمذي برقم (٣٠٨٧) (٢٧٣/٥)، وابن ماجه برقم (٣٠٧٤) (١٠٢٢/٢)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٣٨٣١).

قال تعالى: {فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ}، قال سعيد بن جبير، والسدي: {فَلَهُ مَا سَلَفَ} ما كان أكل من الربا قبل التحريم".

هذه الآية لها نظائر في القرآن كقوله -تبارك وتعالى- في مسألة الصيد: **{عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف}**، وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ}** [(٢٢) سورة النساء]، وهي تدل دلالة صريحة بأن من أخذ شيئاً من أموال الربا قبل نزول الحكم فإنه لا يطالب برده، ولهذه المسألة أربع صور:

الصورة الأولى: إنسان يملك مائة مليون قبل نزول الحكم، رأس ماله منها مليون، والباقي حصله من تعامله بالربا، فلا يكلف بالتخلص من الأموال الربوية؛ لأن من شروط التكليف بلوغ الخطاب، وهو لم يبلغه خطاب الشارع للمكلفين، لكن بعد نزول الحكم يعمه الخطاب ويشمله التكليف، وما أخذه بالربا بعد ذلك فالواجب عليه أن يرده ويستبقي رؤوس أمواله.

الصورة الثانية: رجل أسلم بعد نزول الحكم وهو يملك مائة ألف، رأس ماله منها عشرة آلاف، والباقي كله من الربا، فهذا لا يطالب بالتخلص منها؛ لأن الإسلام يجب ما قبله، وهذا الحكم فيمن يتعاطون الربا حال إسلامهم، ولكن لا يجوز له بحال أن يأخذ شيئاً من أموال الربا بعد إسلامه.

الصورة الثالثة: من نشأ في مكان بعيد لا يعرف شيئاً من أحكام دينه وشرعه، وتعاطى الربا وتعامل به، ولم يبلغه الحكم، فلا يطالب بالتخلص من الأموال الربوية السابقة؛ لأن من شروط التكليف بلوغ الخطاب، وهو لم يبلغه، فعفا الله عما سلف.

الصورة الرابعة: من تعامل بالربا ثم بدا له أن يتوب منه، فهؤلاء كما قال الله -عز وجل-: **{فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ}** [(٢٧٩) سورة البقرة]، فلما كان هذا الإنسان متعدياً ظالماً يعرف حكم الله -عز وجل- ولم ينته، لم يحل له أخذ شيء من أموال الربا، بل لا بد له أن يتخلص من تلك الأموال الربوية جميعها، ولكن هذا ليس محل اتفاق، فبعض أهل العلم يرى أن مثله لا يجب عليه أن يرجعها، ويقولون: هذا تسهيل للتوبة، وتيسير على الناس وأنه يدخل في عموم قوله تعالى: **{فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ}**، والله أعلم.

"ثم قال الله تعالى: {وَمَنْ عَادَ} أي إلى الربا ففعله بعد بلوغ نهي الله له عنه".

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسر العود بالفعل، لكن الآية تحتمل معنى آخر وهو الاستحلال أي عاد إلى ما ذكر من الاستحلال بعد ما بين الله حكم الربا والوعيد المنتظر لمن كان مستحلاً له متعاملاً به، فإنه من أصحاب النار يخلد فيها خلود الكفار؛ لأنه من جملتهم، قال سبحانه: **{وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}**.

وهنا قد يتوهم ورود إشكال إذا فسرنا قوله سبحانه: **{وَمَنْ عَادَ}** بأنه من العود للفعل، وذلك إذا كان الإنسان لم يك قد تعاطاه من قبل أو تعامل به فهل يخرج من الوعيد لهذا السبب؟

الجواب أن يقال: إنّ عاد في لغة العرب تأتي بمعنيين:

الأول: الرجوع إلى الشيء.

الثاني: بمعنى الصيرورة مطلقاً، ولو لم يكن عليه من قبل، ومن شواهده قول الشاعر:

إذا شاب الغراب أتيت أهلي ... وعاد القار كاللبن الحليب

فمعنى عاد هنا أي صار القار كاللبن الحليب، ومنه قولهم: حتى يعود اللبن في الضرع، عاد الشاب كهلاً، عاد الصحيح مريضاً، عاد الشجر حطباً، عاد الماء ثلجاً، عاد الخمر خلاً، وكل هذه الأمثلة أتت فيها عاد بمعنى صار.

ومنه ما حكاه الله في كتابه على لسان أهل الكفر من أقوام الرسل، يوم قالوا لرسلهم: **{لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}** [(١٣) سورة إبراهيم] فهل كانوا على ملتهم من قبل؟ وكذا قوله: **{قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا}** [(٨٩) سورة الأعراف] وقد نوه لإتيان عادَ بهذين المعنيين جماعة ممن كتب في فقه اللغة كالثعالبي ونحوه، والله أعلم.

"فقد استوجب العقوبة وقامت عليه الحجة، ولهذا قال: {فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}".

الصحبة: تعني الملازمة للشيء، فهم ملازمون للنار لا يخرجون منها ولا نجاة لهم من عذابها، وهذه الآية من نصوص الوعيد التي تُمرر كما جاءت ولا يتعرض لها بتأويل أو تفسير، وبعضهم قال: إن المقصود بالخلود في الآية هو البقاء مدة طويلة؛ إذ العرب تسميه خلوداً، والله أعلم.

"وقد روى أبو داود عن جابر -رضي الله تعالى عنه- قال: لما نزلت {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من لم يذر المخابرة فليؤذن بحرب من الله ورسوله))[2] ورواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وإنما حرمت المخابرة وهي: المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض، والمزابنة وهي: اشتراء الرطب في رءوس النخل بالتمر على وجه الأرض".

بتقدير الخارص ينظر إلى أقناء الرطب فيقدره بـــ....، وعلة التحريم ترجع إلى جهالة المقدار، وذلك لأن الرطب ينقص إذا جف، والقاعدة في الربويات: أن الجهل بالتماثل كالعلم بالتفاضل، لكن رخص النبي -صلى الله عليه وسلم- من بيع المزابنة نوعاً منه ألا وهو بيع العرايا فيما دون خمسة أوسق، إذا أراده الشخص لنفسه لا لغرض التجارة، والله أعلم.

"والمحاقلة وهي: اشتراء الحب في سنبله في الحقل بالحب على وجه الأرض، إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها حسماً لمادة الربا؛ لأنه لا يعلم التساوي بين الشيئين قبل الجفاف، وباب الربا من أشكل الأبواب على كثير من أهل العلم.

وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-: ثلاث وددت أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه: الجَّد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا.

يعني بذلك بعض المسائل التي فيها شائبة الربا".

أما مسألة الجد مع الأخوة فللخلاف الشديد بين الصحابة فيها، وأما الكلالة: وهو من ليس له أصل ولا فرع وارث، من تكلله النسب، بمعنى أن ورثته كلهم من الحواشي، وإن كان عمر -رضي الله عنه- يقول عن نفسه: ما راجعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ

---

[2] - رواه أبو داود برقم (٣٤٠٨) (٢٧٢/٣)، والحاكم في مستدركه برقم (٣١٢٩) (٣١٤/٢)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١٢٦١٣).

لي فيه حتى طعن بإصبعه في صدري، فقال: يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء، وأما الربا فإنما كانت مسائله من أشكل الأبواب؛ لكثرة تشعبها، وتداخل المسائل التي ترتبط به بعضها في بعض.

"والشريعة شاهدة بأن كل حرام فالوسيلة إليه مثله؛ لأن ما أفضى إلى الحرام حرام، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب".

هناك أشياء تُمنع من باب الذريعة؛ لأنها تفضي إلى الربا، مثل مسألة العينة وعكسها مُنعتا من أجل الاحتيال على الربا، مع أن المسألتين ليستا محل اتفاق بين أهل العلم على التحريم، ومثلها مسائل أخرى كثيرة يحتال الناس بها على الربا مثل قلب الدين، وبيع الأجل...،

وكذا البنوك التي تزعم أنها تتعاقد بالمعاملات الإسلامية، وهي في الحقيقة تذبح على الطريقة الإسلامية، ولذلك تجد أرباحهم من القروض أضعاف ما عند غيرهم من البنوك الربوية.

ولذلك نص العلماء على مجموعة من القواعد في مسألة الربا، مثل السلعة الخارجة من اليد العائدة إليها ملغاة، وصورتها: أن يشتري من البائع السلعة بالأقساط، ثم يبيعها عليه نقداً، وأحياناً بينهما طرف ثالث يبيعها له، وهو يرجعها له، وهكذا تدور.

"وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن، وبين ذلك أمور مشتبهات، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه))[3].

وفي السنن عن الحسن بن علي -رضي الله تعالى عنهما- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((دع ما يريبك إلى ما لا يريبك))[4].

وروى أحمد عن سعيد بن المسيب أن عمر -رضي الله تعالى عنه- قال: مِن آخر ما نزل آية الربا، وإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قبض قبل أن يفسرها لنا، فدعوا الربا والريبة[5]."

هذه النصوص والآثار التي أوردها ابن كثير -رحمه الله- إنما قصد بها تأكيد أمر الشارع بترك المشتبهات في الدين.

"وروى ابن ماجه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الربا سبعون حوباً، أيسرها أن ينكح الرجل أمه))[6].

ومن هذا القبيل وهو تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى المسجد فقرأهن، فحرم التجارة في الخمر[7]."

---

[3] – رواه البخاري في كتاب الإيمان – باب فضل من استبرأ لدينه برقم (٥٢) (٢٨/١)، ومسلم في كتاب المساقاة – باب أخذ الحلال وترك الشبهات برقم (١٥٩٩) (١٢١٩/٣).

[4] - رواه الترمذي برقم (٢٥١٨) (٦٦٨/٤)، والنسائي برقم (٥٧١١) (٣٢٧/٨)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٥٦٩٠).

[5] - رواه أحمد في مسنده برقم (٢٦٤) (٣٦/١)، وقال شعيب الأرنؤوط : حسن رجاله ثقات رجال الشيخين.

[6] - رواه ابن ماجه برقم (٢٢٧٤) (٧٦٤/٢)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٥٨٥٤).

[7] – رواه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة البقرة وقول الله {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا} [(٣١) سورة البقرة] برقم (٤٢٦٧) (١٦٥١/٤)، ومسلم في كتاب المساقاة – باب تحريم بيع الخمر برقم (١٥٨٠) (١٢٠٦/٣) ورواه أحمد برقم (٢٤٧٣٦).

يؤخذ من الرواية أن بيان القرآن الكريم من النبي -صلى الله عليه وسلم- للصحابة إنما كان لما احتاجوا إلى تفسيره مما لم يفهموه منه، وابن تيمية ومن وافقه يرى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- فسر جميع القرآن واستدل بقوله سبحانه: {بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [(٤٤) سورة النحل] ويمكن القول: إن البيان يحصل بمجرد التلاوة والتبليغ للوحي؛ لأن الصحابة كانوا عرباً أقحاحاً يفهمون المراد دون بيان.

"وقد أخرجه الجماعة سوى الترمذي كما قال -عليه السلام- في الحديث المتفق عليه: ((لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوها، فباعوها وأكلوا أثمانها))[8].

وقد ورد في حديث علي وابن مسعود -رضي الله تعالى عنهما- وغيرهما في لعن المحلل قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه))[9].

قالوا: وما يشهد عليه ويكتب إلا إذا أظهر في صورة عقد شرعي، ويكون داخله فاسداً، فالاعتبار بمعناه لا بصورته؛ لأن الأعمال بالنيات".

هذا مثل البطاقات التي يسمونها فيزا، وهي: بطاقة بنكية ربوية تأخذ عليها البنوك مقابلاً إذا ما سددت خلال فترة معينة، والبنوك إزاء ذلك ثلاثة أنواع:

الأول: لا يأخذ شيئاً مقابل القرض، لكن إذا مضت فترة محددة دون تسديد أوقفها.

الثاني: متجاوز وهو قسمان:

أحدهما: يأخذ رسوم الاشتراك على قدر التكلفة بما يسمى "أجور خدمة"، وهذا لا إشكال فيه إذا لم تتعد الحد المعقول.

ثانيهما: يأخذ أجور خدمة، لكن بما هو أكثر من العادة، فهؤلاء في الواقع يأخذون زيادة في التأخير، وإنما يحتالون بهذه الطريقة ويسمونها أجور خدمة.

الثالث: محتال، وطريقتهم أنهم بعد أن ينتهي الرصيد من العميل ويتأخر تسديده، يلزمونه بمعاملة معينة، فيعرضون عليه شراء سلعة محددة بالأقساط لمدة سنة مثلاً، ويزيدون في سعرها الحقيقي لأجل الأقساط، فإن وافق وإلا اقترحوا عليه أن يكفونه بيعها بسعر أقل نقداً بحكم معرفتهم بالسوق والتجار، وعند مناقشتهم في أمر الزيادة في البيع بالأقساط يحتجون بأنهم يضعونها في الأعمال الخيرية، والحقيقة أن هذه من الحيل التي غطيت بغطاء المعاملات الإسلامية، والله المستعان..

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

---

[8] رواه البخاري في كتاب البيوع – باب لا يذاب شحم الميتة ولا يباع ودكه برقم (٢١١٠) (٢/٧٧٤)، ومسلم في كتاب المساقاة – باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام برقم (١٥٨٢) (٣/١٢٠٧).

[9] رواه أحمد في مسنده برقم (٣٨٠٩) (١/٤٠٢)، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف شريك.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١١٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٢٧٦- ٢٧٧) سورة البقرة].

"يخبر تعالى أنه يمحق الربا أي يذهبه، إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه أو يحرمه بركة ماله، فلا ينتفع به بل يعذبه به في الدنيا، ويعاقبه عليه يوم القيامة، كما قال تعالى: {قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ} [(١٠٠) سورة المائدة]، وقال تعالى: {وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ} [(٣٧) سورة الأنفال]، وقال: {وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ} الآية [(٣٩) سورة الروم].

وقال ابن جرير في قوله: {يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا}: وهذا نظير الخبر الذي روي عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قلٍّ))[1]. رواه الإمام أحمد في مسنده بنحوه".

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلما كان مقصود هذا المرابي هو تكثير ماله بأي طريق من حلال أو حرام، عاقبه الله -عز وجل- بنقيض قصده بأن أصاب ماله بالمحق، والمحق: الإبطال، أي أن الله أبطل ماله وأذهبه، وإن كثر فإن كثرته لا تغني عن صاحبه شيئاً لأنه منزوع البركة، وهذا المرابي إذا تصدق فلا تقبل صدقته، وكذا لو حج أو بنى مسجداً بهذا المال، فإنه لا يؤجر على صنيعه؛ لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وهذا المال سيئ من كسب سيئ، وفي المقابل ...

"{وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ} أي ينميها، وقيل: يربيها، كما روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فُلُوَّه، حتى تكون مثل الجبل))[2]، وقد رواه مسلم في الزكاة".

---

[1] - رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (٣٧٥٤) (١/٣٩٥)، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح.

[2] - رواه البخاري في كتاب الزكاة - باب لا يقبل الله صدقة من غلول ولا يقبل إلا من كسب طيب برقم (١٣٤٤) (٢/٥١١).

والصدقة وإن كانت في ظاهرها نقص من المال، إلا أن عزاء المتصدق فيما أخبر عنه نبيه –صلى الله عليه وسلم– بقوله: ((ما نقص مال عبد من صدقة))[3]، فيبارك الله سبحانه للمتصدق في ماله، ويربي له صدقته حتى تصبح أمثال الجبال.

"وقوله: {وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ} أي لا يحب كفور القلب، أثيم القول والفعل، ولابد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من التكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جَحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل".

هذا وجه حسن فيما يتعلق ببيان وجه المناسبة بين خاتمة الآية وبين موضوعها، فهذه الآية لما كانت تتحدث عن هذا الإنسان المرابي الذي لم يرض بما أعطاه الله –عز وجل– من كسب حلال، فكفر نعمة الله عليه، وصار يطلب ما لا يحل له كسبه، جعل الله –عز وجل– هذا جزاءه **{وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ}** فهو كفار بفعله، مكتسب للآثام، متقحم على حدود الله –عز وجل– بالباطل.

"ثم قال تعالى مادحاً للمؤمنين بربهم، المطيعين أمره، المؤدين شكره، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مخبراً عما أعد لهم من الكرامة، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون، فقال: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٢٧٧) سورة البقرة]".

لما وصف الله سبحانه المرابين وحالهم ومالهم، عرج على ذكر من يقابلهم، وهم أهل العبودية والإحسان والإفضال والطاعة لله –عز وجل، كأنه يريد القول: إن هؤلاء في طرف وأولئك في طرف آخر، وشتان ما بينهما.

"{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ * وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [(٢٧٨-٢٨١) سورة البقرة] يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، ناهياً لهم عما يقربهم إلى سخطه ويبعدهم عن رضاه، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ} أي خافوه وراقبوه فيما تفعلون، {وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا} أي اتركوا ما لكم على الناس من الزيادة على رءوس الأموال بعد هذا الإنذار، {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} أي بما شرع الله لكم من تحليل البيع وتحريم الربا وغير ذلك".

سبق الكلام على صور تعاطي الربا قبل بلوغ الخطاب وبعد بلوغه، وما يجوز منها وما يحرم، وفصلنا في ذلك بما يغني عن إعادتها.

وأما قوله سبحانه: **{إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}** فهذا أسلوب معروف في كلام العرب، يقصد به التحضيض والتحريض على الامتثال للفعل، تقول: إن كنت ابن الكرام فافعل كذا، بمعنى أنك تحرضه وتحثه علي أمر معين، وأمثلته عديدة في القرآن الكريم.

---

[3] – رواه الترمذي برقم (٢٣٢٥) (٥٦٢/٤)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٥٣٣٥).

"وقد ذكر زيد بن أسلم، وابن جريج، ومقاتل بن حيان، والسدي أن هذا السياق نزل في بني عمرو بن عمير من ثقيف، وبني المغيرة من بني مخزوم، كان بينهم رباً في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه طلبت ثقيف أن تأخذه منهم، فتشاوروا، وقالت بنو المغيرة: لا نؤدي الربا في الإسلام، فكتب في ذلك عتاب ابن أَسيد نائب مكة إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فنزلت هذه الآية، فكتب بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إليه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ} فقالوا: نتوب إلى الله ونذر ما بقي من الربا، فتركوه كلهم"، وهذا تهديد ووعيد أكيد لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار".

هذه الرواية من المراسيل فيها ضعف، لكنها إذا جاءت من أكثر من وجه، فقد تنجبر وتتقوى بذلك.

"قال ابن جريج: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ} أي استيقنوا بحرب من الله ورسوله.

وعنه قال: يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب، ثم قرأ: {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ}".

ويمكن أن يكون هذا من باب الإعلام لهم بالحرب كما قال سبحانه: {فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء} [(١٠٩) سورة الأنبياء] بمعنى أعلمتكم، والأذان: هو الإعلام، وهذا لا يخالف ما أورده ابن كثير في معنى الآية، إذ المراد أنه إعلام أكيد لا مرية فيه أن الذي يفعل الربا محارب لله -عز وجل-، ولذلك لم تتضافر الآثار في التنفير والتشنيع من معصية مثل ما تضافرت في آكل الربا، وهذا يدل على عظم هذا الذنب وفداحة عاقبته، إضافة إلى ما ورد فيه من الوعيد واللعن للمتعامل به قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لعن الله آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء))[4].

"وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ} فمن كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه، فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه.

ثم قال تعالى: {وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ} أي بأخذ الزيادة، {وَلاَ تُظْلَمُونَ} أي بوضع رءوس الأموال أيضاً، بل لكم ما بذلتم من غير زيادة عليه ولا نقص منه.

وروى ابن أبي حاتم عن عمرو بن الأحوص -رضي الله تعالى عنه- قال: خطب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في حجة الوداع فقال: ((ألا إن كل رباً كان في الجاهلية موضوع عنكم كله، لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، وأول رباً موضوع ربا العباس بن عبد المطلب، موضوع كله))[5].

وقوله: {وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(٢٨٠) سورة البقرة] يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاءً، فقال: {وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ} لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين: إما أن تقضي وإما أن تربي، ثم يندب إلى الوضع

---

[4] - رواه مسلم في كتاب المساقاة - باب لعن آكل الربا ومؤكله برقم (١٥٨٩) (٣/١٢١٩).

[5] - رواه الترمذي في سننه بلفظ مقارب برقم (٣٠٨٧) (٥/٢٧٣)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١٣٨٣٨).

عنه، ويعِد على ذلك الخير والثواب الجزيل فقال: {وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} أي وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين".

أو بعضه فهو خير وأفضل لكم، فقد ثبت في الصحيحين أن كعب بن مالك -رضي الله عنه-: كان له على عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي دين فلقيه، فلزمه، فتكلما حتى ارتفعت أصواتهما، فمر بهما النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((يا كعب)). وأشار بيده كأنه يقول النصف، فأخذ نصف ما عليه وترك نصفا.[6]

"روى الإمام أحمد عن سليمان بن بريد عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة))، قال: ثم سمعته يقول: ((من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة))، قلت: سمعتك يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، تقول: ((من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة))، ثم سمعتك تقول: ((من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة))، قال: ((له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين، فإذا حل الدين فأنظره فله بكل يوم مثلاه صدقة))[7]".

فإذا استيقن المؤمن مثل هذا هانت عليه الدنيا، ولم يفعل ما يفعله أهل الجاهلية من ظنهم أن أموالهم منحبسة في أيدي غرمائهم، لا يستطيعون التصرف فيها، ولا يجدون سبيلاً إلى تعويض ما فاتهم إلا بأخذ ذلك المال السحت.

"وروى أحمد عن محمد بن كعب القرظي أن أبا قتادة -رضي الله تعالى عنه- كان له دين على رجل وكان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه، فجاء ذات يوم فخرج صبي، فسأله عنه، فقال: نعم هو في البيت يأكل خزيرة، فناداه فقال: يا فلان اخرج، فقد أُخبرت أنك ها هنا، فخرج إليه، فقال: ما يغيبك عني؟، فقال: إني معسر، وليس عندي شيء، قال: آلله إنك معسر؟، قال: نعم، فبكى أبو قتادة، ثم قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((من نفس عن غريمه أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة))[8]، ورواه مسلم في صحيحه.

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن حذيفة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أُتي الله بعبد من عبيده يوم القيامة، قال: ماذا عملت لي في الدنيا؟، فقال: ما عملت لك يا رب مثقال ذرة في الدنيا أرجوك بها -قالها ثلاث مرات- قال العبد عند آخرها: يا رب، إنك كنت أعطيتني فضل مال، وكنت رجلاً أُبايع الناس، وكان من خلقي الجواز، فكنت أيسر على الموسر، وأنظر المعسر، قال: فيقول الله -عز وجل-: أنا أحق من ييسر، ادخل الجنة))[9].

---

[6] – رواه البخاري في كتاب الخصومات -باب الملازمة برقم (٢٢٩٢) (٢/٨٥٣)، ومسلم في كتاب المساقاة -باب استحباب الوضع من الدين برقم (١٥٥٨) (٣/١١٩٢).

[7] – رواه أحمد في مسنده برقم (٢٣٠٩٦) (٥/٣٦٠)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير سليمان بن بريدة فمن رجال مسلم.

[8] – رواه مسلم في كتاب المساقاة – باب فضل إنظار المعسر برقم (١٥٦٣) (٣/١١٩٦) ولفظه ((من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه))، وأحمد في مسنده برقم (٢٢٦٧٦) (٥/٣٠٨). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

[9] – رواه البخاري في كتاب البيوع – باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقاً فليطلبه في عفاف برقم (١٩٧١) (٢/٧٣١)، ومسلم في كتاب المساقاة – باب فضل إنظار المعسر برقم (١٥٦٠) (٣/١١٩٤). ولفظهما مختلف.

وقد أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجه عن حذيفة، زاد مسلم: وعقبة بن عامر، وأبي مسعود البدري -رضي الله تعالى عنهما-: عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بنحوه".

قصد بقوله: "إن من خلقي الجواز" يعني التسهيل والتوسعة على الناس، فهذا ما يئول إليه معنى الجواز، وهذا الحديث يستدل به على أن الإنسان قد يعمل عملاً ليست له فيه نية ويؤجر عليه، وهذا عائد إلى مشيئة الله وإرادته وحكمه النافذ وحكمته الباهرة، فالرجل قال: "ما عملت لك يا رب مثقال ذرة في الدنيا أرجوك بها"، ثم ذكر هذا الصنيع الذي كان يصنعه، فكان ذلك سبباً لمثل هذا الجزاء العظيم، والله أعلم.

"ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذرهم عقوبته فقال: {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [(٢٨١) سورة البقرة].

وقد روي أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم، وقد رواه النسائي عن عبد الله بن عباس - رضي الله تعالى عنهما- قال: "آخر شيء نزل من القرآن {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}، وكذا رواه الضحاك، والعوفي عن ابن عباس".

اختلفت أقوال العلماء في آخر ما نزل من القرآن الكريم:

فقيل آخر ما نزل آية الربا، والمراد بها قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا...}**.

وقيل: آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: **{وَاتَّقُواْ يَوْمًا...}**.

وقيل: آخر ما نزل آية الديْن، وهي قوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ}**

ويجمع بين الروايات الثلاث بأن هذه الآيات نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف، آية الربا، فآية **{وَاتَّقُواْ يَوْمًا...}**، فآية الدين؛ لأنها في قصة واحدة، إنما أخبر كل راوٍ عن بعض ما نزل بأنه آخر، وذلك صحيح، وبهذا لا يقع التنافر بينهم.

وأما ما جاء من حديث ابن عباس أن آخر ما نزل **{إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}** [(١) سورة النصر] فيمكن أن يقال: إنها آخر سورة كاملة نزلت، يدل على ذلك ما جاء عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال لي ابن عباس: تعلم أيّ آخر سورة نزلت جميعاً؟ قلت: **{إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}**، قال: صدقت.

وأما القول بأنها سورة المائدة، فهذا المراد به في الأحكام خاصة، ولم ينسخ منها شيء.

وأما ما اشتهر عند كثير من الناس من أنها **{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا...}** الآية [(٣) سورة المائدة] فهذا ليس بصحيح؛ إذ إن هذه الآية نزلت والنبي -صلى الله عليه وسلم- في عرفة، وقد نزل بعدها آيات.

"{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ

فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [(٢٨٢) سورة البقرة].

هذه الآية الكريمة أطول آية في القرآن العظيم، وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير عن سعيد بن المسيب أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين".

يستدل بهذا الأثر على أن جبريل –عليه السلام– كان يسمع القرآن من الله مباشرةً، ولا يأخذه من بيت العزة أو من اللوح المحفوظ، وعلى هذا سار السلف –رضوان الله عليهم–، أضف إلى ذلك الأحاديث التي وردت في بيان صفة تكلم الله –عز وجل– بالوحي.

"فقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ} هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها؛ ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على هذا في آخر الآية حيث قال: {ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ}".

كل معاملة كان أحد العوضين فيها في الذمة –يعني نسيئة– والآخر نقداً فهي دين، ويدخل في هذا أنواع كثيرة من المعاملات.

وبعض أهل العلم أخذ من الآية أن الدين لابد من تسمية الأجل فيه، ولكن هذا قد يقال في نوع من الدين يعرف بالسلم: وهو عقد على موصوف في الذمة مؤجل بثمن مقبوض بمجلس العقد؛ وقد أمر النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يكون السلم منضبطاً في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم، لكن العلماء مختلفون في بعض صوره: فيما لو قال له: إلى الحصاد، فهل يعتبر تحديداً أم لا؟ الخلاف في هذا الباب هو في تحقيق المناط، عامة أهل العلم يقولون: إن الأجل في هذه الصورة غير مسمى؛ ومعلوم أن السلم لابد فيه من تحديد الأجل بنص حديث رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وما دام موعد الحصاد غير معلوم، مما قد يكون مظنة لاختلاف الناس، ومدعاة للمُشَاحّة بينهم، فلذلك لم يجيزوا هذه الصورة.

وأما ما عدا السلم من السلف والدين فقد وقع الاختلاف بين المفسرين في وجوب كتابته، والذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري، وسبقه إليه جماعة من السلف أنهم يرون أن الكتابة واجبة عند المداينة، واستدلوا بظاهر قوله تعالى: {فَاكْتُبُوهُ} وحملوا الأمر في الآية على الوجوب، كما هو الظاهر المتبادر.

وعامة أهل العلم يرون أن كتابة الدين لا تجب، وحملوا الأمر في الآية على الندب والاستحباب، وجعلوا الصارف الذي صرف الأمر من الوجوب إلى الاستحباب في الآية ثلاثة أمور:

الأول: أن الله –عز وجل– لما ذكر آية الدين عقب بعدها بقوله: {وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ} [(٢٨٣) سورة البقرة] قالوا: والرهن لا يجب أخذه بالإجماع، وإنما ذكر عوضاً عن الكتابة، والبدل يقوم مقام المبدل منه، ويأخذ حكمه، ولو كانت الكتابة واجبة لوجب العوض عنها وهو أخذ الرهن.

الثاني: أن الله أخبر في الآية بعدها أنه إذا حصل بين المتداينين وثوق ببعضهم، فإن ذلك يغنيهم عن كتابة الدين قال الله -عز وجل-: **{فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ}**.

الثالث: قالوا: إن لصاحب الدين الحق في التصرف فيه، إسقاطاً ومطالبةً، وإنما أرشده الله -عز وجل- إلى كتابته من أجل ألا يضيع، فإذا كان مخيراً في التصرف إمساكاً وإسقاطاً، فكيف يطالب بالكتابة على سبيل الإيجاب!، هذا بالإضافة إلى ما ذكره بعض أهل العلم من أنه يُفرق في الأمر بين العبادات والمعاملات، ففي العبادات أصل الأمر فيها للوجوب إلا لصارف، وفي المعاملات لا يكون للوجوب وإنما للندب والإرشاد والتعليم وما أشبه ذلك، وهو بهذا الإطلاق فيه نظر.

والذي أظنه والله أعلم أن يقال: إن القواعد أغلبية، ويكفي أن تنطبق على أكثر الجزئيات، فيكون ذلك لمّاً لشَعَث الفروع المنتثرة التي يصعب حصرها والإحاطة بها على طالب العلم، مما يسهل عليه حفظها واستيعابها، وجمع أطرافها وشتاتها، ولذا ذهب بعض أهل العلم إلى أن الأمر في الآية من باب الإرشاد بناءً على أن العادة الغالبة عند الناس أنهم إذا تداينوا إلى أجل مسمى كتبوا ما تداينوه بينهم، ولهذا لما قال الله -عز وجل- **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ}** [(١٨٩) سورة البقرة] قال بعض المفسرين: إنه أراد أنها مواقيت للناس في آجال الديون وعدد النساء و...

والأمر في القرآن الكريم لم يأت في كل صوره للوجوب بدليل قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً}** [(١٦٨) سورة البقرة]، وقوله: **{انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ}** [(٩٩) سورة الأنعام]، **{فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ}** [(٣٦) سورة الحج]، فهذه الآيات وإن أفهمت في ظاهرها الوجوب، إلا أن هناك صوارف ذكرها أهل العلم صرفت الحكم من الوجوب إلى غيره.

ومنها قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((ولا يمسكن أحدكم ذكره بيمينه وهو يبول))[10] كثير من أهل العلم كالحافظ ابن حجر -رحمه الله- حملوا الأمر في الحديث على أنه أدب ليس إلا، وإن كان ظاهره النهي ومعلوم أن النهي يقتضي التحريم، بخلاف الظاهرية ومن وافقهم فإنهم يرون أن هذا الأمر للتحريم.

فقصدي من هذا أن طالب العلم لا يستشكل مثل هذه الأشياء، ولا يجعل ورود مثل هذه الأمور قدحاً في القاعدة العامة التي تنص أن القواعد أغلبية.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

---

[10] - رواه البخاري في كتاب الوضوء - باب النهي عن الاستنجاء باليمين برقم (١٥٢) (١/٦٩)، ومسلم في كتاب الطهارة - باب النهي عن الاستنجاء باليمين برقم (٢٦٧) (١/٢٢٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١١٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وثبت في الصحيحين عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة وهم يسلفون في الثمار السنتين والثلاث فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من أسلف فليسلف في كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم))[1].

وقوله: {فَاكْتُبُوهُ} [(٢٨٢) سورة البقرة] أمر منه تعالى بالكتابة للتوثقة والحفظ، قال ابن جريج: من ادان فليكتب، ومن ابتاع فليشهد.

وقال أبو سعيد -رضي الله تعالى عنه- والشعبي، والربيع بن أنس، والحسن، وابن جريج، وابن زيد، وغيرهم: كان ذلك واجباً، ثم نسخ بقوله: {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ} [(٢٨٣) سورة البقرة]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمر بنا في الدرس الماضي أن الأمر بكتابة الدين في قوله: **{فَاكْتُبُوهُ}** قد اختلف فيه أهل العلم، وأن عامتهم يرون أن كتابة الديون غير واجبة، وذكرنا أنهم استدلوا بثلاثة أمور: أولاً: من الآية بما ذكر بعدها وهو ذكر الرهان، وأنه لا يجب إجماعاً، وثانياً: بقوله: **{فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ}**، وثالثاً: استدلوا بوجه من النظر، وهو إذا كان لصاحب الدين مطلق الحق في إسقاطه والعفو، وترك المطالبة به، فبناءً على ذلك فهو ليس بملزَم أن يُشهد على هذا الدين.

وأما القول بأن الأمر بالكتابة منسوخ بقوله: **{فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ}** فهذا جاء في عبارة بعض السلف -رضوان الله عنهم-، ومعلوم أنهم يعبرون بالنسخ لكل ما يعرض للنص العام والمطلق، من تخصيص وتقييد وبيان لمجمل وما أشبه ذلك، ولا يريدون بالنسخ ما عرف عند المتأخرين من رفع الحكم الشرعي المتقدم بخطاب شرعي متأخر، وإنما مرادهم أن الأمر بالكتابة في قوله: **{فَاكْتُبُوهُ}**، بيّنه ما بعده وهو قوله: **{فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ}**، بمعنى أنه إذا حصل الوثوق بين الطرفين -الدائن والمدين- فلا يحتاج معه إلى الكتابة، وإنما الأمر في الآية إرشاد من الله -عز وجل- لإثبات الحقوق، ومن أهل العلم من يقول بأن هذه الآية **{فَاكْتُبُوهُ}** إنما جاءت في الديون، وتلك في موضوع آخر وهو ما يتعلق بأخذ الرهن، وهذا القول متجه قريب، وبناءً على هذين التوجيهين فإن الآية ليست بمنسوخة، وكلام السلف يمكن توجيهه بما سبق، والله أعلم.

---

[1] - رواه البخاري في كتاب السلم – باب السلم في وزن معلوم برقم (٢١٢٥) (٧٨١/٢)، ومسلم في كتاب المساقاة – باب السلم برقم (١٦٠٤) (١٢٢٦/٣).

"وقوله: {وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ} [(٢٨٢) سورة البقرة]، **أي بالقسط والحق، ولا يجُر في كتابته على أحد، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان.**

وقوله: {وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ} أي ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس، ولا ضرورة عليه في ذلك، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب، كما جاء في الحديث: ((إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق))[2]، وفي الحديث الآخر: ((من كتم علماً يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار))[3]، وقال مجاهد، وعطاء: واجب على الكاتب أن يكتب".

قيد جماعة من السلف ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- القول بالوجوب، بمن يجيد الكتابة ولم يوجد غيره يعرفها وطلب منه ذلك، ولكن هذا التقييد ليس أخذاً من الآية، وإنما من أدلة أخرى كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وهكذا فيما يتعلق بالشهادة كما سيأتي في قوله سبحانه: **{وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ}** وذلك أن الله -عز وجل- أمر بالإحسان وبالتعاون على البر والتقوى، ونبيه -صلى الله عليه وسلم- حث وحض على ذلك كما جاء في هذه الأحاديث وما أشبهها.

"وقوله: {وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ} أي وليملل المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين، وليتق الله في ذلك".

الإملال والإملاء لغتان بمعنى واحد، وقد جاء القرآن بكلتيهما، أما الإملال فهي لغة أهل الحجاز وبني أسد وبها جاءت الآية، وأما الإملاء فهي لغة بني تميم ومنها قوله تعالى: **{فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}** [(٥) سورة الفرقان].

وفي قوله سبحانه: **{وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ}** لطيفة حيث جعل الذي يملل هو من عليه الحق "المدين"، ولم يجعل الإملال لصاحب الحق!؛ ليكون ذلك إثباتاً وإقراراً من المدين بما عليه، بخلاف ما لو أملاه الدائن فلا يثبت له بصنيعه حق، إذ كل الناس يستطيعون أن يدعوا لأنفسهم حقاً عند الآخرين، لكن حينما يكون الذي أملاه أو كتبه هو المستدين، فهذا بمثابة الإقرار، وتوثيق الحقوق، ولذلك لا معنى له إن كان من قبل صاحب المال، ولا يلزم الطرف الآخر بشيء، والله أعلم.

"{وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا} أي لا يكتم منه شيئاً".

هذا مما يؤكد أن صاحب المال ليس المقصود بالآية؛ لأنه لو أنقص شيئاً من المال فهذا يعد منه إسقاطاً، فلا ينهى عنه، وإنما يخاف عليه من أن يتزايد عليه، والله أعلم.

"{فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا} محجوراً عليه بتبذير ونحوه".

السفيه في القضايا المالية: هو الذي لا يحسن التصرف في المال، ولو كان بالغاً، أو عاقلاً في أموره الأخرى، فهذا يحجر عليه ويتصرف عنه بالنيابة الوليُّ.

---

[2] - رواه البخاري في كتاب العتق - باب أي الرقاب أفضل برقم (٢٣٨٢) (٢/٨٩١)، ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال برقم (٨٤) (١/٨٩).

[3] - رواه أحمد في مسنده برقم (١٠٤٩٢) (٢/٤٩٩)، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح وهذا إسناد ضعيف لتدليس الحجاج بن أرطاة لكنه متابع.

"{أَوْ ضَعِيفًا} أي: صغيراً أو مجنوناً.

{أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ} إما لِعيٍّ أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه".

وكذا من أصابته علة تمنعه من الإملال كالأخرس ونحوه ...

"{فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ}".

اختلف المفسرون في المراد بالولي في قوله سبحانه: {فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ} فعامة أهل العلم يقولون: إن الولي المقصود به، ولي هذا الإنسان الذي عليه الحق، السفيه والضعيف و.....

وذهب ابن جرير -رحمه الله- إلى أن المقصود بالولي صاحب المال.

وما ذهب إليه عامة أهل العلم هو المتبادر من الآية؛ لأن هذا الذي يقوم مقامه يحصل به الإقرار وإثبات الحق فهو بمنزلته، إضافة إلى أن عود الضمير إنما يراد به المذكور قبله وهو الضعيف والعاجز عن الإملال، وهؤلاء لا يستطيعون أن يباشروا، فلم يبق إلا وليهم هو المراد به، والله أعلم.

"وقوله: {وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ} أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة".

ذهب جماعة من السلف -رضي الله عنهم- إلى أن الإشهاد على الدين من الأمور الواجبة، استدلالاً بظاهر الآية، ونقل ذلك عن ابن عمر، وأبي موسى الأشعري، وجابر بن زيد، وطائفة أيضاً من التابعين، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري، وإليه ذهبت الظاهرية.

وخالفهم جمهور أهل العلم كمالك، والشافعي، وجماعة من السلف قبلهم، فقالوا: لا يجب، وحملوا الأمر في الآية على الندب، واستدلوا على قولهم بالوقائع الكثيرة التي وقعت من النبي -صلى الله عليه وسلم- ووقعت من أصحابه من عدم الإشهاد، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- توفي ودرعه مرهونة عند يهودي، وما نقل عنه أنه أشهد.

ومثله أمر الإشهاد على البيع في قوله: {وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ} لا يحمل على الوجوب، بدليل أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما ابتاع من سواء بن الحارث المحاربي فرساً فجحده، فشهد له خزيمة بن ثابت فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما حملك على الشهادة، ولم تكن معه)) قال: صدقت يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولكن صدقتك بما قلت، وعرفت أنك لا تقول إلا حقاً، فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((من شهد له خزيمة، أو شهد عليه فهو حسبه))[4] فالمقصود أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يشهد على ذلك البيع، وهذا كثير مستفيض في البيوع التي جرت في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن بعده، لم ينقل عن أحد منهم أنه كان يأتي بالشاهد في كل قضية ويوثق ذلك، مما يدل على أن الأمر بالشهود في الديْن إنما هو للندب أو للإرشاد، والله أعلم.

وأخذ بعض أهل العلم من قوله سبحانه: {مِن رِّجَالِكُمْ} وجوب أن يكون الشاهد من المسلمين؛ لأن الله أضافه إليهم، وما قال: استشهدوا من الرجال، أو قال: واستشهدوا شهيدين وأطلق، وإنما استثنى شهادة غير المسلم في الحالة المذكورة بقوله -عز وجل-: {أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ} [(١٠٦) سورة المائدة] وذلك إذا أوصى الإنسان

---

[4] - رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٣٦٤٢) (١١٢/٤)، والحاكم في مستدركه برقم (٢١٨٨) (٢٢/٢)، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة: منكر، سكت عنه الحاكم والذهبي، وقال الهيثمي: "- رواه الطبراني ورجاله كلهم ثقات".برقم (٥٧١٧).

حال حضور الموت، ولم يكن عنده إلا أناس من غير المسلمين، ففي هذه الحال يجوز له أن يشهدهم لعدم وجود سواهم. والله أعلم.

وهنا مسألة أخرى: معلوم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قضى في زمنه بالشاهد مع اليمين، فهل يصح أن تُنزّل المرأتان منزلة الرجل ويكتفى بشهادتيهما مع اليمين؟

هذه مسألة خلافية بين أهل العلم، الجمهور على أنهما تنزلان منزلة الرجل ويكتفى بهما مع اليمين، والله أعلم بالصواب.

"{فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ} وهذا إنما يكون في الأموال وما يقصد به المال، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار)). فقالت امرأة منهم جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟!. ((قال: تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن)). قالت: يا رسول الله ما نقصان العقل والدين؟ ((قال: أما نقصان عقلها: فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي لا تصلي وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين))[5]".

الأصل في الشهادة أنها مقتصرة على الرجال؛ لأنهم محل الضبط، **{فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ}** فالمرأتان تقومان مقام الرجل، والظاهر من الآية أن شهادة النساء إنما يلجأ إليها إذا عدم الشهود من الرجال، لكن هذا ليس بمراد والله أعلم، وإنما ذكر الله – عز وجل- الرجال إشارة لما هو أبلغ في إثبات الحق، ولذلك لا تثريب على الإنسان إذا أراد أن يُشهد رجلاً وامرأتين ابتداء، وهذه الشهادة من المرأة إنما تكون في القضايا المالية، بخلاف الجنايات فلا تقبل شهادتها، وأما الأمور التي لا يطلع عليها إلا النساء فإنه يكتفى بشهادتها للضرورة، مثل قضايا تتعلق بالبكارة، والولادة، وما أشبه ذلك مما يطلع عليه النساء خاصة، وهذه الأمور المذكورة فيما يتصل بشهادة المرأة، ليس للقدح في عدالتها، فهي مثل الرجل في هذا الجانب، ولكن ذكر الله -عز وجل- الرجال كما أسلفت لأن شهادة الرجل أبلغ، إذ إن المرأة قد تدعى ولا تجيب، لسبب أو لآخر، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- ذكر معنىً يتعلق بهذه الآية، وهو أن شهادة النساء إنما تكون في الأمور المحسوسة، يعني بشيء تسمعه أو تبصره أو تلامسه بيدها، لأن هذا يكون أعلق بالذهن وأدعى إلى الضبط وعدم النسيان، فالمقصود أن هذه الأمور لم تذكر من أجل العدالة وإنما من أجل الضبط، ولقد ذكر بعض الأطباء أن التلافيف الموجودة في مخ المرأة أقل منها في مخ الرجل، وهذه القضية يترتب عليها قوة الإدراك وسعة العقل، والقدرة على الضبط، وما إلى ذلك من المعاني التي يتميز بها الرجل عن المرأة من ناحية العقل، وهذا رد مسكت ومفحم لأولئك المتشدقين بأن المرأة مثل الرجل، ولا فرق بين الجنسين إطلاقاً.

"وقوله: {مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء} فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود، وقوله: {أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا} يعني المرأتين إذا نسيت الشهادة، {فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى} أي يحصل لها ذكرى بما وقع به من الإشهاد".

---

[5] – رواه البخاري في كتاب الحيض – باب ترك الحيّض الصوم برقم (٢٩٨) (١١٦/١)، ومسلم في كتاب الإيمان – باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات وبيان لفظ الكفر على غير الكفر بالله ككفر النعمة والحقوق برقم (٧٩) (٨٦/١).

قوله سبحانه: **{أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى}** يمكن أن يكون التقدير لئلا تضل، وهذه طريقة الكوفيين في نظائرها من القرآن، وطريقة البصريين يقدرون مصدراً أي كراهة أن تضل، والمعنى أن هذا التشريعُ، وهو أن يؤتى بامرأتين مكان الرجل من أجل إذا نسيت إحداهما ذكرتها الأخرى.

وفي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وهي قراءة متواترة **{أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذْكِرَ}** والمراد تنبهها، وهذا المعنى غير الأول.

لكن الأقرب أن يقال: إن هاتين القراءتين معناهما واحد كما يقول الحافظ ابن القيم –رحمه الله–، والله أعلم.

وفي قراءة حمزة بكسر الهمزة **{إِن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا}** فتكون إن شرطية، والمعني: أحضروا امرأتين مكان الرجل إن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى.

وتذكر بعض كتب التفسير قولاً غريباً تنسبه لأبي عمرو بن العلاء وسفيان بن عيينة يقول بأن هذا من التذكير الذي يقابل التأنيث، والمراد أن هاتين المرأتين لما انضم إحداهما إلى الأخرى صارتا بمنزلة الذكر الواحد، وهذا القول غريب.

وكرر إحداهما مرتين لمعنى، وهو لئلا يتوهم أن النسيان يحصل من واحدة مقصودة من الكلام، وإنما المقصود إذا حصل من أي امرأة منهما ذكرتها الأخرى، فقد يحصل من هذه أو تلك، ولهذا جاء التكرر لهذا السبب، والله أعلم.

"وقوله: {وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ} قيل معناه: إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة، والربيع بن أنس، وهذا كقوله: {وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ}، ومن هاهنا استفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية، وقيل: هو مذهب الجمهور، والمراد بقوله: {وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ} للأداء، لحقيقة قوله: {الشُّهَدَاء}، والشاهد حقيقة فيمن تحمل، فإذا دعي لأدائها فعليه الإجابة إذا تعينت، وإلا فهو فرض كفاية، والله أعلم".

ظاهر الآية يحتمل الأمرين، وإنما سموا شهداء وهم لم يتحملوا بعد باعتبار العاقبة، وما يئول إليه الأمر، مثلما يوصف الإنسان بأنه ميت، باعتبار ما سيكون، كما قال الله سبحانه عن نبيه: **{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ}** [(٣٠) سورة الزمر].

وابن جرير –رحمه الله– شدد في الرد على من قال بهذا القول، إذ يقول: كيف يوصف بأنه شاهد وشهيد وهو لم يتحمل الشهادة بعد؟! ويعقب: وإنما تعينت عليه الشهادة من أدلة أخرى، في مثل حالة ضياع الحق إذا لم يشهد، ولا يوجد غيره يقوم مقامه بها، فإنه يتحمل الشهادة ويجب عليه الأداء إن طلب منه ذلك للأدلة الأخرى، لكن إن لم يترتب علي الشهادة شيء فليس مكلفاً بالأداء، وهذا القول أقرب لظاهر القرآن، والله أعلم.

"وقال مجاهد وأبو مجلز وغير واحد: إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار، وإذا شهدت فدعيت فأجب.

وقد روي عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– والحسن البصري: أنها تعم الحالين، التحمل والأداء".

وهو قول له وجه من النظر، ولكن لما كان لفظ الشهداء في الأصل إنما يقال لمن تحمل الشهادة، أمكن حمله على هذا المعنى خاصة، دون المعنى الآخر، والله أعلم.

"وقوله: {وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ} هذا من تمام الإرشاد، وهو الأمر بكتابة الحق صغيراً كان أو كبيراً، فقال: {وَلاَ تَسْأَمُوْاْ} أي لا تملوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان، من القلة والكثرة إلى أجله.

وقوله: {ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ} أي هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق، إذا كان مؤجلاً هو أقسط عند الله، أي أعدل وأقوم للشهادة، أي أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة؛ لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالباً، {وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ} وأقرب إلى عدم الريبة، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريبة".

كتابة هذه الأشياء التي يذكرها الله –عز وجل– متعاقبة بهذا التفصيل العجيب، هو الذي حمل بعض أهل العلم على القول بأن هذه هي أرجى آية في القرآن، قالوا: والسبب أن الله –عز وجل– لما احتاط لمال المسلم هذا الاحتياط العظيم، ووضع له هذه المحترزات العديدة، ومعلوم أن المؤمن أعظم حرمة عند الله –عز وجل– ومنزلة ومكانة من ماله، فإذا كان الله –عز وجل– قد احتاط لمال المسلم كل هذه الاحتياطات لئلا يضيع، فإنه –عز وجل– من باب أولى أرحم بعبده المؤمن وألطف به حينما يسيء ألا يطرحه في النار، والمشهور أن أرجى آية في القرآن هي قوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ} [(٥٣) سورة الزمر]، وبعضهم يقول غير هذا، والله أعلم.

"وقوله: {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا} أي إذا كان البيع بالحاضر يداً بيد فلا بأس بعدم الكتابة؛ لانتفاء المحذور في تركها.

فأما الإشهاد على البيع فقد قال تعالى: {وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ}، وهذا الأمر منسوخ بقوله: {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ} [(٢٨٣) سورة البقرة]، أو محمول على الإرشاد والندب لا على الوجوب".

سبق الكلام على هذه المسألة وتوجيه القول بالنسخ، ولا يخفى على أحد ما يترتب على الإشهاد في كل مبايعة من مشقة شديدة وعنت على الناس، والله أعلم.

"والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصاري –رضي الله تعالى عنه–، وقد رواه الإمام أحمد عن عمارة بن خزيمة الأنصاري أن عمه –رضي الله تعالى عنه– حدثه وهو من أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم–: "أن النبي –صلى الله عليه وسلم– ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبي –صلى الله عليه وسلم– ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي –صلى الله عليه وسلم– وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبي –صلى الله عليه وسلم– ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي –صلى الله عليه وسلم–، فنادى الأعرابي النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه وإلا بعتُه".

معنى كلام الأعرابي أن البيع ما وقع، فمن حقه أن يطالب بأكثر، فإن كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يريد أن يشتريه بأكثر مما تساوم عليه فعل، وإلا باعه لغيره.

"فقام النبي –صلى الله عليه وسلم– حين سمع نداء الأعرابي قال: ((أوليس قد ابتعته منك؟))، قال الأعرابي: لا والله ما بعتك، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((بل قد ابتعته منك))، فطفق الناس

يلوذون بالنبي -صلى الله عليه وسلم- والأعرابي، وهما يتراجعان، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أني بايعتك، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يك يقول إلا حقاً، حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبي -صلى الله عليه وسلم- ومراجعة الأعرابي، يقول: هلم شهيداً يشهد أني بايعتك، قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي -صلى الله عليه وسلم- على خزيمة فقال: ((بم تشهد؟)). فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شهادة خزيمة بشهادة رجلين"[6]. وهكذا رواه أبو داود والنسائي نحوه.

وقوله تعالى: {وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ} معناه لا يضار الكاتب ولا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يُملَي، ويشهد هذا بخلاف ما سمع، أو يكتمها بالكلية، وهو قول الحسن وقتادة وغيرهما".

سبق الكلام على قوله -تبارك وتعالى-: {لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا} [(٢٣٣) سورة البقرة] وأن هذا من جهة التصريف يحتمل معنيين: لا تضار: أي لا تضارِر، لا يصدر الضرر منها، أو لا تضارَر، فيُوقَع الضرر عليها، وما قيل في ذلك الموضع ينزل عليه هذا الموضع، فقوله سبحانه: {وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ} [(٢٨٢) سورة البقرة] معناه: أي لا يضارِر فيصدر منه الضرر، بأن يشهد على خلاف ما تحمل وعلم، وكذلك الكاتب لا يصدر منه الضرر بأن يكتب غير الحق، أو يتزيد أو ينقص، أو يتشرط على صاحب الحق فيلحقه بسبب ذلك مشقة.

وكذا لا يوقَع عليه الضرر، فيقطع من أشغاله ويصرف عما هو بصدده، أو يطلب في وقت لا يتمكن فيه من المجيء، وما أشبه هذا، وكلا المعنيين تشهد له قراءة أحادية، فقراءة الحسن بكسر الراء مشددة {ولا يضارِّ كاتب ولا شهيد}، وقراءة ابن مسعود ومجاهد وعمر بالفتح والفك {وَلاَ يُضَارَرْ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ} بمعنى لا يوصل إليه الضرر ويلحق به بسبب هذه الكتابة أو الشهادة، وحمل الآية على المعنيين هو الأولى والأصوب، والله أعلم.

"وقوله: {وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ} أي إن خالفتم ما أمرتم به وفعلتم ما نهيتم عنه، فإنه فسق كائن بكم، أي لازم لكم، لا تحيدون عنه ولا تنفكون عنه، وقوله: {وَاتَّقُواْ اللّهَ} أي خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره، {وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} كقوله: {يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً} [(٢٩) سورة الأنفال]، وكقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ} [(٢٨) سورة الحديد]، وقوله: {وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} أي هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء، بل علمه محيط بجميع الكائنات".

ظاهر كلام ابن كثير أن جملة قوله سبحانه: {وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} مرتبة على الجملة التي قبلها، ترتيب النتيجة على السبب، والمعنى أنكم إذا اتقيتم الله علمكم، فمن أسباب تحصيل العلم ووفوره كما أفادت الآية الكريمة تقوى الله -تبارك وتعالى-، كما يقول الرجل لصاحبه: اصحبني وأعلمك.

---

[6] - رواه أبو داود برقم (٣٦٠٩) (٣/٣٤٠)، والنسائي برقم (٤٦٤٧) (٣٠١/٧)، وأحمد برقم (٢١٩٣٣) (٢١٥/٥)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٣٦٠٧).

وذهب جمع من أهل العلم وهو ظاهر كلام ابن جرير إلى أن جملة قوله سبحانه: **{وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ}** ليست مرتبطة ولا مرتبة على ما قبلها، وإنما هما جملتان عطفت إحداهما على الأخرى، الأولى جملة إنشائية، والثانية جملة خبرية، ويصح عطف الخبر على الإنشاء، فهو يأمرهم بالتقوى، ويخبر أنه يعلمهم ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام، وما به حفظ الحقوق في المداينات والبيوع، ومشى على هذا القول أيضاً جماعة من المحققين كالطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير.

ومن أهل العلم من يقول: الواو في الجملة بمعنى لام التعليل، كأنه يقول: واتقوا الله ليعلمكم الله، وهذا القول ضعيف من حيث اللغة وفيه بعد.

وفي جملة قوله سبحانه: **{وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ}** لمحة بلاغية، لكونه لم يكتف بالضمير في الجملة الثانية فيقول: واتقوا الله ويعلمكم، وهذا ما يعرف عند البلاغيين بالإظهار في موضع الإضمار، بمعنى وضع الاسم الظاهر موضع الضمير، ويؤتى به لإرادة تربية المهابة، أو للاهتمام، أو لإزالة وهم أو لبس، أو غير ذلك من المعاني، وعادة ما يكون في جملتين مستقلتين، والأصل أن العرب تأتي في كلامها بالضمير للاختصار.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

** فائدة:

في تحقيق وبيان المراد في قوله سبحانه: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ}.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

فهذا جمع لأقوال المفسرين وعلماء اللغة في بيان معنى قوله تعالى: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ}، وهل تفيد هذه الآية كون التقوى سبباً لحصول العلم؟

أما الآثار عن السلف على هذه الآية فليس في الطبري ولا في الدر المنثور عنهم في هذه الآية إلا قول واحد، رواه الطبري عن الضحاك، وسيأتي ذكره في نقل كلام الطبري.

أما المفسرون فهم في هذه الآية على مذاهب:

فبعضهم على أن قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} جملة مستأنفة يمتن فيها الله على عباده بتعليمه إياهم أمور دينهم، قال الطبري -رحمه الله- تعالى في تفسيرها: وخافوا الله أيها المتداينون في الكتاب والشهود أن تضاروهم، وفي غير ذلك من حدوده أن تضيعوها، قال: ويعني بقوله: {وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} ويبين لكم الواجب لكم وعليكم فاعملوا به، ثم ذكر أثراً واحداً في هذه الآية عن الضحاك أنه قال: {وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} هذا تعليم من الله علمكموه فأْخُذوا به.

وقال ابن عطية -رحمه الله-: وباقي الآية، أي قوله: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} موعظة وتعديد نعمه، والله المستعان والمفضل لا رب غيره.

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة: وأما قوله تعالى: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} فليس من هذا الباب، بل هما جملتان مستقلتان، طلبية: وهي الأمر بالتقوى، وخبرية: وهي قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} أي والله يعلمكم ما تتقون، وليست جواباً للأمر بالتقوى، ولو أريد بها الجزاء لأتى بها مجزومة مجردة عن الواو، فكان يقول: واتقوا الله يعلمْكم، أو إن تتقوه يعلمكم، كما قال: {إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً} [(٢٩) سورة الأنفال]، فتدبره.

قال ابن جزيء الكلبي -رحمه الله تعالى-: {وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} إخبار على وجه الامتنان، وقيل: معناه الوعد، بأن من اتقاه علمه الله وألهمه، وهذا المعنى صحيح، لكن لفظ الآية لا يعطيه؛ لأنه لو كان كذلك لجزم يعلمُكم في جواب اتقُوا.

وفي التفسير الميسر في تفسير قوله تعالى: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} قالوا: وخافوا الله في جميع ما أمركم به ونهاكم عنه، ويعلمكم الله جميع ما يصلح دنياكم وأخراكم، {وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} فلا يخفى عليه شيء من أموركم وسيجازيكم على ذلك.

قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- في تفسير سورة البقرة: قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} الواو هنا للاستئناف، ولا يصح أن تكون معطوفة على اتقوا الله؛ لأن تعليم الله لنا حاصل مع التقوى وعدمها، وإن كان العلم يزداد بتقوى الله، لكن هذا يؤخذ من أدلة أخرى.

ومن العلماء من يجعل المراد من الآية أن التقوى سبب لحصول العلم، قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: "{وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} كقوله: {إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً}، وكقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ} [(٢٨) سورة الحديد]".

قال القرطبي: في الآية وعد من الله بأن من اتقاه وعلمه أن يجعل في قلبه نوراً يفهم به ما يلقى إليه.
وقال الشوكاني: واتقوا الله في فعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه، ويعلمكم الله ما تحتاجون إليه من العلم، وفيه الوعد لمن اتقاه أن يعلمه، ومنه قوله تعالى: {إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً}، ونقله ابن عطية –رحمه الله تعالى– قولاً في الآية، فقال: وقيل إن معنى الآية الوعد بأن من اتقى الله عُلم الخير وألهمه، وكذلك ابن جزيء نقله قولاً في الآية كما سبق.
وبعض العلماء قرر دلالة الآية على هذا المعنى الأول، لكنه لم يمنع أن يؤخذ منها من جهة الإيماء والإشارة أن التقوى سبب لحصول العلم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: وقد شاع في لسان العامة أن قوله: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} من الباب الأول، حيث يستدلون بذلك على أن التقوى سبب تعليم الله، قال: وأكثر الفضلاء يطعنون في هذه الدلالة؛ لأنه لم يربط الفعل الثاني بالأول ربط الجزاء والشرط، فلم يقل: واتقوا الله ويعلمكم، ولا قال: فيعلمكم، وإنما أتى بواو العطف، وليس من العطف ما يقتضي أن الأول سبب الثاني، ثم قال: وقد يقال: العطف قد يتضمن معنى الاقتران والتلازم، كما يقال: زرني وأزورك، وسلم علينا ونسلم عليك، ونحو ذلك مما يقتضي اقتران الفعلين والتعاوض من الطرفين، كما لو قال لسيده: اعتقني ولك عليّ ألف، أو قالت المرأة لزوجها: طلقني ولك ألف، أو اخلعني ولك ألف، فإن ذلك بمنزلة قولها: بألف أو على ألف، وكذلك أيضاً لو قال: أنت حر وعليك ألف، أو أنتِ طالق وعليك ألف، فإنه كقوله: عليّ ألف أو بألف، عند جمهور العلماء، والفرق بينهما قول شاذ، ويقول أحد المتعاوضين للآخر: أعطيك هذا وآخذ هذا، ونحو ذلك من العبارات، فيقول الآخر: نعم، وإن لم يكن أحدهما السبب للآخر دون العكس، فقوله: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ}، قد يكون من هذا الباب، فكل من تعليم الرب وتقوى العبد، يقارب الآخر ويلازمه ويقتضيه، فمتى علمه الله العلم النافع اقترن به التقوى بحسب ذلك، ومتى اتقاه زاده من العلم، وهلمّ جرا.
وقال الطاهر بن عاشور –رحمه الله–: وقوله: {وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} تذكير بنعمة الإسلام الذي أخرجهم من الجهالة إلى العلم بالشريعة ونظام العالم، وهو أكبر العلوم وأنفعها، ووعد بدوام ذلك لأنه جيء فيه بالمضارع، ثم قال: وفي عطفه على الأمر بالتقوى، إيماء إلى أن التقوى سبب إفاضة العلوم، حتى قيل: إن الواو فيه للتعليل، أي ليعلمكم الله، وجعله بعضهم من معاني الواو وليس بصحيح، ولم أر البغوي وابن الجوزي والزمخشري –رحمهم الله– أجمعين، ذكروا في تفاسيرهم شيئاً في قوله تعالى: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ}.
وأما أئمة اللغة فحاصل ما ذكروا في معنى الواو في الآية ثلاثة أوجه:
الأول: أن الواو استئنافية، وبه قال أبو البقاء العكبري، وأبو حيان، والسمين الحلبي.
والثاني: أن الواو حالية، وذكره أبو البقاء قولاً في إعراب الآية، وضعفه أبو حيان، تقديره واتقوا الله مضموناً التعليم أو الهداية، ويجوز أن يكون حالاً مقدرة، وهذا القول –أعني الحال– ضعيف جداً، لأن المضارع الواقع حالاً لا يدخل عليه واو الحال إلا فيما شذ، من نحو قمت وأصُكُّ عينه، ولا ينبغي أن يحمل القرآن على الشذوذ، وتبعه أيضاً السمين الحلبي في تضعيف هذا القول، وأيضاً الشيخ محيي الدين الدرويش في كتاب إعراب القرآن وبيانه.

الثالث: أن تكون عاطفة، قال ابن هشام في ذكره -لمعاني حرف الواو-: واو الاستئناف، نحو {لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء} [(٥) سورة الحـج]، إلى أن قال ونحو: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} إذ لو كانت واو العطف للزم عطف الخبر على الأمر، وقال في حاشية الجمل على الجلالين: وهو الظاهر، أي كونها استئنافية، فليست الواو في ويعلمكم الله للعطف، وإلا لزم عطف الإخبار على الإنشاء كما صرح به ابن هشام.

وقال الشيخ محي الدين الدرويش في إعراب القرآن وبيانه: وفي جعلها عاطفة خلاف الأولى، لأن فيه ارتكاب عطف الخبر على الإنشاء، وذلك موضع خلاف، والمنع من عطف الجملة الخبرية على الإنشائية والعكس ذكره ابن هشام في مغني اللبيب عن البيانيين، وابن مالك وابن عصفور، ونقله أي ابن عصفور عن الأكثرين، ثم ذكر ابن هشام أدلة المجيزين وشواهدهم وأجاب عنها كلها، وعلماء البلاغة يمنعون من العطف بالواو بين جملتين إحداهما خبر، لفظاً ومعنى، والثانية إنشاء لفظاً ومعنى كما في الآية، ويجعلون هذا من كمال الانقطاع بين الجملتين الموجب للفصل وعدم العطف بينهما..

هذا ما تيسر جمعه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١١٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [(٢٨٣) سورة البقرة].

"يقول تعالى: {وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ} أي مسافرين، وتداينتم إلى أجل مسمى ولم تجدوا كاتباً يكتب لكم، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أو وجدوه ولم يجدوا قرطاساً أو دواة أو قلماً فرُهُن مقبوضة، أي فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة في يد صاحب الحق، وقد استُدل بقوله: {فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ} على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض.

وقد ثبت في الصحيحين عن أنس -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير، رهنها قوتاً لأهله[1]، وفي رواية من يهود المدينة".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{كَاتِبًا}** جاء في قراءة أخرى منسوبة إلى ابن عباس، وأبي العالية، وعكرمة، وجماعة من السلف **{ولم تجدوا كتاباً}** ويدل عليها أثر ابن عباس السابق حيث قال: أو وجدوه ولم يجدوا قرطاساً أو دواة..."، فأرشدهم الله سبحانه إلى طريقة أخرى إذا لم يجدوا كاتباً فقال: **{فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ}** هذه إحدى القراءات المتواترة في الآية، وقرئت بتخفيف الهاء، وقرئت بالإفراد **{فَرَهْنٌ مقبوضة}**، وقرئت **{فَرُهُن مقبوضة}**، وجميعها ترجع إلى معنىً واحد، إذ الرُهُن: جمع رِهان، والرَّهْن هو الواحد من الرُّهُن، والمعنى: فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة في يد صاحب الحق.

وقد استُدل بقوله: **{فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ}** كما ذكر الحافظ ابن كثير على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض، وهذا عليه عامة أهل العلم، خلافاً لمن صححه بالإيجاب والقبول، كالإمام مالك -رحمه الله-، ولكن لما كان المقصود من الرهان الاستيثاق والاحتراز، وحفظ الحق؛ لئلا يبطل ويضيع، كانت المقابضة فيه أولى وأحرز لحق الغير.

وأخذ بعض أهل العلم من ظاهر الآية أن الرهن إنما يكون في السفر، ولكن السنة دلت على عمومه في السفر والحضر، واستشهدوا برهنه -صلى الله عليه وسلم- درعه عند يهودي من يهود المدينة، وكان حينها مقيماً في المدينة، والله أعلم.

---

[1] - رواه البخاري في كتاب المغازي - باب وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- برقم (٤١٩٧) (٤/١٦٢٠)، ومسلم في كتاب المساقاة - باب الرهن وجوازه في الحضر والسفر برقم (١٦٠٣) (٣/١٢٢٦).

"وقوله: {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ} روى ابن أبي حاتم بإسناد جيد عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: هذه نسخت ما قبلها.

وقال الشعبي: إذا ائتمن بعضكم بعضاً فلا بأس ألا تكتبوا أو لا تشهدوا.

وقوله: {وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ} يعني المؤتمن كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن من رواية قتادة عن الحسن عن سمرة -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((على اليد ما أخذت حتى تؤديه))[2]."

الحديث فيه ضعف، ورواية الحسن عن سمرة فيها كلام كثير لأهل العلم، ومنهم من يصحح ذلك مطلقاً، ومنهم من يرده مطلقاً، ومنهم من لا يصحح من روايات الحسن عن سمرة إلا حديثاً واحداً، باعتباره الحديث الوحيد الذي سمعه منه، وبقية تلك الأحاديث لم يسمعها منه.

"قوله: {وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ} أي لا تخفوها وتغلوها ولا تظهروها، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغيره: شهادة الزور من أكبر الكبائر، وكتمانها كذلك، ولهذا قال: {وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ} قال السدي: يعني فاجر قلبه، وهذا كقوله تعالى: {وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الآثِمِينَ} [(١٠٦) سورة المائدة]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [(١٣٥) سورة النساء].

وهكذا قال هاهنا: {وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}".

أضيف الآثم إلى القلب في الآية باعتبار أن القلب هو ملك الجوارح، وقد يكون باعتبار أن الكتمان إنما يكون في القلب، والله أعلم.

"{لِّلَّه ما فِي السَّمَاوات وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(٢٨٤) سورة البقرة] يخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر، وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم كما قال تعالى: {قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(٢٩) سورة آل عمران]، وقال: {يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [(٧) سورة طــه]، والآيات في ذلك كثيرة جداً، وقد أخبر في هذه بمزيد على العلم، وهو المحاسبة على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، وخافوا منها ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم".

---

[2] - رواه أبو داود برقم (٣٥٦٣) (٣/٣٢١)، والترمذي برقم (١٢٦٦) (٣/٥٦٦)، وابن ماجه برقم (٢٤٠٠) (٢/٨٠٢)، وأحمد برقم (٢٠٠٩٨) (٥/٨)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٨١٧٦).

هذه الآية شقت على أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– كما جاء ذلك في عدد من الروايات، واختلفت آراء المفسرين في الحكم عليها –نسخاً وإثباتاً– إلى قولين:

القول الأول: أنها منسوخة، وهم يريدون بذلك النسخ في عرف السلف، وهو أنها مُبَيَّنة بما بعدها وهو قوله سبحانه: {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ...} [(٢٨٦) سورة البقرة] قال: قد فعلت، فخفف ذلك عنهم، لكن القول بالنسخ يُستدرك عليه أمران:

- أن النسخ لا يثبت بالاحتمال.
- أن الآية أفادت خبراً، والنسخ لا يتعلق بالأخبار؛ لأن نسخ الخبر تكذيب له، وإنما النسخ يتعلق بالإنشاء –الأمر والنهي والأخبار التي هي بمعنى الإنشاء–، فلا يمكن أن يقال: إن هذا الخبر منسوخ.

القول الثاني: أنها محكمة، وإنما اختلفوا في توجيه المعنى، فذهبت طائفة إلى أن الآية من العام الباقي على عمومه، والمعنى: أن الله –عز وجل– يعلم ما في النفوس، ومحيط بما تنطوي عليه الضمائر، وأنهم إذا أخفوا أمراً أو أظهروه فإنه سيحاسبهم عليه، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، لكن قد يرد اعتراض على هذا القول، وهو كيف يحاسبهم الله –عز وجل– على أمر لا يملكه الواحد منهم؟ إذ الإنسان لا يملك حديث النفس، ولا الخواطر التي تهجم على القلب من غير تطلّب ولا إرادة لها، فإذا حوسب عليها كان ذلك من قبيل التكليف بما لا يطاق، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن حديث النفس أمر قد تجاوز الله –عز وجل– عنه كما قال سبحانه في الآية بعدها: {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ...} وأن الله قال: قد فعلت، والنبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((إن الله تجاوز عن أمتي عما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم))[3] فكيف يحاسبون بحديث النفس؟ ورد أرباب هذا القول: بأن المحاسبة لا تقتضي التعذيب، واستدلوا بما جاء عن عائشة –رضي الله عنها– أن النبي–صلى الله عليه وسلم– قال: ((من نوقش الحساب عذب))، قالت: فقلت: أفليس قال الله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [(٧-٨) سورة الانشقاق]؟ قال: ((ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب))[4]، ولهذا جاء في كلام كبير المفسرين ابن جرير الطبري في بعض المواضع ما يوافق هذا المعنى، حيث حملها على أعم معانيها، فقال بأن الله يُعرِّفه ويقرره بصنيعه، ثم يتجاوز عنه، ويتفضل عليه بالعفو، إلا من كان مستحقاً للعقوبة، كالمنافق والكافر، وهذا قول جيد، ويجمع بعض الأقوال بطريقة حسنة، لا تخالف ظاهر القرآن، والله أعلم.

وبعضهم حمل الآية على معنى العام المراد به الخصوص، لكنهم اختلفوا في تحديد هذا المعنى الخاص:

فقيل: إن الآية متعلقة بكتمان الشهادة في الآية قبلها وهي قوله: {وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ}، وتوجيه المعنى: أن الله لما أمر الشهود ألا يخفوا الشهادة ولا يكتموها، وترجح أن بعض الشهود قد

---

[3] – رواه البخاري في كتاب الطلاق – باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون وأمرهما والغلط والنسيان في الطلاق والشرك وغيره برقم (٤٩٦٨) (٥/٢٠٢٠)، ومسلم في كتاب الإيمان – باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر برقم (١٢٧) (١/١١٦).

[4] – رواه البخاري في كتاب الرقاق – باب من نوقش الحساب عذب برقم (٦١٧١) (٥/٢٣٩٤)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها – باب إثبات الحساب برقم (٢٨٧٦) (٤/٢٢٠٤).

تسول لهم أنفسهم التلاعب بالشهادة، نبههم الله إلى أنه يعلم ما في النفوس، وما تنطوي عليه الضمائر، وأنه سيحاسبهم على ما يختلج في نفوسهم وصدورهم، قاله جماعة من السلف، ونقله ابن جرير في أحد المواضع عند كلامه على الآية.

وقيل: إن ذلك مختص بعمل، وهو ما يتصل بالكفر والنفاق والريب؛ لأن هذا الأمر إذا وقع في النفوس، شك العبد في وحدانية الله -عز وجل-، والله يحاسب الإنسان على هذه العقائد والريب والشكوك التي تقع في التوحيد والإيمان وما أشبه ذلك، وهي من أسباب العقوبة والخلود في النار.

وقيل: إن ذلك مختص بطائفة، وهو يرجع إلى القول الذي قبله، قالوا: هذه في المنافقين والكفار، وأما أهل الإيمان فيغفر الله -عز وجل- لهم، باعتبار أن حديث النفس عند أهل الإيمان ليس فيه نفاق ولا كفر، فيغفر لمن يشاء، يعني من أهل الإيمان.

لكن من المقرر أن الأشياء التي يخفيها العبد في نفسه هي أنواع: منها ما يتعلق بالإيمان، ومنها ما يتعلق بالشك، ومنها ما يتعلق بالنفاق، وأيضاً بالكفر، وكذا كتمان الشهادة، إلى غير ذلك من المعاني التي تنطوي عليها النفوس، ولاشك أن قدراً مما تنطوي عليه النفوس يؤاخذ به العبد، وقدراً يعفو الله عنه ويتجاوز، كحديث النفس، والخواطر التي ترد على الإنسان فيدفعها؛ لأنه لا حيلة له فيها، وقد مر بنا قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل))، ولذا فليس من الصواب القول بإطلاق: إن ما يختلج في النفوس لا يحاسب عليه الإنسان ولا يعاقب، وإنما في ذلك التفصيل المذكور. والله أعلم.

ولعل الملاحظ أن أمر المحاسبة على ما تنطوي عليه النفوس، جاء بعد الكلام على سعة ملكه سبحانه وإحاطته، بقوله: {لِّلَّه ما فِي السَّمَاوات وَمَا فِي الأَرْضِ} فهو لما أمرهم ونهاهم، وذكر لهم ما يتعلق بكثير من الأحكام، من العِدد وما يتصل بالقضايا المالية من الربا والصدقات وأحكام المداينة، ذكر بعد ذلك تمجده -سبحانه وتعالى- وعظم نفسه، بذكره سعة ملكه وإحاطته، وأنها بلغت مبلغاً جسيماً عظيماً حتى إنه يعلم ما تكنه الضمائر، وتخفيه النفوس، ويحاسب على ذلك، وهذا القدر لا إشكال فيه، والله أعلم.

"روى الأمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: لما نزلت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- {لِّلَّه ما فِي السَّمَاوات وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(٢٨٤) سورة البقرة]، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأتوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم جثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير))، فلما أقر بها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [(٢٨٥) سورة البقرة]،

فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا...} [(٢٨٦) سورة البقرة]، إلى آخره[5]."

يمكن أن يكون هذا النسخ بمعنى بيان ما أجمل في الآية السابقة، ويمكن أن يراد به النسخ الحقيقي وهو رفع الحكم.

"ورواه مسلم فذكر مثله، ولفظه: فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا...} قال: نعم، {رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ} قال: نعم، {وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} قال: نعم".

القول بالنسخ الذي هو رفع الحكم نسب إلى طائفة من الصحابة منهم أبو هريرة وابن مسعود وعائشة -رضي الله عنها-، وجماعة من التابعين مثل ابن سيرين والشعبي وغيرهم، وهم يعرفون أن النسخ ما يدخل الأخبار؛ لأن النسخ في الخبر تكذيب له، فكيف يوجه هذا القول؟

الجواب أن يقال بأن في قوله سبحانه: **{يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ}** أثراً ونتيجة لحكم، فالحكم هو المؤاخذة بما تنطوي عليه النفوس، إذ صار من التكاليف الشرعية التي يخاطب بها المكلف، ووجهت إليه وطالبه الشارع بها، فصار من جملة التكاليف، ثم رفع، فلما رفع الحكم ارتفع الأثر وهو المحاسبة؛ لأن المحاسبة كانت نتيجة لخطاب وتكليف شرعي، وبهذا لا يكون الحكم من قبيل نسخ الخبر، لكن أحسن منه والله أعلم ما ذكرته آنفاً.

"روى الإمام أحمد عن مجاهد قال: دخلت على ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- فقلت: يا أبا عباس كنت عند ابن عمر فقرأ هذه الآية فبكى، قال: أية آية؟ قلت: {وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ}"

بكاء ابن عمر فيه شبه الدلالة على أن مذهبه في الآية أنها تجرى على ظاهرها وأنه لم يتطرق إليها النسخ.

"قال ابن عباس: إن هذه الآية حين أنزلت غمت أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- غماً شديداً، وغاظتهم غيظاً شديداً، وقالوا: يا رسول الله هلكنا إنا كنا نؤاخذ بما تكلمنا وبما نعمل، فأما قلوبنا فليست بأيدينا، فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((قولوا: سمعنا وأطعنا)). فقالوا: سمعنا وأطعنا، قال: فنسختها هذه الآية {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ} إلى {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} [(٢٨٦) سورة البقرة]، فتجوّز لهم عن حديث النفس، وأُخذوا بالأعمال.

وقد روى الجماعة في كتبهم الستة عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل)).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((قال الله: إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها،

---

[5] - رواه مسلم في كتاب الإيمان - باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق برقم (١٢٥) (١/١١٥)، ورواه أحمد في مسنده برقم (٩٣٣٣) (٢/٤١٢).

فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشراً))[6]".

فلو عزم على السيئة العزم المصمم وعجز، فإنه يلحقه الإثم ويحاسب، ودليله حديث أبي كبشة الأنماري قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر: وفيه ((ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً، فهو يخبط في ماله ينفقه في غير حقه، ورجل لم يؤته الله علماً ولا مالاً، فهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل))، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((فهما في الوزر سواء))[7]، وحديث ((القاتل والمقتول في النار، قالوا: هذا القاتل فما بال المقتول؟!، قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه))[8]، فالعزم المصمم ينزل منزلة الفعل، فيدخل تحت قوله سبحانه: {وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ}.

"{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [(٢٨٦) سورة البقرة].

ذكر الأحاديث الواردة في فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما، روى البخاري عن ابن مسعود –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه))[9].

وقد أخرجه بقية الجماعة مثله، وهو في الصحيحين من طرق متعددة، وهكذا رواه أحمد بن حنبل".

تعددت أقوال أهل العلم في توجيه قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((كفتاه))، ولعل الأقرب أنه يحمل على إطلاقه وعمومه، من الكفاية بمعنى أن الله يحفظه ويحوطه، فلا يصل إليه مكروه لا من الجن ولا من الإنس، ولا من الهوام، أو السباع، أو غير ذلك، فيقيه الله –عز وجل– شر جميع المخاوف، ومن أهل العلم من يفسر الكفاية ببعض هذه المعاني، ومنهم من يفسره بالكفاية يعني من قيام الليل، أو قراءة القرآن، أو نحو ذلك، والله أعلم.

"وروى مسلم عن عبد الله –رضي الله تعالى عنه– قال: لما أسري برسول الله –صلى الله عليه وسلم–، انتُهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يُعرَج به من الأرض، فيُقبَض منها، وإليها ينتهي ما يُهبَط به من فوقها فيُقبَض منها".

---

[6] – رواه البخاري في كتاب الرقاق – باب من هم بحسنة أو بسيئة (٦١٢٦) (٥/٢٣٨٠)، ومسلم في كتاب الإيمان – باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب برقم (١٢٨) (١/١١٧).

[7] – رواه ابن ماجه برقم (٤٢٢٨) (٢/١٤١٣)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه برقم (٤٢٢٨).

[8] – رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة – باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما برقم (٢٨٨٨) (٤/٢٢١٣)

[9] – رواه البخاري في كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة برقم (٨٠٧) (١/٥٥٤).

وجاء في حديث أنس -رضي الله عنه- أنها في السماء السابعة وعليه الأكثر، ويمكن الجمع بين الروايتين بالقول بأن أصلها في السادسة، وأن معظمها في السماء السابعة، فهذا قول في التوجيه، ويمكن الترجيح بأنها في السابعة، وهذا اختاره جمع من أهل العلم كثير، والله أعلم.

"قال: {إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى} [(١٦) سورة النجم]، قال: فراشٌ من ذهب، قال: أعطي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المُقْحِماتُ"[10].

وقد تقدم في فضائل الفاتحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: بينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعنده جبريل -عليه السلام-، إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته"[11]. رواه مسلم والنسائي وهذا لفظه".

المقحمات: هي الذنوب العظام التي تقحم صاحبها في النار، وهذه الرواية وإن كانت من نصوص الرجاء، إلا أن المنهج الصحيح أن لا تؤخذ بمفردها؛ لأنه لابد من اقتران الخوف والرجاء في قلب المؤمن حتى يكونا كجناحي الطائر؛ لئلا يفضي به الرجاء إلى الأمن من مكر الله، أو يفضي به الخوف إلى القنوط من رحمة الله، واليأس من روحه، وإلا فمن نظر إلى أحد النصوص دون غيرها قد يئول به الأمر إلى الانحراف في النظر، وتجد تطبيقات هذه النظرة الأحادية وأثرها السيئ في كثير من القضايا، فمثلاً: الذين يتكلمون عن الإسلام، منهم من أخذ نوعاً معيناً من النصوص وقال: هذا هو الإسلام، وقابلهم آخرون فأخذوا نصوصاً أخرى وقالوا: هذا هو الإسلام، وهذا غاية السقم في الرؤية، وهكذا في قضايا المنهج فريق نظر إلى نصوص التيسير وحكمها، وفريق غلب النصوص الأخرى واعتمد عليها، ولن يسلك العبد الصراط السوي والمنهج المستقيم، إلا إذا استوعب جميع النصوص في مسألته، والله أعلم.

مسألة: وردت روايتان ظاهرهما التعارض كلاهما عند مسلم، الأولى: عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: بينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعنده جبريل -عليه السلام- إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، وذكر فيه "أبشر بنورين قد أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة...، والثانية: عن عبد الله -رضي الله عنه- قال: " لما أسري برسول الله -صلى الله عليه وسلم-... وفيه "أعطي ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة،..." فيكف الجمع بين الروايتين؟ يذكر العلماء -رحمهم الله- أن من القرآن ما هو سمائي، ومنه ما هو أرضي، ومنه ما نزل بين السماء والأرض، ولعل مكان النزول في الروايتين من هذا الأخير -أي ما نزل بين السماء والأرض-، لكن الحديثين وإن لم

---

[10] - رواه مسلم في كتاب الإيمان - باب في ذكر سدرت المنتهى برقم (١٧٣) (١/١٥٧).

[11] - رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة برقم (٨٠٦) (١/٥٥٤)، والنسائي برقم (٩١٢) (٢/١٣٨).

يدلا على ذلك دلالة قطعية، إلا أنه يستدل بهما على شرف ومنزلة وعظم هاتين الآيتين، وأما أمر مكان نزولهما فلا يعنينا كثيراً.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١٢٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة: "ثم أخبر عن الجميع فقال: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ} [(٢٨٥) سورة البقرة]، فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره ولا رب سواه، ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نسخ الجميع بشرع محمد -صلى الله عليه وسلم- خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فما ذكره ابن كثير -رحمه الله- من التفسير يجري على القراءتين في الآية **{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ}**، وقراءة حمزة والكسائي **{وكتابه}**، فالله -عز وجل- لما ذكر الإيمان أولاً بما أنزل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو الكتاب الذي أنزله إليه مصدقاً لما بين يديه، إضافةً إلى سائر ما أوحى الله -عز وجل- إلى رسوله -عليه الصلاة والسلام- قال بعده: **{كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ}** وعلى القراءة الأخرى **{وكتابه}**، فالكتاب جنس يصدق على الواحد والكثير.

"وقوله: {وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} أي سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه، وقمنا به، وامتثلنا العمل بمقتضاه".

حمل ابن كثير -رحمه الله- السماع في هذا المقطع من الآية على معنيين:

الأول: السماع، أي سمعنا بآذاننا.

الثاني: القبول والامتثال بقلوبنا وجوارحنا، ولذلك اليهود لما قالوا سمعنا وعصينا، أرادوا أنهم سمعوا بآذانهم إلا أنهم لم ينقادوا أو يمتثلوا بقلوبهم وجوارحهم.

"{غُفْرَانَكَ رَبَّنَا} سؤال للغفر والرحمة واللطف".

غفران مصدر يأتي بمعنى ستر الذنوب، ويأتي بمعنى الوقاية من شؤمها فلا يؤاخذ الإنسان بها.

"وقوله: {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [(٢٨٦) سورة البقرة] أي لا يكلف أحداً فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه، ورأفته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هي الناسخة الرافعة لمَا كان أشفق منه الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- أجمعين في قوله: {وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ} [(٢٨٤) سورة البقرة] أي هو وإن حاسب وسأل لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما ما لا يمكن دفعه من وسوسة النفس وحديثها فهذا لا يكلف به الإنسان، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان".

هذا تصريح من ابن كثير –رحمه الله– بأن الآية منسوخة، وهو يقصد النسخ عند المتأخرين الذي يراد به رفع الحكم المتقدم بالحكم المتأخر، لا النسخ عند المتقدمين كبيان المجمل وتخصيص العام وتقييد المطلق، ولكن ليس رفع التكليف فيما يتعلق بحديث النفس منسوخاً كله قطعاً؛ لأن ما يخفيه الإنسان من الشرك والريب والنفاق أو كتمان الشهادة ونحو ذلك، يحاسَب عليه ولا يشمله النسخ في الآية، ومع هذا فلو أمكن حمل الآية على معنىً صحيح من غير تكلف في هذا الموضع لكان حسناً؛ لأن دعوى النسخ لا تثبت بالاحتمال، ولابد فيه من دليل مرجح يجب الرجوع إليه، ولا دليل، والله أعلم.

"وقوله: {لَهَا مَا كَسَبَتْ} أي من خير، {وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} أي من شر، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف، ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله وقد تكفل لهم بالإجابة، كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا: {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} أي وإن تركنا فرضاً على جهة النسيان أو فعلنا حراماً كذلك، أو أخطأنا أي الصواب في العمل جهلاً منا بوجهه الشرعي.

وقد تقدم في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه– قال: قال الله: نعم، ولحديث ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: قال الله: قد فعلت".

أورد بعض أهل العلم استشكالاً على قوله سبحانه: **{رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}** وهو إذا كانت المؤاخذة بالخطأ والنسيان مرفوعة، فكيف يسألون ربهم ذلك، ألا يعد صنيعهم هذا من صور الاعتداء في الدعاء؟

لذلك ذهب جمع من أهل العلم إلى حمل الخطأ والنسيان في الآية على معنى آخر، وقالوا: إن الخطأ تارةً يكون بعمد، وتارةً يكون من غير عمد، وحملوا المراد من الآية على الخطأ العمد؛ لكونه يؤاخذ الإنسان به، وهناك فرق بين قولك: فلان يخطئ وفلان مخطئ، وكذلك النسيان يأتي بمعنى الذهول، وزوال المعلوم، ويأتي بمعنى الترك كقوله سبحانه: **{نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ}** [(١٩) سورة الحشر]، وقوله سبحانه: **{فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ}** [(٤٤) سورة الأنعام]، وحملوا المعنى في الآية على الترك.

وقال بعضهم: إنه لا حاجة إلي التكلف في تخريج الآية، وحملوها على ظاهرها المتبادر، وهو أن الله –عز وجل– تعبدهم بهذا الدعاء المراد به التخفيف، ورفع الآصار، والتكاليف الشاقة، ولا يكون ذلك إلا بعدم المؤاخذة بما لا يد للإنسان فيه، ورفع ما لا يدخل تحت طوقه، ووضع الأشياء التي لا يحتملها المكلف، وهذا الذي يتناسب مع السياق، فيبقى الخطأ هو الوقوع في المخالفة من غير قصد، والنسيان زوال المعلوم من الذهن، يقول الناظم:

زوال ما علم قل نسيان ... والعلم في السهو له اكتنان

ولذا كان من دعاء أهل الإيمان كما علمهم نبيهم –صلى الله عليه وسلم–: ((اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته))[1] ومعلوم أن النبي–صلى

---

[1] - رواه البخاري في كتاب الأذان – باب الدعاء عند النداء برقم (٥٨٩) (٢٢٢/١).

[3] - رواه مسلم في كتاب الإيمان – باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق برقم (١٢٥) (١١٥/١).

الله عليه وسلم- قد أعطاه ربه الوسيلة والفضيلة، والمقام المحمود، فلماذا الدعاء له وقد أعطيها؟ ونظائر هذا الدعاء في الكتاب والسنة كثيرة.

ويبعد أن يكون المراد أنهم يسألون الله -عز وجل- ألا يؤاخذهم بالذنوب والجرائم التي وقعوا فيها عن عمد؛ لأنه جاء قوله -صلى الله عليه وسلم- عن ربه: قد فعلت، فكيف يحمل الدعاء في الآية على عدم المؤاخذة على ما تعمدوه من القبائح مع أن الله -عز وجل- قد توعد العاصين والمذنبين وخوفهم، والله أعلم.

"وقوله: {رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا} أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها، كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم، التي بعثت نبيك محمداً -صلى الله عليه وسلم- نبي الرحمة، بوضعه في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيفي السهل السمح.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة-رضي الله عنه- عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- قال: ((قال الله: نعم))[٣].

وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((قال الله: قد فعلت))[٥]".

أصل الإصر في كلام العرب هو: الحمل الثقيل الذي يحبس صاحبه مكانه لثقله، ثم أطلق على التكاليف الشاقة، والمعنى لا تكلفنا تكليفاً شاقاً يثقلنا ويرهقنا، وقد نعجز عن القيام به وحمله، ومن أهل العلم من يفسر الإصر بالعهد، كما جاء في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي}** [(٨١) سورة آل عمران] أي عهدي، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري، ولا منافاة بين المعنيين؛ لأن العهود التي أخذها الله -عز وجل- على بني إسرائيل لم يقوموا بكثير منها، فيكون المعنى لا تكلفنا عهداً ثقيلاً شاقاً نعجز عن القيام به، والله أعلم.

"وجاء الحديث من طرق عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((بعثت بالحنيفية السمحة))[٦].

وقوله: {رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ} أي من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبتلينا بما لا قبل لنا به.

وقد قال مكحول في قوله: {رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ} قال: الغربة والغُلْمَة، رواه ابن أبي حاتم، قال الله: نعم، وفي الحديث الآخر قال الله: قد فعلت".

تفسيره بالعُزْبة هو الأقرب والأنسب، والمغتلم: هو من بلغت به الشهوة غايتها، وهذا من قبيل التفسير بالمثال، وقد عهد من طريقة السلف -رضي الله عنهم- أنهم يذكرون بعض المعاني التي تدخل تحت الآية، ويقصدون بذلك التوضيح والتقريب للسامعين فقط لا الحصر، وإلا فالأمور الشاقة كثيرة جداً، فهؤلاء التجئوا إلى ربهم أن لا يكلفهم ما كلف به الأمم السابقة، فاليهود حينما تابوا توبتهم العظيمة المعروفة في التاريخ من عبادتهم للعجل، قال الله -عز وجل- لهم: **{فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}** [(٥٤) سورة

---

[5] - رواه مسلم في كتاب الإيمان - باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق برقم (١٢٦) (١/١١٦).

[6] - رواه أحمد في مسنده برقم (٢٢٣٤٥) (٥/٢٦٦)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٦٠٨٦).

البقرة] فأمرهم الله –عز وجل– بقتل النفوس، بمعنى أن الواحد يقتل أباه وأخاه وقريبه، ولاشك أن هذا في غاية المشقة، وكان الواحد منهم إذا أصابته النجاسة قرض ذلك الموضع ولا يكتفي بالغسل، إلى غير هذا.

يقول في القاموس: غَلِمَ كفرِحَ، غَلَماً وغُلْمَةً بالضم، واغتَلَم: غُلِبَ شهوةً، وهو غَلِمٌ وغِلِّيمٌ ككتَف وسِكِّيت ومِنديل، وهي غَلِمة، ومُغتلِمة، وغِلِّيمة، ومِغْلِيمة، ومِغْلِيم، وغِلِّيم، وأغلمه الشيء، قال: والغُلْمَة: شهوة الضِّراب.

الغُلْمَة: هي شهوة..، لكنها ليست مطلق الشهوة، وإنما هي غاية الشهوة، ولذلك ذكرها بعض المفسرين من الأمور التي لا يطيقها المرء، وهذا يدل على البلاء الشديد لمن ابتلاه الله بها، فكيف إذا كان الإنسان قد تطلب البلاء بنظره وسمعه وخلطته، حتى أفضى به إلى ذلك، وقد قيل: من عرض نفسه للفتنة أولاً لم ينجُ منها آخراً إلا أن يشاء الله، والله أعلم.

"وقوله: {وَاعْفُ عَنَّا} أي فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا، {وَاغْفِرْ لَنَا} أي فيما بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة، {وَارْحَمْنَآ} أي فيما يستقبل، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره، وقد تقدم في الحديث أن الله قال: نعم، وفي الحديث الآخر قال الله: قد فعلت".

هذا التفسير لهذه الدعوات الثلاث، بناءً على أصلٍ قصده ابن كثير –رحمه الله–، وهو أن التأسيس مقدم على التوكيد، فأراد أن يحمل كل دعوة على معنىً جديد، ولكن العفو معناه محو أثر الذنب، والغَفْر هو الستر والوقاية، والوقاية من شؤم الذنب هو بمعنى العفو الذي قبله، ففسر الثانية بالستر لأن المعنى الثاني منها قد مضى في الذي قبله، وهذه طريقة صحيحة في التفسير.

والرحمة ليست فقط فيما يستقبل، لكنه قال: فيما يستقبل بناءً على أن الرحمة فيما مضى بالتجاوز، والحقيقة أن الرحمة بالتجاوز تحتاج أكثر من هذا، فإذا رحم الله –عز وجل– ضعفهم وعجزهم وفّاهم أجورهم، وزادهم من فضله، ورفع درجاتهم، ولم يكلفهم تكليفاً يشق عليهم، وكل هذا من رحمته –سبحانه وتعالى–، فالرحمة لا تقتصر على جانب الإساءة بالغَفْر والستر والتجاوز، بل تشمل كل ما يكون في جانب الإحسان من سائر الأمور، فالدعاء بالرحمة يشمل هذه المعاني جميعاً، والله أعلم.

"وقوله: {أَنتَ مَوْلاَنَا} أي أنت ولينا وناصرنا، وعليك تَوكُّلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك.

{فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} أي الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة.

قال الله: نعم، وفي الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: قال الله: قد فعلت.

وروى ابن جرير عن أبي إسحاق: أن معاذاً –رضي الله تعالى عنه– كان إذا فرغ من هذه السورة {فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} قال: آمين".

الآية تشمل أنواع الكفر عموماً، كالإعراض، والشك، وكذا مقارفة الأعمال التي توجب الخروج من الملة، وابن كثير اقتصر في تفسير الكفر بالجحود في الآية؛ ولعل مرد ذلك إلى أنه من أشهر معانيه، إذ أصل هذه اللفظة من الستر والتغطية، وذلك لاشك أنه يدل على الجحود دلالة أصلية أو أولية، لكنه لا يختص به شرعاً.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وآله وصحبه.